

بين

في
تاريخ مصر القديم والحديث

للمؤلف

ميخائيل شاروويم بك

رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية سابقا

والمفتش بقطارة المالية الجبلية حالا

عفى عنه

الجزء الرابع

(حقوق الطبع محفوظة)

(الطبعة الاولى)

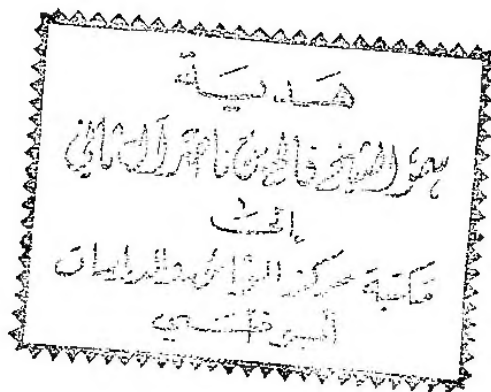
بالمطبعة الكبرى الأميرية بيولاك مصر المحمية

سنة ١٩٠٠ ~ سنة ١٣١٨

هجريه

ميلاديه

(القسم الادبي)





بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى

(في ترجمته محمد علي باشا)

هو محمد علي بن ابراهيم ولد في بلدة قاوله التابعة للروم ابلى سنة اثنتين وثمانين ومائة
وألف هجرية أى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة وألف ميلادية وكان أبوه من صغار مقدمى
العسكر وقيل انه كان شيخ خفراء البلد وهو الصحيح ولما بلغ محمد علي الرابعة من عمره مات
أبوه فتولى حضنته عمه طوسون فأقام عنده ماشاء الله ثم جاء مرسوم السلطان الى والى
قاوله بقتل طوسون المذكور فقتل وكان محمد علي الى هذا الحين لم يبلغ أشده فأخذه أحد
أعيان البلد واسمه براواسطه فأقام عنده حقيرا مهانا وكان كلما شب شبت معه
الاحزان وظل على هذا الحال حينما حتى ضاقت نفسه وتافت الى الاسفار في طلب الرزق
فسار في أرض الله الواسعة الفضاء وأجهد النفس في تحمل الجوع والعناء فقاسى من
الشدائد ما لا يحتمل * ومما حكاه عن نفسه أنه قال كنت أغنى أن الله سبحانه وتعالى
يدفع عني هذه الشدائد ويرجئني مما ألقيه من الضنك والذل فكنت أجهد النفس في طلب
العيش على قدر الحاجة وكان يمر بي اليوم واليومان أطوى الأرض سائرا على أقدامى
لا أذوق مناما ولا أسمع طعاما وكانت الأرض وطاني والسماء غطاني وانفق أنى سافرت
على ظهر مركب أريد أرض الله الواسعة في طلب العيش فخرجت ريح شديدة فارتفعت
الامواج وعلت وأزبد البحر وهاج وألقى مركبنا على الصخور فتخطمت وغرق كل من فيها
فتركني رفاقي وطلعوا الى بعض الجزائر القريبة وبقيت أنا عرضة للأمواج تعالوبى تارة

وتهبط بي أخرى وتستقبلني الصخور فتدق عظمي وتدعى جسدي حتى يسر الله لي الوصول
إلى تلك الجزيرة سالما وقد صارت اليوم من بعض أملاك فسبحان المعطي بغير حساب
اه قوله وما زال على هذا الحال من قلة ذات اليد وضيق العيش حتى بلغ الثامنة
عشرة من العمر فدخل في خدمة العسكرية وظهرت عليه علامات الشهامة وشدة البأس
فقيده والي بجباية الأموال وجمع الخراج ومال اليه وأحبه وولاه رتبة البكاشية قال
بعض الكتاب وقد زوجه إحدى قريباته وقيل غير ذلك فولدت له خسا من بنين وبنات وهم
إبراهيم وطوسون وإسماعيل وزهره وزينب فلما كبرت عائلته وقبل ماله ترك خدمة
العسكرية واتخذ له حافونا يبيع فيه التبغ **(الدخان)** فيسر الله له الحال وبسط له في الرزق
وكانت قد بلغت منه الشجاعة مبلغا عظيما فكان إذا تعذر على والي القبض على جان
سير اليه محمد علي فيأتي به صاغرا فهابه الناس جدا وأجله رفاقه وشهدوا له بالبسالة
وعلو الهمة ولبث على هذا الحال حينما فلما أغار بونا بارتة بجيوش الفرنسيين على ديار
مصر وكبر ذلك على السلطان سليم جيش لقتاله الجيوش وأعد المعدات وأرسل إلى والي
مقدونية في طلب النجدة فبعث إلى مقدونية إلى برا واسطه وكان قد تولى على ولاية
قاوله بأن يجهز لقتال الفرنسيين مائة مقاتل فجهزهم وجعل مقدمهم ولده عليا ورسم لمحمد
علي بأن يكون في ركابه وجاءهم حسن باشا أمير سفن الدولة بسفينة فركبوها فسارت بهم
إلى أبي قير وأنزلتهم هنالك فقاتلهم الفرنسيين قتالا عنيفا وظفروا بهم فخاف على المذكور
ورجع بالذي بقي معه من عسكره وأقام محمد علي في نفر قليل من مال إلى البقاء معه
فأعجب حسن باشا فعسله وقلده رتبة البكاشية على من كان معه من العساكر وضم اليه
طائفة أخرى فسار بهم مع العمار الانجليزية والجيوش العثمانية التي جاءت مع يوسف باشا
الصدر الأعظم لقتال الفرنسيين فأبلى محمد علي في قتالهم بلاء حسنا ولما استقر بهم المقام
بالقاهرة بعد جلاء الفرنسيين عنها قاتل الأمراء المصريين وكانت له معهم وقائع مذكورة
واتفق أن حضر بعيد ذلك خسرو باشا أحد كبار عسكر السلطان لقتال الأمراء المصريين
والمماليك وقطع شأفة من بقي منهم وانقاذ البلاد من أيديهم ف وقعت بينه وبين محمد علي
مناظرات كثيرة واشتدت الوحشة بينهما وكبرت حتى كاد خسرو باشا ينفصل ويسقط
في يده ثم عاد فتمكن من نكاية محمد علي وسد عليه مسالك التقدم وقفل دونه أبواب الفلاح
وجعل يراقب أموره ويرصد أعماله فخافه محمد علي وخشى العاقبة وجعل يستميل اليه
طوائف الأرناؤط ويتزلف حتى مالوا اليه وأحبوه فاستوثق لنفسه فولوه وظيفة **(فاني)**
بولك باشي وهي في عرفهم رتبة حرس السراي فهابه خسرو باشا وعاد إلى مسأرة وأدناه
منه وقربه من مجلسه وبقي على ذلك حينما ثم ولاه منصب **(سرجشمه)** ولعلها مقدم أربعة
آلاف فظهر من هذا الحين طالع نجمه وعلت كلمته ومال اليه الناس وتعلقت به آمال
العسكر لاسيما طوائف الأرناؤط فحضعوا له وأطاعوا أمره وعملوا بأشارته فقيده خسرو

باشا وتحذر منه ونحشى عاقبة ظهوره فلما عصى الامراء المصريون وخرجوا على خسرو باشا
 وانحدر الى القاهرة من كان منهم بالصعيد الاعلى سير لقتالهم عسكرا من العثمانيين ورسم الى
 محمد علي بالخروج في جنده لنجدة العساكر السلطانية فخرج كارها فلما احتدمت نار القتال
 بين الفريقين تأخر محمد علي عن نجدة العثمانيين وخذلهم فاتصر عليهم الامراء المصريون
 نصرة عظيمة وأعمالوا فيهم القتل والتشريد وجاء مقدم العساكر العثمانية يشكو مما فعله
 محمد علي فشق فعله على خسرو باشا وأكبره ورسم بقتله وحرر فرمانا بذلك واستدعاه
 ليلة الى قلعة الجبل فأحس بالمكيدة وعلم بما وراء صعوده الى القلعة في تلك الليلة فتمارض
 وأصبح وقد ثار الجند يطالبون بالتأخر من جساكهم وعسوفاتهم فتعزبوا وشددوا في الطلب
 وركبوا على خسرو باشا وقتلوه فانهمزم وفر الى دمياط في نفر من أتباعه فأقاموا في
 الولاية بعده أحمد طاهر باشا وهو من مقدمي عسكر الأرنؤوط فلم تكن الأيام قلائل حتى قام
 عليه جماعة الانكشارية وقتلوه فقامت بعد قتله الفتنة وعم الاختلال واشتدت الخطوب
 وكثر السلب والنهب وهتك النساء في الشوارع والطرق واشتد الامر شدة بالغة
 ووقع من الحوادث ما هو بك بيان في محله مفصلا فكان لمحمد علي في اضرام نار هذه
 الفتنة اليد الطولى وأعانه على جميع ذلك الشيخ الشرفاوى والسيد عمر نقيب الاشراف وخلا
 لمحمد علي الجؤموت طاهر باشا وصارت جميع الجند من الارنؤوط طوع أمره فلما آنس
 منهم كمال الطاعة عمل على استمالة من كان بالقاهرة من كبار المشايخ والعلماء وأرباب
 الوظائف العالية فانحازوا اليه ولبوا دعوته وتقدموا الى دار السلطنة العثمانية في طلب
 توليته على ديار مصر وكان السلطان قد رسم بولايته على جده كما أشرنا الى ذلك بقصد ابعاده
 عن ديار مصر وتزيق شمل أصحابه فقد كان هو وأصحابه أشد خطرا على الدولة من جماعة
 الامراء المصريين فلم يتجهل بالسفر وتقايس وأظهر الاهتمام بجمع الزاد والذخيرة واحتياجات
 العسكر وكان المشايخ والعلماء في خلال هذه الفترة يكثرون من الالتحاق على دار السلطنة
 بطلب تقليده الولاية على مصر ويرفعون اليه القصص ويشكون مما يلاقونه من الجور
 والعسف وقد أضرمو نار الفتنة بمصر والقاهرة وأناروا العامة أباما فخرجوا على أحمد باشا
 خورشيد عامل الدولة يومئذ على ديار مصر وحاصروه بقلعة الجبل فكان بينه وبين الجند
 والعامة وقائع وحروب هائلة قد مر بك بيانها في محلها * وطالت أيام الفتنة والرسل تتردد
 ما بين دار السلطنة ومصر والحرب واقتتل والنهب قائمة على ساق حتى جاء الفرمان بولاية
 محمد علي اعتبارا من العشرين من ربيع الاول سنة عشرين ومائتين وألف هجرية ولم
 يستقر به المنصب الا في يوم الثلاثاء ثالث جادى الاولى سنة عشرين لفتح أحمد باشا بقلعة
 الجبل وعدم اعترافه بصحة ولاية محمد علي باشا حتى وفد عليه رسول الدولة برسوم السلطان
 يأمره فيه بترك قلعة الجبل والجلالة عنها الى الاسكندرية فنزل وسار الى الاسكندرية على
 ما تقدم بك بيانه

(فصل — ل)

(فيما وقع في أيامه من الحوادث والانباء الى ولاية ولده الامير ابراهيم)

ولما استقرت الولاية بمحمد علي باشا جعل يتصرف في الامور ويعمل على تعزيز سلطانه وتأييد مقامه باسترضاء الجند وصرف المتأخر من جساكهم فضرب على قبط مصر قرضا وقسمه على كبرائهم فكان ذلك أول فرض أحدثه بعد ولايته وكان عظيما للغاية وبث الاعوان لقبضه فعاثوا وفعلوا مالا خيرا فيه ثم قبض على المعلم جرجس الجوهري معلم مصر يومئذ وصاحب خراجها وعلى جماعة من عظماء القبط وسجنهم ببيت ككتخدا وطلب من المعلم جرجس حسابه عن سنة خمس عشرة ومائتين واستقدم المعلم غالى وكان يومئذ كاتب الالقى بالصعيد وأقامه بدله وضيق على المعلم جرجس وشدد في طلب الحساب وفرض عليه مبلغا عظيما من المال فباع ما كان عنده من أثاث وستاع ووفى بعض ما طوّل به فلم يحل عنه وبقي معتقلا أياما والطلب على أهل البلاد بما فرض عليهم مترادف ففسد الامراء المصريون محمد علي باشا على ما وصل اليه من علق الكلمة واتساع الشهرة وحقدوا عليه واستصغروا قدره وناووه نخافهم وخشى عاقبة أمرهم واهتم لقتالهم وشدد في طلب الاموال وفي جمع الخراج وبث أصحاب الجباية بخفايا البلاد شرقا وغربا ونزلوا على القرى وجعوا منها ما قدروا على جمعه ثم أخذ في تدبير أمور العسكر وصرف الجاكي والعلوفات المتأخرة لهم وأكثر من جمع الاسلحة ومعدات الحرب وسير الى زعماء الامراء المصريين الذين كانوا بالاقليم القبلية والبحرية يدعوهم الى ترك القتال والعود الى طاعة السلطان فشطوا في الطلب وبالغوا فلم يقدر على القيام بمطالبهم فلما علموا بعجزه انحدروا بخيلهم ورجلهم الى الجيزة وضربوا على أهلها الكلف والمعلوم وانضم اليهم من كان بها من لومهم وأتباعهم وسار جماعة منهم الى ناحية المذبح وكسروا باب الحسينية ودخلوا من باب الفتوح وهم في ضجة وجلبة عظيمة وخلفهم طبول ونقافير وجمال وأجمال وساروا من بين القصرين حتى جاؤا الاشرفية فاندش الناس من دخولهم المدينة على هذه الحال وما زالوا حتى وصلوا الى عطفة الخراطين فافترقوا الى فرقتين ودخل جماعة منهم وبأيديهم البنادق والسيوف ومروا بالجامع الأزهر الى بيت السيد عمر النقيب والشيخ الشرفاوى فامتنع السيد عمر من لقائهم فدخلوا الى بيت الشيخ الشرفاوى وأتى اليهم السيد عمر فطلبوا منه النجدة وخروج العامة معهم لقتال محمد علي باشا فامتنع فألحوا عليه فلم يقبل وهددهم فركبوا وخرجوا من باب البرقية وكان قد وصل خبرهم الى محمد علي باشا فأرسل في أثرهم حسن بين الارنؤطى في عدة وافرة من المشاة فلم يلحق بهم * أما الطريق الثاني منه فانه جعل يتقدم حتى وصل الى باب زويلة وسار قليلا

الى جهة الدرب الأحمر فأنعمه العسكر المرابطون هناك وأطلقوا عليهم البنادق فرجعوا
 القهقري الى جهة باب زويلة وهموا بالدخول الى جامع المؤيد والتحصن به فأنعمهم المغاربة
 الساكنون هناك وأطلق عليهم المرابطون نيرانهم فقتلوا منهم وجرحوا وقوى جاش المرابطين
 بجهة الدرب الأحمر عند سماعهم أصوات البنادق وتنبه غيبرهم أيضا فاجتمعوا لمعاونة
 بعضهم فلما شاهد الامراء المصريون ما حل بأصحابهم من تساقط النيران عليهم من كل
 صوب وحسب ولوا الفرار فتبعهم العسكر بضربون في أفقيتهم فلم يزالوا في سيرهم الى
 النحاسين وقد أغلق الناس بوابة الكعكيين وبوابة الخراطين وبوابة البندقانيين فانقلبوا
 الى ما بين القصرين فلاقاهم فريق من عسكر محمد علي باشا وأطلقوا عليهم البنادق فوقعوا
 بين نارين فانفشلوا وسقطوا في أيديهم وترجلوا عن خيلهم ودخل منهم جماعة الى
 جامع البروقية وذهب آخرون بخيلهم الى باب النصر فوجدوه مغلقا فنزلوا أيضا عن
 الخيل ودخلوا العطوف وتسوروا الاسوار وتسلقوا الجدران الى خارج باب النصر وتفرق
 منهم جماعة اختفوا في الحارات وبعض الوكايل والبيوت فأحاط العسكر بدخلوا جامع
 البروقية وأحرقوا باب الجامع وقبضوا على من كان به وجردوه من ثيابهم وأخذوا
 ما كان معهم من ذهب ونقود وأسلحة وذبحوا منهم جماعة وأخذوا من بقي مكبلين بالحديد
 وهم في أسوأ حال وساروا بهم الى بيت محمد علي باشا بالازبكية وكان على أهبة الركوب فلما
 ألقوا بين يديه رؤس القتلى سكن جاشه وفرح كثيرا وكان ممن قبض عليه من الامراء
 أحمد بيك تابع البرديسي أمير دمياط وحسن شبكة وآخرون فلما مثل أحمد بيك بين يدي
 محمد علي باشا قال له أولم تدري يا أحمد عاقبة الخروج فقال أعطوني ماء فأمر محمد علي باشا
 ففكوا قيوده وأتوه بماء ليشرب فنظر حوله وكان على مقربة منه أحد الجند وفي حزامه خنجر
 فخطف الخنجر من حزامه وهم بقتل محمد علي باشا وقد جرح عدة من العسكر فتسكثروا عليه
 وقتلوه ذبحا كذبح الشاة وساقوا الباقي الى الحبوس فكان ذلك آخر العهد بهم * قلت * وكانت
 هذه أول وقعة وقعت بين الامراء المصريين وعسكر محمد علي باشا بعد وصول فرمان
 السلطان بولايته على ديار مصر * وزاد من هذا الحين تحذر محمد علي باشا وأصحابه من
 هجمات الامراء المصريين وسير عابدي بيك في عسكر عظيم لقتالهم فنزل عابدي بيك على
 طرا والتقى مع من كان بها منهم فكان بها ابراهيم بيك الكبير وابنه مرزوق بيك وأصحابهما
 فاقتتلوا قتالا شديدا في البر والبحر وأبلى ابراهيم بيك وأصحابه في هذه الحرب بلاء حسنا
 فانهمز عابدي بيك ومن معه وقتل من عسكره خلق كثير وعاد من بقي الى ناحية الفسطاط
 وقد غرقت بعض سفنهم فتمتوت بذلك عزيمة ابراهيم بيك ونشر جموعه في البلاد فعاثوا
 وأفسدوا وقتلوا ونهبوا وسبوا النساء والاولاد وأحرقوا الكفور والقرى فسير محمد علي باشا
 اثنين من أصحابه الى ابراهيم بيك ليخاطباه في أمر الصلح فلم يجب اليه وشط في الطلب
 * وحضر جماعة من أصحاب الألفي الى جهة سقارة والجيزة وعانوا فيها أيضا وطلبوا منها الكلف

والأموال وبلغ الصائح القاهرة فنادى محمد على باشا بخروج سائر الجند والعسكر فخرجوا مشاة وركبانا وركب معهم محمد على باشا في أبهة وجلالة وعبروا النيل الى الجزيرة ليلًا ولم تطلع الشمس الا وكل أمير قد وقف على أصحابه وجاء الخبر بقرب العدو من محلتهم فزحفوا وبانت طلائع العدو فهجم عليهم عسكر محمد على باشا فانهزموا وولوا الادبار فقتلهم وأعمالوا السيف في أعقيتهم واشتدوا عليهم شدة بالغة * فيمنعهم كذلك اذ خرج عليهم كامن من خلف فوقع بينهم الضرب وجعل أحد مقدمي عسكر محمد على باشا بمن معه على الاعداء فظنوه محمد على فاحاطوا به وأخذوه أسيرا هو ومن معه واشتد القتال بين الفريقين وعلت الضوضاء وكثر الصياح فلم يلبثوا على هذا الحال حتى تفهقر عسكر محمد على باشا ورجع من بقي منهم الى ناحية الفسطاط وترفع المصريون الى ناحية بياض وبني سويف فكانت وقعة من شر الوقائع مات فيها خلق كثير من الفريقين وداست جثثهم سنابل الخيل ولم تكن الا أيام حتى رجع المصريون في أول المحرم سنة احدى وعشرين في جمع كثير من العربان ولوم أهل الحرف ونزلوا بناحية جزيرة الهوء فأزعج حضورهم محمد على باشا ورسم بخروج العسكر فخرجوا لقتالهم واقتتلوا قتالا شديدا فمات من الفريقين خلق وانضم فريق من عسكر الباشا الى العدو وكان المقدم عليهم يومئذ حسن باشا الارنؤطى فأرسل الى محمد على باشا يستجده ويخبره بما وقع فهاله الخبر وأزعجه فجمع جيشا ضخما وسيره بنجدة الى حسن باشا وعين المرابطين بأنبابة وطرا وشدد عليهم في ملازمة المعاقل ونادى في جميع الجند بذلك وأكثر من جمع الاسلحة وآلات الحرب وجاء الى القاهرة كنيرون من الجرحى ونادوا بعدم الخروج الى الاسواق بعد أذان العشاء فكان لذلك النداء أثر مخيف وعاد العامة وأصحاب البيوت الى حمل السلاح والسيور والتحورز وملازمة الازقة نهارا والاسطحة ليلا وسار عابدي بيك بعسكره خلف لموم الأتني الى الفيوم فلم يجد بها أحدا منهم فاحتلها بعسكره ثم ترك بها رباطا وعاد لنجدة أخيه حسن باشا وأقام معه بناحية الرق ولوالت رسائل الاتني الكبير على السيد عمر النقيب بالوساطة بينه وبين محمد على باشا وتقرير قاعدة للصلح فشاور محمد على باشا أصحابه في الأمر فقرروا اقطاع الاتني بلاد الجزيرة من غير عقد ولا عهد ولا كفالة كما طلب وكتبوا له بذلك على يد رسوله الذي حضر بخطابه واحتاج الاتني وأصحابه وهم في انتظار الجواب الى النفقة فطلبوها من أهل برطس وأم دينار ومنية عقبية فامتنعوا عليهم فركبوا وحاربوهم ونهبوا وقتلوا الشيوخ والنساء والاطفال وفعلا ما لاخير فيه ثم تفرقوا في البسلاد وعاثوا ووصلت طلائعهم الى المنوفية ففعلوا بها من القتل والنهب ما لا يوصف وانضم اليهم جماعة من عساكر محمد على باشا فقتلوا شوكتهم وزاد عسفهم فعزم محمد على باشا على الخروج لقتالهم بنفسه وأخذ يتأهب لذلك وأنزل شيا كثيرا من المهمات من قلعة الجبل ونادى مناديه في العسكر بالخروج وضرب للنفقة فرضة على البلاد وقامت الجباة لجمعها فكانت كثيرة جدا ووردت الاخبار بقيام

الالفي وزحفه من جهة الجسر الاسود والطرانة الى ناحية البحيرة فخرج لقناله طائفة من
العساكر فوصل الالفي الى دمنهور فوجدوها ممتنعة فحاصرها فقاتلته قتالا شديدا فسار
عنها قليلا وعسكر على بعد منها ومنع عنها الوارد وطلب حسن باشا المدد من محمد علي
باشا فسيره اليه فقام من بنى سويف الى منية ابن خصيب في جمع كثير وقاتل من كان
بها من الامراء المصريين والعربان وأبلى فيهم بلاء حسنا وسارت طائفة أخرى الى دمنهور
لاجلاء الالفي عنها وظن محمد علي باشا الظفر بأعدائه في هذه الحملة واستبشر الناس بذلك أيضا
وجعلوا يملكون الآمال بقرب زوال هذه الحن والخطوب المتتابعة * فلما كان يوم الثلاثاء رابع
عشر ربيع الآخر سنة احدى وعشرين ومائتين وألف جاء الخبر من حاكم الاسكندرية
بقدم جيش عظيم من العساكر العثمانية على نظام عسكر الفرنسيين ومع هذا الجيش
وال جديد لمصر بدلا من محمد علي باشا اسمه موسى باشا وكان ورود هذا الخبر الى الدفتر دار
أولا فسيره الى السيد عمر النقيب فجاءه السيد عمر وركبا معا الى محمد علي باشا وأعلماه
بالخبر ثم شاع بين الناس وتناقلته الالسنه فبذل الوالى والمحاسب جهد الاستطاعة في اخفاء
الخبر كي لا يصل الى الامراء المصريين فلم يقدر ا وقد سار المبشرون الى الالفي وهو على
سواد البحيرة وأخبروه بوصول سفن الدولة وعليها العسكر المنتظم ففرح وسرورا لا يوصف
وطير الكتب بذلك الى الآفاق فزاد في مصر والقاهرة الهزج وكثر القال والقليل ولبث الناس
على هذه الحال الى يوم الجمعة سابع عشر ربيع الآخر فقدم الى القاهرة رسول من قبل أمير
تلك السفن فسير محمد علي باشا جماعة للقائه وأنزله في بيت الروزنا محي فأقام يوم السبت
والاحد واجتمع بمحمد علي باشا مرات كثيرة ثم سافر يوم الاثنين ولم يعلم أحد بما دار بينهما
من الحديث وجعل محمد علي باشا من هذا الحين يتأهب ويستعد ويكثر من عمل آلان
الحرب ومعدات القتال وجنح الحدادين والتجارين وأرباب الصنائع بقلعة الجبل وجمع
اليه مقدمي العسكر وأصحاب الوظائف العالية تخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة
وتحققوا عصيان محمد علي باشا وخروجه على السلطان وأرسل محمد علي باشا الى السيد عمر
النقيب والخاصة وبعض المشايخ والعلماء فأخبرهم بصورة الحال وما ورد له من دار السلطنة
بعزله وولاية موسى باشا قال وسبب ذلك أن الامراء المصريين تقدموا الى الباب العالي في
طلب العفو عنهم وعودهم الى ديارهم بشرط خروج جميع الجند الارنوط وجلائهم عن
البلاد وعليهم القيام بخدمة الدولة والحرمين وإرسال غلالهما ودفع الخزينة وتأمين السابلة
فأجيبوا الى سؤالهم على هذه الشروط وان المشايخ والعلماء يتكفلون بهم ويضمنون عهدهم
بذلك فلما سمع من حضر هذا الكلام سكنوا جميعا ولم ينطقوا بمنت شفة ثم انصرفوا
واشتدت عزيمته محمد علي باشا وقوى مع ذلك جأشه فبالغ في الاستعداد والاكتدار
من آلات الحرب والتطواف في الشوارع والصعود والنزول من قلعة الجبل ثم جمع العلماء
والمشايخ والسيد عمر النقيب وبعض أخصائه ثمانية ومعهم ديوان أفندي وتكلموا في ذلك

الامر طويلا فاتفقوا على أن يرفعوا إلى الباب العالي قصة ينكرون عليه فيها ما يراد فعله من خلع محمد علي باشا وتولية موسى باشا فكتبوا يقولون ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ الرؤف الحليم الحمد لله ذي الجلالة على جميع الشؤون والاحوال نرفع اليك أكما من بحر جودك مغتفره ونوجهه الى كعبة فضلك بقلوب بخالص الوجدانية معترفه أن يديم بهجة الزمان ورونق عنوان اليمن والامان بدوام وزير تخضع لمهابته الرقاب وتدول لهيبته سطوة المهمات الصعاب منتهى آمال المقاصد والوسائل ومحط رطل المطالب من كل سائل حضرة صدر الصدور ومدير مهمات الأمور الصدر الاعظم أدام الله دعائم العز ببقائه وفسح للانام في أيامه محفوفا بعناية الرب الكريم محفوفا بآيات القرآن العظيم آمين * أما بعد رفع المقصد والرجاء ومد سواعد الخضوع والالتجاء فانا ننهي لمسامعكم العلية وشيم أخلاقكم المرضية بأنه قد قدم حضرة الدستور الاكرم والمشير الأنظم مدير مهمات الاسكالات البحرية خادم الدولة العلية الوزير قبطان باشا الى ثغر الاسكندرية فأرسل كخدا البوابين سعيد أغا ومعه الامر الشريف الواجب القبول والتشريف المعنون بالرسم الهمايوني العالي دامت مسراته على تمر الدهور والأعوام والايام والليالي فأوضح مكنونه وأفصح مضمونه أنه قد تطاولت العداوة بين الوزير محمد علي باشا وبين الامراء المصريين فتعطلت مهمات الحرمين الشريفين من غلال ومرتبات وتنظيم أمير الحاج على حكم سوابق العادات والحال أنه ينبغي تقديم ذلك على سائر المطالبات وأن هذا التأخير سببه كثرة العساكر والعلوفات وترتب على ذلك اكامل الرعيصة بالاقاليم المصرية الدمار والاضمحلال وأنهت الامراء المصرية هذه الكيفية لحضرة السدة السنية وانهم يتعهدون بالتزام جميع مرتبات الحرمين الشريفين من غلال وعوائد ومهمات واخراج أمير الحاج على حكم أسلوب المتقدمين مع الامتنال لكامل ما يرد من الاوامر الشريفة الى ولاية الأمور بالديار المصرية وأنهم يقومون في كل سنة بدفع الأموال الأميرية الى خزينة الدولة العلية ان حصل لهم العفو عن جرائمهم الماضية والرضا بدخولهم مصر المحمية والتمسوا من حضرة الدولة قبول ذلك منهم وبلوغهم مأمولهم فأصدرتم لهم الامر الهمايوني للشريف المطاع المنيف بعزل الوزير المشار اليه لتقرر العداوة معه ووجهتم له ولاية سلاطنتك ووجهتم ولاية مصر الى الوزير موسى باشا وقبلتم توبتهم وأن العلماء والوجاهة والرؤساء والوجهاء بالديار المصرية الداعين لحضرة مولانا الخانكاري بلوغ المأمولات المرضية ان تعهدوا بهم وكفلوهم تحصل لهم المساعدة المكينة حكم التماسهم من أعقاب حضرة الدولة العلية فأمركم مطاع وواجب القبول والانباغ غير أننا نلتبس من شيم الاخلاق المرضية والمراحم العلية العفو عن تعهدنا وكفالتنا لهم فان شرط التكفيل قدرته على المكفول ونحن لا قدرة لنا على ذلك لما تقدم من الافعال الشهيرة والاحوال والمنظورات الكثيرة التي منها خيانة المرحوم السيد

على باشا والى مصر سابقا بعد واقعة ميرمران طاهر باشا وقتل الحجاج القادمين من البلاد
الرومية وسلب الأموال بغير أوجه شرعية والصغير لا يسمع كلام الكبير والكبير
لا يستطيع تنفيذ الأمر على الصغير وغير ذلك مما هو معلومنا ومشاهدنا خصوصا ما وقع
في العام الماضي من اقدامهم على مصر الحمية وهجومهم عليها في وقت الفجيرة بخلافهم
عنها حضرة المشار اليه وقتل منهم جماعة كثيرة فكانت وقعة شهيرة فهذا شيء لا ينكر
فنبذ لا يمكننا التكفل والتعهد لاننا لانطلع على ما في السرائر وما هو مستكن في
الضرائر ونرجو عدم المؤاخذه في الامور التي لا قدرة لنا عليها لاننا لا نقدر على دفع
المفسدين والطغاة والمتردين الذين أهلكوا الرعايا ودمروهم فأنتم خلفاء الله على خليفته
وأمنائه على بريته ونحن ممثلون لولاية أموركم في جميع ما هو موافق للشريعة الحميدة
على حكم الأمر من رب البرية في قوله سبحانه وتعالى * يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله
وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فلا تسعنا الخيانة فيما يرضى الله ورسوله فان حصل منهم
خلاف ذلك نكل الأمر فيهم الى مالك الممالك لان أهل مصر قوم ضعاف وقال عليه
الصلاة والسلام أهل مصر الجند الضعيف فما كادهم أحد الا كفاهم الله مؤنته وقال
أيضا وكل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة * ونفيد أيضا حضرة المسامع العلية من
خصوص القرض والسلف التي حصل منها الثقلة للاهالي من حضرة محسوبكم الوزير محمد
على باشا فانه اضطر اليها لاجل اغراء العساكر وتقويتهم على دفع الاشقياء والمفسدين
والطغاة المتردين امتثالا لأوامر الدولة العلية في دفعهم والخروج من حقهم واجتهد
في ذلك غاية الاجتهاد رغبة في حلول أنظار الدولة العلية فالامر مفوض اليكم والمالك أمانة
تحت أيديكم نسأل الله الكريم المنان أن يديم العز والامتنان لسيادة السلطان مع رفعة
تترشح بها في النفوس عظمتها وسطوة تسرى بها في القلوب مهابتها وأن يبقى دولته على
الانام وأن يحسن المبدأ والختام بجاء سيدنا محمد خير البرية وآله وصحبه ذوى المناقب
الوفيه * انتهى بنصه

وكتبوا هذا المحضر نسختين احدهما برسم أمير سفن الحرب الراسية بمينا الاسكندرية
والاخرى برسم السلطان ووقع المشايخ والعلماء عليهما وأرسلا مع مخصوص فلم يصل رسولهم
الى مدينة الاسكندرية الا وقد وصل الى بولاق سلحدار الوزير فتنزل بها في ليلة الاثنين
ثالث عشر ربيع الآخر من السنة ثم حضر الى بيت محمد على باشا وأصبح وقد بعث الى
جميع المشايخ خطابا ومثله الى الشيخ السادات وثالثا الى السيد عمر النقيب من أمير سفن
الحرب وكلها تتضمن الاخبار بعزل محمد على باشا عن ولاية مصر وولايته على سالونيك
واقامة السيد موسى باشا المنفصل عنها بدلا منه وأن يكون الجميع تحت الطاعة والامتثال
للاوامر والاجتهاد في المعاونة ووجوب سفر محمد على باشا عن طريق دمياط ومعه حسن باشا
حاكم جرجا وجميع من كان معهم من الجند بلا مهمل فلما علموا بالامر قاموا جميعا

وركبوا في عصر اليوم واجتمعوا بمحمد علي باشا وتباحثوا في الامر طويلا ثم انصرفوا وفي الغد سير اليهم بصورة عريضة يكتبونها ردا على خطاب أمير تلك السفن فكتبوها وسيروا بها اليه وهي تتضمن الاسترحام وعدم القدرة على كفالة الامراء وطلب منع الضرر الذي لابد وأن يترتب على ارغام العسكر على الخروج بعد الاستيطان وبالغوا في الشكوى وعظموا في البلوى وأخذ محمد علي باشا في الاهبة والاستعداد لقتال الالقي وأمر نخرج العساكر الى بولاق وعبروا النيل الى الجزيرة ونادى في الجند والوجا قلبية بسرعة الخروج وعدم التخلف وأزل كثيرا من المدافع وآلات الحرب ثم عبر هو أيضا النيل الى انبابه واستقدم اليه مشايخ العربان ورتب منهم طائفة لخدمة الجند * فلما وصل الى أمير سفن الحرب خطاب المشايخ والعلماء غضب وكذب الى محمد علي باشا يستعنه على ترك مصر والجللاء عنها الى دمياط قبل فلم يبال محمد علي باشا بذلك ولم يكف عن حشد الجيوش وجمع معدات الحرب حتى تحقق الناس عصيانه فلما كان ثاني عشر جادى الاولى من السنة وردت الاخبار بوصول موسى باشا الوالى الجديد الى مدينة الاسكندرية وحضر الى القاهرة أحد أعوانه بكتاب الى الدفتر داربان يكون قائما مقامه مسئولا عن الاموال وحقوق الخزينة السلطانية فلم يقبل الدفتر دار ذلك وكان الالقي لم يزل بالجزيرة يبعث الى أمير السفن الطرية بالاخبار والهدايا العظيمة وقد أرسل اليه ثلاثين حصانا منها عشرة برخوتها ومن الغنم أربعة آلاف رأس وجملة أبقار وجواميس ومائة جمل محملة بالذخيرة وغير ذلك من المال والسياب والاقشة برسم كبار أتباعه فغضب محمد علي من فعله هذا وخاف عاقبته وعجل في تسمير الجند لقتاله فزلوا تجاه الرجانية فلما أحس الالقي بحضورهم سار اليهم بقومه وقتلهم قتالا عنيفا انجلى عن هزيمة عسكر محمد علي باشا ولم يزلوا في هزيمتهم الى البحر فألقوا بأنفسهم وهرب كخدا محمد علي باشا وظاهر باشا الى ناحية المنوفية وعبروا النيل واستولى الالقي على ما تركوه من سلاح وكراع وكان شيا كثيرا وأرسل بمن أسر منهم الى أمير سفن الحرب وجاءت الاخبار بذلك الى محمد علي باشا فخرج الى انبابه وطاف الوالى وأصحاب الدرك ينادون على العسكر بالخروج ووصل من بقى من عسكر طاهر باشا الى بولاق ومعهم الجرحى والمرضى فنعوا من النزول وسارت بهم السفن الى امبابه وباتوا وأصبحوا وقد عادوا الى بولاق ودخلوا المدينة ثم حضر بعد أيام طاهر باشا الى امبابه وكان قد أرسل اليه محمد علي باشا بعد انهزام جيشه أن لا يعود الى القاهرة وأن يرحل عنه الى رشيد فلم يصل الى رشيد حتى رسم اليه بالرجوع الى الرجانية لاجلاء الالقي عنها فرجع الى الرجانية ومعه بعض الجند فلما التقى الجمعان انهزم عسكر طاهر باشا ورجعوا القهقرى ومازالوا في هزيمتهم ومعهم طاهر باشا حتى وصلوا الى امبابه ورجع الالقي الى حصار دمنهور والتضيق على من كانوا بها وجاءت الاخبار من أمير السفن الى الالقي بالتشديد في قتال من بها حتى يستأنفوا وطال القتال واشتد في جميع الجهات وترددت الرسل بين أمير السفن والالقي

والامراء المقيمين بالصعيد وطالت المخاطبة بينهم وطلب أمير السفن حضور الامراء من
الصعيد الى الاسكندرية لينشاوروا في الامر فلم يحضروا اذ منعهم البرديسي من ذلك لما بينه
وبين الالفي من الشكنا وكان الالفي هو الذي استقدم أمير تلك السفن بسفنه الى مياه
الاسكندرية وعمل على خلع محمد علي باشا بواسطة الانجليز بدون مشورة الامراء المصريين فلما
لم يتحدروا الى الاسكندرية علم أمير السفن ما بينهم من البغضاء والشكنا وما هم عليه من
تفريق الكلمة فتحقق أنهم لا يفعلون وأنه لا يصح له الاستيثاق منهم ولا الاخذ بشورتهم
فنبذهم وأرسل الى محمد علي باشا مكتوب بحبيبه واستودق منه فتعهد له محمد علي باشا
بجميع الالتزامات والتعهدات التي عينها الالفي وكتب بذلك عرضا ووقع عليه من المشايخ
والاحتيارية والوجاقية وأرسله مع ولده ابراهيم وأرسل معه هدية فاخرة للغاية وخيلا
وأقشة هندية وغير ذلك فلما كان العاشر من رجب وصل كنفدا أمير السفن المذكور الى
ساحل بولاق فاطقوا لقدمه عدة مدافع وأرسلوا له في صبح ثاني يوم خيولا صعبة الأمير
طوسون ولد محمد علي باشا فركب في موكب حافل للغاية ثم عقد الديوان وقرئ مرسوم أمير
السفن ببقاء محمد علي باشا على ولاية الديار المصرية وعليه القيام بجميع التعهدات التي
منها خروج الحاج والاستمرار على أداء لوازم الحرمين وإيصال العلائف والغلال لاربابها على
النسق القديم وان لا يدخل في دائرة تصرفه ثغور رشيد ودمياط والاسكندرية بسبل تبقى
ايراداتها من الجمارك حقا للخزينة السلطانية فلما تمت قراءة ذلك المرسوم أطلقوا عدة
مدافع وطاق المبتشرون على بيوت الامراء والاعيان وأقلع الأمير بسفنه الى دار السلطنة
ومعه موسى باشا والأمير وابراهيم ولد محمد علي باشا في يوم السبت خامس شعبان وتفاوت
عزيمة محمد علي باشا فجعل يتأهب لقتال الالفي واجلائه عن دمنهور والرجانية فلم يتم خروج
العسكر لقتاله حتى جاء هو وقومه الى الجيزة وانتشرت لمومه ببلاها فكانت كثيرة جدا
فأسرع محمد علي باشا في اخراج الجند وعبر بهم النيل الى امبابه وسير فرقا منهم الى
الاحصا ص فالتقى بأصحاب الالفي واقتتلوا قتالا عنيفا فتقهقرت عساكر محمد علي باشا
وانحازوا الى الكفور والقري وأصبحوا وقد نودى في عسكر الالفي بالرحيل الى شبراخيت
فساروا في يوم الثلاثاء ثامن عشر القعدة فكافوا عدة كثيرة على نظام وترتيب الفرنسيين
فأعجب محمد علي باشا نظامهم ورأى الالفي قرما عنيدا فأمر ببقاء أصحابه على قدم الدفاع
فلما كان يوم الخميس العشرين من القعدة حضر جماعة من العربان وأخبروا محمد علي
باشا بموت الالفي في يوم وصوله الى شبراخيت نزل به خلط دموي فتقايأ ثم مات من ساعته
ناحية المحرقة على مقربة من دهشور وان محاليكه أجمعوا على أن يؤمروا عليهم شاهين كما
أوصى الالفي عند موته فانفصلت عنهم العربان من طائفة أولاد علي وكذلك تركهم كثير من
العسكر فلم يصدق محمد علي باشا هذا الخبر وشاع فتحدث الناس به وهم بين مصداق
ومكذب وسير محمد علي باشا من يتحقق الخبر فلم تعد رساله حتى جاءه الخبر أيضا بموت عثمان

بيك البرديسي بمنفلوط وموت سليم بيك أبو دياب بيني عدى وكلاهما من كبار الامراء القارين
بالاقليم القبلية وزعماء العصابة ثم عادت رسل محمد علي باشا وأكادوا له موت الالفي فسر
بذلك سرورا لا يوصف وقال لمن كان معه من بطانته يوم وصول هذا الخبر اليه
* اليوم طاب لي ملك مصر فلا خوف علي * وأرسل الى كبار جيش الالفي يخبرهم
في الصلح ويمنهم بالاماني العظيمة فلم يقبلوا الا بما كان يطلبه أسنادهم من المزايا
والاقتطاعات وان يدخل ضمن هذا العهد أيضا جميع الامراء المقيمين بالصعيد وهم ابراهيم
بيك وعثمان بيك حسن تخرج محمد علي باشا بجندة وعبر النيل الى الجيزة وخيم على
مقربة من ساقية مكي وسير من يخبر الامراء المصريين في الصلح وكف القتال واستدعى
ولد الشيخ الامير وولد الشيخ العروسي والسيد محمد الدواخلي وسيرهم سفراء لتقرير
قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة وظل قوم الالفي وعسكره ببلاط الجيزة يعمثون ويفسدون
ويطالبون أهلها بالكف والمغارم وهم يستغيثون وليس من يجيب * وكان الالفي داهية طاغية
حازما حسن السياسة ساكن الجأش واسع التدبير جسورا صبوراً على الخطوب مقداما في
الحروب وكان قد جلبه بعض الخناسين الى مصر فاشتره أحمد جاريش المعروف بالمنجون
فأقام عنده أياماً فلم تعجبه أوصافه اذ كان مما جئنا سقيها فطلب منه أن يبيعه فباعه الى
آخر اسمه سليم أغا الغزوي المعروف بتمورانك فأقام عنده حيناً ثم أهداه الى مراد بيك
فأعطاه بدله ألف اردب من الغلال فسمى من ذلك الحين بالالفي وكان جيلاً حسن الصورة
فأحبته مراد بيك وجعله جوخداره ثم أعتقه وجعله كاشفا للشرقية فظهر أمره وعرفه الناس
وكان صعب المراس قوي الشكيمة وكان له جار اسمه علي أغا التوكل فدخل عنده يوما
وترجاه في أمر فوعده بقضائه ثم أجم عنه فدخل عليه يوما في بيته وعاتبه فغضب الالفي
وأمر خدامه أن يضربوه فضربوه بالنبايت ضرباً مبرها وجعلوه الى بيته فمات في ثلثي
يوم فشكى أهله الالفي الى استاذ مراد بيك فغضب مراد بيك ونفاه الى البحيرة فمات في
قوة ومطوبس وبارتال ورشيد وأكثر من الفساد وضرب على أهل البلاد الكف والمغارم
فشكوه الى مراد بيك فأرسل اليه يتمده ان عاد الى مثل ذلك * واتفق في هذه الاشياء ان
وقع التشاحن بين الامراء المصريين فأبعدوا سليمان بيك الاغا وأخاه ابراهيم بيك ومصطفى
بيك فأرسل اليه مراد بيك أن يرافق سليمان بيك الى الاسكندرية ثم يعود الى القاهرة
ففعل ورجع الى القاهرة فقلدوه صنجقا وذلك في سنة اثنتين وتسعين ومائة وألف هجرية
واشتهر من هذا الحين بالغلظة والخشونة تخافه الناس ونحاشوا بأسه وبخى له دارا رجة
بقيصون واشترى الممالك والحواري وأمر من ممالك الامراء والكشاف قنشا على أخلاق
أسماذهم وتطبعوا بطباعه من التعدي والعسف والفجور والتزم باقطاع فرشوط وغيرها من
بلاد الصعيد ومن الاقليم البحري محلة دمنه ومليج وزوبر وغيرها ولما تولى اماره الشرقية
خافه العربان وقبض على كبارهم وصادرهم في أموالهم وماشيتهم وفرض على مشايخ

القبائل المغارم والجمال ولم يزل على حاله وسطوته الى أن قدم حسن باشا الجزائري الى مصر فخرج الالفي المذكور مع حاشيته وأصحابه الى الصعيد وأقام بها ثم رجعوا في أواخر سنة خمس ومائتين وألف بعد الطاعون وقد لبث بالصعيد نحو الأربع سنوات ولما عاد الى الشرقية شوهد منه بعض السكون والنأى ومالت نفسه الى مطالعة العلوم والنظر في الفلكيات والهندسة وتعلق بالزيجات وأشكال الرسل وأحكام النجوم وقرب اليه أهل العلم بها واقتنى كتباً عظيمة في أنواع العلوم والتاريخ واعتكف ثم عاد الى القاهرة وزل بداره القديمة وترك الامارة وعكف على العلوم واكتفى بما عنده من الاراضي والاقطاعات وابث على هذه الحال حيناً فصغرت منزلته عند قومه وكادوا يحتقرونه فالتزم الاوسط وانتقل الى دار أخرى ثم عاد الى الأكتار من شراء المماليك حتى بلغت ممالكه زهاء الالف عدا من كان منهم في الوظائف الكبيرة وأنشأ داره العظيمة بالازبكية فلما تم بناؤها زينها بالفرش وأنواع البسط الفاخرة والتحف العظيمة التي أهدها بها جماعة الفرنجة وجعل خلفها بستانا عظيماً للغاية وسكن به هذه الدار في أواخر شعبان سنة اثنتي عشرة وهنأه الشعراء ونظم الشيخ حسن العطار تاريخاً لقاعة جلوسه في يمين على أسكفة باب القاعة وهما

شموس التهانى قد أضاءت بقاعة * محاسنها للعين تزداد بالآلف

على بابها قال السرور مؤرخاً * سماء سعادتي تجدد بالآلني

١٠١ ٥٤٦ ٤٢١ ١٤٤

س ١٢١٢

فلما كان شهر رمضان أنار الدار المذكورة بالانوار الكثيرة وازدجت خيول الامراء على بابها وأتى اليه المهنيون من كل صوب وما زال على هذه الحال الى منتصف رمضان ثم بدا له السفر الى الشرقية فأبطلوا الوقفة وأطفؤا تلك السرج والشموع فكان ذلك فألا وكانت مدة لبثه به هذه الدار ستة عشر يوماً فانه ما تغيب بالشرقية الا قليلاً حتى احتفل بولايته بجموشه ديار مصر وساق الامراء المصريين سوق الماشية الى الاقاليم القبلية كما مر بك بيانه في محله * وكان للالفي مع الفرنسيين تاريخ يذكر وقائع عدة وما زال يراوغهم ويتعقب كائهم الى أن جاءت الجيوش العثمانية الى حدود مصر من ناحية الشام فسار الى الصدر الاعظم قائداً هذه الجيوش وقدم له هدية نفيسة فخلع عليه الصدر وأقام عنده أياماً ثم رجع وترفع الى الصعيد ثم انحدر منها الى الشام والفرنسيس يرصدونه

ولما دخل الصدر الاعظم مصر من معه من الجنود وانتفض الصلح بينه وبين الفرنسيين على ما تقدم بيانه وانحصر المصريون والعثمانيون بالمدينة ركب الالفي في قومه وقاتل الفرنسيين قتال الأبطال وخالف مراد بك في الصلح مع الفرنسيين واستمر على قتاله معهم وما زال الى أن تم الصلح ثانياً وخرج مع الصدر الاعظم وجموشه الى الديار الشامية ثم رجع

الى شرقية بلبيس ثم جاء الى القاهرة وأقام بها مع بقية الامراء بعد دخول الانجليز وخروج
الفرنسيين وكان في مدة اقامته معهم شديد التركيز كثير التطير وجعل يتقرب من كاتب يد
الوزير حتى مال اليه وأحبه فكلمه في الوساطة بينه وبين الوزير على أن يقلده الوزير امانة
الصعيد بشرط قيامه بالغلل والاموال في كل عام من غير تأخير ولما كان الالقي كثير الحشم
والاتباع مسموع الكلمة مهيبا عند الناس كافة وكان الوزير يرغب في تبعيده عن القاهرة
وفي تزويق شمل عصاة الامراء أجابه الى طلبه ورسم له بالامارة فسار من فوره بجميع
أتباعه ومواليه وعسكره وجد في السير فلما شاع الخبر جاء الى الوزير من قبح له هذا العمل
وأشار عليه بنقضه فندم الوزير وسير من يستحضره فلم يلحقوا به وقد وصل الى مدينة أسيوط
وأرسل الى الوزير الاموال والغلل وهدايا أخرى من أغنام وعبيد وخصيان وغير ذلك ولم
يخص على قيامه الى الصعيد الا القليل حتى قام جماعة من كبار جند الانجليز الى الاسكندرية
وكذلك حسين باشا أمير سفن الدولة ونصبوا للصريين الفخاخ وأرسل القبطان يطلب
جماعة منهم فلما قدموا أوقع بهم وقبض الوزير على من بالقاهرة منهم وجلسهم وجرى ما
هو مسطور في محله وأرسلوا طاهر باشا لقتال الالقي في عسكر جرار وحصلت المفاقة وقتل من
قتل ولبأ الكثيرون الى معسكر الانجليز بامبابه وهرب جميع الامراء الى الصعيد فقال
عنهم الالقي قتال الابطال في عدة وقائع تذكر ثم سافر مع الانجليز الى لوندرة عاصمة مملكتهم
وغاب بها سنة وشهرا وبعض أيام وجرى في غيابه من الحوادث ما قد ذكر في محله بالتفصيل
ولما تولى محمد علي باشا على مصر كان يخشى الالقي ويهابه كثيرا فوقع بينهم ما من
الحروب ما مر بك بيانه في محله وبالغ الالقي في الشكوى من محمد علي باشا الى دار السلطنة
العثمانية والى دولة الانجليز حتى كان ما كان من حضور أمير سفن الدولة وعزل محمد علي
باشا وتولية موسى باشا مما قد ذكر في محله فلما سافر أمير تلك السفن وتأيدت ولاية محمد
علي باشا اشتد بغض الالقي له وكبر عليه أمر ولايته على مصر فكتب الى دولة الانجليز
يستجدها على قتال محمد علي باشا فلم تجب طلبه ثم عادت فكتبت اليه بتوعده بنجدة مؤلفة
من ستة آلاف مقاتل فتربص ناحية دمنهور وبقي ينتظر ثلاثة أشهر فلم يأت أحد ولما طال به
المقام وعيل صبر قومه وقد فجعوا من الجذب سار بهم الى الجيزة يريد الصعيد فخرج عليه
محمد علي باشا بعسكره فارتحل الى شبراخيت * قال بعض الكتاب * فلما صار على مقربة من
قناطرها نزل على ربوة هناك وجلس عليها وقد زاد به الهاجس والقهر ونظر الى جهة مصر
وقال مخاطبا لها * وبلت أيتها القاهرة انظري الى أولادك وهم حولك عمزقون كل عمزق انظري
فقد استوطنك أجناس الترك واليهود وأراذل الارنؤط وصاروا يقبضون خراجك ويحاربون
أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ويهدمون دورك ويسكنون قصورك ويفسقون
بولدانك وحورك ويطمسون بهجتك وفورك * انظري * انظري * انظري * قال الراوى
لهذه العبارة ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله حتى تحرك به خلط دموى وتقيا في الحال دما

ونادى بأعلى صوته أواه قد قضى الامر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغالبه عليها وقد مد حكمه على طوائف المماليك فلا تقوم لهم راية بعد اليوم * قال ثم جمع اليه أمراءه وأمر عليهم شاهين بيك وأوصاه وأوصاهم بالالفة والنحاب وأن يحذروا من خادعة عدوهم فهو قرم عنيد وأوصاهم أنه اذا مات يحملونه الى الهندسا ويدفنونه بجوار قبور الشهداء فبات في تلك الليلة وهي ليلة الاربعاء تاسع عشر ذى القعدة فحملوه على بعير وساروا به الى الهندسا ودفنوه هنالك وكان جليلا مهيبا محترما بعيد الفكر عظيم البأس ذا غيرة حتى على أتباعه وكانت جميع قبائل العربان النازلة بمصر لا يخالفون له كلمة وكان له معهم سياسة غريبة ومعروفة بأحوالهم فكانما هو مربى بين ظهرانيهم يقومون ويقعدون لأمره وهو مع ذلك يصادرهم في أموالهم ورجالهم ويقتل منهم وقد تزوج من بناتهم كثيرا ولم يبق منهم في عصمته غير واحدة كانت غاية في الجمال فبات عنها ولما شاع خبر موته بين العربان اجتمعت بناتهم وصرن يندبنه بكلام عجيب فكانت تتناقله أرباب المغاني فتغنى به على آلات الطرب

وبعد موت الالفي بنحو الاربعين يوما وصلت نجدة الانجليز الى نهر الاسكندرية ونزلوا الى البر فبلغهم خبر موته فأرسلوا رسلهم الى جماعة الامراء المصريين يطلبونهم الى الحضور ليحكموا معهم فيما فيه المصلحة وفي ردهم الى مناصبهم وارجاع اقطاعاتهم الى ما كانت عليه وكان محمد على باشا يقاتلهم بالصعيد فلما علم بذلك خابهم في الصلح وأمر بتحصين المغور وترميم القلاع وفي ذلك جماعة من كبار العسكر وخشى عاقبة حضور الانجليز الى الاسكندرية وقد كان حضورهم في عمارة عظيمة ونزل الانجليز بالاسكندرية وأرسل مقدمهم الى حاكمها يطلب تمكين العساكر البحرية من دخول الابراج للدفاع عن النهر بحجة أن جيوش الفرنسيين عائدة لاختد المدينة عنوة فلم يقبل الحاكم منه ذلك ولم يمكن الجند من دخول الابراج وترددت الرسل بين أميرال السفن الانجليزية وحاكم المدينة ومقدم العسكر المرابطين بالحصون والقلاع وشدت الاميرال في الطلب وضرب الحاكم أجلا أربعين وعشرين ساعة فان أصر على الالباء والعناد ضربت الحصون والقلاع بالقنابل من مدافع السفن فأرسل الحاكم يخبر كتحدا الباشا بجميع ما وقع بينه وبين أميرال السفن الانجليزية فجمع اليه كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد وتشاؤروا في الامر فانفقوا على ابلاغ الخبر لمحمد على باشا واستنماضه الى سرعة الحضور الى القاهرة بمن معه من الحاربيين فسيروا له الاخبار بجميع ما جرى وشددوا عليه في الحضور فلما انقضى الاجل المضروب بين الانجليز وحاكم الاسكندرية وهو في الممانعة أطلقوا على الحصون المدفع ورموا الابراج بالقنابل الهائلة فهدموا ركنا من البرج الكبير وكذا هدموا الابراج الصغار وجانبها عظيم من السور فعند ذلك طلب أهل المدينة الأمان فأمنوهم ودخلت العساكر الابراج وانتشرت في المدينة وكانت عدتهم خمسة آلاف مقاتل ونزل أميرال الاسطول الى المدينة وسكن بوكالة القنصل وأمن

أمين أنما حاكم المدينة على نفسه ومن معه من العساكر والاجناد وكتب له عهدا بأن لا تسكن عسكر الانجليز في البيوت قهرا عن أصحابها بل بالأجرة والتراضي ولا يعمنون المساجد ولا ييطلون منها الشعائر الدينية وأن من كان له دين على الحكومة يقبض نصفه من الانجليز حالا ومن أراد السفر بحرا فليسافر في خفارتهم الى أى جهة شاءها الا دار السلطنة العثمانية وأن أهل البلد لا يتكفون للاسطول بشئ من الميرة أو المال وتبقى المحكمة الشرعية على ما هي عليه من الفصل في دعاوى الناس حسب الشريعة والسنة ولا ينتظر الانجليز في دعاوى المسلمين بغير رضاهم وتبقى رعايا الدول الاجنبية حائزة لجميع الامتيازات الدولية المعروفة بين الممالك وبعضها وأن لا يؤخذ شئ من الرسوم الجركية على جميع البضائع سوى اثنين ونصف في المائة

واشتد خوف محمد على باشا من احتلال الانجليز للابراج والحصون وكاد يسقط في أمره وكتب الى كتحده بأن يجعل يجمع العسكر ويجهز المعدات وشدد في ذلك * وسارت طائفة من الجنود الانجليزية من الاسكندرية الى رشيد لاحتلالها وكان من بها من المرابطين والاهالى على بقطة تامة بالازقة والعطوف وطيقان البيوت فلما صار الانجليز بداخل البلد أطلقوا عليهم النيران من كل صوب وحسب قارتبك الانجليز وألقوا ما بأيديهم من الاسلحة وطلبوا الامان فلم يلتفتوا اليهم وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة ذبح الشاة وأسروا الباقين وفرجاعة منهم الى ناحية دمنهور وكان بها طائفة من الجند وجماعة من العربان فخرجوا والتقوا بتلك الفئة فقتلوا بعضهم وأخذوا من بقي أسيرا وأرسلوا السعاة الى القاهرة بالبشائر ثم أرسلوا الاسرى مع رؤس القتلى من الانجليز * ونادى شيخ الجامع في طلبة العلم والمجاورين بالانزهر بترك التدريس وحمل السلاح والتأهب للقتال والجهاد في الانجليز وشدد السيد عمر النقيب في ذلك على العامة فزاد هرج الناس وكثر لغتهم واجتمع المشايخ والامراء وتشاوروا فيما يجب فعله دفاعا عن البلاد فانفقوا على تحصين المدينة وفتح الخندق الكبير الذى كان قد أنشأه الفرنسيين عند باب الحديد واعتنوا باصلاحه قدر استطاعة وأكثروا من جمع الاسلحة والكرام وأكثر الوالى من الطواف والنداء بخروج العسكر وتأهب الاهالى للدفاع فلما علم أميرال الاسطول بما حل بعسكره في رشيد سير بعض السفن من مياه الاسكندرية الى رشيد فأحس أهل رشيد بذلك وأرسلوا السعاة يستجدون كتحدا الباشا ويقولون بطل فقد أصبح العدو بسفنه على الابواب وطبروا الخبر بذلك الى محمد على باشا فتزايد خوفه وذهب صبره وأرسل رساله الى الامراء المصريين يستحثهم على الصلح ويستميلهم الى الاستعداد لطرد العدو الزاحف اليهم وما زالوا بهم أياما وهم بين اقبال وادبار ولين وشدة ووعد ووعيد حتى مالوا الى الصلح فاستوثق منهم وتركهم وانحدر بجيوشه الى القاهرة ودخلها ليلا فلما أصبح جمع اليه كبار العسكر وأرباب المناصب وخبرهم في أمر جلاء الانجليز وقد جاء الخبر بوصولهم الى رشيد واستيلائهم على كوم الافراج وأبي

منصور واستمرار اطلاقهم القنابل على المدينة حتى تهدمت أكثر دورها ومات خلق كثير وأن من بها من الحكام وأرباب المناصب يطلبون المدد ويستجدون المشايخ فطلب محمد علي باشا من السيد عمر النقيب أن يفرض على الاهالي فرضة لنفقة الجند قدرها ألف كيس وأخذ في تجييش الجيوش ونادى في العسكر بعدم الخلف والخروج لدفع العدو وخرج بنفسه ومعه حسن باشا وعابدين بك وعمر بك وسار في طائفة عظيمة من الجند وأرسل الى الامراء بالاقاليم القبلية يستنضهم ويستقدمهم لقتال الانجليز ويذكر لهم العهد الذي تعهد لهم به ويقول قد صارت الانجليز على الابواب فجعلوا بالحضور لدفعهم والافعل الاسلام السلام فلم يلبوا دعوته وقالوا لسناء على ثقة من عداوة الانجليز لسلطاننا حتى نقاتلهم وكألوا قد حضروا لخدمتنا بناء على طلب الالفى ثم انحدروا الى منية ابن خصيب وتربصوا بها وعاد محمد علي باشا بعد تغيبه أياما بظاهر المدينة يحض العسكر على الخروج الى الجهاد ويستنفروهم فلم تكن الايام قلائل حتى جاءت الاخبار بهزيمة الانجليز وجلاتهم عن أبي منصور ومباريس رشيد والحداد وقد أسروهم عدة عظيمة وانحاز من بقي منهم الى الاسكندرية وتحصنوا فيها وقطعوا سبيل أبي قير فانهم مل ماء البحر المتوسط وأغرق ما حول الاسكندرية حتى كادت تسير فيه المراكب الصغار وحضر الاسرى من الانجليز الى القاهرة فأصعدوهم الى قلعة الجبل فكافوا زهاء الاربعمئة بينهم بعض كبار القواد وفرح الناس بهزيمتهم وتقوت عزائم الجند المصري وحضر أيضا يس بك أحمد أمراء المصريين بعساكرهم وأقام بالجيزة على عهد الصلح الذي تقررينه وبين محمد علي باشا وفرح محمد علي باشا بقدمه وخلع عليه خلع الرضا وأعطاه ما طلب من متاع وسلاح وجهزه لقتال الانجليز فعسكر بقومه بظاهر بولاق وطلب العساكر الخارجة عن خدمة محمد علي باشا فأتوا اليه من كل صوب وحشد وكبر جيشه واتسعت كلمته فمالت نفسه الى طلب الرياسة والخروج على محمد علي باشا فبث الجبلة في بلاد القليوبية تجتمع له الاموال والمغرم والكاف فأحس محمد علي باشا بما وراء ذلك وأرسل اليه يطلب سرعة قيامه لقتال الانجليز والمحافظة على العهد فتفاحس وشغل أمره محمد علي باشا فأخذ في التدبير عليه واستمال العسكر المنضمين اليه وحل عرى رباطهم ورشاهم بالمال والهدايا ونادى في عسكر الارناؤوط بالخروج جميعا فخرجوا الى ناحية السبتية والخذق وحاولوا بينه وبين بولاق ومصر وركب محمد علي باشا في طائفة من خواصه وخرج الى تلك الناحية وحصن أبواب المدينة وأرسل الى يس بك يقول اما أن تستمر على الطاعة وتصرف عنك هذه اليوم وتخرج لقتال الانجليز وأما أنك ترحل الى بلادك بلا مهل والا فانا واصل اليك ومحاربك فخاف يس بك وانحلت عزائم قومه وتفرق عنه أكثرهم * فلما كان بعد غروب ذلك اليوم طلب الركوب ولم يعلم قومه الى أين يريد فركبوا جميعا وساروا قليلا تحت جنح الليل ثم تفرقوا وتاهوا وذهب كل فريق منهم الى ناحية لا يعلم له مقر ولم يزل يس في سرايه بن معه حتى أصبح وقد نزل التبين فسير

خلفه محمد علي باشا طائفة من الجند لقتاله أما هو فانه لم يستقر به المقام بالتبين حتى نهب
عسكره التبين وحلوان وطرا والمعصرة والبساتين ونحطعوا النساء ونهبوا الاجران وأخذوا
ما كان فيها وفعلوا وغير ذلك من فعال الشدة ولما أحس بقدم العسكر ارتحل
الى صول والبرنيل ونزل ابراهيم بيك الكبير وعساكره أيضا على بنى سويف وأرسل يعلم
محمد علي باشا بقدمه فلم يلتفت محمد علي باشا الى ذلك ولم يهتمه ورسم بتعيم القلاع
والحصون التي كانت للفرنسيين أيام حلولهم بمصر وبالغ في التشديد بذلك وقيد بعض
مقدمي العسكر بالعمل وحضر من الديار الشامية كثير من العساكر الدلتية وبعض المرتزة
من الترك فجهرهم محمد علي باشا بالسلاح ومعدات القتال ونادى فمن كان بمصر والقاهرة من
العساكر والاجناد بالخروج الى انبابه وخرج هو فاجتمع حول وطاقه طوائف العسكر
فلما كان يوم الخميس عاشر جمادى الآخرة من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ومائتين
وألف أمر بالارتحال فساروا في أبهة وكبكة عظيمة الى ناحية البحيرة وترىص محمد علي باشا
بطائفة من أصحابه على مقربة من مدينة الاسكندرية وبعث سفراء الى مقدم الانجليز
يخبرونه في أمر الصلح فجعل السفراء يترددون بين الفريقين أياما ثم حضر الى معسكر محمد
علي باشا نفر من الانجليز واختلوا به الى نصف النهار فلما كان يوم الجمعة غرة رجب الفرد
من السنة تقرر بينهم قاعدة الصلح على أصول لم يذكرها أحد من أهل التاريخ ثم استنحضر
الى الاسكندرية من كان بمصر من أسراء الانجليز وردوا الى معسكرهم وحضر لزيارة محمد
علي باشا بمعسكره أمير سفن الانجليز في نفر من قواده فأكرم محمد علي باشا وفادته وأطلق
لقدمهم عدة مدافع وقدم لهم خيولا وهدايا نفيسة وأقشة هندية وشيلانا كشميرية ثم
ركب معهم في قلة من قومه وساروا الى بيت أمير الجيوش الانجليزية فأكرموا محمد علي باشا
وقدموا له الهدايا والطرف من أفخر الصنائع ثم أتموا التوقيع على عقد الصلح وسلوا المدينة
وفكوا من كان عندهم من أسرى رشيد وانحبوا من الابراج والحصون الى مراكز
البحر * ولبت محمد علي باشا بالاسكندرية وقد باتت داخلة في حكمه بعد أن كانت مع سائر
الثغور في حوزة وتصرف أمير سفن حرب الدولة العثمانية من عهد السلطان سليم الى ذلك
الحين وما زال بها حتى قدم الى القاهرة في يوم الاثنين ثالث شعبان من السنة أى سنة
اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية فخرج العلماء والامراء للقائه وأطلقت لقدمه
المدافع من قلعة الجبل وسائر الحصون وزينت المدينة ثلاث ليال ورجع معه حسن باشا
طاهر وسليمان أغا وكثير من العساكر والاجناد

وما استقر به المقام حتى جعل يتظر في ترتيب أمور البلاد ويعمل على ازالة الوحشة
التي بينه وبين من بقي من الامراء المصريين فسير اليهم من يستميلهم ويحبب لهم ترك
القتال والانضمام الى حاشية محمد علي فمنهم من مال الى المصالحة ومنهم من نجاني وشط
في الطلب وكانت لم تزل الدسائس والفتن قائمة بين الجند وأصحاب الكلمة فيهم * فلما كان

يوم الاثنين ثالث عشرى شعبان من السنة اجتمعت طائفة كبيرة من الارنؤط والعساكر
الرومية على بيت محمد على باشا وطلبوا علائقهم فوعدهم فقالوا لانصبر فلاطفهم فتجافوا
وأطلقوا بنادقهم مرارا وأصروا على طلب العلائف ثم انصرفوا وتفرقوا في القاهرة ومصر
فخاف الناس وتطيروا وأرسل السيد عمر الى أهل الغورية والعقادين والاسواق بأمرهم
برفع بضائعهم من الخوانيت ففعلوا وأغلقوها فلما كان قبيل الغروب وصل الى بيت محمد
على باشا فريق آخر من الدلاتية وطلبوا أيضا بالعلائف وأطلقوا كذلك بنادقهم على من
يباب محمد على باشا فردهم الجند وأطلقوا عليهم النار فخرجوا منهم عددا فأنكفوا ورجعوا
وبات الناس متخوفين وأصبح يوم الثلاثاء والحال في اضطراب وقد نقلت أمتعة محمد على باشا
في تلك الليلة الى قلعة الجبل وصعد هو كذلك الى القلعة وأرسل الى رجب أغا أحد
مقدمى الارنؤط من يلزمه بالخروج الى الديار الرومية بلا مهل فأظهر العصيان وتترس هو
وفريق من جنده في بعض الدور ووقع بينهم وبين عساكر محمد على باشا قتال ثلاثة أيام ثم
انجلى عن سفر رجب أغا فهرا الى الديار الرومية * قال بعض كتاب الاخبار * ونزل محمد على
باشا وطاف بالمدينة ومر بناحية سويقة المعزى سائرا الى بيت يابغا وهناك المكتب الذى
فوق السيل بين الطريقين تجاه من يأتى من تلك الناحية فصعد الى ذلك المكتب اثنان
من الجند يرصدان محمد على باشا فى مروره فلما أتى مقابلا لذلك المكتب أطلقا عليه
بارودتين فأخطأته وأصابا احدى الرصاصتين فرس أحد الملازمين حوله فسقط فترجل
محمد على باشا عن فرسه وهو ساكن الجأش ووقف على مصطبة حانوت هناك وأمر بالقبض
على الجنديين فقبضوا عليهم فأمر باخراجهما الى الديار الرومية فأخرجوهما فى الحال * وعاد
الى مخبأة الامراء المصريين فأول من أذعن منهم للصالح شاهين بيك الأتقى فحضر ونزل
بدعشور ومعه هدايا عظيمة من ابراهيم بيك الكبير ومحمد بيك المرادى المعروف بالمنفوخ
برسم محمد على باشا وهى نحو الثلاثين حصانا من جياذ الخيل ومائة قنطار بن قهوة ومائة
قنطار سكر وأربعة خصيان وعشرين جارية سوداء فلما وصل شاهين بيك الى دهشور
وحضر من أعلم محمد على باشا بحضوره أرسل معهم هدية عظيمة ورافقهم ولده وكان سكره
ثم انتقل شاهين بيك الى شبرامنت واستلم الجزيرة بعد ذلك والقصر وما حوله وما به من
المدافع وآلات الحرب ودخل القصر وأعطاه محمد على باشا اقليم البنسا وعشر بلاد من
بلاد الجزيرة وكتب له بذلك تقاسيط ديوانية وضم له كشوفية البحيرة الى الاسكندرية وأطلق
له التصرف فى جميع ذلك بلا معارض وأكثر من مكاتبة الامراء بالصعيد وسلم لهم أمر
مقاتلة يس بيك الذى هرب الى الصعيد فقاتلوه ونالوا منه وفرقوا جيوشه فالتجأ الى منية
ابن خصيب وقد نهبت أجماله ودوابه وانصرف عنه أكثر جنده ولمومه وكاد يسقط فى يده
ولما كان الثالث والعشرون من شوال من السنة أى سنة اثنتين وعشرين ورد فرمان
السلطان بتأييد ولاية محمد على باشا ووجوب التأهب واعداد الجند والسلاح لقتال

الوهابيين الخارجين بالجهاز ففرضوا لذلك فريضة عظيمة على أهل البلاد وعين من كبار الجند من يقبضها ورسم محمد علي باشا بعمارة أسوار وقلاع الاسكندرية وأبي قير والسويس ورشيد ودمياط وبالق في العمل وقيد به جماعة وأرسل الى من كانوا يقاتلون يس بيك أن يشددوا في حصاره ويمنعوا الواصل الى مقره ففعلوا وبالقوا في التشديد فخبارهم يس بيك في الصلح على شروط اقترحها فقبلوا منه ذلك فاستأن من صرف من كان عنده من طوائف العربان ثم حضر الى بولاق وصعد الى قلعة الجبل فعوقه محمد علي باشا وأراد القتال به فقام من الامراء من ترائى على أقدام محمد علي باشا فرسم باخراجه الى الديار الرومية ثم خلع عليه بعد ذلك وسير معه من يوصله الى ثغر دمياط ومنها الى جزيرة قبرص

واشتغل السلطان عن مصر في هذا الحين بقيام الفتنة في القسطنطينية وخروج طوائف الانكشارية عن طاعته وذلك أنه لما أعياه أمرهم وصاروا أشد عداوة للدولة وأعظم ضررا عليها من الاعداء عمد الى تنظيم عسكر مخصوص على هيئة وترتيب عسكر الفرنسيين واستقدم لذلك قائدا من كبار قواد الفرنسيين ففاز ونجح وتم له الامر أو كاد فلما أحسنت طوائف الانكشارية بما وراء ذلك تجردوا للعداوة وشق عصا الطاعة وأعانهم جماعة من العلماء والمشايخ وأضرمو نار الفتنة في جوف القسطنطينية وطلبوا صرف أولئك الجنود المنتظمة وشدوا في الطلب فأجابهم السلطان الى ذلك كارها فلم يقفوا عند هذا الحد وطلبوا أشياء أخرى فطاولهم فألحوا في الطلب فأجابهم اطفاء لنار الفتنة ولكي يتمكن من دفع العدو المحقق بالدولة من كل جانب فلما سكنت الفتنة وأخلد المشاغبون الى السكون سير الصدر الاعظم الى مدينة شوملة لقتال الروس وكانوا قد تجردوا لقتال السلطان ورسم له أيضا بإرجاع بعض الولايات التي شقت عصا الطاعة وولى مصطفى باشا قائممقامية الضدادة وكان مصطفى باشا هذا من أعداء النظام الجديد وكان قد مات في هذه الاثناء مفتى دار السلطنة وكان من أكبر أنصار السلطان سليم على ادخال النظام الجديد في عسكره فتولى مكانه آخر شديد التعصب لعادات الانكشارية ومذهبهم بكره ذلك النظام ويعتده بدعة مخالفة للدين فاتفق مع مصطفى باشا وبعض المشايخ وكبار العلماء على ابطاله ونحالفوا على ذلك فسدوا الدسائس وأيقظوا الفتنة السائمة وأضرمو نارها فالتهب وقام العسكر بعضهم على بعض واقتتلوا قتال الاعداء فمات منهم خلق كثير واجتمع كثير من العساكر المرتفة وقدموا عليهم مقدما منهم فسار بهم حتى أتوا الى المكان المعروف بـ (بايت ميدان) وقد انضم اليهم جماعة من الانكشارية وغير الانكشارية فأتوا بقدر طعامهم فصفوها أمام صفوفهم وهي عادتهم عند عدم الطاعة وقيام الفتنة وصاحوا بالويل والثبور على أصحاب النظام الجديد ثم أتوا بجميع أرباب الوظائف العالية الذين ساعدوا السلطان على ادخال ذلك النظام في عسكره الى ذلك الميدان فقطعوا أعناقهم وقطعوا بعضهم في الطريق قبل أن يصلوا بهم الى الميدان ولم ينكفوا عن الضجيج والصياح والفتنة فاعة مدة يومين

حتى أفتى المفتي بخلع السلطان سليم في الحادى والعشرين من ربيع الاول سنة اثنى عشر وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية وقال (لا يصلح للملك من يدخل عادات الفرنجة في بلاد المسلمين والله أعلم) ففرح العسكر بذلك وفادوا بخلعه وولاية السلطان مصطفى خان الرابع ثم قبضوا عليه ووضعوه في إحدى السرايات محجورا عليه فكانت سلطنته زهاء العشرين سنة

ومات في أيامه مرقس بطرك المتأصلين بعد أن أقام في الرياسة نحو أربع وعشرين سنة كلها شدائد ومحن وقد كثرت فيها المغارم ومصادرة الناس في أموالهم على ما تقدم بيانه جميعه في محله فأقيم بعده يوحنا وهو السابع بعد المائة وكان راهبا بدير أنطونيوس واسمه يوسف ووقع من الحوادث في أيامه ما سيذكر في محله

(الفصل العشرون)

(في سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالامر بعد السلطان سليم ابن أخيه السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد الحميد بربيع له بالملك يوم خلع عمه في حادى عشرى ربيع الاول سنة اثنى عشر وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة سبع وثمانمائة وألف ميلادية فلم يكن له من السلطنة سوى الاسم فقط والكلمة للفتى ومن معه من مبعضى النظام الجديد فتصرفوا في جميع الامور وأطاعوا هواهم وولوا الوظائف غير مستحقها وسلموا مقاليد القلاع والحصون الى مقدم الجنود الذين ناروا على السلطان فسكنت الفتنة وعادت الامور الى ما كانت عليه * ووصل الخبر بما جرى الى العسكر الذين كانوا يقاتلون الروس ففرح جماعة الانكشارية وسروا بقتلهم وقاموا على الصدر الاعظم فقتلوه وولوا بدله چلبى مصطفى باشا فسرى الفساد الى جميع مصالح الدولة واستولى الخلل على أمورها وعبث بها الاغرار وعاثوا وأفسدوا وقام مقدم أصحاب الثورة بعد قليل على قائم مقام الصدرة بخلعه وولى بدله آخر اسمه طاهر باشا فلما استقر بطاهر باشا هذا المنصب وأراد التصرف رأى أنه مغلوب على أمره ليس له من المنصب سوى الاسم والكلمة للفتى ومقدم الجنود أصحاب الفتنة خلع نفسه ورحل عن القسطنطينية الى مدينة روستجى ونزل في جوارحها كها مصطفى باشا البيرقدار وكان مصطفى باشا هذا راغبا في النظام الجديد وقد جيش منه جيشا عظيما وكان من أنصار السلطان سليم ميالا الى اعادته الى عرش الملك فلما استجار به طاهر باشا قويت آماله بأرجاع السلطان الى عرشه فسير الى الصدر الاعظم وأصحاب الحل والعقد من يكاملهم فى الأمر ويستميلهم الى الغدر بالمفتى ومقدم أصحاب الثورة وما زال بهم حتى مالوا الى ذلك ووافقوه وبرز الحكم من الصدر الاعظم بقتل

مقدم الثورة المذكور فركب عليه أحد مقدمي الفرسان وقتله فهاج أصحابه وماجوا وتجردوا للقتال وكان مصطفى باشا البيرقدار قد وصل في هذه الاثناء الى ضواحي القسطنطينية في جيشه المنظم وصار عسكره على مقربة من الابواب فلما علم السلطان مصطفى بمحضوره خشي العاقبة ورسم بخلع المفتي وأمر قنادى في الجند أصحاب الثورة بالانصراف الى أوطانهم فلم يلتفت البيرقدار الى شيء من ذلك وسار بجيوشه حتى وقف أمام باب السراى السلطانية وقد أغلقوه فهم بكسره أو حرقه ثم فتحوه عنوة وعبروا الى داخل السراى وطلب السلطان سليم وكان محجورا عليه فأخفوه عنه وسير السلطان مصطفى في الحال جماعة من خواصه فدخلوا على السلطان سليم وضربوه بالخناجر وأحضره ميتا الى حيث السلطان مصطفى فقال سلموه الى هذا وأشار الى البيرقدار وقال (ها هو سلطانك الذي تطلبه منا اليوم) فلما رآه البيرقدار بكى بكاء مرا وشاع قتل السلطان سليم بين الجند فهاجوا وماجوا وكثر ضجيجهم واشدت الفتنة ونادوا بخلع السلطان مصطفى ثم قبضوا عليه وسجنوه في المكان الذي قتل به السلطان سليم وذلك في الخامس من جمادى الأولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية فكانت سلطنته بضعة أشهر وولوا الملك بعده لاختيه السلطان محمود الثانى وهو فى عنفوان الشباب وغضاضة السن

(الفصل الحادى والعشرون)

(فى سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد الحميد)

ثم قام بالامر بعد خلع السلطان مصطفى أخوه السلطان محمود الثانى بوزيع له بالملك يوم الخميس خامس جمادى الاولى سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أى سنة ثمان وثمانمائة وألف ميلادية ووردت الاخبار بذلك الى مصر فقام محمد على باشا بمظاهر الاحتفال وزينت المدينة ثلاث ليل وخطبوا له على المنابر بمصر والقاهرة وسائر المدن القبلية والبحرية واستوزر السلطان محمود الوزير مصطفى باشا البيرقدار وسلمه ختم الصدارة وصرفه فى جميع الامور فأحكم السياسة وأحسن التدبير وجعل يعمل على اخضاع طوائف الانكشارية وإيقافهم عند حدهم فجمع يوما جميع كبار الدولة وأصحاب المناصب العالية والعلماء والمشايخ وعقد مجلسا حافلا وكلهم فيما تلاقيه الدولة بسبب خروج الانكشارية وعدم وقوفهم عند حد رسومهم وعاداتهم القديمة وبالغ فى الشكوى وعظم فى البلاوى وسألهم اجتماع الكلمة على دفع هذا الفساد ومنع تطاول أيدي أولئك القوم الى العبث بمصالح الدولة التى استحوذ عليها الفشل وتولاها الخلل فأجابوه الى ذلك ووافقوه على أخذ فتوى من مفتى دار السلطنة

بوجوب رجوع طوائف الانكشارية في جميع أمورهم الى رسومهم وعاداتهم القديمة فقويت
 بذلك عزيمته واشتد أزره وعد الى اخضاعهم فأخضعهم وألبسهم ثياب الذل وتصرف فيهم
 تخاف عليه بعض أصحابه وحذره من مكرهم وغدرهم فلم يلتفت الى ذلك وبالغ في التشديد
 وأكثر من الوعيد * فلما ضاق بهم الخناق وأيسوا من الخلاص أثاروا الفتنة في مدينة
 قليمي وأظهروا العصيان فسير لقتالهم جيشه المنظم ولم يبق معه سوى زهاء أربعة آلاف
 وبعض العساكر الأخرى وبالغ في الشدة على من بالقسطنطينية من الانكشارية فلما كانت
 ليلة السابع والعشرين من رمضان سنة ثلاث وعشرين أجمعوا أمرهم وتحزبوا وساروا
 الى مقر السلطان مصطفى المعزول واندثوا حوله وهموا باخراجه وارجاعه الى عرش السلطنة
 فركب عليهم مصطفى باشا البيرقدار فيمن بقي من عساكره وقتلهم قتالا عنيفا فلم يقو على ردهم
 وأحس بالهزيمة لكثرة العدو فسير الى السلطان مصطفى المعزول من قتله وأمر بجثته فألقوها
 من أعلى السراي الى أصحاب الثورة كي لا يتمكنوا من ارجاعه الى عرش السلطنة فلما رأوا
 السلطان على هذا الحال اشتد هياجهم وعلا ضجيجهم وأضرموا النار في سراي السلطان
 مصطفى ليهلك فيها البيرقدار بالحريق وقيل بل أضرموها في سراي البيرقدار وأخشوا في الحرق
 والهدم والنهب واختفى البيرقدار في سرداب فلم يعثروا عليه وكان لما اشتبك القتال بين عسكر
 البيرقدار والانكشارية أدخل أمير سفن الحرب ثلاثا من السفن الى بوزغاز القسطنطينية ووجه
 أفواه مدافعها نحو منازل الانكشارية ورمى عليها بالقنابل رميا متتابعا ثم نزل بطائفة من
 عسكره أيضا وسار لنجدة البيرقدار وكذلك سار لنجدة أحد مقدمي العساكر المنظمة فلم
 يفلحوا اذ كان الانكشارية قد تمكنوا من حرق السراي فأعملوا السيف في الانكشارية
 وأخذوهم من كل صوب وحذب حتى انهزموا وولوا الادبار فأنحدر جماعة منهم الى بيوت
 الناس فأضرموا فيها النار فعلا الالهيب واشتد وخاف السلطان وهاله الامر وتحقق دمار
 جميع المدينة وطمس معالمها فنزل من مقره الى الباب الموصل الى البحر ونادى بقتال
 الانكشارية فقاتلوهم قتالا عنيفا وأكثر الانكشارية من حرق الدور والابنية العظيمة
 فأنهال الالهيب انهبال السيل والنهب أكثر دور المدينة فدمرتها وعلا صياح النساء
 والاطفال من كل ناحية وهب الناس من مضاجعهم مذعورين فصاح السلطان وشدد على
 الجند بالقتال وذبح كل من وجدوه يعاون على الحريق وهو مع ذلك محصور في سرايته
 يوما وليلة فلما اشتد الحال وضعفت من خلاص المدينة الآمال سير السلطان الى بكار
 الانكشارية من يخبرهم في أمر الصلح وترددت الرسل بينهم فأنكفوا عن الحريق وأخذوا
 في اطفائه ودخل جماعة من الانكشارية الى حيث مصطفى باشا البيرقدار فأخرجوه من
 تحت الردم ميتا وعاقوه في شجرة ومثلوا به تمثيلا وسكنت بعد ذلك الفتنة وعادت الامور
 الى ما كانت عليه فاستوزر السلطان الوزير ضيا يوسف باشا الذي كان حضر الى مصر لقتال
 عساكر بونا بارتة وكظم غيظه وجعل يراقب الفرص ويتبين وجه الانتفاع بها

وكانت هذه الفتنة وما نجم عنها من اختلال نظام الدولة وسقوط هيبتها وغل أيدى السلطان عن أن يأتي بأمر أرادته وتفاقم شرطوائف الانكشارية كل هذا جعل محمد علي باشا في مأمن من جانب السلطنة ومكنه ذلك من منصب الولاية فتجرد للعمل وسار عن القاهرة الى الاقاليم البحرية وقد طلب الكلف اللازمة لذلك وفرضها على البلاد فكتب اليه الرزناجي يقول ان الخراب ضارب أطنابه على أكثر البلاد بأسباب المحن المتوالية فلا قدرة لاهلها على دفع شيء الآن فلم يرض محمد علي باشا من الرزناجي بذلك وجاب البلاد شرقا وغربا ومعه الكتاب وبعض المباشرين ثم رسم بتقرير سجل مخصوص يشمل عدد ما يوجد من البلاد التي لا قدرة لاهلها على الزرع فحرروا سجلها فاقطعها لأولاده وذوى قرابته وجمع اليها من تشرد من اهلها وصار من هذا الحين اذا تأخرت بلدة عن القيام بما يفرض عليها أقطعها الى رجال الدولة أو أحد أولاده أو ذوى قرابته وسميت الاقطاعات من يومئذ أى من سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية أو نحوها **بالعهد** ثم جعل ينظر في احتياجات البلاد وفي ترتيب أمورها على ما فيه المصلحة واهتم بذلك كثيرا فكاد يتم له الامر لسكون الامراء المصريين واستقرارهم بالصعيد الأعلى وعدم قيام الفتنة

فلما كان أوائل سنة أربع وعشرين ورد فرمان السلطان بالعودة الى جمع العساكر والسلاح لقتال الوهابيين وكافوا قد خرجوا بالجهاز فعاثوا ونهبوا وقتلوا وسلبوا ومنعوا الحج وأظهروا البدع والخروج عن السنن والعبث بالشريعة وهم أصحاب عبد الوهاب الدرعي وعبد الوهاب هذا رجل من العرب ولد في الدرعية من بلاد الحجاز وتعلم مذهب الامام أبي حنيفة النعمان ثم سار الى أصفهان ولاد بعلمائها وأخذ منهم حتى غزت مادنه وتضلع من علم أصول وفروع الشريعة لاسيما تفسير القرآن ثم قفل راجعا الى بلاده في سنة احدى وسبعين ومائة وألف هجرية فلما استقر به المقام جعل يقرر مذهب الامام أبي حنيفة ثم اجتهد واستقل وقرر له مذهبا مخصوصا وألقاء على تلامذته فاتبعوه وعلوا به وكثر مريدوه وشاع أمره في نجد والقطيف والأحساء وكثير من بلاد العرب كبنى عتبة من أرض اليمن وعمان وغيرهما ولمذهبه هذا قواعد وشروط مخصوصة يعلم بعضها من رسالة ذكرها صاحب الخطط التوفيقية نأتى بها هنا تيمنا للفائدة

قال اعلوا رجكم الله أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله مخلصا له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخالقهم له كما قال تعالى «وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون» فاذا عرفت أن الله خلق العباد للعبادة فاعلم أن العبادة لا تسمى عبادة الامع التوحيد كما أن الصلاة لا تسمى صلاة الامع الطهارة فاذا دخل الشرك فسدت كالحدث اذا دخل في الطهارة كما قال الله تعالى «ما كان للمشركين أن يعبروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون» فمن دعا غير الله طالبا منه ما لا يقدر عليه الا الله من جلب خير أو دفع ضرر فقد أشرك في العبادة كما قال الله تعالى «ومن أضل ممن يدعو من دون الله من

لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * واذا حشر الناس كانوا لهم اعداء وكانوا
 بعبادتهم كافرين » وقال تعالى « والذين تدعون من دونه ما عبدكون من قطمير ان
 تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك
 مثل خبير » فأخبر تبارك وتعالى أن دعاء غير الله شرك فحين قال يا رسول الله أو يا ابن عباس
 أو يا عبد القادر زاعماً أنه باب حاجته الى الله وشفيعه عنده ووسيلته اليه فهو المشرك الذي
 يهدر دمه وماله الا أن يتوب من ذلك * وكذلك الذين يحلفون بغير الله أو الذي يتوكل على
 غير الله أو يرجو غير الله أو يخاف وقوع الشر من غير الله أو يلجئ الى غير الله فهو
 أيضاً مشرك * وما ذكرنا من أنواع الشرك هو الذي قال الله فيه « ان الله لا يغفر أن يشرك به
 ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » وهو الذي قاتل رسول الله المشركين عليه وأمرهم باخلاص
 العبادة كلها لله تعالى ويصح ذلك أى التشفيع عليهم بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله
 تعالى في كتابه * أولها أن تعلم أن الكفار الذين قاتلهم رسول الله يقرون أن الله هو الخالق
 الرازق المحيي المميت المدبر لجميع الأمور والدليل على ذلك قوله تعالى « قل من يرزقكم من
 السماء والارض أمئن بملك السمع والابصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من
 الحي ومن يدبر الامر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون » وقوله تعالى « قل لمن الارض ومن
 فيها ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون * قل من رب السموات السبع ورب
 العرش العظيم سيقولون لله قل أفلا تتقون * قل من بيده ملكوت كل شئ وهو يجير ولا
 يجار عليه ان كنتم تعلمون سيقولون لله قل فأنى تسحرون » اذا عرفت هذه القاعدة وأشكل
 عليك الامر فاعلم أنهم بهذا أقروا ثم توجهوا الى غير الله يدعونه من دون الله فأشركوا
 * القاعدة الثانية * أنهم يقولون ما نرجوهم الا لطلب الشفاعة عند الله نريد من الله لا
 منهم ولكن بشفاعتهم وهو شرك والدليل على ذلك قول الله تعالى « ويعبدون من دون الله
 ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات
 ولا في الارض سبحانه وتعالى عما يشركون » وقال الله تعالى « والذين اتخذوا من دونه أولياء
 ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون ان الله لا يهدي
 من هو كاذب كفار » واذا عرفت هذه القاعدة فاعرف القاعدة الثالثة * وهى أن منهم من
 طلب الشفاعة من الاصنام ومنهم من تبرأ من الاصنام وتعلق بالصالحين مثل عيسى وأمه
 والملائكة والدليل على ذلك قوله تعالى « أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم
 أقرب ويرجون رحمة ويخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا » ورسول الله لم يفرق
 بين من عبد الاصنام ومن عبد الصالحين بل كفر الكل وقاتلهم حتى يكون الدين كله لله
 واذا عرفت هذه القاعدة * فاعرف القاعدة الرابعة * وهى أنهم يخلصون لله في الشدائد
 وينسون ما يشركون والدليل على ذلك قوله تعالى « فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له
 الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون » وأهل زماننا يخلصون الدعاء في الشدائد لغير الله

فاذا عرفت هذا * فاعرف القاعدة الخامسة * وهى أن المشركين فى زمان النبىؐ أخف شركا من عقلاء مشركى زماننا لان أولئك يخلصون لله فى الشدائد وهؤلاء يدعون مشايخهم فى الشدائد والرخاء * والله أعلم بالصواب انتهى بنصه

ووردت الاخبار بخروج الصدر الاعظم يوسف باشا من دار السلطنة فى جيش عظيم لقتال الوهابيين وخروج آخر اسمه سليمان باشا من مدينة بغداد فى عسكر أيضا لقتالهم فجعل محمد على باشا يتأهب للخروج ورسم بتحصين قلاع القلزم وتعيينها بالاسلحة وآلات الحرب وأكثر فيها من المؤنة والماء وقصد بها طائفة من الجند حتى صارت على قدم الاستعداد وأنشأ على ساحل بولاق معلا لمد السفن وصنعة التجارة سماه الترسانة وعمل السفن والشوانى الكبيرة وجمع لذلك الصناع والتجارين والحدادين فكانوا يهيئون الاخشاب ويصلحونها ويحملونها على ظهور الجمال الى السويس فيضمون بعضها الى بعض وينزلونها الى بحر القلزم فعملوا من ذلك أربع سفن كبيرة وعدة سفن صغيرة وشحنوها بالآلات والمهمات الحربية فصارت على أهبة السفر الى الاقطار الحجازية وأظهر محمد على باشا الاهتمام بهذه الحملة * فبينما هو على هذا الحال من جمع الجند وآلات الحرب اذ جاءه الخبر بالتحذار الامراء المصريين الى الجيزة وأنهم نصبوا خيامهم خارجها ومعهم كثير من العربان والهواره ولموم أنهم يريدون حضور محمد على باشا لملافة من تعاهد منهم على الصلح فلم يلتفت محمد على الى ذلك ولم يحضر ولم يرسل أحدا من قبله فى ذلك اليوم فساء ذلك ابراهيم بيك الكبير وعددها اهانة له ولاصحابه ومن حضر معه على العهد من الامراء فلما كان ثانى يوم عبر شاهين بيك الالى الى شبرى واجتمع بمحمد على باشا وعاتبه وأغلظ عليه القول ثم نزل من عنده وعبر النيل الى الجيزة وأمر فنقلوا متاعه وجميع أثاثه ونساءه وسيرتهن الى الفيوم ونسى محاسن القصر الذى كان يسكنه بالجيزة وانضم الى ابراهيم بيك الكبير وبقية الامراء وخالف العهد وكفر بالنعمة وجمع اليه مماليكه وأتباعه وعساكره ونصب خيامه على مقربة من خيامهم ورتبوا الامر بينهم وقسموا مواقع الحرب والقتال واختص كل فريق منهم بجهة وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فسير اليهم بلاطفهم ويطيب خواطرهم فلم يقبلوا وتجاؤا وأغلظوا فى القول ورموه بالخديعة وشاع الخبر بذلك بمصر والقاهرة فخرج اليهم أيضا من كان محتفيا من العساكر والاجناد المصريين وعبروا النيل الى الجيزة فكثر لمومهم وكبر جيشهم فاستعظم محمد على باشا الامر وخشى العاقبة فأخذ فى التجهيز ونادى فى عسكره بالخروج فعبروا النيل وهو فى مقدمتهم ونزل بقصر الجيزة وتحققت المفاقة وتحصن الامراء خلف السور ووقفت أمامهم عساكر محمد على باشا ولبثوا على هذا الحال الى ثانى يوم ولم يقع بينهما ضرب ولا قتال ثم ترفع المصريون الى ناحية دهشور وزين فأمسك عليهم محمد على باشا الطرق ومنع عنهم المواصلات وشد فى المنع وبث العيون والارصاد واستمال من كان معهم من عربان أولاد على وغيرهم وأمنهم فتركوهم وأتوا اليه خاضعين

فأحسن اليهم وردهم الى أوطانهم وسير طائفة من العسكر لقتال شاهين بيك ومن معه فالتقوا بهم عند صول والبرنيل وقد جعلوا بها المتاريس ونصبوا عليها المدافع فقاتلوهم حتى أجلوهم عنها وملكوا المتاريس وقد مات من الفريقين خلق كثير وانقسم الامراء المصريون الى قسمين قسم عبر النيل الى شرق اطفح وقسم قفل راجعا الى الجزيرة لقتال المرابطين بها وابعادهم عنها فلم ينالوا منهم أربا وجعل محمد علي باشا يستميل من كان مع شاهين بيك من الامراء المصريين والكشاف وما زال بهم حتى تخلوا عن شاهين وانحازوا الى عسكر محمد علي باشا فأكرم لقاءهم وخلع عليهم خلع الرضاء وشاع خبر رجوعهم عند أصحاب شاهين فزال ذلك هيئته وسقطت كلمته ورجع من كان على قدم الطاعة اليه والانضمام الى عسكره وقام عليه أهل البلاد التي كانوا يرون بها ومنعواهم من ضرب المغارم وأخذ الكلف وطردهوا المعينين لذلك من قبله وكادت تتسلاشى سطوته وتنفرك كلمة من كانوا معه وأحسن محمد علي باشا بانصرام حزمته فشدد في مطاردتهم وضيق عليهم من كل صوب وحذب وارتحل بعساكره من الجزيرة ومعه ولده الامير طوسون الى جزيرة الذهب ثم ساروا منها الى الصعيد فكان كلما اقترب من منازل المحاربين انسحب من جوعهم العدد الكثير وانحازوا اليه وقدموا له الطاعة * فلما كان يوم السبت عاشر رجب سنة خمس وعشرين التقى الجمعان واقتتلا قتالا عنيفا فاستظهرت عساكر محمد علي باشا على الأمراء وأبلاوا فيهم بلاء حسنا فترفع الأمراء الى الصعيد وتبعنهم الجيوش المصرية فلما رأى جماعة الأتقي أنهم مأخوذون استأمن منهم طائفة كبيرة وتناجعت انتصارات محمد علي باشا وضعفت عزيمته الامراء المصريين فكانوا كلما اقترب العسكر من منازلهم تركوها وترفعوا الى الصعيد وبينما هو على هذا الحال اذ جاء الخبر بقدم رسول من جانب السلطان بفرمان وأنه نزل بقصر شبرى من ضواحي القاهرة فأنحدر محمد علي باشا الى القاهرة على عجل وصعد الى قلعة الجبل وطلب اليه الرسول فقابلته برهة لطيفة شاع بعدها الخبر بأن السلطان راغب في سرعة قتال الوهابيين والتعجيل في تسيير العساكر المصرية لقتالهم فأظهر محمد علي باشا الاهتمام بذلك وأمر بالتأهب والاستعداد وأكثر من جمع العساكر ونادى فيهم بالخروج فاجتمعوا عند قبة العزب ونزلوا هناك أياما حتى يتم خروجهم وقد سلم قيادتهم الى ولده الامير طوسون ثم نادى مناديه باجتماع الامراء وسائر أرباب الوظائف ورجال الحكومة في قلعة الجبل ليركبوا في غدا بتجملاتهم وزينتهم ويسيروا أمام موكب الامير طوسون عند خروجه بعسكره الى مدينة السويس

فلما أصبح يوم الجمعة سادس صفر سنة ست وعشرين ومائتين وألف ركب جميع الامراء والكشاف وصعدوا الى قلعة الجبل في ممالكهم وأتباعهم وأجنادهم بتجملاتهم وزينتهم ودخل الامراء منهم على محمد علي باشا وتحدثوا ساعة وهو يظهر لهم غاية البشر والايثار ثم أمر فصار الموكب على الوضع الذي رتبوه فكانت طائفة الدلاة في المقدمة ومن خلفهم طوائف العسكر

مطلب
قتل أمراء العسكر
المعروفة بقتل الغز

المشاة والفرسان وأرباب المناصب وكان محمد علي باشا قد أطلع حسن باشا وصالح چوق والكتخدا على مافي نفسه من الغدر بالامراء المصريين وقطع شأفتهم وأسرب ذلك أيضا في صبح اليوم ابراهيم أغا أغات الباب فلما سار الموكب من باب العرب وفرغ طائفة الدلاة ومن كان معهم من الوجاقلية وانفصلوا من الباب المذكور أشار صالح چوق فأغلقوا الباب وعرف أصحابه بالمراد فأطلقوا في الحال نيرانهم على المصريين وقد انحصروا جميعهم في المضيق المنحدر من الحجر المقطوع في أعلى باب العرب مابين الباب الاعلى الذي يتوصل منه الى رحبة سوق القلعة الى الباب الاسفل * وهو مشاهد الى يومنا هذا * وقد كانوا أعدوا عدة من العساكر أوقفوهم على الجدران التي بذلك المضيق فلما أطلقت البنادق من الواقفين عند الباب هم الامراء بالرجوع الى الوراء فلم يتمكنوا من ذلك لتكاثر الخيل من خلف وقد أخذهم ضرب البنادق من خلفهم أيضا واشتدت عليهم النيران وتتابعت وسمع العسكر الواقفون بالاعلى فأطلقوا نيرانهم أيضا فلما نظروا ماحل بهم سقطوا في أيديهم وارتيكوا ووقع منهم قتلى كثيرون وترجل أكثرهم عن خيولهم واقحم شاهين بيك الالفى وسليمان بيك الابواب في عدة من عماليكهم راجعين الى فوق ونزعوا ما كان عليهم من الفراوى والسياب الثقيلة وساروا والسيوف في أيديهم حتى الرحبة الوسطى المواجهة لقاعة الاعددة وهي قاعة صلاح الدين يوسف وقد قتل أكثرهم برى البنادق وأصيب شاهين بيك وسقط على الارض فانقضوا عليه وقطعوا رأسه وأسرعوا بها الى محمد علي باشا وكان محمد علي باشا عند ماساروا بالموكب قد دخل الى بيت الحريم وهرب سليمان بيك البواب وتساق الى حائط البرج الكبير فأصابوه برى الرصاص فسقط فاحتزوا رأسه أيضا وهرب كثير الى بيت الامير طوسون مستجيرين فلحقوهم وقتلوهم وأسرف العسكر في القتل وتبعوا الشاردين في نواحي القلعة وقبضوا على من لم يكن في الموكب أيضا وقتلوهم في تلك الليلة واستمر القتل يوم الجمعة بطوله وليلة السبت ويوم السبت فكان المنظر مخيفا للغاية والارض مغطاة بالحث والاسلحة ونياب القتلى * وأنفذوا الى كشاف الاقاليم بقتل جميع من يوجد عندهم من طوائف الممالك وفوض محمد علي باشا أمر ذلك الى كتخدا فبالغ في البحث والتفتيش عليهم بالجهات القبلية والبحرية ونزلت العساكر الى بيوت الامراء فنهبوا مافيها وسبوا النساء وأخشوا في القتل واخراج الخدرات حاسرات الرؤس وركب محمد علي باشا ونزل من قلعة الجبل في ضحوة يوم السبت وحوله أمراؤه الكبار مشاة وأمامه طائفة الصقاشية والجاويشية بزيتهم ولباسهم الفاخر مشاة وهو راكب على فرس وهم محدقون به وأمامه وخلفه عدة أخرى ونادى مناديه بمنع النهب وأمر بقتل من يضبط ومعه شيء من المنهوبات فانكف الجند وامتنعوا * وسير الكشاف برؤس القتلى من الممالك ممن كانوا بالمدائن والقرى بالاقاليم القبلية والبحرية فكانت شيئا كثيرا جدا * قال بعض الكتاب * فلم ينبج من طوائف الالفية الاثنان وهما أحمد بيك زوج ابنة ابراهيم بيك الكبير فقد كان غائبا في بلدة بوش وثانيهما أمين بيك

وقيل انه ألقى بنفسه وهو على ظهر جواده من السور المجاور لقاعة الاعمدة الى ميدان الرملة فمات جواده ونجا هو وهرب الى الديار الشامية فكانت عدة من مات من المماليك في هذه الواقعة زهاء الاربعمائة ومن الاتباع والكشاف وغيرهم زهاء الستمائة وبينهم مرزوق بيك بن ابراهيم بيك الكبير فوجدت عليه أمه وجدا عظيما وطلبت جثته فأخرجوها من بين القتلى فدفت في مدفن أعدته له * ووصل الخبر بما وقع للأمراء المصريين الى أحمد بيك الثاني وهو بموش فسار من فوره الى الصعيد الاعلى واجتمع عن فيه من الأمراء وأعلم ابراهيم بيك الكبير بما جرى لولده مرزوق ففرز حزنا عظيما ولبسوا جميعا السواد وجلسوا للعزاء وما زال القتل متتابعاً فيمن يعثرون عليه من طوائف المماليك شرقاً وغرباً وفي أصحاب البيوتات القديمة منهم حتى كادوا يمحون أثرهم فأرسل ابراهيم بيك ومن معه يطلب من محمد علي باشا الأمان وأن يرسم لهم بالجهة التي يعيشون فيها فلم يرد عليهم جواباً وأرسل لقتالهم مصطفى بيك في طائفة كبيرة من عسكر الارنؤط واهتم بعد ذلك بتعبية الجند والسلاح لقتال الوهابيين وكأنه قد تفرغ لذلك فجمع منهم طائفة عظيمة وعقد لابنه لواء الامير طوسون هذه الحملة فلما كان يوم الاحد سادس ربيع الاول سنة ست وعشرين نزل الامير طوسون بجيشه من قلعة الجبل في موكب حافل وأمامه المدافع وآلات الحرب وعسكر بركة الحاج وأقام بها حتى تكامل جيشه وسافر محمد علي باشا الى السويس وقد سير ما كان في مينائها من السفن ومراكب الحرب فسارت الى ينبع وتقاتلت مع من بها من الوهابيين ونالت منهم ثم سار الامير طوسون بجيشه من البركة في يوم الخميس التاسع من رمضان هذه السنة فوصلوا في السابع من شوال الى بندر المويلح وعيدوا العيد بقابر شعيب يوم السبت ثم ساروا الى ينبع وملكوها من غير قتال وساروا الى منزلة الصفراء والحديدة فوجدوا فيها عند سفح الجبل متاريس فقاتلوا عليها حتى أخذوها ثم تسلقوا الجبال فالتقى فريق منهم بجيوش الوهابيين فانتشب بينهم القتال وثاروا عليه يوماً وليلاً ثم انجلى عن هزيمة المصريين فرجعوا القهقري واختل نظامهم وتبدد شملهم وطلبوا السفن وكان قد حضر منها بساحل البريك عدة مددا فلحقوا بها وتزاحوا عليها وتفرقت دواب الجمل وتشردت وترك الجنود خيامهم وسلاحهم مع جميع متاعهم وكانت وقعة من أشد الوقائع ورجع الامير طوسون الى ينبع بعد تغيبه يوماً عن معسكره وقد ظنوا موته ولبث ينبع أربعة وعشرين يوماً حتى جمع شتات عساكره المشاة أما الفرسان فقد رجعوا الى الورا وما زالوا حتى وصلوا الى المويلح وقد أجهدهم الجوع وأضناهم الوبس فقتلوا بها ووردت الاخبار بما حصل الى محمد علي باشا فلم يتزعزع ولم يفتقر له همة ونادى في العسكر المقيمين بمصر والقاهرة بالخروج وشدد في النداء وبرز الى ضواحي القاهرة وخرج العسكر فرتبهم وعقد لواءهم لبونا بآرته الخازندار فسلخوا الى ينبع ليرابطوا بها وجيش جيشاً آخر وعقد لواءه لصالح بيك السهدار وجعل معه جماعة من الكشاف

واستقدم من كان مع الامير طوسون فحضروا فأمرهم بالخللاء عن مصر والرحيل الى بلادهم فلم تسعهم الخافسة وخرجوا في عدة كبيرة من العساكر الارنوط وخرج بنفسه لقتال الوهابيين والاخذ بئار من مات من رجاله فصار بجيش عظيم ومعه حسن باشا طاهر وأخوه عابدين بيك فلم يسر مرحلة عن القاهرة حتى وردت اليه الاخبار في ثاني يوم باستيلاء من بقي من المصريين على عقبة الصفراء والحديدة بغير حرب ولا قتال وأنهم لم يجدوا فيها أحدا من الوهابيين ففرح بذلك وسار الى السويس ولبث فيها أياما وقد عدل عن المسير الى الجباز فجعل بتسيير الجيوش التي كانت معه برا وأنزل طائفة منهم بالسفن والشواني وسير كذلك مصطفى بيك والى باشا بجميع عساكر الدلتية ومعهم شئ كثير من المؤن وآلات الحرب وعاد الى مصر فلما دخل القاهرة وردت اليه الاخبار بوصول عساكره الى المدينة وأنهم نزلوا بقناتها وقد أحضر المبشر بهذا الخبر مفاتيح المدينة فزينت لذلك البلد ثلاث ايام أولها يوم الخميس ثالث عشر ذى الحجة سنة سبع وعشرين ومائتين وألف هجرية فأرسل المفاتيح مع رسول مخصوص الى دار السلطنة

وبينما كان بعض عساكره يقاتل الوهابيين ويسترد منهم ممالكهم من بلاد الجباز كان البعض الآخر يطارد أيضا من بقي من الامراء المصريين حتى أجلاهم عن الصعيد وما زالوا على أثرهم حتى ترفعوا الى النوبة ودخلوا ابريم فقطعوا عنهم الواصل وسدوا عليهم المسالك وقبضوا على كثير من أتباعهم وقتلوه وما زال يشدد في تتبعهم بالقتل والتشريد حتى أمن شهرهم فأمر ولده ابراهيم على جميع الاقاليم القبلية وأطلق له فيها التصرف وأخذ هو في تدبير أمور البلاد فأكثر من المشروعات المهمة والاعمال المفيدة كحفر الترع وترميم الجسور وانشاء الحصون والمعقل بمدينة الاسكندرية * وبعضها باق الى هذا اليوم * وأنشأ المعامل العظيمة لمذ السفن ومراكب الحرب وهيا عمارة حربية عظيمة وسلحها بالمدافع وآلات القتال وسير منها عدة كبيرة مسددا الى ولده الامير طوسون وكان يظن ذهاب شوكة الوهابيين وسقوط كلمة زعيمهم الامير سعود وقد كان الامير سعود هذا قد انكشف عن قتال عساكر الامير طوسون حينما ترفع بقومه الى بعض الجبال ولكنه عاد في سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف فهاجمهم بعدة كثيرة من أصحابه ناحية طراباي شرق مكة فلكها وكانت شدة القميط قد فعلت بالعسكر المصري فعلا رديئا جدا ثم سار الى المدينة وملك جميع أرباضها والقرى المجاورة لها وأخفش في النهب والسلب وقاتل من بها من العساكر المصرية وضيق عليها ومنع عنها الواصل فكان كل من هرب من الحصار وفعل راجعا الى وراء قبضوا عليه وقتلوه ووصلت الاخبار بما جرى فشق الأمر على محمد علي باشا وأعظمه وجيش جيشا عظيما وخرج به من القاهرة يوم الجمعة ثالث عشر شوال سنة ثمان وعشرين ومائتين وألف ونزل ببركة الحاج ثم سار منها الى السويس فلاقاه المبشرون في الطريق وبشروه بسقوط عثمان المضاني في أسر الامير طوسون وكان المضاني هذا قد

خرج في لوم كثيرة لقتال من بالطائف من العسكر المصري فبرز اليه الشريف غالب بالعسكر المصري وطوائف العربان وقتلوه واشتد القتال بين الفريقين فأصيب جواد المضايقي فنزل عنه واحتلظ بالعسكر فلم يعرفوه فخرج من بينهم هارباً فصادفه جماعة من جنود الشريف غالب فعرفوه وقبضوا عليه وقد أصابته جراحة فلما مثل بين يدي الشريف أمر فقيده بالخديد وسير به الى الامير طوسون * قال بعض كتاب الاخبار * والمضايقي هذا زوج أخت الشريف خرج عنه وانضم الى الوهابيين فكان أكبر عون لهم وكان هو الذي يستميل لهم طوائف العربان فلما لذلك أمره واشتهر ذكره فدوخ المدن وفتح منها عدة كثيرة واقتح الطائف وله وقائع وحروب مشهورة أضربنا عن ذكرها هنا

ولما وصل محمد علي باشا الى ينبع سير طلائع عسكره الى المدينة فناوشوا من كان حولها من أصحاب الوهابي وأجلوهم عنها فنزل عليها محمد علي باشا وأدى فريضة الحج ثم أخذ في تدبير أمور الحملة ومال الى الشريف غالب وأنظر له الولاء والمحبة فالتخضع الشريف وبقي معه على ذلك أياماً ثم قبض عليه هو وثلاثة من أولاده وسيرهم مع نفر من الجند الى جدة وأنزلوهم بأحدى السفن فأقاعت بهم الى مصر عن طريق القصير * قال بعض الكتاب * وتحرر الخبر أنه لما وصل محمد علي باشا الى مكة جدد العهد مع الشريف غالب وحلفا الايمان في جوف الكعبة بأن لا يخون أحد صاحبه ولا يغدر به ولا يعمل على اذائه فكان بعد ذلك يذهب كل منهما الى الآخر في قلة من أصحابه واستمر على هذا الحال زهاء خمسة عشر يوماً من ذى القعدة فلما كان أحد الايام دعا الامير طوسون الشريف غالب الى بيته فأتاه في قلة على عادته فلما اقتحم الدار رأى فيها من العساكر والاجناد ما رآه فصعد متخوفاً فلما استقر به المجلس حضر عابدين بك في نفر من الجند وصعد الى المجلس ودنا من الشريف وأخذ يخبره من منطقته وقال له قم قد بعث سيدنا ومولانا أمير المؤمنين في طلبك الى دار السلطنة فقال على السمع والطاعة ولكن لي أشغال أقضيها في ثلاثة أيام فقال لاسبيل الى ذلك وقد أعدنا لك سفينة لنحملك فلما سمع جماعة الشريف وعبيده هذا القول فحزبوا وأسرعوا الى الأبراج التي هي مقر الشريف يريدون القتال فأرسل محمد علي باشا يتهدهم بحرق المدينة ان هم فعلوا شيئاً وأرسل الشريف كذلك ينهاهم عما عزموا على فعله وكان أولاد الشريف الثلاثة في بيت له فأرسل اليهم محمد علي باشا أحد خواص الشريف وما زال يخادعهم حتى اتخذ كبيرهم فنزل بهم متحفظاً الى مكان وفي الحال استحضر محمد علي باشا الشريف بحبي بن سرور وهو ابن أخي الشريف غالب ونخلع عليه وقلده امانة مكة ونودي بذلك وطيروا خبره الى الآفاق وأقام الشريف غالب أربعة أيام ثم أنزل الى سفينة فسارت به الى القصير ومنها الى القاهرة فاستقبله كتحدا الباشا بالاحتفال والاحتفاء وأطلقت لقدمه المدافع وأنزلوه ببيت السيد المحروقي أياماً ثم

أعدوا له دارا أخرى وأسكنوه بها وجعلوا الجند على بابه تحرسه ثم قدم بعده أيضا ولد أخيه الشريف عبدالله بن الشريف سرور مبعدا منفيا فأنزله في دار مخصوصة محجورا عليه ولم يجتمع به ولم يره قيل وكان هذا كله بأمر من دار السلطنة فكانت لذلك تنصرف عن الأمير طوسون طوائف العربان الذين أتوا بكلمة الشريف غالب وتقاءسوا عن القتال معه وفترت همهم وانفسلوا وهاجر الكثير منهم ومن الاشراف وانضموا الى الوهابيين وقتلوا جيوش الأمير طوسون قتالا عنيفا وأبلوا بلاء حسنا فوقع بسبب ذلك في الحرمين غلاء شديد وقيل الوارد من الحبوب والدقيق واشتد الجوع وهاجر الفقراء الى الجبال فكانت شدة عظيمة جدا ۞ ومات في هذه الاثناء سعود شيخ الوهابيين فولى الوهابيون ولده عبدالله مكانه وكان يظن انفسالهم بعد موته ووردت الاخبار بذلك الى الأمير طوسون ففرح وأمر عساكره فزحفوا الى ناحية (فنفده) وحاربوا عليها أياما كثيرة حتى فتحوها واستولوا عليها ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بوقوع الشريف غالب في أسر المصريين فحضر منها قاصد يخبر بوجوب جمع ما أخذ من الشريف ورده اليه من متاع ومال وذخائر وكان محمد علي باشا قد أرسل الى دار السلطنة من ذخائر الشريف مسجنتين من أولئ فاستحضرهما معه ذلك القاصد ووردهما للشريف فلما كان يوم السبت التاسع عشر شعبان سنة تسع وعشرين أنزلوا الشريف غالب الى بولاق بنسائه وأولاده وعلمائه وعبيده فسافروا مع القاصد الى دمياط ومنها الى سلاطيك وأرسل محمد علي باشا في طلب الشريف عبد الله بن سرور الى الديار الجبازية وكانوا قد شددوا في البحر والتضييق عليه وكان لما حضر الى مصر وأقام محجورا عليه أياما رأى كخدا بيك عدم المانع من اخلاء سبيله يغدو ويروح في الشوارع وعند المعارف والاحباب واستمر على هذا الحال شهرا ثم زينت له نفسه الفرار فاختفى أياما فأزعج كخدا بيك فراه واستحضر سائر مشايخ الخارات وشدد عليهم في احضاره وبث العيون والارصاد واهتم لهذا الامر جدا فلما كانت ليلة السبت ثامن عشر رجب سنة تسع وعشرين حضروا به في وقت الغروب الى بيت السيد المحروقي فسلمه الى كخدا بيك وكانوا قد عثروا عليه بحلوان فضيق عليه هو وعه من ذلك الوقت ومنع من خروجهما حتى سافر الشريف غالب الى سلاطيك وسافر عبد الله المذكور الى الديار الجبازية

ورأى محمد علي باشا أنه لا بد من مصالحة الاشراف واسترضائهم كي تنضم أسباب الخصام وتبطل الحرب بعد أن طالت أيامها وملت منها نفوس الجند فجعل يعمل ويدبر حتى استمال الشريف راجح وتودد اليه وأظهر له غاية الاخلاص وأمدده بالمال وأجزل له العطاء فكانت مصالحته سببا في ظفر جيوش الأمير طوسون وفوزهم وارتفاع كلمة محمد علي باشا وقد دانت اليه الامور وتم له المأمول وزيادة ووصل الخبر بذلك الى دار السلطنة فجاءه فرمان السلطان باضافة الديار الجبازية الى ولاية مصر وجعلها كلها ولاية واحدة خاضعة لحكمه ففرح محمد علي باشا فرحا عظيما وطير الخبر بذلك الى الأفاق ولبث

بالخجاز يدبر الامر و يحسن حال جيش الامير طوسون حتى أصلى ما أراد وقفل راجعا الى مصر
ودخلها في ليلة الجمعة خامس عشرى رجب سنة ثلاثين ومائتين وألف هجرية في قلة من
الخدم والاتباع وبعض الجند قد سبق الناس الى رفع التقادم والهدايا اليه وقد احتجب
عن الخروج أياما ثم خرج وصعد الى قلعة الجبل وأخذ في اعداد مالزم لعساكر الامير
طوسون وأكثر من جمع الجند وآلات الحرب وبالغ في ذلك كثيرا والناس في ريب وطيرة
لا يدرون ما سيكون من وراء هذا الاهتمام وعمد الى تنظيم هيئة الجندية وتنسيقها
على نسق عسكر الفرنسي فشاور مقدمى الجند في ذلك وجعل يستميلهم الى رأيه فلم يقبلوا
فأمر بعسكر ولده اسمعيل وكلهم من المرتقة فاجتمعوا بظاهر بولاق فأوقفهم صفوفًا وأعلمهم
بقصده من ترتيبهم على نسق عسكر الفرنسي فلم تعجبهم مقاتلته وأكبروا الامر جدا
وأظهروا العصيان والخروج على كبارهم وباتوا ليلتهم تلك بين أخذ ورد وأصبحوا وقد
اتفقوا على قتل محمد على باشا والغدر به ووافقهم على ذلك أيضا بعض كبارهم فلما كانت
ليلة الجمعة ثامن عشرى شعبان من السنة اجتمع عند عابدين بيك جماعة من أكابر الجند
في وليمة وبينهم محويك وعبد الله أغا سارى جله وحسن أغا الارزنجلى فتناجوا فيما يريد
محمد على باشا وفيما تقرر بين الاحزاب من الغدر به فأعجبهم رأيهم واتفقوا على الركوب
عليه في تلك الليلة واغتياله قبل أن يستشعر بالامر وأن يهجموا عليه عند مطلع الفجر في
بيته الذى بالازبكية ونحالفوا على ذلك واستوثق بعضهم من بعض ثم عادوا الى ما كانوا
عليه في مجلسهم غافلهم عابدين بيك وتركهم في أنسهم ولهوهم وخرج متنكرا مسرعا
الى محمد على باشا وأخبره بخبرهم ورجع الى أصحابه فلم يعلموا من أمره شيئا وأسرع محمد
على فى الركوب فى سادس ساعة من الليل وطلب عسكر طاهر باشا فركبوا معه وقد أحاط
الدار بالعسكر ثم أخلف الطريق وذهب الى ناحية البركة الناصرية ومرى النشاب وصعد
الى قلعة الجبل وتبعه من يثق به من الجند فلما قارب الفجر قام المتآمرون يريدون الهجوم
على دار محمد على باشا فماتهم المرباطون واشتد بينهم رى البنادق فقتل منهم عدة ولم
ينالوا غرضا فساروا الى ناحية قلعة الجبل وقد علموا بصعود محمد على باشا اليها واجتمعوا
بالرميلة وقراميدان وتحيروا فى أمرهم واشتد غيظهم ووقفوا وهم لا يدرون ماذا يفعلون
ثم أجمع رأيهم على أن يتفرقوا فى المدينة وينهبوا متاع الرعية وأموالها فنزلوا من وسط
قصة رضوان على الصليبية والسروجية وجعلوا يكسرون أبواب الحوانيت المغلقة وينهبون
ما فيها وقد كان الناس لما تسامعوا بالحركة أغلقوا حوانيتهم وأبواب دورهم وتركوا تجارتهم
طلبا للسلامة وانضم الى النافرين من بقى طائعا من الجند وعمت الفوضى وبادروا جميعا
الى النهب والخطف وشاركهم العامة وأراذل الناس ومضوا على طريقهم الى داخل باب
زويلة وكسروا حوانيت السكرية وأخذوا ما فيها من أموال وبضائع ومضوا فى سيرهم الى
العقادين والغورية والاشرفية وسوق الصاغة ووصلت طائفة الى سوق مرجوش فكسروا

مطلب
العزم على قتل
محمد على باشا ونهب
دكاكين تجار
المدينة

أبواب الحوانيت والوكايل والخانات ونهبوا ما فيها من أقمشة وغيرها ومروا بخان الخليلي
وأرادوا مد يد النهب فنارت عليهم طائفة الاتراك الذين يتعاطون التجارة الساكنين بخان البن
والنحاس وأطلقوا عليهم نارا حامية وكذلك فعل من كان منهم بباب الزهومة حتى ردوهم
ومنعوهم وقام عليهم أيضا طائفة المغاربة بالفحامين وحارة الكعكيين وأطلقوا البنادق فردوهم
عن تلك الناحية وأغلقوا البوابات التي على رؤس الحارات وجلس عند كل باب جماعة
ومن فوقها آخرون من أهل الخطة وبأيديهم البنادق لمنع الواصل اليهم ووصلت طائفة
الى خان الحراري فعاجلوا بابه حتى كسروا الخوخة التي بالباب وعبروا الخان وكسروا
حواصل التجار كافة ونهبوا ما وجدوه من الاقمشة الهندية والسامية والمقصبات وتبعهم
في ذلك الخدم والعامية وأخرجوا ما في الدكاكين والحواصل من الاموال وأنواع
البضائع وكان القوي منهم يعدو على الضعيف فيأخذ ماله ويقتل بعضهم بعضا وكسروا
أبواب الحوانيت التي خارج الخان بالخطة وأخرجوا ما فيها من التحف والاولاني الصينية
والبلور وأنواع الزجاج وكذلك فعلوا بسوق البندقاتيين وكثر خلفهم النهائون والغوغاء
واستباح الناس يومئذ أموال بعضهم وكان هذا الحادث من أشد الحوادث وأنسكاها بالرعية
قال بعض الكتاب وقد تم هذا كله في ظرف مدة لا تتجاوز الخمس ساعات وذلك من قبيل
صلاة الجمعة الى قبيل صلاة العصر ولم تصل الجمعة في ذلك اليوم وأغلقت المساجد بداخل
المدينة وأخذ الناس حذرهم وتسلموا وأغلقوا البوابات وسهروا الليالي وأقاموا على التحذر
والتخوف * وأصبح يوم السبت تاسع عشر شعبان موافقا لآخر يوم من شهر أبيب وقد
أوفى النيل أذرعه وكان في ذلك اليوم أيضا رؤية هلال رمضان فلم يعمل فيه شيء من
المراسم المعتادة لقيام الفتنة فلما سكن الحال رسم محمد علي باشا بإحصاء ما نهبه
العسكر وتقويمه لردده لاصحابه من ماله فطلع اليه كبار العسكر يمتدرون ويتصلون من
تبعه ما فعله الجند فرسم لهم بجمع ما يمكن جمعه من النهائين ففعلوا وشقوا في وسط المدينة
ونادوا بالامان فلم تظمئ خواطر الرعية ونزل كتحذا بيك وجلس عند جامع الغورية ورسم
لاهل الاسواق بفتح حوانيتهم وأن يجلسوا فيها على عادتهم ففعلوا على تخوف وأخذ محمد علي
باشا يتدبر في أمر أولئك العسكر ويعمل على تمزيق شملهم فاستعمل مع بعض كبارهم
المسايرة وقربهم من مجلسه وتلف اليهم جهد الاستطاعة وأجزل لهم العطاء ورفعهم الى
الرتب السامية ولم يجهل في عمله بل لازم الثأني والصبر * فلما كان شهر ربيع الآخر من سنة
احدى وثلاثين أمر أولاده بالخروج عن معهم من العساكر والاجناد الى ظاهر المدينة
والاقامة على أهمية السفر وأسر اليهم ما في ضميره من قتل كبار الفتنة وزعماء هاته
العصابة وخاطب أمراء العسكر في الخروج نخرجوا وعسكروا بظاهر المدينة وصحب مع
ولده الامير طوسون رجلا من خواصه اسمه أحمد أغا المنجورجي المدالي ووكل الى الامير
طوسون تدبير أمر قتل القوم فأخذ الامير طوسون في التدبير وعمل الحيلة وبدأ بمحويك

وهو أعظمهم قدرا وأكثرهم جندا وأخذ في استمالة عسكره وابعادهم عنه وما زال حتى لم يبق مع محبوبك الا القليل فلما تمكن من ذلك وصار قنله أمرا مقضيا أرسل اليه يدعو لمشورة فلم أجد أعا المجبور حتى بما وراء ذلك فذهب اليه وأسر اليه بما يراد به فعله وأشار عليه بعدم الذهاب فركب محبوبك من فسوره وذهب الى كبار الدلاة مستجييا فشفعوا فيه عند محمد علي باشا وقد علم محمد علي بما فعله أعا فأمر به فقتلوه عند باب زويلة وتركوا جثته ملقاة يوما كاملا وتحرز كبار الجند وداخلهم الخوف والقلق وأخذتهم الطيرة فأقام الامير طوسون بعسكره أياما حتى رسم له أبوه بالرجوع الى الجناز فعاد اليها بعسكره وسير الى الشريف عبد الله بن مسعود الذي تولى زعامة الوهابيين بعد موت أبيه من يخبره في الصلح وطالت المخاطبة بينهما الى أن تقررت القاعدة على ما يحببان فحضر جماعة من الوهابيين نحو العشرين وأقاموا عند الامير طوسون رهائن على تنفيذ عقد الصلح وحضر منهم اثنان الى مصر وأبلغا محمد علي باشا ما تقرر بينهما وبين الامير طوسون ثم رجعا * فلما كان اليوم الاول من ذي القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثين وصل الامير طوسون الى السويس وأتى الى القاهرة فزينوا لقدمه المدينة وعملاؤه موكبا حافلا فدخل من باب النصر وعلى رأسه الطبلخان وشعار الوزارة وطلع الى قلعة الجبل وأقام بها الى ليلة الجمعة خامس عشره ثم سافر الى الاسكندرية حيث كان أبوه ينتظره ثم عاد الى مصر وقد ولاء أبوه قيادة الجند الاتراك والدلاة وأطلق له التصرف في تدبيرهم * وكان محمد علي باشا في خلال هذه المحن والخطوب مثابرا على مساحة الاراضى وضبط الرزق والاحباس وتعميم الفلاحة وانشاء الترع والجسور واحداث المعامل النافعة وغرس الاشجار الكبيرة وتنظيم الطرقات وتأسيس المدارس واحياء العلوم على اختلافها ولا سيما الطب والهندسة والفلاحة وعمل السفن والمعاقل والحصون وقد بذل النفيس في إعادة السد الممتد الموصول الى الاسكندرية وهو سد أبي قير فقد كان اتسع أمره وتخرّب وزحف منه الماء الملح وأتلف الكثير من الاراضى وأغرق القرى وخرّب المدن والمزارع وتعطلت بسببه الطرق والمسالك وعجزت الدول في أمره ولم يزل يتزايد في التهور وزحف المياه الملحّة على الاراضى حتى دخلت الى خليج الاشرفية الذى تمتلئ منه صهاريج الاسكندرية المعروف الآن بترعة الحمودية فلما اعتنى محمد علي باشا بتشييد الاسكندرية وتعمير أبراجها وحصونها ومعاقلة ما أنزل بها العمارات اعتنى أيضا بأمر السد المذكور وأرسل اليه المباشرين والقوام والعمال والفعلة والتجارين والبنائين والاختشاب وآلات الحديد والاعجار والمؤون حتى تمه و كان له عناية لم تكن لغيره من ملوك هذه الازمان وفيه به بعض المهندسين والعمال وما زالوا به الى هذا الحين

مطلب

موت الامير

طوسون وقيام الامير

ابراهيم بقتال أهل

الجناز بعده

واتفق أن ظهر الطاعون بمصر في هذه السنة أى سنة احدى وثلاثين واشتد أكثر الموت في الناس وكان الامير طوسون قد ذهب الى رشيد وعاد منها الى قصره في برنبال

ففي ليلة وصوله الى القصر أصابه الطاعون فتملأ نحو العشر ساعات ومات ليلة الاحد
سابع شهر ذي القعدة من السنة فكفنه ووضعوه داخل صندوق ووصلوا به في سفينة
منتصف ليلة الاربعاء عاشره وكان أبوه بالجيزة فلم يتجاسروا على اخباره فذهب اليه أحمد
أخو كئذا بيك فلما علم بوصوله ليلا استنكر حضوره في ذلك الوقت فسأله عن سبب
حضوره وعن ولده الامير طوسون فقال انه حضر متوعكا الى شبرا فركب في الحال محمد علي
باشا طرادة وانحدر الى شبرا وصعد الى القصر وصار يمر بالخادع ويقول أين هو أين هو فلم
يقدر أحد على اخباره بالخبر وكانوا قد ذهبوا به وهو في السفينة الى بولاق ورسوا عند
الترسخانة وأقبل كئذا بيك على محمد علي باشا فرآه يبكي فانزعج انزعاجا شديدا وكاد يقع
مغشيا عليه ونزل سفينة وأتى الى بولاق آخر الليل ولازم النعش وهو يبكي بكاء مرا فلما
أصبحوا ساروا بالنعش في مشهد حافل للغاية وصلوا عليه بجامع المؤمنين ثم ذهبوا به الى
المدفن الذي أعده أبوه لموته وكان محمد علي باشا يسير بجانب النعش وعيناه شاخصتان اليه
والدموع تنحدر على خديه ولحيته ولم يخبروا والدته بموته الا بعد دفنه فوجدت عليه وجدا
عظيما ولازم أهل المدينة الحداد أربعين يوما وجلسوا لل عزاء عند قبره ومات وهو في مقبر
الشباب لم يبلغ العشرين وكان أبيض جسيما بطلا شجاعا جوادا كريما يحب المصريين وله
هيبة في قلوب العسكر زائدة وكان محبوبا عند الناس فكانوا يرجون ولايته بعد أبيه وبأبي
الله الامير يد وطار خبر موته الى الآفاق وشاع بين الوهابيين ففرحوا وعادوا الى الخروج
ثانية الا القليل من كبارهم وجاء الخبر بذلك فجهر محمد علي باشا نردهم ولده الامير ابراهيم
وجيش له جيشا عظيما وعددا من مراكب الحرب والشواني الكبيرة فسار وقايل الشريف
عبد الله وفتح بعض المدن والبنادر وأعمل في أهلها القتل والنهب وتغلغل في جوف البلاد
وغاب عن أبيه خبره فانزعج وبعث بطائفة أخرى من العساكر والاجناد وبالغ في المدد برا
وبحرا ثم وردت الأنباء بوصول الامير ابراهيم الى ناحية اسمها (الموتان) وانه قاتل
الوهابيين فيها قتالا شديدا كان له فيه الظفر وقد أسر منهم عدة رجال وأخذ خياما كثيرة
ومدفعين وقبض على زعيم من زعمائهم اسمه * عنيبة * ثم سار بعساكره الى ناحية
الشقراء وكان بها الشريف عبد الله بن مسعود فقاتل عليها قتالا عظيما فخرج منها الشريف
هاربا الى الدرعية فتبعه العسكر وفتحوا كل ما صادفهم في طريقهم من المدن والبنادر حتى
أتوا الدرعية فحاصروها وقتلوا قتالا عنيفا ومنعوا عنها الوصول وأحاطوا بها أياما كثيرة
وضيقوا عليها وشددوا * وانفق أن سار الامير ابراهيم بجماعة من عسكره الى بعض الجبال
لاستكشاف معسكر الوهابيين وقد كان على مرحلتين من الدرعية فتغيب أياما فلما أحس
المرابطون في الدرعية بغيابه خرجوا وقتلوا عساكره حتى أجلوهم وأخذوا خيامهم وآلات
حربهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة واشتدوا عليهم شدة بالغة فكانت وقعة من شر الوقائع وجاء
الخبر الى الامير ابراهيم ففكر راجعا ولكنه لم ينل من الوهابيين فأخذ في تدبير جيشه وجمع

من تشرد منه وطلب من أبيه المدد فأمدّه بعدة عظيمة من المشاة والفرسان وعدة من مرابطي
الحرب فتقوى جند الأمير إبراهيم فأعاد الكرة على الشريف عبد الله وأصحابه واشتد في
قتالهم فقتل الشريف جودة أصابته جراحة وهو في ساحة القتال ناحية الدرعية وضيق
على من بقي فيها حتى أخذها عنوة وقبض على الشريف عبد الله وسير به أسيرا إلى مصر
(قال بعض كتاب الأخبار) فلما مثل بين يدي محمد علي باشا قام له اجلالا وأجلسه بجانبه
ولطفه وقال له « ما هذه المطاولة » فقال الحارب سجال قال وكيف رأيت ولدي إبراهيم
قال ما قصر وبذل الهمة وقد فعلنا نحن فعله حتى كان ما قدره الله فقال سأشفع فيك عند
الخليفة إن شاء الله فقال ما قدر سوف يكون * فألبسه خلعة وانصرف من عنده إلى بيت
اسماعيل باشا بيولاق ولبث أياما ثم سيروه إلى دار الخلافة مع طائفة من الجند تحفوه
وأرسل الأمير إبراهيم فريقا من عسكره ومقدمه خليل باشا لفتح عن الجواز فقاتلها قتالا
عنيفا حتى تغلب عليها وفتحها عنوة فلما وصلت الأخبار بذلك إلى دار السلطنة سر السلطان
بذلك سرورا عظيما وأرسل إلى محمد علي باشا وولده الأمير إبراهيم الهدايا النفيسة والتحف
الغالية وخلع عليهما خلع الرضا * وحضر إلى مصر من بقي من الوهابيين وسقط في قبضة الأمير
إبراهيم فكانوا زهاء الأربعمئة مابين رجال ونساء وأولاد فأسكنوهم بالمكان المعروف بالقلعة
بالأزبكية وبينهم ابن الشريف عبد الله بن مسعود وقد كان أبوه قتل في دار السلطنة بعد
وصوله إليها بقليل فلم يحجر عليهم فعلم الناس منهم أن عن الجواز لم تؤخذ عنوة قالوا لانه لما
مات خوجه شيخها ولوا مكانه ولده أظهر الطاعة للدولة فلما سار خليل باشا لقتاله أخلى له
البلد واعتزل في حصن له ولم يخرج لدفعه ومحاربه كما فعل أبوه وترددت بينهم الرسل وما زال
به خليل باشا حتى أنزله من الحصن وأتى إليه في قلة فقبض عليه وسيره إلى مصر أسيرا * وعاد
الأمير إبراهيم من الاقطار الجبازية في حادى عشرى صفر سنة خمس وثلاثين ومائتين وألف
عن طريق القصير ودخل القاهرة من باب النصر في موكب حافل للغاية وعلى رأسه الطبلخان
السلمى في شعار الوزراء وصعد بالموكب إلى قلعة الجبل ثم عاد إلى مقره بالروضة وقد تراحم
على يابه المهنئون ومدحه الشعراء وقدمت له الهدايا والاعلاق النفيسة وظهرت من هذا
الحين كلمته واتسعت شهرته وهابه الكبراء والأمراء

ونظر محمد علي باشا إلى ما يقاسمه التجار من صعوبة نقل أرزاقهم وقلّة المواصلات فرسم
بتصليح التربة الموصلة إلى مدينة الاسكندرية المعروفة بالاشرفية فقيدها العمال والمبشرين
والمهندسين فأخذوا في حفرها وتنسيقها سنة وبضع أشهر حتى تمت في أخريات ربيع
الاول سنة خمس وثلاثين وجرى فيها الماء وسارت بها المراكب إلى رشيد والاسكندرية
بالأرزاق والبضائع والركاب وفرح الناس بها فرحا عظيما وسافر بها محمد علي باشا وأعجبه
وصفها وسمّاها في ذلك اليوم المحمودية وهى من أجل الاعمال النافعة والمآثر الباقية
إلى يومنا هذا

مطلب
اصلاح تربة
الاشرفية

ولما زالت الفتن من جوف البلاد بزوال الامراء المصريين وقطع شأفة المماليك والغوغاء من الجند والحرافيش وتذليل الوهابيين بالديار الجازية والقبض على زعمائهم وأصحاب الكلمة فيهم وبجز من بقى منهم عن مقاومة المرابطين من العسكر المصري عهد محمد علي باشا الى فتح السودان وقوى عزيمته على الاغارة عليها واستخراج كنوزها ومعادنها فاهتم اهتماما زائدا في تجهيز الجيوش واعداد المؤن وآلات الحرب وجعل ولده الامير اسمعيل مقدّم هذه الغزوة وبالغ في تجهيزه بجميع ما يلزم وضم الى جيشه كثيرا من العربان فصار جيشا ضخما للغاية وسارت طلائعه في أوائل شعبان سنة خمس وثلاثين ثم ارتحل الامير اسمعيل في ذي القعدة من السنة وارتحل معه محمد بيك الدفتردار ليتولى قيادة الحملة الزاهية الى الدارفور ومحبوبك وغيرهم واستقر محمد كتحدا لاظ بأنصنا التي هي اسنا لتوصيل المؤن والذخيرة ودواب الحمل وكان محمد علي باشا الى هذا الحين شديد الرغبة في انشاء جيش من أولاد الناس على نظام عسكر الفرنسيين وقد خلت البلاد من كثير من العسكر الذين ارتحلوا مع ولده الامير اسمعيل الى غزوة السودان فعمد الى تنفيذ ما في نفسه وخاطب أهالي البلاد بأن من يشاء أن يدخل في خدمة الدولة بصفة جندي يصرف له كذا من العلوقة وكذا من السلاح وكذا من الالبسة بشرط أن يكون في سن الخامسة والعشرين أبيض اللون صحيح الجسم سليم البصر فليسجل اسمه في الدفتر الذي أعد لذلك عند مشايخ البلاد وكان الناس جميعا ميالين الى مساواتهم بطوائف الجند فرارا من ايذاهم فتسابقوا الى الدخول طوعا واقتصر بعضهم على بعض بحسن القد وانتظام الهيئة وتسارعوا الى تسجيل أسمائهم فكان اذا اجتمع في البلدة أو القرية اثنان أو ثلاثة سيروا بهم الى بني عدى من مديرية أسيوط حيث كان محمد كتحدا لاظ أوغلي فيسلمهم الى الموكلين بتعليمهم وكان محمد علي باشا قد رسم بأخذ جماعة من ممالك رجال الدولة وأرباب الوظائف فاختراروا منهم من توهوا فيه الصباية واستقدم اليهم ضابطا من عظماء الفرنسيين اسمه (الكولونيل ساف) فأخذ ساف المذكور في تعليمهم العلوم العسكرية حتى تخرجوا ونبغوا وتولواهم تدريب الجند وتعليمهم بحيث لم يعلم بخبرهم من أهل البلاد الا التز اليسير وما زالوا حتى تم لهم تمرين خمسة آلاف مقاتل وكل نظامهم على نحو ما أرادوا وفرح محمد علي باشا بهم فرحا عظيما وأمر فسيروهم مع من خرج من الجند الى السودان في شعبان سنة خمس وثلاثين فقطعوا الشلالات ومروا بشندي والتمسة وأخضعوا كل ما صادفهم في طريقهم من القرى والبادان وهم لا يدافعون الا بالامر الخفيف ثم ساروا الى سنار على البحر الازرق وراء الخرطوم فخرجت عليهم قبيلة الشايقية وقتلتهم قتلا لا غير طويل حتى اسنأمنت فدخل العساكر سنار التي هي عاصمة الكردفان وعسكروا بها ورتبوا أمورهم ثم سار الامير اسمعيل عن سنار الى فيزوغلي في طائفة من عسكره ليكشف حقائق تلك البقاع ويعرف ما فيها من الكنوز والمعادن فاستولى على عسكره المرض وفشا فيهم الوباء وكثر الموت فمات منهم خلق كثير فارسل يطلب المدد فأنت اليه نجدة من ثلاثة

مطلب
فتح السودان
وتدوين أمرائه
وترتيب جيش على
نظام عسكر
الفرنسيين

آلاف مقاتل ومقدمهم أحمد بيك الدفتر دار فقويت عزيمته الأمير اسمعيل وترك الدفتر دار
يدبر الامور في كردفان وسار هو الى الممتدة في عسكر ثم عبر النيل الى شندى ونزل بها وكان بها
سلطان اسمه (نمر) وكان عاتيا شديد البأس جبارا فاستحضره الأمير اسمعيل وضرب عليه
الكلف وقرر عليه شياً كثيراً من الذهب والرجال قيل طلب منه ملء سفينة صغيرة من الذهب
وألقي مقاتل في أجل لا يتجاوز الخمسة أيام فاستعظم غم هذا الامر وبالع في الشكوى
والاستعطاف وما زال بالأمير اسمعيل حتى رضى أن يأخذ عشرين ألف ريال عوض الذهب
ثم سأله أن يعد له الاجل فغضب عند ذلك الأمير اسمعيل وكان بيده شبق الدخان فضرب
غمره به على رأسه وقيل بل ضربه بمنشقة على وجهه وصاح عليه ونهره فخرج غمر من عنده
وهو مضمر له السوء فلما كان المساء من تلك الليلة أكثر غمر من استحضار التبن علفا للجمال
ودواب الجمل والخطب لوقود العسكر وجعل يصفه صفوا حول العسكر بعضه يتصل ببعض
فكان شياً كثيراً جداً ثم أتى الى مقر الأمير اسمعيل في سرب من العبيد يضربون الطبول
وينفخون في قرون الحيوانات كالزماير ويرقصون فاجب الأمير اسمعيل منظرهم وطرب أصحابه
منهم وما زالوا على هذا الحال الى منتصف الليل وقد اجتمعت الغوغاء وعلت الضوضاء
واشدت الطبول وعلت أصوات القرون فأمر غمر طائفة منهم فأشعلوا النار في التبن وذلك
الوقود ووقفت طائفة منهم بالسيوف والحراب تمنع الخارج فاندلع لسان اللهب وعلا وأظلم
الجو فأعملوا السيوف في أعناق الجند فهجموا بالفرار فلم يتمكنوا فاحترق من احتراق ومات
الأمير اسمعيل بالحريق وهو بين طائفة من عماليكه وأصبحوا ولم يبق من العسكر ديار ولا نفاخ
نار وساق أصحاب غمر سبلهم الى شندى واتصل الخبر بالدفتر دار وهو بدارفور فقام من فور
وسار الى شندى وأقسم انه ليهلك عشرين ألفاً فداء لاسمعيل فلما نزل عليها لاقاه غمر بأصحابه
فقاتلهم بمن معه من العسكر وظفر بنمر وقتله وأعمل السيف في أصحابه وأخس في القتل
وأسرف في الانتقام ولم يحث في عيشه فهابه الناس واتسعت شهرته الى أقاصى السودان
فانكشم أصحاب الفتن وظل يدبر الامور ويأمر وينهى ويخضع الكبار من السود الى سنة
أربعين ومائتين وألف هجربة حتى جاءه الامر من محمد علي باشا بالتخلي عنها والافتحدار الى
القاهرة فاتحدر وتولى مكانه رستم بيك فحذا حذوه وأكثر من الوعيد والتهديد حتى خضعت
له جميع الاهالى ودانت له سائر الامور

واشدت رغبة محمد علي باشا بعد فتح السودان في اتقان نظام عسكره على نسق
عسكر الفرنسيين فأنشأ مدرسة للشاة في الخانقاه وأخرى للفرسان بالجيزة في بيت مراد
بيك الكبير واستحضر لهما أشهر أساتذة الفرنجية وأنشأ أيضاً مدرسة لأصحاب المدافع
وأسس معامل للبارود وصب المدافع وعمل البنادق وجميع آلات الحرب واحتياجات الجند
على اختلافها وسلم الى الكولونيل سيف الذي هو سليمان باشا الفرنسي زمام
تديرها ووكّل له هدته جميع أمور الجندية وجعله رأس جميع مقدميها فبالغ سليمان باشا

مطلب
انشاء المدارس
الحربية ومعامل
الاسلحة والبارود

في تعزيزها واتقان نظامها فلم يحض عليها الا القليل حتى صارت جندا عظيميا مدبرا مغازيا واسع الاصابة موفقا مظفرا أينما سار * ونقل الناقلون الى السلطان خبر ما وصل اليه محمد علي باشا من الشهرة والجاه بعد فتحه لاقطار السودان فخشى السلطان عاقبة أفعال محمد علي باشا وظن به سوء وجعل يراقب أحواله ولكنه كان لا يقدر على أن يأتي معه أمرا لقيام الفتنة في جميع الايلات التابعة لمملكته واشتغال عساكره بالحروب القائمة مع الاحزاب لاسيما الحرب القائمة منها مع اليونان فقد كانت من أشدها وبلا وأعظمها خرابا وأنكاسا بالغالب من الفريقين والمغلوب وطالت أيامها وأريق فيها من الدماء شئ كثير للغاية فكانت كلما طالت استمرت نارها واشتد أوارها وقويت ظهور التأثيرين وجاءهم المدد من أرض الله الواسعة برا وبحرا فقاتلوا قتال المستقلين حتى أعيا السلطان أمرهم ودخل عساكره الملل وخشى عاقبة ذلك (قال أصحاب التاريخ) لما نهض اليونان الى طلب الاستقلال والخروج عن تابعة السلطنة العثمانية رأوا أن هذا الامر لا يتم لهم الا بئس الحرية والمساواة بين طبقات الرعية وهذا لا يتم أيضا الا بتقوية أذهان أبنائهم بالعلوم والمعارف الصحيحة فنألب كبرائهم وأصحاب الميسرة فيهم وسيروا أولادهم الى بلاد الفرنجة لتلقى العلوم والآداب ومعرفة عاداتهم حتى اذا عادوا الى أوطانهم بما عرفوه من معارف أوائل القوم وعاداتهم كانوا هم مقدمي الامة ورعاة حريتها ومخرجيها من مضائق الاسر والاسترقاق الى بحبوحة الحرية والمساواة فنجحوا في ذلك وأنشؤا جمعيات سرية للذب عن حقوقهم السياسية وجعلوا مقرها بلاد الروس وبلاد النمسا فعملت تلك الجمعيات وبالغت جدا وكان أهمها عملا وأشدّها خطرا الجمعية المسماة هيتيرى ومعناها الجمعية الاخوية وكان مقر هذه الجمعية أولا بمدينة أودسا ثم انتقلت الى مدينة كيف وكنائهما من أملاك الروس وبقيت تحافظ على كتمان أمرها الى سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف هجرية ثم ظهرت نتائج أعمالها بظهور الفتنة وخروج اليونان عن طاعة السلطنة العثمانية * وكان القيصر اسكندر الاول ابن القيصر نولس قيصر الروس يد قوية في تعضيد تلك الجمعيات وتقوية عزائم الجنس اليوناني وتعزيز مطالبه تشكيلا بالدولة العثمانية ولدى لا تخمد نار الفتنة من جميع بلادها ولا يبطل لها اضطراب فيتمكن من تنفيذ وصية بطرس الاكبر التي أوصى بها كل من يتولى ملك الروس أن يجعل القسطنطينية باب الممالك الروسية ومفتاح مغالق الديار الاوروباوية (قلت) ولما كانت هذه الوصية عند كبار السياسة الشرقية والغربية لاسيما عند كبار رجال السلطنة العثمانية بمكان وكان بقاء السلطنة المشار اليها وزوالها معقودين باطراف تلك الوصية رأيت انه لا بأس بإيرادها هنا كما جاءت في ترجمة العلامة جودت باشا ولا أعلم من أين وصلت اليه معرفتها وعهدنا بوصايا الملوك التي من هذا القبيل أن يتفكر دونها جميع أبواب الوصول قال

مطلب
خروج اليونان الى
الثورة وطلب
الاستقلال

(وصية بطرس قيصر الروسية)

(البند الاول) من اللزوم أن تقاد العساكر دائماً الى الحرب وينبغي للامة الروسية أن تكون متمادية على حالة المكفاح لتكون أليفة الوغا وترك وقت لراحة العساكر أو لأجل اصلاح المالية وتوفيرها وان كان ضروريا يلزم أن يكون تنظيم المعسكرات متعاقبا وتكون مراقبة الوقت الموافق للهجوم متصلة آتيا بأن وعلى هذه الصورة ينبغي لروسيه أن تتخذ من الصلح والامان وسيلة قوية للحرب وهكذا زمن الحرب للصلح وذلك لأجل زيادة قوتها وتوسيع منافعها

(البند الثاني) في وقت الحرب ينبغي اتخاذ جميع الوسائل الممكنة لاستجلاب ضباط الجنود من بين الملل والافوام الذين هم أكثر معلومات في أوروبا وكذلك في زمن الصلح يتعين استجلاب أرباب العلم والمعارف منهم أيضا ويلزم الاعتناء بما يجعل الامة الروسية تستفيد من منافع سائر الممالك ومحسناتها بحيث انها لا تضيع سعيا في تحصيل المحسنات الخاصة بمملكتها

(البند الثالث) عند سروح الفرصة ينبغي وضع اليد والمداخلة في جميع الامور والمصالح الجارية في أوروبا وفي اختلافاتها ومنازعاتها وعلى الخصوص في وقوعات ممالك المانيا الممكن الاستفادة منها بلا واسطة بسبب شدة قربها

(البند الرابع) ينبغي استعمال أصول الرشوة لأجل القاء الفساد والبغضاء والحسد دائماً في داخلية ممالك « له » وتفریق كلمتهم واستمالة أعيان الامة ببذل المال واكتساب النفوذ في مجلس الحكومة حتى تتمكن من المداخلة في انتخاب الملك وبعد الحصول على انتخاب من هو من حزب روسيه من تلك الامة ينبغي حينئذ دخول عساكر روسيه الى داخل البلاد لجأيتهم والتعصب لهم بإقامة العساكر المذكورة مدة مديدة هناك الى أن تحصل الفرصة لاتخاذ وسيلة تمكننا من الإقامة وعند ما تظهر مخالفة في ذلك من طرف الدولة المجاورة فلاجل اخراج نار الفتنة موقتا ينبغي أن نقامم المخالفين في ممالك « له » ثم نقرّب الفرض لاسترجاع الحصص التي تكون أعطيت لهم

(البند الخامس) ينبغي الاستيلاء على بعض الجهات من ممالك أسوج بقدر الامكان ثم نسعى في اغتمام وسيلة لاستكمال الباقي منها ولا نتوصل الى ذلك الا بوجه تضطرب فيه تلك الدولة الى أن تعلن الحرب على دولة الروسيه وتهاجها والذي يلزم أولا هو أن تصرف المساعي والهمة لاثاء الفساد والنفرة دائماً بين أسوج والداغرة بحيث أن يكون الاختلاف والمراقبة بينهم دائماً باقين

(البند السادس) يجب على الاسرة الامبراطورية الروسية أن يتزوجوا دائماً من بنات العائلة الملوكية الالمانية وذلك لتكثير روابط الزوجية والاتحاد بينهم واشتراكهم في

المنافع اذ بهذه الصورة يمكن اجراء نفوذهم في داخل المانيا ويربطون أيضا الممالك المذكورة لجهة منافعنا ومصالحنا

(البند السابع) ان دولة انجلترا هي الدولة الأكثر احتياجاً اليها في أمورها البحرية ولهذه الدولة فائدة عظيمة جداً أيضاً في أمر زيادة قوتنا البحرية فلذلك من الواجب ترجيح الاتفاق معها في أمر التجارة على سائر الدول وبيع محصولات ممالكنا كالأخشاب وسائر الأشياء الى انجلترا وجلب الذهب من عندهم الى ممالكنا واستكمال أسباب الروابط والمناسبات متمادياً بين تجار وملاحى الطرفين فينوسع بهذه الوسيلة أمر التجارة وسير السفن في ممالكنا

(البند الثامن) على الروسيين أن يتشروا يوماً فبوما شمالاً في سواحل بحر البطليق وجنوباً في سواحل البحر الأحمر

(البند التاسع) ينبغي التقرب بقدر الامكان من استانبول والهند وحيث انه من القضايا المسئلة أن من يحكم على استانبول يمكنه حقيقة أن يحكم على الدنيا بأسرها فلذلك من اللازم احداث المحاربات المتتابعة تارة مع الدولة العثمانية وتارة مع الدولة الايرانية وينبغي ضبط البحر الاسود شيئاً فشيئاً وذلك لاجل انشاء دارصناعات بحرية والاستيلاء على بحر البطليق أيضاً لانه ألزم موقع لحصول المقصود وللتجمل بضعف بل بزوال دولة ايران لنتمكن من الوصول الى خليج البصرة وربما نتمكن من اعادة تجار الممالك الشرقية القديمة الى بلاد الشام والوصول منها الى بلاد الهند التي هي بمثابة مخزن للدنيا وبهذه الوسيلة نستغنى عن ذهب انجلترا

(البند العاشر) ينبغي الاهتمام بالحصول على الاتفاق والاتحاد مع دولة أوستريا والمحافظة على ذلك ومن اللازم التظاهر بترويج أفكار الدولة المشار اليها من جهة ما ينبغي اجراءه من النفوذ في المستقبل في بلاد المانيا وأما باطنها فينبغي لنا أن نسعى في تحريك عروق حسد وعداوة سائر حكام المانيا لها وتحريك كل منهم لطلب الاستعانة والاستعداد من دولة روسية ومن اللازم اجراء نوع من حماية الدولة المذكورة بصورة يتسنى لنا فيها الحكم على تلك الدول في المستقبل

(البند الحادى عشر) ينبغي فتحسريض العائلة المالكة في استوريا على طرد الأتراك وتبعيدهم من خطة الروم ابلى وحينما نستولى على استانبول علينا أن نسلط دول أوروبا القديمة على دولة استوريا حرباً أونسكن حسدها ومراقبتها لنا باعطائها حصنة صغيرة من الاماكن التي نكون قد أخذناها من قبل وبعده نسعى بنزع هذه الحصنة من يدها

(البند الثانى عشر) ينبغي أن نستميل لجهتنا جميع المسيحيين الذين هم من مذهب الروم المنكرين رئاسة البابا الروحية والمنتشرين في بلاد البحر والممالك العثمانية وفي جنوب ممالك « له » ونجعلهم أن يتخذوا دولة روسية مرجعاً ومعيناً لهم ومن اللازم قبل

كل شئ أحداث رياسة مذهبية حتى تتمكن من اجراء فوج نفوذ وحكومة رهبانية عليهم
فنسعى به هذه الوساطة لاكتساب أصدقاء كثيرين ذوي غاية نستعين بهم في ولاية كل
أعدائنا

(البند الثالث عشر) حين ما يصبح الاسوجيون متشتتين والارانيون مغلوبين
واللاهيون محكومين والممالك العثمانية مضبوطة أيضا حينئذ نجتمع معسكراتنا في محل
واحد مع المحافظة على البحر الاسود وبحر البلطيق بقوتنا البحرية وعند ذلك نظهر أولا
لدولة فرنسا كيفية مقاسمات حكومات الدنيا بأسرها بيننا ثم لدولة استوريا ويعرض ذلك على
كل من الدولتين المشار اليهما كل منهما على حدة بصورة خفية جدا لقبول ذلك وحيث انه
لا بد من أن احدهما تقبل بهذه الصورة فعند ذلك ينبغي مباداة واحترام كل منهما
ونجعل من كان منهما قابلا بما عرضناه عليهما واسطة لتسكيل الاخرى وبذا تكون دولة
روسية حينئذ قد ضببطت جميع الممالك الشرقية ويكون مثل ذلك أعظم قطع أوروبا
حديثه الدخول في يد تصرفها فعنده يسهل علينا أن نقهر ونشكل فيما بعد أى دولة
بقيت في الميدان من الدولتين المذكورتين

(البند الرابع عشر) على فرض الحال ان كلا من الدولتين المشار اليهما لم يقبل بما
عرضته عليهما روسية فينبغي حينئذ لروسية أن تصرف الافكار لمراقبة ما يحدث من
النزاع والخلاف بينهما فاذا وقع ذلك فلا بد أن يحصل تعب للطرفين ويشتبك هذا الامر
مع الآخر وفي ذلك الوقت يجب على روسية أن تنتظر الفرصة العظيمة وتسوق حالا
معسكراتها المجتمعة أولا بأول على المانيا فتتجهم على تلك الجهات ثم تخرج قسمين كليين
من السفن أحدهما من بحر أراق المملوء بالعساكر الوافرة المجتمعة من أقوام الاناضول
المنوعة والثاني من ليمان ارخانكل الكائنة في البحر المنجمد الشمالي فتسير هذه السفن
وتعبر في البحر الابيض والبحر المحيط الشمالي مع الاسطول المرتب في البحر الاسود وبحر
البلطيق وتهمج كالسيل على سواحل فرنسا وأما المانيا فانها تكون اذ ذاك مشغولة بحالها
وبما ذكرنا تصح المملكتان الواسعتان المذكورتان مغلوبتين على هذه الصورة فالقطعة التي
تبقى من أوروبا قابلة للفتح والتسخير انتهت بنصها **(قلت)** ولا يقع في ملكه الا ما يشاء
وانتشر سر جمعية الهييتيرى المذكورة بين جميع الجنس اليوناني المقيم ببلاد
الموره وغيرهما من بقية بلاد المملكة العثمانية وفشا بينهم فلم تأت سنة سبع وثلاثين
ومائتين وألف هجرية حتى بلغ عدد أعضائها العاملين فيها نيفا وعشرين ألفا ممن
يقدرون على حمل السلاح ولا يهربون الموت عند الكفاح فلما ظهرت الفتنة في يانبا وخرج
واليها المسمى على باشا عن طاعة السلطان واشتغلت العساكر السلطانية بقتاله نهض
أعضاء تلك الجمعية نهضة الاسد الرابض وركبوا على الجنود العثمانية المربطة في حصونهم
وقلاعهم وأعملوا فيهم القتل واشتدت الفتنة وعمت وتمكن زعماء العصابة من الاستيلاء

على كثير من الحصون والقلاع وأشغل السلطان أمر هذه الفتنة واهتم لها اهتماما عظيما فلما سكنت فتنة يانبا وقتل واليها سير السلطان خورشيد باشا في عسكر عظيم لاختضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة فقاتلوه قتالا عنيفا وانتصروا عليه نصرة مؤزره في مضيق الترمونيل وهزقوا شمل عساكره كل عزرق وتمكنوا من اضرار النار في جميع سفن حرب الدولة العثمانية التي كانت يومئذ راسية أمام جزيرة صاقر فئات في الحريق زهاء ثلاثة آلاف من جند تلك السفن وكانت هذه السفن قد قاتلت على جزيرة صاقر وساموس وغيرها واستخلصتها من أيدي أصحاب الفتنة فأخش عساكرها في القتل والنهب وسبي النساء والاطفال وارتكاب أنواع الغنائم والفجور فقام أصحاب الفتنة عليها ودمروها تدميرا فلما جاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة اضطرب السلطان وكاد يأمر بالكف عن القتال وترك الاعداء وشأنهم ولكنه خشى العار خصوصا بعد أن قام سفراء الدول في دار السلطنة على ساق وقبحوا على الصدر الاعظم ما فعله عساكر السفن الحربية من القتل والنهب والسلب وسبي النساء والاطفال في صاقر وغيرها فعمد الى استعمال الحيلة وأخذ في التسدير وسير الى محمد علي باشا فرمان الولاية على المورة وكريد ورسم له بقتال أصحاب الفتنة وارجاعهم الى الطاعة ليشغله بهذه الحرب المستعصية عن الخروج وطلب الاستقلال بملك الديار المصرية والاقطار الحجازية وأرسل اليه خلع الرضا فأجابه محمد باشا الى ذلك وأعد للقتال زهاء السبعة عشر ألفا من المشاة المصريين وعددا من الفرسان وأصحاب المدافع وجعل مقدمهم ولده الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسي فساروا الى مدينة الاسكندرية ثم ركبوا السفن وأقلعوا في ذي القعدة سنة أربعين ومائتين وألف هجرية الى رودس فلبشوا بها أياما ثم رحل عنها الامير ابراهيم الى كريد وترك سليمان باشا في طائفة من العسكر فلما وصل الى كريد قاتل من بها من الثائرين ثم احتلها عنوة وسار الى سواحل المورة يريد انزال جنوده بها فلم يتمكن وقاله أصحاب الفتنة قتالا عنيفا للغاية وكان الى ذلك الحين لم يبق للدولة العثمانية من بلاد تلك السواحل سوى مدينتين مودون وكورون فسار ابراهيم باشا بعسكره الى مينا مودون وأنزلهم الى البر بعد عناء شديد وكان أصحاب الفتنة على قدم الالهبة والاستعداد للقاء العسكر المصري بما عندهم من الرجال والذخائر والاموال وآلات الحرب التي كانت ترد اليهم من أهل البر وصحبي تحرير الأمم وفك قيود أسرهم فقد كانت تألفت في ديار أوروبا عدة جمعيات باسم جمعيات محبي اليونان وانتظم في عسداد أعضائها كثير من الامراء والكبراء فكانوا يرسلون الى أصحاب الفتنة بالاموال وآلات الحرب والذخيرة وكان ممن انتظم في سلكها الشاعر الفرنسي المسمى فيكتور هوغو والناظم كازيمير دلافين فجلا يقولان الاشعار والقصائد الحماسية في تلك الحروب ويبالغان في وصف ما يقاسمه أهل المورة وكريد من العسف والجور فكان لقولهما وقع في قلوب أهل النخوة والمروءة فتجرد الكثير منهم الى التطوع وبذل النفس في عتق تلك الامة وجاءهم أيضا واشنطون

مطلب

ولاية محمد علي باشا

على المورة وكريد

ومقالة من بهما

من الخوارج

ابن واشنطن محرر بلاد أمريكا واللورد بيرون الشاعر الانجليزي متطوعين حبا في نعيم الحرية وانتصارا للضعيف على القوى ففاز اليونان وتغوت عزائمهم وانتصروا على العساكر السلطانية في عدة وقائع واستخلصوا كثيرا من القلاع والحصون التي كانت تسكنها عساكر الدولة العثمانية ولم يستقر بالامير ابراهيم في مودون المقام حتى جاءه الخبر بمحاصرة العدو لمدينة كورون وكان بها بعض العساكر السلطانية فسير ليجنتها طائفة من عسكره وسار هو في طائفة لحصار مدينة ناورين فنزل عليها وشدد في حصارها وضيق وما زال بها حتى فتحها ودخلها عنوة في سلخ شوال سنة احدى وأربعين ومائتين وألف هجرية ثم سار الى مدينة كلاماتا ففتحها أيضا ودخل مدينة تريبولنا بعد قتال وكان رشيد باشا مقدم العسكر السلطاني نازلا في هذا الحين على مدينة يسولونجي محاصرا فاستعصى عليه الفتح وأعيته الحيل فسير الى الامير ابراهيم يستقدمه ليجنته فسار اليه فيمن معه من العسكر المصري ونزل عليها وفانلها قتالا شديدا وبانغ سليمان باشا الفرنسي في حصارها وضيق وطالت أيام الحصار لوصول المدد اليها من البحر وعدم التمكن من قطعه عنها وما زالوا بها حتى فتحوها ودخلها العسكران المصري والعثماني ظافرين فأعملوا فيمن وجدوه بها القتل وغنموا منها شيئا كثيرا من المؤن والذخيرة وآلات الحرب * ثم لم تستهل سنة اثنتين وأربعين ومائتين وألف هجرية حتى زحفت العساكر السلطانية على مدينة آتينتا وقالت عليها حتى فتحها واحتلت قلعتها الشهيرة وكان بها الامير كوشران القائد البحري الانكليزي مقدم الجيوش اليونانية في تلك الثورة فاعمل العسكر السلطاني السيف فيمن وجدوه بها من العسكر والمنطوعة وأخشوا في القتل والتخريب وبينما هم على هذا الحال والامير ابراهيم يتأهب لرد ما بقي في أيدي أصحاب الفتنة اذ مات اسكندر الاول قيصر الروس وتولى الملك بعده نيقولا لاول ثالث أولاد القيصر بولس فتجرد الى معاكسة الدولة العثمانية وطالبها بالمطالب الطويلة العريضة وهم بفتح أبواب الحرب عليها وتسيير عسكره الى بعض الايلات التابعة لها فأجابته الى ما طلب وعقدت معه معاهدة سميت بمعاهدة « آق قرمان » فكان مما جاء فيها منح الروس حق الملاحة في البحر الاسود والعبور من البوغازين بلا معارضة ولا تفتيش على ما في سفنها وأن لا تحتل العساكر السلطانية الا قلعة بلغراد وثلاث قلاع أخرى مما هو في حوزة الدولة العثمانية ومنح الصرب كثير من الامتيازات تجعلها أشبه بالمستقلة بإدارة نفسها وأن يكون للدولة الروسية حق انتخاب حكام كل من القسلاخ والبغدان لمدة سبع سنين ولا يصح للدولة العثمانية عزلهما الا باقرار من قيصر الروس * ومع ما كان في هذه المعاهدة من الخيف والجور بالدولة العثمانية لم تردا من قبولها تفاديا من فتح أبواب الحرب في ذلك الوقت ولم يقف القيصر نقولا عند هذا الحد بل دس الى جميع الدول الكبرى بان يتوسطوا ما بين السلطان وأصحاب الفتنة من اليونان فحکم سفير الانجليز الصدر الاعظم في ذلك وبانغ في الشكوى مما تلاقيه أهل مورة من العسكرين العثماني والمصري وألح في الطلب فلم يلتفت السلطان الى ذلك وصمم على قتالهم حتى يرجعوا الى

الى الطاعة فاتفق قيصر الروس وملك الانجليز والفرنسيين وتعاهدوا على اكرام السلطان على منح اليونان استقلالهم الادارى وعليهم الجزية في كل عام حسبما يقع عليه الاتفاق وتحديد تخوم الفريقين وضربوا للسلطان أجلا لا يتجاوز ثلاثين يوما لا يقع فيها حرب ولا جلا ولا علم السلطان بما في هذا العهد غضب وأبى الا القتال حتى يرجعوا الى الطاعة وسير الى خورشيد باشا بالالاحاح في قتال الشائرين واستخلاص ما بأيديهم من القلاع والحصون ولبنيت الدول الثلاثة تراقب فوات الاجل المضروب فلما انقضت أيامه سيروا مراكب حريمهم الى سواحل اليونان وكتبوا الى الامير ابراهيم بالكف عن القتال فلم يلتفت الى قولهم وقال حتى يأتي فرمان السلطان وسير الخبر بذلك الى دار السلطنة فاجتمعت سفن الاحزاب في ميناء تاورين ومنعت من خروج السفن العثمانية والمصرية وشددت في المنع ثم لم تلبث ان أطلقت مدافعها على السفن العثمانية والمصرية وراست الرمي بالقنابل فاشتبك القتال بين الفريقين وحسنى الوطيس وارتفع الدخان وتكاثف وأظلم الجو وانكشف عن تدمير جميع السفن العثمانية والمصرية بنيران المدافع ووصلت الاخبار بما وقع الى دار السلطنة فاضطرب السلطان وهاله هذا الامر وكتب الى جميع الايالات النابغة الى مملكته يحذرهم من مقاصد الدول عموما ودولة الروس خصوصا ويحضهم على الغزو والجهاد دفاعا عن الاسلام وأهله وأن يقوموا يدا واحدة لنصرة الدين ودفع العدو الطامع فاهتم قيصر الروس لذلك وخشى العاقبة وعجل بفتح باب الحرب على الدولة وزحف بعسكره في صفر سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية ورأى الامير ابراهيم انه لا قبل له على قتال الاحزاب بعد حرق أعظم السفن التي كانت معه فكتب الى أبيه بما جرى بخلافه الأمر بالانسحاب بجميع عسكره والعود الى مصر فخرج بمن معه وعاد على ما بقى من السفن المصرية الى مدينة الاسكندرية ثم وقع بعيد ذلك ما وقع بين الدولة العثمانية والاحزاب فعقدوا محفلا في لندن عاصمة الانجليز ليقرروا فيه قاعدة لاستقلال اليونان وطلبوا من السلطان أن يبعث سفيرا من قبله فلم يقبل وأصر على ما في نفسه فلم يهتمهم ذلك وقرروا ما شاؤوا من سلخ بلاد اليونان من تابعية الدولة فانسلخت من ذلك الحين وستقلت بحكم نفسها وتعهدت بدفع الجزية خمسمائة ألف قرش تحمل الى الخزينة السلطانية في كل عام واشتغل السلطان بحرب الروس عن اخضاع اليونان وارجاعهم الى الطاعة وطالت أيام الحرب بين الفريقين ثم انكشفت عن هزيمة العساكر السلطانية فتددت رسل السلطان في طلب الصلح وبعد أخذ ورد تقررت القاعدة بينهم على حصول دولة الروس على كثير من الامتيازات والحقوق واعترف السلطان بسلخ البلاد اليونانية من مملكته ومنحها جميع الامتيازات التي تقررت في محفل لندن عاصمة الانجليز

وكان الى هذا الحين قد تمكن السلطان من ابادة جميع طوائف الانكشارية

مطلب
تنظيم العساكر
السلطانية على
نظام عساكر دولة
الفرنسيين

وطوائف السلامدارية والعلوفه جيه وأراح الدولة من شرهم (قال أصحاب التاريخ) لما رأى السلطان أن لا قبل لهؤلاء الاخلاط من العسكر على قتال جيوش الدول المتدنة المنظمة لاسيما في الحروب الاخيرة عمد الى تنظيم عسكر على نسق العسكر الاوربي وتجرد لمعاداة كل من يخالفه في ذلك وجمع كبار الدولة وأعيان المملكة ومقدمي جميع طوائف الانكشارية ومفتي دار السلطنة وكان ممن لا يبعضون النظام الجديد فقام الصدر الاعظم بينهم خطيبا وتكلم في أمر الانكشارية كثيرا وحض القوم على نصره الدين بتقوية المجاهدين وترتيبهم على النظام الكافل بصد الاعداء والذب عن بيضة الاسلام فوافقوا جميعا على عمل ما فيه المصلحة للامة والبلاد وحرروا محضرا بذلك وأفتى مفتي دار السلطنة بجواز العمل بما تقرر شرعا وتعزير المخالفين له ووقع على ذلك جميع مقدمي الانكشارية فلما شرعوا في العمل وأحس طوائف الانكشارية بما وراء ذلك ندموا على ما فعله كبارهم وأكثروا من التآلب والاجتماع ونأهبوا للثورة والخروج كما فعلوا على عهد السلطان سليم وأخذت الوحشة بينهم وبين العسكر المنظم تكبر فلما كان شهر رمضان سنة أربعين ومائتين وألف قام جماعة منهم وجعلوا يزاحون العسكر المنظم في أوقات تمرينهم وبعاكسونهم فرفع كبار الجند أمر ذلك الى السلطان فأغضبه جدا ورسم بقتل كل من يبدو منه أدنى معارضة بلا معاودة فلما شاع خبر ذلك بين طوائف الانكشارية هاجوا واجتمعوا وتحالفوا على العصيان ونأهبوا للخروج فجمع السلطان العلماء والمشايخ وأخبرهم بما فعله طوائف الانكشارية فأكبروه وقبحوه وتقدموا الى السلطان في طلب قتلهم والجهاد فيهم وأصبحوا وقد أخرج السلطان علم صاحب الشريعة المحمدية وأمر أصحاب المدافع بالخروج الى (آت ميدان) فخرجوا وأمامهم العلم المشار اليه وخرج معهم أيضا كثير من العلماء والمشايخ وطلبة العلم وكان بالميدان المذكور أصحاب الفتنة والعدد العديد من طوائف الانكشارية وهم في ضيق وجلبة فأحاط بهم أصحاب المدافع احاطة السوار بالمعصم وأطلقوا عليهم القنابل ورأسوا الرمي واشتدوا وأصلوهم نارا حامية فهربوا الى منازلهم يريدون النجاة فتبعهم أصحاب المدافع وصوبوا أفواء المدافع نحو المنازل واشتدوا في الرمي عليها بالقنابل فهدمتها جميعها وأشعلت فيها النيران وارتفع اهبها وتطاير شررها وما زالت النيران في اشتعال حتى أبادتها وصيرتها رمادا ومات فيها جميع من كان بها من طوائف الانكشارية وبات الحال هكذا وأصبحوا وقد رسم السلطان بإبطال ذيتهم واصطلاحاتهم وجميع ما يتعلق بهم من جميع الابالان التابعة لمملكته ونودي بذلك في الشوارع وطبوا الخبر بما جرى الى الآفاق وكتب الى جميع العمال بالقبض على كل من يجدوه منهم فيقتلونه بغير معاودة فوقع فيهم القتل في كل فج وتبعوهم حتى أبادوهم ولم يبق منهم الا من طال عمره فاختفى عن العيون والارصاد وجاءت الاخبار بما وقع بطوائف الانكشارية الى محمد علي باشا فعدت همته الى ما كانت عليه قبل حرب مورة من تجنيد الجنود واتقان نظام العسكر والاكتثار من الآلات والكرام

وانشاء عمارة عظيمة من سفن الحرب وشواني النقل بدل التي أحرقها سفن الاحزاب وأقام
البنائات العظيمة منازل للجند وجلب الخيل والبغال والجمال لحمل المؤن والذخيرة وغير
ذلك فانصلت أخبار هذا كله بالسلطان فحمد على محمد علي باشا لما فعله من مبعده الى
الخروج ورغبته في الاستبداد بملك الديار المصرية مع عجز السلطان عن رده وارجاعه الى
الطاعة ان هو عمد الى ذلك وجعل يراقب الامور ويتوعد الى محمد علي باشا بالهدايا النفيسة
والتحف البليغة * قال بعض الكتاب * وكان تأهب محمد علي باشا واستعداده في هذه المرة
انما هو للزحف على الديار الشامية وضمها الى بلاده كما كانت على عهد من سبقه من الخلفاء
والسلاطين وكان شديد الرغبة في ذلك جدا فانفق أن بعض المنتزعين من أهل مصر هربوا
الى عكا ونزلوا في جوار عبد الله باشا الجزائر واليه فرار من محمد علي باشا لدين عليهم وقيل
فرارا من القرض والطلبات المتتابعة وقيل غير ذلك فأرسل محمد علي باشا الى الجزائر يقول
له اقبض على من أتاك من أهل بلادى وردهم الى فانه لا يصح أن تمنعهم عنى فاستعظم
الجزائر هذا الامر من محمد علي باشا وأرسل اليه بوجته ويشنع عليه ويقول لست خادما
على بابك حتى تتصرف في أمري وإياك أن تخاطبني في هذا الامر نائبا فشق هذا الكلام
على محمد علي باشا وأقسم الايمان الغلاظ أن يسير عسكره الى عكا لقتال الجزائر ويضم
جميع البلاد الشامية الى مصر وجعل يتأهب لذلك من هذا الحين * فلما كان سادس عشر
جداى الاولى سنة سبع وأربعين ومائتين وألف خرجت الجيوش المصرية من القاهرة تريد
عكا ومقدمها الامير ابراهيم ومعه سليمان باشا الفرنسوى وكان عددها زهاء أربعة
وعشرين ألفا فساروا الى الصالحية فالعريش فغزة وركب الامير ابراهيم وحاشيته
السفن الى يافا فلم يدرك يافا حتى استوت عساكره على غزة ويافا بعد دفاع خفيف فسار
بهم الى عكا فنزل عليها حادى عشرى جمادى الثانية وحاصرها برا وبحرا ونصب خيامه
أمامها ورمى عليها بالقنابل وراسل الرمي وشدد نخرج الجزائر فى عسكر عظيم وقتلوا قتالا
عنيفا فمات منهم خلق كثير وعادوا الى المدينة وجعلوا يقاتلون من وراء الاسوار وطالت
الحرب واشتد الحصار ومنع الامير ابراهيم الوارد عن المدينة من البر والبحر الى سادس
عشرى ذى القعدة وقيل سادس شوال ثم نادى فى عسكره بالهجوم فهاجموها عليها واقطمعوا
أسوارها وحصونها فاستأن من كان بها من العسكر الشامى والعثمانى فأمنهم ودخل
بعسكره البلد فكاد العسكر يستنجونها فلم يتمكن الامير ابراهيم من ذلك وقيل أباحها
ثلاثة أيام فأعمل عسكره فبين بها السيف * فلما كان اليوم الثانى وصل الامير عباس حلمى
ابن الامير طوسون فى عسكر عظيم ومعه كثير من العربان والهواره اعانة للعسكر المصرى
فسيرهم الامير ابراهيم الى حصار بعض المدن والبنادر كصور وصيدا وبغروت واشتدت
عزيمة العساكر المصرية بما نالوه من النصر المتتابع وسير الامير ابراهيم الكتب الى
البلاد كافة يدعوهم الى الطاعة والخروج على من عندهم من العساكر السلطانية

مطلب
ما انتحله محمد علي
باشا من العمل لفتح
باب الحرب على
الشامات والتغلغل
فى قلب آسبه

وكتب كذلك الى متولى بيت القدس والمفتى وقاضى القضاة به يقول
تعلمون أن فى بيت المقدس كثيرا من الديارات والكنائس والآثار الدينية التى تحتج
اليها فى كل عام طوائف النصرانية واليهود وقد شكى اليها هؤلاء بما يلاقونه منكم من
العنت والقسوة والغلبة عليهم والتحقيق لدينهم فضلا عما أنتم فارضوه عليهم من الكلف
والمغارم الفادحة غير ناظرين الا الى ما فيه ارضاء أنفسكم والعمل بهواكم على أن هذه
الغايات الدينية والفعال الدينية لا ترضاهم النفوس الأبية ولا يصح السكوت عليها ولذلك
أنهاكم وأحذركم من عاقبة التعرض لأولئك القوم وأسألکم أن تفسحوا لجماعة
القسيسين والرهبان والشمامسة أهل ذلك البيت المقدس من جميع المذاهب فبطا كانوا
أوروما أو أرمنيا فى دينهم ودنياهم ولا تمنعوه من إقامة شعائر دينهم ولا تأخذوا من
يذهبون زائرين بحر الشريعة شيئا من الكلف والمغارم ولا تضيقوا على زوى كنيسة
القيامة ولا تلزموه الصغار بدفع المال فان أطعتم أحسنتم لانفسكم وان خالفتم أسأتم
عليها والسلام عليكم ورحمة الله

وجاءت الاخبار بذلك الى السلطان فاغتم وكاد يسقط فى أمره وكانت قد جرت عادة
الباب العالى أن ينشر جدول التوجيهات والتغيرات التى تحصل فى هيئة الحكومة فى كل
سنة فى اليوم الاول من العيد الاكبر بخاء فى صدر الجدول الذى نشر فى تلك السنة مامعناه
قد رأينا أن لا نقطع بتوجيه ولايات مصر وجدة وكر يد حتى يأتى الى بابنا العالى جواب محمد
على باشا على ما أرسلناه اليه من الرسائل والفرمانات بشأن ما ارتكبكم من الخروج
والعصيان على خليفته وسلطانة ولزوم عدوله عن خطة الخسة والدناءة التى سار فيها هو
وابراهيم ولده ورجوعه الى حد التأدب وقهره بقدر ما تصل اليه القدرة ان شاء الله * ثم رسم
للوزير عثمان باشا بالخروج فى جيش عظيم لقتال الامير ابراهيم واستخلاص ما بيده
من بلاد الدولة لاسيما منها مدينة عكا وقهره جهد الاستطاعة فسار الوزير وسير الكتب
الى الامير ابراهيم يدعوه فيها الى طاعة خليفته وسلطانة ويحذره من عاقبة الخروج وشق
عصا الطاعة فلم يلتفت الامير ابراهيم الى شئ من ذلك وتردت الرسل بين العسكرين أياها
على غير طائل ثم زحف الفريقان للقتال فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا فانهمز
الوزير عثمان باشا بعسكره شمرهزعة وأخذتهم سيوف المصر بين من كل صوب وحذب
ففرقت شملهم وولى من بقى منهم مدحورا فغنم المصريون ما كان فى معسكرهم من كراع
ومتاع وجعل الامير ابراهيم السير بعسكره بعد هذه النصرة الى مدينة حصص يريد حصارها
والتضييق عليها وتحقيق الوزير من ذلك فجعل يجمع من بقى من عسكره وسار بهم خلف
العسكر المصرى يتخطف ساقه ويحاولهم القتال فوقف له العسكر المصرى وقاتلوه فهزموه
ثانية وأعملوا فى جنده السيف ففروا ووصلت الاخبار بما جرى الى دار السلطنة فهال
السلطان هذا الحال وأزعجه فأنفذ الى عامله على حصص بالثبات وقتال العسكر

المصري ما استطاع ووصل الأمير ابراهيم بجياله ورجله الى حص في سابع ربيع الاول سنة ثمان وأربعين ومائتين فلاقاه واليها محمد باشا بعسكره واقتتل الفريقان قتالا شديدا * قال بعض الكتاب * كان هذا القتال حيلة من محمد باشا يريد بها تسليم حص الى الأمير ابراهيم وقد كان استوثق لنفسه وتعاقد مع الأمير ابراهيم على ما لم يصل أحد الى معرفته فلم تكن إلا ساعة أو بعض ساعة حتى استسلم محمد باشا فاستسلم الأمير ابراهيم حصا ورتب أمورها على ما شاء وترك طائفة من عسكره فيها وسير جيشا الى حلب فاستسلم اليه بغير قتال فكان كلما اقترب من مدينة أو قرية سلمت اليه بغير قتال فيأخذ منها المؤن ودواب الجمل ويسير عنها الى غيرها فلما ورد الخبر بما وقع الى دار السلطنة كاد السلطان يتمزغظا وجهز حسين باشا سر عسكر الدولة في جيش عظيم ورسم له بالخروج الى القتال وولاه مصر وكريد والحبشة * كذا ولا أعلم ما هي ولاية الحبشة والحبشة كما هو محقق ومشهور دولة قائمة بذاتها منذ قرون وأجيال * وسلمه فرمان الولاية بيده وترجمته

من سلطان الدولة العلية العثمانية وولي نعمة المملكة العظمى الشاهانية الى فخر الامراء المعظمين وقدوة أعيان دولتنا المفخمين حسين باشا بلغه الله ما شا وأسبل عليه بساط البين والامان وأفاض عليه سجال العدل والاحسان وأسبغ عليه من المكارم رداء سابغا وأورده من موارد الامن شرابا سائغا سنجق النشيمان وأمير بحرية الاناضول الموجه اليه من لدن مكارمنا المشهورة ولاية الديار المصرية والحبشة وجزيرة كريد وما يتعلق بها - أما بعد - لا يخفى على من تهمة أخبار دولتنا العلية وما هي عليه مملكتنا العثمانية الشاهانية أن محمد علي باشا والي الديار المصرية سابقا بعد أن كان فردا من آحاد الرعية لا يعرف له حسب ولا نسب قد تدرج الى أوج المعالي وما زال حتى تولى حكومة الديار المصرية من قبل بابنا العالي فنظرنا اليه بما جبلنا عليه من كرم الطباع وعاملناه بغاية الرفق والتودد والانضاع وكنا نظن انه يقف عند حد الشكران فلا يخالف لنا كلمة ولا يغلب على طبعه الشكران وأن يقابل نعمتنا بالصدق والولاء ولكنته لدنائه أصله وخسة نفسه قد أطاع هواه فداخله الغرور والكبرياء وكفر بالنعمة وشق عصا طاعتنا وجاهر بعاداة حكومتنا ولم يقف عند حد من انارة الفتن ونعيم الفلاقل والاحن تودس الدسائس الشيطانية بين عمال ولاة ابلاتنا الشاهانية حتى استمال اليه الكثير من كنا نعتمد عليهم وتركنا في جميع الامور المهمة اليهم وقد أفلق راحة أهالي البانيا والروم ايلي بشن الغارة على بلادهم والاكثر من القتل والنهب بلا موجب ولا سبب حتى كاد الخراب ينولها وكثيرا ما ألح على مصطفى باشا بوساطة جلال بك وفاوالي مصطفى بالخروج عن طاعتنا سرا وطالما ما مناه بالمال والرجال ومعدات القتال فلم يفلح وهو يظن أننا عن تصرفاته هذه غافلون وعن سوء أفعاله لاهون على حالة انه لم يخف عنا خافية قط وكثيرا ما دس الى عبد الله باشا

مطلب

تسليم محمد علي باشا
والى حص الى الأمير
ابراهيم وصدر
فرمان السلطان
بعزل محمد علي باشا
وولاية حسين باشا
سر عسكر الدولة بدله

والى عكا المخلص فى طاعتنا ووسوس اليه وسوسة الخناس الذى يوسوس فى صدور الناس
حتى فتنه أوكاد وأدركه لطف الله سبحانه فعاد فوقع بينهم ما من العداوة والشحناء
ما قامت بسببه الحرب بين الفريقين وجاء إبراهيم ولد محمد على باشا الخائن المذكور فى
عسكر جرار الى يافا ففتحها والى طرابلس ودمشق الشام فدخلهما ثم تقدم نحو عكا فحاصرها
وقاتلها ولم يبال بما أرسلناه اليه من الرسائل المفعمة بالنصح والاستنصاء ولم يعد عن غيه
وضلاله بل اندفع وراء هواه حتى استهواه ومع هذا كله فلم ينجل بمؤاخذته ولم
يتسرع بمعاقبته وطاولناه حقنا للدماء ورجة بعباد الله الذين عهدت العناية الربانية
الينا رعايتهم وعسى أن يجد لنفسه من نفسه رادعا عن ركوب هذا المركب الخشن
والتمادى على عدم طاعة خليفة رسول رب العالمين والرجوع الى جادة الحق بعد
هذا الزيف والضلال والمروق عن الدين وبتوب ويستغفر عما جنت يده وقد فسحنا
الى ذلك المسارق الاجل عليه يرتدع أما الآن وقد آن الاوان وحل القضاء الذى لا مفر
له منه فلم يبق من باعث على التهاون والاغضاء ولكنا مع ذلك نغفوعن باقى الى بابنا
طائعا لا نذا مقرا بالذنب ممن شاركوه فى خيانة العصيان مكرهين ولو كانوا من ولده وأهله
وعشيرته وأصحاب الوظائف السامية والمناصب العالية وكبار الجند وأفراد العسكر وغيرهم
وقد أصدرنا فرماننا هذا العلى الشأن بتوجيه ولاية مصر والشام وجريد الحبشة
اليك مع ما يتبعها ورسمنا لك بنزعها من أيدي أولئك المارقين وانا لعلى يقين بحسن
خبرتك ودرايتك بجميع الامور وببسالتك فى الغزو والجهاد وبمشيئة الله تعالى وببركة
رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم تسير بالعسكر المنصور الى حلب ثم تتقدم الى ديار مصر
فتنزع جميع البلاد من أيدي أولئك الخائنين واذكر شفقتى ولا تنس عفوئى عن يتوب
ويرجع الى طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة خليفته من بعده واتق الله وأخلص النية
يجعل الله لك من كل شدة مخرجا والسلام * فسار حسين باشا بعسكره وهم زهاء ستين ألفا
بين فارس وراجل وتباطأ فى سيره حتى تمكن الامير ابراهيم من ترتيب عسكره على
ما يشاء وتأهب للقاء العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك الى محمد على باشا فجعل يبائع
فى التأهب والاستعداد وأيقن بان قد بلغ العظم السكين واستعصى الوثام فلم يبق الا
الكفاح والجلاد حتى يحكم الله بينه وبين خليفته وهو أحكم الحاكمين * ووصلت
طلائع عسكر السلطان الى مقربة من حلب فخرج لقاؤهم الامير ابراهيم فى عسكره وقاتلهم
وصبر على قتالهم حتى ظفروهم وبدد شملهم ثم ساق بخيله ورجله حتى دخل حلب واحتلها
فتفرق من بقى من العسكر السلطاني وجاء الخبر بذلك الى حسين باشا فتمقهقروا عن بقى
معه وتحصن فى مضيق بيلان أهدم مضائق جبال الطور وسعلم الامير ابراهيم بخبره
وما هو عليه فخرج من حلب لقتاله فلما التقى الجمعان اقتتلا قتالا عنيفا وما زالا حتى تحت
هزيمة العسكر السلطاني فغنم الامير ابراهيم متاعهم ودوابهم وآلات حربهم وتبع من

مطلب
هزيمة عسكر
السلطان عند حلب

بقي منهم حتى نزلوا سفنهم التي كانت راسية في ميناء الاسكندرونة ووصلت الاخبار الى دار السلطنة بما حصل بعسكر السلطان فخرن واغتم وعم الخبير وشاع عند سائر الدول وكانت ولاية المجر تخشى من استفحال أمر الفتنة في ايلات الدولة العثمانية واشتغال الدولة بالحروب والخطوب المنتابسة فطمع دولة النمسا في ارجاع المجر الى سلطتها وتلحقها بملكها وكانت تسلاح مع الحزم والتأني الحوادث الجارية في أوروبا فأرسلت يومئذ الى محمد علي باشا تهديده بتسليم جندها مع العسكر السلطاني لقتاله ان هو لم يرجع الى الطاعة وينكف عن العصيان وجارتها في ذلك دولة الروس وأظهرت المودة والاشفاق الى الخليفة فكاتب الى قنصلها الجنرال بديار مصر بان انسحب من الاسكندرية واقطع كل علاقة مع محمد علي باشا فانسحب فلم يلتفت محمد علي باشا الى شيء من ذلك البتة واشتدت رغبته في هدم أركان الدولة العثمانية وأخذ سائر ما بيد سلطانه من الايلات وتدمير معالم الخلافة وكتب الى ولده ابراهيم بالالحاق في القتال وأن يجعل بالفتح ما استطاع وان يتقدم بعد ذلك الى الامام ما قدر فتغلغل الامير ابراهيم في جوف الاناضول فكاتب السلطان الى الدول يخبرها بعزمه على التحالف مع قيصر الروس على الذب والدفاع ان لم تبادر الى ايقاف محمد علي عند حده وترجع عساكره عن التغلغل في جوف أملاك السلطنة العثمانية فكاتب دولتا الفرنسيين والانجليز الى محمد علي باشا بذلك وحذرتاه عاقبة تعاقد السلطان مع دولة الروس وألحنا عليه بايقاف تيار هذه المحنة حتى تتقرر قاعدة الصلح على ما فيه مصلحة الطرفين ❀ وأنفذ يومئذ قيصر الروس الامير مورافف أحد كبار قومه الى محمد علي باشا ليكلمه في ذلك وسيرت معه كذلك دولة الفرنسيين الكولونيل روهابيل وكتب قنصل جنرال الفرنسيين أيضا الى الامير ابراهيم يقول ❀ كُتبي اليك حرسك الله ورسل السلام يخاطبون أباك في وضع حد لهذه القلاقل والحن المترتبة على تلك الحرب القاسية فقد آن للباب العالي أن يطلب حقن دماء خالق الله الذين عهدت رعايتهم اليه وسيصل خليل باشا أمير سفن الحرب السلطانية رسولا الى أبيك ومعه شروط الصلح التي رضىها السلطان بناء على اشارة دولة الفرنسيين التي لم يبق في وسعها السكوت عن هذه القلاقل التي عمت جميع المشرق أوكدت بسبب الحرب القائمة بين أبيك وسلطانه ولنا جميعا الامل بان ماجبل عليه والدك من سلامة النية وما هو موصوف به من الحزم والنظر في عواقب الامور يكونان سببا في قبوله الصلح وترك الخصام فيشير اليك بايقاف عسكرك عن التوغل في قلب الشام والروم واطفاء نار الوغى حتى يأتبك الامر بما كان وما سيكون ❀ واعلم هداك الله أنك مسؤول أمام جميع الدول العظمى عما ينجم عن تغلغل عسكرك في داخلية البلاد والله عليم بالعاقبة فاعدل عن الحرب وانكف حتى يأتبك الخبر والسلام

وكان الامير ابراهيم في هذه الاونة ينتقل بجيوشه من مكان الى مكان يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه أن يسير اصعد الامير ابراهيم سفينة حربية

مطلب

ما كتبه السلطان
الى الدول من عزمه
على محاربة الروس
وتهديده اياهم بذلك

وخمسة آلاف من المقاتلين وعلمت دولة الفرنسيين بذلك فأرسلت الى السلطان تهنئته
 بمساعدتها للعساكر المصرية ان هو عاقد الروس على شئ من ذلك ❀ ووصل
 في هذه الاثناء الجنرال مورايف رسول القيصر الى الاسكندرية وكلم محمد علي باشا في
 أمر الصلح فحاول محمد علي باشا وطاول وأظهر الشدة وخاطب الجنرال مورايف بغلظة
 وحدة فغضب الجنرال مورايف وعمد الى التهديد فضرب الى محمد علي باشا أجلا نفثي
 محمد علي باشا شر العقوبة وكتب الى ولده الامير ابراهيم يقول ❀ اذا أتاك كتابي بآية أرض
 فقف حتى يأتيك رسولي ثم أعلم مورايف بما كتبه فطير مورايف الخبر بذلك الى الآفاق
 ففرح السلطان ولم تنكث دولة الروس بعد ذلك فيما وعدت به السلطان وتمكنت في هذه
 الآونة من التعاقد معه على الذب والدفاع عن جميع أملاك السلطنة العثمانية واحتلال أي
 جهة شاعها بخيلها ورجلها أو سفن حربها في أي وقت شاعت وسمت هذه المعاهدة بمعاهدة
 (خونكار اسكاه سي) فلما علمت الدول بخبر هذه المعاهدة امتعضت ولا سيما دولتا الفرنسيين
 والانجليز فسعتا جهدا لاستطاعة في ابطالها فلم تفلحا وخابت مساعيها وخافت دولة الفرنسيين
 من تمكن دولة الروس من احتلال شئ من أملاك السلطنة العثمانية بسبب هذه المعاهدة
 فجعلت تراقب الفرص واشتدت عزيمته السلطان بهذه المعاهدة وقوى ظهره فجعل يتأهب
 ويستعد ويستعمل الحيلة في اطالة الوقت بين أخذ ورد لئلا يتمكن من لم شعث جنوده وجمع
 ما تفرق في تلك الاصفاع من أعلامه ❀ واتفق أن قدمت الى دار السلطنة في هذه
 الاثناء زهرة هانم أرملة الامير اسمعيل ثالث أولاد محمد علي باشا ابنة عارف أفندي قاضي
 عسكر ولاية آسيه وكان شيخ الاسلام يومئذ بدار السلطنة تريد زيارة أبيها قال بعض
 كتاب الاخبار ولم يكن ذهاب تلك السيدة الى دار السلطنة لمجرد محض الزيارة كما كان
 يظن الكثير من الناس وانما كانت رسول محمد علي باشا في التقرب من كبار السلطنة
 ومقدي الدولة واستمالة أهل الحل والعقد من جماعة المايين بما لا يها من النفوذ والكلمة
 المسموعة فسعت وأجهدت النفس وسعى أبوها ولبثت على هذه الحال أياما لم يخف فيها على
 عيون السلطان من أعمالها خافية فكان السلطان في خلال ذلك يكثرون مناجاة الدول
 في أمر ارجاع محمد علي باشا الى الطاعة ويستفرضهم الى الانخذ بناصر الحق وازهاق
 الباطل فكان كلما عرضت الدول عليه رأيا حاول فيه وطاول ورد عليهم ردا جميلا وسألهم
 التوسع في النصح ❀ (قال الراوي) كل ذلك لئلا يتمكن من الفرص المناسبة لاغراضه وقدمت
 بعيمد قليل من الاسكندرية السفينة الحربية المسماة (النيل) لنقل الاميرة زهرة هانم
 فأرسلت تستأذن السلطان في ذلك فأذن لها وأهداها هدية نفيسة وأحسن الى رجال
 السفينة بشئ من المال للنفقة وسير معها أحمد فوزي باشا أحد رجال سفن الحرب فلما
 ألفت النيل مرساها وعلم محمد علي باشا بعقد فوزي باشا تغافل عنه ولم يظهر شئ من
 الاهتمام به وأوعز الى حبيب أفندي أن يتلقاه ويكرم سنواه فانزله حبيب أفندي منزلا رجا

ورتب له المأكل والمشرب على أحسن ما يكون ولبث على هذه الحال أياما لم يرفها محمد علي باشا ولا علم من أمره شيئا حتى جاءه مرسوم السلطان بالقيام الى القاهرة والالتقاء بمحمد علي باشا ومناجاته في أمر الصلح وفي العدول عما يغضب خليفته وسلطانه وقد أبلغ السلطان رجال ديوانه الخاص خبر بعثة فوزي باشا وطالب أن يبدوا فيها رأيهم ليعمل هو به فقام برتب باشا وعارض في ذلك كثيرا وقال يأمر المؤمنين والله مامثل فوزي باشا في مصر الا مثل الحل الصغير الذي ذهب الى وكر الذئب الهرم ليعوده وهو يرجو السلامة من العطب فلا يغرنك من ذلك الشيخ نعومة كلامه وبساطة أحلامه فهو يأمر المؤمنين أكبر من كل كبرية والرأي أن ترسل اليه صارم أفندي مهر دار الخارجية فهو ابن بجدتها وأخو نجلتها فأعجب السلطان رأيه وسير في الحال يطلب فوزي باشا وكان فوزي باشا الى هذا الحين قد اجتمع بمحمد علي باشا ووقع بينهما من المحبة والمودة ما أكبر معه العود الى دار السلطنة ولكنه قام كارها ولم يستقر به في دار السلطنة المقام حتى أرسل الى محمد علي باشا يقول اياك ونخض الجناح الى من سيدتم اليك واحفظ عليك نفسك وكرامتك حتى أرجع اليك فاتفق وابلأ على ما فيه المصلحة لبلاذك ان شاء الله تعالى

مطلب

مقدم صارم أفندي
على محمد علي باشا
ليخبره في الصلح

ووصل صارم أفندي الى القاهرة مع بعض الخدم والاتباع فأكرم محمد علي باشا وفادته وبالغ في الحفاوة به وأتزله منزلا عظيما جعل صارم أفندي يغدو ويروح الى مقر محمد علي باشا ويكلمه في الرجوع الى طاعة سلطانه ومحمد علي باشا تارة يظهر اللين وأخرى يظهر الشدة وآونة يشكو مما يلاقيه من أفاعيل أهل الحل والعقد بدار السلطنة وأخرى يظهر الصبر والتجاذف فسأله صارم أفندي يوما قائلا أما آن لك أن تخلص النيسة وتمثل بين يدي خليفتك وسلطانك فتعاهد معه على ما ترضيه فاعتذر محمد علي باشا وقال نفعل ان شاء الله اذا آذنت الفرص * قال الراوي لهذا الخبر ويحجبني من محمد علي ما قاله يوما لاحد كبار الاجانب وكان من أصدقائه هلا علمت بخبر جنون القيصر نقولا قيصر الروس وكانت الجرائد أذاعت هذا الخبر زورا وبهتانا فقال ذلك الصديق نعم سمعته وهو من اغرابه بمكان فقال وعندي أنه ليس في الامر شيء من ذلك فان جلالة السلطان متبوعى الاعظم أجن بكثير من نقولا اذ هو يدعو محمد علي ذلك الشيخ الذي حنكته لتجارب وهذبه الخن والنواب الى المثل بين يديه والتعاقد معه على ما فيه المصلحة قال ثم ضحك حتى كاد يستلقي على قفاه وطال مكث صارم أفندي بالقاهرة وهو ومحمد علي باشا كل يوم في أخذ وردّ وقد قال يوما لمحمد علي باشا سيعطيك سلطانك ولا يقي مصر وجزيرة العرب لك ولذريتك من بعدك ان أنت رجعت عن قصدك وأخلصت له النية وأقلعت عن عدائه فلم يلتفت محمد علي باشا الى قوله فقال ويوليك أيضا ولا يني عكا وطرابلس أوصيدا وطرابلس بشرط أن تعيد الى حكومة سلطانك سائر ما أخذته من الشام فلم يقبل وقال لا بد من بقاء سائر ما فتحته عساكرى في يدي وفي يد ذريتي من بعدى فاذا تم ذلك قت بارسال الاتاوة في حينها الى الخزينة السلطانية ووفيت

طاعة سلطاني حقها فعاد صارم أفندي بعد أيام الى دار السلطنة ولم يحض على وصوله الا القليل حتى ورد مرسوم السلطان بالرضا عن محمد علي باشا وقبول توليته الولاية العامة على ديار مصر وبلاد العرب وجعل هذه الولاية في عقبه من بعده الارشد فالارشد مع ولاية صيدا وطرابلس بشرط قيامه بحمل الخراج الى انظرية السلطانية في آجاله وخفض جناح الطاعة الى متبوعه وولى أمره في السر والعلانية * وفي بعض الروايات انه لما عاد صارم أفندي الى دار السلطنة وقد بلغ ما وقع بينه وبين محمد علي باشا من الاختذال والرد رسم السلطان في سادس عشر ذى القعدة وقيل رابع عشر ذى الحجة سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية بتعليك محمد علي باشا ديار مصر وكريد وتولية ولده الامير ابراهيم ولاية جدة وتسليمه رئاسة الحرم المكي مع ضم الشام الى مصر وجعلها ارثا لذريته من بعده قال الرواي وجاء الى مصر صارم أفندي أحد قرناء السلطان يحمل قاعدة هذا الوفاق ونزل على محمد علي باشا بالاسكندرية فأكرم لقاءه وأحسن مئواه وأظهر له غاية المجاملة والتلطف وقال له انما تعطى الى بلاد الشام الى طوروس كما تعطى لذريتي من بعدى قال فراجعه صارم أفندي وقال هذا يكون غير ما أذن به أمير المؤمنين والمصلحة أن تنكفوا عن اراقة دماء المسلمين ولا تحاربوا الله ورسوله وكفى ما مضى فقال محمد علي باشا لا سبيل الى غير ما أقول ولا مصلحة لي الا في الذي أنا طالبه فقال صارم أفندي والمصلحة عندي أن تتمثل بين يدي سلطانك فيهون الامر وتنفرج هذه الازمة فقال نفعل أن شاء الله فعاد صارم أفندي الى دار السلطنة ولم يتم له مع محمد علي باشا شئ * قال وقد كان صارم أفندي هذا يحمل معه عند ذهابه الى مصر عقد الصلح الذي كان وقع الاتفاق عليه في بلد كوتاهيه التي هي مقر الامير ابراهيم وعساكره يومئذ * قلت * ومع بحثي عن معاهدة كوتاهيه هذه لعل اعرف لها تفصيلا اذ هي من أهم المعلقات التاريخية لحروب محمد علي باشا مع دار السلطنة فلم أجد لها أثرا ولم أفف لها على خبر في مؤلفات أصحاب التأليف من الغربيين والشرقيين وعلى الخصوص مؤلف الشهير نيتسا الفرنسي الذي تجرد لجمع سائر المعاهدات والعقود والرسائل التي دارت ما بين الدول كافة ودار السلطنة العثمانية غير أني وجدت في مؤلفه المشار اليه صحيفة ٣٥٠ ما تعريبه * ولقد طالما زعم مؤرخو الغرب أن الخلاف الذي وقع بين الباب العالي ومحمد علي باشا صاحب مصر انتهى بعقد المعاهدة التي سميت باسم كوتاهيه وهي المدينة الكائنة بأسسيه الصغرى وعندي أن لا أثر البتة لهذه المعاهدة ولم تحصل مطلقا غاية ما وقع أن السلطان أرسل الى محمد علي باشا بعض الفرمانات والخطوط الهامونية فعلم منها محمد علي باشا مقاصد الباب وبيان ما يريد السلطان منه اياه من البلاذ والامتيازات الاخرى التي اقتضاها يومئذ الحال قال ثم بعد أن تبادل الفريقان الاختذال والرد انحسرت الاسباب ووقعت الهدنة بين الفريقين حينئذ من الدهر انتهى * وأرسل محمد علي باشا من فوره الى دار السلطنة بعد قيام صارم أفندي يقول

ليس فيما رسم به السلطان شئ مما وقع الاتفاق عليه مع مبعوث الباب وأنه يبقى
المالة الزاهنة على ما هي عليه من عدم قبول شئ من ذلك البتة وسير الى ولد الامير ابراهيم
بالتأهب والاستعداد الى اصلاء نار الحرب ثانيا وعدم الوقوف عند حد * ووصلت الاخبار
بذلك الى دار السلطنة فأعظم السلطان الامر وأكبره ورسم بعقد مجلس شرعى لينظر فى أمر
عصيان محمد على باشا وولده ويحكم بالجهاد فيهما فانهقد المجلس فى سادس عشر ذى القعدة
وقيل رابع عشرى الشهر المذكور سنة ثمان وأربعين ومائتين وألف فحضر فيه ثلاثة من
المفتين وأربعة عشر من قضاة العسكر واثنا عشر قاضيا وتسعة من أئمة السراى
السلطانية والمدارس الشاهانية وشيخا جامع آيا صوفيا وجامع السلطان أحمد فلما
اجتمع عقد نظامهم رسم السلطان بتوجيه الاسئلة الآتية اليه

ما الذى جاء به الشرع الشريف من الامر بطاعة أمير المؤمنين وخليفة رب
العالمين

الجواب عن ذلك * قد فرضت له الطاعة والوقوف عند حد أوامره جهدا
الاستطاعة

ما الذى جاء به الشرع الشريف فى عقاب العامل المارق عن طاعة خليفته وسلطانه
الذى أحسن اليه وأتم نعمته عليه فظنى ونجبر ودس الدسائس وأقام الاحقاد وأيقظ
الفتنة الراقدة وعمل على تمزيق ملك سلطانه فركب مستن الجور والعسف وأراق الدماء
هدرا وخرب ديار المسلمين ولم يرض بالطاعة للدين ولا العمل بسنة سيد المرسلين
الجواب عن ذلك . يجرد من سائر رتبة ووظائفه ولا يعهد اليه بأمر من أمور المسلمين
ثم يقتل وتلقى جثته لوحوش البرية أو الى طيور القلاة وهذا جزاؤه فى الدنيا وفى الآخرة
الخرى والنار الآكلة

هل يكون الخليفة مسؤولا بدم ذلك المارق أمام الله والناس
الجواب عن ذلك * لا جناح عليه ولا تريب فانه قد قام بما فرضه الشرع الشريف
وجاءت به أحكام الدين المنيف

ثم اختلى القوم ساعة وأصدروا الحكم الآتى
بسم الله الرحمن الرحيم * الحمد لله وحده * حيث ثبت خروج محمد على وولده ابراهيم
عن طاعة سلطانهما فحق العقاب عليهما كما حق على سائر من هذا حظوهما فى شق عصا طاعة
أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين وبذلك قد قضى الشرع الشريف أولا بتجريد محمد
على وولده ابراهيم من جميع الرتب والمناصب الديوانية وألقاب الشرف الممنوحة لهما من
لدى أمير المؤمنين ثم بقصاصهما قتلا مع سائر من شاركهما فى هذا العصيان والخروج عن
طاعة السلطان اه

وجاء الخبر الى محمد على باشا بما جرى فى دار السلطنة فلم يحفل به ولم يلتفت اليه وسير

مطلب
عقد المجلس الشرعى
بدار السلطنة
والحكم بعصاوة محمد
على باشا وولده
ابراهيم ثم الحكم
عليهما بالتجريد
والقصاص بالموت

الكتب الى ولده ابراهيم بالاكثر من الحصون واقلاع على خط جبال الطورس التي هي مفتاح الشامات من جهة آسية وامتنع من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية وشدد في تعبئة الجيوش واعداد المعدات وسير كثيرا من قطع السفن الكبار مشحونة بالمؤن والذخيرة الى ولده فسعى سفيره السلطان لدى الدول الكبرى في وساطتهم في الامر والعمل على ايقاف محمد علي باشا عند حدوده وكانت دول أوروبا تعرف انه اذا اشتدت نار الوغى بين محمد علي باشا وسلطانته وتم لمحمد علي باشا ما يتمناه من تغلغل عسكره في داخلية آسية وضم أكثر بلدانها الى مملكته التي يريد الاستقلال بها وجعل قاعدتها على ضفاف النيل عمدت دولة الروس الى العمل بمقتضى معاهدة خنكارا سكله سى فتشبه أنظارها في جوف المملكة العثمانية ونال منها غنما فيستعصى على الدول ارجاع الشيء الى أصله والله يعلم بما سيكون من وراء ذلك * فكتبت دولة الفرنسيين على يدى البارون روسين متولى أعمال خارجيتها الى محمد علي باشا تقول قد آن للسلطان أن يعدل عن تلك الحرب المشؤمة بعد أن عرف قدرك وتحقق أن لا قبل لعسكره على لقاء عسكرك المنصور بحسن قيادة ولدك وقد عاد عما تعاهد عليه مع قيصر الروس وقد سير اليه بايقاف ارسال تلك النجدة التي كان يطلبها لقتال ولدك وود لو لم يكن قد تسرع في الامر ولكن القيصر لم يلتفت الى شيء من ذلك ورسم فأنت الى بونغاز القسطنطينية سفينة من أكبر سفن الحرب الروسية فألقت مراسها والله سبحانه يعلم بما سيكون من وراء حضورها ان أنت أبيت الصلح ودممت على القتال فاحذر التطويل وأقلع عن التسويف والتعجيل ولا تفتح لخصوم الدولة بابا يلجونه للاضرار بها وأنت هداك الله شريك لسلطانك في السراء والضراء وسبقدم عليك خليل باشا مبعوثا من قبل السلطان ومعه شروط الصلح التي تقررت قاعدتها فلا تأبأها عليه ولا تشط في الطلب فتدفع بدولة الروس الى ابتلاع مملكة سلطانك واذكر أنك ان عاقدت سلطانك على الصلح حققت دماء قومك وعملت مافيه المصلحة لبلادك فحجل بتسيير رسلك الى ولدك بالكف عن القتال واقبل من سلطانك ما تنازل لك عنه فقد عفا عنك وولاك حكم عكا وجميع أراضي بيت المقدس والشام ونابلس وابالك والطمع فانه يجلب عليك وعلى بلادك وبالا ونكالا واعلم أن دولة الفرنسيين التي هذبت رجالك وعملت فنون الحرب لا بطالك هي التي أشارت بعقد رباط هذا الصلح ورضيت عن القاعد الواصلة اليك وأرسلتني الى دار السلطنة لهذه الغاية فلا تأبى الكرامة ولا تطع هوى النفس وسيصل الى مقرك السامى كتابي هذا على يد كبير تشريفات ديواني فأكرم وفادته كما عودتنا الجميل والسلام

وأرسلت كذلك دولتا النمسا والانجليز الى محمد علي باشا على يدى قنصلهما تهديدانه بأشد ما يكون من التهديد ان هو لم يقف عند حد الطاعة لسلطانته وأرسلت اليه دولة الروس تقول أيضا ان لم تعدل عن غيرك وتتكف عن عدائك وترجع الى طاعة سلطانك

علمت بمقتضى ما بينى وبين سلطانك من العهد وفعلت ما تسوّلك عقباه وما لم تطق عليه صبرا
إذا لم تجمل دولنا الفرنسيس والانجليز بحصر سائر السواحل المصرية والشامية بسفن
حربهما وتضييقا عليها تضييقا ثم ويا لك والشطط في دعواله بعد الذى تنازل لك عنه خليفتك
فإن الله في نفسك وأهلك وولدك والسلام

مطلب

ما كتبه محمد علي باشا
الى صاحب سياسة
الفرنسيس

فكتب محمد علي باشا الى صاحب سياسة الفرنسيس يقول ﴿ أما بعد فقد وافاني كتابك
الشريف على يدى كبير تشرىقات مقرئ المنيف وقد ذكرت فيه انه بمقتضى قاعدة
الاتفاق التى قررتموها لم يبق لى حق فى شئ من البلاد الشامية سوى حكم ولاية عكا
وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وبعض مدن أخرى أنجل ويعلم الله من ذكرها وأنه
يلزمنى بعد ذلك استرجاع جميع جنودى من بلاد الاناضول والمبادرة الى عقد رباط الصلح
مع سلطانى فاذا أبيت ذلك قامت دولة الفرنسيس بخيلها وبرجلها لتذيبنى وجميع أهل
بلادى مر النكال ﴿ أعادنا الله معاشر المصريين من ذلك ولقد بلغنى رسولك هداة الله أنى
ان لم أبادر الى قبول تلك الشروط الجائرة وأحلها محل السمع والطاعة سيرت الى دولنا
الفرنسيس والانجليز سفن الحرب والشوانى الكبار مشحونة بالرجال لتكرهنى على الطاعة
والتسليم * فقل لى بحقك كيف جازلكم اكرهى وأى شرع من شرائع الأمم المتدنة أحل
لكم هذه الافعال أو ترضى أمة الفرنسيس أم التمدن ومهد الحرية والتقى أن أترك بلادا
فتحت بالسيف والجهاد والكفاح والجلاد قضية مسلمة اعلم أن قوى وسائر أهل بلادى هم
طوع أمرى واقفون عند حد اشارتى فلا شئ عندى أقرب من أن أقود بنفسى جيوشى
تلك المظفرة وأسير بها لفتح جميع بلاد الاناضول والروم ابللى وأبذل النفس والنفس فى
ضم كل ما استطعت ضمه الى مملكتى مادام فى قطرة من دم وثقى بأنى قد وطنت النفس على
ذلك فلا حول لى عنه ولا مندوحة منه وانى لأعجب كيف تشدد على التكبر وتكرهنى على
ترك بلاد قد حكمتها بالفتح والغزو وتكبدت فى فتحها جيوشى أصعب المصاعب وأتعب
المناعب وأريقبت فيها الدماء الكثيرة وضاعت الخزائن الوفيرة وعلم أهل المعور شرقا وغربا
شهامة رجالى وبسالة أبطالى ونباله مقصدى واستبشر الناس طرا بأنى سأوفق ان شاء الله
تعالى الى فتح جميع بلاد الدولة العثمانية وأنال منها قبل أن تنال دولة الروس وهل يجمل بك
أن تشير بتركى مصر والاستعاضة عنها وأنت تعلم أنها لا تفارقنى أبدا ولا أفارقها الا بفارقة
الروح للجسد فافقه يا هداك الله واعدل ولا تكن من المحققين واذا كرا أن المسروعة لا ترضى
بذل من وطن النفس على القيام بخدمة الشرق عموما ودولة آل عثمان خصوصا والسلام
(قال بعض الكتاب) ثم لم ير محمد علي باشا بعد كل هذا التهديد والوعيد بدا من العدول عن
طلب الاستقلال التام بحكم ما بيده من ديار مصر والشام الى طلب الولاية بالتوريث فى عقبه
من بعده وأن يكون حكمه فى ذلك كحكم ولاية بغداد وعلى باشا والى يانبا وسير الكتب
الى سفراء الدول وكام سفير الفرنسيس فى ذلك طويلا فلما لم يرضهم أذنا صاغية عباد الى

مطلب

ما كتبه محمد علي باشا
يهديه الدول

التهديد * وكتب اليهم ثانية يقول كتابي اليكم يا أنصار الانسانية وعهدى بكم الوفاء وحسن
الاخلاص والولاء واني والله لأدري ما علة هذا الجفاء بهلا مهلا ما بالكم تجافيتم بعد ذلك
العطف والتلطف فان كنتم ترون في طلبي الاستقلال بلك ما في يدي شططا وغما لا تحمد
عقباه فقد عدلت عنه الى طلب الولاية وجعلها ميراثا بعدي الى وادي ولا اخالكم تنكرون
على ذلك أيضا بعد الذي تحققتموه من أمرى فان شأتم فعلتم ذلك والافدون استسلامي الى
سلطاني على يدكم خوط القتاد ولا لوم على ولا تريب اذا جاهرت بالذي أبتغيه وحافظت على
ما بيدي من البلاد بحد السيف فقد عشت طويلا ورأيت كثيرا وخير أشيخ مني أن يموت
عزيزا موقرا من أن يموت حقيرا مرذولا وكيف ذلك وأنا لم أطلب شيأ يتعدى مصلحة
أوروبا السياسية ولم أسأل ماهو من العنت والخيلاء في شيء فإلهم تراو غوني مراوغة ما أنزل
الله بها من سلطان الكونى على غير دين المسيحية لأظن ذلك ويعلم الله فان المروءة
والشهامة تأبيان الاضرار عن لا يسهى الا الى غاية شريفة ومستقبل شريف لذريته من بعده
ولقد أكثرت من الشكوى ولم أخف عنكم ما وطنت النفس على عمله فلم يبق الا أن أقول
علانية انى عاهدت النفس أخيرا على الخوض في معامع الحرب والجلاد حتى الموت فان
فازت الدول بالانتصار وألحقت بى وبمسكرى البوار فهذا لا يزيدنا شرفا ولا يكسبها غنا
اذأنها أكبر من ذلك كثيرا وان أتاح الله سبحانه لى الظفر ووفقى الى سبل الغلبة والنصر
أريت الدول عاقبة هذا الامر وأنبأتها بما لم تطق عليه الصبر وكم فئة صغيرة غلبت فئة
كبيرة باذن الله والسلام

مطلب

احتفال السلطان
بزفاف ابنته زليخا
سلطانه وهديه محمد
على باشا

واتفق في غضون هذه الحوادث أن احتفل السلطان بزفاف ابنته زليخا سلطانه
على خليل باشا أحد كبار رجال الدولة فعمل لذلك الافراح والولائم وأنت اليه هدايا الملوك
والسلطين والولاة من كل صوب وحذب فأرسل اليه كذلك محمد على باشا شيأ كثيرا
من الاعلاق النفيسة والتعابى الثمينة والجواهر النادرة المثال فلم يكن احتفال السلطان
بها الا كاحتفال الدائن بأخذ ماله في ذمة مدينه ولم يرد على محمد على باشا ردا جيلا
فامتعض محمد على باشا من ذلك وعاد الى الشكوى من فعال الدول ووقوفهم في وجهه
فكلم وكلاء الدول السلطان في وضع حد لهذا النزاع والخصام يكون من ورائه فصل
الخطاب والكف عن اراقة تلك الدماء هدا فأجابهم بأحسن جواب وأخذ على نفسه
هذا العمل وهجر سرايه المعروفة بسراى استافروى فرارا من الطاعون الذى دخلها بالعدوى
من بعض الشيلان الكاشميرية التى جاءت هدية من قاضى القضاة بمصر ومنع رجال
دولته من التداخل في أمر حل هذه المشاكل ولم يشر له معه في حلها سوى سعيد
بيك كاتم أسرار الاول وواصف أفندى كاتم أسرار الثانى وجعلت رسله تتردد على مقر
سفير الفرنسيس وطال الاخذ والرد في تقرير قاعدة لتنازل السلطان عن ولاية مصر وتركها
الى محمد على باشا ثم الى ذريته من بعده ميراثا لا ارشد فالارشد وعن ولاية الشامات مقيدة

ببعض القيود اللازمة لحفظ حقوق المتبوع على السابع وألح سفير دولة الفرنسيين في ذلك وأكثر من التشديد فلم يفلح ❀ وكتب محمد علي باشا الى ولده الامير ابراهيم بأمره بالتأهب والاستعداد لاصلاء نار الحرب في الاقرب العاجل فجعل الامير ابراهيم يتأهب وقد بالغ في ذلك ففرض على أهل الشام الفرض الفادحة وضرب الجزية على أهل حوران ولبنان وقد أحس منهم بالشمر والخروج عن الطاعة فالزمهم الصغار واشتد في تذليلهم وغت الجزية سائر أهل تلك الاصقاع وقد كان عمال السلطان قبلا لا يفرضونها الا على اليهود والنصارى دون المسلمين فم القلق من أقرب البلاد الى أفصاها وبدت اشارات العصيان وعلم الامير ابراهيم بحضور جماعة من عيون السلطان وانهم يجوبون البلاد ويحضون الناس على الخروج واضرام نار الفتنة فبالغ في الحيلة والتحرز وبلغ جيشه الذي جمعه في هذا الحين زهاء ثمانية عشر ألفا ❀ وجعل السلطان يكثر أيضا من حشد الجيوش ويعد المعدات ويرسل الجند تباعا الى حدود الشامات وقلب آسيه وسلم قيادتها الى حافظ باشا أحد كبار الحرب وعهد الى الاضرار بمحمد علي باشا ماليا أيضا فعاقده دولة الانجليز على يد رشيد باشا والورد بونسي على منع احتكار المحاصيل المصرية فكبر هذا الامر على محمد علي باشا وكاد يسقط في يده حاجته الى المال لنفقة الجنود وجعل يفكر في تجديد الخبايا مع الباب العالي مباشرة مبتعدا ما استطاع عن وساطة الدول سادا دون ذلك كل منفذ وباب ❀ قال بعض الكتاب وكان يرى انه في حاجة الى المال الذي هو أكبر معين على بلوغ هذه الآمال فعزم على الرحيل الى بلاد السنار في طلب معادن الذهب حتى اذا فاز منها يملوغ الارب أعطى وذهب وقهر وغلب وقلب الى تلك الدول ظهر المجن بعد الذي عاناه بسببهم من المسكيد والمحن وقال آخرون بل كان يقصد بهذه الرحلة الطويلة تغيير مجرى الحوادث ونفريج تلك الازمة التي استحكمت حلقانها بما كان يأتيه من التشديد والتهديد وقد كان يرى من دولتي الروس والانجليز عدوا لدودا وخصما مشاغبا كنودا وأن رجوعه القهقري بعد ذلك التشامخ والنعاظم يكون نقطة سوداء في صحيفة أيامه فجاء الى تلك الرحلة وعقد النية على انه ان عاد سالما لا يظهر في ميدان ذلك المعترك بظهور البادئ بالشمر الا اذا اضطره الخصم الى القبض بكتفي يديه على حر هذا الجر * وكان معه في هذه الحلة كثير من العمال وأرباب الصنائع والبنائين والمهندسين وأصحاب علم طبقات الارض من الفرنسيين وغيرهم وجماعة من الكتاب القبط والمترجمين والخدم والانباغ وجاهد من مشاق الاسفار مالا يقدر عليه الا القليل فلما وصل الى سنار جاء مشايخ القبائل وأسراء السود وبعض سلاطين ذلك الصعيد خاضعين وقدموا له الهدايا النفيسة من الذهب وكثيرا من الاماء والعبيد والخصيان ومن الفيل والريش والعطريات فأكرم اقاءهم وبالع في الحفاوة بهم وحادثهم فيما هم عليه ووعدهم خيرا ان هو ظفر بأمنيته من تدويخ سائر ولايات السلطنة العثمانية وتم له الاستقلال بملك سائر ما بيده من البلاد ثم بث سائر من معه من أصحاب علم طبقات الارض في

مطلب
ضرب الجزية على
أهل حوران ولبنان

مطلب
سفر محمد علي باشا
الى السودان في طلب
معادن الذهب

أنحاء السنار يجوبون الصحارى والقفار عليهم يهتدون الى شئ من معادن الذهب فلم يوفقوا الى ذلك البتة سوى ما عثروا عليه من بعض الرمال المخلوطة بالشئ اليسير من القشور الذهبية فأحزنه هذا الامر وسار عن السنار وقد ترك بها جاعة من المهندسين والعمال والكتاب وأصحاب طبقات الارض وهو على عزيم أن يؤسس بها مستعمرة يسميها باسمه ووافق وصوله مدينة القاهرة يوم افتتاح سنة خمس وخمسين ومائتين وألف هجرية فعلم بخبر وصول بعض السفن العثمانية ومعها الهدايا والتعابى المعتاد ارسالها في كل عام الى مكة والمدينة وكان الموكل بتوصيل تلك الهدايا نائب أمير سفن الحرب العثمانية فلم يحفل محمد على باشا بقدومه وأغضى عنه وكأنه لا يعلم من أمره شئ فأرسل اليه النائب يقول * أمير المؤمنين يقرئك السلام ويخصك بالتحية والاكرام ويقول عجل بحمل الخراج ولا تحدث حدثا بعد الذى علمته من اغضاء سلطانك وعفوه عما فات فلم يرد عليه أياما ثم أرسل اليه كتابا يقول فيه لست فى استعداد للقائك الآن فأرحل عنا ثم عد بعد أربعة أشهر فلم يسع النائب المذكور الا العود خائبا مقهورا

وانقسم رجال الدولة من هذا الحين الى فريقين مختلفين أحدهما يقول بلزوم الحرب واصلاء نار الوغى مع محمد على باشا حتى يرجع صاغرا وكبير هذا الحزب أحمد قبطان باشا وثانيهما يقول بلزوم التانى وترك العجلة والاخذ بأسباب المساهلة حتى تخمد نار هذه الفتنة وتعود الامور الى ما كانت عليه من المودة والصفاء بين المتبوع وتابعه ورأس هذا الحزب خسرو باشا قال بهض الكتاب وقد كان خسرو هذا من الدأعداء محمد على باشا وأكبر خصومه وهو الذى كان واليا على ديار مصر أيام على بيك الكبير شيخ البلد ومراد بيك ووقع بينه وبين محمد على باشا من البغضاء ما قامت الحرب بسببه بين أصحابه وعسكر محمد على باشا أياما كثيرة حتى خلعه محمد على باشا وأخرجه من مصر خاسرا مقهورا وولى مكانه خورشيد باشا (كما هو مذكور فى محله من الجزء الثالث من كتابنا هذا) قال الراوى ومع ذلك فقد كان من المحقق الذى لامراه فيه أن خسرو باشا مع قيامه بزعامة حزب السلم كان يرجو فخر أحد الفريقين المتحاربين وغلبته ويقول ان دحر محمد على وقهرته العساكر السلطانية كان ذلك غاية ما أغنى أن يحقق به جزاء له على خلعي من ولاية مصر واخراجي منها قهرا وان ظفر محمد على بالعساكر السلطانية ومزق شمل جمعهم كان ذلك ما أرجوه كي يحقق برشيد محمد باشا وحسين باشا مقدمى العساكر السلطانية العار والسنار والخزى والبوار

وعلت فى غضون هذه الحوادث ضوضاء أهل حوران ولبنان وكثر ضجيجهم ونادوا بالانخلاص من نير عبودية الامير ابراهيم وجور عسكره وقدمت رسالتهم الى دار السلطنة يصيرون الممدد وقد كان لما أحس أهل الشام بضعف جيوش الامير ابراهيم قاموا على عماله وخرجوا عن طاعتهم وانبثت عصا بانهم فى القرى والبلدان يدعون الناس الى

مطلب

انقسام رجال الدولة
العثمانية وعدم
اتفاقهم على استمرار
القتال مع محمد على

باشا

مطلب

خروج أهل الشام
وانقصار الفتنة

مطلب
قيام محمد علي باشا الى
ياها لتسكين الفتنة

شق عصا الطاعة فهبوا جميعا الى الثورة فأرسل الامير ابراهيم الى أبيه بالاسكندرية
بستنجده فسار محمد علي باشا من فوره الى يافا ومعه الهدايا النفيسة والتعابى الفاخرة فلما
ألقت سفينته مرساها طلب وجهاء البلد وأعيان القوم وكبار القبائل فحضروا اليه فأحسن
لقائهم وخلع عليهم الخلع النفيسة وأعطاهم التعابى الغالية وبالح في استمالتهم فمالوا اليه
وعاهدوه فأرسل الى ولده يقول عجل بالخروج وقاتل ما استطعت وشرد أصحاب الفتنة وشدد
عليه في ذلك وبالح في توبيخه وتعزيزه استرضاء لأصحاب العهد فخرج الامير ابراهيم بعسكره
وحارب أصحاب الفتنة وقتلهم قتلًا عنيفا حتى دؤخهم وظفر بهم ثم ركب على نابلس
وقاتل من بها فقاتلوه وصبروا على قتاله أياما كثيرة ثم عادوا فطلبوا الامان فأمنهم وركب
كذلك على الكرك والسلط وأمر عسكره فهدموها ودكوا حصونها وأخضع جبال الناصرة
وأرجع أهلها الى الطاعة وسير جماعة من عسكره الى اللاذقية فبينما هم في طريقهم
اذا خرج عليهم أهل الناصرة ثانية فمالوا منهم قتلا وجرحا وتشريدا فرجع من بقي الى
حيث الامير ابراهيم فكبر عليه هذا الامر وأخذ في التدبير على أهل الناصرة وعاهد
الامير بشير الشهابي على الذب والدفاع فحيش الامير بشير عسكرا لقتال أهل الناصرة
وقدم عليهم ولده الامير خليل وجيش كذلك الامير ابراهيم جيشا آخر وسلم قيادته الى
الامير خليل فسار بهم الى الناصرة وقاتل من بها فوقت بينهم عدة وقائع كانت الحرب
فيها سجلا وما زال الامير يقاتل والمدد ياتيه تباعا حتى ظفر بأهل الناصرة وأخضعهم
وقبض على كبارهم وسلمهم الى الامير ابراهيم فقتل بهم وقتلهم وبالح في التحذرو واستئصال
أسباب الفتنة فرسم بجمع مافي أيدي الشاميين من سلاح وآلة حرب وشدد في ذلك
وتوعده وطاف القرى والبلدان ومعه جماعة من العسكر يكذبون الدور ويخفرون
الفسحات وينهدمون الجدران ويخرجون مافيها من سلاح وآلات حرب فكانت شيا كثيرا
نخافه الشاميون وانكشوا وانجحت آثار الفتنة وخضعت جميع الشمامات فلم يتركهم بل
عند الى اذلالتهم وتنكيلهم ورسم بجمع كل ما قدروا على جمعه من الخيل ودواب الجمل
وأدخل الشبان من أولادهم في مصاف الجند وسيرهم الى أقصى البلاد فكان عملهم هذا من
أشد الضربات على الشاميين وكان كلما بدت منهم دالة التمرد أو الخروج فعل بهم
كذلك فيرجعون الى الطاعة وقد تراكت الشكاوى من ذلك على الباب العالي
فأبلغ السلطان وكلاء الدول خبرها وقال لابد من خروج ابراهيم وعسكره من
الشمامات وجلائهم عنها بغير معاودة والا فالسيف والنار ولا هذا الخزي والعار فراجعته
دولة الفرنسيين وكذلك فعلت دولة الروس آخذة في هذه الاونة برأى كبير سياستها المسمى
روبو نافوف قال أصحاب التاريخ فقد كان هذا الرجل من فحول أصحاب السياسة ومقدمي
رجال الرئاسة كثير المعرفة بأحوال الدول فلما رأى من اللورد بونسنبي سفير الانجليز من
المواربة والدهناء أدرك ما وراء ذلك فاستدرك الخطأ وعمد الى تغيير خطة سياسته دولته من

المكابرة والمعاندة الى المساهلة والمجاملة وانبعثه في ذلك أيضا دولتا بروسيا والنمسا وأكثروا جميعا من الاخذ والرد مع السلطان وهو يطاول ويحاول ويظهر خلاف ما يبطن حتى خشي حزب السلم من تفاقم الخطب واشتداد الكرب وعمد الى طلب خلع أحمد قبطان باشا مقدم حزب الحرب فلم يفلح لمكانته وقربه من السلطان فعدل عن ذلك الى طلب تحقيق حالة الشامات وما اذا كانت تستلزم البقاء على هذه الحرب المشؤمة التي لا يعلم عاقبتها الا الله وحده وألح خسرو باشا بطلب ذلك وزين للسلطان العمل برأيه فأجابه كارها وسير سعيد باشا ناظر الحربية الى الديار الشامية وكانت العساكر السلطانية الى هذا الحين نازلة بملاطية وقد فعل فيها برد ذلك الشتاء فعله وقلت عندهم المؤن وفشت بينهم الامراض وكثر الموات وساءت حالهم وبدت منهم اشارات الخروج وشق عصا الطاعة فكان حافظ باشا مقدمهم يخشى عاقبة ذلك ويلج على السلطان بطلب الاذن بفتح باب الحرب والزحف بعساكره لقتال الامير ابراهيم فأجابه السلطان الى ذلك وسير اليه ثلاثة من بكاره واد الجيوش البروسياوية وبينهم البارون ملتكه الشهير ليكنوفوا له عوناً على العمل فسار حافظ باشا بعسكره من ملاطية يريد الشامات وعبرت طائفة منهم الفرات ومقدمهم اسمعيل باشا وسارت على أكمل ترتيب ونظام حتى اقتربت من حلب وكان الامير ابراهيم قد سار عن حلب الى حوران ليري المزارع وغرس الاشجار الكثيرة التي أشار بغرسها في تلك الاصقاع فلما جاءه الخبر بوصول العساكر السلطانية أرسل الى قواد عسكره يستحثهم على التأهب والاستعداد وجع اليه مشايخ قبائل وبلاد تلك الانحاء واستحلفهم على الطاعة والولاء خلفوا له الايمان الغلاظ وكان ممن حضر معه في ذلك اليوم سليمان باشا الفرنسي فقال له أيها الامير خفف عندك فوالله لما أن تدخل دار السلطنة في هذه المرة بعسكرنا المنصور واما أن نعود الى ديارنا مدحورين خاسرين فسر الامير ابراهيم عند سماعه هذا الكلام وقال بورك يا سليمان والله لن يكون الا دخولنا بأذنه تعالى ظافرين غانمين * وأحاطت العساكر السلطانية بالشامات ونزلت على بلادها من كل صوب وحذب واجتمع لهم عند مدينة قونية كثير من الجند وتأهبوا للهجوم على البلد والولوج منها الى المفاوز الموصلة الى مدينة آتنة وجاءت كتب السلطان الى عزت محمد باشا والى انجور بتجهيز الجيوش واعداد المعدات مددا عند سيس الحاجة وسار كل من والى بغداد والى الموصل في عسكر عظيم مددا الى حافظ باشا قال بعض الكتاب ولم يكن سير هذين الاميرين بعسكرهما الا لامداد الامير ابراهيم ومعاونته على قتال عسكر السلطان وكان الامير ابراهيم في خلال هذه الحركة وتعبية تلك الجيوش الجراحة ساكن القلب هادئ البال وهو مع ذلك يعلم أن جيوش السلطان اتى جاءت لقتاله في هذه المرة زهاء المائة ألف وخمسين ألفاً فضلاً عما وصل أيضاً من سفن الحرب الكبيرة والشواني المشحونة بالمدافع والمقاتلين وجعل يرتب جيوشه ويرسلها الى مواقع القتال فسارت منها طائفة الى مرعش وأخرى من أصحاب المدافع الى عنتاب لرد أهلها الى الطاعة فانهم

لما أحسوا بقرب العساكر السلطانية منهم تاروا على عمال الامير ابراهيم وشاغبوههم وسارت طائفة أخرى من الفرسان وأصحاب المدافع الى حماة ومهمهم جماعة من عربان الهنادي ومقدمهم قفطان بك وخرجت قبيلة العنزة عن طاعة السلطان أيضا وانضمت الى العسكر المصرى فهال السلطان خروجهم وأزعجه واهتم محمد على باشا بجمع المال لتفقة الجند واحتياجات العسكر فزاد في فرض الفرض وضرب المكوس والمغارم على سائر أهالى البلاد بلا فرق بين الغنى والفقير والصغير والكبير من التجار وأرباب الحرف والصنائع والكتاب والمترمين وبالع في جمعها وبث الجباة والمأمورين يجوبون البلاد شرقا وغربا في طلب ذلك فاشتدوا على الناس شدة بالغة وأخذ أيضا سائر ما كان مودعا من المال بصندوق التوفير من مال أرباب الرتب العالية وأصحاب الوظائف السامية وقدره ثلاثون ألف ألف قرش وخرج الى بعض المدن مثل طنطا والحلة وشبين الكوم والمنصورة وفارسكور وغيرها لبعض الجباة والمأمورين على جمع المال وكتب الى الامير ابراهيم يقول * لا تنجل بفتح أبواب الحرب وكن مدافعا لامها بما حتى تعرف دول أوروبا أن سلطانك هو البادى بالشر والبادى أظلم

وكان الى هذا الحين قد انقطعت المواصلات بين الشام ومصر وبلاد الترك وانقطع ورود القوافل بالتجارة واستوحش كل قرين من قرينه واشتد الخوف باهل تلك الاطراف من عثم الجيوش العثمانية واهل اكلهم للحرث والنسل * وقدم طاهر باشا رسولا من قبل السلطان الى حافظ باشا مقدم العسكر السلطاني يحمل المرسوم بفتح أبواب الحرب واصلاه نار الوغى وكانت عيون الامير ابراهيم تنقل اليه الاخبار فأعلموه بخبر ما هي عليه العساكر السلطانية من القوة ووفرة العدد والعدد وحصانة الموقع فالتفت حلب مقرا لحركة جنوده واستحلف عظماءها ثانية على السمع والطاعة فخلفوا فنجبا أهلها الجزية سلفا فدفعوها فكانت ثلاثة آلاف كيس ومائة كيس واستفرضهم قرضا قدره ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف قرش فأقرضوه اياه فكان ماخص النصارى والمسلمين من هذا القرض ثلاثمائة ألف وما خص اليهود خمسة وسبعين ألفا وسير لحراسة بعلبك ومنع القادم من العساكر العثمانية الى حوران ولبنان طائفة من الارناؤط ورفع عن أهلها الجزية وسائر المغارم كي يتخلدوا الى السكون وأباحهم الزرع بلا مال ولا خراج وأجاز لهم انتخاب شيخوهم ومديري أمورهم وأعاد اليهم ما كان قد جمعه منهم من الاسلحة وآلات الحرب وأقام عليهم شبلى عربان أحد كبارهم ومقدمي خزيمهم عينا ليراقب أحوالهم ويحرس دروبهم وبالع جدا في الحيطنة والتحرز من أهل تلك الاطراف لشدة بأسهم وصبرهم على الحرب والقتال

ووردت كتب الدول الى وكلائهم بالاسكندرية بان يعاودوا محمد على باشا في كف ولده عن الزحف والقتال * قال بعض الكتاب * وكان كتاب كبير سياسة الروس في ذلك الى

مطلب
اتخاذ حلب مقرا
لحركة العساكر
المصرية واستحلاف
أهلها على السمع
والطاعة

مطلب
عود قناصل الدول
الى مكاتبة محمد على
باشا في الصلح وما
كان من وراء ذلك

قنصلهم شديد اللهجة غليظ الكلام وكان محمد علي باشا في هذه الاثناء يجوب البلاد وقد وصل الى مدينة دمياط فسار اليه فنصل الروس وأبلغه الرسالة وأخبره بخبر كتب الدول الى وكلائها فغضب محمد علي باشا وعاد من فوره الى الاسكندرية فاجتمع اليه سائر القناصل وجعلوا يكلمونه في الافلاخ عن كل هذا العداء والكف عن الحرب واستدعاء ولده ومن معه من العسكر وتقرير قاعدة أخرى للصلح قال فامتعض محمد علي باشا وقال ما بالكم تسعون في الاضرار بي وباهلي وولدي وما بالكم تضربون علي يدي وتطلقون يد السلطان يقتل من شاء ويخرب ماشاء ويحرق ماشاء أولم تخافوا الله وتحكموا بالقسط بيني وبينه والله ان أرجع عن الحرب والقتال وان ترجع عساكري عن الغزو والفتح حتى يحكم الله بيني وبينه وهو أحكم الحاكمين * فجعل القناصل عند ذلك يخففون عليه حتى سكن بعض ما به ورسم الى كاتب سره أن يكتب الى الدول شيئا مما هم بصدده فكتب يقول * قد خاطبني قناصل الدول العظمى بما جاءهم من الكتب في أمر تقرير قاعدة للصلح بيني وبين سلطاني فلم أربدا من العود الى اعلامكم بما قد وظنت النفس على عمله آخذا بعشورتكم فان عادت العساكر السلطانية الذين عبروا الفرات وأصبحوا على مقربة من المعسكر المصري الى حيث أتوا وتم ذلك في الاقرب العاجل سيرت الى ولدي بايقاف عسكره ورجوعه الى دمشق مع حاشيته وأركان حربه وان خرجت سائر العساكر السلطانية وانجلت عن الديار الشامية استوفقت سائر جيوشى واستقدمت ولدى الى مصر فاذا تكفلت لنا الدول بالمحافظة على السلام وتوكيد عرى الولاء مع السلطان بتوريث أولادى من بعدى ملك ما يبدى من البلاد فاني لأججم عن استقدام بعض جيوشى الى مصر ولا آنف من العود الى المخبرة مع سلطاني في تقرير قاعدة للصلح راسخة الاركان لا يبق من ورائها باقية والسلام * قال بعض الكتاب * كل هذا والسلطان يظهر الى سفراء الدول بخلاف ما يبطن فكان من جهة يقول انه مابرح بطاول محمد علي باشا ولده ويدفعهما عن بلاده بالتي هي أحسن ومن أخرى يحض مقدم عسكره على الزحف والانتقال من بلد الى آخر بعامل وأسباب مختلفة وقد أنشب الموت أطافره في العساكر السلطانية فأهلك منهم خلقا كثيرا وخلق كذلك بدوابهم فكاد يبيدها ونزل شريق من العساكر في مضيق من الجبال وعمر المسالك ولبثوا فيه لا يتحركون أياما * قال الراوى فلو كان الامير ابراهيم نازلهم في ذلك المضيق بنفر من عسكره ساعة لأتت على آخرهم ولكنه لم يفعل حقنا للدماء ولكي لا يقال انه البادى بالشر وشاع خبر ذلك في دار السلطنة فكبر خوف حزب السلام وقام سفراء الدول يسألون طاهر باشا في ذلك فلم يروا منه جنوحا الى المسألة ولا ميلا الى المكاملة وكثر الاغط بلزوم الحرب والقتال وقطع شأفة العساكر المصرية من كافة بلاد الدولة وظهر من اللورد بونسنبي سفير الانجليز ميل الى معاداة محمد علي باشا وأوعز الى قنصل الانجليز بدار السلطنة أن يكلم السلطان في تقليد الجنرال سكرانودسكى البروسيادى قيادة الجيوش

العثمانية في هذه الحملة فلما شاع خبر ذلك غضب سائر كبار حرب الجيش البروسيماوى وقاموا قومة رجل واحد وقالوا السار ولا هذا العار الذى يلحق بنا اذا ظل الرجل في خدمة جيوشنا وكان هذا الجنرال قد تجنّس بالجنسية الانجليزية وقام كذلك كبير سياسة بروسيا يمانع ويشدد في المنع يخاف السلطان شر العاقبة ولم يوافق على طلب اللورد بونسبى وانبتت العساكر السلطانية في أنحاء الشامات فعانت وأفسدت واجتمع اليها أهل البطالة والفساد وأتت اليها الأحزاب من كل صوب وحذب ووصلت طائفة من الفرسان الى ناحية (مزار) على قيد فرسخين من نصيبين وأرسل مقدم هذه الطائفة الى عامل السلطان على (أرول) في طلب الرجوع الى طاعة سلطانه وترك الأمير ابراهيم وشأنه فأجابه الى ذلك وعلم الأمير ابراهيم بخبره فرسم الى محمد معجون بك بالمسيح معه من العساكر والعربان الى تل باشا فسار اليه ثالث عشر ربيع الاول من السنة وكثر احتلال الجنود العثمانية للكثير من القرى والبلدان الداخلة في ولاية غنتاب والتقى الى (أرول) بتقديم العساكر السلطانية فأكرم وفادته فبالغ الوالى في السمع والطاعة اليه وأشار عليه بجمع مشايخ ذلك الصعيد ففعل فكلهم في الخروج عن طاعة الأمير ابراهيم فأجابوه الى ذلك فأعطاهم الاسلحة وآلات الحرب وأكثر لهم من الذخيرة ففرقوها على أهل البلاد ودفعوا بهم الى قتال العسكر المصرى ومع كل هذا فقد كان كبير سياسة السلطان يقول لسفراء الدول ان أمير المؤمنين جانح الى السلم كاره للحرب وانه على ما هو عليه من التأنى وترك التسرع حتى تقضى الدول بينه وبين متبوعه

وكبر كيد الأمير ابراهيم فلم يبق في امكانه السكوت لاسيما وقد انبتت العساكر السلطانية حوله وجاؤا الى مواقع عسكره من كل صوب فارسل الى سليمان باشا الفرنسوى يستحثه على الحضور بسائر من عنده من العساكر ثم سار هو من حلب في جماعة من الفرسان وأصحاب المدافع ولحق به سليمان باشا بن معه وبينما الأمير ابراهيم في طريقه اذ جاء الخبر بهزيمة العربان الذين كانوا رباطا عند نهر الساجور قاتلهم الفرسان العثمانيون فلم تأت ساعة أو بعض ساعة حتى انهزموا شر هزيمة وأسروهم جماعة كثيرة وتمزق شمل من بقي منهم فأزججه هذا الخبر وسار سيرا حثيثا يريد لقاء العساكر السلطانية فلم يتمكن من ذلك وكان رجال المايين السلطاني في خلال هذه المشاغبات يكثرون من الضحيج والعجيج الى الدول من شرفعال محمد على باشا وولده ابراهيم وامتناعه من حمل الخراج الى الخزينة السلطانية ويقولون انه ما يرح يظهر الى سلطانه كل بغض وعداء بتجيشه الجيوش واعداه المعتدات بعد أن صفع عنه وعفا عما فات ثم أرسل صدر الدولة الى وكلاء الدول كتابا يقول فيه * قد آن لكم أن تروا ما يراه أمير المؤمنين من لزوم حل عقدة هذه المشاكل والاحن التي قوضت أركان السلام أو كادت فقد فرغ الصبر واستفعل شر هذا الامر وأخذت الخيلاء من ذلك التابع المارق مأخذها فداست بقدميه هامة الخلافة وزعزع أركانها وبلغت به

القحة مبلغها والجسارة منهاها فلم يبق في وسع الباب العالي الاغضاء بعد هذا كله * وقد تنازل أمير المؤمنين بأن يبعث الى الاسكندرية سفراء يعرضون على محمد على الرجوع الى طاعة خليفته وسلطانه فان أذعن عفا الله عما سلف وان امتنع وكابر فالسيف والثار ولا هذا الخزي والعار * ولأمير المؤمنين عضد ونصير من جانب دولة الانجليز التي وعدت بالمعونة والمدد وأمسى وعدّها ان شاء الله أمرا مقضيا * وبعد فأمر المؤمنين يسأل الدول المتحابّة أن تسيج جهدها في اقناع ذلك النابيع بالانزعان والكف عن المشاغبة وعدم الطموح الى مالا تحمده عقباه وأمير المؤمنين على يقين من حسن نوايا الدول المتحابّة وميلهن الى توطيد أركان السلم وسد أبواب تلك الحرب التي لم يبق في وسع أحد النظر الى تبارها الجارف نظرة المتفرج فلذلك يرجوهم تدارك الخطر قبل استفحاله والسلام

ووردت على محمد على باشا في هذه الاثناء الاخبار من ولده الأمير ابراهيم بما هم عليه من الجهد والتعب بسبب هجمات طلائع الجيوش السلطانية على مقدمة العساكر المصرية والتزامه خطة الدفاع والوقوف عند حد التمزق لكي لا تنهزم الدولة بسوء القصد بعد الذي هم فيه من الاخذ والرد فلم يصل اليه الجواب حتى جاء الخبر بوصول رجل اسمه موسثيك بك في طائفة كبيرة من عساكر الكراداغ المرتزقة يريد قتاله وما زال موسثيك هذا يتقدم بخيله ورجله حتى صار على قيد فرسخ من مواضع المصريين فكبر أمره على الأمير ابراهيم وركب في طائفة من المصريين لقتاله وشاع الخبر بذلك بين أهل ذلك الصعيد فهب أهل لبنان الى شق عصا الطاعة وتألّبوا جميعا على قتال المصريين واجلاّتهم عن البلاد ووصلت طلائع لوم موسثيك الى عنتاب ومنها طائفة من العساكر المصرية نفّرج أهل البلد للقائهم وفرحوا بمقدمهم وانقلبوا يريدون مشاغبة من عندهم من المصريين فأسرع الأمير ابراهيم في اجلاء عسكره عن عنتاب فانسحبوا في رابع عشر ربيع الاول من تلك السنة بجميع متاعهم وكراعهم وانضموا الى المقاتلين ولم يتم انجلاؤهم عن عنتاب حتى دخلها والى مرعش وقد خرج عن طاعة الأمير ابراهيم باغراء مقدم العساكر السلطانية وجعل يتصرف في البلد وفيما هو فيها من مال وكراع * فلما كان سابع عشر ربيع المذكور عبر حافظ باشا مقدم الجيوش السلطانية الساجور ومعه خمسة آلاف من المقاتلة وثلاثة آلاف فارس من المرتزقة وسار يريد الالتقاء بالعساكر المصرية فلما تراى الفريقان جعلت العساكر السلطانية تطلق مدافعها تباعا فلم تلتفت اليها العساكر المصرية وكتب في الحال الأمير ابراهيم الى مقدم عسكر السلطان يقول ﴿ اذا كنتم تعلمون ما هو جار بين أمير المؤمنين والدول من الاخذ والرد في شأن الكف عن القتال حتى تتقرر قاعدة الصلح بيننا وبينكم فكيف سيرتم سليمان باشا العثماني في طائفة كبيرة من الفرسان المرتزقة لمهاجمة عسكرنا النازلين (بولاتيك) وكيف استجتم ارسال موسثيك بك في جيش جرار من الاكراد ليعاؤفوا أهالي (باياس) على شق عصا طاعتنا وبعثتم

مطلب

ما كتبه الأمير
ابراهيم الى حافظ باشا
مقدم العساكر
العثمانية وما كان
بعد ذلك

الحاج عمر أوغلي الى الكراداغ لا يقاط الفتنة النائمة وهاجتم عرباننا الهنادى المرابطين على الحدود ومددتم أهل عنتاب بالاسلحة ومعدات الحرب ليقاتلوننا ورسمتم الى سليمان باشا العثماني بدخول عنتاب والقتال عنها ما استطاع ولم تغفوا عند هذا الحد من التعدي ونوق حومة العهد حتى زحقتم علينا بجهلكم ورجلكم وأطلقتم علينا اليوم بنادقكم ومدافعكم رجاء أن تخرجونا من دائرة التآني والصبر والعمل برغائب أمير المؤمنين والدول المتحابية الى التهور والاندفاع الى اصلاء نار الحرب المغضبة لخليفتنا وسطاننا والدول أجمع وكأنك هداك الله ظننت أن سكوتنا عن قتالكم ضرب من العجز أو شيء من الجبن حاشا ثم حاشا فان كان قد أتاكم أمر الخليفة بقتالنا فليس من النصفة أن تستعملوا الخدعة والمكر بنا والتدليس بأصحابك فأعلن الحرب جهارا وناد بالجهاد علانية وسترى منا ان شاء الله أسودا بواسل لا يهابون القتال ولا يحسبون حسابا للقاء الابطال فقد عمل منهم الصبر وهذا كتابي واصل اليك على يد محمود بك أحد مقدمي أصحاب المدافع فأفدنا الجواب والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

فلما علم حافظ باشا ما في جواب الامير ابراهيم كتب اليه يقول * ألفت كتابك مفعلا بعبارات الطاعة واشارات الخضوع الى سلطانك خليفة رسول رب العالمين وظل الله الوارف في أرضه فقبل كل قول يجب علينا أن نرفع أكف الضراعة والابتهال الى المولى العزيز المتعال بأن يديم لنا فرع هذه الشجرة المقدسة زاهيا زاهرا موفقا مدى الدهور والاعوام وبعد فانك تعلم هداك الله أن طاعة أمير المؤمنين واجبة مفروضة على من يؤمن بالله ورسوله واليوم الآخر وان هذه الطاعة لم تكن باللفظ المجرد عن العمل والا كانت مروقا وعصيانا فان كنت قد وظنت النفس على الطاعة وعقدت النية على التقرب من عرش الخلافة فكيف أرسلت لقتالنا محمد مجنون بك في جماعة من العربان وكيف أذنت لطلائع عسكرك بأن يناوشوا طلائعنا الحرب ويجروهم الى القتال فكل هذه الامور قد جعلتنا في ريب من اخلاصك ودفعت بنا الى مناوشتك القتال فان أنت رجعت ونبت وندمت على ما فعلت فعليك الامان من أمير المؤمنين والسلام عليك ورحمة الله وبركاته * ولم يصل كتاب حافظ باشا الى الأمير ابراهيم حتى جاءه الخبر أيضا بقيام سفن حرب السلطان مشحونة بالمقاتلة والفرسان والذخيرة والميرة الكثيرة وهي مؤلفة من عدة شواني كبار وقطع عظيمة وبأن الحرب لا مندوحة عنها ولا فرار قط منها فسير الأمير ابراهيم الخبر بذلك الى أبيه وطلب المدد واستسرع الفجدة فكتب اليه أبوه في ثامن عشر ربيع الاول من السنة أي سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف يقول * جاءني كتابك وعندى الخبر اليقين بما يلاقه عسكرنا من الحيف وما هو مشاهد في كل يوم من عبث العساكر العثمانية بالبلاد وتسليح حافظ باشا لاهل الشقاوة الخوارج وبهم في المدن والقرى لاهلاك الحرث والنسل ولقد طال منا التفاضي أخذا بمشورة الدول أصحاب الوساطة لعل حافظ باشا يرعوى ويقف

عند حده حتى تقرر القاعدة بيننا على ما فيه المصلحة فلم يفعل فاذا أتاك كتابي هذا فسر على
بركة الله بعسكرك المنصور وقاتل هذا العدو المارق وادحره دحرا وأوقع به وبعسكره ما
استطعت وسر من فورك الى (كوليك) بوغاز ومن هناك الى ملاشيا وقریوت وعرفة
وديار بكر والله سبحانه وليك وهو حواليك لاعليك والسلام ورحمة الله وبركاته
وجعل محمد علي باشا بجيش الجيوش ويكثر من آلات الحرب لخدمة ولده وأقام
المرابطين على الحدود وبث العيون وظهت الحركة بالقاهرة وبولاق القاهرة ومصر وتحت
قلعة الجبل بروردواب الجبل وسحب المدافع والانتقال وطير قناصل الدول الخبر بذلك الى
الاتفاق فاهتمت له دولة الفرنسيين وسيرت على الاثر رسولين أحدهما الى محمد علي باشا واسمه
المسيو كاليه وثانيهما الى دار السلطنة واسمه المسيو فوتز وزودت كلا منهما من الاسرار بما
اقتضاه الحال * واتفق أن قدم محمد علي باشا الى مدينة الاسكندرية ليمشتر بنفسه ارسال
المسدد الى ولده الامير ابراهيم فقدم عليه المسيو كاليه في نفر من الكتائب والحشم والاتباع
فاكرم محمد علي باشا مقدمه وبالحفاوة به فكلم محمد علي باشا في أمر الكف عن
القتال والتأني في الحركة حتى يتم تقرير قاعدة الصلح بينه وبين السلطنة على ما فيه المصلحة
فامتنع محمد علي باشا من ذلك وقال لابد من متابعة القتال وعدم الكف عن الحرب حتى
يقضى الله بيننا فألح المسيو كاليه في الطلب وبالحفاوة في استرضاء محمد علي باشا وطاوله أياما ثم
عاوده فأجابه ورسم الى خسرو أفندي بقبول وساطة دولة الفرنسيين وساطة فعلية في جعل
حد لهذه الحرب وتقرير قاعدة راسخة للصلح وأن يكتب الى الامير ابراهيم بأن يبقى حيث
هو مقيم حتى يأتيه كتاب وركب المسيو كاليه وخسرو أفندي سفينة مصرية يريدان الشام
والالتقاء بالامير ابراهيم وكان قد قام بعسكره لقتال حافظ باشا عملا بالكتاب الوارد اليه من
محمد علي باشا وقصد ناحية مزار الواقعة جنوب شرق نصيبين ونزل على قيد
فراخ من محلة العساكر السلطانية * قال بعض كتاب الاخبار * فاضطرب عند ذلك
مقدم العساكر السلطانية ورسم لقدمي عسكره بمناوشة طلائع المصريين فجعلت العساكر
السلطانية تطلق مدافعها تباعا على المصريين مع ما هم عليه من مشقة السفر فأطلق كذلك
المصريون مدافعهم وتراسلت قناصلهم قال نخاف عند ذلك بجماعة الترك وولي منهم فيلق
الحرس الفرار فنادى عند ذلك النفير على المصريين بالزحف على مزار فالتصقوا بأسوارها
قبل غروب الشمس ونزلوا على شاطئ الساجور بخيلهم وكراعهم فكبر أمرهم على حافظ
باشا وقد شاهد من نظامهم وكثرة عددهم وعددهم ما أذهله وأخافه فرسم الى كبار عسكره
بأن لا يبدؤا بالقتال وأن يتحينوا الفرص فلما رأى الامير ابراهيم اجماعهم سار بعسكره وعبر
الساجور ونزل على الضفة الثانية وجعل كل من الفريقين يتأهب للقتال وكانت العساكر
السلطانية قد بلغت الى هذا الحين زهاء ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الركبان
وثلاثة آلاف من أصحاب المدافع عدا أرباب الخدم وكانت العساكر المصرية تربو على

مطاب
قدوم المسيو كاليه
منسذوب دولة
الفرنسيين الى مصر
ومكانة محمد علي
باشا في تقرير قاعدة
للصلح

الاربعين ألفا عدا أصحاب الخدم * قال بعض كتاب الاخبار وكانت هاته الجيوش التركية على كثرتها ينقصها شئ من الصفات العسكرية كالدرية على الحروب وحسن النظام والطاعة ونحو ذلك من الصفات المهمة لاسباب الظفر والغلبة على العدو وكانت الوظائف العسكرية عندهم تعطى لغير مستحقها من الاغرار الصنائع الذين لاخلق لهم فكان حافظ باشا لذلك في قلق دائم وكمد ملازم يتوقع الهزيمة في كل لحظة تمر في النهار

وما غربت شمس ذلك اليوم حتى نادى منادى الامير ابراهيم فاصطفت جنوده فخطب فيهم وقال قد علمت أيها الجنود البواسل قدر ما أحرزتموه من الشرف والفخر لغاية الآن فلم يبق عليكم الا أن تكللوا هذه الاعمال باكمل حسن الختام واعلموا أنكم إن تنالوا ذلك الا يبذل المهج فيكم اعزاز الوطن وبموتكم حياته وخير لنا أن نموت لحياة الوطن من أن نجباله وشقاقه فالله سبحانه حوالينا لا علينا وهو حسبنا ونعم النصير * فصاح عند ذلك جماعة الضباط الله الله ولا حول ولا قوة الا بالله وبانوا ليلتهم تلك وكان حافظ باشا قد رأى أن الظفر كل الظفر في كبس المصريين ليللا وأخذهم على غرة فرسم الى اسمعيل باشا أحد كبار العسكر بالاسراء نصف الليل بجماعة من أصحاب المدافع وأن ينزلوا على ميسرة المصريين حتى اذا صاروا على مقربة منهم أطلقوا عليهم المدافع وأصلوهم نارا حامية قال الراوى فلم يشعر المصريون الا ونيران الترك قد أخذتهم من كل جانب وتراسلت قنابلهم على خيخي الامير ابراهيم وسليمان باشا الفرنسي فهبوا من نومهم مذعورين وكادوا يتمزقون كل ممزق فنادوا فيهم بالنفير فنشطوا الى الدفاع وقاتلوا حتى مطلع الفجر وظفروا بالعساكر السلطانية وردوهم على أعقابهم وقتلوا منهم جماعة ولما أصبحوا جعل الامير ابراهيم يتفرس في مواقف العساكر السلطانية فاذا هم على مرتفع من الارض تحيط به أخاديد كأنها خنادق طبيعية وكانت مواقف العساكر المصرية في ذلك اليوم حرجة للغاية معرضة لنيران مدافع العدو فكبر عليه هذا الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من حركة العساكر السلطانية ومن معهم من الضباط الاجانب ما أدهشه وأخافه فرسم الى سليمان باشا الفرنسي بترتيب الصفوف واحكام مواقع الوقوف ونادى في العسكر بالتأهب للقتال والاستعداد للطعن والنزال فأنس من بعضهم شيا من العصيان فحجبل بسوقهم الى ساحة القتال فانتشبت الحرب بين الفريقين وارتفعت أصوات المدافع والتهمت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف وزلزلت الارض من هول ذلك اليوم العصيب ونبت الترك الثبات العجيب ونمكوا بالمصريين تمكيدا حتى دحروهم وقهروهم فهربت منهم طائفة في عرض الارض وكادت تتم هزيمتهم وما زالوا بين أخذ ورد وطعن وصد حتى تمكنوا من الظفر على مقربة من نصيبين فتفرقت الجنود التركية أشتاتا وفر حافظ باشا الى مدينة مرعش فاستولى المصريون على مافي معسكر الترك من متاع وكراع وكثير من الخيام ودواب الحمل وأسروا زهاء خمسة عشر ألفا من الاتراك ووجد الامير ابراهيم في خيمة

مطلب
هزيمة المصريين
ليلا ثم انتصارهم
على العدو

حافظ باشا سائر الكتب التي كانت تأتية من السلطان بالاسراع في الزحف والقتال وقطع شافة المصريين

وكان السلطان قد رسم أيضا الى أمير سفن حرب الدولة بالاقلاع الى مدينة الاسكندرية وذلك حصونها ومعاقلها بقنابل المدافع وعسد البراح من مياهها حتى يقبض على محمد علي باشا ويأتي به الى دار السلطنة مكبلا بالأغلال والقيود فسارت السفن وألقت مرساها عند كريد أياما كثيرة ترددت في خلالها الرسل بين أميرها ومحمد علي باشا قيل نخدعه محمد علي باشا واستماله وعاقده على تسليم سائر ما معه من سفن الحرب والشواني بغير حرب ولا قتال فجاءت تلك السفن وألقت مرساها بعينا الاسكندرية أمام رأس التين ثم أنزلوا من بها من العساكر والاجناد الى المدينة وقد سلخوا جميع سلاحهم وآلات حربهم ولم يلبثوا الا أياما قلائل حتى فرقوهم في البلاد شرقا وغربا وأنزلوا أمير تلك السفن في بيت محرم بك ثم نقلوه بعد أيام الى دار مخصوصة وجرت عليه الارزاق في كل شهر وشاع الخبر بذلك بين سائر الدول فكان له دهشة عظيمة ثم قال بعض الكتاب وكانت حجة أمير تلك السفن في التسليم على هذه الصورة تأخير جماكي العسكر وقطع بعض المرتبات * ووصل المسيو كاليه مبعوث دولة الفرنسي الذي تقدم الكلام عليه ومعه مرسوم محمد علي باشا الى حلب فلاقاه واليها وأعلمه بخبر تلك الموقعة وما جرى فيها على الترتل فسار مجتدا يريد لقاء الأمير ابراهيم قبل أن يتحرك حركة أخرى وقد كان الأمير ابراهيم بعد أن تم له النصر وحقق الله له الغلبة والظفر رسم الى معجون بك بأن يسير مع من العربان الى غزنة ويقا تل من بها ويفتحها والي عثمان بك وأحمد بك المنكلى وسليمان بك بالاستيلاء على كل ما يمكن الاستيلاء عليه من بلاد آسية الصغرى وسار هو في طائفة أخرى من العساكر والاجناد في سادس عشر ربيع الثاني يريد غنتاب لاختضاعها وارجاعها الى الطاعة ونزل عليها بخيله ورجله فخرج اليه كبارها وأصحاب الكلمة فيها يرجون عفوه وصفحه عما فأت فعفا عنهم ولكنه ضرب عليهم الجزية مضاعفة فكانت نارها أشد عليهم من نار الحرب ولما كانت ليلة حادى عشر الشهر المذكور وصل المسيو كاليه الى معسكر الأمير ابراهيم فأحسن الأمير لقائه وبالغ في اكرامه فبات ليلته وعند الصباح سلم الى الأمير ابراهيم كتاب أبيه ثم تقدم اليه في الكف عن القتال وترك الامر حتى يتم تقرير قاعدة الصلح فامتنع الأمير ابراهيم من ذلك وقال لابد من القتال حتى يفضى الله أمرا كان مفعولا فألح عليه المسيو كاليه وجعل يهون عليه الامر وهو لا يزداد الاعنادا ونفورا واختلف الكتاب في الذي دفع بالامير ابراهيم الى عدم الاذعان والرضا بمطالب المسيو كاليه فن قائل ان ذلك كان بايعاز من أبيه على يد ساعي بك كاتب سره ومن قائل غير ذلك وصمم الأمير ابراهيم على الزحف والقتال ونادى في عسكره بحضرة المسيو كاليه بالمسير وعبر جبال الطورس واصلأ نار الحرب ما استطاعوا اليها سبيلا فخانعه المسيو كاليه وما زال به حتى رسم

مطلب

استمالة محمد علي باشا
الى أمير سفن حرب
الدولة وأخذه سائر
السفن غنيمته بلا
حرب ولا قتال

الى كبار جنده بان لا يتجاوزوا سلسلة تلك الجبال ولكنه مع ذلك لم ينكشف عن تدويخ
 وارجاع سائر من خرج عن طاعته ولم يتعرض لفتح شئ من البلاد النابتة على طاعة
 السلطان وسير الى أبيه كتابا يقول * جاءني أمركم الكريم على يد الميسر كاليه أحد كبار
 ديوان السياسة الافرنسية والذي أحيطكم به علما أنه لما استولى حافظ باشا مقدم العساكر
 السلطانية على مدينة عنتاب قد صممت بعد الاتكال على الله سبحانه وتعالى على ارجاعها
 وسرت بيمينوشنا المظفرة الى موافع العدو فوافاني أمركم الكريم بالكف عن القتال وترك
 الحرب والنزال الى حين ولما كان الصعيد الذي قد نزلناه ليس فيه من المئون والزاد
 ما يكفي بحاجة العسكر ولا من الكلا ما يفي بمؤنة دواب الحبل وخيول الفرسان وكان بقاؤنا
 فيه أشد خطرا علينا من لقاء العدو وكان أقرب بلد من ذلك الصعيد هو حلب الشهباء
 فقد سرنا اليه فشاهدنا من تأهب العدو واستعداده لصدنا واصلاطنا نارا حامية ما اضطرنا
 الى تركه والمسير نحو عنتاب ومرعش وهذا ما دفع بنا الى التقدم الى الامام والسلام ورجعة
 الله وبركانه * وأما الميسر فوتر رسول دولة الفرنسيس الى دار السلطنة فانه لم يفلح في رسالته
 ولم يتمكن من اقناع السلطان بالعدول عن الحرب وفتح أبواب الصلح وأقام أياما لم ينسل
 فيها مأربا فاستعان باللورد بونسني سفير الانجليز بدار السلطنة فلم يعنه واتهم السلطان
 دولة الفرنسيس بالتحزب مع محمد علي باشا والعمل على ارقام السلطان وفعل كل ما يحيط
 بقدر الدولة وبذهب بكرامتها

واشتد الضيق بالامير ابراهيم وعسكره وأحدثت بهم العساكر السلطانية من كل صوب
 وحلب خفاف شمر العاقبة سيما وقد كاد يظهر عجزه عن الحركة واستضعفه أهل الاطراف
 فجعلوا يتخطفون مؤخرة جنده فساق بعسكره يريد التغلغل في قلب الاناضول واخترق جبال
 الطورس واحتل اقليم أطنة وماوراءه الى مدينة قونية ووردت الاخبار بذلك الى السلطان
 فكاد يسقط في يده وكبر كيدته ورسم بتسيير رشيد باشا صدر الدولة في عسكر لرد الامير
 ابراهيم فسار رشيد باشا في عسكره يريد الحاق بقونية والدفاع عنها وجاء الخبر بذلك
 الى الامير ابراهيم فجمع جيشا عظيما من الشام والروم وعجل بالمسير يريد القسطنطينية
 للاقاء رشيد باشا فالتقى الجمعان عند قونية واشتبك القتال بينهما وتراسلت القناصل
 واشتدت النيران وعلت أصوات المدافع وتكاثف الدخان فلم تكن الا فترة بين الزوال والغروب
 حتى تمت هزيمة العساكر السلطانية وتمزقت كل ممزق ووقع رشيد باشا أسيرا في يدي
 الامير ابراهيم وكذلك أسر جماعة كثيرة من مقدمي العساكر التركية فكانت هذه الواقعة من
 أنعم الوقائع وأشدها هولاً على السلطان * واختلف الكتاب وأصحاب التاريخ يومئذ في
 كيفية سقوط رشيد باشا في قبضة الامير ابراهيم فمن قائل ان ذلك كان باتفاق بينهما
 ومن قائل بل كان لحسن تدبير حركة الجنود المصرية في ذلك اليوم وحصانة موقفهم
 ومن قائل غير ذلك وطار الخبر بما جرى على رشيد باشا وعسكره فكان له أشد الوقع في

مطلب
 وقوع رشيد باشا
 صدر الدولة أسيرا
 في يد الامير ابراهيم
 وتمزيق شمل
 عسكره وما كان
 من وراء ذلك

النفوس وسار الامير ابراهيم بخيله ورجله يريد القسطنطينية فأرسل السلطان الى قيصر الروس يطلب منه ارسال سفينة حربية وخمسة آلاف من المقاتلين لرد ابراهيم وايقافه عند حده وشاع الخبر بذلك بين رجال السلطنة فقبجوا هذا الرأي وقالوا لا نحمل الاستعانة على قتال المسلمين بالعساكر النصرانية وورد الخبر الى محمد علي باشا فجعل يببالغ في الشكوى ويعظم في البلى ويكتب الدول في هذا الامر وظهر على أثر ذلك حركة في دار السلطنة وتمكلم الناس كثيرا فخاف السلطان شر العاقبة وعاد الى مخبرة محمد علي باشا في عقد الصلح وسير في الحال خليل باشا قبطان باشا قبلا الى مصر وفرض اليه الاتفاق على ما فيه المصلحة وكتب الى سفير الروس يعلمه بان الحالة الآن لا تستلزم طلب المساعدة وأخذ يعمل الجهد على ارجاع الجنرال مورافيف الروسي عن عزم الذهاب الى ديار مصر والالتقاء بمحمد علي باشا فلم يفلح ودخل مورافيف الى الاسكندرية كشارة قيصر الروس فعمد السلطان حينئذ الى ملاطفة دولة الفرنسيين واستمالها الى التحرير أولا الى محمد علي باشا بوجوب المحافظة على مبادئ الصلح وأسباب السلم التي قد تعهد بالمحافظة عليها ونانيا الى الامير ابراهيم بعدم مبارحة موقفه والكف عن التغلغل بجيوشه في جوف البلاد وقد كان الامير ابراهيم الى ذلك الحين لم يكتف عن الناس خطة تسمير جنوده ولم يخف عن الملا أنه سائر نحو قوطاويه وبروسا ومنها الى اسقودار ليجمع هناك مجلسا من كبار علماء الاسلام ليحكموا بينه وبين سلطانه فكان ذلك موجبا لقلق السلطان وعدوله عن الاستعانة بدولة الفرنسيين ورجوعه الى طلب معاونه دولة الروس فسير في الحال كتبه الى القيصير بأن يده عند الطلب بعشرين ألفا من الجنود البرية وخمسة آلاف من العساكر البحرية وعمارة ساوتابول البحرية فعلم سفير الفرنسيين بذلك فكتب الى الامير ابراهيم في الحال يقول اباك ومبارحة قونية واحذر شر العاقبة فقد بلغ القنوط من سلطانك مبلغه وجاء الخبر بما فعله السلطان الى محمد علي باشا فكتب الى ولده يقول اذا أتاك كتابي وأنت بأية أرض فلا تبرحها ولا تحرك لك قدما حتى يأتيك آخر * وكان الامير ابراهيم قد بلغ بجيوشه مدينة قوطاويه وأرسل محمد علي باشا الى السلطان والى دولة الفرنسيين يخبرهما بخبر ما كتبه الى ولده الامير ابراهيم ويقول للباب العالي ان الحامل لولدى على الانحدار الى قوطاويه انما هي حاجته الى حطب الوقود وغيره من احتياجات العسكر التي لم توجد في قونية وما زال الحال بين أخذ ورد وخوف ورجاء حتى عاد سفير الروس الذي كان ذهب للاتقاء بمحمد علي باشا الى دار السلطنة يحمل بشائر الطمأنينة والسلام حيث أبلغ الباب العالي أن محمد علي باشا صرح بخضوعه وطاعته لسلطانه وأنه عبيد لمولاه وقد عقد النية عقد اوثيقا على فض أسباب الخلاف والاتفاق مع خليل باشا على أمر الصلح بتاتا * قال بعض الكتاب ولم يستعمل الجنرال مورافيف في كلامه مع محمد علي باشا شيئا من الشدة التي أفسم أنه يستعملها معه ولم يسمعه شيئا من هذر الكلام كما كانت تفتضيه رسالته

ولكنه كان اذا اجتمع به لطفه وهون عليه أمر الصلح وحببه اليه ويقول له ان مولاي
القيصر يعلم ما أنت عليه من شرف المبدأ وبسالة المقصد ومكارم الاخلاق فلا تكن سببا في
زلزلة موقف سلطانك ولا تعمل على فساد ملكه ولا تحدث في الاسلام حدثا قل أن تحمد
عاقبته واتق الله في نفسك وولدك وعسكرك * ووصلت كتب محمد علي باشا الى ولاءه
بالكف عن القتال والوقوف عند حد السكون حتى يتم الامر على ما نشأه الافدار *
وما شاعت الانباء بذلك حتى ورد على قنصل جنرال النمسا كتاب من بابا روميه يسأله
الوساطة بين محمد علي باشا وملكه وكفه عن اراقة الدماء هدرا وكأنه لم يعلم بخبر ما وقع
الاتفاق عليه بين محمد علي باشا والجنرال موراويف مندوب الروس فأرسل القنصل
الى محمد علي باشا خطابا في المعنى محشوا بالتهديد والوعيد فلم يلتفت محمد علي باشا اليه
ولم يفلح القنصل في شيء البتة

مطلب
فقدوم مندوب
الباب العالي الى
مصر بفرمان العفو
عن محمد علي باشا
وولده

ووصل خليل باشا مندوب الباب العالي الى مصر يحمل الفرمان السلطاني بالعفو عن محمد علي
باشا وشروط الصلح على قاعدة الامتيازات التي أعطيت الى محمد علي باشا وهي ولاية عكا
وطرابلس الشام ونابلس وأراضى بيت المقدس فلاقاه محمد علي باشا وسائر رجال حكومته
بالحفاوة والتعظيم وأتزله منزلا رحبا وقدّم له التقدّم من التحف والاعلاق النفيسة ورتب
له المرتبات من المأكل والمشروب ثم رسم بقراءة الفرمان فلم يحجبه ما جاء فيه من الامتيازات
حيث لم تكن شاملة لسائر الشامات ولا لولاية آطنه فكلم خليل باشا في ذلك وطال
بينهما الاخذ والرد أياما حتى تم الاتفاق على فوال محمد علي باشا سائر ما طلبه وسير خليل باشا
الكتب بما وقع الاتفاق عليه الى دار السلطنة * قال بعض الكتاب ومع ذلك فقد كان
السلطان في ريب من العاقبة فلم يصرف وجهه عن طلب معاونة دولة الروس ولم يتكف عن
مكالمته وكملها في ذلك من حين الى حين * قال وكان الحامل له على ذلك كثرة ارجاف الامير
ابراهيم وارساله البعث الى بلاد آسية لدس الدسائس وبث الفتن وتحريض الناس على شق عصا
طاعة السلطان ولم يرض الا القليل من الايام حتى عاد الصدر الاعظم وكتب الى الدول الكبرى
يقول ان أمير المؤمنين جاهر بأنه لم يبق في امكانه العدول عن طلب المدد من قيصر الروس
والاستنجاد بعسكره على اخراج الامير ابراهيم وعسكره من جميع أملاك الدولة في الاقرب
العاجل واتفق أن وصل في عشية ذلك اليوم الى دار السلطنة مندوب دولة الفرنسيين وقد
علم بما سير به الصدر الاعظم من الكتب الى الدول فاجتمع به وخاطبه في الامر طويلا
وحجبه اليه أن يكتب الى دولة الروس بعدم الحاجة الى ارسال سفن الحرب بعد أن
أسفرت مأمورية خليل باشا عن طاعة محمد علي باشا ورجوعه الى مجاملة سلطانه فوعده
الصدر الاعظم وعدا جميلا وقال لا بد من اجتماع مجلس شورى الدولة وطرح هذا الامر عليه
وينما كان مندوب الفرنسيين يراقب ماسيكون من وراء اجتماع المجلس اذ وصلت
العمارة الروسية تخبر في عباب البحار وألقت مراسها أمام البوسفور فكانت عشر قطع بكار

مطلب
حصول العمارة الروسية
الى البوسفور مددا
الى السلطان

من الطراز الاول وكانت بعض سفن الحرب الافرنسية راسية هناك كطلب سفير الفرنسيين فلما رأى ربانها تلك السفن والشواني الروسية هاله أمر حضورها وسير في الحال الى صدر الدولة يقول نظرا للانقلاب السريع الذي طرأ في هذه الأونة وتغيير الاحوال عن سابق مجراها صار يعز على البقاء بما معى من السفن ان لم تقلع السفن الروسية وترجع من حيث أتت وأكثرت رساله من التردد على الباب العالى في طلب الجواب فمكتب اليه السلطان يقول ﴿ كآبى اليك أعزك الله وعوامل الاضطراب والقلق المستهوزين على مملكتى تشخص أمام عيني ذلك الود القديم الذى يربط بلادى بمملكة الفرنسيين وتدفع بى الى طلب المعونة والممدد من تلك الدولة القوية العظيمة دولة الفرنسيين الفخيمة فان أنت هذالك الله تعهدت باسم وشرف مملكة الفرنسيين بأن يكون عقد رباط الصلح بينى وبين منبوعى محمد على على قاعدة الشروط التى بلغها اليه خليل باشا بملت بارجاع العساكر الروسية ورد سفنها الحربية والسلام * فأجابه ربان السفن الافرنسية الى ذلك فلم يسع السلطان يومئذ الا معاودة ربان سفن الحرب الروسية وأمير جيوشها البرية بالرجوع فما أقفعت تلك السفن حتى سير أمير سفن حرب الفرنسيين رسولين على عجل أحدهما الى محمد على باشا ليقهره على ارسال كتبه الى كبار عسكره بسرعة الكف عن الحرب ونايتهما الى الامير ابراهيم ليأمره بسرعة العودة الى مصر والكف عن كل عداة مع ولاية وعمال السلطان وكتب كبير سياسة الفرنسيين أيضا الى قنصلهم بمصر يقول أن شدد على محمد باشا بالاذعان وقبول شروط الصلح التى وصلت اليه على يدى خليل باشا فان أطاع وأذعن فيها والا فلا مندوحة عن اكرامه

قال كبير السياسة المذكور فى كتاب بعث به الى وكلاء دولته لدى سائر الدول بعد كلام طويل * ومن تصفح أدوار هذه الأزمة * يعنى بها الازمة القائمة ما بين محمد على باشا وسلطانه * مع عدم التحيز حكم بنزاهة دولة الفرنسيين عن الغرض وطهارة نيتها من أدران التشبيع وتحقق نبالة مقصدها فى سائر أدوار هذه الازمة التى اختلط فيها الحابل بالنابل وكادت تذهب بالشرق الادنى الى مهواة الدمار قال ولما كانت دولة الفرنسيين قد أخذت على عهدها اصلاح ذات البين والتوفيق بين مصلحة الطرفين لم يبق فى وسعها العدول ولا ترك الامور هدفا للحوادث ولا غرضا لل غاية الطامحة ولو تطرح بها الامر الى رد القوة بالقوة والسيف بالسيف فانها لا تلوى عنان الجهد ولا تنقهقر أمام هاتيك العواقب التى قد حسبت لها ألف حساب اه

ورسم السلطان بعد ذلك الى الحاج محمد عاكف باشا باشكاتب ما يئنه بالتعاقد مع سفير دولة الفرنسيين على ارجاع محمد على باشا الى طاعة سلطانه فتعاقدانى ثنائى شوال من السنة على شروط حاصل ما فيها قبول الباب العالى تداخل دولة الفرنسيين بواسطة سفيرها البارون روفارن فى أمر الصلح بشرط أنها تضمن للباب العالى قبول محمد على باشا

مطلب
تعاقد الحاج محمد
عاكف باشا
باشكاتب المابين
مع سفير الفرنسيين
على كيفية ارجاع
محمد على باشا الى
طاعة سلطانه

بالامتيازات التي منحها لها السلطان بالفرمان المرسل على يدى خليل باشا مشير الطبخانة العامة وبشرط رجوع محمد على باشا الى الطاعة والاخلاص لمتبوعه وان هذه الامتيازات لا تتعدى ولايته على عكا وطرابلس الشام وبيت المقدس ونابلس وأن يتكفل السفير المذكور باسم امبراطور الفرنسيين بعقد رباط الصلح على هذه القاعدة ويتعهد الباب العالي بأن يقرر ويعان عدوله عن قبول أو طلب كل مسدد أجنبى أو مساعدة مادية يراد بها الاضرار بمحمد على باشا * وشاع الخبر بما وقع الاتفاق عليه ما بين الحاج محمد عاكف باشا وسفير الفرنسيين وعزم دولة الفرنسيين على قهر محمد على باشا وارغامه على طاعة سلطانه وتكلم الناس في الامر كثيرا وكتب سفير الانجليز الى الامير ابراهيم يقول * كفى اليك وعندى العلم اليقين بما رضيه سلطانك من تقرير قاعدة الصلح مع خليل باشا مشير الطبخانة السلطانية فامتلا قلبى فرحا وتحققت آمالى بأنك ستتكف عن تلك الحرب المشؤمة التي كادت تلك معالم المدنية وأنت ترفع سيفك ان شاء الله عن هامة تلك الارزاء التي قد تولاهما انخراب ونزل بها البلاء من كل حدب واعلم أن سلطانك قد منح أبلك ولاية الشامات وحلب ودمشق وقد سير اليه فرمان الرضا وفرمان الولاية على يدى رشيد بك قابوچى السلطنة وأمره بالكف عن القتال وأن يكتب اليك بذلك فى الاقرب العاجل وقد ورد الامر من لدن امبراطور الفرنسيين الى سفيره لدى الباب العالي بالمسير مع رشيد بك الى الاسكندرية ليشرح لابلوك وخامة العاقبة ان هو أغضب دولة الفرنسيين برفض الصلح على قاعدة ما فى فرمان أما دولة الانجليز فقد أضحت أميالها وأغراضها واضحة معلومة لابلوك ولا أشك فى أنه لا يجهل النأثير الذى يحصل للحكومة الانجليزية ان هو امتنع من الصلح كما أنه عالم بالعواقب التي تكون من وراء هذا الرفض وانى لا لمخالك أيها الامير من يأبى الكرامة فلا تمتنع من الصلح الآن واجعل خاتمة أعمالك السلامة والسلام

وطير السلطان الخبر الى الاتفاق بالعفو عن محمد على باشا وولده الامير ابراهيم وبتوجيه ماقد وجهه اليهما من الرتب وألقاب الشرف وأصدر فرمانا يقول فيه * حيث ان محمد على باشا وولده قد عادا الى طاعة سلطانهما وأبديا من الاخلاص ما لم يبق معه موضع للريب فى حسن المآل ان شاء الله تعالى وقد طلبا العفو عما فات فقد اقتضت ارادتنا السلطانية ومراجنا الشاهانية العفو عنهما وأصدرنا فرماننا هذا السامى بتأييد ولاية أحدهما محمد على باشا على كريد والديار المصرية كالتماسه وأحسننا اليه أيضا بالولاية على دمشق وطرابلس وصيدا وصفت وحلب وبيت المقدس ونابلس مع امارة الحج ونيابة أشقودره وولينا ولده رياسة الحرمين الشريفين مع صنجقية جند وقارنا التماسه بالاحسان عليه أيضا بولاية أطنة وملحقاتها وعهدنا اليه جباية خراجها الآن وبناء على ما طبعنا عليه من الرفق والحنان وما خصنا الله سبحانه وتعالى به من الميل الى اسداء المعروف والاحسان نعلن أصحاب الكلمة أوولى الشأن من العمال والمأمورين ببلاد الاناضول أن يغضوا الطرف عما

مطلب

صدر فرمان
السلطان بالعفو
عن محمد على باشا
وولده وتوجيه
ماقد وجهه اليهما
من الرتب وألقاب
الشرف

وقع من سكان تلك العائلات من الخروج وشق عصا الطاعة وأن لا يتعرضوا لأحد لافي روحه ولا في ماله ولا في عياله وأن يعلموا الناس كافة بما اقتضته ارادتنا الشاهانية وسمعت به تعطفاتنا الخافانية من العفو عن الجميع والصفح عما وقع من الربيع والوضيع وأن يكونوا من الآن ساكني الخواطر قريري النواظر وعلى سائر الولاة والحكام حض الرعية على الالتفات الى ما فيه خيرهم واصلاحهم واستمرار الدعاء بتأييد عرشنا بالنصر الدائم والظفر الملازم ولكي يكون في علم سائر الولاة والحكام وجميع صنوف الرعية من مسيحين واسلام ما شملهم من العفو العام والرضا التام قد أصدرنا هذه الارادة متوجهة بطغرائنا ناطقة بما نحن عليه من حسن النية وسلامة الطوية كي يبسط الكل أكف الضراعة والابتغال الى المولى ذى الجلال والاكرام بدوام دولتنا وتأييد سددتنا واعزاز شوكتنا بجنه وكرمه اه

فلما شاع خبر هذا الفرمان وذاع رفع الامير ابراهيم الى الباب العالي عريضة ضمنها أبلغ ما يكون من عبارات الشكران والامتنان الى أن قال ويعلم مولاي أدام الله سلطانه وحرس ملكه وأيد بالنصر أركانه أن العبد مابرح على ما يعلمه فيه مولاه من الطاعة والولاء لستتكم العلية لاسيما وقد قلدني المولى أدام الله تعالى وجوده منة العفو وولاني تفضلا منه وتكرما حكم ولاية أطنسه وجباية خراجها فلم يبق في النفس بعد ذلك شيء والله سبحانه على ما أقول شهيد وها أنا العبد باسط أكف الضراعة والابتغال بان يديم أيام ملككم غرة في جبين الدهر وليعلم مولاي أني قد وطئت النفس على خدمة الاعتبار الشريفة بما في الطاقة والله خير مسئول يوفقي الى طاعتكم بجنه وكرمه انه السميع المجيب ﷻ قال بعض الكتاب ومع هذا فانه لم يمض القليل من الايام حتى جاءت الاخبار الى دار السلطنة ترى بزحف الامير ابراهيم بجيوشه وآلات حربه الى قلب آسية وانه ترك قونية وهو على قدم المسير الى بروصاء فاندش السلطان من سماع هذه الانباء وظنها مبالغة ووقعه فلم تكن الا أيام حتى ثبتت صحتها وجاءت الكتب بذلك الى الباب العالي فسير السلطان في الحال الى سفير الفرنسيين من بكلمه في أمر ذلك فاندش السفير وكتب الى الامير ابراهيم يقج مافعله ويحذره شر العقابة ويمنعه من التغلغل في داخلية البلاد فرد عليه الامير ابراهيم يقول ان الحاجة الى الماء والميرة وحطب الوقود وعدم وجود شيء من ذلك البتة بقونية واتقاء برد الشتاء وتفشي الامراض في الجنود المصرية كل ذلك كان الحامل لنا على المسير الى بروصاء وانا مازلنا على قدم الطاعة والولاء لاميرو المؤمنين وواقفين عند حد مارسمه لنا محمد علي باشا فلا تصغوا الى وشاية الواشين ولا تلتفتوا الى غواية الغاوين وأعرضوا عن كل قول هراء فان العدو مابرح يدس السم في الدسم ويتمنى لو أن الدهر يري كياننا بالعدم فآله الله والسلام

واشتدت في هذه الاثناء على السلطان محمود وكبر مرضه واستعصى برؤه فاضطررت

مطلب

اشتداد علة السلطان وما كان من وراء ذلك

أحوال السلطنة أو كادت وكثير تحدث الناس في أسباب علمته فن قائل انها ذات الجنب ومن قائل انها ضرب من الهذيان والهزؤ الدائم ومن قائل انه السل وكنت أخبره كل يوم في شأن والباب العالي يكتر من نشر بشار سلامته وعافيته والناس لا يصدقون ذلك فأنعقد مجلس في السراى السلطانية من خسرو باشا وخليل باشا وسعيد باشا وعزت بك وضيابك وجعلوا يتشاورون فيما يجب عمله اذا جاءت منية السلطان على مجمل وكانت رسل والده السلطان وولى عهده يغدون ويروحون الى مقر السلطان وبعد أخذ ورد بين أصحاب المجلس وقع الاتفاق على أن يكتبوا الى قبطان باشا سفن الحرب بأن لا يبرح بسفنه كلها من البوسفور والى حافظ باشا مقدم العساكر القائمة بقتال الامير ابراهيم بايقاف رضى الحرب حتى تأتيا الاخبار بما سيكون فكاد حافظ باشا يسقط في يده وطارت الاخبار بما أصبح فيه السلطان من الخطر وشدد اطباء في عدم دخول أحد عليه فلما كان يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الاول وقيل سادس عشر يه سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين ومائة وألف ميلادية مات وحيدا في مخدعه فكانت سلطنته زهاء احدى وثلاثين سنة وعمره أربع وخمسين سنة على المشهور ❦ قال بعض الكتاب ومن الغريب أن اليوم الذى مات فيه يوافق اليوم الذى تولى فيه السلطنة قال وكان ملكا مهيبا مقداما على الهمة واسع المعرفة كبير الدراية بالامور صبوراً على الشدائد محبا للربة ميالا الى العمارية عادلا بعيدا عن العسف والجور ولكنه كان قليل الحظ حسن الخط غير موفق كأن الدهر عدوه مغلوبا على أمره بحكم الايام فقد خرج في أيامه كثير من الايلات ما بين حجازية وشامية ورومية وهو الذى أباد طوائف الانكشارية والاصهبانية ونظم عسكره على نظام الفرنسيس وأنشأ الكثير من سفن الحرب ومعدات القتال وأفرغ الجهد فى اصلاح الامور ومحو آثار الفتن الداخلية فلم يوفق الى ذلك لسوء حظه ونكد طالعه والله سبحانه يؤتى النصر لمن يشاء من عباده

ومات فى أيام السلطان محمود يوحنا بطرك المتأصلين بعد أن أقام ستا وعشرين سنة ولم يقع له من الحوادث الاجنبية شئ يذكر ولكن قامت عليه النصارى لاسباب نقوها عليه فهرب واختفى مدة ثم استقدموه بعد أن تاب واستغفر ولبث فى منصب البطريركية الى أن مات فأقاموا بعده مرقس وهو الثامن بعد المائة واسمه يوحنا وكان راهبا بدير أنطونيوس بالجبل الشرقى وفى أيامه نقلت دار البطريركية من حارة الروم عند باب زويلة بالقاهرة الى الازبكية بالدرب المعروف بالدرب الواسع فصارت من حينئذ مقرا لبطاركة المتأصلين الى يومنا الذى نحن فيه ثم مات بعد أن أقام ثلاث عشرة سنة فأقاموا بعده بطرس وهو التاسع بعد المائة واسمه مرقور يوس وكان راهبا بدير أنطونيوس وأصله من بلدة جاولى بصعيد مصر ووقع فى أيامه من الحوادث ما سيذكر فى محله

الفصل الثاني والعشرون

(في سلطنة السلطان عبد الحميد خان بن السلطان محمود خان)

ثم قام بالامر بعد السلطان محمود خان ولده السلطان عبد الحميد ببيع له بالملك يوم موت أبيه سادس عشرى ربيع الاول سنة أربع وخمسين ومائتين وألف هجرية أى سنة تسع وثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية تولاهما والفتنة قائمة ونار الحرب متأججة والامور فى خبال ونكال ودول أوروبا فى اقدام واجام يوم معه ويوم عليه وكان قيصر الروس لا ينكشف عن طلب العمل بمعاهدة خونكار اسكله سى التى تعاقدها فيها مع السلطان محمود على الذب والدفاع عن جميع بلاد الدولة واحتلال كل ما يمكن احتلاله منها عند الضرورة وقد تزايد طلبه الى ذلك بعد استسلام جميع سفن الحرب السلطانية الى محمد على باشا وفناء أكثر العساكر العثمانية فى الحرب القائسة مع الخوارج وكانت دولتا الفرنسيس والانجليز تسكرهان ذلك من قيصر الروس ولا ترغبان فى أن يكون له عليهما سابقة ولا كلمة وتخشيان أن يكون من وراء تلك المعاهدة احتلال الروس لمدينة القسطنطينية تكون الطامة الكبرى على سائر أوروبا فجعل سفراء الفرنسيس والانجليز والنمسا والبروسيا يعملون على ما فيه استمالة دولة الروس الى جانبهم وما زالوا حتى أوعز القيصر الى سفيره بدار السلطنة بذلك فاجتمعوا بخسرو باشا صدر الدولة يومئذ وتباحثوا فيما يصح جعله قاعدة للتعاقد مع محمد على باشا والكف عن القتال وأشار سفير النمسا والانجليز برد جميع ما فتحه محمد على باشا من البلاد الشامية الى الدولة وأن لا يعطى اليه الا ديار مصر فقط فعارضهما فى ذلك سفيرا الفرنسيس والروس وقالوا لا بل يعطى اليه ملك مصر وايلات الشام الاربع وطلال الجبال بينهم وما زالوا فى أخذ ورد حتى وافق سفير البروسيا سفيرى النمسا والانجليز وقال بقولهما فسقط رأى سفيرى الفرنسيس والروس وتقررت القاعدة بينهم على أن لا يعطى الى محمد على باشا سوى ديار مصر وأن يؤخذ منه جميع ما افتتحه من بلاد الدولة ثم أشار سفير النمسا بعقد مؤتمر دولى اما فى عاصمة النمسا واما فى عاصمة الانجليز لاتمام ما بقى متعلقا بمصر فلم تصادف اشارته قبولا وعارضه سفيرا الفرنسيس والانجليز وكذلك سفير الروس وقال ان مولاي القيصر لا يقبل أن يكون لمؤتمر دولى حق تجديد علاقة مملكته السياسية مع دار السلطنة العثمانية وأنه لا يتنازل عن العمل بما أباحته معاهدة خونكار اسكله سى من الذب والدفاع عن جميع أملاك الدولة العثمانية بما أعده القيصر من الجيوش البرية والسفن الحربية واحتلال معظم ايلات الدولة اذا لم ينكشف الامير ابراهيم عن القتال والتغلغل فى قلب بلاد الدولة فهال سفيرى الفرنسيس والانجليز هذا الطلب وخافا شر عاقبته وطلبا من صدر الدولة أن يجيز لمر اكب الحسب الانجليزية والفرنسوية العبور من بوغاز الدردنيل لدفع غارات الروس والمصريين عن بلاد الدولة عند الحاجة وسيتر دولة الانجليز الى القسطنطينية احدى مراكز حربها

حتى ظفرو فاز وكتبت دولتا النمسا والبروسيا تفولان لهما توافقان على ما أشار به رسول
الانجليز وتعضدان مطالبه في السر والجهر

وكانت دولة الروس الى هذا الحين تراقب الفرص فلما تحققت من اشتداد الفتنة بين
دولتي الانجليز والفرنسيين واختلاف الغاية سمرت الى عاصمة الانجليز رسولا اسمه البارون
دي برونو يقول ان دولة الروس تترك للانجليز حرية العمل في مصر ولا تأنف من مساعدتهم
على اخضاع محمد علي باشا بشرط أن تتمكن الروس من وضع جيش في مدينة سينوب
الواقعة على شاطئ البحر الاسود بالقرب من دار السلطنة العثمانية لتيسير الدفاع عن مدينة
القسطنطينية اذا زحف عليها الامير ابراهيم بعساكره قال اللورد بالمستون كبير سياسة
الانجليز يومئذ الى ذلك واستحسنه وحسبته من مسببات الفوز والغلبة وهم بانفاذه قرأى
من استنكار كبار الدولة وأصحاب الحل والعقد له واستقباحهم اياه ما أقعده فعاول
الاستظهار عليهم فلم يفلح فمال الى المواربة وسأل مبعوث الروس أن يكلم القيصر في أمر
تخليه عن جميع تلك الحقوق الممنوحة له بمعاهدة خونكار اسكله سي من حماية جميع
بلاد الدولة العثمانية فاذا تخلى عنها أنفذ له مطالبه وتعاقد معه على ما فيه المصلحة فلم
يقبل القيصر ذلك واستنكره وأوعز الى رسوله بمبارحة عاصمة الانجليز فرحل عنها
وتعطلت المخابرة وأعرضت عنها جميع الدول * وعلم محمد علي باشا بما تنويه له دولة
الانجليز من سوء وما صممت عليه من أخذ جميع ما افتتحه من بلاد الدولة وارجاعه
الى طاعة السلطان ومساعدة جميع الدول لها الا دولة الفرنسيين وان لا قدرة لدولة
الفرنسيين على الدفاع عنه ومعاونة جميع هاته الدول فعمد الى التأهب والاستعداد
وتجرد للدفاع ما استطاع وأوعز الى سليمان باشا الفرنسي بتقوية الحصون والقلاع
الشامية جهد الاستطاعة وعلى الخصوص منها قلاع عكا وبيروت ورسم بتسليح جميع
أهل الشام بحمل السلاح والتدريب على الحركات العسكرية للقيام بها عند الحاجة
واستقدم جميع العساكر المصرية التي كانت في نجد والحجاز وأهل شأن تلك الاصقاع
وأطلق سراح محمد بن عون شريف مكة وقد كان محجورا عليه بالقاهرة فسار الى
مكة وجعل يتصرف في أمورها على ما تقتضيه مصلحته وأنفذ الى ولده الامير ابراهيم
بالالتفات والأخذ بأسباب الحزم فبالغ الامير ابراهيم في ذلك وبث العيون والارصاد
وحاسب أهل الشام على الذرة والبرة فانكمشوا وانكفوا وأخذ كبارهم الى الطاعة خوفا
من جبروته وبقي الحال هكذا الى أوائل سنة ست وخمسين ومائتين وألف هجرية
واذا بدولة النمسا قد عادت الى الالتحاق بطاب عقد المؤتمر في مدينة فيينا لفض جميع
المسائل المتعلقة بمصر ومنع جميع القلاقل المترتبة على بقاء هذه المسألة عرضة لاغراض
الدول وسببا لوقوع التخاصم بينهم فأجابتها الدول حينئذ الى عقد المؤتمر بلندن عاصمة الانجليز
وحضره مبعوث من دار السلطنة العثمانية بناء على طلب دولة الفرنسيين فلم يتفقوا على

مطلب
تأهب محمد علي باشا
للقبال بعد أن علم
بتأليب الدول عليه
مع السلطان ما عدا
دولة الفرنسيين

قيام تيمرس كبير
سياسة الفرنسيين
لنصرة محمد علي باشا
وتعاقد الدول على
العمل ضد محمد علي
باشا

حال من الاحوال وأصرت كل من دولتي الفرنسيين والانجليز على ما طلبته ثم انصرفوا على غير طائل وتعطلت المخارة ووقفت عند حدها الذي كانت عليه * واتفق بعيد ذلك بقليل أن تولى الموسميو تيمرس رئاسة الحكومة الفرنسية وكان يكره أن تحل المسئلة المصرية جميع الدول ويرغب أن يكون حلها بينه وبين السلطان مباشرة فما استقر به المنصب حتى سير الى السلطان من يعلمه بوجوب ترك ايلات الشام ومصر الى محمد علي باشا وذريته من بعده ويتوعده بقيام دولة الفرنسيين للذب والدفاع عن محمد علي باشا ان أبي عليه ذلك وسير أيضا الى محمد علي باشا يئنه بالاماني الطويلة ويخضه على نبد مطالب دولة الانجليز وعدم الالتفات اليها وان يثابر على الجد والاجتهاد وتقوية الحصون والقلاع الشامية وانه سيأتيه للمدد من عسكر الفرنسيين اذا هم الانجليز باكراهه على قبول ما لا يحب فتقوت عزائم محمد علي باشا قيل وليكنه كان يحسب ما وراء تألب بقية الدول على معا كسنته فكان كثير الوسوس شديد الهواجس بعيد النظر في العواقب فلما علم اللورد بالمرستون كبير سياسة الانجليز بما فعله تيمرس صاحب سياسة الفرنسيين تجرد الى المقاومة وعمد الى اغراء دولة الروس والنمسا وبروسيا على التحالف معه على صد اغارات الامير ابراهيم ورد جميع ما أخذه من البلاد الشامية وارجاعه الى طاعة سلطانه وما زال بهم حتى أقلم وتعاقدوا معا على هذا العهد أولا - الزام محمد علي باشا بارجاع جميع ما أخذه من بلاد الدولة ما عدا الجانب القبلي من ولاية الشام دون مدينة عكا

ثانيا - محاصرة السفن الانجليزية والسفن النمساوية للوانى الشامية ومساعدة جميع من أراد من أهل الشام على خلع طاعة الامير ابراهيم والخروج على العساكر المصرية لاشغالهم عن مقاومة سفن الدولتين

ثالثا - دخول سفن روسية وانجليزية ونمساوية الى بوزاز القسطنطينية للسبب عن المدينة اذا اتصلت بها العساكر المصرية

رابعا - عدم جواز عبور سفن احدى الدول المذكورات بوزاز القسطنطينية مادام الامن مستتباً في المدينة

خامسا - وجوب تصديق الدول الثلاث المذكورات على هذا العقد في مدة لا تتجاوز الشهرين وأن يكون هذا التصديق في مدينة لندن

وأضافوا الى هذا العقد صكاً موقعا عليه من مبعوث دار السلطنة فيه بيان لما وقع الاتفاق على اعطائه الى محمد علي باشا من الحقوق * قال بعض كتاب الاخبار * وعز على كبير سياسة الانجليز الصبر فعمد الى دس الدسائس واثارة الفتن بين أهل لبنان وأوعز الى سفيرهم بدار السلطنة أن يجعل في ذلك فسير السفير ترجمانه المدعو (وود) الى الشام فوصلها ولم يلبث بها أياما حتى ظهرت الفتنة وعمت البلاد وخرج الشاميون على الامير ابراهيم وامتنعوا من دفع الخراج وحل المؤن للجند فركب الامير ابراهيم وسليمان باشا الفر نسوى والامير عباس

على أهل النورة وقتلهم حتى أخضعوهم وأرجعوهم الى الطاعة صاغرين وجاء المدد من مصر فتقوت عزائم المصريين ونالوا من الشاميين وأطفؤا نار الثورة وبالف سليمان باشا في تحصين مدينة بيروت وجعلها على أهبة الدفاع وشحنها بالمؤن والذخيرة وأنشأ القلاع والحصون بالثغور والمدن وتأهب لصد الاعداء برا وبحرا وأرسل الى محمد علي باشا بطلب المدد من طريق البحر فعلم كبير سياسة الانجليز بذلك وأوعز الى الامير نابير من أمراء سفن الحرب الانجليزية بالوقوف بسفنه في طريق الشام والاسكندرية واحراق كل ما يلاقه من السفن المصرية وأسر ما يمكن أسره منها فأحس كبير السياسة الفرنسية بذلك فسير في الحال مركبا الى مدينة بيروت لتخبر قائد الجيوش المصرية بالخبر وجاء النبا الى محمد علي باشا فأزبحه واسترجع ما كان قد سيره من تلك السفن ووصلت السفن الانجليزية مع نابير الى الاسكندرية فلم تعثر في طريقها على واحدة من السفن المصرية

ولما كان خامس عشر جمادى الاولى سنة ست وخمسين ومائتين والف هجرية تم توقيع الاحزاب على معاهدة لندن وصدق عليها السلطان فصار معمولا بها من ذلك اليوم ولم يرض عليها شهر حتى أبلغها فواصل الدول المتعاهدة الى محمد علي باشا وعرضوا عليه ما اتفقت عليه كلمة دولهم من اعطائه ولاية مصر له ولذريته من بعده وولاية نصف الشام بما فيها عكا مدة حياته ثم ترده الى مملكة السلطان بعد موته وضربوا له أجلا عشرة أيام قيل فازبحه هذا الحال وأحرته ومضى الاجل المضروب فلم يجب الاباسلب والامتناع وعدم التسليم في شئ مما طلبه الاحزاب فأخبره القناصل بأن امتناعه عن قبول ذلك قد أسقط حقه أيضا في أخذ مدينة عكا مدة حياته وصارت الدول لا تسمح له بشئ سوى ولاية مصر فكبر غيظه وراجعهم في الكلام فقالوا لا سبيل الى غير ذلك وقد أمهلنا لك عشرة أخرى فأصر على الامتناع وانقضت المهلة ولم يجبهم فسيروا الاخبار بذلك الى دار السلطنة ولما ضربوا له الاجل الأول ولم يجب رسم السلطان بعقد مجلس في دار شيخ الاسلام حضره المشايخ والعلماء وأصحاب المراتب العالية وتناجوا في امتناع محمد علي باشا وتأهبه للذب والدفاع فبعد أخذ ورد أفتى الشيخ بسقوط حكم محمد علي باشا من الشام وخلعه وقرئت هذه الفتوى في سائر مساجد دار السلطنة وورد الخبر بما جرى الى محمد علي باشا فأرسل الى السلطان بفتح ما أفتى به شيخ الاسلام ويقول أما ولاية مصر فهي من حقوق وحقوق أولادى الوراثية وأما الشام فلا أتخلى عنها بعد الذى أرقته فيها من الدماء وصرفته من الاموال

الطائفة

مطلب

اطلاق سفن
الانجليز القنابل على
بيروت وسائر
السواحل الشامية
وما كان من وراء

وجاء الامر الى نابير أمير سفن الحرب الانجليزية بالنأهب لاطلاق المدافع على بيروت وجميع السواحل الشامية وأخذها من أيدي المصريين فسار بسفنه فاصدا بيروت وأخذ في طريقه كل ما عسافه من مراكب التجارة المصرية وخلق به أيضا الاميرال ستفورد ومعه ثمان سفن حربية من القطع الكبار ولحقهم التجريدة العثمانية من قبرص وهى زهاء

ستمائة آلاف مقاتل تحملها ثمان وعشرون قطعة من سفن النقل الانجليزية ومقدّمها الامير واكر وأرسي نايمير سفنه أمام حصون بيروت وأرسل الى سليمان باشا الفرنسي مقدم العساكر المصرية بها يعلمه بسرعة التخلي عن المدينة والخلاء عنها وسير الى من بعكا يخبرهم بذلك أيضا وطير الاخبار الى الآفاق بما تقرر شرعا من خلع محمد علي باشا وتنزيله عن ولاية الشامات وحض أهل الشام جميعا على الخروج وشق عصا طاعة الامير ابراهيم فبدأت عند ذلك تظهر علامات الوحشة بين الفريقين وأخذ كل حذره وجعل سليمان باشا يرتب عسكره ويزيد في تحصين القلاع والحصون وبيعت البعوث الى بقية الثغور للحض على اليقظة والالتفات وأرسل محمد علي باشا الى الموسيونييرس كبير السياسة الفرنسية يستنصه الى الوساطة في الأمر والرجوع بالأحزاب الى الدين وترك الشدة فتجرد الموسيونييرس الى ذلك وبالع في الارهاب وجعل يتأهب ويحشد الجيوش ويعدّ المعدات للذب والدفاع عن جميع مطالب محمد علي باشا * قال بعض كتاب الاخبار ولكنه رأى أنه في حاجة الى شيء من السلاح والذخيرة لافراغ الخازن منها يومئذ وأنه ينقصه أشياء أخرى من معدات الحرب فكاد يسقط في أمره وشاع الخبر بذلك بين الفرنسيين فقاموا على كبير سياستهم وقبحوا فعله ونادوا بالويل والثبور ورموه بالخيانة والغدر ووسموه بالكذب والفجور حيث حرص محمد علي باشا على مقاومة الأحزاب وشق عصا طاعة سلطانه ثم عاد فتخلى عنه عند شديد الحاجة وجعلوا يطوفون جماعات حول بيته وهم يهزؤون ويسخرون به ويصيحون فكبر عليه الأمر واستعظمه وأنزل نفسه عن منصب الرياسة واعتزل موقف هذه السياسة في سلخ رمضان سنة ست وخمسين ومائتين والاف هجرية وجاء الأمر الى أمير سفن الحرب الفرنسية التي كانت راسية يومئذ على مقربة من بيروت بسرعة العود الى جزائر اليونان ثم الى بلاد الفرنسيين فأقلعت من فورها وتركت الشام ومصر هدفا لرمي قنابل سفن الأحزاب فعاد ذلك لدولة الفرنسيين من الغلطات المسودة لوجه تاريخ حسناتها في ديار مهنر وهكذا سياستها عند اشتداد الكروب وتفاقم الخطوب ومثل هذا سواء بسواء ما فعلته مما نجم عنه ظهور الثورة العربية كما سيتلى عليك في محله ان شاء الله

ولما كان الخامس عشر من رجب الفرد سنة ست وخمسين تقدمت سفن نايمير الانجليزية نحو حصون بيروت ورمتها بالقنابل وراست الرمي لحظة ثم انكفت وأرسل نايمير الى سليمان باشا الفرنسي يقول له أن تخل عن الحصون والتجمل بعسكرك عن المدينة قبل أن أدكها عليكم دكا فأرسل اليه سليمان يقول ان تدخلوها الا خرابا بلقعا ولم نسلم لكم فيها وفيها رجل وكان قد سير الى الامير ابراهيم في بعليك أن يتحدر الى بيروت بن معه من العساكر والاجناد فحضر ونصب خيامه ظاهرا بيروت وباتوا ليلتهم ثم أصبحوا وقد اقتربت جميع السفن من المدينة وأطلقت عليها القنابل واشتدت في القتال شدة بالغة حتى أحرقت

المدينة ودكت أسوارها وتقدم الارشيدوق فردريك أمير سفن الحرب النمساوية بمركبه وأطلق مدافعها على بيت المرضى من العساكر والاجناد المصرية وكانت عليه راية سوداء اشارة الى أنه بيت المرضى فلم يحفل بها وأطلق على جدران ذلك البيت القنابل حتى دكه على من به من المرضى ولم تأخذ شفقة ولا حنان وهم يقولون بأنهم أنصار المسروعة واخوان الرحمة وتمكن نابيير من تنزيل طائفة من العساكر العثمانية والانجليزية الى بيروت وسير بعض السفن الى عكا وبقية النغور فدمرتها بيران المدافع وأصلت من بها من المصريين نارا حامية * وانقض أهل الشام ولبنان وخان الأمير بشير الشهابي العهد واليمين الذي حلفه للأمير ابراهيم فاشتدت نار الفتنة وعت جميع البلاد وصار المصريون بين منتطح عزين وتساقط عليهم نيران الاعداء من البر والبحر فانجلى من بقي منهم عما كان بأيديهم من القلاع والحصون وخرجوا وهم في أسوأ حال لامؤن ولا زاد ولا دواب للعمل الا القليل وتبعهم الشاميون يتخطفون ساقهم ويمنعون عنهم الواصل من الماء والميرة فاشتد بهم الجوع شدة بالغة فأكلوا جميع ما كان معهم من دواب الحمل حتى أكلوا جذوع الاشجار وما صادفوه من الحشيش اليابس وشربوا بول البهائم وفشا فيهم الموت بالحيات الخبيثة وما زالوا يجددون السير ويدافعون عن ساقهم والعدو من خلفهم حتى وصلوا الى حدود الديار المصرية وقد ذاقوا حرارة النعب وقاسوا شديد النصب وتحملوا ما تكل عن وصفه الاقلام ولا تحيط بنعته الاوهام وتركوا تلك الديار التي ترطب أديمها بدماء اخوانهم حينما من الدهر * وسار نابيير بست من سفنه الكبار الى الاسكندرية ورسا أمام مقر محمد علي باشا برأس التين وأرسل اليه يطلب تنازله عن جميع الحقوق التي تقررت بعاهدة كوتاهيه فأبى محمد علي باشا ذلك فأغلظ نابيير في القول وشدد في الطلب وتهدهد بجرق الاسكندرية وبخلافه من منصب الولاية على مصر أيضا ان هو أصر على الامتناع والعناد وضرب له أجلا ضيقا وأرسل يقول ان مضي الاجل ولم توقع على عقد التنازل أحرقت المدينة وجعلتها رمادا فكبر الامر على محمد علي باشا وأحزنه جدا وترددت الرسائل بينه وبين محمد علي باشا عسى أن يصلوا الى أمر فيه المصلحة فلم يفلحوا وأبى نابيير الا ما أراد فأجابه محمد علي باشا الى ما طلب فأقنع نابيير بسفنه راجعا الى دار السلطنة وعاد محمد علي باشا الى الشكوى فرفع أمره الى دولتي الفرنسيين والروس وشكا مما فعله نابيير فعمدت الدولتان الى ابطال ذلك العقد وعلنا جهدا الاستطاعة على احباط مساعي دولة الانجليز نظرا لتفردا بالعمل وتجاوزها حد الوساطة وشددتا في ذلك وكادت الروس تتحد مع الفرنسيين على ما فيه الاضرار بالدولة العثمانية فخشى السلطان شر العاقبة وعاد الى اللطافة والمجاملة وأنفذ الى محمد علي باشا بأن تكون ولاية مصر في عقبه وللاسلطان أن يختار منهم الابق فامتنع محمد علي باشا من قبول ذلك أولا ثم عاد فرضى به وتقررت القاعدة بين الفريقين نهائيا وتم الاتفاق

مطلب
وصول فرمان
السلطان الى محمد
على باشا بجعل ولاية
الديار المصرية في عقبه
وتحديد حقوق الولاية
وما جاء بعده من
الفرمانات

فلما كان حادي عشر ذي الحجة سنة ست وخسين ومائتين وألف هجرية ورد فرمان السلطان بذلك الى مصر فأبلغته فواصل الدول الى باغوص بيك ناظر الخارجية يومئذ ونصه

قد رأينا بسرور ما عرضتموه من البراهين على خضوعكم وتأكيديات أمانتكم وصدق عبوديتكم لذا فانا الشاهانية ولمصلحة بابنا العالي من طول اختباركم وما لكم من الدراية بأحوال البلاد المسئلة ادارتها لكم من مدة مديدة لا يجعلان عندنا ريبا بأنكم قادرون بما لكم من الغيرة والحكمة في ادارة شؤون ولايتكم على الحصول من لدنا الشاهاني على حقوق جديدة ونظرا لنعطفاتنا الملوكية وثقتنا بكم فلا بد أنكم تقدرون احساساتنا اليكم حق قدرها وتجتهدون في بث هذه المزايا التي التزمتم بها الى أولادكم ولذلك قد صممنا على تثبيتكم على ولاية مصر وسلمنا لكم زمامها حسب الحدود الميمنة بالخرطة المرسومة لكم من لدن صدر دولتنا الاعظم وقد منحناكم فضلا عن ذلك الولاية بطريق النوارث بالشروط الآتية

عند ما يخلو منصب الولاية المصرية تعهد الولاية الى من تنتخبه سدتنا الملوكية من أولادكم الذكور وتجري هذه الطريقة في حق أولاده أيضا الى ما شاء الله فإذا انقرضت ذريبتكم الذكور فلا حق لأولاد بناتكم الذكور في الولاية وارثها ومن وقع عليه من أولادكم الانتخاب للولاية على ديار مصر بالأثر من بعدكم وجب عليه الحضور الى دار السلطنة لتقليده الولاية بشرط أن حق التوارث الممنوح لكل وال منه لا يمنحه رتبة ولا لقباً أعلى من رتبة سائر الوزراء ولقبهم ولا حقاً في التقدم عليهم بل يعامل بنفس معاملتهم وجميع خطنا الشريف الهمايون في الصادر عن كل خانه وكافة القوانين الادارية الجارية العمل بها أثبتنا التي سيجري العمل بها في جميع ممالكنا العثمانية وجميع العهود المعقودة أو التي ستعقد في مستقبل الأيام بين بابنا العالي والدول المتحابه يجب العمل بها جميعها في ولاية مصر أيضاً وتحصيل جميع الاموال والضرائب المفروضة على أهل مصر باسمنا الملوكاني

ولكي لا يكون أهل مصر الذين هم من بعض رعايا بابنا العالي معرضين للضرر والضرائب الغير القانونية يجب أن تنظم تلك الضرائب بما يوافق حالة ترتيبها في سائر الممالك العثمانية ويرسل الى خزينة بابنا العالي العائمة ربع الإيرادات الناتجة من جميع الرسوم الجركية ومن بقيمة الضرائب التي تحصل في سائر الديار المصرية ولا يتأخر منه شيء البتة والثلاثة أرباع الباقية تبقى لولايتكم للقيام بنفقة التحصيل والادارة والعسكرية ونفقات الوالي وأتباع الغلال التي تقوم مصر بتسييرها في كل عام الى الحرمين الشريفين ويبقى هذا الخراج مستمرا أداؤه على هذا الوجه مدة خمس سنوات تبندى من عام سبع وخسين ومائتين وألف هجرية ويصح تعديل ذلك بطريقة أخرى في مستقبل الأيام تكون أكثر موافقة لحالة الولاية المصرية ونوع الظروف والمناسبات التي تطرأ عليها

ولما كان من واجب بابنا العالي الوقوف على مقدار الإيرادات في كل عام وكيفية
تخصيلها لاسمها لتحصيل العشوري منها وجباية بقية الضرائب وكان الوصول الى معرفة هذا
كله يستلزم تعيين عمدة يخول حق المراقبة على جميع أعمال ايلة مصر فينتظر في ذلك فيما
بعد ويستقرر ما يوافق ارادتنا السلطانية ونظرا لاهمية طريقة سلك النقود ووجوب تقرير
قاعدة ثابتة لهذا الامر المهم كي لا يحدث فيها خلاف لامن جهة العيار ولا من جهة القيمة
فقد اقتضت ارادتنا السلطانية أن تكون جميع النقود من الذهب والفضة التي يجوز لايلة
مصر ضربها باسمنا الشاهاني معادلة للنقود المضروبة في الضربخانة السلطانية العاصرة سواء
كانت في العيار أوفى الشكل ولا يكون لايلة مصر في أوقات السلم أكثر من ثمانية عشر ألفا
من الجنود للمحافظة على داخلية البلاد بحيث لا يجوز أن تزيدوا على هذا العدد شيئا البتة
غير أنه لما كانت قوات مصر العسكرية هي معدة لخدمة ممالكنا المحروسة أسوة ببقية
ايلاتنا العثمانية فلذلك يسوغ أن يزداد هذا العدد في زمن الحرب بما يرى لزومه ويراعى
في خدمة الجندي بآلاتكم ما هو مقرر ومتبع في كافة ممالكنا المحروسة وهي بعد أن تخدم
الجنود خمس سنوات يستبدلون بغيرهم من أبناء البلاد وهذه القاعدة يجب اتباعها في
ايلة مصر بحيث ينتخب من يكون في الخدمة حالا بعد الذين أمضوا تلك المدة عشرين
ألفا فيبقى منهم ثمانية عشر ألفا بمصر والألفان الباقيان يرسلان الى الاستانة لاداء مدة
خدمتهم وحيث ان خمس هذا القدر يعنى العشرين ألفا واجب استبداله سنويا فيطلب
في كل سنة من مصر أربعة آلاف حسب القاعدة المقررة في نظام العسكرية عند سحب
القرعة بشرط أن تستعمل مواجب الانسانية وزاهة القصد والسرعة المقتضية في هذه
الاحوال فيبقى في مصر ثلاثة آلاف وستمائة جندي ممن ينتخبون حديثا ويرسل منهم
أربعمائة الى الاستانة في أتم منهم خدمته سواء كان ذلك بمصر أو بدار السلطنة عاد الى
بلده ولا يجوز طلبه للخدمة مرة ثانية هذا وبما أن طبيعة بلاد مصر وهوائها ربما
يستلزم أن تكون أقمشة ملابس عسكريها غير أقمشة ملابس عسكرينا المنصور فلا بأس
بذلك انما يراعى جيدا أن لا تختلف هيئة الملابس والعلامات التمييزية ورايات الجنود
المصرية عن مثلها من ملابس ورايات سائر عسكرينا المظفر وكذا ملابس الضابطان
وعلامات امتيازاتهم وملابس البحرية والعساكر البحرية ورايات السفن المصرية يجب أن
تكون كملابس ورايات وعلامات رجالنا وسفننا ويجوز للحكومة المصرية أن تمنح ضابطان
البحر والبحر الى حد رتبة الملازم أما ما كان من فوق ذلك فراجع الامر فيه الى ارادتنا
الملوكانية ولا يسوغ منذ الآن لوالى مصر أن ينشئ سفنا حربية الا بأذننا الخصوصي *
ومن المعلوم أن الامتياز المعطى من لدنا بوراثه مصر هو معلق بجميع الاشتراطات المبينة
آنفا فاذا توقف تنفيذ هذه الاشتراطات كان الامتياز المذكور لاغيا لا عمل له وبناء
على ذلك قد أصدرنا خطنا هذا الشريف الملوكاني لتعرفوا أنتم وذريبتكم قدر ما جبلنا عليه

من الاحسان فتقوموا مع تمام الاعتناء بتنفيذ الاشتراطات المدونة آنفا وتنعوا عن
أهل مصر كل ما يكرهونه وتكفلوا أمنيتهم وسعادتهم وتجتنبوا كل مخالفة لسائر أوامرنا
السلطانية مع اخبار بابنا العالى عن جميع المسائل المهمة المتعلقة بالبلاد المعهودة ولايتها
لكم اهـ

وورد مع هذا فرمان فرمان آخر بتوجيه ولاية النوبة ودارفور وكردفان وسنار الى
محمد على باشا مدة حياته فقط ثم تعاد بعد موته الى السلطنة العثمانية فيولها السلطان لمن
يشاء ونصه ﷺ حيث قد ثبت على ولاية مصر بمقتضى ما هو واضح بفرماننا السلطاني الصادر
اليكم ووافق ارادتنا الشاهانية توريث ذريتهم من بعدكم مسند هذه الولاية بشروط وحدود
معلومة ومعينة فقد قلدتم أيضا فضلا عن ولاية ديار مصر ايالات النوبة ودارفور وكردفان
وسنار وجميع ملحقاتها الخارجة عن حدود مصر ولكن بغير توارث فبناء على ما هو معهود
فيكم من الحكمة والاختبار وما أمرتم به من التمسك بهما تقومون بإدارة هذه الايالات
وترتيب جميع شؤونها بما ينطبق على عدالتنا ويوافق رغائبنا السلطانية مع توفير أسباب
السعادة لسائر الرعية وترسلوا في كل سنة الى بابنا العالى قائمة ببيان الإيرادات السنوية
جميعها

وحيث انه في غالب الاحيان يصير الهجوم من العساكر والاجناد على القرى
والبلدان بتلك الاصقاع فيأخذون منها ما يقدرون على أخذه من الشبان الذكور والانات
ويتصرفون فيها بالبيع وغير ذلك نظير مرتباتهم وعولقاتهم فهذه الفعال فضلا عما يترتب
على استمرارها من انقراض أهالى تلك الديار قائما من الامور المخالفة للشريعة الاسلامية
المطهرة وكذلك أيضا ما هو شائع ومستعمل في جب الرجال أى جعلهم خصيانا لخدمة
النساء فانه من أفظع الامور التي لا تنطبق على ارادتنا السنية لما فيها من مخالفة مبادئ
العدل والانسانية التي هي من أجل مقاصدنا منذ جلوسنا على عرش الخلافة العظمى
فعلينا مسدركة جميع هذه الامور بما ينبغى من العناية والاعتناء ومنع حدوثها في
المستقبل واعلم أنى قد عفوت عن جميع الضابطان والعساكر وباقي المأمورين الموجودين
الآن بديار مصر الا من وصلوا منها بمراتبنا الحربية فاستسلموا وكما قلنا بفرماننا
السلطاني المرسل اليكم قبل هذا أنه يجوز لكم منح سائر الضابطان من البحرية والبحرية
لحد رتبة الملازم فقط فلا بأس من ارسال جداول باسماء من رتبتم من ضابطان العسكر
المصرى الى بابنا العالى لينال التصديق منا وترسل لكم الفرمانات المثبتة لرتبهم هذا
ما اقتضته ارادتنا الشاهانية ووافق رغبتنا السامية السلطانية فعليكم المبادرة في العمل
بمقتضاه اهـ

فلم ير محمد على باشا بدا من الطاعة وخفض الجناح لهذه الشروط على ما فيها من الحيف
والقهر وذل النفس بعد الذى نالته عساكره من الفوز والغلبة ولكنه كتب الى الدول يشكو

من جورهاته الشروط وشدة ما فيها من الجبر والتضييق ويسألها الوساطة في تشديد شروط الوراثة وجعلها لا كبر أولاده من بعده وتحديد مبلغ الخراج وجعله قدرا يحمل في كل عام الى الخزينة السلطانية ومنحه حق اعطاء الرتب وألقاب الشرف للضباط البرين والبحريين الى رتبة الميرالاي فأجابته الدول الى ذلك وخبرت السلطان في الامر فأجابها الى ما طلبت وسير الى محمد علي باشا الفرمان بذلك في عاشر جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية ونصه

ان الحضرة الفخيمة السلطانية تالفت ما تعطفت عليها به الدول المتحالفة من النصارى في هذه الواقعة أيضا وذلك قد منحت محمد علي باشا وتكرمت عليه بالامتيازات الآتية بشرط انقياده الانقياد التام الى جميع الوثائق والمعاهدات المبرمة حالا والتي ستبرم في مستقبل الايام فيما بين سلطتنا العثمانية والدول المتحالفة * قد صار مسند ولاية ديار مصر من الآن فصاعدا ينتقل بالارث من محمد علي باشا الى أولاده وأولاد أولاده المذكور بكيفية أن يتولاه الارشد فالارشد فيقلده الباب العالي مسند الولاية كلما خلا هذا المسند من وال وقد تنازلت سددتنا الملوكة عن أخذ ربع ايرادات الولاية المصرية مقابلة تقرير مبلغ في كل سنة يحمل الى خزينة السلطانية خراجا وهذا المبلغ سيقدر فيما بعد مع بيان كيفية تخصيصه بما يناسب حالة ايرادات البلاد كما وانه من الآن فصاعدا صار من المرخص لمحمد علي باشا أن يمنح من تلقاء نفسه رتب ضباطان البحرية والبحرية الى رتبة الاميرالاي فقط وما زاد عن ذلك يعرض عنه لبابنا العالي أماما يتعلق باارة الولاية الداخلية التي يجب أن تكون على مثال الادارة الجارية في جميع مما يمكننا المهروسة فهو وان كان محمد علي باشا لم يتكلم عنها بشئ حسبما يقتضيه الحال من الصراحة مع كونه قد سبق تقرير ذلك بالعقد الملحق لمعاهدة التحالف ولكن لكي لا يدع الباب العالي سبيلا للدول المتحالفة بالتضرر منه كما لو حدث أن وقع من محمد علي باشا في مستقبل الايام أمور مخالفة لوجه مهم من الالوجه المستندة على المعاهدة المحكي عنها قد تقرر أن تطلب أولا الايضاحات والتقريرات المذكورة من قبلكم كتابة اه فقبلت الدول المتحالفة هذا التحوير وأشارت بتأييده فجاء الفرمان بذلك الى محمد علي باشا ثم ورد فرمان آخر في غرة جمادى الاولى سنة سبع وخمسين ومائتين وألف بتقرير مبلغ ثمانية آلاف كيس خراجا يحمل في كل عام الى الخزينة السلطانية ووفقت المحابر بين محمد علي باشا وسلطانه يومئذ عند هذا الحد

فلما كان رابع عشر شعبان سنة سبع وخمسين قدم الى القاهرة رسول من دار السلطنة يحمل سيفا ونيشانا غالبا هدية من السلطان الى محمد علي باشا فأنزله في سراي شبرى واحتفلوا لاقائه احتفالا شائقا وعملوا لذلك تشريفا بقلعة الجبل في خامس عشر الشهر اجتمع فيه جميع الامراء والكبراء ورجال الحكومة والمشايخ والعلماء * قال بعض كتاب

مطلب
وصول سيف
ونيشان هدية من
السلطان الى محمد
علي باشا

الايخبار ولم تكن هذه الهدايا لتذهب ما علق بخاطر محمد علي باشا من فعال رجال دار السلطنة ولا ما داخله من الحقد على كبير سياسة الانجليز والبغض لهذه الدولة فقد عملت حتى نالت منه وسلخت عنه الشام والجزائر وغيرهما ولم تبق له الا ولاية مصر والنوبة وذهبت أمواله ودماء رجاله الذين قتلوا تلك الاصقاع ودقخوها هذرا وانحصرت حدود مملكته وضافت حلقة سلطنته وألزم بدفع الجزية صاغرا مبلغا قدره ثمانية آلاف كيس ذهبا تحمل الى الخزينة السلطانية في كل عام وقل عدد عساكره الى ثمانية عشر ألفا لا يلبسون الازي العسكرية السلطانية وقيدوا علاقته مع سائر الدول الاجنبية بقيود منها أنه لا يجوز عقد عهود أو استدانة شئ من المال الا بأمر من دار السلطنة ولا يعطى شئ من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار الا الى الدرجة الثانية للملكيين ورتبة أميرالاي للعسكريين نفس بسايتهم مالم يكن له في حساب وقد كانوا يريدون اخضاعه وارجاعه الى طاعة سلطانه بغير عهد ولا شرط * قال وسعوا في حرمان ذريته من تولي منصب الولاية من بعده تشفيا وانتقاما لامور نقوها عليه منها أنهم كانوا اشتروا جزيرة عدن من أحد مشايخ العربان مع أرض أخرى متصلة بها بمبلغ من المال وأنشأ بها حصنا عظيما لعلمهم ماسيكون لتلك الارض من الاهمية في مستقبل الزمان فلما امتدت شوكة محمد علي باشا بالفتح الى خليج فارس وعلت كلمته وكبرت شهرته بتلك الاصقاع خاف الانجليز على مالهم من الاملاك الواقعة على شواطئ البحر الاحمر فكتبوا الى محمد علي باشا بان ينفذ الى عسكره البازلين على تلك الجزيرة بالانجلياء عنها خوفا من تألب العرب مع العساكر المصرية فيقومون على الانجليز النازلين بتلك الجزيرة فيكروهونهم على الجلاء عنها فأبى محمد علي باشا عليهم ذلك فبقيت في حوزة جنوده تابعة لمملكته حتى تنازل عنها الى سلطانه مع مكة والمدينة وجميع الديار المجاورة بغير عهد ولا شرط * قال الراوي لهذه الحادثة ونقموا على محمد علي باشا أشياء أخرى غير هذه فكانوا لذلك يظهرون له غاية البغض وينظرون الى فعله بعين المقت والمسد ويخشون عاقبة ظهوره فلم ينسكفوا عنه حتى أذلوه وأعدوه عن كل عمل فانكف عن الغزو والفتح ووقف عند حد العناية باصلاح شؤون مملكته وترتيب أمورها على ما تقتضيه مصلحة العباد والبلاد وسالم سلطانه وخليفته وخفض له جناح الطاعة وأظهر له غاية الاخلاص والولاء وسير ولده الامير محمد سعيد الى دار السلطنة ليرفع اليه فروض الاخلاص فنال الامير محمد من السلطان غاية الالتفات وحسن الوفادة فلما استأنته بالرجوع الى مصر أذن له وأهداه كسيرا من الهدايا ولحف النفيسة والتعابى الثمينة وأحسن الى من كانوا معه من الخدم والحشم والاتباع فكان لهذا الصنيع وقع حسن عند محمد علي باشا فجرد الى الاصلاح * وكانت الحوادث المتوالية والحن المتراكمة قد أملت البلاد وكادت تذهب ما بقي بها من آثار العمران فهد الى انشاء المعامل وضبط الصنائع واحتكر تجارة جميع الاصناف ورأى الحياكة وجعل لكل شئ ديوانا وكتبا وجعل لكل

مطلب
كف محمد علي باشا
عن الحرب والعناية
باصلاح شؤون
مملكته

ديوان لما يتحصل من غلات البلاد حواصل بكل بلد يأتي اليها الزراعون بما يتحصل عندهم
بشئ مقدّر فيخصم منه ما عليه من الخراج ويباع ما بقي الى تجار الاجانب الذين كانوا يأتون
الى ديار مصر ليمتاروا وأنشأ معامل للحديد وأخرى للقطن وأخرى للسكنان ومثلها لسائر
أصناف الاقشة من المقصات والاجواخ ونحوها ونظم الشوارع ومهد الطرق وابتنى المباني
العظيمة ديارا للعلوم والصنائع وأنشأ بالاسكندرية معملا للسفن وصناعة البحار وكان قد
أتى بسفن الحرب والدواع من البلاد الاجنبية وأنشأ بها أيضا مدرسة لعلم البحار وأتى
لها بالاساتذة من ديار الانجليز والفرنسيين واستقدم زهاء الالف وخمسمائة من فلاحى
الفرنسيين وفرقهم في البلاد البحرية والقبليّة ليعلموا أهلها طرق الزراعة ويبشوا بينهم محبة
وخدمة الارض ويكثروا من زراعة شجرة البن واستقدم المسيو جوميل الفرنسي لزراعة
القطن وقد كانت الى ذلك الحين هملا مهملا لا يعرفون لها طريقا ففاز ونجح وكبرت زراعته
واتسعت وأتى بنبات النيلة والانيون وأكثر من غرس الاشجار الكبيرة النافعة وأنشأ الجنائن
والبساتين العظيمة في جزيرة الروضة وشبرى والازبكية وبالغ في الاهتمام بأمر الطب وأتى له
بالطبيب الشهير العلامة كلوت الفرنسي فأنشأ مدرسة لذلك وأخرى للقوابل وعهد بإدارتها
الى الست جوت الفرنسيات وأخرى للطب البيطرى وسلم ادارتها الى المسيو هامون
الفرنسي وأنشأ ديارا لمرضى العسكر وأهل البلاد على أحسن ما يكون من النظافة والنظام
وجعلها تحت نظر المسيو دوساب والمسيو لها وقد كان الطب الى هذا الحين كغيره هملا
مهملا وسقطا هردولا ليس بين أهل البلاد من يعرفه بل كانوا لا يعرفون الا على ما تصفه
المجانز ولا يرضون الا بأقوال المشعوذين والدجالين فكانوا اذا مرض أحدهم ذهب أهله
فطرقوا له الودع والقول وقاسوا الاثر وحسبوا النجم فكل ما قاله لهم الدجال صدقوه واعتمدوا
عليه ثم يكتبون له الاجبة والتعاويد والتحويطات الطويلة العريضة التي ربما بلغ طول
ورقتها ضعف طول المريض وربما أضعاها ويخرونه باللبان وجلد القنفذ والكزبرة اليابسة
ونسج العنكبوت والشب الابيض والمبعة وغير ذلك وعلقوا عليه الخرزات وكان لهم عناية
بعجينة بالايجار فكانت عندهم خرزات كل واحدة يزعمون أنها تبرئ من داء فللعين خرزة حمراء
يسمونها البذلة وللرقة خرزة بيضاء يسمونها خرزة الرقة ولهم أشجار يحكونها للفرجة والحى
يسمونها حجر الشفاء فاذا اسع أحدهم حكوا له الخريت وسقوه ماء أو وضعوا له على موضع
اللسعة فصا يسمى فص العقرب وغير ذلك من التمايم والاجبة وخيطان الصوف وعظام
الاموات المعروفة عندهم بعظام الكفرة أو اصبع الكافر ومن اهمال أمر الصحة يومئذ
اتخاذ الناس المقابر وسط المدينة فكانت بمصر والقاهرة شيا كثيرا مثل مقبرة السيدة زينب
ومقبرة القاصد والشيخ عبد الله والشيخ ربحان وغيرهم بل كان الكثير من الناس يدفنون
موتاهم في حيشان البيوت وفي المساجد والمدارس الكائنة وسط المدينة ووقع في سنة
سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وباء شديد فأمات خلقا كثيرا حتى ان الاموات كانت

تشاهد ملقاة بالازفة والحارات وبجانب جدران البيوت في الشوارع ثم انتقل الى الماشية فأهلك منها شياً يفوق الحصر وكاد يفنيها لولا لطف الله

قال بعض الكتاب **✽** وكما كان الطب مهملاً فقد كان كذلك أمر تدبير ماء النيل وحفظ الجسور وبناء القناطر فأتى لها محمد علي باشا بالمسيو ليمان الفرنسي فكثر من بناء القناطر والجسور وسهل سبل الزراعة ومهد المسالك وأنشأ القناطر العظيمة الواقعة على رأس مصر السفلى المسماة بالقناطر الخيرية على يدى أحد كبار مهندسي الفرنسيين المدعو المسيو موجيل وهي من أكبر الاعمال الهندسية وأشرفها وهي مفتاح النيل ومقلقه عند فرعيه الشرقى والغربى وعليها حساب رى الاقليم البحرى ونصف الاقليم القبلى وكان مع موجيل هذا جماعة من مهندسي الفرنسيين فأظهروا في وضع هذه القناطر أسرار الهندسة ودقائق صنعة البناء وكانت ديار مصر الى هذا الحين قد فقدت صناعتها المهرة وأمسيت وهي في حاجة الى كل شئ لاسيما العمارة * أما اهمال النظافة فقد كان شاملاً مصر والقاهرة وجميع المدن والبنادير على اختلافها وكانت القاذورات تلقى بجوانب الحارات وعلى أبواب الازقة وتحت الاسبطة وفي أركان الجدران وكان ما ينشأ من الهدم والاثربة ان اعتنى به ألقى على أبواب المدينة فيصير تلالاً فاذا نسفها الريح قام منها فوق البلد سحب من التراب نثر الرائحة كريه الشم يورث الامراض المعدية الوبائية فأين سرتحت الطرف في البلد ترى المجدوم والمجدور والابرص والاعوى وغير ذلك من بقية الامراض * وكانت البلد محاطة بالتلال من كل جانب وكانت ضيقة المسالك والحارات مرتفعة البناء على غير نظام فذرة فلا تتمكن الشمس من تحويل أشعتها نحو قاع تلك الحارات لتنقيها من الرطوبات وتحلل ما فيها من النستى ولا الرياح من تجفيفها وكانت تتصاعد على من بها من السكان فتحدث الامراض الجلدية كالحمى والابجدية وغيرها كل هذه الادران قد طهر منها البلاد وأراح من مصائبها العباد فحسبت له حسنات لا يحصى كرور الايام وينال عليها ان شاء الله خير الجزاء من بارئ الانام

مطلب

ما أصاب البلاد من
الضربات السماوية
في سنة ثمان وخمسين
ومائتين وألف هجرية

ولما كانت سنة ثمان وخمسين ومائتين وألف هجرية نزل على البلاد جراد كثير فمها وأهلك زرعها حتى ورق الاشجار العظيمة وكل نبات أخضر ثم باض وأفرخ حتى غطا وجه الارض فوقع الغلاء وقيل وارد الغلال واشتد الضيق بالناس وعم البلاء والويل الغنى والفقير وهاجر الناس فراراً من أصحاب الجباية وأعوان التحصيل وقد كانوا انبثوا في البلاد لجبايتها بأمر من الامير ابراهيم فكافوا اذا تزح أهل بلد أضافوا ما عليهم من الخراج على البلد المجاورة لها وشددوا على أهلها في الطلب وبالغوا في ابدانهم فضاق خناق أهل البلاد وارتفع ضجيجهم وعجبهم وأصبحوا وهم بين منتطح كبشين اذهاب الحرث والنسل وايداه أصحاب الجباية فكادوا يشقون عصا الطاعة ويخرجون على عمال الخراج وكان محمد علي باشا يومئذ بالاسكندرية فلما علم بالظبر اضطرب قيل فأصابه بسبب ذلك نوع من الهذيان

وتحقق أن ذلك من فعال الامير ابراهيم بالرعية فغضب غضبا عظيما وانتقل من مقره برأس
التسعين الى بيت محرم بك عند المحمودية وأقام هناك أياما وهو يخلط في القبول ويكثر من
النداء على بعض الخدم ويقول يا لله قد خائى القوم فأيقظوا لفتنة وأبغضوا الناس
في وبقى على هذا أياما والناس يقولون بذهاب عقله ولزوم تخليه عن حكم البلاد ثم سار من
الاسكندرية الى القاهرة في نفر من الاتباع ونزل بقصره بشبري فألقى اليه أصحاب الوظائف
ورجال الدولة فعنفهم وزاد في توبيخهم رجة بالرعية فلم يجسر أحد على معارضة

وتأقت نفس السلطان عبد المجيد لرؤية محمد علي باشا فدعاه للحضور الى دار السلطنة فلبى
دعوته وسار في سنة اثنتين وستين ومائتين وألف هجرية في قلة من الخدم والاتباع ونزل
ضييفا على رضا باشا أحد كبار الدولة وكان رضا باشا هذا من ألد أعداء محمد علي باشا ثم
تمثل بين يدي السلطان فرحب به كثيرا فتقدم ليقبل يده فأمسك بيده ورفع وأجلسه بجانبه
ولاطفه جدا وحادثه ساعة * قال بعض الكتاب * واتفق أنه كان يحدث السلطان يوما فقال
له في أثناء الحديث حفظت يابني وأحسنت * ثم استدرج أن هذا الخطاب لا يليق بأمر
المؤمنين فقال ليعف مولاي عن زلة عبده فان حبى لابناء مصر قد أجرى على لساني مخاطبة
الكبير منهم والصغير بيا بني * فتبسم السلطان وقال لا بأس عليك يغفر الله لنا ولك ولبت
في دار السلطنة زهاء ثلاثين يوما أنفق فيها من المال ألف ألف فرس ماعدا الهدايا
النفيسة والتعابى الغالية والتصدق على المساكين وذوى البيوتات ثم رحل عنها الى قوله
مسقط رأسه فبكت بها أياما وأنشأ بها مدرسة للفقراد ودارا للمساكين ورحل عنها راجعا الى
الاسكندرية ففرح الناس كافة برجوعه فرحا عظيما ودقت له البشائر وزينت المدينة ثلاث
ليال وكذلك زينت مصر والقاهرة والمكثير من المدن وأقام يدبر الامر ويتصرف حتى
كثر هذيانه وقل ادراكه فكان لا ينكف عن النداء على بعض حاشيته لغير سبب وكان مريب
الغضب بكره أن يرى ولده الامير ابراهيم فإذا رآه اضطرب وظهور على وجهه الغضب فانفذ
الامير ابراهيم الى دار السلطنة يخبر بأمر أبيه وما وصلت اليه حالته ويعلم أهل المالبين بوجوب
تخليه عن المنصب فأجابه السلطان الى ذلك ورسم له بالولاية على ديار مصر وجاءه الفرمان
بذلك ففرى بقلعة الجبل في مشهد حافل ودقت البشائر وطيروا الخبر الى الآفاق ونقل محمد
علي باشا الى الاسكندرية وكانت أحب البلاد اليه وقد كثر خاطه وكبرت علمته

فلما كان ثالث عشر جمادى الاولى سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية في ولاية
عباس حلمي باشا الاول مات محمد علي باشا وله من العمر ثلاث وثمانون سنة وقيل أكثر
من ذلك وكان ولده الأمير محمد سعيد في صحبته لم يفارقه كل أيام مرضه فبالغ في جنازته
ونقل نعشه الى القاهرة مع التجالة والتكريم في مشهد حافل جدا ودفن بالقصورة السقي
ابتناها لنفسه في جامعته الذى أنشأه بقلعة الجبل ولم يكن قد تم بناؤه فخرن عليه أهل
القاهرة وسائر البلاد حزنا عظيما لاجتماع القلوب على محبته * وكان رحمه الله أبيض اللون

مطلب

زيارة محمد علي باشا
دار السلطنة وما
لقيه من حفاوة
السلطان به

مشربا بحمرة على الجبهة أصلعها أسود العينين متوسط القامة جيل الهيئة مع هيبة ووداعة سريع الحركة كثير التفكير اذا مشى يجعل يديه خلفه مثل نابليون بونا بارتة بسيط الملبس لا يحب التفاخر ولا الزينة ولا كثرة الحشم والجلباب ميالا الى مساهرة كبار الجند ورجال الحرب لاسيما منهم سليمان باشا الفرنسي فانه كان يحبه ويحبه * قال بعض الكتاب فكان سليمان باشا يقول لم أتعلم بحجة أحد غير ثلاثة أبي وبونا بارتة ومحمد علي باشا وكان محمد علي باشا اذا جلس في مجلسه لا يتقاد السلاح بل يجلس وفي يده علبة السعوط والمسحاة وكان سليم القاب سريع التأثر لا يعرف التكظم سريع الانقياد كريم النفس أيتها سخي العطاء واسع التدبير محبا للاطلاع على أخبار الامم وأحوال الممالك كثير الاشتغال بالسياسة كبير الاهتمام بأحوال الرعية قليل العزم ديننا صحيح الاسلام محبا للنصاري لاسيما القبط أهل البلاد قرب منهم جماعة كثيرة وأخلص لهم فأخلصوا في خدمته وخدمة البلاد فلم اليهم مقاليد الدواوين وصرفهم في ما وراء بابه فأحسنوا العمل وأحكموا التدبير وكان الاجانب عموما يسمونه بمجي ديار مصر بعد اندراسها ومبيد طوائف الممالك رجه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه جنات النعيم

(مطلب)

في ولاية الامير ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا

لما اشتدت علة محمد علي باشا وكثر هذيانه أنفذ ولده ابراهيم باشا الى دار السلطنة يعلمهم بما آلت اليه حالة أبيه ويسألهم الاجازة بتنزيله عن منصب الولاية وتخليسه عن حكم البلاد فجاءه الامر بذلك في جمادى الاولى سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فجعل يتصرف في الامور بالوكالة عن أبيه حتى يأتيه فرمان التولية فلما كان منتصف شعبان من السنة قدم الى القاهرة مظلوم بيك أحد رجال دار السلطنة ومعه فرمان بولاية ابراهيم باشا فقرأ في ثامن عشر شعبان بقلعة الجبل في محفل حافل من كبار الدولة والعلماء والمشايخ والكبراء ودقت البشائر وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما كان شهر رمضان سافر ابراهيم باشا الى دار السلطنة ليقبل الاعتاب على حكم ما في فرمان الولاية فأكرم السلطان لقاءه وأحسن وفادته ولبث أياما ثم عاد فوصل الاسكندرية في عاشر شوال من السنة وهو يشكو من مرض في الباطن وما زال يشتد به المرض حتى مات ثالث عشر ذي الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية أي سنة سبع وأربعين وثمانمائة وألف ميلادية فلازم أهل مصر والقاهرة الحداد عليه أربعين يوما ودفن بالامام الشافعي وكان جليل القدر مهيبا حازما واسع الفكر عظيم التدبير شديد البطش سريع الغضب جبارا قريما عنيدا صبوراً على الحروب جسوراً راسخ القلب موقفا يحسبه العدو بألف مقاتل في قومه * وكان لما عاد من حروبه

في آسية الصغرى وتم عقد الصلح بين محمد علي باشا وسلطانة عزم على السفر الى بلاد
الفرنسيين للاطلاع على ما فيها من فنون القتال وأسرار الحروب فسار معه سليمان باشا
الفرنسي ورافقهما الدوق نيموريس والامير جوانفيل فلما وصل الى عاصمة الفرنسيين قوبل
بغاية النجدة والاعتبار وكان ينتظره أحد كبار الاسطبل الملوكي وقيل أحد كبار الدولة ومعه
فرس عربي مطهم بسرج من السروج الكيماانية قد أعد لركوبه فقدمه اليه فركبه
وسار بين مظاهر الاحتفال والاحتفاء وكان هذا الفرس لبراهيم باشا وقد شاهد معه جميع
الوقائع والحروب في الشام وآسية الصغرى ودخل به مدينة نصيبين ظافرا منصورا بعد
فتكه بالعسكر السلطاني فسير به محمد علي باشا بعد ذلك هدية الى قصر التويلري بعاصمة
الفرنسيين ومعه تسعة من السؤاس المصريين ولبث ابراهيم باشا بباريز أياما أولمت له فيها
الولائم العظيمة وكانوا يضعون له في كل مأدبة أو وليمة كرسيا موجهة الى جهة الشرق
اشارة الى انه نابغة الشرق ومحبي دياره بعد الاندراش وكانت آلات الطرب والموسيقىات
تكرر بحضوره نغمات النصر وتردد أدوار الظفر والألحان الحاسية اشارة الى الوقائع والحروب
التي اشهر بها وفاز فيها بالنصر والغلبة ❀ وجال في باريز وشاهد ما فيها من الغرائب ونصدق
على فقرائها بثمانية وأربعين ألف قرش وسيرت اليه ملكة الانجليز تدعوه لزيارة بلادها
فاعذر ولم يشا الذهاب لبغضه لكبار الانجليز وبارح ديار الفرنسيين الى عاصمة
البرنغال فاحسن ملكها وفادته واحتفل لقدمه احتفالا شائقا وأهداه نيشان
الصليب الاكبر ثم عاد الى مصر وعاد في ركابه سليمان باشا ❀ وقد سمعت بعض الناس
يقولون ان سليمان باشا هذا كان فوضويا ميالا الى الثورة وقلب هيئته الحكومات فلما
اشهر خبره بين كبار الفرنسيين خافوا منه فأقصوه الى البلاد البعيدة فجاء هاربا الى مصر
ودخل في خدمة محمد علي باشا وتقلب في الوظائف العسكرية حتى حاز الرتب العالية
والالقاب السامية واعتنق الديانة الاسلامية تزلفا واسترضاء فجعلت أبحاث عن ترجمة
حاله وأسأل عن صدق أخباره ممن كانوا معه وساروا في ركابه الى معامع الحروب ومشاهد
القتال فلم أعرف منهم الا ماعرفه العامة وتحدثوا به وما زلت أبحث حتى عنرت على ترجمته
لاحد كتاب الفرنسيين فنقاتها عنه وهي ❀ هو سيف بن أوكناف جوزيف انتلم
الطبعان ولد بمدينة ليون من أعمال فرنسا في أوائل شهر ابريل سنة سبع وثمانين وسبعائة
وألف ميلادية أى سنة احدى ومائتين وألف هجرية وكان له جد قوى الجأش شديد البأس
طاغية قاسى القلب يلعب بالتركي لقساونه وسكون قلبه وكان سيف المذكور مولعا بالحروب
ميالا الى الغزو والجهاد والخوض في معامع القتال فلما بلغ السابعة عشرة من عمره سار
الى طولون احدى أعمال فرنسا ودخل في خدمة بحريتها متطوعا وأقام بها خمس
سنوات ثم نال رتبة وكيل للفرقة الثمانية البحرية المدفعية ولبث بها زهاء سنتين ثم تافت
نفسه الى الانخراط في سلك الجندية البرية وقد كان مارس حركاتها وتعلم أساليبها وجال في

مطلب
في من هو سليمان
باشا الفرنسي

البحر الأبيض المتوسط والمحيط الاطالنتيكي مرات كثيرة وزار جزائر الارخبيل ثم عاد الى ليون بجراحة أصابته في ذراعه اليسرى في حرب ترافالجار وأقام مع أبويه أياما كثيرة ثم حدث بعد ذلك أن وقع بينه وبين عدوه مشاجرة أدت الى الملائكة ثم المضاربة فانقض سيف على عدوه وقتله وفر هاربا من ليون الى ايطاليا خوفا من العقاب ودخل في عسكريتها جنديا في الفرقة السادسة التي كان يقودها الكولونيل باجول ولبث على هذا الحال حينما كان من نظام دولة ايطاليا العسكرية في ذلك الحين تعلم الفرسان الايطالية جميع حركات المشاة أيضا قد تكفل سيف بتعليمهم وأخذ ذلك على عهدته فظهر أمره وكبر شأنه وعرفه الناس فانتسعت شهرته * فلما كانت سنة تسع وثمانمائة وألف ميلادية اختارته الدولة الايطالية لان يكون قائدا لجيوشها التي سافتها الى القتال في واقعة الرين الشهيرة مع دولة الروس فأبلى في تلك الحرب بلاء حسنا حتى شهد له العدو بالبسالة ومعرفة أسرار الحروب وما زال يقاتل والنصر يلازمه والتوفيق يتقدمه حتى أصيب فرسه في إحدى المعامع فسقط ميتا وسقط هو على الأرض فأصابه العدو بثلاث طعنات وطلق ناراً ثم حمل أسيرا الى مدينة موسكو عاصمة الروس فلبث بها ماشاء الله حتى شفيت جراحته ونفقه من علته واستعرض القيصر أسراء تلك الحرب وعلم بأحوال سيف فقال اليه وامتدح بسالته وجعله وكيل مقدم جميع الفرسان الروسية ثم مقدم جميع الفرسان فظهر نباه واشتد أمره وحاز نباشين الشرف في معامع الحروب وكاد أن يسقط في يد العدو في واقعة بوزن وقد جرح بجراحة خطيرة ثم شفى منها فقلده القيصر قاعة قامية قيادة الجيوش الروسية وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة وألف ميلادية افتتح بعض المقاطعات الفوزاقية بطريقة لم يسبق لها منيل ولم يكن ليسمح له بها رئيسه الجنرال بيره فزاد إعجاب رجال حرب الروس به وقدره قدره ولما طالت غيبة سيف عن الآل والوطن حنت اليهما جوارحه فصار بين اقدام وإحجام حتى علم بونا بآرته من أمره ما أعجبه فأنفذ اليه بالحضور الى عاصمة الفرنسيين فلبى اشارته وأتى مسرعا الى باريز فأكرم بونا بآرته لقاءه وأدخله في خدمة الجيوش الفرنسية فسار سيرة حسنة للغاية وبألف في الطاعة وأداء الخدمة حقها واشتهر في خدمة بريئة شهرة عظيمة للغاية فقال اليه بونا بآرته وأحبه ومنحه رتبة القاع مقام * ورافق المارشال جروشي قائد جيوش الفرنسية في واقعة وأنزلو الانجليزية فقال شهرة عظيمة ثم قعيب عن ساحة الحرب فدارت في غيبته الدائرة على الفرنسيين فانهمزوا شرهزيمة وكان له بعيد ذلك في حروب المائة يوم المشهورة اليد الطولى فغلب فيها وقهر وقاز وانتصرونا من العدو وظفر قتال رتبة الكولونيل أي أمير الاي مع نيشان الافتخار * فلما سقط بونا بآرته عن عرشه وبطلت الحروب بسقوطه عز على الأمير سيف هذا المصاب وحزن على بونا بآرته حزنا عظيما واعتزل الجندية ومال الى الزرع والفلاحة فاستأجر مزرعة في أراضي الجرنيل وجعل يفلح حينئذ تاقت نفسه الى الخوض في عذاب الحروب ومشاهدة القتال وكأنه

أقسم أن لا يموت الا شهيد الحرب والجلاد ولما لم يكن بين بلاده وبين دولة أخرى حرب قائمة ترك وطنه ومسقط رأسه وسكنه وسار الى بلاد فارس وقد كان ملك فارس أخذ ينظم جيوشه يومئذ على ترتيب ونظام جيوش الفرنسيين فرسيف في طريقه بالاسكندرية ولبث بها أياما فأعجبه هواؤها وحن الى البقاء فيها وعدل عن الذهاب الى ملك فارس وكان يعرف بالاسكندرية ناجرا من كبار الفرنسيين فقصدته وكشفه على ما في نفسه من الميل الى خدمة محمد علي باشا وترتيب عسكره على نسق وترتيب عسكر الفرنسيين وكان محمد علي باشا ميالا الى ذلك جدا فلما علم باخبار الكولونيل سيف وعرف مبالغ شهرته في تنظيم الجيوش وتدريب العسكر وتحقق من بسالته واقدامه وتمكنه من الفنون الحربية مال اليه وأدخله في خدمته وسلم اليه مقاليد كافة الامور العسكرية فلاقى من كبار وصغار العسكر الارتود والدلاة وغيرهم من بقية أخلاط العسكر المصري يومئذ غاية الجفاء والشدة فكانوا يخاطبونه بفحش القول وينادونه بالكافر واشتد بغضهم اليه وكرهوا بقاءه بينهم فألحوا على محمد علي باشا باخراجه من ديار مصر والا فهم قاتلوه لا محالة ودسوا الى جماعة منهم ممن دخل في نظام العسكر الجديد أن يقتلوه فبينما كان يدرّب العسكر يوما ويعلمهم استعمال البنادق أطلق عليه أحدهم بارودته فأخطأته فتغافل الكولونيل سيف عنه ولم يظهر اهتماما بأمره وظل على ما هو عليه من ابن الجانب ودمانة الاخلاق وجعل يستميل خصومه ويسامهم فنجح بعض النجاح ولمكنهم عادوا فاطلقوا عليه الرصاص مرة ثانية فلم يصيبوه فقبس وصاح عليهم لباس عليكم بارفاق وددت لو أنكم تحسنون الرماية فيسر خاطري بكم فلما رأوا ثباته وشدة محبة محمد علي باشا له هابوه وخضعوا له فظهرت كلمته واتسعت شهرته ولبث يعلم الجند ثلاث سنين والتوفيق ملازم له حتى ظهرت فتنة أهل المورة وخرجوا عن طاعة السلطان محمود فسير السلطان لاختصاصهم جيشا من خمسة آلاف مقاتل ومقدمه خورشيد باشا صدر الدولة يومئذ وكثيرا من سفن الحرب ومراكب النقل فاستظهرت الروم على الترك ونالت منهم قتلا وتفرقا وأحرقوا سفنهم وكادوا يدرونها عن آخرها فافذ السلطان الى محمد علي باشا في رابع عشر جمادى الاولى سنة تسع وثلاثين ومائتين وألف هجرية يستنجده على قتال الروم ويعنيه بالاماني الكثيرة ويخاطبه بعبارات التجلة والتكريم ويلقبه بعميد طغام الكفار ويعده بضم مورة الى ولاية مصر ان هو دؤخها وأرجعها الى الطاعة وكان يوسف بوغوس بيك الارمني متوليا يومئذ رئاسة الخارجية والتجارة وكتابة سر محمد علي باشا فلما اطلع على ما في فرمان السلطان من عبارات التجلة والتكريم كاد يطير فرحا وتقدم الى محمد علي باشا وهو يقول (ليضع الله بيده القادرة على جبينك الشريف تاج ملك جميع العالم فانك أهل لذلك يا بونا بارتة أفرقة) فسير محمد علي باشا لقتال الروم جيشا ومقدمه الامير ابراهيم باشا وكان الكولونيل سيف في هذا الحين قد أسلم واعتنق الدين الاسلامي وسمى سليمان ونال رتبة الباشاوية فسار مع الامير ابراهيم باشا وقاتل الروم وأظهر من فنون القتال

القتال وأسرار الحرب ما شهدت به الاعداء وبلغت شهرته يومئذ مبلغا عظيما وأحبه محمد على باشا ثم كان منه ما كان في حروب الشام وآسية الصغرى وزحفه بالعسكر المصرى على أبواب القسطنطينية وأسرته للصدر الأعظم وغيره من كبار رجال حرب الدولة وما أنشأه من القلاع والحصون والمعاقل التي كانت من معجزات فنون القتال وغير ذلك من الاعمال الخطيرة التي قبل أن يأتي غيره بمثلها في ذلك الحين وما زال يتقلب على بساط النعيم في مجبوحة الهناء حتى مات ودفن ببستان منزله على ساحل النيل بمصر القديمة

وكان ابراهيم باشا مولعا بالزراعة وفلاحة الارض فضم الى أملاكه أبعاد الاراضى وأخصبها بالآقليمين القبلى والبحرى ورتبها بغرس الاشجار العظيمة وأنشأ معامل السكر والكتان ومطاحن القمح ومعامل النيلة وبالغ في ترتيبها وبذل النفيس في اصلاح أمرها حتى زادت غلتها وكثرت محصولاتها ونمت * قالوا وكان شديد البأس على الفلاحين جافى الطبع حازما مقسما يحاسب على الذرة والبر ولا يترك لاحد منهم مثقال ذرة فكان أبوه يكره منسه ذلك ويعنفه عليه ولا يمكن نفسه من هواها وقد أثرى وكثر ماله في آخر أيامه كثرة بالغة واتسعت مادة رزقه اتساعا عظيما وخلف ثلاثة بنين هم أحمد واسماعيل ومصطفى ومات عن عدة زوجات أكثرهن بغير ولد وكثير من الجوارى والحظيات وعمره ستون سنة هلالية فكانت ولادته سبعة أشهر وثلاثة عشر يوما منها ثلاثة أشهر بعد ورود فرمان السلطان اليه بالولاية فتولى الأمر بعده ولد أخيه عباس باشا الاول ابن طوسون بن محمد على باشا

(مطلب)

ولاية عباس باشا ابن الامير طوسون باشا

كان عباس باشا يوم موت عمه ابراهيم بالديار الحجازية فارا من وجه عمه اذ كان بمقته كثيرا ويزيد البطش به لأمور نغمها عليه وقيل بل ذهب لاداء مناسك الحج والاول أشهر فاستقدموه ورفقوا أمر ولايته الى دار السلطنة فورد فرمان بولايته في سابع عشر ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين وألف هجرية فأصعدوه الى قلعة الجبل في موكب حافل وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فلما استقرت به الولاية صرف الكثير من بطانة جده وأبعد أصحاب الوظائف العالية واتخذ له بطانة من يعتمد عليهم ويميل بالطبع اليهم وأقصى أصحاب الرأى وأهل الشورى واختص بقوم غيرهم فسلم اليهم مقاليد الامور وتدير مهام الرعية فعملوا لانفسهم واشتدت في هذا الحين الفتنة بين قبصر الروس والسلطان عبيد المجيد وكبرت الوحشة بين الفريقين * قال أصحاب التاريخ وكان سبب ذلك أنه لما كان لدولة الفرنسيين حق حجابة جميع الكنائس الكاثوليكية والذب عنها عند الحاجة بمقتضى أحكام المعاهدة التي تمت ما بين الملك لويس الخامس عشر ملك الفرنسيين والسلطان محمد خان سنة ثلاث وخمسين

مطلب

وقوع الحرب بين
السلطان ودولة
الروس ومعاونة
الانجليز والفرنسيين
للسلطان على قتال
الروس

ومائتين وألف هجرية أى سنة أربعين وسبعائة وألف ميلادية على ما تقدم بك بيانه
 فى الجزء الثالث من هذا الكتاب * وكانت دولة الروس تكره ذلك وتسعى فى تعضيد
 جانب جماعة الأرثوذكس واعلاء كلمهم فوق كلمة أصحاب الكنائس لاسيما فى بيت المقدس
 وتشتد رغبتهم كل يوم فى نزع كنائس بيت المقدس من أيدي قسوس الكاثوليك واعطائها
 الى قسوس الارثوذكس فجعلت تراقب الفرص وتبسين انتفاعها حتى رأت اشتغال دولة
 الفرنسيين بانجاد ثورتها الداخلية ثم بالمرور التى آثارها بوناپارته على جميع الممالك
 الغربية زهاء اثنتين وعشرين سنة بما لا تقدر معه على الذب عن أهل الكنيسة فعمدت
 الى نزع جميع ما بأيدي الكاثوليك من تلك الحقوق والامتيازات وسلمتها الى جماعة
 الارثوذكس فتصرفوا فيها واستبدوا بها وغيروا وبدلوا حسب أهوائهم وما زالوا ينصرفون
 حتى تولى نابليون الثالث رئاسة جمهور الفرنسيين الثانية فرأى من اهتمام أهل الكنيسة
 بهذا الامر ما أعجبه وزين له مخافة السلطان فى ارجاع تلك الحقوق والامتيازات الى ما
 كانت عليه حسب المعاهدات والعقود القديمة فطالب الأخذ والرد ثم تقررت القاعدة بين
 الفريقين على انتخاب عمدة من كبار المذاهب وأئمة الدين لينظروا فى مزاعم الخصمين
 ويقرروا فيها أمرا باتا فأطالت العمدة البحث والتنقيب وليث الحال على ذلك أياما كثيرة
 ثم حكمت برد جميع الكنائس والديارات الى جماعة الكاثوليك بيت المقدس وبردة بعض
 الامتيازات والحقوق الاخرى حسب أحكام المعاهدات القديمة وحررت بذلك صكا فى شهر
 جادى الاولى سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية أى فى شهر فبراير سنة اثنتين وخمسين
 وثمانمائة وألف ميلادية فعارضت دولة الروس فى نفاذ هذا الصك وهدد قيصرها السلطان
 بالحرب والقتال ان هو رسم بتنفيذه وطالب نابليون السلطان بتنفيذ حكم العمدة ورد ما أخذ
 من جماعة الكاثوليك وشدد فى الطلب فأصبح السلطان وهو بين منتطح عزيز ولكنة عاد
 فرسم بتنفيذ حكم العمدة فقامت دولة الروس وقعدت وكان القيصر شديد الرغبة فى فتح
 أبواب الحرب والتعجيل فى قتال السلطان وقد أخذ تأهبه لذلك منذ حين فعمد الى استعمال
 الشدة وسير الى دار السلطنة الامير منشكوف كبير ديوان البحرية الروسية ليحكم السلطان
 فى عدم جواز العمل بما قضت به العمدة وعدم مس ما بأيدي الارثوذكس من الكنائس
 والديارات فوصل الى دار السلطنة فى ثامن جادى الاولى سنة تسع وستين * قال بعض
 الكتاب فاحتفل للقائه جماعة الروم بالقسطنطينية احتفالا عظيما وبالغوا فى اجلاله وتعظيمه
 استصغارا بالمسلمين وساروا أمامه وهم فى ضجة وجلبة عظيمة فنزل فى دار سفير الروس
 أياما لا يقابل فيها أحدا من رجال الدولة فلما كان العشرون من جادى المذكور سار الى
 مقر صدر الدولة وهو فى زى المسافرين ودخل عليه بلا حشمة ولا تأدب وكله فى أمر
 الكنائس بيت المقدس وقال ان مولاي القيصر لا يطبق الصبر على ما يلاقيه أهل
 الارثوذكسية من أصحاب الكنيسة ولا يسمح بتنفيذ حكم العمدة الدينية وقد سيري الى

هنا لا كلمكم في الامر فان انتم فعلتم ما نحب فيها ونمت والا فالسيف يحكم بيننا وبينكم وطير الخبير بذلك الى القيصري فعمل القيصري يستطلع ما سيكون من دولة الانجليز ان هو ركب بعسكره لقتال السلطان وسأل سفير الانجليز في ذلك وفيما اذا كانت دولة الانجليز تعاقده على قتال السلطان « قال » فاذا هي فعلت ذلك وبلغنا المقصود من تقسيم بلاد السلطنة العثمانية وأرجعناهما الى ما كانت عليه من الذل والصغار نساھلت معها وأنلتها أخذ الديار المصرية وجزيرة كريد وتخلصنا جميعا من مكايده هذا القرم العنيد فخابر سفير الانجليز دولته في ذلك فلم تقبل خوفا من استفحال أمر الروس وامتداد شوكتهم في الشرق ودخول القسطنطينية في عداد أملاكهم فيشاركون الانجليز في ملك البحار ويزاحونهم على نيل الاوطار

وكبر ما وقع من سفير الروس على السلطان عبد المجيد واستعظمه فكلم دولتي الانجليز والفرنسيس في أمره فجرد نابليون الثالث للعداوة وزين لدولة الانجليز التحالف على قتال الروس وإيقافهم عند حد احترام العهود والعمل بمقتضى المواثيق القديمة وما زال بها حتى مالت الى الحرب خوفا على هندها فسير في الحال بعض سفن الحرب الفرنسية الى اليونان فألقت مرسما في فرضة سلامين احدي الجزر اليونانية وليثت تراقب الحوادث ورسمت كذلك دولة الانجليز الى سفن حربيها الراسية في ميناء مالطه بان تكون على قدم التأهب والاستعداد وكان الامير منشيكوف الروسي في غضون ذلك يتردد على الباب العالي في طلب تجديد معاهدة خونكار أسكله سى ليكون لدولة الروس من وراء تجديدها حق حماية جميع طوائف الارثوذكس الذين في بلاد السلطنة العثمانية فكان السلطان يطاوله ويمنيه بالاماني البعيدة ثم رسم باعادة رشيد باشا الصدر المعزول الى منصب الصدارة وهو من أعداء الروس وأشد رجال الدولة كرها لهم وكان قد خلع من منصبه استرضاء للقيصر ومنعاً لاسائس والفتن السياسية فلما تقلد المنصب تجرد الى الدفاع ووقف في وجه الامير منشيكوف وأبى عليه كلما طلبه فاستعظم الامير منشيكوف هذا الامر وأنفذ الى الباب العالي بلاغا في شعبان سنة تسع وستين ومائتين وألف بجميع مطالب مولاه القيصري وضرب للصدر الاعظم أجلا خمسة أيام فلما انقضى الاجل المضروب أمدته بثمانية أيام آخر فانقضت ولم ينل من الباب العالي جوابا * وكان السلطان لما ورد اليه بلاغ الامير منشيكوف طير خبيرة الى عاصمتي الانجليز والفرنسيس وطلب منهما الوساطة في الامر حقنا للدماء فسيرتا في الحال سفنهما الحربية نحو الدردنيل وعلم الامير منشيكوف بذلك فكتب الى صدر الدولة في تاسع عشر رمضان من السنة يعلمه بزحف الجيوش الروسية على حدود السلطنة العثمانية فلما كان خامس عشر الشهر المذكور جاءت الاخبار باجتياز الامير كورنشاكوف الروسي بعساكره نهر البرونة واحتلاله مقاطعة الدانوب فسير اليه السلطان من يسأله الجلاء وعدم مجاوزة الحدود فلم يلتفت الى ذلك ونادى في عسكره بالنأهب ووردت الاخبار

بذلك أيضا الى عاصمتي الفرنسيين والانجليز فاجتازت سفنهما الدردنيل وكان القيصر يؤمل مساعدة امبراطور النمسا له في هذه الحرب لما بين القيصر وبينه من العلائق الودية وما للقيصر عليه من الايادي البيضاء لاسيما بعد قيام الفتنة في بلاد المجر وخروج أهلها عن طاعته وكان امبراطور النمسا يخشى عاقبة هذه الحرب ويعلم أن ما وراءها الا الطامة الكبرى على مملكته ان نالت دولة الروس من السلطنة العثمانية وتم لها النصر فعمد الى استعمال الموارد وخبر الدول جميعا في عقد مؤتمر بمدينة وينا لاصلاح ذات البين ومنع وقوع الحرب بين الطرفين فأجابته الدول الى ذلك وتم انعقاد المؤتمر في سلخ ذي القعدة سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية وتقررت القاعدات بين مبعوثي كافة الدول على حدود وشروط معينة قيل فاذا عنت لها دولة الروس راضية على ما فيها من الموارد والتعقيد ولم يقبلها الباب العالي وفضل الحرب على هذا السلم المحفوف بصنوف المكار فالتحق المؤتمر على غير طائل وكان الامير كورتشاكوف قائد الجيوش الروسية قد تمكن في خلال هذه الفترة من احتلال ولايتي الفلاق والبغدان والتحصن في حصونها فانفذ اليه السلطان باخلاهما وضرب له أجلا خمسة عشر يوما ورسم الى عمر باشا مقدم الجيوش العثمانية فغير الطونة فصارت الحرب بين الفريقين أدنى من قاب قوسين

واستخف لامير كورتشاكوف بقدر الجيوش العثمانية التي عبرت الطونة فلم يتجمل عن مواقعه وزاد في التحصن والاستعداد فسار اليه عمر باشا وقاتله قتالا عنيفا وطال القتال أياما ثم انكشف عن هزيمة كورتشاكوف شر هزيمة وجلاته عن معاقله وانتصار عمر باشا نصرة مؤزرة وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة وكان السلطان قد رسم أيضا الى عبده باشا أحد مقدمي العسكر السلطاني بالزحف على حدود الروس من جهة بلاد قافقاسية فسار بعسكره حتى اجتاز الحدود وقاتل وأخذ قلعة سان نقولا وانتصر كذلك على الروس نصرة عظيمة واشتد القتال بين الطرفين أياما ثم توقف بسبب الشتاء وتراكم الثلوج والامطار فهال القيصر هذا الامر وأزعجه وكبر خوفه من عاقبة هذه الحرب ان اشتركت فيها أيضا عساكر الفرنسيين والانجليز وطلب المدد من امبراطور النمسا فلم يجبه خوفا من شر العاقبة فسير القيصر الى دواقي الفرنسيين والانجليز يسألهم عدم دخول مراكبهما الحربية الى البحر الاسود وتر بصها عند البوغاز وهو يكفل لهما عدم اجراء شيء من الحرب والقتال بالبحر المذكور فبقيت مراكب الدولتين لا تتحرك من مكانها أياما وظن السلطان وقوف رعي الحرب حتى ينقضي الشتاء وكان للسلطان عمارة صغيرة بالبحر الاسود راسية في ميناء سانوب فلم يشعر أميرها الا وقد داهمتها مراكب الروس وأحاطت براكبها من كل جانب وأطلقت عليها القنابل تباعا فسقط في أمره واخنبل وعز عليه التدبير للخلاص واشتد رعي مراكب الروس وترسلت القنابل حتى دمرت جميع المراكب السلطانية ولم تبق لها أثرا وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فأبلغه الصدر الى

سفراء الدول بقاء الامر على الاثر الى السفن الفرنسية والانجليزية باجتياز البوغاز ودخول البحر الاسود والتأهب لرد جميع المراكب الروسية عن الدفوف من موانئ السلطنة العثمانية واجتازته وسارت فخر في طوله وعرضه وأرسل السلطان الى عباس باشا يطلب المدد من العسكر المصري فبعث اليه عباس باشا بجيش ضخم كامل العدد وأرسل الى الخريزنة السلطانية شيأ من المال لنفقة الجند قيل وكان يكره نجدة السلطان ويتمنى انقشاله حبا في الاستقلال بملك مصر والخروج من تابعة السلطنة فلم تساعد الايام ولم ينل هذا المرام وسارت العساكر المصرية مع العساكر العثمانية وقاتلت وانتصرت في عدة مواقع كبيرة وأبلى بلاء حسنا ووردت الاوامر من قيصر الروس الى سفيريه بعاصمتي الفرنسيين والانجليز بالشخص الى عاصمة الروس وقطع العلائق السياسية فانسحب ووقع الاتفاق بين دواي الفرنسيين والانجليز والسلطان على قتال الروس وتفررت القاعدة بينهم على أن تسوق دولة الفرنسيين الى ساحة القتال خمسين ألف مقاتل من رجالها كالملى العدد وكذلك دولة الانجليزية تسير خمسة وعشرين ألفا لينألبوا على القتال ولا ينفكوا عنه حتى تلزم دولة الروس حدودها وتتكف عن القتال صاغرة فاذا تم لهم النصر عادت العساكر الفرنسية والانجليزية وتركت الدولة العثمانية وشأنها تنصرف في بلادها وترتب أمورها على ما فيه مصلحتها فلما كان شعبان سنة سبعين ومائتين وألف هجرية قامت الجيوش الفرنسية ومقدمها الماريسال دى سنت أرنو والجيوش الانجليزية ومقدمها اللورد ريجلان ومعهم شيء كثير من المؤن ولذخائر وآلات الحرب الكاملة على ظهور سفن النقل العظيمة فاصددة دار السلطنة العثمانية فلم تكدر تصل اليها حتى قامت الحرب على ساقها بين هراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية وبين قلاع وحصون مدينة أوديسا * قال بعض الكتاب وتحرير الخبر أنه لما انقطعت العلاقات السياسية بين الاحزاب ودولة الروس جعلت كل دولة منهم تحافظ على كرامة رعاياها وحرماتهم في بلاد عدوتها فسيرت دولة الانجليز بعض السفن الحربية التي لها بالبحر الاسود لنقل قنصل الانجليز ومن معه من الرعايا الانجليزيين الذين بمدينة أوديسا فلما اقتربت السفينة المذكورة أطلق عليها الروس الذين بقلاعها المدافع ورأسوا الرمي بالقنابل حتى كادت تدمرها فهربت فهاهنا هذا الامر أمير السفن الانجليزية واتفق مع أمير السفن الفرنسية على الاخذ بالنار ان لم يعتذر حاكم أوديسا عما وقع ويطلب الصفح ويقوم بالترضية وضربا له أجلا أربعاً وعشرين ساعة فلم يلتفت الحاكم الى ذلك ولم يحل طلبهما محلا فسارت جميع السفن في شعبان سنة سبعين ووقفت أمام حصون المدينة وجعلت ترمي عليها بالقنابل تباعا حتى دمرتها تدميرا والتمت النيران جانباً منها ثم تركتها وسارت نحو سبستوبول ودعت هراكب الحرب الروسية للنزال فلم ينزلها فسارت على الفور بعض السفن الفرنسية والانجليزية لضرب جميع الثغور الروسية الواقعة على البحر الاسود فأنفذ القيصر الماريسال بسكيفتش في جيش جرار لعبور نهر الطونة فعبه وسار نحو

مدينة سلسيريا وحاصرها وضيق عليها من كل جانب وأقام على حصارها زهاء خمسة وثلاثين يوما فلم ينل منها وقد كان من بها من العسكر السلطاني لا يتجاوز الخمسة عشر ألفا ومقدمهم موسى باشا وجاءت الاخبار بذلك الى دار السلطنة فسارت الجيوش المتحالفة الى وازنه لخدمة موسى باشا ومن معه فبات موسى باشا قبل أن ينجده وخاف أمير العساكر الروسية من وصول الجيوش المتحالفة وهو على قدم الحصار فالتجلى بعسكره عن المدينة فتبعته العساكر العثمانية وجعلت تتخطف ساقته حتى تجاوز نهر الطونة وما زال يقاتل ويدافع حتى عبر نهر البروت وصار في مأمن من نيران العسكر السلطاني فعادت بعد ذلك العساكر السلطانية فاجتمع سائر أمراء الجيوش المتحالفة وتشاوروا في أمر القتال مع العدو وكان الطاعون قد تفشى في حدود السلطنة العثمانية وكثر فيها الموات فانفقت كلمتهم على النزول على سبيل قبول ومحاصرتها وعدم الجلاء عنها حتى يدكروا أسوارها دكا وسيروا في المحرم افتتاح سنة احدى وسبعين جماعة من المقاتلين من الفرنسيين والانجليز والترك والمصريين فمكافوا زهاء ستين ألفا كملوا العدد فنزلوا عليها ولم يستقر بهم المقام حتى التهمت نار الحرب بينهم وبين الروس وعلا ضرامها وانكشفت عن هزيمة الروس ونصرة الفرنسيين نصره مؤزره وأخذوا منهم المرتفعات المشرفة على نهر الماء فكانت عندهم من أهم المواقع الحصينة ثم عمدوا الى فتح ميناء بلكلوا لجعلوها مأمنا لسفنهم التي كانت تأتي اليهم بالموث والخاير ومعدات الحرب فزحفوا عليها وقادلوها يومين حتى فتحوها عنوة ودخلوها ثم انكفوا عن القتال أياما فتمكنت فيها جماعة الروس من تحصين سبا سنبول تحصينا منيعا وبالغت في ذلك من البر والبحر حتى صارت لا ترام

وسارت جيوش الاحزاب نحو سبا سنبول وقد تفشت فيهم الحميات فكثر الموات بينهم وخم الماربشال سانت أرنو مقدم الجيوش الفرنسية ومات قبل أن يعيد الكرة على حصون سبا سنبول فنقلوا جثته الى عاصمة الفرنسيين باحتفال زائد وأقاموا مكانه الجنرال كازوبر فحاصروا سبا سنبول ورموا عليها بالقنابل في أوائل صفر سنة احدى وسبعين ولبشوا يرسلون الرمي ليلا ونهارا زهاء خمسة أيام ثم هجموا عليها هجمة رجل واحد فلم ينالوا منها وردوا على أعقابهم خاسرين وتبعهم طائفة من العساكر الروسية وقتل منهم قتالا عنيفا ثم عادت ولم تظفر بهم وطالت أيام الحصار والحرب بين الفريقين سجالا حتى دخل الشتاء فكثر الموات في عسكر الاحزاب وتفشيت بينهم الامراض فأوقفوا رعي القتال ولبشوا على قدم الحصار فعادت العساكر الروسية الى تقوية ما نشعث من الحصون وترميم ما تهدم منها حتى عادت الى ما كانت عليه من المنعة وخاف رجال سياسة الفرنسيين والانجليز من اتحاد امبراطور النمسا مع قيصر الروس على الذب والقتال فتزداد هذه الحرب وبلا وتعظم مصيبتها لاسيما وقد كانوا يرون في الروس خصما عنيدا وقرما صبوراً على القتال فعمدوا الى استمالة امبراطور النمسا وحببوا اليه الاتفاق معهم على ما فيه المصلحة لبلاده أيضا فوافقهم

على ذلك وكان بينه وبين فريديك غليوم ملك البروسيا عهد على أن لا يقدم أحدهما على التحالف مع الدول الثلاثة المتحالفة الا بعد رضا الآخر فخبره امبراطور النمسا في ذلك وزين له الاشتراك معه على ما فيه المصلحة لبلاده فلم ينفقت الى شئ من أقواله فاتفق الأحزاب على محاربة قيصر الروس في الصلح ~~وكف~~ القتال على قاعدة هي عدم انفراد القيصر بحماية المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية وعدم التعرض لحماية الفلاح والبغدان وباباحة المرور لجميع مراكب الدول في نهر الطونة وتعديل المعاهدات المتعلقة بالمرور في بوغازات القسطنطينية لاسباب منها معاهدة سنة سبع وخمسين ومائتين وألف هجرية وكلوا سفير الروس بعاصمة النمسا في ذلك فطلب المهلة حتى يأتيه أمر القيصر فأهلوه واشتغلوا بالتأهب والاستعداد لاضرام نار الحرب اذا ولي الشتاء وجاء الصيف وينماهم على هذا الحال اذ هاجم الروس مدينة أو ياتوريا وكان بها عدد من العساكر السلطانية والعساكر المصرية فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا وصبر كل فريق على القتال فمات خلق كثير ومات سليمان باشا مقدم العسكر المصري في هذه الموقعة ثم انكشف القتال عن هزيمة الروس وردهم على أعقابهم خاسرين ووردت الاخبار بذلك الى معسكر الأحزاب فأخذوا أهبتهم واستعدوا لمهاجمة سباسبول والالحاح في قتالها وأكثروا من جمع الاسلحة والكراع فلم يرض على ذلك الا أيام حتى مرض القيصر واشتد به مرضه ومات في جادى الثانية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية وشاع خبر موته فظن الناس زوال الفتنة وكف المتحالفون عن القتال فلم يصب ظنهم المرحى اذ تولى الملك بعد موت القيصر المشار اليه ابنه اسكندر الثانى ولم يستقر به المنصب حتى جعل يتأهب للزحف على مواقع الأحزاب ويكثر من حشد الجيوش واعداد معدات القتال فلما أنس الأحزاب منه ذلك زبنوا الى ملك ساردينيا التى هى اليوم ملكة ايطاليا الاتحاد معهم على قتال الروس وما زالوا به حتى سير جيشا عظيما من عسكره الى حصار سباسبول وتحالف على الذب والقتال فقويت عزيمية الأحزاب وجعلوا يناوشون الروس القتال فكانت بينهم مجالا ثم تمكنت جيوش الأحزاب من احتلال مدينة كريس وبوغاز يريكوب ومدخل بحر آزاق فأتموا حصار سباسبول ومنعوا عنها الواصل واشتد الحال من هذا الحين على الروس فجعلت جيوش الأحزاب توالى الزحف والهجوم على مواقع الروس ونجح في قتالهم من البر والبحر فانتصروا في عدة مواقع وأخذوا بعض القلاع والحصون الداخلة في حدود بلاد القرم ومنها قلعة ملاكوف أخذها الجنرال مالك مهورن الفرنسوى عنوة في خامس عشر ذى الحجة سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية ولما اشتد الحصار على سباسبول وضافت عليها المسالك وانقطع المدد خرج من كان بها من الروس وأوقدوا فيها النيران فالتهمتها عن آخرها ودكها دكا فدخلتها عساكر الأحزاب في ثانى يوم متخوفة ودخل الشتاء فوقفت رجلي الحرب بين الفريقين وأحست دولة الروس بالغبلة وعدم القدرة على دفع جيوش الأحزاب بعد خراب سباسبول فعدت الى المواردية وتودد القيصر

اسكندر الى امبراطور النمسا فكلم الامبراطور الدول المتحالفة في تقرير قاعدة الصلح والكف
عن القتال وحقق الدماء المهددة بسبب هذه الحرب المشؤمة فأجابته الدول الى ذلك وقرروا
القاعدة بينهم على ما فيه المصلحة وعرضوها على القيصر فأجابهم اليها وطلب عقد مؤتمر في
باريس عاصمة الفرنسيين لتقرير أمر الصلح نهائيا فأجابوه الى ذلك أيضا وانعقد المؤتمر ووالى
الاجتماع أياما حتى تم الصلح بينهم ونسطر في أربع وثلاثين مادة أصلية ومادة اضافية صار
التوقيع عليها من جميع مبعوثي الدول ومبعوث السلطان ثم تقرر بعهد ذلك رفع الحصار
عن جميع الموانئ والنفور الروسية وانسحاب جميع عساكر الأحزاب من بلاد القرم في أجل
لا يتجاوز الستة أشهر وأن تنجلي دولة النمسا عن ولايتي القلاق والبغدان في بحر ثلاثة أشهر
وكذلك تنجلي الروس عن مدينة قرص وقلعتهما وتردها الى الاملاك السلطانية في بحر ثلاثة
أشهر وعاد من بقي من العساكر المصرية الى القاهرة ثم كان بعيد ذلك ما كان من الفتن
والارهاصات الداخلية وخروج بعض الايالات عن طاعة السلطان ونوالها شبه الاستقلال
بتعريض دول أوروبا لها مما لا محل له هنا خوف الاطالة

وكرر على باب عباس باشا أصحاب السعاية وأهل الوشاية فاخذ بقولهم وعمل بمشورتهم
واشدت رغبته في معرفة أحوال جميع الناس وأسرار أصحاب البيوتات فانفذ لذلك جماعة
فكانوا يأتون اليه بالانخبار المقلقة والحوادث المكثرة ليبياعدوا بينه وبين الناس فتطير وأخذ
حذره وأكثر من شراء المماليك الجلب والاماء السود وأقام طوائف الترك على بابه يحرسونه
نهارا وطوائف المماليك يخفرونه ليلا وكان شديد بغض لاهله وعمومته وعلى الخصوص منهم
أولاد ابراهيم باشا فضيق عليهم وشدد وبالغ في تنكيلهم فضبط أرزاقهم وحبس غلاتهم وشرد
أتباعهم وحاشيتهم وأقصى الفساقين باشغالهم الى سنار وفيز وغلى وأقام عليهم الدعاوى الطويلة
حتى ضاق بهم الخناق فكانوا لا يحصلون على طعام يوم لحبس أرزاقهم وانكمشوا وقل
ظهورهم بين الناس خوفا من اشتداد الفتنة ورميهم بالتم الكاذبة ومع ذلك فقد كانت
عيونه وأرصاده لا تفارق أبوابهم ساعة ووقع بينه وبين عمه الامير محمد سعيد من النفرة
والشحناء ما لم يبق معه الا القتال فادعى على عمه الدعاوى الكثيرة واتهمه بالخروج وشق عصا
الطاعة واتهم أعيان البجيرة وبعض مشايخ عربان أولاد على بنجدته فاعمل فيهم القتل
والتشريد والتباعد الى أقاصى السودان وبالغ في تخريب دورهم ومحو آثار منازلهم فاخترق
من بقي منهم ونزحوا الى الشام والحجاز وألزم عمه بالمكث في الاسكندرية وعدم دخوله القاهرة
وبث حوله العيون والارصاد فضاقت على الامير محمد سعيد المذاهب واستنجد ببعض رجال
الدولة وبكار النزلاء من الاجانب فلم يفلح لشدة بأس عباس باشا وعظم هيئته في نفوس الناس
على اختلاف طبقاتهم واشتدت بعباس باشا الطيرة فاحتجب عن الناس ومال الى سكنى
البيضاء والجبال فابتنى له قصرا بالدار البيضاء بطريق السويس وآخر بسفح الجبل الأحمر
خارج باب الحسينية سماه العباسية نسبة الى اسمه فكان اذا ذهب الى أحدهما أقام به

أياما لا يصل اليه الا المقربون من قومه وابنتي مبانى أخرى كثيرة كالحلمية وغيرها بنيل شيخه
 ورسم يبناء دار بظاهر بركة الازبكية بجوار جامع الكيفيا فشرعوا في العمل وبدؤا يبناء
 السور من الحجر الاحمر وجعلوا لذلك البنائين والنحاتين والحجارين والنحاشين والفعلة ووكل
 بهم جماعة من الترك يحملون العصي والاسواط فكانوا يسومون أولئك العمال الخسف
 ويذيقونهم مضض التعذيب وكان ذلك على عهد ولاية جده محمد على باشا فاتفق أن من
 الامير ابراهيم باشا يوما بالازبكية فسمع من صياح العمال وجلبتهم ما أدهشه فسأل عن ذلك
 فقص له أنهم عمال في بناء الدار التي ينشئها الامير عباس فسار نحوها فرأى من كثرة
 أولئك العمال وما يقاسونه من تعذيب الموكلين بالعمل ما هاله وأحزنه فسير في الحال الى
 الامير عباس من يعلم بترك هذا العمل وصرف أولئك العمال بالتي هي خفاف الامير عباس
 وصرفهم وترك البناء في ذلك المكان ولم يتم منه الا بعض السور من الجانب الشرقي فرسم
 الامير ابراهيم بجعله مناسخا للجمال المرتين لخدمة الدولة وبقي كذلك الى أيام اسمعيل باشا
 ابن ابراهيم باشا فأزاله وأنشأ في جانب منه التزل المعروف بالوقائدة الجديدة وأمر ببيع الباقي
 منه فصار الآن من أحسن الدور وأرفعها بناء وأنظمها ترتيبا وتنسيقا * وكان شديد البغض
 للأجانب جبارا على الرعية سهل الانقياد لبعض حاشيته والمقربين اليه ميالا الى الوشاية
 وابقاع الفتن بين أصحاب الوظائف حذرا من تألفهم وانحادهم على ما يخشاه وكان مثل
 الخليفة المعتصم بن هارون الرشيد في الاكثار من شراء المماليك ووقوفهم على بابيه
 وتزيينهم بأفخر الملابس وكان يركبهم جياد الخيل بالسروج المطهمة وأنشأ فرقة منهم ومن
 أبناء بعض الناس بلباس مخصوص على زى الجند سماها الاورطة المفروزة فكانوا هم حراس
 أبوابه وكان مع شدة بطشه وعدم اغضائه عن الصغائر كثير التخليل لا يمكن أحدا
 من الدخول منه حيثما سار فكان يمشى وحوله طوائف الترك فإذا رآهم من أحد رتبة في
 طريقهم مالوا عليه وأوجهوه ضربا بالسياط والعصى وربما قتلوه وكان يحب المكث عند
 عرب الهنادى بالشرقية * قال جماعة وتزوج بأحدى بناتهم وكانت غاية في الجمال وعندي
 أنها قرية ما أنزل الله بها من سلطان * وقال آخرون بل سلم جماعة منهم ولد له لبروه على
 طباع أهل البادية فلم يعش ومات وهذه هي الحقيقة بلا مرأى وكان قربه منهم باعنا لهم
 على التمرد والشقاوة فأذلوا أهل الشرقية وتطاوت أيديهم الى سلب أموالهم ونهب
 زروعهم ومواشيهم فلم يكن الرجل من أصحاب الزرع ليأمن على ماله ولا على عرضه ولم
 يقفوا عند هذا الحد بل ضربوا على أصحاب الزروعات المغارم والكلف الفادحة من
 مال وغلال فاذا تعذر جمعها عاثوا في البلاد وأهلكوا الحرث والنسل وكان عباس باشا
 يدفع بهم كل قليل من الزمان الى قتال عربان البصرة ليلهم الى عمه الامير محمد سعيد
 ثم لم يلبث على موالاتهم طويلا حتى عاد فغدر بهم وأهلك كبارهم وشرذ نساءهم ونهب
 زروعاتهم على بدى رستم بيك مدير الشرقية فلم تقم لهم بعد ذلك قاعة * وأبطل في يوم

واحد جميع معامل الفطن والكان والاقشة والاجواخ والحريير والمقصبات التي
أنشأها جده محمد علي باشا وشرّد من كان بها من الصناع والعمال ۞ قال بعض
الكتاب ۞ وقد تم ذلك باغراء من الجنرال ميرى فنصل جنرال الانجليز فكان فعله
هذا من أشدّ الفعّال المحرّقة لقلوب أهل البلاد فقد كانت هذه المعامل على ضخامة آلائها
وقلة معدّاتها والاعتماد في حركتها على الدواب لعدم ظهور استعمال البخار يومئذ وتعدّر
وصولها الى حد الكمال التي هي عليه المعامل اليوم كافلة باحتياجات البلاد وقد أحيت
من الصنائع ما أمّانته الايام وأذهب به جور الحكام وأعادت لمصر بعض رونقها القديم
وسهلت على أهل البلاد سبل النكسب والتعليم فعاش في ظلها العدد العديد وترامت آمالهم
فيها الى المرمى البعيد ولوبقيت الى يومنا هذا لكان لها من الشهرة ما يغني البلاد عن كثير
من المصنوعات الاجنبية على اختلافها وأمست وهي مهبط الرزق للصانع فيها والمتجر في
مصنوعاتها ولكنها أصبحت فلم تكن شيئاً مذكورا

ولما كانت سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية تقدم اليه فنصل جنرال الانجليز
في تحجير الطريق من باب الحسينية الى مدينة السويس تسهيلا لنقل السّواح من الانجليز
الذين كانوا يأتون من السويس على عجالات كانت تجرها الخيل فرسم بذلك وقيد بعض التّرك
بهذا العمل فأغشوا في الجور وابتداء خلق الله حتى أعوّه في عهد قريب ۞ وعمر في سنة ست
وستين مسجد السيدة سكينة وعمل على الضريح مقصورة من النحاس الاجر وجدد كذلك
جامع العشماوى بشارع العشماوى بالازبكية فأعجب ذلك أهل القاهرة ومصر واستحسنوه
منه وتقدم اليه الجنرال ميرى فنصل الانجليز في انشاء خط حديدى أيضا بين الاسكندرية
والقاهرة وسلك تلغرافى كذلك وألح عليه وكرر الطلب لتسهيل المواصلات بين عاصمة
الانجليز وهندها وما زال به وهو يعميه بالامانى البعيدة حتى رسم بانشاءهما فكان مذكور
الخط في تاسع عشرى ذى الحجة سنة سبع وستين ومائتين وألف هجرية ۞ ووجت أمه فخرجت
من القاهرة في كبكبة عظيمة وسارت مع ركب الحج وأمام هودجها الجنيد وخلفه الخدم
والحشم والغلمان والاتباع فلما دخلت المدينة أنفقت وفرقت من الغلال شيئا كثيرا وفعلت
كذلك بمكة وغيرهما وعادت الى القاهرة فأولم لها الولائم العظيمة وأطعم وكسى أولاد
المكاتب والايّام وتصدق على بعض المساجد وأضرحة الاولياء وأقام المقرئين والفقهاء
يتلون القرآن في دارها أياما وزارها جميع الامراء والكبراء وأصحاب البيوتات العالية
من النساء وقدموا لها الهدايا والتعابى النفيسة

وكان كثير النساء عن مستقبل الامور ثابت الاعتقاد في صحة الكهانة والعرافة
والزّيرجات فأدنى منه جماعة من أصحابها وقربهم وسألهم عما يكون في أيامه من الحوادث
والكوائن وما سيقع اليه من خير أو شر فأبهموا عليه الأمر فهددهم فقالوا انا نخاف
عليك من رجل طويل القامة أسمر اللون في شكل كذا وكذا قبل فاضطرب وزاد

خوفه من جميع الناس وأمر بالدجالين وأصحاب الزابرجات فجمعوهم وأقصوهم الى أعلى السنار والدارفور فتطاوت عند ذلك أيدي أعوانه الى خيار الناس من كل ملة فكان صاحب الوجاهة لا يشعر الا وقد كبس داره جماعة من الترك فيحملونه مقبدا بالحديد الى حيث لا يدري ويرجعون فيبحثون عما في داره من كتب وأوراق ويأخذون كل ما وصلت اليه أيديهم من حلى ومتاع فكثير لذلك أصحاب السعاية واشتد الخوف بالناس فانكسروا وقل اجتماعهم وأوجس كل من صاحبه بل ومن خادمه أو خادمتة اذ كان من المحتم على كل خادم أن يبلغ شيخه في كل يوم أخبار بيت سيده من قيل وقال وما دخل اليه من ما كول ومشروب وملبوس وغير ذلك فلا يشعر صاحب البيت الا وهو بين يدي صاحب الشرطة يسأله عما قاله في ليلته أو فعله في صباح يومه فإذا أنكر أنى اليه بألف دليل من أسرار بيته وعورات أهله وولده فكان اذا أغضب المخدم خادمه أو أغلظ عليه في القول وشئ به عند صاحب الشرطة فتكون عليه الطامة الكبرى * وكان يحب اقتناء المعزى والنعاج وكبار الكباش للضاربة والحمام والسباع والفيلة والضباع وجياد الخيل وكان شديد العناية بها ينفق عليها أموالا كثيرة ويرسل خواصه للاتيان بها من أقاصى البلاد كالهند والعراق واليمن ونجد وبغداد وكان شديد البغض للنصرانية ناقما على النصارى لاسيما منهم أهل البلاد فأخرج الكثير منهم من خدمة الدولة ومنع من استخدامهم وبالف في تذليلهم وأتى للباشرين منهم بطائفة من الاحداث الاغرار وأبناء المكاتب فجعلهم في وظائفهم وألزمهم بتعليمهم وتدريبهم وضرب لهم أجلا فاختل نظام المصالح الديوانية وتطرق الفساد الى جميع الاعمال وكسدت حرفة القلم وتحقرت * قيل واشتد به البغض للنصارى حتى دبر أمر اخراجهم من وطنهم وتبعيدهم الى أقاصى السودان وأرسل الى الاستاذ الشيخ الباجورى شيخ الاسلام يومئذ يسأله في ذلك فلما جلس الشيخ قال له أسألك أمرا لا تنكفه على قال وما هو يا أمير قال انى أقصد تبعيد النصارى كافة من بلادى ومقر حكومتى الى أقصى السودان وقد دبرت لذلك تدبيرا فلما قولك قيل فقطب الشيخ وجهه وقال أى النصارى تعنى يا أميران كنت تعنى الذميين الذين هم أهل البلاد وأصحابها فالجد لله لم يطرأ على ذمة الاسلام طارئ ولم يستول عليها خلل حتى تغدر بمن هم في ذمته الى اليوم الآخر وان كنت تعنى النصارى الفرنجة النازلين في بلادك فانى أخاف اذا فعلت بهم شرا أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسييس * قيل فغضب عباس باشا ونادى خذوه عنى فقام الشيخ وهو يقول اى ويعلم الله اى ويعلم الله * وكان اذا أبغض أحد من بطانته آخر أيا كانت درجته قال له ان فلانا (يريد خصمه) فيه شئ من الاوصاف التى قال عنها فلان صاحب الزابرجة وفلان صاحب تحت الرمل فلا يشعر ذلك المبعوض الا وقد دخل عليه طائفة من الترك فيأخذونه الى حيث لا يعود فكان الرجل أية كانت وجاهته يقضى بياض يومه في حساب ما سيكون في سواد ليله فكان اذا غضب على أحد غضب

الناس كافة عليه فلا يقترب منه الرفيق ولا يكلمه الصديق خوفا من العيون فاشتد الخوف بالناس الى حد القنوط والياس

قال أحد كتاب الاخبار فجردوا للعداوة وابتهلوا الى الله وتوجهوا اليه بقلوبهم واتفق انه خرج من القاهرة في شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية ونزل بقصره بينها العسل على النيل كعادته وهو قصر قد أنشأه على مقربة من تل تريب قيل موضع قصر المقوفس عظيم قبطة مصر وأقام به أياما مع بطائنه وكثير من الخدم والحشم والاتباع وطائفة من الغلمان فلما كانت ليلة ثامن عشر شوال من السنة تأمر أولئك الغلمان على قتله فدبروا الامر وأحكموا التدبير ونوى قتله أربعة منهم وقيل ستة والاول أصبح فقاموا عليه وهو بفراشه فقتلوه وخرجوا من ساعتهم يوهمون أنهم انما خرجوا يريدون القاهرة لأمير أشار به عباس باشا وتركوه وباب حجرته مغلق عليه فطلع النهار وارتفع وصار الظهر قريبا ولم يدر أحد بما جرى عليه واتفق أن مر في ذلك اليوم بينها أحمد باشا يكن يريد بالذهاب الى اقطاعاته بالمنصورة فلما علم بوجود عباس باشا بقصره نزل للسلام عليه وطلع الى الديوان وسأل عنه فقبل له انه نائم فلبث ينتظره ساعة حتى أذن الظهر ثم قرب العصر ولم يظهر خبر فأوجس أحمد باشا خوفا وقال دلوني على حجرته فومه فدلوه عليها فطرق بابها فلم يجبه أحد فتابع الطريق ثم أمر فكسروا الباب ودخلوا فاذا هو ملقى على فراشه فأمر من كان معه بكتمان الخبر واستدعى كبير الخصال وقال له الباشا يأمر بذهاب جميع النساء الى القاهرة في هذه الساعة فترزوا ونزل رجال ديوانه الخاص وجميع الخدم والحشم والاتباع وجاعة الغلمان وأبقى معه جماعة وألبس عباس باشا ثيابه وأعد عربته ولم يعلم بالخبر الا القليل فلما أذنت العشاء أنزلوه من حجرته جلا على الايدي وأجلسوه في عربته كأن به مرضا وجلس معه أحمد باشا وساروا الى القاهرة في الكبكية المعتادة وأنزلوه بمقره بالحليمة وأصبحوا وقد شاع الخبر بموته وتناقله الناس فلم يصدقوه وكان عمه الامير محمد سعيد بالاسكندرية محجورا عليه فوردت عليه في صباح ذلك اليوم رسائل التهانى وأرسلوا اليه يستقدمونه وتشاغل الناس عن جنازة عباس باشا حتى المقربون اليه والعائشون في نعمته وأبطؤا في دفنه فلم تخرج جنازته الا بعد الظهر وكان اليوم شديد القىظ فسارت جنازته في نفر من خواصه وبعض الجنود ومرت من الغورية فالتحاسين والناس في دهشة لا يصدقون بموته ثم طيروا الخبر الى محمد سعيد باشا واستقدموه ليولوه الولاية فرحل عن الاسكندرية يريد القاهرة فكانت ولاية عباس باشا زهاء خمس سنوات رحمه الله

(مطلب)

ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد علي باشا الكبير لما ورد الخبر الى الامير محمد سعيد باشا بموت عباس باشا قيل انه اندهى وكاد أن

لا يصدقه لولا ترادف رسائل التهاني عليه من كل فج وصوب تجمع اليه قناصل الدول
وسار بهم من الاسكندرية يريد القاهرة فعلم في الطريق أن أنى باشا أحد أخصاء عباس
باشا تعاهد مع أمير جنس قلعة الجبل على غلق أبواب القلعة ومنع سعيد باشا من دخولها
واستقدام الأمير الهامى ولد عباس باشا من الديار الاوروبوية وكان قد سافر اليها من أيام
وتحالفها على ذلك فلما دخل سعيد باشا القاهرة لاقاه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف
العالية والعلماء والمشايخ وساروا في ركابه الى قلعة الجبل ومعه قناصل الدول وبعض
كبار الاجانب ففتح لهم أمير جنسها الابواب وقابله الجنس بالسلام وانطلقت ألسنتهم بالدهاء
اليه ودقت البشائر وطبخوا الخبر بولايته الى الافاق ففرح الناس فرحا عظيما قبل فلم يرض على
أنى باشا بياض يومه ذلك حتى مات غما وقيل خوفا مما فعل فتولاها الأمير محمد سعيد باشا
ابن محمد على باشا في عشرين شوال سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وخمسين
وثمانمائة وألف ميلادية فلما استقرت به الولاية وجاءه فرمان السلطان أحسن التدبير وأحكم
السياسة ورتب أمور البلاد على ما فيه المصلحة لاهلها ورد جميع الاطيان التي كانت أعطيت
الى كبار المأمورين وأرباب الدولة على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الى أصحابها من
الفلاحين وأبطل الكثير من المكوس والمغارم والضرائب الفادحة وأزال البدع والمظالم
والاحداثات التي كادت تدمر البلاد منذ ولاية ابراهيم باشا ورتب الخراج ورفع المتأخرات
والبقايا من الاموال الاميرية عن الفلاحين ورد المتشردين منهم الى أوطانهم وأمن الطرق
وسهل سبل التجارة فراجت أسباب الزراعة واتسع نطاقها وعلت الاسعار فأثرى الفلاح
وحسن حاله واتسعت مادة رزقه فأسرف وبالع في السفه حتى لم يبق ولم يذر

وكان يحب الجنسية ويعجب بها جدا فبالغ في تنظيمها وأكثر عدد رجالها وألبسهم
الملابس الفاخرة وسلحهم بالاسلحة المتقنة وجع اليهم من أبناء جميع البلاد وأنشأ طائفة من
السود فكانت على أكل هيئة وأجمل نظام فكان اذا سار الى بلد سار جميع الجنود في
ركابه وخلفها المكاحل والمدافع ودواب الجمل كأنها زاحفة للحرب والقتال واذا عاد عادت على
هذه الصورة من الككبكية ونزلت بالخيام ظاهرا القاهرة ومصر القديمة أود خلت الى منازل
الجنس كقصر النيل وطرا والجيزة وغيرها فلم يستقر بها المقام حتى يأتيها الامر بالرحيل
الى مريوط أو أدفينة أو بنى سويف أو غيرها فكانوا دائما على قدم الاحبة والاستعداد
لاقتحامهم همة ولا تخمد لهم عزية وكان مع حبه للجنس وشدة تعلقه بهم شديد البطش
فناكبا من تقع منه صغيرة أو كبيرة من العسكر فكانوا كل حين عساكر الدنيا طاعة وخفة
ونظاما وملبسا ومأكلا ومشربا

وظهر في أيامه عصيان عربان منية ابن خصيب فركب عليهم بخيله ورجله وأعمل
فيهم القتل والتشريد قال بعض كتاب الاخبار وكان سبب خروجهم عن الطاعة أنه أراد
أن يأخذ منهم جماعة ليدخلهم في مصاف الجنس فيكون لهم مالهم وعليهم ما عليهم وأنفذ

مطلب
عصاة عربان منية
ابن خصيب وما جرى
لهم

الى مدير منية ابن خصيب باحصائهم فجمع المدير كبارهم وأصحاب الرأي منهم وكلهم في الامر فامتنعوا وقالوا لاسبيل الى ذلك ونحن وعيالنا متعهدون بخفر الدروب والجبال منذ ولاية محمد علي باشا الكبير الى هذا الحين فلا يصح ادخال أولادنا في مصاف العسكر وازهاب ما يديننا من الحقوق المعطاة لنا من ذلك العهد فراجعهم المدير في ذلك فامتنعوا فالح عليهم فنجأوا وخطبوه بفحش القول فأمر بهم فعوقبهم ورفع أمرهم الى محمد سعيد باشا فأغضبه ذلك فبسل وكان يبغضهم بغضا شديدا لميل عباس باشا اليهم وتحريرهم على قتال عربان أولاد علي نكايه سعيد باشا كما تقدم القول فأنفذ الى مدير منية ابن خصيب يقول لاسبيل الى غير ماسيرت به اليك فإياك والتقاعس واهمال هذا الامر فشدد المدير في الطلب وألح على أولئك المشايخ فطلبوا مهلة فأمهلهم وسرحهم وضرب لهم أجلا فصاروا وتحصنوا بالجبل الشرقى ولم يرجعوا اليه وجاء الخبر بذلك الى محمد سعيد باشا فكد بتميز غيظا ونادى في عسكره بالرحيل الى منية ابن خصيب وبني سويف فصاروا وركبوا على أولئك العربان وقتلهم أياما كثيرة فترفع العربان الى الجبل الشرقى وبعضهم الى الجبل الغربى فتبعهم الجند وأعملوا فيهم القتل فقتلوا منهم خلقا كثيرا وسبوا النساء والأولاد والبنات وأنوا بهم الى مدينة الفيوم وبني سويف فكانوا يعطونهم الى أصحاب البيوت كالاماء والعبيد وقبضوا على كبارهم وأصحاب الوجاهة منهم وأودعهم السجون وكان الجند اذا كبسوا حيا من أحياء أولئك القوم وجدوا البيوت قاعا مفضفا ليس فيها الا مائتة رجله وبخمس ثمنه فيأخذونه فاذا ابتعدوا عنها قليلا وجدوا الاطفال مطروحين مثقلين بالرمل كي لا يقدرّون على الزحف فيموتون حيث وضعهم أمهاتهم فكانوا يأتون بهم الى بني سويف والفيوم وغيرهما ويعطونهم الى أهل الخير فيكفلونهم وكان أولئك العربان على عهد عباس باشا واسعى الكلمة عظمى الصولة كبرى الاهابة فعاثوا في البلاد وأفسدوا وأهلكوا الحرث والنسل وأمر سعيد باشا فأعملوا فيهم القتل والشنق والتزيق بنيران المدافع وأباحهم لجميع المديرين لاسيما يعقوب بيك مدير بني سويف فأفحش في قتلهم وبالغ في البحث عنهم وتبعهم أينما ساروا وخرب منازلهم وشرد من بقي منهم الى أقاصى الشام والحجاز فاخفى من لم يتمكن من الفرار في القرى والكفور وتزايروا العامة والفلاحين وتكلم بكلامهم وترك ما يلزمه العرب في كلامهم من الترخيم وكسر آخر الكلام وقد كان الفقير منهم يأنف من مخالطة أهل البلاد ومكالتهم وبحسب ذلك عارا ومذلة فصار الكبير منهم لا يرى السلامة الا بالانجاء الى أصغر بيوت الفلاحين * واشتد الخوف بأهل الفساد واللصوص وقطاع الطريق فاخفوا فأمنت السبل وسلكت المسالك واشتدت بقظة أهل البلاد فأقاموا الخفراء على الحدود ورؤس الطرق والمسالك وارتفع الخوف عن الناس فكانت المرأة تأتي من مريوط الى أقاصى الصعيد الاعلى برا من غير رفيق فلا تجرد في طريقها من يعترضها في مالها أو عرضها أو يسألها من أين أو الى أين وكبرت هيبة سعيد باشا في أعين أهل البلاد كافة فانكفوا عن

ايذاء بعضهم وعكف كل على مهنته وحرفته وصنعتة فحسنت حالهم وكثرت أموالهم
وغزرت مادتهم وغت زروعاتهم ودرت الارزاق فأكلوا وشربوا وشبعوا ولبسوا ما لم يأكلوا
ولم يشربوا ولم يلبسوا في أيامهم الغارة * وقطر الى مستقبل موظفي الحكومة وأرباب
الدولة فرتب لهم قانونا كافلا لمعاشهم اذا تقاعدوا عن الخدمة ورسم في خامس ربيع
الثاني سنة احدى وسبعين بالعمل بمقتضى هذا القانون فكان من أكبر النعم وأجل
المرايا التي لا يعادلها شيء عند جميع موظفي الدولة وهو معمول به الى يومنا الذي نحن
فيه حتى أصدر اسمعيل باشا قانونه الجديد فنفذ حكمه على من كانت خدمته
في مصالح الدولة ودواوينها تالية لتاريخ صدور ذلك القانون * وأنشأ القلعة القائمة على
بناء القناطر الخيرية وسماها بالقلعة السعيدية ووضع أساسها بيده في ثالث عشرين
جادي الآخرة من السنة وبالغ في تنظيمها حتى جاءت من أحسن المباني وأتقنها
وقد زالت عما سنها وتشعث بعض بنائها فازا لها اليوم جماعة الانجليز ولم يبقوا منها حجرا
على حجر * ولما كان شهر رمضان من السنة ظهرت الهیضة بالقاهرة ومصر واشتدت
فكثر الموت في الناس كثرة بالغة ولبث الحال على ذلك أياما فبلغ عدد من أحصى ممن
مات نيفا وخمسة آلاف نسمة وأما من لم يحص فكثير ثم ارتفع واطمأنت القلوب وعاد من
هاجر من أهالي القاهرة ومصر فرارا من الموت * وأعاد سعيد باشا بعض ما أبطله عباس باشا
من المعامل والمدارس الملكية والعسكرية واستقدم العلامة رفاعة بيلك من منفاه بالديار
السودانية حيث كان أبعد عباس باشا لوشاية الواشين وسله مقابل ذلك المدارس فأفلحت
وتخرج منها الكثير من أبناء البلاد

وقدم في ولايته الشهير فرديناند دي لسبس الفرنسي الى القاهرة وكله في حفر خليج
يصل البحر الابيض بالبحر الأحمر مبتدئا من مدينة السويس الى ما يجاور الاشتوم المعروف
باشتوم الجبل على ساحل البحر الابيض المتوسط وألح على سعيد باشا في ذلك فاستكبر
سعيد باشا هذا العمل وعنده رابع المستحيلات وطاول دي لسبس ومناه فاشتدت عزيمة
دي لسبس وشدد في الطلب وأكثر التردد على مقر سعيد باشا وتواردت على سعيد باشا
الرسائل ترى بعضها طعنا في أعمال دي لسبس وبعضها استهزاء بمشروعه وسخرية به ﷺ قال
أحمد الكتاب وأكثرت دولة الانجليز من التنديد بهذا العمل الخطير واندفع أصحاب صحف
أخبارها يسبقون دي لسبس بالسنة حداد وبيالغون في الهجاء والسخرية فنهزم من سماء
سيزوستريس القرن التاسع عشر ومنهم من قال بل هو اسكندر المقدوني ابن قلس ومنهم
من قال هو عمرو بن العاص فاتح مصر الذين تقدموا في أيامهم الى ايبسال البحرين ببعضهما
ولم يبق لعلهم أثر على ما كان لهم من بعد الصيت واتساع الكلمة وتذليلهم للصعاب
ومع هذا كله لم ينثن لدى لسبس عزم ولم تغترله همة وثابر على اللحاح فوعده سعيد
باشا ومناه فرفع اليه في ثاني عشرين صفر سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية كتابا

يقول فيه

يامو لاي - اقد طالما اشتغل عظماء العالم باسمه لاسيما ملوك مصر الأولين بأمر
ايصال البحر الاحمر بالبحر الابيض المتوسط وقد أثبت التاريخ ما قيل عن سيزوستريس
فرعون مصر الشهير والاسكندر المقدوني وقصر ملك رومية وعمر بن العاص وبونا بارت
ووالدك محمد علي باشا أنهم قد بذلوا جهدهم في سبيل انجاز هذا المشروع الخطير
وقد تم لبعضهم ما أراد فأوصلوا البحرين ببعضهما بواسطة ترعة تمر بالنيل وبقيت هذه
الترعة مدة غير طويلة في منتصف القرن التاسع قبل الهجرة الحمديّة ثم علاها التراب
فطمها وامتنع جريان الماء بها فتعطلت وبطل نفعها ثم قام بعضهم بعيده ذلك وأعاد
هذا الاتصال فبقي زهاء أربعين سنة وخمس وأربعين سنة في أيام خلفاء الاسكندر
المقدوني على ديار مصر ولبت الحال على ذلك الى القرن الرابع قبل الهجرة الحمديّة
ثم علاها التراب وطمها حيناً حتى دخل عمرو بن العاص مصر بجيوش المسلمين فأخذ
باطراف هذا الامر العظيم ونهض الى استرجاع ذلك الاتصال ففاز ونجح وجرى الماء فيه
فعبّرت السفن مائة وثلاثين سنة واقام الفتن ونو الى البلبا والمحن علاه التراب فطم وامتنع
سير السفن منه

ولما دخل الشهير بونا بارت بجيوشه ديار مصر وشاهد بعين رأسه موقع ذلك الاتصال
ود لو استطاع ارجاعه فينال شهرة عظيمة لا يحصىها كروا الايام والسنين وعمد الى تشكيل عمدة
من كبار المهندسين وأماثل علماء الآثار وأتى بهم من الديار الاروباوية لينظر في انجاز هذه
الامنية وسألهم اذا كان في الامكان ارجاع ذلك الاتصال بشرط أن لا يمر بالنيل فأجابوه الى
ذلك ورفع الى مقامه أحدهم الموسيولوبير تقريراً عما ظهر لهم من البحث والتنقيب وما
يحتاجه هذا العمل الخطير من النفقة فلما اطلع عليه بونا بارت صاح قائلاً انه لعل يستحق
مزيد العناية والاهتمام ويجب على انجازها ولكن من أين لي النفقة الآن ويدي خالية
فعسى أن يأتي يوم تعود فيه السلطنة العثمانية الى سابق مجدها وغناها فتعيد ذلك الاتصال
فيخلد ذكرها على عمار الاعوام فما قد آن يامولاي الاوان وجاء اليوم الذي قال عنه الشهير
بونا بارت نعم ان العمل خطير ولكن انجازه سيكون داعياً الى ظهور شأن السلطنة العثمانية
ورفعة كلمتها واتساع شهرتها فتقطع ألسنة القائلين بقرب سقوطها وزوال مجدها ويرجعون
فيعلمون أنها ما برحت صاحبة الكلمة المسموعة والقول الذي لا يرد ويخلد لها الذكر الحسن
في بطون التواريخ الجامعة لحوادث المدينة والعمران ولا خفاء أن اجتماع دول أوروبا
على الذب عن الاستانة وحفظها مقراً للسلطنة العثمانية والذود عن دمارها ورغبتها في بقاء
السلطنة المشار اليها زاهية زاهرة موفقة معزة قوية على خصومها وقيامها لنصرتها عند
أى حادث بالنفس والنفيس وركوبها على عدوها لقتاله وارجاعه الى الطاعة والخلاود الى
السكون انما هذا كله نظراً لما لبوغاز السويس من خطارة المركز وأهمية الموقع الذي

يفصل ما بين البحرين وحذرا من وضع يد احدهن عليه فتصبح هي المالكلة المتسلطة على بقية الديار فتنتقض المساواة وتختل الموازنة المنفق عليها بين الدول الغربية التي بهم العالم بأسره حفظها بين الدول الكبرى * ولم يدرى اذا كان البوغاز المذكور هو سبب تكاثف سائر الدول على معاونة السلطنة العثمانية والاهتمام بأمرها فكيف بها لو جعلت مصر مركز العالم بأسره ومحط رحال التجارة وطريق العالمين الغربي والشرقي بالجمع بين البحرين فلا بد وأن يزداد شأنها علوا وقدرها خطارة ومقامها أهمية لدى أهل السياسة إذ تصح مفااتيح العالم بأسره في يدها ولا خوف عليها فانه متى تم حفر ذلك الاتصال قام جميع الدول بجعله حرا مباحا للجميع سواء وجعلته تحت رعاية الدولة العلية دون سواها اذ هي صاحبة الدار * وقد كان الموسيوي لو يبر من نحو الحسين سنة قدر عدد الفعلة اللازمين للعمل في الاتصال المذكور بعشرة آلاف وضرب لهم أجلا لانجازه زهاء أربع سنين وقوم ما يحتاجه من النفقة بقيمة ثلاثين أو أربعين مليوناً من الفرنكات وقال انه يمكن انصال البحرين بواسطة ترعة على خط مستقيم وأما الموسيوي طلابوت الذي سبق انتدابه لهذا الغرض ضمن الثلاثة المهندسين المشهورين الذين سيرت بهم الجمعية الفرنسية التي تأسست بفرانسا من نحو العشرين سنين للنظر في هذا الموضوع فقد تراءى له جعل الترعة المذكورة واصلة من مدينة السويس الى الاسكندرية بحيث تمر بالنيل على القناطر الخيرية وقدر للنفقة على هذا العمل مائة وثلاثين أو مائة وأربعين مليوناً من الفرنكات ونحو عشرين مليوناً أخرى لعمل ميناء ورصيف بمدينة السويس وأما لبنان بيلك الموظف بخدمة الحكومة المصرية الموكول لعهدته منذ ثلاثين سنة حفر الترعة وتقوية الجسور ونحوه فقد اشتغل بأمر البحث عن إعادة الاتصال المذكور بحثا مدققا مع ما هو عليه من الدراية والخبرة المشهود له بهما في جميع الدول فترأى له صلاحية مد ترعة بحيث تمر ببجيرة التماسح وان يعمل بالبجيرة المذكورة ميناء ترسى فيها السفن الآتية من بيلوز التي هي آتية الى البحر الأحمر أو من السويس الى البحر الأبيض المتوسط وكذلك العلامة الشهير كاليس بيلك مهندس الحصون والقلاع المصرية على عهد المرحوم أيمنك قد كان رفع الى أبيك رحمه الله مشروع حفر ذلك الاتصال على شكل خط مستقيم وعمل له رسما عن ذلك بقلم العلامة لبنان بيلك المشار اليه وموجيل بيلك مهندس أشغال القناطر الخيرية والبكارى والجسور المصرية وما من هؤلاء الا وكان يطنب لوالدك المبرور في مدح هذا العمل وما ينجم عنه من الفوائد الجمة وفوق ذلك فانه في سنة أربعين وثمانمائة وألف ميلادية استدعى الكونت دي الوسكي الذي كان وقتئذ نزيل الديار المصرية الموسيوي كاليس الموصى اليه وكله في أمر هذا الاتصال فرفع اليه كاليس تقريراً بما يراه ولكن قد حالت يومئذ دون انجاز هذا المشروع موانع لا وجود لها اليوم

ولما كان من الواجب علينا أن ندقق البحث ونمغن النظر مع التأمل في جميع آراء

أولئك العلماء الأفاضل والمهندسين الأماثل مع مراعاة أن هذا المشروع المهم قابل للإنجاز على أحسن حال وأتم منوال لزمنا أن نختار منها أسسها وأصوبها وأقواها بحجة وبرهاننا فنعمل به وليعلم مولاي حفظه الله أن الموانع والمراكب والعقبات التي طالما أقلقنا القديما وأضعفت عزائمهم وحالت بينهم وبين إنجاز هذا العمل الجليل قد زالت اليوم وهب أنها لم تزل باقية بعضها أو كلها فإن تحمل الصعاب مع الصبر والجلد في سبيل إنجاز هذا الأمر الخطير لهم من أوجب الواجب بل من أسمى المطالب بقي إذا علينا أن ننظر في أمر النفقة وهذه أيضا ليست بالأمر البعيد فإنه لا يصعب على أولى الحزم والعزم حل عقبتها على أحسن ما يرام إذ ستكون إرادات ذلك الاتصال أضعاف أضعاف ما سينفق عليه وعلى ذكر هذه المسئلة الثانوية فليسمح لي مولاي أدامه الله بأن آتي إليه بالبيان الآتي بعد فيتضح لسموه أن المصاريف التي يحتاجها عمل ذلك الاتصال لا تعد شيئا في جانب الفوائد المهمة والمنافع الجمة المترتبة على إعادته فضلا عن كونه سيقصر المسافة الواقعة ما بين الهند وآسية وبين أوروبا وأمريكا وهذا البيان قد سطره الاستاذ الشهير والجيولوجي الماهر الموسوي كورديه

الفرق بين الطريقين بالفرسخ	المسافة ما بين المين المذكورة إلى بومباي		أشهر مين أوروبا وأمريكا
	من طريق الاتصال الجديد	من المحيط الاطلانتى	
٤٣٠٠ بالفرسخ	١٨٠٠	٦١٠٠	قسنطينية
» ٣٧٧٨	٢٠٦٢	٥٨٠٠	مالطا
» ٣٦٢٠	٢٣٤٠	٥٩٦٠	زريستا
» ٣٢٧٦	٢٣٧٤	٥٦٥٠	مارسيليا
» ٢٩٧٦	٢٢٣٤	٥٢٠٠	كاديش
» ٢٨٥٠	٢٥٠٠	٥٣٥٠	يسيون
» ٢٨٥٠	٢٨٠٠	٥٦٥٠	بورديو
» ٢٩٧٦	٢٨٢٤	٥٨٠٠	هافر
» ٢٨٥٠	٣١٠٠	٥٩٥٠	لوندرا
» ٢٨٥٠	٣٠٥٠	٥٩٠٠	ليقربول
» ٢٨٥٠	٣١٠٠	٥٩٥٠	أمستردام
» ٢٨٥٠	٣٧٠٠	٦٥٥٠	سان بطرس برج
» ٢٤٣٩	٣٧٦١	٦٢٠٠	نيويورك
» ٢٧٢٦	٣٧٢٤	٦٤٥٠	نيويورك أورلانس

ولقد وافق على هذا التقدير سائر المهندسين وأجمعوا على دقة ضبطه وقرروا بانه بهم
 جددا سائر بلاد أوروبا وأمريكا والهند والعالم بأسره إعادة هذا الاتصال * وليعلم مولاي
 أن لا عمل في بلاده أكبر خطارة ولا أعظم فائدة ولا أجل شأنًا من هذا العمل العظيم
 فليعمل مولاي على ذكر اسمه في مصاف أولئك الذين تملكوا على ديار مصر وينجز هذا
 المشروع في أيامه فيزدان حكمه بما لم ينله غيره من قبل وتسعد الأمة المصرية
 فتعجب نحوها الابصار وتمد اليها الاعناق وينادي باسم مولاي في سائر أنحاء المعمورة ويخلد
 ذكره في بطون التواريخ وينال من الشهرة ورفعة القدر ما لم ينله الفراعنة الذين شادوا
 الاهرام والهياكل الضخمة التي لا فائدة فيها لتنوع الانساني كالفائدة المترتبة على إعادة
 ذلك الاتصال وانما هي مبان تدل على القسوة البشرية التي سخرت كل نوع لخدمتها
 واظهار مجدها * ومن فوائد هذا الاتصال العظيمة التي لا ينكرها مكابر تسهيل طريق
 الحج الى بيت الله الحرام وتعنى الناس بفن الملاحة وتسيير السفن واتقان السباحة في
 أرض البحار فيتسع نطاق التجارة وتنفتح أبواب الرزق على أهل البلاد المصرية ويعم نفع
 ذلك جميع البلاد الواقعة على ساحل الفلزم وخليج العجم وشرق أفريقيا ومملكة سيام وشنئين
 واليابان ومملكة الصين البالغ عدد سكانها رء أربعة مائة مليون فضلا عن جزائر فيلبين
 وأستراليا وجميع جزائر البحر الابيض المتوسط التي هاجر اليها الكثير من الاوروبايين
 فتجري المواصلات بينها جميعها وتسعد حالها

هذا ولقد ظهر من الاحصاءات المدققة أن ما تنقله السفن الاوروبوية في كل سنة
 عن طريق رأس الرجا الصالح ورأس هرون لا يقل عن الستة ملايين طونلاطة فاذا سارت
 هذه السفن بطريق خليج العجم وترعة السويس المراد انشاؤها زاد نقلها عن ذلك زيادة
 عظيمة وكان الدخل المتحصل منها زهاء المائة وخمسين مليوناً من الفرنكات باعتبار عشرة
 فرنكات عن كل طونلاطة وربما زاد الدخل عن ذلك كلما انتظم سير السفن بالترعة
 المذكورة وحسنت الملاحة فيها * ويجب مراعاة أن إعادة هذا الاتصال بين البحرين بهم
 جدادولة الانجليز التي هي سيده البحار وأغنى سائر العالم مالا وأكثرهم تجارة وأكبرهم رغبة
 في تقريب الاتصالات التجارية ولكن بعض أهل السياسة يقولون ان إعادة هذا الاتصال
 تضر جددا بمصالح الانجليز وتحط بها لانها تقرب العالم بعضه الى بعض وتوسع نطاق ملاحنة
 جميع الدول على أن الانجليز لا يحبون تقدم غيرهم في شئ من ذلك البتة ويميلون الى
 أن يروا أنفسهم السابقين في كل شئ والراغبين لكل شئ ولذا أصبح هذا البحث الدقيق
 الشغل الشاغل لكثير من أهل السياسة وكان من أكبر الاسباب الباعثة على تأجيل
 المشروع في هذا العمل الجليل ولولا تأمل أصحاب هذا الرأي فيما جاء في المعاهدات التي
 أبرمت بين دول فرنسا وانجلترا والباب العالي في هذا الشأن لتحققوا أن الامر على غير
 ما ينوهمون وعلموا أن دولة انجلترا تملك أهم وأعظم بوزارات العالم بأسره مثل جبل طارق

ومالطا وجزائر الارخبيل وعدن وغير ذلك في الهند وسنجاپور وأستراليا فلا يضر بشئ من مصالحها ارجاع ذلك الاتصال فإذا سمح مولاي بالأخذ باطراف هذا العمل لا يسع دولتي الفرنسيين والانجليز الا الاذعان والموافقة على حفر مستطيل لا يتجاوز طوله ثلاثين فرسخا ولعمري الحق من ينظر الى شكل هذا المستطيل على خريطة نظرة التأمل ولا يهيم شوقا الى رؤياه برزخا يجمع مابين البحرين أما ممد خط حديدي من مدينة الاسكندرية الى مدينة السويدس كما تمت ذلك الدولة الانجليزية وسعت جهد الاستطاعة وراء الحصول عليه فهذا لا يأتي بالفائدة المطلوبة الا اذا كان المراد منه مساعدة الملاحة في الاتصال المذكور

واذا نظرنا الى دولة النمسا فلا نراها تبدي اعتراضا على هذا العمل لانها أباحت حرية الملاحة في نهر الدانوب والسو بليانا فلا سبيل لها الى غير الاذعان والقبول وكذلك دولة المجر لا ترى في هذا العمل سوى زيادة أهمية ميناء تريستا والبندقية وجعلهما من أهم مين العالم التجارية فتم به السعادة والرفاهية أهل بلادها ويتسع عندها نطاق التجارة والصناعة فلا تجد بدا من معاونتنا وهي على أتم ما يكون من حسن الرضا والقبول * وان قيل ان دولة روسيا لا ترضى عن ذلك العمل قلت هذا لا يكون لانها تود ظهوره وهي الآن في غناء عن أن تعارضنا لا سيما وجلالة فيصرها قد فاز بكل ما تافت اليه نفسه فافسح لكل بلاد دخلت في دائرة حكومته طرق التمدن والعمران فإذا تم عمل هذا الاتصال كان له نور على نور فينفذ قومه الى أقاصي الهند بأصناف المتاجر والبضائع فتفتح لهم أبواب الرزق وتسهل أحوالهم وكذلك تزداد العلائق يوما عن يوم بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الهند والصين وتزداد مواصلات اسبانيا مع جزائر الفلبينين وهولاندا مع جافا والصومال وبرنيو ودولة ايطاليا الشهيرة قديما مع اليونان وبالأجمال يسر العالم بأسره سرورا عظيما يوم يعم خبر الشروع في هذا العمل العظيم * واني أعيد مولاي حرسه الله بأني سأبذل جهد المجتهد في الحصول على معاونة جميع هذه الدول وأقوم خير قيام بوفاء وعدي والسلام

فاسمحسن سعيد باشا هذا المشروع وأحله محل القبول وبعد التأمل والبحث الطويل أجاب الموسميودي اسبس الى الأخذ في أسباب عمل الاتصال المذكور وأنفذ اليه اجازة تتضمن اثنتي عشرة مادة بصورة العمل وما يحتاجه من العمال وما يتبع في حق الاراضى الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور وكيفية المساهمة والمشاركة في الاموال اللازمة للنفقة والارباح الناتجة من الملاحة فيه وفي تسمية شركة لذلك وتعيين عدد المساهمين وغير ذلك من الشروط والالتزامات التي يستلزمها هذا العمل العظيم * ولما كان لا يتأتى الجزم بالمشروع في هذا العمل عقب اعطاء هذه الاجازة للموسميودي اسبس الا من بعد تخاطرة دار السلطنة العثمانية في ذلك والحصول على رخصة البراعة السلطانية أو عز سعيد باشا

الى الموسيوى لسبس بالشخص الى دار السلطنة ليخبر صدر الدولة في هذا الأمر
فسار اليها فكان بينهما وبين الصدر الاعظم أخذ ورداً أياماً كثيرة وورد مرسوم الصدر
الاعظم الى سعيد باشا باستحسان المشروع وحلوله محل القبول لدى أمير المؤمنين ولزوم
التأني والاعتروي فيه قبل انفاذه وأنه صار من ذلك اليوم موضوع نظر رجال الدولة ومبحث
أرباب الحل والعقد وأنه قد تصرح للموسيوى لسبس بالشخص الى حيث شاء حتى
يأتيه أمر السلطان

وجاء المسيوى لسبس الى القاهرة غير قانط ولا ضعيف الأمل ولبت بها أياماً يغدو ويروح
على مقر سعيد باشا ثم سار الى بلاد الفرنسيين ليعدّ المعدات ويجمع المال للنفقة فكثرت
تحدث كبار الدول في هذا الأمر واندفعت أصحاب صحف أخبارهم تبدي وتعبد كل حسب
مناخه عليه أهواؤه وما يلائم مصلحة بلاده ووقف الرشاة على باب السلطان يدسون الدسائس
ويحركون مافي صدور أهل الحل والعقد ويعملون على ابطال هذا المشروع فلم يكن بأسرع
من أن عاد دي لسبس ومعه جماعات المهندسين والرسم والبنائين والغواصين وصناع
الآلات ومعلمي طبقات الأرض والمعادن وتسرعوا في العمل فرسم محمد سعيد باشا في سادس
عشر ذي القعدة سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية بتسخير زهاء عشرين ألفاً من
أهل البلاد بالمناوبة في حفر ذلك الاتصال ووكل مديري الجهات بجمعهم وتسييرهم فكانت
شدة عظمة للغاية ونال مشايخ القرى والبلاد من أهلها فأذلّوهم وتكهن العدو من عدوه
وشمت الغريم بغريمه وكادت تتعطل أسباب الفلاحة اذ هاجر الكثير من أهل البلاد
ونزحوا من أوطانهم فراراً من هذه المحنة الكبرى * وسار دي لسبس في العمل سيرا حثيثاً غير
مبال بعدم رضا السلطان ولا هياب من العاقبة وفرق العمال على طول خط الاتصال
من بيالوز على البحر الأبيض التي على أرضها الآن مدينة بورسعيد الى مدينة
السويس فتبعهم البياعون على اختلافهم وأصحاب القهاوى والحانات وأهل الخلاعة
والقصص فجمرت تلك الاصقاع وصارت أهلة باخلاط الناس من الروم والترك والفرنجة
والمصريين وغيرهم ممن جاء من البلاد البعيدة في طلب الرزق واهتم رجال الدولة باستتباب
الامن في تلك الانحاء فرتبوا لها العسس والشرطة لا ينكفون عن النطواف ليلاً ولا نهاراً
وقام سعيد باشا بجميع تعهداته التي تعهد بها الى دي لسبس مادياً وأدبياً فأندش
العالم بأسره وكان من وراء ذلك ما سيتلى عليك في محله ان شاء الله

وبينما كانت الاحوال على ما يرام والقلوب مطمئنة والفتنة راقدة اذ جاء الخبر بنزح
نجاشي الحبشة على بعض الاملاك المصرية الواقعة على الحدود وشنه الغارة عليها وأنه نهب
أهلها وساق مواشهم وأسرمهم خلقاً فهاهنا سعيد باشا هذا الامر وأرجمه بخند جندا عظيماً
لقتال النجاشي وعزم على لقائه وكان الى هذا الحين لم يرتق كبير ولس بطرك المتأصلين
مسند البطريركية بل كان مطراناً ووكيلاً للدار البطريركية بعد موت بطرس البطرك وكان

بين كيرولس ونجاشي الحبشة مودة وصحبة قديمة على عهد بطرس فانه كان سفيرا من قبل
بطرس الى النجاشي وقد نزل في جواره أياما كثيرة * والنجاشي يحلون بطارقة القبط
ويخضعون لسلطتهم الدينية خضوعا عظيما ويعتقدون أن البطرك انما هو أقرب جميع
المخلوقات الى نوع الملائكة والارواح العلوية من أنواع البشر ولذلك لا يقربون من
مقامه ولا ينظرون اليه فاذا نظروا اضطاروا فبطرف خاشع مطرق * وبعد أن نأهب سعيد باشا
للسير للاقاء النجاشي عاد فحسب ما وراء هذه الحلة فخاف العاقبة ونظهر أن ماء النيل آخذ
في الهبوط في غير أوانه فخاف الناس وترامت ظنونهم الى المرحى البعيد فسلط سعيد باشا في
الامر مسلك الثاني وشاور أصحاب الفكر فاشاروا بانفاذ رسل الى النجاشي يكون كيرولس
مطران المتأصلين صاحب الكلمة بينهم فأعجب سعيد باشا رأيهم وكام كيرولس في الامر
فأجابه الى ذلك فرسم سعيد باشا خهزوا له باخرة من بواخر النيل فركبها مع رجال الوفد
وترفعوا نحو الصعيد الأعلى فكانت اذا هرت باخرتهم باحدى المديريات أطلقوا لها المدافع
اجلالا وتعظيما وأنزلوا فيها أصناف المأكول والمشروب ثم ركبوا الهجن والجمال حتى
بلغوا حدود الحبشة وعلم النجاشي بقدوم كيرولس ومن معه فخف للقاءهم وسار اليهم في
أربعين ألفا من الجند فلما اقترب من المحلة التي كانوا بها ترجل وسعى على أقدامه حاصر
الرأس فقام كيرولس للقاءه فقبل النجاشي يديه وقبل كيرولس رأسه وسار معه والجند حوله
حتى دخل مجدة تحت الملك يومئذ وشاع خبر مجيء كيرولس في جميع أرض الحبشة ففرحوا
فرحا عظيما ودقت البشائر وأقيمت الصلاة في جميع الكنائس وبالغ النجاشي في اكرامه وقد
كان يتمنى لو أنه يراه كي يمسحه مديكا على جميع ملوك الحبشة كما كانت تسمع أبناء بني
اسرائيل ملوكهم حسب ناموس موسى عليه السلام وكان الى هذا الحين لم يعتبر النجاشي
نفسه مديكا على سائر ملوك الحبشة اذ هو لم يمسح بتلك المسحة فلم يستقر بكيرولس المقام
حتى سأله النجاشي أن يمسحه فأجابه الى ذلك وضرب له أجلا فوفدت جميع ملوك الحبشة
والأمراء وسائر قواد الجند والوجهاء والاعيان من أقاصي الحبشة الى مجدة وأقيمت الولائم
والافراح في كل صوب وحشد أياما ثم مسح بين الملوك والأمراء وقواد الجند وصفوف
العسكر والعدد العديد من أهل البلاد وفرح ثيودوروس النجاشي بذلك فرحا لا يوصف
وكان في مجدة نفر من لانجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالانجيل لبث
تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشي بعمل المدافع وصنع الاسلحة
لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال اليهم وأحبهم وأباح لهم التجول في جوف
البلاد جلولها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وبشوا تعاليمهم حتى كادت تم تقاليدهم جميع
البلاد وأصبحوا وقد عبثوا بطقوس الكنيسة القبطية التي هي أم الكنيسة الحبشية فكبر
هذا الامر على مطران الحبشة وخشى العاقبة فهدى الى ايقاف هؤلاء المرسلين عند حدودهم فلم

بفلح وقد كبر شأنهم واتسعت كلمتهم واشتدت الوحشة بينهم وبينه فلما جاء كيرولس
شكى اليه المطران مما تلاقيه الكنيسة من أولئك القوم وسأله أن يتقدم الى النجاشي في
تبعيدهم عسى أن تزول من البلاد تقاليدهم فأجابه كيرولس الى ذلك ولما تمت الافراح
بمسخ النجاشي ورجع من حضر من الملوك والامراء والقواد والجند الى أوطانهم كلم كيرولس
النجاشي في سبب قدومه عليه من مصر وسأله أن يرده ما أخذه من بلاد مصر وأن يقطع عما
يفعله في الحدود منعاً لقيام الحرب بين الحبشة ومصر وحقناً للدماء التي حرم الله سفكها
فأذن النجاشي وأجابه الى كل ما طلبه ورسم فكتبوا الى سعيد باشا يعلمونه بقبول ما طلبه
كيرولس بغير شرط ولا تقييد ففرح كيرولس بذلك وكله أيضاً في أمر المرسلين الانجليز
وزين له تسييرهم الى أوطانهم فقال انماهم عندي لعمل المدافع وتدريب عسكري على القتال
فقال كيرولس لم يبق موجب لبقائهم وقد زال ولله المنة والحمد ما كان بينك وبين والي
مصر من الوحشة والنفور فان كنت في حاجة الى صناعات آلات الحرب أو الى من يدرب
عسكريك أثبت لك من مصر من لا تحتاج معهم الى غيرهم فقال النجاشي هذا ما أبتغيه ثم
رسم باخراج من كان في البلاد من جماعة الانجليز فأخرجوهم وقد علموا بالسبب فشق
عليهم الأمر جداً واستعظموه وصمموا على الانتقام

وكتب كيرولس الى سعيد باشا يعلمه بما جرى وبسأله أن يسير اليه بطائفة من الصناع
والمعلمين وعلم قنصل جنرال الانجليز بمصر بالخبر فبعد الى الاخذ بالثار والانتقام من كيرولس
جزاء ما فعله يجماعة المرسلين فدخل على سعيد باشا بمقره وقال قد علمت أن كيرولس
مطران القبط سأل مولاي أن يبعث الى نجاشي الحبشة ببعض صناعات آلات الحرب ومعلمي
الجند فقال قد كان ذلك قال ولا أظن أن مولاي يجهل أن عند القبط كتاباً يعتقدون
صحته ما فيه وهو يدلهم على زحف الحبشة على أرض مصر في يوم معلوم عندهم فيأخذونها
عنوة قال لا أعلم لي بذلك ولعله حديث خرافة فقال القنصل هو كذلك ولكنني أتقدم الى
مولاي في أن يأخذ حذره من كيرولس فانه داهية طاغية قوى المراس بعيد الفكر محتمل
قال الراوى لهذا الحديث وما زال بسعيد باشا حتى تمكنت منه الظنون وترامت الى المرمى
البعيد وجمع اليه رجال ديوانه وأهل الدولة وشاورهم في الأمر فأشاروا بالقتال واعداد الجند
والعسكر فرسم بالتأهب والاستعداد وكتب الى كيرولس يعيب عليه ما فعله ويقول قد أفرطت
وتجاوزت حد المصالحة فبجل بالحضور * وقام في جيش عظيم قاصدا الخرطوم فوصلها في
سادس عشرى جادى الاولى سنة ثلاث وسبعين وما تثنى وألف هجرية * قال الراوى فلما
تمت حيلة الانجليز بقيام سعيد باشا بعسكره الى حدود الحبشان دسوا الى النجاشي من أعلاه
بأن قدوم كيرولس الى بلادك انما هو لمنعك من اعداد جندك وآلات حربك لتذهب عن
ملككتك من افارة والى مصر وقد أتى الى السود ان ليركب عليك بخيله ورجله فيأخذ ملكك
ويذهب سلطانك وأنت آمن مطمئن وقد سبر اليك أيضاً مع كيرولس كساء مسمم النسيج

حتى اذا لبسته تسمم جسده ومات من يومك وكان مع ما أتى به كيرولس من الهدايا والتحف النفيسة والتعالي الثمينة برنس من الجوخ الاحمر المزركش بطراز الذهب والفضة والحرير الملون فهال النجاشي هذا الامر وأزعجه جدا وأنذ من يستكشف له خبر مجيء سعيد باشا الى انطوطوم فجاءه الخبر بوصول جيش عظيم من المصريين فكبر خوفه وتبدلت أفراحه أتراحا وأمر بكيرولس فسجنوه في مقره وأحاط به الحراس من الجند ومنعوا من الدخول عنده ووكّل به جماعة من خواصه يراقبونه في الليل والنهار لمعرفة أحواله واستطلاع أسرارهم ووكّل جماعة آخرين بطعامه وشرابه وضيق عليه وشدد وكيرولس لا يعلم بالخبر ولا يدري ما هذا الامر ثم لم يلبث أن نادى في عسكره بالخروج وكثرت المنادة في كل يوم فخرجت طوائف الجند مشاة وركبانا فكانت شيا كئيبا للغاية وصاروا على قدم الرحيل الى حيث يلتقون بالعسكرو * ورأى النجاشي أنه اذا ترك كيرولس معتقلا وسار بعسكره للقتال تمكن كيرولس من الخروج فيمسخ أحد بيت الملك أو أحد كبار قواد الجند ملكا فتذهب سلطته وتسقط بيعته وتخرج عليه الملوك والقواد فيصبح بين منتطح عزيزين فعزم على أن لا يتركه فكان اذا سار من بلد الى آخر ساقه معه في حلقة من الحراس ونفر من الخواص واذا نزل بعسكره للراحة استدعاه وجعل يؤنبه ويعنفه بفحش الكلام ويقول أو هذه فعالك يا امام النصرانية فشق هذا الامر على كيرولس وأحزنه جدا وأخذ في التدبير فكان كلما كلفوا الملك في أمره زاد غضبا وغيظا فلبث كيرولس على هذه الحال من الشدة أياما طويلا الى أن تمكن من لقاء أم الملك وكانت تفية صاحبة دين وورع فشكى اليها ما يلاقيه من ولدها وقص عليها خبره واستجار بها وسألها أن تعلم ولدها بحقيقة الحال فاجابته الى ذلك وكلمت النجاشي واستخلفتها أن يجمع اليه رجال دولته ويشاورهم في أمر كيرولس فلم يربدا من طاعتها وجمع كبار قومه ورجال دولته وقص عليهم ما علمه من أمر قدوم كيرولس الى البلاد ثم أمر بحضوره فاستحضر فسئل عن سبب حضور سعيد باشا الى انطوطوم بعسكره وسبب وضع الكساء المسمم بين الهدايا التي قدمها الى الملك فوقف بين أيديهم والدمع ينحدر على خيمته وبالغ في بيان الحقائق وأكثر من مدح سعيد باشا وبالغ في اخلاصه وولائه للنجاشي وجميع قومه وما زال يستميل القلوب بحسن ابداعه حتى بش الملك وزال عنه بعض الغضب فقال كيرولس وأما الكساء فهو هدية الباشا اليك أيها الملك العظيم فلا تأخذك ريب في أمره ولا تصدق ما أخبرك به الوشاة وما أنا الا أخلص الناس في الأمانة وأقرب الى طاعة الله فلا آخذ بالوجوه ولا أبيع الآجلة بالعاجلة فان كنت في ريب من أمر هذا الكساء فأذن لي حتى ألبسه ما شئت من الأيام فيتحقق لك الأمر فاستحسن الملك مقالته وأمر بالكساء فأثوا به وألبسوه اياه على لجه ووكّل به من يحرسه يومين كاملين فلم يصبه ضرر فاستغرب الملك من ذلك وأمر بجيء برجل محكوم عليه بالموت فألبسوه الكساء ووكّل به

من بحرسه ثلاثة أيام فلم يصعبه شئ البتة فالتفت الملك الى قومه وقال ماذا تقولون قالوا هي فرية ما أنزل الله بها من سلطان وقد أسأنا الى كيرولس فلم يجعلنا في حل مما وقع فقال بقى علينا أن نسأله ارجاع سعيد باشا الى مقره فان فعل شكرناه وكنا له من المحسنين ثم أرسل الى كيرولس فدخل عليه فأجله وأجلسه بجانبه فقال هل لك أن تكتب الى سعيد باشا بالانحدار بعسكره الى تحت بلادده ويكفيها وياه شر القتل فان فعلت ذلك شكرناك واستغفرنا عما ساف قال سأفعل الساعة ان شاء الله وكتب من فوره الى سعيد باشا يعلمه بما جرى ويسأله الانصراف عن الخرطوم تتيما لقاعدة الصلح التي تفررت مع النجاشي وسير بالكتاب مع تفر من كبار الحبشان فلما ورد الكتاب على سعيد باشا رحل بعسكره عن الخرطوم وكتب الى كيرولس * قد رحلنا عن الخرطوم الى القاهرة فبلغوا عنا الملك خالص المودة وأعلموه أنا ما زلنا على حسن الولاة والمحبة * فعاد الرسل بالجواب ففرح كيرولس فرحا لا يوصف وقام ودخل على الملك فلاقاه الملك وهو حاسر الرأس حافى الاقدام وانكب على يديه يقبلهما فقبل كيرولس رأسه وساحبه وأمر الملك فدقت البشائر وأقيمت الافراح وأولت الولاة ونودي في العسكر بانظروا فخرجوا أفواجا ومروا بالمكان الذي كان به كيرولس والنجاشي وصاحوا بأصوات التهليل وأمر النجاشي فجيء اليه بورقة العهد الذي رسم بعقدته مع سعيد باشا فوقع عليها وهو بين كبار قومه ورجل دولته وأرسلت والدة النجاشي الى كيرولس هدية نفيسة للغاية وكذلك الامراء وكبار القواد وزاروه وقبلوا أقدامه وتزاجت على بابيه أقدام المهشين وأتوا اليه من كل صوب وحذب ثم استأذن الملك في الشخصوس الى مصر بجهازه بمال وأرسل معه كثيرا من الهدايا النفيسة وسير معه وزيرا من كبار وزرائه وكابا الى سعيد باشا فلما وصل كيرولس الى الاسكندرية قوبل بغاية الاحتفاء والاحتفال وأنزلوا وزير النجاشي بدار الضيافة الخاصة وقد رفع الى سعيد باشا كتاب الملك والعهد والهدايا ولبت أياما كثيرة ثم يرفها سعيد باشا غير المرة الاولى ثم استأذن بالانصراف فأذن له وأرسل معه بعض الهدايا والتحف وجوابا الى الملك

وأحسن كيرولس بعيد رحيل وزير النجاشي بغيظ محمد سعيد باشا منه واعراضه عنه فكبر عليه ذلك وتردد على مقر سعيد باشا لعله يعرف شيا من الامر فلم يتمكن فصمم على العزلة حتى تنجلي الحقيقة ويظهر الصدق لذي عينين * واتفق بعد أيام أن خرج كيرولس الى دير انطونيوس بالجبل الشرق ومعه بطركا الروم والأرمن الاورثوذكس ليقضوا فيه أياما ترويحيا للنفس فلما وصلوا بلدة بوش على مقربة من بنى سويف نزلوا بعزبة الرهبان أياما حتى تأتى القافلة فيخرجوا معها * قال الراوى لهذا الحديث * وعلم فنصل الانجليز بخبر قيامهم ونزولهم بعزبة الرهبان ببوش فسار الى مقر سعيد باشا ودس اليه بأن كيرولس انما ذهب الى الدير عن معه من البطارقة للتحالف وتجديد العهد على وحدة الطوائف الاورثوذكسية بمصر وجعل كيرولس بطركا عليهم ووضع الكنيسة

القطبية تحت حاية دولة الروس فإذا تم له ذلك أصبح مسند الولاية المصرية على شفا
جرف تحيط به الاخطار من كل جانب * قيل فأنذهل سعيد باشا من فعال كيرولس وأنفذ
الى مدير بنى سويف يقول * سر الى كيرولس بطرك القبط وقل له أن يأتي الينا عاجلا
فانا فى حاجة الى حضوره فصار اليه بعزبة بوش وأبلغه الرسالة فقال انى ذاهب مع رفاقي
الى الدير بالجبل الشرقى فاذا عدنا ان شاء الله ذهبت اليه وعملت بين يديه فقال المدير
اكتب بذلك فأخذ كيرولس ورقة وكتب مقالته هذه فبعث بها المدير الى سعيد باشا
فاستند غبطه ثم كان من خبر كيرولس وما جرى له بعيد ذلك ما سيذكر فى محله ان شاء
الله تعالى

ولم تكن تشغل محمد سعيد باشا عند ما نزل على الخراطوم الحرب المنتظر وقوعها بينه
وبين نجاشى الحبشة عن النظر فى شؤون الرعية واصلاح ما أفسدته أيدي الحكام والعمال
من أمور البلاد وتخفيف الضرائب وابطال بعض المكوس فأنفذ الى جميع عماله على
السودان فى سلخ جادى الثانية سنة ثلاث وسبعين مرسوما يقول فيه * ليس منكم من
يجهل ما ألقى به من التعب فى سبيل احياء ما ندرس من معالم المدنية وال عمران و اراد
كافة صنوف الرعية موارد العز والرفاهية وقطع شأفة الظلم والاستعباد ومع ذلك فالى لما
قدمت الى هذه الاصقاع شاهدت بعينى رأسى ما يلقى به أهلها من الضنك والفاقة
وسمعت باذننى صوت أنينهم من أجال الضرائب التى أثقلت كاهل الغنى منهم فضلا عن
الفقر وفداحة الخراج المضروب على سقاياتهم وأطيانهم وتسخيرهم فى كثير من الاعمال
التي لا قدرة لهم على القيام بها والانتجار فى أولادهم وبناتهم كالسلة فى الاسواق فكان
ذلك مما أحزن قلبي وبلبل فكبرى لاسيما وقد علمت بأنهم أخذوا يهاجرون من أوطانهم
الى أقاصى البلاد هربا من هذه الكوارث والحن المستراكم بعضها فوق بعض فلذلك قد
عقدت النية على جعل الخراج قدرا يناسب حالة البلاد وأهلها وعلى أن أبذل جهد
المجتهد فى اصلاح أحوالهم وترتيب أمورهم على ما فيه الصالح لهم ولذريتهم من بعدهم فلما
نزلت على بربرجعت المشايخ وجميع من جاء للاقائى من أهل البلاد على اختلاف مراتبهم
وسألهم أن يؤمروا عليهم أميرا يختارونه من بينهم ممن يستبشرون بامارته ويتوسمون فيه
الخير للبلاد وتحصل على يديه السكينة والخلود الى الطاعة وأن يقدروا مبلغ الخراج الذى
يسهل عليهم القيام به بلا كلفة ولا مشقة ففرحوا بذلك وطلبوا أن يربط على كل سقاية
خراجا قدره مائتان وخسون قرشا فى كل سنة فلم يعجبني ذلك منهم لكثرة مع حاجة البلاد
الى التخفيف فرسمت بأن لا يزيد خراج كل سقاية عن مائة وخمسين قرشا وخراج كل فدان
من أرض الجزائر خمسة وعشرون قرشا أما أراضى العلوف عشرون قرشا لا غير فكان
لهذا العمل أحسن وقع فى قلوب سائر الرعية وفرحوا فرحا لا يوصف وأخلدوا الى السكون
والطاعة وهنا بعضهم بعضا وأرسلوا يستقدمون من هاجر منهم ونزل الاوطان

ولما وصلت الى الخرطوم جاني اولئك المشايخ والاعيان فأحسن لقاءهم وأكرمهم
مشاؤهم وطيبت خواطرهم مما لم يسبق له مثيل عليكم تفتشون بي واني لم أفلدكم
المناصب الا لتكونوا عونى على استتباب الأمن واصلاح أمور الرعية فأياكم والعسف
والجور ولا تجبوا الخراج الا في الاوقات المناسبة واعقدوا لتقرير قاعدة ذلك جمعية في
الثلاثة شهور التي لازرع ولا قلع فيها وقسموا الخراج على أقساط متساوية يسهل عليكم
جبايتها الى آخر كل سنة وكلفوا جماعة الأعيان بتقرير هذا العمل وكل ما وقع عليه الاتفاق
ارفعوه الى ثم أحصوا جميع المكشاف والجنسد الموكلين بجباية الخراج وأخلعوههم وقلدوا
مكانهم مشايخ البلاد فهم أولى بذلك وعافوهم في مقابلة هذه الخدمة برفع خراج سقاية في كل
خمس وعشرين سقاية هذا وحيث ان لأولئك المشايخ والاعيان بيوتا ينزل عليها كل طارق
وقاصد فارفعوا عن كل منهم خراج أربعة أفدنة في كل مائة فدان وإذا ابتاعت الحكومة
شيأ من أهالى البلاد لزمها أن تتقدمهم ثمنه حالا بزيادة اثنين في المائة عما تشتري به الاهالى
بعضها من البعض الآخر وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم شر الجزاء

وحيث يوجد في هذه البلاد من الاخشاب الصالحة للمعمار ومد السفن والحريق
وغیره شيأ كثيرا فاشتروا منه من الاهالى كل ما تيسر وشيروا به الى القاهرة وانقدوهم الثمن
مجلا وعلوهم الصنائع والفنون وانشاء المباني المنظمة والمساكن المشيدة وغرس الاشجار
بالشوارع والطرفات وإذا أعطيت أحدا أرضا للفلاحة من الأطيان المتروكة فأخبروا بذلك
المديرية التي أنتم في دائرة اختصاصها وإذا عاد من هاجر الى بلده وطلب رد أطيانه وكانت
ثابتة اليه وجب ردها اذا لم يمض على انسحابه خمس عشرة سنة وارفعوا عن الاهالى
جميع التأخرات لغاية سنة احدى وسبعين ومائتين وألف هجرية واعتبروا أن مساحة كل
فدان أربعائة قصبة وان كل قصبة ثلاثة أمتار فقط وإياكم والمخالفة فيكون جزاؤكم
شر الجزاء اه

فلما ذاع خبر هذا المنشور بين أهل السودان فرحوا فرحا عظيما وعاد منهم من هاجر
ورحل عن الاوطان بسبب تلك المغارم والمظالم المتراكمة بعضها فوق بعض وجاءت وفودهم
الى مقر سعيد باشا يقبلون أعنابه ويدعون له بخير ويعلمونه بانهم قد أصبحوا على قدم الطاعة
والخاود الى الدعاء بدوام ملكه وتأيد عرشه فأكرم لقاءهم وأحسن وفادتهم ووعدهم
بإنجاز كل ما يمتنون من الخير لبلادهم

وكان ميلا جدا الى مد الخطوط التلغرافية والحديدية من القاهرة الى قلب السودان
فلم تمكنه الأيام من ذلك ولكنه رسم بتسيير عدة من سفن البخار في النيل بين
الصعيدين فكانت من أكبر أسباب العمران وأدعى الى رحيل الكثير من الاجانب
الى تلك الاطراف * وكان سريع الخاطر قريب الغضب سريع الرضا برضى بالقليل
من كل شئ ولا يتطلع الى ما في أيدي الرعية ولم يظلم أحدا قط وكان اذا علم بظلامة

أحمد هاج وعاقب من تكب هذه الظلامة لاسيما منهم أرباب الدولة والحكام وكان بعيد التعصب لأحد الأديان لا يفرق بينهم ولا يفضل بعضهم على بعض فأحبته الرعية ومالت إليه جميع القلوب وكان لا يملك دارا لنفسه فان جميع ما ابتناه جعله ملكا للخزينة وسار في عشر رجب من القاهرة يريد الحجاز فوصل مدينة السويس في رابع عشره وركب من يومه الباخرة المسماة بنجد وزار الحرمين وتصدق في مكة والمدينة وأطعم وفرق أموالا كثيرة وقام من المدينة في سادس شعبان فوصل ينبع في ثالث عشره وسار منها الى مدينة السويس فوصلها في سابع عشر الشهر المذكور ففرح الناس بقدومه ودقت البشائر وزينوا له مصر والقاهرة ثلاث ليل فكانت كلها أفراحا * وكان بينه وبين نابليون امبراطور الفرنسيين محبة كبيرة وكانا على وفاق في كثير من الأمور فابغضه لذلك كبار سياسة الانجليز وعملوا على نكايته وتذليله * قال بعض الكتاب فندسوا الى السلطان أنه انما يسالم نابليون ليساعده على الاستقلال بملك البلاد والخروج عن تابعة دار السلطنة وكانت المملكة العثمانية يومئذ في غاية الارتباك والخيال لخروج الكثير من ايلاتها كالجيل الاسود والبوسنة والهرسك وغيرها عن الطاعة وطلب الاستقلال أو شبه الاستقلال مع تعرض الدول الكبرى الى جميع أمور السلطنة الداخلية ووقوفهن في سبيل اصلاح الاحوال وارجاع الامور الى سابق مجراها فكانت اذا عمدت الى اتحاد فتنة في احدى الايلات ظهرت ثورة في أخرى واذا تجسدت الى مقاومة طائفة قامت عليها أمة فكان كبار سياسة الدول يهتولون ويرمون السلطنة بالجور والعسف ويسمونهم بالغلظة والجفاء فسعت وبذلت المهج في سبيل اتحاد تلك الفتن وأجهدت نفسها ولم تتمكن من اعادة السكينة الى ربوع الهرسك وبوسنة واصلاح بعض أمورها حتى ظهرت الفتنة بجزيرة كريد واشتدت وعظم أمرها فقام من بها من المسلمين على النصارى واقتتل الفريقان قتال الاعداء وكادت تمتد نار الفتنة الى جميع البلاد فتدارك صدر الدولة يومئذ على باشا الامر بحكمة منه وخلع الى الجزيرة وأقام مكانه سامى باشا استرضاء لفريق النصارى فسكنت الفتنة وعادت الأمور الى ما كانت عليه وشدد الصدر الاعظم في مراقبة الاحوال واستطلاع الاخبار فلم يكن بأسرع من أن ظهرت الفتنة أيضا بمدينة جدة فقام من بها من المسلمين وركبوا على النصارى في ذى الحجة سنة خمس وسبعين وأعملوا فيهم القتل بحد السيف وجرحوا قنصل الفرنسيين وكان به بجراحة عظيمة وقتلوا زوجة القنصل وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فاهتم له الصدر الاعظم وفؤاد باشا ناظر الخارجية اهتماما عظيما وسرا في الحيل فريقا من الجند ومقدمه اسمعيل باشا وأباح له الصدر قصاص جميع أصحاب هذه الثورة بالقتل من غير معاودة فسار اسمعيل باشا فاصدا جدة فلم يبلغها حتى علمت الدول الكبرى بالامر فهاجت وماجت ونادت بالويل والحرب وأنفذت دولتا الفرنسيين والانجليز الى بعض سفن سرجهما بالشخص الى جدة ورميها بالقنابل تباعا حتى تذكها دكا وأعلتا

الباب العالي بذلك فراجعهما فلم يلتفتا لقوله * وكان لما وصل الخبر بما جرى في مدينة جدة الى عامل السلطان على مكة سار من فوره الى جدة وقبض على أصحاب الفتنة وزعماء الثورة وحكم على جماعة منهم بالقتل وعلى آخرين بالتباعد ورفع أمرهم الى دار السلطنة ولبث ينتظر الجواب فوصلت في هذه الاثناء إحدى سفن الحرب الانجليزية وعلم ربانها بما جرى فسير الى العامل على مكة يطلب التعجيل بقتل أصحاب الفتنة وضرب له أجلا أربعين ساعة فاعاد اليه الجواب لأعمل عملا حتى يأتي أمر السلطان فلما مضى الاجل المضروب أطلق ربان السفينة قنابل مدافعه على المدينة تباعا واشتد الرمي وتراسلت القنابل زهاء عشرين ساعة حتى كادت تدمرها ولا تبقي بها حجرا على حجر ومات تحت الردم خلق كثير وبينما القنابل تتساقط من كل صوب وحده اذ وصل اسمعيل باشا مبعوث السلطان ومعه طوائف الجند والعسكر العثماني فكلم ربان السفينة الانجليزية في الكف عن رمي القنابل فأجابه الى ذلك وأنزل من معه من العسكر وكذلك أنزل اسمعيل باشا عسكره الى البر ورسم بقتل أصحاب الفتنة وزعماء الثورة فعلقوهم على الاخشاب وبالغوا في التمثيل بهم فزال الفتنة ولم يبق لها أثر

وكانت هذه الدسائس وأشباهاها موجبة لطيرة السلطان وتخوفه من جميع عماله ورجال مملكته وتحذره عند كل حادث فلما أعلوه بخبر مسألة سعيد باشا ل نابوليون ودسوا اليه أنه انما ينودد الى نابوليون ليكون له عوناً على الخروج والاستقلال بملك مصر خشى العاقبة والبسلاذ باب الحرمين وطريق الحج الى بيت الله فبث العيون ليلوا اليه بالاخبار وما زال حتى تحقق أنها فرية طحاجة في النفس فأخلد الى السكينة مع التحذروالاتفات وما زالت الأمور بينهما على مايرام من التودد والصفاء حتى مرض السلطان ومات في سابع عشر ذي الحجة سنة سبع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانيائة وألف ميلادية فكانت سلطنته ثلاثا وعشرين سنة وستة أشهر وعمره أربعون سنة وأربعة عشر يوما

ومات في أيامه بطرس بطرك المتأصلين بعد أن أقام اثنتين وأربعين سنة وكان تقيا ورعا زاهدا منقشفا محبا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منكباً على المطالعة ولا يجلس الاعلى الارض ولا يلبس الا الصوف الخشن ولا ينام الا على حصير من القش بعيد الغضب اذا تكلم فغ التآدب والحشمة ولا ينظر الى وجهه سامعه وكان قد استقدمه ابراهيم باشا الى بيت المقدس على عهد حكمه على الشام فأكرم وفادته وأحسن لقاءه وبالغ في تعظيمه ثم أعاده الى القاهرة * قبل ولما احتضر سأله بعض كبار الامه عن خلفه في المنصب فرفع عينيه الى السماء لحظة ثم أطرق وقال داود رئيس عزبة بوش فاستقدموه عاجلا وكان قد كتب اليه قبل مرضه بأيام كثيرة أن احضر ولا تبطل فاني في حاجة اليك * وكان لا يتعرض الى أمر من أمور السياسة ولا يجتمع بأحد من ولاة الامور

وإذا سار في الطريق أرخى على وجهه لثاماً أسود * مات في ليلة الرابع عشر من جمادى الآخرة سنة ثمان وستين ومائتين وألف هجرية ولم يصل داود إلى القاهرة إلا في تاسع عشر رمضان من السنة أي بعد موت بطرس بشهرين وخمسة عشر يوماً فقد كان رسوله إلى الرسا على ملك ملوك الحبشة لفض الخلاف الذي كان بين الحبشة ودار البطركية بخصوص الدير المعروف بدير السلطان الكائن بأرض بيت المقدس * وتحرير الخبر أن للقبط بأرض بيت المقدس ديراً عظيماً يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة القيامة وكانت تأوى إليه جماعة من الحبشانيين المتوطنين ببيت المقدس كسائر الأعراب الذين لا مأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع بين بعض أولئك الحبشانيين وبين رهبان ذلك الدير شقاق أدى إلى الخصامة ثم إلى الملاكمة فلم يسع الرهبان إلا إخراج أولئك الحبشانيين خارج الدير المذكور وسد أبوابه في وجوههم فحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم إلى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضاً وكأنه قد كبر مصابهم على فنصل الإنجليز ببيت المقدس فتجرد للاخذ بناصرهم وبالغ في تعصيدهم لأمر لم تصل اليها معرفته فقام أولئك الحبشانيون يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا إن الذي أنشأه هو أحد ملوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منذ دخول النصرانية بأرض مصر وإنما السلطان للحبشانيين وقال القبط غير ذلك وإن الذي بناه هو الأسعد أحد عظماء القبط في خلافة محمد المهدي ثالث خلفاء بني العباس وقد كان الخليفة المشار إليه أحسن إلى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم بنيائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان إجلالاً للخليفة المهدي وتعظيماً واشتد الخلاف وتخرجت الأمور بين الفريقين فأوعز فنصل الإنجليز ببيت المقدس إلى جماعة الحبشانيين برفع ظلامتهم إلى دار السلطنة العثمانية فسار نفر منهم إلى القسطنطينية ووردت كتب التجاشي في ذلك إلى بطرس البطريرك فرسم بطرس إلى مطران بيت المقدس بفض هذا الخلاف بالتي هي أحسن فبذل المطران الجهد في إقناع جماعة الحبشانيين فلم يفلح واستفحل الأمر وتعدى الوثام وكبر التساهل على الفريقين وفنصل الإنجليز لا يقف عند حد فلما أعيا بطرس البطريرك الحال وخشى سوء المال استقدم داود رئيس عربة بوش التي هي مفتاح دير انطونيوس بالجبل الشرقي ورسم له بالذهاب إلى الحبشة سفيراً إلى الرسا على لفض الخلاف الواقع بسبب ذلك الدير وكان لداود المذكور أقبال وحسن سياسة فسار في نفر والتقى بالرسا على وكلمه في الأمر قال بعض الكتاب فلم يفلح لسعاية فنصل الإنجليز وطال مقامه على غير طائل فجاء إليه الطلب في أوائل ربيع الآخر سنة ثمان وستين فتقدم إلى التجاشي في ذلك فلم يأذن له وعوقبه أياماً آخر ثم سرحه فوصل القاهرة في تاسع عشر رمضان فكانت مدة إبعثه عند التجاشي سنة وبضعة أشهر وكان وصوله إلى القاهرة بعد موت بطرس كما تقدم القول فلا تاه الناس باحتفال عظيم للغاية ونزل بدار البطركية

ضييفا ولبث بها أياما على الرحب والسعة ثم اجتمع كبار الملة وأصحاب الرأي فيهم وتشاوروا في اقامة داود خلفا لبطرس فانفقت كلمتهم على ذلك وكان الامر يومئذ الى عباس باشا حلى والى الديار المصرية فاجتمع جماعة من كبار الملة ورفعوا الى عباس باشا رقعة بطلب اقامة داود مكان بطرس البطريرك * قال أحد كتاب الاخبار فطاولهم وسأل أصحاب الزايرجات عما يرونه في اقامة داود بطركا فأرجفوا وهولوا وقالوا نكده ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وعزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد في السؤال فلم يروا في حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عوفى وهو جاد شيخه فاستدعاه كتحدا الباشا وقال له أعلم جماعة القبط بأن لاسبيل الى ولاية داود منصب البطريركية فان أبوا الا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القسوم بما قاله كتحدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فذهب منهم من قال لانتخاب غير داود ومنهم من طالب الانبا يوساب أسقف انخيم وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الانبا اثنا سيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الخلاف وتفرقت الاهواء وكثر التعزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحال أياما وجاد أفندى يغدو ويروح على كتحدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم

فلما كادت الحزمة تنصرم ونار الوحشة بين الاحزاب تضطرم قام أنصار داود وبلحوا الى المستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الانجليزية واستجدوه فكلّم قنصل الانجليز فى ذلك والقنصل كلّم عباس باشا فطاوله فألح عليه فناء وطال الحال والناس يذهبون فى كل يوم الى بيت القنصل ويسألونه التعجيل * واتفق أن قدم فى هذه الاثناء رسول من قبل نجاشى الحبشة ومعه كنبر من التحف والهدايا النفيسة الى عباس باشا وشئ من الذهب والفضة والمرجان والدواب والوحوش البرية وكتاب من النجاشى لم يصل اليه علم مانبه فأنزله فى دار الضيافة فلم يمض على حضوره الا أيام حتى شاع الخبر بأن القبط جميعا كانوا على قدم الخروج وشق عصا الطاعة وأن داود انما سار الى النجاشى ليستجده وكثر تحدث الناس فى هذا الامر فلما كان فى أحد الايام جاء الى دار البطريركية رسول من قبل محافظ البلد ومعه جماعة من الكتاب والجند وجعلوا يسألون داود عن سبب ذهابه الى النجاشى وما كان بينه وبين النجاشى من القيل والقال وعما هى رسالة بطرس البطريرك الى النجاشى وطلوا على هذه الحال أياما ثم رسم عباس باشا بحمل داود الى مجلس الاحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس فى كل يوم المرة والمرة ويشددون عليه فى السؤال وهو مع ذلك ساكن القلب هادئ اللب لا ينطق عن الهوى فكبر أمره على عباس باشا وزادت كراهته للقبط فرسم باخراج جميع مباحثرى الدواوين من خدمة الدولة وكذلك سائر الكتاب فأخرجهم وأقصى أصحاب الوجاهة منهم الى سنار ودارفور وبالغ فى تذليل من لم يكن الاستغناء عنهم فكانوا لضيق الحال ونفاد ما بأيديهم يشترى المصالح الديوانية بالمناقصة وكثر

ذهب أنصار داود الى بيت المسترميرى قنصل جنرال الانجليز يستقرونه الى الاخذ
 بناصرهم وعباس باشا لايزداد الا ابناء وعنادا ثم سير كتحدا الباشا يوما في طلب جاد
 أفندى ورسموا له بأن يختاروا آخر غير داود خلفا لبطرس وأن يجعلوا في ذلك كي لا يبقى
 لوساطة القنصل محل فقام جاد أفندى واجتمع من ساعته بجميع الاساقفة وأخبرهم
 بما يريد كتحدا الباشا وقال لهم اختاروا واحدا من بينكم يكفينا مؤنة التطويل
 فاختلفت كلمتهم وتفرقت أغراضهم وذهب كل الى مذهبه ثم طال بينهم الكلام واشتد
 اللدد والخصام ففشا سرهم وانكشف خفي أمرهم وتفرقوا في ايلهم تلك على غير طائل
 وأصبحوا وقد اجتمعوا وبينهم جاد أفندى وتكلموا في الامر وبعد أخذ ورد اتفقت
 كلمتهم على مبايعة الانبا يوساب أسقف اخيم وكتبوا عهدا بذلك وتحالفوا على كتمان الخبر
 فلما كانت الليلة الاولى من رجب الفرد سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية اجتمع جميع
 الاساقفة بدار البطريركية فتبعتهم الغوغاء سرا ومعهم صاحبهم يوساب وجاد أفندى ونفروا
 من أقاربهم وأغلقوا الابواب وأقاموا الحجاب تحرسهم ورفعوا الصلاة وبنماتهم على هذه الحال
 اذ برز أعشى من عرفان المكاتب اسمه بنى وجعل يطوف في الازقة والحارات المجاورة لدار
 البطريركية وينادى بأعلى صوته هبوا يا قوم فقد قضى الامر اليوم يا قوم هاهم يبايعون
 الليلة انبا يوساب فان تغافلتم ندمتم وان نشطتم غنتم يا قوم قد قامت الصلاة قد قامت
 الصلاة بادروا قبل الفوات هذا كم الله هذا كم الله * وما زال يكرر النداء ويكثر من الصباح
 والتطواف حتى استيقظ الناس وهبوا من نومهم وهم لا يدرون ما الخبر وهرعوا الى دار
 البطريركية فتبعتهم الغوغاء واقتحموا الابواب وعلت الضوضاء وكثر الصياح وهب جماعة من
 الحبشان كانوا نياما بدار البطريركية وسألوا عن الخبر فزبنوا لهم اخراج الاساقفة من المسجد
 فذهب جماعة منهم وأتوا بالعصى والمساوق واقتحموا المكان الذي كان به جمع الاساقفة
 ورسول الباشا وهم لا يعرفون حقيقة الخبر فكسروا الابواب وفرقوا شمل جميع الحجاب
 وصاحوا في وجوه الاساقفة وأخرجوهم قسرا فعلت أصوات العامة وكثر الصياح ووقع بينهم
 الهرج وطلب العامة رسول الباشا فكان كمن غمس في الماء أو عرج به الى عنان السماء
 وظل جماعة الحبشان والناس يغدون ويروحون أمام دار البطريركية حتى مطلع الفجر
 فتفرقوا وانصرف جمعهم

وقد بدأ التعصب يدب في صدور الناس ولاحت لوائح الفتنة وظهرت علام اليأس فذهب
 قنصل الانجليز الى عباس باشا وأخبره بما جرى وبائع في الامر وهول في سوء العاقبة وأشار
 الى ماسيكون من وراء الاباء والمنع لخفاف عباس باشا ورسم بأقامة داود وكيلا لدار
 البطريركية فرضى القنصل ورضى سائر القبط بذلك وقالوا ان أول الغيث قطر فلما كان
 خامس عشر رجب من السنة سير الباشا مرسومه بذلك فأقاموا الصلاة سرا خوفا من قيام
 جماعة الحبشان اذ كانوا لا يحبون داود ولا يرضونه بطركا فلما كادت الصلاة تتم حتى برح

الخلفاء وشاع الخبر فاجتمع الحبشان بالمسجد فلقق بهم العامة وتبعهم أتباع المصلين واقفحوا الابواب وبأيديهم العصي والمساوق وصاحوا في وجوه المصلين وأكثروا من شتمهم وسبهم ثم تما سکوا بالاطواق ووقع الضرب والاکم وكثر الصياح وعلت الاصوات واشتدت الجلبة وتطايرت العمائم عن الرؤس وتكسرت مصابيح المسجد وأطفئت الشموع فهرب الاساقفة واختفى داود وأصحابه ففتش عليه الحبشان فلم يعثروا عليه فانكفوا وسكنت الفتنة وقد كان لا يظن أنها نسكن وأصبحوا وقد اتفقت كلمتهم على اقامة داود خلفا لبطرس فلما كان يوم الاحد التالي اجتمعوا بالكنيسة الكبرى وبايعوه جهارا وسموه كيرولسا وولوه مطرانا على كرسى مصر ووكيلا للكرسى البطريركي فلم يستقر به المنصب حتى قامت الفتنة ووقع الخلاف فتفرقت الكلمة ونحزبت الاحزاب وذهب كل الى مذهب في أمر كيرولس وكسرت الوحشة بينه وبين فريق منهم وقد كانوا هم مقدمي القوم وأصحاب الكلمة فيهم فخرجوا عليه في جميع تصرفاته ومنعوه من النظر في شؤون الدولة واشتدوا عليه شدة بالغة فكان اذا أراد النوم لا يجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا واذا جاع لا يطعم الا ما قدموه اليه واذا زاره أحد فلا يأذنون له بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألو جهدا في تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة وما زال حتى أفلح في ضم الكل الى الكل فصاروا على الخير أعوانا وفي ذات الله اخوانا وطرحوا عنهم الخلاف وعادوا الى الاستنجااد بقنصل جنرال الانجليز على تولية كيرولس منصب البطريركية فأجابهم الى ذلك وما زال بعباس باشا حتى رسم في سلخ شعبان من السنة أى سنة سبعين ومائتين وألف هجرية بولايته

فلما كان ناسع رمضان بايعه الاساقفة في أبهة زائدة وطبروا الخبر بذلك الى الآفاق وفرحوا بولايته ووفد عليه المهنؤون من كل صوب وحذب ولم يمض على ارتقائه منصب البطريركية أيام حتى مات عباس باشا فاعتقد الناس صحة ما قاله أصحاب الزايرجات وأحلوه محلا * ولما استقر بكير ولس المنصب جمع اليه القلوب المتنافرة واستمال الخواطر المتباعدة وأصلح ما أفسده التحاقد فمال الناس جميعا اليه وأخذوا بكلمته وساروا بمشورته فعمد الى اخراج سلبية قسماء المصريين من حضيض الجهالة ومهاوى الرذالة الى أوج المعارف والتمدن وصروح التعلم والتفكير فأنشأ لهم المدارس وأتى لها بكتاب الاساتذة والمعلمين من الفرنسيين والانجليز والايطاليين وعلماء العربية وأكثر لها من المعدات والادوات والكتب المرتبة وغير ذلك * وكان المشار اليهم في تعليم الاطفال يومئذ جماعة من العميان يعرفون باسم العرفان وكان لهم منزلة عظيمة بين الناس وحرمة واسعة وكلمة مسموعة فلما أحسوا بما فعله كيرولس أدركوا ما وراءه من الخبيثة وسد أبواب الرزق في وجوههم فتجردوا الى العداوة وإيقاظ الفتنة الراقدة وجعلوا يطوفون البيوت ويحضون آباء الاولاد وأمهاتهم على العصيان وشق عصا الطاعة ويقولون كيف تلقون اولادكم بأيديكم الى التهلكة وصاحبكم كيرولس قد عاقد الدولة على أن يجند لها من اولادكم ألولا لتدفع بهم الى حيث لا يعلم

الا الله وكان اذا وصل الى دار البطريكية شئ من الكتب أو معدات التعليم ولولوا وقالوا هذه البنادق وآلات الحرب وملابس الصيف وأحذية الشتاء تأتي على عجل وكان الناس كافة كما هو اليوم يكرهون الجندية ويخافون التجند خوفا ما عليه من مزيد فاعتقدوا صحة الخبر وأخذتهم الطيرة وكرهوا عمل كبرولس وتجردوا لمقاومته وجماعة العرفان لا ينكفون عن التطواف وحض الناس على مقاومته * أقول وقد كنت وانحوتى نتعلم العربية عند أحد أولئك العميان ولى من العمر يومئذ السابعة فينبأ نحن يوما نرقب حضوره كالعادة اذ أقبل بهرول فى ثيابه ويده على كتف أحد الصبيان فقننا اجلالا اليه وأقبلنا جميعا نقبل يديه بجلوس ثم أخذ يتمايل يتمايل الزق المفلوخ أو البقو المسلوخ وأخرج عليه السعوط خشا خياشبه حشوا حتى نأوه وعطس ثم مخط وسعل وتفل يئنة وبسرة وضرب الارض بعصاه فطار عثيرها وتساقط على رؤسنا تساقط المطر وصاح لاحول ولا قوة الا بالله ثم قال أف لكم وتعمسوا لوالديكم فلسوف تلقون غدا ما تلقون فقد استسلم آبائكم الى الترهات وزخرف القول فضلوا وألقوكم بأيديهم الى التهلكة فبئس المصير بئس المصير ثم عاد فحشا خياشبه بالسعوط وصاح اقرؤا ارفعوا أصواتكم ثم اشتد به السعال حتى كاد يغمى عليه فلما أفاق قال ها ها هيه اسمعنى صوتك * كرر لوجنتك * اسكت يا ابن النجار * اخسأ يا شقي * اخرس يا شيطان * لا تعض أذن أخيك يا ابن الصائغ قم وأفرغ مافى خياشيمك يا ابن يوسف صه يا أحذب يا أبا الراسين يا أبا ذباب وما زال على هذا الحال من النداء والصياح والجلبة والسب والشتم ونحن فى جلبة وضجيج حتى نعس ونام واشتد غطيطة ونحن كالحلقة حوله ندفع عنه الذباب ونطرد الكلاب الداخلة علينا من الباب فلما سكنت قلوبنا بنومنا أقبلنا على معلمنا الذى كان يكتب لنا الألواح ويضفر لنا زعف النخل فرأينا نجلس عليه فسانأناه عما أصاب العريف فى يومه فقال هو بخير وعافية ولكنه فى شاغل مما أتاه كبرولس البطريكة فانه على عزم أن يجمع جميع أبناء الملة ويضعهم فى دار أنشأها بالقبيلة وسماها (دار العلوم) وقد عين لدخول التلامذة فيها يوم كذا ونودى بذلك فى الناس اليوم بالكنيسة الكبرى فدعونا وهذا الكلام وارتفاع أصواتكم قبيل أن يرفع العريف رأسه فعلت الاصوات واشتدت الجلبة

وأحسن كبرولس بما وراء تطواف أولئك العميان من الفضل فاستعمل الحيلة وأحسن التدبير فجمعهم اليه وطيب خواطرهم وأناط بهم التعاليم الابتدائية وأفرهم على ما بأيديهم وأفرز لكل منهم محلا بدار المدرسة الكبرى ورتب لهم الجاكي والمرتبات وأخذ عليهم العهود ومهد لهم طريقا للتعليم وجعل لامتحان تلامذتهم أياما معدودة فى كل ستة شهور فن وجد منهم ناجبا ضم الى صفوف المدرسة فلم يعض على ذلك الا القليل حتى دخل من هؤلاء فى صفوف المدرسة نيف وتسعون تلميذا ومائة ممن كانوا خارجا وظهرت عليهم علامات النجابة ودلائل الفلاح فتكلموا بالانجليزية والافرنسية والابطالية والقبطية وجردوا

العربية وتعلموا منها النحو والصرف والبديع والبيان ونبغوا ونجحوا نجاحاً عظيماً ثم أنشأ بعيد ذلك مدرسة ثانية بالخطبة المعروفة بحجارة السقاين فكان شديد الولع بها وكان في نهاية كل سنة يولم الولاة العظيمة ويدعو كبار القوم والوجهاء والعلماء لامتحان التلامذة ثم يفرق الجوائز من نياشين الذهب والفضة ونفيس الكتب ويعد الموائد الفاخرة وكان اذا سمع من أحد التلامذة كلمة وأعجبه وضعها أو استكبرها على قائلها اصغره وعزم بلوغه حد النقد فرح به فرحاً عظيماً واستعادها مراراً وأخبر بها كل من يراه في يومه فيقول سمعت اليوم فلان بن فلان يقول كذا وكذا فسرني جداً ادراكه وتحقق لي نجاحه ان شاء الله • ووجه عنايته الى ترميم المعابد واعادة ما تخرب منها فأعادها الى ما كانت عليه وأنشأ بالخطبة المعروفة بحجارة السقاين كنيسة وقد كان الى ذلك الحين يصعب جداً انشاء الكنائس بمسكا بالعهد القديم والسنة المتبعة عند أولياء الأمور وأصحاب الكلمة من أمناء الدين وأنشأ أيضاً الكنيسة الكبرى بالقبطية على نظام أنهر الكنائس ولم يتم بناؤها وأنشأ داراً للطباعة وسمّاها باسمه وسلم أمر نديبرها لجامعة من أبناء المدارس فأحسنوه وأتقنوا صنعة الطباعة فطبعوا فيها كثيراً من الكتب الدينية وكتب التاريخ والآداب وجمع من خزائن الديارات والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها في دار مخصوصة قد أعدها لذلك وقد تبددت بموته ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتعريف فصنعوا ما فيها وضبطوا عباراتها فجاءت على أحسن ما يرام ورتب الطقس الاكبريكي وهذب الزى الشماسي فجاء حسناً مقبولا جارياً الى يومنا الذي نحن فيه وأحبنا اللغة القبطية بعد مواتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة الكبرى بلندن عاصمة الانجليز فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت الى آخر أيامه من أهم اللغات التي تتكلم بها أبناء المدارس وكان ميالا الى تعليم البنات وتهذيبهن الى حد يكن فيه معينات لازواجهن ومربيات الاولاد من فصادف من المقاومة في ذلك اشكالا ولكنه كان مع ذلك يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه ومات قبل أن ينال أربه من ذلك

ووقع بينه وبين محمد سعيد باشا من الوحشة والنفور بسبب مارماه به الانجليز من سعيه وراء الخروج عن طاعة الدولة وجعله الكنيسة القبطية تحت حماية الدولة الروسية كما تقدم بيان هذا كله في محله ما أوجب تخوفه وانكاشه وعدم اجتماعه بأحد من رجال الدولة وكأنه كان يخشى وقوع أمر يهدده ولكن

ولا يمنعك الطير شيئا أردته • فقد خط بالاقلام ما كنت لا قيا

وطالت أيام عزله ورسى القيصم تَعُودُهُ كل قليل ونخاره في أمر اتحاد الكنيستين القبطية والروسية وعندي أنها حقيقة لا يصح انكارها فقد كانت من أعظم رغائب كبرولس وهو أكثر الناس تعلقا بها وأشدّهم تمسكا بأهداها وقد بذل في الوصول اليها النفيس وتقرب ممن أشاروا عليه بذلك جهداً استطاعة واستمالهم فأعانوه وصار اتحاد

الكنيسة من أدنى من قاب قوسين بل أمرا مقضيا ۞ فلما كان في أحد الأيام جاء اليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه الى الديوان لأمر لا يتم الا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف عنه الرسول بالتي هي ۞ فعاد اليه ثانية وثالثة فلم يربدا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى شديدة فلأزم الفراش من ساعته واشتدت به الحمى شدة بالغة فالوا اليه بطبيب فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأت به حتى أتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ في علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات ليلة

ومائتين وألف هجرية أى سنة ثلاث وخسين وثمانمائة وألف ميلادية ودفن بترتبه التي ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى بالقبيلة ودفن معه حظ القبط جميعا وحظ بنهم من بعدهم وحن الناس عليه حزنا عظيما فكانت مدته خمس سنين الا أياما رحمه الله رحمة واسعة

۞ قلت وهو داود بن توماس بن بشوت بن داود ولد سنة خمس وعشرين ومائتين وألف هجرية بقرية اسمها نجع أبو زقالي من قسم صومعة شغلاق باقليم انجيم بصعيد مصر وأقام مع أبويه بهذه القرية الى أن ناهز الخامسة والعشرين وكان رحمه الله عفوا تقيا ورعا محبا للفقراء حسن النية سليم الطوية ميالا الى العزلة والانفراد شديد الرغبة في معرفة أخبار الصالحين مولعا بأهل العلم آوى اليه كثيرا من أهل الفضل من جماعة القسيسين والربان وانكب على تلقى العلوم الدينية ثم تأقت نفسه الى الرهبنة والتجهد وهم بالرحيل عن وطنه فنعته من ذلك أبواه ثم جعل يراقب الفرص حتى خرج هاربا في عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية الى دير أنطونيوس الاعلى بالجبل الشرقى ولبس مسح الرهبانية وأقام سبع سنين فكان محبوبا موقرا يشار اليه في المهمات ۞ فلما كانت سنة خمس وخسين ارتقى الى رتبة القسيسية فزادت منزلته وعلت كلمته ومالت اليه القلوب وأحبه الناس وفي سلخ جمادى الاولى من السنة المذكورة استقدمه بطرس البطرك وولاه الوكالة على الاحباس والاقواف فدير أمورها وأحسن تدبيرها وأكمل نظامها وعسرفه الناس فمالوا اليه وتقربوا منه فأروه شهما حازما واسع الدراية بقضا نشيطا وقورا حسن السياسة ميالا الى تعميم المعارف وتوسيع نطاق التمدن شديد الرغبة في احياء ما اندرس من معالم مدينة الامة القبطية والارتقاء بها الى درجات الرفعة والتقدم * وفي آخريات سنة خمس وخسين ومائتين وألف هجرية ولاه بطرس البطرك الرياسة على دير أنطونيوس الاعلى فأحسن التدبير ورتب الامور على أحسن ما يرام وشدد في ملازمة حدود الرهبانية فافقتن في أيامه جماعة الرهبان فتنة كبرى ولبثت أياما حتى تمكن من اخجاد ناراها وبقي رئيسا تسع سنين أولها سنة سبع وخسين وآخرها سنة ست وستين ثم استقدمه بطرس وسيربه الى الحبشة رسولا الى النجاشي كما تقدم القول

وكان رحمه الله عظيم الجهد يتظاهر بحسن الملبس وهو لا يلبس على جسده الا
أخشن الور يظهـر الاعتناء بعظائم الامور وهو غاية في العفة والنقشف حليم بعيد
الغضب شديد على جماعة الرهبان لا يبيح لهم ترك الجبل والاختلاط بالناس كريم النفس
أبها رزين خبير بالامور وبموته خلا الكرسي زهاء سبع سنين كان يدبر الامر فيها
مرقس مطران البصرة ثم قام بعده ديتريوس سنة سبعين ومائتين وألف هجرية أى سنة
أربع وخسين وثمانمائة وألف ميلادية وهو الحادى عشر بعد المائة واسمه مخائيل
وكان رئيسا على دير أبى مقار ووقع في أيامه من الحوادث ما سيذكر في محله
ان شاء الله تعالى

(الفصل الثالث والعشرون)

في خلافة السلطان عبدالعزیز بن السلطان محمود خان

ثم قام بالامر بعد موت السلطان عبد المجيد أخوه السلطان عبد العزيز خان بن
السلطان محمود خان بوبيع له بالملك يوم موت أخيه سابع عشر ذى الحجة سنة سبع وسبعين
ومائتين وألف هجرية أى سنة احدى وستين وثمانمائة وألف ميلادية وأنت بذلك الاخبار
الى القاهرة فزينت المدينة ودقت البشائر وخطب له على المنابر وضربت السكة باسمه وورد
الى محمد سعيد باشا فرمان الرضا فقرئ في ديوان الغورى بقلعة الجبل ولما استقرت به
السلطنة نظر الى امور الدولة من أبوابها وأجهـد النفس في ترتيبها وقد كانت الحروب
القائمة عليها أمحلتها وأذهبت رونقها وبهجتها حتى كاد العدو ينشب أنظفاره في جوفها فبالغ
في اصلاح ما أفسدته الايام وعزز جانبها وجند لها الجند الكثير وأنشأ هراكب الحرب
وسفن الطراد وحصن الحصون والقلاع بأنواع الاسلحة الثقيلة فعملت كلمته وكبرت في أعين
الخصوم هيئته وتقرّب منه الاسكندر الثانى قيصر الروس وتجبب اليه وسالته وأخذ بقوله
وعمل بمشورته حتى كاد يفضح ما كان بينهما من السر المكتوم وخاف الانجليز شر ذلك
وأحسوا بما وراءه من تنكيس أعلامهم في قلب آسية ودخل أبواب هندهم فبذلوا النفيس
وتقربوا الى مشايخ قبائل ذلك الصقع وأعملوا الدسائس في دار السلطنة ببذل المال واعطاء
العطايا العظيمة وما زالوا يملكون بانباء البلاد بمنة ويسرة حتى نالوا منهم وأسسوا عصابة باسم
تركية الفتاة وأمدوها بالمال فمئت وعظمت وكثر عددها وانضم اليها الكثير من فحول
الكتاب وأصحاب التحرير والخطباء والقوانين فكاتبوا وألفوا وصنفوا وقالوا في الخليفة
السلطان عبد العزيز ما قال مالك في النجر ورموه بالمرورق عن الدين ووسموا بموالاة الروس
أعداء المسلمين وأكثروا من التفريع والوقية بعلى باشا الصدر الاعظم وشيخ الاسلام وأهل
الحل والعقد من رجال الدولة وبلغت بهؤلاء القوم القمحة الى حد كانت رسائلهم المشحونة

بالسبب والشتم وخش الفول تلقى في مخادع الصدر الاعظم وشج الاسلام وقد وصلوا الى معرفة أخبار دار السلطان وأسرار كافة بيوت أهل الحل والعقد واشتدوا عليهم شدة بالغة وكان لهذه العصابة أصول وفروع بين عاصمة الفرنسيس وعاصمة الانجليز ودار السلطنة العثمانية فخافها السلطان وعمل على تنكيلها فلم ينجح له عمل ولم ينل منها أربا لاستفحال أمرها واتساع كتمانها حتى كان من أمرها بعد ذلك ما سيتلى عليك في محله * ولم يقع بين السلطان ومحمد سعيد باشا من المودة والاخلاص ما كان يظن وقوعه بعد موت السلطان عبد المجيد فقد كانت الوحشة لم نزل قائمة ما بين محمد سعيد باشا ورجال الدولة وأركان السلطنة لاسيما الصدر الاعظم على باشا فكان كل من الطرفين على حذر والتفات دائم وكان سعيد باشا أبعد جميع الولاة عن موالة السلطان وأقربهم الى بغض رجاله وأكبرهم حقدا وشماتا ومع ذلك لم يتمكن رجال الدولة من استغلاله ولا مؤاخذته بأمر من الامور السياسية لافي الداخل ولا في الخارج ولا هبت للفتنة بسبب ذلك نار في جميع أيامه لاشتغالهم عنه بالكثير من الكوائن والمحن الداخلية فكان في مأمن من كيدهم وفي حوز من شرهم يعطيهم من طرف اللسان حلوة * ومات في أيام محمد سعيد باشا الامير أحمد أكبر أولاد ابراهيم باشا بن محمد على باشا مات غريقا في النيل بين كفر الزيات وكفر العيس بأقليم الغربية في يوم عيد أضحى سنة ثمان وسبعين ومائتين وألف هجرية وذلك أنه لما كان سعيد باشا بالاسكندرية وقد دخل عيد الاضحى استقدم جميع أصحاب الوظائف العالية من المصريين والجنديين وعمد وأعيان سائر المدن وجميع الامراء من ذرية محمد على باشا لاجل تشريف العيد بمقره بالاسكندرية فعمل التشريف في ذلك على نسق لم يسبق له مثال ثم نزلوا يريدون الرجوع الى القاهرة وكان جسر كفر الزيات الحديدى الموصل لخط السكة الحديد بما بين الاسكندرية والقاهرة لم يتم بناؤه الى ذلك الحين وقد جعلوا لنقل عربات الركاب والبضائع والوابورات جسرا مفعوكا على ظهر سفينة تسير في النيل بالبضار فكان اذا وصل المسافرون الى كفر العيس من الاسكندرية وقف القطار هناك فيأتون بذلك الجسر ويوقفونه ملتصقا بصفة النيل ويدفعون على ظهره عددا معلوما من العربات ويقيمون عجلاتها بسلاسل الحديد فيسير بها الجسر ويعبر النيل عرضا الى أن يرسو ملتصقا بالجانب الثانى فيدفعون بما عليه من العربات عن فيها من المسافرين الى الخط الحديدى الموصل الى القاهرة أو بالعكس الى الاسكندرية وكان ممن ركب في قطار ذلك اليوم يريد الرجوع الى القاهرة الامير أحمد بن ابراهيم باشا والامير عبد الحليم بن محمد على باشا وبعض الباشاوات مثل آدم باشا وغيرهم ونزل أيضا الامير اسمعيل وأخوه الامير مصطفى فاضل أخوا الامير أحمد ولكنهما عادا فنزلا من القطار قبل أن يسير من الاسكندرية بايعاز من أحمد رجال ديوان سعيد باشا فلما وصل القطار الى كفر العيس ودفعوا بعدد من عربات المسافرين الى ظهر ذلك الجسر وقد كان في احداها الامير أحمد والامير عبد الحليم

وغيرهما من الباشاوات قيل انهم لم يقيدوا عجلات العربات كعادتهم بل وتركوها خالوا وأولوا
 بغيرها من خلفها فاطمت الأولى فحركت واندفعت الى الامام فسقطت جميعها في النيل
 وغرقت وكان الامير أحمد شابا جيلاقوى الجسم ضخما كبير البطن فلم يتمكن من الخلاص فمات
 غريقا أما الامير عبد الحليم فإنه لما سقطت العربية التي بنفسه من نافذتها الى البحر فعاونه
 بعض أصحاب السفن التي كانت هناك وأخرجوه حيا ومات أدهم باشا وجميع من كانوا
 بالعربية مع الامير أحمد فكان المنظر مروعا والمشهد محزنا وقد كثر صياح العامة وولولت النساء
 وانتشرت محالبك الامير أحمد وأتباعه على وجه الماء يطلبون جنته وأولوا بجماعة من صيادي
 السمك فألقوا شباكهم وما زالوا حتى عثروا عليها وأخرجوها وأخرجوا من عثروا به أيضا من
 بقية الاموات وجأؤا به الى القاهرة وغسلوه في بيته الذي بجانب القصر العالي ثم دفنوه في
 ثاني يوم في مشهد حافل للغاية وتحدث الناس كثيرا في أمر موته فقالوا انه أغرق بأمر من
 سعيد باشا كي لا يتولى ملك البلاد بعده لأمر نقمه عليه ولكي تنتقل الوراثة بموته الى أخيه
 الامير اسمعيل * قلت وقد حدثني أحد محالبك الامير أحمد قال جاء الامر من سعيد باشا
 الى مولاي الامير وهو بالقاهرة بشخصه الى الاسكندرية للحضور في تشريف عيد أضحي
 سنة ثمان وسبعين فقمنا في صبح يوم الوقفة بعرفات ووصلنا الى الاسكندرية قبل المساء بقليل
 وبقينا ليلتنا تلك والامير ساكن البالي رائق الحال وأصبحنا وقد دعاني فدخلت عليه فرأيت
 الدمع يذرف من عينيه فقلت أصلح الله حال مولاي ما بالله يبكي وقد كنا بالألمس على
 أحسن ما يكون من السرور وصفاء البالي قال رأيت البارحة في نومي كأنني وإياك على
 شرافة هذا المنزل نريد الاختفاء من وجه سعيد باشا وقد أرسل في طلبنا جماعة من العبيد
 السود فما وقع بصرهم علينا حتى هجموا على هجمة الاسود الضواري وأخذوا جميعا بيدي
 ورجلي وألقوا بي في تيسار النيل فتمت مذعورا من نومي وتعوذت بالله ونمت فجاءني هاتف
 يقول هلا أوصيت على العيال قلت ولما ذا قال قد أتت المنية فلا مفر فتمت مذعورا
 وتعوذت بالله ولبثت باهتا ساعة حتى غلب على النوم فتمت فاذا بشخص في زي الفقراء
 وعلى كتفه شبكة صياد قد اقترب مني وقال قم يا أحمد فقلت ومن أنت يرجئك الله قال
 رسول ملك الموت فتمت باكيا من ساعتى كما ترى * قال فقلت يا مولاي هذه أضغاث أحلام
 وقد أتعبك البارحة السفر فلا تظن الظنون الفاسدة وقم فقد حل وقت عمل التشريف
 فقام ولبس كسوة التشريف وركب وهو في قلبي واضطراب وركبت معه فكان كلما مررنا
 بقولق من قولقات العسكر قاموا اجسلا وتغظيما ونفخوا في البوق فيبكي ويذرف الدمع
 فلما انقضت ساعة التشريف قال لابد من السفر الساعة فقلت يا مولاي ارحم نفسك
 ودعنا نبيت الليلة هنا فعمال لابل نسير الى القاهرة عسى الله يفرج كربى فركبنا القطار
 وركب معنا جميع الامراء من ذرية محمد علي باشا فلم يكن بأسرع من أن دخل أحد
 رجال ديوان سعيد باشا وهمس في أذن الامير اسمعيل فالتفت الى أحد أتباعه وقال أنزلوا

متاعى فقد عدلت عن السفر فقال له أخوه الأمير مصطفى فاضل ان كان ولا بد من بقائك اليوم فاني مرافقك ونزلا معا وتركنا فسار بنا القطار حتى وصلنا الى كفر العيس وكان من أمر غرقنا ما سارت بذكره الركبان وعرفه القاصي والدان فآله الله ولا حول ولا قوة الا بالله اهـ

قلت ولم تطل ولاية سعيد باشا بعد هذا الحادث فانه مات سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية أى تاسع عشر يناير سنة ثلاث وستين وثمانمائة وألف ميلادية * قال بعض الكتاب من الغربيين لما ثقل المرض بسعيد باشا واشتدت علته وجاء خبر ذلك الى الأمير اسمعيل وهو بالقاهرة سبر الى الاسكندرية أحد المقربين اليه من جماعة الفرنسيين واسمه ديفيوليرسل اليه باخبار سعيد باشا في كل يوم ومنه بالاماني الكثيرة والعطاء الجزيل ان هو بعث اليه بخبر وفاته فلبث ديفيولير بالاسكندرية أياما يرسل فيها الاخبار الى الأمير اسمعيل باشا فلما كان صباح تاسع عشر يناير أرسل اليه يقول أعدوا البيت فقد عزم الساكن على الرحيل * يشير بذلك الى قرب مفارقة سعيد باشا لهذه الدار الدنيا وتأهب اسمعيل باشا للدخول فيها * فلما جاءه هذا الخبر فرح به كثيرا ولبث ينتظر ما سيكون من وراء ذلك حتى جاءه الخبر بموته فسير الى الاسكندرية من يجهزه ويدفنه هناك وكان جميع أرباب الديوان الخاص قد حضروا الى القاهرة ولم يبق منهم بالاسكندرية الا نفر قليل مع محمد شريف باشا الذي لم يفارقه طرفة عين قيل وكان سعيد باشا قد أوصى بان يدفنه في القاهرة وقيل في الاسكندرية فحزن عليه الناس كثيرا لاسيما أهل الاسكندرية وأقامت النساء عليه المناحات بشوارع المدينة فكان يوم دفنه يوما مشهودا وكانت ولايته زهاء تسع سنين وقيل ثمان سنين وتسعة أشهر وستة أيام وعمره اثنين وأربعين سنة رحمه الله تعالى برحمته الواسعة وأسكن روحه فردوس جناته

(مطلب)

ولاية اسمعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا

ببيع في اليوم الذي مات فيه محمد سعيد باشا وهو يوم السبت سادس عشرى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية الأمير اسمعيل باشا بن ابراهيم باشا بن محمد علي باشا بايعه في قلعة الجبل أرباب الدولة وأهل الحل والعقد والعلماء والوجهاء ودقت البشائر وطبخوا الخبر الى الآفاق وزينت جميع المدن والبنادير ثلاث ليال وأقيمت الافراح والولائم وبولغ في ذلك مبالغة زائدة جدا وفرقت والدته في ذلك اليوم من الهدايا والتعابى النفيسة الى أرباب الدولة والعلماء والمشايخ شيئا كثيرا وأقامت الادعية في المساجد أياما ورسمت بتزيم بعض أضرحة الاولياء والصالحين من مالها تفاقولا واستزادة للنعمة فلما استقرت به الولاية وجاء

فزمان السلطان عهد الى تغيير الكثير من عادات البلاد والاحداث المتبعة وتصرف في الامور ونظر في ترتيب موارد الإيرادات نظرة الراغب في المزيد فضبط الخراج وعدل العشر وأحدث بعض المكوس والمغارم ورتب لذلك طوائف الجبلة والعمال والقباض والرقباء وتقرب كثيرا من رجال السلطنة وأهل المايين واتخذ له من كبارهم أخلاء يعتمد عليهم في عظام الامور وأجزل عطاءهم فهدوا له العقبات ودلوا له الصعاب وفتحوا له من الآمال والأمانى أوسع الابواب وحجبوا الى السلطان زيارة مصر وزينوا له مشاهدة ما فيها من العجائب والآثار فقال الى ذلك ووردت الاخبار بعزمه على الحضور في نفر من خواصه وحشمه وأتباعه فبالغ اسمعيل باشا في الاستعداد لقدمه وأنفق النفقة الواسعة في اعداد معدات اللوازم ولوازم الافراح من مأكول ومشروب ومفروش وملبوس واهتم لذلك اهتماما عظيما فلما كان رابع عشر شوال سنة تسع وسبعين ومائتين وألف هجرية وصل السلطان الى مدينة الاسكندرية على باخرة عظيمة يحقرها الاسطول العثماني الحربي وفريق من العسكر وكان في انتظاره في الاسكندرية اسمعيل باشا وجميع رجال الدولة وأرباب الوظائف العالية فقبول في أبهة واحتفال لم يسبق لهما مثال لذلك من ملوك المشرق والمغرب وسار في شوارع المدينة والذهب يتربين يديه وكان في ركابه مراد أفندي وعبد الحميد أفندي ابنا السلطان عبد الحميد خان ورشاد أفندي ويوسف عز الدين أفندي والوزير محمد باشا والوزير فؤاد باشا ثم قام من الاسكندرية الى القاهرة على قطار مخصوص وكانت الناس على جانبي الطريق من الاسكندرية الى القاهرة فلما دخل اليها قبول بأحسن ما قبول به في الاسكندرية وشرق من وسط المدينة فانطلقت السنة العامة بالدعاء له وصاحوا نصر الله مولانا السلطان وطلع الى قلعة الجبل وقد أعدوا له مقرا بها فزينوه بأفواج الحرائر والمقصبات وأفخر وسائل الزينة ودقت له البشائر وزينت مصر والقاهرة سبعة أيام وأقيم له الدعاء بالمساجد كافة وكبروا لحضوره على ما أذن مصر والقاهرة وبعد أيام نزل لزيارة المساجد فزار المشهد الحسيني والزينبي والنفيسي وغيرها فكان اذا مر بالناس وقفوا اجلالا وتعظيما فينظر اليهم عنة ويسرة نظرة لطيفة وهي كناية عن السلام في عرف سلاطين آل عثمان وكان العامة والسوقة اذا رأوه صاحوا الفاتحة لمولانا السلطان فينظر اليهم كأنه يحييهم فيكثر صياحهم وتشتد جلبتهم وهي حالة لم يرها السلطان في بلاده فانه اذا مر بالناس يوم تروجه للصلاة مثلا أو في أيام المواكب أطرقوا بأبصارهم الى الارض وتخشعوا ولم يرتفع لأحد منهم صوت

وتصدق السلطان وأكثر العطاء وفرق على الفقراء والمحتاجين وطلبة العلم بالجامع الأزهر وعلى أصحاب التكايا وخدام المساجد وبعض الاضرحة ولم يره من أصحاب الوظائف الا القليل وكان اذا ركب سارت خلف عربته الجنايب السلطانية وطائفة الحرس السلطاني بالعمائم البيض والبرانس الحرير الابيض وفي أيديهم القراينات على شكل جيسل للغاية

مطلب
حجى السلطان
عبد العزيز الى ديار
مصر

ولبت بالقاهرة أياما ثم سار الى الاسكندرية وركب منها الى دار السلطنة وتبعه الاسطول
الحربي والسفن التي تحمل التحف والهدايا فكانت أيامه بديار مصر كلها أفراحا وولائم عند
العامّة ومن لاخلق لهم وأما خيار الناس فقد كانوا يخشون عاقبة مجيئه الى مصر وقد أخذتهم
الطيرة اذ لم يسبق لاحد من سلاطين آل عثمان بعد السلطان سليم الفاتح دخول أرض
مصر وكبر خوفهم وقد أخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات فترامت ظنونهم الى المرحى البعيد
فلما كانت سنة احدى وعشرين ومائتين وألف هجرية مع أخريات سنة ثمانين ظهر الوباء في
البقر واشتد وعم جميع البلاد شرقا وغربا ولم يترك قرية ولا كفرا الا ودخله واشتد شدة
بالغة حتى كاد يفتي جميع البقر وقل وارد السمن من جميع البلاد بل وانقطع وأكل الناس
الدهن والزيت فأمر اسمعيل باشا فاستحضروا من البلاد الاجنبية كالنمسا والمجر ونواحي
الاناضول السمن وهو في غاية الرداءة والنتن وباعه على أهل البلاد وفرق منه على الفقراء مجانا
فكافوا يتزاحون على الوكائل ومخازن التوزيع بالانحطاط وهم في ضجيج وجلبة تصم الاذان
واستمر الحال هكذا أياما كثيرة حتى ارتفع الوباء وبدأ الوارد من سمن الجاموس والضأن يرد
الى القاهرة ومصر من الجهات القبلية ولم يكذب ينقض هذا الوباء حتى وقع الغلاء وارتفعت
الاسعار وانقطع وارد القمح واشتد الطلب فلم يجد الفقراء له أثرا لا في سواحل بولاق
ولا في مصر القديمة ولا في جميع رقع الغلال فضجوا وعجوا وكثر طواف النساء في الاسواق
يحملن المقاطف لعلهن يجدن من يبعهن قمحا أو دقيقا وعلم اسمعيل باشا بما عليه الناس
من الضرفهاله الامر وأزعجه ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجية فاتوا له بشئ
كثير منهما وفرقوه في الوكائل وجهات الرقع ورتبوا للبيع وقتين في الصباح والمساء ونادوا في
الناس بذلك ففرحوا وتزاحوا على أبواب الوكائل وجهات الرقع تراحم الجباة واستمروا على هذا
الحال شهرين وبضعة أيام حتى تواردت الغلال من الاقاليم القبلية وملاّت مخازن التجار وأشوان
الدولة وعم الوارد منها الاقاليم البحرية فلم تكن لتسكن الخواطر وتطمئن القلوب حتى ظهر
الوباء في الناس ثانی عشر المحرم افتتاح سنة اثنتين وعشرين وألف هجرية واشتد
الموت شدة بالغة بالقاهرة ومصر القديمة ثم عم جميع البلاد شرقا وغربا فكانت الفقراء
تموت بجانب جدران البيوت وفي الأزقة والحارات وأصحاب الشرطة يطوفون لنقل الجثث
الى المقابر وبالغ محافظ المدينة في تطافتها فلم يرتفع الوباء واستمر على شدته الى رابع
عشر ربيع الثاني فمات خلق كثير ثم ارتفع وقد نزح الكثير من الاجانب وأهل البلاد
الى الديار الخارجية فرارا من الموت وخط الناس وخبطوا وقالوا ان هذه الكوائن انما
هي ناجة عن دخول السلطان الى مصر اذ لم يسبق لذلك مثيل منذ فتحها السلطان سليم
بعسكره واشتد خوفهم وأخذتهم الطيرة وتشاءوا من حاكم الوقت وخشوا عواقب أيامه
وأخذوا بأقوال أصحاب الزايرجات والمنجمين كعادتهم عند وقوع الشدائد وضجوا وعجوا
وابتهلوا الى الله تعالى وتوجهوا اليه بقلوبهم وقد أحصوا من مات فكان زهاء المائة

وما انقطع الوباء وسكنت الخواطر حتى جعل اسمعيل باشا يتصرف في أمور الدولة بحسب هواه أو ما يلائم مصلحة البلاد فنقض ما أبرمه سعيد باشا مع دى لسبس فاتح ترعة السويس ورسم بعدم تسخير أهل البلاد في حفر ذلك الاتصال كما كان العهدين سعيد باشا ودى لسبس واستعان اسمعيل باشا على إبطال هذا الحدث بالسلطان فكتب الى الباب العالي يقول

ان عدل أمير المؤمنين لا يسمح بتسخير رعاياه في عمل قد أضرب بالحرث والنسل وأذهب براحة أهل البلاد وأوعز الى أصحاب صحف الانخبار المصرية فهبت من فومها تنادى بالويل والحرب وتستفز رجال الدولة الى ابطال هذا العمل والاخذ بأسباب الحزم ورفع هذا النير عن أعناق أهل البلاد وكان الى هذا الحين لم يصدر السلطان البراءة بجواز عمل ذلك الاتصال بعد أن سار دى لسبس الى دار السلطنة وأقام بها أياما كثيرة وكام الصدر الأعظم في ذلك مرارا فكتب على باشا الى سفير الدولة العثمانية بعاصمة الفرنسيين في شأن ذلك يقول ❦ غير خاف على معارفكم أن الدولة العلية أيدها الله قد صرفت كثيرا من أنفس أوفانها في بحث أمر عمل الاتصال المراد عمله ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ومع كونها قوت من صميم القلب انجاز هذا المشروع الخطير والعمل المهم بالاتحاد مع الدوائين الجريتين العظيمتين لعلها بأهمية وخطارة هذا الاتصال الا أنه قد ورد على الباب العالي في هذا الحين مطالعة من والى الديار المصرية يطلب فيها ابداء رأى أمير المؤمنين في هذا الامر ويجزئني جدا أن أرى انه قد بدئ وكاد أن يتم عمل ذلك الاتصال قبل أن يقع الاتفاق على أمر من الامور بين الباب العالي والدول المتحالفة معه كما يعز على أيضا إيقاف العمل الآن وتعطيل مشروع كهذا جزيل الفائدة كبير الأهمية على أنى مع ذلك أقول انه لا يمكن للدولة العلية على أى حال كان الموافقة على عمل هذا الاتصال الا بعد اتفاق سائر الدول مع الباب العالي على جعله حرا مستقلا تحت رعاية حكومة البلاد التي هو فيها بمثابة بوزار البوسفور والدرديل في دار السلطنة العثمانية لاسيما وقد تكلفت تلك البلاد أعنى البلاد المصرية بتشغيل زهاء عشرين ألفا من أهلها في حفر هذا الاتصال عوناً وسخراً مع سبق النشر والاعلان بإبطال هذه العادة الخشنة التي يابها العدل والشرف وما يحول دون اعتراف الباب العالي بتتيم عمل ذلك الاتصال ما جاء في عقد الاتفاق الموقع عليه محمد سعيد باشا والموسيو دى لسبس صاحب ذلك المشروع حيث يعد محمد سعيد باشا الموسيو المشار اليه بتنازل حكومة البلاد له عن منفعة جميع الاراضي التي تكون واقعة على ضفتي الاتصال المذكور مدة تسع وتسعين سنة وعلى ذلك لم يبق مانع يمنع دخول مدينة السويس وجميع ما جاورها من القرى والمزارع وبحيرة التمساح

ومدينة بورسعيد وسائر حدود الشام أى معظم المملكة المصرية فى حوزة وتصرف شركة
ترعة السويس وينجم عن ذلك ظهور شعوب متفرقة مستقلة بنفسها خارجة عن طاعة
أمير المؤمنين وهو أمر لا نحمد عواقبه ولا أخالكتم تنكرون على القول بأنه مامن حكومة
ورزقها الله حسن النظر فى عواقب الأمور ولو بقدر متقال ذرة وألهمها السعى وراء حفظ
استقلالها وتوسيع نطاق عمرانها ومدنيتها ترضى بمثل هذه الشروط المفجعة جورا وخذلانا
لرعاياها الطائعين ولا تظنوا أن أمير المؤمنين يجيز العمل بمقتضى تلك الشروط التى كان بعث
محمد سعيد باشا بصورة منها الى الباب العالى وهو يعلم حرصه الله ما وراء ذلك من تعبير
سائر الامم لحكومته وربما بالقصور والمروق عن جادة الحق فان أجازها فأنما يجيزه بعد
قبول هاته الخصال الثلاث

الاولى منها جعل هذا الاتصال مستقلا تحت رعاية الحكومة المصرية وعدم منح أية
دولة كانت امتيازات أو حقوق خصوصية فى أى حال من الاحوال
الثانية رفع نير السخرة من أعناق أهل البلاد
الثالثة العدول عن مشروع حفر الاتصال المار بالنيل وأن لا يعطى شئ من الاراضى
لشركة هذا الاتصال الا ما كان لازما لانشاء معاملها وورشها فقط

فاذا تم قبول هاته الخصال الثلاث جاز العمل بالاتفاق مع والى الديار وسهل التصديق
على بقية الشروط المدونة بالعقد * فالذى نسألكم اياه الآن هو أخذ رأى الدولتين
المحالفتين أعنى بهما دولتى الفرنسيس والانجليز عما يلىق عمله الآن أيليق منح شركة حفر
هذا الاتصال عدة امتيازات وحقوق لا يكون من ورائها الا هضم حقوق رعايا الدولة العلية
واذهاب ثروة البلاد واضمحلالها وضياح كثير مما نالته من شبه استقلالها وهل يوافق انه
اذا لم يتم التراضى بيننا تأخذ حكومة أمير المؤمنين على عهدتها بالاتفاق مع عاملها على
ديار مصر انجاز عمل هذا الاتصال وأن تنفق عليه من مالها أو تسلمه لشركة أخرى بشروط
وعهود يقع الاتفاق عليها بحيث لا يبقى للشركة الحالية حق فى المطالبة بالمال الذى أنفقته
اذ كان اندفاعها الى العمل بغير اجازة ولا مستوع أفيدوا الجواب * ووردت الاخبار بهذا
المعنى الى اسمعيل باشا من الباب العالى فسر بها سرورا عظيما وكتب الى الموسىو
دى لسبس يقول

لا يلىق بنا أن نتحقق عليك معرفة انه لما كان ما كان من الخلاف فى أمر عمل اتصال
البحر الأبيض بالبحر الاحمر قد كنا خابرا دار السلطنة العلية فى ذلك وسألنا الباب العالى
أن يفتينا فى الامر بخافنا منه مطالعة فى هذا الحين تجيز لنا المخاطرة مع شركة الاتصال
المذكور والاتفاق معها على جميع التغيرات المراد ادخالها على عقد التنازل الموقع عليه مع
المرحوم محمد سعيد باشا وإبطال ما فيها مما كان سببا لحصول الابطاء وعدم قبوله لغاية
الآن * ولا أخالك نجهل انى مذ وليت الاحكام الى هذا الحين لم يكن عندى من المشاغل شئ

بمبادل هذه المسئلة وكان الذي لم يقبله الباب العالي وهو يمنع فيه للآن كل الممانعة
 أمرين الاول تسخير أهل البلاد في ذلك العمل والثاني تنازل الحكومة عن منفعة الاراضى
 الواقعة على شاطئ الاتصال المذكور فلاجل أن لا يزداد الامر اشكالا والاحوال بيننا
 جدا الا قد رسمت الى فوبار باشا بمحل عقدة هذه المسئلة بالاتحاد معك ومع أعضاء
 الشركة وانى لوانق بانك تبادر الى فض هذا النزاع بالتى هى أحسن بما لك من سلامة
 النية كى لا يقع بسبب ذلك في مستقبل الايام مالا تحمد عقباه وقد ضرب لنا
 الباب العالي أجلا للاتفاق قدره ستة أشهر فان مضى الاجل ولم نتفق على أمر
 يحسن السكوت عليه لم يعد اذ ذلك في وسعى أن أعيد الكلام مع دار السلطنة فتدخل
 المسئلة في دور جديد مع الباب العالي ويعز الوفاق ومعاذ الله أن نصل الى هذا الحد * وسترون
 أن الذى رسمته الى فوبار باشا ليخبرك عنه لم أراع فيه سوى راحة الرعية ورفع المضار عنهم
 مع انجاز مشروعاتكم على النمط المرغوب هذا وقد جاعنى مرسوم أمير المؤمنين بأن أبادر
 الى تبليغ مقدره الكريم حالة ما هو عليه الاتصال المذكور من العمق والطول والعرض
 المراد جعله خسابا لذلك الاتصال وأن يلاحظ بأن لا يكون الاتصال المذكور قابلا لسير
 السفن الحربية فان أمير المؤمنين حرسه الله لاشئ أحب اليه من المحافظة على السلم
 واجتناب جميع المشاكل مع سائر الدول اهـ فاجتمع فوبار باشا بعد أيام مع الموسيودى لابس
 وسأله الموافقة على تقليل عدد العاملين في حفر ذلك الاتصال من أهل البلاد من عشرين
 ألفا الى ستة آلاف ونفقة فرنكين أى سبعة قروش وثلاثون فضة لكل واحد يوميا والتنازل
 عن جميع الاراضى المتنازع فيها وقيام الحكومة بجميع المصاريف التى أنفقتها الشركة
 الى تاريخ عقد هذا الاتفاق مع قيامها أيضا بجميع نفقة التربة المراد انشاؤها من
 النيل الى جوار الاتصال فطال بين الفريقين الاخذ والرد واشتد الجدل وكاد
 يتعذر الوفاق وينفض اجتماعهم على غير طائل فرفع اسمعيل باشا الامر الى نابوليون
 امبراطور الفرنسيس وتقرب منه وتزلف اليه وأقام الوسطاء والشفعاء فأشار نابوليون بوجوب
 تقرب الفريقين واصلاح ذات البين وأقام لذلك عمدة من خمسة من كبار السياسة وأصحاب
 الشريعة بعاصمة الفرنسيس ورسم لهم بالتخفيف وحسم أسباب النزاع بالتى هى أحسن
 فتم الوفاق على ماشاء اسمعيل باشا وقام برد النفقة التى أنفقت على جميع الاراضى التى
 كانت الشركة تتنازع فيها ونفقة التربة الحارة التى أنشئت بمدة من النيل فكان ما أنفق
 على ذلك دون غيره عشرة آلاف ألف من الفرنكات أى سبعة وثلاثين ألف وخمسمائة
 ألف قرش وورد فرمان السلطان في ثانى عشر القعدة سنة اثنتين وثمانين وألف هجرية
 بقبول كل ما وقع الاتفاق عليه وارتفعت السخرة عن أهل البلاد وزالت عنهم تلك الحنة
 وحسبت مكرمة الى اسمعيل باشا على مر الايام
 وكان اسمعيل باشا قد سبر غور رجال المايين وأصحاب الحل والعقد في دار السلطنة بعد أن

مطلب

سعى اسمعيل باشا

في حصر ولاية مصر

في ذريته دون ذرية

محمد علي باشا

ثم لما أراد في أمر اتصال ترعة السويس ولما كان شديد الرغبة من يوم توليه مسند الولاية في نزع حقوق الوراثة المحصورة في ذرية محمد علي باشا بمقتضى الفرمان السلطاني المؤرخ في شهر ذي الحجة سنة ست وخمسين ومائتين وألف وجعلها في عقبه من بعده أى في الارشدمن ولده وفي عقب ولده قال بعض أهل التحقيق * وقد كانت رغبته في ذلك مترتبة على سببين أولهما بغضه الشديد لأخيه الأمير مصطفى فاضل المستحق للولاية من بعده وثانيهما حرمان الأمير عبدالحليم ابن محمد علي باشا من الولاية بعد الأمير مصطفى فاضل فسعى في دار السلطنة وأنفق الأموال الطائلة وأجزل العطاء لأرباب الدولة وتراف إلى أصحاب الحل والعقد ورجال المايين وهادى الصدر الأعظم وشيخ الاسلام ثم جعل يدبر على أخيه وعمه ويكيد لهما ورفع القصص إلى الباب العالي يشكومن أفاعيل عزاها اليهما وقال لهما كادا له وعمل على قتله وكان أخوه قد نزل في جوار السلطان وعمه باق بالقاهرة فضيق على عمه وشدد وأرهب وتوعد فانكمش عمه بقره بشهرى بضواحي القاهرة وانزوى عن الناس فزاد في التضيق عليه وأقصى عنه حاشيته والمتقربين اليه ومزق أتباعه وضبط أكثر أرزاقه وحبس غلاته وبالع في نكايته حتى أخرجه مدحورا إلى دار السلطنة فنزل على أصحاب المايين مستجيها فلم يدوا له يدا قد بسطوها إلى عمه فأقام يراقب الفرص لعزل الله يأتيه بالفرج القريب وما زال اسمعيل باشا يكثر السعي وبجهد النفس وببذل النفيس حتى مال السلطان إلى طلبه وحقق أمنيته ورسم في ثالث عشر المحرم افتتاح سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بجعل حكومة البلاد ورئاسة تنقل من اسمعيل باشا إلى أكبر أولاده ثم للارشدمن عقب ولده وجاء الفرمان بذلك إلى القاهرة ففرح اسمعيل باشا فرحا لا يوصف ودقت البشائر وعلمت الولائم والمآدب وأكثر رجال الدولة من عمل الأفراح وتصدقت والددة اسمعيل باشا وأطمعت وفرفت الهدايا على المشايخ والعلماء وكست أولاد المكاتب واليتامى وقد أدرك الباب العالي بعد قليل من الأيام أنه لم يحدد في فرمانه الخطة الواجب اتباعها عند ما يكون الوارث ليكرسى الحكومة المصرية قاصرا أى لم يبلغ سن الثامنة عشرة وعلم أن في اغفال ذلك تعقيدا واشكالا فسير في ثمانى صفر من السنة إلى مصر رسولا ومعه فرمان آخر بما ذكر فلما وصل القاهرة قوبل باحتفال عظيم فاستغرب الناس يومئذ حضوره وكثرت الاقوال في شأنه وترامت الظنون إلى المرحى البعيد وما زالوا على هذا الحال حتى شاع الخبر بما في ذلك الفرمان وتناقضت أصحاب صحف الاخبار على اختلافها

وبدأت من هذا الحين تعلق كلمة اسمعيل باشا وقد زال عنه ما كان يلاقيه من متاعب شركة ترعة السويس ونقل الوراثة إلى عقبه من بعده وتبعيد أخيه الأمير مصطفى فاضل وعمه الأمير عبد الحليم وتمكن من مخاتق رجال المايين وأصحاب الحل والعقد في دار السلطنة فاشندت عزيمته ومالت نفسه إلى التشبه بكار الملوك وأصحاب الحكومات الدستورية لما في ذلك من استرضاء الناقبين من كبار الدول الأوروبية فرسم في شعبان من السنة أى

سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية بتشكيل مجلس شورى للبلاد على نسق وترتيب مجالس الأمم المتمدنة والحكومات الدستورية المقيدة وبالغ في الأمر وطير الخبر بذلك إلى الآفاق وأوعز إلى بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية فقاموا وقعدوا وشادوا بذكر ذلك المجلس وقالوا هو من مقدمات الإصلاح ومبادئ الفلاح وانتقال البلاد من دور المشونة والهمجية إلى دور العمران والمدنية ﴿ قال بعض الكتاب ﴾ ولم يكن في الأمر شيء من ذلك البتة فإنه ما تم اجتماع أعضائه وجعلوا يتظرون في مصالح البلاد حتى زادت الضرائب وكثرت المكوس وتعددت أنواع المغارم وانبث أصحاب الجباية شرقا وغربا واشتدوا على الرعية شدة بالغة ونواب الأمة لا يعرفون من مواجب النيابة غير الطاعة لمن قال من كبار الحكومة أو أشار من أصحاب الحل والعقد فكانوا جلا ثقيلا على عاتق أهل البلاد وسدا قويا بين القادحين من أهل النقد وبين أصحاب الحل والعقد فنفض عند ذلك بعض أصحاب صحف الأخبار الأجنبية إلى الطعن وتجرّدوا إلى التعيب ورموا نواب الأمة بالجهل والمروق وشخصوا أوقات اجتماعهم بهيات مضحكة حاكوا فيها الملاعب الخيالية والاشكال السخرية وحذروا أهل البلاد من شر العاقبة وخوفوهم من سوء المصير فلم يضعف هذا كله لاسماعيل باشا عزما ولا وقف به عند حد لمكائنه عند رجال السلطنة وأصحاب الكلمة في المسابن وكان كلما زاد أصحاب صحف الأخبار في التفرع والتعيب زاد هو أيضا في التقرب إلى رجال السلطنة وأجزل لهم العطاء وأهدى لهم الهدايا والتحف العظيمة فيقضون له كل ما في نفسه * واشتدت رغبته في التسمي باسم لم يسم به أحد ممن تولى حكم البلاد قبله فسأل السلطان أن يلقبه بعزير مصر وأن يرسل له خطا بذلك فطاولة السلطان ومنه فكثر رسائله إلى أصحاب الباب ثم أهدى وفرق بقاء الخبر بأن السلطان قد لقبه بلقب خديو وهو أكبر مراتب الدولة وأرفعها ولم يسبق لاحد نوال مثلها من الوزراء وكبار القوم فان لقب عزير مصر انما هو دون لقب خديو اذ كان يوسف ابن يعقوب عليه السلام عزير مصر أي وزيرها والأمين على خزائنها ففرح بهذه البشرية وشاع خبرها بين الناس فلما كان خامس ربيع الاول من السنة جاء فرمان السلطان بذلك على يدي أحد القراء السلطانية فقرئ في محفل حافل للغاية ودقت البشائر وطيرا الأخبار إلى الآفاق ودعوا للسلطان في جميع المساجد بالقاهرة ومصر والأقاليم القبلية والبحرية وانطلقت كلمة الخديو اسمعيل من هذا الحين بعد التقييد واتسعت وحل له فعل ما لم يحل من قبل من عقد العهود مع الممالك الأجنبية والقروض مع أصحاب الاموال بلا استئذان من الباب وضرب الضرائب وتعديل المكوس وفعل كل ما يختار من غير معاودة ولم يرض على ذلك الا اليسير حتى مالت به النفس إلى الاستزادة وتناقت إلى الاستقلال بملك الديار المصرية فمد إلى تنظيم الجند والاكتار من معونات الحرب وحصن

الحصون وأنشأ القلاع العظيمة بشعر دمياط ورشيد وأبي قير ومعامل البارود والفشنك والبنادق والمكاحل وملابس الجنود والخيام وسروج الخيل وغير ذلك وأرسل يشتري الكثير من البنادق الجديدة المستعملة في جيوش الدول الكبرى واستقدم جماعة من كبار جند الامريكان وأركان الحرب والمهندسين لتعليم العسكر وتدريبهم على النسق المستعمل في جيوش الممالك الاجنبية وأكثر من التزلف الى نابوليون امبراطور الفرنسيين وهو يومئذ صاحب السكامة والقول الفصل بين كبار الملوك ليستعين به عند الحاجة وأدنى منه دى لبس فاتح خليج السويس ليكون رسوله في المهمات وجعل يراقب الفرص ويتحين انتفاعها فلم تخف أعماله على رجال دار السلطنة وعلم السلطان بما في نيته فكبر عليه أمر ذلك واستعظمه ورسم الى على باشا الصدر الاعظم بمراقبة الحوادث وعدم التهاون في شئ وكان صفاء الود الذي بين الخديو والصدر المشار اليه قد تكدر لاسباب لم تصل اليها معرفتها فاشتد الصدر على الخديو وبعث العيون الى مصر وجعل يراقب الحوادث ويسأل عن الصغيرة والكبيرة ويحاسب على الذرة والبرة

واتفق في هذا الحين أن قدم الى دار السلطنة داعي نابوليون امبراطور الفرنسيين يدعو السلطان الى الولاية المزمع اعمالها في عاصمة الفرنسيين عند فتح المعرض الذي أقيم فيها وقد دعا اليه الامبراطور كثيرا من الملوك والامراء والخديو اسمعيل فسار الخديو من الاسكندرية في سابع صفر ووصل السلطان الى باريز في تاسع عشره فقبول باحتفال واحتفاء عظيمين وأقام بها زهاء شهر ونصف وكان معه بعض رجال الدولة وجماعة من المايين فكلمه الامبراطور في أمر الخلاف الواقع بين الباب العالي والخديو وهو عليه الامر وما زال به حتى استرضاه فعفا السلطان عما سلف وأدنى الخديو منه ولاطفه ثم عاد السلطان الى دار الخلافة في سادس ربيع الثاني سنة أربع وثمانين ومائتين وألف هجرية وأقام الخديو أياما فعرفه من حضر الى باريز من الملوك وأولاد الملوك والامراء والكبراء وتقرب من الكثير منهم وتزلف اليهم وبالغ في التظاهر بظواهر كبار الملوك فأنتفى وأهدى وأجزل العطاء وحبيب اليهم الحضور الى مصر عند عمل الافراح لفتح خليج السويس فتم من أجاب الى ذلك ومنهم من وعد ثم عاد الى الاسكندرية وأقام بها أياما يدبر أمر ضيافة أولئك الملوك والكبراء فرأى أن مصر ليس فيها من محال اللعب واللهو ما في أصغر بلاد الفرنجة كراسخ الشخصيص ومواقف المغاني وغير ذلك مما لم تسمع به أهل البلاد ولم تره فعاد الى القاهرة ورسم الى بعض المقربين اليه من الاجانب بإنشاء مسرحين على نفقة الخزينة فأقام أحدهما على بقايا بناء السراي المعروفة بسراي ثلاثة ولبه وهي منزل أحمد طاهر باشا بن طاهر الكبير وسموه باسم الكوميديا والثاني على يسار الاول وسموه باسم (الاوربا) وبالغوا في تزئينهما بأنواع الفرش والبسط والطنافس والتحف والتقوش البديعة وأتوا اليهما من الديار الاوروباوية

بجماعة المشخصين والمشتخصات والمغنيين والمغنيات وأساتذة هذا الفن وعملوا لهم من الملبوس والحقى الفاخرة شيئاً يكاد أن لا يدخل تحت الحصر ورتبوا لهم الجماكي والمرتبات الواسعة ورسم الى شركة توعة السويس بأن تنشئ على نفقة الخزينة أيضاً داراً في مدينة الاسماعيلية لضيافة الزائرين من أولئك الملوك والامراء والكبراء فأنشأتها فكان ما أنفق عليها زهاء ثمانين ألفاً ذهباً * فلما حل الاجل المضروب لاقامة تلك الافراح والولائم وكان الاتصال بين البحرين الأبيض والاحمر قد تم وجرى الماء بينهما مختلطاً وهو كاف لحمل البواخر والسفن التي تشق عبابه سير الخديو رساله الى الديار الاوروباية يدعون ملوكها وأمرائها الى تلك الافراح فلقوا من جميعهم الرضا وقد أخذ في الأبهة والاستعداد ورسم بخروج سائر عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية بجيئامهم وطبولهم وزمورهم وخيلهم ومأكولاتهم ومشروباتهم فجيئوا بمدينة الاسماعيلية وهي إحدى المدن التي أنشئت على شاطئ التربة على قيد بعض فرائخ من قرية العباسية وأمر بجمعوا سائر المغنيين والمغنيات وأرباب الملاعب على اختلاف أنواعها وعملوا الزينة على أشكال متنوعة بجحر اللسان والقلم عن وصفها ورتبوا الحركات والاشكال النارية ووضعوا الرايات الخاصة بمملكة كل ملك وأمير دعى الى هذه الافراح وجاءت الى مدينة الاسماعيلية طوائف العساكر والاجناد بالمسدافع وآلات الحرب الكاملة وكثير من الزوارق والسفن الصغيرة المزينة بأحسن الزينة وتقاطرت اليها الذبائح من الضأن وشباب البقر وغول الجاموس والغزلان والمعزى ومن الطيور على اختلافها وتراكت أجال المأكول والمشروب بحالة يقصر عن وصفها اللسان والقلم

وبينما كانت الاستعدادات لهذه الافراح والولائم قائمة على ساق كان على باشا الصدر الاعظم يخبر الدول الكبرى في أمر تعدى الخديو على حقوق أمير المؤمنين واستصغاره لواجبات التبعية وأنه اذا كانت ديار مصر من أملاك الخلافة كالقلب من الانسان فكيف ساغ للخديو أن يتولى أمراً من أهم الامور وأكبرها بغير اجازة وأنه ليس من الكياسة ولا من حسن السياسة في شئ أن تذهب الضيوف الى دار أمير المؤمنين وهو غير عالم بأسباب الضيافة ولا قائم بواجباتها مع أنه أحرص الناس على حفظ كرامة مملكته وشرف كرسى سلطنته وعدم تعريض حقوقه الذاتية للضياع * قال بعض كتاب الاخبار وكان قد بلغ الباب العالي أن الخديو انما يريد بهذه الافراح واستدعاء ملوك الدول وكبار الممالك لبس شعار السلطنة على ديار مصر والخروج من تبعية السلطان فهال السلطان هذا الامر وأزعجه جداً ورسم الى الصدر الاعظم بداركة الخطب قبل استفعالها وشدد في ذلك فحكم الصدر الاعظم كبار ساسة الدول وما زال بهم حتى أججم بعض الملوك عن الذهاب وبعضهم أناب عنه ولى عهده أو أحد قرابته وانفسلوا أو كادوا ولاحت بشائر القفر للصدر الاعظم فكبر الامر على الخديو واستعظمه وشكى حاله الى نابوليون واستنجد به

فكلم نابولايون الصدر الاعظم في ذلك وشدد وهدد وما زال الامر بين أخذ ورد أياما حتى تقررت القاعدة على أن كل من شاء من الملوك والامراء اجابة دعوة الخديو وجب عليه أن يعرج على دار الخلافة قبل ذهابه الى مصر ويزور الخليفة السلطان بصفته صاحب الدعوة ثم يسير الى مصر بعد ذلك على الرحب والسعة وأن للخليفة أن ينيب عنه من شاء في هذه الولاة لتفتح مراسم التهانى باسمه الشاهانى وترفع لمن حضر واجبات الشكر وحقوق الضيافة فأجاب السلطان عنه مبعوث دولة الانجليز وزوده بما شاء مما لم تصل اليها معرفته

فلما كان ثمانى شعبان سنة ست وثمانين ومائتين وألف هجرة قدم الوافدون لتقديمهم أوجنيه امبراطورة الفرنسيس وامبراطور النمسا والمجر مع ولى عهده وولى عهد ملك ايطاليا وكثير من الامراء والكبراء وولى عهد البروسيا فباتوا ليلة في مدينة بور سعيد بين مظاهر الانس والسرور وأصبحوا وقد ركبوا السفن ومعهم طوائف الحرس والخدم والحشم وأكابر ممالكهم ونزلوا الاسماعيلية وقد تكامل عددهم ولم يتأخر منهم سوى مبعوث الانجليز النائب عن الخليفة أمير المؤمنين فباتوا ليالهم ورأوا من اتقان نظام الولاية وحسن ترتيبها ما لم يجبر على مثال سابق وكانت الموائد تمتد تباعا في الخيام والصواري والسفن والاماكن التى أعدت لذلك والمدعوون يتعاقبون عليها فوجا بعد فوج واستمر الحال على ذلك زهاء أربع عشرة ساعة * قال بعض كتاب الاخبار * فأعجب الملوك ذلك جدا بل أدهشهم وجعلهم في حيرة وأصبحوا رابع عشر شعبان وقد اجتمعوا جميعا في مجلس أعد لهم وبينهم أوجنيه امبراطورة الفرنسيس وكبير وزراء مملكتها ورئيس أركان حرب الجيوش الافرنسية فقامت فيهم الخطباء والفصحاء فخطبوا وتكلموا وأطنبوا وبالغوا في الاطراء ولم يتم الخطيب كلامه حتى وقف في وسطهم مبعوث الانجليز وقد كان لا يظن وصوله في هذا الحين فتم الخطيب خطابه بالثناء على الخديوى وامتدح من حسن لقاءه وكرم أخلافه فصاح رسول الانجليز بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين صاحب البيت وما فيه فقبعه من حضر بالدعاء جهارا فأطلقت السفن مدافعها تباعا وأطلقت كذلك مدافع البر وهتف الجنود بأصوات التهليل والدعاء وصدحت الموسيقى من كل صوب وحذب وعلا الصياح واشتد التهليل ودقت العمد والاعيان والمشايع وأرباب الطرق ظبولهم وهتفوا جميعا بالدعاء ومرت السفن بالتلحج تباعا بعضها آت من البحر الابيض المتوسط وبعضها من البحر الاحمر وهى مزينة بصنوف الرايات وأشكال الزينة ورست أمام مدينة الاسماعيلية بعضها خلف بعض وجندها وملاحوها يهتفون بالدعاء على أعالي الصواري وما زالوا على هذه الحال حتى تم عبورها فكان مشهدا من أعجب المشاهد وأحسنها لا يمكن وصفه ولا استيفاء محاسن ما فيه وقد كان ما أنفق من مال الخزينة على هذه الولاة والافراح ما قدره ألفا ألف ذهابا ماعدا الهدايا والتقدم النفيسة التى أهدها الخديون من ماله وهى كثيرة جدا * ورجع من

حضر من الملوك والامراء ولم يبق الا أوجنيه امبراطورة الفرنسيس ومن معها من الخشم والاتباع وبعض الامراء لمشاهدة الآثار القديمة بمصر وصعيدا فبالغ الخديو في اكرامها ولازم ركبها حيثما سارت وجعل الامير حسين ثاني اولاده في خدمتها وطاف معها الخديو جميع ضواحي القاهرة ومصر مثل المطرية وطرا والاهرام وسقارة وغيرها على ظهور الخيل وأراها جميع العادات المصرية في المأكل والملبس وفي الاعراس والولائم وفي تمشيط العروس وحملتها وتخطيرها وغير ذلك بأن زوج بعض حظياته الى بعض رجال ديوانه الخاص وعمل لهن الاعراس على أحسن ما يكون من الابهة والعظمة الشرقية ثم سارت أوجنيه من القاهرة تريد الصعيد فسار الامير حسين في ركبها وخصص الخديو لخدمتها ست عشرة باخرة تختر في النيل صعودا وهبوطا فكان بعضها لحمل الخشم والاتباع وبعضها بللب الماء كل والمشراب في كل يوم من القاهرة وقضت بالصعيد اثنين وعشرين يوما صرف فيها من الاموال شيا كثيرا ثم عادت ولبنت بالقاهرة أياما قلائل ثم سارت راجعة الى عاصمة الفرنسيس ومعها من التحف والهدايا الفاخرة والاعلاق الثمينة مالا يكاد يدخل تحت الحصر ويجمل عن الوصف

ولما فرغ الخديو من ولائم ترقية السويس وأفرأحها عاد الى التفكير في أمر توسيع دائرة خديوته بين مصر والسودان والحبشة وخط الاستواء فسير الارساليات العلمية والعسكرية الى جوف السودان والحبشة لتخطيط الطرق واستكشاف أحوال البلاد ومواقعها وعوائدها وأهليها وأميالهم وغير ذلك واهتم بتحصين فرضتي سواكن ومصروع الواقعتين على ساحل القازم وقد كان تقدم الى السلطان في ضمهما الى خديوته مصر مع بعض بلاد الصومال التابعة للسلطنة العثمانية في مقابلة زيادة الخراج المقرر دفعه كل سنة الى الخزينة السلطانية وابلاغه الى سبعمائة وخمسين ألفا من الجنهات فأعطاه اياها السلطان فحصن سواكن ببعض القلاع الخفيفة وأقام بها المراتبين من العسكر المصري وفعل كذلك بمصروع ثم تأهبت عساكره وشتت الغارة على غير ما أخذه من بلاد الصومال واستولى على عدة بلدان منها وسير جيشا عظيما الى جوف السودان والدارفور وخط الاستواء ففتح الكثير من بلدانها واستولى على عدة مدائن وأراض واسعة وعانت جنوده في تلك الاصقاع وأعلنت فيمن عصاها السيف ففتكت ونهبت وأسرت وأهلكت الحرث والنسل فهابهم أهل السودان وخشوا باسمهم واستسلموا لهم كارهين فأقام عليهم الحكام من أهل القوة والبأس وبث بينهم جبته الاموال من أهل الخشونة والقوة ووكّل بهم ذوى الطمع والجشع وجعل تلك البلاد الآلهة بالانسان والحيوان والضرع والزرع منقّى لاصحاب الجرائم وأهل الشقاوة وضرب عليهم العمل والولاية الضرائب القادحة وفرضوا الفرض والمكوس الجائرة واشتدوا على طوائف التجار منهم والنحاسين وخصوهم بالمغارم والفرض وأذلّوهم بالمصادرة والتشريد عند أصغر سبب أو أقل تقصير * وكان ممن سيرهم الى جوف بلاد الحبشة لمعرفة أحوالها والتقرب من بعض

كبار رجالها رجاء الغنم رجل نساوى الاصل اسمه مشنجر فتغلغل مشنجر هذا فيها وغاب خبره
حينما ثم عاد حاملا شياً من محاصيل البلاد وزين للخيديو التغلب عليها وضمها الى مملكته وقد
كانت الفتنة يومئذ قائمة بين ملوكها وأمرائها والخلل ضارب فيها أطنابه قيل وأقسم مشنجر
للخيديو بأغلظ الايمان أنه يملكها ويدّونها بنصر من العسكر المسمى وأقسم مشنجر
فأعجب الخيديو رأيهم ومال اليه ومازال مشنجر يتردد على أبواب الخيديو حتى ولاء المحافظة
على فرضة مصوع التي هي مفتاح أرض الحبشان المسمى وأعطاء رتبة البيكوية فصار
مشنجر اليها واستقر بها وجعل يدبر في فتح البلاد وقرب اليه بعض مشايخ السواحل
واستمالهم بالرشاوى والبراطيل ودفع بهم الى دس الدسائس وإيقاظ الفتنة ما استطاعوا
ولبت على هذا الحال حينما ثم استقدمه الخيديو الى القاهرة وعوقبه أياماً ثم أعاده وأنفذ اليه
جيشاً خفيفاً معقوداً لوائه الى ارندروب بيك الامريكانى أحد مقمدي الحرب الذين أتى بهم
الخيديو للخدمة في الجيش المسمى ورسم له بالزحف على البلاد وفتحها وأقام مكانه في
المحافظة على مصوع أراكيل بيك وهو شاب أرمنى المتحد لأبأس به فخرج مشنجر بالعسكر
من مصوع في يوم مشؤم الطالع وسار نحو بلاد الحبشة سيرا بطيئاً وجعل يستميل في
طريقه مشايخ القبائل الضاربة في الطرق والمسالك وقرب منه شيخ قبيلة الجاسمين وبالغ
في التودد اليه ومناه بالاماني الكثيرة فلأزم الشيخ ركابه خديعة ومكراً وسار معه وهو على
قدم السمع والطاعة ومشنجر يظن بلوغ الغاية والفرح ملء فؤاده وسير الى أراكيل بيك
يعلمه بالخبر فكتب أراكيل الى الخيديو يبشره بذلك * وتوافقت نفس أراكيل الى الخروج
والغزو مع مشنجر لبشاطره النصر ويشاركة في الغنم فسار عن مصوع ولحق بالجملة وساروا
جميعاً وعميون النجاشي من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم ويسارهم وهم لا يشعرون فلما
بلغوا بلدة (جنسدت) نزلوا بها ونصبوا خيامهم وأوقدوا نيرانهم ليبيتوا ليلتهم وكان مع
مشنجر في هذه الغزوة امرأته وأولاده وبناته وبعض الخدم والاتباع كلهم ذاهبون الى
عرس أو وليمة أعدت لهم على الرحب والسعة فينبأهم نيام على فراش الاطمئنان اذ دب
عليهم جماعة الحبشان في منتصف الليل الآخر وأحاطوا بالخيام احاطة السوار بالمعصم
ودخلت جماعة أخرى في وسط الخيام وأعملوا في العسكر السيف فهب العسكر من نومهم
مذعورين واختلطوا بالحبشان فلم تمكنهم الحبشان من الدفاع وأنخنوا فيهم قتلاً وطعناً حتى
أفنوهم أو كادوا ودخلوا على مشنجر في سرادقه فذبحوه مع امرأته وأولاده وبناته ذبح
الشاة وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه وقتلوا أراكيل بيك شر قتلة وكان شاباً جميلاً حسن
السمائل عاقلاً ذكياً مولعاً بالمعالي وقتلوا كذلك ارندروب وأصبحوا ودماء القتلى تجري
بين الخيام بجريان الماء وأخذوا جميع ما وجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب
للحمل ورجعوا ظافرين غانمين

وعاد من بقي من العسكر الى مصوع في أسوأ حال من العسرى والجوع وكلهم مضعف

بالجراح وأخبروا بما جرى فسيروا بالخبر الى الخديو فها له وأرجمه * قال بعض الكتاب
وأقسم بالايمن الغلاظ أن لا ترجع عساكره عن أرض الحبشان وفيها ديار أو نفاخ نار
ورسم الى راتب باشا أحد مقدمي العساكر وسردارها يومئذ بتجنيد الجند واعداد المعدات
وشدد وبالغ في ذلك وكان قد عاد في هذه الاثناء من الديار الاورباوية الامير حسن ثالث
أولاد الخديو وقد تعلم الفنون الحربية وخدم في عسكر الانجليز وعسكر الالمان حينما
فلما كان شوال من سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف رسم الخديو بخروج العساكر
والاجناد وتسييرهم الى مصوع فسار أولا عثمان رفيق باشا أحد مقدمي العساكر من
الشراكسة على رأس الألبان الى مصوع ونزل بها أياما ثم لحقهم الجيش كله في ذى القعدة
من السنة في ثالث عشره ولبثوا بها جميعا زهاء أربعين يوما حتى تكامل وصول مؤنتهم
ودواب حملهم وذخايرهم وآلات حربهم ووصل أيضا الامير حسن ومن معه من
أركان حربه ومقدمهم الجنرال لوريج الامر بكاني المعروف بابي ذراع لبتو ذراع الامير ثم
بعد أن رتبوا أمورهم وأصلحوا حالهم وتأهبوا للزحف سار في مقدمتهم عثمان رفيق باشا بن
معه من العسكر الى المحلة المعروفة باسم (بعرزه) وهي تبعد مسيرة يوم للمجدد المسافرين
ويومين للراكب البطيء وسار بقية الجيش بسلاحه ومتاعه ودواب حمله عن مصوع في
يوم الاثنين سابع عشر ذى الحجة من السنة فلم تغرب عليهم شمس ذلك اليوم حتى نزلوا
على بلدة (بعض) فباتوا بها ليلتهم وأصبحوا سائرين على أحسن ما يكون من الهيئة والترتيب
فبلغوا (بعرزه) بعد الزوال بقليل فأنزلوا بها أجمالهم يوم الاربعاء وباتوا ليلة الخميس وفي
الصباح الذي هو أول المحرم افتتح سنة ثلاث وتسعين ساروا الى (عدرسه) فأنزلوا عليها
في غروب اليوم وباتوا بها ليلتهم وأصبحوا يريدون بلدة (قج خور) التي يقال لها أيضا
(قياخور) وباتوا بها ثم أصبحوا سائرين نحو (قرع) فبلغوها في ضحوة يوم السبت ثالث
المحرم المذكور وقياخور وقرع كلاهما من حدود مملكة الحبشان فرسم السردار الى أركان
حربه بتهيئة مكان لنزول العسكر فأنزلوهم غربي البلد ودقوا خيامهم ورتبوا دوابهم
وحفروا الخنادق وأقاموا الاستحكامات الخفيفة وأنشؤا قلعة على ذلك الاستحكام على
أحسن ما يكون من الوضع والنظام وخندقوا حولها خندقا على أعظم ما يكون من العمق
وسموا هذه القلعة بالقلعة الجديدة وقد مهدوا الطريق من مصوع الى قياخور وأزالوا
ما يتخلله من العقبات وحفروا به بعض الآبار للارتواء وانبث جماعة منهم بين الحبشان لشراء
الشعيراثونة الدواب والدقيق والعسل فاشنروا من ذلك شيا كثيرا وآخرون لاستراق سمع
الاخبار عن التجاشي يوحنا ومن معه من العساكر والاجناد وقد سار عن (عدوة) تحت
مملكته يريد الالتقاء بالعساكر المصرية والقتال معهم وما زال ينتقل بخيله ورجله من بلد
الى بلد حتى وصل الى ناحيتين يقال لاحدهما (دنبه) والاخرى (لزه) وهما يبعدان
عن العسكر المصري زهاء ست ساعات فترى هنالك * وجعل الامير حسن يرأسل كبار

الحبشان وأمرأهم ويستميلهم الى طاعة أبيه وينهبهم بالاماني الكثيرة فكان أول من مال
 الى ذلك (لح برو) عظيم (عد خاله) فحضر الى معسكر المصريين في نفر من الجند والاتباع
 فأكرم الامير حسن وفادته وأهداه شياً من الملابس وشقق الحرير وهذا الرجل من أهل العصاة
 وقطاع الطرق وله وقائع عدة مع العساكر المصرية في واقعة ارندروب وجاءهم أيضا (دجاج) ولد
 تكايل صاحب الجاسمين في جيش عظيم وطبول ورايات فللقاه الامير حسن ومقدمو عسكره
 وأحسنوا لقاءه وقدموا له الهدايا النفيسة من الشيلان الكاشميرية وشقق الحرير والمفصبات
 وقلائد الفضة وسروج الخيل المطهمة وأقام بالمعسكر المصري يوما وليلة وأطلقوا
 لقدمه بعض المدافع وحادثه الامير حسن فيما هم بصدده * وولد تكايل هذا من دهاة
 الحبشان وأصحاب الكلمة فيهم واجتمع حول المعسكر المصري بذلك الصقع الكثير من السوقة
 وأصحاب السلاع وأصناف الحبوب من الفول والعدس والشعير والسمن والعسل واللبن والدجاج
 والبقرة والخيول والبغال والضأن والمعرز فكانوا يبيعون على العسكر آمنين مطمئنين وكانوا
 مدة لبثهم بغير قتال شديدي التحرز والالتفات وكان كبار الضباط من الشرا كساسة شديدي
 الفسوة والجبروت على صغار الضباط من المصريين يؤاخذونهم بالعنف والشدّة على أصغر
 الصغار * قالوا لكي لا ينفشلوا * ويلقونهم في أضيق الجبوس عند أقل حادثة فكانت أيام
 هذه الحملة على صغار الضباط المصريين من أعس الايام وأشدّها وبلا * وكانت عيون الامير
 حسن وجواسيسه تنقل من أخبار النجاشي وعسكره في كل يوم أشكالا حتى أتت فأخبرت
 بان النجاشي على أهبة الزحف بخيله ورجله في يوم الثلاثاء حادى عشر صفر من السنة أى
 سنة ثلاث وتسعين فنادى راتب باشا في العسكر المصري بالتأهب والاستعداد للملاقاة العدو
 فتأهبوا ورحل يوحنا النجاشي عن دنيه ولزمه يريد مواقع المصريين فظهرت طلائع جيوشه
 ضحوة الثلاثاء وسمعت أصوات طبولهم وزمورهم فخرج فريق من المصريين ما بين
 مشاة وفرسان وجعاة من أصحاب المكاحمل والمدافع من القلعة ووقفوا على قيد فرسخ
 منها على أحسن ما يكون من النظام والترتيب وناوشوا العدو القتال فقامت الحرب بينهما
 على قدم وساق واشتد الطعن والنزال وحى الوطيس وعلت أصوات المدافع وارتفع
 الدخان الى عنان السماء فاطلم الجوّ والنقت الصفوف بالصفوف والتفت السيوف بالسيوف
 فأظهر الحبشان الفهقرى والرجوع فتبعهم العسكر المصري ومازالوا يتقهقرون والمصريون
 من خلفهم يصلونهم نارا حامية حتى قطعوا ذلك الوادى وعبروا خورا هناك وطلعوا على
 قطعة من اليدس توصل الى خورثان وكلاهما يجري فيه الماء والحبشان من أمامهم يناوشونهم
 القتال ولم يطل الحال على ذلك ساعة أو بضع ساعة الا وقد أخذ الحبشان المصريين
 من خلفهم يعملون في أقفيتهم السيوف والحرب وانطبقوا عليهم من كل جانب واشتدوا بالاطعن
 والضرب وكانت صفوف المصريين الذين خرجوا من القلعة للقتال بغير احتياط ولا مدد وربما
 كان ذلك لحكمة لا يعلمها الا العارفون بقنون الحرب والقتال وهجمت طائفة من فرسان

الجيشان على القلعة يريدون اقتحامها وأخذ الأمير منها وكانوا يظنون أنه بها فالتقوا به عند الخور الأول في جماعة من الحرس وأركان الحرب فاندفعوا عليه اندفاع السيل الجارف وأوشكوا أن يقبضوا عليه فساق بجواده وهم خلفه فلم يدركوه وتبعه من كان معه من حاشيته والعدو في أثره حتى دخل الحصن وأغلقت أبوابه وانفشل العسكر المصري أي انفشل واستولت عليه الهزيمة وأمر راتب باشا بخلعوا المدافع على من كانوا خارج الحصن ووالوا الرمي بأشد ما يكون فكانت قنابل المدافع تكس الاجسام من العسكرين كسابل فغلت بالمصريين فعلا تنفطر له الاكباد وتترق من هوله القلوب وما زال الرمي متراصلا الى قرب الزوال فتفرق من بقي من الجيشان وخلا منهم ذلك المكان فبطل رمي القنابل وقد امتلأ ذلك الوادي بالجثث والجرحى من العسكرين وجرى فيه الدم جريان الماء في خوره وكان المنظر مزججا للغاية ثم خرج فريق من العساكر المصرية لدفن الموتى فأقاموا على ذلك أياما

ووقع في أسر الجيشان كثير من العساكر المصرية وجماعة من أرباب الوظائف بالجيش فقتلوا منهم وخصوا وأذا قوهم من العذاب * قال أحمد رفعت بيك مقدم كتاب هذه الحملة في رسالته التي ألفها باسم * جبر السكسر في الخلاص من الأسر * وقد كان وقع في أسر الجيشان في هذه الواقعة ووفقه الله تعالى الى عقد رباط الصلح مع النجاشي ما نصه * وقد حضر اليينا والحرب قائمة ضابطان من سوارينا يستطلعان حال القلعة اذ ربما يكون قد دهمتا جنود الاعداء وعلمنا منهما انتصار عساكرنا وظهورهم على العدو قال وقد كان في القلعة جواد فأخذه خادم محمد نسيم أفندي أحد أصحابنا بقصد التوجه به الى مخدومه لتوصيل ماء اليه فنادت الخادم أن ارجع فلم يرجع وكان قصدي بذلك أن يوجد جوادى بجائبي حتى اذا فاجأتنا الاعداء بالهجوم واضطرتنا الحال الى مغادرة القلعة ألفت الجواد بجائبي ونجوت به مع الناجين * قال ولما لم يرجع الخادم بعثت خلفه بتابع لي يستحضره ويحجزه فلم يعد هو أيضا فاشتد حنقي وزاد غيظي وخرجت من القلعة ما شيا ومعى قريينة وجبجانة بقدر ما يكفي سعيا على الحصول على جوادى وطمعا في مشاهد هذه الحرب ومشاركة القتال وقد ظننت انه اذا حصلت هزيمة عساكرنا المحاربة أدركهم عسكر الاحتياط بالمدد كما شاهدت ذلك في محاربة كريد فأكون ما بين ذلك قد تمكنت من العود الى القلعة غير أن الامر كان بخلاف ذلك اذ لم يكن عساكرنا مدد ولا احتياط على حسب القواعد الحربية وما كنت أظن هذا الامر ولا أتخيل حصوله * ولما أخذت في السير وبعدت عن القلعة بمسافة ألف وخمسة مائة متر تقريبا وجدت حسن أفندي أحمد الكاتب معى حاضرا خلفي على قدميه ثم رأيت حضرة محمد علي بيك الحكيم راكبا بجير ومعه خادمه وشاهدت خادم محمد بيك جبر الميرالاي راكبا على بجير يحمل ماء لتوصيله الى مخدومه فأمر محمد علي بيك الحكيم خادم محمد بيك جبر بالتزول عن الجير كي أركبه ففعل ولما امتطيته سلمت القريينة للخادم

المذكور وسرنا وقد جاء تسليم القرينة للخدام من الحكمة كما سيظهر فيما بعد وبعد مسيرنا
ببرهة لم نشعر الا بالعجاج الثائر يغشانا شياً فشيأ وقد رأيت وقتئذ شاين من عساكرنا
راجعين بهرولة فسألتهما عن السبب فقالا ان عساكرنا انهزموا ولما أردت الرجوع بالجبر
قصر عن الاسعاف ثم حزن وعمد الى التقدم مجفلا عن الرجوع فلم أجد سبيلا سوى الترحل
فزلت عنه ولسان حال يقول

أنل قدحى تظهر الارض انى * رأيت الارض أثبت منك ظهرا

وقصدت العود ماشيا ولكن هيهات اذ بعدت المسافة ولم يمكنى الجرى قال أما
الكتاب فاندش وانذهل وقال هات يدك ثم افترق فنى الى الجبل وقد رأيت محمد على بيك
الحكيم راجعا بجواده وما لبثنا حتى وافقنا خيالة العدو فى المال ثم القلعة بالهجوم
فأحاطت بنا احاطة السوار بالمعصم وأقامت بيننا وبين القلعة سدا محكما ثم أقعدنى أحد
فرسان العدو فعمد الشاب المنهزم الى ضربه فقال لهما أمان فكفا أيديهما عنه فعاد الى
وجذبني من يدي فتخلصت منه بالعنف وأنا عن السلاح أعزل فصوب نحوى بندقيته ولم
يطلقها وربما كانت خالية من الذخيرة وكان تصويبه اياها من باب الارهاب ثم عمد الى
سيفه وضربني به ضربة جاءت خلف أذنى اليسرى فأسالت الدم فى الحال غير أنى لم أشعر
بها الا عند نزول الدم على ملابسى لما اعترائى من الدهش والانذهال وشتات الذهن
وتفرق البال ثم شفع الضربة الاولى بثانية صادفتى خلف العنق وكانت خفيفة الوطأة هينة
التأثير قائلا * كبدن * ومعناها بالجيشية اذهب وهنا انجلت حكمة سبق تسليمى القرينة
للخدام المتقدم ذكره اذ لو كنت حاملا لبعض السلاح لظننى الفارس محاربا وابتدرنى بالقتال
والكفاح * قال ولما كانت خيالتنا عائدة بالهجوم على القلعة طارعى الفارس المذكور
خائفا وجلا فاختفيت فى شجر المرسين فلما سلم منهم عاد الى فأدركنى بجنى ومخبتى وقهرنى
على القيام وكانت النيران فى أثناء ذلك تلقى من قلعتنا على العدو صدا لهجمات وردا لغاراته
فأخذ العدو فى القهقرى ونزل حينئذ الفارس الذى أمسك بي عن جواده اتقاء الاصابة
بالمقذوفات النارية راجعا الى وراء مخنيا فى سيرة مشيرا الى بالاعتداء به حتى أسلم من
الاصابة وكنت أشاهد بعض عساكر العدو وبعض عساكرنا الذين اختلطوا بهم فى
ماتهم الهجوم ومزدحم الرجعى يهابون بالرماس فيخرون على الغبراء مضرجين بالدماء وقد
أفضت بنا القهقرى الى نفق بالجبل فأوينا اليه وتوارينا به وكانت حينئذ تمر على رؤسنا
مقذوفات المدافع فتصدم بالجبال ولما توارينا بالجبل وصرنا على حذر من الوجمل أخذ
الأسر المذكور عيشى بي على مهل حتى وصلنا الى نهير فاغترف لى منه ماء بيده وسقانى وبعد
أن شربت شرع فى سلب ما على من الثياب فاخذ منى أولا الباطو وكان ملطخا بالدم وعلقه
بعنق جواده وبعد ذلك سرنا حتى جئنا الى ميدان واسع وكان ذلك فى الساعة الحادية
عشرة نهرا تقرىبا فرأيت هناك جوعا شتى ولم يمكنى أن أتبين فى الحال هذا الميدان الذى

أعده من قبل وذلك بسبب ما أصابني من الدهشة والفرق ووجدت هناك جملة أسارى من عساكرنا وقد سألت الأسر المذكور أحدهم عما إذا كنت أميراً من الأمراء أو غير ذلك فأخبره وكان لا يعرف أنى منهم مستدلاً على ذلك بزى وهيتى ثم رفق الأسر ساعتى وسلسلتها وأراد سلبهما فأخرجت نختى من السلسلة بحيث لا يرانى وأخفيتى فى جيب البنطلون لتعلقى به اذ هو عندى من منذ ثلاث وعشرين سنة فأخذ منى الساعة والسلسلة وعلقهما بعنقه وصار يدور حولى رابكاً ويقول كلاماً أفهمه قيل لى فيما بعد انه عبارة عن ترغى بشجاعته وذكر حسيبه ونسبه واثباته بأسير وبعد ذلك وصل بى الى محل فى هذا الميدان وأخذ يفتش على زملائه فلم يجد منهم أحداً وكان ذلك وقت الغروب وقد عرفت هذا الميدان وهو الكائن شرقى (فرع) الذى كنا اتخذناه معسكراتنا فى أول الامر اذ وجدت فى المكان الذى كنت فيه قطع ورق مما كنت أكتب فيه بختمى فقلت سبحان من أحلى بهذا المكان أسيراً وقد كنت فيه البارحة أميراً ولعلنى منيت بالأسر لحكمة مستورة عليها عند الله الى أن قال وفى صباح يوم الخميس ثالث عشر صفر رأيت عساكر العدو يحتشدون زمراً وأفواجا على هيئة القذلات واحتفروا للتوجه الى القلعة ثم ساروا ولم يختلفوا فى معسكرهم سوى الأسراء والنساء والصبيان وقد أوثقوا الأسراء وبعد برهة سمعنا صوت البنادق والمدافع منبهة بانتساب المحاربة واشتداد المضاربة وحى الوطيس بين الفريقين فانطلقت النساء الموجودات بالمعسكر عند اذ يصحن قاذلات أبيت أبيت وهى كلمة تضرع ومعناه ياسيدى ياسيدى وكن يسجدن على الأرض وبأخذن التراب وبذررنه على رؤسهن وهذا جميعه طلباً للنصر والتماساً للظفر وبعد ساعتين تقريباً عاد قوشو أسرى وعلت من حاله انفضال أمرهم وخيبة أملهم ثم صار عساكر العدو يؤبون بالنعاقب الى آخر النهار وسماههم الحزن والاكدار الى أن قال ولم يكن العدو أن يتغلب على الاستحكام فى محاربة يوم الخميس كما أسلفنا ذلك وقد رجع مهزوما مغلوباً مع كونه كرر الهجوم على الاستحكام دفعات متعددة من أول النهار الى آخره حالة أن الاستحكام المذكور لم يكن به سوى أورطة ونصف تقريباً من العساكر فلو أن السبع أورطات يعنى كامل العساكر التى ساقوها لهذه الغزوة التى خرجت من الاستحكام أقامت به وطقها الثلاث أورطات التى كانت فى قباخور لتسكون من ذلك قوة عظيمة فى الاستحكام ولا نهزم جيش العدو شرهزيمة ولم يقو على الفرب من الاستحكام لوصول مقدوفاتنا الى النقطة التى أخذها العدو معسكرنا ولو كنا اقتصرنا على قذف النيران على العدو من الاستحكام لكان هذا كافياً لكسره وتبديد جموعه قال وحصول الامر بخلاف ذلك نشأ من تفرق الكلمة وتباين الآراء لان جناب السردار رأى أن تحصن العساكر فى الاستحكام وتلحق بها الاورطات التى كانت بقباخور ورأى الغير ولعله الأمير حسن خروج العساكر لمقابلة

العدو وبقاء جزء منه بالقلعة مع عدم اخلاء قباخور من العساكر خشية انقطاع خط المواصلات * الى أن قال * ولكن اذا أراد الله نفاذ أمر سلب من ذوى العقول عقولهم حتى ينفذ أحكامه فيهم فان صاحب ذلك الرأي يريد (الامير حسن) لم يراع فيه التدبير اللازم حتى اننا ما كنا نعلم بسبب عدم الاستكشاف أن كانت مقذوفات مدافعنا تصل الى معسكر العدو أم لا وما علمنا وصولها الا بعد أن غادر جيش العدو هذا المعسكر قال وليس من الحكمة والتدبير أن تساق العساكر بأجمعها الى المحاربة دفعة واحدة ولا يكون لها مدد واحتياط للرجعي ولا يصح إيجاد العساكر في مكان على عينه جبل يمكن صعود العدو فيه واشرافه عليهم وحول أطرافه خور محيط به يمنع الرجعة فانه لما اصطفت عساكرنا في ذلك المكان وأقبل عليهم جيش العدو رموه بمقذوفات المدافع والبنادق فما وسعه الا الهبوط الى الخور والسير منه بحيث لم تره عساكرنا لعمق الخور حتى وصل منه الى ذروة الجبل فتسلط على عين جيشنا وكسر جناحه ولما عمد جيشنا الى الرجعي منعه الخور المذكور وقد انقلب فيه مدفع من مدافعنا بحيواناته وانكبت جملة من عساكرنا فيه على بعضهم فبطل الرجوع بالكلية ونشأ منه ذلك الفشل والهزيمة ووقوع فوج من عساكرنا في أسر العدو اه

ولما لم تتمكن الحبشان من أخذ الحصن عنوة وقد أخذتهم نيران مدافعه تراجعوا فنادوا فيهم بدفن الموتى ونقل الجرحى فدفنوههم ونقلوا جرحاهم ثم دقت طبولهم بالرحيل فانقلبوا في الحال على من عندهم من الاسرى فقتلوا منهم خنقا وذبحا وأفجعوا في ذلك جدا ثم ساروا أفواجا وهم في عدة كثيرة بكرائهم ومتاعهم حتى نزلوا على بلدة (اقلبه) وعسكروا بها فلما كان يوم السبت أرسل الملك في طاب أجد بيك رفعت وقد أخذ منه الجهد والتعب وبليلة البال مأخذنا عظيما فقام وسار مع رسول الملك وصحبتهما الأسر لأجد بيك وهما يقولان له أمان أمان ويفهمانه أنه ذاهب الى حيث النجاشي يكلمه في شئ من أمر الصلح والكف عن الحسب * قال أجد بيك فلما وصلنا الى ساحة الملك وجدت الأسر سجد خلف خيمة فظننتها خيمة الملك وأن السجود له واذا هي كنيسة الملك وهي مصنوعة من جوخ أحر أما خيمته التي يقيم فيها فن قماش أبيض قال وبعد برهة طلبت اليه وكان أول من قابلني على باب خيمته شخص يعرف قلبه من العربية وحينئذ خرج كل من كان عند الملك من أمير وحفير ولم يبق لديه الا عه المدعورأس سرايه فقال لي ذلك الشخص الذي قابلني أنت الكاتب وكبير الكتاب وهل تعرف مقدار السلاح والبارود وكل شئ فقلت نعم ولما دخلت في الخيمة ألذيت الملك متلما حتى لا يمكنني من معرفة صورته وقبيل لي فيما بعد ان من عادة ملوك الحبشة أن يفعلوا ذلك عند لقاء الاجنبي الممادى خوفا من أن يعرفه فيفتك به عند ستوح القرصة وكان الملك طويل القامة متوسط اللون بين السواد والسمر عازي الرأس مضافور الشعر مستطيل الوجه عسلي

العينين ضخم الانف بارز الاسنان حافى الاقدام تطيف الملابس وعليه منها جلالية ولباس وفوطة منسج بها وكان جالسا على سرير عنجريب وعلى يمينه محبدة وعلى يساره أخرى وهما كبيرتا الحرم من نوع الشطمة المستعملة قديما وأمامه على الارض كليمان وقد وقف بجانبه الشخص الذي دخل معي وسألتني عن وظيفة ثانيا وكان اذ ذاك عم الملك جالسا على الكليم دون السرير ولما لم يحسن الفهم ولم يجد التفهيم استعصر الملك شخصا آخر يحسن الكلام بالعربية فصارت ترجم بيني وبينه

فسألتني الملك بواسطة ترجمانه قائلا ما سبب حضوركم وما القصد منه قلت ان القصد هو تبادل التجارة بين الحبشة والمصريين وتوطيد دعائم المودة والالفة بين الفريقين ولما أرسل اليكم أرندروب بيك أحد النواب المدعو محمد عبد الرحيم للمفاوضة في هذا الصدد سجنتموه على أن الرسول لا يسجن ولا يهان فقال نحن لم نأمر بسجنه الا لكونه قال ان الخديوي يريد الاستيلاء على ما بين مصوع الى المأرب ومن العادة أن من يريد المفاوضة في هذه المسائل لا يأتي ومعه العساكر فأرندروب بيك حضر الى بلادنا ومعه الجنود فقلت له أما ما بلغه الرسول فلا ينطبق على الواقع ولا يوافق القصد فان كان ذلك فهو من عندياته وأما حضور أرندروب بيك بعساكر فمن المعلوم أن أراضى الحبشة عبارة عن وديان شحيقة وجبال وعرة وفيها قطاع الطريق والمتلصصون ونحوهم ويخشى من الطواف بها والتجول فيها بالانفراد فالعساكر التي أرسلت مع أرندروب بيك لم تكن الا للمحافظة عليه في أثناء الطريق واتصال خط المواصلات والدليل على ذلك أنه لم يكن معه سوى ألف نفر وباقي العساكر كان بالمحطات بقصد توصيل الذخائر اليه والى من معه حتى لا يكفوا جناب الملك بشئ ما فقال ولو أن كلامك من هذا القبيل غير أنى عارف ببواطن الامور وهمل عندك ختم تكتب لنا جوابا بالصلح فقلت نعم ولكن أخذه الاسر فأمر الملك حينئذ باحضار الختم وقد حصل فكان ذلك عندي من طلائع السرور وتباشير الجهور الى أن قال * ولما خرجت من عند الملك أجلسوني في خيمة معدة لحفظ الاسلحة الخاصة به وهى عبارة عن درق وحرا وبعض أمتعة فطلبت قرطاسا وقلما ودواة فاحضروا لى ذلك مع كاتب يدعى مسقى من أقباط مصر يشبهه صيارفة البلاد ولبسه ثوب وعمامة وهو حافى الاقدام وفى خلال ذلك كنت قد عدت بعزل عن الخيمة مع الترجمان وعرفنى أن اسمه دسسته وطالب منى الوعد بأن لا أنساه من البر والاحسان اذا نجح المطلوب وحصل المرغوب فقلت له لك ذلك وبعد حضور الكاتب قدموا لى من باب الاكرام بعضا من العسلية فتناولته مطمئنا فرحا وقلت لمن فى الخيمة (تملسوا) ومعناها باللغة الحبشية اخرجوا وقصدى بذلك اخلاء الخيمة من الناس فضحكوا تعجبا من اخراجهم مع كونهم هم أصحاب المحل ثم أخذت القـرطاس والقلم وكتبت مسودة خطاب عن لسان الملك الى جناب السبرنس حسن باشا وذكرته فيه

اننى كنت أود استمرار علاقات المودة بينى وبين والدكم الانغم ولكن حال دون هذه الامنية تمويهات مؤسخر باشا محافظ مصوع وبشه الا كاذب حتى بنى على ذلك حضور أرندروب بيك وحضوركم وكان ما كان فى وقعتى جندت وقرع من هدر الدماء بين الفريقين وهذا أمر لا يرضى الله ولا الناس ولم ندر ما هو المقصد والمرام من حضوركم بالجنود الى بلادنا فالاولى أن ترسلوا مندوبا من عندكم أو نرسل مندوبا من عندنا للمفاوضة فى شأن الامر الذى نحن فيه الى أن قال ونقلت مسودة كتابى على قرطاس بخط كاتبهم بدون تغيير فيها ولا تبديل ولا نحو ولا اثبات ثم عرض على الملك فختمه وحررت منى كتابا تركى العبارة الى جناب السردار بما شاهدته من حال جيوش الحبشة من حيث وفرتها وكثرتها وما لاح لى من هذا القبيل مع الاختصار وختمته باستلقات نظره الى ضرورة حسم هذه المشكلة بالحسنى

وقامت رسل النجاشى بالكتاب الى المعسكر المصرى وسلموه الى الامير حسن فشرع يكلمهم فى تقرير قاعدة يحسن الوقوف عندها فقالوا انما نحن أتينا فحمل خطاب الملك لا أن نتاجيكم فى أمر الصلح فرسم الامير حسن بأن يكتبوا الى النجاشى بأن يرسل اليهم رجلا مفوضا من قبله فى عقد رباط الصلح والكف عن الحرب والقتال فلم يرد عليهم النجاشى أياما كثيرة وسار فى عسكره عن (أقلبه) الى ناحية دوايه احدى بلاد الحماسيين وهى التى وصلت اليها العساكر التركية على عهد فتح السلطان سليم لبلاد الحبشة وتعطلت الخبارة فى أمر الصلح أو كادت ثم كتب النجاشى بعد ذلك الى الامير حسن يقول قوموا وتوجهوا ولا خوف على عساكركم منا ولا على مودتنا من الانقطاع فلما علم الامير حسن ما فى هذا الجواب سأل الرسول أن يبدى رأيه فى أمر الصلح فقال لم يأذن لى مولاي بالكلام فى شئ من ذلك فنكبر الامر على الامير حسن واستعظمه وسير فى طلب المدد فجاءته طائفة من الجنود فأمد بها المرابطين فى قباخور ولبث ينتظر ما سيكون وكانت كتبه ترد فى كل يوم على أبيه بمصر يحملها السالك العريق وكذلك كتب أبيه وكلمها فى معنى ما هم فيه * واشتد قلق أحمد رفعت بيك وخشى عاقبة التطويل وكان يرى من حركة الحبشان وميل كبارهم الى اعادة الذكرة على العسكر المصرى مازاده قلقا وانزعاجا فسير الى راتب باشا سرا يسأله تعجيل طلب الصلح وتلا فى الخطب قبل استفعاله وعدم التطويع الى اعادة الحرب التى لا تؤمن عاقبتها على حالة أن النجاشى موصوف بالحنان والرفق كارها لارافسة الدماء راغبا فى المسالمة والتودد فأجابه راتب باشا الى ذلك وحنه على عقد رباط الصلح والاسراع فى عمله قبل دخول الشتاء واشتداده على العسكر المصرى ومنه بالامانى الكثيرة ان هو عجل فى العمل فتقدم أحمد رفعت بيك الى النجاشى فى طلب تقرير قاعدة الصلح على ما فيه المصلحة للطرفين وما زال به حتى ألانه واستماله وهون عليه الامر فرسم له النجاشى بطلب أحمد زعماء العسكر المصرى يكلمه فى شئ من ذلك فسير أحمد رفعت بيك الى راتب باشا يطلب مبعوثا من قبلهم وضمن هو سلامته وعدم مس المبعوث بضر فلم

تكن الايام حتى جاءت الاخبار بقرب وصول على أفندي الربى أحد مقدي الفرسان
المصريين وأجد أفندي عبد الغفار ويوز باشى من الاقباط مبعوثين لعقد شروط الصلح
والمكف عن القتال فرسم النجاشى بالاستعداد والتأهب للقائهم فخرج للقائهم زهاء الالفين
من الحبشان بسلاحهم وآلات حربهم وكثر اللغط في معسكرهم بقرب وصول المبعوثين
فلما وصلوا وصاروا على مقربة من مقر النجاشى ترجلوا عن خيولهم ودخلوا على النجاشى
مع بعض الامراء الذين هم في ركاب الملك فأحسن النجاشى لقاءهم ورحب بهم كثيرا
ورسم بنزلهم على الرحب والسعة فأنزلهم في خيمة أعدت لهم وقدموا لهم شيا من المأكلى
والشرب ولبنوا يومين يتكلمون في قاعدة الصلح ثم اتفقوا على أن يرسل الملك رسولا من
قبله الى معسكر المصريين فسير معهم رجلا اسمه (ليكا منكاس ورقى) وهو من قرناء الملك فغاب
ليكا منكاس ورقى أياما وعاد معه شئ من الهدايا والتحف ومبعوثو الامير حسن المفوضون
بعقد رباط الصلح فتناجسوا في ذلك أياما فكان ما طلبه المصريون من الحبشان رد سائر
المدافع وآلات الحرب التى غنموها وفتح أبواب التجارة ما بين أملاك مصر والحبشة فكروه
النجاشى منهم ذلك وأنكره وقال لاسبيل الى رد شئ من الاسلحة البتة اللهم الا اذا كان
ما قدره خمسمائة بندقية لا غير فألح رسل الامير حسن فى الطلب وجعلوا يهتفون على
النجاشى الامر فأخذته ثورة الغضب وقال لاسبيل الى رد شئ وقد أخذتم من بلادنا
سنيث ومصوع بغير مسوغ شرعى ومصوع هى ميناء الديار الحبشية ومفتاحها
البحرى فلا سبيل قط الى شئ مما تطلبون وما كنا لتوقع من خد يويكم أن بناوبنا الشر
على غير موجب ولا سبب فكان من وراء فعله هذه ما هدرتموه من دم أولئك الابرياء فآله
عليكم شهيد ثم أعرض عن رسل الامير فأخرجوهم عنه وبأوا وأصبحوا وهم محل الاعراض
والازدراء بعد الذى اقوه من التجلة والتكريم فعادوا وأعلموا الأمير حسن بأعراض النجاشى
عنهم وعدم الالتفات الى شئ مما طلبوه وأن النجاشى لا يسلم فى شئ من السلاح والمتاع
ولا رد شئ مما غنمته عساكره البتة سوى ارجاع الاسرى والتعاقد على الحبسة والولاء وفتح
طريق التجارة بين الممالك حتى فلم ير الأمير حسن بدا من قبول ذلك فأعاد الرسل بالسمع والقبول
فرسم النجاشى بأحصاء الاسرى وردهم جميعا فنادى مناديه فى العسكر بذلك فاجتمع الاسرى
حول خيمة النجاشى حتى تكاملوا ثم أدخلوهم عليه وكان بينهم بيكباشى أميريكى اسمه
دورحاس فالتفت اليهم النجاشى التفاتة لطيفة كأنه يحبيهم تحية الوداع فخرجوا فصار أمامهم
أصحاب الطبول والزمر يضربون بطبولهم ويعزفون بزاميرهم والحبشان من نساء ورجال
على جانبي الطريق حتى دخلوا الى المعسكر المصرى سالمين

وعاد الامير حسن بن بقى من حاشيته وبطانته وبعض مقدي العساكر المصرية من
جماعة الشراكسة الى القاهرة ثم لحقهم طائفة من العسكر وقيت طائفة أخرى بعضها
بقياخور وبعضها بعد رسة وبعززه وهؤلاء لم يلبثوا طويلا حتى رحلوا الى القاهرة

وحل محلهم جماعة الباشا شيدوزق والعربان وبقي راتب باشا معهم حتى يأتيه مرسوم الخديو بالرحيل فلما جاء المرسوم بذلك نزل بمن معه في إحدى السفن التجارية وأزلوا ما بقي من المدافع والأسلحة والمهمات في ثلاث سفن كبيرة وبينما هي تسير قاصدة السويس اصطدمت إحداها السمكة فنقله بصخر في الماء فغرق بما عليها ولم ينج منها غير الرجال ووصلت العساكر إلى مدينة السويس فسيروهم على الأثر إلى رأس الوادي فأقاموا بها أياماً ثم سرحوهم فعادوا إلى أوطانهم فكانت هذه الغزوة من أعنف الغزوات وأشرها على البلاد وأهلها فسبحان من يؤتي النصر لمن يشاء من عباده

وكان الخديو منذ ولايته ميالا إلى جعل مدينة القاهرة على نسق عواصم الأمم المتقدمة والدول الكبرى في الترتيب والنظام وتنسيق المباني وتوسيع الطرق وغرس الأشجار لتظليل الشوارع وغير ذلك من المحسنات فبالغ في هذا الأمر ورتب له ديوانا مخصوصا بقيده به جماعة من المأمورين فصرفوا الأموال الطائلة في توسيع الطرق وإنشاء المباني وعمل المراسم ومحال اللعب العمومية وغرس الأشجار الكبيرة وإنشاء الحدائق والمنتزهات البديعة وإزالة الشوارع بالأنوار الغازية على ترتيب غريب وفرشوا الأرض بالحصى الأحمر وكسوها بالرمل الأصفر وهدموا الكثير من الدور والوكائل القديمة والجوامع والأضرحة والتسكيات توسيعا للطرق وعملوا من محاسن البناء والتنظيم شيئا كثيرا فكانت هذه الأعمال وغيرها مما سيتلى عليك بعضه سببا في أحوال الخزينة ونضوب الإيراد وذهاب الدرهم والدينار والاضطرار إلى الاستدانة من أصحاب الأموال بالرأب الفاحش فاستدانت الخزينة مبلغا من المال قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب فكانت هذه القرضة الأولى التي مدت إليها يدها بعد ولاية اسمعيل باشا ولم تكن استدانت شيئا من قبل سوى أربعة آلاف ألف على عهد سعيد باشا لتبائع بها سهامها من شركة خليج السويس فكثر من هذا الحين معاملة أصحاب الأموال للخزينة وانبسطت أيديهم فاعطوا وسجلوا وحاسبوا وطالبوا وطاولوا وتقربوا وتلطفوا في المعاملة فأمن الخديو جانبهم واستدان منهم أيضا باسم أملاكه وزروعائه الخصوصية فأعطوه فاستراد فرادوه واستطال فطاولوه حتى بلغ الدرهم دينارا فأنشأ معامل السكر العظيمة وسكك الحديد الزراعية والابنية الفاخرة والعمائر الواسعة وأكثر من بناء القصور والمنتزهات الغربية وبالع في أسباب الزينة بأحسن مما يفعله أكبر ملوك العالم وزوج أولاده وبناته وعمل لهم الأفراح والولائم العظيمة وجمع فيها سائر أرباب القصف واللهو وسائر المغنين والمغنيات وفرق الهدايا العظيمة والنصف الجميلة على رجال الدولة والعلماء والمشايخ وأنفق الأموال الطائلة وخص كل واحدة وواحد منهم بالاقطاعات العظيمة والعقارات الواسعة للنفقة وأنشأ لهم القصور المشيدة والمباني الفاخرة في باب الخرق وخطة الاسماعيلية والقبة والجيزة وبولاق اشكروا وزوج الكثير من جواريه وشراريه إلى كبار الجند وصغار الضباط وأصحاب الوظائف الديوانية وبني لهم الدور الواسعة وزينها بأنواع الفرش والبسط وأفخر

الآواني ورتب لهن الجماكي والمرتبات وأعطاهن غير ذلك من العطايا والتحف
وكان اذا نصب الايراد وأجلت الخزينة وعز الدرهم عمد الى الاستدانة وضرب
المغارم وتكثير المكوس وفرض القرض على البلاد شرقا وغربا واعادة أشكال المكوس
الغريبة التي كانت على عهد ملوك دولة السرا كسة الثانية وما زال على هذه الحال من
السرف والارغال وأصحاب الاموال تطاوله وهو يمنهم بالاماني البعيدة حتى اشتد بأهل البلاد
الضيق واستحكمت حلقاته فضجوا وعجوا وبجاء الاموال تجوب البلاد شرقا وغربا
وأصحاب الاموال من اليهود والروم تتبعهم فاذا تعذر على الممول سد مطالب أصحاب
الجباية أخذوا ما وجدوه عنده من غلة أو ماشية وباعوها لمن تبعهم من أولئك المرائين
بأبخس الأثمان وهكذا كانوا يفعلون بأهل كل بلد وقرية حتى عم الويل واشتد الكرب
واستفحل الخطب وعز الخالص * ولم تكن هذه المحن لتفقد الخديوي عن اعطاء نفسه
كل ما تنهه اذ سار في سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أي سنة ثلاث وسبعين
ومئتمائة وألف ميلادية الى دار السلطنة العثمانية ليستعطف صدر الدولة يومئذ ويزيل
ما كان بينهم من الوحشة والتقاطع فأحسن السلطان لغاه وبالع في اكرامه فأقام
في قسطنطينية أشهرا أنفق فيها من الاموال مالا يكاد يدخل تحت الحصر وتقرب من صدر
الدولة وكبار السلطنة وأزال ما كان بينهم وبينه من الوحشة وأولم الولايم الكثيرة وأهدى لهم
الهدايا العظيمة والتحف الفاخرة فلما تمكن من استرضائهم استقدم اليه من عاصمة
الفرنسيس الموسيو أوبنهايم المراهي الشهير واقترض منه قرضا برسم الخزينة قدره ثمان
وعشرون ألف ألف من الجنيهات أي ثمانية وعشرون مليوناً ذهباً بحجة وفاة جميع ما على
الخزينة من الديون وصرف ما يتبقى في شؤون البلاد وحاجاتها وكان من شروط هذا
القرض أن لا يدفع ملتزمه للخزينة مجلدا سوى ستة آلاف ألف نقدا وأن يعطى بالباقي
أوراقا * هي المعروفة في عرف أصحاب الاموال بالسندات الاسمية * فقام أوبنهايم
بهذا الشرط ووفى الى خزينة الخديوي هذا المال في آجاله فلم يهنم له الخديوي وتقدم الى
أمير المؤمنين في قبول ثلاثة آلاف ألف منه اعانة للخزينة السلطانية فقبل السلطان
ذلك ورسم بحمل المال الى الخزينة السلطانية وكأنه عز على الخديوي العود الى القاهرة
وفي خزينته شيء مما بقي من ذلك المال فعمد الى شراء الجوارى الحسنان والجواهر الثمينة
والاعلاق النفيسة وهادى جميع رجال الدولة وأنفق وأولم للسلطان وليلة لم يسبق لها مثال
جمع فيها من أصناف الزينة وبدائع الالاعاب النارية والانوار والفرش والمأكول والمشروب
مالا يمكن استيفاء شرح محاسنه وأولمت كذلك والدته لوالدة السلطان وليلة أخرى وقدمت
لها من التعابي والاعلاق الثمينة مالا يمكن وصفه قال بعض كتاب الاخبار وتحقق لهما
في تلك الليلة أنهما من أقرباء بعضهما تجتمعان في جد واحد ففرحتا بذلك فرحا عظيما
وجعلتا تتزاوران كل قليل ولا تنقطع من بينهما في كل يوم رسل التحية والتسليم ولبث الخديوي

بعد ذلك أياما كلها أفراح ومواسم ثم تقدم الى السلطان في أن يسرحه بالانصراف فسرجه فوصل الاسكندرية في أوائل ربيع الثاني من السنة فزينت له المدينة ثلاثة أيام وكذلك زينت القاهرة عند وصوله اليها ودقت البشائر وزاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء ولم يستقر به المقام حتى شاع الخبر بورد فرمان السلطان بتأييد سائر الفرمانات السابقة مع اضافة جميع الحقوق والامتيازات التابعة لترتبة الخديوية اليه وتحدث الناس في ذلك كثيرا ولم تقض الا أيام حتى قرئ الفرمان في محفل حافل بديوان السلطان الملك الغورى بقلعة الجبل حضره جميع رجال الدولة والامراء والكبراء والمشايخ والعلماء فكان مافي الفرمان المذكور بعد الديباجة المعلومة مانصه

قد نظرنا بعين الاهتمام الى طلبك باصدار خط سلطاني يجمع بالنفصيل والتغيير اللازم جميع الخطوط الصادرة بعد الفرمان المبالغ المرحوم الوالى محمد على باشا الحكومة الرئيسة سواء كانت تلك الفرمانين متعلقة بكيفية الخلافة أو بالحقوق والامتيازات الجديدة الممنوحة مراعاة لحال الخديوية وسكانها فهذا الفرمان من شأنه أن ينسخ في المستقبل حكم تلك الفرمانين جميعها بما يتضمنه مما سيأتى بعد ويكون دائما نافذا مرعى الاجراء ان كيفية وراثه الحكومة المصرية المقررة في فرماننا الصادر ثاني ربيع الآخر سنة خمس وسبعين ومائتين وألف قد غيرت على وجه أن تنقل الخديوية من متبوعى كرسيا الى كبير أبنائه ومن هذا الى أكبر أبنائه أيضا وهم جرا علما بان ذلك أدنى الى المصلحة وأرشد ملائمة لاحوال البلاد المصرية واختصاصا لك بانعطافى الذى صرت له أهلا بحسن سعيك واستقامتك واجتهادك وأمانتك واثباتا لذلك أجعل قانون الوراثة الخديوية لمصر ومتعلقاتها وما يتبعها من البلاد وقائمقامية سواكن ومصروع ووابعهما كما تقدم بيانه بحيث تكون الولاية لبكر أبنائك ثم لبكر أبنائك من بعده فاذا لم يرزق من ولى الخديوية ولدا ذكرا كانت الولاية من بعده لا كبر اخوته أو لا كبر بنى أخيه الا كبر كما تقرر ولا تكون هذه الوراثة لابناء البنات ولاجل تأييد هذه الاحكام ينبغى أن تكون الوصاية في حال كون الوارث قاصرا على الصورة الآتية

اذا توفى الخديوى وكان كبير ولده قاصرا أى غير بالغ من العمر ثمانى عشرة سنة يكون هذا القاصر بالحقيقة خديويا بحق الوراثة فيصدر اليه فرماننا بوجه السرعة وأما اذا كان الخديوى المتوفى قد نظم قبل وفاته أسلوبا للوصاية وعين كيفيةها وذوى ادارتها بصك ثبت بشهادة اثنين من رؤساء حكومته فأولئك الأوصياء يقضون اذ ذاك على أزمنة الاعمال عقب وفاة الخديوى ثم ينهون ذلك الى الباب لايثبتهم في مناصبهم ولكن اذا توفى الخديوى بغير وصية وكان ابنه قاصرا فجلس الوصاية عند ذلك يؤلف من متولى الادارة الداخلية والخارجية والمالية والخارجية والحفانية وقائد العسكر ومفتش الاقاليم فتجتمع هؤلاء الذوات وينتخبون للخديوى وصيا باجماع الآراء لا بالأغلبية فاذا تساوت الآراء لاثنتين من المنتخبين كانت الوصاية

مطلب
فرمان السلطان
القاضى بنقل وراثه
الخديوية من عقب
محمد على باشا الى ذرية
اسماعيل باشا

لأرفعهما رتبة باعتماد الترتيب السابق من الداخلية فما بعدها وبشكل مجلس الوصاية من الباقين فيباشرون جميعا أمور الخديوية ويعرضون بذلك لسلطنتنا السنية ليصدق عليه بالفرمان الشريف . وكما أنه لايجوز تبديل الوصى وتغيير هيئة الوصاية قبل انتهاء مدتها على الصورة الأولى أى فيما اذا كان تنظيمها بحكم وصية الخديوى المتوفى فكذلك لاغير فى الصورة الثانية وأما اذا توفى الوصى أوأحد أعضاء مجلس الوصاية فى خلال تلك المدة فينتخب بدل الاول أحد أعضاء المجلس وبذل الثانى أحد ذوات الحكومة ومجرد بلوغ الخديوى القاصر ثمانى عشرة سنة يكون راشدا فيباشر أمور الخديوية وذلك مما تقرر لدينا واقتضته ارادتنا السلطانية

ولما كان تزايد عمارة الخديوية المصرية وسعادة حالها ورفاهية سكانها من أهم الامور لدينا وكانت ادارة الملكية المالية ومنافعها المادية المتوقف عليها تكامل وسائل الراحة وتوفر أسباب السعادة عائدا على الحكومة المصرية رأينا أن نذكر كيفية تعديل الامتيازات وتوضيحها على شرط بقاء جميع الامتيازات الممنوحة سابقا للحكومة المصرية وذلك أنه لما كانت ادارة المملكة الملكية والمالية بجميع فروعها وأحوالها ومنافعها عائدة بالحصص على الحكومة ومتعلقة بها وكان من المعلوم أن ادارة أى مملكة وحسن نظامها وتزايد عمارتها وسعادة سكانها مالا يتم الا بالتوفيق والتطبيق بين الادارة العمومية والاحوال والمساويع وأمرجة السكان وطبائعهم فقد منحناكم الرخصة المطلقة فى وضع القوانين والنظامات الداخلية حسب الحاجة والازوم ولاجل تسهيل تسوية المعاملات سواء كانت من قبل الرعية أو من قبل الحكومة مع الاجانب وتوسيع نطاق الصنائع والحرف وتوفير أسباب التجارة منحناكم أيضا الرخصة المطلقة فى عقد المشاركات وتحديد المقاولات مع مأمورى الدول الاجنبية فى أمور المسالك والتجارة وسائر المعاملات الجارية مع الاجانب فى أمور المملكة الداخلية وغيرها على شرط أن لا يكون ذلك موجبا للاخلال بمعاهدات الدول السياسية

ولكون خديوى مصر حائزا لحق التصرف المطلق فى الامور المالية فقد أعطيت له الرخصة فى عقد القروض من الخارج بغير استئذان عند ما يجد لذلك لزوما على شرط أن يكون القرض باسم الحكومة المصرية وبما أن أمر المحافظة على المملكة وصيانتها من الطوارق وهو أهم الامور وأحوجها الى العناية من أقدم الوظائف المختصة بخديوى مصر قد منحناه الاذن المطلق بتدارك أسباب المحافظة وتنسيقها على مقتضى ضرورات الزمان والحال وبشكل أو تقليل عدد العساكر المصرية الشاهانية على حسب اللزوم بغير تقييد ولا تحديد وأبقينا كذلك لخديوى مصر امتيازه القديم بمنح الرتب العسكرية الى رتبة ميرالاي والملكية الى الرتبة الثانية على شرط أن تكون المسكوكات المضروبة فى مصر باسمنا الشاهانى وتكون أعلام العساكر البرية والبحرية فى القطر المصرى كالأعلام التى لعساكرنا

السلطانية بلا فرق ولا تمييز ولا يجوز لخدوي مصر أن ينشئ البوارج المدرعة بغير استئذان
أما سائر السفن والبوارج ففي استطاعته أن ينشئها متى شاء

ولاجل اعلان الاحكام السابق بيانها وتأييدها قد أصدرنا اليكم هذا الفرمان الجليل
القدر من ديواننا الهمايوني وأعطى لكم ممتما ومعتدلا وشارحا للخطوط الشريفة والاوامر
المنيفة الصادرة الى هذا التاريخ سواء كانت في وراثة الحكومة المصرية وفي كيفية الوصاية
أو في ادارة الامور الملكية والعسكرية والمالية والمنافع العمومية وسائر المهمات على شرط
أن تكون أحكام هذا الفرمان الجديدة نافذة مرعية الاجراء على ممر الازمان قاعة مقام
أحكام الفرمانات السالفة على ما اقتضته ارادتنا السلطانية فينبغي أن تعملوا قدر لطف عنايتنا
وتؤدوا الشكر لها وتصرفوا المهمة الى تنظيم الادارة على محور الاستقامة والى الاخذ
باسباب وقاية الرعية واصلاح شؤونها وتأيد راحتها على حسب ما فطرتم عليه من الغيرة
والاستقامة وحسن الاخلاق وما وقفتم عليه من أحوال تلك الجهات وأن تراعوا أحكام
الشروط الواردة في هذا الفرمان الجديد مع تأدية المائة وخمسين ألف كيس المضروبة على
الديار المصرية سنويا في أوقاتها المعينة الى خزنتنا العامرة السلطانية على القوانين
والقواعد المرعية انتهى بنصه

وظل الخديوي سائرا على ما يهواه من السرف وقهيد العقبات أمام أصحاب الاموال حتى
تمكنوا من أعناق أهل البلاد وأثقلوهم بالديون التي لاخلاص لهم منها ونال أموال قرض
الثماني وعشرين ألف ألف مانال غيره من أموال القروض السابقة له وكثرت الديون المعروفة
في عرفهم بالديون السائرة الى حد لا يمكن معه الوفاء ونضب جميع موارد الإيراد والخديوي مع
ذلك لا ينكف عن انشاء المباني الواسعة والقصور المشيدة والحداثق الناضرة والتغالي في
أسماب الزينة والترف والانيان بهجائب المقتنيات من بلاد الهند والصين غير مبال بما
وراء هذا كله * وكان المنولى النظر على الخزينة في هذا الحين المشير اسمعيل صديق
باشا فاعمل الفكرة في رأب هذه الصدوع فلم يكن في الامكان اصلاح ما كان واشتدت الازمة
واستحكمت على الخزينة حلقات الضيق وتأخر صرف الجباكي والمترتبات والعسوافات
ولا سيما جباكي الجند وعلوفاتهم فطالب أصحاب الديون السائرة بديونهم وتزاجوا على
أبواب الخزينة ولجوا ورموا المشير اسمعيل صديق باشا بسوء التدبير وفساد الرأي فبعد
الى معالجة الداء بالداء واصطفى له من بين أصحاب تلك الديون جماعة فجعلوا يخطون
ويخطون ويمنون غيرهم بالاماني الكثيرة ولكن على غير جدوى فانكمش أصحاب الاموال
وعز على الخزينة الاستدانة وابتعد عنها من كان أقربهم اليها واشتد الطلب على المشير
اسمعيل صديق باشا وقد سدت في وجهه أبواب الخيل ولج الخديوي باصلاح الحال تعاميا
وتغريرا ورسم ببيع سندات خليج السويس التي كان اشتراها محمد سعيد باشا باسم
الخزينة كما تقدم القول وسامها مع قنصل جنرال الانجليز وكله في شرائها باسم دولته

مطلب
بيع سندات خليج
السويس الى دولة
الانجليز

فأجابه الى ذلك وجعل بشرائها كي لا يسبقه الى ذلك فنصل جنرال الفرنسيين * فلما كان أوائل
سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية رسم الى المشير اسمعيل صديق باشا بتسليم
تلك السندات الى المستر بورج فنصل الانجليز بالقاهرة وقد كانت مودعة بالخزينة
وكنت يومئذ ترجمان الباشا المشار اليه فقصيت في تسليمها أياما فكنت أرى من
الاهتمام بأمرها والتعجيل بنقلها الى عاصمة الانجليز على ظهر دارعة حربية استقدمت
من الهند لهذا الغرض مالم يكن لأحد في حساب وفرح كبار سياسة الانجليز بشراء تلك
السندات فرحا عظيما وتكلم أصحاب صحف أخبارهم في الامر ففصلوا وقاسوا وألبسوه
نوب الاطراء والمدح وعدوه من معجزات سياسة ذلك الحين ثم انقلبوا يترعون الخديوي
وينذرون به ويرمون بالخيانة ويسمون المشير اسمعيل صديق باشا بالتغريب وظلوا على هذه
الحال أياما كثيرة لم تكن لهم بدا فيها أيضا خواطر أصحاب الديون السائرة ولا انثنى لهم
عزم عن الاحاح في طلب الوفاء * واشتدت الأزمة وانقلب أصحاب صحف أخبار الانجليز
من التقريع والتنديد الى تحريض صاحب سياستهم على التداخل في الامر والاخذ بناصر
أصحاب الديون والبحث في الاسباب المترتب عليها احوال الخزينة ونضب الإيرادات وأطلوا
الكلام في ذلك وبالغوا فلم يرض الا القليل حتى وردت الاخبار بقيام مبعوث من الانجليز يريد
القاهرة اسمه المستر (كيف) وهو مزود بشئ من الاسرار فاهتم الخديوي لحضوره وأمر فأعدوا
قصر النهضة من ضواحي القاهرة لنزوله ورتبوا له أصناف المساكول والمشروب وبعض
الخدم والحشم فلما وصل الى القاهرة لاقاه بعض رجال الديوان الخاص وأنزلوه بذلك القصر
فاستراح قليلا ثم زار الخديوي بقره بعبدين فاحسن الخديوي لقاءه وأولم له في تلك الليلة
ثم لم يلبث أياما حتى شاع خبره وتناقله الناس وقالوا ان كيف هذا جاء ومعه أواصر
بعضها سرية وبعضها علانية فالسرية منها كشف الخبايا من أعمال الخديوي والحامل له على
السرف وانفاق الاموال الطائلة التي استدانها باسم الخزينة في حين أن الخزينة لم تأخذ
منها الا القليل وأما العلانية فهي البحث في حساب الخزينة وتحقيق جميع أبواب الإيراد
والمصرف منذ تولى الولاية والاسباب الحاملة الى كثرة الاستدانة وأوجه النفع المترتبة
عليها الى غير ذلك من أبواب البحث والتنقيب وقد كنت يومئذ رسول المشير اسمعيل صديق
باشا الى ذلك المبعوث فكنت أؤدي رسالة كل منهما الى صاحبه وأحمل الى (كيف)
الصكوك والاوراق الديوانية التي كان يطلبها من الخزينة فكنت أرى منه رجلا عاقلا
رزينا واسع المعرفة وكان اذا طلب شأ من الصكوك أو الاوراق نقبه تنقيا فلا يتركه حتى
يأتى على ما فيه من صدق أو كذب وأقام على هذه الحال أياما ثم رحل عن مصر الى عاصمة
الانجليز فظن الناس أنه عاد صفر اليدين والامر على غير ذلك فانه لم ينكشف عن البحث
والاستقصاء والاتبان على جميع الامور من أبوابها حتى عرف مالم يعرفه أقرب الناس من

مطلب

حضور كيف رسولا

من قبل الانجليز للبحث

والتنقيب عن الخزينة

مقام الخديوى وأعرفهم بأحوال البلاد وأهلها وقد سألتى المشير اسمعيل صديق باشا عما استطاعته من أعمال كيف ونواياه مدة مكثي معه فأعلمته بما عرفت به وكشفته عما استكشفت فظن أن في الخبر اطراء ومبالغة وان الزجل سار عنا وهو لا يعرف شيئا من عوراتنا * وما جاء الخبر بوصوليه الى عاصمة بلاده حتى أرسل كبير سياسة الانجليز الى الخديوى يستنفضه الى استرضاء أصحاب الديون السائرة ويحذره من انقلاب الاحوال بسبب استجداد أرباب تلك الديون بحكوماتهم فكبر هذا الكلام على الخديوى واشتمد على المشير اسمعيل صديق باشا فاشتد الطلب على الفلاحين بقبض الثلث من الخراج مجعلا ثم الربع ثم ما بقى من المغارم الاخرى فلم يأت هذا كله بالغرض المطلوب واشتدت الأزمه باكثر مما كانت عليه وبقي الحال هكذا حينما وشاع الخبر بتكسر خاطر السلطان على الخديوى بسبب ما يلاقه أهل البلاد من أصحاب الجباية وتكلم أصحاب الصحف الاخبار الانجليزية في ذلك وبالغوا وهتولوا * فلما كان سابع عشر ربيع الثانى سبر السلطان سراوراته الى مصر ومعه خط شريف باستحسان مساعى الخديوى الذات الشاهانية ومحظوظيتها منها مع احواله فرضه زيلع ومطقاتها على الخديوية المصرية مقابلة خمسة عشر ألف جنيه عثمانى تضاف الى الخراج الذى يحمل الى الخزينة السلطانية فى كل سنة فبالغ الخديوى فى الاحتفال بقراءة هذا الخط وطير الخبر به الى الافاق فاستعظم الانجليز هذا الامر وكبر عليهم جدا وتجرد كبارهم الى المقاومة وخابروا كبار ساسة الفرنسيين فى ذلك وزينوا لهم الاتحاد على ما فيه المصلحة لأصحاب الديون وكان أصحاب السياسة من الفرنسيين ميالين الى الانتقام فأجابوا كبار سياسة الانجليز الى ما طلبوا وكتبوا الى الخديوى يسألونه التعجيل فى فض هذه الأزمه بالتي هى أحسن ويحذرونه شر العقابه فغناهم وبقي الحال هكذا أياما كثيرة

مطلب
حضور فرمان من
السلطان باستحسان
عمل الخديوى اسمعيل

وعاد أصحاب الديون الى الوقوف على باب المشير اسمعيل صديق باشا يطالبون بما لهم أو ببعض الشئ منه فلم يفلحوا فعمدوا الى الاستغاثة بقناصلهم وهؤلاء رفعوا الامر الى دولهم فظهرت لوائح الشدة وبانت دلائل الوحشة وجاء الخبر الى القاهرة بعزم دولتى الفرنسيين والانجليز على تسيير رسولين الى مصر باسم وكيلى الدائنين من رعايا الفرنسيين والانجليز وتحدث الناس فى هذا الامر فلما كانت أخريات سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية وصل المبعوثان المذكوران الى القاهرة ونزلا بالنزل المعروف بنزل شبرد بركة الازبكية واعتزلا الناس كافة ولم يقابلا الخديوى الا فى اليوم الثالث من وصولهما وكلماه فى سبب حضورهما وسألاه أن لا يكون بينهما وبينه وساطة ولا متكلم وان جميع طلباتهما المتعلقة بأمور يتما انما يطلبانها من شخص الخديوى دون غيره وهو يكلم بها من شاء من رجال دولته فشق هذا الامر على الخديوى وأكبره وتحقق أن فى الجراب ما فيه وكان الانجليزى منهما اسمه جوشن والفرنسى اسمه چوير

مطلب
حضور جوشن
الانجليز وچوير
الفرنسيين لتحقيق
ديون البلاد

وبالغ جوشن ورفيقه في البحث والاستقصاء عن موارد الإيراد وأوجه الصرف وأسباب الاستدانة وما أنفق وما لم ينفق حتى حصص الحق وبأن ولم يرض على ذلك الا القليل حتى رفعوا الى الخديوي محضرا بما رأياه من أوجه الاصلاح وهي * اقامة اثنين باسم مفتشين أحدهما فرنسوى والاخر انجليزى وتقسيم أعمال الخزانة الى قسمين قسم للإيراد ويرأسه الانجليزى وقسم للصرف ويرأسه الفرنسوى وسألاه التصديق على ذلك فلم يسعه الا الازعان ورسم به فلم يكن بأسرع من أن حضر الى القاهرة ذلك الذى تولى على الإيراد واسمه المستر رومين وحضر أيضا الذى تولى على المصرف واسمه البارون دى ملاريه وقبضا على زمام أعمال الخزانة وأمرها ونهيا وتصرفا واشتدا على أصحاب الجباية والمديرين وأخذ ما فى يد المشير اسمعيل صديق باشا من الوظائف فلم يبق له من الرياسة الا الاسم فقط ثم رفعوا الى الخديوي محضرا آخر بتسليم زمام الجمارك الى رجل من الانجليز يديرها على ما فيه المصلحة وبتشكيل هيئة من ثلاثة مأمورين أحدهم فرنسوى واثنيهم انجليزى وثالثهم مصرى يختصون بشغال السكك الحديدية غير تابعين الا الى جهة واحدة هي نظارة الاشغال العمومية فرأى الخديوي أن مستعظم النار من مستصغر الشرر وأنه ان تساهل مع جوشن ورفيقه اختبط عليه الامر واختلط الحابل بالنابل وخرجت موارد الإيراد من قبضته فلا يعود فى امكانه الحصول على شئ مما كان فجع الى المراوغة والتطويل وسير الى جوشن ورفيقه يعلمهما بان مصلحة البلاد وعادات أهلها لا تجيز تسليم الامور ليد أجنبية وأنهما يتفاوضان مع المشير اسمعيل صديق باشا فى ذلك فأبيا مكالمته وألح جوشن فى الطلب وطال الاخذ والرد أياما فلما رأى جوشن عناد الخديوي واصراره على الاباة تجرد للعداوة وأظهر ما كان يخفيه من الحقد فكان يدخل على الخديوي بمقره بلا تأدب ولا احتفال ويخاطبه بفحش القول وينهدهه بأفشاء ما علمه من خفى سره * قال بعض الكتاب * وأرسل اليه يوما رقعة يقول فيها * لقد كنت أتمنى أن لا تحذوبى مأمورىتى الى حد توجيه السؤال الى شخصك الكريم عن أمرهم دولة الانجليز معرفته ولكننى أرى نفسى مع زميلى مضطرين الى سؤالك أين صرفت الاربعة عشر مليون جنيه الباقية من قرض الخزانة والإيراد السنوى من عهد المرحوم محمد سعيد باشا الى هذا الحين * قال فلما اطلع الخديوي على هذا السؤال اضطرب وكبر عليه الامر فجعل يردد ويريد ويتكلم كمن أصابه هذيان ثم جمع اليه رجال الدولة وأصحاب الحل والعقد من العاملين والمتقاعدين وبينهم ولده الأمير حسين وهو يومئذ فى منصب تفتيش الاقاليم وشاورهم فى الامر فتكلموا فيه كثيرا ثم استقر رأيهم على تكليف المشير اسمعيل صديق باشا بالجواب على ذلك السؤال ولم يكن المشير بينهم فى تلك الليلة فكتب الخديوي الى جوشن بذلك واستدعى اليه المشير اسمعيل صديق باشا ورسم له بالجواب على سؤال جوشن فامتنع وقال لاجواب عندي البتة فشدد عليه وقال لابد من الجواب فقال ان كان ولا بد فلا جواب عندي سوى قول الحق والتزام جانب الصدق وهذه كتبك ومراسيمك تنبئك بما فعلته بتلك

الأموال وما بددته في الخل والترحال قال فاستعظم الخديوي هذا الكلام واضطرب منه أي اضطراب وراجع المشير فقال لا سبيل الى غير ذلك * وعاد رسول الخديوي ومعه جواب من جوشن يقول لا حاجة لنا البتة الى السؤال من اسمعيل صديق باشا خلافا لما بيننا من العهد ولا نطلب الجواب الا من شخصك بجمع الخديوي اليه محمد شريف باشا وولده الأمير حسين وبعض حاشيته ورجال ديوانه الخاص ولم يحضر معهم في ذلك اليوم أيضا المشير اسمعيل صديق باشا وتناجوا في الامر طويلا ثم انقض اجتماعهم على ما لم تصل اليها معرفته * فلما كانت الساعة الثالثة من ليلة الخميس حادى عشرى شوال من السنة ١٢٩٣ ثلاث وتسعين حضر الى مقر الخديوي بعابدين أحد أتباع المشير اسمعيل صديق باشا ومعه مكاتبة برسم خيرى باشا المهر دار وسله اياها ففضها واذا هي خطاب الى شخص الخديوي غاية في الشدة وفي بيان ما اصاب خزينة البلاد من الاحمال وما حل بالرعية من الضنك وسوء الحال باسباب افاعيل الخديوي وأنه هو برىء من كل تبعة مترتبة على كثرة الاستدانة والنفقة بغير حساب وأنه قد خلع نفسه من منصب النظر على الخزينة واعتزل من ذلك اليوم الوظيفة وترك الامر لمن بيده سبحانه وتعالى تدبير سائر الامور فدخل خيرى باشا على الخديوي وناولوه الخطاب فهاج عند رؤيته وماج وصاح على به الساعة فسار اليه خيرى باشا يستدعيه فامتنع ولم يحضر فجاء اليه طونينويك أحد رجال التشریفات فامتنع أيضا فارسل اليه أحد نشأت بيك فامتنع وبات ليلته تلك وأصبح يوم الخميس فجاء اليه خيرى باشا واجتمع به وجلس يكلمه ساعة ثم قاما معا وسارا الى مقر الخديوي بعابدين فلما دخل على الخديوي أحسن لقاءه وبش في وجهه وعاتبه وتلف في عتابه ثم مازحه وقضى معه ذلك اليوم ثم انصرف المشير اسمعيل صديق باشا من عنده في نحو الساعة الثالثة ليلا وفي ثاني يوم الجمعة صباحا جاء رسول الخديوي يدعوه كالعادة فسار معه الى عابدين وصعد الى مقر الخديوي فلم يلبث الا قليلا حتى جاءت عربة الخديوي أمام سلم الديوان وحولها طوائف الحرس على عادتهم ثم انحدر الخديوي ومعه المشير اسمعيل صديق باشا وركبا معا فسارت العربة بهما في الساعة الرابعة نهارا من الطريق الموصل الى قصر النيل فكانت هذه الساعة آخر العهد به رحمه الله تعالى وعقد الخديوي في تلك الليلة مجلسا بمقره بعابدين اجتمع فيه جميع رجال الدولة وأصحاب الوظائف العالية والعلماء والمشايخ ومفتى الديار المصرية وتكلموا في أمر المشير اسمعيل صديق باشا وأسندوا اليه فعل ما لا يحل من العصيان والكيد على الخديوي وحرروا محضرا بذلك وحكوا بتبعيته الى دنقلة احسدى مدائن السودان ووقعوا جميعا على ذلك المحضر فلم يعلم الناس الى هذا اليوم شيئا مما جاء فيه غير ما قلناه وقد قفلت دونه من تلك الساعة أبواب الوصول * حدثني صاحب لي * قال أو ظننت صدق الخبر القائل بتسيير المشير اسمعيل صديق باشا الى دنقلة وموته بها مبطونا * قلت نعم هو المصدق الذي لامرأه فيه فقال اعلم أنه لما ركب الخديوي مع المشير

العربة من رحبة عابدين سارت بهما والجند تخفروها الى قصر النيل وكان به الامير حسن ونساؤه يومئذ فلما وقفت بهما عند السلالمك التفت الخديو الى المشير وقال تبقي هنا قليلا حتى أزور ولدي وأرجع اليك فنزل المشير وجلس برهة لطيفة واذا بالامير حسن قد أقبل وهو يتلكأ في مشيته وسلم فقام المشير اجلالا له وحياء فنظر الامير اليه وقال قد رسم الخديو الساعة بالترسيم عليك هنا تحت حراسة هؤلاء الجند حتى تأتى الباخرة التي ستقلك الى دنقلة مبعدا فقال وما سبب ذلك يا مولاي وأى ذنب جنيت به وأنا أصدق الناس في خدمة أبيك وأشفقهم عليه وأطوعهم لشارته فقال لست أدري ويعلم الله هل لك من حاجة تسألنيها ففاضت عينها المشير بالدمع وقال لاشئ أسألك وانما أسأل الله الرحمة بي ثم نادى بأعلى صوته * يا غياث أغث عبدك وسكت وكانوا قد دبروا أمر تبعيده وأعدوا لذلك باخرة من بواخر النيل وأرسوها تحت القصر وحولها الجند تحرسها وقد أنزلوا اليها بعض المأكول والمشروب والمفروش وجماعة من الخدم والاتباع وطائفة من الجند ومقدمهم اسحق بيك أحد الضباط الشراكسة ثم عاد الامير حسن وخلفه الامير حسين ودخلا على المشير فوجداه هادئ القلب ساكن فقال له الامير حسن قم فقد تم كل شئ فهم يريد القيام فلم يقدر فأمسك الامير حسن بيده وخرج به من المكان وسلمه الى اسحق بيك مقدم العسكر المكلفين بحراسة الباخرة ومصطفى فهمي باشا محافظ المدينة يومئذ

قال الراوى لهذه العبارة وسمعت ممن يدعى أنه رأى المشير وهو خارج من المكان بين الاميرين حسن وحسين أن الامير حسين لما رأى جبينه وخور عينيه اطمه على وجهه وقال له لقد خانتك الايام يا ثيم فانهب * قال وعندي أنه لم يحصل شئ من ذلك فقد كان لوقوع هذا الامر الغريب في ذلك الحين دهشة عند القريب والبعيد ولما أنزلوه الى الباخرة أحاط بها الجند من كل جانب وأوصدوا جميع ما بها من الشبايك وأرسوها في وسط النيل فكان المشير يصيح وينادى كل قليل كانه في غرفة فومه ثم كثر هذيان واشتدت جلجلته وما زالت الباخرة في مرساها والناس يسمعون صياحه حتى غربت الشمس فأقلعت وسارت ببطء قاصدة الاقليم القبلى ولم تسر قيما ربع فرسخ من قصر النيل حتى خفي صوت المشير ولم يعلم ماذا جرى عليه بعد ذلك ثم سارت الباخرة عند شروق الشمس مترفعة الى الصعيد وقد طيروا الخبر الى الآفاق بعدم دنو أحد منها ولا خروج أحد منها الى البر فسارت في عرض النيل سيرا حثيثا وما زالت والناس في ريب من صحة الخبر حتى وصلت الى أسوان فنزل من الباخرة رجل على رأسه شملة من صوف وركب على جمل وساروا به على هذه الحال الى دنقلة ونزلوا بها أياما قلائل ثم أذاعوا خبر موت المشير مبطونا وعملوا محضرا بذلك بشهادة قاضى دنقلة ومديرها وبعض مأمورى الحكومة فيها وعادوا الى القاهرة وقد شوهده في سبابة اسحق بيك البني جراحة عظيمة فشاع خبر تلك الجراحة وتحدث الناس في أمرها وقالوا بأنها دليل على مقتل ذلك الشهيد

رحمه الله تعالى رجة واسعة * قال وأصبحوا ليلة القبض عليه وقد وصل خبر ما حل به الى نسائه فقام الصباح واشتد العويل والبكاء وهـرعت جميع النساء العائشات في نعمته الى دوره وأقن الصباح والندب فاشتدت الجلبة وعلت الاصوات فكانت ساعة تنفطر من هولها الاكباد وجاء رجال ديوان الخديوى الخاص ونفر من قومه الذين اصطفاهم لنفسه ودخلوا على نساء وجوارى المشير وأخذوا جميع ما فى الدور من تحف وأعلاق وأموال وأوراق الديون المعروفة باسم (بنات الخزينة) وكانت كثيرة ونقلوا جميع ما وجدوه من الامتعة الغالية وأدوات الزينة الفاخرة وأخرجوا جواريه وسراريه وفرقوه على بعض عامة الناس ومشايخ القرى ونقلوا جميع نسائه وذريته الى دار فى خلسة التبانة تحت قلعة الجبل وشرّدوا مماليكه وغلمانه وخصمائه وأقصوا بعضهم الى أقاصى السـنار والدارفور وضيقوا على خزندارته واثنين معها ليدلن على خبايا المشير وأمواله ونقلوه الى سراى الزعفران بالعباسية فلم يسترفن بشئ وقلن ان جميع ما كان له قد نقله أعوان الخديوى وأتباعه ٥ وجاء أصحاب بيت المال فأحصوا ما بقى من فرش وبسط وغير ذلك وضبطوه وبالغوا فى الضبط والتحرير فقام كل من كان له دين على المشير يطلب بما له وقد استبدل درهمه بدينار واشتد الطلب من كل صوب وحذب فعينوا لعل حساب تركته عمدة من أصحاب الوظائف فأحصوا مالا أصحاب تلك الديون وسجلوه وادعى الامير حسين ثلثى أولاد الخديوى بأن للخزينة على المشير قدرا من المال له صورة وكان قد تولى نظارة الخزينة بعد خلع المشير فأجابته العمدة الى ما طلب وجعلوا يبيعون ما أحصوه من فرش وبسط وطنافس وأسرة ومقاعد وكراسى وأواني فاخرة وغير ذلك فاستتراها بعض صغار الناس وبعض السوقة بأجنس الاثمان وظلموا على هذه الحال أيا ما ربح فيها من ربح وخسر من خسر وقليلون ويعلم الله هم الخاسرون وانقضى الامر وقد جمع ما ترك من متاع وزروع ودور وهى من أحسن الدور وأفخرها وأوسعها وأجملها زينة فأعطى الخديوى واحدة منها الى المشير محمد شريف باشا فانتقل اليها بعياله ورسم بجعل الاثنين الاخرين مقررا لبعض دواوين الحكومة فأزلا فيهما الخارجية والحقانية والخزينة والداخلية وهى باقية فيها الى يومنا الذى نحن فيه فسبحان من يرث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

قلت وقد كان بين المشير اسمعيل صديق باشا وبين أحد رجال دار الندوة الانجليزية مودة وصحبة كبيرة فكان اذا أتى الرجل الى القاهرة أيام الشتاء تبديلا للهواء على عادة كبار الانجليز لازم المشير وبالغ فى التقرب منه فاتفق أنه حضر الى القاهرة فى غضون الأزمة القائمة بسبب فعال جوشن وجوبير فاجتمع بالمشير اسمعيل صديق باشا وكلمه فى أمر بعثة جوشن ورفيقه وقد كنت يومئذ ترجحانها وكشفه على كثير من المسائل المهمة التى لا يصل لها هنا ونصح له أن يلتزم جانب الحزم عند الحاجة وأن يدفع عن نفسه بالتى

هـى فقال له المشير انى عزمتم على خلع نفسى وترك مناصبى فيوليه الخديوى من يشاء من اولاده فان منهم من يزاجنى عليه أشد المزاجـة قال ومن هو قال هو الامير حسين فاذا تخليت عن المنصب واعتزلته وجاءنى الطلب من جوشنكم * يريد جوشن الانجليز * وسألنى عما أعلمه من أمر المصرف والايراد وكيفية الاستدانة ولا أظنه الا فاعل ذلك أطلعته على ماظهر من الامر وما خفى وأعلمته بكل ما علمته من أفاعيل الخديوى منذ تولى الى هذا الحين فيخف عنى ما ألقيه من اضطراب الحال وبابلة الببال وأكون قد وفيت الذمة حقها والله يتولانى برجة منه * فقال له أو تأمن شر الخديوى والله لئن فعلت ذلك ليقتلنك شر قتلة وانى أراه داهية غادرا خذاعا يظهر غير ما يبطن فقال لم يبق فى قدرته فعل شئ من ذلك بعد أن نلت رتبة المشيرية فانا اليوم رجل السلطان لى ما للخديوى نفسه وعلى ما عليه * فقال الرجل لا يغرنك هذا الامر فسلطانك فى شاغل عنك بما لديه من المشاغل المهمة والخطوب المدلهمة فلا تعجل فى الامر واحذر التقرب من جوشن حتى يظهر الحق ويزهق الباطل ثم افترقا على ذلك فلما رفع المشير قصته الى الخديوى وقد تهـدده فيها بتبليغ جوشن جميع ما يعلمه من أمره كما تقدم الكلام سير الى صاحبه المشار اليه فجاء فقال لى قل له انى خلعت نفسى واعتزلت المناصب وأوعدت الخديوى شرا فقد عيـل منى الصبر واشتد بى الأمر ولم أرى خلاصا الا فيما فعلت فاذا تقول * فهت الرجل وظهرت عليه علامات الدهشة وسكت برهة ثم قال قد قضى الامر وغدربك صاحبك فقال لى قل له لا تخش من ذلك فانه غالب على أمره ثم افترقا على ذلك فلما شاع الخبر بتبعيد المشير الى دنقلا ذهب الرجل فى صباح الليلة التى أنزلوا فيها المشير الى الباخرة ودخل على الخديوى وتقدم اليه فى أن لا يصيب المشير أدنى ضرر فقال له الخديوى أخشى أنه يقتل نفسه بنفسه فانه مابرح منذ أنزلوه الى الباخرة وهو يشرب الخمر بالطاس ولا ينكف عنها فرجما عجلت بموته نفـرج من عنده حزينا ❀ واتفق أنى قابلته فى ثانى يوم فسلمت عليه فوجدته مقطب الوجهه كما سف الببال فرد على السلام وقال قتل صاحبى ويعلم الله قلت ومن أين أتاك علم ذلك قال كنت البارحة عند الخديوى أرجوه أن لا يصيب المشير ضرر فقال لى كيت وكيت فتحقت أنه مات لاحالة

وتقدم الامير حسين الى الخديوى فى طلب منصب النظر على الخزينة بدلا من المشير اسمعيل صديق باشا فولاه اياه فلم يستقر به حتى جعل بعزل ويولى ويتصرف فى صغير الامور وكبيرها ولم يقدر على ارجاع جوشن ورفيقه عن عزهما من اقامة موطنى الجمارك والسكر الخديوية كما شاء وقد عاودا الطلب والتزما جانب الشدة فلم ير الخديوى بدا من الاذعان ورسم بذلك فى أخريات شوال سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وعثمانية وألف ميلادية ومع هذا فلم يقف بهما الطلب عند هذا الحد بل طلبا أيضا اقامة مراقبين من جانب الدولتين الانجليزية والفرنسوية على جميع أعمال الحكومة فلا يبرم

أمرنا الا بمشورتهم ولا يعمل عملا الا برأيهم بحيث يبقى منهم ما دائما لا يتزعزع واقامة عمدة
من جميع الدول يكون من اختصاصها اجراء جميع الاعمال المتعلقة بديون الخزينة
ومرافقة تحصيل الاموال الاميرية وصرفها الى أصحاب الديون في آجال ضربت لذلك فرسم
الخديو بتنفيذ جميع ذلك صاغرا وحضرت العمدة الى القاهرة فأنشؤا لها مكانا مخصوصا
سموه * صندوق الدين * وتسموا هم كذلك باسم أعضاء صندوق الدين وجعلوا يتصرفون
في الامور فجمعوا اليهم جميع ايراد المديرين والمصالح الضامنة لدين الخزينة وتسيطروا
على جميع الاعمال الخاصة بأصول وفروع الديون فلما تم لجوشن ورفيقه ما أراد عادا الى
بلادهم يظنان الخلاص مما مضى والغلبة فيما هو آت وقام أصحاب صحف الاخبار من
الانجليز والفرنسيين يشنون عليهم ما بكل لسان ويقولون انهما انما أقاما بحكمة منهما دون
تطاول يد الخديوى الى أموال الخزينة سدا قوى البنيان فلم يكن في الامر شئ من ذلك
البتة اذ عاد الخديو الى العتب بموارد الايراد وأهمل كل عهد وميثاق وجعل يحمل منها
ما شاء من الاموال الى خزائن زرعائه وبعضها الى خزينته الخاصة وأعضاء صندوق
الدين ثملون بخمرة وظائفهم هذه العالية ومرتباتهم الفادحة التي لم تكن تخطر لاحدهم
على خاطر ولم يمض على ذلك الترتيب والنظام الجوشنى الجوىبرى سوى بضعة أشهر حتى
ظهر العجز في الايراد زهاء ثمانمائة ألف وعشرين ألفا ذهبا وتعذر القيام بمطالب أصحاب
الديون السائرة في آجالها وعادت الأزمة بأشد مما كانت عليه فتزاحم أصحاب تلك الديون
على أبواب الخزينة وأكثروا الالحاح واللباج وصاح بعضهم في وجه الامير حسين
وخطبته ببذى الكلام وخش القول وأقاموا الدعاوى على الخزينة أمام المحاكم المختلطة
فحكمت وشدت في التنفيذ وحجرت على الكثير من موارد الحكومة وأملا كلها فاشتد
الضيق بالخزينة واستحكمت حلقاته وزادت الامور خبالا واشكالا وأنفذت دولة الانجليز
الى المسترقيقيان قنصلها الجنرال بمصر أن يكلم الخديوى في الامر ويسأله سرعة القيام
بمطالب أرباب تلك الديون قبل استفحال الخطب وتفاقم الضرر فلم يلتفت الخديو الى
ذلك ولم تقصر يده عن أخذ كل ما وصلت اليه من أموال الخزينة وبقي الحال هكذا أياما
قد وقف فيها دولاب التجارة وضائق على أهل البلاد مسالك الرزق

مطلب

المواصلة على قتل
السلطان عبدالعزیز

وبينما كانت الأزمة في مصر نشتد والحال في ارتباك وخبال كانت الفتنة في دار
السلطنة قائمة على قدم وساق ورجال الدولة وأصحاب الحل والعقد فيما وراء باب السلطان
يعملون على خلعه ويحزبون الاحزاب ويهيئون العصب ويفتحون لافتنه أوسع الابواب * قال
بعض الكتاب * وتحرير الخبر * أنه لما أحس السلطان بمكايد الانجليز واتخاذهم رجال
الدولة وكبار السلطنة آلة صماء في أيديهم هم يمددون بها دولة الروس كلما رأوا منها تقدما
نحو أملاكهم الهندية أو تعطيل لرواج تجارتهم الاسيوية فتخسر السلطنة العثمانية
باسباب ذلك من الرجال والاموال والبلدان مالا يمكن معه بقاء عين أو أثر لمملكة آل عثمان

ففتن الى الامر وهم بمداركة الخطر ومال عن معاضدة الانجليز وأبغض سياستهم بغضا شديدا وتقرّب من قيصر الروس على يد سفيره الامير أغناتيف فصرح القيصر بذلك وتجنّب الى السلطان وتردّد بينهما رسل المودة والتسليم وتكاثرت رسائل المحبة وتناسيا ما بين الأمتين من العداوة القديمة وتعاهدا على كبح جماح الانجليز وإبعادهم عن أن ينالوا من السلطنة العثمانية بسياستهم ما كانوا ينالونه من قبل ودبرا لذلك تدبيرا حسنا للغاية فعلمت عيون سفير الانجليز بالخبر وأعلمته به فخافه جدا وسيربه الى كبير سياستهم فجاءته الرسائل بالتيقظ ودقة الالتفات فبث العيون والارصاد حول الامير أغناتيف وتجرّد الى المقاومة وجعل يستميل كبار الدولة ويشترهم بالذهب الرنان ثم كلمهم في التدبير على خلع السلطان والتخلص منه فالوا اليه وباعوا آخرتهم بأجنس الاثمان وكان ممن وافقه على ذلك نوري باشا ومحمد جلال الدين باشا صهرا السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدي باشا الصدر الاعظم وعوني باشا وقيصر لي أحمد باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام ومدحت باشا رئيس شوري الدولة وبقي هذا السر مكتوما بينهم حينما كانوا يحزبون فيه الاحزاب ويهيئون لايقاد نار هذه الفتنة أعظم الاسباب حتى تم لهم ما أرادوا ثم سلموا الامر بعد ذلك الى محمد رشدي باشا ومدحت باشا وحسين عوني باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام وانضم الى عصابتهم أيضا السلطانة والدة مراد أفندي بكر أولاد السلطان عبد الحميد وجعاعة من المايين وبعض كبار جنود الحرس وهم نجيب بيك وعلى بيك وغفري بيك وسعيد بيك ورضا بيك وغيرهم وجعلوا يتحينون الفرص ويتبينون انتفاعها وسفير الانجليز يمهّد لهم العقبات فلما أحكموا التدبير عمد الصدر الاعظم الى الادعاء على السلطان بالدعوى العريضة واتهمه بمخالفة العدوّ والتفريط في أعظم حقوق الامة والوطن وتعريض حقوق الخلافة الاسلامية الى الضياع والتعاقد مع قيصر الروس على ادخال جيش من الروس في قلب دار السلطنة للفتك بكبار الدولة وأركان الملة وانه خالف عوائد أسلافه السلاطين وحاكى جعاعة الفرنجة في عاداتهم ومجتمعاتهم وغير ذلك ورفع الى شيخ الاسلام هذا السؤال وهو

اذا كان زيد الذي هو أمير المؤمنين قد اختل شعوره فصار لاقدرة له على سياسة الامة وهو مع ذلك ينفق أموال الخزينة في ملاذه الذاتية ومنافعه الخصوصية الى حد لا تطيق الامة الصبر عليه وقد زاغ عن الحقائق الدينية وأخل بالامور الدنيوية وكاد يقلب هيئة الملك ويهدم أركان السلطنة وكان بقاؤه ضررا فهلا يصح خلع بيعته

﴿الجواب﴾ يصح كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه

فلما كان يوم الاثنين سادس جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى خامس عشرى مايو سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية هموا بخلع السلطان وأناطوا حسين عوني باشا بتدبير أمر ذلك وكلفوا شيخ الاسلام مع بقية رجال الدولة وزعماء العصاة بمبايعة السلطان مراد بن السلطان عبد الحميد خان فأنفذ الصدر الاعظم الى أمير

سفن الحرب السلطانية بالتأهب والاستعداد فجعل يرتب سفنه على هيئة حصار لقر السلطان وشاهد السلطان ذلك من بعض نوافذ مقره فاستغربه وسير الى أمير السفن يستعلم عن سبب تلك الحركة الفجائية فأجاب بأنه ليس في الامر ما يستوجب الخوف وانما هي مناورات لابد منها وعلم الصدر الاعظم ومدحت باشا بسؤال السلطان عن حركة السفن أمام مقره فخشياً أن يفتضح أمرهم ويتضح ماخفي من سرهم فلما كانت الساعة الثمانية من غروب ذلك اليوم اجتمع زعماء العصاة في باب السر عسكرية وخرج رديف باشا في ألفين وخمسمائة من الجنود وأحاطوا بسرأي السلطان احاطة السوار بالعصم وتسلم سليمان باشا حراسة ابوابها بمائة من تلامذة المدرسة الحربية وهم على ظهور الخيل ثم خرج حسين عوني باشا في عربة وسار الى مقر السلطان مراد وأنزله وأركبه في العربة وهو لا يدري ما الخبر فانزعج واشتد به الخوف حتى كاد يغمى عليه فلما وصلا الى باب السر العسكرية لاقاهما شيخ الاسلام والشريف عبد المطلب وأخذوا بيد السلطان مراد وهو يضطرب وكان رجال الدولة وكبار السلطنة وجميع أصحاب الحبل والعقد وكبار الجنود وقفا على الاقدام فاجلسوا السلطان مراد على كرسي وحوله زعماء العصاة وتولى جماعة من العسكر حراسة الابواب كي لا يخرج ممن حضر أحد وقام شيخ الاسلام فبايع السلطان وبايعه جميع الامراء والكبراء ورجال السلطنة وكبار الجنود وهو مع ذلك لا يتمالك نفسه مما لحقه من الخوف والفرع ووصل الخبر الى رديف باشا بتمام البيعة الى السلطان مراد فلم يشعر السلطان عبد العزيز الا وقد دخل عليه رديف ونفر من كبار ضباط الجنود فاضطرب واستكبر الامر جدا وقال كيف تأتون الي في هذه الساعة بغير اذن فقال رديف باشا أتينا لتخبرك بأن الامة خلعت بيعتك فقال كيف يكون ذلك وصاح في وجوههم فقال له رديف باشا انظر من الطاق فنظر واذا بالجنود قد أحاطت بمقره ومدافع مراكب البحر موجهة نحوه قيل فبكى وقال أو أنتم فاعلمون بي شيئاً الساعة فقالوا لا وانما سنقوم بحراسة ابوابك حتى ينقل بك الى سراي طوب قبو وفي نحو الساعة الحادية عشرة ليلاً أطلقت المدافع من البر والبحر ونادى المنادون في الشوارع والطرقات بخلع السلطان عبد العزيز وولاية السلطان مراد ابن أخيه فهرع الناس من كل صوب وحذب الى باب السر عسكرية وأصبحوا وقد نقلوا السلطان عبد العزيز من مقره الى سراي طوب قبو فذهبت معه السلطانة والدته وولده يوسف عز الدين أفندي وباقي أولاده ونسائه فأقامت والدته في جرة بجانب حجرته خوفاً عليه من فعال الاعداء وقد وكلاهما بحراسة السراي نفرا من الجنود ومعهم نجيب بيك وعلي بيك وهما من أصحاب الفتنة * قال أحد كتاب الأخبار * ولما تم نقل السلطان عبد العزيز الى ذلك المكان وقد نقلوا معه جميع متاعه ومقتنياته اجتمع جلال الدين باشا ومدحت باشا ونوري باشا وبقيّة أصحاب

الفتنة فجعلوا يدبرون أمر قتل السلطان عبد العزيز وأرسلوا إلى نجيب بيك وعلى بيك في أمر ذلك

واشتد القلق بالسلطان عبد العزيز من بقائه في سراي طوب قبو وتطير من ذلك فكتب في عاشر جمادى الأولى إلى ابن أخيه السلطان مراد يقول * بعد انكالى على الله سبحانه قد وجهت اعتمادى عليك فأرفع اليك مراسم التهانى بارتقائك تحت السلطنة وأبين لك ما بى من الأسف على أنى لم أقدر على القيام بخدمة الأمة كما تبغى ولكنى أوّل أنك تباع هذا الأرب وانك لاتنسى انى بذلت كل ما فى وسعى لصيانة المملكة والذب عن شرفها وأوصيك أن تذكر أن من صيرنى إلى ما أنا فيه الآن اغتاهم الجند الذين سلطهم أنا بيدى وحيث انى كنت كسير الرفق بالمظلومين ميالا إلى معاملتهم بالمعروف فأرغب اليك أن تأذن بنقلى من هذا المسكان الضيق الذى أنا فيه الآن إلى مكان آخر وانى أهنى نفسى بانتقال الخلافة إلى ذرية أخى السلطان عبد المجيد خان ﷺ فرسم السلطان مراد بنقله إلى سراي أخرى فلم يمكث بها غير بياض يومه ذلك وفى المساء أدخل نجيب بيك وعلى بيك المتولين حراسة المكان جماعة هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايرلى وأربعة من الخصيان إلى مقر السلطان وأخفوههم عن الناس فلما كانت الساعة الثالثة ليلا دخل عليه أولئك القوم ومعهم اثنان أحدهما اسمه نقرى بيك والثانى اسمه الحاج أحمد أغا فتقدم نقرى بيك وأمسك بكتفى السلطان وقبض مصطفى الجزايرلى والحاج أحمد أغا على ساقيه وتقدم مصطفى البهلوان وأمسك بأحد ذراعيه وقطع أوردته بمقراض ثم فعل كذلك بالثانى وما زالوا به وهو يصيح ويستغيث حتى خرج جميع دمه ومات فلفوا جثته بقميص أبيض وجعلوها إلى حجرة قهوة وحاق الحرس السلطانى وألقوها على حصيرة كانت هناك وقد شاهدت بعض ما حل بالسلطان جارية من جوارى والدته فصاحت واستغاثت فصاح لصياحها سائر الجوارى واشتد الصياح والعيول وعلت الضوضاء وكانت والدته السلطان قد خرجت من حجرتها لقضاء حاجة فجاءت بسرعة لترى ما حل بولدها وفلذة كبدها فلم يمكنوها من ذلك وأخذوا فى جل متاعه ومقتنياته وما كان عنده من تحف وأعلاق ثمينة إلى مقر السلطان مراد وكان مما أخذ من عنده سيف السلطان سليم فاتح مصر وهو من أشهر السيوف عند سلاطين آل عثمان وبنوا على تلك الحالة وأصبحوا وقد حضر إلى محل الجلثة بعض الوزراء وكبار الدولة وبعض المشايخ والعلماء ووكلاء سفارات الدول وطبيب سفارة الانجليز وماركو باشا رئيس المدرسة الطبية السلطانية وغيرهما من كبار الأطباء وكشفوا على جثة السلطان وبحشوا عما فيها فاختلفت كلمتهم ونحاجوا وطال بينهم الجدل وقال طبيب سفارة الانجليز ان السلطان هو القاتل لنفسه ووافقه على ذلك بعض الأطباء وقال رئيس المدرسة الطبية بل قتل عمدا ووافقه على قوله بعض الأطباء واشتد الجدل بين الفريقين وأبى رئيس المدرسة الطبية أن يوقع على محضر الكشف وأصر على

الاباءة وقد شوهده في جثة السلطان طعنة خنجر في جانبه الايسر وبعض خدوش في فمه
 وذهاب احدى أسنانه بضربة شديدة على فمه واشتد اللجاج بين جماعة اطباء ساعة ثم
 أشاروا بدفن السلطان قد فنوه في مشهد حافل للغاية ولم يكن حديث الناس طرا يومئذ الا
 أنه مات شهيد التقرب من قيصر الروس وتناقل هذا الحديث أصحاب صحف الاخبار الروسية
 وقالوا وعادوا وبالغوا في الشكوى لخاف رجال الدولة وخشوا العاقبة فأشاعوا أن قد أصاب
 السلطان أمراض عقلية بسبب تنزيله عن عرش السلطنة فاضطربت من ذلك اليوم أحواله
 وتبلبل بلباله فكان يتخيل له أن السفن راسية في بغاز المدينة ترسل ربح القنايل على
 العدو واشتد به هذا التخيل الى حد أذهب نومه في الليلة التالية نخلعه وأصبح فذهب الى
 الحمام على عادته ثم خرج منه ونزل الى البستان ثم عاد وأمر بعض الجوارى بفتح سائر
 الشبائيك والابواب ففعلن فتركهن وخرج الى البستان ثم عاد ثم خرج ثالثة ثم عاد ثم أراد
 الخروج من الباب الموصل الى البحر وفي يده غدارة ففزع الموكل بحراسة الباب فتهده به تلك
 الغدارة ثم عاد الى حجرتة وقد اشتدت به الاعراض وكثر هذيانة فصار يتخيل أن عدوا
 هاجم عليه فيصبح على الجند والحراس بان تطارده وعلى السفن بان تمنعه قالوا ثم طلب
 من بعض الجوارى أن تأتيه بمقراض ومراة ليندم لحيته فاحضرتهم ما له من والدته
 وانصرفت عنه فتأمل فرأى والدته تنظر من وراء الباب فصاح عليها وأمرها بالانصراف ثم
 حضر عنده بعد ذلك أحد قرنائته وجلس معه برهة فجعل يقص عليه خبر العدو الذي
 كان يتخيله ولزوم مقاتلته وفي أثناء الحديث أخذ المقراض وقطع به عرقا من أوردة ذراعه
 الايمن فهم الرجل بمنعه فلم يقدر فأسرع الى والدته السلطان ليخبرها بالخبر فقام السلطان في
 الحال وأقفل الباب وجميع شبائيك المكان وقطع عرق ذراعه الايسر أيضا ونام على فراشه
 حتى خرج دمه ومات * ويروون عنه غير ذلك أيضا مما لا يسعنا ايراده هنا * وعظمت الفتنة
 بعد موت السلطان عبيد العزيز وكاد يتطير شررها الى سائر الايلات وتظاهر جماعة من
 أصحاب الكلمة المسموعة والرأى المحمود في دار السلطنة بالتشيع اليه والرغبة في الاخذ
 بناره فخاف أصحاب الفتنة وبالغوا في الحيلة وعملوا على تفريق القوم ما استطاعوا وأوعزوا
 الى بعض أصحاب صحف الاخبار التركية فعملوا على السلطان عبيد العزيز حيلة منكرة
 ورموه بالمروق عن الدين وازهاب كرامة سائر المسلمين ووسموه بالخبال وذهاب العقل
 وأكثروا من الخبيسة والضوضاء حتى تخيل للناس أن أصحاب الفتنة في حل مما فعلوه
 * ومما سبى عليك من تحقيقى حادث خلع السلطان عبيد العزيز وموته وما جرى في
 شأن ذلك في خلافة السلطان عبيد الحميد سلطان هذا الوقت تعرف أى القوانين اصح
 وأى الحجتين أقوى وأشد فتحكم اما لأصحاب الفتنة واما عليهم والله يحكم بينهم وهو
 أحكم الحاكمين
 مات السلطان فكانت مدة سلطنته زهاء خمس عشرة سنة وله من العمر اثنتان

وستون وقيل خمس وستون سنة وكان كبير المعرفة واسع الدراية ميالا الى خير الرعية وإيراد البلاد موارد التقدم وال عمران بعيد العسف غير متعجب ولا مشاغب مبغضا للانجليز وسياستهم عاملا على التخلص منهم جهدا الاستطاعة فلم يبلغ مأربا ومات شهيدا جرأته رحمه الله برحمته الواسعة

ومات في أيامه ديتريوس بطررك المتأصلين بعد أن أقام سبع سنين وكان شهيدا عاقلا محبا للعلوم فاعتنى بترتيب المدارس وبالغ في وضعها على النحو الذي نجاه كيرولس مؤسسها فأعانه الخديو على ذلك وأقطع المدارس أرضا واسعة فأوقفت على عمارتها وتوسيع نطاق العلوم فكانت لها أعظم عضد ولما مات خلا الكرسي بعده أشهر ثم أقيم كيرولس وهو الثالث عشر بعد المائة وأصله من بلدة ترمنت باقليم بني سويف واسمه يوحنا من رهبان دير السبراموس بيرية شهات وهو بطررك المتأصلين الآن وله من الاعمال المبرورة والآثار المشكورة ما سيذكر في محله ان شاء الله

الفصل الرابع والعشرون

(في سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان)

وقام بالامر بعد السلطان عبد العزيز السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد بوضع بالملك يوم خلع عمه عبد العزيز سابع جمادى الاولى سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولم يمض على ولايته الا بضعة أيام حتى ظهرت عليه علامات الضعف ووهن العزيمة قبل وكثر هذيانه فكان يميل الى العزلة والانفراد ويخاف من كل شئ ويضطرب لاقبل شئ يراه أو يسمع به * وكان ليوسف عز الدين أفندي ابن السلطان عبد العزيز ياور لر كاه في أيام أبيه اسمه حسين بيك ابن اسمعيل بيك أحد أمراء الجراكسة الذين هاجروا الى دار السلطنة وكان حسين بيك هذا طاغية شديدا البأس جبارا وحسين عوفى باشا السمر عسكر بعلم حال حسين بيك ويخشى عاقبة بقائه في دار السلطنة بعد موت السلطان عبد العزيز فرسم بتسييره الى بغداد ليتولى رئاسة فريق من بها من العسكر السلطاني وأرسل اليه الفرمان بذلك فامتنع فأمر بحبس فحبسه أياما ثم عاد فأظهر الطاعة والرغبة في الرجوع الى بغداد وطلب مهلة يومين فأمهله فلما كان صباح يوم الخميس ثالث عشر جمادى الاولى خرج حسين بيك هذا من داره متسلحا بخنجر وأربع غدارات مسدسة وسار يريد منزل حسين عوفى باشا وسأل عنه فقيل له انه في بيت مدحت باشا فسار الى بيت مدحت وسأل الخدم عن عوفى باشا فقالوا انه مع بقية الوكلاء في مجلس مخصوص فاعلمهم بان معه تلغرافا يتعلق بباب السمر عسكرية يريد توصيله الى عوفى باشا فأغضوا عنه فلبث برهة لطيفة ثم صعد الى حيث

مجلس الوكلاء وأراد الدخول فتمعه حارس الباب فسأله حسين بيك ومن أنت قال سالم أغا
 خادم الصدر الأعظم فقال ادع الى خادم عوني باشا فاني في حاجة الى لقاء مولاه الساعة
 فذهب سالم أغا وترك الباب فدخل حسين بيك في الحال الى المكان الذي فيه الوكلاء
 وقصد حسين عوني باشا فلما دنا منه أطلق عليه غدارته طلقتين فأصابته فقام ليذفع عن
 نفسه فأنخرط عليه حسين بيك بالخنجر وطعنه عدة طعنات ثم أطلق عيارا على محمد راشد
 باشا فأصابه في عنقه فمات لساعته ومال على قيصري أحمد باشا أمير سفن الحرب فقام
 وأمسكه بيده فأنخنه بالجراح وقد تمكن قيصري أحمد باشا وبقية الوكلاء من الهرب الى
 بيت النساء وأغلقوا دونهن الابواب وجاء أحمد أغا خادم الصدر الأعظم مسرعا وهجم
 على حسين بيك ليقبض عليه فصصره حسين بيك قتيلا وقصد كسر الباب الذي حال
 بينه وبين بقية الوكلاء فلم يفلح بفعل يكسر المصاييح وأخذ شمعة ليوقد بها الاستار كي
 يحترق جميع المنزل ليتمكن من الفرار فلم يقدر ان جاءت طائفة من العسكر وكبسوا
 عليه وأمسكوه وقد قتل أحد العسكر وشكري بيك ياورد ركب الصدر الأعظم
 وزجوه ليلته تلك في السجن وأصبحوا وقد عجلوا بالحكم عليه بالتجريد والقتل
 شنقا * فلما كان فجر يوم السبت أتوا به بين طائفة من الجنود وعلقوه على شجرة في
 ميدان بايزيد وبقي معلقا الى يوم الاثنين * قال بعض الكتاب وكان عند عمل
 التحقيق معه ساكن القلب هادئ اللب لم تأخذه أخذه من الخوف وكان يظهر الاسف
 على من مات من ضباط العسكر والعسكر ويقول ودت لو أتي أدفت قيصري أحمد
 باشا أيضا كأس المنون كما ذافها عوني ورشد * وتحدث الناس بما فعله حسين بيك
 فاختلقت الاقوال وتباينت ثم عادوا فاجتمعت كلمتهم على انه انما فعل ذلك بهم انتقاما
 لقتلهم السلطان عبد العزيز واتصل خبر هذا الحادث بالسلطان مراد فكبر خوفه قيل
 واشتد هذيانه وتغيرت أحواله واضطربت فكان لا يعرف أحدا ولا يميز بين الضار والنافع
 وكان الصدر الأعظم يخفي حقيقة حاله عن الناس وقيل بل كانت أمه تظهر أنه عاقل
 رزين وتعمل على اخفاء حقيقة أمره ولا تقرب منه أحدا فلما طال تحجبه عن الناس
 لاسيما عن قناصل الدول وقد اشتدت به علته استحضروا له طبيبا غساويا اسمه ليدزورف
 قد اشتهر ب مداواة المجانين فلما شاهد أحواله وخبر أموره حكم بعدم نجاحه فاجتمعت كلمة
 الوزراء وكبار الدولة على خلعه وكتبوا الى خير الله أفندي شيخ الاسلام سؤالا في
 معنى ذلك وهو

إذا جئنا امام المسلمين جنونا مطبقا ففات المقصود من الامامة فهل يصح حل الامامة
 من عهده (الجواب) يصح والله أعلم * كتبه الفقير حسن خير الله عفى عنه ٥ واجتمع
 الوزراء في يوم الاربعاء عاشر شعبان وقرروا خلعه بيعته والبيعة لاختيه السلطان عبد الحميد
 فخلعوه فكانت سلطنته ثلاثة أشهر وثلاثة أيام لا غير ووردت الاخبار بما وقع له الى القاهرة

فكان الخديو في شغل عنها بما هو فيه من نكد الحال وبليلة البلبال بسبب مطالب أصحاب الديون وقيام دولة الانجليز لنصرتهم كما ستره في محله ان شاء الله تعالى

الفصل الخامس والعشرون

(في سلطنة السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد المجيد)

وقام بالامر بعهد خلع السلطان مراد أخوه السلطان عبد الحميد ابن السلطان عبد الحميد خان بوبيع بالملك في يوم الخميس حادى عشر شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة ست وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية تولى السلطنة والملك في ارتبائه والفتنة قائمة والعمالات في اضطراب فعمد الى سن القوانين والنظامات الدستورية الحافظة لحقوق جميع الرعية على التساوى بلا فرق ولا تمييز وكان التفريق بينهم يومئذ قد أخذ مأخذه حتى تفرقت جامعتهم وتفرقت كلمتهم وعمل النقاطع فيهم عمله فنالت الدول أصحاب الغايات السياسية من ذلك ما لم تنله بمجد السيف وكرات المدافع * ورسم في خامس شوال سنة ثلاث وتسعين بتأسيس مجلس لنواب البلاد يتألف من هيئتين احدهما ينتخب أعضاؤها أهل البلاد وتسمى بمجلس المبعوثان والثانية تنتخب أعضاؤها الحكومة وتسمى بمجلس الاعيان وكان المتولى الصدارة العظمى يومئذ محمد رشيد باشا نخلعه وولاهها أحمد مدحت باشا وهو صاحب ذلك الدستور وأنفذ اليه صورة من القانون الاساسى الذى أنشئ لجميع الاصلاحات الواجب العمل بها في جميع ماوراء الباب * قال بعض الكتاب وكان هذا القانون يشتمل على مائة وتسع عشرة مادة فرسم بنشره والعمل به من يومه في جميع أنحاء المملكة وأصدر فرمانا بذلك في سابع ذى الحجة فكان من أحكام ذلك القانون المساواة بين صنوف الرعية وعدم التفريق بين الناس كافة وتحديد اختصاص مجلسى المبعوثان والاعيان وإبطال مصادرة الناس في أموالهم وترك القسوة والتعذيب في تحقيق الجرائم ومنع السخرة والعونة وعدم عزل القضاة الا بحكم شرعى وتعيين مواجب العمال والولاية وجعل التعليم اجباريا واعطاء الحرية للطبوعات وغير ذلك مما لا يسعنا ابراده هنا مفصلا * قال بعض الرواة فلم يستقر بمدحت باشا منصب الصدارة حتى داخله الغرور وجعل يعمل على خلع السلطان عبد الحميد وارجاع السلطان مراد الى تحت الملك ويسعى في فصل الخلافة الاسلامية عن مسند السلطنة العثمانية وجعلها عربية فيمن بقى من قريش من أشرف مكة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فأشارت الى ذلك وتكلمت عنه مع التعقيد والابهام * قلت وهذه سياسة غلاد ستون زعيم الاحرار بديار الانجليز وأمنيته منذ نعومة أظفاره وكثيرا ما كتب وخطب وحض على أخذ شعار الخلافة من ملوك آل عثمان واعطائه الى من بقى من قريش أولم يصلح للإمامة من غير قريش وكان عربيا

فلما أحس السلطان عبد الحميد بذلك رسم في حادى عشر المحرم سنة أربع وتسعين
 بخلع أحمد مدحت باشا وتنزيله عن منصب الصدارة وتبعيده عن دار الخلافة وأقام محمد
 أدهم باشا بدله فكانت صدارة مدحت باشا شهرين لاغير * قال بعض كتاب الاخبار ولم
 يبعد مدحت باشا عن دار الخلافة حتى تحركت إمارتا الصرب والجبل الاسود وجعلتا
 تحشد الجيوش وتعدّ المعدات وتدرّب العساكر والاجناد على فنون القتال وقدم جماعة من
 ضباط عسكر الروس فتطوّعوا في خدمة جيوش الامارتين وجعلوا يحصنون الدروب ويوعرون
 الطرق وعلم السلطان بما وراء ذلك فرسم بحشد جيش ضخّم على الحدود فلما تمّ للامارتين
 ما أراد تاسير كل من نقولا وميخائيل أميرى الامارتين الى دار السلطنة يطلبان كثيرا من
 المطالب الطويلة العريضة فأبى عليهما السلطان جميع ما طلباه وكثر الاخذ والرد بين الطرفين
 وأصر كل منهم على مزاعمه فأجتازت عند ذلك عساكر الجبل والعساكر الصربية الحدود
 وزحفّت على بلاد السلطنة العثمانية فزحف عليهم العسكر السلطاني من كل صوب وحذب
 ومقدمهم الغازى عثمان باشا وعبد الكريم باشا السرعسكر وقتلوههم حتى هزموهم
 شرمزيعة ثم سارت طائفة من العسكر السلطاني الى مدينة ميناشيوار ففتحوها عنوة وساروا
 الى مدينتى عاليكيناس ودلجراد ليقاتلوهما فلم ينالوا منهما حصانتها ومنعتهما فرحلوا عنهما
 وعبروا نهر مورارا فلم يشعر العدو الاوهم قد صاروا على الشاطئ الايسر من النهر وساروا
 يريدون مدينة بلغراد عاصمة الصرب فهال الصربيين هذا الامر وأزعجهم جدا فخلو
 المدينة عن يدافع عنها ويقايلونها فعبروا النهر على الفور وساروا خلف العسكر السلطاني
 فوقفوا للقائهم وأصلوهم نارا حامية حتى انفشلوا وتفرق جمعهم وركن أكثرهم الى الفرار
 من غير ضرب ولا طعن فسارت العساكر نحو بلغراد لايمانعهم في طريقهم مما منع وجاء
 الخبر بذلك الى دار السلطنة وكان أمير الصرب قد سار الى سفراء الدول بدار الخلافة في
 طلب الوساطة بينه وبين الباب العالي خوف الهزيمة والعار فكلموا السلطان في ذلك
 فقام وطاولهم حتى صارت العساكر السلطانية على أبواب بلغراد ووردت الاخبار بذلك الى
 السفراء فقاموا وقعدوا وشدّدوا في الطلب فسير السلطان الى مقدم عساكره بالكف
 عن القتال حتى يأتيه الامر وفتح سفراء الدول باب المخاطبة في أمر الصلح وكثر الاخذ
 والرد وترددت السفراء على الباب العالي أياما والقلوب فى اضطراب فأبى الباب العالي امضاء
 الصلح الاعلى ثلاث خصال * الاولى حضور أمير الصرب الى دار السلطنة وتقديمه
 مواجب الخضوع والتذلل لعرش السيدة الشاهانية * الثانية أن تحتل الجيوش
 السلطانية ثانيا جميع القلاع التى كانت الدولة سمعت لامارة الصرب باحتلالها مؤقتا في
 سنة اثنتين وعشرين ومائتين وألف هجرية * الثالثة ابطال الرديف من ايلة الصرب وأن
 لا تجيش الايلة من الآن عسكرا الا عشرة آلاف فقط وبطاريتين من أصحاب المدافع
 لحفظ الأمن فى الداخل فلم يرض الدول هذا الطلب واتفقوا معا على اكراه الباب العالي

على ارجاع حالة الصرب والجبل الاسود الى ماكانت عليه قبل الحرب وتأسيس ادارة وطنية مستقلة في البوسنة والهرسك لتراقب مأمورى الحكومة وكذلك في البلغار وأنفذ اللورد دربي صاحب سياسة الانجليز يومئذ الى الباب العالى مكاتبة بذلك وأوعز الى سفيره في دار السلطنة بأن يلج في الطلب فبالغ السفير في ذلك فلم يلتفت السلطان الى قوله وأوعز الى مقدم الجيوش المحاربة باعادة الحرب والقتال حتى يتمكن من تدويج العدو ويرجعه الى ماكان عليه من الطاعة فرخفت العساكر السلطانية على مدينة جونيس وكان بها الجنرال تشرنايف الروسى ومعظم العساكر الصربى فقاتلوهم قتالا عنيفا ثم هجموا على المدينة هجمة رجل واحد فتقهقر الصربيون وتركوا المدينة وأخلوا كذلك مدينة دجبراد فدخلتها طائفة من العساكر السلطانية وسارت طائفة أخرى تريد مدينة بلغراد عاصمة الصرب لقتال من بها وأخذها عنوة

وطار الخبر بذلك الى الاتفاق وعلمت به سائر الدول فاهتموا له اهتماما عظيما وأنفذ صاحب سياسة الروس الى سفيره في دار السلطنة بطلب ايقاف رضى الحرب ومهادنة الصرب والجبل الاسود مدة شهرين فان لم يجب الباب العالى الى ذلك انقطع حبيل العلاقات السياسية بين الدولتين وضرب لذلك أجلا ثمانيا وأربعين ساعة فأجاب الباب العالى الى ذلك كارها وقد أحس بتأهب الروس للقتال واضرام نار الحرب وبدأت من هذا الحين تظهر دلائل الوحشة بين الفريقين وخافت سائر الدول عاقبة ذلك لاسيما دولة الانجليز فخبر صاحب سياستها كبار ساسة الدول فى عقد مؤتمر فى دار الخلافة لتقرير قاعدة ثابتة لراحة جميع المسيحيين من رعايا الدولة العثمانية ومنع الحرب التى صارت على قاب قوسين فاجابته الدول الى ذلك بعد أخذ ورد وسيرت مبعوثيها الى دار السلطنة وقررت كثيرا من الطلبات التى لايطيق الباب العالى الصبر عليها ولا الازعان لها ثم اجتمع جمعهم فى سراى البحرية وحضر بينهم مندوبو الدولة فتكلموا فى الامر كثيرا وطال اجتماعهم أياما على غير طائل فرسم السلطان حينئذ بعقد مجلس من كبار الدولة وأعيان السلطنة ورؤساء الاديان كافة فلما تم اجتماعهم وكانوا زهاء المائتين عرض عليهم طلبات مبعوثى الدول فاستعظموها وقالوا هى منذلة وصغار وحط من كرامة الدولة ومقام الخلافة العظمى فلا سبيل الى قبولها وفى المملكة من يذب عن ذمارها فراجعوهم فى الامر فقالوا جميعا الحرب والنار ولا هذا الخرزى والعار وكثرت جلبتهم وعلمت أصواتهم ثم انصرفوا وقد سطوروا بذلك محضرا فرفعه صفوت باشا مندوب الدولة يومئذ الى أصحاب المؤتمر فكبر عليهم ورحلوا عن دار السلطنة ولم يقابل منهم أحد أمير المؤمنين كما جرت العادة بذلك واختلط الحال على كبار سياسة الدول واختبط واستعصى عليهم حل هذه العقدة وقد رأوا من الباب العالى عنادا وتصميما وكانوا لايتوقعون منه غير الطاعة والاذعان فجعلوا ينعون الروس بالأمانى البعيدة ويمتقون عليهم الأمر * فبينما هم على هذه الحال اذ عاقدت الدولة العثمانية الامارة

الصربية على الصلح وترك القتال على شروط رضى بها الفريقان وشاع الخبر بذلك فخشيت دولة الروس العاقبة وفطنت الى الامر وتحققت أنها ان لم تبادر الى اشهار الحرب مع الدولة العثمانية قبل أن تعاقده أمير الجبل الاسود الصلح أيضا انفشل الروس وسقطوا في أمرهم فحضر القيصر الدول كافة على تدارك الخطب قبل استفحاله فاجابته الى ذلك وأرسلت الى دار السلطنة أنذارا تهدد فيه الباب العالى بأن تتركه شأنه مع دولة الروس ان هو أصصر على الاباء والعناد فرد عليهم القول ردا جريلا وصمم على مطالبه كلها فتجرد قيصر الروس عندئذ الى التأهب والاستعداد وجعل يحشد الجيوش ويعد المعدات ويكثر من نقل المؤن والذخيرة وأنفذ الى مندوب الباب العالى فى عاصمة الروس بان يرجع الى سلطانه وبانه قد أعلن بالحرب والقتال فسار المندوب الى دار السلطنة فاصلى الخبر الى الباب العالى وتناقله الناس حتى قاموا وقعدوا واشتد بينهم الهرج ونودى فى جميع العسكر بالخروج وأفتى شيخ الاسلام بانه قد حق على كل مسلم الغزو والجهاد وبان يضاف الى ألقاب أمير المؤمنين عند الدعاء له على المنابر لقب غازى عملا بحديث صاحب الشريعة القائل ﷺ من جهز غازيا فى سبيل الله فقد غزا ﷺ

وورد الطلب من الباب العالى الى الخديوى بإرسال مدد من العسكر المصرى ليسير مع العسكر المنصور لقتال الروس فاهتم بذلك الخديوى وأظهر العناية وجهز طائفة من المقاتلين ومقدمهم الامير حسن ثالث أولاده ومعه جماعة من كبار الضباط الشراكسة فحملتهم بعض السفن الى دار السلطنة واشتركوا مع العسكر السلطاني فى عدة مواقع * قال بعض كتاب الاخبار * وقد أبلوا بلاء حسنا ونالوا من الروس فى عدة وقائع واشتد القتال بين الفريقين وحى الوطيس واجتاز الروس نهر الطونة بغير قتال وقيل بل كانوا يدفعون بالامر الخفيف ثم ألحوا فى القتال فاحتلوا مدينة ترنوف ثم مدينة ينكوبلى وسار الجنرال جوركو فى عسكره فاحتل مضائق البلقان التى هى أبواب مضيق شبكا واشتدوا على العساكر السلطانية شدة بالغة وجاء الخبر بذلك الى دار السلطنة فكبر خوف الناس وعظم اضطرابهم واشتد قلقهم وهم الكثیر منهم بالجلساء عن دار السلطنة فلم يتمكنوا حيث رسم السلطان فى جادى الأولى من السنة أى سنة أربع وتسعين بجعل دار السلطنة تحت الاحكام العرفية فانكمش الناس وأخذوا حذرهم وكانوا يتوقعون هجوم العدو على المدينة فى كل لحظة واشتد الروس فى القتال والنصر ملازم لهم وجاءوا لحصار مدينة بلقنه وكان بها عثمان باشا فى ثلاثين ألفا من المقاتلين فسير الى دار السلطنة فى طلب المدد قبل أن يتمكن الروس من تشديد الحصار وألح فى الطلب ووردت رسائله تنترى على ديوان الحرب مفهمة بالحض والاستنهاض فلم يلتفتوا الى ندائه والروس تشدد فى حصار المدينة يوما عن يوم فكان عثمان باشا يقاتلهم فى كل يوم من وراء الاسوار كي يشغلهم عن تشديد الحصار فلم يفلح ووالى الروس الهجوم على المدينة لعلهم يفتحنها فلم يتمكنوا حتى تم لهم حصارها

فضيقوا وشددوا ومنعوا عنها الوارد من كل جانب ووصلت الاخبار بذلك الى السلطان فكبر عليه الامر ورسم بخلع عبيد الكريم باشا سردار العساكر السلطانية من منصبه وتنزيل درويش باشا من منصب رياسة ديوان الحرب لظهور خيانتته وسوء تدبيره وخلعوا أيضا جماعة كثيرة من كبار الضباط وصغارهم لخياانتهم لسلطانهم وبلادهم وحكموا عليهم بالنفي والتعبد وأكثروا من التغيير والتبديل في مراكز الجند ومواقف القتال استدرا كلما فات وسيروا المسدد الى عثمان باشا فلم يتمكن من الوصول اليه لاحاطة العدو بالمدينة من كل صوب وحذب وسيروا طائفة أخرى لتقاتل الروس على مضيق شبكا وأخرى لدفع جيوش ولي عهد القيصر الزاحفة على بلاد الدولة العثمانية واهتم السلطان لذلك وظن بلوغ الآمال وارجاع العدو فاقتتلوا قتالا شديدا وأبلاوا بلاد حسنا ونالوا من الروس وجاء الخبر للقيصر بما حل بعسكره فسار من فوره في قلة الى ميسدان القتال وقبيل بل جاء جريدة وسير الى أمير الجبل الاسود يسأله العون والمسدد بجاءه في نحو مائة ألف مقاتل وكثير من الاسلحة والكرارخ وقاتلوا العثمانيين قتالا عنيفا للغاية وانتصروا عليهم في عدة وقائع واشتدوا في حصار بلقنه شدة بالغة وألحوا في قتال من بها من العساكر فكانوا لا ينسكفون عن الرمي عليها في الليل والنهار وما زال الرمي من الفريقين متراسلا حتى نفد ما عند العساكر السلطانية من المؤن والذخيرة فنادى عثمان باشا فيمن بقي من العسكر بالخروج من المدينة ومهاجرة العدو فاما أنهم يموتون جميعا شهداء الدفاع عن ملجأ الخلافة أو انهم يسلمون فخرجوا جميعا واندفعوا على خطوط العدو وثابروا على القتال والعدو يصلهم نارا حامية حتى أصابت عثمان باشا مقدمهم جراحة في ساقه الأيسر فسقط عن جواده وسقط جواده أيضا ميتا وشاع خبر موته بين الجند فانفشلوا وسقطوا في أمرهم وهموا بالرجوع الى المدينة فلم يتمكنوا من ذلك لدخول العدو بها ورميه بالقنابل عليهم تباعا فصاروا بين نارين فلم يروا بدا من التسليم فألقوا عنهم سلاحهم وسلموا بأنفسهم وكانوا قد نقلوا عثمان باشا الى أحد البيوت القريبة من موقف القتال فقابلته أحد كبار ضباط الروس وبالغ في اجلاله وتعظيمه ونقله في إحدى العربات الى مدينة بلقنه وبينما هو في الطريق قابله الغرنديق نقولا وأمير رومانيا فأوقفاه وسلبا عليه وبالغا في ملاطفته اظهرا لفضله واكبارا لشهامته

وتقوت عزيمة الروس لسقوط بلقنه في أيديهم فتقدموا نحو دار السلطنة وهم يفتحون كل ما صادفهم في طريقهم من الحصون والقلاع فخرج عند ذلك أمير الصرب عن الطاعة ونقض ما كان بينه وبين الباب العالي من العهد ونهض الى معاونة الروس بالرجال والمال فاشتد الامر على الباب العالي وسدت في وجه العساكر السلطانية أبواب الفلاح وتولاهم الفشل وكادوا يقنطون من النصر والغلبة فأنفذ السلطان الى الدول الكبرى في الوساطة بينه وبين قيصر الروس فطاولوه ولم يهتموا الى ذلك وبقيت الحرب قائمة بين الفريقين حتى دخل الشتاء وكثرت الثلوج والامطار وهم مع ذلك لم يتمكنوا

وسارت جيوش الروس تريد الاغارة على بلاد البلغار والرومل الى الشرقية وتقدم الجنرال جوركو بعسكره فاجتاز جبال البلقان ونزل على مدينة صوفيه تحت البلقان واحتلها ثم سار الى مدينة فليبيه واحتلها أيضا وسارت طائفة من عسكر الجنرال سكوبلف الى مدينة أدريه فقاتلت من بها واحتلها عنوة ولبثوا في هذه المدن أياما حتى أصلحوا حالهم وساروا في كثرة يريدون دار السلطنة فلم يجدوا في طريقهم من يمنعهم أو يساوسهم الحرب لحصول الطريق حتى صاروا على أبوابها وبينما كان الروس يتقدمون نحو دار السلطنة في عدة وافرة كانت عساكر الجبل الاسود تقاتل مدينة انتيباري حتى ملكتها وسارت حتى وصلت الى ضواحي أشقودره ودخلت أيضا العساكر الصربية مدينة نيش وأحاط الاعداء بمعظم بلاد الدولة من كل صوب ودرب وقد زاد الامر وبلا وشدة جلاء المسلمين من أهل البلغار وغيرهم عن أوطانهم ونزلهم على دار السلطنة وهم في أسوء حال من العرى والجوع فملأوا شوارع المدينة وحاراتها واهتم الباب العالي بما كولههم ومشروهم وملبوسهم ووقودهم لوقر البرد وتبرع أهل البر والاحسان بالمال للنفقة واهتموا لذلك اهتماما عظيما ومع هذا فقد فشت بينهم الحيات الخبيثة وكثر فيهم الموت واشتد فكافوا بموتون بجانب الجدران وعلى أبواب بيوت أهل الخير فكان المنظر محزنا والخطب عظيما

ورسم السلطان بتسيير أربعة من كبار الدولة الى حيث الغراندوق نقولا ليكلموه في تقرير قاعدة للصلح بين الفريقين يكون من ورائها ابطال الحرب وحقق الدماء فساروا الى قسزاتلق والتفوا بالغراندوق وكلوه في الامر فأجابهم الى ذلك وسار بهم الى مدينة أدريه وقد سير الى القيصصر في طلب اجازته بعقد شروط الصلح فأجابه فامضى معهم عهدا في المحرم افتتاح سنة خمس وتسعين كان فيه منح الاستقلال الاداري لامارة البلغار والاستقلال السياسي لكل من مملكة رومانيا ومملكة الجبل الاسود وأعطاهم بعض أملاك من أملاك السلطنة وتكليف الخريضة السلطانية بنفقة الحرب فان لم تدفعها عينا أعطت بها قسلاعا أو حصونا من قلاع السلطنة ثم قرروا بينهم قاعدة للهدنة ونودي في العسكرين بالكف عن القتال فبطل الحرب وكفى الله المؤمنين شر القتال وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فقامت الدول الكبرى وقعدت وترامت ظنون كبارها الى المرى البعيد لا سيما دولة النمسا فانها كانت تخشى من قرب الروس من حدودها فأنفذ امبراطورها الى الدول في طلب عقد مؤتمر لينتظر في شروط ذلك الصلح وماهيته وألح على دولة الانجليز في ذلك فأجابته الى ما طلب وأشارت على الدول بذلك وكلمت الروس في الامر فطاول التميصر وحاول ولم يبلغ الدول شيئا مما وقع الاتفاق عليه بينه وبين الباب العالي وقد كان يأبى وساطة الدول وعدم تدخلهم في أمر الصلح وطال الاخذ والرد بين الدول وبعضهم أياما فازعج لدول امتناع القيصصر وعدم اجابة طلبهم وكثر الفيل والقال واختلط عليهم الحال وكثرت الاشاعة بدخول الروس في دار السلطنة وعمدت دولة الانجليز الى استعمال

استعمال الشدة والترهيب فسيرت سفن حرجها الى دار السلطنة لمنع الروس من الدخول من القسطنطينية فاجتازت الدردانيل عنوة ورست أمام المدينة تخاف الناس من ذلك وأخذتهم الطيرة وكثر لغتهم وتحديثهم في هذا الامر ورموا رجال الدولة وكبار السلطنة بالخيانة والتدليس وقام جماعة من رجال مجلس المبعوثان يعيرون على أصحاب الحل والعقد سوء تدبيرهم ويرمونهم بالمرور عن الدين فرسم السلطان بنفيهم وتبعيدهم فأقصوهم عن دار السلطنة وكثر الهرج والمرج وكادت تلتهم نار الفتنة في جوف القسطنطينية واختلط الحال على السلطان فجعل يكثر من العزل والتولية في مناصب الدولة وخلع الصدر الاعظم أدهم باشا وولى مكانه أحمد جدى باشا فلم يمض على ارتقائه منصب الصدارة سوى أيام حتى خلع أيضا وأبطل لقب الصدارة بلقب رئيس الوكلاء وعين في هذا المنصب رفيق باشا فلم يلبث أن عزل في خامس عشر ربيع الثانى وولى مكانه الصادق محمد باشا واشتدت الازمة فاستحكمت الوحشة وكره الناس أصحاب الحل والعقد وبدأت تظهر دلائل الفتنة

فلما كان سابع عشر جمادى الأولى قام رجل بخارى الاصل اسمه صعاوى من أصحاب الدسائس والفتن وهو أحد أركان العصاة التي كان ألفها الأمير مصطفى فاضل باشا أخى الخديوى اسمعيل وسمهاها باسم (چون ترك) أى تركية الفتاة وصرف عليها الاموال الطائلة فكان لها في قلب هيئة السلطنة وخلع السلطان عبد العزيز وقتله وغير ذلك من الفتن والدسائس الداخلية اليد الطولى وكان الأمير مصطفى فاضل باشا هذا يتبنى أنه يرى جميع ذلك بعينه ولكنه مات قبل أن يخلع السلطان باشهر وعهد صعاوى هذا الى ايقاد نار الفتنة في جوف القسطنطينية وخلع السلطان عبد الحميد واعادة السلطان مراد الى منصب الخلافة وكان في دار السلطنة زهاء مائة وخمسين ألفا من المهاجرين وكلهم هم ناقلون على رجال الدولة كارهون للسلطان فقام بينهم صعاوى خطيبا وكان فصيح اللسان قوى الجنان وجعل يزين لهم خلع السلطان عبد الحميد ومبايعة السلطان مراد ثم سار في جماعة منهم في ذلك اليوم الى سراى چراغان التي هي مقر السلطان مراد واقحموها من البر والبحر وقتلوا من كان على أبوابها من الحرس واتصل صعاوى بغرفة السلطان مراد وسلمه طنبجة وأخذ بيده يريد الخروج وقد علت الضوضاء وكثر صياح العلامة فتراح الناس من كل صوب وحذب واشتد الخوف بهم شدة بالغة وظن السوق دخول الروس الى المدينة واعمالهم السيف في أهلها فتسابقوا الى غلق حوانيتهم وهرعوا الى بيوتهم يدفعون عنها ايذاء العدو وجاءت طائفة من جند الحرس السلطاني الى سراى چراغان وكبست على أصحاب الفتنة من البر والبحر وأعملوا فيهم القتل بحمد السيف فلم تكن الساعة أو بعض ساعة حتى أتوا على آخرهم الا من طال عمره ومات صعاوى وصالح بيك مقتما هذه الفتنة وجاء الامر من السلطان بالقبض على أخيه مراد ووالدته ومن عنده من الجوارى والعلماء فقبضوا عليهم ونقلوهم الى سراى السلطان عبد الحميد محجورا عليهم ولم يمض على هذا الحادث سوى

ثلاثة أيام حتى دس بعض أصحاب الفتنة النار في دوائر الباب العالي فاشتعلت اشتعالا عظيما واندلع لسان لهيما الى عنان السماء فأحرقت دوائر شورى الدولة وما يتبعها ودائرة الاحكام العدلية والتشريفات والداخلية وغيرها وأبادت جميع ما فيها من فرش وبسط وأوراق وغير ذلك وكبر غيظ السلطان فرسم بخلع الصادق محمد باشا من منصب رياسة الوكلاء فخلع في سابع عشر جمادى الأولى وولى مكانه محمد رشدى باشا وأعيد اليه لقب صدر أعظم فلم يكده يستقر به المنصب بضعة أيام حتى خلع وولى مكانه صفوت باشا ولما دخلت سفن حرب الانجليز ورست أمام القسطنطينية كما تقدم القول عظم أمرها على الروس وعدوه اهانة لهم وتحقيرا فأنفذ مقدم عساكرهم النازلة عند أبواب القسطنطينية في طلب دخول طائفة من عسكره الى المدينة وشدد في ذلك فمانعته دولة الانجليز وطال الاخذ والرد بين الروس وبقية لدول أياما وجاء الغراندوق نقولا الى أدورنه قبل انتهاء الهدنة فسير اليه السلطان نامق باشا ليكلمه في منع دخول عساكره الى المدينة فلم يقبل الا بشرط أن تحتل مقدمة جيوشه خط بيولك بكلمجه وكويك بكلمجه من ضواحي القسطنطينية وأن تنسحب العساكر السلطانية الى ماوراء ذلك مع جعل مركز الخبازات في قرية سان اسطفانوس الواقعة على بحر مر مرة وكان لم يعرف لها اسم ولا خبر قبل هذا الحادث فقبل السلطان ذلك وسار الغراندوق الى قرية سان اسطفانوس في ألف مقاتل ونزل بها وصار يأتى اليه المدد في كل يوم حتى بلغت عساكره بالقرية المذكورة زهاء عشرين ألفا وجاءت رسل السلطان بعد ذلك لتقرير قاعدة الصلح فطال الجدل بين الفريقين أياما وكان رسول القيصر في عقد هذا الصلح الأمير اغناتيف وهو من دهاء السياسيين وأقطابهم فجعل يقلب للدولة ظهر المحن فسطر شروطا غاية في الشدة والتضييق على الدولة العثمانية وسأل رسل السلطان التوقيع عليها فطلبوا مهلة فلم يقبل وضرب لهم أجلا فان انقضى ذلك الأجل سارت العساكر النازلة في سان اسطفانوس الى القسطنطينية ودخلتها عنوة فراجع رسل السلطان فلم يقبل وكان ذلك الاجل الثالث من شهر مارس الذى هو يوم عيد قيصر الروس فجعل رسل السلطان ينقبون في تلك الشروط كي لا يحل الاجل المضروب الا وقد أتوا على آخرها فلما كان ثالث الشهر المذكور أى ثامن عشر صفر سنة خمس وتسعين جمع الغراندوق نقولا جيوشه بين مشاة وفرسان وأوقفهم موقف الاستعراض اجلالا لعيد القيصر ولبت ينظر ماسيكون من رسل السلطان فلما أبطأ عليه الجواب سار الى حيث رسل السلطان وطلب منهم الجواب في تلك الساعة والاسارت جميع جيوشه الى دار السلطنة بلا مهل فهال الرسل هذا الامر وما زال الأمير اغناتيف يتمدد بهم حتى تم توقيعهم على الشروط ولحق اغناتيف بالغراندوق ومعه شروط الصلح وكان الغراندوق ممتطيا بجواده أمام العساكر وحوله جماعة من كبار الجند والحرس فتناوله اغناتيف شروط الصلح فلما تناولها صاح من كان حوله من كبار العسكر فصاح العسكر جميعا بأصوات الفرح وترجل جميع ضباط الجند عن خيولهم وخروا

على الارض سجدا لله عز وجل الذى أناح لهم هذا النصر المين وجاء أحد القيسيين فصلى
بالعسكر صلاة الشكر وهم جميعا سجدوا وطير الغراندوق الخبر الى القيصر بما جرى ففرح فرحا
لا يوصف ووردت على الغراندوق رسائل الثماني من كل فج عميق وكان مما أخذ عهدا وميثاقا
بين الدولتين بعد تلك الحرب الهائلة واشتهر بمعاهدة سان اسطفانوس هو الشرط الآتى ترجمته
بعد ان حضرة قيصر الروسيه وحضرة سلطان المملكة العثمانية قد عين كل منهما مرخصين
لاجل تحرير مقدمات الصلح رغبة في تأمين بلادهما ورعاياهما من وقوع ما يخل بالراحة
والامنية فيما بعد وطلبا لحصول فوائد المسالمة والراحة العمومية حالا فالمرخصان اللذان
نصهما القيصر أحدهما (الكونت نقولا اغذاتيف) وهو حائز رتبة أمير اللواء ياور القيصر
ومن أعضاء المجلس الخصوصي وعنده نشان روسي مرصع وهو نيشان صان عكسا ندر
نويسكي ونياشين أجنبية متعددة والمرخص الآخر (موسيو نيلدوف) من قرناء الدائرة
الأمبراطورية ومن أعضاء شورى الدولة وعنده نيشان صانت آن من الطبقة الأولى مع
السيوف المختصة به وعدة من النياشين الروسية والاجنبية والمرخصان اللذان عينهما حضرة
السلطان أحدهما (صفوت باشا) ناظر الأمور الخارجية الحامل النيشان العثماني المرصع
والنيشان المجيدى وكلاهما من الطبقة الأولى والنياشين الاجنبية المتنوعة والثاني (سعد
الله بك) سفير الدولة العلية في مركز امبراطورية ألمانيا وهو حامل النيشان المجيدى من
الطبقة الأولى والنيشان العثماني من الطبقة الثانية فهؤلاء المرخصون من بعد أن اطلعوا
على المحررات الرسمية المتعلقة بكيفية ترخيصهم ووجودها مطابقة للاصول والعادات قرروا
المواد الآتى ذكرها فيما بينهم

المادة الاولى انه بموجب الخريطة المربوطة بهذه المعاهدة وبمقتضى الشروط والوجوه
الآتى ذكرها تقرر تصحيح حدود ممالك الدولة العلية والجبل الاسود وذلك لاجل انهاء
النزاعات والمصادمات المتتابعة الوقوع فيما بينهما فالحدود تمتد من جبل دوبروزيجه
على الوجه الذى عينه المؤتمر الذى كان عقد في الاستانة الى (غوريتو وبيليكه) والحد
الجديد يستطيل الى (غاجقه) وعلى هذا (توركيا غاجقو) تبقى في تصرف الجبل الاسود
وتتقد الحدود أيضا من مجمع أنهر (بيوه وناره) وتغر من نهر (دريين) الى جهة الشمال وتنتهى
الى مجمع هذا النهر مع النهر المسمى (ثيم) وأما حدود الجبل المذكور الشرقية فتبتدى من
نهر (ثيم) الى (بريرة بولر) ومن (روستراق الى سوق بلانيسا) ويهور وروستراق تبقيان داخل
الجبل فعلى ذلك يكون تخطيط الحدود هكذا أعنى من الجبال المتسلسلة الجامة لروغوه بلاوا
وكورنر الى باقاني ومن رؤس جبال قوبريونيك وباباور وبور وحداء حدود بلاد الارناؤوط
الى أعلى ذروة جبل (بروقلتى) ومن هذه النقطة الى (كنيب يسقاشيق) وينتهى الحد على
الخط المستقيم الى عين الماء في چيستي هوتى ويفصل فيما بين چيستي هوتى وچيستي
فلاستراتنى ويتجاوز ماء أشقوره الى أن ينتهى لنهر بويانه وهكذا مع النهر الى مصبه في

البحر وبموجب ذلك تبقى نكسليك وغاجقة وأشبوزى و يورغوريجيه وزابلياق وبار ضمن
الجبل المذكور وقد يصير تعيين حدود الجبل قطعيا بمعرفة اللجنة مركبة من بعض
مأمورى دول أور وبا بشرط أن تكون وكلاء الباب العالى والجبل الاسود معهم أيضا
فهذه اللجنة تلاحظ منافع الطرفين وأمنية البلاد الكائنة فى الجهتين ثم تشير فى الخريطة
الى التعديلات التى ترى لها لزوما وتعلم أنها هى الحق وتوضح فى ذلك مآرائه من صالح
الجهتين ثم لا يخفى أن أمر سير السفن فى نهر بويانه لم يزل يحلب النزاع فيما بين الباب
العالى والجبل الاسود فلا جل قطع هذا النزاع سيصير تحرير نظام ذلك بمعرفة اللجنة
المذكورة

المادة الثانية § ان الباب العالى يثبت استقلال امارة الجبل الاسود على الوجه القطعى
ثم فيما يأتى تتقرر فيما بين دولة الروسيه والدولة العلية والامارة المذكورة كيفية المناسبات
التي ستكون بين الباب العالى والجبل وقضية تعيين وكلاء من طرف الامارة فى الاستانة
والبلاد العثمانية المقتضية ويتمقرر أيضا أمر إعادة أرباب الجنائيات الذين يفرون من بلاد
الدولة العلية الى الجبل الاسود ومن الجبل الى بلاد الدولة وأمر اطاعة أهل الجبل المقيمين
أو الممارين فى بلاد الدولة العلية وانقيادهم الى نظمات ومأمورى الدولة طبق الحقوق
الجارية بين الدول والعادات والمعاملات القديمة التى كانت تجرى بينهم فى بلاد الدولة
وستعقد أيضا مقابلة فيما بين الباب العالى والجبل الاسود لاجل توضيح وتنظيم المسائل
المتعلقة بالانشآت العسكرية فى قرب الحدود وأحوال ومناسبات الاهالى المتجاورة هنالك
واذا اختلف الباب العالى مع الجبل الاسود فى بعض مسائل ولم يمكن فصلها باتفاقهما فتحكم
بينهما دولتا الروسيه وأوستريا ومن بعد هذه المعاهدة اذا وقعت مباحشة أو مصادمة
فيما بين الباب العالى والجبل الاسود ماعدا المطالب الملكية الجديدة ينبغى أن يفوض
أمرهما الى دواتى الروسيه وأوستريا وهما باتفاقهما يفصلانها بينهما وقد تقرر أنه من بعد
امضاء مقدمات الصلح الى عشرة أيام يجب على عساكر الجبل الاسود أن تخرج من البلاد
الغير داخلية ضمن الحدود المذكورة أعلاه

المادة الثالثة § ان امارة الصرب تكون مستقلة ويكون حدها بموجب الخريطة المربوطة
لهذه المعاهدة مجرى نهردرين وتبقى كوجك أزورنيق وسقار فى ادارة الصرب ويمتد هذا الحد
الى منبع نهر رازده السكائن بجوار استايلاق على حسب الحدود القديمة وتبتدئ الحدود
الجديدة من هنا أعنى مع مجرى نهردروه الى نهر راسقه ومنه الى يكي نزار ومن يكي نزار
يصعد الخط الفاصل ويمر من جوار قريتي مهنتره وارغويج الى أعلى النهر المذكور حتى
ينتهى الى منبعه ويمتد الى بوسور بلاتينا السكائنة فى وادى ايبار وينزل مع الماء الجارى
الذى يصب فى النهر المذكور ومنه يسير مع أنهر ايبار وسيدج ولب الى منبع نهرياتنسه
السكائن فى جبل عزايا شينجه بلاتينا وبعدها يمر من التسلال الفاصلة بين نهري قريوه

وترتبة ومن أقصر الطرق الموجودة على مصب نهر ميو واجقه حتى ينتهي أيضا الى نهر
دريجة ويسير مع هذا النهر ويقطع ميو واجقه وبلاتينا ويصل الى جهة موراوه في قرب قرية
قالمانس ومن هنا يسير الى قرب قرية استابقوي ويجتمع هناك مع نهر بلوسينه وهكذا
مع النهر الى موراوه ويمتد من النهر الى جهة فوق حتى يصل الى قوتقاويجه ويقطع سوق
بلاتينا ويجتمع بنهر نيساوه ويتصل بقرية قروزاج ومنها يمر من أقصر الطرق ويمتد على
حدود الصرب القديمة الى جنوب شرق قره ولبور وعلى هذا الخط يتصل بنهر الطونة وتقرر
اخلاء اطه قلعة وهدمها وترتيب لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب لاجل
تعيين خط الحدود على الوجه القطعي في برهة ثلاثة أشهر ويكون ذلك بمعاونة مأمورين من
طرف دولة الروسيه وهذه اللجنة تفصل أيضا المسائل المتعلقة بجزائر نهر درين وتقطعها
وحيثما تمتدئ هذه اللجنة بتعيين الحدود الفاصلة بين بلاد الصرب والصقالبة ينبغي أن
يكون وكيل واحد من طرف الصقالبة يشترك معهم في هذا الامر

المادة الرابعة § ان المسلمين الذين لهم أملاك في البلاد التي صار الحاقها بالصرب اذا لم
يريدوا الإقامة هناك فلهم الخيار ان يحبوا أجروا أملاكهم وان أحبوا أقاموا وكلاء من
طرفهم لاجل حفظها واستغلالها والمسائل المتعلقة باموالهم الغير المنقولة تفصلها لجنة
مركبة من مأموري الدولة العلية والصرب باعانة مأمورين من طرف دولة الروسيه في
طرف سنتين وهذه اللجنة تفصل أيضا في برهة ثلاث سنين أمر فراغ الاملاك الميريية
والموقوفة والمسائل المتعلقة ببعض الاشخاص الذين لهم علاقة ونفع في الاملاك المذكورة
وذلك يكون عقيب انعقاد المعاهدة فيما بين الدولة العلية والصرب والأتانس المقيمون أو
الذين يحولون في بلاد الدولة من تبعه الصرب تكون المعاملة معهم على القواعد الكلية
بقتضى الحقوق الكائنة بين الدول وقد تقرر أنه من بعد امضاء مقدمات الصلح الى
خمس عشرة يوما يجب على عساكر الصرب أن تخرج من البلاد التي ليست داخله ضمن
الحدود المذكورة أعلاه

المادة الخامسة § ان الباب العالي قد أثبت استقلال رومانيا أعني المملكتين ولها أن
تطلب من الدولة العلية تضمينات الحرب وتجري المذاكرة في هذا الشأن فيما بينهما وعند
مانعقد المعاهدة بين الدولة العلية ورومانيا رأسا تنال تبعه رومانيا الامن والامتياز طبق
تبعه دول أوروبا

المادة السادسة § تقرر أن تكون البلغارستان أعني بلاد الصقالبة اماره مختارة في ادارتها
تدفع مبلغا معلوما الى الدولة العلية ويكون مأمورو الحكومة والعساكر المالية من المسيحيين
ويصير تعيين حدودها على الوجه القطعي بمعرفة لجنة مركبة من مأموري الدولة العلية
والروسيه وذلك قبل خروج عساكر الروسيه من الروم الى وهذه اللجنة تبين هناك في الخريطة
التعديلات التي ينبغي اجرائها وتلاحظ مالية أكثر الأهل وتوضح المنافع المحلية تطبيقا لقن

تخصيص الاراضى وتقرر تعيين وتبيين مقدار اتساع ملك الصقالبة بخريطة وجعلها أساسا في قطع الحدود * وخط الحدود يبتدئ من حدود الصرب الجديدة ومن غرب ورا نهر الى سلسلة الجبل الاسود ومن جهة الغرب يمر من نهر بو جيجه الى درينة غرب قوما نوه وقورجاني وقلقان وان الى جبل قوارب ومن هناك يمر من نهر بو جيجه الى درينة وبلتفت الى جهة الجنوب الى حدود غرب قضاء (اخرى) حتى ينتهى الى جبل ليناس ومنه يمر من غربى كوريجه واستادره ويتصل بجبل غراموس وكذلك يمر من ماء فاستريا ويلنصق بنهر موغلينجة ويسير مع النهر الى بكجه ويمر عن نهر واراد بكجه ومن مصب نهر واراد وقرية غاليقو الى قراء يارغه وصارى كوى وهناك يمر من وسط عين الماء المعبر عنه بشمك كل الى مصب نهري أستروما وقره صو ومن السواحل الى بوروكل ويعتمد الى الشمال الغربى ويسرع الى سلسلة جبل رودوب الى جبلى جالنييه وأوشوه ويمر من جبال أشك قولاج وجبيلون وقره قولاس وجيقلر الى نهر أردنه وبلتفت الى جهة الجنوب ويمر من قرامس وكوتلى وقره حمره وارناد كوى وأفارجى وأبنجه الى تكة دره سى فى قرب أدرنه ومن تكة دره سى وجورلى دره سى الى لوله برغوى ومن هنا وعن نهر حوجق دره الى قرية سوركن ومنها الى لتلال ويقطع حكيم طاييه سى حتى يتصل بساحل البحر الاسود ويبتدئ أيضا من صقالبة السواحل ويمر من شمال حدود لواء طولجى ومن فرق راسوه الى نهر الطونة

المادة السابعة * ان أمير الصقالبة يصير انتخابه من طرف الاهالى بالحرية التامة والباب العالى يشته بانضمام آراء الدول ولا يجوز انتخاب أحد من أقارب دول أوروبا الخالسين على سرير الملك للإمارة المذكورة وحينما تنحل الإمارة كذلك يكون انتخاب الأمير الجديد على هذا المنوال وهاته الشروط وقد تقرر أنه ينبغى من قبل انتخاب الأمير أن يجتمع مجلس مشيرى الصقالبة اما فى قلبه واما فى طرفه تحت نظارة مأمورين من طرف الروسى وفي حضور مأمورين من طرف الدولة العلية وتؤسس نظامات هذه الادارة المستقلة توفيقا لامثالها أعنى لنظامات المملكتين التى تنظمت فى سنة ثلاثين وثمانمائة وألف ميلادية بعد انعقاد مصالحمة أدرنه وعند تأسيس تلك النظامات ستصير وقاية حقوق ومنافع الاهالى من المسلمين والروم والاولاخ وغيرهم الموجودين والمختلطين مع الصقالبة وتقرر أيضا إحالة تأسيس هذه الادارة الجديدة فى البلغارستان مع مايلزم من النظر فى صور اجرائها لعهد مأمورين موظفين من طرف دولة الروسى من هنا الى سنتين وفى انقضاء السنة الاولى من تأسيس الادارة الجديدة اذا لم يحصل اتفاق بهذا الشأن فيما بين الروسى والباب العالى ودول أوروبا يكون للدول المشار اليهم حق أن يوظفوا مأمورين برفق مأمورين الروسى

المادة الثامنة * ليس لعساكر الدولة العثمانية حق بعد هذا للاقامة فى البلغارستان وسيصير هدم القلاع القديمة الكائنة هناك بعرفة الحكومة المحلية وان الباب العالى له حق أن يتصرف فى الادوات الحربية الموجودة فى قلاع الطونة التى صار اخلاؤها من العساكر بموجب

سند المتاركة الذي تحرر في حادى ثلاثين كانون الثانى والآلات الحربية الكائنة في مدينتى
شبنى ووارنه وجميع الاملاك المتعلقة بالحكومة العثمانية كيفما شاء وتبقى عساكر الروسية
في البلغارستان مقيمة الى أن ينتهى ترتيب العساكر الملية المحلية الكافية لفظ الراحة
وتوظيف الامنية واذا اقتضت الحال يقومون فعلا باعانة الأمورين وسيصير تعيين عدد
العساكر الملية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولة الروسية وان مدة اقامة عساكر الروسية
في البلغارستان تكون سنتين والعساكر التى تبقى هناك بعد خروج جميع العساكر الروسية
من بلاد الدولة العلية تكون عبارة عن ست فرق مشاة وفرقتين خيالة وجميعها نجسون
ألفا ومصروف هؤلاء العساكر يكون على بلاد الصقالبة ويكون لها طرق مراسلات في
المملكيتين في شطوط البحر الاسود من جهة وارنه وبرغوس وفي مدة اقامتها هناك يكون
لها المخازن المقتضية على الشطوط المذكورة

المادة التاسعة § ان المرتب السنوى الذى يلزم على البلغارستان ايفائه للدولة العلية
يتسلم الى البنك الذى يعينه الباب العالى وهذا البنك يصير تعيينه بعرفة دولة الروسية
والدولة العلية وسائر الدول وذلك في انتهاء السنة الاولى من ابتداء اجراء اصول الادارة
الجديدة ومقدار ذلك المرتب يتأسس بالنظر ليراد البسلاد والاراضى التى تكون في ادارة
الامارة على الحساب المتوسط والبلغارستان تتعهد بالقيام بالتعهد الذى على الدولة العلية
الى شركة سكة الحديد في طريق وارنه وروسجق غب المذاكرة المذكورة ومع الباب
العالى وادارة الشركة المذكورة ومسئلة السكة الحديد الاخرى الموجودة ضمن الامارة
يصير فصلها بعرفة الدولة العلية وحكومة الصقالبة وادارة الشركة

المادة العاشرة § ان الباب العالى له حق أن ينقل ويجلب عساكر ومهمات وذخيرة من
الطريق المعينة في داخل البلغارستان الى الايالات العثمانية التى وراء البلغارستان ولاجل
عدم وقوع مشاكل في هذا الخصوص وتأمين الايجابات العسكرية العثمانية سيوضع نظام
بالاتفاق مع الباب العالى والامارة من ابتداء تعاطى هذه المعاهدة الى ثلاثة أشهر في ذلك
وهذا الحق المتعلق بالمرور والعبور يختص بالعساكر النظامية فقط دون الباشوزق
والجراكسة والعساكر المعاونة وللباب العالى كذلك أن يتعاطى البوسطة من طريق
الامارة ويستعمل مسالك التلغراف في مخبراته فهذان الامران كذلك يصير تعيينهما
وتنظيمهما في المدة والشروط المحررة أعلاه

المادة الحادية عشرة § ان المسلمين وغيرهم من أصحاب الاملاك اذا أرادوا الإقامة في خارج
الامارة لهم أن يحفظوا أملاكهم ويؤجروها أو ينوؤوا أمر ادارتها الى من يريدونه ثم ان
مأمور الدولة العلية ومأمور الصقالبة يجتمعان تحت نظارة مأمور الروسية ويفعلون المسائل
المتعلقة بتصرف الاملاك وفي منافع مسلمى الصقالبة وذلك يكون في طرف سنتين والاملاك
الميرية والموقوفة يصير تعيين أمرها اما بالبيع واما باستعمالها على الوجه الذى يكون فيه

التفح الزائد لجهة الباب العالى ويصير تعيين ذلك بمعرفة لجان مخصوصة محدودة في السنتين المذكورتين والاراضى التى تبقى بدون صاحب عند انتقاض السنتين يصير طرحها في المزاد وتباع ويؤخذ منها ويدفع الى أيتام وأرامل المصابين في الأحوال الاخيرة من المسلمين والمسيحيين

المادة الثانية عشرة * ان القلاع الكائنة على نهر الطونة يصير هدمها جميعا ولا يبقى من بعد هذا على سواحل الطونة قلعة مّا مطلقا ولا يجوز وجود سفن حربية في مياه رومانيا والصرب والصقالبة سوى السفن الصغيرة والفلوكات المختصة والمستعملة في أمور الضبط فقط وحقوق ووظائف وامتيازات لجنة الطونة المختلفة تبقى بتمامها على أصلها

المادة الثالثة عشرة * ان الباب العالى يتعهد بتنظيف البحر في مضيق سنه وارجاعه الى حاله السابق ليصلح لمرور السفن منه ويتعهد أن يضمن العطل والضرر الذى حصل للتجار بسبب منع مرور السفن من نهر الطونة مدة الحرب وسيصير خصم خمسمائة ألف فرنك من أصل دين لجنة الطونة الى الباب العالى لاجل هذا الامر

المادة الرابعة عشرة * ان الاصلاحات التى تباعث الى مرخص الباب العالى في أول جلسة مؤتمر الاستانة ينبغى حالا وضعها في موقع الاجراء في بوسنه وهرسك مع التعديلات التى ستقرر فيما بين دولتي الروسيه وأوستريا ويجب أن لا يطلب من هاتين الايالتين بقايا الاموال الميرية وأن لا يؤخذ شئ من الواردات الى ابتداء شهر مارس سنة ١٨٨٠ بل تصرف كلها في الاحتياجات المحلية وبسببها عوز الاهالى والعيال الذين أصيبوا في الاحوال الاخيرة ومن بعد انقضاء المدة المذكورة يتعين المبالغ الذى يلزم على الاهالى دفعه في كل سنة الى الحكومة المركزية بالاتفاق فيما بين الدولة العلية ودولتي الروسيه وأوستريا

المادة الخامسة عشرة * يتعهد الباب العالى باجراء أحكام النظام الاساسى الذى وضع في سنة ثمان وستين وستمائة وألف المختص بجزيرة كريد طبقا لمطلوب الاهالى الذى بينوه مقدما ويلزم اجراء الاصلاحات المماثلة لنظامات كريد في ترحاله ويأنيه وفي سائر جهات الروم ليلي التى ليس لها نظامات مخصوصة ويصير تشكيل لجنة مركبة من الاهالى المحلية في كل إمالة لاجل ترتيب وتأليف النظامات الجديدة ثم يصير تقديمها الى الباب العالى وهو يتنذ كر مع دولة الروسية في ذلك

المادة السادسة عشرة * ان خروج عساكر الروسيه من الارمنستان وارجاع تلك البلاد الى الدولة العلية يمكن أن يفضى الى المناقشة والاختلاف فيما بينهما فلهمذا يتعهد الباب العالى حالا باجراء الاصلاحات على حسب الاحتياجات المحلية في الولايات التى سكانها أرمن وتأمين المسيحيين من تعدى الاكراد والجراكسه

المادة السابعة عشرة * ان الباب العالى سيعلمن العفو العمومى عن المتهمين في الاحوال الاخيرة ويطلق سبيل المحبوسين والمنفيين بسبب ذلك

المادة الثامنة عشرة § ان الباب العالى يتعهد بالتبصر بعين الدقة الى ما بينه وكلاء الدول المتوسطة في خصوص قضاء قوتور وتعيين الحدود الايرانية على الوجه التقضى

المادة التاسعة عشرة § ان مبالغ التضمينات الحربية التى طلبها حضرة قيصر الروسبه هى في مقابلة الاضرار والخسائر التى تكبدتها دولته بسبب هذه الحرب والباب العالى قد تعهد بدفعها فن هاته المبالغ أولا - تسعمائة مليون روبل في مقابلة مصروف العساكر والادوات الحربية والاشياء التالفة وثانيا - اربعمائة مليون روبل لاجل الاضرار الحاصلة في سواحل بلاد الروسية الجنوبية وفي اخراجات البضائع التجارية وفي طرق الحديد وثالثا - مائة مليون روبل في مقابلة الضرر الحاصل من الهجوم على قوقاس ورابعا - عشرة ملايين روبل لاجل الخسائر التى حصلت لتبعة الروسية المقيمين في الممالك العثمانية ونائباتها فعلى ذلك تكون هذه المبالغ من حيث المجموع عبارة عن مليار واحد وأربعمائة مليون وعشرة ملايين روبل يعنى مائتين وخمسة وأربعين مليونا ومائتين وسبعة عشر ألفا وثلثمائة وأحدا وتسعين ليرة عثمانية وريال مجيدى أبيض ونصف * هذا وان القيصر المشار اليه قد لاحظ ضيق حال الدولة العلية من جهة المال وتأمل في مقاصدها التى نوهت عنها في هذا الشأن فلذلك قد قبل أن تترك الدولة العلية الاراضى المحررة أسماؤها أدناه عوضا عن القسم الاكثر من المبالغ المذكورة أولا - لواء طوالجى يعنى قضاء كيلىا وسنه ومحمديه وابساقجى وباجين وبابا طاغى وخرسوه ولوستنجه ومجيدية والجزائر الكائنة في نهر طونه قد تركتها الدولة العلية جميعا الا أن الدولة الروسية ليس لها فكري بالحق هاته البلاد الى ملكها بل انها تحفظ حق مبادلة هذه البلاد بقطعة بسارابيا التى أخذت منها بموجب معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف حدود قطعة بسارابيا من جهة الجنوب طرف من اراضى كيلىا ومصب نهر الطونة والجهات التى يصطادون بها السمك في النهر يصير تقريبا بمعرفة مأمورين من طرف الروسية ومن حكومة المملكتين في برهة سنة واحدة اعتبارا من تاريخ تعاطى هذه المعاهدة ثانيا - اردهان وقبرص وباطوم وبازيد مع الاراضى المحاذية لها الى جبل جوغانلى سيصير تسليمها الى دولة روسيه وحينئذ الحدود الفاصلة تكون هكذا أعنى يتدئ الخط الفاصل من الجبال التى فيما بين المياه الجارية والمنصبية في نهر هوبا وجوروق ويمر من الجبال المتسلسلة الواقعة في جنوب قضاء وارنوبن ومن جوار قريتي والات وبشاك ومن فوق درونيسك وكفى وهو جسه زاد وبحقين صاغ ومن الجبال الفاصلة للمياه التى تحتل بنهرى تورقم وجورف ومن فوق قسراء يالى وهين ولم كلسا الى أن ينتهى لنهر تورقم ومن هنالك يمر من سيورى طاغ ومن مضيق سيورى طاغ ويتصل بقرية نرمان ويلتفت الى وجهة الجنوب حتى يصل الى زوين ومن زوين يمر من غربي طريق أردوست خراسان الى جنوب جبل جوغانلى ويتصل بقرية كيلجمان ومنها يمر من جبل تربا ومن قرية نجير ومن أون رست مسافة

ومن تلال طاندور ومن جنوب وادي بايزيد وبنتهي في الجهة الجنوبية من قازلي كول وهذا المحل هو الحد الفاصل قديما فيما بين حدود أرض الدولة العلية وأراضي دولة ايران وإن الأراضي التي صار الحاقها بممالك الروسية ومذكورة في الخريطة المربوطة لهذه المعاهدات يصير تعيين حدودها قطعيا بمعرفة مأمور من طرف الروسية ومأمور من طرف الدولة العلية وهما يلاحظان قواعد تخطيط الأراضي وأسباب تأمين حسن الادارة.

ثالثا * إن الأراضي التي صار تركها للدولة الروسية كما هو محرر أعلاه قد اعتبرت بمبلغ مليار ومائة وعشرة ملايين روبل وأما الباقي من التضمينات وهو ثلثمائة مليون روبل ما عدا العشرة ملايين روبل التي هي في مقابلة خسائر تبعة الروسية وتأسيساتها فستتفق دولة الروسية مع الدولة العلية على قضية دفعها وتأمين وفائها.

رابعا * إن العشرة ملايين روبل التي تخص التبعة الروسية ومؤسساتها يصير تسويتها هكذا . أعني أن سفارة الروسية في الاستانة تجري التندقيقات اللازمة بهذا الشأن على طلبات أرباب الشأن وتعرض الكيفية على الباب العالي وهو يجري التسوية على مقتضى تبايغات السفارة.

المادة العشرون * إن الباب العالي يتعهد بأن يستعمل التدابير المؤثرة سريعا في حسم الدعاوى المتنازع فيها منذ سنين عديدة المتعلقة بتبعة الروسية وأنه إذا اقتضى الامر يدفع تضمينات وينفذ أحكام الاعلامات.

المادة الحادية والعشرون * إن أهالي البلاد التي سلمت الى الروسية إن أرادوا الهجرة منها لهم أن يبيعوا أملاكهم وأراضيهم ويهاجروا وقد أعطى لهم مهلة في ذلك ثلاث سنين من تاريخ تعاطي هذه المعاهدة فالذين لا يبيعون أملاكهم في هذه المدة ولا يهاجرون يدخلون في حكم الروسية عند انقضاء تلك المدة . والأعمال الاميرية والموقوفة يصير بيعها على حسب الاصول التي يعينها مأمور الروسية ومأمور الدولة العلية في نجر السنين المذكورة وهما يتتمان ايفاء كيفية نقل الادوات الحربية الموجودة في المحلات التي هي الآن في يد الروس سواء كانت من البلاد التي سلمت الى دولة الروسية أو غيرها.

المادة الثانية والعشرون * ان القسيسين والزوار الذين يسكنون أو يسكنون في الممالك العثمانية في الروم ابلي والاناطول من تبعة الروسية سينالون الحقوق والامتيازات التي ينالها القسيسون والزوار من تبعة سائر الدول سوية وسفارة الروسية الكائنة في الاستانة وقناصلها يحمون حقوق أولئك الاشخاص وذواتهم ومؤسساتهم والرهبان وغيرهم الموجودون في الاماكن المقدسة وبالأخص في اينورز فهم حائزون حقوقهم التي كانوا حائزين عليها في السابق ويحفظون الديارات الثلاثة الكائنة في اينورز مع مشتملاتها المتعلقة بهم كسائر الديارات والمؤسسات المذهبية الكائنة لغيرهم هنالك سوية.

المادة الثالثة والعشرون * إن المعاهدات والمعاولات التي كانت موجودة فيما بين

الدولة العلية والروسية المتعلقة بالتجارة والمحاكمة وبنسبة المقيمين في بلاد الدولة العلية وتعطلت أحكامها بسبب هذه الحرب ينبغي ان تجرى أحكامها كما في السابق وان دولتي الروسية والعثمانية قد أعادت العلاقات الى سابق مجراها قبل هذه الحرب في الامور التجارية وغيرها فيقتضى لإحكام عرى المعاهدات والمقاولات المذكورة ما عدا المواد التي نستجتها هاته المعاهدة.

المادة الرابعة والعشرون § ان خليج الاستانة وخليج جنات قلعه سواء كان في زمن الحرب أو زمن الصلح يكون مفتوحا للسفن التجارية التي تريد المرور منه الى بلاد الروسية من الدول التي تكون على الحيادة والباب العالي ليس له من بعد هذا أن يستبد بمراقبة الشطوط الواقعة فيما بين البحر الأسود وبحر الأزاك المخالف لمضمون معاهدة باريس التي صار امضاؤها في رابع ابريل سنة ١٨٥٦ ست ونجسين وعثمانية وألف

المادة الخامسة والعشرون § ان عساكر الروس يخرجون من بلاد الدولة العلية الكائنة في أوروبا بالروم ايلي ما عدا البلغارستان وذلك من تاريخ انعقاد الصلح القطعي الى ثلاثة أشهر هذا وان العساكر المذكورة لهم أن يأتوا الى الاسا كل الموجودة في البحر الاسود وبحر مرمرة عند السفر للركوب في السفائن التي تحضرها أو تستأجرها دولة الروسية حتى لا يكونوا مجبورين على تحديد مدة الإقامة في الممالك العثمانية وفي رومانيا وأما خروج عساكر الروسية من الاناطول فيكون بعد انعقاد الصلح القطعي بستة أشهر ولهم أن يأتوا الى طرابزون لأجل الركوب في السفن ومن هنالك يسافرون الى القريم أو القوقاز

المادة السادسة والعشرون § ان قواعد الادارة والاوامر التي وضعتها دولة الروسية في البلاد التي دخلتها عساكرها والتي ينبغي تسليمها الى الدولة العلية بموجب هذه المعاهدة تكون باقية وجارية الى حين قيام العساكر منها وليس للباب العالي المشاركة في الاحكام ولا للعساكر العثمانية الدخول اليها قبل ذلك بناء على هذا فان أمير عساكر الروسية يجبر الضابط الذي يعينه الباب العالي عن سفر عساكر الروسية وليس للباب العالي أن يجري الاحكام من قبل أن تسلم له القلاع والايالات

المادة السابعة والعشرون § ان الباب العالي لا يجازي أحدا بسوء من تبعته الذين لهم علاقة مع دولة الروسية في زمن الحرب وليس للأموري الدولة العلية أن يمنعوا أو يوقفوا أحدا من الاهالي الذين يرغبون أن يسافروا مع العساكر الروسية

المادة الثامنة والعشرون § ان أسرى الحرب يضر ارجاعهم تحت ملاحظة مأمورين من اثنين من طرف الدولتين وذلك عقب تعاطي مقدمات الصلح وهؤلاء المأمورون يسافرون الى أودسة وسيواستابول وأما مصروف أسراء العساكر العثمانية فتسددفه الدولة العلية في ظرف ست سنوات على ثمانية عشر قسما بموجب الدفتر الذي يحضره المأمورون المذكورون وأما قضية مبادلة الأسرى فيما بين حكومتى دونيا والضرب وامارة الجبل الأسود فيصير

اجراؤها على هذا الأساس الا انه يصير تنزيل العدد الذي تستلمه الدولة العلية من العدد الذي تستلمه من الأسرى

المادة التاسعة والعشرون § ان حضرة امبراطور الروسية والحضرة السلطانية سينتبون هذه المعاهدة ووثائق الاتفاق تكون معاطاتها في سان بطرسبورج في ظرف خمسة عشر يوما أو بوجه أسرع من ذلك ان أمكن وكذلك يجري التصديق رسميا على الشروط المذكورة في هذه المعاهدة على حسب الأصول الجارية في المعاهدات الصلحية وان الدولتين المتعاهدين من تاريخ تعاطي المعاهدة تعدان أنفسهما رسميا بانتهما متعاهدتان بان مرخصي الطرفين قد أمضوا هذه المعاهدة كما يأتي تصديقا لمضمونها (انتهت كما رقها صاحب الجوائب) ثم جاء بعد ذلك مانصه * ان معاهدة مقدمة الصلح التي صار امضاؤها في هذا اليوم أعني في تاسع عشر شعبان وثالث اذار سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية قد حصل سهوها في الجملة الاخيرة من المادة الحادية عشرة فلذلك زيدت العبارة الاتية واعتبرت جزءا منما للمعاهدة المذكورة وهي

ان الذين يقيمون أو يسكنون في الممالك العثمانية من أهالي البلغارستان يكونون تابعين للقوانين العثمانية انتهى

قال بعض كتاب الاخبار * فلم تكن لترضى هذه المعاهدة سكان البلاد المنسلخة عن السلطنة العثمانية ولا بقية الدول وعلى الخصوص منها دولة الانجليز فانها أصبحت وكأن الطير على رؤس كبار سياستها فقد هاجوا وماجوا وأوعزوا الى دولة النمسا فقام أصحاب الكلمة فيها يطالبون بحل عقد هذا التحالف ويرمون دولة الروس بالخديعة والمكر ويقولون لاسبيل الى ترك بوسنة وهرسك مضغة لينة لغيرنا ولا بد من أخذ ميناء سلافيك لتغنيانا عن تريستا التي أكرت ايطاليا تهديدنا ووعيدنا بسببها وكتب كبير سياسة الانجليز الى دولة الروس يقول ان كل عمل تأتية الروسية مع الدولة العلية مخالفا لنصوص معاهدة سنة ست وخمسين وثمانمائة وألف المبرمة في عاصمة الفرنسي لا يعمل به الا برضا جميع الدول الضامنة لتلك المعاهدة وسألت دولة النمسا بقية الدول في عقد مؤتمر في مدينة برلين عاصمة الالمان للنظر في مدعياتها فأجابتها الى ذلك واشترطت دولة الانجليز أن يكون لاعضاء هذا المؤتمر حق النظر في جميع مواد معاهدة سان اسطفانوس والاتيان عليها من سائر أبوابها فما نعت دولة الروس في ذلك وشددت في المنع وعظم الخلاف بين الروس والانجليز واستفحل الخطب وجعل كل فريق يتأهب لقتال الآخر وكثر اهتمام الانجليز بحشد الجنود وإعداد معدات القتال وجعل سفن حربيهم على قدم الاستعداد أمام جزيرة مالطة واستقدموا عدة طوائف من عساكرهم الهندية الى الجزيرة المذكورة كي يكونوا على مقربة من دار السلطنة عند الحاجة اليهم وبالغت دولة الروس كذلك في حشد الجنود وتسليح الكثير من سفن التجارة بالمدافع الضخمة لتسحق بها سفن تجارة الانجليز عند

انتساب الحرب بين الفريقين واشتد الخوف وعم الاضطراب وقامت الفتنة في البلغارستان وخرج من بها من المسلمين على الروس وقاتلوهم وتحصنوا في الجبال فعز على الروس ارجاعهم الى الطاعة وعت الفتنة جميع البلغارستان وضواحي صوفيا الى حدود الصرب واشتدت وبقي الحال هكذا أياما ومراكب حرب الانجليز راسية أمام دار السلطنة وعساكر الروس حولها من كل صوب ودخل الصيف وزال الشتاء فتفشيت الأمراض في عسكر الروس ووقع في الجند الموت فكبر الامر على القيصر وسير الى خاله امبراطور الالماني في الوساطة بينه وبين الانجليز وأنفذ الى سفيره بعاصمة الانجليز في ذلك أيضا فافتتح باب المخارة في الصلح والوقوف عند حد يكون فيه المصلحة للفريقين ثم اتفق الروس والانجليز على عقد المؤتمر في برلين عاصمة الالماني كطلب دولة النمسا وكتبوا الى البرنس بسمارك كبير سياسة الالماني في أمر ذلك فأنفذ الى بقية الدول بان تبعث سفراء من قبلهم لجاءت سفراؤهم الى برلين بعد أخذ ورد وانعقد المؤتمر وتكلموا في معاهدة سان اصفافانوس وفيما يجب تغييره من أحكامها قال بعض الكتاب * وقال اللورد بيكنسفيلد كبير سياسة الانجليز يومئذ ولماذا لا تنسحب العساكر الروسية عن ضواحي دار السلطنة العثمانية فاجابه البرنس غورتشاكوف كبير سياسة الروس حتى تنسحب السفن الانجليزية من مياه القسطنطينية فعارضه بيكنسفيلد في ذلك ورد عليه غورتشاكوف وعلت أصواتهما واشتد بينهما اللدد وكاد يخل عقد المؤتمر لولا وساطة بسمارك وحسن سياسته * وما زال المؤتمر يوالي جلساته حتى تم الاتفاق على ما أرادوه وكتبوا به عهدا في عاشر رجب سنة خمس وتسعين ومائتين وألف هجرية أي ثالث عشر يوليو سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وهو المعروف بمعاهدة برلين وهي تحتوي على أربع وستين مادة قد أضربنا عن ايرادها هنا وكان من أحكامها انفصال ولاية البلغار انفصالا تاما عن ممالك الدولة العثمانية وتسليم البوسنة والهرسك الى دولة النمسا والمجر تسليما لا رد بعده واعطاء اليونانية جزأ من أراضي الدولة العلية توسيعا لحدودها وكذلك اتسعت حدود الصرب وحدود الجبل الاسود واعطاء أمير الجبل المذكور مينا انتبغاري المهمة الواقعة على بحر الأدرياتيك وقد نالت كذلك دولة فارس جزأ من الاملاك العثمانية اسوة بغيرها أما دولة الانجليز فانها لم تكتف من الغنية بالاياب بل أخذت جزيرة قبرص على شروط وعهود قد أضربنا عن ايرادها هنا وانقضت تلك الحرب المشؤمة وقد خسرت فيها السلطنة العثمانية من المال والرجال والاراضي ما كاد أن يخلخل أركانها بل يقوض بنيانها ويحى ما بقي من آثار مجدها القديم والامر يومئذ لله الواحد القهار

ولما عادت الامور الى سابق مجراها أظهر السلطان ميله الى موالاة الروس ومحبة قبصرهم وكرهه لسياسة الانجليز ثم عمد الى قطع شأفة المفسدين وأصحاب السعاية والفتن والمنحيزين للانجليز من كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية ورسم بتحقيق مقتل عمه

السلطان عبد العزيز وقد بث العيون والجواسيس حول جميع من كان لهم يد في تلك الفتنة وشد في الامر وقيد بذلك جماعة من كبار المحاكم فقبضوا على كل من ظهرت تهمته في ارتكاب هذه الجناية * قال أحد الكتاب فكانوا خمسة عشر شخصا منهم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايري والحاج احمد أغا ونجيب بيك وعلي بيك ونوري باشا ومحمد جلال الدين باشا أصهار السلطان عبد الحميد سلطان هذا الوقت ومحمد رشدي باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام والساطنة والدة السلطان مراد وأربعة آخرون وقد أثبتوا عليهم ارتكاب هذه الجناية الشنعاء

فلما كان رابع جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائتين وألف هجرية انعقدت محكمة القضاء لمحاكمتهم فأقضى بهم أمام دائرة الجنايات وكانت هذه الدائرة مشكلة من رئيس اسمه تيمستوفل خوستوفوتياي يوناني الجنس عثماني القبعة وثلاثة قضاة آخرين أحدهم أرمني واسمه اسكندر أفندي والاثنان مسلمان وتعين لرئاسة الجلسات التي عهد اليها النظر في هذه الدعوى سروري أفندي رئيس دائرة محكمة الاستئناف وهو الذي تولى التحقيقات الابتدائية وقد حضر في قاعة الجلسة السفراء والوكلاء وقناصل سائر الدول وموظفو الحكومة وأرباب المناصب العالية وكتاب صحف الاخبار فلما استقر عن حضروا المقام نودي على المتهمين وقد كانت نصبت لهم خيمة كبيرة بجانب حرس مابطة على بعد من سراية بلد خضر أولا مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايري والحاج احمد أغا ونجيب بيك وعلي بيك ونفري بيك وسعيد بيك ورضا بيك ثم استحضروا نوري باشا ومحمد جلال الدين باشا وكان المدعي العمومي اسمه لطيف بيك فافتتح الرئيس الجلسة وأخذ في تعريف المتهمين وقد محض النصيحة للمحاميين الذين انتدبوا للدفاع عنهم ثم أشار بتلاوة الميثاق في صحيفة التحقيق وأوراقه فجعل يتلوها عز الله أفندي بأشكاتب الدائرة واستمر في تلاوة هذه الاوراق نحو ثلاث ساعات فكان حاصل ما فيها

انه بعد خلع السلطان مراد وجلس السلطان عبد الحميد على سرير الملك رسم بترتيب مصروفات السراي السلطانية وبمحت في أمر المرتبات فوجد أن ثلاثة أشخاص من صفراء المأمورين عين لهم مائة ليرة عثمانية معاشا شهريا فبحث عن سبب ترتب هذا المعاش لهم فعلم انه ترتب لهم مكافأة على قتل المرحوم السلطان عبد العزيز وهؤلاء المأمورون هم مصطفى البهلوان ومصطفى الجزايري والحاج احمد أغا فلما سئلوا عن ذلك اعترفوا بالحقيقة وقالوا ان محمد جلال الدين باشا ونوري باشا أصهار الحضرة السلطانية هما اللذان أغرياهم على فعل القتل وان محمود باشا زودهم بما يلزم فعله وزادهم علمابه نوري باشا وشد عليهم بكتمان الامر بأيمان القسامة وقد وافق على اجراء هذا الفعل العظيم هيئة تألفت من محمد رشدي باشا الصدر الأعظم ومدحت باشا وحسين عوني باشا وخير الله أفندي شيخ الاسلام فانهم كانوا استصدروا من السلطان مراد قبل خلعهم قرمانا بأن لا يقع في داخلية

السلطنة وتخرجها شئ إلا بأمر هذه الهيئة فظهر من التحقيق أن قتل السلطان عبد العزيز كان بموافقة رأى هذه الهيئة وثبت أن المتآمرين كان من قصدهم أيضا اغتيال جميع العائلة السلطانية حيث دعوهم جميعا الى مأدبة أعدّها جلال الدين باشا في قسطنطينية في أعالي بك أوغلي فأحسوا بالمكيدة وامتنعوا عن الذهاب الى تلك المأدبة * وبهذا على ما ظهر في هذه القضية حكمت النظارة (بإلحاح دائرة التحقيق عندهم) على المتهمين الذين هم محمد جلال الدين باشا ونوري باشا وممدحت باشا ومحمد رشدي باشا وخير الله افندي شيخ الاسلام والسلطنة والدة السلطان مراد بالاشغال الشاقة الى آمد طبقا للمادة الحادية والتسعين من قانون العقوبات وعلى السلطان مراد بهذا الجزاء أيضا وبأن يعاقب من ذلك لاختلال عقله وحكمت بالقتل على نوري بك ومصطفى الجزائري وممصطفى البهلوان والحاج أحمد أغا ونجيب بك وعلى بك وسعيد بك ورضا بك طبقا للمادة المائة وسبعين من قانون العقوبات * وبعد ثلاثة الاوراق لخص سروري افندي الرئيس الدعاوى وأخذ في استنطاق المتهمين فسأل مصطفى البهلوان أولا فقال

قد استدعاني محمد جلال الدين باشا يوما وقال لي انه رتب لي مائة ليرة عثمانية في كل شهر ولرفيقي مصطفى الجزائري أيضا على ان نقوم بمهمة قتل السلطان عبد العزيز بواسطة فتح عروقه بقرص أعدّه لنا ثم استدعاني نوري باشا أنا ورفيقي وأوصانا بما ذكر وبأن في الوصية وشهد علينا في الامر وقال لم يبق لنا حيلة سوى الخلاص من أسر هذا السلطان واسترقاقه لنا واستخفافنا على كتمان السر فلفنا فنناول كلانا ثلاثين ليرة عثمانية فلما كان عصر اليوم أدخلني نجيب بك وعلى بك الضابطان اللذان كانا بحرسان السراي باورطة بكوي أنا ورفاقي وأربعة من الخصيان الى مقر السلطان عبد العزيز فقفنا بمحضرة نوري بك وهو الذي قبض على السلطان من كتفيه ومصطفى الجزائري والحاج أحمد أغا قبضا على ساقيه بعنف وشدة كي لا يستطيع التخلص فقبضت أنا على ذراعه وقطعت أوردته ثم على الثاني وفعلت به كذلك وهو يصيح ويستغيث وكان نجيب بك وعلى بك في هذا الحين بحرسان باب الدائرة فلما قضى السلطان نجبه جالوا جثته وهي ملفوفة ببعض الثياب ووضعت في حجرة قهوة وجاق الحرس على جصير من القش كانت هنالك

فسأله الرئيس - أصحح ما قيل ان السلطان كان به رفق من الحياة حين نقل به الى الحرس فقال البهلوان لا أعلم لي بذلك غير أني أظن أنه كان قد مات وشيع موتا . فالتفت الرئيس الى الحاج أحمد أغا وسأله فاعترف ولم يشكر من فعله شيئا ثم سأل مصطفى الجزائري فقلعهم وتلون واختلقت أقواله عما اعترف به في التحقيق الابتدائي ثم قال ان ما قلته من أن نوري باشا قد حلفنا اليه بأن تقتل السلطان ونكتم سر ذلك خطأ مني فان نوري باشا لم يأمرنا بشئ من ذلك بل أوصانا بأن نخدع السلطان أحسن خدمة وان نقرب من مقامه ان شاء أن نكون بحضرته وأن نعتني بحراسة مقره غاية الاعتناء

فهلئلا بما أوصانا به الى ان قتل السلطان نفسه - فقال الرئيس - أولم تشترك مع رفاقك في قتل السلطان فقال حاشا فقد كنت وقت قتله في أسفل الدائرة فلما سمعت الغوغاء صعدت مع من صعد من الناس لأعرف الخبر فوجدت ان السلطان قد قتل فقال الرئيس قد خالفت ما اعترفت به في التحقيق الأول فقال اخطأت مرادى أن أقول سمعت الغوغاء فتوهمت حريقا في السراى فهرولت اليها فقالوا لي ان السلطان قتل نفسه

فتنظر الرئيس الى نفرى بك وسأله فقص ما وقع من السلطان عبيد العزيز وانتقاله الى طوب قبو واقامته بها بعد أن كتب ورقة الى السلطان مراد وهو في سراى سراغان ثم قال - ان السلطان عبيد العزيز ما دخل هذا المكان حتى بدأت تظهر عليه علامات الجنون والهذيان فقد رأى حزمة في أرض الجنينة لتدويب الكس فاضطرب منها وقال انها من علامات السوء ودلائل النكس ثم سمع طاق مدفع فقال ان أهل البلاد انقسموا الى حزبين وهاهم يتضاربون من أجله - قال - وكان السلطان يقول انه لا بد من ان يقتل كما قتل السلطان سليم واتفق أن رأى نفرا من الجنود يدخنون السيجار تحت شبايك السراى فجعل يشتمهم ويعزرهم على كفرهم بالاحسان - ورأى مركبا حربية آتية لترسو فجاء قصره فصاح مناديا بانهم لا يلبثون أن يطلقوا القنابل على مقره - قال - وفي تلك المدة دعيت الى حرس أورطة كوى حيث كان نجيب بك وعلى بك فاخبراني بان عندهم ثلاثة أشخاص لا بد من ادخالهم الى مقر السلطان تنفيذا للارادة الشاهانية وان هؤلاء الأشخاص مأذونون بنقل بعض المتاع من السراى فعارضتهما ولكن اضطررت بعيد ذلك الى الادعاء قدخلوا وقد رجعت الى مقر السلطان فكنت أرى علامات الجنون تزداد عليه حتى كان يتوهم أن سقف السراى يلتهم نارا وان الاعداء أوقدوا فيه النار عمدا وقد طالب مرآة ومقصا لكي يهنئهم لحينه وكنت أمرت أن لا يعطى شيئا ولكن بالرغم عني أعطوه ما طلب فانزوى في مخدعه وقفل بابة فحضر احدى جواري والدته وجعلت تنتظر من الطاق لتعرف ما الذى يفعله فلما لم تتمكن من ذلك صاحت وعلا صوتها فأسمرت الى الدائرة فوجدته مطروحا غريقا في دمه - فقال الرئيس - قد كان عند السلطان سيف السلطان سليم فهل أخذت ذلك السيف - فقال نعم ولكن وضعته مع بقية الأشياء التي أخذت بأمر الذات السلطانية - فقال الرئيس - لمن سلمته - فقال أدخلته من الطاق وأعطيته لأحد الحراس - الرئيس - الرئيس - من هو هذا الحارس - لا أعرف اسمه

الرئيس - قد نظروا مساء وأنت تتكلم في موضع الحرس مع جلال الدين باشا وحسين عوفى باشا ونورى باشا

نعم - قد كانوا استدعوني ليتحدثوا معي بشأن خدام السراى
الرئيس - لمن سلمت السيف - لا أعرف - لا يخطر لعقل على بال أنك تكون سلمته لمن لا تعرفه

ثم سئل نجيب بك الذى كان متوليا رئاسة حراسة الباب المشرف على الرصيف فى أمر مقتل السلطان فأنتكره وأكاد أنه قتل نفسه - قال - وقد كنت مكلفا بحراسة متاع السلطان المأخوذ من السراى فى ليلة هذه الحادثة ذهبت الى سراى دوله بفجسه حيث تقابلت مع جلال الدين باشا وأخذت منه سلسلة من ذهب وساعة ثم رجعت الى مقر السلطان عبد العزيز ومعى ثلاثة من الخدام وأربعة من الخصيان مرسلين بأمر السلطان مراد ففضيت ليلتى تلك بغاية الطمأنينة وبينما أنا راقدة فى الليل اذ سمعت غوغاء فانتبهت ورأيت ما جرى وعلمت ان السلطان قتل نفسه

الرئيس - ان بعض المتهمين قالوا انك كنت قائما بالباب عند ما كانوا يبشرون فعل القتل - فقال - ليس ذلك بصحيح - فالتفت الرئيس الى محمود باشا وقال قد طهرناه بعد جلوس السلطان مراد على التخت الملوكانى كانت تشككت هيئة فى السراى بإرادة سلطانية فصار من المحتم ان كل شئ يقع فى البلد لا يكون الا بإشارة هذه الهيئة فهلا كنت عضوا عاملا فيها - فقال محمود باشا لا علم لى بوجود هذه الهيئة ولم أكن من أعضائها * نعم انه فى ثانى يوم جلوس السلطان مراد توجهت الى السراى فكلفونى بقبول منصب احدى الوزارات وفى اليوم التالى بقيت فى السراى ولا أعلم البتة بهذه الهيئة - فقال الرئيس - لقد صرح أدهم أفندى ونورى باشا بما يخالف ذلك - فقال محمود باشا كذبا فيما قال

الرئيس - علمنا أنه لما نقل السلطان عبد العزيز الى سراى طوب قبو طلب منك أن تنقل اليه جميع أمتعته وعهد اليك أيضا المحافظة عليه حين نقله بعيد ذلك الى سراى قرية فأنت حينئذ الذى حافظت على مقر السلطان مع نجيب بك وعلى بك من كبار العسكر فنال حاشا حاشا وكلا لم يعهد الى بان أخضر السلطان فى مقره - فقال الرئيس - وابن كنت يا ترى ليلة مقتل السلطان - فقال كنت فى دارى بالفنسدقلى الى أن توجهت الى محمد رشدى باشا - فقال الرئيس - محمد رشدى باشا يكذبك فانهم قد نظروا ليلة قتل السلطان وقبل حصول القتل بساعة فى الحرس تتكلم مع نخرى بك ونجيب بك وعلى بك - فقال لم يحصل شئ من ذلك البتة - فقال الرئيس - الشهود عليك كثيرون وذكر له أسماء الشهود - فقال محمود باشا كلهم يكذبون فيما يدعون - فقال الرئيس - قد نظرت القبطان راسم يوم نقل أمتعة السلطان تكسر صندوقا مدهونا بدهن أخضر - فقال محمود باشا قد حصل وقت النقل ضرر ولم يمكن منع وقوعه - فقال الرئيس - هل توجهت الى محل الحادثة عند ما علمت بها - فقال لالا - قال الرئيس - ومن أين اذا علمت بهذه التفاصيل - فقال علمت بها من صحف الاخبار التى تكلمت عنها

فالتفت الرئيس الى نورى باشا وقال من الذى دعا ماريشال السراى أى أمير أمراء جنود الحرس السلطاني - فقال السلطان مراد هو الذى دعانى بهذا الاسم - فقال

الرئيس - قد شكلت بعد جلوس السلطان على تخت السلطنة هيئة في السراى فمن ياترى كانت هذه الهيئة مؤلفة - فقال نوري باشا كانت مؤلفة من محمد رشدى باشا ومحمد جلال الدين باشا ومدحت باشا وحسين عوفى باشا وخير الله افندى شيخ الاسلام وكنت أنا من أعضائها أيضا - فقال الرئيس - اذا ما هى الاعمال التى نيطت بتلك الهيئة - فقال هى جميع الأشغال وقد كان لابد من عرضها عليها بحيث لا يقع فى الدولة شئ بدون آرائها حسبما أمر به مولانا السلطان - الرئيس - ومن الذى بعث بالثلاثة رجال الى مقر السلطان عبد العزيز - فقال أرسلهم المباشى سعيد باشا حيث أتى بهم الى بأمر ساطفانى وبما أتى مارشال السراى كان لابد من مخبرتى فى جميع الامور فأرسلتهم بصفة كونهم خدمه الى مقر السلطان عبد العزيز وأوصيتهم بأن يحسنوا الخدمة ما استطاعوا - الرئيس - هل أعطيتهم تعليمات سرية * حاشا فأتى أدخلتهم فى مخدعى بحضور كثير من الناس وكلمتهم عما لزم جهارا ثم ذكر أسماء الذين كانوا حاضرين وقتئذ - الرئيس - كيف هذا مع ان مصطفى الجزايرلى قد قرر خلاف ما ذكرى وقال انك طلبت منهم كتمان السر وانك حافظتهم عين القسامه * ليس ذلك بصحيح البته - الرئيس - هل توجهت الى محل القتل - نعم عنده ما علمت أن السلطان عبد العزيز جرح نفسه توجهت واستدعيت ماركو باشا طبيب المرحوم السلطان فأتى ومعه أطباء آخرون وجعلوا يفحصون أسباب الموت فحشا طيبا وكتبوا تقريرا بما رأوه غير أن ماركو باشا أبى أن يوقع على التقرير وتشاجر مع بقية الاطباء

فتم تقديم محمود باشا وأنكر أقوال نوري باشا وكرر القول بأنه لا يعلم البته بتشكيل تلك الهيئة - فقال الرئيس - كيف وقد قلت واعترفت بأنك أنت الذى أوصيت نوري باشا مصطفى البهلوان - فقال انى لم أر البهلوان سوى مرة واحدة من نحو الخمس عشرة سنة فى ناحية جاملجة وأوصيت نوري باشا به ولم يكن فى خدمتى أو يتردد على قط قبل الآن ثم دخل مدحت باشا ويده مفكرات ودفاتر وأوقف موقف المتهمين وعلامات السكون تنطق من وجهه فمدت اليه الأعتاق وأحدقت به الأبصار وقد وضع ذراعه على رأس كرسى كان أمامه - فقال له الرئيس - يتلو عليك الكتاب الآن ما يتعلق بك مما ورد فى أوراق الدعوى - فأجاب مدحت قائلا قبل أن أسمع هذه التلاوة أقول ويحق لى أن أقول انى أعد نفسى سعيدا اذ دعيت لأبرئ نفسى من تبعة جنائية أمام هيئة علانية ويجب على فى هذا المقام أن أمتدح غيرة ومساعى المأمورين بالقضاء اذ رغبوا فى أن يقوموا حق القيام بأموريتهم فتصرفوا بنوع من العجلة وحكموا قبل أن يقضوا وينبغى على هذا تقديم واجب الاحترام لشعائر العدل المتصف بها جلالة مولانا السلطان حيث تنازل وأمر بكشف خفايا هذه المسئلة فى محاكمة علنية وهى خطوة عظيمة نحو الحرية فلما تم مقاله حتى جعل الكتاب يتلو مرسوم الاحالة وأوراق الدعوى وقبل أن تتم تلاوة

جميع الاوراق عاد مدحت باشا الى سياق مقالاته الاولى فقاطعه الرئيس وقال يجب عليك السكوت فان ادارة المحكمة هي من خصائص الرئيس لا منهم ثم قال له قل ما تعلمه من امر الهيئة التي كانت في السراى فقال لاعلم لى بوجود الهيئة المذكورة بل الذى أعلمه أن مجلس الوزراء هو الذى كان وحده يدبر جميع أمور الدولة وانى كنت أحد أعضائه ولم تؤمر قط بقتل السلطان عبدالعزیز فقال الرئيس من الذى أمر بأن يؤخذ من السلطان الخلع سيف السلطان سليم فقال مدحت باشا أعنى بذلك بعد الخلع فقال الرئيس نعم قال قد أمر بعد نقله الى سراى طوقبوا أن يبعد عنه كل نوع من الاسلحة ولم يكن لذلك من سبب سوى الخوف على حياته - الرئيس - متى تمت وفاة السلطان فقال مدحت باشا يوم الاحد توجهت الى الباب العالى لاحضر الجلسة التي كان مزعما عقدها فوصلت اليه ولم أجد أحدا فسألت عن الخبر فقل لي ان المستشار سعيد باشا أفندى هو وحده موجود هنا فسألته عن سبب غياب الوزراء فأخبرني بالحادثة فراعنى الخبر بل كدترنى جدا خصوصا وقد خطر ببالى وقتئذ ما يترتب على ذلك من مؤاخذة الكثير من خلق الله في هذه الحادثة بمجرد الشهادة - الرئيس - لكن سعيد باشا أفندى المذكور يكذب قولك فقال مدحت ليس لتكذيبه عندي أهمية فبعد أن سمعت هذا الخبر بارحت الباب العالى وسرت الى دوله بفنجه قاصدا حرس أورطة كوى حيث كان هناك جماعة الوزراء وجم من العلماء وغيرهم من أهل المراتب وتسعة عشر طبيباً فكلهم قالوا لي مع نقرى بك ان السلطان قتل نفسه فلم يسعني الا التصديق كسائر من سمع الخبر من الحراس - الرئيس - قالوا انهم وجدوا عدا الجروح التي كانت في ذراعيه جرحا آخر فوق ثديه الشمال وأثارا أخرى شديدة تدل على أنه قتل مقهورا وحيث انك كنت في ذلك الحين وزيرا فكان من واجباتك أن تأمر بالفحص في أمر قتله فقال مدحت اذا اعتبرتموني لاجل ذلك مسؤولا وجب اذا جعل جميع الوزراء الآخرين مسؤولين مثلي ولكنى لست أراهم قائمين بجانبى في هذا الموقف حتى أقسم بيني وبينهم مسؤولية عدم أمرهم باجراء الفحص - الرئيس - هل كان في السلطان رفق من الحياة عند ما قلت جثته الى وفاق قهوة الحرم * فقال مدحت لاعلم لى البتة بذلك - الرئيس - كيف ومحمد رشدي باشا لا يقول ماقلته أنت الآن فقال مدحت ذلك ممكن وقد قرر محمد رشدي باشا أمورا أخرى كثيرة من هذا القبيل - الرئيس - ان المجلس يرغب أن يسألك أيضا عن الاسباب التي حملتك على الالتجاء الى دارقونصلية فرانسا * فقال مدحت باشا هذه الحادثة تحتاج للتفصيل ولكنى مع ذلك أقول انه قد كانت وردت لى مكاتبات من الاستانة تعلنى بكل ما كان يقال في حقى وكشفت لى عن التهمة التي رميت بها في ظروف لا يطمئن معها قلبي ثم لم ألبث أن رأيت في صباح ذات يوم معاون الحضرة السلطانية وصل الى أزمير ثم أتى القوناق وجعل في الحال يرسل السراى السلطانية برسائل الارقام وقد أبلغنى بذلك رجال البوليس السرى الذى كنت أنشأته هناك فعملت أن ذلك الامر يختص بى ذاتيا ثم بعيد

وصول هذا المعاون بأيام قلائل علمت أيضا بوصول مأمور عسكري وهو على بيك رجل على
شاكلة وفطرة شركسلى حسن وادعى أنه انما جاء لاجل أن يرتقى الى رتبة ميرالاي وان لباسه
الرسمى لم يكرر لغاية حضوره الى أزمير ولذلك أتى بغير لباس عسكري ثم جعل بعد أيام من
وصوله يتكلم بما لا يليق ونسب الى أمورا قبيحة فقصدت القبض عليه ولكن لم يقع ذلك حتى
بلغنى أنهم عازمون على القبض على وفى تلك الليلة نفسها رأيت أنه قد أحاط بمنزلى ثلاثمائة
جندي فداخلى من الخوف ما أبلغنى الى عدم التأخر عن المسير حتى لا تنالنى هذه الحروب المشرفة
ولا أفع فى أبدى رجال على بك المذكور ولهذا السبب خرجت من باب الجنيينة وركبت
أول عربية وجدتها وسرت الى المحلة الاورباوية فأول باب وجدته مفتوحا كان باب دار
قونصلية دولة الفرنسيين فدخلتها وانى لأ كذب كل التكذيب ما قبل من أنى فتحت بابا فى
الجنيينة عمدا لهذا الغرض قبل بخمسة أيام كما أنى برىء من اتهامى بانى هيات العربية فى
تلك الليلة قبل الامر

فلما أتم مدحت باشا كلامه أشار الرئيس بقفل الجلسة وانه لدى افتتاحها تسمع
شهادة كشير من الشهود ولما كان اليوم الثانى افتتحت الجلسة بعد الظهر وجلس القضاة
وأخذ فى تلاوة طلب المدعى العموى وقرار المجلس المشتمل على الحكم على مصطفى البهلوان
وحاجى محمد ومصطفى الجزايرلى ونفري بك بان لهم اليد فى قتل السلطان وعلى محمود باشا
ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وعزت بيك بانهم شركاء فدافع عنهم المحامون وقال بعضهم
أمام هيئة المحكمة انهم يرفعون دعواهم أمام محكمة التمييز وقال البعض الآخر انهم
يسلمون أمرهم لحلم ورجحة الذات السلطانية وكذلك طلب المحامى عن محمود باشا تخفيف
الحكم عليه ثم قام الاعضاء واختلوا برمة ثم عادوا وقرروا الحكم على سبعة من المتهمين بالقتل
طبقا للمادة المائة وخمس عشرة من القانون العثمانى وهم مصطفى البهلوان وحاجى محمد
ومصطفى الجزايرلى ونفري بيك ومحمود باشا ونورى باشا وعلى بيك ونجيب بيك وحكموا على
سعيد بيك وعزت بيك بعشرين سنين فى الاشغال الشاقة وكان هذا الحكم بموافقة جميع
الآراء خلا الحكم على محمود باشا ونورى باشا فانه كان بالاغلبية ثم أخرجوا جميع المتهمين
من قاعة الجلسة وعاد القضاة بعد ذلك لحكموا على مدحت باشا ولم يحضريين القضاة
سرورى أفندى فانه قد رد نفسه عن الحكم لخلاف وقع بينه وبين مدحت عند مدافعته
عن نفسه وبعد أن تقرر الحكم على مدحت استدعى أمام الهيئة فلما حضر تلى عليه
طلب المدعى العموى القاضى بقتله لاشتراكه فى مقتل السلطان عبد العزيز ثم سأله الرئيس
هل عندك شئ من الملاحظات تقوله لهيئة المحكمة فقال ان عندى كلاما طويلا فى طريقة
الحكمة والسير الذى سارت به فأجابه الرئيس بأن هذا ليس له فى هذه الهيئة من محل
وأمره بالسكوت فقام شهرى أفندى المحامى عن مدحت باشا وقال ان موكلى مدحت
باشا يطلب استئناف الدعوى فقام القضاة واختلوا مليا ثم عادوا وحكموا باتحاد الآراء

بالقتل لاشتراكه في قتل السلطان عبد العزيز وبعد أن تلى عليه الحكم قال له الرئيس انه لابد من تقديم تقرير الاستئناف في ظرف ثمانية أيام * فلما شاع الحكم على مدحت باشا بالقتل اندفع أصحاب صحف الاخبار الانجليزية يهتفون ويهددون ويرمون رجال السلطنة العثمانية بالعسف والجور وقام أحد خطباء الانجليز يطلب من حكومته باسم الانسانية وبشرف الامة الانجليزية التدخل في أمر استبدال الحكم على مدحت بحكم آخر لا يضر بحياته التي هي ثمينة عندهم وجعل يبائع في الاطراء ويعدد مناقب مدحت وماله من الايادي البيضاء على الدولة الانجليزية فرد عليه أحد رجال السياسة وقال متهكما * خفف عنك يا صاح ولا تجزع فان رجال حكومتنا عافاهم الله لم يخذلوا بان أنفدوا الى دوفرين سفيرا في دار السلطنة العثمانية بالوساطة في استصدار فرمان من السلطان بالعمو عن مدحت ومحمود جلال الدين ونوري باشا فانهم قد دفعوا كثيرا عن السياسة الانجليزية وعززوا جانبها بل أخلصوا لها الخدمة يوم كانوا قاضين على زمام الحكومة لاسيما مدحت قال ولا إخالك تنكر على القول بان قومك الانجليز أصلح الله حالهم يحبون مدحت حبهم لانفسهم ولم يتركوه يوم أنزله السلطان من مسند الصدارة بل أعمل سفيركم هناك الجهد حتى ولاء على الشام وكم شدد يومها وهدد وأرعد وأزبد ونادى بالويل والثبور ولولم يقدر الله بسقوط الحزب المحافظ الذي كان قابضا على زمام الحكم على بلادك يومئذ لا رانا من دسائسه في تلك الاصقاع عجائب غرائب بل المبكى والمضحك فتأمل عافاك الله واحكم ان كنت من المنصفين اه

ورفع مدحت باشا الى أمير المؤمنين بعد الحكم عليه بالقتل قصة يقول فيها * اني وان كنت قد عملت على خلع بيعة السلطان عبد العزيز عند ما ظهرت منه الرغبة في عزل الوزراء وتسليم البلاد والامة وادخال جيش روسي في دار الخلافة الاسلامية ولكني لم أعمل على موته ولم أشترك في ذنب سفك دمه ولم أوافق قومه الا على خلع بيعته وتنزيله والله ورسوله على ما أقول شهيدان * فلم يلتفت السلطان الى كلامه ولم يسمح بتخفيف العقوبة عليه (قال بعض كتاب الاخبار) وقد نسب أصحاب صحف اخبار الانجليز ما وقع لقاتلي السلطان عبد العزيز من الشدة ثم الحكم عليهم بهاته العقوبات الى دسائس الروس واتساع كلمتهم في دار السلطنة العثمانية فتحرك لذلك خواطر العامة والخاصة من الانجليز وقاموا وقعدوا وطلبوا منع تنفيذ الاحكام على مدحت ورفقائه كأنهم انجليز أولاد انجليز ثم قام خطباؤهم في دارندوتهم ينادون واتخذناه وانسانيتاه وامرجهاه فوقعت عند ذلك بينهم ضجة جل فيها أهل البين على أهل اليسار وعلت الضوضاء وارتفعت الاصوات وطال الجدل واشتد الججاج واحتدم النكال فلم يخرجوا وقبعاتهم على رؤسهم الا وهم على بينة مما سيكون ولم يحض على ذلك الا القليل حتى شاع الخبر بصدور فرمان السلطان باستبدال حكم القتل على مدحت ورفقائه بالتني والتبعيد الى الاقطار الحجازية * فلما كان تاسع رمضان سنة ثلاث وتسعين عبرت من ترعة السويس سفينة عثمانية حربية اسمها (عزالدين) تحمل مدحت

ورفقاه قاصدة جـدة ولم ترمس بالميناء بل دخلت من البوغاز وسارت الى السويس مسرعة
 فاغضب قيصر الروس هذا الامر وعلم أنه من أفاعيل دولة الانجليز فاضمر لها السوء وعمد الى
 معاكساتها في أواسط آسيا وتنكيس أعلامها في جوف الهند وعلى حدود الصين فسير عسكره
 المنصور الى قلب التركان تلك وحدود الافغان التي هي حصن الانجليز الاكبر الحائل بين غارات
 الروس وبين هندهم ففعل ذلك الجيش فعالة وتغلغل في جوف البلاد وأرهب وهدد وأخضع
 الخوصوم وذل الصعاب فسكادت قلوب الانجليز تطير خوفا وقد أعيت كبارهم الحيل وضائق
 عليهم المذاهب فكادوا يسقطون في أمرهم * وبينما كان القيصر ينظر الى ظفر جنوده في تلك
 الاصقاع نظرة الساهر على الاخذ بالثار اذ تحركت طوائف الناهليست وهم طائفة العدمين
 وقيل حركتهم أيدي الانجليز وتآمروا على قتله فدبروا له المكاييد وتبعوه أينما سار بالآلات
 الجهنمية قصد اذهاب روحه فتحفظ وبث العيون والارصاد وأكثر من الحراس والرقباء وبالغ في
 تعقب هذه العصابة الوحشية واشتد عليها شدة بالغة حتى خيل له أنه في مأمن من شرها * واتفق
 أنه ذهب بعمد ظهر الحادي عشر ربيع الآخر سنة تسع وتسعين الى مشاهدة معرض
 الجنود على عادته فيمنما هو عائد الى مقره ألقى عليه نفر من هذه العصابة قنبلة محشوة بالمواد
 الاتهابية فسقطت القنبلة تحت بحلات عربته وانفجرت انفجارا هائلا فقتلت وجرحت بعضا
 من كان معه فأسرع هو ونزل من العربة فرارا ولكن لم تصل أقدامه الى الارض حتى سقطت
 بين رجليه قنبلة أخرى فخلعتما معا فسقط وأغمى عليه لا يبدى ولا يعيد فأسرع الجنسدي
 نقله الى السراى وهو لا ينطق بكلمة ولبث ثلاث ساعات ونصفا في نزع شديد حتى فارق الحياة
 وقدمات أيضا بعض من كانوا معه وبذل أصحاب الشرطة جهد المجتهد في القبض على مرتكبي
 هذه الجناية العظيمة فكانوا أربعة ثلاثة رجال وامرأة وهم دوساكوف وسكبالوف ومكوف
 وصوفيا برسوكا وألقتهم في السجن مكبلين بالحديد ونادوا بولي العهد قيصر على الروس وبابعه
 البيعة العامة ثم دفنوا القيصر في مشهد وأخذوا في محاكمة أولئك القاتلين فحكم عليهم جميعا
 بالقتل * ولم يكن موت هؤلاء الطغاة يغنى عن موت السلطان عبد العزيز والقيصر اسكندر
 الثاني اللذين ذهبا شهيدى التحالف والاتفاق على الضرب على يد أصحاب السياسة
 الانجليزية رجهما الله تعالى فهو الغفور التواب

وعادت دولة الانجليز وكانها قد تفرغت الى تهديد الخديوى اسمعيل وارغامه على وفاء
 سائر الديون الصغيرة التي حكمت بها المحاكم المختلطة كما تقدم القول وأنفذت الى قونصلها
 المستر فيثيان أن يشدد في طلب ذلك والخديوى يحاول ويحاول * واتفق في هذه
 الانشاء أن تغير هيئة حكومة الفرنسيين بهيئة أخرى كان فيها المسيو وادنجتون وزيرا
 للامور الخارجية فنظر هذا المسيو الى ما هو واقع من الخديوى بعين القلا والرجل من دم
 انجليزى أقام سفيرا للفرنسيين بدار الانجليز أعواما كثيرة فيصح أن يقال عنه انه
 انكليزى بحت فكتب في صفر سنة خمس وتسعين الى وزير الانجليز يعلمه بما آلت اليه الحالة

مطلب
 رجب—وع دولة
 الانجليز الى تهديد
 الخديوى اسمعيل

بمصر ويستقره الى الاخذ بالاحوط وتدارك الخطر قبل استفحاله وما زالت المخابرة بين
 الفريقين متتابعة حتى قررت القاعدة بينهما على تشكيل هيئة باسم مجلس التنقيش
 يكون من اختصاصها تنقيب جميع الطرق التي اتخذت للنظر في حالة خزانة البلاد وأرباب
 الديون وكلوا الخديوى في ذلك وما زالوا به حتى رسم في سادس عشر ربيع الاول سنة خمس
 وتسعين أى في غاية مارس سنة ثمان وسبعين ميلادية بتشكيل ذلك المجلس برئاسة الميسو
 فريد بن دلبس فاتح خليج السويس ووكالة أحد رجال الانجليز المسمى ريفرس ويلصون
 فلم يتسن للرئيس الحضور في جلسات المجلس لاسباب سياسية لم نصل الى معرفة الصحيح
 منها فأخذ المجلس في العمل تحت رئاسة ويلصون الانجليزى وجعل يبالغ في البحث
 والتنقيب وكان من حدوده بمقتضى ما رسم به الخديوى أن يطلب من شاء من موظفي
 الحكومة وكبار رجال الدولة ويسألهم فيما يرى لزوم سؤالهم فيه * وكان الوزير محمد شريف
 باشا في هذا الحين في منصب وزارتي الخارجية والحقانية فسير اليه ويلصون يستدعيه
 يوما لسؤاله أمام المجلس عن شيء يريده فاستعظم الوزير هذا الامر وأكبره وامتنع من
 الذهاب فكبر ذلك على ويلصون وكان مصطفى رياض باشا قد أقامه الخديوى وكيلا ثانيا
 لهيئة ذلك المجلس وكان بينه وبين الوزير شريف باشا بغض ونفور مستحكم فلما امتنع الوزير من
 الحضور أمام هيئة المجلس قيل ان مصطفى رياض باشا جعل يزين الى ويلصون الاصرار
 على طلب الوزير وأن يحاسبه على الذرة والسبرة فشدد ويلصون في الطلب ومال على الوزير
 شريف باشا وقال لابد من حضوره فصمم الوزير على الامتناع وقال لاسبيل الى ذلك وطال
 بين الفريقين الاخذ والرد وتداخل في الامر قناصل الدول واشتدت الازمة واتسع الخرق
 فلم يسع الوزير الا التخلي عن منصبه فاعترضه ولم يرض بالذل والصغار فرسم الخديوى
 بأقامة مصطفى رياض باشا بدلا منه بإيعاز من ويلصون فتعطلت أعمال المجلس أياما
 وأحست دولة الانجليز بما وراء ذلك من الخيبة والفشل فرسمت بأقامة ويلصون رئيسا فأجابها
 الخديوى الى ذلك وأتاب عن هيئة الحكومة في ذلك المجلس بطرس بيك غالى وهو يومئذ كاتم
 أسرار وزارة الحقانية فبالغ ويلصون في البحث والتنقيب حتى أتى على جميع الامور من
 أبوابها وكتبوا بما علموه من حالة البلاد والخزينة والديون محضرا ذكر وا فيه أمورا كثيرة
 كان أهم ما فيها أن جميع ما اتخذ من التحوطات قبلا وما تقرر يومئذ من القواعد الكافلة
 بحسن سير الخزينة وراحة أهل البلاد وطمأنينة أصحاب الديون لاحقيقة لها البتة وما هي
 الا من قيل النقش على الماء وأن لاسبيل الا الى تصفية جميع حسابات الخزينة وتقرير
 قاعدة لها ثابتة الاركان لا يعتورها شيء من الزور والبهتان وكلوا الخديوى في ذلك
 فظهر غاية الميل ومزيد الرغبة وسهل لهم الامر ما استطاع وعمل بما أشاروا به جهدا
 الاسنطاعة

فلما كان شهر شعبان سنة ١٢٩٥ خمس وتسعين ومائتين وألف هجريه أى شهر

مطلب

امتناع الوزير شريف
 باشا من الحضور
 أمام هيئة التحقيق
 وخلعه لنفسه
 من المنصب

مطلب
تشكيل الوزارة
المختلطة وخلع
الوزراء المصريين

أغسطس سنة ثمان وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية أنفذت دولة الانجليز الى الخديو
بخلع الوزراء وتنزيلهم كافة عن مناصبهم نخلعهم طائعا فرسمت له بناليب وزارة أخرى
من ويلصون رجلها ودي بليشار الفرنساوى الذى كان ممن جاؤا للنظر فى أمر ديون
الخزينة وآخرين من أهل البلاد وأن يكون رئيس هاته الوزارة الوزير نوبار باشا فأجابها الى
ذلك وتم تشكيل الوزارة على ما أرادت فكان ويلصون الانجليزى لوزارة المالية ودي بليشار
الفرنسيلى للاشغال العمومية ومصطفى رياض باشا للداخلية وأخذت على الخديو العهود بان
لا يأتى عملا الا بمشورة وزرائه ولا يبدى رأيا الا بعد رأيهم أسوة الممالك الدستورية وصادق
أصحاب سياسة الفرنسيين والانجليز على هذه العهود وأنزلوها منزلة عالية وفرح الناس بها
وظنوا ستكون الحال وزوال الشدة وانحلال عقدة ذلك الضيق وأعقب ذلك أن استدان
الخزينة قرضا جديدا قدره ثمانية آلاف ألف من الذهب من أحد كبار أغنياء الانجليز
المسمى روسيلد وجعلت جميع اقطاعات الخديو واقطاعات عائلته على اختلافها رهنا لوفاء
هذا القرض وعقدوا بذلك عقدا كان من شروطه أن أنشؤا ديوانا مخصوصا فتولى رجاله
ادارة عمل تلك الاقطاعات وجمع أموالها وتدير شؤونها وكانوا ثلاثة انجليزى وفرنساوى
ومصرى واشترطت دولتنا الانجليز والفرنسيين عدم جواز تنزيل أحدهم من منصبه الا بعد
رضاهما بذلك وخصتهم ببعض الحقوق والامتيازات التى تجعلهم فى مأمن من كل حادث
ولم تقف عند هذا الحد بل طلبنا أيضا إقامة اثنين مراقبين يكون من اختصاصهما المراقبة
على جميع أعمال الهيئة الحاكمة ومنع وقوع مالا يلائم منها مصلحة أصحاب الديون وخزينة
البلاد وراسلت دولة الانجليز الخديو فى ذلك على يد المستر فيثيان قنصلها الجنرال بمصر
وأظهرت للخديو غاية التجميل والملاطفة فأبى الخديو عليها ذلك فالح عليه القونصل وأكثر
من الالحاح واترداد على مقر الخديو فأكبر الخديو هذا الامر وأحزنه وقال للقونصل يوما
ما هذا الالحاح وقد كنا والانجليز يشيرون علينا اشارة لصاحب الودود فأصبحنا وهم يتهمدوننا
تهديد العدو الكنود فجعل القونصل يطاوله وهو يراوغه ويحاوله

وسار الوزراء فى أعمالهم سيرا حثيثا وأظهر ويلصون همة ورغبة زائدة فى تخفيف
المصارفات عن عاتق أهل البلاد وانترام جانب الاقتصاد والحزم جهد الاستطاعة قيل وكلم
الخديو فى ذلك فاستحسنه وحبب اليه العمل به وقد كانت الخزينة الى هذا الحين فارغة
والجماكى معطلة لاسيما مرتبات سائر الجند والعسكر وعلوفات كبارهم وقد مضى عليهم زهاء
عشرين شهرا لا يحصلون على فضة ولا نفاس فبعد ويلصون عند ذلك الى الاتيان على أوجه
الاقتصاد من أبوابها فحسب ودقق وصرف من الجند والعسكر زهاء الالفين الى أوطانهم
تخفيفا على الخزينة وجعل ينظر فى جميع مصروفاتهم من أوجهها الحقيقية فساء ذلك
أمراء الجند وكبارهم واستعظموه وشكوا منه الى مقدمهم وتراجوا على أبواب ويلصون
والوزير نوبار باشا يطلبون صرف جماكهم الموقوفة ومراتبهم المتأخرة وهما بعدانهم

وهمؤنان عليهم فكانوا لايزدادون الاالحاحا وتشديدا في الطلب

مطلب
تحزب طوائف
الضباط واهانتهم
للوزير نوبار باشا
ومن معه

فلما كان خامس عشر صفر سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أي ثامن عشر فبراير سنة تسع وسبعين ومائمائة وألف ميلادية اجتمع نيف وأربعائة من صغار الضباط وساروا وهم مزججون بالسلاح ومروا برحبة عابدين حتى أتوا شارع الدواوين في نحو الظهر وتفرقوا في أنحائه يرقبون مرور ويلصون والوزير نوبار باشا فلما مرت بهم عربة الوزير وهو بها وعلى يمينه كمال بك كاتب سر المجلس انقض عليها جماعة منهم وأمسكوا بلحم الخيل وتقدم جماعة آخرون وأمسكوا بأطواق الوزير وصاحوا في وجهه لايجل لك يا ظالم أن تعيش رغدا متمتعا ونحن نموت جوعا أعطنا جاكينا الساعة فجعل يلاطفهم ويكلمهم بأحسن الكلام وقد حث سائق العربة الخيل بضرب السوط يريد الفرار بمولاه فتراخ خلفه جميع الضباط حتى أوقفوه وأخذوا بلحم الخيل وعادوا به الى مقر الدواوين واتفق خروج ويلصون ولم يشعر به أحد من المتآمرين فلما علموا بخروجه أكثروا من الصباح والجلبة وعلت بينهم الضوضاء وتراخ الناس فاغلق أصحاب البيوت القريبة أبوابهم وغص مقر الدواوين بالضباط والجند وأصحاب الوظائف وأصعدوا الوزير نوبار باشا الى الديوان ووقفوا على الابواب يحرسونها ووصل الخبر بما جرى الى مقر الخديوي فخاف وحوله طوائف الحرس وجميع بطانته ورجال ديوانه الخاص وعبد القادر باشا محافظ المدينة يومئذ وشق من وسط الزحام حتى دخل حوش الديوان واقتحم الدرج وهو ساكن القلب هادئ الاب كأن لاخوف عليه فلما رآه الضباط والجند صاحوا باصوات الدعاء والتهليل فغاب برهة جمع فيها هيئة مجلس الوزراء وكلهم في الامر ثم أشرف على الجمع من الشباك وخاطبهم بالحسنى وأكثر من ملاطفتهم ووعدهم بصرف جميع جاكيتهم وسائر مرتباتهم المتأخرة ان هم عادوا الى منازلهم فصاحوا لاسيبل الى ذلك فملوت بالنار خير لنا من الموت جوعا فزاد في ملاطفتهم فزادوهم لجاجا وحجاجا فغاب عنهم برهة ثم عاد وكلهم فلم ينصرفوا فنزل وحوله بطانته وحاشيته وحرسه وأمر فتقدم الى جماعة الضباط نفر من الحجاب والحراس ليفرقوهم فأنعوا وأطلقوا عدة طلقات نارية فكثر عند ذلك الضجيج وعلا الصياح والتم الجيع واشتدت الضوضاء وتماسك البعض ببعض واشتد الدك والضرب فأمرع الخديوي وركب عربته وخلفه أصحابه وأتباعه وسار الى مقره وجمع اليه هيئة الوزراء ثانية وبينهم بعض قناصل الدول وكلهم في الامر طويلا وبالغ في الشكوى الى أن قال للقناصل قد صرت عاجزا عن درو كل ما يحدث في داخلية البلاد وأخشى من انتشار الفتنة واتساع نطاق الثورة ان لم تعد الى السلطة التي سلبتها مني هيئة الوزارة الجديدة واني لأرى من المناسب قط بعد وقوع ما وقع اليوم بقاء الوزير نوبار باشا قابضا على زمام الحكومة وقد رأيتم ظهور الفتنة وتحزب طوائف الجند على مالم يسبق له مثال قيل فاستعظم القناصل هذا الامر ولم يبق عند أحدهم شك في أن الخديوي هو الذي هبأ هذه الفتنة وأضرم نارها لغاية في

مطلب
شكوى الخديوي
من الوزراء وتصميمه
على خلع الوزير نوبار
باشا وويلصون
الانجليزى

نفسه واشتد الخوف بالناس وكثر تطيرهم والخديو يشدد في طلب تنزيل الوزراء عن مناصبهم
ويطعن في شخص ويلصقون الانجليزى ويرمي به بغض البلاد وأهلها وأنه عامل على تخريبها
وكثر اجتماع العلماء وكبار المشايخ بالجامع الأزهر وهم يتكلمون فيما فعله ويلصقون والوزير
نوبار باشا من الاضرار بالبلاد ويشكون من تغلب النصرانية على حدود الشريعة المحمدية
المطهرة وتقدم الشيخ البكرى بالاصالة عن نفسه وبالوكالة عن زهاء سبعين ألفا من
الدراويش هم أرباب الاشبار والطرق ومشايخ السجاجيد وأصحاب العكاكيز والمتعممين يشكون
بما أصاب البلاد وأهلها من سوء فعال ويلصقون والوزير نوبار باشا * وتكلم مع الخديو
في ذلك وأكثر من الترداد على مقره * قال بعض الكتاب فكان اذا اجتمع عند الخديو
قناصل الدول أو بعض كبار الاجانب أرسل في الحال الى الشيخ البكرى فيدخل على
الخديو فيقوم له الخديو اجلا لا ويعظمه ويدنيه من مجلسه ويخاطبه بغاية التجلة والتكريم
مع الرهبة والوقار فاذا خرج نظر الخديو الى الحاضرين وقال هذا هو كبير الاسلام
وشيخ مشايخ الدراويش وان في خدمته وتحت أمره واشارته سبعين ألفا من الدراويش
وهو اليوم يطالبني بحقوق الامة فلا أدري ما ستكون عاقبة الامر معه * ونادى بعض
العلماء على منابر الجوامع بتكفير مصطفى رياض باشا ومروقه عن جادة الحق وتعريضه
لنصرانية وأهلها ثم اجتمع نواب البلاد وجعلوا يطعنون فيما بدا من ويلصقون وينسكرون
عليه ما قاله من ضعف حال البلاد وإحمال موارد الإيراد وذهاب ما في خزينتها من الاموال
وأرسل صاحب شرطة القاهرة الى مصطفى رياض باشا يقول * دبر للخلاص أمرا فان البغض
اليلك في ازدياد ولذلك فاني غير مسئول عما سيحيق بك اذا لم تغادر البلاد فاني أرى الخطب
شديد والخلاص بعيد فهال مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأزعجه جدا * ورأى الوزير
نوبار بعيد ذلك استحالة بقاءه في منصب الوزارة فخلع نفسه وتبعه في ذلك مصطفى رياض
باشا وبقي ويلصقون الانجليزى بالينار الفرنسي في القاهرة ينتظران الأمر من دولتهم ما
وفر مصطفى رياض باشا من وجه الخديو الى الديار الاورباوية خوفا من البطش به * ولما تم
تنزيل الوزير نوبار باشا ورفاقه وتخليهم عن المناصب عمد الخديو الى تشكيل وزارة يرأسها
أكبر أولاده الأمير محمد توفيق وسير الخبر بذلك الى دولتي الفرنسي والانجليز فوافقاه
على كره واشترطنا أنه ان حدث أى حادث بعد وقوع ما وقع فلا لوم الا على شخص الخديو
فقبل الخديو ذلك ولكن لم تطل أيام رئاسة الأمير محمد توفيق وزالت لاشداده اللازمة
واستحكام حلقات الضيق بالبحال الخزينة فخلع رابع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين
ومائتين وألف هجريه أى سابع ابريل سنة تسع وسبعين ومائتين وألف ميلادية
وأقيم بدله الوزير محمد شريف باشا * قال بعض الكتاب وقد كان لم يصل لأحد من
الوزراء علم بهذا التغيير فلم يشعر الواحد منهم الا وقد دخل عليه من خلفه وقبض على
زمام الاعمال فتخووا عن المراكز وهم صاغرون وطيروا الخبر بذلك الى الاتفاق فلما علمت

مطالب

رجوع وزارة
الوزير شريف باشا
بعد وزارة الأمير محمد
توفيق وما كان من
وراء ذلك

دولتنا الانجليز والفرنسيس بما جرى خلافا للعهد هالهما الأمر وحرك منهما ساكننا فأوعزنا الى وكيليهما بالقاهرة أن يكلما الخديو ويحذراه سوء العاقبة فلم يلتفت لقوليهما وأطلق للنفس عنان هواها وأمر فزيد في عدد العساكر والاجناد الى ستين ألفا وأكثر من جمع الأسلحة وآلات الحرب وبالع في التأهب والاستعداد قليل وأوعز الى بعض أصحاب صحف الأخبار فنفخوا خبر ذلك محشوا بالغلو والمبالغة وصاحوا يا لثارات الدائنين يا لثارات حاملي السندات ولم يقف عند هذا الحد بل رسم أيضا في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ست وتسعين بإبطال جميع النظمات والتعديلات التي كانت تقررت للخزينة سنة ست وسبعين وثمناثة وألف ميلادية وعدم اعتبارها لعدم ملاءمتها لحالة البلاد وعادات أهلها فتجرد عندئذ أصحاب سياستي الفرنسيين والانجليز للذبح والدفاع وعدوا الى الاستعانة بالسلطان وأوعزوا الى سفيرهم بدار السلطنة أن يبلغا السلطان حديث ما جرى ويستطلعوا أفكاره وكلموا في ذلك أيضا بسمارك داهية السياسة وكبير وزراء الالمان فسير بسمارك الى دار السلطنة في طلب خلع الخديو تلافيا للخطر قبل استفحاله فاشتدت عزائم الانجليز حينئذ وتقدموا الى السلطان في تولية الأمير محمد توفيق مسند الخديوية وطنوا أنفسهم ان فازوا بذلك كانوا أقوى جميع الدول حجة على الأمير وأبيضهن يدا فلا يصح له بعد ذلك أن ينقض لهم كلمة أو يخالف لهم اشارة * وأحس الخديو اسمعيل بذلك فبث العيون في دار السلطنة وأكثر من البذل والعطاء وهادى رجال الدولة وكبار المايين فأنت اليه الاخبار بعضها يناقض بعضها وطال الأخذ والرد بين سفراء الانجليز والفرنسيس وصدر الدولة واشتدت الأزمة في سائر البلاد واستحكمت حلقات الضيق على أهلها وسيرت دولة الفرنسيين الى مصر وكيلها اسميه تريكو وأوعزت اليه أن يعمل على خلع الخديو بكل ما وصلت اليه حيلته فزاد هذا الرجل الأمر تعقيدا وخبالا وكان يدخل على الخديو تارة يظهر التحفير والاستخفاف وطورا بالارهاب والتهويل ويطلب منه التخلي عن منصب الخديوية وكان قونصل الانجليز في ذلك الحين أروغ من ثعلب يظهر الرفق آونة وآونة يظهر الوعيد والخديو يجت في استمالة رجال السلطنة العثمانية وكبار الدولة ويتقرب منهم كي لا يتمكن الدول الثلاث من خلعه * ويثما هو على هذه الحال اذ ورد عليه الخبر من ابراهيم باشا كابو كخباه بدار السعادة بان السلطان أبي على الدول خلعه ففرح بذلك فرحا لا يوصف وطير الخبر الى الآفاق ولكن لم يمض بياض يومه حتى وردت الاخبار في سواد ليله تنبي بأنه ان لم يتنازل عن عرشه لولده الأمير محمد توفيق طائعا سابه لياه الأمير عبد الحليم بن محمد على باشا كرها فاضطرب أي اضطراب وكاد يسقط في يده وجاء الخبر من سفير الفرنسيين بدار السلطنة العثمانية الى تريكو بأن يلج على الخديو بالتجسيل في خلع نفسه والتنازل لولده اذ صارت تولية الأمير عبد الحليم أمرا مقضيا وشاع الخبر بذلك في تلك الليلة فاشتد الخوف بالناس وكثر تحمدهم فيه وجمع اليه الخديو كبار قومه ورجال أبيه ابراهيم باشا

وطوائف المشايخ والعلماء والاعيان ونواب الامة وتناجوا في الأمر طويلا فلم يستقروا على أمر من الأمور واشتد قلق الخديو وفارقت تلك الحمية وذلك الثبات فلما كانت ليلة الخامس من رجب أي ليلة خامس عشر جونيوس سارقونصلا الفرنسيين والانجليز الى دار الوزير محمد شريف باشا وأعلماه بخبر ما تقرر في دار السلطنة من خلع الخديو وتولية ولده الامير محمد توفيق وحدثناه بعزم السلطان على اعادة حقوق الوراثة الى ذرية محمد علي باشا وتولية الامير عبد الحليم إن أصر الخديو على الابادة والعناد ثم قاموا جميعا وقد مضى من الليل أكثره وساروا الى مقر الخديو بعابدين وطلبوا الاجتماع به فنانع في ذلك كبير الحصيان وقال كيف أفتح لكم الابواب وقد مضى من الليل أكثره فراجعهم الوزير فلم يقبل فصاح به وقال ويحك أنا رئيس الوزراء وهؤلاء وكلاء الدول الكبرى وقد أتينا لأمر لا تدرك أنت أهميته * فبينما هم على هذه الحال مع كبير الحصيان اذ نادى مناد من وراء الحجاب افتح لهم عاجلا يا غلام الابواب فصعد الوزير ومن معه ولا قاهم الخديو بلباس النوم فكلّموه طويلا في أمر تخليه عن المنصب طوعا قبل تنزيله كرها وألح الوزير عليه في ذلك فأعلمهم الخديو بالخبر الذي جاءه من كابوتخدها بدار السلطنة وطال بينهم وبينه الجدل واشتد اللجاج فقال الخديو لا أتنازل حتى يأتيني أمر السلطان بذلك وقد كان يظن طول الاجل وبلوغ نهاية الامل فخرجوا من عنده وقد كتب تريكو الى سفير الفرنسيين بدار السلطنة يخبره بما قاله الخديو فلم تمض الساعة الثانية عشرة من تلك الليلة حتى ورد الى خيري باشا المهر دار مرسوم السلطان على جناح البرق خطابا الى الخديو يخبره من منصب الخديوية فاضطرب خيري باشا ولم يجسر على اخبار الخديو بخبره وظل باهتا حائرا فدخل عليه الوزير محمد شريف باشا فأعلمه خيري باشا بالخبر فقال ولما ذا لم ترفعه لمولائك فقال لا أجسر على الدخول عليه الآن فقال قم وادخل معي فقام ودخلا معا وفي يد خيري باشا ورقة الخبر فلما رآها الخديو قال ما هذا الذي أتيتاني به الساعة فقال الوزير هو خبر ورد من دار السلطنة فذ الخديو يده وأخذه ونظر الى ما فيه فاضطرب وعلا وجهه الاصفرار ولبث برهة لا ينطق بينت شفة ثم نظر الى الوزير وقال عليّ بولدي توفيق الساعة * وكان لما كثر اللغط بين الناس وتحدثوا في أمر خلع الخديو وفيما هو جار بين الدول ودار السلطنة العثمانية في شأن ذلك وكان الامير محمد توفيق يومئذ نازلا بسرّاي الاسمعية الكائنة عند قصر الدبارة كثر ذهاب بعض رجال الدولة وكبار الامة والمشايخ اليه فأكبر الخديو هذا الامر ورسم بنقل الامير محمد توفيق من سرّاي الاسمعية الى سرّاي القبة بعين شمس فنقلوه مع نسائه وأولاده وأحاطت بمفره طوائف الجند فامتنع الناس عنه وبقي محجورا عليه حتى سبر الخديو في طلبه في تلك الليلة فأتوا به الى سرّاي الاسمعية وأوقفوا الحراس على بابه بمنعون من أراد الدخول عليه فصار اليه الوزير محمد شريف باشا وهنأه بالولاية وأركبه معه وحضر به الى عابدين فلما مثل بين يدي أبيه قام له اجلالا * وهي أول مرة قام له * فتقدم

مطلب

مجيء الامر السلطاني
بخلع الخديو
اسماعيل وتولية ولده
الامير محمد توفيق
وما كان بعد ذلك

الأمير وقبل يده فأذن له بالجلوس بفلس وهو ينظر اليه نظرة البأس الحزين * وقال له يابني لقد اقتضت ارادة الله سبحانه وتعالى وارادة مولانا وسلطاننا أن تكون أنت خديو البلاد فأوصيك يابني باخوتك وسائر الآل برا واعلم أني سأرعنك آسف لعجزى عن ازالة جميع ما سئلناه في أعمالك من المصائب والمتاعب على أني واثق بحزمك فاتبع يابني رأى ذوى شوالك وعش سعيدا لا كما عاش أبوك * فبكى الأمير توفيق عند سماعه هذا الكلام وبكى سائر الحاضرين وشاع الخبر في القاهرة ومصر القديمة بنجع الخديو وولاية ولده الأمير محمد توفيق وطير الخبر بذلك الى الآفاق وأخذ الوزير بيد الأمير وعاد به الى مقره بالاسمعية ثم تركه وعاد الى عابدين فوجد بها قناصل جميع الدول وبينهم تريكو الفرنسي فدخل الوزير على اسمعيل باشا وأعلمه بحضورهم فدعاهم اليه وكلهم في أمر تخليه عن المنصب لولده الأمير توفيق وفي ميله الى العزلة ما بقي من أيامه وكان الى هذه الساعة لم يخطر على باله قط أنهم سيبعدونه عن البلاد ويخرجونه من أرض الفراعنة فهرا فتقدم اليه عند ذلك تريكو وأعلمه بما وقع الاتفاق عليه من تبعيده عن أرض مصر وطلب منه الاسراع في جمع ما يشاء من متاعه لينقلوه الى البلد التي يختارها قيل فاصفر لونه وتلجلج لسانه وعض على اصبعه ندما على ما بدا منه من التخلي عن المنصب قبل ان يستوثق لنفسه ونظر الى تريكو وقال يعلم الله ان هذا التباعد ما كان لي في خلد ثم جعل يمانع وأغلظ على تريكو في القول وتجافى في الرد فجعل الحاضرون يلاطفونه ويهتفون عليه ويحذرونه عاقبة العناد وما زالوا به حتى عاد وطلب كثيرا من المطالب فأجابوه الى جميعها ثم قال أطلب مائة ألف ذهبا للنفقة وباخرة لخدمتي وأن آخذ معي جميع مقتنياتي ومن يريد الخروج معي من نسائي والحواري والحاشية والاتباع وجميع الامتعة وأن أقيم في جزيرة أزمير احدي جزر البحر المتوسط فوافقوه على كل طلب وتساهلوا معه جهدا لاستطاعة وقامت بشأن ذلك المخبرات ما بين قناصل الدول بمصر والسفراء بدار السلطنة والناس في القاهرة في خوف عظيم يحسبون للعاقبة ألف حساب

مطلب
رجيل الخديو
اسماعيل عن وطنه
ومسقط رأسه
وسكنه

وأخذ أتباعه في نقل المتاع والصناديق من عابدين والجزيرة والجزيرة الى بولاق التكرور وطاف جماعة الخصيان على بيوت الأمراء يخبرونهم بالخبر وهم في بكاء ونحيب فخرج النساء في ذلك اليوم وتراجن على أبواب عابدين وهن باكات مولولات رافعات أصوات النحيب وخرج أيضا نساء اسمعيل باشا وطفن ببعض البيوت الكبيرة مودعات فكان يوما شره قطير وفي اليوم الثاني الذي هو سادس رجب وسادس عشرى يونيو وقبل شروق الشمس غصت رجة عابدين بجماهير الناس والجند وأرباب الوظائف العالية والمأمورين والعلماء والمشايخ والاعيان وقاضى القضاة والمفتى وجميع أتباع اسمعيل باشا والعائشين في نعمته وقد علا الضجيج وكثرت الغوغاء وظلوا على هذه الحال الى الساعة الثالثة عشرين فحضر الأمير توفيق ومعه سائر الوزراء وصعدوا الى مقر اسمعيل باشا فلاقاهم والدمع يتحد

على خدييه وحادثهم ساعة ثم حضر تريكو الفرنسيس يستحمه على الخروج فقام من فوره وهو لا يتكلم واقحم الدرج وهو يتوكأ على كتف ولده الامير توفيق وخلفه ولداه حسن وحسين والوزراء وقناصل الدول ورجال الديوان الخاص وكبار الجند وأصحاب الرتب العالية وغيرهم من طوائف الخدم والحشم فلما انتهى الى باب السراي وقف على آخر الدرج لحظة لطيفة كأنه يودع الدار ومن فيها فتقدم اليه قاضي القضاة وقبل طرف أثوابه وهو ينتحب بالبكاء فانحنى اليه وقبل رأسه وارتفع صوته بالبكاء وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا وصاحبه فتبعه في ذلك بقية الوزراء وبكوا لبكائه ثم نزل وركب عربة وركب معه ولده الامير توفيق وركب في عربة ثانية الأميران حسن وحسين فلما سارت به العربة وخلفه الجسم الغفير صاح النساء من شبابيك السراي واشتد الصراخ من كل صوب وارتفعت أصوات الرجال أيضا بالبكاء واشتد الهرج والمرج وتراح جماعة الحصان والجوابشية حول عربته وهم يبكون ويولولون « على من تركتنا ياسيدنا » « من أوصيته بنا ياسيدنا » وكان اذا هرت عربته بيت من بيوت جواريه فتحن الشبايبك وصحن صارخات بأعلى أصواتهن وكدن يلقين بأنفسهن وما زال سائرا والصراخ أمامه وخلفه متواصل حتى وصل الى محطة السكة الحديد وكانوا قد أعدوا للفائه فريقا من الجند فنزل الامير توفيق وأمسك بيد أبيه وأنزله ومر من بين صفوف الجند فحيوه بالسلام وصدحت الموسيقى بالنشيد الخلدوي فدخل الى المحطة وقد أعدوا له قطارا مخصوصا فلما دنا منه التفت الى ولده الامير توفيق يريد أن يخاطبه فحنقه البكاء فضمه الى صدره وقبله وبكى بكاء مرا فقبل الامير يده ووقف بجانبه طارق العين والتفت اسمعيل باشا الى الحاضرين ورفع صوته يريد أن يودعهم فلم يقدر فصعد الى عربة القطار فسار به الى الاسكندرية وأنزله بالقباري حيث كان ينتظره زورق خصوصي فركب وسارين صفوف الجند وأصوات المدافع من جميع القلاع والحصون وركب الباخرة المسماة المحروسة وقد كانت أعدت لركوبه وركب معه ولداه حسن وحسين وجميع نسائه وجواريه وأتباعه وغلمانه ومن رافقه من كبار الموظفين والباشاوات وقد سلم محافظ المدينة الى ربان الباخرة مرشوما وأمره أن لا يفض ختامه حتى يبعد عن الاسكندرية فراسخ قبل وهو يتضمن منع تنزيل اسمعيل باشا ومن معه بأي جهة من أملاك السلطنة العثمانية والمسيرة الى أي جهة شاءها من الممالك الاجنبية فلما أعلمه الربان بذلك قال نسير الى مدينة نابولي احدى أعمال دولة ايطاليا فوصلها بعد أربعة أيام وألقت الباخرة مرساها وكان ملك ايطاليا قد رسم لحاكم المدينة بلقائه فلاقاه وبانغ في إكرامه والاحتفال به فكانت ولايته سبع عشرة سنة وعشرين يوما ❀ ومن عجيب الاتفاق أنه تولاها في شهر رجب واعتزلها في شهر رجب فسبحان من لازوال الملك ولا اذلال الجبروته سبحانه فهو المعز المذل لا يهدى من عاداه ولا يضل من استهداه انه التواب العظيم

مطلب

ولاية الخديو محمد توفيق باشا

ولما كان يوم الخميس سابع رجب الفرد من السنة أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية ورد من خير الدين باشا صدر الدولة يومئذ مرسوم على جنح البرق خطابا الى الامير محمد توفيق باشا يقول

بناء على أن الخطة المصرية هى من الاجزاء المتممة لجسم أملاك السلطنة العثمانية وأن غاية صاحب الشوكة والاقتصاد انما هى تأمين أسباب الترقى وحفظ الامن والعمارة فى الممالك - وبناء على أن الامتيازات والشرائط المخصوصة للخديوية المصرية مبنية على ما للحضرة الشاهانية من المقاصد المذكورة الخيرية - وبناء على تزايد أهمية ما حصل فى القطر المصرى الناشئة عما وقع فيه من المشكلات الداخلية والخارجية الفائقة العادة وجب تنازل والد جنابكم العالى اسمعيل باشا - ثم انه بناء على ما اتصفت به ذاتكم السامية الاصفافيه من الرشيد وحسن الروية وعلى مائت لدى ملجأ الخلافة العظمى من أن جنابكم الداورى ستوفقون الى استحصال أسباب الأمنية والرفاهة لصنوف الاهالى وادارة أمور المملكة على وفق ارادة الحضرة الشاهانية الملوكانية توجهت الارادة العالمة بتوجيه الخديوية الجليلة الى عهدة استئصال صفايتكم - وبناء على فرمان العلى الشأن الذى سيصدر حسب العادة على مقتضى الارادة السنية السلطانية التى صار شرح حدودها - وبناء على ما كتب بالتلغراف الى حضرة المشار اليه اسمعيل باشا من تخليه عن النظر فى أمور الحكومة وتفرغه منها بصورة وقوع انفصاله قد تحرر هذا التلغراف لكي يعلن حال وصوله للعلماء والامراء والاعيان وأهل المملكة جميعا وتباشر من بعده أمور الحكومة وهذا من التوجيهات الوجهية الى أثر استحقاق اصفايتكم لتجربى التنظيمات والترقيات مبدأ وتقديمه وبصير تكرار الدعاء بتوفيق الذات الجليلة الفخيمة السلطانية ولذلك صارت المبادرة الى ابداء لوازم التهنئة لحضرتكم أيها الخديو المعظم والأمر والفرمان على كل حال لمن له الأمر انتهى

فلما كانت الساعة الثالثة صباحا من يوم الخميس صعد الخديو الى قلعة الجبل فى أبهة وكبكية زائدة واحتفل بقراءة هذا المرسوم احتفالا عظيما ودخل عليه رجال الدولة و كبار الحكومة والعلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيون وكلاء الدول كافة وطوائف ضباط الجند فهنؤوه وتراجعت ذوات البيوتات على باب والدته وأتت اليه رسائل التهاني تباعا من كل صوب وفرح الناس جميعا بولايته ودقت البشائر فى ذلك اليوم وأولت والدته وأطعمت وكست بعض الفقراء وتصدق وتكب الخديو الى الصدر الأعظم يقول

وصل ليد التجبيل تلغرافكم السامى الامر أن فراغ محسوبكم والدى المحترم عن الحكومة المصرية وتوجيه مقام الخديوية من محض جليل عواطف الحضرة الملوكانية لعهد رقيقكم هما من مقتضى على ارادته السنية السلطانية وبالحقيقة ان تكرم حضرة صاحب الخلافة الاقدسى الذات بتوجيه مقام الخديوية لعهد هذا العبد كان دليلا على جليل المباني وركنا بالفخر لا يعادله ثانى على وجود عبدكم مشمول بفيض النظر الملوكانى وبما أننى مهما بذلت من الوسع والمقدرة لا يفاء ذرة من الت شكرات المفروضة على هذه العناية والآلاء أرى ذاتى عاجزا بالشكسية عن حق الايفاء والاداء فلذا رفعت الى مقر اجابة الرب القدير أكف الادعية الخيرية ببقاء عمر وعافية وارتقاء شأن وشوكة الحضرة السلطانية مشفوعة بتكرار الدعوات المستجابة بدوام موفقية نجاتكم وبمقتضى منيف ارادة الجنب السلطانى السنية قد صعدت الى قلعة مصر فى الساعة العاشرة من يوم الخميس وهناك قد أعلنت الكيفية لجميع من حضر من العلماء والاشراف والوجوه والاعيان والرؤساء الروحانيين والمأمورين الاجانب ولكافة الاهالى وأطلقت المدافع ثم أخذت بزمام الحكومة وبدأت بتطليل ظل الحضرة السنية الملوكانية فى مباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعة للسلطنة السنية وان بقاها لا يقوم الا بالصدقة والاخلاص للذات السنية الملوكانية فأستمر على هذا الطريق وأصرف الوسع والقدرة بالاهتمام لاستحصال راحة ورفاهية أهالى مصر وسكانها والمتمس عرض ذلك لعالى أعتاب الحضرة السنية السلطانية متخذ ذلك وسيلة لاستبقاء توجيهات نجاتكم العلية وفى جميع الاحوال الارادة والفرمان لحضرة من له الامر انتهى

ولما استقر بالخديو المنصب رسم الى الوزير محمد شريف باشا بترتيب هيئة الوزارة فرتبها على ماشاء ثم رسم بصرف عشرة آلاف من الجند الى أوطانهم فصرفوا ولم يبق من الجند العامل سوى اثنى عشر ألفا فبدأت دلائل الاصلاح ونظمت اشارات الفلاح ففرح الناس فرحا عظيما ورفع الكثير من الاجانب المستوطنين بالاسكندرية والقاهرة على اختلاف أجناسهم العرائض الى وكلاء حكوماتهم بالاطراء والمدح للهيئة الحاكمة ويشكرون لها أخذها بأطراف الهمة وسيرها على سنن الاصلاح ويرجونهم فى منع تعرض أبناء جلدتهم الى عمل الحكومة وترك تدبير أمور البلاد الى أهلها قالوا لا عنهم أعلم الناس بها وأعرفهم بحاجاتها فاشتدت عند ذلك عزائم المصريين وعمد الوزير الى الاتيان على جميع أوجه الاصلاح من أبوابها وبالغ فى ترتيب سائر الامور وإحكام نظامها * وكان الى هذا الحين لم يرد فرمان السلطان بالولاية وقد جاء الخبير بان رجال السلطنة العثمانية وأهل المابين الهمايونى على طرفى نقيض فان بعضهم يعمل على تقليص امتيازات مصر الممنوحة لها من أيام محمد على باشا الكبير وان السلطان ميال الى ذلك نخشى الوزير محمد شريف

باشا العاقبة وكام وكملي الفرنسيين والانجليز في الامر فكتبوا الى كبرى السياسة الافرنسية والانجليزية في ذلك فكلما الباب العالي وشددا في الطلب وطال الاخذ والرد بين الفريقين وأظهر رجال السلطنة العثمانية حزما وثباتا فطاولوا وحاولوا واشتدت عزيمته أنصار الامير عبد الحليم بن محمد علي باشا وبذلوا النفيس في استمالة رجال المايين نخاف سقيرا الفرنسيين والانجليز بدار السلطنة شرعاقبة هذه الحال وأعمالا الفكرة وأكثر التردد على الباب العالي وما زالوا حتى تقررت القاعدة بينهما وبين الصدر الاعظم على تسيير سفير مخصوص ومعه فرمان الولاية فطيروا الخبر بذلك الى القاهرة فرال عن الوزير محمد شريف باشا ما كان يحشاه

فلما كان ثالث عشر شعبان سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية وصلت الى مدينة الاسكندرية الباخرة عز الدين السلطانية وعليها الامير علي فؤاد بيك كاتب أول المايين يحمل فرمان المشار اليه فأنزل في سراي رأس التين في تلك الليلة وقدم الى القاهرة في رابع عشرية فأنزل مع حاشيته بقصر الزهدة بشبرا من ضواحي القاهرة فزاره جميع الوزراء ورجال الحكومة وبالغوا في اجلاله وتعظيمه وطيروا الخبر بقدمه وفي صبح الخميس خامس عشرية هرع الناس الى قلعة الجبل وتقاطر اليها رجال الدولة وكبار المأمورين وهم بلباس الزينة والتشريف وصعد كذلك وكلاء الدول والعلماء والرؤساء والاعيان واصطففت الجند تباعا من صليبية ابن طولون وطريق محمد علي الى ديوان السلطان الغوري بقاعة الجبل وفي نحو الساعة الثانية صباحا صعد الخديورا كبا في عربة التشريف وعلى يساره الوزير محمد شريف باشا وأمامه علي فؤاد بيك رسول السلطان وبجانبه طلعت باشا كاتب الديوان الخديوي رعى من وسط الجند بين ضجيج الدعاء وأصوات البوق والنفير ودوي المدافع حتى صعد الى الديوان فلما استقر به المقام تقدم مبعوث الخليفة بالفرمان وناول له اياله فأخذه وقبله ورفعته الى رأسه ثم ناوله الى طلعت باشا الكاتب فقبله هو أيضا وارتقى مكانا مرتفعا أعد له وقرأ ما فيه بالرومية فكان بالعربية هكذا

الدستور الأكرم والمعظم الخديوي الأتقن المحترم نظام العالم وناظم مناطم الأمم مسدبر أمور الجمهور بالفكر الثاقب متمم مهام الانام بالرأى الصائب مههد بنيان الدولة والاقبال مشيد أركان السعادة والاجلال مرتب مراتب الخلافة الكبرى مكمل ناموس السلطنة العظمى المحفوف بصنوف عواطف الملك الأعلى خديوي مصر الطائر لرتبة الصدارة الجليلة فعلا الحامل لنيشاننا الهمايوني العثماني المرصع ونيشاننا المرصع الجميدى وزيرى سمير المعالى « توفيق باشا » أدام الله اجلاله وضاعف اقتداره واقباله انه لدى وصول توقيعهنا الهمايوني الرفيع يكون معلوما ليكم أنه بناء على انفصال اسمعيل باشا خديوي مصر في اليوم السادس من شهر رجب سنة ١٢٩٦ هـ وتسعين ومائتين وألف هجرية وحسن خدامتكم وصداقتكم واستقامتكم لذاتنا الشاهانية ولنافع دولتنا العلية

مطلب
ورود فرمان
الولاية على يدى
فؤاد بيك كاتب أول
المايين

ولما هو معلوم لدينا من أن الحكم وقوفا ومعلومات بمصر منذ مدة واصلاحها وجهنا الى عهدتكم الخديوية المصرية المحدودة بالحدود القديمة المعلومة مع الاراضى المنضمة اليها المعطاة الى ادارة مصر توفيقا للقاعدة المتخذة بالفرمان العالى الصادر فى الثانى عشر من المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين وألف هجرية المتضمن توجيه الخديوية المصرية الى أكبر الاولاد - وحيث انكم أكبر أولاد الباشا المشار اليه قد وجهت الى عهدتكم الخديوية المصرية ولما كان تزايد عمران الخديوية المصرية وسعادتها وتأمين راحة كافة أهاليها وسكانها ورفاهيتهم هى من المواد المهمة لدينا ومن أجل مرغوبنا ومطلوبنا وقد ظهر أن بعض أحكام الفرمان العلى الشأن المبني على تسهيل هذه المقاصد الخيرية المبين فيها الامتيازات الحاضرة لها الخديوية المصرية قديما نشأت عنها الاحوال المشكلة الحاضرة المعلومة فلذلك صار تثبيت المواد المقتضى تبديلها وتعديلها واصلاحها فلما تقرر اجراءه الآن هو المواد الآتية

ان كافة ايرادات الخطة المذكورة يكون تحصيلها واستيفائها باسمنا الشاهانى وحيث ان أهالى مصر أيضا من تبعه دولتنا العلية وان الخديوية المصرية ملزمة بادارة أمور المملكة والمالية والعربية بشرط ان لا يقع في حقهم أدنى ظلم ولا تعسف في وقت من الاوقات فخديو مصر يكون مأذونا بوضع النظامات اللازمة الداخلية المتعلقة بهم وتأسيسها بصورة عادلة - وأيضا خديو مصر مأذون بعقد وتجديد المشارطات مع مأمورى الدول الاجنبية بخصوص الجمر والتجارة وكافة أمور المملكة الداخلية لأجل ترقى الحرف والصنائع والتجارة واتساعها ولأجل تسوية المعاملات السائرة التى بين الحكومة والاجانب بشرط عدم خذل معاهدات دولتنا العلية المؤسسة وفي حقوق متبوعية مصر اليها وانما قبل اعلان الخديوية المشارطات التى تعقد مع الاجانب بهذه الصورة يصير تقديمها الى بائنا العالى - وأيضا يكون حائزا للتصرفات الكاملة فى أمور المالية لكنه لا يكون مأذونا بعقد استقراض من الآن فصاعدا بوجه من الوجوه وانما يكون مأذونا بعقد استقراض بالاتفاق مع المداينين الحاضرين أو وكلائهم الذين يتعينون رسميا وهذا الاستقراض يكون منحصرا فى تسوية أحوال المالية الحاضرة ومخصوصا بها - وحيث إن الامتيازات التى أعطيت الى مصر هى جزء من حقوق دولتنا العلية الطبيعية التى خصت بها الخديوية وأودعت لديها لا يجوز لأى سبب أو وسيلة ترك هذه الامتيازات جميعها أو بعضها أو ترك قطعة أرض من الاراضى المصرية الى الغير مطلقا - ويلزم تأدية مبلغ سبعمائة وخمسين ألف ليرة عثمانية الذى هو الوركو المقرر دفعه فى كل سنة فى أوانه - وكذلك جميع النقود التى تضرب فى مصر تكون باسمنا الشاهانى ولا يجوز جمع عساكر زيادة عن ثمانية عشر ألفا لأن هذا القدر كاف لامنية ايلة مصر الداخلية فى وقت الصلح وانما حيث ان قوة مصر البرية والبحرية مرتبة من أجل دولتنا يجوز أن يزداد مقدار العساكر بالصورة

التي تستتب فيها حالة دولتنا العلية محاربة وتكون رايات البرية والبحرية والعلامات المميزة لرتب ضباطهم كرايات ونباشين عسكرينا الشاهاني ويباح للخدوي مصر أن يعطى الضباط البرية والبحرية الى غاية رتبة أمير آلاي والملكية الى الرتبة الثانية ولا يرخص للخدوي مصر أن ينشئ سفنا مدرعة الا بعد الاذن والحصول على رخصة صريحة قطعية اليه من دولتنا العلية - ومن اللزوم وقاية كافة الشروط السالفة الذكر واجتناب وقوع حركة تخالفها - وحيث صدرت ارادتنا السنية بأجراء المواد السابق ذكرها قد أصدرنا أمرا هذا الجليل القدر والموشع أعلاه بخطنا الهمايوني وهو مرسل صحة افتخار الاعالي والاعاظم ونفاز الأكابر والافاخم فؤاد بيك باشكاتب الماين الهمايوني ومن أعظم دولتنا العلية الحائز والحامل للنباشين العثمانية والمجيدية ذات الشأن والشرف انتهى

فلما أتم طلعت باشا قراءته نزل فارتقى مكانه الشيخ سليم عمر خطيب جامع قلعة الجبل ودعا ببعض الأديمة للخليفة ورجال دوائه وللخدوي ورجاله ثم أطلقت المدافع تباعا وهتف الجند بأصوات الدعاء والتعظيم ودقوا طبولهم ونزل الخديو بموكبه الى مقر عابدين فانصرف الجميع وتراحم الكبراء والأمراء ورجال الدولة في ذلك اليوم على بابه وزار والدته نساء الأمراء والكبراء وزينت مصر والقاهرة ثلاث ليل وأطلقت المدافع من قلعة الجبل في الاوقات الخمس وفرح الناس بذلك كثيرا ۞ وسار الخديو في الرعية سيرا حسنا وسلك بهم مسالك الدعة والرفق وفتق الصدقات على المساكين والمنقطعين وبالغ في الاحسان فلم يرد سائلا ولم يمنع مستعطيا وتقدم اليه الوزير محمد شريف باشا في رفع الخراج عن جميع الاراضي المأخوذة للمنافع العمومية فرسم برفعه وكان شيا كثيرا وتقدم اليه أيضا في طلب كثير من الامور النافعة للبلاد وأهلها فأجابها فتملقت الآمال بالوزير واجتمعت على محبته القلوب وظل الحال على أحسن ما يكون من الهدوء والطمأنينة ورواج الاعمال أياما والناس في فرح واستبشار حتى خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من منصب الرئاسة وتخلّى عنه طائعا في الثلاثين من شعبان فتطير الناس من ذلك وترامت ظنونهم الى المرحى البعيد واختلفت الاقوال في الاسباب فن قائل انه تخلّى لخلاف بينه وبين قونصلى الانجليز والفرنسيين ومن قائل بل لخلاف مع قونصل الفرنسيين لأمور نفعها عليه ومن قائل بل بايعاز من دولة الانجليز اذ كانت ترى منه قرما غنيما شديد البأس عزيز النفس أبيها صبورا على الشدائد فعملت على تنزيله فأحسن بذلك فبادر هو بجذع نفسه ومن قائل غير ذلك وعندى أن القول الأخير أرجح بل أصبح خزن الناس عليه وأسفوا أسفا شديدا وقد عرفوا منه رجلا كيسا حازما صائب الرأي شريف النفس واسع المعرفة بأساليب السياسة شديد الميل الى نصر المظلوم يعفو عند المقدرة ويغض عن الهفوات ويعرض عن بطانة السوء ويكره المطرين وأصحاب الوشاية ميالا الى بث روح الحرية والمساواة بين صنوف الرعية وهو أول من نادى بالشورى على عهد الخديو اسمعيل وبذل جهده المجتهد في بثها

مطلب

تخلّى الوزير محمد
شريف باشا عن
منصب الرئاسة
وما اشتهر به بين
الناس

في جوف البلاد ثم أنشأ قانونها ورفعها الى الخديوى اسمعيل وطالبه يومئذ بتحرير البلاد
وفك قيود الرعية فتململ ولم يقبل فألح عليه وهدده بتنزيل نفسه وتخليه عن منصب الرئاسة
يومئذ ان هو أصر على الالباءة ثم حدث في ذلك الحين من الكواش ما كان سببا لترك ذلك
القانون في زوايا الاهمال فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا ووجه مسند الرئاسة اليه
أحسن الظن بمخدومه وأخلص له النية * قال بعض كتاب الاخبار فأبان له عما في الشورى
من الخير والبركة وجعل يحجب اليه العمل بها فقال الى رأيه ودعاه الى سنّ قانون لايس
حقوقه الذاتية ولا يذهب شيئا من سلطته الوراثية فرفع اليه القانون الذي كان أنشأه على
عهد أبيه اسمعيل قال فاستشار رجال ديوانه في جواز العمل به فقبضوا له ذلك وموهوا عليه
الحقائق وهولوا في العاقبة فاعرض عنه فراجعته الوزير فلم يرض فانزل نفسه عن منصب
الرئاسة في الثلاثين من شعبان كما تقدم القول (قلت) وهذا قول آخر في أسباب تخليه
عن منصبه وعندي أنه قول لاصحة له والاول أصح * وكان مصطفى رياض باشا الى هذا الحين
نزيل الديار الاوربانية وكان قد فتر هاربا من وجه اسمعيل باشا خوفا من البطش به كما تقدم
القول فارسل اليه الخديوى يستقدمه ويسمحه على الحضور ليولي مسند الرئاسة وأقام هيئة
وزراء مؤقتة برياسته كان فيها الوزير منصور باشا يكن وعلى حيدر باشا واذو الفقار باشا
ومصطفى فهمى باشا ومحمد مرعشى باشا وعثمان رفقي باشا وعلى ابراهيم باشا فحدث الناس
في أمر طلب مصطفى رياض باشا وتطيروا من توليته مسند الرئاسة وخشوا عاقبته لما
يعلمونه من عدم موفقيته ونكد طالعه على البلاد وكثر لغتهم في ذلك فلما كان سابع عشر
رمضان قدم رياض باشا الى القاهرة فبالغ الخديوى في اكرامه ولبث أياما يغدو ويروح الى
مقر الخديوى والناس في تحوف كأن على رؤسهم الطير ثم شاع أن استقدمه بعد ذلك
التبعية انما كان بايعاز من دولة الانجليز والحاج من قونصلها بمصر * قال بعض كتاب
الاخبار وتحرير الخبر أنه لما سار الى لندن عاصمة الانجليز بعيد فراره من القاهرة اجتمع
به ويلصون الذي كان متوليا نظارة المالية المصرية على عهد اسمعيل باشا وشكى اليه حاله
وما لاقاه من مضض التضيق وذل التبعية عن الآل والوطن فقربه ويلصون من كبار
ساسة الانجليز واستمالهم اليه وأعلمهم بحاله وما لاقاه من اسمعيل باشا * قال الراوى
فسأله بعضهم قائلا ماذا تفعل اذا أرجعناك الى ديار مصر ووليناك منصب الرئاسة قال
أكفل لكم تعضيد سيادتكم واعلاء كلمتكم والعمل في سائر الاحوال بحسب اشارتكم
فوعده بذلك ان هو حافظ على العهد ولم يرجع عنه وجعلوا من ذلك الحين يعملون مع
الخديوى على ارجاءه وتوليته فاحس الوزير محمد شريف باشا بذلك نفع نفسه وأفرغ
لهم المسند فاستقدمه الخديوى كما أشار قونصل الانجليز وقد زاد الناس اعتقادا في صدق
هذا النبا ما تبينوه يومئذ من استحسان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية أمر توليته منصب
الرئاسة وامتداحهم لكفائه وحسن سياسته وقدرته على تدبير الامور على أحسن ما يكون

وقد نظرت بم-م الاطراء الى القول بانه على عزم أن يرفع الى مقام الخديوى قبل تولية
 المنصب ثلاثة مطالب لابد منها ولا مندوحة عنها الاول جعل هيئة الحكومة دستورية
 أو مشورية بان تؤلف من وزراء مسؤولين ولا يكون أمير البلاد مسئولا عن أى خلل
 يحدث فى الخزينة أو فى ادارة البلاد الثانى عدم جواز خلع أحد من موظفى الحكومة
 الا بحكم يصدر عليه الثالث أن لا يترأس الخديوى قط على هيئة مجلس الوزراء ليكون لكل
 منهم حرية ابداء فكره فلم يعتبر الناس يومئذ بان هاته المطالب من عنديات مصطفى رياض
 باشا لانهم يعرفونه عدوا للشورى * قلت وقد سبق لأصحاب هذه الصحف طلب تقرير
 هاته الامور على عهد اسمعيل باشا فخصوا جوشن وجوير يوم كانا بديار مصر على تقريرها
 واكره اسمعيل باشا على العمل بها ثم حال دون ذلك من المحن والكوائن ما كان سببا
 فى خلع اسمعيل باشا وتبعيده

مطلب
 تولية رياض باشا
 الرياسة للمرة الاولى

فلما كان رابع شوال من السنة (أى سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية) رسم
 الخديوى الى مصطفى رياض باشا بتشكيل هيئة الوزارة فشكها على نحو ما أراد ووافق
 الخديوى على تشكيلها فتراجت على بابه أقدام أصحاب الوظائف والمناصب العالية وأمورى
 الحكومة وذوى الغايات والمطامع فامس ونهى وتقدم الى الخديوى فى اقامة المراقبين الماليين
 الانجليزى والفرنسى الذين أشار بهما رجال لجنة التصفية كما تقدم الكلام على ذلك فى محله
 فاجابه الى ما طلب ورسم به بخفاء من قبل دولة الانجليز أحد رجالها واسمه الماچور بارنج وجاء
 من قبل دولة الفرنسيس آخر اسمه المسيودى بلينار وهو الذى كان متوليا نظارة الاشغال
 العمومية على عهد اسمعيل باشا فسلم لهما الرئيس مصطفى رياض باشا زمام الاعمال فبحثا
 ونقبا وأتيا على جميع أمور الخزينة من أبوابها وأخذوا فى اصلاح ما فسد من أحوالها ورتبا
 لأصحاب الديون نظاما كافلا يحفظ حقوقهم وعينا لجباية الاموال آجلا يجبون فيها الخراج وقد
 كانت الى ذلك الحين هملا مهملا وأبطالا كثيرا من المغارم والمكوس الظالمة والبذع المستعذبة
 وقررا قاعدة لميزانية خزينة البلاد وإيرادها ومصرفها ونظرا فى جميع أرجحه الاصلاح
 من أبوابها وفيهذا الاعمال باللوائح والنظامات المرتبة على نسق ما فى بلاد الامم المتقدمة
 ونظروا الى فلاسى البلاد وأصحاب الزراعات نظرة الاب الشفيق فهونا عليهم كل أمر ساق
 * وبينما كان المراقبان يعملان على ما فيه المصلحة للبلاد وأهلها كان الرئيس مصطفى
 رياض باشا يعمل أيضا على تعزيز مقامه واعلاء كلمته وبسط يده على جميع الامور واحاطته
 علما بالصغير منها والكبير فتطرق به حب هذه الاثرة الى التعبدى على حقوق الخديوى
 وجعل أعماله ونفوذه الذاتى لا يتعدى اشارته وكان الخديوى منذ قولى المنصب قد جعل
 يعطى مأمورى الحكومة وبعض أعيان البلاد ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار نطقا منه
 واحسانا فلم يرق عمله هذا فى عين الرئيس بل أنكره وندد به ونهاه عن التمادى عليه فلم يلتفت
 الخديوى الى قوله فأكبر الرئيس هذا الامر من الخديوى وكتب فى رابع عشر ذى القعدة

من السنة الى جميع دواوين الحكومة يقول * انه لاعبرة قط لهذه الرتب في أمر الجاهل
والمرتبات في جميع الخدمات الملكية فساء الخديوى ذلك واستعظمه وكبر عليه الرجوع عما في
نفسه فزاد في الاحسان وأكثر من العطاء فامتعض الرئيس وعقد لذلك مجلس الوزراء فقرّر
قرارهم على أن لا يعطى شئ من ألقاب الشرف والناشين الى مأمورى الحكومة وموظفيها أبدا
كانت درجته الا بعد الطلب من مجلس الوزراء ورفع هذا القرار الى الخديوى ليصادق عليه
فمكبر الامر عليه وأزججه فطاول وحاول أيا ما وراجع الرئيس ثم أدرك ما سيكون من وراء ذلك
من الفشل واستفحال الخطب ان هو أصر على الامتناع فوقع على القرار كارها فكان هذا
الحادث فاتحة الخلاف ومبدأ الشقاق بين الخديوى والرئيس مصطفى رياض ومن معه ورأى
الخديوى بعد ذلك من الرئيس غلظة وجفاء فتأهب للتجول في أنحاء القطر والترفع الى الاقاليم
القبلية ترويحاً للنفس من شر هذا الحال * فلما كان صبح الخميس التاسع عشرى صفر من السنة
أى سنة سبع وتسعين ومائتين وألف هجرية تحرك ركابه وسار قاصدا الاقاليم القبلية ومعه
آل بيته وحاشيته وأتباعه وعلمانه ورجال ديوانه الخاص فاستعد أهل البلاد للقائه وفرحوا
بمضوره اليهم فرحا لا يوصف وأظهروا من الاخلاص والتلطف للقائه ما لا يكاد يصدق العقل
فزينوا البلاد بالانوار والرايات والرياحين والازهار وقابلوه بالطبول والزمور واطلاق البنادق بين
ضجيج الفرح وأصوات الدعاء والابتهاال الى الله فكان اذا نزل ببلد هرع أهلها رجالا ونساء
وأطفالا وقابلوه بالدعاء وبالغوا في تعظيمه فكان يقابلهم بالبشاشة والترحاب ويمد لهم الموائد
ويعطى الفقراء والمساكين منهم ولا يردّ لهم سائلا وما زال على هذه الحال حتى مدينة أسيوط
فلما استقر بها ركبه كتب الى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول

* أنا الآن بأسيوط وليس في الامكان والاستطاعة وصف جميع ما أظهره الالهالى من
الجيزة الى هذا المكان من عظم الفرح والمسرّة وحسن الترحب بنا ولا شك أن مثل هذه
الافراح والمسرات لا تصدر الا عن الثقة العمومية ولا توجد الثقة الا بوجود العدالة والاستقامة
ويرى أن الرعية الآن آمنة فينا واثقة بنا * تلك نعمة الهبة عظيمة المقدار توجب علينا
الاستمرار على نهج منهج العدالة والامانة لتزداد الرعية حبا لنا وثقة بنا جل الله القدير اجتهادنا
بالفلاح * ثم رجع الى القاهرة في كبكبه وزينته بين خدمه وحاشيته وأتباعه ورجال ديوانه
وسار منها الى الاقاليم البحرية فلاقاه أهل البلاد بالفرح وأولوا لقدمه الولائم والافراح
وبالغوا في ذلك بما لا يكاد يدخل تحت الحصر ثم قفل راجعا الى القاهرة وقد بلغه من أخبار
الرئيس مصطفى رياض باشا واستهتاره بالامور وتحماله على منصب الخديوية وشخص
الخديوى ما أنساه تلك الولائم والافراح فجعل عند ذلك يراقب الاحوال والرئيس لا يلبى
عنان النفس عن هواها وقد بسط يده على جميع مصالح الحكومة فتزاحم على باب أصحاب
السعاية وتقرب من مجلسه أهل النعمة والوشاية واشتد على كل من أنس منه جأشا فهابه
الحكام وخافه أصحاب الوظائف وكثرت عيونه وأرصاده وأوجس أتباع اسمعيل باشا منه

مطلب

فاتحة الخلاف

ومبدأ الشقاق بين

الخديوى والرئيس

مصطفى رياض باشا

شرا اذ مال على بعضهم يريد الانتقام واشتد عليهم شدة بالغة فهاهم أمره وأزعجهم تهديده وخشوا عاقبة فعله فانضم بعضهم الى بعض وتآلبوا مع الفريق شاهين باشا كنج الذى كان رئيس ديوان الجند على عهد اسمعيل باشا وجعلوا يدبرون على الخلاص منه فلما أحس بماهم عليه سبر الى شاهين باشا يتهدده ويقول ان لم تغلق عما أذت عليه ساءت حاله وكذب فالك ثم بث حول داره العيون ومنع من دخول الناس اليه فكبر الامر على شاهين باشا وأرسل الى اسمعيل باشا يعلمه بما آلت اليه حالة أتباعه وحاشيته وكل من نالته منه نعمة ويشكو من مقال الرئيس مصطفى رياض باشا فخب اليه اسمعيل باشا ترك تابعية السلطنة العثمانية والاتجاه الى دولة ايطاليا قال شاهين الى ذلك فرارا من ايذاء الرئيس وعلم الرئيس بالخبر فانع **(قال بعض الكتاب)** وحرض بعض مشايخ البلاد التى بها زروعات شاهين باشا فأقاموا عليه الدعاوى الطويلة وضيقوا على خدمه وأتباعه وأخذوا ما قدروا عليه من أرزاقه فكبر عند ذلك خوف شاهين باشا وألح على اسمعيل باشا فى التجهيل فوردت اليه أوراق التابعية فقام من فوره وحصر أرزاقه وضبطها ووكل بها من يبعث اليه برزقها فى حينه وتأهب للرحيل الى مدينة نابولى حيث يقيم اسمعيل باشا فكبر الامر على الرئيس مصطفى رياض باشا وجعل يدبر على فساد حيلة شاهين وسير الى قونصل دولة ايطاليا فى ذلك فلم يفلح * فلما كان خامس رجب فام شاهين من القاهرة الى الاسكندرية يريد الذهاب الى نابولى فجمع الرئيس فى صباح سادسه هيئة مجلس الوزراء على خلاف العادة وهما قرارا بتجريد شاهين باشا من جميع رتبته وألقابه وصفاته الرسمية مع محو اسمه من سجل ضباط الجيش المصرى ومنعه من العود الى ديار مصر منعاً مؤبداً ثم رفع هذا القرار الى الخديوى فامتنع من التوقيع عليه فشدد الرئيس فى الطلب فوقع عليه كارها فسير به الرئيس مع رسول الى شاهين باشا فأعطاه اياه وهو على ظهر السفينة التى كانت قاعة ذلك اليوم الى مدينة نابولى * حدثني صاحب لى قال كنت فى ذلك اليوم على ظهر السفينة التى كان بها شاهين باشا وكنت مودعا خليل أغا كبير خصيان جدة الخديوى حيث كان قاصدا مدينة نابولى احدى أعمال ايطاليا فرارا من وجه الرئيس مصطفى رياض باشا فبينما نحن مهتمون بأصلاح متاع السفر اذ صعد على ظهر السفينة أحد مأمورى الحكومة وعلامات الاضطراب بادية على وجهه فتقدم الى شاهين باشا ونازلته ورقة مختومة ففحصها وقرأ ما فيها وهو هادئ اللب ساكن القلب ثم التفت الى ذلك المأمور وقال قل للرئيس أصلى الله حاله انى فاعل ماأراده حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا والتفت اليها وقال وهو يتبسم تالله لو بنى جبل على جبل لذلك البانى قال صاحبي فقلت جعلت فداك هل هى وصية يجب العمل بها فقال بل هى فرية يجب أن تتخذ فى بطون النوارىخ ليعلم صاغر عن كبركم تقاضى مصر وأهلها من الجور والاستعباد * قال صاحبي نخفت أن أطيل الكلام بحضرة المأمور وتشاغلت عن حديثه بحديثي مع كبير الخصيان حتى تركنا المأمور وانصرف فنظرت الى شاهين باشا لعله يعيد علينا

مطلب

الحكم بتجريد
شاهين باشا وتجريده
من رتبته وألقابه

حديث ما في تلك الورقة فلم يفعل وكان لم يكن به شيء وودعته مع كبير الخصيان وانصرفت
وأنا في خوف ظانا أن قد وصل خبري إلى الرئيس فرجعت إلى القاهرة ولازمت داري أياما حتى
سكن جاشي واطمأن قلبي ولم يقدر الله على بكرهه * قلت وقد عدت فرار شاهين باشا وخليل
أغا كبير خصيان جدة الخديوي والحاقيهما بإسماعيل باشا ذنبا لا يغفران عقد الرئيس مصطفى
رياض باشا في ثامن رجب هيئة مجلس الوزراء وتناجوا في ذلك طويلا وبعد أخذ وردت تقرر
القاعدة بينهم على نزع سراي عابدين مع ما يتبعها من الابنية وغيرها من جميع المحلات وسراي
الاسماعيلية ومحلاتها وما يتبعها من الابنية وسراي القصر العالي ومحلاتها وما يتبعها والمكان
الكائن بمصر القاهرة بخط الاسماعيلية ومحلاته المعروف بمخزن الموبليات ومطبعة بولاق ومحلاتها
مع ما يتبعها من الآلات والمهمات والابنية واصطبلات بولاق وسراي الجزيرة مع ما يتبعها
من الابنية والجنينة البالغ مقدار ذلك اثنين وستين فداناً والاراضي التي تتبعها وقدرها ثلاثة
آلاف وخمسمائة وخمسة وتسعون فداناً وجميع المحلات الكائنة بالجزيرة وسراي الجزيرة وما
يتبعها من الابنية والجنينة والاراضي من جميع المحلات التي قدرها خمسمائة فدان وسبعة
عشر فداناً والنزل والكشك والحمامات الكائنة بمدينة حلوان وجنينة الزهدة القديمة المعروفة
بجنينة باسريه بالاسكندرية على ترعة المحمودية وسراي الرمل بالاسكندرية وجميع ما يتبعها من
الابنية والشكنات والاصطبلات وغيرها من المحلات الكائنة بالرمل وسراي دفينة وما يتبعها
بمدينة البحيرة وسراي المنصورة وما يتبعها وسراي الروضة وسراي المنيا (أي منية ابن خصب)
من ملكية اسمعيل باشا وجعلها من أملاك الحكومة قالوا لانه قد تبين لهم أن بناء البعض
وشراء البعض الآخر كان من مال الخزينة ولانها لازمة جميعها للمنافع العمومية أو لاقامة
خديوي مصر ولانها كانت لغاية الآن مخصصة لذلك * فلما شاع خبر ذلك استعظمه الناس
وتحدثوا به وقد كانوا لا يظنون وقوعه من الرئيس ثم أعقب ذلك أيضا أن سير الرئيس إلى
ربان السفينة المسماة المحروسة التي كان اسمعيل باشا اتخذها مسكناً لنسائه أمام مدينة نابولي
بان يسرع الكرة إلى الاسكندرية بالسفينة والاعد تأخيرها عن الحضور عصياناً وخروجاً وكتب
بذلك أيضا إلى اسمعيل باشا فكبر الامر على اسمعيل باشا وأخرته جداً ولم يسعه إلا إعادة السفينة
ومن شاء الرجوع إلى القاهرة من خدمه وأتباعه وحاشيته واشترى له داراً بنابولي وأسكن
بها من بقي من جواريه ونسائه وأرسل إلى الخديوي توفيق في ذلك وعاتبه وبالغ في الشكوى
من فعال الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره من سوء العاقبة وأشار عليه باليقظة والالتفات
وكانت لجنة التصفية إلى هذا الحين قد آتت أعمالها على وجه مائة قدم بيانها وعملت
بها دستورا سميته (قانون التصفية) وتأهبت لنشره والعمل به * فلما كان يوم السبت التاسع
شعبان من السنة سار رجال هذه اللجنة من القاهرة إلى الاسكندرية وصعدوا إلى مقر الخديوي
بسراي رأس التين فتقدم اليه ويلصون رئيس اللجنة وبقية رجالها فصالحهم جميعاً ثم خاطبه
ويلصون بعبارات التهاني وقص عليه مجمل ما علمته اللجنة فأجاب الخديوي بعبارات التلطف

مطلب

الاحتفال برفع

قانون التصفية إلى

مقام الخديوي

وناوله بيده النيشان المجيدى من الدرجة الاولى وكذلك ناول كلامن بطرس بك غالى والمستر كولفن والمسيو برا ولى والمسيودى بوغاز والمسيو تريكو والمسيو يتجره والمسيو ليرون دى رول النيشان العثمانى من الرتبة الثالثة وأعطى كذلك لنيشان المجيدى من الرتبة الرابعة لبقية رجال تلك اللجنة وبعد انصرفهم أحسن الخديوى على الرئيس مصطفى رياض باشا بالنيشان العثمانى من الدرجة الاولى وعلى المسيو دى بليمار المراقب الفرنسى بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى أيضا وأحس كذلك بعدة رتب ونيشين الى بعض الوزراء وعند غروب اليوم استدعى الخديوى للطعام جميع الوزراء ورجال لجنة التصفية بعقره برأس التين وكان المكان غاية فى البهجة والزينة داخلا وخارجا فأتت الى ديوان الخديوى فى ذلك اليوم وتلك الليلة رسائل التهاني من الآفاق وحضر فى نحو الساعة الثالثة من تلك الليلة الى رحبة السراى طوائف الجند مابين مشاة وركبان بالطبول رافعين بأيديهم فوانيس الزجاج الملون موقدة بالشموع وساروا الى أن وصلوا الى واجهة السراى المشرفة على تلك الرحبة حيث كان الخديوى وسائر الوزراء ورجال اللجنة ينتظرونهم فاصطفوا هناك وبعد برهة لطيفة نادوا بصوات التهليل ثم ساروا وعبروا شوارع المدينة حتى انتهوا الى ميدان المنشية فوقفوا هناك برهة فهرع الناس لرؤيتهم وفى أواخر الساعة الثالثة اجتمع أرباب الاشارة والطرق تتقدمهم المشاعل والانوار والطبول والزمر والبيارق والرايات وساروا على نظام معلوم عندهم الى أن دخلوا رحبة السراى فى عدد كثير وكل كل فريق منهم على شكل مخصوص وهم يضجون ويهجون ثم ورد من بعدهم أبناء المدارس وفى أيديهم مصابيح الشمع وفى ذلك الوقت كان ساحل البحر مزدانا بالانوار وكذلك جميع السفن الراسية فى المينا وقد سار عدد من قوارب الجرحى يحمل الجاهل من الناس وكانت مزدانة بالانوار والقناديل وفى بعضها الطبول والمغنون والمغنيات فأنتهوا الى مقر الخديوى وهم يعزفون ويضربون الطبول الى أن كانت الساعة السادسة من تلك الليلة فاطلقت شنكات البهود والحرايق والالعب النارية أمام السراى ومن باخرة الخديوى الخصوصة وباخرتى محمد على ومصر واستمرت كذلك الى الساعة السابعة من الليل وقد تسابق الناس على اختلافهم لرؤية هذا المنظر البهيج والمشهد الحافل وكانت ليلة لم يسبق لها مثال وأكثر الشعراء فيها من المدح والغزل وعملوا فى لجنة التصفية القصائد والمدائح وأوعز الرئيس مصطفى رياض باشا الى مديرى الاقاليم فوردت رسائل التهاني ركاما من سائر البلاد

وكان أول شئ بدئ به من نفقات التصفية زيادة مائة وخمسين ألف جنيه ذهبا على ضريبة الاطيان العشورية وتوزيعها على التساوى بلا فرق ولا تمييز بين الاراضى وبعضها قالوا وستبقى هذه الضريبة معمولا بها حتى ينجز ترتيب أمور الخزانة فلم يتم توزيعها حتى انبث أصحاب الجباية يعيشون فى البلاد لجمعها فشق هذا الامر على أصحاب تلك الاطيان وشكوا منه وتراجعوا على باب الرئيس فغناهم ووعدهم خيرا فسكتوا فلما كان خامس عشر رمضان من السنة قرر الرئيس اعتبار هذه الضريبة أصلا مقرررا فى ضرائب الاطيان العشورية وأن لا يكون بينها وبين

الضرائب الاصلية فرق وأن جميع الاطيان المعطاة قبل الآن بشرط أن تكون عشورية
يربط عليها العشور المناسبة لها على هذا الاساس بعد فرزها وتقدير درجاتها وما كان معطى
بدون شرط جعلها عشورية وكذلك جميع الاطيان الميرية التي تنقل من الآن فصاعدا
من حيازة الميرى لحيازة أخرى تعتبر أطيان خراجية ويربط عليها الخراج بحسب الدرجة
المناسبة لها فأنت الزيادة بعد ذلك القرار أمرا مقضيا فاشتد انقباض الناس من فعال
الرئيس وتطيروا منها وابتعدت قلوبهم عنه أو كادت وكثرت الاشاعة بقرب خلعه وتنزيله عن
منصب الرياسة * وأعقب ذلك أيضا أن ظهر فريق من ضباط الجند يشكون مما
يلاقون من عثمان رفيق باشا رئيس ديوان الجند وصرفه الكثير منهم عن الخدمة العسكرية
واستعاضتهم بآخرين من جماعة السرا كسة بغير سبب * قالوا * سوى الميل الى الجنسية
ورغبته في تبعية أبناء البلاد ووالوا الشكوى وعظموا البلوى ورفعوا الى الرئيس مصطفى
رياض باشا ظلامتهم ووقفوا ببابه أياما فلم يروا منه التفاتا وقد اشتد بهم الضيق وكثرت عليهم
حاجة العيال فكانوا يجتمعون في كل ليلة في دار محمد أفندي فني رئيس المترجمين بديوان
الخزينة يتماجون في أمرهم وما هم فيه من الشدة والفاقة ويرددون حديث ما تعانيه أهل
البلاد من جفاء الرئيس مصطفى رياض باشا واستصغاره بأمور الرعية فاتصل به خبير اجتماعهم
فبحث حولهم العيون والارصاد وهم لا يشعرون فلما كانوا في احدى الليالي يتماجون في -وادي
يومهم ذلك اذ كبس عليهم نفر من الجند وأصحاب الشرطة وأمور من مأموري الضابطة
وقبضوا عليهم جميعا وساقوهم الى الحبوس فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا فنهلوهم الى سجن قلعة
الجليل ورسم الرئيس فهيئوا لمحاكمتهم مجلسا حربيا وشددوا عليهم وضيقوا فكثرت تحدث الناس
في ذلك وتطاوت ألسنتهم الى التقريع والسباب فلما كان ثالث ذى الحجة سنة سبع وتسعين
حكموا على محمد أفندي فني صاحب البيت بالطرد من خدمات الحكومة والسجن بقلعة
الجليل سنتين وسكموه على من كانوا يجتمعون معه بالسجن والعزل من الوظائف العسكرية
* واشتدوا من هذا الحين على جميع الضباط المصريين وبالغوا في التضيق عليهم وخلعوا
الكثير منهم بغير موجب ولا سبب واستودعهم برقع الجاكي فكانوا نيفا وألف ضابط
وقد حاق بهم الذل والحيف وأعمل الجوع في أطفالهم عملهم فتألبوا وتحزبوا وارتبط بعضهم
ببعض بالايمن والعهود وانضم الى جمعهم كل ذى نائبة من أبناء البلاد وكانوا كثيرين
لا سيما من ثقات عليهم يد الرئيس * حدثني صاحب لي قال لما ظهرت علامات الفتنة
وكادت تبدو اشارات الخروج وأحس الخديوي بذلك كلم الرئيس مصطفى رياض باشا
وحذره من سوء العاقبة فلم يلتفت وكان اذا شدد عليه الخديوي وحذره وألقى عليه
النبعة ذهب الى قونصل الانجليز وشكى اليه واستعان به على الخديوي فبالغ من نفوذ
القونصل المذكور يومئذ أن صار يعزل ويولي من يشاء من مأموري الحكومة وأرباب
الوظائف وأتى بجماعة من قومه فأدخلهم في خدمة الحكومة وسد بهم أبواب الرزق في

مطلب

أول شكوى لضباط
الجند مما يلاقونه
من عثمان رفيق باشا

وجوه أهل البلاد وجاراه في ذلك قونصل الفرنسي فبات الرئيس وهو لا يقدر أن يخاف
لهما كلمة ولا يتبذل لهما طاعة وظل على هذه الحال والحدوي لا يرى للخلاص سبيلا

مطلب

ظهور الوحشة بين
المراقب الفرنسي
وقونصل جنراله
وظهور عصابة الجنود

ورأى المسيودي بليشار مراقب الفرنسي من نفوذ قونصل جنرال دولته واتساع كلمته
وتطاول يده الى أعمال الحكومة والعبيث بمنصب المراقبة ما أزعجه وبابل أفكاره فكلم الرئيس
مصطفى رياض باشا في ذلك وحذره من سوء العاقبة ثم جعل يمانع في تدخّل القونصل وبذل
على إيقافه عند حده فاستكبر القونصل ذلك ونقمه عليه وناواه الخصام فقامت بين الاثنين
قائمة الشحنة واشتدت البغضاء وأعرض الرئيس عن المراقب ومال الى جانب القونصل
فكبر بغض المراقب له أيضا واستفحل بينهما الخلاف واستعصى الوثام ❶ وبينما كان
الرئيس والمراقب والقونصل يتنازعون النفوذ والحرب بينهم سجال كان عثمان رفيق باشا رئيس
ديوان الجنود يكثر من عزل الضباط المصريين ويقصمهم عن مناصبهم ويولي بدلهم جماعة
الشراكسة وكان ممن عزلهم من مناصبهم كبير من ضباط الفرسان اسمه أحمد بيك عبد الغفار
وكان له منزلة وحرمة بين قومه فاشاع خبر عزله حتى انضم اليه جماعة الضباط المعزولين
وجعلوا يجتمعون في كل ليلة في داره ثم اتفقوا على أن يختاروا لهم رئيسا يرجعون اليه في
أمورهم وتبديروا شؤونهم فوقع اختيارهم على أحمد أمراء الجنود المدعو أحمد بيك عرابي أمير
جنود الأي الاربعة فلبى دعوتهم وتجرد لخدمتهم وعمل على توحيد كلمتهم وأحكم التدبير على
ما يناسب مصلحتهم * قلت وأحمد عرابي بيك هذا رجل ولد من أبوين فقيرين وكان مولده
في ليلة السبت ثالث عشر جمادى الثانية من عام ثمان وأربعين ومائتين وألف هجرية
وقيل ولد في صفر عام سبع وخمسين في قرية من قرى الشرقية تسمى هرية رزقه على بعد بعض
فراخ من الزقازيق أنشأها محمد علي باشا الكبير وأسكن بها جماعة من العربان الذين
يقال ان أحمد داد أحمد عرابي هذا منهم وأقطعهم بعض الاراضي لزراعتها واستغلالها
رزقة بلا مال الى أجل فكان ما أصاب أبو أحمد المدعو عرابي من تلك الارض ستة أفدنة
سودا فكانت مادة حياضهم ومنبع تعيشهم فلما بلغ أحمد عرابي أشد سله أبوه الى قبلى
اسمه المعلم مخايل غطاس وكان صراف الناحية ليعلمه القراءة والكتابة فلزمه زهاء خمس
سنوات أحسن فيها معرفة القراءة والكتابة وبعض القواعد الحسابية ثم أدخله أبوه في مصاف
طلبة العلم بالجامع الأزهر فرارا من العسكرية وذلك سنة خمس وستين ومائتين وألف هجرية
فلبث به زهاء الاربع سنوات يتلقى بعض أصول النحو واللغة والفقه وحفظ القرآن ثم عاد
الى قريته وأقام مع والديه الى سنة اثنتين وسبعين ومائتين وألف هجرية ثم أخذ الى العسكرية
فهرا على عهد سعيد باشا وكان من أهل قريته بالمعسكر جاويز بروحي لسعيد باشا اسمه
حسن حلمي له كلمة مسروعة فتقرب منه أحمد عرابي ولزمه واحتسب عليه فأحببه وعمل على
مساعدته فرقى بواسطته الى رتبة بلوك أمين للبلوك السابع من الارطة الرابعة من ألأى المشاة
الاول وكان يعرف بين الجنود يومئذ بالشيخ أحمد عرابي فلما كانت سنة ثلاث سبعين رقى الى

رتبة ملازم ثم الى رتبة يوزباشى فى سنة أربع وسبعين ثم الى رتبة الصاغفول آغاسى
والبيكباشى الى سنة ست وسبعين وكان فى غضون هذه المدة قد بلغ حسن حلمى البروجى
رتبة القائم ومات فبكاه أحمد عرابى بكاه مرأى وجزع عليه جزعا شديدا وبلغ ذلك طبيب
الذكر سعيد باشا فتعجب ومنحه رتبة حسن حلمى المتوفى وذلك سنة سبع وسبعين فصار من
هذا الحين معدودا من كبار ضباط الجند ولبت على هذا الحال حينما ثم اعتزل الخدمة حينما
أيضا ثم عاد اليها فى أوائل ولاية اسمعيل باشا فى سنة تسع وسبعين هجرية ولبت بها الى
أن وقعت بينه وبين خسرو باشا أحد كبار الضباط الشراكسة خصومة فتهيؤوا لمحكمة أحمد
عرابى مجلسا حربيا فحكم عليه بالحبس بضعة أيام فلم يقبل الحكم ورمى هيئة المحكمة بالمرور
عن جادة العدل والاخذ بالوجه فرفعوا أمره الى اسمعيل باشا فأمر بإبعاده عن الخدمة
العسكرية فأبعده وبالغوا فى تذليله فكبر عليه الأمر وعظم بغضه لطائفة الشراكسة ولبت
مبعدا زهاء السنة ثم توسط بعض أهل الخير فى شأنه فادخلوه فى خدمة الدائرة الخلمية وهى
دائرة الامير الهامى باشا ولد عباس باشا الاول فأحسن الخدمة واستمال اليه كبار الدائرة
فزوجوه ببنة مرضعة الامير الهامى وهى أخت حرم الخديوى محمد توفيق باشا بالرضاع ولما
كانت سنة اثنتين وتسعين ومائتين وألف هجرية تشفعوا له عند الخديوى اسمعيل بسبب
زوجته فأعادته الى خدمة الجندية فلم يستقر به المنصب حتى جعل يث بين الضباط من
المصريين روح الالفة والاتحاد ويقرب بعضهم الى بعض حتى صاروا على قلب رجل واحد
فلما تولى الخديوية الامير محمد توفيق باشا وأحسن على الكثير من رجال العسكرية والملكية
بنباشين الشرف ورتب الاعتبار ساعد الخط يومئذ أحمد عرابى فنال رتبة الميرالاي وكان
ذلك فى رجب سنة ست وتسعين واتفق فى هذا الحين أن شرع عثمان رفقي باشا كبير ديوان
الجند فى سن قانون للقرعة العسكرية دل مبدؤه على عدم جواز ترقى أحد من الجند الى
الرتب العالية حيث قضى على العسكرية أن يبقى فى الخدمة مدة أربع سنوات ثم يذهب
الى بلده امداديا ويبقى هكذا مدة خمس سنوات أخرى ويأتى الى مركز المديرية شهرين فى
كل سنة لمباشرة التدريبات العسكرية وبعد مضى الخمس سنوات يقيم فى بلده بغير عمل
ويسمى احتياطيا تحت الطلب مدة ست سنوات ثم يعفى اسمه من دفاتر الجندية فلما ذاع
خبر هذا القانون بين ضباط الجند فرح لسماعه جماعة الضباط الترك والشراكسة وانقبض
له الضباط المصريون وعلموا بأنه انما سن هذا القانون على هذا المبدأ لحرمانهم من الرتب
وجعلهم جندا تحت تسلط جماعة الترك والشراكسة واختصاص هؤلاء بالرتب والمناصب
العالية فجعلوا يتعجبون العمل به وشكوا من فعال عثمان رفقي باشا وكان بين الباشا المذكور
وبين على فهمى المعروف بعلى الديب أمير ألاى جند الحرس الخديوى وعبد العال حلمى
المعروف بعبد العال أبى حشيش نفور ووحشة لامور لم تصل الى معرفتها فاجتمع على فهمى
وعبد العال وأحمد عبد الغفار باحمد عرابى فى بيته وتناجوا فى أمر ذلك القانون وفى فعال

عثمان رفيق باشا ثم تحالفوا وتعاهدوا وارتبطوا بالمواثيق على أن يكونوا كرجل واحد ثم أصبحوا وقد جمع كل من عنده من الضباط والصف ضباط وخطب فيهم خطب الحث والتهيج ضد جماعة النمراسة وقبح لهم فعال عثمان رفيق باشا ثم استخلفهم على السيف والمصحف بأن يكونوا يدا واحدة وقلبا واحدا على مساعدة أمراء الأليات الثلاثة في عملهم والمحافظة على أرواحهم اذا قصدوا بسوء وبعد أن تم ذلك كتب كل من ضباط الالات عريضة يطالبون فيها بعض المطالب الذين هم في حاجة اليها فأخذ أحمد عرابي العرائض الثلاثة وأبقاها عنده ورفع هو عريضة أخرى الى الرئيس مصطفى رياض باشا يقول

مطلب

تحالف الضباط
المصريين على
السيف والمصحف
وانتداب أحمد عرابي
للزعامة ورفع عريضة
بالطعن في عثمان
باشا رفيق

مقدم هذا لاعتاب دولتكم بغاية كل خضوع ضباط الجهادية وما نعرض عنه أفندم انه لما أشرقت بحمد الله أنوار شمس الحضرة التوفيقية وأينعت بالعدل في أرجاء ديارنا المصرية نشر العدل ألويته على دوائر أطلالنا وتحررت رقاب المصريين من رق العبودية كما تخلصت نفوسهم من ضيق الاستبداد الذي طالما استولى على بلادنا عدة أجيال يعاملنا بأنواع المظالم الغدرية فحمدناه تعالى على ذلك وسألناه التوفيق لتشديد دعائم أركان العدل والانصاف محفوفة برياض الحرية المبنية على المساواة في الحقوق بين الرعية لكن لما أحيل على سعادة عثمان رفيق باشا نظارة الجهادية رأينا سعادته يعامل ضباطان الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لنا الحرمان والاضرار كأننا الاعداء اللدء وكأن الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والايحاف بمحقوقهم مقتفيا في ذلك أثر راتب باشا في آخر العهد السابق من تهيج الافكار واثارة الفتن التي تكون سببا في توقف حركة الاصلاح الاداري قصد أن يتمكن مما ساقته اليه نفس سعادته وما زلنا صابرين على مضض الالايا حتى آل الامر لحرمان أغلبنا من خدمة وطننا مع استعدادنا وتأهلنا وعدم تأخرنا عن ترقوا في الخدمة بوجه امتياز على ما بهم من العلل ولا موجب لترقيهم سوى كونهم أقارب ومحاسب من لهم في العسكرية النفوذ المطلق وبرهاننا على ذلك أنه موجود بديوان الجهادية فوق الالف ضابط بقلم المستودعين لم يكن فيهم أحد من غير الوطنيين وهذا مضاد للمساواة ومجحف بالحقوق هذا ومن بعد أن تبين لسعادته تسكين الخواطر واستقامة الاحوال كبر ذلك عليه وقصد تهيج الافكار باصدار أمره المبنى على الاستبداد والاستعباد برفت أحد قائمقامي السواري المسمى أحمد عبد الغفار بيك بصورة تمسككم بغير محاكمة قانونية وعلى ضد كل قانون عادل فبذلك هيج بلبلنا وأورثنا عدم الأمن والاطمئنان وصرنا متوقعين الايقاع بنا واحدا بعد واحد مادام سعادة المشار اليه في مسند نظارة الجهادية الذي لا تسمع القوانين الحرة بتوجيه هذا المسند لمثل سعادته ومما يؤيد تلك القوانين مسائلنا كنج جاهين وحافظ باشا وبعد ذلك ينظر في أفضلية من امتازهم عنا بالخدمة مع عدم مساواتهم معنا في العلوم والآداب العسكرية وغيرها وما أثر دولتكم في تسكين حركة الخواطر وبث روح العدل والمساواة اتباعا لمبدأ الحضرة الخديوية يوجب علينا القيام بواجبات الشكر

الحقيقي والامر لمن له الامر انتهى

فلما علم الرئيس مصطفى رياض باشا بما في هذه العريضة كبر عليه الامر ونقمه على أحمد بيك عرابي وججع اليه في الحال هيئة مجلس الوزراء وعقد مجلسهم وبينهم عثمان رفيق باشا كبير ديوان الجند وتكلموا في الامر طويلا فطال بينهم الاخذ والرد ساعة ثم انفض مجلسهم على غير طائل وعلم الخديو بالخبر فبكاهم الرئيس مصطفى رياض باشا وحذره سوء العاقبة وأشار بالتأني وترك العجلة ورسم بالمجاملة والتأطاف وترك القسوة والعنف فلم يعجب الرئيس منه ذلك وتجرد الى المفاوضة وعهد الى التهديد فبث العيون وشدد في التكبير والضباط لا ينكفون عن التحزب والتأليب وضم كل بعيد عنهم ممن مسه الضرر بفعل الرئيس * فلما كان صبح الثلاثاء ثالث ربيع الاول من السنة أي سنة ثمان وتسعين اجتمع الرئيس مصطفى رياض باشا ببقية الوزراء في جلسة خصوصية وكلهم في أمر أحمد عرابي بيك ومن معه من جماعة الضباط فاتفقوا بعد جدال على تشكيل مجلس عسكري من كبار الشراكسة لها كفة كل من له يد في تأسيس عصابتهم وتشكيل محكمة أخرى من بعض الموظفين الملكيين لها كفة من انضم اليهم من الاهليين وقد أخذ عثمان رفيق باشا على عهده تنفيذه ما يتعلق برعاه العصابة وقام من ساعته وذهب الى مقر ديوانه بقصر النيل وججع اليه رجال مجلسه الحربي وكلهم من الشراكسة فتكلموا في الامر برهة قصيرة ثم برز من مجلسهم الحكم بتجريد كبار العصابة من رتبهم ووظائفهم العسكرية وتبعيدهم عن الديار المصرية وتسليم مناصبهم لجماعة من الضباط الشراكسة وكتبوا في الحال ثلاثة أوامر الى الثلاثة أمراء وهم على بيك فهمي المعروف بعلي الديب أمير جند الحرس الخديوي وأحمد عرابي بيك أمير جند الأتالي الرابع وعبدالعال حلمي بيك المعروف بابي حشيش أمير الجند السوداني يستندونهم الى قصر النيل بحجة أن عثمان باشا كبير الديوان يريد مشاورتهم فيما يجب فعله من ترتيب زفاف الاميرة جيالة هانم أخت الخديوي فلم تخف عليهم الحقيقة وقد علموا بكل ما وقع الاتفاق عليه ومع ذلك فانهم لم يتأخروا وقاموا من فورهم وساروا الى قصر النيل ومعهم من يأتي بالخبر الى أصحابهم اذا حل بهم ما يكرهون فلما دنوا من مقر عثمان رفيق باشا أحاطت بهم طوائف الحرس ومشى خلفهم كثير من الضباط الشراكسة وأدخلوهم الى حيث المجلس العسكري فلما وقفوا بين أيدي رجال المجلس التفت اليهم خسرو باشا أحد الاعضاء وقال قد حكم عليكم اليوم مجلسنا العسكري بالتجريد من الوظائف وجميع الرتب العسكرية ومحو أسمائكم من سجل العسكرية فاخلعوا عنكم سيوفكم الآن وسلوها . فقال أحمد عرابي بيك قد سمعنا ما تقول ونطلب أن تطلعنا على ورقة هذا الحكم لنعلم ان يكون على علم بما جئنا ونعرف ما اذا كان حكمكم هذا ينطبق على ما جاءت به أحكام القوانين العسكرية أو ... فقاطعه أحد رجال المجلس بان قال ومن أين أثبتتم لانفسكم حق هذا النظر وكيف تطلبون الاطلاع على ورقة الحكم وأنتم اليوم مجرمون مجردون من كل رتبة وشرف ثم صاح ببعض الحراس خذوا عنهم سيوفهم

مطلب

تشكيل المجلس
العسكري للحكم على
عرابي بيك ومن معه
من كبار العسكر

الساعة واذهبوا بهم الى حيث أمرناكم نفلح الامراء عنهم سيوفهم وسلوها وهم صاغرون فأخذوهم ومضوا بهم الى أسفل الديوان ووضعوا كل أمير منهم في سجن منفردا تخفوه الجند وبعض كبار الجرا كسة وكان ذلك في نحو الساعة العاشرة نهارا فلما بلغ خبر سجنهم عسكر الحرس الخديوي برحبة عابدين وكان محمد أفندي عبيد أحد كبار ضباط هذا الحرس يراقب الحوادث وقد علم بما وراء حبس الامراء نادى في جنده بالخروج فخرجوا جميعا بأسلحتهم وعدتهم فاعترضه خورشيد بيك يسمى قائمقام الحرس وسأله عن سبب خروج العسكر على هذه الصورة فلم يلتفت الى قوله وأمر بعض الجند فقبضوا عليه وأودعوه في إحدى الجرات ووقفوا على بابه يخفرونه وسار محمد عبيد بجميع الجند الى قصر النيل وهم في ضجة وجلبة وبلغ الخديوي الخبر فاشرف على الجند من شرافة السلامك ورسم الى الفريق راشد حسني باشا بمنعهم من الذهاب الى قصر النيل فلم يتمكن فأمر بروحي قرا قول السراي بان ينفخ في البوق مناديا لجماعة الضباط أن احضروا أمام الخديوي فلم يلتفت أحد لندائه وطلوا سائرهم وهم في ضجة وجلبة حتى دخلوا أبواب قصر النيل فمانعهم بعض الجند النازلين هناك فلم يلتفتوا اليهم وقصدوا مقر الفريق عثمان رفي باشا وكان عثمان باشا قد علم بخبر مجيء الجند فأمر بالابواب فأغلقت فلما رأى الجند أن الابواب مقفلة صاحوا ودمدموا وكسروها واقحموها عنوة وهم يكترون من الشتم واللعن وبادروا كل من لاقوه بالضرب واللكم والسب وقتلوا على عثمان رفي باشا وبدون البطش به فلم يعنوا له على أثر وكان قد خرج من ديوانه مسرعا حتى دخل ورشة تشغيل ملابس العسكر فقام اليه ناظرها الماس بيك وأخذ بيده وأدخله أحد المخازن وستره عن الاعين ببعض الاكياس الفارغة فتوارى هناك فلما لم يجدوه اقتحموا سجون الامراء الثلاثة وأخرجوهم وساروا بهم الى مقر الحرس الخديوي جملا على الايدي وهم حاسرون الرؤس والناس خلفهم في ضجة وجلبة عظمتين

ووصل الخبر الى الخديوي بما جرى فاضطرب وأتى اضطراب وسير في طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وسائر الوزراء فحضروا فرسم بذهابهم الى قصر النيل ليتدركوا الامر قبل استفحاله فساروا ولم يتجاوزوا رحبة عابدين حتى رأوا الجند آتين ومعهم الامراء الثلاثة وهم ينفخون في البوق وخلفهم العامة في ضجة عظيمة فعادوا مسرعين الى مقر الخديوي وأعلموه بالخبر ولم يكذبهم المقام حتى أحاط الجند بالسراي احاطة السوار بالمعصم وقد طار الخبر في هذه الاثناء الى معسكر طرا والعباسية فحضر منهم ما على الفور فرقان بالبنادق والحراب وانضموا الى جند الحرس ورفعوا أصواتهم على الاثر ونادوا بالويل والتهور على عثمان رفي باشا وأشياعه وطلبوا خلعه من منصبه وأكثروا من الضجيج والصياح فسير اليهم الخديوي يقول هو نوا عليكم فسئري فيما تطلبون الساعة فضجوا عند ذلك بالدعاء للخديوي ثلاثا وقد هرع الناس عند سماعهم الضجيج وأتوا الى رحبة عابدين من كل فج عيسق وتزاحوا خلف صفوف الجند وعلت بينهم الضوضاء وصاح الصبيان (الله ينصر السلطان) واجتمعت

الغوغاء وكثر الهرج والمرج وحضر قناصل الدول الى مقر الخديوى وهم في دهشة واضطراب وكان أحمد عرابى بك قد أرسل اليهم في الحال يعلمهم بالمحاذنة ويطمئن خواطرها من تخويعاهاهم وأتباعهم ويقول لهم انه لا علاقة لهذه الحركة قط بالامور السياسية ورأى الخديوى من استفحال الخطب ما أزعجه فأمر بمجلس الوزراء فانتظم وحضره جميع من حضر من قناصل الدول وتكلموا في الامر طويلا ثم استدعوا أحمد عرابى بك وسألوه ماذا يطلب فتكلم كثيرا وبالسبح في الشكوى وعظم البلاء ثم قال اننا نطلب الآن سوى خلع عثمان رفقي باشا وتنزيله من منصبه فتناجوا في الامر طويلا ثم قرروا خلع عثمان باشا من منصبه والعفو عن الامراء الثلاثة وأن تعاد لهم وظائفهم فنزل أحمد عرابى بك وأعلم جميع الضباط بما جرى ووقع الاتفاق عليه ونادى في العسكر بالمسير فهتفوا جميعا بأصوات الدعاء ثلاثا وانسحبوا الى معسكر عابدين والموزيقى تصدح أمام صفوفهم فباتوا ليلتهم وهم بين راقص ومطرب ومدخن بقصبة دخانه وضاحك مع رفيقه حتى مطلع الفجر فسارت الجنود السودانية مع مقدمهم عبيد المال بك الى طرا وسار أحمد عرابى بك بعسكره الى العباسية وأصبحوا وقد تولى محمود باشا البارودى رئاسة ديوان الجند بدلا من عثمان رفقي باشا المعزول فالتحاز جميع الامراء ومقدمى الجند اليه وتقربوا منه ليكون لهم عوناً فأعجبه ذلك منهم ومال اليهم وتقدم الى الخديوى في طلب العفو عنهم جميعا وما زال به حتى أجابه الى ذلك فلما كان يوم السبت عشرين ربيع الاول رسم الخديوى بحضورهم جميعا الى مقره بعابدين فحضروا في الساعة الخامسة وفي مقدمتهم محمود باشا البارودى فلما تمثلوا بين يديه قام فيهم خطيبا يقول * انكم تعلمون حق العلم ما عذرى من المبل والمحبة للعساكر والالنفات الى شؤونهم من يوم استلأى زمام الحكومة وذلك لما هو محقق لدى من أنهم متحدون معى على مقاصدى الحسنة التى هى دوام حفظ الامنية واستقامة الاحوال الادارية فى هذا القطر لذلك لا أخفى عليكم ما حصل لى من الاسف بأسباب الحركة التى حدثت وانفضت ومع ذلك فانى قد عفوت ولم يبق فى قلبى من آثارها شئ بالكلية فيلزمكم من الآن فصاعدا أن لا تشتغلوا بشئ خارج عن حدود وظائفكم واجتهدوا فى أداء واجباتكم العسكرية ومن المعلوم أن سعي واجتهادى متجه الى اصلاح الاحوال وتحسين الامور وهيئة النظار الحاضرة متحدة معى فى هذه المقاصد الخيرية ومجتهدة فى تنمى ما يجب من الاصلاحات اللازمة وليس بخاف عليكم ما تم بهذا القطر من الاصلاحات المالية والادارية فى ظرف سنة واحدة وذلك مما يوجب على كل محب لهذا القطر ابداء الشكر واطهار المسرة وحاصل ما أقول لى ان العساكر ليس لهم وظيفة سوى التمسك بالقوانين العسكرية والسعى فى أداء واجباتهم والامتنال لولى أمرهم وانى لعلى يقين من أنكم تعتقدون بان أكمل الصفات العسكرية هى الاستقامة والامتنال فى جميع الامور والاحوال فمن الواجب عليكم أن تحافظوا على ذلك وتجعلوا أعمالكم كلها دائرة على هذا المحور اه فلما أتم خطابه هتفوا جميعا

مطلب
تولية محمود باشا
البارودى رئاسته
ديوان الجند وما كان

جميعاً بالدعاء وانصرفوا ثم توجه الامراء الثلاثة الى قونصلى الفرنسيين والانجليز وتكلموا معهم فيما هم عليه من السكينة والتمسك بالحدود والقوانين العسكرية وأن ليس هناك قط ما يدعو الى القلق أو الاضطراب ولله در من قال

فلا يمنعك الطير شيئاً أردته * فقد خط بالافلام ما كنت لا قيا

ولم يكن يرضى الرئيس رياض باشا عما بدا من الخديو من والعفو السماح ولا عما وقع من خلع عثمان رفقي باشا من منصبه ولا عن تولية محمود باشا البارودى مسند نظارة الجهادية لجعل يرقب الفرص ليوقع بالامراء الثلاثة وصاريكيدهم كيدا والبارودى يعمل على ما فيه المصلحة لهم والذب عنهم وما زال حتى أعيت الرئيس الحيل وكاد يحجب منه الرجاء والأمل وتحقق أن لانجساح له ولا فلاح الا بالخلاص من البارودى فعمد الى معاكسته فى السر والنجوى ورماه بتهمة الخيانة وافشاء اسرار الحكومة وأعمال مجلس الوزراء قبل تقريرها وتبليغ قونصل جنرال الفرنسيين بحوادث البلاد قبل اذاعتها قيل وقد كان البارودى تقرب من قونصل الفرنسيين وتحبب اليه فأحبه ومال اليه انتقاما من الرئيس لما بينهما من سابق العداوة التى تقدم الكلام عنها واشتد الخلاف بين الرئيس والبارودى شدة بالغة وشكا الرئيس للخديو وقبح مصاحبة البارودى للقونصل وكتب الى رئيس جمهور الفرنسيين يشكو من فعال القونصل ويعيب تداخله فى أعمال الحكومة وأوعز الى بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية فقاموا وقعدوا ووقعوا بالقونصل سبا وتعييبا وأكثروا من اللوم والتفريع بدولة الفرنسيين لتركها قونصلها يعمل على لئارة الخواطر وبلبلة الافكار وأعانهم المراقب الفرنسي على ذلك أيضا لما بينه وبين القونصل من البغض والمزاجاة على النفوذ * ولما اشتد الخلاف بين القونصل والرئيس وكبرت الوحشة بينهما قام جماعة من الفرنسيين نزلوا القاهرة والاسكندرية واجتمعوا بالنزل المعروف بنزل آبات بالاسكندرية يريدون تعضيد القونصل ورد كيد الرئيس والمراقب عنه فخطب فيهم الخطباء وتكلم بينهم الفصحاء فى ذلك اليوم وهم يقسمون أفعال الرئيس والمراقب وكتبوا بذلك محضرا وبعثوا به الى مجلس نواب بلادهم وسألوه أن لا يعبروا شكوى الرئيس وشاية المراقب جانب الالتفات وان يستبقوا القونصل فى منصبه كي لا يهدموا بأيديهم ما بناء القونصل بديار مصر من العز ونفوذ الكلمة فلم يكدر يصل خطابهم الى عاصمة الفرنسيين حتى جاء الطلب الى القونصل مع البريد فهاج أصحابه وماجوا ورفعوا عريضة ثانية الى كبير جمهورهم فلم ينالوا وطرا وسار القونصل عن القاهرة فى غاية ربيع الاول من السنة فشيعة العديد من الفرنسيين وبالغوا فى الاحتفال بوداعه وألقوا المقالات المهيجة وهم على ظهر الباخرة التى نزل بها راجعا الى بلاده وفرح أصحاب صحف الاخبار الانجليزية بخلع القونصل وتبعيده عن ديار مصر واتهموه بالاشترار فى مؤامرة الجنود وخروج الامراء الثلاثة وقالوا انه هو الذى حضهم على شق عصا الطاعة نكابة بالرئيس وأصحابه فرد عليهم أصحاب صحف اخبار الفرنسيين وأغلظوا فى الرد وتجاافوا

مطلب

اشتداد الخلاف

ما بين قونصل

الفرنسيين والرئيس

مصطفى رياض باشا

وما كان من وراء

ذلك

في القول وقامت بينهم حرب الاقلام على قدم وساق واشتد الغيظ بالصحاب القونصل وقام زعيمهم المدعو الموسيو جاك كن. وألف لجنة أو عصبة سماها العصبة الوقية المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيين بأرض الفراعنة وكتب الى كبير جمهور الفرنسيين يقول اني بصفتي رئيس للجنة المؤقتة المكلفة بالدفاع عن مصالح الفرنسيين في ديار مصر أطلب بالخاص أن تنظروا بعين الالتفات الى العريضة التي بعثنا بها لمقامكم على جناح البريد ثم نشر الزعيم المذكور في رابع ربيع الثاني اعلانا يطلب فيه اجتماع كافة الفرنسيين نزل مصر والاسكندرية وسائر التابعين للراية ذات الالوان الثلاثة يعنى الراية الافرنسية بالنزل المعروف بنزل آبات بالاسكندرية لاقامة لجنة دائمة تكلف بالدفاع عن مصالح الفرنسيين عوضا عن تلك اللجنة المؤقتة فابى القوم دعوته وتراجوا حتى غص بهم المكان فقام فيهم الخطباء والنصحاء ورموا الرئيس بالخيانة لوطنه والمروق عن جادة الحق وبالغوا في السب والتعيب بين أصوات التهليل وضجيج الاستحسان ثم بعثوا بعد ذلك برسالة مألثة الى كبير جمهورهم فلما علم الرئيس بما جرى خشي العاقبة وقد أحس بوشك رجوع القونصل الى منصبه فتقدم الى الخديو في التحرير الى كبير جمهور الفرنسيين بمنع رجوع القونصل الى ديار مصر كي لا يتكدر صفاء الموتة بين البلدين فأجاب الخديو الى ذلك وكتب

ولم يكدر يطمئن قلب الرئيس باستحالة رجوع القونصل الى منصبه حتى قام زعماء عصبة الجند وقعدوا وهاجوا وماجوا وكثر اجتماعهم في دار البارودي وطاف أعوانهم يرجفون ذلك لأن عبد العال بيك حشيش أمير الجند السوداني قبض على أحد الشراكسة من الضباط الذين معه وهو يطوف على جميع الضباط والعسكر السوداني يحضهم للتوقيع منهم على محضر قالوا انه مرفوع عن لسان جميع الضباط والجند بانهم ليسوا راضين عن أميرهم عبد العال وأنهم يطلبون العفو من الخديو عما سلف من طاعتهم لأمرهم وأخراجهم اياه من قصر النيل قالوا وقد ثبت أن يوسف باشا كامل كبير ديوان بيت الخديو يومئذ هو الذي استقدم اليه الضابط المذكور وسلمه ذلك المحضر وتسعمائة جنيهه ذهباً عينا وأمواله أن يبذل جهد المجتهد في التوقيع عليه من جميع ضباط وأفراد جند عبد العال ولكل ضابط في نظير ذلك ثلاثة جنيهات وللجندى جنيه وله هو في مقابلة ذلك الرقعة وعلو الكلمة فذهب الضابط وسعى وسط الجند فاستمال بعضهم وخدع بعضهم وكان ممن تكلم معه في ذلك أونباشى أى كبير عشرة من الجنود فوافقوه الاونباشى ووعدوه ثم تركه وذهب الى القاء مقام وأعلمه بالخبر فقام من فوره ودخل على ذلك الضابط وقبض عليه وقبضه فوجد المحضر وعليه نيف وثلاثون توقيعاً فكبله بالحديد وألقاه في الحال بالسجن وضيق عليه وسأله فاعترف بما ذكر وبأنه رسول يوسف باشا كامل فسير القاء مقام في الحال الى عبد العال بيك فحضر وأخذ تلك الورقة وعاد بها الى رفاقه وأعلمهم بخبر الضابط واجتمعوا بمعتكر رجبية عابدين وأرسلوا الى البارودي باشا بجاء على الأثر وعقدوا مجلسهم وتناجوا في الأمر

مطلب
القبض على أحد
الضباط الشراكسة
وهو يستكتب
ضباط الجند السوداني
بالشكوى من عبد
العال بيك حشيش

ثم قام البارودي ودخل على الرئيس وأعلمته بما جرى فلم يهتم به ولم يلتفت اليه فساء
 البارودي ذلك وذهب الى الخديو وحديثه بما جرى فغضب ورسم بخلع يوسف باشا وتبعيده
 عن القاهرة فسار الى أرض له بالأقليم البحري وجدت بتبعيده نار الفتنة وسكنت خواطر
 زعماء العصابة وأخذوا من ذلك اليوم بأطراف الجند والحزامة فتقدموا الى البارودي
 في ترتيب سائر أمور الجندية على ما يقتضيه نظامها وتقييدها بالقوانين واللوائح والنظر في
 حالة الترقى والمرتبات وسن قانون يكون اليه المرجع في تقدم كل عسكري
 وواجباته وعدم تقييد حياته بالخدمة العسكرية وغير ذلك من أوجه الإصلاح فأجابهم
 البارودي الى ذلك وكلم الرئيس مصطفى رياض باشا في الأمر فاقول وطاول البارودي يلج
 في الطلب فلما أعينه الخيلة سأل الخديو في ذلك فحكم الخديو الرئيس فلم يلتفت وأصر على
 الإبادة فرسم الخديو بتشكيل مجلس من جاكى باشا واستون باشا وبلتش باشا واسماعيل
 كامل باشا وأحمد عرابى بيك وبرناردى بيك والمسترجول اسمت مفتش الدائرة السنية
 وغيرهم من الضباط لينظروا في طلبات زعماء الجند ويقدموها قدرها فاجتمعوا ووالوا
 الاجتماع أياها ثم رفعوا الى الرئيس مصطفى رياض باشا محضرا بينهم فيه لزوم تقليل العسكر
 العاملين وجعلوا حدا للترقى في الدرجات العسكرية تخلصا من تزايد عدد المستودعين وقالوا
 انه يوجد من هؤلاء أى من المستودعين بعد الذين أدخلوا في الخدمات الملكية والدواوين
 العمومية ما يبلغ ألفا وزيادة وطلبوا من الرئيس الاقرار على هاته القاعدة فأجابهم الى ذلك
 كلها ورفعها الى الخديو فرسم بتنفيذها والعمل بها فبات الجند وأصبحوا وقد زادت جياكهم
 وزادت أيضا المرتبات والعلوفات فظهرت عند ذلك كلمة محمود باشا البارودي وعلت منزلته
 واتسعت شهرة أحمد عرابى بيك وأحبه الضباط والجند كافة ومالوا الى طاعته والاجتماع
 عند اشارته الا نفرا من الضباط فسعى في عزلهم وقولبة أنصاره مكانهم

ورأى البارودي بعيد هذا كله ضرورة الجمع ما بين زعماء العصابة والرئيس مصطفى
 رياض باشا وصرف ما فى النفوس لعل الأزمة تنفرج * فلما كان حادى عشرى جمادى
 الاولى من السنة أولم وليمة عظيمة بقصر النيل ودعا اليها جميع الوزراء والمراقبين الانجليزى
 والفرنسوى وضباط الجند فلما جلسوا على الطعام قام البارودي وخطب فيهم فكان ما قاله
 * هذه ليلة أنس دعيتنا الى الاجتماع فيها دواعى المحبة والاتلاف تذكارا لما اثره الحكومة
 الخديوية الجليلة التى وجهت وجه عزيمتها الى اصلاح أحوال الاهالى جيعا ونعيم العدل
 فيهم وايصال كل لما يستحقه فقد رأينا فى هذا الزمن القليل من عهد ما استلم خديونا
 المعظم زمام الحكومة تغييرا مهما اذ تبدل فيه العسر باليسر والنظم بالعدل وما ذاك الا
 من حسن مقاصد هذا الجنب وطهارة سجايه الى أن قال - ولا ريب فان هذه النعم
 يجب علينا استبقاؤها والاستزادة منها ولن يكون ذلك الا اذا قرناها بالشكر عليها فقد قالوا
 الشكر سبيل النعم وحقيقته أن يكون جميعنا مخلصا للحكومة فى خدمته قائما بواجباتها

مطلب

طلب زعماء الجند

من البارودي سن

قانون للجندية

يكون المرجع

اليه

معضدا لجميع مقاصدها خاضعا لاوامر الحضرة الخديوية التي هي السبب في هذا الخير العظيم وعلى ذلك لابد أن ننادي جميعا فليجي الجناب الخديوي أطال الله بقاءه * فقام بعده الرئيس مصطفى رياض باشا وتكلم مخاطبا طوائف الضباط - الى أن قال - ان محسنات العدل ووجوه الاصلاح التي امتازت بها أيام حكم الجناب الخديوي في هذه الاوطان أمر معلوم يعتد تعداداه من قبيل تحصيل الحاصل وأنتم معاشر الضباط تعلمون ذلك حق العلم فلا حاجة الى بسط الكلام فيه وإن ضباط العسكرية وهم من أشرف أعضاء الحكومة من شملتهم هذه المحسنات وعمتهم فوائد الاصلاح - الى ان قال - وقد رأيتم من أنفسكم أن حقوقكم وصلت اليكم وأنتم قوة الحاكم وآلته المنفذة فاذا بادأكم الحاكم بحسن الالتفات ونظر اليكم بعين الرأفة والرحمة فعليكم وجوبا كما أخذتم مالهكم أن تؤدوا ما عليكم وهو طاعة ولي الامر الذي هو السبب الاعظم في جميع هذه الخيرات - الى ان قال - وعلينا جميعا أن نفتعل الى الله تعالى ببقاء الخديو وتأيسد عزه وأن ننادي بلسان الحال فليعش الجناب الخديوي فأجابه الحاضرون على ذلك

وقلت ولم تكن هذه المآكب والخطابات والتمدح بطاعة الجند لتذهب مافي نفوس زعماء العصابة من البغض للرئيس مصطفى رياض باشا ولا لتقلل من همهم في العمل على خلعهم والتخلص منه فانه لما تمكن أحمد عرابي بيك من طاعة جميع الجند ومجبة سائر الضباط عمد الى استمالة أهل البلاد وعمدها ومشايخها ومشايخ قبائل العربان والتقرب من جماعة العلماء والمشايخ والوجهاء ثم جعل يبعث البعث فكافوا يحجبون البلاد ويهيجون العامة ويضرمون في صدورهم نار البغض للرئيس وأعوانه وتخطى به الخروج الى أن كتب الى عمد وأعيان البلاد القبلية والبحرية على أيدي رسله يقول * ان الوزارة الرياضية يعني الهيئة التي يرأسها مصطفى رياض باشا قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم وليس لها من نية سوى العمل على ما فيه اضمحلال البلاد وتلاشيها عما هو جار من بيع الاراضي الكثيرة للاجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم واعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على اكفكم فضلا عن أنها رسمت برفع الاجار الطبيعية الموجودة ببوغاز اسكندرية لئلا تكن سفن الاجانب من الدخول الى جوف البلاد بلا ممانع وإن سكوتنا وإضرابنا عن هذا كله يعتد من الجبن والعجز والتفريط في وطننا ومقر نشأتنا فاعلموا يامعاشر الوطنيين أن أولادكم القائمين بالخدمة العسكرية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل اجحاف بحقوقكم والذود عنها جهد الاستطاعة ولا يخفاكم أن هذا لا يتم الا بتزيل وزارة رياض باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتشكيل مجلس نواب للبلاد لينال وطننا الحرية المطلوبة والمقصود هو أنكم توقعون على الكتابة المرسلة اليكم على يد حاملها والغاية منها جعل نائباً عنكم في كل ما يتعلق باحوال البلاد * فأجابه الى ذلك كثير من عمد البلاد وأعيانها وغيرهم من المزارعين وأصحاب الاراضي واتفق في غضون ذلك أن قام الخديو وحاشيته

مطلب
في عدد أحمد عرابي
بيك الى استمالة أهل
البلاد

ورجال ديوانه الى مدينة الاسكندرية لقضاء فصل الصيف فيها على عادته في كل عام وتبعه الرئيس وهيئة مجلس الوزارة فخلا الجول لزعاء العصابة فأكثر رسالهم من التطواف على بيوت الاعيان والدخول في مجالس أصحاب الكلمة المسموعة وهم يرجفون ويقبحون فعال الرئيس ويحضونهم على تعزيد العصابة والأخذ بيد زعمائها * وظهر في هذا الحين نجم من ذوات الذنب فكان يرى في كل ليلة بشكل جلي حتى لضعاف البصر فهال الناس ظهوره وخافوه وأخذتهم الطيرة وجعلوا يتأولون ظهوره الى رموز واشارات شتى ويقولون ان هذه السنة أى سنة ثمان وتسعين لانتم دون وقوع أمور مهمة وحوادث مدلهمة بل حروب وكروب وخطوب وقطوب وقد نسبوا اليه جميع الوقائع والحوادث التي وقعت في غير ديار مصر وتكلم أصحاب الصحف الاخبار عن هذا النجم فقالوا انه النجم ذاو الذنب الذي سبق فتكلم عنه المعلم مبل الفلكي الشهير فقال انه ظهر في سنة ست وسبعائة وألف ميلادية وشاهده في سنة سبع وثمانائة والاف ميلادية واستدل على أنه سيعود بعد أربع وسبعين سنة من هذا التاريخ * ونقل بعض أصحاب تلك الصحف أيضا أن أحد المنجمين الاقدمين تنبأ بان العالم بأسره سينقرض نهارا في رابع عشرى نوفمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانائة والاف ميلادية يعنى في ثاني المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية قال وتستمّر الأحوال من هذا التاريخ الى ثامن ديسمبر يعنى سابع عشر المحرم أى مدة خمسة عشر يوما يأتي كل يوم منها بداية دهياء وأن النوع البشرى ينقرض في اليوم السادس من ديسمبر المذكور الذي هو يوم عيد القديس نيقولاوس المجائى عندهم بعد أن يشاهد الكثير من هذه النوازل الطامة اتى منها ثلاثى أسمالك جميع البحار وان يوم البعث والنشور يكون في ثامن ديسمبر بحيث لا يستغرق الا يوما واحدا قال المنتبى ثم يعود بعد ذلك كل الى وظائفه العادية اه قلتم فكان أهل القاهرة عند ظهور ذلك النجم يحيمون الليالى وهم على أسطح البيوت مولولين وكانت لاتعصى لحظة الا ويسمع فيها من يقول قد دنت الساعة وبعد أيام كذا تقوم القيامة ومنهم من ترك أشغاله وتأهب للرحيل الى دار الخلود ومنهم من اقتصر على الصلاة في المساجد ومنهم من باع حلى امرأته واشترى له قبرا وكانوا يقضون اليوم في بيوتهم وهم يضربون بالعصى على بعض أواني الخحاس ويضجون ويهجون ويقولون بالطيف بالطيف فإذا سألهم سائل عن ذلك قالوا الناس تتحدث به وهذا نجم الذنب ظاهر للعيان * وقد اعتقد الناس أنه دليل صحيح على حدوث أمر خطير في هيئة الحكومة أو كرسى الخلافة والولاية وغير ذلك * وكان مما زاد أهل البلاد خوفا وتطيرا ارجاف الضباط الذين كانوا يجوبون البلاد ويلقون بين أهاليها الأراجيف الباطلة والاشاعات الكاذبة ويستفرونهم الى الخروج عن طاعة ولاية الامور ويحضونهم على عدم دفع الضرائب والمكوس لأصحاب الجباية ويوسوسون لهم بان ما كان في البلاد من الضنك والخراب ومحال الارض انما هو من فعال الرئيس وبغضه لالهالى

ورغبته في تسليم البلاد للانجليز حتى صدقوا ذلك وأحلوه محل الاعتبار وعث هذه
الأراجيف البلاد شرقا وغربا فنجح عنها أن كره أهلها سائر الاجانب المستوطنين في البلاد
وطمعت نفوسهم في أموالهم وأرزاقهم فكان اذا استدان أحد دينا من أحد هؤلاء التجار
وحل أجله ماطل وحاول وطالب المهلة فاذا شدد عليه الطالب أنكر الدين وهدد صاحبه
وتوعده بخلاف جميع التجار وانكمشوا وقلت معاملتهم لاهل البلاد ونزع الكثير منهم الى
المدن الكبيرة وقد تبدل ورقهم ورقا حتى تعطل البيع والشراء وبارت الارزاق ومحاصيل
البلاد لتخوف المشترين من الاجانب وتعذرت الجباية وقلت حيلة أصحابها وذهب الأمن
من جميع الجهات وعاث أهل الفساد وكثرت اللصوص فشدد الرئيس على المديرين
ومأموري الحكومة بمراقبة الاحوال ومنع هذه القلاقل وايقاف تيسار الفتنة فلم يفلحوا
لفساد أخلاق العامة وميل أهل البلاد الى الاباطيل والاختذ باقوال الاولياء والمشايخ
والمكاشفين من رجال الوقت وأصحاب الزاوجات التي كان يذيعها ضباط الجند بين
أهل البلاد

مطلب

قيام جند الاسكندرية
بسبب موت أحدهم
بصدمة من عربة
أجنبي

وبينما كانت أفكار العامة في اضطراب وقلوبهم تتقد غيظا من النزلاء ويتمنون لو أنهم
يبطشون بهم جميعا اذ حدث بمدينة الاسكندرية أن جنديا من مرابطى القلاع كان
سائرا بميدان المنشية فصدته عربة لاحد النزلاء فسقط ميتا في الحال فرآه بعض رفاقه
فأسرعوا اليه وطلبوا سائق العربة فلم يجدوه وكان كمن قس في الماء أو عرج به الى عنان
السماء فحملوا جثة رفيقهم وساروا بها الى سراى رأس التين وخلفهم الخلق الكثير من
السوق والغوغاء وهم في صباح وجلبنة فاذا مروا بأجنبي أو سمعوه شتما وسبا وتهديدا وكثر
صياح الغوغاء وتحطفهم الاشياء من حوانيت الناس لخفاف الناس العاقبة وأغلقت حوانيتهم
وشاع الخبر فتلاحق هؤلاء الجند نفر من أصحاب الشرطة يريدون أخذ الجثة منهم فأنعوا
وأبوا إلا الصعود بها الى مقر الخديو وما زالوا سائرين بين صياح العامة وولولة النساء
حتى دخلوا حوش رأس التين ووضعوا جثة رفيقهم تجاه مجلس الخديو وصاحوا
نصر الله يا أفندينا ما يحل للنصارى قتلنا في أيامك أمت لنا بصاحب العربة يا أفندينا
نصر الله على أعداء الدين فأشرف الخديو في الحال من الطاق ولاطفهم وهون عليهم
ووعدهم ورسم بحمل الجثة الى دار صاحب الشرطة فصاحوا ما يحل ذلك يا أفندينا
النصارى النصارى تقتلهم جميعا فأرسل اليهم بعض ضباط حرسه يطمنون خواطرهم
ويهونون عليهم فلم ينسكفوا عن النداء والصياح وحضر في هذه الاثناء صاحب الشرطة
ومعه نفر من أعوانه فحملوا الجثة قهرا وساروا بها وخلفهم الغوغاء وجاء الخبر بذلك الى
القاهرة فبالغ الناس فيه وخططوا وخبطوا حتى قالوا انه قد قامت الحرب بين الجند
والطوائف الفرنجية بشوارع الاسكندرية والامر يومئذ على غير ذلك فقد قبض صاحب
الشرطة على رفاق ذلك الجندي وألقاهم في السجن أياما ثم حكموا عليهم بالعقاب الشديد

فلما شاع خبر الحكم عليهم تجرد جند الاسكندرية وأظهروا غاية السخط وعدم الرضا عما أصاب رفاقهم ثم كثرت طوافهم في ذلك اليوم في الأزقة والخارات التي تسكنها الطوائف الأفرنجية فم الخوف جميع سكان الاسكندرية وجاء الخبر الى البارودي فأبلغه للرئيس مصطفى رياض باشا فلم يعره جانب التصديق وظنه فسرية أو هو من أراجيف زعماء العصاة التي ما رخوا يذيعونها للتحويل والارهاب

مطلب
تطواف عبد الله
نديم على أهل
البلاد يستنصرهم
لرجال عصاة الجند

وأوعز في هذا الحين أحمد عرابي بيك الى رجل من أهل البلاد اسمه عبد الله نديم صاحب صحيفة من صحف الاخبار اسمها (التنكيث والتبكيث) أن يجوب الاقاليم القبلية والبحرية ويدعو الناس الى نصره زعماء العصاة ويستفزههم الى طلب تشكيل مجلس نواب للبلاد كما كان على عهد اسمعيل باشا لينالوا بواسطته ما لم يقبلوا على نواله الآن من الرئيس مصطفى رياض باشا وكان عبد الله هذا قوى الحجة فصيح اللسان قوولا سهل العبارات عذب المنطق مقلما مهيجا بذلاقة لسانه وقوة حجته وبيانه قد عرف عادات البلاد وأميل أهلها فطفق يجوب المدن والبنادر والقرى ويخطب في الناس ويقص عليهم حديث أجدادهم وأخبارهم وما ألم بهم من الجور والعسف وما حل بالبلاد على أيامهم من الويل والخراب وكان يصعد على منابر الجوامع ويخطب جهارا وعيناه تذرفان الدمع فافتتن الناس ومال اليه خلق كثير من الاعيان والوجهاء من كل صوب وحذب فلما آنس منهم ذلك كتب محضرا وذكر في عرض عباراته أن أهل البلاد كافة يدعون ولاية الامور ومن يدهم زمام الاحكام الى تشكيل مجلس تكون أعضاؤه من أهل البلاد البحرية والقبلية للذب عن حقوقهم واستخلاصهم من ربى الاستعباد الذي أثقلهم فوقعوا عليه جميعا وسموه المحضر الوطني وعاد عبد الله بذلك المحضر الى القاهرة وسلمه الى أحمد عرابي ففرح به وتفتت عزائم زعماء العصاة فنهضوا الى طلب الشيء الكثير من المطالب وسألوا زيادة عدد العسكر العامل الى ثلاثين ألفا - وجعل زمام الجيش وادارة جميع أموره بيد أمراء الآلات دون غيرهم - وزيادة جاكى العسكر - وتعديل قوانين العسكرية وغير ذلك مما لم يكن للرئيس مصطفى رياض باشا في حساب وكتبوا بجميع ذلك محضرا ورفعوه الى الرئيس على يدى البارودي فخل ذلك ساكنا من قلب الرئيس ولكنه جعل يطاول ويحاول ويتنى البارودي والبارودي لا ينكف عن الطلب ولم تفتله عزيمة وبلغت منه الشدة يومئذ مبلغها قيل فكاشف الخديو على ما خفي من فعال الرئيس وحقق له أن الرئيس انما يعمل منذ اليوم الذي عفا فيه الخديو عن الجند وزعماء العصاة على سبب امتيازات الخديو وازهاب حقوقه الذاتية وأطلعته على كثير من الأمور الخفية التي لم تكن تخطر له على بال قال الراوى فاندش الخديو من ذلك وتزايد قلقه وكاد يظهر للرئيس ما يخفيه من بغضه اليه وحقد عليه ولكنه اعتصم بحبل التأمي ورسم بأن لا تعقد هيئة مجلس الوزراء الا برئاسته وأن لا يقع شيء الا بعد مشورته وأن لا يأتي الرئيس عملا الا بعد التصديق عليه

منه فأجابه الرئيس بالسمع والطاعة ولكنه لم يطق الصبر عليه فكان اذا أطلع الخديو على شيء أخفى عنه أشياء واذا أخبره بأمر ستر عنه امورا والخديو يتغافل ويظهر الصبر والتجمل وبقي الحال على هذا المتوال أياما

مطلب

تقرب البارودى
من المراقب
الفرنسوى وقونصل
جنرال الفرنسيس
وما كان من وراء
ذلك

وتقرب البارودى من المراقب الفرنسوى واستماله فقال اليه وقربه من المسمو سنكوفيتش قونصل جنرال الفرنسيس الذى جاء خلفا للمسيودى رنج المعزول الذى تقدم لما الكلام على أعماله وحوادثه مع الرئيس مصطفى رياض باشا * قال بعض الكتاب وتحابوا وتوادوا فرأوا من الخديو عينا راضية وأذنا صاغية فلم يبق عند الناس من هذا الحين شك فى أن الخديو يدا فى جميع هذه الحوادث وأنه راض عن فعال زعماء العصاة انتقاما من الرئيس للأسباب التى تقدم بيانها واشتدت عزيمة البارودى وتقوت أنصار أحمد عرابى بيك وتقدم البارودى الى الرئيس فى طلب تنفيذ مطالب أمراء الجند التى تقدم بيانها وشدد فى ذلك وألح وهدد الرئيس فكبر الأمر على الرئيس وشكا الى قونصل جنرال الانجليز ما يلاقيه من المراقب وقونصل الفرنسيس والبارودى وزعماء العصاة * قيل فهون عليه القونصل وشدد عزمته وحسن له الاصرار على الاباة * قال بعض العارفين بأساليب تلك السياسة ان القونصل انما أراد بذلك اشتداد الفتنة واستفحال الخلاف فعمل الرئيس بمشورته وأخذ بقوله ومانع البارودى وأغلظ له فى القول فقابله البارودى بما هو أشد وأنكى وأوعز الى زعماء العصاة فقاموا وقعدوا وأكثروا من عقد المحافل واللقاء خطب التهديد على لسان عبد الله صاحب (التنسكيت والتبكيت) وكثر الاخذ والرد بين الرئيس والبارودى وكام قناصل الدول الخديو فى ذلك فأرسل الخديو فى سادس عشر رمضان يستقدم الرئيس وجميع الوزراء الى الاسكندرية فساروا اليه وانعقد مجلسهم فى ساعة وصولهم فكلهمم الخديو فى أمر ذلك الخلاف وحذرهم من الفتنة وحركة الجند وعرض بذكر أعمال الرئيس وتجاوبه وحطه من مقام الخديو وقال لا بد من تنزيل الوزراء وخلعهم جميعا وأن يتقلد هو رئاسة المجلس ويتولى النيابة الوزير محمد شريف باشا كى تحمد ناره هذه لفتنة وترجع الامور الى سابق مجراهاا وشدد فى ذلك وعنف الرئيس * قال الراوى لهذا الخبر فتغيرت عند ذلك أحوال الرئيس واصفر لونه وقال لست بمخل عن منصبى ولا أبا بمنزل نفسى وفى بقية من الرمي بل ان أعترف بما يطلبه الخديو من تقليده نفسه رئاسة مجلس الوزراء فأجابه على ذلك البارودى وجعل يؤنبه ويعدد معايبه ويذكر للخديو ما ينويه الرئيس من سوء البلاد وأهلها فكثيرينهم الأخذ والرد واشتد اللدد فتجلبج الرئيس وضعفت حجته وفاز البارودى أوكد فكبر الأمر على قونصل جنرال الانجليز وقد كان حضر مجلسهم وهم يحتاجون فأنصر للرئيس وبالغ فى الدفاع عنه فكثرت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وأظهر البارودى ثباتا وحزما وتقدم الى الخديو فى قبول تنازله عن منصبه وألح على الخديو وتراعى على أقدامه وقال والله ان يجمع بينى وبين رياض باشا مجلس فأجابه الخديو الى ذلك ورسم

في الحال بتقليد الامير داود باشا ابن الامير أحمد باشا يكن منصبه ثم انفض مجلسهم على ذلك في نحو الساعة السابعة عرّبي من تلك الليلة وفي النفوس ما فيها * وفرح الرئيس مصطفى رياض باشا بخلع البارودي وطن انفصال أصحاب الحركة وانصرام حزمهم فقرب اليه الامير داود واستحثه على عدم التهاون حتى بصغار الامور فشدد الامير على صغار الضباط ومنعهم من الاجتماع ليلا في بيوت بعضهم وحرر بذلك منشورا وأوعده كل من يخالف بالتبعية الى أقاصى السودان فلم يرتدوا وظلوا على ما هم عليه من الخروج ليلا وتطواف بعضهم على بعض فأنفذ الى الدراملى صاحب شحنة القاهرة بالقبض على كل من يراه منهم ليلا فطاف الدراملى ليلا ونهارا فلم يفلح اذ كانوا يتهدونه ويتوعدونه بالقتل وكان اذا هم بعمل شئ علموا به قبل الشروع فيه وسدوا عليه جميع أبوابه فلما أعيته الحيل فمارض وطلب التخلي عن منصبه فأنزلوه وولوا مكانه عبد القادر باشا أحد أمراء الجند على عهد اسمعيل باشا فتدبر وجعل يكثر من التطواف والتشديد ولكنه لم يفلح أيضا اذ عصاه أصحاب الشرطة ونفذوا كلمته وعكسوا عليه عمله وأفسدوا تدبيره وانهمم بضباط الجند به انما يطوف حول دار أحمد عرابى ليفتك به وأذاعوا ذلك بين العامة فحدثوا به وخطبوا وخطبوا فخاف عبد القادر باشا شر العاقبة ولازم بيته أياما بحجة أنه مبطون وكالم الأمير داود الرئيس مصطفى رياض باشا في ذلك فاستعظم الامر ولم يطق الصبر على حر هذا الجرح ورسم بالتشديد وعدم المكف عن التهديد حتى يرجعوا صاغرين

وبينما الناس في شاغل بالحوادث المترددة والبلايا المترسلة اذ ظهر أيضا نجم جديد من ذوات الذنب ولم يكن غاب النجم الاول غير أنه صار ضعيف الضوء لا يكاد ينتظر الا بالجهد وكان هذا النجم الجديد صغيرا لا يتجاوز الست درجات ولا يظهر جدا لشدة ارتفاعه في الشمال الغربى بأسفل الدب الاكبر ومع ذلك فقد كان ينتظر في نحو الساعة الثالثة عرّبي ليلا الى بعد نصف الليل بساعة فلما رآه الناس عادوا الى التخوف والتطير وجعلوا يحيون اللبالي على الاسطحة ورؤس الجدران يرصدونه وهم في ضجة وولولة وابتهاال الى الله أن يرفع عن البلاد وأهلها ما يستقبلها من الخطوب وكان ظهور هذا النجم في خامس عشرى رمضان من السنة أى سنة ثمان وتسعين ومائتين وألف هجرية

فلما كان سابع عشرى وردت الاخبار من عامل السودان بظهور رجل كذاب يدعى أنه المهدي المنتظر على رأس القرن الثاني عشر من الهجرة الحمديّة واسمه محمد أحمد وكان سبب ظهوره أنه لما سار جماعة من العسكر السودانى بمديرية آيا الكائنة بالنيل الابيض وهى مستنقر المهدي المذكور ليأتوا به الى مقر الوالى وقد تنبه على مقدمهم بان لايسير اليه الا ومعه قاضى بلدة الكوة فلم يأخذ معه القاضى وسار بعسكره في الساعة الثالثة ليلا فلما قربوا من مقر المهدي وجدوا عنده زهاء المائتين من الدراويش مزججين بالرماح

مطلب
ورود الخبر من
عامل السودان
بظهور كذاب يدعى
المهديّة

والبنادق فأوعز مقدم العسكر الى العسكر بان يطلقوا النيران على أولئك الدراويش ليمزقوا
جمعهم فامتنع العسكر من ذلك وقالوا لانضرب قوما فقراء ولا نقاومهم لانهم من الدراويش
فأحسن الدراويش بهم فركبوا عليهم وأعلموا فيهم القتل بحد السيف فقتلوا نبيا ومائة
عسكري وستة من الضباط وفر من بقي والتجأوا الى النيل * ولما رجع أصحاب المهدي
اليه ظافرين اشتد ظهره وتقوت عزيمته وبث الدعاة في البلاد فلبى دعوته كثير من البقارة
وأهالي الجبال وكثرت لمومه فعبر بهم الى الجانب الغربي وظهر من هذا الحين أمره وعلت
كلمته ثم دخل بلدة حبال نفلى إحدى بلدان مديرية كردفان بأراضي البقارة وجعل بها
مقره وطير الخبر الى الآفاق يدعو الناس الى طاعته ويستحثهم على الخروج عن طاعة
الكفرة المحدثين فجمع الوالي عند ذلك لقتاله جماعة من الباشيبوزق والجند وسيرهم الى فاشوده
ليسيروا منها غربا والوالي يومئذ رؤف باشا وأرسل الى القاهرة في طلب المدد من الرجال
ومعدات الحرب فسر الرئيس مصطفى رياض باشا بذلك وظن بلوغ المأمول ورسم الى الامير
داود بان يسير اليه طائفة من مرابطي قلعة الجبل وأخرى من جند أحمد عرابي بك النازليين
بالعباسية فأحسن زعماء العصابة بما وراء ذلك فبشوا أعوانهم بشيعون تكذيب خبر الفتنة
بالسودان ويقولون انها مناوشات بين البقارة وسكان الجبال لا بد منها عند خروج أصحاب
الجباية لجمع الخراج فشدد الامير داود في طلب خروج العسكر والمعدات فامتنع كبارهم
وبالغوا في الامتناع وتجرد عبد الله صاحب (التنكيت والتبكيك) للذب والدفاع وكثر
بين الفريقين الاخذ والرد فحكم الرئيس مصطفى رياض باشا المستر مالميت قونصل جنرال
الانجليز في ذلك واستعان به فأعانه وتقدم الى الخديو في طلب صرف جميع الجند الى أوطانهم
علها تسقط كلمة أحمد عرابي ويذهب نفوذ زعماء العصابة فرسم الخديو بذلك الى الأمير
داود فجمع الأمير داود كبار الجند من جماعة الشراكسة وكلمهم في الامر فأجابوه بالسمع
والطاعة ولكنهم لم يفعلوا حيث رأوا من صغار الضباط غاية الممانعة والرفض فعملوا على
استرضائهم فلم يتمكثوا وكان الامر على غير ما يريدون * فلما أعييتهم الحيل وكاد يخيب منهم
الرجاء والامل كتب الأمير داود مرسوما في ثالث عشر شوال الى جميع طوائف الضباط
ينهاهم عن الاجتماع ويحذرهم من شر العاقبة وطاف في ليلة تحريره ذلك المرسوم على بيوت
الضباط ليرى ما سيكون من أمرهم فرآها غاضة بجماعهم وهم في هرج وجلبة فأصبح وقد
كتب اليه عبد العال بيك أمير الجند السوداني يطعن في مرسومه ويعيب قوله ويرى الهيئة
الحاكمة بالجور والعنف ويقول ان هذا النهي مما لا يصح الامتثال اليه اذ هو مخالف
للقوانين العسكرية واردة أمير البلاد ومقتضيات الملة الخفيفة وأن تعاضد الجند واتحاد
العسكر في أمورهم وتقوية عزائمهم بالتزاور وتألفهم وتجميعهم في أعمالهم كل ذلك عنصره
القوة والنظام العسكري في كل أمة وملة ولا سبيل الى النهي عنه فاستعظم الأمير داود
هذا الجواب وأكبر ما فيه من الغلظة والتعنيف وقام من ساعته وسار الى قصر النيل وجمع

ضباط الفرسان المربطين هناك وجعل يستميلهم ويمنهم بالاماني العظيمة وما زال بهم حتى استمالهم واستمال كذلك ضباط فرسان قلعة الجبل وكان قبل هذا الحين قد استخلف ضباط الالاي الخامس النازين بمدينة الاسكندرية وضباط الحرس الخديوي وظن اخلاصهم والاعتماد عليهم عند الحاجة فلما تم له ذلك رسم الى أحمد عرابي بالقيام بجميع عسكره الى مدينة رشيد والى جند قلعة الجبل بالقيام الى دمياط وأنفذ الى مقدم جند دمياط أن يأتي بعسكره الى مدينة الاسكندرية والى مقدم جند الاسكندرية بالحضور الى القاهرة عند انحدار جند أحمد عرابي وجند قلعة الجبل الى رشيد ودمياط * فلما وصل مرسوم الامير داود الى مقدم جند القلعة بالانحدار الى رشيد وكان ممن لا يميلون الى أحمد عرابي وأصحابه جمع الضباط الذين معه وتلاميذهم المرسوم واستحثهم على التأهب للخروج مع العسكر الى رشيد فقالوا لا نخرج فراجعهم فغضبوا وانحدروا جماعة منهم وأعلنوا زعماء العصاة بما جرى فخافوا العاقبة وجعلوا في الحال جميع ضباط الجند الذين بالقاهرة وطرا والعباسية في معسكر الحرس الخديوي وقام فيهم أحمد عرابي خطيبا فشكى من فعال الأمير داود وبأنه في الشكوى وعظم البلوى وأطال الكلام عن الاتحاد والتعاضد وما فيهم من الخير والامن على الارواح ثم استخلفهم جميعا على السيف والكتاب بأن تكون ارواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الاعداء والاحتراس على موارد ابراده من أيدي الطمع وبأن يكونوا جميعا على قلب رجل واحد ثم أعلمهم بأنه قد اجتمعت الكلمة على تسليمه زمام الزعامة وأن يكون المرجع في كل الامور اليه * وانقضى مجلسهم فكتب أحمد عرابي بيك الى الأمير داود يقول قد تحقق لنا واموم ضباطان الجهادية وأفراد العسكر صدور أمرهم الى الالاي السادس بالتوجه الى الاسكندرية بدون باعث ولا سبب يقتضي ذلك ولكن علمنا أن المراد تفريق القوة العسكرية ليسهل الانتقام منا والتمسك من الغدر عن هم محافظون على الطاعة والاخلاص ولا نذب لهم سوى طلب اصلاح فليكن معلوما لدى سعادتكم أننا لانسلم أنفسنا الى الموت وأن كافة الالايات ستجتمع يوم تاريخه في الساعة التاسعة نهارا ببيدان عابدين للنظر في حل تلك المسائل بحيث ان هذه الالايات لا تنحرك من موضعها الا اذا حصل التأمين الكافي لمن قانون عادل يوقف كل انسان عند حده وسنشعر وكلاء الدول الاجنبية بما يلزم اه ينصه

وكتب الى قناصل الدول أيضا يقول أتشرف بان أحيط علم جنابكم أنه من أول شهر فبراير سنة احدى وثمانين أى من وقت ابتداء الفتنة التي أحدثتها عثمان وفق باشا الى الآن قد مضى فوق السبعة أشهر وفي كل هذه المدة تقاسى العسكرية أنعابا وتحمل مصائب وفوازل وتهديدات وتوقع القتل والاعدام غدرا وخديعة ومن هذه المصائب حادثة يوسف باشا كامل وكيل الخضر الخديوية ونزالة فرج بك السوداني وواقعة التسعة عشر ضابطا الذين كانوا يدسون الدسائس ❀ قلت وهاتان الحادثتان لم أذكرهما لعدم أهميتهما

مطلب
كيف كان اجتماع
العسكر ببيدان
عابدين وما كان
من وراء ذلك

يومئذ ❀ ونحن مع كل ذلك نسعى في تحسين الحال وقطع المفساد بالحكمة والتدبير رغبة في الحصول على الراحة العمومية وحقق الدماء والمحافظة على كافة تبعة الدول المتحابة ومن وقت أن تشرفت مصر بالحضرة الخديوية أخذت الفتن والدسائس تزداد إلى أن شرع في تجرئة الجيش المصرى وتفريقه تسهيلا للغدر والانتقام فلهذا التزمنا بالمحافظة والمدافعة عن أنفسنا وأعراضنا إلى أن يأتينا أمر دولتنا العلية الذى يترتب عليه حفظ بلادنا ومن فيها وقد دعت الحالة إلى تحرير هذا الجناحكم لتعلموا باننا متمسكون بالمحافظة على حقوق التبعة الاورباوية واقبلوا مزيد الاحترام اهـ

فلما وقف الأثير داود على ما فى خطاب أحمد عرابى بيك تكدر وقام من فوره ودخل على الخديوى بعابدين وكان الخديوى قد عاد من الاسكندرية منذ أيام وحدثه بخبر تحزب جميع الضباط وما فى خطاب أحمد عرابى بيك فسير الخديوى فى الحال فى طلب الرئيس مصطفى رياض باشا وجميع الوزراء وبينهم المستر كولفن المراقب الانجليزى لغياب ماليت قونصلهم الجنرال فحضروا فعقد مجلسا وتناجوا فى الامر طويلا وكثر بينهم الاخذ والرد فأوقعوا اللوم على الرئيس وعابوا عليه جميع أفعاله وبينما هم على هذه الحال اذ حضر من يعلم الخديوى بان حرس سراى القبة التى هى مقر نساء الخديوى قد انضموا إلى عسكر العباسية وتركوا مراكرهم فظهرت عند ذلك على وجوه جميع الحاضرين علامات الدهشة والخوف واشتد بهم القلق وانفض مجلسهم على ما لم تصل اليها معرفته إلى الآن ❀ وفى نحو الساعة السادسة نهرا عاد الرئيس مصطفى رياض باشا ومعه سائر الوزراء فعقدوا مجلسهم ثانية وتكلموا فى الامر وبينهم كولفن المراقب الانجليزى فتقدم كولفن إلى الخديوى فى ابلاغ الميسوسنكوفيش قونصل جنرال الفرنسيس بخبر هذا الحادث اذ كان فى هذا اليوم بمدينة طنطا فرسم له بذلك فغاب كولفن ساعة ثم عاد فأعلمه الخديوى بان جنود الحرس وجند الأتلاى الثانى على قدم الاستعداد لارغام جنود أحمد عرابى وارجاعهم إلى الطاعة وانه على عزم الذهاب ومعه جميع الحاضرين إلى معسكر الحرس لتحقيق صدقهم واخلاصهم فساروا جميعا إلى المعسكر وبرز لهم الخديوى ووقف فى وسط الضباط وسألهم الطاعة فصاحوا جميعا بكلمة الاخلاص وهتفوا بالدعاء له فسار هو ومن معه إلى قلعة الجبل ودعا إليه رضا باشا مقدم العسكر النازلين بها ورسم اليه بأن يسير إلى أحمد عرابى بك من يخبره بأن لا يتحرك بجندته ولا يأتى إلى ميدان عابدين بشئ من المدافع وفى هذه الاثناء حضر المستر كوكسن كاتب المستر ماليت قونصل جنرال الانجليزى فقص عليه كولفن تفاصيل الحادثة فنزل من فوره من القلعة وبعث بها إلى عاصمة الانجليز على جناح البرق ولما صار الخديوى ومن معه فى جوف القلعة اجتمع حوله جميع الضباط وأظهروا له كمال الطاعة وحسن الولاء والاخلاص ودعوا له ثلاثا ثم نادوا بالويل والنبور على الرئيس مصطفى رياض باشا ورفاقه وطلبوا خلعهم من منصب الرئاسة عاجلا فقال الخديوى

ما السبب في نبذكم للأوامر فقالوا حاشا أن نخالف لأميرنا أمرا ونحن عبيده المخلصون
 في طاعته فالتفت الى ابراهيم بك حيدر مقدمهم التفات الاستغراب فقال ابراهيم بك لم
 يكن من سبب لنبذ الاوامر سوى اغراء فوده حسن هذا البيكباشي وأشار اليه فتقدم
 نحوه الرئيس مصطفى رياض باشا وأمسك بأطواقه وجذبه اليه وقال له أمثلك من يعصى
 أمير البلاد ويمانع في اجراء ما أشارت به الهيئة الحاكمة فلما فعل به ذلك نفخ أحد أصحاب
 البوق على الجند ونادى ضعوا الحراب ضعوا الحراب فأسرعوا جميعا ووضعوا حراهم على
 أفواه البنادق وأحاطوا بالخدوي ومن معه احاطة السوار بالمعصم وكثر ضجيجهم واشتدت
 جلبةهم ونادوا أطلق ضابطنا أطلقه نخلى عنه الرئيس وقد ظن أنه مأخوذ على رؤس
 الحراب فالتفت الخديوي الى الجند وقال ألسن خديويكم وولى أمركم قالوا بلى قال هل
 تأخر لاحد منكم راتب أو تعيين أو كسوة حتى جهزتم بهذا العصيان وفعلتم ما أنتم فاعلوه
 قالوا والله إنما مطيعون لك لا نخالف لك أمرا وأنت أميرنا وولى نعمتنا ولا نريد سوى خلع
 الرئيس وتبعيده عن خدمة البلاد فتركهم عند ذلك الخديوي والتحدر والتحدر من كان معه
 على عمل * قيل وبينما هم متحذرون أشار الرئيس والمستر كولفن على الخديوي بأن يتحدر
 الى عابدين قبل أن يصل الى ميدانها أحمد عرابي ومن معه من الجند فامتنع وأصر على
 الذهاب الى العباسية على غير الطريق المسلول حتى انقطع عنه بعض فرسان حرسه وقد
 غطي الغبار وجهه ولحيته وأبتلت جميع ملابسه بالعرق فوصل العباسية في أقل من ساعة
 ودخل محلة الجند فلم يرفها ديارا ولا نفاخ نار قيل فطرق كفا على كف وكر راجعا الى
 عابدين * وأما أحمد عرابي بك فانه لما صارت الساعة الثامنة عربي نهارا نادى فتنفخوا
 في البوق واصطف الجند وحملوا بنادقهم وساروا من العباسية فتبعهم أصحاب المدافع يجرون
 اثنين وعشرين مدفعا من الطراز الكبير وكان قيامه بهذه العساكر والاجناد من العباسية
 في نفس الساعة التي دخل فيها الخديوي قلعة الجبل فقد أرسل اليه ضباط القلعة يعلمونه
 بوصول ركب الخديوي اليهم وكذلك أرسلوا الى عبد العال بك مقدم الجند السوداني
 بمسكركه بطرا فتحرك في الحال عبد العال بمجنوده وركبوا قطار سكة حديد حلوان ونزلوا
 بميدان محمد علي ثم صعدوا الى قلعة الجبل ليقبضوا على جميع الوزراء وياقوهم في سجن
 القلعة وفي رواية ليقبضوا على الخديوي وعندى أن الاول أصبح فقد أكد بعض العارفين
 أن الخديوي كان على اتفاق مع زعماء العصاة الى هذا الحين فلم يكن من موجب اذن
 للقبض عليه ولما لم يجدوا أحدا بالقلعة كروا راجعين الى رجة عابدين فالتقوا هناك بجند
 العباسية والفرسان وأصحاب المدافع فتقدم عبد العال بك الى حيث أحمد عرابي وبقيصة
 الضباط وتعانقوا ثم تصالحوا وتصاروا لخطه ثم وقف كل في مقدمة مسكركه وسيفه بيده
 مسلول وقد اجتمع حولهم من العامة ما لا يحصر عدده من النساء والرجال والصبيان وما وصل
 جند عبد العال بيك حتى نفخ البوق نفخات متتابعة فعلت الضوضاء عند ذلك وكثر صياح

العامه وارتفعت أصواتهم بالاستغاثة وتراحوا وترأى بعضهم فوق بعض نظنا منهم أن البوق انما يدعوا الجند الى اطلاق قنابل المدافع على المدينة وقد كان صوت البوق ينادى جند الحرس الخديوى للخروج من معسكرهم فخرجوا في الحال يحملون البنادق والحراب ومروا بين الصفوف ودخلوا السراى وأمامهم مقدمهم على بيك الديب وأحاطوا بالسراى من كل صوب ودرب يمنعون الناس من الدخول منها وهم فى غاية الهدوء والسكينة * أما الخديوى فله لما وصل الى رأس الطريق الموصل الى ميدان عابدين ورأى الميدان غاصا بالجند والخيال والمدافع والخلق الكثير من العامه وهم فى ولولة وخوف عرج الى طريق أخرى ودخل السراى من باب صغير أمام الجناح الذى بالجانب القبلى من السراى وكان معه فى مركبته كولفن المراقب الانجليزى وخلفه الجنرال أستون باشا وثلاثة من الضباط فنزل وسار نحو الباب الغربى الموصل الى الميدان حيث الجند والخيال فتقدم اليه فى الحال رضا باشا وأعلمه بان جند قلعة الجبل قد انضموا أيضا الى المتظاهرين ولم يسمعوا لمقدمهم كلمة فالتفت كولفن الى الخديوى عندئذ وقال اذا تقدم نحوك أحمد عرابى فأمره أن يرد سيفه الى غمده ويتبعك فاذا فعل تقدم أنت الى رأس كل فريق من الجند ومعه بالانصراف فقدم الخديوى بقلب ثابت وشهامة كبرى وسار نحو أحمد عرابى وعبد العال وأشار لهما بالسلام فسلما بالاحترام والتجسلة والوقار فقال لهم مالكم قد نبذتم طاعتي وعصيتم أمرى فقالوا حاشا نحن عبيدك المخلصون فقال انصرفوا وسأبذل جهدي الاستطاعة فى تحسين أحوال العسكرية وتنظيم قوانينها على قواعد ثابتة فأجاب أحمد عرابى انى واخوانى وجميع ضباط الجيش وأفراد العسكر خاضعون لك يامولاي وكفى لانبرح من هذا الموقف حتى تنجز لنا ما طلبناه فقال له الخديوى ردت سيفك الى غمده فأجاب «معاطاة وناول الخديوى ورقة وقال هذه يامولاي ملحقه بمقترحات الوطن وبنية فأخذها الخديوى وقفل راجعا الى السراى ولم يأمر أحمد عرابى أن يتبعه ليقبض عليه ويطرده فى السجن كما أشار بذلك المراقب الانجليزى فلم يقتحم الخديوى الدرج حتى جاءه من يقول ان جند الحرس انضموا أيضا الى المتظاهرين فقطب وجهه وصعد الى مقره فلما استوى به المقام أمر ففعلوا هيئة مجلس الوزراء وتليت عليهم مقترحات ضباط الجند فكانت - أولا عزل جميع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى يرأسها الوزير محمد شريف - ثانيا جعل عدد العساكر العاملة ثمانية عشر ألفا طبقا للفرمان الصادر فى شأن ذلك - ثالثا تشكيل مجلس نواب البلاد على ما كان عليه فلما طرق أذن الرئيس مصطفى رياض باشا طبل هذا الكلام كاد يتهيز غيظا وقال كيف يحل لهم طلب خلع الوزراء كافة والوزراء خدموا البلاد وأخلصوا فى خدمة أبنائها لاسيما وهم اليوم مؤيدون بتصديق دولتى الانجليز والفرنسيين فلا يصح التعرض لهم بشئ البتة الا بعد استشارة الدولتين فقال الخديوى وأنا أرى أيضا ان الوزير محمد شريف باشا لا يريد أن تكون له الرئاسة على هيئة تكون كالألة الصماء فى أيدى

الجند أما من جهة مجلس شورى النواب فلا اختصاص لعصابة الجند بطلب تشكيله وكذلك جعل عدد العسكر العاميل ثمانية عشر ألفا مما يشغل حله على عاتق الخزينة وليس في الامر الآن ما يستلزم هذه الزيادة * فكثر عند ذلك الاخذ والرد بين الوزراء والخديوى وعلت بينهم الضوضاء وتنوعت الاغراض وتفرقت الالهواء وعلا صوت الرئيس مصطفى رياض باشا وأقسم انه لا يخلع نفسه وفيه بقية من الحية فعنفه بعض رجال ديوان الخديوى وقالوا له انك أنت محدث هذه الثورة وموقد نار هاته الفتنة وكأنك تعمل على خلع شخص الخديوى لغاية في نفسك فاعلظ عليهم في الرد وشدد في الامتناع فراجع الخديوى فامتنع أيضا فقام عند ذلك المستر كوكسن نائب قنصل جنرال الانجليز لسأل أحمد عرابي بيك عن رغبته وكان أحمد عرابي واقفا وحوله كتيبة من الجند تحرسه على شكل قلعة فدنا منه المستر كوكسن وقال * قد تقرر خلع الوزراء الآن ولكن لا يتقرر تعيين بدلهم حتى تصرف جميع الجند وتفرض هاته الجوع المجتمعة حولهم فصاح عند ذلك جميع الضباط ونادوا نطلب الوزير محمد شريف باشا * الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن ويحكم اني أرى أن الاجل صرف الجند الساعة والا كنتم سبب ضياع وطنكم وعبالكم فان الخليفة أمير المؤمنين ودواتي الانجليز والفرنسيين لا يرضون عن جعل حكم هذه البلاد في قبضة جنودها انصرفوا فصاح الضباط ثلاثا نطلب الوزير محمد شريف باشا فرجع كوكسن الى مقر الخديوى وغاب برهة لطيفة ثم عاد وقال ان الخديوى رسم باحالة نظر هذه المشكلة على دار السلطنة فلا يعمل فيها عملا حتى يأتيه الاذن من أمير المؤمنين فاصرفوا الجند وفضوا هذا النظاهر فقال أحمد عرابي بيك أما احالة نظر هذه المشكلة على دار الخلافة الاسلامية فلا بأس به وأما صرف الجند فلا سبيل اليه قبل أن يعطى لنا الخديوى أمرا قاضيا بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحابه واقامة الوزير محمد شريف باشا بدله فقال كوكسن ان كنت تخشى شيئا من انصراف الجند فانا كافل لك أنت ومن معك حفظ أرواحكم وعبالكم وأموالكم وجميع مالكم من الرتب وألقاب الشرف فضحك أحمد عرابي وقال بورك فيك كيف تكفل لنا حفظ أرواحنا وأموالنا وعبالنا وأنت غريب نازل ببلادنا التي هي في حفظ وحراسة هؤلاء الجنود الساهرين على حفظ أرواح سائر الاجانب وصيانة أموالهم وأعراضهم وكيف يكون لك ذلك وأنت فرد من الانجليز ولا أظنك تجهل أن دولتي الانجليز والفرنسيين مع تكفلهما معا بحفظ حياة الوزير اسمعيل صديق باشا لم يدفعنا عنه حرارة تلك الكاس التي شربها قهرا فعند ذلك سكث كوكسن وعاد الى المجلس ولم يعد ثالثة الا ومعه كولفن المراقب وخيري باشا الممهدار وبيد خيري باشا مرسوم الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا بتوليته منصب الرئاسة وتشكيل هيئة الوزراء على ما يشاء * فلما دنوا من موقف أحمد عرابي أخذ القواصل المرسوم ودفعه الى أحمد عرابي وقال ها هو ما نطلبه فأعطه بيده الى الوزير محمد شريف باشا وهو الجند بالانصراف وقد خرج من مجلس الخديوى من يستدعي أحمد عرابي

مطلب

خلع الرئيس مصطفى
رياض باشا وما كان
عند ولاية الوزير محمد
شريف باشا

للمشول بين يدي الخديوي قد دخل أجد عرابي الى المجلس وغاب برهة ثم عاد فأمر صاحب البوق
فنفخ فيه تباعا فصاح الجند جميعا بصوت واحد (أفند من جوق باشا) ثلاثا فظن الناس عند
ذلك أن قد قامت الحرب على ساقها ولم يبق الا طاق المدافع فترا محوا وارتفعت أصواتهم
بالصياح وتساقط بعضهم فوق بعض وكثر بكائهم فنفخ البوق ثانية وثالثة فسار أولا جند
عبد العال بيك الى ناحية طرا ثم جند قصر النيل ثم جند العباسية وكان في مقدمة جند
العباسية كوكبة من الفرسان ثم أخرى من المشاة على شكل قلعة وفي وسطها أجد عرابي بك
وخلفه جماعة من الضباط يحملون السيوف ثم بقية المشاة ثم أصحاب المدافع وخلفهم
نساء العامة والسوقة ومن يزغرتن ويغنين الاغاني الريفية ويصن في كل لحظة ويقن
الله ينصرله يا عرابي يا سند الولايا الله ينصرله

وسير الخديوي في الحال بعد انفضاض الجميع خبر هذا الحادث الى دار السلطنة فأناه الجواب
من صدر الدولة يستحبه على استدراله الخطب قبل استفحاله وأرسل في نحو الساعة الخامسة
ليلا الى الاسكندرية يستقدم الوزير محمد شريف باشا وقد كان بها منذ أيام فقام من محطة
الحضرة في قطار مخصوص هو وآل بيته وخدمه وحشمه وأتباعه فوصل القاهرة في فجر
السبت سادس عشرى شوال ودخل على الخديوي ولبت بحضرته طويلا ولم يحدث في تلك
الليلة شيء مما كان يتوقع الناس حدوثه من العامة وزغائف الفرنجة فقد كان أصحاب الشرطة
ساهرين يقظين والعسس يكثر التطواف في الأزقة والحارات وأصحاب الدركات ينادون بعضهم
على بعض تباعا ورتب أجد عرابي بك جماعة من الجند يطوفون ويعنعون العامة من التجمع
في الطرق والفهاوى على عاداتهم وألبس كثيرا من صغار الضباط ملابس العامة فكانوا يرون
بين الناس لاستراق السمع واستطلاع الحوادث وأصبحوا والناس في فرح ماعليه من مزب
وقد سر أصحاب الوظائف ورجال الدولة بخلع الرئيس مصطفى رياض باشا وذهب الوزير محمد
شريف باشا الى مقر الخديوي بعابدين وعقد مجلسا حضره جميع قناصل الدول الكبرى وبعض
قناصل الدول الصغرى وكان بعضهم في هذا اليوم في الاسكندرية وبعضهم في طنطا وحضر
في هذا المجلس أيضا مقدمو العسكر فشكلم الوزير محمد شريف باشا في طلبات زعماء الجند
وتباحثوا كثيرا فعلق الوزير قبوله منصب الرئاسة على خلع أمراء الالايات الثلاثة من مناصبهم
وأنه يكفل لهم الذب عن جميع حقوقهم الذاتية ولسائر الجند بنوال العضو عما فرط ولزوم
انسحاب جند العباسية وطرا الى رأس الوادي ودمياط فلم يرض مقدمو العسكر بذلك
وقالوا انما نحن نطلب أن يتولى رئاسة ديوان الجند رجل من أهل البلاد لا شركي
ولا من العائلة الخديوية وأن لابد من ابلاغ عدد الجنود العاملة الى ثمانية عشر ألفا
وأن يشكل مجلس شورى البلاد كما كان على أيام الخديوي اسمعيل باشا فطالب بينهم
الاخذ والرد وكثرت الضوضاء ثم انفض مجلسهم على غير طائل وشاع الخبر بما كان
فتطير الناس وخافوا وكثرت الاراجيف وتنوعت الاشاعات فمن قائل ان مراكب حزب

الانجليز والفرنسيين آتية الاسكندرية لاختضاع زعماء الجند وارجاعهم الى الطاعة ومن
 قائل لابل ان عسكر السلطان صارت على مقربة من العريش وهي آتية لمعاونة زعماء
 الجند وتقرير جميع مطالبهم واشتد اللغط وكثر تساؤل الناس بعضهم لبعض وأصبحوا
 فأرسل الخديوي الى الوزير محمد شريف باشا يلج عليه بقبول منصب الرياسة وتوسط في ذلك
 أيضا قناصل الدول فامتنع وقال لاسييل الى ذلك حتى تنسحب جميع العساكر الى رأس
 الوادي ودمياط وينزل أمراء الجند الثلاثة عن مناصبهم فانقسم الناس في أمره يومئذ
 الى فريقين فريق كان يصوب آراءه ويستحسنها غاية الاستحسان مشيوا بذلك الى عزة نفسه
 ونزاهتها عن الاغراض الذاتية التي تصعب عادة تلك المناصب العالية مع حبه الزائد للوطن
 وفريق كان يرى أن حب الوطن مفضل على كل شيء فكان عليه أن يابي الداعي ويأخذ
 بأطراف الحزم مع أجل المساعي فيفض المشكلة بحكمته المشهورة وينفذ البلاد وأهلها من
 البلايا التي وقعت فيها وكان لكل من الفريقين دليل وبرهان وعندى أن القول الثاني
 أفضل وقد ظن بعض الناس أن تردده في قبول منصب الرياسة مبنى على رغبته في اقامة
 الوقت والمطاوله حتى تصل الى الاسكندرية مراكب الحرب السلطانية وظن آخرون أنه
 لايقبل هذا المنصب حتى تحصل عقدة المراقبة وينزل المراقبان الانجليزي والفرنساوي
 عن مناصبهما لما بين الوزير والمراقب الفرنسي من الوحشة والنفور * قلت ولم يكن
 الوزير على هذا الجانب من الافراط والتفريط فانه معروف بين جميع أهل البلاد بالنسبة
 عن الاغراض الذاتية مشهور بلين العريكة وسلامة النية فلا تميله الاغراض
 ولا تغير المناصب من أخلاقه شيئا ولا يسير الا على ما يعتقد أن فيه الخير والمصلحة للبلاد
 وأهلها وفوق ذلك فهو ليس بندي طمع مع احدى الدول الطامعة في البلاد كغيره ممن تولوا
 الرياسة ولذلك كان الناس كافة يعتبرونه أبا الامة وأخا الاصلاح ومحبي روح المساواة بين
 صنوف الرعية * ولما طال امتناعه أو عز الخديوي الى قناصل الدول والعلماء والرؤساء
 الروحانيين وعمد البلاد ووجهاء التجار أن يستميلوه الى قبول المنصب ففعلوا وزادوا في استعطافه
 ورفع اليه العلماء وعمد البلاد ووجهائها وأئمة المذاهب ومشايخ الطرق سجلا بأختامهم
 وأسمائهم وهم زهاء الستمائة آلاف ذكرروا فيه أنهم هم كافلون وضامنون طاعة أمراء
 العسكر وجميع صغار الضباط وعدم عودهم الى تكدير صفو الراحة وامثالهم لاشارة
 الوزير وغير ذلك من أقوال اللين والتلطف فلم يسعه بعد ذلك الا القبول وقام من ساعته
 ودخل على الخديوي بقره بالاسماعيلية ولبت بحضرته لحظية ثم كر راجعا الى داره فلقبه
 وفد من مقدمي العسكر ومعهم التماس وقع عليه جميع أفراد الضباط على اختلاف
 درجاتهم فدفعوه اليه فقبله ولا طفهم وأنظروا لهم غاية البشر والايناس وقرأوا اذا هم
 يقولون فيه

نحن ضباط الجيش المصري نعتقد الاعتراف التام في حسن صدقة وغيرة دولتكم وخلص

طويتكم وسلامة نيتكم في خدمة الوطن العزيز والمحافظة على حقوقه والسعي في رفاهية أهله ولهذا ولا نكوننا جميعا بحب تقدم وطننا العزيز فلنتمس من دولتكم قبول مسند رياسة مجلس النظار ونسترحم من دولتكم انتخاب نظار الدواوين ممن يكونون موصوفين بالصفات الحسنة والعرض عنهم للحضرة الفخيمة الخديوية للقيام باعباء خدمة الوطن العزيز واعلانا لصداقتنا وانقيادنا لاوامر الحكومة التي تصدر في صالحنا العمومي قد أمضينا هذه العريضة ونحن على يقين أن تقع لدى دولتكم موقع القبول اه * فما فرغ من قراءة العريضة حتى هان عليه الخطب وخف عنه ما كان يلاقيه ورسم بتشكيل هيئة الوزراء فعين مصطفى فهمي باشا لوزارة الخارجية وحيدر باشا المالية واسماعيل أيوب باشا للاشغال ومحمود باشا البارودي للجهادية والبحرية وقدرى بك للحقانية وأضاف الى مسند الرياسة وزارة الداخلية وكان الفراغ من تشكيل الوزارة على هذا النسق بعد ظهر يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال سنة ثمان وتسعين وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا فرحا لا يوصف واطمأنت قلوبهم بعد الخوف وذهبت عنهم تلك الطيرة ووردت رسائل التهاني على الوزير محمد شريف باشا من كل صوب وحذب وأحسن مصطفى رياض باشا بما وراء تنزيله عن منصب الرياسة لاسباب وقد كثر اللغط وعمت الاشاعة بان زعماء الجند يطلبون محاكمته على ما ارتكبه من الجور والعسف وتخريب البيوت العامرة وتبعيد الكثير من أبناء البلاد الى أقاصى السودان والدارفور بلا موجب نخاف وتقدم الى الخديوي في أن يسرحه بالخروج الى الديار الاجنبية كما فعل عند خلعه على أيام الخديوي اسمعيل فسرحه بشفاعه قونصل الانجليز والمسئور كولثن المراقب فرحل عن القاهرة مساء الثلاثاء تاسع عشر شوال الى الاسكندرية ثم سار عنها في ثاني يوم الى مدينة نيس إحدى مدن بلاد الفرنسيين فكان بين خلعه وارتحاله ثلاثة أيام واحدى عشرة ساعة بالقاهرة وزهاء سبع عشرة ساعة بالاسكندرية وطير الخديوي الخبر بجميع ماجرى الى دار السلطنة بخفاء الجواب في ثالث عشر شوال يهنته بما حصل ويسأله تحقيق الآمال بجعل الوزير محمد شريف باشا يتصرف في الامور بعزمه وحزمه المعلومين وينظر الى مصالح الخلق من أبوابها الحقة * وجاء الى القاهرة العدد العديد من وجهاء البلاد وأعيانها وكبار الاهلين ومعهم عريضتان موقع على كل منهما من زهاء الالف والخمسمائة من عمد البلاد وكبارها احدهما برسم الوزير محمد شريف باشا ومضمونها ان جميع من وقعوا عليها كافلون بانه لا يقع في المستقبل من الجيوش المصرية شئ تأباه الهيئة الحاكمة وانهم فرحون فرحا ما عليه من مزيد حيث تنازل وقبل مسند الرياسة لانهم يعتقدون أن قبوله هذا هو الوسيلة العظمى في اطمئنان الخواطر وسكون النفوس وثانيتها برسم الخديوي ومضمونها طلب تشكيل مجلس النواب حيث انه هو الواسطة الكبرى للاصلاح الذي توجهت اليه آمال جميع الاهلين وكان بين هذه الجوع التي حضرت محمد سلطان باشا أحد وجهاء منية ابن خصيب فوقف وقال مخاطبا الوزير محمد شريف باشا * اني أعرض على مسامع دولتكم

مطلب
قبول الوزير شريف
باشا تشكيل الوزارة
بعد امتناع

أن هؤلاء الوجهاء والنبلاء قد مثلوا بين أيدي مراجعكم ليظهروا ما عندهم من الفرح والسرور حيث تفضلتم بقبول مسند الرئاسة الجليل فانهم يعرفون ما لدولتكم من الميل الحقيقي لاجراء الاصلاح الذي كثيرا ما أملوه ولم يعرضوا أنهم منكفئون بالجيش المصرية الذين هم في الحقيقة أبناءهم واخوانهم وليتمسوا من مكارمكم ما يعلمونه في سمو أفكاركم من بث روح الحرية في البلاد والمساواة بين أصناف الرعية وحيث ان دولتكم على هذه الافكار السامية فهذا الجمع يلتمس من كرمكم بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن اخوانهم الموقعين على هاتين العريضتين أن غدوا اليهم ساعد المساعدة القوي وتسعفوه بما علموه في هممكم من الاقدام وقوة العزيمة وان مساعدتهم على نوال ما طلبوه لا تتحقق الا بان تكون دولتكم الواسطة العظمى في رفع هذه العريضة المتضمنة طلب تشكيل مجلس النواب الى الجانب الخديوي المعظم أعزه الله وليست هذه باول مارآه الناس من حبكم لبث روح الحرية في البلاد فان أفكاركم السامية لم تزل ولا تزال موجهة نحو كل ما فيه الخير والمنفعة لهذه الاوطان اه فاجابه الوزير بما شف عن اخلاصه في مساعدتهم وانه عازم كل العزم على أن يسعى جهده فيما تقدم به البلاد لاسيما في تشكيل مجلس شوري النواب فانصرفوا وطبروا الخبر بذلك الى الافاق فوردت على الوزير في هذا اليوم رسائل التهانى من جميع قناصل الدول وكبار الاجانب والاهلين وأرسل اليه صاحب جريدة التقدم وهو يومئذ بالشام فارا من وجهه مصطفى رياض باشا تاريخا على جناح البرق يؤرخ به عوده الى منصب الرئاسة وهو

فهذه النعمة تاريخها * نصر من الله بفتح قريب

سنة ١٢٩٨ هجرية

وتواردت عليه قصائد التهانى وأبيات المديح من جميع الجهات ترى ووقف بعض الشعراء على بابه * وسمعت شطريبت لاحد أدباء القاهرة يؤرخ به رئاسة المشارليه وكأنه كان يعرض بأعمال مصطفى رياض باشا أيام رياسته ولكنى لم أقف على الشطر الاول وهو

* الدهرح والوزير شريف * سنة ١٢٩٨

ولم يستقر به المنصب حتى جعل ينظر في طلبات الجند من أبوابها فقرر منها قانون الاجازات العسكرية البرية والبحرية وقانون تسوية حالة الضباط المستودعين وقانون معاشات الجهادية البرية والبحرية وقانون القواعد الاساسية الذي يليه قانون الترقى وقانون الضمان والامتيازات والاعانات العسكرية فلما أتمها على الوجه المطلوب رفعها الى الخديوي فصادق عليها ورسم بتنفيذها والعمل بها اعتبارا من ثامن عشرى شوال ففرح الجند بذلك فرحا لا يوصف وسر كبارهم واطمأنت قلوبهم واعترفوا للوزير بالفضل والمنة وكانت هذه القوانين غاية في السهولة والاعتدال لاشئ فيها خارج عن رغائب الحكومة وما تقتضيه حالة البلاد ولم يعلم الى هذا الحين ما الذى حل مصطفى رياض باشا أيام رياسته على تعيينها والامتناع من العمل بها بعد أن رسم بتقريرها فكانت على نحو ما أراد ولولم يقع منه في

أيام رياسته شئ من الجفاء والشدة مع مقدمي الجند سوى اصراره على عدم تنفيذ هذه القوانين لكي يفتى فان أعمال زعماء العصاة كانت لغاية اليوم الذي تقرر فيه هذه القوانين غاية في الخطر والخلل بل هي أعمال صبيان المكاتب ليس فيها ما يوجب الخوف ولا ما يورث القلق وكانت مجردة عن كل حكمة مشوبة بالاغراض التي لا بد وأن تفضى بصاحبها يوما الى الوقوع في الهلكة وكان عقلاء القوم يعرفون ذلك جيدا فلما رسم مصطفى رياض باشا بتقرير تلك القوانين ثم عاد فامتنع من العمل بها كان مثله في ذلك كمثل رجل سلم لآخر سيفا بآرا على حين لا يملك عصا واستخلفه أن لا يتقلده الا متى بلغت منه الشدة مبلغها ثم كان منه بعيد أيام أن ضيق عليه وبالف في اذلاله وسامه الخسف فلم يشعر الا وذالك السيف يكاد يعمل في عنقه فالتفت مذعورا وقال لصاحبه أو أنت فاعل قال كيف لا وقد استخلفتنى وهذا السيف سيفك الذي سلمتني فندم ولكن لم ينفع الندم

وسار الوزير محمد شريف باشا في النظر في أمور البلاد واحتياجاتها سيرا حثيثا فكثير توارد القصص والظلمات على ديوانه من أهل الحبوس التي ملأها مصطفى رياض باشا بالكثير من أهل البلاد لاقل ذنب وأصغر شبهة فكان اذا خرج الوزير من بيته يريد الديوان تعلق نساء أهل تلك الحبوس وأطفالهم بأثوابه واستغاثوا وضجوا وبكوا وتساقطت الظلمات بين يديه فتناقل هذا أصحاب صحف الأخبار المحلية وشاع حتى نقله أصحاب صحف أخبار الانجليز وقاموا له وقعدوا وتبعهم أصحاب صحف أخبار الفرنسيين واستعظموا البلى ونادوا بالعدالة بالانسانية فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعظمه ورسم بتشكيل لجنة عهد اليها تفتيش جميع الحبوس وتحقيق ظلامة كل مسجون وسيرت دولة الانجليز أحد مقدمي جنودها الى القاهرة ليشارك اللجنة في أعمالها وكام القونصل الوزير محمد شريف باشا عنه فلم يمانع في حضوره فبحث اللجنة ونقبت فظهر لها كثير من المظالم والفظائع قالوا ولم تكن هذه المظالم قاصرة على مستخدمي بعض المصالح والدواوين كالطرد والحرمان من الخدمات والتباعد والسجن وغير ذلك بل قد عمت أيضا جميع أهل البلاد وأنشبت بالجليل منهم والحقير والغنى والفقير حتى غصت بهم الحبوس وضافت على اتساعها وأبعد الكثير منهم الى أقاصى السودان وغيرها بلا قضاء شرعى ولا حكم قانونى وأحصوهم فكانوا زهاء الاربعة آلاف من سائر المديريات القبلية والبحرية فأطلقوا من بقى منهم فعادوا الى أوطانهم على نفقة الخزينة * وبينما الناس في شغل بحوادث أصحاب الظلمات ومن أهلكتهم الحبوس انجاء الخبر من دار السلطنة في ثامن ذى القعدة الى ديوان الخديوى الخاص بقيام احدى سفن حرب الدولة الى الاسكندرية وعليها أربعة من أموري الدولة وهم على نظامى باشا المعتمد الاول الموكل اليه البحث في أمر تظاهر أحمد عرابى بيك وأصحابه وعلى فؤاد بيك المعتمد الثانى الموكل اليه النظر في الامور السياسية وله حق الاشتراك في المخبرات التي تقع بين مصر والدول الكبرى وراتب باشا وصفر أفندى وهما من ياوران الخليفة

مطلب
رفع ظلمات أهل
الحبوس الى الوزير

مطلب
حضور وفد السلطان
الى القاهرة وما كان
من وراء ذلك

أمير المؤمنين ويتضمن الخبر أيضا التهنئة للخديوي على ما أظهره من الحزم وحسن السياسة في حل تظاهر الجند وتسكين قلوب الرعية ويقول اني أرسلت اليك في مركب حربية من مراكبنا السلطانية بعض المأمورين من ياوراننا الخاص سيكوفون لك عوننا على حل هذا الاشكال وفض الخلاف بالتي هي أحسن ومنع حدوث مثل هذه القلاقل مرة ثانية فلما شع الخبر بما ذكر استعظمه الناس وخافوا عاقبته واهتم له الوزير محمد شريف باشا فرسم في الحال بانحدر عبد العال بيك بعسكره السود الى مدينة دمياط فالتحق في نفس اليوم الذي جاء فيه الخبر بقيام وفد السلطان وقد شيعه على المحطة العدد العديدين ضباط الجند والوجهاء والاعيان والتجار على اختلاف درجاتهم وأحمد عرابي بيك والبارودي فقبل أن يسير بهم القطار وقف عبد العال بين الضباط وقال مخاطبا للجميع أيها الاخوان * انا نودعكم والقلوب معكم وكلمة الوطنية تجمعنا فاجعلوا حبس المواسلة بيننا ممدودا وثقوا بعزمكم ولا تطيعوا الوشاة فيما يفترونه علينا كما أننا لانسمع من واش كلاما واعلموا أننا في تيار أفكار ان لم نحفظ أنفسنا فيه بالاتحاد والا هلكنا وكلنا يعلم حسن طوية مولانا الخديوي وطهارة رجاله الفخام فمن نخدم أفكارهم بأرواحنا ونقضي العرف في طاعتهم والله الحفيظ على وعليكم وهو على كل شيء قدير

فبرز عند ذلك عبد الله صاحب جريدتي الطائف والتسكيت والنبكيت وقال مخاطبا للجند حياة البلاد وفرسانها من قرأ التاريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلت اليه من الشرف وما كتب اليكم في صفحات التاريخ من الحسنات فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق ولا يلحقكم في ادراكها لاحق ألا وهي حياة البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهم فلكم الذكر الجليل والمجد الخلد يباهي بكم الحاضر من أهائنا ويفخر باثركم الآتي من أبنائنا فقد حي الوطن حياة طيبة بعدد أن بلغت الروح التراقي فان الامة جسده والجند روح ولا حياة للجسم بلا روح وهذا وطنكم العزيز أصبح بنا ديككم ويناجيكم ويقول

اليكس برذا الامر وهو عظيم	فاني بكم طول الزمان رحيم
اذا لم تكونوا للخطوب والورى	فن أين بأق للديار نعيم
وان الفتي ان لم ينزل زمانه	تأخر عنه صاحب وجيم
فردوا عنان الخيل نحو متيم	تقابه بين اليموت نسيم
وسدوا له الاطراف من كل وجهة	فشددوا اطراف الجهات قويم
اذالم تكن سيفا فكن أرض وطاة	فليس لمعول البدين حريم
وان لم تكن للعائدين حياة	فانت ومخضوب البنان قسيم

ولقد ذكرتم باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان في أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على استخلاص صاحبهم فصاروا يعنونون

بالعشرة المبشرين بالجنة وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الاوطان وبقاء سلطة مولانا الخديوي وتأيد مدلك وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخذل الشرف فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم ثم التفت الى عبد العال بيك وقال هذا أخوكم الخريون عكم وبسير باخوانكم الى دمياط فاجعلوا عروة الود وثيقة ولا تحلوا حبل الاتحاد الذي جاهدتم الانفس في احكامه فقد

زالتموانعنا التي * كانت تجر الى الفساد والانس دار رحيقه * بين الجيوش أولى الرشد لا تعمر الدنيا اذا * لم تترك الخلق العناد فالارض تنبت زرعها * لحياتنا بالانحصار ومن محاسنكم التي تفخرون بها ويعرف لكم بها الفضل طاعتكم لاوامر الحكومة وامثالكم لاشانها وربط قلوبكم بحجة مولانا الخديوي ورجاله الكرام خصوصاً هذا الرئيس البر الرؤف القائم بخدمة الامة وبلادها وأحسن ما يؤرخ به اسم الجهادي عند النوازل أن يقال مات شهيد الاوطان اه فما ختم خطابه حتى نادى الجمع بصوت واحد رضينا بالموت في حفظ الاوطان ووقاية أمـيرنا من كل ما عيس سلطته * ثم سار القطار قاصدا دمياط فقابلهم أهلها بالبشر والترحاب فنزل الجند في المحلة التي أعدت لهم وزار عبد العال بيك جميع وجهاء البلد وأعيانها وعملوا له الولائم والختومات وتوددوا اليه وتقربوا منه جهد الاستطاعة فلما جاء الخبر الى القاهرة بان قد استقر بعبد العال بيك وجنده المقام رسم الوزير محمد شريف باشا الى أحمد عرابي بان ينحدر بجنده الى رأس الوادي فنادى فيهم بالخروج فخرجوا يوم الخميس ثالث عشر ذي القعدة وأمامهم أحمد عرابي بك على فرس وحوله كوكبة من الضباط على ظهور الخيل والسيوف بأيديهم مسلولة وساروا من وسط المدينة الى المقام الحسيني فلما اقتربوا منه ترحل أحمد عرابي بيك وترجل معه جماعة من الضباط ودخل الى المقام ومعه بيرق الأتلي وطاف حول الضريح مرارا كثيرة وهو يقرأ بعض الاحزاب ثم خرج وركب هو ومن معه وساروا قاصدين محطة السكة الحديد وكان جنود الحرس الخديوي مصطفوا على جانبي الطريق وبأيدي ضباطه باقات الورد والزهور وكذلك بعض العامة وكانت الطرق غاصة بجماهير الناس من الرجال والنساء والصبيان فلما اقترب أحمد عرابي بيك من المحطة هتف الناس هتافا عظيما وعزفت الموسيقى ورامت عليه ضمان الزهور من كل جانب وكان في انتظاره كبار الضباط وبعض أعيان القاهرة وعمد بعض البلاد وقد فرشوا له الارض بالزهور والرياحين وأوراق الشجر فترجل عن جواده ووقف برهة لطيفة وحوله جماعة من مقدمي الجند وهم على بيك الديب مقدم الحرس الخديوي وعلى بيك يوسف مقدم جند قلعة الجبل الذي تولى بدل ابراهيم بيك حيدر وطلبة بيك عصمت مقدم جند قصر النيل الذي تولى بدل شوقي بيك وقبل أن يتحرك به وبمسكره القطار التفت الى من كانوا حوله وجعل يحضهم على الاتحاد والتعاون وعدم تفريق الكلمة مع صفاء القلوب واخلاص النية عند كل عمل ثم تقدم عبد الله صاحب الطائف وخطب فحضر وحث

وبالغ في التنبكيت والتبكيك حتى أخذ بالعقول وكاد يبكي الناس ثم رحل بهم القطار قاصدا رأس الوادي فلما وصل مدينة الزقازيق التي هي كرسى القرية التي ولد فيها أحمد عرابي بيك هرع اليه الكثير من مشايخ البلدان والعمد ولاعيان يحمل بعضهم أغصان الشجر وبعضهم سعف النخل وبعضهم الزهور والرياحين وهم في ضجة وجلبة عظيمة فأشرف عليهم من نافذة العربة فصاحوا ودعوا له فنزل ووقف بينهم وأشار الى صاحب الطائفة فتكلم وبالغ في الحث ثم تكلم هو كذلك فترامت عليه الزهور والرياحين من كل جانب وعلت الاصوات بالدعاء ثم انحدر القطار مسرعا الى رأس الوادي

واتفق انه وصل في هذا اليوم رجال الوفد القادمون من دار السلطنة الى مدينة الاسكندرية ودخلت مركبهم المينا فسلمت فرد عليها بعض الحصون السلام وكان الخديوي قد رسم الى ذى الفقار باشا فأنحدر الى الاسكندرية للقاء رجال الوفد فأنزلوهم في سراي رأس المنين فأكلوا وشربوا وركبوا الى محطة السكة الحديد حيث كان ينتظرهم قطار الخديوي الخاص وكان في ركبهم فريق من العسكر وجعاعة من أصحاب الشرطة ومحافظ المدينة وصاحب شرطتها فسار بهم القطار قاصدا القاهرة فوصلوا في الساعة الثانية ليلا وساروا الى قصر النهضة حيث أعد لهم وكانت عدتهم ستة وهم على نظامي باشا وراتب باشا وعلى فؤاد بيك وصفر أفندي وسيف الله أفندي والشيخ أحمد أسعد أفندي متولى الفراشة بالحرمين الشريفين عدا الخدم والحشم والاتباع فانهم كثيرون وكان جميع ضباط الباشخة التي جاءت بهم من ضباط القصر الشاهاني وقد بقى معهم اثنا عشر شخصا لم ينزلوا الى البر وهم من الحرس السلطاني المكلفين بمراقبة رجال الوفد * ولما كان صباح الجمعة رابع عشر ذي القعدة ركب رجال الوفد لزيارة الخديوي بمقره بالاسماعيلية فتلقاهم بغاية البشر والترحاب وبالغ في تكريمهم وجلسوا معه برهة يتحدثون فيما لم تصل اليها معرفته أو كما قال بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية انهم أبلغوا الخديوي تسليما ذات السلطانية وأعربوا عمالها من تمام المسرة والرضا عن همة الخديوي في حفظ الامنية وأن المقصود من حضورهم انما هو اظهار مآلات الملوكانية من الوثوق والاعتماد على الجنب الخديوي وتأيد نفوذه وتعزيز موقعه وتثبيت مركزه قالوا فعند ذلك نطق الخديوي بآيات الخضوع وأدى واجبات الشكر للذات الشاهانية على حسن عنايتها ثم دعا لها بتخليد ملكها وتمكين قوتها وبعد ذلك انصرفوا * فلما جاءت الساعة الخامسة ركب الخديوي في كنيسته وزار رجال الوفد بقصر النهضة ولبث معهم برهة ثم كراجموا الى الاسماعيلية فبات حضور رجال هذا الوفد مع طلب الامة انشاء مجلس شورى نواب البلاد شغل جميع الناس الشاغل لهم عن كل شئ وكان الوزير محمد شريف باشا يعرف ذلك منهم فتقدم الى الخديوي في خامس عشر ذي القعدة في طلب التصديق على انشاء المجلس على قاعدة قد قررها فصادق الخديوي عليها راضيا ورسم بافتتاحه في غرة صفر الخير سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية باحتفال عظيم وشاع الخبر بذلك

مطلب

التقاء رجال الوفد
بالخديوي في مقره
وذهابهم اليهم

ففرح الناس كثيرا وطاف جماعة الضباط على بيوت الوجهاء والاعيان بالقاهرة ومصر
 يبشرونهم وتسلمهم أصحاب صحف الاخبار المحلية عن الفوائد العظيمة التي تنجم عن انشاء
 هذا المجلس وأطالوا الكلام وبالغوا في الاطراء وقالوا انه لهو من المحسنات بل من المعجزات
 التي لا يقدر غير الوزير محمد شريف باشا على الاتيان بها لاسيما في ابان هذه الظروف المهمة
 والخطوب المداهمة

وفي يوم الثلاثاء ثامن عشر ذي القعدة زار رجال الوفد سائر دواوين الحكومة
 وتظاراتها ثم ساروا الى ديوان الجند بقصر النيل فاصطقت لخدمتهم جميع العساكر
 وكان محمود باشا البارودي واقفا على باب الديوان متهيئا لاستقبال رجال الوفد فلما دخل
 على تطاحي باشا أخذ البارودي بيده ومر معه على صفوف العسكر ثم استدعى اليه طلبة
 بيك وجميع القاءقامات والبيكباشية فألقى عليهم خطابا بالتركية فترجسه البارودي
 بالعربية فكان هكذا ﴿ إن الجناب الخديوي الاكرم منزلة رفيعة من الحب وحسن الرعاية
 عند مولانا السلطان الأعظم أيده الله ونصره فهو لذلك يحافظ على تعزيز جانبه وتأيد مركزه
 ويعضد نفوذه وسلطته وليس يخاف على حضراتكم أن الجناب الخديوي هو الوكيل المفوض
 عن مولانا السلطان الأعظم وأن الوكيل كالأصيل فن أطاع الجناب الخديوي وامثل
 أوامره وانقاد لأحكامه فقد أطاع حضرة مولانا السلطان وكان من العاملين بما جاء في محكم
 القرآن من قوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ومن خالف
 الجناب الخديوي فقد خالف مولانا السلطان وعصى أمر الرحمن - نعوذ بالله من ذلك *
 ففحن معشر العساكر يلزمنا في كل حال أن نطيع ونذعن لولي الأمر وان لا نتردد أو نتهاون
 في القيام بما تكلف به من الأوامر وأن لا نبحث عن موجهها ولا نسأل عن أسباب ما
 تكلف به من الأوامر وانما علينا أن نمثل كل ما أمرنا به ونجري على مقتضاه وقد
 أمضيت في خدمة العسكرية ثلاثة وأربعين عاما واشتركت معكم أيام الحروب الماضية في
 المخاطرة بدمائنا وأرواحنا امثالا لأوامر مولانا وسلطاننا واعلاء لكلمة ديننا ودفاعا عن
 عموم أوطاننا فأوصيكم أن تمسكوا بالطاعة وتقيموا على الانقياد وتلتزموا حدودكم المعروفة
 فلا يعرف الصغير الا من هو أكبر درجة منه ولا الكبير الا الأعلى منه رتبة وهكذا لا يعرف
 الاكبره درجة بعد درجة الى الانتهاء * وبعد أن ختم مقلته هذه ودعهم وانصرف مع
 من حضروا معه فلما كان بعد ظهر اليوم ركب ومعه فؤاد بيك وزار بعض المدارس العليا
 والوزير محمد شريف باشا قيل وأعلمناه بأنه لم يكن في عزيمتهما التداخل في شيء من أمور
 البلاد وبأن غاية حضورهما مع من حضر من رجال الوفد انما هي تقديم مراسيم التهناني
 للجناب الخديوي على ما أظهره من الحزم وأصالة الرأي فحادثهما الوزير عن عادات البلاد
 وسلامة نوايا أهلها ودوام خلودهم الى الهدوء والسكينة وعدم الاندفاع الى ما يكثر صفو
 راحتهم ثم انصرفوا وأمر الخديوي فزارهم كثير من الوجهاء والاعيان وشيخ الاسلام وبعض

العلماء ومشايخ الطرق وبأغوا في اجلال رجال الوفد وتعظيمهم

مطالب

تخوف قونصل

جنرال الانجليز من

حضور الوفد السلطاني

وحسب قونصل جنرال الانجليز بمصر ما وراء حسن وفادة على تطاحى باشا ومن معه
وتقرب أهل البلاد منهم فجعل يراقب الحوادث ويستطلع الاخبار ويكثر من الذهاب
تارة الى مقر الخديو وأخرى الى مقر الوزير محمد شريف باشا وطورا الى مقر البارودى
وبث العيون والأرصاد حول مقام الوفد وطاف رجال ديوانه على بيوت بعض رجال الدولة
يستشقون نسمات تلك الاخبار وكأنه آنس منهم بعض الشئ فكتب به الى اللورد جرانفل
كبير السياسة الانجليزية يومئذ فسير هذا اللورد الى الباب العالى يطلب سرعة استرجاع
رجال الوفد وجلائهم عن الكنانة واستجد بكبير سياسة الفرنسيس وهو يومئذ المسيو بارتملى
سنتلار فأفجده وجعل يشتد ان الطلب وضربا لجلاء الوفد أجلا وأوعزا الى أصحاب صحف
اخبارهم فهاجوا وماجوا ونادوا بالحرب والقتال وخطبوا وخطبوا في القول ورامت ظنونهم
الى المرمى البعيد فن قائل ان الوفد انما دخل أرض الكنانة يتابعه من السرما لا يعلمه
الا المقربون من أبواب السلطان ومن قائل بل هم يتأبطون جميع الفرامين والخطوط
الهمايونية الصادرة من عهد محمد على باشا الكبير الى أيام الخديو توفيق لغاية خفية وسر
مكتوم وتنهاى ببعضهم الخط الى القول بان رئيس الوفد قام من دار السلطنة الى مصر
ومعه فرمان مخصوص لا يليق التكلم عنه حتى ينجلي الصبح لذى عيني **قلت** يريدون
فرمانا بعزل الخديو توفيق وتولية الامير عبد الحليم بن محمد على باشا وجعلوا يقولون غير
ذلك من لا راجيف فقام أصحاب صحف الاخبار التركية يفتدون تلك المزاعم ويرمون
أصحاب صحف الانجليز والفرنسيس بسوء النية وخبث الطوية ويقولون انما مصر بلاد
إسلامية وهى كالقلب من جسم السلطنة العثمانية فأى جناح على المتبوع اذا سير الى تابعه
يسأل عن حاله ويخفف عنه ما اشتد من أحواله وطال الاخذ والرد على غير جدوى
والسلطان لا يلتفت الى أقوال صاحبى سياسة الانجليز والفرنسيس فبعد عند ذلك صاحب
سياسة الفرنسيس الى التهديد وسير لحدى مراكب حربيهم الى مدينة الاسكندرية وكانت
من أضخم سفنهم واسمها آلما فوصلت ليلة تاسع عشر ذى القعدة وباتت ليلتها خارج
البوغاز وأصبحت فدخلت الى المرسى وسلمت على الطوابى باطلاق مدافعها فرددت عليها
طوابى رأس التين السلام وكانت تحمل زهاء ثلثمائة وخمسين من الفرق الحربية وعشرة
مدافع من العيار الكبير والطرارز الحديد * وشاع خبر قدومها ووصل الى القاهرة نخاف
الناس وكثر تحدثهم به وخشوا سوء العاقبة وكان السلطان قد أحس بما وراء ذلك فجاء
الخبر الى رجال الوفد بالجلاء عن مصر فأنهبوا للرحيل ولما كان ثالث عشر ذى القعدة
تمثل على تطاحى باشا وفؤاد بك ورجال الوفد بين يدى الخديو وأبلغاه أن أمير المؤمنين
قد أحسن عليه بنيشان الامتياز وأن من شأن توجيه هذا النيشان أن الخليفة يضعه بيده
على صدر من تشرف به وهو ممثل بين يديه بلباس التشرىف قيل فأظهر الخديو الخضوع

والطاعة وقال سأتشرف ان شاء الله بالمثل لدى سيدي ومولاي أمير المؤمنين عند تمام استتباب الأمن وسكون خواطر أهل البلاد ثم تقدم اليه نخري بيك ربان باخرة الوفد وأبلغه بان قد ورد اليه مرسوم السلطان بالعود الى دار السلطنة حالا وانصرفوا وفي الساعة الثالثة من صباح ثاني يوم الثلاثاء رابع عشرى الشهر خف على نظاي باشا وفؤاد بيك الى مقر الخديو بالاسمعية لوداعه فأحسن لقاءهما ورحب بهما ورسم فهيئوا قطاره المخصوص فركبوا الى محطة السكة الحديد وكان الوزير محمد شريف باشا وسائر الوزراء والكبراء وموظفي الحكومة في انتظارهم فركبوا القطار وسر بهم الى الاسكندرية ونزلوا بسرأى رأس التين فوفد عليهم جميع ضباط جنود الاسكندرية للسلام فوقف بينهم المشير على نظاي باشا وخطب خطابا وجيزا معناه أنه عند وصوله الى مقر الخلافة العظمى لابد أن يبشر اخوانهم العسكر المنصور هنالك بأن لهم في مصر اخوانا لا يرون غير الطاعة لأوامر مولانا أمير المؤمنين والانقياد للخديو ثم نزلوا الى السفينة ورحلوا الى دار السلطنة وقد تخلف عنهم بالقاهرة عظيم اسمه كامل باشا وجمته في ذلك عزمه على السفر الى الاقطار الحجازية * فأقام أياما يتراوح بين القاهرة والاسكندرية لايعلم أحد من أمره شيئا ثم رحل الى السويس وهو بمدينته الزقازيق قصبة الشرقية فلاقاه في محطتها أحمد عرابي بيك وكأنه كان في انتظاره فركب معه في عربة القطار ولبثا معا الى ان بلغ القطار محطة التل الكبير ثم ودعه ونزل فصار القطار الهويما وكان على يسار طريق القطار جميع جنود أحمد عرابي ومعهم الموسيقى فلما اقترب منهم القطار عزفت الموسيقى بنشيد السلام السلطاني وضح الجنود باصوات التهليل والتكبير فبرز كامل باشا من شبالة العربة وحياهم بأشارات السلام فصاحوا بالدعاء للخليفة أمير المؤمنين وكان أحمد عرابي على رأس صفوف أولئك العسكر وخلفه جماعة من كبار الضباط وهويما بالدعاء فأعجب هذا كله كامل باشا وسر به سرورا عظيما وكان لقاء كامل باشا وأحمد عرابي على موعد بينهما رغما عن ممانعة رجال الحكومة وبذلهم الجهد في التباعد بينهما * وبعد أن خرجت الباخرة العثمانية بمن عليها من رجال الوفد من ميناء الاسكندرية بقليل دخلت باخرة حربية انجليزية اسمها انشيل قادمة من مالطه وهى من المدرعات الضخمة فيها أربعة عشر مدفعا كبيرا فأقامت بالاسكندرية يومين ثم خرجت في سادس عشرى ذى القعدة وخرجت معها المركب الفرنسيات * وتشوق الناس يومئذ الى معرفة ما سيكون بعد وصول رجال الوفد الى دار السلطنة وتزايد تساؤلهم عما في صحف الاخبار وأكثر وأمن شرائها واضطر من لا يعرف القراءة من العامة الى مصاحبة من يعرف القليل منها فكنت تراهم في شوارع القاهرة ومصر القديمة جماعات وبينهم الرجل أو الصبي من صبيان المكاتب وهو يقرأ عليهم ترجمة عبارة لصاحب جريدة التيمس الانجليزية أو لصاحب الديبا الافرنسية أو لغيرهما من صحف لأخبار الاجنبية وهم في ضجة وحوقة وعم هذا الحال السوق وأصحاب الحرف الدنيئة كالصباغين والزبائن والحلاقين * وقد رأيت يوما صبيا

مطلب

ابلاغ نخري بيك
ربان باخرة الوفد
للخديو خبر قيام
الوفد الى دار
السلطنة كأمر
السلطان

مطلب

التقاء كامل باشا
أحمد رجال الوفد
بأحمد عرابي بيك

في حانوت لرجل يبيع البقل ويبيده صحيفة من صحف الاخبار العربية وأمام الحانوت خلق من السوق وهم محدقون بالصبي وهو يقرأ عليهم ما نصه * قد طلب الباب العالي من سفيرى الفرنسيس والانجليز أن يعلماه مفصلا بالسبب الحامل للدولتين على ارسال المركبين الحربيين الى مدينة الاسكندرية فأجاباه بان ليس المقصود من ارسالهما ارغام رجال الوفد العثماني على سرعة الخروج من مصر كما أشاعه المرجفون وانما المقصود هو وقاية رعايا الدولتين فقط فاذا سافر المبعوثان سافر المركبان أيضا انتهى * فقهقه الجمع عند سماعهم هذا الكلام وهمس كل في أذن الآخر وصاح أحدهم قائلا وهلا ترى في هذه الورقة أيضا ان الانجليز والفرنسيس يتخوفون من تخلف كامل باشا السمين بالقاهرة بعد قيام الذين جاؤا معه من دار السلطنة وقد نادى أصحاب صحف اخبار الفرنسيس على قومهم بالحد والالتفات الى ما عساه أن يحصل من بقاء الباشا المذكور فقلب الصبي الصحيفة عينة ويسرة وتأمل فيها وقال صدقت يا عماء ومن الذى أعلمك بهذا الخبر فقال سمعت فلانا الخلاق الساعة يقول انه سمعه من أحد موظفى الحكومة * فقلت في نفسى ان الله بالعاقبة عليم

ووصل رجال الوفد الى دار السلطنة فاندش كبار سياسة الدول من دهاء السلطان وعدم جعله تلازما أو تعلقا بين وجود مبعوثيه في بلاد هي تابعة له وبين ارسال دولتى الانجليز والفرنسيس مركبيهما الحربيين الى مدينة الاسكندرية فكاد سفير الانجليز في دار السلطنة يتميز غيظا من عجزه عن ادراك جميع هاته المعميات التى لم تكن تخطر له على بال وقد أشار الى ذلك صاحب جريدة الدالى نيوز الانجليزية في كثير من عباراته عن سياسة الخليفة السلطان « عبد الحميد » وما فعله عند ارسال وفده الى مصر مما لم يعرفه أحد الى يوم رجوع رجال الوفد الى القسطنطينية * وانصرفت أفكار الناس عن البحث فيما أتى من أجله رجال الوفد بعد رحيلهم الى القسطنطينية الى استطلاع ما سيكون من أمر تشكيل مجلس شورى نواب البلاد وقد رسم الوزير محمد شريف باشا الى مديرى الجهات ومحافظيها باستدعاء أهالى البلاد الى الانتخاب على القاعدة التى تقررت لذلك وأرسل يستحث الناس على التدبر وأن لا ينتخبوا إلا من عهد بالصدق وعرف فيما بين العموم بالفطنة والذكاء واشتهر بالمعرفة وحب المنافع للبلاد والاهتمام الى طرقها الحقيقية وتحقق منه العفة والاستقامة قديما وحديثا - قال - فن وجد بهذه الصفات انتخابه غير مراعى الى الشهرة والظهور ومن وجدته على ما يناقض هذه الاخلاق فابتعدوا عنه وانبذوه وان كان أثرى المثريين فما طار الخبر بذلك الى الاتفاق حتى غصت دواوين الحكومة بالوجهاء والاعيان والمثريين من أهل القرى واختلفت كلمة أهل البلاد وتفرقت أهواؤهم وتباينت أغراضهم حتى كادوا يفتشون وتعذر على المديرين والمحافظين عمل الانتخاب والوزير يستحسنهم ويحضرهم على الاخذ باطراف الحزم وأن لا يراعوا الا المصلحة العامة ولا ينظروا

مطلب

تشكيل مجلس
نواب البلاد وهو
أحد مطالب
جماعة الضباط

مطلب

ما كان من سياسة
قونصل جنرال
الانجليز في أمر
تشكيل مجلس
شورى النواب

الا الى الاوسع معرفة من قومهم والا قري ادراكا والا نفذ بصيرة والاكثر اطلاعا والا عرف
باحوال بلاده وحكوماتها في الماضي والحاضر فاطمأنت عند ذلك القلوب وتم الانتخاب أو كاد
* قال بعض الكتاب فكبر هذا الامر على المسترمالت قونصل جنرال الانجليز واستعظمه
لا لانه من الامة عند في شئ ولكن لاعتباره اياه أنه هو المحور الذي ستدور عليه رحا
أعماله فعمد الى ملازمة الخديو وأكثر من مجالسته فكان اذا رأى منه تسرعا في تحديد
أجل تشكيل مجلس النواب على النحو الذي أشار به الوزير محمد شريف باشا بالغ في النصيحة
وهول في العقوبة وأظهر من جانب القسوة حنوا واشفاقا واذا رأى منه بعد ذلك تباطؤا
في العمل وإغضاء ذهب الى البارودي وشكا اليه من تغاضي الخديو وإبطائه وحض
البارودي على الثبات والحزم وعدم التخلي عن زعماء العصبة حتى يدركوا منشودهم فلم
يخرج من عند البارودي وأصحابه الا وهم في ضجة وجلبة وهياج فاذا كثرت جلبتهم وعظم
ضجيجهم ورموا الخديو بسوء النية وبالغوا في تعنيفه وتعييبه حتى ينقبض ويغضب
ذهب اليه مالت ولاطفه وهون عليه الامر ومناه بالاماني الطويلة العريضة فاذا
آنس منه سكون الخاطر والخلود الى المساهلة عرج به الى الوقعة وشذ في القول وعظم
البلوى وحذر من العقوبة حتى يتخيل للخديو أن قد سدت أبواب النجاح وانطمست معالم
الفلاح فيرجع الى ما كان عليه من الوحشة والانقباض ويرجع كذلك البارودي وأصحابه
الى الاستغاثة بقونصلي الفرنسي والانجليز - قال - وهكذا كان حال الخديو وزعماء
العصبة من اليوم الذي بعث فيه الوزير محمد شريف باشا يستحث المديرين والمحافظين على
سرعة الانتخاب * وكان من وراء ذلك ان تطاولت أيدي رجال العصبة العسكرية الى
العبث بعمل الانتخاب بفعل عبد الله صاحب الطائف يجوب البلاد ويستميل الناس الى
انتخاب المحازبين لرجال العصبة فاستمال الكثير من أهل الشرقية والبحيرة والدقهلية
والقليوبية وغيرهم من أهل المدن القبلية * فلما كان عاشر ذي الحجة من السنة أي سنة
ثمان وتسعين قدم أحمد عرابي الى القاهرة وقدم كذلك من مدينة دمياط عبد العال بيك
حشيش وشاع خبر حضورهما فتحدث الناس به وترامت ظنونهم وقالوا انهما قد حضرا
لاكرام الهيئة الحاكمة على سرعة تشكيل مجلس نواب البلاد واشتد خوف العامة وكثر
لغظهم فكانوا اذا رأوا جماعة يهرولون في الطريق قالوا انهم ذاهبون بدعوة من أحمد
عرابي أو شاهدوا زحاما على حافوت قالوا انه بإشارة منه لسر لا يعلم الا هو والمقربون اليه
أو سمعوا مؤذنا ينادي حي على الفلاح قالوا انما هو يدعو الناس الى التعاون والتعاقد أو سمعوا
امراة تولول على صبي ضل اسمه أحمد قالوا انما هي تستغيث بأحمد عرابي بيك لدفع ظلامتها
وكشف غمها وعم هذا الخلط بجميع المدن والبلاد فكانت اذا وضعت حبل صديا سمته
عرابي أو أحمد عرابي لاسمها أهل القرى واشتد تعلق الناس به شدة لم تكن تخطر لأحد
على بال وتكلم أصحاب صحف الانجليز والفرنسيين في أمر محجي أحمد عرابي وعبد العال

حشيش الى القاهرة وفصلوا وقاسوا ونحطوا نحشى الوزير محمد شريف باشا العاقبة واستقدم
سائر المديرين والمحافظين وشدد عليهم بسرعة الانتخاب فأتموه في ثمانى عشر ذى الحجة المذكور
* ولما تم انتخاب سائر الاعضاء ولم يبق الا الرئيس اختلفوا فيمن يتولى الرئاسة وطالت أيام
الاختلاف فتباينت الاغراض وتفرقت الاهواء وعادوا الى ما كانوا عليه من الخلط والخط
وكثر أراجيف ضباط الجند وتزايد تطوافهم في شوارع المدينة وابشوا على هذه الحال
أياما حتى اجتمعت كلمتهم على انتخاب محمد سلطان باشا أحد أعيان منية ابن خصيب بالأقاليم
القبيلية وزال ما كاد أن يقع من الوحشة بين الوزير محمد شريف باشا وزعماء العصاية
وشاع خبر رحيل أحمد عرابى وعبد العال حشيش عن القاهرة الى دمياط ورأس الوادى
ولم تكد تسكن الخواطر وتطمئن القلوب لقيام أحمد عرابى بك وعبد العال بك الى مقر
عسكرهما حتى عاد الارجاف بقيام العسكر على كاهة النزلاء الذين بالاسكندرية ولما عمل
السيف في رقابهم فاشتد الخوف بالناس شدة بالغة * وتحرير الخبر أنهم وجدوا في سادس
عشر المحرم افتتاح سنة تسع وتسعين رجلا من الشرطة قتيلا في الطريق وكان أول من
رأى جثته رجلا ايطاليا فذهب الرجل الى مقر محافظ المدينة وأعلمه بالخبر فلما شاع الخبر
وعلمه أصحاب ذلك الشرطى ظنوا أن الايطالى هو القاتل فهاجوا وماجوا وجعلوا ينادونهم
وتأثروا الايطالى فاختبأ فى مقر المحافظ فأرادوه عنوة واقحموا المكان وهم فى ضيق هائل
وذهب جماعة منهم الى موضع القتيل فملوه وأتوا به أمام مقر المحافظ وصاحوا ونادوا وطلبوا
الايطالى للبش به فاجتمعت عند ذلك الغوغاء وعلت الضوضاء وتراحم الناس على أبواب
الدوان يريدون الدخول فنزل اليهم المحافظ وجعل يلاطفهم وأمر بالقنيل ليحمل ويدفن
فامتنعوا وصاحوا فى وجهه وقالوا لا يحمل لك ذلك يامسلم أحضر لنا النصارى الساعة انبش
به والا ذهبنا بالجثة الى القاهرة فاشتد اللدد وخاف الناس واختفى الاجانب وأغلق أصحاب
الحوانيت حوانيتهم وارسل المحافظ الى الوزير محمد شريف باشا يعلمه بالخبر فاستعظم الامر
جدا وسير الى المحافظ يستخه الى مداركة الامر وكتب الى صاحب الشرطة يقول لازموا
السكينة وسيقدم عليكم وفد لتحقيق الحادثة فبذل المحافظ وصاحب الشرطة جهد الاستطاعة
حتى فرقوا تلك الجوع وجعلوا الجثة واروها التراب ليلا وبات الناس ليلتهم تلك وهم فى
خوف ما عليه من مزيد فلما كان اليوم الثانى قدم الى الاسكندرية وفد الوزير محمد شريف
باشا فسأل وبحث ودقق فلم يظهر أن للايطالى ذنبا ولا جناية فاخلوا سبيله وقد ثبت ان
القاتل للشرطى نفر من أهله لسريتهم فسكنت الفتنة واطمأنت قلوب الخلق

مطلب
الاختلاف فيمن
يتولى رئاسة مجلس
نواب البلاد

مطلب
مقتل أحمد
أصحاب الشرطة
بمدينة الاسكندرية
وخروج العسكر
عن الطاعة

مطلب
ورود الخبر
باستيغال أمر مدعى
المهدوية بالسودان

ولم تكن لتمكن الهيئة الحاكمة الى هذا الحين من تسيير المدد الى السودان لقتال
مدعى المهدوية وقد وردت الاخبار من والى السودان وهو رؤف باشا فى ثالث صفر من
السنة تنبئ باستيغال أمر مدعى المهدوية واعلاه كلمته وأنه عاد لخرج على من وجده من
العسكر المصرى فقتل منهم زهاء الثلاثمائة ونهب متاعهم وسلاحهم فلما شاع خبر نصرته

بين سكان الجبال اعتقدوا صحة دعواه فتبعه خلق كثير من العربان والقبائل الرحالة وشنوا الغارة على الكثير من لم ينضموا اليه ولم يقوموا لنصرته ودخلوا القرى فأحرقوا ونهبوا ما لا يحصى من البقر والغنم والانعام والريش وسنّ الفيل واستلبوا ما في خزائن مرا كز الحكومة فلم يبقوا ولم يذروا ووصل الخبر بذلك الى أهل الخرطوم وتجارها فحصل لهم فزع عظيم وداخلهم من الخوف ما لا مزيد عليه فجمعوا أموالهم وسيروا بها الى أسوان بالصعيد الأعلى فكبر الامر على الوزير محمد شريف باشا وجعل يرسل المدد تباعا من الجند والكرعاق وقدم الى القاهرة طوائف التجار من الاقطار السودانية ما بين أهليين وأجانب فرارا من نار الثورة وايذاء مدعى المهدوية وأصحابه فتحدثوا بخبر ما وصلت اليه لموم المدعى وما يفعله أصحابه من القتل والنهب وأحراق المدن والقرى وذبح الاطفال على صدور الأمهات واهلاك الحرث والنسل وكثر الحقدار السفن ومراكب النقل الى أسيموط والقوافل من طريق الأربعين وغيرها تحمل أرزاق التجار وانقطع ارسال البضائع الى السودان وتعطلت سائر أسباب الرزق بتلك الاصقاع فلم يبق عند الناس شك في صحة خبر المتهدى وقد كانوا الى هذا الحين يظنون ان القول بظهوره اغما هو اختلاق من الرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته لئتمكن بذلك من تمزيق شمل عصاة الجند والتفريق بين كبارها وأطالوا الكلام في أمره أياما ثم تناسوه بحديث مجلس شوري النواب وما سيكون من أمر رجاله وتبعهم في ذلك أصحاب صحف الاخبار المحلية وأكثروا من حض الوزير محمد شريف باشا على سرعة فتح أبواب ذلك المجلس وأطالوا العتب واللوم * فلما كان الخامس من صفر افتتح المجلس فكان يوما مشهودا أخذ الناس منذ شروق الشمس يتواردون عشرات عشرات الى صوب المقام حتى غصت حجرات المكان بالوفود من أهل البلاد والاجانب وامتلات دوائر قاعة المجلس بالوجهاء والمعتبرين ثم جاء الاعضاء بملابس الزينة والتشريف بخلسوا واصطف في الفسحة الخارجية فرقتان من الجند ولم يلبثوا الا قليلا حتى أقبل الخديوي في عربته بصحبه الوزير محمد شريف باشا وأمامهما أحمد خيرى باشا المهردار وطلعت باشا كاتب الديوان الخديوي فنادى الجند بالسلام وعزفت الموسيقى بالنشيد الخديوي فخرج للقائه زهاء العشرين من النواب وسائر النظار فدخل قاعة الاستراحة ولبث لحظة ثم انتقل في نحو الساعة السادسة الى قاعة المجلس ووقف في صدر المكان وعلى يمينه النظار ورجال ديوانه الخاص وأخذ ورقة وقرأ ما نصه

مطلب
افتتاح مجلس شوري
النواب

أبدى لحضرات النواب ممنونيتي من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن الاهالى في الامور العائدة عليهم بالنفع وفي علم الجميع أنى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر افتتاحه للآن بسبب المشكلات التي كانت محيطة بالحكومة فاما الآن فحمد الله تعالى على ما يسر لنا من رفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحوال الاهالى بقدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا

متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذي أنا فاتحه في هذا اليوم باجتماعكم وأنتم تحيطون
علما أن جل مقاصدي ومساعي حكومتي هو راحة الاهالي ورفاهيتهم وانتظام أمورهم
بتعيم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم وهذا منهجي واضح مستقيم
وعليه سبى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف فعلى المجلس ان يكون
مساعد للحكومة في هذه الامور كلها خالصا مخلصا في خدمة الوطن منحصرة أفكاره ومذاكرته
في المنافع العمومية مع مراعاة قرار اللجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول
سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذي هو أهم شئ في هذا الوقت الذي هو عصر الترقى
والتمدن فالواجب علينا الاعتدال والتأني وحسن التبصر وأن نكون يدا واحدة في اتمام
الاعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة ارتباطنا
بالحضرة السلطانية وبالدولة العلية أدامها الله تعالى نسأل الله حسن النجاح انه
ولى التوفيق

فلما أتم كلامه أمن الجميع على دعائه ونادى الرئيس قائلا أدام الله توفيقنا المعظم
فكرر ذلك أيضا الحاضرون ثم استراح الخديو بقدر جلسة الخطيب ثم خرج وركب عربته
فاطلقت عند ذلك المدافع من قلعة الجبل وأخذ الناس في الانصراف فلم يبق الاهيئة
المجلس فأمر رئيسهم ف عقدوا جلستهم وتلا عليهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب فحمد الله الذي جعل أمرنا شورى * ونصلى ونسلم على نبيه
المأمور بالشورى * والآخر بها وبعد فقد سمعتم ما تضمنته المقالة الخديوية الكريمة
من حسن القصد وسمو الارادة مما لم يزدكم الا يقينا بما عهدتم بالجناب المعظم من صفاء النية
* وكريم العنصر وسلامة الطوية * والارتياح الى المصلحة الوطنية * وقد اجتمعتم في
هذا المقام الرفيع بعناية الجناب الخديوي العالى ورجال حكومته السنية للنظر في أمور
أوطانكم وأنتم خلاصة وجهاء القطر وبضعة اعيانه ونبائه فواجباتكم من هذا القميل
نفضى عليكم بالحكمة والاعتدال والثبات ولا أزيدكم علما بأن الوطن العزيز محتاج الى
الاصلاح والتنظيم قابل للتقدم والعمران جامع لاسباب المنافع الكلية فما عليكم الا السعي
والاجتهاد لنوال المراد ولكنكم لاتجهلون أن علينا حقوقا واجبة الحفظ وذمما لازمة
الرعاية وأنا قد أمرنا شرعا بحفظ العهد ورعى الذم فن تلك شدة الارتباط وصلة التبعية
للدولة العلية التي هي مركز قوتنا ومرجع سطوتنا وقد عرفنا منها العناية وعرفت منا
الاخلاص فلا بد من ثبوتنا على هذا الحال بالنظر اليها ولاشك أن تقدمنا واستقامة أمورنا
وتأييد أمور الشورى فينا يسر هذه الدولة العلية لما ينشأ لنا عنه من القوة التي تكون
جزءا من قوتها الكلية * وان الذم والموانيق هي علاقتنا المالية والتجارية مع الدول
العظمى فهذه الذم واجبة الرعاية لما يترتب على حفظها من استحكام صلات المودة التي
ينشأ وبين هاتيك الدول التي ينبغي لنا الاعتقاد برغبتها في انتظام أمورنا وميلها الى كل ما

يعود علينا بالنفع كما صرح بذلك عظماء رجالها على منابر المجالس النيابية وفي المنشورات الرسمية فإذا حفظنا تلك العهود وراعيها تلك الذمم وعرفنا حقوق الوطن علينا ولم نذهل عن شيء من الواجبات لزمنا الأخذ بأسباب الحكمة والثبات للنظر فيما يجلب علينا النفع ويدراً عنا الضرر ويثبت للناس جدارتنا بما وصلنا اليه وبحقق لنا ظن أبناء الوطن الذين جعلونا موضع ثقتهم واعتمادهم فوجهوا إخواني همتهم في السعي بالحكمة والاعتدال والتبصر والثبات فنجد وجد ومن سار على الدرب وصل فنسأل الله العظيم حسن البداية والنهاية

ثم انفض مجلسهم وتفرقوا ولما كانت الساعة التاسعة من ناسع الشهر المذكور وفد على مقر الخديوي بالاسمعية عشرة من نواب البلاد انتدبهم المجلس لتقديم الجواب على الخطاب الذي افتتح به الخديوي المجلس فثلوا بين يديه وحوله جميع الوزراء والوزير محمد شريف باشا على يساره فتلا أحدهم هذا الجواب * بعد حمد الله على توفيقه وإرشاده * والصلاة والسلام على من اصطفى من عباده * نقوم لدى هذه السدة الخديوية الكريمة نحن معاشر الأمة المصرية مقام النيابة عن جميعها في تقديم واجب الشكر لهذا الجنب الخديوي الفخيم على انعطاف عواطفه نحو مجلس شورى النيابة الذي انتخبه بنطقه الشريف اظهاراً لمقصده الجليل من حيز القوة الى عالم الفعل واجابة لرغبة الأمة ونظراً لمصلحة العامة بعد أن أزال العوائق دونه وامتنعت الموانع بيننا وبينه بجلال هممة الخديوي التي زلت لها صعاب المسائل * وخضعت لها رقاب المشاكل * حتى صفا الوقت واطمأنت الحال ودنا المني وانقادت الآمال * ولقد شنف أسماعنا * وأنعش أرواحنا * ذلك النطق الكريم * وملك أفئدتنا سرورا وطرباً بما تضمن من الافصاح عما عرفناه لولى النعمة وألفناه من نزاهة ونبل القصد حتى لقد نطق السرائر بما بدا من سمات السرور فلم تدع بالألسنة من حاجة للتعبير عن فرط محبة عظيمة من أمة كريمة لمولى تفضل عليها وتحجب اليها تحجب محب لحريتها مشغوف بخيرها ونفعها فلم يبق الا أن نبذل غاية مافي السعة ونأتي جهد الاستطاعة في نفع هذه الأمة التي انتدبتنا للنظر في منفعتها واستنابتنا عن أنفسها لرؤية مصالحها سالكين في ذلك مسالك الحزم والتبصر وحسن النظر بما تحسن بهناية الله مغيبته وتحمد بين التوفيق غايته وبعضه مقاصد حكومتنا السنية المتجهة للإرشاد والساد وسلامة البلاد والعباد ويؤيد مالنا من روابط التبعية للذات السنية السلطانية والدولة العلية العثمانية التي منحتنا عواطفها الكريمة من الامتيازات المرعية فكمملت به النعمة وعظمت المنة ويؤيد علائقنا الادارية مع الدول الاجنبية المحبة لمنفعتنا وفائدة بلادنا مبتهلين الى الله جل ثناؤه وتقدست آلاؤه في أن يحرس لنا هذا الجنب الخديوي الفخيم ويديم لاولادنا به النفع العميم أدم الله توفيقها على أحسن مايرام وبلغ به الوطن العزيز غاية المرام آمين

والتأمو بعد ظهر اليوم ثانية وقرروا أمر تحقيق الانتخابات فكانت جملة النواب خمسة وسبعين ثم شكلوا لجنة لتتظر في أبواب وفصول قانونهم وتنقيحه وقد كان ذلك القانون هو الذى أنشأه الخديو اسمعيل وقرر كل قسم نوابا عنه فى تلك اللجنة فاخذوا باطراف العمل وساروا فيه سيرا حثيثا فلما كان ثمانى عشر صفر سار الوزير محمد شريف باشا الى مقر النواب ورفع لهم القانون الاساسى لاعمال المجلس لينظروا فيه ويبدوا ما يخطر لهم من الافكار فى مواد وحدوده ثم وقف بينهم وألقى فيهم هذا الخطاب

أيها السادة النواب - إني لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى من الحضور بينكم فى هذا اليوم الذى أعده مبدأ لعصر جديد ان شاء الله يعود على هذا القطر بالتقدم والنجاح وحضراتكم تعلمون أنه من منذ ثلاث سنوات ترائى لى أن الطريقة الوحيدة لخلاص البلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب البلاد مع الحكومة فى نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجودا يومئذ وقد أجرى فيه تغييرات ثم تيسر للحكومة النظر فيها ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم قد ترتب عليها تعويق اتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق وإني لأجد نفسى سعيدا حيث ان افكارى فى هذا الخصوص ما كانت الا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية وهذه الافكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم واجتمعتم فلئننى القطر على ذلك ولئننى أنفسنا وندعو للذات الشاهانية والحضرة الخديوية ببقائهما مصدرا لكل خير ولما كانت لأئحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم افكارنا جميعا قد أوضحت من منذ ثلاث سنوات وكررت المعروض الذى رفعته أخيرا للسادة الخديوية عند طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقاى بتحضير لأئحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للتظر فيها ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر فكان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيئا فشيئا لكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معنقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى ابداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأمورى الحكومة من أى وجه وأى صنف كانوا وصرح لكم بتطر الموازين العمومية وابداء آرائكم فيها وتطر كافة القوانين واللوائح وقد التزمت بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لأئحة مالم يكن بتصديق وقرار منكم وكذلك تعهدت بأن تجعل النظر لمسؤولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقكم والغاية فانه لم يحجر عليكم فى شئ ما ولم يخرج أمر مهم عن حدد نظركم ومرافبتكم انما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ من ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهداتها بالتزامات ليست

خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لتنظرها أو لتنظر النواب حاشا لانه يجب عليها قبل كل شئ القيام بتعهداتها وعدم خدشها بشئ مما حتى نصلح خلالها وترداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية ومتى رأت مناتلك الحكومات الكفاءة لتنفيذ تعهداتها بحسن اخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيا فشيا مما نحن فيه وانى لوائق بأن بصيرة وحكمة النواب ومساعدتهم الحكومة لابد وأن يترتب عليها ازدياد الثقة بنا هذا ومن المعلوم أننا تابعون للدولة ومصالحنا مرتبطة بصالحها وهذه التبعية وهذا الارتباط هما السبب الوحيد لسلامتنا ونجاتنا لحقوقها حينئذ هذه مقدسة ومراعاتها فرض واجب على كل منا ولندع الله جميعا بدوام الذات الشاهانية وتأيد دولته العلية التي منحتنا امتيازات تضمن لنا خير البلاد وحيث ان الثمرة المتصودة من اجتماع المجلس وهي نفع البلاد لا يمكن الحصول عليها الا بعد التصديق على لائحة اجرا أنه فالأمر من حضراتكم المبادرة بنظرها حتى اننا نشرع في الاعمال النافعة المهمة ولكون من تمة وضع مجلس نواب يلزم ترتيب مجلس للادارة وتحضير القوانين ومحاكمة المأمورين عن كل امر يجروونه خارج عن حدودهم أو يخالف للقوانين واللوائح في أثناء تأدية وظائفهم فقد عمل عن ذلك مشروع وهاهو مقدم للمجلس المأمول أيضا الاسراع بنظره حتى يصدر مع اللائحة وان شاء الله تعالى سيتقدم لحضراتكم عما قريب مشروع لائحة الانتخاب فنسأله تعالى ببركة نبيه الكريم أن يقرن أعمالنا بالنجاح ويوفقنا للاتحاد قولا وفعلا لما يكون فيه الاصلاح آمين آمين بحاجاتكم النبيين * فأتمن الجميع على دعائه ثم تركهم وانصرف

مطلب
مفاد ما في قانون
الانتخاب

وكان مفاد القانون الذي رفعه اليهم في ذلك اليوم أن الانتخاب وكيفيته يكون بموجب قانون آخر يتبع القانون العمومي وان مدة النيابة لأقل من خمس سنين وان النواب يكونون أحرارا في الاعمال واذا ارتكب أحدهم جريمة فلا يجوز للحكومة أن تقبض عليه الا بأذن وتصديق من هيئة المجلس ومن أحكام هذا القانون أيضا أن النائب ينوب عن الجهة التي استنابته خصوصا وعن مصالح البلاد كلها عموما ويكون مقر المجلس بالقاهرة ولا يكون التثامه الا بأمر يصدر من الخديوي على قرار من مجلس الوزراء ولا يستعمل في ادارة أشغاله الا اللغة العربية ويصح للنظار أن يحضروا جلساته كما لهم أن يستقنوا عنهم في الجواب عن بعض المسائل أعضاء مجلس الادارة أو أحد كبار الموظفين في دواوينهم ويقدم النظار الجواب عن كل ما يسئلون عنه من قبل المجلس اللهم الا فيما هو من خصوصياته واذا اختلف مجلس الامة ومجلس الوزراء في أمر من الامور جاز للخديوي حل عقد مجلس الامة وبأمر بانتخاب سواء لمدة أربعة أشهر فاذا صدق مجلس الامة بعد الانتخاب الثاني على ما كان قرره الاعضاء السابقون كان قراره هو النافذ ولا يعرض موضع الخلاف على مجلس الامة ثانية في كل مدته وللمجلس الامة أن يتداول في اللوائح والقوانين والضرائب وفي كل أمر تعرضه عليه

الهيئة الحاكمة وله أن يرى في ميزانية الخزينة ويبدى فيها رأيه فقط وأن لا يمكن فرض ضريبة من أى نوع كان بدون قانون يصدق عليه من الأمة فإذا جمعت ضريبة غير المقرر في القوانين المالية عوقب جامعها بأشد العقاب أما ميزانية الخزينة فتعرض على المجلس قبل نهاية الشهر الثاني من التمام ويجب أن تكون موضحة التوضيح الكافي وله أن يبدى فيها رأيه وعلى الرئيس أن يبلغ ذلك الى ناظر الخزينة قبل انحلال المجلس ولا يجوز للمجلس التدخل في أمر العسكرية ولا قرارات لجنة التصفية وصندوق الدين وما يتعلق به ولا المعاهدات الدولية ولا يمكن المداولة في المجلس الا اذا حضر ثلثا الاعضاء ويقتضى لاعتبار قراراته أن تكون الاغلبية تامة أما قرار مسؤولية النظار فيكون باغلبية من ثلاثة أرباع الحاضرين * هذا هو ملخص ما في ذلك القانون أتيت به تبليغا للفائدة المقصودة

مطاب

تولية أحمد عرابي
وكالة ديوان الجند
وورود لائحة
الدولتين للخديوي

وفرح الناس بفتح أبواب مجلس شورى نواب البلاد واستبشروا به خيرا فأناثروا في تلك الليلة منارات المساجد بالانوار الكثيرة وأقيمت الادعية على المنابر وهذا الناس بعضهم بعضا وأصبحوا وقد شاع الخبر بتولية أحمد عرابي بيك وكالة ديوان الجند فتناقلوه وهم بين مصدق ومكذب لاسيما أصحاب صحف الاخبار الاجنبية فلما كان خامس عشر صفر تأكد الخبر وتحقق صدق الرواية فهرع الى داره طوائف الضباط والوجهاء والعلماء والاعيان والعلماء وأصحاب العكاكيز ووقف الشعراء والمطربون على بابه وأتمته الهدايا من الضأن والارز والسمن والعسل والسكر وبن القهوة والشمع وغير ذلك من أعيان البلاد وعددها وتزاجوا على بابه يرجون لقاءه ويتمنون طلعه ولبث الحال هكذا يومين وخرج في تاسع عشره يريد مقر الخديوي ليقبل الاعتاب على العادة المألوفة في مثل ذلك فقابلته الخديوي بالبشاشة والترحاب وأحسن لقاءه ولم يخرج من عنده حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيين ورفع الى الخديوي ورقمان هما في عرف أهل السياسة (لائحة) وقالوا انهما متحدثان في المعنى والبنى وقد بعثت بهما الدولتان بعد ان الخديوي فيهما بالمساعدة والاعانة على قضاء كل ما يروم نواله لاستتباب سلطته وتمكين عرشه عند مسيس الحاجة وشاع خبرهاته اللائحة فتعجب الناس وكثر تحذيرهم به وداخل ضابط الجند بسبب هذه اللائحة من الريب ما داخلهم فاجتمعوا بقصر النيل وتناجوا في الامر طويلا ثم اتفقت كلمتهم على أن البارودي يكلم هيئة مجلس النظار في ذلك فاجتمع البارودي بالوزير محمد شريف باشا ثم بالخديوي وعقدوا لذلك مجلسا وتكلموا في معنى ما جاء في تلك اللائحة وبعد أخذ ورد اتفقت كلمتهم على أن يرسلوا صورة منها الى الباب العالي ويسألوه الجواب فبعث الوزير بالصورة الى دار السلطنة وكأَنَّ القونصلين قد أحسبوا وراء ذلك فتقدموا الى الخديوي والوزير محمد شريف باشا في طلب الجواب وألحوا في الطلب فرسم الخديوي الى الوزير باعطاء الجواب فطاول فشدد الخديوي في ذلك فتكبر الامر على الوزير وطال بينهما الاخذ والرد فاحتجب الوزير في بيته أياما فذهب اليه قونصل الفرنسي في صبح حادي عشر صفر وطلب الجواب وألح في الطلب فقال الوزير

لأجواب عندي على ذلك البتة والبلاد آمنة مطمئنة فإذا وقع فيها ما يكدر صفو الراحة كانت الدولة العلية أولى بالذب عنها فهي صاحبة السيادة والخليفة أمير المؤمنين سلطان البلاد فقال القونصل لاسبيل الى غير ما تطلبه دولتنا الفرنسية والانجليز فقال الوزير لم أعرف الى الآن ما مراد الدولتين من هذه اللاتحة ولذلك فاني أستوضح منك مشكلاتها قبل اعطاء الجواب فقام القونصل وتركه * وكلم قونصل جنرال الانجليز كبير سياستهم فيما يسأله الوزير محمد شريف باشا من فك أسرار ومشكلات تلك اللاتحة فرسم له بسؤال الوزير عما يريد ففعل وأبلغ ما أعطى بيانه ولبث ينتظر الجواب * وبينما كان الوزير محمد شريف باشا يراقب الحوادث ويطمئن القلوب الراجفة ويعمل على منع الاراجيف وازالة القلاقل اذ كتب صاحب صحيفة التيمس الانجليزية عبارة طويلة سماها باسم لاتحة الحزب الوطني وضممتها فصولا وأبوابا لا يسعنا ايرادها هنا وعزا تحريرها وتنميتها الى أحمد عرابي بيك وبالحق في مدحها واستحسانها فكبر هذا الامر على الوزير واستعظمه وعمل على تكذيبه واذهاب ما علق منه بالاذهان * وقد كان لما تظاهر أحمد عرابي بيك بزعامه العصابة وتمكن من خلع الرئيس مصطفى رياض باشا من منصب الرياسة أحدثت به عيون أهل السياسة من الانجليز وكثر تواردهم عليه وترافهم اليه رغبة منهم في معرفة قدر ادراكه ومبلغ علمه بعوائد الامم وأحوال البلاد وأساليب السياسة وكائنهم كانوا يرون في ظهوره وخروجه مفتاحا لمغلق آمالهم فسيروا له من دهاتهم وجلة أسرارهم جماعة فجعلوا يسايرونه ويبالغون في الاطراء عليه ويخاطبونه بأنواع التجلة والتكريم ويقولون له انك لمن أعظم الرجال وأقرب أهل السياسة وانك لرجل الحرية ومنقذ البلاد وأهلها من وهدة الذل والعبودية وأنت العون والسند وأنت الملجأ والملاذ وغير ذلك من صنوف التضليل والتغدير حتى استهووه وتطوحوابه وكان ممن لازمه ملازمة الظل من دهاة هؤلاء القوم طاغيتان أحدهما اسمه وليم جريجوري وثانيهما اسمه بلانت فاستهواه وغررا به تغريرا وزينا له كل عمل وحترضاه على فعل كل خارجة لاسيما منهما بلانت فانه تمكن من أحمد عرابي وأخذ بجميع قلبه وكشفه على ما خفي من سر بعثته الى ديار مصر التي انما هي سلخ الكنانة عن تابعية دار السلطنة العثمانية والعمل على تشييد ملكة عربية اسلامية يدخل تحت لواثها سائر بلاد العرب من عراق وبنين وحجاز وما بين النهرين وتونس وطرابلس والجزائر ودمشق الشام وكل بقعة من بقاع الارض التي تحتلها العرب وبالحق في المدح والاطراء * قال أحد المقرئين الى أحمد عرابي * وما زال ذلك الطاغية باجذ حتى ناقت نفسه الى طالب المعالي رخيصة وخضع له وعمل بمشورته فتجرد عند ذلك هو ورفيقه جريجوري على تحرير الرسائل المهيجة وتلفيق الاراجيف المزججة وجعلوا يرسلانها الى صحفهم السيارة على لسان عرابي وشيعته حتى كادا ينكران متبوعية مصر لدار السلطنة العثمانية فكانت أصحاب صحف الانجليز ترددها مشفوعة بالمدح والاطراء والتكهن بزوال ملك آل عثمان اه قال جماعة وزين بلانت ورفيقه الى أحمد عرابي مخافة شريف مكة وغيره

مطلب

ملازمة جريجوري

وبلانت الانجليزين

لاحد عرابي

من كبار العرب في هذا الامر وفي استنهاضهم الى الخروج وشق عصا الطاعة عند ظهور الحركة بمصر قيل وسير الى السنوسي بطرابلس الغرب يستقدمه الى القاهرة ليكون له عوناً على بلوغ الارب وبعث الى كبار مسلمي الهند يشاورهم في الامر فظهرت عندئذ حركة الخواطر وبدأت اشارات الخروج وبلغت ترهات بلانت ورفيقه يومئذ والتغريب باجد عرابي مبلغاً عظيماً فكانا اذا سمعا أجد عرابي يقول في حديثه مع آخران نفرا من الجند أصابتهما اليوم تخمة تستلزم نقلهم الى المنشى كتبنا الى أصحاب صحف الانجليز يقولان أشار أجد عرابي بيلك بنقل فريق من الجند وطائفة من العسكر بجميع سلاحهم وكراعهم الى المحلة الفلانية وهم على قدم الرحيل والقلوب واجفة والخواطر مضطربة * واذا سمعناه يقول زرت اليوم ضريح ولي الله العتريس أو اجتمعت بشيخنا فلان فدعاه صالحاً وبشرني بانى من أهل الجنة * كتبنا يقولان علمنا من يوثق بحديثه أن قد طاف أجد عرابي بيلك على مساكن الجند ومعه جماعة من كبار العلماء وأئمة الدين فحثوا الجند على التعاون والتعاقد واعزاز الدين والخروج عن طاعة الخلافة الغير الصحيحة الى طاعة خلافة عربية تعمل بسنة الله ورسوله وغير ذلك من الاقاويل فكانت هذه الترهات والاضاليل داعية الى كثرة القول والقيام وحاملة الى طيرة الناس وتخوفهم وتسألهم * قلت * وبلانت هذا رجل طويل القامة يبلغ الخمسة والاربعين من العمر قد نزل بالقاهرة أعواماً يتقرب من بعض العلماء والمشايخ وأرباب الوظائف العالية ويطاهر بعجته الى العرب وميله الى عاداتهم وطباعهم وحريةهم ولا يستقل ولا يفتقر للذل والاسترقاق وولوعه بالغتهم وغير ذلك فاعتز الكثير منهم بظهور أمره وأدبوه من مجالسهم فجلس وتصدر واستفرغ ما في صدورهم من حيث لا يشعرون حتى عرف مبلغ علمهم ولبث بين ظهرائهم يكاتب رؤساء قبائل عرب العراق واليمن والجزائر وما بين البحرين ويستميلهم بالعطايا والتحف وأصحاب الحل والعقد في سنة من النوم لا يعرفون من أمره سوى أنه من سواح الانجليز الذين دأبهم البحث عن الآثار القديمة ومعرفة طبقات الارض وقد اتخذ عين شمس له مقراً وما زال حتى ظهرت الفتنة بالقاهرة وقام أجد عرابي ومن معه يطالبون بمطالبتهم الطويلة فقرح بلانت وتجرد الى العمل وتقرب من أجد عرابي وأصحابه وجعل يزين لهم ما بدا ويحضهم على الاخذ باطراف الحزم حتى كان من أمرهم ما كان مما سيتلى عليك في محله ان شاء الله تعالى

مطلب

استعلام السلطان
من الدولتين عن
داعي ارسال اللائحة

وكان لما بعث الوزير محمد شريف باشا بصورة من لائحة الدولتين الى الباب العالي كما تقدم القول أرسل السلطان الى كبيرى السياسة الانجليزية والفرنسية يستعلم عن السبب الحامل على ارسال تلك اللائحة ويحجج عليهما في ذلك فكتبنا اليه يقولان انهما لا ينازعان في تبعية ديار مصر الى مقام الخلافة العظمى وليكنهما عزماً على تأييد سلطة الخديوى وحفظ مقامه الحالى وبقاء المراقبة على ديوان الخزانة كما هي بدون مساس فأحس السلطان بما وراء ذلك من اشتداد الازمة واستفعال الخطب اذا ظل الحال هكذا (قال جماعة) فراسل

أحمد عرابي سرا على يدي أحد القرناء وكأنه رسم له بحشد الجنود والتأهب للقتال ومنع تطاول يد الدولتين فعاد أحمد عرابي الى طلب زيادة عدد الجنود العاملة الى ثمانية عشر ألفا وألح في الطلب وشدد على البارودي في ذلك فنادوا في البلاد بخروج سائر العسكر وجاءت الكتب بذلك الى المديرين والمحافظين فالتحدرت العساكر أفواجا الى القاهرة حتى ضاقت بهم منازل الجند أوكدت وانبثوا في الاسواق نخاف طوائف الاجانب وزاد بهم الهلع وظنوا أنه ما وراء هذا الزحام الاحصول الطعن وامتناسق الحسام ففرح الكثير منهم الى الاسكندرية وطارث الاخبار الى الاتفاق عجىء العسكر الى القاهرة فهوّل أصحاب الصحف الانجليزية وبالغوا في الامر ونهوا قومهم عن الاختلاط بالمسلمين ومجانبتهم

مطلب

الخلاف بين الحكومة
ونواب البلاد على
تحويلهم حق نظر
ميزانية الخزينة

وبينما كان الجند يأتون الى القاهرة تباعا والناس في شغل بهم عما سواهم كان نواب البلاد وهيئة الحكومة على طرفي نقيض في أمر تحويلهم حق النظر في ميزانية الخزينة ومصرفات المصالح وقد طبل بينهما الخلاف واشتد اللدد وأرسلوا لائحة مجلسهم الى مجلس النظر يريدون الاعتراف منه بما أدخلوه على موادها من التحويل والتعديل لاسيما ما كان متعلقا بامر الميزانية فطاولهم المجلس ومناهم فأبوا الا ما يقولون وشددوا فلما كان يوم الثلاثاء حادي عشر ربيع الاول أعاد مجلس النظر الى مجلس النواب اللائحة وأرسل يقول ان وكبلى الدولة الانجليزية والفرنسية يريان أن لاحق لمجلس النواب في تقرير ميزانية الخزينة ولكنهما مع ذلك يقبلان المخايرة في هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين جماعة النواب وهيئة الحكومة على سائر بنود اللائحة وبناء على ذلك تطب الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة كما عدلها مجلس النظر وأن يترك البند المتعلق بالميزانية الى حين وأن يبدى النواب رأيهم النهائي في أمر الميزانية لينتسنى للحكومة جعله أساسا لفتح باب المخايرة مع الدولتين فلما وصلت اللائحة الى النواب مع الطلب بما تقدم كبر عليهم الامر واستعظموه واجتمعوا في بيت محمد سلطان باشا الرئيس وطلبوا ليلتهم تلك يتشاورون ويتدبرون في العمل الى أن اتحدت كلمتهم على أن لا يجيبوا طلب الحكومة ولا يملأوا برأيها وأصبحوا وقد عقدوا مجلسهم على غير العادة وقرروا تسليم اللائحة وورقة الطلب الى اللجنة التي كان عهد لها تحرير تلك اللائحة واشتروطوا عليها أن تنظر فيها ثانية وتعديل منها ما ترى لزوم تعديله ففعلت وصادقت على بعض البنود وأنكرت البعض الآخر وأبقت البند المتعلق بالميزانية جائرا بجميع أحكامه * وفي صبح الخميس سار خمسة عشر من النواب الى مقر الخديوي بالاسماعيلية ليطلبوا تنفيذ ما قرروه فروا في طريقهم بيت الوزير محمد شريف باشا فدخلوا عليه وسألوه قبول العمل بما قرروه فامتنع وقال هذا لا يصح فألحوا عليه فلم يقبل فساروا الى مقر الخديوي وتقدموا اليه في قبول لائحته والعمل بما قرروه فيها والا لزم تنزيل الوزير محمد شريف باشا وخلعه من منصب الرئاسة وتحقيق الوزير ما في عمل جماعة النواب من الدسائس الغريبة عن طباعهم نخشى العاقبة وعبد الى المواربة وعين للوساطة بينهم

بطرس بك غالى كاتب سر مجلس النظار يومئذ ورسم له بالعمل فقام بالامر وسلك مسالك الجند والحزم وعمل على تذليل تلك الموانع فكان اذا مهد السبل وأحكم العمل وسار معه جماعة النواب وهم آمنون مطمئنون بوصولهم الى الغرض وسوس لهم خناس العصابة فيرجعون ناكسين وهم أشد عنادا وأصعب مراسا من ذى قبل فلما ضاقت عليه المذاهب أوكدت عمد الى مجامع العصابة فدخلها وما زال بكبارها وأصحاب الكلمة فيها حتى تمكن من تعديل بعض مواد القانون اتى لاعلاقة لها بالميزانية وبقيت أحكام المادة المتعلقة بالميزانية على ما هي عليه * وعظم الامر على الوزير محمد شريف باشا واستعصى الحل فكتب قونصلا الانجليز والفرنسيين اليه يقولان بناء على كون قانون التصفية لم يجع اشتراط نواب البلاد في تقرير ميزانية الخزينة وبما أن الدولتين تقرآن أن أمر الميزانية صار ارتباطا بينهما وبين حكومة مصر فيجب على الحكومة أن ترفع لنا بيان ما يتطلبه الآن مجلس النواب لنبعث به الى أصحاب الحل والعقد في بلادنا ليروا فيه رأيهم * فجمع الوزير في اليوم الثاني مجلس الوزراء وبينهم بعض نواب البلاد ليروا في طلب القونصلين فتكلموا في ذلك كثيرا وطال الاخذ والرد حتى علت الاصوات وكثرت الضوضاء واشتد الخصام وأبى النواب الا ما أرادوا من رؤية ميزانية الخزينة وتعديل أبوابها على ما فيه المصلحة للبلاد ثم انصرفوا على غير طائل وعاد الوزير بعد ظهر ذلك اليوم فجمع اليه محمد سلطان باشا رئيس النواب وشريعي باشا رئيس الخوير وشواربي بيك وأمين بيك الشمسي ومحمد بيك سليمان وأباطيه بيك وأحمد أفندي محمود وإبراهيم أفندي الوكيل وأحمد أفندي عبدالغفار وأعادوا البحث والجدال في أمر الميزانية وفي نص الفقرة المختصة بها في القانون (قلت) وكان نصها * متى تعادلت الآراء استشير مجلس الأمة فاذا صدق على قرار لجنة الخوير وأصرت الحكومة على رفض ذلك ولم تستعف الوزراء فض المجلس وجاز حينئذ أن تسحب المبالغ الضرورية لسير الادارة وتوقفت الميزانية الى أن يلتمس مجلس النواب الجديد فاذا صدقت لجنته على قرار لجنة المجلس السابق وجب أن يكون قرارها مقبولا اه فلم يتم لهم في ذلك اليوم أمر ولم ينفذ لهم نزاع فانصرفوا وعادوا في نحو الساعة الثالثة عشرين ليلا الى بيت الوزير ولبثوا يتنازعون الى ما بعد نصف الليل ولم يكن لهم لم يمتدوا الى أمر ما فعند ذلك نهض الوزير وقال بعد كلام * وحيث اننا لم نصل مع توالي الاجتماع الى حل عقدة هذا الاشكال صار المنعين على المخاطرة في ذلك مع قونصلي الانجليز والفرنسيين اذهي من المسائل الخاصة بهما وباثوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع الوزير بالمستمرمالت قونصل الانجليز وتحدثا في الامر فدخل عليهما قونصل الفرنسيين فتكلموا في ذلك طويلا وتكلموا أيضا فيما لم تصل اليها معرفته الى هذا الحين وسير الخديوي الى سلطان باشا يستحبه على استمالة النواب وتركهم لهذا الشعب فأرسل يعتذر ويقول انه لم يقو على استمالتهم لانهم جميعا في طاعة عصابة الجند وفي قبضة أجد عرابي وأن لاسبيل الى عدولهم الا باستمالة زعماء

مطلب

تمكن: بطرس بيك

غالى من تعديل بعض

طلبات نواب البلاد

العصابة واسترضاهم وهذا مما لا يقوى عليه هو أيضا فرسم الخديوى باجتماع مجلس الوزراء فاجتمعوا في سراى عابدين وبينهم سائر النواب وجعلوا يتجادلون في أمر ذلك الخلاف فطال الحال واشتد بهم الجدل وكثر القيل والقال واحتدم الخصام وتعذر الوثام وانفض مجلسهم على غير طائل

واتفق أن دخلت في هذا اليوم الى ميناء الاسكندرية سفينة من سفن الحرب العثمانية آتية من دار الخلافة بجاء الخبر بدخولها وتحدث الناس به كثيرا وجزم بعضهم أن مع ربانها أوراقا من بسيم أفندى أحد قرناء السلطان مخاطبة الى أحمد عرابى وقال البعض ان الربان المذكور جاء خفية من الاسكندرية الى القاهرة وزل بالزلزل المعروف بلوقائدة أورينتال وبات ليلته تلك وأصبح فركب جارا واستبردا من أكسبة جند البحر وسار الى بيت أحمد عرابى بباب اللوق ولبت معه ساعة ثم رجع من فوره الى الاسكندرية وشاع الخبر بذلك فطهيره الناس الى الآفاق وبالغوا في نقله على عاذتهم فأحس الوزير محمد شريف باشا بما وراء ذلك فكتب الى المديرين والمحافظين وسائر مأموري الحكومة يلزمهم بحض الناس على ملازمة السكون وترك الاشاعات وعدم الاخذ بأقوال أصحاب الغايات وقال ان هذه السفينة وان كانت من مراكب الحرب العثمانية ولكنها ليست الآن الا في خدمة والى الشام وانها لما قامت من مرساها قاصدة إحدى الموانى العثمانية صادفها ريح عاصف فألقى بها الى سواحل مصر فلجأت الى ميناء الاسكندرية فرارا من الانواء ونظرا لكون بعض آلتها تعطلت بأسباب ملاقاته ستلبث أياما حتى تصل ما تعطل منها في هاويس الاسكندرية ثم ترجع * فلم تبطل هذه الاقوال الاشاعة ولم تنكشف الناس عن القيل والقال ولا سيما الاحزاب وضباط الجند * قلت * وكان لمجى تلك السفينة في هذا الحين أى بعد رفع الدولتين لأختهما التى تقدم الكلام عليها مرتخى وقصد منوى عليه وكان السلطان وجميع قرنائه وأرباب شوره وأصحاب الكلمة في بابه وامامه الشيخ أحمد أفندى أسعد يعقدون أن في ظهور أحمد عرابى وأصحابه وقيام الحركة بالقاهرة واضطراب الخواطر بالاقليم القبلي فتحا ونصرا للسلطان على خصومه بديار مصر فترفع فيها كلمة الخلافة وترجع الشوكة السلطانية الى ما كانت عليه قبل سنة ثلاث وعشرين ومائتين وألف هجرية فيبتولى الباب العالى التصرف فيها كتصرفه في بقية الايالات التابعة له من شام وعراق وكانت هذه الهواجس والظنون تقوى عندهم كلما أكثر أحمد عرابى والبارودى من ارسال كتب التلطف ورسائل التأدب الى الباب العالى عند الشكوى من أفعال الرئيس مصطفى رياض باشا ومراقبى الانجليز والفرنسيين فكثير لذلك توارد كتب السلطان على أحمد عرابى بواسطة بسيم أفندى من قرناء السلطان وجاءته الرسائل تترى بما لم تصل اليها معرفته الى الآن وظن رجال السلطنة أن بضاعتهم ردت اليهم * وكما كانت آمال رجال السلطنة العثمانية وبابهم العالى معالقة بالحال وهم في تغرير وضلال قد كان سعاة الانجليز لا يشكفون عن التقرب من أحمد عرابى وأصحابه

مطلب

دخول إحدى
سفن الحرب
العثمانية الى مدينة
الاسكندرية وما
كان من وراء ذلك

وكبار سياستهم يعملون ليس على سلخ مصر عن تابعة الخلافة العثمانية فقط بل وعلى ازالة ملك آل عثمان من قارتى آسيا وأوروبا وتأسيس دولة عربية ليتم لهم ما يرغبون وهذه هي سياسة غلادستون شيخ الاحرار من الاحزاب الانجليزية منذ حدثت فكتافوا كلما تقربوا من أجد عرابى مال عطفوا اليهم وعمل بقولهم وأخذ بمشورتهم وراسل مشايخ العرب باليمن والحجاز والعرق وتقرّب من السنوسى ونحجب الى شريف مكة ودعاهم الى نصرته وجماعة الانجليز يظنون ان قد تم الامر لشيخ سياستهم غلادستون على يدى أجد عرابى * وكان الخديوى اسمعيل باشا يرى أيضا أن في ظهور أجد عرابى واتساع كلمته واستفعال الخلل بديار مصر وتمديد مقام ولده توفيق باشا فرصة ربما كان من ورائها خلع ولده وعودته هو الى كرسى الخديوية بفعل براسل أجد عرابى وعينه بالامانى الكثيرة ثم عمد الى الاستعانة ببعض كبار الانجليز فهاداهم بالهدايا العظيمة والتحف الجليلة قبل فكان أجد عرابى يظهر له الطاعة ويتلطف معه فى الجواب ويهون عليه الامر حتى ظن اسمعيل باشا المحال وبلوغه غاية الآمال * وكما كان اسمعيل باشا يبنى النفس بقرب عودته الى منصب الخديوية على يدى أجد عرابى بك وأشباعه كان الامير عبد الحليم ابن محمد على باشا يتقرب أيضا من أجد عرابى ويهديه بالهدايا النفيسة والتحف الجليلة على يدى أحد خدام بيت أبيه ويستقره الى نصرته برّد تاج الوراثة اليه * قال بعض الكتاب وأغراء بالرشا والبرطيل واشتد أماله وكبر رجاؤه بتخرب بعض رجال المايين الهمايونى اليه فكان أجد عرابى يساير ويتلطف فى الرد عليه وعينه بالامانى الكثيرة حتى اخلط لاسر على أجد عرابى وطاش منه الرجاء وحار وقد كان فى خلده أن لا يعمل الا لنفسه ولا يجاهد لا فى اعلاء كلمته وارتفائه منصب الخديوية بماله من المكانة عند أهل البلاد والمحبة فى قلوب العساكر والاجساد والهيبة عند كبار الناس وعظمائهم كما فعل محمد على باشا الكبير * قال جماعة وقد كانت هذه الآمال أيضا لانفارق كلا من محمود باشا البارودى ومحمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد كما سيتلى عليك خبر ذلك فى موضعه فكان مثلهم فى ذلك كمثل صبي فى يده مرآة يوجه بها نحو أشعة الشمس فينطبع ضوءها على الارض ومعه فتية يتزاحون ويترامون على ذلك لضوء فكل منهم يظن أنه أصاب منه شيئا وهم لا يتقدرون لحركة ذلك الضوء بتعريك الصبي للمرآة

مطلب
عودة النواب الى
تنفيذ لأختهم
وما كان من وراء
ذلك

وعاد نواب البلاد ان طلب تنفيذ لأختهم كما صوروها وأصروا على ذلك وسار جماعة منهم الى مقر ديوان الداخلية ورفعوا الى الوزير محمد شريف باشا تلك اللائحة وقالوا ان تأخير تنفيذها جالب للفشل فانا عقدنا النية على أن لانترك هذا اليوم بعضى بغير قبولها أو رفضها بفعل الوزير يلاطفهم ويهون عليهم ثم قال لهم تعلمون أنى منذ أخذتم فى تنظيم لأختكم هذه لم أتعرض لشيء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها على أنى مازلت لانا نحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه فى أمر الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن وقالوا ان هذا من خصائصك ولادخل للدول

فيه بل لا موجب لتوقفهم فانهم مسئلة لا تمس مالهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة فقال الوزير
لا سيبل الى ذلك البتة فقال جماعة منهم لنا نأسف جدا أن يصادق لنا على اللائحة غيرك
يعنون بذلك اكرامه على التخلي عن منصبه * ثم انصرفوا وساروا الى مقر الخديوي بعابدين
وتمثلوا بس يديه وتقدم جماعة منهم وقالوا انا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله الى اصلاحه
ولهذه الغاية قدمنا مولانا الامة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة
ونقعتها وطلبنا الى الوزير محمد شريف باشا أن يوقع عليها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض
لشيء مما في العقود الدولية فقال الخديوي اذا كانت هيئة الوزارة قد أثبت التصديق على
اللائحة فاداء تطلبون حينئذ قالوا نطلب أن تعزل فتشكل وزارة أخرى لاتأبى التصديق
والعمل معنا فوعدهم باعطاء الجواب في غد فانصرفوا ولبث الوزير بعد خروج نواب البلاد
يفكر في الامر ويضرب أحجاسا في أسداس ثم قام ودخل على الخديوي وجعل يتحاجج
معه فيما لم تصل اليها معرفته وحضر قونصل الانجليز والفرنسيين الى مقر الخديوي ودار
بينهم الحديث فاشتد الجدل وطال القيل والقال فوقف الوزير وقال قد خلعت نفسي
واعترزت منصب الرئاسة فانظروا من يتولاها فأجابه الخديوي الى ذلك بحضرة العونصلين
وانصرفوا جميعا وفي نحو الساعة الثالثة من ليلة الخميس خامس عشر ربيع الاول من
السنة استقدم الخديوي الخمسة عشر عضوا المندوبين من قبل شورى البلاد لتنفيذ لائحة
مجلسهم فتمثلوا بين يديه فقال قد تخلى الوزير محمد شريف باشا عن الرئاسة فاختاروا من
يتولاها فقالوا لا وحاشا أن نتعدى على حقوق مولانا فيطلب مولانا من يختاره فقال لابد من
ذلك فامتنعوا وبقي الحال على ذلك الى الساعة الرابعة ثم انصرفوا وأصبحوا وقد استقدمهم
الخديوي وسألهم أن يختاروا من يصلح للرئاسة فقالوا نختار اليوم محمود باشا البارودي رئيس
ديوان الجند بشرط تصديقه على لائحة مجلسنا ثم خرجوا وساروا الى بيت البارودي وانتظم
مجلسهم ومعهم جماعة من كبار عصابة الجند فتناجوا بينهم فيمن يختارونهم لبقية المناصب
فاختاروا جماعة ممن لا يخالفون لهم كلمة وكانهم أرسلوا الى الخديوي يعلمونه بذلك فلما كان
بعد ظهر اليوم بعث الخديوي مع أحد رجال ديوانه الخاص الى محمود باشا البارودي
مرسوما يقول فيه حيث دعت الاحوال لانقصال محمد شريف باشا بناء على استعفائه واقتضى
الحل لاتخاذ بديل عنه يكون متأهلا ولائسا لمقام الرئاسة ومن المسلم عندي أنك أعل
لذلك لما انصفت به من كمال الدراية وحليته الصديق والاستقامة فقد انتخبك لهذا المقام
الخطير وقلدتك رئاسة النظار فيجب المبادرة بانتخاب هيئة النظار اللازم وجودها معلنا وحيث
ان غاية قصدي ونهاية أملى انما هو السعي وصرف الجهد لما فيه عمارة وسعادة الوطن
واصلاح أحواله فأملى فيك القيام بهذه المساعي الحسنة وفقنا الله جميعا لما به الاصلاح
والنجاح انتهى
فلما وصل الكتاب الى البارودي فرح به وفرح من معه من زعماء العصابة ورفع في

مطلب
استعفاء الوزير
شريف باشا وتولية
محمود باشا البارودي
بذله

الحال الى الخديوى عريضة ذكر فيها أسماء الوزراء الذين انتخبهم للهيئة الجديدة فكان مصطفى باشا فهمى للخارجية والحفانية وأحمد عرابى بيك للجهادية والبحرية واسماعيل باشا أيوب للمالية ومحمود فهمى بيك للاشغال وعبدالله فكرى باشا للعارف وحسن شربعى باشا للاوقاف فاستقدم الخديوى فى الحال قونصلى الانجليز والفرنسيين وكامهما فى هذا الامر طويلا ثم صدق على هذا الانتخاب وأضاف الى عهدة البارودى نظارة الداخلية أيضا وجاء الوزراء وتمثلوا بحضرة الخديوى بسرارى عابدين فخادتهم طويلا فيما لم تصل اليها معرفته فلم ينصرفوا من عنده حتى خلع اسمعيل أيوب باشا نفسه من منصب وزارة المالية بناء على أن خلع الوزير محمد شريف باشا لنفسه من منصب الرياسة لم يكن الا بسبب بند الميزانية فأجابه الخديوى الى ذلك وقام بقية النظر وساروا الى بيت البارودى ف عقدوا مجلسهم واختاروا لوزارة المالية بعد جدال طويل على صادق باشا وباثوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد اجتمع سائر ضباط الجند فى ساحة قصر النيل فوفد عليهم أحمد عرابى بيك وخطب فيهم خطابا طويلا فى وجوب الاتحاد ووحدة الكلمة ثم ساروا بعد ذلك جميعا الى رحبة عابدين وتمثل جماعة من كبارهم أمام الخديوى يتقدمهم طلبة عصمت بيك أمير جند قصر النيل فألقى طلبة خطابا بين فيه تعلق جميع أفراد العسكر بشخص الخديوى ثم ساروا الى ديوان الداخلية حيث البارودى والى مقر والده الخديوى وحرمه وهم فى أبهة وكبكية زائدة * وقد كان نواب البلاد عند اشتداد الخلاف بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا على بند الميزانية ومسؤوليه الوزراء أمامهم على طرفى نقبض فكان جماعة منهم يرون أن الظروف التى قضت بتشكيل مجلس النواب وخولته النظر فى جميع مصالح البلاد هى نفس الظروف التى تقضى على النواب بلزوم التساهل وعدم فرض عرى الوفاق بينهم وبين هيئة الحكومة والاطاش المجلس عن الغرض وضل عن الغاية وكان الآخرون يرون أن فى اكراه الحكومة على تخويل مجلس النواب حق النظر فى الميزانية وتعديلها بحسب ما تقتضيه مصلحة البلاد فائدتين عظيمتين أولاها ما تخفيف أثقال المصروفات بالتزام طرق الاقتصاد وقفل أبواب السرف والتبذير فى أى نوع كان فيسهل على البلاد التخلص من كثير من شوائب الديون وذل الاستدانة التى كانت السبب فى استرقاق أهلها وتنقيطهم بأجمال الضرائب والمكوس والمغارم وثانيتهما تعديل موارد الإيراد وترتيبها على غلط عادل جامع بين النظام والمساواة بين صنوف الرعية وكل مستوطن فى البلاد فيستتب بذلك الامن ويرتفع الظلم والاعتساف وتزايد العمارة فتعظم ثقة الأجانب بأهل البلاد ويحسن قدر الحكومة فى أعينهم وتقوى شوكتها فلا يظفرونها نسر ولا يغتالها أسد (إشارة الى دولتى الفرنسيين والانجليز) وكان هذا رأى لفريق من زعماء العصاة أيضا فاستمالوا اليه كثيرين من وجهاء البلاد وأعيانها وغسل كل فريق بمذمباته فاشتد الخلاف يومئذ واستفعل فادرك زعماء العصاة ما وراء ذلك وتجردوا لمقاومة أصحاب رأى الاول وحذروهم وهددوهم فكان اذا تخلف أحدهم

في بيته ليلة لا يشع الاوقد دخل عليه نفر من الجند فيوسعونه شتما وسبا ويشوعونه بالتبعمد الى اقاصى الدار فوردى توعده بالقتل ان هو لم يعدل عن رأيه وما زالوا معهم على هذه الحال حتى اشتد بهم الخوف وأخذ من قلوبهم مأخذهم فانضموا الى بقية النواب وصاروا أشد طاعة وأكثر ترأفا الى أصحاب الزعامة فقويت عزيمته أولئك الزعماء فخلع كبارهم رداء المواردية وأظهروا ما كانوا يخفونه عن الناس من طلب المعالي باستسلام زمام حكم البلاد والتصرف في أمور الرعية فجعلوا يعملون على استحكام النفرة بين نواب البلاد والهيئة الحاكمة وراعوا أن البلاد في حاجة الى مثل الوزير محمد شريف باشا إذ أعماهم الغرض وتملك عليهم هوى النفس وما زالوا يوسوسون في صدور النواب ويرينون لهم كل عاقل حتى تجرد النواب يومئذ الى المقاومة واختاروا من بينهم أولئك الخمسة عشر كما تقدم القول ففعلوا ما فعلوه حتى نفر منهم الوزير محمد شريف باشا وفضل خلع نفسه من منصب الرياسة عن نقض العهود ومس الذم فأنزل نفسه كما تقدم وكان ما كان من تقليد البارودى منصب الرياسة فلم يكن ليخفى على الناس يومئذ أن في طلب نواب البلاد تقليد البارودى هذا المنصب غاية الجبن والتدليس فقد دلت على ذلك الدلائل وقامت على صدقه البراهين ولولم يكن في الامر سوى اتحاد أصحاب الزعامة على تقسيم المناصب العالية بينهم قبل أن تصل اليهم لكفى

ولما استقر بالبارودى منصب الرياسة فرح قومه وعم السرور أعوانه والمتقربين من بانه فمهم من أول ومنهم من أدب ومنهم من تصدق ودفع التذور وحذا حذوهم نواب البلاد فأكثر من الولائم والمآدب وكان ممن توسع من النواب في مأدبته أحمد محمود صاحب نيابة البحيرة حيث دعا اليها البارودى وأحمد عرابى وسائر الوزراء وجميع نواب البلاد وكبار الجند ولغيف العلماء وبعض لوجهاء وكثيرا من موظفي الحكومة ووكلاء الدواوين وبعد الفراغ من الطعام ارتقى صاحب البيت منبر الخطابة فتكلم طويلا وذكر في كلامه ما عاناه نواب البلاد من العنت والشدة منذ بداية المجلس الى تلك الليلة وعرض بذكر وساطة بطرس بيك على بينهم وبين الوزير محمد شريف باشا كما تقدم بيانه في حينه وكان معهم في تلك الليلة فقال الخطيب ولا اخالكم تجهلون أيها السادة أننا لما قنا بحقوق النيابة وتجردنا للدفاع عن الوطن وطالبنا رجال الحكومة يومئذ بمراعاة الذم انتدبوا للوساطة بيننا وبينهم وسيطنا من اخوانهم الذين يدعون الوطنية ويتظاهرون بحجة الوطن فقام بالامر وأدى عاقبه الله واجب الوساطة فكان تارة يتوعدنا وأخرى يهددنا وطورا يعزرننا وآخرى ياكثنا وآونة يستميلنا بزخرف القول وآنة يعدنا برتب الشرف ونياشيب الاعتبار وما درى أنا على غير ما كان يتوهم وأنا جميعا على قلب رجل واحد في خدمة الوطن وبنية

ولما كان ناسع عشر ربيع الاول اجتمع الوزراء بعد الظهور بسراى عابدين وعقدوا مجلسهم بحضوره الخديوى وتكاملوا في قانون مجلس نواب البلاد فتقرر لعل به بدون تغيير حتى في بند الميزانية ثم تلى بينهم أيضا الجواب على اللائحة التى كان رفعها قونصلا الانجليز والفرنسيين

مطلب
ما كان من وراء
تقليد البارودى
منصب الرياسة

الى الوزير محمد شريف باشا فوافقوا عليه وتقرر ارساله الى القونصلين على يد مصطفى فهمى باشا. وفي ناي عشرى ربيع المذكور سار البارودى الى مقر نواب البلاد وسم الى رئيسهم قانون المجلس مصدقا عليه فقام النواب من ساعتهم ودخلوا على الخديوى وقدموا له مراسم الشكر والطاعة ثم انصرفوا * وقد قرأت في ذلك اليوم في احدى صحف الاخبار الانجليزية صورة مكاتبة بعث بها أحد كبار الانجليز بعاصمتهم على جناح البرق الى أحمد عرابى بيك يقول فيها * تقدموا أيها المصريون فلا خوف عليكم من جانب الامة الانجليزية فانها لا تروم الا تأييد مذهبكم الفائل بحج الرأفة بفلاح بلادكم * أن نعم فلتسقط أقوال لباخسين للأعمال المالية باختلاق الاكاذيب ولتعش الامة المصرية لتحيا الامة المصرية * وشاع خبر هذا الانجليزى ففرح به ضباط الجند وسروا سرورا عظيما ونقشوا ترجمته على أوراق وجعلوا يرسلونها الى الاحزاب والمتقربين وهؤلاء كانوا يتلونونها على الناس محشوة بالخلط والتعريف وسقط القول فكان منهم من يقول * اى والله قد جاء اليوم الى أحمد عرابى بيك أعزه الله فرمان من ملكة الانجليز منقوشا بخط يدها تقول فيه انها فرحة القلب بقريرة العين بما علمت به من أعمال الحزب الوطنى وثبات زعماء عصابة الجند ووقوف نواب البلاد موقف الجلال وانها لم تكن لتعلم الى هذا الحين قدر عزة نفوس المصريين ولذلك فهي ساخطة على من كان السبب في ابعاد أخبار هذه الحقائق عنها وهى تطلب من الله تعالى أن يطيل بقاء أحمد عرابى بيك ويجعل أيامه كلها خيرا وبركة على البلاد وأهلها * فيقول الثانى بل هو خطاب سياسى متوج بتاج الملكة * فيقول الثالث ليس هو كما تقولان فقد نظرت منقوشا بماء الذهب وأحسن الألوان التى لم ترعيني لها مثيلا * فيقول الرابع انكم جميعا لفي ضلال فقد حدثنى من رآه بعينى رأسه وسمع مافيه بأذنيه أنه على شكل كراسية مغطاة من الخارج بالديباج الأحمر وفيها أساطير كلها تحية وتعظيم * فاذا قيل لهم قد نقلت أصحاب صحف الاخبار هذا النبأ وليس هو فى شئ مما تذكرون قالوا هى عادة أصحاب الصحف يقولون غير ما يسمعون وظل الحال هكذا أياما * وبينما كانت الافراح والولائم لنواب البلاد والبارودى قائمة على ساق تحرك المراقبان الانجليزى والفرنساوى ورفعوا الى الخديوى محررا سياسيا احتجاجا على الحكومة حيث أباحت لنواب البلاد حق النظر فى ميزانية الخزانة وخولتهم المراقبة على جميع ما يتعلق بأنواع الإيراد والمنصرف فكان مما قاله فيه ما تعريبه * ولما انتشرت الاوامر الخديوية بتنظيم سلطنة المراقبين وخصائصهما كانت القوة المادية منحصرة فى شخص الخديوى بالاصالة عن نفسه وفى وزرائه بطريق الوكالة والنيابة وبما أن حق المراقبين العموميين هو قاصر على ابداء النصيحة واعطاء المشورة فكان المتعين اذا التمسك بنصيحتهم واعتبارهما بما يحق لهما من الاعتبار والمراعاة ولذلك تحققت الآمال وأصبحت خزانة البلاد فى غاية الضبط والسداد بعد أن كانت فى غاية الخلل والارتباك ولكن لم تلبث على هذه الحال طويلا حتى ترحزحت تلك القوة المادية من موضعها وانتقلت الى

مطلب
احتجاج المراقبين
على ما أباحت
الحكومة لنواب
البلاد

مجلس نواب البلاد وفريق من كبار الجند واستأسر هذا الفريق جميع النواب فهم لا يعملون عملاً إلا بمشورته فهذا التغيير العظيم الذي طرأ على نظام البلاد أحدث تأثيراً مهماً حيث كان ديبه تدريجياً مبتدئاً من شهر فبراير سنة إحدى وعشرين وثمانمائة وألف ميلادية الذي هو تاريخ قيام الثورة وخروج الجند وزعزعة سلطة الخديوي ووزرائه ومن هذا التاريخ أخذت هذه السلطة في القهقري والانحطاط يوماً عن يوم إلى هذا الحد وكان من نواب البلاد الذين كانوا على عهد اسمعيل باشا مقبدين بقيود الرق والعبودية وأوقعوا البلاد تحت أجمال الديون الثقيلة أن قاموا في هذا الحين يطالبون بحقوق غير ملائمة لحالة البلاد ولهيئتها الاجتماعية وتنادى بهم الحال إلى إكراه الخديوي على خلع الوزارة التي كان معتمده عليها والزموه بواسطة جماعة من كبار ضباط الجند بتسليم رئيس ديوان الجهادية زمام رئاسة الوزراء حتى انحطت بذلك سلطته وصارت هملاً مهملاً وكأن لم يبق لشخص الخديوي وجود وحيث قد بلغت هذه الأحوال حداً فصار لا يهتمنا كثيراً معرفة ما إذا كان المراد بالتعرض أيضاً لسلطة المراقبين واختصاصهما أولاً لاسمائها قد أصبحت اليوم منحلة العرى بأسباب عدم إمكانهما الاشتغال مع الخديوي ولا مع وزرائه الذين أقيموا في هذا المنصب جزافاً لا ولا مع نواب البلاد والجند العاملين معهم فإن الخديوي وهؤلاء الوزراء ليسوا مسؤولين أمام الرأي العام والدول لأجنية عن الطرق والأسباب التي عارض فيها المراقبان ودوناهما في مراسيم سينشرانها عاجلاً* إلى أن قالوا* ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قواني الادبية هو شخص الخديوي والوزراء أما الآن فلا بد وأن تصبح هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقاهم نواب البلاد وفريق رؤس الجند فإن الوزراء الذين هم على هذه الصورة لا يكون أفعالهم إلا رؤس الجند ونواب البلاد إذ لولاهم ما كانوا ولقد تم هذا الأمر حيث عقدت الوزارة الحالية التبعة على تحويل مجلس النواب حقاً في نظر الميزانية ولم تكثرت بمعارضة المراقبين معارضة رسمية في هذا الأمر ولا ننسى أن السبب الذي أوجب سقوط وزارة الوزير شريف باشا هو مراعاتها عدم معارضة حكومتى الانجليز والفرنسيين فيما طلبه مجلس النواب من أن يتحول له حق النظر في الميزانية فصار إذا قبول الوزارة الحالية لهذه الأمور وإخراجها إلى حيز الفعل هو بمنزلة قبول ما يمكن ارتكابه من انتهاك حرمة نفوذ دولتي الفرنسيين والانجليز ونجم عن ذلك إزالة نفوذ المراقبين الذين لاسلطة لهما إلا بسلطة حكومتهم وهذا ولا يليق التعامى عن الأسباب التي لا بد وأن تدلّ أس الإصلاحات وتذهبها أدراج الرياح بعد توطيد أركانها في داخلية البلاد منذ السنتين فإن التعامى مجلبة التغيير وقصارى الأمر أنه ليس بعد وقوع الخلل في الأحوال المالية التي قامت بترتيبها وإصلاحها لجنة التحقيق ولجنة التصفية اهـ

فلما وقف الخديوي على ما في هذا الخطاب تامل وسيره إلى البارودي فلم يكثر به ولا أعاره جانب الالتفات ثم عاد فاجتمع بالمراقبين وأعلمهما بأن ليس في نية الوزراء قط التعرض لسلطة المراقبة على أى حال كان ومع ذلك فقد كان الوزراء إذا عقدوا مجلسهم للنظر في

مطلب

وكان الوزراء اذا

عقدوا مجلسهم

لا يحضره المراقبان

أمور البلاد لم يدعوا المراقبين للحضور فيه كعادتهم فإذا سأل المراقبان عن السبب قيل لهما ان الوزراء انما هم ينظرون في الاحوال لادارية والامور الداخلية التي لاعلاقة لها بالانشغال المالية فاصبح المراقبان بعد هذا هملا مهملا بل سقطا مرذلا وشاع الخبر بذلك وتناقله اصحاب الصحف المحلية والاجنبية فكثرت سأل كبار حكومتي الفرنسيين والانجليز وشتديتهم الاخذ والرد وقام خطباءهم وقولاهم يقلبون لنواب البلاد تظهر المجن وكثر اللغط بعد ذلك وعمت الاشاعة بقرب وصول بعض مراكب الحرب الانجليزية والفرنساوية الى ميناء الاسكندرية فبالغ العامة في التحدث بهذا الخبر وأجم اصحاب صحف الاخبار عن تكديبه بخاف عقلاء الناس وتطهروا منه فلما كان اليوم الاول من ربيع الثاني وصلت الاخبار الى القاهرة بقدم سفن حربية افرنسية وانجليزية الى مدينة بورسعيد فراد تخوف الناس واختلفوا في أسباب حضور تلك السفن وكثر تحدثهم في أمرها فبالغوا في وصفها واختلفوا في عددها فمن قائل انها عشرون ومن قائل بل أربعون فكتب البارودي في ذلك الى فونصل جنرال الفرنسي فأجاب بأن ليس في الامر ما يدعو الى الاضطراب وانما هي سفينة واحدة قاصدة كوكشين الصين وهي معدة لنقل الجنود الذين قضوا مدة الخدمة العسكرية في تلك الاقطار ونقل المرضى وشاع الخبر بذلك فلم تكن لتكشف الناس عن التحدث في أمر حضور تلك السفينة حتى كثر اللغط أيضا بحركة الملك يوحنا نجاشي الحبشة ونزوله على حدود مصر الشرقية وتضييقه على أهلها واحراقه الكنسير من قراها ومزارعها وغير ذلك واشتد اللغط وكثر الارباب أياما حتى وردت الانباء الصحيحة بأنه لعصيان أهالي قرية من قرى أرض البورى التي تبعد عن مصوع مسافة يومين عن دفع الضرائب لاصحاب الجباية (وكانت عادة ملوك الحبشة أن لا يجبوا الضرائب الا بواسطة الجند والعسكر) قامت عليهم الجنود فأحرقت منازلهم وغنمت زهاء أربعة آلاف من البقر وعشرة آلاف من الضأن وثلاثة آلاف من الجير وقتلوا نحو مائة وسبعين رجلا وأسروا أحد عشر فأذاع هذا الخبر اصحاب صحف الاخبار وتوسعوا في الكلام على عادات الحبشان وشوكة ملوكهم وشدة بأسهم وجبر وتهم على الرعية عسى أن تنقطع أسباب تلك الفلقل وتبطل الاراجيف

مطلب

العدول عن تسيير
العسكر لقتال مدعى
المهدوية وما كان
من وراء ذلك

وأشار البارودي باطال تسيير الجند الذين كانوا على أهبة السفر الى السودان لردع صاحب المهدوية فأوقفوا وصرخوا وأشاعوا أن القوة التي هي في بلاد السودان كافية لحصر المتمهدين في جبل هناك ودفع أذاه عن البلاد وأهلها وطهروا الخبر بذلك الى الاتفاق فصدق الناس الاشاعة أو كادوا فلم تكن الا أيام حتى وردت الانباء الصحيحة باستعمال أمر المهدي وتزايد جيوشه وخضوع لكثير من المدن والقرى اليه وقيام الحركة بين أهالي الدفرور وكردفان وغيرها ما قالوا وبلغت لمومه الى هذا الحين مبلغا عظيما فكان اذا نزل على بلد ولم تقم أهلها بأمره شن عليها الغارة ونهبها وحرق بيوتها وأعمل السيف في أهلها حتى يأتي

على آخرهم فهابه لذلك الناس وخشوا سطوته وقاموا لتصرفته فتمتقدم ولم ير أمامه ممانعا وبث
الدعاة في الاطراف حتى في مراكز الحكومة وحول مقر الحكام فأجاب الناس دعوتهم
صاغرين وكبر الخوف بالسواد الاعظم من أهل كوردفان وسنار والخرطوم فأنجلوا عنها
فراراً من بطشه فتمطلت أسباب الرزق ووقفت حركة التجارة وزال الامن من تلك
الاصقاع وانحدر أصحاب التجارة ببضائعهم الى مدينة أسسيوط ومنع تجار القاهرة من
ارسال شئ من البضائع على ظهور السفن الى مدينة أسسيوط كعادتهم ووصل الى القاهرة
ومصر بعض التناحيز عن السودان وظهرت الحركة فلم تبق للريب محلاً واتفق أن حضر
في هذا الحين الى القاهرة جماعة من قبائل العربان ومشايخهم وساروا مابين راكب
وراجل وهم متقلدون السيوف يريدون مقر البارودي فلما رأهم العامة على هذه الحال
ظنوا أنهم رسل مدعى المهدوية وهم في ضجة وجلبة حتى دخلوا الى ديوان الداخلية
وصعد جماعة منهم الى مقر البارودي فقابلهم وسألهم عن سبب حضورهم فقالوا نريد
أن لاتضيع علينا حقوقنا التي ورثناها عن آبائنا وهم نالوها بمقتضى فرمانات محمد
على باشا الكبير بمقابلة خفارتنا للحدود ومنع العدو من الوصول اليها فقال وماذا تبغون
الآن وهذه قضية رأها من كانوا في خطي من قبل وفعلوا فيها ما فعلوه قياما بالمصلحة
العامة فقالوا لارضى أن يؤخذ منار جال للجند النظامي ولا أن تخرج قومنا
للسخرة أو العونة وهذه حقوق ورثناها فلا سبيل الى التخلي عنها مادامت البادية بادية
ونحن حارسوها فهون عليهم البارودي الامر ولا طفهم فانصرفوا ولكن لم تنصرف عن الناس
تلك الهواجس والاهوام وحضر في هذه الاثناء أيضاً عبد العال بيك أبو حشيش أمير
الجند السوداني من مدينة دمياط الى القاهرة ولازم أحمد عرابي بيك أياما فاشتد الخوف
بالناس وكثر تطيرهم وقالوا ان حضوره في ذلك الحين عقب حضور أولئك العربان انما هو
مترتب على أن تكون مراكب العدو قد ألقت مرساها أمام حصون وقلاع دمياط فلم يبق
الا الرمي بالقنابل وكان حضور عبد العال بيك في ذلك الحين باستدعاء من أحمد عرابي
ليتشاوروا فيما يلزم عمله للحصول على ما يطلبونه من ألقاب الشرف ونياشين الاعتبار فقه
كانت القاعدة من القدم أن لا يتولى رئاسة ديوان الجند الامن حازرتبة الفريق ليمكن
من سياسة الامور وحفظ نظام سائر الضباط وكبار الجند وقد تولاهما أحمد عرابي بيك وهو
لهذا الحين لم يتخط رتبة إمارة فريق من الجند فلما كان لابد من ارتقائه منصة هذه الرتبة
العالية وكان عبد العال بيك وبقية أصحاب الزعامة على ما هم عليه من الرتب الصغيرة
خاف أحمد عرابي من أنه اذا نال تلك الرتبة السامية قبل أن ينالها أصحاب الزعامة حسدوه
ثم أبغضوه وعملوا على نكايته وادلاله فسير في طلب عبد العال فقدم الى القاهرة ولبث بها
أياما حتى تم لهم ما أرادوه من ترتيب أما كن اقامة سائر الجنود والعساكر وإبعاد من شأوا
إبعادهم من صغار الضباط وادخال من كانوا يتوسمون فيه سمة الخلود الى طاعتهم والقيام

مطلب

امتناع الخديو من
اعطاء بعض كبار
العسكر شيئا من
رتب الشرف ونباشين
الاعتبار وما كان
من وراء ذلك

بشارتهم * ثم رفعوا الى الخديو ورقة باسماء كثير من صغار الضباط الذين اصطفوهم وتقدم اليه أحمد عرابي في طلب اعطائهم بعض الرتب والنباشين فلم يجب الخديو ذلك اذ رأى منهم من لا أهلية له ولا استحقاق فراجعهم أحمد عرابي بيك وهؤن عليه الاثر فامتنع وجعل يطاول أياما * وكانت عادة أصحاب الزعامة أنهم اذا رأوا من الخديو مطاولة في أمر يتغونه أشاعوا أنه انما يفعل ذلك ابتغاء مرضاة خصوصهم فيكثرون حينئذ من الاجتماع والتطواف ويثبون الأراجيف ويختلقون الأكاذيب والترهات فان عدل عن عزمه عدلوا هم كذلك عن فعالهم والامتدادوا حتى يتاح لهم الطمر فلما تحققتوا بإصراره على الامتناع من اجابة طلب أحمد عرابي بيك قام من بينهم عبد العال بيك أبو حشيش أمير الجند السوداني وأشاع أنه قد دس اليه السم في اللبن * قال وتحرير الخبر أنه بينما كان ذات ليلة عند أحد اخوانه اذ عاد الى بيته فقالت له الجارية التي كانت تعدله الشاي واللبن في كل يوم صباحا انها تركت المحل لخطئة لطيفة ثم عادت فرأت غطاء الوعاء الذي فيه اللبن مكشوفاً ولون اللبن متغيراً قال فبحث في الوعاء فوجد في راسه مادة فأبقاها الى الصباح واستحضر طبيباً عارفاً فحل تلك المادة فاذا بها زرنج كاف لقتل نفس فأكثر وانهم في هذا العمل غلاما يبلغ السابعة عشرة وهويهم بتربيته في بيته فقبض عليه وأتى به الى مقر جند الحرس الخديوي برحمة عابدين وضيق عليه قيل فاعترف بأنه القاتل باغراء محمد بيك ابن اسمعيل بيك ابن أبي بكر راتب باشا ثم عدل واعترف بأن غلاما شركسياً من مماليك الخديو رقيقاً له في المكتب أعطاه ذلك الزرنج وأوصاه بوضعه في وعاء اللبن ففعل رجاء خلاصه من وصاية عبد العال بيك وحياته على أمواله المودعة عنده ثم بعد ذلك سلم الغلام الى صاحب شرطة المدينة فأودع في السجن حتى تظهر الحقيقة * ولم ينتشر خبر هذا الحادث العجيب حتى جعل ضباط الجند يفسدون على داره عبد العال بيك عشرات عشرات ليهنؤوه بالسلامة وهرع اليه كذلك أعيان المدينة والعلماء والوجهاء وبعض موظفي الحكومة واستقدم الخديو صاحب شرطة المدينة وشدد عليه في استكشاف سر هذا الحادث واستجلاء الحقيقة وقد خافه ورسم بالقبض على ذلك الغلام الشركسي ووضعه بالسجن واستنطاقه أيضاً دفعا للشك والظنون وسبر الى عبد العال بيك أحد رجال ديوانه الخاص ليلبغه شدة كدره من وقوع هذه الحادثة ويهنته بالنجاة من شرها وأطال عبد الله صاحب الطائف الكلام في هذا الحادث وبالغ في مدح تلك السوداء التي كانت سببا في نجاة عبد العال كما كانوا يزعمون فهاذا جميع ضباط الجند بالحلى والملابس وكل اسمها تشريفا فجعلوا يصيحون تشريفا وتشريفا وينادون بالويل والثبور على أصحاب هذه المكيدة ويعرضون بذكر الخديو وعداوته للجماعة الضباط وأصحاب الزعامة منهم حتى أجابهم الى ما يطلبون وأعطى كبارهم من الرتب ونباشين اذ فتحار ما كانوا يسألون فقال أحمد عرابي بيك وعلي بيك الديب أمير جند الحرس وعبد العال بيك حشيش أمير الجند السوداني لقب ميرلواء وهي رتبة

الباشوية وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فهرع الى دار أحمد عرابي العلماء والكبراء والوجهاء وتراحم على بابه الشعراء وغصت حجرات داره بالكثير من الأجانب ووردت اليه رسائل اتهماني من سدد البلاد ومشايخها ولتجار بالبريد وسلك التلغراف وهادته الوجهاء بالأكول والمشروب والملبوس والمفروش فأدب في ذلك اليوم وزين داره وأتت اليه طوائف أرباب الأشير وأصحاب العكاكيز والمتجمين بطبولهم وزمورهم وكسانهم يضربون بها أمام داره واصطف حول الدار سائر ضباط الجند على اختلاف درجاتهم وجعلوا يضجون ضجيج الاستحسان ويهتفون هتاف التبريك وزاره في غروب ذلك اليوم سائر رجال الحكومة الملكيين والعسكريين والرؤساء الروحانيين ومجري صحف الاخبار المحلية والاجنبية وبعض قناصل الدول كقنصل دولة ايطاليا وغيره ممن كانوا يكثرون التردد عليه لأمور لم فصل الى معرفتها وما زالت داره محطاً للهنئين وكعبة للشعراء والمادحين ثلاثة أيام وهكذا جرى مع علي باشا الديب وعبد العال باشا حشيش فقامت عند ذلك قيامة أصحاب الصحف الاجنبية لاسيما منها الانجليزية ونادوا وحرباء لم تتدارك دولتنا الانجليز والفرنسيين الخلل الذي كاد يهبط بمصر الى حضيض الويل والدمار وجعلوا يحضون كبار سياستهم على لاخذ باطراف العمل ووجوب تغيير منهج السياسة الذي اتخذته الدولتان منذ ظهور ثورة الجند الى هذا الحين فأكثر قنصل الانجليز من الغدق والرواح الى مقر الخديو للكلمة في الأمر

واتفق في ثالث عشر ربيع الثاني أن تقدم المسبوق بلينار المراقب الفرنسي الى الخديو في قبول تخليه عن منصب المراقبة فأجابه الخديو الى ذلك بغير معاودة فالتحق من فوره الى الاسكندرية ومعه عياله يريد عاصمة الفرنسيين فلما شاع خبر انسحابه من منصبه فرح أصحاب الزعامة وبانغوا في الأسباب وعزوها لانفسهم وقالوا انما هي مجزأة من مجزأتهم وآية من آياتهم وجعل عبد الله صاحب الطائف حينئذ يظن في مديح أحمد عرابي باشا ويثني على همه رجال لعصابة أول العزم ويتول * قد آن واه الوقت الذي لا يد فيه من التخلص من نيران هؤلاء البعث الجائعة الذين لا يهمهم الا اشباع بطونهم واختلاف الناس في أسباب عودة الرجل الى بلاده وتخليه عن منصبه وقد كان سعي الخديو والرئيس مصطفى رياض باشا أيام رئاسته خلف هذه الغية ذاهبا أدراج الرياح فترامت الظنون الى المرحى البعيد وكثر تحدث الناس في هذا الامر فن قائل ان لاستعفاؤه غاية سياسية قضت حالة البلاد الحاضرة على دولة الفرنسيين باتخاذها فلا يلمت أن يرجع البناء وفي وعائه شيء من السم والدم ومن قائل بل كان استعفاؤه ارضاء لأصحاب سياسة الانجليز اذ هم يعتبرون أبقاءه في منصبه باعث على فصر عرى الاتحاد وقطع دباط الوفاق الذي عقده الدولتان لا الرجل شهم حازم جرى حريص على نفوذه قوال فعال لا تأخذه رهبة ولا يخشى مكيدة وكان المراقب الانجليزي على غاية من الجبن وضعف العزيمة وفساد الرأي * قال أصحاب هذا المذهب فلما كان دي بلينار هذا لا يعمل المصلحة بلاده خاصة

مطلب

تنزيل المسبوق
بلينار المراقب
الفرنسي لنفسه
من منصب المراقبة
وما كان بعد ذلك

مبالا الى التفرد بالعمل وكان المراقب الانجليزى لا يقوى ولر يقوى على مجاراه استقدمته دولته حرصا على بقاء عرى الاتحاد وشذر باط الوفاق وعزمت على استبداله بأخر أقل غيرا وأكثر صبرا * ومن قائل بأنه ليس فى الأمر شئ من هذا كله وانما هى فلتة من فلتات السياسة الافرنسية التى ما وراها الا الخيبة والعدم حيث لا ينفع الندم * وعندى أن لاستعفاء دى بلينار هذا سببا آخر لعله الصحيح أو ما يقرب منه وذلك انه لما سقطت وزارة غامبتا رجل الجمهورية الفرنساوية وخطيبها المفلق وقامت بعدها وزارة فريسينيه وكانت سياسة دى بلينار هذا على شاكلة سياسة غامبتا كلها حزم وكماسة وتدبير ورئاسة وكانت سياسة فريسينيه مشوبة بالضعف وعدم الثبات مخفوفة بضوضاء المكارة من الأحزاب لاسيما منهم غلاة الحرية الذين كانوا أطوع الى رغائب الانجليز منهم الى مصلحة وطنهم أدرك دى بلينار ما وراء بقائه فى منصب المراقبة فى هذا الحين من ذهاب الكرامة وسقوط الهيبة لاسيما وقد كان واقعا يومئذ بين منتطح عزيزين عدااء لفرنسيس الذين بحصر وتقيجهم لأعماله جزاء ما بدا منه لهو نصلهم على عهد رئاسة مصطفى رياض باشا كما سبق بيان ذلك فى موضعه وبغض رجال الحكومة اليه فعمد الى خلع نفسه واعتزال المنصب وتقدم الى كبير سياسة الفرنسيين والحدوي فى قبول ذلك فقبلاه فرحل راضيا من الغيبة بالاياب * ولم تكدهم دأ القلوب بعد زوال أراجيف استقالة المراقب الفرنساوى حتى شاع الخبر وذاع بحركة نجاشى الحبشة وزحفه بالجند الكثير على حدود مصر وعقده الغية على اضرام نار الحرب حتى يقضى ما فى نفسه فتحدث الناس به وخطبوا وخطبوا كعادتهم حتى خيل لهم أن قد قامت القيامة وانتصب الميزان * وتحرير الخبر أن علاء الدين باشا العامل يومئذ على شرق السودان أرسل الى ديوان الحدوي يقول قد جاءت رسل نجاشى الحبشة وبينهم قيس من قسوسهم اسمه ملاك برهان قيروت ومعهم عشرة رجال آخرو خمسة منهم من أئمة الدين وترجمان اسمه يعقوب وعشرة من الأتباع الذين يحملون متاع الوفد فدفع الى كبيرهم كتابا من النجاشى يقول فيه * باسم سيدنا يسوع المسيح كلمة الله الخ

من الملك يوحنا ملك صهيون نجاشى الحبشة وملك ملوكها الى حضرة المحب المكرم
علاء الدين باشا

نخبركم اننا بنعمة سيدنا يسوع المسيح نحن وجميع عسكرنا ورجال مملكتنا حائزون كمال الصحة والعافية ممتعون بالراحة الوافية ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر ونحب تثبيت أحسن الصلات لودية وأنه مرسل لكم باحبنا الباشا هدية وهى حصان من جيات الخيل اشارة الى التودد والمحبة والسلام اه * وكان مع ذلك الوفد أيضا هدايا أخرى بعضها الى بطرك القبط بديار مصر وبعضها الى الحدوي وهى عبارة عن عشرة كمام من الفضة المموهة بالذهب ونبتانين من الذهب الخالص وثمان درقات وكمية من الزاد وزهاء الألف وخمسمائة جنيه فرنسوى برسم القدس الشريف وكتاب الى الحدوي وكانت

مطلب
حضور جماعة
من الحبشان بهدية
من النجاشى الى
الحدوي

مطلب

ظهور الخبر
بارفضاض مجلس
نواب البلاد وما
كان من وراء ذلك

وجمة جميع رجال الوفد البيت المقدس لمبشوا فيه ما شاء الله * فلما تحقق الخبر بقدم
أوثان الحبش واثولهم بين يدي الخديو ثم نزولهم بدار البطريركية القبطية باقبيلة بطات
الأراجيف وزالت الهواجس واشتغل الناس بما سيكون من وراء ارفضاض مجلس نواب
البلاد اذ ظهرت الاشاعة بقرب ارفضاضه ورجوع النواب الى بلادهم وقد تناقلها أصحاب
صحف الاخبار فلما لبثت ان بلغت أصحاب الصحف الأجنبية حتى وردت صحفهم مشحونة بالتقبيح
والتعيب والاستهزاء والسخرية بنواب البلاد وأصحاب زعامة الجند وقام بعض الاجانب
الذين في خدمة الحكومة يسخرون أيضا بالنواب ويهزئون بأعمالهم فكانوا اذا قابل أحدهم
رفيقه في طريقه أو في مجتمع عام قال له عوض صباح الخير أو مساء الخير مثلا * اننا نودع
نواب الأمة الوطنيين - الوداع للنواب الوطنيين - وغير ذلك من عبارات السخرية
والاستهزاء فكل هذا كله ساكن في قلوب ضباط الجند فجعلوا يطوفون بالشوارع والطرقان
ويكثرون من التطواف ملازمين مساكن الاجانب فانكهمشوا وانكفوا عن الاجتماع في
المنتديات والطرق العمومية وخافوا العاقبة فقام بعض أصحاب صحف الاخبار المحلية
يهتفون الأمر على أهل البلاد وبلاطفون ضباط الجند ويكثرون من الاطراء على النواب
فكتب أحدهم في وداع النواب يقول * وداع يزيد النفوس وجدا * وبعد يفيد القلوب
قربا * وانفصال لا يؤثر في المشارب الا اتصالا * واقتراق لا يوجب في المبادئ الا اتحادا
* وداع لنواب الأمة المصرية راحلين يوم السبت عما في قلوب الأجابة من الشاء والدعاء
مشكورين مأجورين مرجوا عودهم بلمهابة ولاجلال ولتوفيق والاقبال ان شاء الله اه
فلما كان ثامن جمادى الاولى من السنة أى سنة تسع وتسعين في نحو الساعة
الخامسة العربية صباحا قدم محمود باشا البارودي الى مقر النواب يحمل مرسوم الخديو
بارفضاض المجلس فدخل عليهم وسلم ووقف بينهم موقف الخطيب وقال إن المدة القصيرة
التي أقتموها والاعمال الكثيرة التي نشرتموها تدل على شدة ميلكم الى الاصلاح ورغبتمكم
في تقدم الوطن العزيز * وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المعين لارفضاض المجلس بمقتضى
لائحته الأساسية فقد أثبت بالأصالة عن نفسى وبالنيابة عن اخواني لأشكر مساعيكم
المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا أفكاركم في مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات
التي ستوضع في العام النابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة * قال وهذا
هو الامر الكريم النائق بانفضاض المجلس على مقضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول
في توفيقكم جميعا لخدمة الوطن العزيز

فأجابه محمد سلطان باشا رئيس انواب يقول * انا نشكر الجناب الخديو المعظم عنايته
باستنابة عطوفتكم في ختم أعمال المجلس هذا العام ونسأل الله توفيقنا في العام القابل لتبني
المقاصد الحسنة والمنافع العامة التي منع قصر الوقت في هذا الاجتماع من اخراجها الى
عام الفعل كما نسأله أن يؤيد الاتحاد. ويزيد تألف القلوب لتكون يدا واحدة وقلبا واحدا

على خدمة هذا الوطن العزيز بما يحتاج اليه من الاصلاح آمين * فأتم النواب جميعا على هذا القول ثم ودعهم البارودي وانصرف وقاموا هم من ساعتهم وساروا الى مقر الخديو بسراى عابدين لوداعه فقابلهم وخاطبهم قائلا * ان اجتهادكم فى خدمة الوطن واهتمامكم بأداء حقوقه الواجبة قد صادف لدينا موقع لقبول والاستحسان كما أثبت لكم الفضل وعلو الهمة وصدق العزيمة فى خدمة الامة ولا ريب عندنا أنكم ستصرفون العناية فى مدة انفضاض المجلس الى البحث عن طرق المنافع العمومية والمذاكرة فيما يوضعos لديكم موضع النظر فى العام القابل لتأقوا ان شاء الله على ما فى نيتى من الاصلاح لوطننا العزيز ولانى أستودعكم الله ضارعا اليه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لما يترتب عليه سعادة بلادنا وأنه كما أحسن الحال يحسن المال آمين * فرد عليه محمد سلطان باشا رئيسهم يقول * نسال الله تأييد الجنب المعظم بعنايته ويحفظه برعايته وأن يبقيه للامة والوطن موثلا أميننا فتحصل فى ظله الأمان وتكمل المنافع العمومية وتدوم قوة الاتحاد بين أركان البلاد ولا غرو فى ذلك فانه أدام الله مجده قد بسط للنواب يد المساعدة فيما انصرفتم همهم اليه من أوجه الاصلاح ومهد لهم جانب العناية فى البداية والنهاية * ثم بعد ذلك قدم الكاتب الخاص الى الخديو المراسيم الصادرة للنواب باعتماد نيابتهم فسلم الى كل منهم المرسوم الموجه اليه بيده فكان مافيه

قدوة الوجوه المعتمدين والأعيان المنتخبين حضرة فلان زيد إقباله ودام كماله إن من الامور التى أثبتتها التجارب من سوائف الأزمان حتى صارت جليلة عند ذوى البصائر والأذهان ووصلت الى درجة الاستغناء عن اقامة دليل وبرهان أن السبب الأقوى فى تقدم الأمم والوسيلة العظمى لانتظام الأحوال على الوجه الاتم هو التشاور فى الامور وتبادل الأفكار والمبادلة فى الآراء والأقطار ولا شك أن هذه هى أحسن المسالك والشرع الشريف يأمر بذلك فلذا تحرينا طريق الصواب واخترنا أن يكون لمصر مجلس نواب تبعث الاهالى أعضاء بالانتخاب ويتبادل فيه آراء الاعضاء المبعوثين فى مذاكرة ما يلزم من الامور والقوانين والآن قد تم الانتخاب بالاھلية وغرض ذلك علينا فقوبل بالقبول والاستحسان لدينا فاصدرنا اليك هذا الرقيم اعلانا بأنك ممن حاز شرف العضوية مدة خمس سنين فى ذلك المجلس الكريم فترجو الله تعالى أن يجعل هذا المجلس باعثا لحصول مقاصدنا وأوطارنا بتقدم أوطاننا وأقطارنا ووسيلة لانتظام بلادنا وأمصارنا وان يكون سببا لنوال الفلاح وكمال الاصلاح إنه ولى التوفيق اه فانصرفوا من عنده شاكرين وأوم لهم البارودي وليلة فاخرة فحذا حذوه بعض أعيان القاهرة ثم سافروا من سائر منهم وبقى من بقى فكتب صاحب جريدة مصر هذه الابيات مودعا لهم بها قال

ودعهم وينفسي من ما أثرهم * آثار جد أقامت بعد ما رحلوا

أكارم إن همو عن ناظرى انفصلوا * فذكرهم أبدا بالفكر متصل
لهم منازل حب فى القلوب فهم * بهامقيمون إن ساروا وإن نزلوا
فبذاهم من قسوم أمائل فى * أمثالهم بالمعالى يضرب المثل
وحبذا القول ما قالوه عن رشد * وحبذا الفعل فى الإصلاح ما فعلوا
ضنوا بأوطانهم وهى التى بذلوا * فى حبها النفس نعم الجود والخل

وكان الناس يظنون أنه برفض هذا المجلس وانحلال عقد اجتماعه تبطل تلك
القلائل المتابعة فتطمئن القلوب الواجفة وتسكن الحواطر الراجنة وتنكشف أصحاب
الزعامة عن اختلاق المشاكل والأراجيف * فبينما هم على هذا الجانب من الظنون إذ
قامت قيامة أصحاب الزعامة ورفعوا إلى الخديوى فى خامس عشرى جمادى الأولى شكوى
تضمن أن عصابة سرية من جماعة الضباط السراكية الذين اختبروا لقتال مدعى المهذوبة
بالسودان قامت لستك باحد عرابى باشا وأهم أعدوا له كميناً فى معارق بعض الطرق لأخذه
غيلة وجعلوا يبالغون ويهولون فكبر الأمر على الخديوى ورسم بكشف الحقيقة وبث أحد
عرابى باشا العيون حول جماعة الضباط السراكية وتبعهم الجند فقبضوا على خمسة منهم
وألقوهم فى سجن قشلاق جنود الحرس برحبة عابدين وهبوا لتحقيق هذا الحادث مجلساً
عسكرياً مؤلفاً من عشرين عضواً بينهم على بك الروبى وعبد العال باشا أبو حشيش
وانقسم هذا المجلس إلى قسمين أحدهما لعمل النهار والثانى لعمل الليل وقبضوا على كثير من
السراكية وألقوهم فى حبوس قشلاق عابدين وقبضوا كذلك على يوسف نجاشى بك وآخرين معه
فكانت عدتهم نيفاً وأربعين فاشتد الخوف بأصحاب البيوتات من جماعة الترك والسراكية
وأخذوا حذرهم فى الداخل والخارج فلما كان تاسع عشرى الشهر انعقد مجلسهم
العسكرى بقصر النيل وجعل يسأل المتهمين قالوا فتحقق أن الذى هباً هذه العصابة هو
راتب باشا سردار العسكر المصرى على عهد اسمعيل باشا فى بيت أحد أفندى راشد أحد
الضباط السراكية بحارة الرزناجحة القديمة وكان ذلك على علم من محمد أفندى طلعت
ويوسف نجاشى بك ومحمد نيازى أفندى وأمين شكرى أفندى وسالم شوقى أفندى وعمر
أفندى رضى معاون بديوان الضابطة ومحمد شفيق أفندى ومحمد أفندى فؤاد الملازم بالخالفات
وأحمد فهدى وخبيل حسنى أفندى ورشوان أفندى ونجيب أفندى المقيم مع شفيق أفندى
وأحمد أفندى وصفى الملازم بالخالفات قالوا وتحالفت هذه العصابة على السيف والكتاب
وجعلوا مقاصدها سرية لا يطلع عليها أحد من صغار الضباط حتى تتفوق عزائمهم وتطمئن
قلوبهم ثم اجتمع معهم بعد قليل من الأيام محمود أفندى طلعت أخو راتب باشا وعقدوا
مجلساً وأعلموا الصغار من جماعة الضباط السراكية بأن أول شيء يعمل به رجال العصابة
هو أنهم يرفعون إلى الخديوى عريضة يطلبون فيها رد حقوقهم ورفع يد الاستعباد
عنهم ولم يطلعوا أحداً من أولئك الأصاغر يومئذ على سر المقصد الأعداى الذى تحالف عليه

مطلب

اكتشاف مؤامرة
جماعة الضباط
السراكية على
قتل كبار عصابة
الجند

كبارهم فانضم اليهم كثير من الاصاغر ومالوا الى تعصيدهم فبلغوا يومئذ زهاء المائة والخمسين
فكتبت اسمائهم في ورقة وأعطيت الى أحمد أفندي راشد صاحب الدار
واتفق أن قدم من الاسكندرية خليل أفندي حلمي أحد كبار العصاة فاجتمع بجماعة
منهم فأبلغهم أنه قد انضم الى عصبتهم على باشا شريف ووعدهم بالمساعدة جهد الاستطاعة
اذا ظلموا على هذه الحال من الاتحاد قالوا وكانهم قد أحسوا بما وراء اجتماعهم في بيت
أحمد أفندي راشد فتركوا الاجتماع فيه واستبدلوه ببيت عبد الله أفندي الكردي فانضم اليهم
عندئذ حسن أفندي للكردي ورجب أفندي ناشد وتشاوروا فاستقر رأيهم على
الاجتماع في ليلة جمعة ليقيموا كلا من رجب أفندي ناشد وحسن أفندي حلمي وعبد الله
أفندي الكردي رؤساء موكلين يدبر كل واحد منهم خمسين رجلا ويأخذ عليهم العهد بأن
يكونوا روحا واحدة وجسدا واحدا واذا مات أحدهم قاتل الكل على دمه حتى يموتوا جميعا
فإذا اتسع نطاق العصاة ونجحت آمالها اختارت الرؤساء من أصحاب الرتب العالية مثل
محمود بيك طاهر ومحمد بيك نجيب ومحمد بيك شوقي وهكذا كلما عظم أمرها واتسعت كلمتها
فوضت لرياسة الى الأكبر من جماعة لشرا كسة أو الترك واتفقوا جميعا على أن يجتمعوا في
مقام السيدة زينب ليتحالفوا ويحذروا يمين الفسامة هنالك ويظهروا ما أسروه من الاسرار
عن بعضهم من قتل أحمد عرابي وكل من يناوئهم الشر أو يقف في سبيلهم هذا فلما عرضت
الرياسة على عبد الله الكردي أباهما وقال اني أحس يا قوم بانقباض في صدري واضطراب في
قبي ورجفة في جسمي من هذا الاجتماع وأخشى أن يكون وخيم العاقبة فاعفوني حتى
تمكن العصاة من انقاذ مقاصدها وبغض شأها فإذا تم لها الامر وقامت على قدم الدفوع
أثبت لها بخمسمائة من البشوزق بمعاونة حسين بيك قراجول فأجابوه الى ذلك وكلفوه بأن
يبلغ مبادئ عصابتهم الى بعض كبار لشرا كسة ليكونوا لهم عوناً عند الحاجة فاجتمع بكثير
منهم وعاد فأحبر رجال العصاة بأنه لم ير من أولئك الكبار الاغاية الجبن والانكماش ثم
انفصل عبد الله الكردي عن رجال العصابة لاسباب فكادت تنفشل وتتفرق كلمتهم لولا أن
رجب أفندي ناشد وحسن أفندي حلمي أركاء بهمة منهما حيث جمعوا أفراد العصاة الذين
كانوا عقدوا جلستهم تلك في بيت أحمد أفندي فهم الكائن بالموطية واتفقوا على أن يأخذوا
كل من انتظم في سلك العصاة الى مقام السيدة زينب ليطلعوه على السر المقصود ويتحالفوا
على اخراجه الى حيز الفعل حتى لا تنفصل عقدتهم قبل ادراك مأربهم فلما انكشف السر
وعلم به بعض صغار الضباط الشرا كسة ذهب أحدهم المدعو على رمزي وأخبر بعض أصحاب
أحمد عرابي وأفشى مكنون سرهم فهال أحمد عرابي الامر ورسم فقبضوا على أكثرهم في الحال
وتبعوهم حتى لم يبق منهم أحد خارج الحبس * حدثني صاحب لي قال * ما ظهر خبر
عصابة الشرا كسة وتناقله الناس حتى كثر تطواف الجند بالشوارع والخانات وجعلوا
يقبضون على المارة ويكبسون البيوت ويخرجون من فيها من صغار الضباط الشرا كسة

حاسرى الرأس حافى الاقدام فينجونهم في الحبوس بقشلاق حرس الحديو رحبة عابدين والناس خلفهم يتراحمون وهم في دهشة وحيرة فكنت لاتسمع في تلك البيوت الاعويل النساء وبكاء البنين والبنات وتأوه الشيوخ وكان كل من أودع السجن منهم وكلا به من يذيقه من العذاب فكان الواحد منهم يقضى بياض يومه وسوا ليلة واقعا على قدميه وأمامه الموكل به فاذا أعض الجفن لكمه أو وخره فينتبه وعينه تذفال الدمع فاذا خر على الارض أو سقط مغشيا عليه من شدة التعب دهمه ذلك الموكل بالضرب واللكم المتتابع فيسترحم وليس من يرحم * قال وكانت حبوسهم مجردة عن كل ما يحتاج اليه المسجون كجرة للماء مثلا أو صحيفة للطعام أو حصيرة للرقاد أو مصباح للضوء وكان ضحيجتهم لا ينقطع وعبراتهم مراسلة فأثر هذا الحال في الكثير من جنود الحرس أثرا مؤلما فضجروا وكادوا يخرجون عن طاعة كبارهم فلم ينتبه رجال المجلس العسكري الا وجند الحرس على أهبة التحلى عنهم فتداركوا الامر وعملوا بالعقاب بخاروا وظلموا وأنغمسوا جفن الطمان على وسادة الانتقام فلا حول ولا قوة الا بالله * قلت وطار خبر هذا الحادث الى الاتفاق فأرسل السلطان في خامس جادى الآخرة الى الخديوى يسأل عن ذلك وكتب أحد الشراكسة الى احدى صحف الاخبار الاجنبية يقول قد نزل آباؤنا بديار مصر من عهد ليس بقصير فكانت هى مسقط رؤسنا وأرض نشأتنا وقد تربينا تحت سمائها وتلقينا من علمها وفنونها أشكالا فقمنا بواجب شكرها وأنخلصنا في خدمتها أعواما طويلا وبذلنا النفس والنفيس في تلبية داعي تقدمها ودافعنا عن مجدها باقتحام الحروب الروسية وتجشم الخطوب الهائلة الدموية نقدمناها خدمة الابن البار بابويه وما زلنا على هذه الحال حتى وسوس شيطان الحسد في صدور أهل البغي والفساد فرموا بعضنا بالفجور والتألب على اغتيال النفوس التي حرم الله قتلها وقبضوا عليهم قبض الوحش على فريسته وكبلوهم في قيود الظلم وألقوا بهم في حبوس الهوان وأدقوهم مضض اللكم والوخز وأليم الأخذ والرد وحرموهم لذة الرقاد وأحرقوا منهم الاكباد بنار الجوع كل ذلك بلا ذنب جنوه ولا خطا ارتكبوه فآله حسبنا ونعم الوكيل الى أن قال وحيث ضاقت بنا أرض هذه البلاد وقد أصبحنا مضغعة في أفواه قوم لا يخشون يوم الميعاد فقد عزمنا على الرحيل الى الدنيا واسعة الفضاء وقد عينا أنفسنا لخدمة أمير المؤمنين لا غير والسلام اه فأعجب الناس بهذه المعاملة وحنوا الى جماعة الشراكسة وعابوا على زعماء عصابة الجند فعالهم * فلما كان حادى عشر جادى الآخرة حكم المجلس العسكري على هؤلاء الضباط بالنفى ولتبديد المؤبد الى أقاصى السودان وكانوا مائة وأربعين وبينهم عثمان رفقى باشا مع تجريدتهم من كافة رتبهم العسكرية وامتيازاتهم ونباشيتهم وأن يكونوا متفرقين في أنحاء السودان بعيدين عن مراكز المدن والبنادر والسواحل النيلية وحكموا كذلك على اثنين من موظفى الحكومة بالنفى والتغريب مع تجريدتهم من كافة حقوقهم المدنية وحكموا على راتب باشا السردار الذى عدّ زعيم هذه العصابة بالتجريد من رتبة العسكرية وامتيازاته ونباشيته

مطلب

ورود مرسم
السلطان بالاستعلام
عن كيفية
مؤامرة الشراكسة

مطلب

الحكم على جماعة
الشراكسة وما كان
من وراء ذلك

وحرمانه من العود الى ديار مصر بحيث اذا عاد اليه انفى منها على الصورة المذكورة وقال المجلس
العسكرى فى حكمه ان الخديوى اسمعيل هو مسبب هذه الحركة العدوانية والباعث عليها
مستعينا فى بنها بالمرتبات التى تصرف اليه فى كل سنة من خزانة البلاد فقرر أن يكون
للخديو توفيق ولهيئة الحكومة حق النظر فى قطع هذه المرتبات والغائما ورفعوا هذا الحكم للخديو
ليرسم بتنفيذه وكان الذى رفعه هو محمود باشا البارودى وقيل على باشا الروبى والاول اصح فلما
وقف الخديوى على ما فيه كبر عليه واستعظمه فراجع البارودى فلم يقبل فكلّم فى ذلك
أحمد عرابى فأظهر غاية الشدة وبالع فى الجفاء فجعل الخديوى يطاول ويحاول لعله يتمكن من
استرضاء أصحاب الزعامة فلما أعياه الحال تجرد الى تعديل الحكم فنقض فيه وأبرم واستبدل
حكم التبعية الى أقاصى السودان بالتبعية عن ديار مصر حيث يشاء المبعدون مع حفظ
رتبهم ونياباتهم ولم يتعرض الى مرتبات أبيه فلما برز الامر من ديوانه على هذه الصورة كبر
ظهوره على البارودى وأحمد عرابى وكادا يتميزان غيظا وراجعا الخديوى فأبى الا مارسم به فألح
عليه البارودى فامتنع وشدد فى الامتناع فعظم عند ذلك الخلاف وكبرت الفتنة وتراجعت
أقدام أهل السعاية على أبواب الفريقين وانشت العيون حول مقر الخديوى قيل وهدد
البارودى الخديوى بالخلع فلم يلتفت الخديوى الى ذلك ولم يحتفل به * حدثنى أحد المقرين
من البارودى * قال وتآقت نفس البارودى والنفس أمارة بالسوء الى ارتقاء منصة الخديوية
المصرية بعد استفحال أمر الخلاف بينه وبين توفيق باشا فجمع اليه جماعة من أهل التاريخ
وكاشف بعضهم على ما فى نفسه وسألهم أن يأتوه بسلسلة نسجه فأتاه أحداهم بشجرة كثيرة
الفروع ينتهى أصلها الى السلطان الملك الأشرف طومان باى وقيل الى السلطان الملك
قائصه الغورى فاشتد عند ذلك ظهره وكبرت آماله اه * قلت ومع بحثى عن حقيقة
هذا الخبر كنت أرى الناس فيه فريقين فريق يؤيده بالادلة القاطعة وفريق ينكره ويقول
انه فبرية على البارودى لأنزل الله بها من سلطان وعندى أن قول الفريق الثانى أقرب الى
الصدق وأبعد عن الشبهة والخط من مقام البارودى * قالوا وتجرد البارودى الى العداوة فلم
يطلق الخديوى الصبر على ذلك وقد علم بما فى نفس البارودى فراسل السلطان فى أمره
وأعلمه بخبره فورد اليه الجواب باستعمال الحزامة والتأبى والالتيان على سائر الامور من أبوابها
فاطمأن عند ذلك الخديوى ورسم الى جماعة الشراكسة بالخروج الى حيث شاؤوا فخرجوا
جميعا الى دار السلطنة ولم يتخلف منهم أحد

مطلب

واستقدم البارودى
نواب البلاد بغير
اجازة من الخديوى

وسير البارودى الى نواب البلاد يستحثهم على الحضور الى القاهرة فحضروا جميعا وانعقد
مجلسهم بغير اجازة من الخديوى كما هى العادة فقص عليهم البارودى ما وقع من الخديوى
وبالع فى الشكوى واستمسك عليه بأمر منها مؤامرة جماعة الشراكسة على قتل أحمد
عرابى وتبعية الحرمة عائشة المعروفة بالكودية والغلام الحبشى الذى سرق بعض الجواهر
من سراى عابدين وقيام ابراهيم أغا التنجى الى الشام بمأورية سرية وارسال ثابت باشا

الى دار السلطنة بغير موجب ولا سبب ظاهر وسعى الخديوى خلف اذهاب حقوق البلاد
وتقليل امتيازاتها الممنوحة لها بالفراغات السلطانية وغير ذلك من التهم التي ما أنزل الله بها
من سلطان فأطال النواب اجتماعهم وتناجوا في الامر وجعلوا يقومون ويقعدون والحال
على ما هو عليه من الوحشة والنفور بين الفريقين وأصبحت حادثة الجراكسة شغل البارودي
الشاغلة عن حوادث السودان وخروج المهدي واتساع كلمته بين قبائل تلك الاصفاع وعجز
رؤف باشا عامل السودان عن ايقاف تيار الفتنة مع طلبه المدد وندائه المتواصل ولم تكن
لخفي يومئذ حقيقة الحال بتلك الديار عن الكثير من أهل القاهرة فقد وصل جماعة كثيرة من
تجار السودان بعيالهم وأموالهم ومتاعهم وأخبروا بجميع حوادث صاحب المهدي وقصوا
على الناس القصص والانباء وحدثوا عن عجز رؤف باشا وأصحابه وقالوا ان نار الفتنة لم تضطرم
الا بيد سلاطين بيك أحد مديري ولايات الدارفور بما أعطاه الى العربان من بنادق الحكومة
وذخائر الحرب فكثير تحدث الناس في ذلك وجعلوا يتبعون سير تلك الحوادث ويحسبون
ما وراءها والله من وراء كل حساب * حدثني صاحب لي قال حدثني من لاشك عندي في
صدق حديثه قال ماتعاقد كبير السياسة الانجليزية مع الخديوى اسمعيل عام ثلاث وتسعين
ومائتين وألف هجرية على ابطال تجارة الرق من بلاد مصر والسودان حتى جعل يطلبه
بالمطالب الطويلة ثم لم يلبث أن دس اليه الرقباء من قومه فساروا الى أرض السودان
وجعلوا يجوبون البلاد من أدناها الى أقصاها ويبحثون في عادات أهلها وطباعهم وأميالهم
والاختلاف الواقع بين عادات بعض القبائل والأدواء الناجمة في استمالة أعصى القبائل
وأشدها بأسا ثم عمدوا الى تخطيط الاراضي ومعرفة ما فيها من الدروب والمسالك والعقبات
والمرابك ووقفوا على حقائق نباتها وأشجارها ورتبة أرضها وأنواع حيواناتها وأحصوا قبائلها
عددا ولم يتركوا شيئا تدعو اليه الحاجة الا وأحصوه وكان ممن سيره من الانجليز كبير من
مقدى جندهم اسمه غوردون فقدم الى القاهرة ولبث أياما لم يفارق فيها باب الخديوى اسمعيل
ثم رحل الى السودان باسم مراقب منع الاتجار في الرقبى فلم يلبث أن صار حاكم شرقي
السودان وخط الاستواء ثم سواحل البحر الاحمر ثم حكم دار جميع أرض السودان وخط
الاستواء وأطلق الخديوى له الكلمة وأعطاه رتبة الباشوية وأتخذه بنيامين الشرف فعظمت
هيئته وعلت كلمته ونزع الى قلب الكثير من عادات تلك البلاد وأبطل بعض المغارم
والمكوس ورفع ما تأخر من الاموال الاميرية عن مشايخ القبائل ولبث في خرطوم
السودان يأمر وينهى ويعطي ويحرم من يشاء ويحرم من يشاء بلا راد ولا ممانع فنزع في أيامه الى
أرض السودان كثير من الاجانب وأهل التجارة فراجت تجارتها وكثرت ثروتها ودرت
أرزاقها وكان ممن سارت به مطية الأمل الى تلك الاصفاع أيضا رجل اسمه سلاطين قيل
انه نساوى الجنس وقيل ايطالي والاول أصح وقيل ان الخديوى اسمعيل هو الذي سيره الى
السودان في خدمة واليها اسمعيل أيوب باشا فلبث فيها يتقلب في المناصب الديوانية ويترفع

مطلب
كيف أنشأ الانجليز
أطفاارهم في
السودان وكيف
خرج المهدي

الى درجات الحكام والمديرين حتى قبض الله له من ولاء ولاية صغيرة من أعمال الدار فور
 فأنشط عند ذلك من عقال وهب من نخول وأخذت كلمته من هذا الحين في الظهور فلما
 تولى السودان غوردون الانجليز تقرب سلاطين هذا منه وأخلص في خدمته وأجهد النفس
 في طاعته قال وخلع غوردون نفسه من ولاية أرض السودان بعد بصع سنين ورجع الى
 بلاده وهو أعلم من وطئ هذه الارض بعادات أهلها وطباعهم وأميلهم وعدة ما فيها من
 قبائل العربان وقد بدأت في أيامه تدب روح الحرية في صدور كبار أشد القبائل بأسا
 وأعظمهم شهرة ولم يمض بعد ذلك غير القليل حتى ظهر رجل من الابيض احدى بلاد
 الدارفور اسمه محمد أجند فادعى المهدوية وتظاهر بظاهر النساك وتزيا بزي الصالحين واتخذ
 له خلوة ورباطا وجع اليه جماعة من أهل الجبال سماهم دراويش وأكثر هو واياهم
 من مظاهر التعسف والتعبد والزهد والورع فشاع بين العربان خبره وظهر اسمه واشتهر
 ذكره ومال اليه كثير منهم فهادوه بالهدايا من الادرة والدخن والبقر والضأن وتفرّبوا
 منه ولازم بعضهم رباطه فكان يقص عليهم قصص الابرار ويحدثهم باخبار الصالحين
 ويحذرهم من قرب الساعة ودنوا الاجل ويقول اذا عم دين الاسلام واتحدت كلمة سائر
 المؤمنين على يديه قامت الساعة وانتصب الميزان وحكم الحاكم الديان ومازال على هذه الحال
 حتى عم خبره وبلغت الآفاق شهرته وتجاوزت بلاد الدار فور فبلغ عدد من لازم خدمته
 ولأذالى رباطه نيفا ومائتين وأربعين درويشا وبدت على عهد رؤف باشا معالم الخروج
 وتحزب بعض قبائل العربان وكادت تشق عصا طاعة أصحاب الجباية وامتنعوا من دفع الخراج
 فرفع أصحاب الجباية الامر الى رؤف باشا وأخبروه بخبر هؤلاء القوم فلم يلتفت الى ذلك ولم
 يحفل به فتوكل من هذا الحين محمد أجند في تحت المهدوية آمنا مطمئنا وجعل يبعث السعاة
 الى بلاد الدار فور يدعون انطلق الى طاعته ويستميلونهم الى طريقته ويستمنضونهم الى
 نجدته واستخلاص البلاد من أيدي الكفرة المارقين فقال اليه ناس كثيرون جيدا من أهل
 تلك الاصفاع وتبعه آخرون ممن تبعوا غوردون الانجليز من قبل وواصلوا رباطه بالهدايا
 والتحف وصاروا يحجون اليه في أيام معلومة من كل شهر ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة
 فأوعز أصحاب الحل والعقد الى رؤف باشا بتدارك الخطب قبل استفحاله وأن يواصل هيئة
 الحكومة بأصح الاخبار فأرسل رؤف نفرا من الجند لا يبلغون المائتين وضابطين من صفار
 الضباط الى مقر صاحب المهدوية ورسم لهم بقتاله وأن يأتوا به حيا صحيحا فلما صاروا على
 مقربة من رباطه انقض عليهم دراويشه فزقوهم كل ممزق وسدوا عليهم المسالك وقتلوهم
 حتى لم يبق منهم سوى ضابط ورجلين قد ولوا الادبار وركنوا الى الفرار فاخبروا بما حل
 بأصحابهم * قال المحدث * فلم يحرك هذا الحادث من قلب رؤف ساكنا ولم يستنهض له
 همة حيث جهز للقتال ثانية جماعة من الجند لا يزيدون عن الذين ماتوا وشهد عليهم في
 الانبان بمحمد أجند حيا وكان المهدي بعد أن ظهر أصحابه بجند رؤف وسلبوا ما كان

معهم من ذخرة ومتاع قد ترفع بهم الى الجبال وسير في طلب النجدة من بعض القبائل فاجتمع لنجدة كثير من السود الابطال وخرجوا للقضاء أصحاب الوالى ودارت بين الفريقين رحى الحرب والقتال فظفرت لموم صاحب المهدوية وانتصرت على أصحاب الوالى نصرة مؤزره وأبادوهم بحمد السيف وشاع الخبر بين قبائل العربان القريبة من مقر المهدي فهابوه وخشوا بأسه وآمنوا بمهدويته وقاموا في الحال لنصرته وتواردت على رباطه الهدايا وكثرت عنده المؤن فاجبه أصحابه وأخلصوا له الخدمة وبالغوا في طاعته فوقع الوالى في الخبال وبلبلة البلبال وكتب الى حكام الدارفور يستغفرهم الى ايقاف تيارهاته الفتنة فكان أول من لب نداه سلاطين بيك حيث جمع نفرا من العربان وقتلهم بنادق الحكومة وجهزهم بمعدات الحرب وسير بهم الى القتال فكان كغراب نوح عليه السلام يوم استقر به الفلك وكانت هذه الضربة من أشد الضربات على هامة الحكومة حيث تقوت بقوم سلاطين ومعدات حربهم عزيمة صاحب المهدوية وكبرت شهرته وكادت تم دعوته سائر البلاد وهان لديه من هذا الحين كل رخيص وغال فنهى وأمر وجمع وادخر وغلب وقهر وفاز وانتصر ورتب قومه على أحسن ترتيب وسعى منهم أمراء الجيوش وكبار المثات والامناء على بيت مال المسلمين وبالح في التظاهر بظواهر الاولياء والصالحين بل الانبياء المقربين وسن لأصحابه سنة جديدة فكانوا كلهم على قلب رجل واحد يأترون بأمره ويقومون عند اشارته * قال محدثي كل هذا ورؤف باشا كان كمن ضرب على سمعه وبصره * ثم تنهد وأطرق لخطبة ثم رفع رأسه وقال ولسوف يأتي يوم ترى فيه النفوس تفتك بالنفوس والرؤس مختلطة بالرؤس يوم تنطبق فيه السنايك على السنايك وتلتقي البنادق بالبنادق والالوف تفتك بالالوف والسيوف تخاطب السيوف فالح الله ولا حول ولا قوة الا بالله * قلت وكان رؤف باشا خشي عاقبة اخفاء الحقائق بخفاء منه الخير الى أولى الامر مفصلا بما هنا لك من اشتداد الفتنة وخروج الكثير من بلاد الدارفور عن الطاعة فسيروا اليه المدد من القاهرة من جند وكراع وكتبوا اليه يقبكون فعاله ويتوعدونه بالعقاب الشديد وجعلوا يواصلون ارسال المؤن والذخيرة ويراقبون سير الحوادث فلما رأوا أن لا قبل له على اطفاء نار هذه الفتنة خلعه من منصب الولاية وأقاموا مكانه عبد القادر باشا أحد كبار الجند على أيام الخديو اسمعيل فسار الى الخرطوم في نفر من الاتباع ففرح الناس بولايته واستبشروا

مطلب

ورفع قونصلا
الانجليز والفرنسيين
لائحة الى الخديوي

وبينما الناس في شغل بسبب حوادث أرض السود واستفحال أمر الفتنة وما يفعله أصحاب المهدي في كل يوم من القتل والنهب وسبي النساء والاطفال رفع قونصلا الانجليز والفرنسيين في حادي عشر جمادى الآخرة الى الخديوي لائحة تتضمن وجوب ايقاف زعماء العصاة ونواب البلاد عند حد عدم مس العهود الدولية المرتبطة بها الحكومة المصرية والاقلاع عن كل ما من شأنه اثارة الخواطر ووقوع القلاقل والاضطرابات والاوجب التداخل القوى وايقاف كل عند حده فاستقدم الخديوي عند ذلك البارودي وأعطاه تلك اللائحة

فكبر أمرها عليه وعلى سائر أصحابه واستعظموا ما فيها وعدوه عارا وشنارا وجعلوا يوالون الاجتماع بنواب البلاد حتى تقررت القاعدة بينهم على أن يرسلوا بصورة من تلك اللائحة إلى الباب العالي ويسألونه سرعة التداخل في الأمر ومنع تعدى الدولتين على حقوق البلاد واختاروا من بينهم من يذهب إلى الخديوي ويحذره من التكلم في أمر تلك اللائحة مع القونصلين حتى يرد الأذن من أمير المؤمنين* واشتد من هذا الحين بغض أهل البلاد للأجانب على اختلافهم فتقدم قناصل الدول إلى البارودي وأجد عرابي في ذلك فهوذا عليهم الأمر وتكفلا بالأمن وعدم تكدير صفو الراحة فلم يطمئن مع ذلك للأجانب قلب ولم يسكن لهم جاش ونزع الكثير منهم إلى أوطانهم وغير أوطانهم فرارا مما كانوا يتوقعون وكثر اللغط بقرب وصول مرآكب حرب الدولتين إلى نهر الاسكندرية تارة وبقيام مأمور من كبار رجال السلطنة العثمانية أخرى وقد بلغت الوحشة بين الخديوي والبارودي حدها وتفاقم الشر بين الفريقين * فلما كان أحد الأيام أرسل الخديوي أحد رجال ديوانه إلى البارودي يقول له تخل عن مسند الرياسة واعتزلها والا أنزلناك عنها قهرا وكذلك قال لبقية الوزراء فعند ذلك عقدوا مجلسهم في بيت البارودي وتناجوا فيما بينهم ثم سيروا إليه يقولون اننا لانزل عن مناصبنا ولو أكرهنا على ذلك واننا نعتبر كل أمر يصدر في هذا الصدد بمثابة تهديد للأمن العام وتكدير لكأس الراحة فاذا قامت الفتنة بين أهل البلاد ولحق الأيذاء بالأجانب النازلين بيننا كان الخديوي مسؤولا عن جميع ما يحدث دون غيره قبل فكبر هذا الكلام على الخديوي حتى كاد يتميز غيظا فلما كان اليوم الثاني الذي هو خامس عشر جمادى الآخرة انقطع البارودي وبقية النظار عن الذهاب إلى تطاراتهم واجتمع نواب البلاد في بيت مقدمهم محمد سلطان باشا ولبشوا ساعة يتحدثون في أمر انقطاع النظار ثم انتقلوا إلى بيت البارودي ولبشوا فيه طويلا وجاءهم أيضا بعض العلماء والمشايخ والوجهاء والأعيان وبعض قناصل الدول وتكلموا في ذلك وأكثر قنصلا الانجليز والفرنسيين الغدو والرواح بين مقر البارودي وسلطان باشا ثم جمع إليه البارودي سائر الوزراء ونواب البلاد وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وأغلقوا عليهم الأبواب وأوقفوا الحجاب قال بعض المتقربين إليهم وتكلموا في خلع الخديوي وتزيله وفيمن تصح ولايته من بعده كأن أمره بيدهم أو روحه من عندهم وطال بينهم الجدل وكثر القيل والقال فكانوا إذا أتوا على أمر وهموا بتنفيذه قام من بينهم من يقبحه ويحذره عاقبته فيرجعون عنه إلى غيره وما زالوا حتى أعياهم الحال وقتل منهم الحيل فصمموا على اعتزال سائر الأشغال وترك الأمور وشأنها والقاء تبعة جميع ما يحدث من الخلل أو ما يقع من سفك الدماء والقتل بالأجانب والنزلاء في قلب البلاد على شخص الخديوي وأرسل البارودي في الحال في طلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه بعض النواب فاعلم بما وقع الاتفاق عليه وسأله أن يذهب إلى مقر الخديوي ويعلمه بالخبر وكان ذلك في نحو الساعة العاشرة عرّبي نهارا فراجعته محمد سلطان باشا وكذلك فعل نواب البلاد وطال بينهم الأخذ والرد إلى الساعة

الرابعة عربي ليلا فقام محمد سلطان باشا وسار الى مقر الخديوى ولبث عنده الى الساعة السادسة ثم عاد الى بيت البارودى واختلى معه الى نحو الساعة الثامنة فكان بينهما من الحديث ما لم تصل اليه معرفة الى هذا الحين ثم انصرفوا جميعا ولبثوا ليلاهم تلك وأصبحوا وقد جمع البارودى سائر الوزراء وأصحاب الزعامة من ضباط الجند وبعض العلماء والمشايخ والاعيان والوجهاء وجعلوا يتكلمون فيما وقع عليه الاتفاق بالامس فعلت أصواتهم وقامت بينهم الضوضاء وتفرقت كلمتهم فإرسل البارودى يطلب محمد سلطان باشا فحضر ومعه جماعة من نواب البلاد فلم يستقروا في المقام حتى دخل قونصلا الانجليز والفرنسيين وطلبوا من البارودى وأحمد عرابي أن يعطيا لهما كفالة على عدم التعرض لرعايا دولتيهما بسوء والذب عن أرواحهم وأموالهم عند ميسيس الحاجة فاجاباهما الى ذلك ثم طفق البارودى يقص على القونصلين ما فعله الخديوى مما يعكس مشروعات الامة ويصغر من قدر نواب البلاد وما وراء غايته من تعديل حكم المجلس العسكري وتعضيده لجماعة الضباط الشراكسة وإرساله ثابت باشا الى دار السلطنة لدرس الدسائس وازهاب امتيازات البلاد فتكلم القونصلان مع البارودى وأحمد عرابي ومحمد سلطان باشا طويلا وأخذوا على عهدهما ازالة ما في الصدور وازهاب ما علق في الخواطر وارجاع الحالة الى ما كانت عليه من المودة والصفاء * وقاما من ساعتها ودخلا على الخديوى وكلماه قبيلا فشكى اليهما ما يلاقيه من البارودى وأصحابه فما زال به حتى هزنا عليه وخفقا عنه وزال بعض ما به من الغضب

مطلب

اشتداد الازمة بين
الخديوى والوزراء
وما كان من وراء
ذلك

فلما كان يوم الاثنين سادس عشرى جادى الآخرة اجتمع محمد سلطان باشا ولقيف النواب وبعض العلماء والمشايخ والوجهاء بالبارودى وأصحابه في بيته الكائن بشارع عابدين وتكلموا في أمر الصلح وفي رجوع البارودى الى معاطاة أشغال منصبه رجة بالناس ودفعاً لشماتة الاعداء وطلبوا على هذا الحال الى أن صارت الساعة الثانية عربي ليلا فقام محمد سلطان باشا ومعه جماعة من نواب البلاد وتقدموا الى الخديوى في طلب العفو وحسم أسباب الشقاق فلم يقبل وقال لابد من خلع الباء ودى من مسند الرياسة فخرج محمد سلطان باشا ومن معه من النواب وعادوا الى بيت البارودى وأخبروا بما جرى فقال البارودى تخلى كلنا عن مناصبنا ونلقى تبعه ما يحصل من الاخطار على عاتق الخديوى وطال بينهم الكلام ساعة ثم عاد النواب الى مقر الخديوى وتقدموا اليه في قبول تنزيل البارودى فقط بشرط أن يتولى الرياسة مصطفى باشا فهمى فاجابهم الخديوى الى ذلك فساروا الى مصطفى فهمى باشا وكلوه في الامر فامتنع وشد في الامتناع وقال لا أقولها والحال على ما هو عليه من الشدة والخصام فعادت عند ذلك الامور الى ما كانت عليه بل زادت خبالا واشكالا وتعطلت الاشغال ووقفت حركة المصالح واشتد الخوف بالناس وأخذتهم الطيرة وعجز محمد سلطان باشا أوكاد عن التوفيق بين مطالب الفريقين وكثر تطواف صغار الضباط في الشوارع والحارات وانبت الجند في أطراف القاهرة وأكثرت صاحب شرطة المدينة

من التطواف والمراقبة وبقي الحال هكذا الى سابع عشر جمادى الآخرة فجمع محمد سلطان باشا لغير العلماء والوجهاء وجماعة من الكبراء والاعيان واستنصروا ثم سار نفر منهم الى مقر الخديوى بسراى عابدين وجعلوا يستعطفونه ويستميلونه الى العفو عما فات وهو لا يلتفت الى قولهم وما زالوا به حتى هان عليه الخطب ونسى أو كاد ينسى ما فات وأجابهم الى ما طلبوا وهم الكافلون فتكفلوا فرسم باستبقاء الوزراء فى مناصبهم فأصبحوا وقد جلسوا على كراسيهم يأمرزون وينهون وطبروا الخبر الى الأفاق بزوال الخلاف وغود الأمور الى سابق عجزها فسكنت الخواطر المضطربة واطمأنت القلوب الواجفة ولكن لم يعض على هذه الحال أيام حتى وفد على مدينة الاسكندرية مساء الجمعة غرة رجب القرد مدرعة من مدرعات الحرب الانجليزية ودخل كذلك فى صباح السبت ثمانية اثنان انجليزيتان وثلاث افرنسيات فأطلقت المدافع سلاما للخصون فردت عليها الحصون السلام وبناء الخبر بذلك الى القاهرة ثم بعد أيام وردت عدة سفن أخرى كثيرة فاشتد الخوف بالأجانب ونزع الكثير منهم من الاسكندرية وكثر تحدث الناس فى أمر لحضور هذه السفن العظيمة وكادت تقف حركة الاشغال بالاسكندرية * فلما كان سابع رجب المذكور رفع القنصلان الى مقام الخديوى بلاغا نهائيا من جانب دولتى الانجليز والفرنسيين يطلبان فيه أولا تنزيل الوزراء من مناصبهم ثم بخروج أحمد عرابى من ديار مصر الى حيث يشاء من أرض الله الواسعة الفضاء مع بقاء رتبته ومربياته وحفظها عليه وتبعيد عبد العال مقدم الجند السودانى وعلى فهمى مقدم جند الحرس الخديوى الى الاقاليم القبلية أو البحرية منع حفظ رتبهم وألقابهم على ما هي عليه فان لم يتم ذلك باتى هى وجب تنقيضه كرها فاستعظم البارودى ما فى هذا البلاغ واستكبره جدا فلم يجب عليه فسأله القونصلان فقال لاشأن للدول الأوروبية معنا فى مثل هذه الاحوال وانما نحن تابعون لسلطان فاذا شئ فليخبرن سلطاننا وما ذلك عليهم ببعيد وزعم البارودى وأصحابه بأن الصلح كان خدعة من الخديوى حتى تأتبه سفن حرب الدولتين فيفعل ما بدا له فكثر اجتماعهم تارة فى بيت البارودى وأخرى فى قسلاق الحرس الخديوى وكثر تطواف الجند فى الأزقة والحارات ليلا ونهارا وعاد محمد سلطان باشا الى الوساطة بين القرنيين فلم يفلح ولم ينجح له عمل واشتدت الازمة واستحكمت حلقاتها وتحذر كل فريق من الآخر ورأى البارودى أن فى خلع نفسه من منصب الرياسة غاية التبعة ونهاية المسؤولية على الخديوى أمام الدول الأجنبية تخلف نفسه فى ثامن رجب وتبعه فى ذلك بقية الوزراء فهاج عند ذلك ضباط الجند وماجوا واحتج البارودى ورفاقه على بلاغ الدولتين واشتد الهياج والاضطراب فأرسل الخديوى الى الوزير محمد شريف باشا ورسم اليه بتشكيل هيئة وزارة أخرى فامتنع فراجعته فأصر على الامتناع ولازم بيته فسار اليه قونصل الانجليز وكله فى الأمر فلم يقبل فأراه خبرا واردا اليه من صاحب السياسة الانجليزية وترجمته بوجدنا لو يقبل شريف باشا رياسته الوزراء فتؤكدوا له أننا نعضده ونؤيده جهدا

الاستنطاعة فقال لالكتم ولا للكرامة والله ما توليتها وهي على شفا جرف تجاذبها الاهواء واشتد الخوف بالناس وسعى محمد سلطان باشا ونواب البلاد بين الفريقين فلم يفلحوا وذهب جماعة من ضباط الجند مع طلبه بيك عصمت الى مقر الخديو بسراى عابدين وكانهم يريدون به السوء فرسم الخديو بحضور الوزير محمد شريف باشا فحضر وانعقد مجلس حافل حضر فيه نواب البلاد والعلماء والاعيان والوجهاء فكلم الخديو الوزير في قبوله منصب الرئاسة وألح عليه في ذلك وكذلك فعل النواب والعلماء والاعيان والوجهاء فقال أتولاهما بشرط تنفيذ ما في لائحة الدولتين وخروج أحمد عرابي من البلاد فعند ذلك قام طلبه عصمت وقال إنا في طاعة أولى الامر ولكننا لانقبل ما في تلك اللائحة ولا حق للدولتين في طلب ذلك منا اذ هي أمور خاصة بالخليفة أمير المؤمنين ثم قام من فوره مغضبا فتبعه من كان معه من الضباط وانفض مجلسهم على غير طائل

وظهرت بعد خروج طلبه من مجلس الخديو حركة عظيمة بين الجند وسائر الضباط وورد الخبر من الاسكندرية بان الجنود المراطين فيها امتنعوا من قبولهم رئيسا على ديوانهم غير أحمد عرابي وانه ان مضى اثنتا عشرة ساعة ولم يرجع الى منصبه لا يكونون مسؤولين عما يحصل بالاسكندرية فازداد الحال إشكالا وخبالا وكبرت حجة الوزير محمد شريف باشا على عدم قبوله الرئاسة وكثر تطواف أحمد عرابي في هذا اليوم على مراكز الجند بمعاقل العباسية وطره وقصر النيل وقلعة الجبل وفي غروب اليوم أرسل الى محمد سلطان باشا في طلب سائر نواب البلاد فاجتمعوا في بيت سلطان باشا وحضر أحمد عرابي في نفر من الضباط والجند وأحاطوا بالبيت ومسكوا على من فيه المسالك ودخل أحمد عرابي فوقف في وسطهم وعلى يساره محمد عبيد أحد ضباط جند الحرس الخديوي وخطب فيهم خطبة طويلة كلها حض على التعاضد والتعاون على خلع الخديو ورفض سائر مقترحات الدولتين ثم طفق يقيج ما وقع من الخديو ويعدد مساويه ومعايبه ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلبا والرزايا فما أتم خطابه حتى عالت بينهم الضوضاء واشتد الهرج فصاح أحمد عرابي ما بالكم لاتسمعون وكانكم خشب مسندة ان كنتم لاتنادون بخناعه فكن قد خلعناه قد خلعناه فصاح عند ذلك سائر العسكر لذين كانوا حول البيت قد خلعناه ثلاثا وكان ممن حضر في مجلسهم تلك الليلة الشيخ الجراوى مفتي الحفانية فقام ورد على أحمد عرابي وكاد أن يوقفه فتقدم اليه محمد عبيد وصفعه وأمسك بفروجه ففرقها فصاح الشيخ في وجهه وصاح جميع الحاضرين واستل محمد عبيد سيفه وأقسم انه يقطع عنق سلطان باشا ومن لم يناد بخلع الخديو من سائر الحاضرين الساعة فهرب أكثر النواب وألقى بعضهم نفسه من الشبايك وعلا الصراخ في بيت نساء سلطان باشا ظنا منهم بانه مات ذبحا وتراخ الاتباع ليروا ما حل بساداتهم والجند تدفعهم عن الابواب ومازالوا على هذه الحال من الجلبة والصياح الى نحو الساعة السادسة ليلا فخرج أحمد عرابي ومن معه وهم يرددون ويريدون

مطلب
ما جرى لنواب
البلاد من أحمد
عرابي في بيت
محمد سلطان باشا

كان بهم مسا من الجن وعلم الخديو بما جرى في بيت محمد سلطان باشا في تلك الليلة فارسل الى الباب العالي وديوان المهابين الهمايونى يقول ان الجنود المصرية لم ترض عن تخلى الوزراء عن مناصبهم وان مقدمى الجنود والوزراء أقاموا الحجة على لائحة الدولتين فأتى اليه الجواب بأن قد رسم جلالة الخليفة أمير المؤمنين بارسال وفد ليرى في الامر وسيقدم عليهم بعد ثلاثة أيام فانتظروه وكان الخوف قد كبر بالناس فلم ير الخديو بدا من استبقاء الوزراء في مناصبهم فرسم بذلك حتى أتى وفد السلطان فعاد أحمد عرابى الى تعاطى الاشغال وكتب الى سائر قناصر الدول يطمئنها ويضمن لهم تأييد الأمن وعدم مس أحد من أهالى البلاد والاجانب بسوء وقال لهم بعد كلام أيضا ولم تطلب العصابة الوطنية ونواب البلاد الا أمورا ثلاثة * الاول منها اعادة لائحة الدولتين كما وردت مع خروج حراكب الحرب لتطمئن القلوب * وثانيها وضع قانون أساسى تتيين فيه حدود كل العائلة الخديوية والوزراء * وثالثها قطع المخابرات والعلاقات مع دولتي الانجليز والفرنسيين خصوصا وسائر الدول عموما الا بواسطة دار السلطنة العثمانية * وبلغ هذا الكلام الدول فأكبرته وأعظمته جدا وكتب دولة الانجليز الى قواصلها بمصر تقول انها لاتألو جهدا في الذب عن مقام الخديو والدفاع عن نفوذه ما استطاعت

مطلب
قدوم المشير
درويش باشا

فلما كان عشرون من رجب دخل ميناء الاسكندرية مركب سلطانية وفيها رجل من كبار الدولة اسمه المشير درويش باشا فنزل في سراى راس التين برهة لطيفة ثم ركب منها الى محطة السكة الحديد وأمامه نفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وسافر الى القاهرة فكان في انتظاره على محطتها فريق من الجند ونفر من أصحاب الشرطة وضابط المدينة وقد أعدوا لركوبه عربة من الاصطل الخديوى فركبها وسارت الجنود أمامه وأصحاب الشرطة خلفه فاجتمع عند ذلك الكثير من الحرافيش والسوقة وزعر باب الحديد وباب البحر والاطراف وتراحموا أمام الجند وهم يضحون ويصيحون ببذاء القول وخش الكلام وأحاط جماعة منهم بعربة المشير وهم يصيحون باصوات مزعجة نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار أتاكم الموت يا كفار أتاكم الموت بحرق المار وغير ذلك من عبارات السباب واللعن واشارات السخرية والاستهزاء * قيل فسأل درويش باشا عن سبب ذلك فقالوا له هذه عادة العامة اذا فرحوا بقدوم ضيف عزيز لديارهم فلم يستحسن منهم ذلك وأشار بصرفهم فلم يفعلوا وما زالوا على هذه الحال من الضجيج والصياح والنداء بعضهم على بعض وايداء المارة من الاجانب وأهل البلاد حتى وصل المشير الى المكان الذى أعد له فوقفوا أمام باب الساعة وهم على ما هم عليه من الصياح والجلبة ثم انصرفوا وبات الناس ليلتهم تلك وهم في شغل مما عساه ان يحدث بسبب حضور درويش باشا ولقائه على هذه الصورة المشكورة وأصبح درويش باشا وقد بدأ فى المكاملة مع أحمد عرابى وكبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية وعقد لذلك عدة مجالس فتكلموا فيها طويلا وكانوا اذا أغلظوا فى القول

مع أحمد عرابي وعابوا ما وقع من الوزراء ولا سيما منهم البارودي قال لاحق لكم ولا عتب ما دامت البلاد آمنة مطمئنة وها هي الفتنة قائمة على ساقها ومع ذلك لم يقع في خوف البلاد ولله الحمد ما يكدر صفو الرأية وطال الكلام بينهم أناما على غير جدوى

وكان منذ قدمت سفن حرب الدولتين الى مدينة الاسكندرية قد أخذ الاجانب يفدون عليها أفواجا أفواجا وهم فرحون بها مطمئنون كأنهم لا يخشون بجوارها جائرا فكبر ذلك على العامة والسوقة من أهل الاسكندرية وحسبوه اهانة لهم وانذالا وطنوا ان الاجانب انما يريدون باهل البلاد الشرفاظهروا التغيظ وبدت منهم دلائل الشر وأغلظوا في مخاطبة الاجانب فكان اذا كلم الواحد منهم أجنيا هزله الرأس وأسبل الجفن وتوعدا وتهديدا فأحس الاجانب بما وراء ذلك وخافوا شر العقبة فأخذوا في التأهب والاستعداد وأكثروا من شراء البنادق والبارود واستخدم عظماءهم بعض الاقوياء من أسافل اليونان وزعر الطليان * قيل وشاوروا في ذلك أميري مراكب حرب الانجليز والفرنسيين فوافقاهم عليه وارسلوا رجلا منهم الى القناصل بالقاهرة ليسألهم في ذلك أيضا فلم يوافقوا عليه واشتد تحذير الفريقين وظهرت علامات الوحشة فقتل تطواف الاجانب في الليل وامتنع جلوسهم في محلات اللهو واغلق أصحاب الحوانيت منهم حوانيتهم فكانت وحشة عظيمة للغاية * فلما كان يوم الاحد سادس عشرى رجب من السنة أى سنة تسع وتسعين هجرية وحادى عشر جونيوس سنة احدى وعشرين وثمانمائة وألف ميلادية بينما كان الاجانب خارجين عن بيوتهم قامت الغوغاء من أهل الاسكندرية وتجمعت زمرا وسارت أولا من الشارع المعروف بشارع ابراهيم وبايديهم العصي والهرأوى والمساوق وحطب الوقود وهم في ضجة وجلبة عظيمين ثم أفي جماعة منهم من شارع الضبطية وأخرى من سوق الطباخين وكانوا على عهد واتفاق وأوقعوا بالاجانب ضربا وقتلا فتراحم الناس الى الحوانيت والبيوت وتسابق الاجانب يريدون الخلاص وأطلقت البنادق من منافذ البيوت على الغوغاء فكانوا اذا رأوا أجنيا تراحوا خفقه ونزلوا بالعصى والهرأوى على أم رأسه حتى يسقط ميتا فيأخذون مامعه ويتركونه ويلحقون بغيره وقد أخشوا في القتل والسلب وتخريب الحوانيت ونهب مامها فكثير الصياح من أقصى المدينة الى أقصاها واشتد البكاء والعيول وضائق الارض في وجه الاجانب ولجأ بعضهم الى بيت أصحاب الشرطة فرارا من الموت فللقاهم أصحاب الشرطة الذين هم جند المستحفظة بسنابك البنادق فقتلوه عن آخرهم فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار وطافت الغوغاء جميع حارات الاجانب فكان اذا رأى الاجنبي نفرا من هؤلاء الاخلاط مقبلين نحوه امتقع لونه في الحال وتخلعت قدماها فاذا هم بالفرار فلا تطاوعه قدماه فيعدو وعدو الغراب خطوات ثم ينكب على وجهه فيلحقونه بضرب العصي والنباييت وربما وجدوه ميتا من شدة الخوف فكان ذلك من غرائب الطبيعة وقد جرح ومات في ذلك اليوم خلق كثير وبينهم جماعة من كبار الاجانب ووجهائهم * وكان مقدم جند الاسكندرية يومئذ سليمان بك داود فأرسل

مطلب
حصول المقتلة التي
عرفت بمقتلة حادى
عشر جونيوس وما
كان من وراء ذلك

اليه عمر باشا لطفى محافظ المدينة في طلب المدد من الجند ليستعين بهم على ايقاف تيار الفتنة وحقن الدماء وكان ضابط المدينة قد تعارض في ذلك اليوم ولم يخرج من بيته فارسل سليمان بيك يقول لادخل لى فى شئ من ذلك حتى يأذن لى أحمد عرابى فطير عمر لطفى باشا الاخبار الى القاهرة بما وقع فورد الامر من أحمد عرابى بقيام الجند ومنع تلك الفظائع فتفرقت العساكر فى الشوارع واخذوا فى التطواف فى نحو الساعة الحادية عشرة العربية نهارا وكانت الى هذه الساعة قد تفرقت الغوغاء وتفرقت اللوم وطاف محافظ المدينة فى نفر من أصحاب الشرطة ومعاونى الضابطة وأمر بجمعوا ما بقى من جثث القتلى بالشوارع والطرقات وجوار حمام الضابطة فكانوا نيفا وثلاثمائة قتيل وقيل غير ذلك ونادوا بالأمان وعود الناس الى تعاطى أشغالهم وما زال الجند يطوفون الليل كله وبكاء النساء وصياح الالباء على آبائهم متتابع فكانت حادثة يالها من حادثة لم يسبق لها مثيل الا فى دولة المماليك الثانية وقيام العامة على نابليون بالقاهرة ١٨٠١ ولما علم من مصر والقاهرة بما وقع بالاسكندرية قامت بينهم ضجة عظيمة وتسابق كل من له أهل أو ولد بالاسكندرية الى موارد الاخبار يسألون وعم الخوف والاضطراب وباتوا وهم فى كد ملازم وأصبحوا وقد اجتمع سائر قناصل الدول ودخلوا على المشير درويش باشا وكلوه فى الامر وأغلظوا فى مخاطبته واتهموه باضرار نار هذه الفتنة وعنفوه وقالوا أنت وحدك المسئول عن كل ما جرى اذ لولا جضورك فى هذه الظروف ما أريقت هذه الدماء الزكية ونحن اليوم نطلب منك أن تكفل صيانة أرواح جميع الاجانب الذين فى داخل البلاد قيل فاضطرب المشير وأشار بعقد مجلس فى سراى عابدين للسلطنة فى الأمر فعقدوه وحضر فيه الخديو ودرويش باشا ومن معه من رجال الوفد العثمانى والوزير محمد شريف باشا وكبار رجال الحكومة وسائر قناصل الدول فتقررت لقاعدة بينهم بعد أخذ ورد على التكفل لقناصل الدول بحفظ أرواح وموال سائر الاجانب وزلاء البلاد منهم بشرط امتثال أحمد عرابى وطاعته وقيامه بتنفيذ كل ما يصدر اليه متعلقا بالامن فاجابهم أحمد عرابى الى ذلك وتكفل لهم درويش باشا بجميع ما طلبوه وبلاخطة طاعة الخديو والقيام بجميع أوامره فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك وقام أحمد عرابى من فوره وأرسل الى سائر المديرين والمحافظين بمنع اجتماعات الجند أينما كانوا وكتب الى سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية يستحثه الى الالتفات ومنع وقوع شئ من الجوادث والقتل وبذل العناية فى ملازمة جند الاسكندرية لحدود الطاعة والامتثال

ورسم الخديو بتحقيق أسباب هذه المذبحة ومحاكمة كل من كان له يد فيها وشكل لذلك مجلس مخصوص يرأسه عمر لطفى باشا محافظ الاسكندرية فاجتمع المجلس فى دار المحافظة وبينهم مندوبو قناصل الدول وقد كثر فى هذا الحين رحيل الاجانب عن الاسكندرية وحضورهم من داخل البلاد عشرات ومئات الى السواحل طلبا للفرار والنجاة وكثر تواردهم حتى لم يبق منهم أحد فى المدن واقرى وزح أيضا العدد العديد ممن كان منهم بالقاهرة وقام

الخديو الى الاسكندرية في سادس عشرى رجب ومعه درويش باشا ورجال ديوانه الخاص فلما نزل بممره برأس التى استدعى اليه قناصل الدول وحادثهم في أمرا فتنه وطيب نفوسهم وكلهم كذلك درويش باشا وهوى عليهم وبقي قونصلا الانجليز والفرنسيس بالقاهرة ولم يحضرا مع الخديو الى الاسكندرية الا باجازه من حكومتهم ما بعد أيام فلما قدما الى الاسكندرية أوعزا الى سائر قناصل الدول بالتشديد على رعاياهم بالجلء عن البلاد ففعلوا فاشتد الخوف بالناس ونزل من بقي من الاجانب الى السفن الراسية أمام الاسكندرية وطلب قناصل الدول من دولهم سفنا لنقل رعاياها بخافتهم فسكنها الناس بدل البيوت فرارا مما عساه أن يقع

حدثني صاحب لى كان لا يفارق باب الخديو في هذه الايام قال دخل المراقب الانجليزى يوما على الخديو وقال له هل يمكن الاعتماد على ما يقوله المشير درويش باشا من طاعة الضباط وأمانة العسكر المصرى في الخدمة عند ميسس الحاجة قال فتأفف الخديو وقال أنى يكون لنا ذلك ولم نرمهم الى لآن الا العسف على أنى أخشى العاقبة ولا أرى سبيلا لتوطيد الأمن في هذه الظروف الا باستجداد أمير المؤمنين فيرسل اليها فريقا من عسكره المنصور يذب عن البلاد ومن فيها عند ميسس الحاجة ولم أر فى سفارة المشير درويش باشا ما كنت أتمناه من لفلاح فقد خابت سعيها وباتت وأصبحت وكائنهم لم تكن شيأ مذكورا * وشاعت هذه الاقوال بين الناس وعلم بها قناصل الدول فتقدموا الى الخديو فى خلع الوزراء وتشكيل وزارة أخرى عسى أن تغلغ فى تدارك الخطر قبل استفحاله فاجابهم الى ذلك وقد كانت حاجة فى نفسه * ورسم بتشكيل وزارة جديدة برئاسة اسمعيل راغب باشا وهو من كبار رجال الحكومة القدماء وأنزل أحمد عرابى باشا نفسه من منصبه وطبروا الخبر بذلك الى الافاق فاستغرب الناس هذا الامر وكثر تحذيرهم به فلما استقرت براغب باشا الرئاسة تقدم الى الخديو فى طلب العفو عن جميع من اشتركوا فى الحوادث الاخيرة الا من كان لهم يد فى مذبح الاسكندرية وقال للخديو انما نريد بذلك تطيب القلوب المتنافرة فيعود الامن وتزول المخاوف وترجع الاحوال الى سابق مجراها فاجابه الخديو الى ذلك ثم جعل راغب باشا يشتد فى تحقيق حادثة الاسكندرية ويقبض على كل من كان له يد فيها وبث العيون والجواسيس وأصحاب الشرطة فى انحاء البلاد يخافوا بالكثير من السوق والغوغاء والحارين والشيابين وأهل البطالة والكسل وبعض مشايخ الحارات ومشايخ الطرق وجعاة من أصحاب الشرطة فاسمهم فالوهم فى حبوس الاسكندرية حتى غصت بهم وضائق وجعل الخديو يطوف فى نفر من الحراس فى شوارع المدينة وأرجائها نظميها للقلوب وتسكينها للخواطر المضطربة وكذلك كان يفعل درويش باشا ومن معه من رجال الوفد ومع ذلك فقد كان جلء الاجانب عن البلاد متتبعيا وتقدمت الدول الأوروبية على يد سفرائها الى الباب العالى فى عقد مؤتمر دولى بدار

مطلب

تشكيل وزارة

اسمعيل راغب باشا

وما جرى بعد ذلك

السلطنة للبحث في أنجح الادواء الحاصلة لاسباب الفتنة بديار مصر وايضا في أصحابها عند
 حدهم وشددوا على الباب العالي في طلب ذلك فامتنع وقال ليس في الامر شيء مما تخافون
 ولا نباء متواصلة من درويش باشا باستتباب الامن ورجوع سائر الامور الى سابق مجراها
 فأبى كبار سياسة الانجليز الا عقد ذلك المؤتمر والباب العالي يطاول ويحاول ثم استعان بدول
 روسيا والمانيا ويطاليا فاعانوه وقاموا لنصرته خوفا من مطامع الانجليز في مصر فأنست
 دولة الانجليز منهم ذلك وكتبت تقول انها تنعهد متى تم عقد ذلك المؤتمر مع سائر الدول أن
 لا تعمل قط على قصم عرى الصداقة التي بينها وبين الباب العالي ولا تعمل على ضم شيء من
 أراضيها الى جانب أملاكها ولا أن تستولى على مصر ولا على قسم منها ولا أن تسعى قط
 في الحصول على شيء من الامتيازات السياسية أو التجارية ما لم يشاركها في ذلك بقية الدول
 فالحازت لرأيها عند ذلك سائر الدول وانفرد الباب العالي فأصر على الامتناع فلم تلتفت اليه
 الدول وعقدت المؤتمر في قسطنطينية في سابع شعبان من السنة أي سنة تسع وتسعين فلم
 يحضره أحد من جانب الباب العالي فتقررت القاعدة بينهم على ان الحكومات التي وقع
 وكلائها بالنيابة عنها على هذا البر وتوكل (يعني المحضر السياسي) تنعهد أنها لا تقصد
 قط اغتنام أرض ما ولا الحصول على امتيازات ما ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات مالا
 يكون لغيرها من رعايا الدول الاخرى في مصر وذلك في جميع المسائل التي حصل التوافق
 عليها بسعيها واشتراكها في المخبرات لترتيب وضبط أمور البلاد المذكورة * وجعل
 الانجليز من هذا اليوم يعدون المعدات ويجهزون الجنود ويجعلون سفن حربيهم على قدم
 الاستعداد ثم دعوا بقية الدول الى الاشتراك معهم في عمل يكون من ورائه إرهاب أصحاب
 الفتنة ووقوفهم عند حد الطاعة أو انهم يسبغون معا الى الاسكندرية فربما من الجنود
 والعساكر لارجاع الأمن والراحة الى تلك البلاد فأحست الدول بما وراء ذلك ولكنها تغافل
 لاسباب لم تصل اليها معرفتنا لغاية الآن * فلما رأت منهن هذا الاجرام أو عزت الى
 فوصلها بمصر وهو المسترمالت فتمارض ونزل الى احدى سفن الحرب الانجليزية الراسية
 أمام الاسكندرية ولبث بها أياما والناس يتسألون عن سبب ذلك ثم شاع الخبر بقيامه الى
 برندى احدى موانى البحر الابيض فتحدث الناس به كثيرا وأخذتهم الطيرة وقالوا ان قيامه
 في هذا الحين على هذه الصورة هو بمثابة إشهار الحرب على البلاد وإطلاق المدافع على
 حصون الاسكندرية * وبينما كان مالت قونصل جنرال الانجليز بعيدا عن مقر وظيفته
 منزويا في برندى كأن لم يبق بين دولته وديار مصر علاقة كان دوفرين سفير الانجليز في دار
 السلطنة يغمر بالباب العالي ويزين لرجال المايين استرضاء أحمد عرابي بأهدائه شيئا من
 نياشين الاعتبار وما زال بهم حتى أفلح سعيه فأحسن السلطان على أحمد عرابي بالنيشان
 المجيدى الثانى وسير الخبر بذلك الى القاهرة ففرح أحمد عرابي وأصحابه ووطنوا بذلك من دلائل
 رضا السلطان وارتباده الى ما هم عليه من مخالفة الخديو والدولتين ولم يعلموا ما في ذلك من

الخطر القريب وتناقل أصحاب الصحف المحلية خبر هذا الانعام وفصلوا فيه وقاسوا وخاطبوا فنقله أصحاب الصحف الانجليزية ونادوا بالويل والشبور وقالوا انه لبرهان جديد على عداة السلطان لسيدة البحار ودولة العظمة والفخار وعمل كبار سياستهم على احباط اعمال المؤتمر الدولي وتقدموا الى بقية الدول في رفع لائحة الى الباب العالي يطلبون فيها لما أن بسير جنوده الى مصر لانجاد نار الفتنة وارجاع لامور الى سابق مجراها ولما أن يترك الدول ترى رأيها في ذلك فامتنع الباب العالي وقال لا داعي لارسال الجنود والبلاد آمنة مطمئنة فأعجب الانجليز امتناعه ووافق ما في نفوسهم وقد كانوا يخشون من ذهاب عسكر السلطان الى مصر ويحسبون لذلك ألف حساب وأوعزوا في الحال الى أمير سفن حريمهم الراسية أمام الاسكندرية أن ينتحل أقل العلل والاسباب العدائية ويطلق على الفور مدافعه على حصون الاسكندرية حتى يدكها دكا وكان أحمد عرابي قد قدم من القاهرة الى الاسكندرية في حاشيته وبعض الخدم ومعه بعض كبار الجند المفترين اليه فاستقروا بالترسخانة وكان في حصون الاسكندرية تسعة آلاف مقاتل فكتب سيمور أمير تلك السفن الى أحمد عرابي يقول ان الجنود المصرية آخذة في تحصين سائر القلاع والقاء الاحجار الكبيرة في مدخل المينا ليشدوه ويمنعوا المدد فينحصر الاسطول وان في تحصين الحصون وتقوية الاستحكامات مع وقوف سفن دولة الانجليز أمامها عارا وتحقيرا فان لم تنكف الجنود عن ذلك أطلقت عليها مدافعي وأصليتها نارا حامية * وكان طابيه عصمت أحد أصحاب الزعامة هو المتولي أمر ذلك فكتب الى أمير السفن يقول ليس في الأمر شيء مما تقول وان حصوننا وقلاعنا هي في حالة لا تستدعي عملا فعاود سيمور الكلام وأغلظ في القول وقال لا بد من جملاء العساكر المصرية عن طابيتي الانفوشي والبرج واختلال الجنود الانجليزية لهما فلم يجبه طلبة الى ذلك أيضا فجعل سيمور يهدد عساكر الحصون ليلًا بانوار الكهرباء التي كانت تنبعث من مراكب الحرب على الحصون فتخطف الابصار وتهزلها القلوب وشاع خبر ذلك بين الناس فاشتد بهم الخوف وكثر جلاؤهم عن الاسكندرية الى القرى والارياف البعيدة وكثر تطواف أحمد عرابي في الشوارع والطرق وخلفه جماعة من الجند يحملون البندق وأرسل سيمور الى الخديو على يدى كولفن مراقب الانجليز يقول له اترك المدينة وانزل الى احدى السفن كي لا يصيبك شيء مما عسى أن يحصل باسباب ضرب القلاع والحصون فلم يقبل وقال عار على أن أترك المدينة وفيها العدد العديد من رعاياي المخلصين فألح عليه كولفن فامتنع وقال لا يحل لي أن أتركهم في وقت الشدة ولا يجمل أن أترك بلادى في ساعة الضيق * وتداخل قناصل الدول في الامر وسعوا في الصلح بين سيمور البحر وعرابي البر فلم يفلحوا وكان سيمور يأتيهم في كل يوم يطلب جديد فاذا امتنع أحمد عرابي من تنفيذ جاءه بأشد منه فكتب أحمد عرابي محضرا بجميع ما يطلبه سيمور ووسمه بالعداء والفجور وقال عن سيمور انه مثال الظلم والعداء للبلاد وأهلها ولانه أهان المصريين

واحتقرهم ولم يراع لهيئة الحاكمية حرمة ولا اعتبارا ولذلك وجبت مقاومته جهدا
الاستطاعة وانه قد فوض أمر الدفاع عن البلاد الى أحمد عرابي ومن معه من كبار الجند
المصري ثم أخذ ورقة هذا المخضر جماعة من أصحاب الزعامة وطافوا بها على بيوت
الوزراء فوضعوا عليها أسماءهم قبل ودخلوا بها على الخديو أيضا فلم يربدا من التوقيع
عليها ثم أرسلوا هذه الورقة الى سيمور البحر وسير في الحال أحمد عرابي الى سائر المديرين
والمحافظين يعلمهم بان يكونوا من الآن على قدم الاستعداد لارسال المدد من المال والرجال
عند الطلب واكثر من تطوافه على القلاع والحصون وترتيب الذخيرة ومعدات الحرب
فلما كان يوم الاحد ثاني عشر شعبان جاء رسول من قبل سيمور ودخل على الخديو
بمقره برأس التين وقال ان الامير على عزم اطلاق المدافع على الحصون في صبح الثلاثاء
رابع عشر الشهر وقد جئت أسألكم أن تنتقلوا من سراي راس التين الى سراي الرمل
تحرزا مما عساه أن يحصل من رعي القنابل ثم تركه ودخل على المشير درويش باشا وناولته
خطابا يقول فيه * انك أنت المطالب بحياة الخديو وعليك تبعة جميع ما يحصل لشخصه فاحذر
العاقبة والسلام * وفي صبح الثالث واشرين من شعبان أرسل الى راغب باشا رئيس
الوزراء ودرويش باشا مندوب الباب مكتوبة يقول فيها * حيث قد انسحب قونصلنا من الديار
المصرية ولم يبق بها أحد الآن من وكلاء دولتنا فقد انقطعت بذلك العلائق التي كانت بين
حكومة جلالة ملكة الانجليز والخديوية المصرية ولم يبق بينهما من الوداد ما كان * فلما
شاع هذا الكلام بين الناس خافوا خوفا عظيما وازداد جلاؤهم عن المدينة وشدد قناصل
الدول على من تخلف من رعاياهم بسرعة الارتحال أو النزول بالسفن الراسية أمام
الاسكندرية واشتد الهرج والمرج في الشوارع والطرق وأغلق في ذلك اليوم ما بقي من
حوائيت الاجانب وغيرها من حوائيت أهل البلد وهرع العامة الى بابي رشيد وسدده قاترين
الى الريف وخرجت مراكب حرب الفرنسيين في مساء ذلك اليوم راجعة فلم يبق منها سوى
مركبين تحت طلب قونصل جنرال الفرنسيين فكان لخروجها دهشة عظيمة وكثر نساء
الناس عن سبب ذلك فاختلفت الأقوال فمن قائل ان خروجها كان لخلاف وقع بين أمير
الاسطولين ومن قائل بل بين الدولتين ومن قائل لكره الفرنسيين لقتال المصريين وغير ذلك
من الحسد والتخمين وقد عاب عقلاء الناس على الفرنسيين هذا الأمر وعذوه فلتة من
فلتات سياستهم المخفوفة بالطيش والخفة وقالوا سوف يندم أصحاب سياسة الفرنسيين على
ما فرط منهم فلا ينفعهم الندم واشتد قلق الناس وتحذروهم وامتناعهم من الخروج من
دورهم في الليل فكانت وحشة عظيمة للغاية

مطلب
اطلاق سفن سيمور
مدافعها على قلاع
وحصون الاسكندرية

ولما كانت الساعة الاولى من يوم الثلاثاء رابع عشر شعبان سنة تسع وتسعين ومائتين
وآلف هجرية أي صباح الحادي عشر من يوليو سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة وآلف ميلادية
صوب سيمور أفواه مدافع سفته نحو الحصون والقلاع وأطلق عليها القنابل اطلاقا متتابعا

فاطلقت الحصون كذلك مدافعها وتتابع الرمي من الفريقين ووصلت قنابل السفن الى القلاع والحصون والسيوت وضواحي المدينة فكانت أشكالا مختلفة بعضها عن بعض ففتكت بجند الحصون فتكا ذريعا ودكت بعض القلاع دكا فلما اشتد الرمي وكادت تنعطل مدافع الحصون خرجت الغوغاء من الحارات وانتشرت في الاطراف واختلطت بالجنود وهم في جلبة وصياح وتزاحوا على القلاع والحصون يريدون معاونة الجند فكان اذا هم الجند يتصويب مدفعه نحو سفن الانجليز هالوا وصاحوا ونادوا يا أهل بيت رسول الله * يا شيخنا يا أباصيري * يا سيدي يا قوت يا عرشي * وغير ذلك من أنواع النداء والصياح والجلبة وسار جماعة منهم وأمامهم أرباب الاشيار بالبيارق والطبول والكاسات حتى وقفوا على شاطئ البحر ناحية السبالة وصاروا يصيحون بأعلى أصواتهم يا لطيف الله أكبر الله أكبر وهم يطوقون البيارق ويضربون الطبول والكاسات فرمت عليهم احدى تلك السفن شبا من القنابل الصغيرة تباعا فرقهم وأهلكتهم عن آخرهم الا من كان بعيدا واشتد الرمي من السفن وتراسل فاقصت نيران احدى القنابل بمخازنها البارود الكائنة بقلعة آطة فالتهب البارود وانفجر انفجارا هائلا ودمر القلعة ودكها دكا وأهلك جميع من بها من الجند والعامة والضباط والنصقت لحومهم وما بقي من مشاسهم بجدران القلعة فكان لها منظر تنفطر من رؤيته القلوب وتفتت من هوله الأكباد وما زال الرمي متراسلا من السفن والحصون وأجد عرابي لا يخرج من قلعة القضا ولا يعلم بشئ مما هو جار في غيرها من بقية القلاع قبل وكان لا هم له في ذلك الحين سوى تحريك شقيقه بتلاوة بعض الاوراد وتحريك أصبعيه على مسجحة كانت بيده * وكان راغب باشا رئيس مجلس الوزراء وبعض الوزراء عند باب رشيد نخرج الناس من المدينة هائمين على وجوههم من شدة رمي القنابل وفعلها بالقلاع والدور والوكائل ومروا من باب رشيد زمرا كالابل الآبقة فلما كان وقت الظهيرة بطلت مدافع الحصون وسكنت أصواتها وظهر على ما بقي من القلاع رايات بيضاء اشارة الى الكف وطلب الامان فانكفت السفن عن الرمي وخرج حينئذ أجد عرابي من مخبئه وسار الى مقر الخديو بسراى الرمل فسأله الخديو عما جرى بالانقلاع وما حل بالعسكر فقال الخيبة والفشل والخطر الشديد ولا حول ولا قوة الا بالله فلم يبق في قورتنا أن نقاوم فأما أحسن التدبير فالتسليم بسائر مطالب أمير السفن * فلما سمع الخديو هذا الكلام كبر عليه الامر واستعظمه وكان معه بالسراى يومئذ عثمان باشا واسماعيل باشا كامل والزبير باشا والجنرال استقون باشا رئيس أركان حرب الجيش على عهد اسمعيل باشا وفريدكو بيك وتيكران بيك وآخرون غيرهم فجمعهم اليه وعقد في الحال مجلسا منهم وكلهم في الامر كثيرا فاتفقوا على أن يسيروا طلبه بيك عصمت أحد أصحاب الزعامة رسولا الى سمور أمير السفن ليخبره في الصلح فسار طلبه وغاب ساعة ثم عاد وأخبر الخديو بان سمور يطلب ان تحتل عساكره ثلاث قلاع من أكبر قلاع المدينة والا فانه

يعاود الرمي بالقنابل بعيد الظهر قال فسأله مهلة حتى تحصل المداولة فلم يقبل فامر الخديو عند ذلك بالجلس فانتظم وتكلموا ثانية فمقرر أنه لا يصح قط للخديوية المصرية الترخيص في نزول جنود أجنبية في قلاعها ولا حصونها بغير إذن من الباب العالي وكتبوا بذلك محضرا وليدكم لم يبلغوه الى سيمور السفن

مطلب

جلاء الجند والناس
عن الاسكندرية
وما حل بالنساء
والاطفال من جراء
ذلك

وأخذ من بقي من جند القلاع والحصون في الخروج منها قبيل الغروب وقد تركوا ما فيها من جثث الاموات والذخيرة والمهمات وساروا نحو باب رشيد والباب الجديد وخرجت كذلك بقية العساكر من معقل رأس التين وباب رشيد والباب الجديد الى ناحية الملاحه وحجر النواتية وتتابعوا في الخروج الليل بطوله فلما لاح الفجر ظهر سليمان بيك داود مقدم جند الاسكندرية ورسم الى بعض الفرسان بالنداء في الناس بالخروج من المدينة عاجلا ومن تخلف حل به ما يكره فكثر النداء في الحارات والشوارع وهب الناس من نومهم وكان على رؤسهم الطير وخرجوا هائمين وهم حفاة حاسرو الرؤس * فكانت الاطفال تبكي وتصيح والامهات يولون والرجال تنساق وتترامح وهم في دهشة وذهول وتتابع خروج النساء من ذوى البيوتات لايحملن من متاعهن سوى الماء زروما عليهن من خفيف الثياب والعسكر يستحثون الى الخروج من الباب الجديد وينادون عليهن بأصوات التهديد فلم تشرق الشمس الا وقد غصت رحبات الباب الجديد بالخلق الكثير من الرجال والنساء والاطفال وهم في أسوأ حال وكثر الزحام واختلط الناس بعضهم ببعض وارتفعت الشمس فاشتد بهم الظمأ فطلبوا الماء فلم يصلوا اليه وانتشر العربان حول تلك الاطراف فعاثوا وأفسدوا وسلبوا كل ما وصلت اليه أيديهم فعلا عند ذلك الصباح وارتفعت أصوات النساء بالبكاء والتخيب وهم بعضهن بالرجوع الى المدينة على ما فيها من المخاوف والأخطار فلم يتمكن اذ بان طلائع زمر الاخلاط والحرافيش يحملون المنهوبات من الحوانيت بالمنشية وشارع شريف باشا والمسدان والسكة الجديدة من أصناف الحرير والديباج والمقصبات وانحر الملبوسات وأعلن المجوهرات والمصوغات وأنواع التحف وأصناف الزينة والمشروب والمأكول وأصناف العطريات وأثاث البيوت من الصيني والبلور وغير ذلك مما يجبل عن الحصر وهم في ضجة وجلبة عظمتين وأكثرهم ملطخ بالدم * وكان لما أخذ الناس في الخروج من المدينة وقد تركوا بيوتهم بما فيها من متاع وفرش ومأكول ومشروب تطاولت أيدي العامة الى سرقة بعض الشيء من ذلك ولم تكدر تصل اليه أيدي البعض الاخر حتى برز سليمان بيك داود في ميدان محمد علي قبل ونادى في الجند والعامة بكسر حوانيت التجار ونهب ما فيها واضرام النار في المدينة حتى تصير رمادا وأكثر من النداء بذلك فقامت العامة قومة واحدة وكسروا أبواب الحوانيت بالفؤوس والبلط ونهبوا جميع ما فيها من الخرائر والمقصبات وأصناف الاقشة الغالية والمجوهرات والمصوغات وكل ما وصلت اليه أيديهم وكان الرجل منهم اذا حل شيئا من ذلك وهم بالخروج لحقه من هو أقوى منه فيضربه أو يقتله

ويأخذ ما معه وربما اقتتل الاثنان أو الثلاثة منهم على شئ لا يستحق بعض قروش وانحدر
العربان من السيوف والرمل والمندرة وباب العرب ومريوط وغيرها وانبثوا في المدينة انبثاث
الجراد فقتلوا ونهبوا وفسقوا بالابكار والامهات قسرا وعاثوا فيمن خرج من الناس الى
الباب الجديد وخطفوا ما وجدوه من حلى وملبوس وقتلوا بعض النساء باطلاق البنادق
والرجال بطعن الرماح وفعل كذلك الجنود فنهبوا وخطفوا وأطلقوا بنادقهم على من كان
يقاومهم وكان المشهد مريعا جدا والخطب شديدا للغاية فلما كان بعد الظهر بساعة
أضرموا النار في الكثير من بيوت المنشية وشارع المسلة وشارع الضبطية والميسدان وفي
تلك الوكائل العظيمة والمباني الشهيرة فاندلع لهيب النار وتطاير الشرر الى عنان السماء وأظلم
الجو وامتلاء بالدخان واسود وجه الأرض من الرماد المتساقط والجند يطوفون ويزيدون النار
اضراما باراقة زيت البترول على ما لم يشتد منها لهيبه والعامه يسرون بين النار وهم
يحملون المنهوبات والناس في بكاء ونحيب والاطفال والنساء يلتهبون عطشا ويصيحون الماء
الماء * ودخل الليل فكان المنظر أشد هولاً وازعاجاً فقد كانت المدينة كلها كشعلة واحدة
وبقي الجند والنهاية على ما هم عليه من القتل والنهب والعبث بالابكار والنساء كرها الى
صباح اليوم الثاني فاخذوا في الجلاء عن المدينة وخرج معهم من لم يبق معه شئ يخاف
عليه وتبعهم من كانوا بالبواب الجديد فرارا من العربان الضارين حولهم كالوحوش الخائفة
وأمر أحد عرابي فأتوا بقطارات السكة الحديد وأركبوا فيها الناس الى سائر البنادر والقرى
لحد القاهرة وأرسل في يوم الحريق أصحاب الزعامة الى مقر الخديو بسراى الرمل جماعة من
الفرسان يبلغ عددهم زهاء الاربعمائة فارس وبعض أصحاب الشرطة فأحاطوا به من كل
جانب وعلم الخديو بخبر ذلك فأرسل يسأل عن سبب حضورهم فقال مقدمهم انما جئنا
لحراسة الذات الخديوية والمحافظة عليها * قال بعض الكتاب ولم يكن الامر كذلك فقد
كان حضورهم لاضرام النار في السراى وقتل كل من يخرج فارا منها وظلوا واقفين الى
قبيل الغروب ثم سارت جماعة منهم وبقيت جماعة أخرى تبلغ زهاء المائتين وخمسين فسير
عند ذلك الخديو الى منيب افندى مقدمهم يدعوه الى الطاعة ومراعاة الذمة والعهد فاذعن
وتشمل بين بدى الخديو وأقسم أنه يموت بين يديه وجعل يكلم الجند حتى أطاعوا أيضا
وحلفوا بين الطاعة ثم نصبوا خيامهم أمام مقر الخديو وقاموا بخفارتهم

ودخل في ذلك اليوم على الخديو محافظ المدينة وقص عليه خبر ما جرى من اضرار النار
بالمدينة ونهب حوانيت التجار وانحدر العربان من الاطراف وما فعلوه من القتل والنهب
والعبث بالابكار وما الناس عليه من الشدة بسبب اكرامهم على الخروج من المدينة فبكي
الخديو وطرق كفا لكف ورسم الى اسمعيل باشا كامل وإلى الزبير باشا بالانحدر ومنع العامة
من النهب ورد العربان الى منازلهم فأنحدروا وبذلا جهد الاستطاعة فلم يغلقوا * وأرسل سيمور
البحر في سادس عشر شعبان يعلم الخديو بانه على عزم أن ينزل بعض عسكره الى سراى رأس

مطلب
ارسال سيمور الى
الخديو في طلب تركه
مقره والاقامة
بأحدى سفن
الحرب

التين لحراستها ويطلب اليه أن يأتي الى إحدى سفن الحرب فيقيم بها حتى تخمد نار الفتنة فامتنع الخديو وقال اني أفضل البقاء في مقرى برأس التين بين رعاياي الأمناء على البقاء في سفينة الاميرال وانحدر من ساعتى من سراى الرمل في عربته ومعه المشير درويش باشا وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الفرسان والحجاب وجاوشية ديوانه وساروا بين أطلال القصور والمباني التي دمرتها النيران فلما رآه العامة ظنوا أنه أجسد عرابى عائد لقتال الانجليز فصاحوا الله ينصرك يا عرابى وما زال حتى دخل سراى رأس التين فلاقاه الاميرال سيمور في نفر من الجنود الانجليزية يبلغون الثلثمائة مقاتل وأصعدوه الى السراى بفلس وجلس معه سيمور يتحدثان فيما لم تصل اليها معرفته لغاية الآن * فلما كان غروب اليوم نزل أيضا من كان على ظهور السفن من وكلاء الدول وصعدوا الى مقر الخديو وهنؤه بالسلامة وبأنوا ليلتهم تلك وهم في تحرز وأصبحوا وقد أنزل سيمور طائفة أخرى من عساكره الى البر ورسم لهم بالتطواف في المدينة فجعلوا يطوفون في الشوارع والحارات ومعهم بعض المدافع الخفيفة فكانوا اذا رأوا أحدا من العامة أو أسافل الروم بين أطلال الحريق يلتقط مابقى من النهاية رموه بالبنادق وشددوا في ذلك فامتنع الناس قاطبة وكان الى ثاني يوم الحريق لم يبق في المدينة أحد من العساكر والجنود المصرية ولا من الضباط ومقدمى العسكر الا انسحب الى حجر النواتية وامتدوا منه الى كفر الدوار وتركوا المدينة ومن بقي فيها يضرعون الى الله من هول ذلك اليوم العصيب

وقد نظمت قرائح بعض الادباء في حريق هذه المدينة الآهله القصائد الرنانة فمنها قصيدة لقدرى بيك أحد رجال الدولة الذين كانوا مع المشير درويش باشا قال فيها

اسكندرية هذه أحلام	أوقد قضت فيما نرى الايام
ما هذه الاحوال يا نغر الغنى	حارت بها الافكار والاهام
أتكون قاعا بلقعا منشية	ان العمارة بعدها لحرام
أوتنظر العيان أبهج بلدة	أضحت رمادا والسما قتام
أحرق أعرابى نغر بلادنا	والله قد حاطت بك الآثام
يا ليت شعري ما اقترفت فانه	ماسام هذا الفعل قبلك حام
فنقول من فرط الهنا أهل العنا	اسكندرية هذه أحلام

انتهى باختصار

(وقال أحد الادباء أيضا في هذا المعنى)

تفطر القلب من حزن ولاعجبا	والدمع فاض على الخدين منسكبا
اسكندرية ما هذا الخراب وكم	من نكبة بك قد حلت فوا حبا
قتل وموت وتدمير مهاجرة	سلب ونهب وكف للنساء سببا

قد كنت راقصة مثل العروس وما
 وكنت بالامس مثل الشمس مشرقة
 ما هذه الحال في يوم وليته
 يبكىك دان وقاص والدموع دم
 (وقال طيب الذكر أديب أفندي اسحق في ذلك أيضا)
 عجب بي على تلك الطلول ونادى
 هل صادهم شرك الردى فأبادهم
 أم غاروا الاوطان في أوطانهم
 وسل الرسوم وان خلت عنهم وما
 خلقتهم في جبههم ميعتا فهل
 أم جملوه ديف مبرى والمنى
 أم غادروه رفيق وجدى والضنى
 يا وارد الاصـ كندرية طامعا
 أقصورها خفيت عن الاظار أم
 أم تدمر قد دمرت وعمورة
 هذى عروس الشرق ماتت فاكتسى
 بالامس كانت والبياض دنارها
 كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
 كانت موارد للظماء وقد غدت
 كانت مراتع نعمة فغدت وما
 كانت وكان الدهر يسعد أهلها
 كانت وكننا لا ينسام حسودنا
 كانت وما تخشى بواذر ضدها
 قامت على أقوى العمد تزين ما
 فأبادها جهل خفى ما بدا
 جهل الذى رام الامانى وهى فى
 وعدا ومالنى الثعالب عمره
 وسعى الى الشورى ولكن خالها
 وعلى المساواة ابنتى هدم الهنا
 وقد ادعى فى عسفه حرية
 والى الاخاء دعا فتال بفعاله
 أصبحت ثكلى فلا خطا ولا طربا
 فناء كل ضياء عندك واحتجبا
 يحل فيك مصاب قط ما كتبنا
 وقد كوت نارك الاهلين والغربا
 أنى تحمل أهل هذا النادى
 صرف أناخ على غود وعاد
 منذ حاذروا غدر الزمان العادى
 فعلوا قبيـل رحيلهم بفؤادى
 أحياء أم حياه أهل ودادى
 وتجلدى وتعالى ورقادى
 وتلهـنى وتذلى وسهادى
 بمنافع الاصـ دار والايراد
 آثار قصرى فى القفار بوادى
 ما عـرت أم دار ذى الاوتاد
 حزنا عليها الغرب ثوب حداد
 واليوم صارت أرهما بسواد
 والخوف منه مبعـد القصاد
 ما ان بها من مسود للصادى
 فيها سوى البأساء للمرتاد
 فأصابها بالاهل والاسعاد
 صارت وصرت راحة الحساد
 فغدت تربي رجلة الاضداد
 تحت التى رفعت بغير عماد
 مثل له من حاضر أو بادى
 قسم الجبال وكان دون الوادى
 يبنى اقتحام عرائن الآساد
 لما تهتك برقع اسـ تبـداد
 لما تساوى حزبه بنفساد
 يامن رأى حرية اسـ تعباد
 من قومه مالم ينـله العادى

شقيقت برئتة الجوع وطالما
 وتلاه في سبيل الغواية معشر
 غرسوا الجناية في الجنون فما جنوا
 وسعوا فسادا في البلاد كأنهم
 خلعوا الشعار المستعار من الحيا
 ونخيلا أن الطريق خلت لهم
 فأناهم رعد المدافع مبرقا
 وسطوا على المسنأمنين خيانة
 ورموا بنارهم الديار وبذدوا
 نكر عرفنا منه أن لبعضهم
 ونقيصة يسعى بها أبناؤهم
 أسفا على تلك القصور فانها
 أسفا على من قاده استمأوه
 أسفا على قوم أناهم بخاة
 فتسارعوا طلب النجاة من الردى
 ياهولها من ساعة مرت بما
 كم حامل خرجت بها محمولة
 ومصونة نفسا تقول لصحبها
 لطخت بأمار الولاد وما درت
 دمياء ما يدمي به لمس حريره
 ومعه لم يبق في الدنيا له
 ومريض قوم غاب عنه طبيبه
 خرجوا وهم لا يمتدون سبلهم
 ودموعهم والنار في أحشائهم
 فكأنهم لم يبل يبدونالها
 تعالوتهبط جانحات لا ترى
 أوأنهم قصدوا الصبح فجاءهم
 شهد الوبال ولم يجد من منجد
 فتفرقوا والهول ملء قلوبهم
 أوأنهم أهل القبور تيقظوا
 نشروا عراة واجفين فيومهم

أشقت جوعا زلة الافراد
 زلوا وضلوا حيث ضل الهادى
 مما جنوه غير شولة قتاد
 والحادثات أتوا على ميعاد
 فتقمصوا عارا الى الأباد
 فسعوا فكان العدل بالمرصاد
 فنبوا عن الأبراق والارعاد
 لم تشف منهم غاية الاحقاد
 ما استجمعت من طارف وتلاد
 بن اللصوص وبنة الاجناد
 لمقابر الآباء والاجساد
 كانت منى الزاد والرواد
 للفاتكين ولم يجد من قاد
 صوت المنادى بالبلاء ينادى
 بنفوسهم والاعمل والاولاد
 زهقت به الارواح م الاجساد
 فوق الكواهل أو على الاعواد
 باليتى قدمت قبل ولادى
 جسدا تالطخ قبله بجساد
 طفل قريب العهد باليلاد
 غير السكيننة من منى ومراد
 وجفاء أنس الاهل والعواد
 والنائبات روائح وغوادى
 حلت محل مرادهم والزاد
 ألم السخوب وحاد عنها الحادى
 من بلغسة فى أنجدو وهاد
 فى بخاة منهم طريد طراد
 فأغمد فى الاتهام والانجاد
 يقتادهم زمرا بغير قياد
 سحرا بنفخ الصور بعد وفاد
 يوم المعاد أتى بلا ميعاد

والنار موقدة سرت من خلفهم
والجند شردهم قتال عدوهم
ونضوا على أهل السبيل بواتر
قد حذيت شفراتها لكنها
ولرب عاد منهم في رعدة
سكنت فرائسه على نهب الحى
ومرأس حيث الجواد وخلفه
عدم الرباط فشده بنجاده
فهم اللصوص وانهم قدأوهموا
وبلادهم قد نالها من عارهم
عميت فلولا السابقون ومجدهم
ومسؤيد ملك أمير عادل
وعصابة كانت قلائد فضلهم
لم تلف في مصر ومصر عزيرة
الا وقد ولي الشريف أمورها
مولى له في النفع رغبة طامع
وهو الذى يخبا ليوم كريهة
واذا بدا من ليل خطب رأيه
يا حائز المجد الرفيع وجامع الفضل
يا جالب النعم العظام ورافع النقم
الى أن قال

بيضت بالنعماء أياى وما
وبلوتنى فرأيت منى صادق
وجيتنى والنائبات مله
وظهرت فيك بكل مدح صادق
وقد اعتذرت وماورا متنصلى
فاذا صفوت فذاك غاية مقصدى
ياصبح كل مؤتمل يانجح كل
لولال ما أحييت ليلى ضاربا
وصفا لما يجرى الدموع أقبله
فلقد هجرت الشعر لما أن رعى

فكانها حيات بطن الوادى
ففرقا فلم يتجادوا بالبلاد
في الحرب مانضبت من الانحداد
كانت على الاعداء غير حداد
ما ان تــــلم بصائد الرعاد
من قبل تسكن رعدة الصياد
مما حباه النهب حمل جواد
وأنى معسكره بغير نجاد
أن لبس ما ارتكبه غير جهاد
مالم يحق في عهدنا ببلاد
وبقاء من ولدوا من الاجداد
أدبى بفسرده على الاعداد
أبهى من الاطواق في الاجياد
من قائل هذى البلاد بلادى
فلها بحول الله خير معاد
وعن المضرة عفة الزهاد
وسداد ثغر من طريق سداد
أزرى بنور الكوكب الوقاد
الفضل الصديق وواحد الاحاد
يا جالب النعم العظام ورافع النقم
الى أن قال

حالت فأصنغ عرفها بسواد
ماشاب ورد صلاحه بفساد
ونصرت ضعفى والزمان معادى
صرف وما يجرى كمين رماد
فى القلب غمير أمانة ووداد
واذا رضيت فذلك كل مرادى
كل توسل يامورد الامداد
فى الشعر بالاسباب والاوناد
وبقل فيه تفتت الاكباد
ضعف السليقة سوقه بكساد

واستامه من ليس يفرق بين ما يفنى ويبقى على الانشاد
 لكن رأيتك يا نصيري جامعا نقد البصير ودقة النقاد
 فنظمته نظم الفرائد مثل ما تظمت لديك قلائد الافراد
 الى أن قال

زعموا بان سريرتي قد كدرت فلن يصافي بالجبل يصادي
 فبعثت صافي الشعر يثبت صفوفها ولو استطعت جعلت فيه فؤادي
 انتهى

مطلب
 تأهب أحمد عرابي
 وأصحابه لقتال
 الانجليز في البر

مطلب
 خداع بلانت
 الانجليزى لاحد
 عرابي واغرائه على
 قتال الانجليز

وأخذ أحمد عرابي وأصحابه في التأهب والاستعداد للقتال فأرسل في طلب الجند ومعدات
 الحرب من مؤن وذخيرة وسير في طلب جماعة المهندسين وأرسل العيون والجواسيس
 الى أطراف الاسكندرية ليأتونه بالاخبار وأرسل الى القاهرة مكتبة يقول فيها * اننا سنقاتل
 الانجليز دفعا عن الدين والوطن فجهلوا بالمدد وثابروا على الدعاء للعسكر المطهر فجعل الخديوي
 بذلك فأرسل اليه يأمره بالامساك عن جمع الجند واعداد المعدات ويقول له لاختصومة قط
 بين بلادنا والدولة الانجليزية وان أمير سفن الحرب يقول انه على أهبة تسليم المدينة متى تم
 ترتيب القوة الحافظة لها واستتب الامن فيها وسأل أحمد عرابي أن يسرع بالحضور الى
 رأس التين ليكلّمه في الامر * وكان لما خرج أحمد عرابي من الاسكندرية بعد تلك الخطوب
 والقطوب المدهمة ونزل كفر الدوار لحق به بعض من التف عليه من الاجانب وبينهم المستر
 بلانت الانجليزى الذى سبق لنا الكلام عليه فبينما هم جالسون مع أحمد عرابي اذ ورد خطاب
 الخديوي بما ذكر فأراه الى بلانت وشاوره في الامر * قال بعض الكتاب فقبح له بلانت العمل
 بمشورة الخديوي وحجب اليه مقاتلة الانجليز حتى يدعئوا وقال ان الانجليز ليس لهم عسكر برى
 منتظم يقدر على مقاومة العساكر المصرية وان الدول كافة لا تترك الانجليز وشأنهم في هذه البلاد
 فهن للانجليز بالمرصاد فإياك وأن تحذعن طواهر الخديوي وأمير السفن وثابر على القتال
 حتى يعلموا أن في هذه البلاد رجالا * قال وكان هذا الكلام خدعة من بلانت وتغيرا
 فآثر أحمد عرابي وهان عليه كل خطب وكتب الى الخديوي يقول اني لم أقاتل السفن
 الانجليزية منذ القلاع الابد أن صدر لي بذلك قرار مجلس الوزراء فاذا كان أمير السفن
 قد رغب الآن في الصلح بعد انتشاب القتال فلا بأس به ولكن هذا الطلب لا ينبغي كون
 الحرب قائمة بيننا وبينه واني لأرغب عن الصلح ولكن مع المحافظة على شرف البلاد
 والحكومة فاذا أراد الامير تسليم المدينة فليسلمها وليجعل بسحب مراكبه عن الاسكندرية
 أما الاستعدادات الحربية فلا مندوحة عنها ولا بد منها حفظا لشرف البلاد مادامت السفن
 الانجليزية على سواحلها قال ولا يمكنني الرجوع الى الاسكندرية وألقى بسدى الى التهلكة
 مادام الانجليز بالاسكندرية وختم كلامه بطلب سائر الوزراء الى مقره بكفر الدوار ليتشاوروا
 فكبر الامر على الخديوي ومنع من ارسال أحد الى كفر الدوار وراجع أحمد عرابي وشدد

في ذلك فلم يلتفت أحد عرابي الى قوله وتجرد الى العداوة والبغضاء وأرسل في الحال الى يعقوب سامي باشا وكيل ديوان الجند يومئذ يوقع بالخدوي ومن معه ويرميه بالتهمة الطويلة ويصفه بالمروق وسوء النية نحو البلاد وأهلها ويقول انه هو الذي جلب كل هذه المصائب بسوء رأيه وفساد تدبيره وانه يطلب لذلك عقد مجلس من علماء الازهر ومشايخ القاهرة والوجهاء والاعيان ليروا رأيهم في خلع الخديوي وقولمة من يصلح لتدبير شؤون البلاد فجتمع يعقوب سامي باشا جميع العلماء والمشايخ والرؤساء الروحانيين وأرباب المناصب العالية والاعيان والوجهاء وكبار التجار وعقد مجلسا منهم في غرة رمضان برئاسة حسين درامي باشا الذي كان وكيل نظارة الداخلية وتلا عليهم مرسوم أحمد عرابي وكان المكان غاما بجماهير الناس حتى السوق والغوغاء وأسافل القوم فما أتم القارئ كلامه حتى علت الضوضاء واشتد الهرج وجعل بعض العلماء والمشايخ يقبضون مافعله الخديو ويرمون بالمروق وكان بينهم الشيخ عيش المغربي الازهرى شيخ المالكية فوقف في وسط ذلك الجمع وقد أخذته رجفة فصاح الله أكبر الله أكبر قد خلعناه يا قوم قد خلعناه الله أكبر على من طغى وتكبر ثم اضطرب وأخذته الرجفة فكثرت عند ذلك صياح العامة فكانوا بين مدمدم ومحوق وناطق بالشهادتين ثم اتفقوا على أن يرسلوا الى الاسكندرية وفدا ليرى أولا ما يدعيه الخديوي على زعماء العصاة عموما وأحمد عرابي خصوصا وثانيا ليحقق ما اذا كان الوزراء مسجونين كما جاءت بذلك الاخبار وقد وقع اختيارهم لذلك على على مبارك باشا ورؤف باشا وأحمد بيك السيوفى والشيخ سعيد بيك الشمانى والشيخ على نايل والشيخ حمد كبوه فساروا الى كفر الدوار واجتمعوا بأحمد عرابي وحدثوه بما جرى فسرهم الى الاسكندرية ومعهم نفر من الجند فلم يتمكنوا من دخولها الا بعد شدة زائدة وتمثلوا بين يدي الخديوي وقصوا عليه جميع ما وقع فساء الامر ورمم بخلع أحمد عرابي من منصب الوزارة وطهر الخبر بذلك الى الاتفاق وكتب الى دار السلطنة يخبر بعصيان أحمد عرابي وأصحابه ورفع عن نفسه تبعة ما ينجم عن فعالهم من الخطر على البلاد وأهلها وكان في هذه الاثناء قد ورد مرسوم السلطان الى درويش باشا ومن معه بالعود الى دار السلطنة بناء على تغير الحال ونوال سفير الانجليز من المايين مأربا فعادوا وكانهم عافاهم الله لم يحضروا الا لتضرب الانجليز حصون الاسكندرية وتحتل جنودهم المدينة على مشهد منهم وكان أحمد عرابي يعلم سر بعثتهم فلم يطع الخديوي كلمة وقد أخذ في اعداد معدات الحرب والدخوة بالغ في جمع العساكر والاجناد وانشاء القلاع والحصون على طول خط ملاحه الاسكندرية وعالج سد ترعة الاسكندرية ليمنع الماء عنها فلم يفلح وسير الى القاهرة بشدد في طلب المؤن والمدافع وطوائف البنائين والمهندسين وقد وصل الى القاهرة مرسوم الخديوي بخلع أحمد عرابي من منصبه وشاع خبره وتحدث الناس به فكادت تقف رجلي أعماله وتنصرم خزنة آماله فأدرك يعقوب سامي ما وراء ذلك وجمع سائر من حضروا في المجلس المنعقد في غرة رمضان وتلا عليهم مرسوم به الخديوي من خلع أحمد عرابي وتنزله فاختلفت عند

مطلب

وصول مرسوم

الخديوي الى القاهرة

بخلع أحمد عرابي

وما كان من وراء ذلك

ذلك كلمتهم وتفرقت أغراضهم وعلت بينهم الضوضاء وكان بينهم جماعة من كبار الضباط
ومغارهم وطائفة من الجند فلما رأوا ما هو عليه ذلك الجمع من الهرج واختلاف الكلمة
وأدركوا أن السواد الأعظم منهم مبال الى خلع أحمد عرابي كما رسم الخديوي قاموا وصاحوا
في وجوه الناس وارتفعت أصواتهم بسبب الخديوي وتقبيح فعله ونادوا القتال القتال مادام
الانجليز في قلب البلاد ثم أكتروا من الحركة وقبضوا على سيوفهم كأنهم يقاتلون الانجليز
فانكش سائر الحاضرين وخافوا وتحققوا أنهم ان مالوا الى خلع أحمد عرابي والعمل بمرسوم
الخديوي أخذتهم سيوف الضباط وحرب الجند من أمامهم ومن خلفهم فقر رأيتهم على
استبقاء أحمد عرابي في منصبه وتكليفه بالذب عن البلاد مادامت هناك حرب الانجليز
أمام الاسكندرية وعدم الالتفات الى ما رسم به الخديوي فطير يعقوب سأل الخبر بذلك الى
الآفاق وعلم به الخديوي فاحزنه جدا ورسم ثمانية بخلع أحمد عرابي وعصيانه وسير الكتب
بذلك الى القاهرة وسائر المدن والبنادر فنع الضباط وصولها وجعلوا يجوبون البلاد ويحضون
الناس على بغض الخديوي ويسمونهم بالمروق عن الدين وقام الخطباء والفصحاء من أهل
البلاد يخطبون في الناس ويحضونهم على معاونة زعماء العصاة والاختصاص بناصر مقدمهم
أحمد عرابي وقام بعض الشعراء من أهل القاهرة يلقون الاشعار الحاسية والقصائد المهيجة
من ذلك قصيدة لاحد علماء الازهر يقول في مطلعها

لمررك ليس ذا وقت النصابي ولا وقت السماع على الشراب
ولا وقت الجلوس على القهاوى ولا وقت النعافل والتغابي
ولا وقت التشبيب في سليبي ولا وقت التشاغل بالرباب
الى أن قال

ولكن ذا زمان الجند وافي وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت ليس فيه يليق الالاقامة بالقلاع وبالطوابي
ووقت فيه الاستعداد فرض التنفيذ الاوامر من عرابي
الى أن قال

وفي مصر لقد طمعوا ومصر بكم والله أمتع من عقاب
وقال فيها

وقوموا بالثبات على الاعادي وقولوا فيهم فصل الخطاب
وان سألوكم من بعد هذا فما غير المدافع من جواب
الى أن قال

وقولوا يا عرابي من بأمر تراه فأنت ذو الامر المجاب
ودم لوزارة لسؤالك تأبي وان وصلت اليك بلا طلاب
وقولوا يا عرابي دم رئيسا لحزب النصر محفوظ الجناح

﴿ ونظم آخر قصيدة في هذا المعنى قال في مطلعها ﴾
 نوال المعالي من طعان الكائب ونيل الأمانى من ثمار المتاعب
 وقهر الاعادى بالتدبير أولا وبعد بأشهار السيوف القواضب
 الى أن قال

ولسنا كقوم عن طريق الهدى عمو الى اليوم من اضلالهم في غياهب
 ومنها قوله

ومن كعربى في البرايا وحزبه أولى العزم أصحاب القنا والقواضب
 وغير ذلك من الشعر والنثر شئ كثير لا يسعنا إيراد هنا وسير أجد عربى جماعة من الفرسان
 وأخرى من المشاة الى ناحية المنيرة ووكاهم باستطلاع أخبار الانجليز فلم يبلغوها حتى
 خرج عليهم جماعة من عسكر الانجليز وناوشوهم القتال فقاتلوهم وتغلبوا عليهم فانهم
 الانجليز وولوا الادبار فأعمل المصريون في أقفيتهم السيف ثم عادوا في ثاني يوم وقاتلوا حتى
 أجلاوا المصريين عن مواقفهم فسير أجد عربى في طلب المدد من المال والرجال ومضى
 الحصون والقلاع من الرمل الى كفر الدوار وأقام بكفر الدوار خطا عرضه ثلاثون مترا وحفر تحت
 خندقا فاصلا ما بين الخط والفضاء وقد جعل في هذا الفضاء عدة كثيرة من القلاع وكان خط
 الدفاع الاول مما يلي المحلة بمسافة ألف متر على طول الخط الممتد من الرمل الى البيضاء
 وجعل ما وراء هذا الخط من المرتفعات والتلال مواقع محصنة الى كفر الدوار فبلغت عدة
 هذه الاستحكامات والمواقع الدفاعية زهاء الخمسمائة وكذلك في المسافة الواقعة ما بين كفر
 الدوار وأبى حص وكان بين أبى حص ومدينة دمنهور تل كبير مرتفع فخصصوه وجعلوه
 معقلا يقيم عند الحاجة اذا تقهقروا الى وراء وعززوا دمنهور بالكثير من المدافع الكبيرة
 وعبوا فيها المؤن والذخيرة ومعدات الحرب وأقام فيها جماعة من الجند ووكاهم بتسيير
 المؤن وتوصيل المدد الى كفر الدوار ورأى سمور من استعداد أجد عربى وتأهبه للقتال
 وقطعه لجميع المواصلات مع الاسكندرية مالم يكن يتوقعه فأرسل الى عاصمة الانجليز
 في طلب النجدة ورسم فدوا سلكا تلغرافيا تحت البحر من الاسكندرية الى بور سعيد
 وجاءه المقدم من المشاة والفرسان وأصحاب المدافع على ظهور السفن من قبرص وجبل
 طارق ومالطة والهند وكانهم كانوا جميعا على قيد فرسخ من مدينة الاسكندرية وجعلت
 حكومة الانجليز تبالغ في التأهب والاستعداد غير سائلة عما تقوله بقية الدول ولا رغبة
 في مشاورتهم ولا ميالة الى مشاركتهم وقد أعدت من المال لمفقة هذه الحرب مائتى ألف
 ألف وثلاثمائة ألف من الذهب وكان ماجاء الى سمور من الجند ألفين وأربعمائة من
 الفرسان وثلاثة عشر ألفا من المشاة وألفا وسبعمائة من أصحاب المدافع وثلاثة آلاف
 وسبعمائة ما بين خدمة المرضى وأصحاب الخدم وجيشا احتياطيا قدره ثلاثة آلاف ومائة
 مقاتل وكان المقدم على هذه الحملة قائدا اسمه الجنرال جانت ولسلى وآخر اسمه أوبيا ومعهما

مطلب
 طلب سمور النجدة
 من عاصمة الانجليز

آخرون من الاهراء والقوود فلما نزلت هذه الجيوش بمدينة الاسكندرية أخذوا في ترميم ما تهدم من الجسور الواقعة على خندق الباب الحديد وما تداعى الى السقوط من جدران قلعة كوم الدكة ونصبوا بعض المدافع على باب رشيد للدفاع عن محطة السكة الحديد ونصبوا تسعة مدافع من الطراز الكبير على قلعة كوم الدكة وبالغوا في تحصين المدينة لمنع الواصل اليها وسارت طائفة منهم الى الملاحه فقطعت خط السكة الحديد الموصل الى الاسكندرية لتكون المدينة آمنة من هجوم العصاة

مطلب

مناقشة الباب
العالى والدول في
خصوص ارسال
عساكر سلطانية
الى مصر

فوقع بين الباب العالى ودولة الانجليز وبقية الدول مناقشة وجدال في امر ارسال عساكر عثمانية أو عساكر مختلطة من الانجليز والفرنسيين والاطاليين الى مصر ما استغرق الايام الكثيرة ولكنها كانت مما حكمة ومراوغة فكان كل فريق من الدول ولا سيما العثمانيين والانجليز والفرنسيين يظهر للاخر خلاف ما يبطن ويقول غير ما يفعل ثم عادت دولة الانجليز وشددت على سعيد باشا مندوب الباب العالى في تلك لمفاوضة وأعلمته بأنها لا تسمح قط بأن أقدم الجنود العثمانية أرض الكنانة وأنها قد أخذت على نفسها ارجاع الحالة الى ما كانت عليه من الهدوء والسكينة وتأييد مركز الخديوى بكل ما تصل اليه قدرتها فراجع سعيد باشا اللورد دوفرين سفير الانجليز في ذلك * فلما كان خامس رمضان انقطع سعيد باشا عن ملاقة سفير الانجليز وانكف عن مناقشته في الامر بفعل السفير يفكر في ذلك فما هو الا أن جاءه الخبر في ثلثي يوم بقيام سفينتين كبيرتين من سفن النقل العثمانية وعليهما جماعة كثيرة من العسكر العثماني وكان قيامهما من دار السلطنة تحت جناح الليل وفيهما أيضا كثير من الذخيرة والمؤن ومعدات الحرب وأن قد قام بعدهما أيضا في نفس تلك الليلة مركبان آخران احدهما الى ازمير وثانيتهما الى الدردانيل وفي ثلث ليلة قام غيرهن يحملن كثيرا من الجنود وآلات الحرب وقامت أخرى في خامس ليلة من الجهة المعروفة بقرن الذهب الى صورا باي بمياه جزيرة كريد وكانت في نفس هذه الليلة مركب أخرى على أهبه القيام الى جهة غير معلومة وشاع الخبر حينئذ بأن السلطان قد رسم بجعل جميع هذه القوات تحت امره درويش باشا وآخرين من كبار القواد العثمانية فتأهب هؤلاء للقيام على ظهر الباخرة عز الدين الى سلانيك ثم يسبوا منها ليلتقوا بالجنود اما بمياه رودس أو بمياه صورا باي فخشي سفير الانجليز عاقبة ذلك وأزججه الخبر وسير الى كبير سياستهم يعلمه بالامر فلم يكن بأسرع من أن جاء الامر الى سيمور أميرال سفن الحرب الراسية أمام الاسكندرية يقول * اذا جاءكم مراكب حرب الدولة العثمانية فامنعوا من نزول أحد من جندها بالاسكندرية وبور سعيد وأي جهة من الموانئ المصرية واحذروا ما استطعتم وأعلموا مقدمي العساكر السلطانية مع غاية الرقة والتلطف بأن يرجعوا فورا الى جزيرة كريد أو الى أى جهة يشاؤونها وإياكم والتغافل * فرتب عند ذلك سيمور مراكبه وصفهم في سلك الدفاع وأبلغ سفير الانجليز خبر ذلك الى سعيد باشا مندوب الباب العالى فراجع سعيد باشا وقال ان

السلطان رسم بنسب مير عسكره وهو يكفل بارجاع الامور الى سابق مجراها من الامن وصفاء الحال وسير رسم أيضا بعضيان أحمد عرابي واعتباره خارجا عن طاعة أمير المؤمنين فلا موجب اذا للتعرض لمراكب الدولة اذا وصلت الى الموانئ المصرية التي هي جزء من بلاد السلطنة فقال السفير قد ذهبت الفرص وطاش الغرض ولم يبق من حاجة الى شيء من ذلك البتة وقد سارت الجنود الانجليزية على جناح الطائر الميمون وما كنا نرجوه بالامس قد أصبح عندنا اليوم أمرا مقضيا فراجعته سعيد باشا فلم يقبل فقال له قد قبلت الدولة سائر مقترحات الدول بشأن ارسال العساكر السلطانية وبسائر الحدود والاختصاصات التي حددتها لها بالديار المصرية وصرحت بقبولها جميع ما ترى الدول لزوم اجرائه أيضا لارجاع الامور الى ما كانت عليه فقال السفير لاسبيل الى ذلك وقد نفذ المقدور فكبر الامر على السلطان واستعظمه للغاية وارتبكت أحوال الباب العالي وكثر توارد الجنود الانجليزية على مدينة الاسكندرية وقدم اليها في خامس عشر رمضان الدوق أوف كانت ثالث أولاد ملكة الانجليز وهو أحد مقدمي العساكر وأخذوا في تحصين بعض القلاع والحصون وتعمية المؤن والذخيرة ثم جعلوا يناوشون العساكر المصرية عند كنج عثمان وبحر النواقيصة وكفر الدوار مناوشة خفيفة ونشروا سلى مقدم العساكر الانجليزية منشورا يقول فيه * لم تأت الجنود الانجليزية الى هذه الديار بقصد الغزو أو فتح البلاد وإنما حضورهم لردع العصاة وإيقاف تيار الفتنة الى حد ارجاع الهدوء والسكينة الى سابق مجراها وتأيد سلطة الخديوي جهد الاستطاعة * ثم رسم فألقوا بأوراق من هذا المنشور في مواقع المصريين ليعلم الضباط ما فيها فالتقطوا منها شيئا كثيرا

مطلب

ابتداء القتال ما بين
الانجليز والمصريين

ولما كان خامس شوال انتشب القتال ما بين طليعة العرابيين وبعض الجنود الانجليزية عند كفر الدوار وطال زهاء الساعة بين ثم انجلي عن هزيمة العرابيين فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا يقاتلون فكانت الحرب بينهم سجالا وبالوا وأصبحوا فاقتلوا قتالا عنيفا فأظهر العرابيون بسالة زائدة وكادوا يستظهرون على الانجليز فطلب مقدمهم المدد فجاءه على قطارات السكة الحديد من الاسكندرية واشتد الرمي من الجانبين بالقبائل والرصاص شدة بالغة ثم افترقوا وقد تركز كل فريق في موقفه وكان مقدم العرابيين في هذه المواقع طلبية عصمت وأصبحوا ولم يتقدم الفريقان لقتال وكانت أخبار الحرب والقتال تأتي الى الاسكندرية والقاهرة على غير حقيقتها منقولة عن الفلاحين والعربان وضباط الجند ومقدمهم طلبية عصمت فلم يحلها عقلاء الناس محل التصديق ولم يعبروها جانب الالتفات * ونزل من كان على ظهور السفن الراسية أمام الاسكندرية من الاجانب على اختلاف أجناسهم الى المدينة ودارت رحى الاعمال في دواوين الحكومة وبأشر أرباب الوظائف وظائفهم على قدر الاستطاعة فعز عند ذلك المأكل ونفذ ما كان موجودا منه ببعض الحوانيت واشتد الجوع بالناس ثلاثة أيام خرج فيها صغار الناس على اختلافهم الى رحبة سراي رأس التين وهم يضجون

ويجوز فحال الخديوى أمرهم ورسم باطعامهم وشدد في ذلك فرتبوا لهم مشارد الثريد بالارز واللحم مرتين في كل يوم وكان الخديوى يلاحظ اطعامهم بنفسه وهو مشرف عليهم من مجلسه وشدد الانجليز في المحافظة على المدينة فكانت الجنود تطوف في النهار والليل ومنعوا من خروج الناس من بيوتهم بعد غروب الشمس الا من كان معه كلمة سر الليل وهى كلمة كان يتفق عليها في غروب كل ليلة ليخبر بها من يتلقاها وكانوا يقبضون على كل من يرونه سائرا بغير مصباح ولو كان يعرف سر الليل وأخفشوا في رعى الناس بالرصاص لاقبل سبب وكان اذا رأى أحد المراطيين أحدا في الطريق بعد الغروب نادى عليه بكلمة (هلت) ومعناها قف فان لم يجبه على الفور بكلمة (فرند) يعنى صاحب أو رفيق رماه بالرصاص فيسقط ميتا واذا رأوا مارا بحارات المنشية أو غيرها من جهات الحريق ظنوه يلنقط مابقي من المنهوبات فيقتلونه في الحال برى البنادق تخاف الناس واستوحشوا وامتنع خروجهم قاطبة فكانت شدة عظيمة ووحشة بالغة * وتقدم اسمعيل راغب باشا الى الخديوى في قبول خلعه نفسه من منصب رئاسة الوزارة فقبل منه ذلك ورسم الى الوزير محمد شريف باشا بتشكيل وزارة أخرى مع قبوله هو مسند الرئاسة فأذعن وأطاع * وكان لما طير البرق الخبر الى الديار الاوروباية بخروج عرابي وأصحابه عن طاعة الخديوى واشهاره الحرب على الانجليز وبقاء الخديوى مع كبار الدولة وحاشيته بمدينة الاسكندرية وكان مصطفى رياض باشا يومئذ باحدى مدن الفرنسيين فارا من وجه زعماء العصاة على ما تقدم بيانه في محله عاد من فوره الى الاسكندرية وغسل بين يدي الخديوى مسترجعا فعفا الخديوى عنه ورسم له بتولى نظارة الداخلية ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة فلم يحفل أصحاب الزعامة بها ولا أحلوا محلا وجدوا في ارسال المدد الى كفر الدوار وهم يشيعون في كل يوم أخبار هزيمة الانجليز ووقوع الموات فيهم وسير أحمد عرابي الى المديرين والمقاطعين في طلب حشد الجند من خفراء البلاد وتسييرهم الى مواقع التل الكبير وفرض على كل مديرية عددا فكان ماخص البحيرة ألفا ومائة واثنين وسبعين والقلوبية ألفا وثمانية وثلاثين والشرقية ألفين وسبعة وسبعين والغربية ثلاثة آلاف وأربعمائة وخمسة وثلاثين والدقهلية ألفين وستمائة وخمسة وستين والبحيرة ألفا وثلاثمائة وخمسين وبنى سويف ستمائة وخمسة وتسعين والفيوم ثمانمائة وثلاثة وستين ومنية ابن خصب ألفا وسبعمائة وثمانية وثلاثين وأسبوط ألفين وثلاثمائة وخمسة وأربعين وجرجا ألفين ومائة واثنين وستين وقنا ألفا وستمائة وعشرة واسنا ألفا وأربعمائة واثنين وستين فكان جميعهم نجسا وعشرين ألفا فاهتم بعض المديرين بهذا الطلب وبالغ في الاهتمام وتراخى البعض الآخر ولم يحفلوا به لما يعلونه من سوء العاقبة وسوء المصير وجاءت الاخبار بذلك الى أحمد عرابي وهو على حصون كفر الدوار فكبر عليه الامر واستعظمه وعاد الطلب وشدد وهدد وقام الخطباء من أهل البلاد في المساجد يحضون الناس على الجهاد ودفع العدو وأكثروا من الارجاف والتهويل وقام بمدينة أسبوط رجل

مطلب

استقالة اسمعيل

راغب باشا من منصب

الوزارة وتولتها للوزير

محمد شريف باشا

اسمه الشيخ على الميحيى فجعل يحض الناس على الغزو والجهاد ويستفزههم الى التطوع في سبيل طاعة أحمد عرابي وخطب فيهم يوما يقول

الحمد لله الذي جعل أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير الامم * وعودها العناية والنصر اذا العدو بها ألم * لا اله الا هو لا عز لنا الا به الى يوم الدين * فهو المختص باعانة من هاجر في سبيله وكلف عزمه ومعه * لقوله تعالى ومن يهاجر في سبيل الله يجحد في الارض مرانما كثيرا وسعة ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ان الله لا يضيع أجر المحسنين * ونحمده سبحانه وتعالى على ما أولانا من النعم * ونتوب اليه من جميع الآثام اذا انجرت بها القلم * ونسأله اللطف والاعانة على الكافرين * وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له * المتعالي عن المشاركة والمشاركة * وعن أن يحتاج لمشارك له في اعانة من خرجوا من بلادهم متطوعين * وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله * وذروة سنام المجد وتاجه واكمله * رسول خصه الله بالعناية والفتح المبين * اللهم صل وسلم على هذا النبي العظيم * والرسول السيد السند الكريم * سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه كلما برق بارق النصر للمؤمنين وبان أثر الذل على الخائنين * وسلم تسليما كثيرا

أما بعد فيا عباد الله لا خفاء أنه قد مرت بنا في الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم * وما ذلك الا لعدم الحمية الاسلامية في حكماءه الذين كانوا كالليل المظلم * اذ كانوا منهمكين في ميسدان حظهم الدنيوي وعن الدين غافلين * والآن قد ظهرت البشائر بعز المسلمين وسطوتهم * اذ قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالاختد في أسباب قوة الدين ورد ماضع من شوكتهم * وصاروا باذنين الهمة في التوصل لما يبعد الامة عن التشويش ولما يكونون به آمنين * اذ قد شرع رئيس المجاهدين المؤيد بنصر ربه في مدا فعة من كانوا في تشويش الامة أول سبب * وباع نفسه هو وجيشه للجهاد في سبيل الله ولم يبال بمشقة ولا تعب * كل ذلك لحفظ الوطن واعلاء كلمة الدين * فطوبى لقوم باعوا الحياة الدنيا وشروا الآخرة ولم يكن لهم مطمح نظر سوى النصر من رب العالمين * واعلموا عباد الله بأن الله تعالى أمرنا في كتابه المجيد بالقتال وأوضح لنا أمره * فتنم السيد الأمر ونعم من امتثل أمره * وتأمل في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين * فالمسلم العاقل من اكتفى بأمر مولاه * واشترى آخرته وباع دنياه في سبيل الله * وتبائر بقوله تعالى فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين * فأقبلوا عباد الله واخضعوا عنكم ثياب البخل والكسل * واجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله قبل اقتراب الاجل * وزودوا أنفسكم التقوى وأعرضوا عن المتقاعدين * فن الواجب الآن على غنينا القاعد بذل الهمة في الانفاق على من تبرع بنفسه

لدفع الاعادى * وصارت شهامة الاسلام على وجهه وجميع أعضائه تنادى * وجعل
 قوته قوله تعالى « ثم نجى رسولنا والذين آمنوا كذلك حقا علينا نجى المؤمنين » فن لم
 يفتح الآن وبعد الآن بما سمعه فهو منافق * ومن دين الحق مارق * وغافل عن قوله
 تعالى « فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم « ان الله تعالى قال من انتدب خارجا في سبيلى غازيا ابتغاء وجهى وتصديق وعدى
 وإيمانا برسلى فهو ضامن على الله عز وجل إما أن يتوفاه في الجيش بأى حتف شاء فيدخله
 الجنة وإما أن يسبح في ضمان الله وإن طالت غيبته حتى يرده الله الى أهله مع ما نال من
 أجر أو غنمة وعلى الله قصد السبيل » ۞ وجاراه في ذلك أيضا آخر اسمه الشيخ محمود إبراهيم
 من أهالى أسبوط خطب يقول - جدا لمن جعل أعلام الملة المحمدية * على كواهل
 أعلام الامة العربية * وحررها بشهب ثاقبات * لرحم شياطين أهل البغي والغوايات
 * وصلاة وسلاما على من كان اذا أراد غزوا ورى به * ليتأهب ذو الهمة فيتوجه
 بصادق آرائه * وعلى آله الذين أقاموا أنفسهم أسوارا لحرمة الدين * ومن تبعهم في
 المهامة من كل حر لعرضه بصون ۞ أما بعد ۞ فان الانجليز قد طاشت عقولهم *
 وعيت بصائرهم * فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها *
 وساقوا إلينا من زيف المعارضات خبيثها * وقابلوا عيشنا بخداع * وفتشوا أكنافنا
 لغدر أضمره ليوم النزاع * ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان * وفيما لهم بعقد
 الذممة والامان * فعاملناهم بالحسنى * وجبرنا ما كان منهم ضعفا ووهنا * فلما صحت
 أبدانهم * وعمرت أوطانهم * لم يقنعوا بذلك * بل طلبوا التصرف فيما تصرف المالك
 * فعاد عليهم سوء الحال بالانقلاب * فخرّبوا بيوتهم بأيديهم من غير زعزعة منا ولا
 اضطراب * وهكذا خاتمة أهل السوء والفحشاء * والله يؤيد بنصره من يشاء * حيث
 أقام ناظرا بعين الشرع ناظر * لم يخش في الله لومة لائم أوزجر زاجر * فقابل كتاب
 الضلال * وأذاقهم كأس النكال * وقام خطيبنا يدعو الى دعوة الحق * اذ كان من
 أم الكتاب بها في عصرنا هو الأحق * فلباه أناس باعوا أرواحهم للجهاد * في قطع
 جيش الضلالة والعناد * فأقبلوا اليه من كل فج عميق أفواجا * بالمال والنفس فرادى
 وأزواجا * فعند ذلك دهم الانجليز مآدهاها * حيث لم يكن في حسابها مآعراها *
 فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه بـ (يبعث الله على رأس كل مائة
 سنة) فان البشائر دلت عليه * حتى يمزق الباغون كل ممزق * ويحيا المندوب والمفروض
 بهذا الموفق * وتغوث البدع التى اسود القطر بظلمتها * ويختفى شارق الظلم بارجاتها *
 فحاشا أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه في ذمة كافر * جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا
 وجنده الطافرين باعدائنا فى المبدأ والاخر آمين

وجاء الأمر الى سيمور البحر بعد وصول ولسلى مقدم العساكر البرية كما تقدم القول

مطلب

ارتحال سيمور
 بسفن الحرب عن
 الاسكندرية الى
 بورسعيد وما كان
 بعد ذلك

فرحل سيمور بسفنه عن الاسكندرية الى بورسعيد وألقى مراسها أمام المدينة على هيئة الدفاع وبقيت سفن النقل أمام الاسكندرية وكان لما وصل سيمور بسفنه الى بوغاز بورسعيد رأى هنالك سفينة حربية صغيرة اسمها الصاعقة راسية أمام المدينة فتخوف سيمور منها وقد جاءه الخبر بان فيها من الديناميت والمواد الاتهابية ما يكفي لسد البوغاز في أسرع من لمح البصر وأن ربانها من أحب الناس الى أصحاب الزعامة فحضر سيمور منها وبنوا لبثهم تلك وقد قضى ملاحو الصاعقة لبثهم في جلبة وحركة فلما أصبحوا أرسل سيمور الى الربان يقول ما هذه الحركة وما داعي تلك الجلبة وقد شوشتم علينا وأقلقتونا فقال الربان هي حركة لا بد منها أمام السفن الاجنبية فأرسل اليه ثانية يقول كف والا ألققتك والمركب الى قاع البحر وارع حرمة سفن الحرب الانجليزية ما دامت على قدم الاستعداد فانكمش الربان وخاف * وقدمت الى بورسعيد بعض الطرادات الافرنسية والالمانية والايطالية تخفر السواحل بمنسة وبسرة وحضرت مدزعة كبيرة انجليزية اسمها أوريون ورست أمام البوغاز فمانع أصحاب البوغاز من الفرنسيين في دخولها فبقيت أياما ثم دخلت وسارت حتى رست في بركة التمساح وكان فيها من الضباط مائة واثنان وأربعون ومن العساكر والاجناد عدد كثير * قيل وكان من أخص عمل هذه السفينة الوقوف أمام القنطرة بعد قطع خط التلغراف الموصل الى دار السلطنة ثم عدلت عن قطعه وعادت فألقت مراسها أمام مدينة الاسماعيليه * وكانت الحرب الى هذا الحين قائمة ما بين العربيين والانجليز عند مواقع كفر الدوار والمواقع الامامية بلا انقطاع حتى آتت الاخبار الى أحمد عرابي بوصول مراكب الحرب الى مدينة بورسعيد وزول جيوش واسلي بمدينة الاسماعيليه فسار من كفر الدوار الى التل الكبير ومعه جماعة من الضباط وطائفة من الحرس فلما وصل قطاره الى مدينة الزقازيق خف للقائه العمدة والاعيان والمشايخ وأرباب الطرق والاشايخ وموظفو الحكومة فنزل بالمحطة وعلى يمينه عبد الله صاحب الطائف وجلس بالكشك المقابل لها فاجتمع عند ذلك زعائن الناس حول الكشك واشتد زحامهم وعلا الضجيج وكثر الصياح بكلمات وعبارات قد لفقوها على قدر عقولهم من مثل العسكر في الطواحي * الله ينصرنا يا عرابي * يا مولانا يا عزيز * أهلك عسكر الانجليز * يا سيمور ياوش القملة * من قال لك تعمل دي القملة * وغير ذلك من بذيء القول وخش الكلام ولبت على هذا الحال برهة ثم قام ودخل عربة القطار وهو ينادي أنا لها أنا لها والناس في ضجيج زائد والغوغاء يصفقون بأيديهم ويضربون الارض بأرجلهم فسار به القطار الى التل الكبير على عجل وجعلوا من هذا اليوم يتابعون اسال المؤن وآلات الحرب الى التل الكبير وتوارد الجند من مشاة وفرسان وأصحاب المدافع وكثر الوارد منهم فتعطلت قطارات السفر من الاسماعيليه والسويس وهاجر من بالسويس من رجال الدولة وبعض الاهالي وأجهد الجند الطاقة في انشاء الحصون والمعازل وأقاموا المتاريس على مسافة وجعلوا الكثير من أهل البلاد

لهذا العمل ورتبوا المقدمات وبالقوا في تعبئتها وعالجوا قطع الماء الخلو عن الاسمعية والسويس وتبع العسكر كثير من السوق وأصحاب الصنائع الدنيئة مثل الاسكافية والفهوجية والسمكية والخباطين وباعة الافيون والمكيفات ونصبوا لهم المطاول وعملوا الثياب والعشش من القش والبوص وغير ذلك فاصبح ذلك الصعيد أهلا باصناف الناس وكانت لما رست تلك السفينة الانجليزية أمام مدينة الاسمعية تصدت الى سائر ما وجدته هناك من بقية السفن على اختلافها ومنعت وقوفها أمام المدينة وشددت على أصحابها وضيق فرحلوا عنها وهم صاغرون وخلاها الجو فلم يعض الا النصف الاول من تلك الليلة حتى قامت في المدينة حركة شديدة للغاية وضوضاء وجلبة ثم اشتد بعيد ذلك اطلاق البنادق وجر المدافع وزحف الجند فهب الناس من مضاجعهم مذعورين وكأن على رؤسهم الطير ونظروا واذا العساكر الانجليزية قد ملأت الفضاء وهم في حركة زائدة كأن العدو يهاجمهم ثم لم يعض على ذلك الا ساعة أو بعض ساعة حتى دوت أصوات المدافع من تلك السفينة وسفينة أخرى جاءت فرست بجانبها اسمها كارليفور واشتد الرمي وتراسلت اقنابل على مواقع العرايين بناحية نفيسة وما زال الحال هكذا طول الليل فلما أشرقت الشمس سكنت المدافع وخرج جماعة من الانجليز قاصدين قرية العرب فلما رآهم أهلها مقبلين خرجوا على وجوههم هائمين فاخذتهم نيران البنادق من كل جانب لاسيما منهم النساء والاطفال ثم قطعوا سائر خطوط التلغراف القائمة ما بين السويس والاسمعية والقاهرة فاشتد الخوف بأهل الاسمعية من الاجانب والاهلين ونزع الكثير منهم الى بور سعيد والمنزلة والمنصورة وغيرها ووصل الى الاسمعية سمور أمير سفن الحرب ووالى مقدم العساكر البرية وكثر توارد المؤن وآلات الحرب ودواب الحمل من الجمال والخيول والبغال على ظهور السفن والشوانى واشتدت الحركة بزحف العساكر وجر المدافع وتحميل الانقال قبل فأخذت أجد عرابي وأصحابه الطيرة واشتد بهم القلق وقد كانوا على عهد مع دى لسبس فاتح خليج السويس بأنه لا يمكن سفن الانجليز من العبور والوصول الى مدينة الاسمعية فكتب أجد عرابي الى المايين الهمايوني كتابا يقول فيه * كنت قد بسطت لعطوفتكم قبل الآن أمر اعتماد الانجليز وتسليطهم في جهة تى السويس والاسمعية على التربة ومخالفتهم للعهد بما جاء بخلاف نظام التربة وبسطت أيضا ما كان من الهمة التي بذلناها في جعل التربة على الحيادة لأنها نقطة وحيدة لاجتماع منافع الامم وممر تجارة العالم أجمع وحيث قد قرب الآن توجه الحمل الشريف والحجاج المسلمين الى جهة الحجاز كتب الى المايين دى لسبس الموجود الآن في الاسمعية بالاستفهام عما اذا كانت انجلترا عمانع في مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع الحمل الشريف أولا فأجاب وكالة الجهادية بالتلغراف قائلا انه بالنظر الى الاحوال الحاضرة لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعه إرسال الحمل الشريف قال وبعد ورود هذا الجواب منع الانجليز جميع سفن الدول الحربية من المرور

مطلب
ما كتبه أجد
عرابي الى المايين
السلطاني بعد
نزول العساكر
الانجليزية الى
مدينة الاسمعية

بالفئال وقطعوا الاسلاك البرقية الكائنة بين السويس والاسمعية كما عرفنا ذلك بالتلغراف ثم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم وقد أجرينا الاحتياطات لمقاومة العدو اذا تقدم الى داخلية البلاد وكان قومندان الخط الشرقى ومحافظ الاسمعية ويوزباشى المستحفظه هنالك قد أفادوا أن من عزم الانجليز أن يطلقوا مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى مداخل البلاد فى هذا الصباح علم من الاخبار الواردة أن الانجليز شرعوا فى الساعة التاسعة من ليلة أمس فى اطلاق القنابل من جهة الاسمعية على نفيسة أما نحن فبالنظر الى احترامنا لعهود التركة بان تكون على الحياد والى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا نقط العساكر المستحفظه وموالاة التخصيص الشديد على عدم مس حقوق التركة كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أى تبعه كانت . ولما بدا من الانجليز هذا الاعتماد على ضفاف التركة أقام المسيودى لسبس الحجة على الاميرال الانجليزى وارسل صورة الحجة بالتلغراف الى الحكومة الفرنساوية فاتصل خبرها بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار اليها فأعلموا بها دولهم بصفة رسمية أما الانجليز فسيروا منهم على حكم المثل السائر « البادى أظلم » لم يلتفتوا الى إقامة الحجة بل أصروا على الاخلال بنظام التركة وفى هذا الشأن أرسل تلغراف الى المسيودى لسبس بما يأتى « بما ان الانجليز خرقوا نظام حيادة التركة فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها منعاً لاعتداءاتهم فاذا لم يرد لنا جواب فى مدة أربع وعشرين ساعة اضطررنا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدافعة » - قال - فن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون أن الدولة الانجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفى دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام وأنها لا تحارب مصر ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين فى إشكال عظيم ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر فى الواقع انها تتظاهر بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضا أنها مقاومة لجميع المصريين الامة الخاضعة للدولة العثمانية وأنها داست بارجل المطامع منافع جميع الدول ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب والقتال إقليما عظيما فيما أن أعمال الانجليز وصلت الى هذه الدرجة لم يعد فى الامكان أن نترأخى فى اتخاذ الوسائط الموصلة لدفع كيدهم وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب على ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم وقد بسطت فيما مضى شرح الاحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وإرسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم نزل الله بادرنا الى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم اه * وكان أحمد عرابى وأصحابه يعلمون أن دخول عسكر الانجليز الى جوف البلاد سيكون من هذه الارجاء الواسعة ولا سيما من جهة الصالحية فعقد مجلسا من جميع الضباط وكبار العصابة وتكلموا فى هذا الأمر ثم استقر رأيهم على تجهيز قوة ثالثة يكون مركزها الصالحية وسيروا فى طلب ما جمعوه من خفراء البلاد بالجهات القبلية والبحرية وألبسوهم الدرعيات من البقعة البيضاء ولبد الصوف

عوض الطربوش وسلموهم بالبنادق والقرايينات على غير دربة ولا خبرة وجعلوا المقدم عليهم على الروبي أحد زعماء العصاة وساقوهم الى الصالحية فمكروا بها وعملوا بعض الخطوط والمتاريس ونخرج معهم محمود باشا البارودي متطوعا يريد الغزو والجهاد في الانجليز * وكان أحد عرابي قد أعد لنفسه بالتل الكبير خيمة سعيد باشا ابن محمد علي الكبير وهي من عجائب الخيام التي قل أن يكون لها مثيل وأقام بها بين الخدم وطوائف الحرس كأنه في عرس أو وليمة فجاءه جميع العلماء والمشايخ والعمد والاعيان ووجهاء البلاد للسلام ومهاداة عمد ومشايخ سائر البلاد بالهدايا من السمن والارز والعسل والدقيق وحبول البقر وخول الجاموس والضأن لطعامه وطعام الجند المحاربين معه وأكثروا من إرسال الحلوى والفاكهة على اختلافها فكانت تأتي اليهم على قطارات السكة الحديد * وكان لما ذاع الخبر بما عليه المحاربون من الراحة ورغد العيش تطوع الكثير من أرباب الطرق والاشائر والمتجمعين وأصحاب العكاكيز من سائر البلاد القبلية والبحرية وسار من منية ابن خصيب الى مواقع التل الكبير الشيخ عبد الجواد ومن اليمون الشيخ الجنيد في لموم كثيرة وطبول وزمور وكسات وبيارق فانزلوهم في ناحية أعدت لهم فكان لاهم لهؤلاء القوم البتة سوى طلب المأكول والمشروب في الاوقات الثلاثة فاذا أكلوا وشربوا وامتلأت بطونهم من الثريد واللحم المسلوق وحظت عيونهم عقد كل طائفة منهم مجلسا كما يسمونه فيذكرون ويرطنون بكلمات لا معنى لها البتة ويصيحون وينادون مدد مدد فاذا اشتبك القتال بين الجند والانجليز واشتد رمي المدافع والتقت نيران البنادق بالبنادق صاحوا وتراحوا ونادوا يا سيد يا بدوي يا أبا عبد العال يا آل البيت يا رجال الله ثم لا يلبثون أن يحتفوا عن الابصار فاذا بطلت الحرب عادوا الى حلقات الذكر وتكلموا برطاتهم ثم يقولون قلنا من الكفار كذا وذبحنا بحد السيف كذا وكذا ولا نزال بهم ان شاء الله حتى نأق على آخرهم ببركة آل البيت وكذلك كان يفعل جماعة العربان الذين كانوا بالصالحية مع معسكر علي الروبي عند النداء في العسكر بالخروج الى القتال

وبينما كانت الحال على ما وصفنا في مواقع التل الكبير وكفر الدوار والصالحية كان العامة بطنطا ودمهور والحلة الكبرى يفعلون ما لا يوصف من النهب والقتل والعريضة ويكثرون من التطواف ليلا ونهارا جماعات وبايديهم العصي والمساق وهم في ضجة وجلبة وصياح بيامولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز وغير ذلك من العبارات التي لفقوها * حدثني من شاهد فعال العامة بمدينة طنطا وراه رأي العين بعد كلام قال * ولم أجتاوز البيت يعني بيته حتى رأيت البلد يضح بالغوغاء وصراخ النساء والاطفال وتجمع الناس في الازقة والشوارع يدفع بعضهم بعضا فسألت عن السبب فقيل لي ان الحرب على أبواب البلد وقد فار المسلمون على النصارى ينجحونهم وينهبون بيوتهم ويسبون نساءهم وأولادهم فقلت في نفسي فتنة ورب البيت وأسرعت الى مقر ديوان المديرية قرأت أمامه من المناظر المحزنة

مطلب
فيما كان عليه
المتطوعون من
أصحاب الطرق
والاشائر

مطلب
المذابح في داخلية
البلاد

والمشاهد الموحجة ما تنفطر منه إلا كباد فقد كانت الناس تقتل وتجر من أرجلها على الأرض كالبهايم المأخوذة إلى السليج بعد الذبح وكان الغوغاء وخفراء الديوان يحملون العصي والمساوق ويوقعون العطب بكل من يمر عليهم من النصاري ولا يرفعون أيديهم عنه حتى يقضى عليه وكان بعد موته على هذه الحالة الشنعاء يستله جماعة آخرون فنه من يجره من رجليه ومنهم من ينزل على رأسه بالهراوة حتى تتطاير أجزأؤه اه

وحدثني أيضا من شاهد ما وقع في نفس ذلك اليوم بالحملة الكبرى بعد كلام قال * وقد كنت في سوق السلطان وكان الوقت بالغا ذاك من النهار حدة الساعة السابعة إذ أقبل من ناحية القنطرة جم غفير من الحمار والسوقة وكاهم من السفلة والرعا وفي أيديهم العصي والمساوق وبعض الآلات الجارحة والنارية وهم في ضجة وجلبة عظيمة وكلما مروا بحارة أوزقاق انضم اليهم أهل من أصحاب البطالة حتى اقتربوا منا فسمعناهم ينادون يا تجار اقفلوا حوائيتكم لأن النصاري جعلوا يقتلون المسلمين على القنطرة فعند ذلك سارعنا إلى النهوض وقصدنا بيوتنا خوفا على العيال وكان معنا في هذا الحين حسين أفندي ساعي مأمور بتأرييع المديرية فأبى الذهاب إلى بيته وقال حتى أرى ما أصاب المسيو كجروس مفتش تأرييع الحملة فذهبنا معه وقبل أن نصل إلى بيت ذلك المفتش سمعنا الغوغاء يقولون يامسلمون اقتلوا النصاري وانهبوا بيوتهم كما أمر ضابط البلد ووصلنا إلى بيت المفتش فوجدنا بابه مغلقا وعليه جماهير العامة وأصحاب الفتنة يريدون كسره واقتحام البيت لنهب ما فيه وقتل المفتش ومن معه فصاح فيهم حسين ساعي وفرق جوعهم ودخل على المفتش وهذأ روعه وسكن جأشه وسار الأهالي رجالا ونساء وأولادا وهم يصيحون الله أكبر الله أكبر ويهجمون على الخانات ودكاكين التجار وينهبون ما فيها من مأكول ومشروب وملبوس ومفروش واستمر الحال على هذا الوصف إلى قبيل الغروب بقليل وقد قتل تسعة رجال منهم ستة من الروم وثلاثة من مهندسي التاريع الأجانب وقد كانوا مقيمين في ناحية الشون الكبير وكان لأحدهم زوجة ولا آخر ثلاث بنات أبكار وغللام وجماعة التجوا كاهم إلى بيت محمود أفندي منجد مأمور مركز سمنود فأواهم وذب عنهم جهد الاستطاعة - قال - وقد أحرقت العامة بعض القتلى بنار البترول وألقوا البعض الآخر في البحر ومنهم من دفن في تل الواقعة اه

قلت * وكانت فعال العمة بالقاهرة أيضا بالغة حدة الجفاء والشدة ولكن لم يقع شيء من القتل ولا النهب ليقظة صاحب الشرطة إبراهيم فوزي بيك وتطوافه في الشوارع والأزقة والحارات ليلًا ونهارًا وقد رأيت جماعة منهم يوما يطوفون وبينهم حمار وعلى ظهره كلب أسود وعلى رأس الكلب قبعة (ربطة) بالية والكلب في غاية الجول والكسل كأنه أطمع شيئاً من المخدرات كالخيشة ونحوها ولسانه قد تدلى من شدة الظما والتعب وهم يصيحون حوله بيا سمور ياوش القملة من قال لك تعمل دى العملة وما زالوا على هذه الحال من التطواف إلى وقت الهاجرة ثم أتوا إلى قشلاق جند الحرس الخديوي برحبة عابدين فلما

صاروا أمام الباب تقدم أحدهم نحو الكلب وألقاه عن ظهر الحمار وذبحه بسكين كانت معه ذبح الشاة فصاح عند ذلك الجمع صياحا متتابعاً الله قطع الله رأس سمور قطع الله رأس سمور يريدون سمور أمير مراكب الحرب وهكذا كان شأنهم مع الكلاب في كل يوم حتى انكمشت واختفت عن الابصار ولجأت الى موافد الحمامات وخرائب المدينة وكان اذا ظهر واحد منها ونادى عليه أحد الصبيان باسم سمور اندعر وتراج واختفى عن الابصار فرارا من الموت وكان الكلاب قد أدركت بملكة التمييز (أى الغريزة الحافظة لنوع الحيوان) ما وراء كلمة سمور من لبس القبعة والتطواف على ظهر الحمار ثم قطع الرأس أقول والشئ بالشئ يذكر حدثني صاحبلى قال حدثني أبى رحمه الله وقد كنت أقص عليه يوما فعال العامة بالكلاب في تلك الايام فتبسم وقال ليس في الامر ما يدعوني الى الاستغراب من تلك الحيوانات الداجنة فقد أتى الى القاهرة على عهد محمد على باشا الكبير أمير من أمراء الانجليز ومعه زوجته للنفرج على آثار الديار فأقام بالقاهرة ما شاء يتجول في شوارع المدينة ويتفرج على ما فيها من الدور والمباني والمساجد والمعامل وكانت يومئذ كثيرة الى أن سار يوما الى ناحية الحسينية والدامرداش ومعه زوجته وكان زى ملابس الامراء في ذلك الحين قبة طويلة سوداء وسراويل ضيقة وكساء مخروطا من الامام ولقافة حول العنق وكان كساء النساء فسطانا تحته آخر باسلاك الحديد على شكل قبة الهواء وقبعة كثيرة الاقطة والاربطة فلما وصلا الى ناحية الحسينية عرج بهما ترجا نهما الى ناحية المذبح ليروا كيفية الذبح في هذه البلاد وكان أمام المذبح كثير من الكلاب الاشداء كأنها الوحوش الكاسرة فلما رأت هذه الهيئة الغريبة والزى البعيد عن عادة أهل البلاد قامت على الامير وزوجته قومة واحدة فذعرتهمما ومزقت ملابسهما فتداركهما أهل تلك الخطة وخلصوهما فعادا الى المدينة ولبثا ما شا آثم عزما على الرحيل عن مصر فذهبا لوداع محمد على باشا فلاطفهما وحادثهما ساعة وسألهما عما أعجبهما في البلاد - قال وكان محمد على باشا شديد الرغبة في تقدم البلاد وإيرادها موارد العز والرفاهية ميالا الى توسيع نطاق الزراعة والتجارة والصناعة محبا لخيرها جهدا الاستمطاعة فقال الامير قد رأينا في بلادك أيها الامير كل ما يسر الناظر ويقر الناظر ويبشر ان شاء الله بخير المستقبل غير أننا قد رأينا أيضا شيا لم نره في بلاد الأمم المتقدمة قال وما هو قال رأينا بناحية المذبح عند باب الحسينية جيشا عرمرما من الكلاب فما وقع نظرها علينا حتى قامت قومة واحدة كالوحوش الكواسر فذعرتنا فتداركنا نفر من أهل تلك الخطة فخلصونا وعهدنا بالبلاد المتقدمة أن لا يترك في شوارعها مثل هذه الحيوانات الكاسرة فقال الباشا يحزننى جدا ما أصابكم ولكن اذا عدتما إلينا في السنة القادمة ان شاء الله فلا تريان الا ما يسركم فسكراه وودعاه وانصرفا فارسل الباشا في الحال في طلب كتخداه لأطه أوغلى فدخل عليه فقال عليك من الساعة ان تبعد عن القاهرة ومصر جميع ما فيهما من الكلاب وتسير بها الى الدار البيضاء وطوره والحيزة

وابالك أن تبقى منها واحدا قال قتل الكنخدا وسار الى ديوانه ودعا اليه مشايخ الحارات وقال
تجمعون من الساعة سائر كلاب مصر والقاهرة ومن ترك واحدا منها حل به ما يكره قتل
مشايخ الحارات وجعلوا يطوفون في الازقة والحارات وتبعهم الصبيان يقبضون على كل
ما يجدونه منها وكثر البحث والتفتيش وأخرجوها من كل فج عميق واشتدوا عليها شدة بالغة
فكانوا يسرون بها عشرات ومئات الى الدار البيضاء وطرا والجيزة فادركت الكلاب ما هنالك
واختفت عن الابصار فشددوا في طلبها أياما حتى ظنوا أنه لم يبق منها واحد فانكفوا
فلما كان بعد بضع أيام ظهر منها ما كان مختفيا وهي في أسوأ حال من الجوع وجعلت
تسعى في طلب الرزق ولا خفاء أن عادة السوق وأصحاب الحوانيت اذا جلسوا في حوانيتهم
صباحا لا يبيعون ولا يشترون حتى يفطروا فيأتون بالفول المدمس والبصل والخبز ويجلس
الرجل منهم وظهره الى الطريق فكان اذا أتى كلب ووقف أمام الحانوت يطلب صدقة
التفت اليه صاحب الحانوت فيقول له اخسأ - جر - عصا - امش - فلا يتحرك فاذا قال
لغلامه ناد يا ولد على شيخ الحارة - هرول الكلب مسرعا واختفى عن الابصار لادراكه ما وراء
حضور شيخ الحارة من القبض عليه والتغريب وبقي الحال هكذا في منع الكلاب وطردها
عن الحوانيت أياما كثيرة

وكبرت في هذا الحين شرور مهاجرة الاسكندرية وعظمت فعالهم فعاثوا وأفسدوا وبالغوا
في اذياء الناس بلا فرق ولا تمييز فابعدوهم عن مصر والقاهرة وفرقوهم في الاقاليم القبلية
والبحرية وأسكنوا من بقي منهم بالقاهرة في دور الحكومة وبيوت الامراء الذين لجؤا الى
الخدوي بالاسكندرية وأنزلوا جماعة منهم في بيت محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد على
ما فيه من فرش وبسط وأثاث نكايه وانتقما ورتبوا لهم خبزا في كل يوم وأقاموا عليهم من
يقوم بتدبير أمورهم واحضار طعامهم في أوقانه فكانوا لا يشكرون نعمة ولا يحمدون محسنا
ولا ينفكون عن المهاترة والشناعة والملاكمة بعضهم مع بعض رجالا ونساء وأولادا وكان
الرجل منهم اذا أعوزه الاقيون أو الدخان أو بعض المكيفات عمد الى الحوانيت المقفلة ففتحتها
وأخذ ما فيها بلا خوف ولا اكتراث فكان ابراهيم فوزي بيك صاحب شرطة القاهرة لا ينفك
عن التطواف ليلا ونهارا ومعه جماعة من أعوانه بأيديهم العصي فاذا رأوا جماعة من هؤلاء
الحرافيش في احدى الطرق فرقوا جمعهم وابعدوا بينهم وبين بعض كي لا يمتكنوا من فعل شيء
بالدور والحوانيت المقفلة وكانت فعال من تفرق منهم في القرى والبلدان غاية في الشناعة
والاذياء أيضا فكانوا ضربة على البلاد وأهلها

ولما تكامل حضور العساكر الانجليزية الى مدينة الاسماعيلية جعل مقدمهم
يستكشف مواقع العربيين ومعقلهم وحصونهم التي كانوا يشتغلون بعملها بين الاسماعيلية
والمسخوطة وكانوا قد تمكنوا من منع الماء عن الاسماعيلية وبور سعيد والسويس فرأى مقدم
الانجليز أن يعاجلهم بالقتال وهم على هذه الحال فزحف عليهم وقتلهم قتالا شديدا حتى

أوقع بهم واستولى على مواقعهم ثم كر عليهم العربيون فأخرجوا الانجليز من مراكرهم ولاكنهم عادوا فاستولوا عليها بعد قتال * وسار جماعة منهم قبل ظهر السادس من شوال يبلغ عددهم زهاء الثلاثمائة قاصدين نفيسة فوصلوا اليها فلم يجدوا فيها أحدا من العربيين فانهم لما علموا بقرب الانجليز منهم تركوا نفيسة وساروا الى المحسمة فعلم الانجليز بخبرهم فتبعوهم وضيقوا عليهم وأخذوا عليهم الطرق من كل جانب فتقهقروا من المحسمة وتركوا بعض ما كان معهم من المؤن والذخيرة وآلات الحرب وكان محمود باشا فهمي ناظر الاشغال العمومية وأحد زعماء العصاة مع العربيين يومئذ في ذلك المكان يرتب خطوط الدفاع الامامية للتل الكبير فتركه العربيون وتقهقروا فلاقاه نفر من الانجليز عند محطة السكة الحديد ولم يعرفوا من هو الا بواسطة أحد العساكر المصرية المجروحين لانه كان لابسا لباس المسلمين ويده مظلة بيضاء فلما اقترب من ذلك الجندي المجروح وكان الجندي جالسا قام وأدى له اشارات التعظيم ففطن الانجليز لذلك وقبضوا عليه فسجنوه ليملتهم تلك في حجرة صغيرة ثم أصبحوا فسيروا به الى الاسماعيلية فلما غفل بين يدي مقدم الجيوش الانجليزية قال له أنت ممن تركوا العسكر وولوا الادبار أو ممن أسروا قهرا قال اني أسير ولست منهزما فأمر به مقدم الجيوش فنقلوه الى الاسكندرية وسجنوه في دار محافظة المدينة وتقدم الانجليز في ذلك اليوم يريدون قطع شأفة العربيين لخروج عليهم جماعة من العربيين ورموا عليهم بالبنادق رميا متتابعا وكذلك رعى الانجليز واشتبك الحرب بين الفريقين ففعلت يومئذ نيران العربيين بالانجليز فعلا رديئا وكان القميط لا يطاق في ذلك اليوم ففعلت الشمس أيضا بهم من الموت مالم تفعله نيران العربيين وظهرت مدافع المصريين أيضا وتابعت الرمي بالقنابل على مواقع الانجليز واشتدت في الرمي حتى اتصلت بمؤخر الانجليز وفعلت بهم فعلا أليما وكان العربيون قد حصنوا التل الذي هناك وأقاموا فيه خطوط دفاعهم مرتبة ترتيبا حسنا اذ كان يشتغل فيها من أهل البلاد والقرى المجاورة زهاء سبعة آلاف فلما اشتدت عليهم نيران الانجليز وتراسلت قنابلهم انسحبوا الى التل المذكور وتحصنوا به فتبعهم الانجليز في عاشر شوال وقاتلوهم قتالا عنيفا وكان مقدم المصريين في هذه الواقعة الفريق راشد باشا حسني الجركسي المعروف بابي شنب فضة فقاتل في ذلك اليوم قتالا شديدا جدا وفعلت نيران مدافع العربيين بالانجليز فعلا رديئا وكانت قنابلهم تأتي الى مواقع الانجليز تباعا محكمة الرمي والاصابة حتى اتصلت بموقف وسلى مقدم الجيوش ففعلت من حاشيته وجرحت فشهد الانجليز لاصحاب المدافع وامتدحوا كفاءتهم وما زالوا على هذه الحال والرمي متراسل من الفريقين ورashed باشا يدير الحركة ويتابع الاشارات لاصحاب المدافع وهو بين ملتي الشارين حتى جرح جرحا بليغا وشاع الخبر بذلك بين العسكر فانفسلوا وانهمزموا فتبعهم الانجليز وضيقوا عليهم حتى أخذوا مواقعهم وغنموا ما كان فيها من المدافع والمؤن والذخيرة واشتد التعب بالانجليز وأعوزهم الماء والطعام فقد قضاوا ثلاثة أيام كاملة بعد هذه الوقائع

لأيا كالون سوى البسماط اليابس ويشربون الماء الآسن الممزوج بدماء القتلى من
الإنسان والموتى من الحيوان ففعل فيهم هذا كله فعلا رديئا ووقع فيهم الموات واشتدت بهم
العلل والأمراض وحاول العربيون رجوع الكرة عليهم واسترجاع مواقع القصاصين منهم
فخرجوا عليهم بقوتين أحدهما قدمت من موقع التل الكبير والثانية من مواقع الصالحية
وكان مقدم هاتين القوتين في ذلك اليوم على باشا فهمى المعروف بالديب فخرج الانجليز
للقائهم واقتتلوا قتالا عنيفا فظهر الانجليز على العربيين وجرح على الديب جرحا خفيفا
وتقهقر المصريون وانفشلوا وتبعهم الانجليز وقد مات في هذه الواقعة من كبار الانجليز
وصغار ضباطهم جماعة وعدد من الجنود وتحصن العربيون بعد ذلك في حصون ومعقل التل
الكبير فتبعهم الانجليز رويدا فجعل المصريون يرمون عليهم بالقنابل رميا متتابعيا غاية في
الاحكام فتربص الانجليز حتى تكاملوا * حدثني صاحب لي قال ودبر العربيون الامر
ورتبوا كيفية هجومهم على الانجليز والايقاع بهم بان تسير من مواقع الصالحية قوة مؤلفة
من الجنود بين مشاة وركبان ومدفعيين وجماعة من العربان بقيادة على الروبي والبارودي
فتأتى على مينة وخلف الانجليز قبل مطلع الفجر الاول وتسير قوة أخرى من مواقع التل
الكبير وتأتى على ميسرة وخلف الانجليز أيضا بعد وصول القوة الاولى بفيلس ثم تلحق
القوتان بطرفيهما فيصير الانجليز في القلب ويقطعان عنهم خط الرجعة الى المحسمة ويعملان
فيهم القتل والتشريد قال وسمعت أهل الحرب يقولون كانت هذه الخطة غاية في الاتقان
بالغة حد التفنن الحربى ولكن لحظ الانجليز لم يتم للعربيين شئ من ذلك اذ تأخر حضور
عسكر الصالحية في لميعاد المحدد لالتقاءهم بجند التل الكبير وانقسم الرواة في سبب تأخرهم
الى قسمين قسم قال ان الخبراء من العربان الذين قولوا الاسراء بالجند ليملا من صحراء الصالحية
الى المحسمة قد ضلوا عن الطريق فلم يشعروا الاوفور الفجر قد لاح وهم على قيد فراسخ من
المواقع نخاف الضباط وتربصوا قليلا ليتحققوا الامر فسمعوا أصوات المدافع مترادفة
فرجعوا على أعقابهم القهقري وقسم قال ان الذى أوجب تأخرهم انما هو ضخامة الجيش
وثقل مدافعه وصعوبة السير على رمال تلك الصحراء المتوجة فلما وصلت طليعة جند
التل الكبير الى مقربة من مواقع الانجليز وكان الانجليز قد أحسوا بما دبره العربيون
قابلهم فرسان الانجليز بالسيف شمال المراكز وأعمالوا فيهم الضرب فتقهقروا وعادوا الى
الوراء بدون قتال ولجؤا الى مقدمات قلاع التل الكبير ولم يفلحوا في هذه الخطة التى كان
عليها تمام نصرتهم والله يؤتى النصر من يشاء من عباده

مطلب
قيام العساكر من
الصالحية وانغسلهم

وبدأت تظهر من هذا الحين طلائع الاخبار ببعض المدن وفي القاهرة بعزم السلطان
على اشهار عصيان أحمد عرابى ومن معه من كبار العصابة وأنهم خوارج مارقون واقتضت
هذه الاقوال ببعض أخصاء أحمد عرابى والمقربين اليه من أهل البلاد فبالغوا في كتمانها
وكانهم قد أشفقوا عليه فكثرت رؤياهم وأحلامهم أوهم أكثرها منها وجعلوا يذيعونها بين العامة

وصغار الناس عليها تدفع عن أسماعهم الخبر القائل بعزم السلطان على تكفير أحمد عرابي والنداء بخروجه وشفه لعصا الطاعة * حدثني صاحب لي ممن كان في ركاب أحمد عرابي بالتل الكبير قال وكثر وقوع الاحلام والرؤيا لبعض المشايخ والمتعممين من أهالي القاهرة ومصر وبعض المدن فكانوا يسطرونها على أوراق ويرسلونها الى أحمد عرابي بالتل الكبير وكلها عجائب وغرائب فقد اطلعت على بعض مافي تلك الاقوال فرأيت أنها من الافك والبهتان بكان عظيم وعلى الخصوص منها أحلام أهل الشرقية وبعض مشايخها فقد أرسل أحدهم الى أحمد عرابي يوما يقول رأيت في نومي الليلة البارحة كأنني دخلت بستانا كثير الاشجار يانع الثمار تجري فيه الانهار فأدهشني حسن ما فيه وتقدمت روبدا وأنا أسرح الطرف في ذلك البهاء الظاهر والجنسة التي لا يعرف لها أول من آخر فبينما أنا على هذا الحال إذ أمسك بكتفي صبي مارأت عيني أبجل طلعة من طلعتة وقال الى أين يا هذا أصلحك الله فقلت لا أدري ورب البيت قال انظر الى عيني لا تجزع فنظرت فإذا بي أرى كرسيًا من الزمرد الاخضر وبجانبه آخر من العقيق الاصفر ثم سمعت دويًا كصوت النحل ومنايا ينادي انزل يا مصطفى انزل يا أحمد انزل يا محمد فاشتد عند ذلك صوت ذلك الدوي وارتج المكان رجّة مزعجة حتى كدت أسقط مغشياً على من شدة الخوف فلم ألتفت الا وقد جالس على ذلك الكرسي الاخضر انسان لم ترعني أحسن شكلا منه وبيده مسبحة حباتها من العنبر فنظر الى المكان نظرة المشفق ثم دق كفا لكف فحضر لديه في الحال جماعة من العلماء كانهم البدور اذا بدت وقبلوا الارض بين يديه وقالوا لبيك يا حبيب الله قال أين المجاهد أين الغازي أين نسل ولدى الحسين فغاب بعضهم لحظة لطيفة وعادوا وأنت بينهم أيها الامير الجليل متشحا بحلة من السندس الاخضر وعلى وجهك هبة وجلالة الله أكبر فقال النبي عليه الصلاة والسلام تقدم يا أحمد فتقدمت وأنت خاشع مطرق فمد النبي صلى الله عليه وسلم لك يده الشريفة فقبلتها مبتهلا وقلت انظر يا رسول الله ما فعل الكفار بنا ونحن في جوار عترتك الطاهرة وآل بيتك الكرام انظر كيف طرقوا أرض الكنانة بخيلهم ورجلهم فعاثوا وأفسدوا وأراقوا الدماء ههنا ثم اغرورقت عينك أيها الامير بالدموع فنظر اليك رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باسم وقال خفف عنك يا أحمد فسوف تظفرون بهم وينصركم الله عليهم نصرًا ميمنا ثم ناولك سيفًا قبضته من الذهب الخالص المرصع بالدر والجوهر وقال اضرب بهم ذواقهم ولا تكف عنهم حتى يستسلموا باذن الله تعالى فلما سمعت أنا هذا الكلام من رسول الله صلى الله عليه وسلم وكافى والله في يقظة لافي منام صحت فرحا وقلت الله أكبر الله أكبر على من طغى وتجبهر فانتبهت من نومي وكان رؤيا منقوشة على صدرى فأبشر بالنصر والغلبة على القوم الكافرين والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته * قال الراوى لهذه العبارة * وكانت هذه الاكاذيب تتلى بين المخاريين في مواقع التل الكبير من ضباط وجند وعربان وفي مواقع الصالحية وكفر الدوار فيتناقلها العامة والسوقة الذين يتبعون

الجيش في مواقع القتال وهؤلاء يشنونها محشوة بالالفك والبهتان بين أهل المدن والقرى القريبة فكان الناس لا يشكون قط في صدقها ولا يقبلون لها تأويلا وظل الحال على ما هو عليه من انبثاث دعاة العصابة في جوف البلاد يحضون البسطاء من أهلها على امداد المحاربين في مواقع التل الكبير بالنفس والنفيس ويوهون عليهم الحقائق ويقصون عليهم تلك الاحلام والمنامات محشوة بالخلط والتخريف حتى عم الفساد واختل النظام واشتدت الفتنه واتسع خرقها وصار الناس كلهم يتناولون على مقام الخديوى بالسباب وخش القول ويرمونهم بالمرورق ويتمونونه بترك دينه والتمسك بدين النصرانية ونصروا عبدالله صاحب الطائف ودعاة العصابة معه وأحلوا سائر مقترياتهم محلا عظيما * وبينما كانت الحرب قائمة على ساقها أمام مواقع التل الكبير ونار الفتنه تتأجج في جوف البلاد كان سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية يكثر من تهديد رجال المهابين ويعمل على قطع حبل الاتصال الذي كان مشدودا بينهم وبين أحمد عرابي ولا سيما منهم الشيخ أحمد أسعد أمام السلطان فكان يقضى بيض يومه وسواد ليله وهو يفدو ويروح ما بين الباب العالي ومقر السلطان ويعمل بدهائه ويدبر بفطنته وذكائه ويلج بطب صدور فرمان السلطان بعصيان عرابي * وكان يرجو من هذا العمل أمرين خطيرين أولهما صرف وجه أحمد عرابي وأشباعه عن السلطان ورجال المهابين فيفتتنون وتنقسم عروة اتحادهم والثاني تنزيل أحمد عرابي من عيون المصريين وصرف وجوههم عنه لخروجه عن طاعة سلطانه ورميه بالمرورق واعتبار أن حربه للانجليز حرب غير جائزة ولا هي من الجهاد في شيء كما كانوا يظنون وما زال السفير يعمل ويكيد حتى أفلح وغرر بالسلطان ورجال ما بينه وكبار دولته وأصدر فرمانا بخروج أحمد عرابي وعصيانه فطير السفير الخبر بذلك الى الآفاق وأوعز الى صاحب جريدة الجوائب العربية التي تطبع في دار السلطنة العثمانية فنقش ذلك الفرمان على صحائف جريدته فابتاع السفير منه زهاء ستة عشر ألف نسخة وسير بها الى الهند ومصر وغيرها من البلاد الاسلامية فوصل منها الى مدينة الاسماعيلية شيء كثير فأمر به مقدم الجيوش الانجليزية فنشروه على أيدي الجواسيس من العربان والفلاحين في معسكر التل الكبير والصالحية وكفر الدوار فما انتشر بينهم وزاع خبر ما فيه حتى تراخت عزائم العسكر وفترت همم الضباط وكادوا ينفصلون وعم خبر ذلك بين الافراد فتحدثوا به كثيرا

وكان ممن جاء مع عسكر الانجليز الى الاسماعيلية محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وجماعة آخرون من رجال الحكومة المتحزبين للخديوقد سير بهم الخديوق في ركاب مقدم العسكر الانجليزية ليكونوا له عوناً على قضاء حاجاته ويمهد أمام جيوشه ما يحذثه أهالي القرى من الموانع والعقبات فجمع اليه سلطان باشا بعض طوائف العربان ممن كانوا حول معاقل العربانيين واستم لهمم وأجزل عطاءهم وقرب منه بعض كبارهم فأطاعوا ومالوا الى العطاء ودخلوا بين جند التل الكبير وأذاعوا بين صغار الضباط وأفراد العسكر خبر ما رسم به السلطان من عصيان عرابي

ومن تبعه وأنهم خارجون مارقون عن طاعة أمير المؤمنين فأزجهم هذا الامر وتراخوا وانحلت عزائمهم وانفشلوا أو كادوا وانصل خبر ذلك بأحمد عرابي وأصحابه فهالهم وكبر عليهم وتناجوا فيه طويلا فاتفقوا على كتمانهم واخفائه الى حين ولكنهم لم يفعلوا اذ انتشر الخبر وعم ونكاهم به سائر العسكر * قيل وجاء في هذا الحين رسول من عند مقدم الجيوش الانجليزية فاجتمع بأحمد عرابي في سرادقه وتجادنا ساعة فيما لم يصل أحد الى معرفته حتى الآن ثم قفل الرسول راجعا الى معسكر الانجليز فظهرت بعيد ذلك على وجوه كبار الضباط وصغارهم علامات اليأس والقنوط ووقع بينهم الهرج وبانت على وجه أحمد عرابي دلائل الضعف والاستسلام ونهبت عنه تلك الشدة والحدة وقواه الخول فلم يكن له هم في هذا الحين سوى تحريك شفثيه بتلاوة الاوراد والاحزاب وتقليب مسجته ذات اليمين وذات الشمال والاحتجاب عن الناس الا القليل من مقدمي العسكر وكان مقدم جنود خطوط التل الكبير الامامية اسمه على يوسف المعروف بعلي خنفس فراسله محمد سلطان باشا أيضا واستماله الى طاعة الخديوي فأطاع واستوثق لنفسه * فلما كان ثامن عشرى شوال من السنة أى سنة تسع وتسعين ومائتين رتب مقدم جيوش الانجليز عسكره على مقربة من خط السكة الحديد وترك المعسكر كله خاليا في حراسة نفر قليل من جماعة المهندسين وأبقوا نارهم موقدة ايها ما بانهم متربصون في مضاربهم فلما صاروا على قدم الاستعداد سرّوا بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال تحت جنح الظلام وأمامهم جماعة من الضباط المصريين ممن كانوا في خدمة الخديوي بالاسكندرية وجماعة من عربان الهنادى يدلونهم على الطريق وما زالوا على قدم السير حتى بلغوا مقدمة خطوط العرابيين فأخلى لهم على بيك يوسف فدخلوا بين صفوف عسكره بلا ممانع ولا مدافع وكان جل العسكر في هذا الحين نياما على الحصون والمتاريس والضباط في فراشهم بأقصى النوم كأنهم في أسرة بيوتهم بين أحضان عيالهم آمنين مطمئنين وما زال الانجليز حتى صاروا في وسط المعادل وأطلقوا البنادق تباعا فانصبت نيرانها على العرابيين انصباب المطر فهبوا من نومهم مذعورين وحسبوا على الانجليز فلم يثبتوا الا لحظة طيقة حتى تمت هزيمتهم وولوا الادبار وثبت أصحاب المدافع وأكثروا من الرمي بالقنابل فركب الانجليز عند ذلك أفقيتهم وأعلوا فيهم السيف وأفخسوا في قتل كبارهم وصغارهم فلما سمع عرابي أصوات المدافع والبنادق هب من نومهم وقيل بل كان على يقطعة نفر ج من سرادقه وخرج معه عبد الله صاحب الطائف وركب فرسا وركب عبد الله كذلك ومعهما جماعة من الفرسان وخرجوا على وجوههم يريدون بلبليس وقد تراءى عرابي ما كان في سرادقه من أوراق ومتاع فتبعهم نفر من فرسان الانجليز وتراحموا خيفهم فلم يدركوهم أولم يشاؤا أن يدركوهم وما زالوا حتى أتوا انشاص الرمل فييل الظهر واتفق أنه كان بمحطة انشاص قطار من قطارات المهمات فاصددا القاهرة فترامح أحمد عرابي ومن معه حتى أدركوه وركبوا في آخر عربة فيه فصار

هم الى القاهرة فدخلوها في الساعة الثامنة عرّبي نهّارا من تاسع عشرى شوال والناس
 في شغل عنهم بما هم عليه من التطواف والضحيج في الشوارع والحدارات فقد كان العامة
 وأرباب الطرق والاشاير وسائر صبيان المكاتب يطوفون زمرا في ذلك اليوم ويصيحون
 بالظيف * ياجبار اهلك عسكر الكفار وكان المؤذنون يهجون على المنائر ويتهلون الى الله
 بعبارات الاستغاثة وطاب النصر على العدو فلما دخل عرابي القاهرة طاف صاحب الشرطة
 ومعه جماعة من العسكر يمنع الناس من التجمع في الشوارع ويشدد على العامة بملازمة
 السكون على غير عادته فلم تلتفت العامة الى قوله وبقوا على هذا الحال من التطواف
 والضحيج والعجيج حتى شاع الخبر بوصول عرابي ومعه رأس سمور أمير سفن الحرب الانجليزية
 ورؤس كثيرين من كبار الانجليز والمصريين فهرع عند ذلك العامة من كل صوب وحذب
 وتبعهم النساء بالزغاريت واشتدت جلبةهم وتزاجت الغوغاء في الشوارع والطرق وكثر
 صياحهم وضجيجهم واشتدت الحركة تخاف أصحاب الحوانيت وأغلقوا حوانيتهم وكبر خوف
 أصحاب البيوت وأطبروا من شدة ذلك اليوم العصيب وسار عرابي بعد وصوله الى قصر النيل
 وجع اليه أصحابه من كبار الضباط وصغارهم وأخبرهم بخبر هزيمته ودخول الانجليز في جوف
 الحصون والمعقل قيل وشكى وبكى فتكلموا في الامر طويلا فألح عليهم بالتعجيل في انشاء
 الحصون والمعقل ومد الخطوط والاستحكامات أمام العباسية وأن يجمعوا المتشردين من
 العسكر ويلتقوا بالانجليز قبل أن يدخلوا المدينة فيقاتلوهم وخطب عبد الله صاحب
 الطائف في ذلك وجعل يستحثهم ويستنهض همهم فاختلفت كلمتهم وكان ممن حضر
 معهم يومئذ فارا من الصالحية على الروبي فأشار بوجوب التسليم للقضاء وعقد المجلس العرفي
 فعقدوه واستدعوا سائر أعضائه من كبار العسكر والملكيين والعلماء والمشايخ والرؤساء
 الروحانيين والوجهاء والاعيان فقص عليهم عرابي ماجرى وبكى وبانغ في الشكوى وعظم
 البلاء ثم قال واني ما زلت على قدم الدفاع ورد العدو عن البلاد مادام في رفق من الحياة
 وجعل ينقب فرد عليه بعض الحاضرين من كبار العسكر وقال * أو ما كفاك يا هذا أن
 دمرت الاسكندرية حرقا بسوء تدبيرك وجهلك العواقب حتى تريد أن تدمر القاهرة أيضا
 بسوء فعالك فان كنت لم تبق فيها على شيء فان لنا فيها عيالا وأطفالا وأمسلا كالانسلم
 بضياءها ضخمة لا غراضك فكفي كفي ماجرى * فعند ذلك أطارق عرابي رأسه نجلا ولم
 ينطق ببنت شفه وطال بين الجميع الاخذ والرد ساعة ثم استقر رأيهم على كف القتال وعدم
 التعرض لعسكر الانجليز بشيء ما وأن يتقدم أحمد عرابي وأصحابه الى مقام الخديوى في طلب
 العفو عنهم بعريضة يرفعونها اليه فقام عبد الله صاحب الطائف وكتب عريضة ملاءها
 بالظعن والتنديد بفعال الانجليز وشحنها بالافك والتغريير والتضليل وقص فيها ما وقع من
 البداية الى النهاية ولم يصرح فيها بذكر شيء من ذنوب أحمد عرابي وذنوب أصحابه ثم جعل
 يتلوها على الحاضرين فلم تعجبهم وكان ممن حضر في ذلك المجلس أيضا بطرس باشا غالى وكيل

الحقانية فكلم عبد الله في ذلك وقال ان المقام الآن لا يحتمل شيئا من الطعن ولا التشديد فهات أملى عليه ما يحسن رفعه الى مقام صاحب الامر فأملى عليه شيئا من عبارات الاستعطاف والاسترضاء فأعجب الحاضرين وأوقع عليه عرابي وأصحابه على كره من صاحب الطائف ثم اختاروا لهذه السفارة محمد رؤف باشا وبطرس باشا غالى فطلب على باشا الروبي مرافقتهم وقاموا من ساعتهم في قطار مخصوص فسار بهم الى الاسكندرية فلم يصلوا الى كفر الدوار حتى جاءهم الخبر بأن تربصوا حتى يأتيكم عبد الله برسالة من عرابي وأصحابه فتربصوا حتى حضر عبد الله على قطار مخصوص ومعه عريضة أخرى يخالف ما فيها ما في العريضة الاولى وقال يقول لكم عرابي باشا لا ترفعوا الى الخديوي العريضة الاولى وارفعوا اليه هذه وكان لما قام رؤف باشا ومن معه الى الاسكندرية ففكر عبد الله فيما سيلقاه من العذاب اذا حوسب كل بعمله فزين لعرابي العدول عن طلب العفو وأن يظهر من الضعف قوة ومن الخوف رجاء ويكتب الى الخديوي قصة يدفع بها عن نفسه عار الدل وشماتة الاعداء فأجابه عرابي الى ذلك وعبد الله انما يريد بهذه الخيلة التمكن من الفرار والاختفاء فلما وصل الى كفر الدوار اختفى ولم يوقفه على أثر الى أن كان من أمره ما سيذكر في محله ان شاء الله

ووصل رؤف باشا ورفاقه الى الاسكندرية في غرة ذي القعدة بعد العناية الشديد وتثمل هو وبطرس باشا بين يدي الخديوي ورفعا اليه عريضة عرابي وأصحابه فلم يقبلها وأمر بعلي الروبي فقبضوا عليه وأودعوه في السجن منفردا عن أئى بهم الانجليز من مواقع الحرب من العرايين وفرح أهلى الاسكندرية يومئذ فرحا لا يوصف وأتت رسائل التهاني الى ديوان الخديوي من كل صوب وطاف طوائف الفرنجة بالاسكندرية يهللون وينشدون أناشيد النصر ونزل المسترمالت فوصل جنرال الانجليز الى الاسكندرية ودخل على الخديوي وهناك من قبل ملكة الانجليز ومناء بالاماني الكثيرة * أما المقاتلون من الانجليز عواقع النل الكبير فانهم لما دخلوا في وسط معاقل العرايين وحصونهم نسفوا بعضها ومزقوا شمل من كان بها من العساكر ثم تركوا منهم جماعة لدفن جثث القتلى فأحصوها فكانت زهاء الالفين وسار الباقون قاصدين القاهرة من طريقين الاولى بجانب السكة الحديد الموصلة الى مدينة الزقازيق وبنها وبليس والثانية على ضفة الترعة الحلوة الخارجة من القاهرة كي يصلوا اليها بأسرع ما يمكن خوفا من أن يصيبها ما أصاب مدينة الاسكندرية وكان سير فرسانهم الى الزقازيق غاية في البطء والفتور بسبب تعب الخيل وضعف الجند عن الحركة فلما صاروا على قيد فرسخين من الزقازيق هجموا عليها ولكن بغاية الضعف والاختلال فلم يروا من يردهم فإل جماعة منهم نحو السكة الحديد وكان بها في هذا الحين نجسة قطارات مشحونة بالعساكر المصرية والمهمات الحربية وكثير من المرضى والجرحى فأربعة من سائق هذه القطارات لما رأوا اقتراب الانجليز منهم قاموا وأسرعوا في مسيرهم فنجوا عن معهم من

الوقوع في أيدي الانجليز أما الخامس فإنه ما كاد يتحرك حتى لحقه ضابط من الانجليز ورماه بالرصاص فسقط ميتا فلما رأى العرابيون ماحل بسائق القطار وهجوم الانجليز عليهم ألقوا بأسلحتهم وفروا طالبين النجاة فلم يتبعهم الانجليز لقلّة عددهم فنجى العرابيون جميعا وفي نحو الساعة الثالثة عرّبي نهارا تكامل وصول جميع العساكر الموكلين باحتلال مدينة الزقازيق مع مقدمهم الجنرال ما كفرصون وأما الفريق الثاني الذي سار الى القاهرة على ضفة الاسماعيلية فإنه عبر التربة من ناحية التل الكبير وسار سيرا خفيشا جدا على شكل هجوم وما زالوا كذلك حتى وصلوا الى مدينة بليس ليلا فباتوا فيها ليلتهم وهم على أهبة وتحفظ ثم ساروا غلسا في ثاني يوم الذي هو غرة ذي القعدة وقد تركوا الطينة وترفعوا نحو الخانكة وما زالوا يجتدون السير حتى بان لهم سواد القاهرة في نحو الساعة العاشرة ونصف عرّبي نهارا وما وطئت حوافر خيلهم أرض العباسية حتى غابت الشمس فنزلوا عليها وهم في أسوأ حال من شدة التعب وفعل الشمس وقلة الماء وشدة الحركة وكان عدد من دخل العباسية في تلك الليلة زهاء سبعة آلاف مقاتل وسار نحو قلعة الجبل أيضا زهاء ثلاثة آلاف آخرين فدخلوها في نحو الساعة الثالثة عرّبي ليلا وأخرجوا من كان بها من العسكر المصري وصغار الضباط وفكوا قيود من وجدوهم في حبوسها ممن أتى بهم زعماء العصابة من المديرين والوجهاء والاعيان وغيرهم وكذلك فكوا قيود أصحاب الجنائيات قتل ولم يكن مقدم العساكر الانجليزية الذين صعدوا الى قلعة الجبل يعرف طريق القلعة من جهة العباسية فضبط اثنين من صغار الضباط المصريين الذين كانوا بمعقل العباسية ليدلاهم على الطريق فامتنعا فرسم بقتلهم ما فأتاعا وسارا مع الانجليز حتى أدخلوا القلعة فقابلهم مقدم جندها وبش لهم وأدخلهم بها على الرحب والسعة وكان بالقلعة من العساكر المصرية في تلك الليلة زهاء أربعة آلاف مقاتل كاملي العدد فسلموا بغير منازعة وألقوا بأسلحتهم ونزلوا من ساعتهم الى معسكر قصر النيل فلما خلت القلعة منهم استلم مقدم الانجليز سائر المواقع والابواب ومفاتيح قلعة المقطم الواقعة على رأس قلعة الجبل وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دخل القاهرة الجنرال ولسلي كبير مقدمي الجيوش الانجليزية ومعه محمد سلطان باشا رئيس نواب البلاد وبعض كبار الضباط من المصريين فهرع للقائهم بعض موظفي الحكومة ممن كانوا في حبوس العرابيين بالقاهرة وابراهيم فوزي بيك صاحب شرطة المدينة * وكان لما دخل الجنرال لو بعسكره الى العباسية ولاقاه صاحب الشرطة رسم له بالقبض على أحمد عرابي وكافة أصحابه والاتبان بهم الى العباسية فنزل صاحب الشرطة وذهب الى حيث أحمد عرابي فوجد معه طلبه عصمت وآخرين غيره فقال لهما الجنرال لو مقدم جيوش العباسية يطلبكما الساعة فاضطرب أحمد عرابي ولكنه جعل يظهر من الضعف قوة وقام معه طلبه عصمت وساروا جميعا الى العباسية وأرسلوا في طلب علي يوسف أيضا وعلي يوسف هذا هو الذي سلم للانجليز قلعتي الجبل والمقطم بعد أن تخلى لهم عن الطريق في مقدمات التل الكبير

مطلب
دخول الجنرال
ولسلي قائد جيوش
الانجليزية الى القاهرة
ومعه محمد سلطان
باشا

كما تقدم بيان ذلك في محله * فلما دخل عرابي ومن معه في وسط معسكر الانجليز أوقفوهم برهة وحولهم جماعة من العسكر بالننادق والحراب ثم أخذوهم الى مقر الجنرال لو وكان الجنرال جالسا على كرسي ورجلاه ممدودتان على كرسي آخر وحوله جماعة من عسكره وترجانه فلما تناولوا بين يديه لم يلتفت اليهم برهة طويلة ثم نظر الى أحد عرابي نظرة الطافر وقال أنت عرابي باشا قال نعم قال أنت الذي عصيت وخرجت عن طاعة أميرك ومولائك وحاربته بغير سبب حتى سقطت في أيدي جند ملكة انجلترا فتلجج عرابي ولم يرد الجواب فالتفت اليهم الجنرال وقال اخلعوا عنكم سيوفكم فخلعوها وتقدموا بها اليه وقالوا اليك نسلم سيوفنا الى حكومة جلالة ملكة بريطانيا العظمى نسلم أنفسنا لأننا نعتقد سلامة نواياها نحونا ومعاملتنا بالعدل فامتنع الجنرال من أخذ سيوفهم بيده وقال لستم أهلا لأن تؤخذ سيوفكم كاسراء الشرف ألقوها الى الارض كما تستحقون فألقوها أمامه فأشار الى بعض صغار الجند الذين حولهم فاخذوها وقبضوا على عرابي وطلبه عصمت وعلى يوسف وألقوهم في سجن العباسية في تلك الليلة * هذه رواية * وفي رواية أخرى أنهم لما تمسكوا بين يدي الجنرال لوبسيوفهم أخذها بيده فقالوا اننا نحمد الله تعالى على تسليتنا بانفسنا الى أمة تعرف العدالة وتقدرها قدرها وستنضح لها أنا ما علمنا الا بواجبنا ولم نسع الا خلف حقوقنا وإن علمنا من العسكر المنظمة بمراكز العباسية زهاء خمسة وثلاثين ألفا ومثلهم في مواقع كفر الدوار ورشيد ودمياط وهم على قدم الدفاع عند أول نداء فيهم ولكننا لم نقدم على فعل شيء بعد ذلك خوفا على سلامة البلاد وقد سلمنا بانفسنا فداء للوطن وقالت وعندي ان لاحقيقه لهذه الرواية فقد كان موقفهم في تلك الساعة محفوقا بالمسكاره وأبعد من أن يتكلم فيه الفصيح اللبيب اللهم الا اذا كانوا على يقين من السلامة وبينه من أمرهم وهذا ليس بالأمر البعيد فقد كان في انسحاب أحد عرابي من مواقع التل الكبير ودخول العساكر الانجليزية بين حصون ومعقل المصريين على ما مر بيانه سرسيتلي عليك في محله ان شاء الله

ولبشوا في سجن العباسية الى يوم الاربعاء حادي عشر ذي القعدة ثم نقلوهم الى قشلاق جند الحرس برحبة عابدين وقد احتله طائفة من الجنود الانجليزية ونزل فريق آخر بقشلاق قصر النيل ففعلوا به ما لا خير فيه فقد أخذوا جميع ما في ديوانه من فرش وبسط وطنافس وشراف وكراسي فكانوا يبيعونها للعامة تحت القصر بأبخس الاثمان أو بشيء من التسبع أو العرق أو الفاكهة أو الخبز أو الجبن وأحرقوا جميع ما عثروا عليه من الاوراق والدفاتر الديوانية والادوات على اختلافها ونزل الجنرال ولسلي بسرأي عابدين واتخذها له مقرا وأقام على أبوابها الحراس والحجاب وأزل بسرأي الحرم الحديوي جميع أركان حربه ونزل الجنرال موريس مقدم النزل بسرأي المدرسة التي برحبة عابدين وانبثت العساكر الانجليزية في شوارع القاهرة زمرا تطوف وتخطب العامة بعبارات التحية وكان الهنود

منهم يكترون التطواف بالخطوة المعروفة بخطوة سيدنا الحسين وناحية دهليز الملك والحسينية ويحيون الناس ويقولون السلام عليكم باسمون نحن مسلمون مثلكم آتينا لخلاصكم من أيدي العصاة المارقين * واهتم محمد سلطان باشا بأمر المؤن والعلوفات لعسكر الانجليز وقد كثر طائهم للخبز والأرز واللحم والسمن فغيره فشدّد محمد سلطان باشا على صاحب شرطة المدينة في ذلك فلم يقدر على القيام بأداء هذه الطلبات في أوقاتها * وقد كنت يومئذ من مفتشى المراقبة العمومية فأتاني الطلب من محمد سلطان باشا على يد صديق لي اسمه عبد القادر بيك فهمي من قضاة المحاكم المختلطة فذهبت اليه فرسم لنا بأن نهني ديوانا يناط به لوازم العسكر الانجليزي وكتب بذلك الى صاحب شرطة المدينة والى ديوان الخزينة فأنشأنا ديوانا بالمكان الذي كان به ديوان المحافظ وقتنا بجمع حاجّة الجيش فكانت أشياء كثيرة جسدا من الضأن والبقر والخبز والارز والسكر والفلفل والعسل والشاي وبيض الدجاج وبن القهوة والزبد والسمن والخضروات وحبب الوقود والتبن والفول والشعير والحشيش اليابس في كل يوم صباحا مما قيمته ألف جنيهه مصري وسبعائة جنيهه عدا ما كان معهم من المؤن والعلوفات

مطلب

ورود كتب الخديو
من الاسكندرية
بالقبض على سائر
من كان له يد في
اضرام نار الفتنة

وعادت الاشغال الدوائية بعد أيام الى سابق مجراها ووردت كتب الخديو بالقبض على سائر من كان له يد في اضرام نار الفتنة فقبضوا على من بالقاهرة وأودعوه في سجون بيت الشرطة وطبروا الخبر بذلك الى الآفاق فافش المديرون والمحافظون في معاقبة الناس وبالغوا في ايدائهم وعلى الخصوص منهم مديري الشرقية ومنية ابن خصيب فأخذوا بالشبهات وملاّ السجون من أصحاب الوجاهة وكبار الناس تشفيا وانتقاما وتراحم أصحاب الوشاية وأهل السعاية على باب مصطفى رياض باشا ناظر ديوان الداخلية فأخذ بقولهم وشدد وهدد وتبعه في ذلك سائر المأمورين ومن له كلمة مسموعة فاندكش الناس وعم الخوف وبات كل لا يأمن على نفسه وولده * وكان لما دخل الجنرال وود بعسكره مواقع كفر الدوار حضر للقائه يعقوب سامي وكيل ديوان الجهادية فرسم له باحصاء ما في تلك المواقع من جند وآلة وسلاح فأحصاهم فكانوا زهاء ستة آلاف مقاتل وسبعائة فرس مسرجة ملجمة وخسعين مدفعا بجميع مهماتها وخمسة عشر ألف بندقية فنقل جميع ذلك الى القاهرة ثم رسم بدفن ما وجد من جثث الموتي من الانسان والحيوان وبصرف جميع العساكر الى أوطانهم فانصرفوا ما عدا الضباط فأنه أمر فسير وهم الى سراي الرمل تخفروهم بجماعة من فرسان الانجليز * قال بعض الانجليز * وكانت مواقع كفر الدوار غاية في المنعة وحسن الوضع الهندسي والطبيعي قل أن يمكن التغلب عليها الا بعدد معاناة الاهوال وموت الالوف من الابطال اذ كانت تنقسم الى ثلاثة خطوط منتظمة محاطة بأرض غير مسلوكة لكثرة ما فيها من لاوخال والمرايك ويتفرع من تلك الخطوط خطوط أخرى على شكل زوايا قائمة ممتدة الى جهة سكة حديد كفر الدوار وترعة الحمودية وكانت الخطوط جميعها مسلحة بكثير من المدافع المرتبة على هيئة مناسبة للغاية قل أن يمكن معها للعدو النظر بها وكان أمام

مطلب

فيما كانت عليه
معاقل كفر الدوار

كل خط من الخطوط الثلاثة خندق بعرض نجسة عشر قدما متقن الوضع محكم العمل وكان بين الخط الاول والثاني والثالث نجسة آلاف متر وكان على رأس الاول منها قلعة تسمى قلعة الاسلام اعزازا للدين وهي من أجل القلاع شكلا واقواها بنيانا واحكمها وضعها اه وكان العربايون قد سدوا خط السكة الحديد بستة من البناء وانتراب فرسم الجنرال وود بـ ~~كسر~~ هذا السد فكسروه بشئ من الديناميت وأصلحوا بعض ما تعطل من خط السكة الحديد وعثروا وراء الخط الثالث من تلك الخطوط على كثير من عربات النقل مشحونة بشئ كثير من الحرائر والمقصبات والاطالس والشاشات وغيرها من منهوبات الاسكندرية فجمعوا ذلك كله وأحصوه * ولما أنجز يعقوب سحى ما رسم به الجنرال وود تمثل بين يديه وخلع سيفه وسلمه اليه وقال لم يكن فيما فعلته الى الآن مع أصحاب الثورة الا طاعة مولاي الحديدو وكال الاخلاص في خدمة أهل البلاد وكثيرا ما نصحت عرابي فلم يقبل حتى كانت العاقبة ما كانت فلم يلتفت الجنرال الى كلامه بل قال له وما الذي جرى للقائم الايطالى ماسيو بولشى الذى نزل من بضعة أسابيع من مركب الحرب الايطالية ولحق بعرابي في كفر الدوار فقال لا أعرف من هو ذلك الرجل فالتفت الجنرال الى جماعة الضباط المصريين فرأى الرجل بينهم وهو فى زى الضباط المصريين فأمسك بيده وقال هو هذا الذى أطلبه قال ذلك وسلمه الى نفر من الانجليز فساروا به الى الاسكندرية ليجازى عما فعل * واستسلم أيضا من كانوا فى رشيد وحصون أبي قير والبرلس وطابية أشتوم الجبل القريبة من مدينة بورسعيد وغيرها من بقية القلاع والحصون ولم يتمتع سوى عبد العال أبو حشيش مقدم جند دمياط ومن معه من الضباط وصمم على الامتناع والمقاومة ونادى فى عسكره بالخروج فخرجوا بعددهم وآلات حربهم ولازموا الحصون والمتاريس وجتوا فى تحصين مواقفهم فلم يلبثوا حتى شاع بينهم خبر استسلام جند طابية الجبل وبقية الحصون ففترت همهم وتراخت عزيمتهم وتركوا سلاحهم وتفرقوا أشتاتا ولم يقلع عبد العال فى ردهم وجاء الخبر بذلك الى الجنرال وود فسير فرقة من عسكره على قطار السكة الحديد الى دمياط فلما وصلوا السنانية ارسل كبيرهم الى عبد العال يقول لانا لم نحضر الى هنا الا لئلا نأخذكم كرها اذا لم تأت بنفسك خاضعا فامتنع عبد العال وأرسل يقول انى مريض فعبر كبير الانجليز النبل الى دمياط فى قلة من أصحابه ودخل على عبد العال بمقره وقيل بل لاقاه عبد العال عند باب الديوان فأمر مقدم الانجليز فقبضوا عليه قبيل الغروب وعبروا به النبل الى السنانية ووضعوه ليلته تلت فى احدى عربات البضاعة والجند يخفرون وأصبحوا فسيروا به الى القاهرة وأنزلوه فى سجن أحمد عرابي ومن معه وهى دار أعدوها لهم بمجوار جامع أزيل عند رأس الازبكية

مطلب
امتناع عبد العال
بيلك أبو حشيش من
التسليم لعساكر
الانجليز وما جرى له

مطلب
مافعله الانجليز
بعدافع القلاع
والحصون

وفعل الانجليز بمدافع الحصون والقلاع جميعها مالا خير فيه وألقوا جميع ما وجدوه فى المخازن من البارود والمهمات وآلات الحرب والعدد فى لنيل وقد كان شيا كثيرا جدا

وشاع الخبر بذلك وتناقله الناس فانقبضت صدورهم وظنوا بالانجليز السوء بعد أن كانوا فرحين بمقدمهم * فلما تم للانجليز ما أرادوه من نفس مواقع كفر الدوار وحصون النيل الكبير وتعطيل مدافع سائر القلاع من الاسكندرية الى أبي قير فرشيد فالبرلس فدمياط فالجبل وما بين هذا كله من المعاقل والابراج أنزلوا عسكرهم في جميع المخافر ومراكز الأربطة بالاسكندرية والقاهرة ورتبوا منهم أصحاب الشرطة والعسس وجاعة يطوفون في الليل والنهار مشاة وركبانا لانتشار عسكرهم في الطرق والشوارع العمومية وأما كن اللهور والقصف بخطة الازبكية والعتبة الخضراء والموسكى وجلهم سكارى فكان العامة يتحكمون فيهم ويمارحونهم أو يشوشون عليهم وجاعة العسس المتطوفون يحملون السكارى منهم الى المعسكرات فكان مقدمهم يرسل الاوامر تباعا الى كبار ضباط العسكر وصغارهم بمنع العسكر من الاجتماع في الحانات والتشديد على باعة الخمر والمسكرات بالامتناع عن بيع الرديء منها اليهم والا بولع في عقابهم فلم يأت ذلك بفائدة اذ تفشت الحيات الخبيثة بين العسكر كافة في قلعة الجبل والعباسية وقصر النيل وميدان عابدين وفي سائر المخافر حتى في مساكن الضباط فأنشوا الشفاحنات (وهي بيوت المرضى) بقلعة الجبل والعباسية فامتلات برضاهم من كل صنف ورتبة وكثرت موتاهم كثرة بالغة فكانوا يحملون الجثث بالنقلات على أكتاف الخدم من الهنود أو على عجلات المدافع مغطاة بالراية الانجليزية وأمامها الجند بالبنادق والموسيقى تعزف بألحان الحزن والحنان فاذا كان الميت ضابطا أو عظيما من قوادهم سيروا جواده خلف العجلة التي تحمل نعشه مجللا بالسواد وعلى سرجه قبعة الميت وسيفه وحذاؤه في ركاب السرج بشكل يخيل للرأي أن صاحب الجواد راكب عليه فكانت العامة اذا رأوهم على هذه الحال تجمعوا عليهم خلقا كثيرا وزاحوهم من الأمام ومن الخلف وربما دخل الصبيان بين صفوفهم فلم يكونوا ليظهروا شيئا من الفخر فاذا وصلوا بالميت الى المقبرة وضعوه لحظة لطيفة للصلاة عليه وربما رثوه بشئ من الكلام يناسب مقامه أو رتبته ثم يوارونه التراب وحينئذ يطلقون بعض المدافع من قلعة الجبل أو يطلقون بنادقهم في الهواء فوق القبر ثم يعودون صفوفًا كما أتوا وكانت المنية يشتد فعلها يوما عن يوم بين عسكرهم الهندي فأهلك منهم خلقا كثيرا فاهتم لذلك مقدم الجيوش ورسم بارجاعهم الى أوطانهم وجاءه الامر بذلك فأخذوا يرحلون طائفة بعد أخرى الى مدينة السويس ومنها الى الافطار الهندية على ظهور النقلات والشواني السكارى وبقيت طائفة من فرسانهم وبعض كبارهم بالمكان المعروف بالبوليجون بالعباسية وهم في ضعف وهزال وقد شاع يومئذ أنهم سيلبثون بالقاهرة حتى يأتيهم الطلب الى عاصمة الانجليز فيتمثلون بين يدي امبراطورهم فتنهتهم عن أنفسهم وعن بقية الذين أبلوا منهم البلاء الحسن في قتال العرابيين * هذا ومن عجيب الاتفاق أن الليلة التي دخلت فيها الجيوش الانجليزية القاهرة وضواحيها وهي ليلة الثاني من ذى القعدة سنة تسع وتسعين ومائتين وألف أى خامس عشر سبتمبر سنة اثنتين وثمانين وثمانمائة وألف كان

الكثير من أهالى القاهرة ومصر القديمة عاكفين على الاعراس والافراح والولائم وهم في شاغل عن كل ماسوى ذلك فكانت فعالهم في ذلك اليوم كفعالهم يوم دخول نابليون بونابارته القاهرة بجيوش الفرنسيين سواء بسواء فكان مدارك القوم هداهم الله لم تتصل الى شئ من الترقى من ذلك الحين الى الآن وفي ذلك ما فيه من العجب العجيب

ونهمض أصحاب صحف الاخبار من الانجليز يفصلون ويقيسون في شكل موقعة التل الكبير ويلبسونها أثواب المدح والاطراء ثم جعلوا يعرضون بذكر حروب بونابارته مع طوائف المماليك بديار مصر ويعجبون بالفرق بين ملاقاته جنود بونابارته من التعب والموت بسبب وعورة الطرق وقلة الماء وما لاقيه جيوش الانجليز من التوفيق وحسن الحظ ونسف مواقع التل الكبير في قليل من الزمان وعدوا أفعال مقدم عسكريهم من العجائب والآيات الحربية فرد قولهم بعض الكتاب وأكثروا من النقد والتعيب وقالوا ان الصورة التي هجم بها قائد الانجليز على مواقع التل الكبير كانت غاية في الخلل بالغة حد الطيش الذي ما بعده الا الخسارة والندم قالوا ولا يخطر على بال عاقل قط أن قائدا محسنا يحسر على اتخاذ تلك الخطة الهجومية على خطوط عدو من احدى الدول الأوروبية فان لسراة تسع مراحل تحت جنح الظلام كاف وحده للجزم بالفشل والخسارة وبشؤم المصير وان خروج مقدم عسكري الانجليز هذا بعسكره في نحو الساعة الثانية عربى ليلا وتركه جميع المعسكر تحت حراسة نفر من الجنود وإسراة وإياهم الى منتصف الليل ثم تربصه ثم إسراة لمن أكبر الأغلاط وأتعس المناورات وقد عابوا أيضا طريقة الهجوم التي فعلها عند خطوط التل الكبير الأمامية وقالوا انها تخالف الطرق الجديدة المعمول بها الآن في جيوش الدول الكبرى وجزموا بوجود سر خفي في الامر وشئ متفق عليه بين قائد العساكر الانجليزية وبين أحد عرابي ومن معه من زعماء العصبة. ولولا ذلك ما تمكن مقدم جيوش الانجليز من الدخول على تلك الصورة الخارقة لكل فن ونظام عسكري * وكتب رجل اسمه جون نيني كتابا في هذا الصدد يقول فيه * مالى أرى اخواننا الانجليز ولا سيما أصحاب صحف الاخبار منهم يلهجون بذكر موقعة التل الكبير ويحسبوننها كرامة لمقدم عسكريهم مع أن الامر ليس فى شئ من ذلك البتة لانه لما اشتدت الازمة واستحكمت على جيوش الانجليز حلقات الضيق قدم الى أحد عرابي في ظهر ثامن عشرى شوال من السنة بعنى سنة تسع وتسعين أحد مشايخ العربان وأعلمه بان الانجليز على قدم الهجوم على خطوط الدفاع بعد نصف ليلة تاسع عشرى شوال المذكور بساعتين وأنهم سيسرون بعد ذلك الى بلبس ليفتحوا الطريق منها الى القاهرة فكان الذى يجب على أحد عرابي فعله بعد أن سمع هذا الكلام أن يبادر على الفور بتحصين مدينة بلبس جهدا الاستطاعة كي لا يتمكن العدو من دخولها وهى التى كانت أول حصن لبونابارته عند زحفه على مدينة القاهرة ولكنه لم يفعل شيئا من ذلك وأرسل الى طلبه عصمت مقدم جنده كفر الدوار يستدعه ويقول له أرسل الى المدد بحيث

يكون وصوله الى التل الكبير ضحوة تاسع عشرى شوال يعنى بعد أن تكون قد خرقت جيوش الانجليز خطوط التل الكبير ومزقت شمل من بها من الجنود وساروا منها الى بلبس ليفتحوا الطريق الى القاهرة ومع ذلك فقد جاء المدد قبل الاجل المضروب ودخل مدينة الزقازيق ولكن ما الذى رآه ياترى ذلك المدد رأى جنسدا شاردا كالابل الابقة وأشلاء قد غطت وجه الفضاء وقد تم الامر للانجليز وفر أحمد عرابى هاربا الى القاهرة فعاد المدد مع من لحق به من الفارين الى القاهرة - قال - ومن العجب العجائب أن فى الليلة التى دخل فيها الانجليز معاقل العرباين كان العربان على رأس الخطوط الأمامية منها فلما سمعوا صوت أول طلق خرج من بنادق الانجليز صاحوا وترامحوا وعلت جلبتهم وجعلوا يدوسون بارجلهم بطون الجنود النائمى فهب الجنود من نومهم مذعورين لا يعرفون من معهم ومن عليهم وخرجوا على وجوههم هائمين ومع ذلك فقد قابل أصحاب المدافع منهم عساكر الانجليز وهم لا يزيدون عن ثلاثة آلاف مقاتل فقاتلوهم فأعمل الانجليز فيهم السيف كأنهم يقاتلونهم وجها لوجه ومع ذلك فقد راسل أصحاب المدافع الرى على الانجليز فأصلوهم نارا حامية - قال - ولم يبق مجال للشك أو الريب فى أن ساداتنا الانجليز قد قبضوا على كثير من صغار الضباط المصريين وكبارهم عند ما هموا بالفرار بما أخذوه من الرشاوى والبراطيل فأذاقوهم كأس المتون بحيث لم يربى جشهم جثة واحدة أو شياً من مشامش أحد العربان الذين كانوا كما قلنا على رأس الخطوط الأمامية فى تلك الليلة وبين الحصون والمتاريس ولم يكن ثمة ما يدركهم فى تلك الساعة نيران الانجليز غير أنهم كانوا على عهد مع محمد سلطان باشا وبينه من الأمر قبل وقوعه ومن العجب العجائب أننا لم نر أحدا من هؤلاء العربان سيق الى الحبوس كما ساقوا غيرهم مع أنهم كانوا لا ينقصون عن أربعة آلاف كلهم مدبجون بالسلاح بل لم نر أحدهم أوقف يوما موقف المسؤول فليقل لنا السادة الانجليز هل بعد هذا كله من دليل على صحة ما يزعمون وما بالهم اليوم يشكرون على جماعة العربان ذلك التوفيق والفوز العظيم الناجم عن فعالهم وما لنا لانسمعهم يرددون آيات الشكر والثناء على سلطان باشا جزاء ما قام به من بذل الأصفر الزنان حتى أزال به ما كان يتخلل طريق عسكرهم من العقبات وحال دون ما كان يترصدهم من المراكب والهلكات - قال - والحق أقول ولا أخشى لومة لائم أن جيش الجنرال ولسلى الذى كان يبلغ زهاء خمسة وثلاثين ألف مقاتل كالملى الآلات والعدد لم يقاتل فى تلك الليلة على خطوط التل الكبير سوى ثلاثة آلاف من المصريين وبينهم قليل من أصحاب المدافع وكلهم فى دهبشة من النوم فانه لما كثر صياح العربان عند دنو الانجليز من الخطوط وارتفعت أصواتهم وعلت جلبتهم خرج سائر المصريين على وجوههم هائمين فلم يبق منهم بالمعاقل فى تلك الساعة سوى هذا النزر القليل وعليه فأنى لم أر فى نصره مقدم الانجليز على مواقع التل الكبير شياً يستوجب الاستعراب أو التفخر والاعجاب اه بنصه

مطلب
ما كانت عليه
المناقشة بين الباب
العالي والورد
دوفرين بشأن
ارسال العساكر
السلطانية الى مصر

وقد كانت رعى المناقشة الى يوم دخول الانجليز مواقع التل الكبير دائرة ما بين الباب العالي والورد دوفرين سفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية على قاعدة تقرير عصيان أحمد عرابي وخروجه عن الطاعة وكانت هذه المناقشة غاية في المواربة بل كانت من قبيل إظهار غير الخفي وإخفاء الظاهر المشاهد لانه بعد أن كانت انقطعت الخبارة بينهما بشأن ارسال العساكر السلطانية الى ديار مصر لأسباب ما أنزل الله بها من سلطان ووصل الى المابين الهـ ما يوفى الخبر بقيام الجنرال ولسلى مقدم حملة الانجليز بعسكره من الاسكندرية الى مدينة بورسعيد وانه قد احتل القنطرة ثم الاسماعيلية وأنه أخذ يقاتل العرابيين تباعا وأن مساعي محمد سلطان باشا في استمالة العرابين الى طاعة الخديو قد تمت أو كانت عاد رجال الدولة الى فتح باب الخبارة مع السفير بشأن ارسال فريق من العسكر السلطاني الى مصر وألحوا في الطلب فكان السفير يطاولهم تارة ويحاولهم أخرى ثم عاد الى المواربة في القول فلما آنسوا منه بعض الرغبة عادوا فاطهروا عدم الرضا عن قاعدة الاتفاق الذي عوجبه يرسل السلطان عسكره قبل فأنقبض السفير عند ذلك وانكف عن الكلام أياما أخرى • وكان الانجليز قد سبروا جماعة منهم في هذا الحين الى الشام لشراء بعض الدواب من البغال والخيول والجمال لملتهم على مصر فأرسل الباب العالي الى عماله بالولايات يحذروهم من بيع تلك الدواب وخروجها من بلاد الدولة ففعلوا وقبضوا على من استخدمه الانجليز من أهل البلاد في خدمة هذه الدواب وألقوهم في الحبوس فجاء الخبر بذلك الى السفير فاستعظمه وكبر عليه وكلم الصدر الاعظم في ذلك وبالنسبة في الشكوى وأكثر من الترداد بين الباب العالي والمابين وما زال يغدو ويروح حتى رسم السلطان في ثامن شوال باطلاق أمر البيع والشراء في تلك الدواب لمن يشاء من خلق الله وأطلقوا سبيل من كانوا في الحبوس بسببها وأرسل السلطان بعيد ذلك أحد رجال ديوانه الخاص الى السفير يسأله أن لا يكون نزول العساكر السلطانية المزمع ارسالها الا في مدينة الاسكندرية فقام السفير من ساعته واجتمع بصدر الدولة وكبارها وكلهم في الامر فكلموه طويلا وبعد أخذ ورد قال السفير انه سيبليغ هذا كله الى كبير السياسة الانجليزية فوافقوه على ذلك ووافقوا أيضا على جميع الاوجه التي كانت سببا في الاختلاف ورفع السفير الامر الى كبير سياستهم ثم عاد فكلم السلطان في اصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابي وشقه لعصا طاعة الخلافة قبل فتمل السلطان وامتنع فألح السفير فشدد هو في الامتناع ورسم الى رجال دولته ففعلوا يطاولون ويحاولون ويهتفون على السفير الامر والسفير لا يزداد الا تشديدا في الطلب وسير الى الصدر الأعظم يوما من يقول له ان دولة الانجليز لا تعتبر ارسال العسكر السلطاني الى الاسكندرية أمرا مقضيا وأنه لا يصير التوقيع على الاتفاق المبرم بشأن ذلك حتى يصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابي ومن معه وبأنوا وأصبحوا وقد جاء الخبر من صاحب سياسة الانجليز برفض طلب السلطان نزول عسكره بمدينة الاسكندرية فكبر الامر

على السلطان ورسم الى الصدر الاعظم بعبادة السفير وفتح باب المخابرة معه وأنه متى تم ارسال العساكر السلطانية الى الاسكندرية رسم السلطان بعصيان أحمد عرابي وطير الخبر بذلك الى الاتفاق فعاد الصدر الى الكلام مع السفير وأظهر غاية اللين والتلطف ونابر على الكلام مع الحملة الانجليزية على مصر ففعلوا وأحسن السفير بذلك فانكف عن الكلام مع رجال السلطنة أياما فرأاه الصدر الاعظم في ذلك فامتنع وقال لاسبيل الى ما تطلبون فسير اليه من يعلمه بأن أمير المؤمنين لا يمتنع من قبول نزول عسكره بأبي قير عوضا عن الاسكندرية فاذا وافقت دولته على ذلك وصار التوقيع على العهد أصدر السلطان فرمانه بعصيان أحمد عرابي ومن معه فاطهر السفير رضاه بهذا الشرط ولكنه طلب قبل كل شيء أن ينفذ الامر لسائر الولاة والعمال بالكف عن منع خروج الدواب من ولاياتهم فاجابه الصدر الى ما طلب وشاع الخبر بذلك في دار السلطنة فظن الناس أنه لم يبق بعد هذا كله من سبب للواربة والتكلف لاسيما وقد ورد على بعض رجال الدولة الخبر بتقدم العساكر الانجليزية وتغلغلهم في جوف البلاد المصرية وانضمام بعض كبار العربان اليهم * فلما كانت ليلة سادس عشر شوال سار سعيد باشا صدر الدولة الى دار سفير الانجليز وأعلمه بان أمير المؤمنين مبال كل الميل الى التجميل بتسمير عساكره الى أبي قير كما وقع الاتفاق فلم ير من السفير في ذلك اليوم وجهها باشا ولا صدرا رحبا فانصرف عنه وعاد اليه في ثاني يوم ومعه كاتم أسرار السلطان وقال الخليفة يقرئك السلام ويقول انه لم يكن ليأنف قط من تنفيذ رغائب صاحب السياسة الانجليزية كما هي اذا تساهل في نزول عساكر السلطانية بمدينة الاسكندرية كما أنه لا يحجم أيضا عن تقليل عددهم المتفق عليه ابتداء وتنزيله الى الفين أو ألف مقاتل وأنه يرسل معهم باكر باشا الانجليزي قائدا ثانيا ولا يمنعه من أن يأخذ معه من الضباط الانجليز من يشاء بحيث تبقى العساكر السلطانية في ديار مصر في هذه الحملة تحت المراقبة الانجليزية كما كانت أيام حرب الروسية * قيل فرفع السفير محصل هذا الكلام الى صاحب سياستهم فلم يرد عليه الجواب أو ورد ولكنه لم يبالغه الى الصدر الاعظم وجعل يطاول ويحاول الى ان وردت اليه الأخبار بنجاح جاتهم وتحقق من تمام استمالة بعض كبار الضباط المصريين وصغارهم ومشايخ قبائل العربان وجاءه الأمر من صاحب سياستهم بأن يبلغ السلطان أن حكومة الانجليز كانت لا تتأخر عن قبول شروط ارسال العساكر الشاهانية الى مدينة الاسكندرية لولا ما يحول دون ذلك من الدواعي والأسباب الكثيرة ولكنها مع ذلك لا تمتنع من قبول ارسال ألفين منهم وتنزيلهم في أحد مواقع ترعة السويس * قيل فلما سمع السلطان هذا السكاريم حزن جدا لاسيما وقد جاء الخبر في هذا الحين الى المايين والباب العالي بتغلغل ولسلي وعسكره في جوف البلاد وأن قد انضم الكثير من كبار الضباط وصغارهم الى جهة الانجليز فأرسل السلطان الصدر الاعظم الى دار السفير يقول ان أمير المؤمنين يقبل

مطلب
صدور الفرمان
السلطاني بعصيان
أحمد عرابي ومن

تنزيل عسكره في مدينة بورسعيد وأنه في مقابلة ذلك يتعهد بإصدار فرمانه بعصيان أحمد عرابي وسائر زعماء الثورة بديار مصر فأظهر السفير رضاه عن ذلك ولكنه لم يبد جواباً شافياً فلما كان رابع عشر شوال سار السفير إلى الباب العالي صباحاً ومعه ورقة مسطورة فيها العهد المراد إبرامه بشأن إرسال العسكر السلطاني ودخل إلى مقر الصدارة ولم يستقر به المقام حتى جاءه من أعلمه بصدور الفرمان الشاهاني القاضي بعصيان أحمد عرابي فسر به هذا الخبر سروراً عظيماً ولكنه لما اطلع عليه لم يعجبه وانقلب سروره حزناً أو هو تظاهر بذلك وقال انه لم يتضمن شيئاً البتة من الاسباب والقواعد التي وقع الاتفاق عليها فراجعها الصدر الأعظم فلم يلتفت اليه وامتنع من التوقيع على ورقة العهد القاضي بإرسال العساكر الشاهانية إلى مصر فعاوده الصدر ولاطفه وهون عليه وقال لابد من إرجاع كل شيء إلى ما وقع الاتفاق عليه وسأله ان يطلع عليه ما في ورقة العهد فأطلع عليه فإذا هي لم تعين مدينة بورسعيد محطاً للعساكر السلطانية كما وقع الاتفاق على ذلك بل تبيح نزولهم على ضفاف ترعة السويس ليس الا فاستاء الصدر الأعظم من ذلك وقال للسفير وددت أن لا يبقى بيننا من الآن شيء من المواربة فقد ذهب الصبر واختلط الحال والعهد الذي أبرم بيننا إنما هو على جعل مدينة بورسعيد محطاً لعساكرنا وقد وافقتمونا على ذلك فلا موجب إذا أن تعدلوا فتركه السفير وانصرف ثم عاد وقد كتب في تلك الورقة مانصه **﴿﴾** ان حكومة جلالة الملكة تبج للعساكر السلطانية الرحيل إلى مدينة بورسعيد ومنها إلى الموقع أو المواقع التي يحصل الاتفاق عليها ما بين مقدمي الجيشين اهـ **﴿﴾** قلت **﴿﴾** وقد قصدوا بذلك أن العساكر السلطانية يأثون فيمرون من ترعة السويس ولا ينزلون على ضفافها الا حيث يأمرهم مقدم عسكر الانجليز **﴿﴾** فأبى السلطان عليهم ذلك وقال لا بل ينزلون بمدينة بورسعيد فوعده السفير بتبليغ هذا الكلام إلى صاحب سياستهم وانكف عن مقابلة الصدر الأعظم أباناً فأحس رجال الدولة بما وراء هذا التطويل وأدركوا ما يترصد لهم من الخيبة لاسيما وقد جاءتهم الاخبار يومئذ بقرب تغلب الانجليز على أصحاب التل الكبير وأنهم قد طبروا الخبر بعصيان أحمد عرابي وخروجه عن طاعة أمير المؤمنين كما تقدم القول وفي سادس عشر شوال سار الصدر الأعظم إلى مقر سفير الانجليز متأبطاً ببعض الاوراق وصورة من العهد المتعلقة بإرسال عساكرهم إلى ديار مصر ومذكرة للتوقيع عليها من السفير وكله في الامر وقال قد رسم أمير المؤمنين بان لا يمكن التغاضي عن عدم ذكر هذه العبارة في بنود الاتفاق وهي « ينزلون بمدينة بورسعيد » فأبى السفير عليه ذلك وقال لا بأس من أن تأتي على تفسيرها في سطور المذكرة بهذه العبارة « تسير العساكر الشاهانية قاصدة مدينة بورسعيد لكي يتمكن من الدخول من خليج السويس » وكانت تلوح على وجه السفير في هذا الحين لوائح الاضطراب والوجل وكأته كان يتوقع حدوث حدث جديد وكان في كل لحظة يدخل عليه أحد بظانته فيكلمه مما فكان تارة يحمر

وجهه فرحا وأخرى بصفر وجهه لا ورجال الدولة في شغل عنه بمراجعة بنود الاتفاق
 وقراءة عبارة المذكرة ثم أعادوا معه الكلام فلم يقبل الا ما أشار به وأصر على الامتناع
 فقاموا من عنده وانقطع الكلام بينهم أياما أخرى * فلما كان تاسع عشر شوال
 وردت الاخبار الى السفير بانصار الجنرال ولسلى على العربيين ودخوله القاهرة فأشاع
 السفير هذا الخبر وطهره الى الآفاق فجاءه في ذلك الحين الصدر الاعظم وناظر الخارجية
 وكلامه في أمر ارسال العساكر السلطانية الى بورسعيد وفي تعديل بنود العهد وكأنيهما لا
 يعلمان شيئا مما حل بالعربيين فلما سمع السفير كلامهما تبسم وقال قد ضاعت الفرص
 وذهبت الآمال بل قضى الأمر فلم يبق من موجب لارسال العساكر السلطانية وقد
 انتصرت ولله الحمد عساكرنا وظفر مقدم جيوشنا باهل الثورة ظفرا مبينا قيل فأظهر الصدر
 الاعظم استغرابه من هذا الخبر وقال وكيف ذلك فقال السفير نعم وقد أتاني الأمر بأن
 أسترجع صورة الاتفاق التي قد كنت بعثت بها الى المايين ولقد كانت حكومة جلالة
 ملكتنا تؤد أن لا تعمل الا ما فيه ارضاء أمير المؤمنين غير أن الظروف لم تأت بالغرض
 ولكنها لم تغير قط شيئا من العلائق الودية الكائنة بين الدولتين من القدم فقال ناظر
 الخارجية إى نعم وان حكومة عظمة أمير المؤمنين لا تنسى قط ماهية الحب المتبادل بينها
 وبين حكومة جلالة الملكة وعليه فاني أسأل باسم مولانا أمير المؤمنين ما هو الاجل الذى
 ضربتموه لجلاء عساكركم عن أرض لكنانة فطفق عند ذلك السفير يحدثهم بخبر ما لا فقه
 العساكر الانجليزية من التعب أمام حصون النل الكبير وجعل يبائع فيما بذلته حكومة
 جلالة الملكة من النفس والنفيس حبا في ارجاع الهدوء والطمأنينة الى البلاد بعد أن كادت
 تقوض الفوضى ربوعها الى أن قال * ولقد زادت هذه الضحايا في نفوذنا نفوذا آخر نجم عنه
 مسؤولية عظيمة لا يمكن التخلي عنها لا سيما وقد انحل الجيش المصرى وأصبح خديو البلاد في
 حاجة الى تدبير حكومته وارجاع سابق سلطته فلا يحتمل بدولة بريطانيا في هذا الوقت اجلاء
 عساكرها وترك البلاد بلا حافظ ولا رقيب على أنها مع ذلك قد رسمت بجلاء فريق منهم
 وهن على عزم ان لا تبقى منهم أحدا في جوف البلاد متى سمحت الظروف بذلك الى أن قال
 * ولا أرى نفسى مقصرا في القيام برغائب أمير المؤمنين كما لا ينكر جلالاته على ذلك ولكن
 إيعراض جلالاته عن الأمر في حين وجوب الاقبال والتزامه جانب التطويل في الوقت الذى
 كان يجب فيه الاختصار كلاهما كان باعثا على وقوع ما وقع ومع كل ذلك فان رباط المودة بين
 الدولتين لا ينقسم أبدا فقام الصدر الاعظم ومن كان معه وانصرفوا وشاع في الاستانة خبر
 دخول جيوش الانجليز الى القاهرة فاضطرب الناس وأخذتهم الطيرة وقبحوا فعال الصدر
 الاعظم ووزير الخارجية ورموهم بالخيانة وسوء النية واتهموهم ببيع أملاك الدولة بثمن
 بخس وقامت الفتنة في السراى السلطانية وتفرقت أغراض أهل المايين ورمى كل رفيقه
 بالغش والخيانة وانكشف من اسرارهم المضحك والمبكي وتكلم أصحاب صحف أخبارهم في

هذا الأمر وتوسعوا في القول وكادوا يفضحون ما استترت معرفته عن الناس فنعوهم
وهددوهم فأنكفوا وفي القلوب ما فيها وقد صدق من قال * وقد يغلب المقدر على التقدير
حتى تكون الآفة في التدبير فآله حسبنا وكفى

مطلب
ورسم الخديو بخلع
سائر المحافظين
والمديرين والمأمورين
الذين تولوا على
عهد أصحاب الثورة

ورسم الخديو بخلع سائر المديرين والمحافظين وسائر المأمورين الذين استلموا زمام
الوظائف على عهد أصحاب الثورة فخلعوا ورسم أيضا بصرف سائر العساكر المصرية
ورجوعهم الى أوطانهم ففرقوا ولم يبق منهم بالقاهرة الا نفر قد لبسوا لباس العامة ودخلوا
في خدمة بعض الناس وكذلك رسم بتشكيل لجان خصوصية لتحقيق حادثتي رابع عشر
رجب ورابع عشر شعبان سنة تسع وتسعين بمدينة الاسكندرية وفي طنطا وأخرى
بالحيلة الكبرى لتحقيق ما وقع بهما من القتل والحريق ثم أرسل مصطفى رياض باشا الذي
ولى نظارة الداخلية الى المديرين والمحافظين يستقدم من وقع القبض عليهم من أهل
كل بلد ممن كان لهم يد في إضرام نار الفتنة فسيروا بهم مكبلين بالحديد عشرات عشرات
وهم في آنس حال وقام المأمورون بعمل التحقيق فجاء لديهم بالمتهمين من كل فج عميق
نخف الناس وأوجس كل شرا من عدوه وصديقه اذ كثر أصحاب السعاية على باب مصطفى
رياض باشا وتزاحوا على ديوانه وتسابق الغريم الى الشكاية بغريمه والجار الى الاضرار بجاره
لأقل سبب وأنشئت محكمة عرفية في القاهرة وجعل رئيسها محمد رؤوف باشا وأخرى
رئيسها اسمعيل أيوب باشا فاختصت محكمة رؤوف باشا بالحكم في جميع الدعاوى التي
ترفع من اللجنة الخصوصية وجعلوا أحكامها في ذاك قطعية لا تقبل الاستئناف وشكلوا
لجنة عسكرية أخرى بالاسكندرية لتحكم أيضا في القضايا التي ترفع اليها من محكمتي
الاسكندرية وطنطا المخصوصتين حكما قطعيلا لا يقبل الاستئناف وكثر القبض على الناس
وانبث أصحاب الشرطة يبحثون على الفارين من المتهمين فكانت شدة عظمة للغاية كل
هذا والخديو بالاسكندرية يتابع اصدار المراسيم باعادة النظام وترويج الاعمال كسابق
مجراها * فلما كان حادى عشر ذى القعدة قام الخديو من الاسكندرية الى القاهرة
فسدخها في الساعة السابعة عربى نهارا وكانت طوائف الجند من الانجليز واهنود مشاة
وربكا مصطفين ذات اليمين وذات الشمال من محطة السكة الحديد الى سراى عابدين فلما
نزل من القطار ونزل معه الدوق أوف كاوث ثالث أولاد ملكة الانجليز * وكان هذا
الدوق قد حضر للقتال كقائد فرقة من العساكر الانجليزية * أطلقت المدافع من قلعة
الجبل وفجحة المحطة تباعا وصعدت الموسيقى بالنشيد الخديوى وهتف الجند باصوات
التهليل فركب عربة يجرها أربعة من جياذ الخيل وركب على يساره الدوق المشار اليه
وجلس أمام الخديو ولسلى مقدم الجيوش الانجليزية وأمام الدوق المسترمالت قونصل
جنرال الانجليز وكلهم بلباس الزينة والتشريف وخلف العربة طوائف الحرس وبكار
الضباط وكوكبة من الفرسان وما زال سائرا بين صفوف الجند وأصوات التهليل ودعاء

مطلب
مجيء الخديو من
الاسكندرية الى
القاهرة وما كان
من وراء ذلك

العامّة المتواصل وزغاريت النساء من أعالي البيوت حتى تزل بمقرّه بعابدين وأمر فعملت
الولائم والمآدب لكبار عسكر الانجليز أياما كثيرة وأهداهم نياشين الافتخار من كل رتبة
وصنف وأحدث نيشانا جديدا من المعدن المعروف بالبرنز على شكل زاوية سماه النجمة
المصرية وأهداه لجميع الجنود الانجليزية الذين شهدوا قتال مواقع كفر الدوار والتل الكبير
ثم أتت جميع الجنود الانجليزية الى القاهرة فلم يبق منها الا نفر بالاسكندرية وبورسعيد
والاسمعية فاستعرضها الخديو برحبة عابدين بين عزف الموسيقى وأصوات المدافع وكانوا
قد أعدوا لذلك كشكا لطيفا في وسط الرحبة وزينوه بالبيارق والرايات وكان بين هذه
البيارق والرايات الراية الانجليزية جلوس الخديو بالكشك وهو الجند من أمامه تباعا على
أشكال متنوعة واتفق أن جلوس الخديو بذلك الكشك كان تحت الراية الانجليزية وعلى
يمينه الدوق أوف كانتو فتطير الناس من ذلك وخافوه وترامت ظنونهم في ذلك اليوم الى
المرحى البعيد وجعلوا يتساءلون عن معنى ذلك الاستعراض وما فيه من الرموز والاشارات
الخفية وما ينجم عن جلوس الخديو تحت ذلك العلم الانجليزي

وانقضت ليالى الافراح والولائم على أحسن ما يكون من الابهة والزينة وعادت الاعمال
الدوائية الى سابق مجراها فجعل الوزير محمد شريف باشا يدبر الامور على أحسن ما يكون
من التدبير وقد رأى أن في بقاء جميع العساكر الانجليزية في جوف البلاد خطرا دائما
وكذا ملازما فكلم قونصل جنرال الانجليز في ذلك وكشف له عما في سياسة بقاء جيوشهم
بالقاهرة من الخطر وضعف الرأي وطال الاختد والرد بينهما أياما حتى تقرر الاتفاق على
بقاء اثني عشر ألفا منهم بين القاهرة والاسكندرية وطالبت حكومة الانجليز الخزينة
المصرية بنفقة هذه الجنود ورسمت بصرف ثمانية وأربعين ألفا ذهبا في كل شهر ما دامت
هذه الجنود قائمة بحراسة البلاد قالت حتى يستتب الامن وتتوطد الراحة وتقوى
الحكومة الخديوية على القيام بشؤونها المالية والادارية منفردة * ثم رحل عن القاهرة
سائر الجنود الذين حصل الاتفاق على تسفيرهم وعاد الجنرال ولسلي الى عاصمة بلاده وقد
أهداه كبار القاهرة وأعيانها سيفا من الصنعة المصرية منقوشا عليه هذه العبارة (هدية
من المصريين الى الجنرال ولسلي قائد الجيوش الانجليزية) * ولم يكدهم استقرار بالجنرال
المقام في عاصمة بلاده حتى قدم الى القاهرة اللورد دوفرين سفير الانجليز في دار الخلافة
لينظر في تنظيم أمور البلاد على ما تقتضيه المصلحة الانجليزية فقبول بغاية الاحتفال
وأزروه مع حاشيته وبطانته بقصر النهضة بشبرا من ضواحي القاهرة فلبث به أياما ثم انتقل
الى دار قضاوى بيلك يخططه الاسمعية فلأزمه بعض الاجانب النازلين بمصر من يدعون
العلم بعادات البلاد وأخلاق أهلها وما يحتاجونه من خير أو اصلاح شرفقصوا عليه ما وصلت
اليه معارفهم وبث هو كذلك العيون لتأنيبه بأخبار العامة وما يقوله أهل البلاد وجعل يوالى
الاجتماع تارة بالخديو وأخرى بالوزير محمد شريف باشا ويكثر من التطواف في شوارع

مطلب
مقدم اللورد
دوفرين الى ديار
مصر وما كان من
وراء ذلك

القاهرة وبين مجتمعات العامة وظل على هذه الحال أياما ثم حرد تقريراً في غاية التطويل والاسهاب وقسمه الى أبواب وفصول دون فيها ما شاء من احتياجات البلاد المالية والادارية والقضائية وما ينفعها من المنظمات الداخلية وبالغ في اظهار حاجتها الى ترتيب أمر الجندية وأصحاب الشرطة أولاً ثم جعل المراقبة على جميع مصالح الحكومة في حالة أقوى وأكمل مما هي عليه الآن ثم توسيع نطاق المصالح الأميرية المتولى ادارتها الموظفون الأجانب وتقليل عدد الموظفين بالدواوين من المصريين * قال وهم الذين ضاقت بهم تلك المصالح لكثرتهم * وتنظيم محاكم عدلية على نظام يناسب حال أهل البلاد والمساواة بين الأجانب والاهلين وانشاء هيئة شورية تكون حاصلة على شئ من الحرية واستقلال الفكر ولا بأس من أن تكون هذه الهيئة هي مجلس نواب البلاد أو ما يشابهه وإبطال تجارة الرقيق وقطع دابر الاسترقاق وتأمين طرق التجارة وسبل الاتصال ما بين الديار الأوروبية والشرق عن طريق مصر وعلى الخصوص حرية المرور من خليج السويس * هذا أهم ما جاء في تقرير دوفرين هذا فلم تتناوله الايدي حتى قابله أصحاب صحف الاخبار المحلية بالسنة الطعن وعابوا عليه كثيرا من الملاحظات ولا سيما ما يتعلق منها بخدمة الحكومة وأرباب الوظائف وشددوا عليه التذكير ورموه بالخلط والخطب وقالوا انما هي سفسطة نقلها عن رساله الذين كانوا يجوبون القرى ويطوفون البلاد وينقلون عن حرافيشها وزعانف التزلاء فيها الذين لا خبر لهم ولا دراية بالامور فما هو الا كلام في كلام في كلام . فلم يلتفت دوفرين الى هذا كله ولم يعأبه وعمد الى الاهتمام بامر من كانوا في الحبوس بتهمة الاشتراك في الفتنه وقد غصت بهم وضائق اذ بلغت عدتهم يومئذ ألفاً ومائتي مسجون لم يحسب بينهم محمود فهمي وأحمد عرابي وطلبة عصمت ومحمود البارودي ويعقوب سامي وعبد العال حشيش وعلي فهمي وعلي الروبي وغيرهم من كبار العصابة ومقدمي الثورة فكلم مصطفى رياض باشا في ذلك وسأله التعميل في أمر أولئك المتهمين وفك قيود البرى منهم فأعظم مصطفى رياض باشا هذا الكلام وأكبره لانه لا يستطيع أن يرى يدا فوق يده أو كلمة سابقة لكلمته فلم يلتفت الى ذلك ولا أحل طلب دوفرين محله وقد وردت الشكاوى تترى على مقر دوفرين من أصحاب الحبوس يعددون فيها ما يقاسونه من ألم العذاب وأشكال الضيم وذهب بعض نسايتهم وذرائعهم الى مقره ليكون ويتوجعون اليه مما يلاقيه أهلهم من الجور والعسف من مصطفى رياض باشا ويسألونه الرحمة بأنفسهم والرافة بأهلهم فهال دوفرين أمرهم وأحزنه وقيد جماعة من كبار ضباط الانجليز بتفتيش جميع السجون التي بالاقليمين القبلي والبحري وسماع ظلامة سائر من بها من أهل البلاد فذهبوا وعادوا وقصوا عليه من أخبار تلك السجون ما تنفطر من سماعه القلوب لاسيما حبوس الشرقية ومنية ابن خصيب فتقدم الى الخديو في العفو عن سائر أصحاب الجرائم الصغيرة فاجابه الى ذلك ورسم بالعفو عن سائر صغار الضباط الا من كان منهم في مظاهرتي غرة ربيع الأول ورابع عشر

مطلب

احصاء اللورد دوفرين

لمن في الحبوس

شوال سنة ثمان وتسعين ومن كان تحت السلاح وقت مذبحة حادى عشر يوليو سنة اثنتين
وثمانين ميلادية أى رابع عشرى شعبان سنة تسع وتسعين ولبشوا فى الخدمة العسكرية
الى حين ظهور الفتنة واضطرام نارها وما عدا الذين دخلوا فى الخدمة العسكرية باختيارهم
بعد اشتداد الفتنة ووقوع مذبحة حادى عشر يوليو المذكور فسكنت عند ذلك خواطر
الناس قليلا وزال عنهم بعض الخوف * قال بعض الكتاب * فلم يرق هذا فى عينى
مصطفى رياض باشا وأغضبه فنزع الى التفرد بالأمر وعمد الى معاكسة اللورد دوفرين
فشدد فى تعقب أعمال أحمد عرابى وأصحابه وضيق عليهم وهدد فأحس دوفرين بما وراء
ذلك وأدرك ان العاقبة انما هى شر على أحمد عرابى وأصحابه وفى ذلك نكت لعهدهم معه
فرسم بوجوب التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه بالطرق العادلة ورفع الأمر بعد ذلك الى
محكمة لتحكم فيه ومنع تعرض مصطفى رياض باشا وكفه عن العبث بالنظام الذى جاءت
الجيش الانجليزية لتثبت أركانه * قال المستر شارلس رويل أحد كتاب الانجليز فى كتاب
ألفه فى حوادث مصر الأخيرة * فامتعض لذلك مصطفى رياض باشا وأبى الا معاقبتهم بغير
تحقيق وألح على اللورد دوفرين فى ذلك فلم يقبل وصمم على اجراء التحقيق والتزام جانب
العدالة ورسم بسرعة العمل فزاد امتعاض مصطفى رياض باشا واشتد به الغيظ الى حد لم
يطبق معه السكوت فسار الى مقر اللورد دوفرين وكلمه طويلا واحتد وأغلظ فى القول
فلم ير من اللورد دوفرين أدنا واعية ولا وجهها طلقا فتركه ودخل على الوزير محمد شريف
باشا وكلمه أيضا فى ذلك فقال الوزير لا بد من التحقيق ورفع الأمر الى محكمة فنكاد مصطفى
رياض باشا يتميز غيظا وسأل الوزير أن يقبله من منصبه فأجابه الى ما طلب بغير معاودة
وقد قيل فى أمر تنزيله من هذا المنصب أقوال أخرى أضربت عن ذكرها ومن هذا الحين
أصبح عمل التحقيق مع أحمد عرابى وأصحابه ورفع نتيجته الى محكمة لتحكم عليهم بما تراه
أمرام مقضيا لا راد له

مطلب
حصول الخلاف
بين رياض باشا
واللورد دوفرين
وتنزيل مصطفى
رياض باشا من
منصبه

وكان لما أخذ الانجليز محمود فهمى أسيرا فى موقعة القصاصين على ما تقدم بيان ذلك
فى حينه وأتوا به الى الاسكندرية أرسل المستر مالت قونصل جنرال الانجليز الى اللورد
جرانفيل زعيم أوصاحب سياستهم يقول ان الجنرال ولسلى مقدم جيوشنا فى مصر يرى
ان من مواجبه تسليم جميع الاسرى الذين يؤتى بهم من ساحة القتال الى سلطة وتصرف
الخدو فأجابه اللورد جرانفيل الى ذلك بشرط عدم الحكم على أحد منهم بالقتل مالم تصادق على
ذلك حكومة الملكة فاعلم القونصل الخديو بذلك فقبله واشترط على نفسه أن لا يأتى أمرا فى
حقهم قبل أن تعترف به دولة الانجليز * فلما كان سلخ ذى القعدة قدم الى القاهرة رجل اسمه
مارك نابير من كبار علماء الشريعة الانجليزية ومعه آخر اسمه ريشارد آيث وتقدما الى الحمامة
والدفاع عن أحمد عرابى أمام المحكمة التى سيرفع لها أمره فنانع فى ذلك الوزير محمد شريف
باشا وقال ان الشريعة المعمول بها فى بلاد مصر لا تبيح للجرمين اختيار من يدافع عنهم ولا

مطلب
مقدم مارك نابير
من أصحاب شريعة
الانجليز للدفاع عن
أحمد عرابى

اجراء التحقيق معهم علانية ولا تجيز وجود أحد من الأجانب في هيئة المحكمة وأبلغ هذا الكلام الى المستر مالت فرفعه الى زعيم سياستهم فورد الجواب على غير ما يرضاه الوزير وصمم الزعيم المشار اليه على وجوب الدفاع عن أحمد عرابي ورفقائه وعلى تنفيذ ما أشار به مما يتعلق بكيفية المحاكمة فبعد أخذ وردّ طويلين قبل الوزير محمد شريف باشا ذلك بشرط أن يكون المحامي عن أحمد عرابي مصرياً لا إنجليزياً فلم يقبل اللورد جرانفيل وأعاد القول بترك الدفاع عن أحمد عرابي الى من يختاره هو لنفسه من أى جنسية كانت بشرط اجتناب جميع وسائل الاكراه والتهديد فامتنع الوزير من قبول ذلك وطال الاخذ والرد بين الفريقين أياماً وقفت فيها رحي التحقيق ثم عادت على ما رسم به زعيم السياسة الانجليزية رغماً عن كل مكابرة وعناد * وانقسمت الآراء وتباينت الاقوال في أمر دفاع الانجليز عن أصحاب الثورة ومحاماة كبار شريعتهم عن أحمد عرابي فكان الناس في ذلك على طرفي نقيض لاسيما أصحاب صحف الاخبار المحلية فقد قام بعضهم ينادى بوجوب تسليم أهل الثورة لشرعية البلاد ومنع دفاع الانجليز عنهم وعدم مس كرامة الشريعة المطهرة فلم يحدوا لندائهم من مجيب وزرع في عاصمة الانجليز جماعة من كبارهم وآخرون من كتابهم وجعلوا يصيرون بأسنة أفلامهم واعدائهم وامنائهم وامرجاتهم وكان في مقدمة هؤلاء القوم السير وليم جريجورى والمستر بلانت اللذان تقدم لنا الكلام عما فعلاه وجاء بلانت هذا برجل من أصحاب الشريعة الانجليزية اسمه برودلى وقبده بالدفاع عن أحمد عرابي وكان هذا الرجل من موظفي حكومة الهند ثم انفصل عنها ولحق ببائ تونس مولاي حسن باي فقدم القاهرة في رابع عشر ذي القعدة وطلب الاجتماع بأحمد عرابي فلم يسمعوا له بذلك فاستعان هو ومن معه من جماعة الكتاب والمحامين بقونصل جنرال الانجليز فاعانهم وزرع الى مساعدتهم وطلب من الوزير محمد شريف باشا جعل التحقيق مع أحمد عرابي وبقية أهل الثورة علنيا فطال بين الفريقين الجدل وكثر القيل والقال وأبى القونصل الا ما أراد وما زال حتى قررت القاعدة على تسليم أمر الدفاع عن أحمد عرابي وأصحابه وعن بقاء بقية المجرمين الى برودلى هذا وتقييد بورلى بيل أحمد محامى الحكومة بأقامة الدعوة العمومية ثم تعينت أوجه التهم وأسبابها فكانت - أولاً - تهمة أحمد عرابي وطلبه عصمت ومحمود سالى ومحمود فهمى وعمر رجبى كأنهم سر أحمد عرابي بكل ما حدث من الاضرار المترتبة على رفعهم الراية البيضاء على طواحي الاسكندرية في يوم الاربعةاء خامس عشر شعبان ثم اخراجهم جميع العساكر المصرية من المدينة واضرام النيران فيها بينما كانت تلك الراية تخفق على حصونها - ثانياً - تهمة أحمد عرابي وطلبه عصمت ومحمود سالى ومحمود فهمى وعمر رجبى وعلى فهمى بتحريض الناس وحضهم على حل السلاح والخروج عن طاعة أمير البلاد وما ترتب على فعالهم هذه من القتل والنهب والسلب وإراقة دماء الابرياء من النساء والاطفال ثم تهمة أحمد عرابي

ومحمود فهمي وطلبة عصمت ومحمود سامي باستمرار القتال ومحاربة الانجليز بعد علمهم بانتهاء
الصلح وتقرير قاعدته * وشاع الخبر بذلك وكثر طلب أصحاب التهم من العامة وصغار
الموظفين بمحكمة طنطا والاسكندرية واشتد أصحاب الشرطة في البحث على الفارين منهم
فكبسوا على الكثير من الدور والوكائل فعظم خوف الناس وكانت شدة بالغة
فلما كان سابع ذي الحجة انتظم مجلس التحقيق فأقوا بأحمد عرابي ورفاقه وخلفهم
الحراس من أصحاب الشرطة بالبنادق والحراب فكان لا يرى على وجه أحمد عرابي شيء من
الاضطراب أو الخوف بل كان ساكن القلب هادئ اللب وكان اذا سئل أجاب بلا تردد ولا
تلجلج وأكثر من الاحتجاج بل ندد وقبح وعاب عليهم ما يرمونه به من العصيان والخروج عن
طاعة الخليفة وأمير البلاد وقدم الى هيئة المحكمة كثيرا من الرسائل التي كانت تأتيه من
كبير المايين الهمايوني ومن كاتم أسرار أمير المؤمنين ومن الشيخ أحمد أسعد امام السراي
السلطانية وكلها استنهض وتحريض وتشجيع على التظاهر بما كان واعلاء كلمة السلطان
في داخل البلاد * قال احد الكتاب العارفين بحقائق هذه الامور بعد كلام طويل * وقد
نجحت تمام النجاح تلك الدسائس الانجليزية وفازت في دار السلطنة عاى احمد وثمانين
وثمانمائة وألف ميلادية واثنين وثمانين فانه ما تظاهر أحمد عرابي بمظاهرة الحرية ب ميدان
عابدين التي لم يكن القصد منها الا تنزيل مصطفى رياض باشا ورفاقه من منصب الوزارة حتى
حضر الانجليز الباب العالي على انتهاز هذه الفرصة للحصول على سلطة فعلية في بلاد مصر
فأطاع وعمل بما أشاروا فلما رأوا فلاح سياستهم والعمل بمشورتهم زادوا وغرروا برجال
الدولة ومنوا السلطان بالاماني البعيدة التي منها محو امتيازات عائلة محمد علي باشا الكبير
واعادة مصر الى ولاية عثمانية خاضعة تماما للباب العالي ان هو عهد الى تعضيد أحمد عرابي
وأصحاب الحزب الوطني - قال - ولم يقف أرباب السياسة الانجليزية عند هذا الحد من
التغريب بالسلطان ورجاله بل أوعزوا أيضا الى أصحاب صحف أخبارهم أن يساعدوا على
نوال هذه الخطوة فصاحوا بالثارات السلطان عبد الحميد وأشاروا على دول أوروبا بأن
تسأل الباب العالي في ارسال جيوشه المظفرة لانجاد نار هذه الثورة التي لا يقوى على
انجادها الا العساكر العثمانية فاغتر الباب العالي بذلك أيضا واندفع دفعة أخرى في غير
طريق الهدى وسير الى القاهرة جماعة من المايين والسراي السلطانية بينهم الشيخ أحمد
أسعد وقدرى أفندي ليؤكدوا الى أحمد عرابي ورفاقه تعضيد أمير المؤمنين لهم ففشط
عند ذلك أحمد عرابي وتجرد للدفاع عن حقوق أمير المؤمنين فالت اليه قلوب أهل البلاد
واستمال اليه من كان يخالفه من قبل ومن بعد اه وقدم أيضا أحمد عرابي الى هيئة
المحكمة عدة محاضر موقعا عليها من عهد وأعيان البلاد يمدحون فيها أعماله ويشكرونه
على نهضته ويسألون له النجاح والفلاح ويطلبون منه الاستمرار على الدفاع عن حقوق
الوطن وأهله ومحاضر أخرى منهم أيضا بمعنى ما ذكر الى رئيس المايين الهمايوني فأعجبت هذه

الاوراق جماعة الانجليز وعظمت لديهم الأمر واشتد بها أزر برودلى الذى تقيد بالمحاربة عن أحمد عرابى ورفاقه فبالغ فى الدفاع وشدد فى الحجّة وأعانه على ذلك جماعة من كبار دار الندوة الانجليزية وجماعة من أصحاب الحكمة فى دولتهم اذ قام منهم الخطباء والقضاة يشدون النكير على رجال السلطنة العثمانية ويرمونهم بالخديعة والمكر فتبدلت عند ذلك الاحوال وتبددت الآمال وانقلبت من طور الى طور وما زالت الامور بين أخذ ورد واقبال وادبار حتى ثبت عصيان أحمد عرابى ورفاقه فكتب رئيس لجنة التحقيق الى برودلى يقول قد صار من المقرر فى نية هيئة مجلس التحقيق احالة أحمد عرابى على المحكمة القانونية التى تشكلت للحكم على العصاة وأصحاب الثورة حيث قد تراءى وجوب محاكمتهم بالعقوبة المنصوص عنها بالمادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى وبالمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى * وشاع الخبر فاختلف الناس فيما سيكون من وراء ذلك وتفرقت آراؤهم وزامت ظنونهم الى المرمى البعيد وكلهم مجمع على فشل الحكومة وفوز جماعة الانجليز

مطلب
محاكمة أحمد عرابى
ومن معه من العصاة

فلما كان يوم الأحد نائى عشرى محرم الحرام افتتاح سنة ثلثمائة وألف هجرية أى رابع دسمبر ختام سنة اثنين وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية اجتمعت هيئة المحكمة فى قاعة مجلس شورى القوانين وأتى المتفرجون من كل رتبة ودرجة وغص المكان بمجاهير الانجليز وكبار ضباطهم وكتاب صحف أخبارهم وجميع قناصل الدول وكانت أمارات الهيئة والوقار بادية على هيئة المكان والناس كلهم فى سكون وخشوع فلم تكن الاساعة حتى دخل المتهمون ووقفوا فى وسط المكان فأحدثت بهم العيون من كل جانب وتمهلت الوجوه فرحا بوقوفهم فى موقف الجزاء فأشار الرئيس الى أحمد عرابى وقال * يا أحمد عرابى باشا قد أتوا بك اليوم أمام هذه المحكمة بصفة أنك متهم بالعصيان والخروج عن طاعة الذات الخديوية كما ثبت ذلك أمام مجلس التحقيق وأن عقابك على هذه الجناية يكون بمقتضى كل من المادة الثانية والتسعين من القانون العسكرى العثمانى والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاآت الهمايونى فهل تعترف بانك مذنب أم لا فقام فى الحال برودلى المقيد بالمدافعة عن أحمد عرابى وناولته ورقة فاخذها عرابى وجعل يقرأ ما فيها بصوت جهورى فكان هكذا * أعترف بارادتي وبناء على نصيحة المحامى عنى أنى مرتكب للجناية التى أنا منهم بها الآن * فلما أتم أحمد عرابى كلامه قال الرئيس * انفضت الجلسة مؤقتا وسيتلى الحكم فى الساعة الثالثة بعد الظهر * ولم يحضر فى ذلك اليوم بورلى بى المدعى العمومى لىكى يشرح لهيئة المحكمة موضوع التهمة ويسمع الحاضرين ما أتاه أولئك المجرمون من الغشائى وما ارتكبوه من الجرائم ولا قام من يتكلم بدلا عنه فاندش عند ذلك الحاضرون وجعل ينتظر بعضهم الى بعض وهم فى حيرة واستغراب وجعل جماعة الانجليز يكلمون بعضهم همسا والسرور يطفح على وجوههم فلما كانت الساعة الثالثة تسابق الناس

الى قاعة الجلسة حتى ضاق بهم المكان ولم تكن الا لحظة حتى خرج الرئيس والقضاة وجلسوا على منصة الحكم فأقروا لديهم بالمتهمين فلما صاروا في وسط الجمع أشار الرئيس الى أحمد عرابي وقال اسمع الحكم عليك ثم تناول ورقة وقرأ مانصه * حيث قد ثبت ارتكاب أحمد عرابي باشا جنابة العصيان والخروج عن الطاعة وهذه الجنابة منصوص رمعاقب عليها بحكم المادة الثانية والتسعين من القانون العسكري العثماني والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايوني * وحيث مع ثبوت ارتكابه هذه الجنابة لدى مجلس التحقيق لم يتعرض المجلس للبحث في شيء خلافها ولذلك لم يطلب من المحكمة الا الحكم بالعقوبة المنصوص عنها في المادتين المذكورتين وهي عقوبة القتل * فبناء على هذه الاسباب * قد حكم بالتحاد الآراء على أحمد عرابي بالقتل لارتكابه جرعة العصيان والخروج عن طاعة الجنب الخديوي طبقا لأحكام المادة الثانية والتسعين من القانون العسكري العثماني والمادة التاسعة والخمسين من قانون الجزاء الهمايوني ورفع هذا الحكم للجنب العالي للتصديق عليه وقد حكم بهذه العقوبة أيضا على بقية المتهمين بجرعة العصيان مع أحمد عرابي المذكور * فلما سمع الحاضرون هذا الحكم تهلت وجوههم فرحا ولكن لم يضع رئيس المحكمة ورقة ذلك الحكم من يده حتى تناول أخرى وأخذ يقرأ ما فيها وإذا به عفو خديوي ونصه * قد اقتضت ارادتنا بأن الحكم الصادر على كل من أحمد عرابي وطلبه عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامي وعلي فهمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي المتضمن جزاءهم بعقوبة القتل وقع تبديله بالنفي الى الأبد من جميع الاقطار لمصرية وملحقاتها وان هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على المذكورين بالقتل اذا رجعوا الى الاقطار المصرية أو ملحقاتها وأن يجردوا جميعا من كافة الرتب وألقاب الشرف والنياشين مع محو أسمائهم من سجل العسكرية فما أتم الرئيس قراءته حتى وقع الهرج بين الناس وعلا وجوههم الاصفرار وانقبضت نفوسهم وجعل بعضهم ينظر الى بعض وكأن على رؤوسهم الطير وجلس عرابي وبقية المجرمين وهم باشو الوجوه منشرحو الصدور فتمقدمت عند ذلك إحدى النساء الانجليزيات هي زوجة نايبير شريك برودلي الذي تفيده بالحمامة عن أولئك المجرمين وهي بملابس الزينة والاعراس تناولت عرابي باقة من الورد الابيض اشارة الى الظفر والغلبة ثم صاغتة ضاحكة فصاغتها باسمها فاشتد تعجب الناس واستغرابهم وكبر عليهم هذا الأمر وخرجوا وهم يتحدثون به ويهيجون من تصارييف الأيام * وأخذ العهد على أولئك المجرمين بالبقاء في الجهة التي تعينها لهم الحكومة بعيدة عن الديار المصرية وكتبوا بذلك صكا فوقعوا عليه جميعا * فلما كان ثالث صفر رسم الخديو بمصادرة أحمد عرابي وسائر أصحاب الثورة وقيدوا بجاعة بضبط أرزاقهم وعقاراتهم فضبطوها فلم تكن شيأ يذكر ولم يتعرضوا الى شيء من مناعهم وكان كثيرا خصوصا متاع أحمد عرابي وقد قيل انه كان يحتوي على شيء كثير مما نهبه النهائون من الاسكندرية مما خف حمله وغلائمه ولم يمسه بشي كما أشار بذلك

مطلب
ورسم الخديوي
بمصادرة أصحاب
الثورة

وزير سياسة الانجليز ثم تأهب المجرمون للرحيل الى سيلان احدى ممالك الهند الانجليزية وقد كانوا يعلمون بانها ستكون دار اقامتهم قبل أن يصدر الحكم عليهم بالاعدام بأيام كثيرة كما هو ظاهر مما كتبه برودلى المحامى عنهم في كتابه المعنون بعنوان (الله ينصرك يا عربى) أو (كيف كان دفاعنا عن أحد عربى) فحملوا اليهم سائر متاعهم وذخائرهم وأتوا لهم بها فى قشلاق قصر النيل فى منتصف ليلة خامس عشر صفر المذكور وكذلك حضر اليهم من شاء الذهاب معهم من نسائهم وجواريتهم وأولادهم وأتباعهم فكانوا نيفا وستين ما بين اناث وذكور وساروا جميعا فى قطار مخصوص فى تلك الليلة الى مدينة السويس ثم أنزلوهم فى احدى بواخر الشركات الانجليزية وصحبهم بعض رجال الانجليز مودعين ومطيين لحواطيرهم فأقلعت بهم السفينة بسم الله مجراها

وكلم اللورد دوفرين الوزير محمد شريف باشا فى أمر من بقى من أصحاب الفتنة فرسم الوزير بالتجمل ففعلوا وقد كانوا أنفذوا من قبل الحكم على سليمان داود مقدم جند الاسكندرية بالاعدام شنفا لارتكابه جريمة احراق المدينة فضلا عن جريمة الخروج عن الطاعة وحكموا على بعضهم بالتباعد الى سواكن ومصوع وعلى البعض الآخر بالتباعد الى الشام وغيرها وكانوا كثيرين وعفى عن البعض وانقضت حينئذ مجالس التحقيق ومجالس القضاء وانجلي أصحاب الثورة عن مصر ولكن لم ينجل عنها شر فعلهم اذ قام تجار الاسكندرية يطالبون الخزينة بئى ما أخذته النهابون وقد تقدم الكلام على ذلك فى موضعه وترع قناصل الدول كافة الى الشدة فى الطلب لجعل الوزير محمد شريف باشا بطاوع ويكثر من مخافة كبار رجال السياسة حتى تقررت القاعدة بينهم على الزام الخزينة برد ثمن جميع مانهبه العامة والخاصة وكانت الخزينة الى هذا الحين قد أحلتها الحوادث وزادها انحلال نفقة الجنود الانجليزية القائمة بين الكنانة والاسكندرية فضلا عن كساد التجارة وتعطيل أسباب المعاملات وبوار أكثر الزروعات بأسباب جمع سائر أبناء البلاد وتجنيدهم لقتال الانجليز بمواقع التل الكبير وكفر الدوار فلم يرجال الدولة بدا من الاستدانة فاتفقوا على أخذ قرض قدره أربعة آلاف ألف من الذهب وتقدم اللورد دوفرين الى الوساطة فى أخذ هذا المال من بيت رويشيلد الغنى الشهير بعاصمة الانجليز واهتم صاحب سياستهم بذلك اهتماما عظيما كي لا يفسد فى سياسته بعد نصرته التل الكبير وقيد الوزير محمد شريف باشا جماعة من موظفى الحكومة ورجال الدولة باحصاء مانهبه النهابون وحرافيش الاسكندرية وما أكلته نيران الحريق فأنشؤا لذلك ديوانا بدار محافظة الاسكندرية سموه ديوان لجنة التعويضات وطبروا خبره الى الآفاق فتراجعت على بابيه أصحاب الشكايات فأحصوا ما ضاع لكل صاحب حانوت ومخزن وأصحاب السيوت فكان شيا لا يكاد يدخل تحت الحصر لكثرة فردوا لهم قيمته ذهبيا من ذلك القرض وما زالوا حتى لم يبق أحد من أصحاب الشكايات فربح يومئذ من ربح وخسر من خسر وقليل هم الخاسرون

مطلب
قيام تجار الاسكندرية
لمطالبة الخزينة
بئى مانهبه النهابون

وتسابق من يومئذ أصحاب الدور والوكائل الى البناء واعادة ما تهدم فتوسعوا في العمل وبالغوا في الاتقان فلم تمض الا أشهر حتى عادت المدينة الى أحسن ما كانت عليه من الرواق والبهجة واتسعت وعمرت ربوعها وامتلات حوائطها بأصناف المتاجر الفاخرة والبضائع الثمينة وعاد اليها من نزع منها من الاجانب على اختلافهم وجاءها الكثير من تجار الانجليز بأصناف البضائع النفيسة والصنائع الغريبة فاتسع نطاق الاخذ والعطاء وراجت التجارة وعادت الامور الى سابق مجراها واتصلت العلاقات التجارية بعضها ببعض بين القاهرة والاسكندرية وداخلية البلاد على ما كانت عليه من قبل واطمأنت قلوب أهل البلاد وزالت عنهم أسباب الوحشة فلم يبق من الثورة الا حديثها والحديث ذو شجون ونظم بعض الادباء في سير هذه الحوادث المهمة وما آل هذه الخطوب المدهمة كثيرا من القصائد المشخصة لبعض وقائع الحال وما بلغت اليه يومئذ الاحوال مع وصف ما وقع من أصحاب الثورة من سوء الاعمال منها منظومة العلامة مصطفى باشا صبحي التي عنوانها « صدق المقال في مثالب البغاة الجهال » وهي

تبين عقي غيه كل معتدى	وأسمى العرابي وهو بالذل مرتدى
يعض بنان المستكين ندامة	ويقرع بالاذلال سنن المسهد
فهلا رعى نعماء كانت ظليلة	عليه وهلا قدوى نصيح مرشد
وهل ندم ابانني اذا حم أمره	الى الحين يجدى بالرجاء المرتد
بنى الجهل والطغيان كيف كفرتمو	بأنعم توفيق العزيز محمد
مليك توافيه الملول لنصره	بأنفسها غير الخيس المجرد
وهل غير احسان الخديوى عليكمو	سوابغ كانت من طريف ومثلد
نبذتم قوانين الشريعة ضالة	وجاهرتو بالبغى في كل مشهد
ومن كان لا يدري حقيقة أمركم	أنبئه الانبياء عنكم لهتدى
ولست مريدا بالقوا في مصانعا	ولا راهبا من غائل أو مندد
فقد تلجئ الاحوال للهجر حازما	كما تلبس الاحرار أثواب أعبد
ويدخل في عد النواصب خيفة ال	ردى علوى حين لم يلق مفتدى
وما أنا الا ذا ككر ما جنىتمو	كما يذكر الرائي فعال المعربد
سرقتم نقود الجند ثم رميتو	دفاترها ليلا بسرداب مفقد
وقد ظهرت تلك الخفايا جليلة	وحان جزاء السارق المتمدد
كما سرق التفتيش طلبة عامدا	وبالرفق أسمى في عقاب التلدد
ورب يتيم قد أكلتم ترائه	وأبعدتموه عن مجير ومسعد
وقلتم جنى ذنبا ليعنى وتظفروا	باعدامه والمال يبقى لذى اليد
وأرملة أتلغتمو وجل مالها	وصيرتموها عرضة للفسد

وأظهرتم التوكيل عنها تسترا
وبالوفر لما أن فصلتم كغيركم
ووطأتم العصيان بالعهد بينكم
وفي مصر ساورتم سراى أميركم
وجئتم تجزون المدافع حولها
فأصجتمو أصحاب سيف ومدفع
ولما تيقنتم بأن جزاءكم
وأجمعتمو كيد ابن ملجم إذ غدا
وألقتمو حزب الضلال بحوطكم
وقلتم عن الاوطان والدين انكم
وما كان للاوطان والدين آفة
وزدتم على ماهية الجند وافرأ
وأنشأتمو قانون يربى معاشكم
يخالف أسلوب القوانين وضعه
فأمسست به بعض الارامل منكم
وغيرتم الضباط عمرا بفاسد
ولقبتمو منكم عبيدا بخالد
وألقاب شتى من همام وقائد
وقدمتمو أهل الرذائل منكمو
يجزون أعقاب السيوف على الثرى
وصحتم الاضغاث بالوهم بينكم
وأبرمتمو عهد التحالف بينكم
وكان عفا بالحلم عنكم أميركم
هو الحلم حتى يقتل الجهل ربه
ولما أتى الاسطول مصر مسالما
ومناكمو بالمستحيل خطيبكم
وأوهم زورا أن فيكم بسالة
وهيأتمو بعض الطواشي تمرا
فسبيتهمو احراقها وخرابها
وألفتمو الخراطوش من غير عائد
ولم تر منكم في سفين اصابة

على نهب محمولاتها والسترد
تضررتمو كالارقش المتوقد
وثرتم بقصر النيل ثورة مفسد
مرارا وأورتم زناد التـرد
حصارا وأبرقتم بأصوات مرعد
ولفأس والشادوف وسمات باليد
هو القتل أعلمتم دسائس ملحد
يحاول قتل الابرياء ولا يدي
بترقيش بهتان وزور ممهد
تحامون في الجلى محاماة صند
سواكم عليها إذ أتيتم بمؤيد
ومن يستزد بالبغي ما شاء يزد
بتلفيق أحكام وقول معقد
ويزري بيت المال ازراء محصد
لواء وأخرى كالفریق المجد
وسعدا بمشؤم وحرأ بأوغد
تريدون سيف الله بعدا لمعتدي
وحامى حتى الهيجا وفارس معهد
كما شتمو في مسند بعد مسند
فنعرکه فعل السفیه اليلند
وبالرغم سدت لا بفضل ومحتد
على الحرب ان في اليوم تنشب أوغد
فاليتمو إلا وفاء التعهد
وترى به الاهواء في شر مورد
أثرتم بريح البغي نار التعند
وأدمج غشا في جاس مقلد
فحاولتم بالجهل خطة أصيد
وهددتمو سيجور كل التهدد
وكانت حصانا بالبناء المشيد
مع الريح بدوى لا الى الفلك يهتدي
تعلل نفس الحر عند التهدد

وغادرتهم قتلا كودون ملحد
 وصلتم على المستأمنين لتأخذوا
 وأخرجتم السكان من دور ثغرهم
 وكم من برىء قد قتلتم ببغيتكم
 وكم ذات خدر قد فضحتهم وحامل
 وأحرقتمو منشية الثغر بعد ما
 وكان سليمان الغبي معينا
 فإلكم ولا أحسن الله حالكم
 وخلفتمو في الثغرا ورحتمو
 وعادكم بعض الغرور فلتتمو
 وحاصرتهم قصر الخديوي بعسكر
 وفي كفرة الدوار خلتهم مقامكم
 وحالتمو إبليس فيها وقد خلا
 فصفرتهم تبا ونقر بعضهم
 وفي العزل والتنصيب والحكم جرتهم
 سلبتم من الانحاء محصول زرعها
 وأظمأتم الاسكندرية حينما
 وكم محضر أمضيتهم بههرهم
 وأخربتم البلدان ثم صعدتمو
 إليكم إليكم انما قد تركتمو
 فهذه جيوش للنضال توصلت
 لنصر الخديوي أولقهر عداته
 وأضحت رحي طغيانكم في عديدكم
 بطالع توفيق المفسدى وبغيتكم
 وفي وقعة التل الكبير انهزامكم
 أغارت عليكم فيه أول فرقة
 وما راجها الروبي هنالك بخيله
 فأين الذي واعدتمو وادعيتهمو
 فهلا صبرتم وهو تصديق زعمكم
 اذا كانت العورات يخفى ظهورها
 ولكن فضحتهم بالفرار كدأ بكم

وخلفتمو الجرحى بها دون منجد
 بشار الطواحي من ضعيف ومقعد
 سراعاً تهديد وضرب مبتد
 وكم من عزيز قد أهنتهم وسيد
 جبهتهم فألقت جلها دون مواد
 نهبتهم وسرتم كالنعام المشرد
 الى الحرق وقافا لذى كل مرصد
 هربتم هروب الارعش المتبلد
 بخزى لكم يبقى بدم مخلد
 الى الرمل ميل الغادر المتقصد
 وخيل توالى من كيت وأجد
 منيعا فأطهرتم كين التحصد
 لكم جوها في قد قد بعد قد قد
 ولاح لكم بيض به النصر بقندي
 وكنتم لجمع المال أشبه مجتدي
 وما للاهالى من الجين وعسجد
 منعتهم وصول الماء من كل مورد
 وممنع أربيتهم بالتنوع
 الى التل في جيش كثيف معد
 الى أجل دون القصاص محدد
 بكل سفين مثل صرح ممرد
 لهم وثبات بين راغ ومزبد
 تدور عليكم بالكروب المهدد
 خذتم غداة الحرب في كل مطرد
 يعيركم في كل عصر مجدد
 فطرتهم شعاعا كالهباء المبتد
 ولا زار الذئب الكمين بمرقد
 به من ثبات في الوغى وتجلد
 وهلا قتلتم وهو خير لمتردى
 لدى البحث في ناد دقيق التفقد
 وكان العرابى بالهزيمة مبتدى

كدأب بنى كلب غداة تمكنت
 كدأب جهول باع ثورا لبومة
 لعمري لقد أبدى العزيز لجهلكم
 ورقا كسو بالكرامات خلدتمو
 مطايا العلى في الخطب تنجو بصادق
 بين الخديوى مصر كانت لاهلها
 سقاها غير النيل صفوا فأزهرت
 تدبرها للسلام تظار مجدها
 فعهد رياض كان يزهو نضارة
 وقد حذراكم ما استطاعا نختمو
 تضلونه جهلا ومكرا يضلكم
 وما زال في أمر^(١) البريثين آخذا
 الى أن هوى بعد العتو ولا لعا
 جعلتم^(٢) لذى الداعين فيها رئاسة
 وهل ميت الاحياء يرجى لمعظم
 بنشوره البرقى هيح فتنه
 كأن له في الامر حق تصرف
 لقد زاد في الطنبور أنكر نعمة
 ولولاه ما حاز العصاة من القرى
 فقل للعربى ان رؤياك صادفت
 وتأويلها بالخبس تلقى اهانة
 فيما كل مشؤم وياكل غافل
 أراك درست البغى بالجهل كاملا
 وسلت سيف الذل في مصر صاغرا
 فلو كنت تجزى بالذى تستحقه
 تقدم عربى وأرق أعواد واعظ
 ومثلك في ذا الحكم كل مجاهر
 ولكن عفا عنكم أمير تعودت
 له الفضل أما أتنمو بفضولكم
 ولولا صدور العفونا تحت نساؤكم
 وان تبعدوا لا قرب الله داركم
 بنو أسد منها بضرب المهند
 وقيده في غصنها المتأود
 من الحلم ما يوهى صلابه أقسود
 وكل لثيم ان رقى يتمرد
 وتكبو بعتل السريرة أحقد
 عروسا تجلت في كساء زمردى
 وراقت بنى الدنيا بوجه موزد
 وأحكامها تبدو بعدل موطد
 وكان شريف للعلى خير منجد
 وأضحى بكم ناسى أشتر مقلد
 وكل بأراء المضلين مقننى
 بقول العربى مظهرا للتشدد
 لعثرة باغ في الجافة أوحده
 فعرضتموها للدواهى بأجرد
 من الامر فى يوم من الخطب أسود
 وأسند عهد الحكم فى غير مسند
 وصيره فيكم بقصد التودد
 بها أرق المحزون صوت المغرد
 مغنم شتى غير رقد ومرفد
 ولكنها وافت على غير مقصد
 ويعقبها شر يسوءك فى غد
 لك الويل من عادعن الرشد مبعده
 وفى الحزم لم تبدأ بأول أبجد
 فياشؤم سيف فى الوغى لم يجرد
 لناداك داعى الحكم غير مرزد
 بصمت وقبل الارتقاء تشهد
 ببغى على عدل العزيز المؤيد
 خلأقه الاحسان كل التعود
 تعيشون أمواتا بزلة أنكده
 وغص بنوكم بالقراح المبرد
 ولا دار من والا كوفى التجمد

(١) البريثين
 يريد بهم جماعة
 الشراكسة

(٢) لذى الداعين
 يريد به راغب باشا

فبغىكمو أبقي عراقيل جنة
فسبروا الى أرض الجزيرة حيثما
وكم سائل هل أخرجوا من ديارنا
فقل في جواب السائلين مؤرخا
سنة ١٣٠٠

٤٢ ٨١٠ ٢٢٦ ١٧٠ ٥٢
وكهفا لاهلها ورغما لحسد
بعادل واجلال ومجد وسودد
سموا لابراهيم بعد محمد
بحزم وتدير ورأى مسدد
فان الخديوى ينتقى كل أفيد
محمد توفيق به الكل يقتدى
سنة ١٣٠٠ ٩٢ ٥٩٦ ٨١ ٧ ٥٢٤

(وقال العلامة البحر الفهامة الشيخ الجليل على أفندى الليثي في ذلك أيضا)

كل حال لضده يتحول
يا فؤادى استرح فما الشأن الا
رب ساع لحفته وهو من
قدر غالب وسر الخفايا
غاية العقل حيرة وعقال
كيف ننسى وحادثات اللبالي
أذهبت أنفسا وغالت نفيسا
كان اقلينا رياض صفاء
من رآه يقول توفيق مصر
قد أمنا الزمان فيه ونمنا
نتهادى في ظل أسنى مليك
فسرت أعين الحوادث فينا
ورأى غيرنا من الحلم أمرا
واذا المرء كان بالوهم يبغي
ويح قوم سعوا لادرالك أمر
ما أصروا عليه الا أضروا

فالزم الصبر اذ عليه المعول
ما به مظهر القضا يتنزل
ظن بالسعى للعلى يتوصل
فوق عقل الأريب مهما يكمل
والليب الذكي من قد تأمل
فاجأتنا بكارث ليس يحمل
وذوى مربع الخطوط وأحمل
فيه للواردين أعذب منهل
أبصر الناس بالأأمور وأعدل
آمنين الخطوب لا تتلمل
من سجاياه كل خير يؤمل
فاطرحنا الوقار والامر أعضل
غره فابتغى الذى لا يحصل
نفيال الظنون ما قد تمحل
دون ادراكه الجبال ترزل
بأناس من نابه أو مغفل

ذاك يسعي على التقية خوفا
 لو أصابوا الرشاد عند ابتداء
 وكفينا معرة أوبقتنا
 آه من رقدة الحلاوم ودهر
 كانت الناس في ظلال نعيم
 مالنا لم نغم بجحد وندعو
 مالنا كلنا سوى القبل منا
 قد تساوى الغبي والمتغابي
 قد جبننا وصاحب الجبن جان
 لورزقنا السداد لانسد باب
 كان ياقصوته المذاب مصونا
 كم غرسنا جاجا وجسوما
 يأتري من يقوم عنا بعذر
 حيث حدثنا عن المليك وخفنا
 حيث لا يرفع البريد شكاة
 حيرة أدهشت أولى اللب حتى
 ذاك سر القضا وليس عجيبا
 غير أنا لما أرقنا أرقنا
 وبسطنا اللسان في ذم قوم
 ومددنا أكف ذل لمولى
 آل مصر بغيره لا تلوذوا
 يا عظيم الجناح يا خير ملك
 من بغى والوغى أثار فيكم
 واجعل العدل عادل الرمح فيهم
 واسقمهم كالذي سقينا إنا
 واغتفر زلة لمن جرمنا
 كم مليك عفا وأنت المفدى
 وامنع الناس من سجاياك عطفا
 فخير بمجد ذات الخديوي
 فابق واستبق من دعاياك قوما
 ان تدقق تدق أعناق ألف
 وسواه يسعي لكما يجمل
 كانت الغاية الجميلة أمثل
 فاستوى شائك السلاح وأعزل
 أيقظتنا صروفه اذ تبدل
 تحتى من ثمار غصن تهذل
 من عدا المهتدى ونصح من ضل
 قد سلكتنا سبيل غاو مضل
 وعليم من جاهل صار أجهل
 وهو بالطبع في الانام مرذل
 وحققا دماء قوم تحلل
 فسقينا به الثرى اذ تهبل
 وجنينا الاسى يزلة من زل
 اذ أطعنا الغواة في كل محفل
 سطوة من عداه والقطر مقفل
 وسلوك السلوك صار معطل
 ما اهتدى للصواب منهم مجمل
 أن يحار الاديب فيه فيذهل
 من شؤون العيون دمعات سلسل
 ان ذكرناهمو نغص ونجمل
 شأنه البر كم عفا وتطول
 اذ هو المبدأ الملاذ لمن زل
 سعه قد آباد من قد تغول
 في طلاء الحسام فالسيف فيصل
 نافذا قد رما يعل وينهل
 قد شربنا من بعد بعدك حنظل
 لبلاد ولا منيع يؤتمل
 فوقهم هممة فلا تتجمل
 واجعل العفو موضع الشكر وامل
 كل فضل وليس للعذر محمل
 أملوا العفو من حبال المسهل
 بل مثين من الالوف تقتل

والرعايا تضيع بين عدو وولى له الفخار المؤئل
 حاش توفيقنا يقصر عما ينشر الصغو في البلاد وينقل
 سيدى لاعدمت شكرا سناه عملا الخافقين ليس يعلل
 لا تكلف جيل طبعك أمرا غير ما فيه فهو لا يتحول
 كان ما قد أساء حلما فلما أصبح الصبح بالسورر تأول
 هذه مصر زينت واستعدت لسعيد الركاب لما تفضل
 وازدهت بالجمال حين تبدى موكب بدره بنور تهلل
 موكب حف بالكواكب زاه من رجال أعزة قد تجل
 كلهم صادق شريف الطوايا نصحهم والخطوب تهل يبذل
 ما رأت مصر يوم بشر كهذا أى يوم بدا أغر محجل
 دمت للدين والدنا خير راع ولعباسك النجيب المؤئل
 ما جرى بالفخار عنك حديث صار بين الملوك بالمدح أكل
 أو أشار الزمان للسعد أرخ الخديوى لمصر يأسعد أقبل
 سنة ١٢٩٩ ٦٦١ ٣٦٠ ١٤٥ ١٣٣

وصل

(فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لأرض الكنانة)

قد كان من وراء ما تقدم من الحوادث والانباء واحتلال الجيوش الانجليزية للقاهرة وبعض الثغور والمدن كالاسكندرية ودمياط والسويس وطنطا والاسمعية أن وقع أمران خطيران في نوعهما وعلمهما حياة البلاد السياسية والاقتصادية في مستقبل الايام .

- الاول - قلب هيئة الحكومة وتغيير عاداتها والتزاماتها القديمة وابطال الكثير من مراسمها المعمول بها من أيام محمد على باشا الكبير واستبدالها بالقوانين والشرائع الثابتة والاحداثات التي تناسب روح العصر وترقى البلاد وأهلها الى ذروة العمران والمدنية .

- والثاني - سلخ الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها مرسحا للقوضى وعيث العائنين من الخوارج الذين هم مدعى المهدوية والمتغنون حوله وقد ذكرنا فيما تقدم كيف كان خروج ذلك وأمر الفتنة وحديث النافخين في ضرامها وكيف تطاير شررها حتى عم تلك الاصقاع شرقا وغربا ثم كيف كان عجز الحكومة يومئذ عن انجاد نارها بسبب الثورة العربية وما جرته على مصر وأهلها من الويل وذهاب القوة والصولة على أنه لم يمض على مقدم اللورد دوفرين رسول الانجليز بمصر أيام حتى عكف على ابتكار الاحداثات وسن النظمات الجديدة آتيا الامور من أبوابها فرسم بانشاء المحاكم الأهلية على هيئة وشكل المحاكم المختلطة بديار مصر وتوسع في نفقتها وساعده على ذلك الوزير

محمد شريف باشا وبطرس غالى باشا لان انشاء هذه المحاكم كانت حاجة فى نفس الوزير منذ أيام الخديوى اسمعيل وأتوا لهذه المحاكم بمجموعة من القضاة البلجيكيين والهولانديين منعاً لتطاول أيدي رجال الدول الكبرى الى وظائفها والاستئثار بها أو كما شاع يومئذ تمهيداً للوصول الى حل عقيدة المحاكم المختلطة واذهاب سلطتها لانها عقبة كؤود فى سبيل بسط الحماية الانجليزية على البلاد واخراجها من تحت نير المراقبة الدولية وقد كنت ممن وقع عليهم الاختيار لوظيفة القضاء بمحكمة المنصورة ثم لرئاسة النيابة العمومية بها فسارت هذه المحاكم سيرا حثيثا واشتدت عزيمته رجالها جميعا بما نالوه من الحرية فى العمل والاستقلال فى الفكر ففرح الناس بها فرحا عظيما وحمدوا دوفرين على صنيعه كما شكروا الوزير محمد شريف باشا على عنايته واستبشروا بحسن المآل * وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب صاحب السياسة الانجليزية وهو يومئذ اللورد جرانفل الى دوفرين سفيرهم بلزوم سلخ سائر الاقطار السودانية عن جسم المملكة المصرية وتركها الى مدعى المهدوية بغير رد ولا معاودة فصعد دوفرين بالامر وكلم الوزير محمد شريف باشا فى ذلك فلم يوافقهم وقال لا يكون هذا الامر وفى عروقي قطرة من الدم فراجعهم دوفرين فلم يقبل فكبر الامر على دوفرين وأعظمه وكلم الخديوى فيما بدا من الوزير من الغلظة والمكابرة ثم أوعز الى مالت قونصلهم بما أوعز فقامت حينئذ بينه وبين الوزير قائمة الاخذ والرد وبدأت علامات الوحشة وجعل مالت يكيد المكاييد والوزير هادئ القلب ساكن اللب لا يزعجه عن عزمه شئ من ذلك ثم اشتد دوفرين فى الطلب وجعل يسد فى وجه الوزير أبواب كل عمل ونافذة كل أمل حتى استغفره وأضاع صبره وتقدم الى الخديوى فى قبول استقالته من منصب الرئاسة فأجاب الخديوى الى ذلك بحضرة الوزراء وقال له أقبلت قيل فالتفت الوزير الى دوفرين وقال انى برى مما سراق من الدماء فى سبيل هذه الغايات الرديئة فولوا الرئاسة من تشاؤون والله من وراء ما تفعلون * قال بعض الكتاب وأشار دوفرين على الخديوى بتقليدها للوزير نوبار باشا فصعد نوبار باشا بالامر ولكنه لم يقدر على المجاهرة بسلخ السودان عن جسم مصر

(مطلب)
اعتزال الوزير
محمد شريف باشا
وتولية الوزير نوبار
باشا

وأعجب الناس بما فعله الوزير محمد شريف باشا وازدادوا تعلافا به واشتدت محبتهم له واندفع أصحاب صحف الاخبار يلتهجون بحمده فجاءت اليه رسائل التهاني تترى من كل فج عبق وزراء أصحاب السياسة من الانجليز والفرنسيين ليعرفوا منه ما خفى من الاسباب وما استعصى عليهم فهمه من مغامرات هذه السياسة وكان ممن زاره عظيم من الانجليز فكتب يومئذ الى احدى صحف اخبارهم يقول * زرت الوزير محمد شريف باشا فى داره بعد اعتزاله للرئاسة فحدثنى طويلا فى جميع الضحايا التى ضحّاها فى سبيل الوفاق مع وكلاء دولتنا بديان مصر لعلهم يقفون عند حد يكون من ورائه الكف عن مشاغبه ثم قال لى وهو يتنفس الصعداء * قد أقسم مالت قونصلكم أن يتركنى وشأنى أنصرف فى العمل حسيما تقتضيه

مصلحة البلاد اذا قبلت الرئاسة ومع ذلك قلما كنا نتأخر عن فعل ما كانت تشير به دولة الانجليز فيما يتعلق بالاصلاحات فقط لا فيما عس وجودنا السياسى الذى يقضى علينا بالمحافظة على الاصقاع السودانية الشرقية والقبلية والا فنكون غير سالكين مسلك الصداقة نحو الامة التى تعتبر ذلك أمرا ضروريا لحياة مصر وراحتها * وليس بخاف أنى كثيرا ما ضحيت بحبة الامة لى وتعلقها بى ارضاء لمطالب الانجليز ومع ذلك فانى أعتبر نفسى غير أهل لمنصبى اذا افتخرت بهذا العمل * أما زعيم السياسة الانجليزية فإنه لم يعمل إلا طيبا لنا نحن معاشر المصريين وتشديده علينا بترك السودان فى أيدي المهدي أكبر برهان على ما أقول لانه من المعلوم أن ترك السودان للمهدي مما يزيد فى قوته ويصيره عزيزا قوى الجانب فاذا بلغ متمناه هذا فماذا تكون يا ترى الوسطة فى ايقاف تيار تلك العوة الثائرة ومن الواضح البين لكل ذى بصيرة أن جعل حدود مصر عند اسوان أو وادى حلفا كما أشار صاحبكم يستلزم وضع جيش من خمسة عشر ألفا الى عشرين ألفا من الجنود ليقى رباطا هنالك فن ياترى يقوم بنفقة هذا الجيش نعم ان الخطر بعيد عنا حتى الآن ولكنكم سترونه قريبا على الابواب ولا أنكر عليك سيدى أن السودان كانت تكلفنا الشئ الكثير من المال غير أنه لاخسارة علينا اذا حافظنا على حدودنا بانفاق زهاء مائتى ألف جنيه وأظنك لا يعزب عليك أن محمد على باشا أدرك فى أيامه أن حماية حدود مصر الاصلية تستلزم ضم أراضى النيل الابيض اليها فسعى فى ذلك وأخضع بقوته تلك الاطراف وجعلها تابعة لديار مصر فنعم ما فعل وهل يصح بعد ذلك أن تترك حكومة متوحشة بربرية على حدود البلاد فتسلبها راحتها وطمأننتها مدى الايام على أن النفقات التى تنفق على اقامة خط دفاعى على النيل الابيض لا تباع جزأ من النفقة التى يستلزمها الدفاع عن وادى حلفا أو اسوان وان خمسة عشر ألفا من المصريين يقومون على حراسة الخرطوم وبربر ودنقله وسنار وعلى ذلك يكون من الخرق فى رأى بل من قلة التبصر تفخيم سكان هذه المدن ومن فيها ونحن مسؤولون عن الذب عن أرواحهم وأموالهم وأعراضهم * قال الراوى ثم أطرق الوزير لحظة ورفع رأسه وقال وماذا تفعلون ياترى أيها الانجليز بدعاة المهدي الذين أقسموا الايمان الغلاط أن يموتوا بحد السيف أو يفتحوا مصر السفلى أما أنا فلم أفهم ما الحامل للانجليز هداهم الله على التنحى عن مقاتلة المهدي واحتلال السودان وما الباعث لهم على معارضتنا فى استرجاع البلاد التى أخذها مدعى المهدوية ولماذا لايسمحون لنا بابقاء النيل الابيض فى حوزتنا كما كان ولماذا لاينطلب من أمير المؤمنين السلطان عبد الحميد النجدة فيمدنا بعشرة آلاف من أبطاله وقد أمددناه مرارا عند حاجته الى ذلك وانى أقول لك الحق انا لو أجلبنا المهدي عن الخرطوم لاتخذت المسألة دورا آخر ولكن قل لى بحقك ما الذى يدعونا نحن الى الانجلاء عن ذلك البلد قبل أن يتقدم لها المهدي بأقوامه وها هو الزير باشا قد أبى الذهاب الى دارفور والآن حيث انى

خلعت نفسي من الرئاسة وما دام أمر الجلاء عن السودان شياً مفزعا ولا يمكن التخلي عنه فلا بد أن حسين باشا ومن معه من العربان لا يتقدمون الى الامام وتفتر عزيمتهم تماما - قال - وفي لا أخفى عنك أنى ناظر الى المسألة من وجهها الحقيقي فلذلك أرانى مشاهدا من بعيد جميع المصاعب التى ترصدنا فان نجاح المهدي أحدث تأثيرا قويا فى عقول أهل البلاد بحيث صار يتعذر علينا انفاذ مآثره حالة كون البلاد بأسرها تضادنا فى ذلك - قال وأنت تعلم أن سقوط هيئة الوزارات عادة لا يكون الا عند مباينة رأى الرئيس لا راء الاعضاء الآخرين ومن تبعهم من أعيان البلاد أما وزارتنا فقد كان سقوطها مسببا عن اتفاقنا فى رأى بشأن عدم ترك السودان نعم انى مع رفاقي سلمنا بجميع ما يمكن التسليم به على أننا قد رأينا أن ترك الخرطوم وبربر ودنقله أمر لا تقوى عليه عزيمتنا وكيف نستطيع ذلك وهى ليست من أملاكنا الخالصة وما نحن الا قائمون بحراسنها بموجب فرمان سلطاني لا يسمح لنا بالتصرف فيها دون رضا الباب العالى وكأني بصاحبكم يزعم أن بقاء السودان فى يدنا ضرب من الجور والظلم فاذا كان الامر كذلك فلما ذا يا ترى جازفنا بانفاق الاموال الطائلة فى ابطال التجارة بالعبيد حتى أغضبنا أهل تلك البلاد وحاربناهم لتوطيد أركان التمدن وتثبيت قدم الانسانية وان كنا قد أنفقنا الاموال الكثيرة فى ذلك فانا والله المنة لم يعاوننا أحد على تحمل أثقال هذه النفقة نعم انى صممت على التسليم بترك كردفان والدارفور ولكننى لم أسلم قط بترك الخرطوم وسوف ترون ما سيكون من وراء سياسة صاحبكم الخرقاء وما ستكبد به البلاد من النفقة الثقيلة لاشئ سوى المحافظة على التخموم فقط ❊ قال الراوى ثم حملنى الى الوزير بعينيه وقال انى أقول لك الحق انى حزنت جدا من جراء حادثة السودان وليكنى لم أضحى وثابت على العمل وأجهدت النفس ما استطعت فلما أيقنت أنى مشرف على هوة عظيمة جرعت ووقفت ثم خلعت نفسي من منصب الرئاسة وكان بؤدى لو يعلم الناس كافة اخلاصى فى الخدمة حتى النهاية ولكن يأبى الله الا ما يريد اه ❊ قلت فكان لمقالة الوزير غاية الوقع فى نفوس أقيال السياسة وأقطابها وتكلم عنها أصحاب صحف الاخبار الاجنبية وعدوها غاية فى الازمنة واسداد بل آية من آيات حسن النظر وأصلالة الرأى وازدخم على باب كبر الكتاب من الانجليز والفرنسيين لاستكباب حقائق أفكاره فكان يحدثهم غير متعيب من عظيم أو كبير

وبينما كانت الظنون تتراعى الى ما سيكون من وراء تولى الوزير نوبار باشا منصب الرئاسة وما سيكون من وراء ترك السودان وغوائل الحرب القائمة من أقصاها الى أقصاها كان زعيم السياسة الانجليزية يتخبط فى الامر ويعمل على سلخ السودان شرقا وجنوبا لأقل الاسباب وأوهى العلل * ثم قدم فى هذه الاثناء الى القاهرة أمير من أمراء سفن الحرب الانجليزية اسمه الاميرال هيوت مبعوثا الى نجاشى الحبشة لعقد وفاق معه على فصل التخموم بين الاملاك المصرية وأملاك السلطنة الحبشية فلبث فى القاهرة أياما ثم سار الى السويس ومنها

(مطلب)
بعثة الاميرال
هيوت الى نجاشى
الحبشة

الى مصوع فوصلها في آخريات جمادى الثانية من السنة أى سنة احدى وثلاثمائة وألف هجرية ثم غادرها ومعه محافظ المدينة وبعض كبار عسكر سفينته يريد لقاء الرأس ألولاً قائد الجيوش الحبشية وكان قد سير أمامه جماعة من العسكر ليخبروه بقدومه وبسبب حضوره وطلبوا تعيين المكان الذى يأذن التجاشى بمقابلته فيه فعادوا وأخبروا بان اللقاء يكون في بلدة عدوة فسار اليها بمن معه من الرجال فلما صاروا على مسافة يومين منها كتب الى التجاشى يعلمه بالغرض من مهمته وبالشروط التى ينبى عليها الاتفاق بين الدولة الانجليزية والحكومة المصرية والمملكة الحبشية ولبت ينتظر الجواب أياما حتى جاءه الخبر من قائد الجيوش الحبشية بأن التجاشى مقيم ببلدة مكه فاذا شاء المسير اليه لاقاه على الرحب والسعة فلم يشأ الاميرال الذهاب الى مكه وسار بمن معه الى عدوة فلما بلغوها لبثوا بها أياما فجاءهم أمير الجيوش بحمل الامر من التجاشى بالمداولة معه فيما جاؤا بضده فوارب الاميرال ولم يمتنع بتاتا وأكثر من الاخذ والرد فيما لا طائل تحته وجاء الخبر بذلك الى التجاشى فلم يحفل به ولم يتحرك الى عدوة وبارح مكه وعرج في طريقه الى دبه ومدرا وغيرهما ثم رجع الى مكه ثانية كل هذا والأمرال ومن معه يتحملون مضض الانتظار حتى قدم الملك عدوة وأذن لهم بمقابلته فدخلوا عليه وسلموه كتب ملكة الانجليز وقدموا له بعض التحف والهدايا * فلما كان اليوم الثانى طلبهم أيضا الى حضرته فقبلوا بين يديه وهو في زيه الملوكى فحادثوه طويلا في أمر المعاهدة وما تتضمنه من الشروط والقيود ثم ودعوه ورحلوا الى مصوع وعادوا الى القاهرة ومعهم ورقة عليها خاتم التجاشى واسم الاميرال وماصون بيل محافظ مصوع قالوا انها هى تلك المعاهدة وانها تتضمن سبعة أمور أهمها منح الحزبة التامة للمملكة الحبشية في نقل جميع البضائع والاسلحة والذخائر من ميناء مصوع تحت حماية الراية الانجليزية ثم اعادة بلاد بونغوس الى المملكة الحبشية مع كسلا وأما ديب وسنيت بما في جميعها من المبانى والاسلحة والذخيرة حين جلاء العساكر المصرية عنها بشرط أن التجاشى يسهل لأولئك العساكر سبل الجلاء * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذ الناس يتسألون عما يراد منها في حين ان تلك البلاد آمنة مطمئنة لاخوف عليها من اغارات العدو فقال قوم انها غلطة من غلطات زعيم السياسة الانجليزية وقال آخرون بل هى آية من آياته يريد بها اضرار نار الفتنة بين الحبشان ومدعى المهدوية عند بسط التجاشى يده على تلك البلاد فتقوم الحرب بين الطرفين ويقتتلان دونها حتى يهلكا كلاهما او يهلك فريق ويضعف الآخر فتلتهم السودان دولة الانجليز لقمة سائغة وتضمه الى ماناته من قبل على أنه لم يكذب بنشر خبر هذا الوفاق وما جره على البلاد من الخزي والعار حتى ظهرت الاشاعة بتعاقد زعيم السياسة الانجليزية مع زعيم السياسة الايطالية على تنازل السلطنة الانجليزية للايطاليان عن مدينة مصوع بعد سلبها من أملاك الحكومة المصرية مع سائر النقط الحربية الواقعة على سواحل البحر الاحمر ما بين عصب ومصوع على شرط أن الجنود

الاطالبية التي تحتلها تقوم بقتال أصحاب المهدوية عند الحاجة فنشط حينئذ أصحاب الصحف
 الاخبار المحلية وجعلوا ينادون بالويل والنبور ويحذرون أصحاب الحل والعقد على الوقوف
 في وجه زعيم تلك السياسة وينذرونهم بالخراب العاجل ان هم ظلوا على هذا الاغضاء
 والتعالي * وكان ممن أشكروا من هذا الصباح والجلبة صاحب جريدة افرنسية اسمها
 البوسفور قاله بالغ في الوقعة بزعم سياسة الانجليز وزاد في الطعن والسباب والخط من
 كرامته حتى استشاط جماعة الانجليز ولم يطبقوا السكوت على ذلك فطلبوا من الوزير نوبار
 باشا انقبض على الرجل وابعاده فلم يقدر الوزير على ذلك ولكنه رسم بالغاء صحيفته واغلاق
 محل تحريرها فبانق قنصل الفرنسي في ذلك ووردت اليه الاخبار من وزير السياسة
 الافرنسية بالمثابة على الممانعة وقطع كل علاقة مع الحكومة ان هي أصرت على ما تبغيه
 من اغلاق مكان صاحب البوسفور فأصبح الوزير نوبار باشا وهو بين منتطح كبشين لايدري
 أى الطرفين أدنى الى السلامة لغضب جماعة الانجليز أم قطع العلاقات مع دولة الفرنسيين
 ثم انه كائما رأى الثاني أهون الشرين فأوعز باغلاق المحل فرحل القنصل في الحال عن القاهرة
 الى الاسكندرية وأعلن قطع كل علاقة مع الحكومة ولبث ينتظر ما يأتيه من زعيم سياستهم
 وقد اشتغلت الحواطر بهذا الامر ولم يبق للناس حديث سواه وهم بين مستضعف لدولة
 الفرنسيين وشامت بها فكان بعضهم يقول لو أن فرنسا أظهرت هذا الخرم والعزم يوم كانت
 مراكب حربها أمام طوابي الاسكندرية فلم ترض بانسحابها صاغرة ذليلة لما حاق
 بقومها والناظرين في بوقها ما حاق بهم اليوم من الذل والهوان وقال آخرون هذا جزاء
 ما فعلته بنا من التعرير حتى أصبحنا واياها على ما ترى من الضيم والحيف والجزاء من
 جنس العمل وقد كثرت الأخذ والرد حينئذ بين وزير السياسة الانجليزية ووزير سياسة
 فرنسا ونوبار باشا ونسي جماعة الانجليز أوتناسوا أنهم النافخون في ضرام هاته الفتنة
 فجعلوا يسعون بين المتخاصمين ويصلحون ذات الين كائما لم يكن لهم يد فيها وطالت المخاطرة
 في ذلك أياما والانباء تأتي في كل يوم الى القاهرة أشكالا وألوانا * واتفق أن جاء في
 هذه الاثناء الى ميناء الاسكندرية بعض سفن الحرب الافرنسية فطاش عند رؤيتها جماعة
 الفرنسيين وبالغوا في الاحتفاء عن جاء فيها من كبار الجنود ومقدمي العسكر وهب أصحاب
 صحف أخبارهم مما كانوا فيه من نحول وأخذوا يفصلون خبر مجيء تلك السفن
 ويظهرونه في مظهر العداء والوعيد حتى خيل للناس أن قد قامت الحرب على أبواب القاهرة
 وبينما هم على هذه الحال اذ انجلت المخافة عن حصول الاتفاق بين الفرنسيين والوزير نوبار
 باشا على أن تعود جريدة البوسفور الى الظهور وأن يذهب الوزير نوبار باشا الى دار قنصل
 الفرنسيين بكسوة التشریف معتذرا عما وقع فعاد حينئذ القنصل من الاسكندرية الى
 القاهرة ومعه أمير تلك السفن الحربية وبعض كبار عسكره فلما كان اليوم الثالث بعد
 عودتهم زارهم الوزير بكسوة التشریف فقابلوه هم كذلك فابتدروهم بعبارات الاعتذار

والمصالحة فأجابوه بتلطف وفتحت بعد ظهر ذلك اليوم أبواب محل الجريدة فعادت الأمور إلى سابق مجراها وبطل حينئذ القيل والقال بهذا الشأن وانتقل حديث الناس من ذلك إلى سبب رحيل فتس جرالد أحد رجال الانجليز الذي تولى إدارة أعمال حسابات الحكومة وخزينة حينما فقلب نظامها وغير قواعدها القديمة بمعاونة بلوم باشا الذي تولى وكالة الخزينة على عهد الخديوي اسمعيل ولهذا الرجل وخلعه من منصب الوكالة حديث طويل كله أحاجي ومعميات قد ضربنا صفحا عن ذكره هنا * رحل فتس جرالد هذا في تاسع عشر رجب من السنة أى سنة اثنتين وثلاثمائة وألف هجرية فلم تكن الا أيام حتى جاء بدله آخر اسمه ويستلاند فلم تطل أيامه وانقلب راجعا قالوا لانه رأى في أعمال حسابات الخزينة من الخلل والخلط ما لم يوافق عليه وقد كان من رأيه إعادة شكل الحسابات القديم الذي كان على عهد رؤساء كتاب الخزينة من أهل البلاد وكان من همه منذ حضر إلى القاهرة من ديار الهند الانجليزية البحث والتنقيب لمعرفة ما كانت عليه هيئة الحسابات قبل أن يتولاها الانجليز وبعد أن تولوها وظل على هذه الحال أياما حتى اذا ما همّ بارجاع شكلها إلى ما كان عليه مانعه في ذلك جماعة الانجليز فلم يسعه الا التخلي عن منصبه مفضلا الرجوع إلى وظيفته في ديار الهند على البقاء مقيدا بعمل لا يرضاه نفسه فحمدته الناس على ذلك بقاء بدلا منه آخر يدعى پلر فسار على خطة فتس جرالد وزاد فيها توسعا وبالغ في الاكراه على العمل بها حتى عمت سائر دواوين الحكومة وأبطل من قواعد الحسابات القديمة ما لم يتمكن فتس جرالد من ابطاله إلى يوم رحيله عن البلاد وما زالت طريقة فتس جرالد هذه مرمية إلى هذا اليوم

ومن الحوادث الجوية الغريبة التي وقعت في ليلة الحادى والعشرين من صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلاثمائة وألف هجرية أنه انفجر بعد العشاء الاولى في السماء ضوء حتى ملأ الجو ثم ظهرت بعده في السماء نيازك وجعلت تتساقط ركاما كأنها سهام ترمى في أعقاب الشمس حتى خيل للناظر أن الحرب في السماء قامت على قدم تنفجر نيازكها انفجار نار المدافع وان لم يسمع لها دوى يخاف العامة كثيرا وترامحوا وهم يولولون ويصفون بالطيف ياخفي الاطاف وصعدوا إلى أسطح البيوت وصاروا يعجبون ويبتهلون إلى الله تعالى وكانت النساء يبكين والاطفال يصرخون بأصوات الخوف وعذرتهم في ذلك مقبول اذ هم لم يسمعوا بل لم يروا من قبل هذا الحادث الغريب وكان المنظر في تلك الليلة غاية في الغرابة فلم يبق طرف الا مد اليه ولا نظر الا تعلق عليه وكانت نجمة الزهرة في تلك الليلة أشبه بالمنارة الدائرة على نفسها ينقبض نورها حتى لا تكاد تميز عن سائر صغار النجوم ثم لا تلبث أن تنبسط فتعود إلى حالها ونورها الزاهر واستمرت على حالتها تلك برهة طويلة والنيازك بين ذلك متتابعة متواصلة كأنها أوراق الشجر تتساقط متناثرة ثم بطلت وسكنت خواطر الخلق وأصبحوا وهم يرجفون بوقوع الحوادث المهمة وحدث الخطوب المدلهمة

(مطلب)
اهتمام دولة الانجليز
باعطاء الخزينة
قرضا فلم تفلح

وكانت الى هذا الحين قد أمحلت خزينة البلاد وتولى العجز مواردها وكثرت عليها المطالب والمغارم كثرة بالغلة فهتمت دولة الانجليز باقراض الخزينة قرضا يقوم بسد احتياجاتها فعارضها في ذلك وزير سياسة الفرنسيين وقال ان الحكومة المصرية مرتبطة بعهود ومخالفات دوايمة لا يصح معها انفراد الانجليز بهذا العمل فضلا عن أن البلاد مازالت تحت سيادة السلطان عبد الحميد فلا يصح لها أن تستدين الا باذنه **❦** قال بعض الكتاب وقد كان وزير الفرنسيين يريد بذلك غل يد الانجليز في مصر واطهار عجزهم عن سد حاجاتها حتى لا يعتبر احتلالهم اياها لازما لا بد منه ولكن خاب ظنه وطاش سهمه اذ مالبت الانجليز ان سعوا لدى السلطان ورجال المايين حتى جاء فرمان السلطان بعدم المانع من الاقتراض لوفاء مطالب الخزينة المترتبة على الحوادث التي حدثت فتم للانجليز عمل ذلك القرض فراجت الاعمال وزالت المصاعب فنشط الوزير نوبار باشا حينئذ الى مخبرة زعيم السياسة الانجليزية في صعوبة جعل وادي حلفا حدا فاصلا بين السودان ومصر وعدم موافقة ذلك لمصلحة البلاد وقد كان زعيم السياسة المشار اليه رسم بذلك لاصحابه وأشار بالتجميل فقال الوزير نوبار باشا ان طمأنينة البلاد لا تتم الا اذا صارت مديرية دنقلة غاية تخومها لا وادي حلفا لتمكن من السيادة على النيل - قال - ولما كان ذلك يستلزم ارسال حملة اليها بعد جلاء العساكر الانجليزية عنها فهو يرى أن تعهد هذه الحملة الى الحكومة المصرية بحيث ينجند عسكريا كامل العدد والعدد يتولى قيادته رجل مصري خبير بأحوال السودان وان هذه الوساطة أقرب من سواها الى الوصول الى أحسن النتائج فضلا عن أن النفقة التي تلزم لذلك ستكون طفيفة بالنسبة للنفقات الجسيمة التي يقتضيها تجريد حملة الانجليزية وانه ينبغي أن نقاتل السود بنفس أسلحتهم واذا تحقق خبر موت المهدي كان الأمر أيسر وكانت العقوبة أسلم والمبادرة بالحرب أوجب وألزم فلما علم صاحب سياسة الانجليز بمقالة الوزير أرسل اليه يقول اترك كل شيء على ما هو عليه الآن حتى يفد عليك رسولنا درومند ولف . وكان لما خلع الوزير محمد شريف باشا نفسه من مسند الرئاسة بسبب تصميمه على عدم التخلي عن السودان وتركها لمدعي المهديوية وأخذت أقلام الكتاب يومئذ تقرع صاحب السياسة الانجليزية بأشد ما يكون من التقريع عند الى شيء من المواربة نسكينا للفتنة وأرسل كتبه الى السلطان يعلم بما عزم عليه السلطنة الانجليزية من ارسال رسول ينوب عنها في التعاقد مع الباب العالي على ما فيه المصلحة لديار مصر والسودان في مستقبل الايام * فلم تكن الا أيام بعد ذلك حتى سار الى الاستانة عظيم من الانجليز اسمه السير درومند واف يحمل الامر بابابته عن السلطنة الانجليزية في عقد ذلك الاتفاق فأكرم السلطان وفادته وأحسن لقاءه فأخذ يغدو ويروح على الباب العالي تارة والمباين الهمايوني أخرى أياما لم يتعد الكلام فيها تعيين القاعدة اللازمة لمواذ ذلك الاتفاق وكان الكلام بين الفريقين غاية في المواربة والتعقيد * وبينهما على هذه الحال اذ قامت الفتنة في اماره

(مطلب)
بعثة السير درومند
ولف الى دار السلطنة
العثمانية

البلغار وظهر أهلها ومن ولى الإمارة عليها يطالبون بالاستقلال والخروج من تابعة الدولة العثمانية ١٢ قال بعض المكاتب ويقال ان دولة الانجليز هي التي أغرتهم على فعل ذلك وجرتهم الى التطاهر في تلك الأيام بما يوجب فشيل الدولة العثمانية واضطراب أمورها عساها تتساهل مع رسواها ولف فتنازل منها ما تمناه فتعطت الخبارة بين ولف واباب العالي ووقفت عند حد الانتظار واشتدت الفتنة البلغارية وتطاوت أيدي رجالها الى العبث بحقوق السلطنة العثمانية واستخفوا بها فحش أميرها الجيوش وأعد المعدات وسير الرسل الى الدول الكبرى يستفرضها الى انصرته فطافوا الممالك وأكثروا من الشكوى وعظموا البلوى فن الدول من مناهم بالاماني البعيدة ومنها من حضهم على طاعة السلطان وملازمة السكون وطالت الأيام على مبعوث الانجليز وهو ينتظر في دار السلطنة العثمانية فما سيكون من وراء تلك الفتنة عسى أن يكون من ورائها مغنم لهم فلم يقع شئ من ذلك وتلاشت الفتنة على أيسر ما يكون وعادت الامور الى سابق مجراها وبعد أخذ ورد ما بين ولف والباب العالي وسفراء الدول الكبرى وقع الاتفاق على أن يرسل السلطان مبعوثا من قبله الى ديار مصر مع ولف مبعوث الانجليز فيكون مندوب السلطان هو الاول ومندوب الانجليز هو الثاني ويكون مع كل من الاثنين بعض الموظفين والمأمورين ليساعدوه على قضاء ما موريته بحيث ان هذه الرسالة لا تتناول الا البحث في أحوال خزينة البلاد وأمورها الادارية والعسكرية مع اصلاح ما يمكن اصلاحه وعلى المندوبين أن يرفعا تقريرا بما يريانه مشتملا على تفصيلات المسائل بابا فبابا ووصل ولف الاسكندرية فقبول بغاية التجلية والتعظيم وسارت خلفه وأمامه الفرسان من الانجليز والمصريين الى محطة السكة الحديد فلما وصل القاهرة بالغ الخديوي في الاحتفاء به فقد كان في انتظاره على المحطة ذو الفقار باشا كبير التشريفات وجميع النظار ومحافظ المدينة وقائد عموم جيش الاحتلال وبعض مقدمي العسكر وكوكبة من الركبان والمشاة ثم زاره الخديوي وكبار الدولة والامراء كافة ولبث ينتظر قدوم المبعوث السلطاني وهو يجتمع في كل يوم بعظماء أهل البلاد ولا سيما من كان منهم له علاقة بالسودان ومعرفة بأحوالها * وبينما هم يترقبون قدوم مبعوث السلطان اذ جاء الخبر الى ديوان الخديوي بالإحسان من الخليفة على الخديوي بنيشان الامتياز العالي وأنه قد أرسل النيشان على يد الفريق محمد باشا وآخر اسمه خيرى بيلك فوصل الى الاسكندرية وقدم منها الى القاهرة وسارا من محطة السكة الحديد في موكب حافل حتى أنزلوهما بقصر النزهة من ضواحي القاهرة فباتا ليلتهما وأصبحا فسارا الى مقر الخديوي بعابدين ولبثا بحضرته برهة لطيفة ثم عاديا الى قصر النزهة * فلما كان اليوم اثنى عشر من الشهر دخل على الخديوي كبار الدولة وأصحاب الوظائف العالية فهنؤوه وأطلقوا لذلك عدة مدافع من قلعة الجبل وفي عصر اليوم سار الخديوي الى قصر النزهة حيث الوفد العثماني فسلم عليهما وجلس معهما برهة لطيفة ثم عاد الى مقره وأقام رجال الوفد بعد ذلك أياما ثم بارحا الديار الى الاستانة

(مطلب)
قاعدة الاتفاق
الذي رامت الدولة
الانجليزية عقده
مع السلطان

وجاء البريد من دار السلطنة في ثاني عشرى صفر من السنة أى سنة ثلاث وثلاثمائة وألف يحمل صورة الوفاق الذى تم ما بين دولة الانجليزية والباب العالي بشأن مأمورية السير درومند ولف مبعوث الانجليزية وسعيد باشا ناظر خارجية السلطنة العثمانية والامور التي سيجرىها في مصر بالاشتراك مع الغازي مختار باشا مبعوث السلطان فكانت كما يأتي بنصه

لما كانت جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلانده وامبراطورة الهند تفقت مع جلالة السلطان على ارسال معتمدين فوق العادة الى مصر لاجل تنظيم الشؤون المصرية قررا أن يعقد بينهما وفاق وعينا لهذه الغاية معتمدين مخصصين وهما المحترم السير هنرى درومند ولف من أعضاء المجلس الخاص حامل نيشان شوفاليه غران كرواه من صنف سان ميشيل وسان جورج ونيشان شوفاليه كومندور من صنف بين وأحد أعضاء البرلمان الانجليزي ومعتمد الدولة الانجليزية ووزيرها المرخص لدى جلالة السلطان بمأمورية خصوصية تتعلق بالكثير بشؤون مصر من قبل جلالة ملكة بريطانيا العظمى وايرلانده وامبراطورة الهند ودولتو محمد سعيد باشا وزير الخارجية العثمانية الحامل النيشان الاول المرصع والنيشان المجيدى الاول من قبل جلالة السلطان وبعد أن تبادل الاطلاع على أوراق تعيينهما الرسمية ووجداهما صحيحة توافقا على المواد الآتية المبنية على سائر الفرمانات الشاهانية المرعية

المادة الاولى - يرسل كل من جلالة ملكة بريطانيا العظمى وجلالة السلطان معتمدا ساميا الى مصر

المادة الثانية - يبحث المعتمد السامى العثمانى بالاتحاد مع سمو الخديوى أو مع المعتمد الذى يعينه سموه فى أصلح الوسائل الممكن الوصول اليها لانجاد ثورة السودان بطريق سلمية ويوقف المعتمد السامى العثمانى وسمو الخديوى المعتمد الانجليزي السامى على سير المخابرات . ولما كانت الاحتياطات التى سنقرر متعلقة بتسوية شؤون مصر العمومية اقتضى اعتمادها وتنفيذها بالاتحاد مع المعتمد الانجليزي السامى

المادة الثالثة - ينظم المعتمدان الساميان الجيش المصرى بالاتحاد مع سمو الخديوى

المادة الرابعة - يفحص المندوبان الساميان بالاتحاد مع سمو الخديوى جميع فروع الادارات المصرية ولهم أن يعدلوا فيها ما يستصوبون طبقا للفرمانات الشاهانية

المادة الخامسة - تصدق الحكومة العثمانية على جميع العهود الدولية التى أبرمها سمو الخديوى بشرط أن لا تكون مغايرة للامتيازات المخولة لسموه بمقتضى الفرمانات الشاهانية

المادة السادسة - عقيب أن يتأكد المعتمدان الساميان حصول الامن على التخوم وتوطيد الحكومة المصرية يقدم كل منهما تقريرا الى حكومته وعندئذ تبحث الحكومتان فى عقد وفاق يتقرر فيه جلاء العساكر الانجليزية عن مصر فى أجل مناسب

المادة السابعة - يصدق على هذا الوفاق وبصير تبادل النسختين المصدق عليهما في الاستانة في خلال خمسة عشر يوما أو أقل اذا أمكن

وبناء على ذلك وقع المعتمدان المرخصان على هذا الوفاق وذيلاه بطغرائهما ٥١

وبينما كان المبعوث الانجليزي ورجال الحل والعقد في مصر يراقبون حضور مبعوث السلطان وأهل البلاد يرجون النفع من وراء هذه النهضة اذ جاء الخبر من عامل الخديوى على مصوع بأن الجيوش الايطالية التي كانت ضاربة حول البلد قد دخلتها وأحاطت بأما كن ودواوين الحكومة. وطلبت من محافظ البلد الجلاء العاجل عنها بمن معه من المرابطين وتسليم القلاع والحصون الى قائد الايطاليان فانع المحافظ في ذلك وقال انه لا يفعل حتى يأتبه الامر من الخديوى فشدد قائد الايطاليان في الطلب وأغلظ في القول وهدد المحافظ باطلاق القنابل من مدافع السفن على الحصون حتى يدمرها ان هو أصر على الامتناع فلم يسع المحافظ الا الانسحاب بمن معه من الجند وبارح البلد وانحدر الى سوا كن فلما ساع خبر هذا الحادث هاج الناس وماجوا وطاف نساء وذراى الضباط وأصحاب الوظائف الذين بمصوع يتسألون عما جرى لرجالهم وهم في ولولة وضجة واجتمع الوزراء كافة وبينهم الخديوى وتكلموا في الامر طويلا ثم اتفقوا بعد جدال على أن يحتجوا على عمل دولة ايطاليا هذا ويرفعوا الامر الى الباب العالي ليرى رأيه فيه مع سفراء الدول الكبرى بدار السلطنة وظنوا أن الغازى مختار باشا لا يفسد الى مصر الا ومعه علم ما كان وما سيكون من أمر هذه المحن المتتابعة * فلما كان ثانى عشر ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية وصلت السفينة عز الدين احدى البواخر السلطانية تقل الغازى مختار باشا بمبعوث السلطان فقابلته الوزير نوبار باشا وسائر النظار وذو الفقار باشا كبير التشريفات فى أبهة وجلالة وأطلقت المدافع لقدمومه من قلاع وحصون الاسكندرية وكان فى انتظاره العدد العديد من العلماء والوجهاء وأعيان البلد فبعد أن سلموا عليه جميعا بات ليلته تلك بالسفينة وأصبح فسار بمن معه من رجال الوفد ونسائه وخدمه وأتباعه الى محطة السكة الحديد فحملهم القطار الى القاهرة وكان فى انتظاره الامراء والكبراء والعلماء والوجهاء فسار بين صفوف الجند وأصوات المدافع الى سراى الاسمعية التى أعدها لتزوله ولم يستقر به المقام حتى زاره المبعوث الانجليزي ولبث بحضرته برهة لطيفة وكذلك زاره العلماء والوجهاء وأصحاب الوظائف على اختلاف طبقاتهم ثم زار الخديوى فى ثانى يوم ولبث معه برهة وعاد الى مقره فرد له الخديوى الزيارة وهو فى مكعب التشریف ثم بعد أيام قلائل جعل الغازى يوالى الاجتماع بمبعوث الانجليز ويتكلمان فى أمر الاصلاح وفى أوجهة وأسبابه وظلا على هذه الحال أياما * وجلسا يوما يتكلمان فقال الغازى لواف لا أخفى عليك ان حالة البلاد الآن داعية الى تجهيش جيش مناسب تسلم قيادته لقواد من أهل الخبرة والتجربة من المسلمين ايمتولى ارجاع الامور فى الديار السودانية الى سابق مجراها والزحف على بلادها كلما

(مطلب)

تعدى العساكر
الايطالية على
مصوع واحتلالها
عنوة وما جرى

سحبت الفرص فقال ولف ان الاتفاق مع أمير المؤمنين مبنى على اتخاذ الوسائل السلمية
لاعلى تجنيد الجنود وتسليح العساكر وارسالها لقتال العدو فقال الغازى نعم انى لم أعود أن
أروى غير الحقيقة وقد يمكن أن يكون مولاي الخليفة يظن ذلك فعلى أن أرفع الى سدة
الملوكانية ما أراه الآن من استحالة ارجاع الامور الى ما كانت عليه بالوسائل السلمية مالم
تعضدها قوة عسكرية فقال ولف ومن أين المال للنفقة فقال الغازى ان شئت دولة الانجليز
مساعدتنا فالامر هين والنفقة متيسرة وما عليها الا أن تعطينا ما تأخذه من خزينة البلاد
نفقة على جيشها المحتل الآن مصر * قال محمدى فسكت عند ذلك السير ولف وأطرق
لحظة ثم رفع رأسه وقال سأ كتب بهذا القول الى صاحب سياستنا وأنتظر الجواب فاذا
جاءنى اجتمعنا وتناقشنا فى الامر

واتفق فى هذه الاثناء أن تقدمت طائفة من العربان وجماعة من الدراويش أنصار
المهدى الى مواقع العساكر المصرية والانجليزية الضاربة على الحدود فعاثوا فى ذلك الصعيد
فقامت عليهم العساكر وضربتهم ومزقت جمعهم وتأثرتهم فاسترجعت منهم عدة مواقع
وكثيرا من القرى والبلدان الصغيرة وما زالت تطاردهم وتعمل فى أقفيتهم السيف حتى صارت
على أبواب دنقله ووردت الانباء بذلك الى القاهرة من عاصمة الانجليز لامن الحدود ففرح
الناس فرحا عظيما ونعلقت آمالهم بقرب دخول العساكر المصرية دنقله وارجاعها الى
حوزة الحكومة وجعلها مقرا للحركات العسكرية ووردت رسائل التهاني على الخديوى من كل
فج عميق فلم تكن الأيام حتى جاء الامر من اللورد سلسبورى زعيم السياسة الانجليزية الى
الجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية بالحدود أن ردوا المقاتلين كافة عن دنقله
وأرجعوه الى الحدود قبل فراجع الجنرال استيفنسون فى ذلك فلم يقبل وشدد فى
ارجاعهم فالتحدروا الى مواقعهم الاصلية وتركوا ما كان بأيديهم من تلك المعازل والمراكز
فعاد اليها العربان وتقوّوا فيها وترسوا وجعلوا يراقبون الفرصة لاعادة الكرة على الحدود
وانجدر الجنرال استيفنسون الى القاهرة فشعر الناس بما وراء ذلك من مكنون السياسة
الانجليزية وأكثر أصحاب الصحف المحلية من الكلام على سوء الأثر المترتب على هذه
السياسة وعلى بقاء العساكر الانجليزية فى الحدود من الاضطراب ودوام القلق وان الحال
يحتاج الى غير ذلك * ولم يشغلهم عن هذه الجلبة الا ما وقع لقنصل جنرال الفرنسيس ووكيلهم
السياسى بمصر وذلك انه قد جاء فى هذه الاثناء عظيم من الفرنسيس اسمه الكونت روفى لتولى
منصب الوكالة السياسية بمصر فلما وصل القاهرة تحدد يوم لقبوله فى الموكب المعتاد واستلام
الاوراق المؤذنة بتعيينه فى هذا المنصب على الطريقة المألوفة فلما حل الاجل المضروب
لذلك وتمثل القنصل بين يدي الخديوى بملابس الزينة والتشريف وسلمه تلك الاوراق وألقى
عليه حديث المودة وعلائق المحبة الكائنة بين حكومة مصر ودولة الفرنسيس لم تطلق المدافع
لذلك من قلعة الجبل كالمسبح فى مثل هذا الاحتفال وانفضت الحفلة على غير سنتها المألوفة

(مطلب)

ما وقع الى الكونت

روفى ووكيل

الفرنسيس السياسى

بمصر واعتذار

الوزير اليه وهو

بكسوة التشريف

ونزل القنصل الى داره وفي قلبه ما فيه لاسيما وان المتولين أمر قلعة الجبل واطلاق مدافعها في هذه الحفلات الرسمية هم جماعة الانجليز فاستقر بالقنصل المعام في داره حتى كتب الى الوزير نوبار باشا يقيم الحجة ضد ما وقع ويطلب الترضية العاجلة فانزعج الوزير أي انزعاج ورسم الخديوي باطلاق المدافع في اليوم الثاني استرضاء للقنصل وتطميناً لحاظه فلم يقبل وقال لابد من الترضية بأن يأتي الى دارى رئيس التشريفات بكسوة التشريف ويعتذر عما فرط فتطلق عند ذلك المدافع ثانية وبأن يأتي كذلك الوزير نوبار باشا بملابس التشريف وتطلق المدافع ففعلاً وأطلقت المدافع ثانية وثالثة * واندفع أصحاب صحف الفرنسيين ينادون بالويل والثبور على جماعة الانجليز بمصر وشاركهم في ذلك أصحاب الصحف المحلية فاهتم السير ولف مبعوث الانجليز بالامر وخاف أن يكون من وراء ذلك فشل مأموريته فسار الى دارقنصل جنرال الفرنسيين ومعه قائد الجيوش الانجليزية قبل واعتذرا وتلطفا في المقال فطلب القنصل عندئذ نشر بيان جميع ما جرى بالجريدة الرسمية فأجابا طلبه وأشار ولف على الوزير نوبار باشا بالتعجيل في ذلك ففعل وزال الخلاف فعادت الامور الى سابق مجراها * وعاد ولف الى الاجتماع بالغازي مختار باشا والمكالمة في شؤون البلاد وحاجاتها وفي قواعد الاصلاح الواجب ادخالها في سائر دواوين الحكومة وفي تنظيم الجيش على النمط الذي يمكن معه اعادة الكرة على دنقله ثم استرجاع البلاد السودانية الى الطاعة وندويحها وارسال رسول من قبل الخديوي الى وادى حلفا للخبرة مع زعماء القبائل رجاء الوصول الى تقرير قاعدة للصلح معهم وظلا على هذه الحال أياما وجاء الطلب من عاصمة الانجليز الى السير افلنج بارنج قنصل جنرالهم فتأهب للسفر وقد رتب متاعه وزار الوزير نوبار باشا وبقية الوزراء وقناصل الدول فشيع الخبر يومئذ بخلاعه من منصبه وأنه لايعود اليه الا اذا عاد ولف الى بلاده نظراً بما يرجونه من بعثته فتحدث الناس في ذلك كثيراً وقالوا ان استدعاءه في هذه الظروف الحرجة وافراغه من كل عمل يدلان على وقوع شئ من النفور بينه وبين السير ولف أو أن يكون نداء الوزير نوبار باشا المتتابع بطلب خلع القنصل المشار اليه قد أفلق صاحب السياسة الانجليزية ومال به الى استدعاء القنصل وقالوا غير ذلك أيضاً فسار القنصل من القاهرة وغاب عنها حيناً ثم جاءها وقد أعلاوا منزلته وأكبروا منصبه وسموه وكيلهم السياسى بديار مصر فذهبت تلك الفنون أدراج لرياح وتم له ماأراد في منصبه من النجاح والفلاح

وجاء الخبر بعيد ذلك بقليل بعزم صاحب السياسة الانجليزية على ارسال غردون الذى هو غردون باشا الى السودان لاسترجاع من بها من العساكر والجنود وغيرهم ممن يشاء الجلاء عنها ثم لم يئز الا أيام حتى جاء الطلب في أخريات شهر صفر من صاحب السياسة المشار اليه بتولية غردون الولاية العامة على السودان واعطائه السلطة المطلقة فيها فأبلغ السير بربنج هذا الطلب الى الخديوي والوزير نوبار باشا فدهشا واضطربا وما نعا في ذلك كثيراً فلم يقبل

السيربارنج وصعد بالامر ثم لم تكن الا أيام أخر حتى وصل غردون الى القاهرة في آخر ربيع الاول من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف واجتمع بالسيربارنج فأُسِرَ اليه بارنج بكل ما قضت به سياستهم في أصقاع السودان ولم يتصل أحد يومئذ الى معرفة ما الذى تنويه الهيئته الحاكمة ولا ما اذا كانت شاركت السيربارنج في آرائه أولا * ولم يطل غردون مكثه بالقاهرة بل غادرها فشيعة الوري نوبار باشا وسائر الوزراء والسيربارنج والعديد من مقدمى العساكر الانجليزية ولم يأخذ غردون معه فى ذلك اليوم جندا ولا كراعا ولا حشما ولا أتباعا سوى وعاء للملابسه ورحل الى الخرطوم كانغا هو ذاهب الى داره للقاء أم أولاده فتأمل

قال صاحب كتاب السودان فلما وصل كروسكو كتب كتابا الى المهدي وأرسل معه هدية من نوع الهدايا التى تقدم الى مشايخ الاعراب كالبنش وغيره وخوى الكتاب اننى أعترف بك سلطانا على السودان الغربى كله فأنت مطلق التصرف فى أقاليمه التى هى كردفان ودارفور * قلت وهذه هى سياسة الوزير محمد شريف باشا التى مات شهيدها - قال - واننى لما بلغنى ما أصاب أهل السودان من سفك الدماء وتوالى الحروب خافنى غم شديد ولذا قد انتدبتنى جلالة ملكة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند والبا على السودان وصدقت على ذلك الحضرة الفخيمة الخديوية واننى من صميم قواذى أرغب توثيق عرى العلاقات الودادية بينى وبين سلطنتكم وأرجو أن تسمحوا باعادة المواصلات التلغرافية وأنظن أن أدوات التلغراف قد أتلفت فى غضون تلك الخطوب ولهذا أصدرت الاوامر الى مركز الحكمدارية بأن يعطىكم كل ما تطلبونه من تلك الادوات وأن يستقبل رسولكم كما يستقبل أعظم سفير وقد داخلى الحزن الشديد لما علمت بقفل طرق السودان الشرقى مما حال بين المسلمين وبين مكة المكرمة التى يقصدونها فى كل عام لأداء فريضة الحج وزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام فهيا بنا لفتح هذا الطريق والقاء السلاح وتشديد أركان الراحة وتوطيد دعائم السلام اه

ووصلت الاخبار الى الخرطوم بمقدم غردون وولايته العامة على السودان ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وأملوا النجاة على يديه فوردت عليه رسائل التهانى من كل صوب فأرسل الى أهل الخرطوم يعلمهم بتركه المتأخر من الضرائب والاموال وخراج ثلاث سنوات مستقبلية وبترك جميع السودان الغربى الى مدعى المهدوية واعتباره منفصلا عن الخديوية المصرية وأن حكومة جلالة ملكة الانجليزية التى منحت المهدي هذا السلطان الواسع * وسير كذلك الى حسين سرى باشا باعتزال منصب وكالة الولاية فاعتزله صاغرا وأقام بدله رجلا من الانجليز اسمه الكولونيل برى كوتلجف - قال - وكان هذا الرجل قد حضر الى الخرطوم فى مهمة سرية من قبل زعيم السياسة الانجليزية قبل مقدم غردون بكثير . ورسم غردون بتولية آخرين بعض الوظائف العالية ثم انه رحل عن كروسكو الى بربر فلاقاه مديرها ومعه أعيان البلد

وأصحاب الوظائف الدوائية خفضهم على الولاء والاخلاص وقال قد تركت لكم سائر المتأخر من الاموال الاميرية وتجاوزت عن خراج ثلاث سنوات مستقبلة وقد أبحث لكم الاتجار في الرقيق وأبطلت كل مرسوم يخالف ذلك ثم أهدهم بعض الهدايا النفيسة والتحف الغالية وسار عنهم قاصدا الخرطوم فكان يرى من الاهالي في طريقه عين المقت والقليل اذ كانوا يسبونهم ويكثرون من شتمه ويقولون في وجهه قد زالت دولتكم يا كفار ﴿ قال الراوى فاندش غردون من ذلك وأكبره جدا وكاد يتحقق عدم فلاحه وخيبته في هذه البعثة الا أنه تجلد واستعان بالصبر الى أن وصل الخرطوم فجمع الاعيان والعلماء والوجهاء والمشايخ وتلا عليهم فرمان الولاية * ثم جعل يقول للناس يا أهل السودان جميعا ان الخديوى يسلم عليكم صغيرا وكبيرا أحرارا وعبيدا انا وذكورا وكذلك جلالة الملكة فيكتورية ملكة دولة بريطانيا العظمى وامبراطورة الهند * وانكم لا تجهلون شفقتى عليكم ومحبتى لكم وقد ساءنى ما سمعته عنكم لما قامت بينكم الحرب وتعطلت تجارتكم وسفكت دماؤكم ومنعتم من تأدية فريضة الحج التى هى من أركان الاسلام ومن زيارة قبر النبي عليه السلام وقد ساء ذلك كلا من جلالة الملكة وسمو الخديوى المعظم فانتدبت من قبل حكومة جلالة الملكة لاكون واليا على السودان ومريضا فوق العادة وقد صار فصل السودان فصلا تاما وتوض الى الحكم المطلق عليه وقد خابرت حضرة السيد محمد احمد المهدي بكنه مأموريته واعترفت له بالسلطة المطلقة على السودان الغربى برمته بشرط أن لا يجد يده لغيره * وقد أبطلت جميع الاوامر المانعة من الاتجار فى الرقيق وتجاوزت عن جميع المتأخر من الضرائب لغاية سنة ثلاث وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية وتجاوزت أيضا عن خراج ثلاث سنوات منذ أول سنة أربع وثمانين وأمرت بأحراق دفاتر المتأخرات وباطلاق جميع المسجونين على اختلاف جرائمهم وتنوع جناباتهم وقد عزمت منذ الآن أن لا أجعل أعضاء حكومتى الا من الوطنيين حيث اننى أود تشكيل حكومة وطنية ليحكم السودان نفسه بنفسه وقد عينت عوض الكريم أبا سن مديرا للخرطوم وأحسنيت عليه برتبة الباشوية ولى الامل بأن العلائق ستصبح بينى وبين سلطان الغرب « يعنى المهدي » وثيقة العرى وقد أمرت منذ اليوم بفتح أبواب الحصون وتخريبها وسحب الجنود منها لكي تتفرغوا الى عمارة بلادكم وحرث أراضيكم وانماء تجارتكم ومنى عليكم السلام اه

قال صاحب كتاب السودان وكان أهل الخرطوم يسمعون هذا الكلام وأعينهم تذرف الدمع حزنا واشفاقا لانهم كانوا يعلمون أن دوام الحال من المحال وأن مدعى المهدوية سوف يصدر عليهم بخيله ورجله فلا عهد ينفع ولا حنان غردون يدفع * فدخل جماعة العلماء والوجهاء على غردون وقالوا لانا نموت موتا ان أنت ألتفت شيئا من الحصون والقلاع فان المهدي لا يلتفت الى شئ مما دعونه اليه ولا يرده عنا الا عسكر جرار وهاهم طوائف العربان الضاربون حولنا متحفزون لاوثية علينا والايقاع بنا فلم يلتفت غردون الى قولهم ولم يحفل به

فلم تمض على ذلك أيام حتى جاء الخبر الى الخرطوم بفشل حملة الجنرال جراهام وقتل جل رجالها * وكانت هذه الحملة قد سارت من القاهرة الى شرقى السودان لتمهد الطريق الى غردون في مقاصده فلما شاع خبر اندحارها وانحان رجال المهدي فيها اشتد الخوف عن هم في الخرطوم وأكبروا المصيبة وانزعج غردون وجعل يتدبر فيما عساه أن يكون اذا امتنع المهدي عليه وهاجت جوعه الخرطوم وأخذ من يومه يطوف الحصون والقلاع ويتعهد المعاقل التي كان أشار في مقالاته بفتح أبوابها وتخريبها وسحب من بها من العسكر وبث العيون لتأتى له بأخبار العدو من كل صوب وحذب فكانوا يتخبطون في القول ولا يصدقون في الرواية حتى ضعفت منه الآمال واختلطت عليه الاحوال

واعلم أن ذهاب غردون الى الخرطوم في هذه الظروف المحفوفة بأكبر الاخطار وأعظم المكاره واندفاع أصحاب السياسة الانجليزية وراء هذه الغاية ليس من الهنات الهيئات ولا هو من المجازفة أو عى البصيرة في شئ وانما هي أعمال تشف عن عزم ثابت قوى ونية معقودة على أمر لا يقبل المراجعة وهذه النية كانت تكنها صدور أصحاب تلك السياسة من عهد محمد على باشا الكبير بل ومن قبله على عهد مراد بيك وعلى بيك الكبير فكانوا كلما لاجت لهمم بارقة أمل تتبعوها أو فرصة انتهزوها حتى أيام الخديوى اسمعيل الذى بش لهم وفتح لهم الابواب مرحبا فوجدوها آمين وخفض لهم جناح الطاعة فتربعوا في مناصب الرئاسة وتصرفوا في موارد ايراد البلاد وما زالوا يعملون على بلوغ الغاية تارة ببذل المال وأخرى بدهاء الرجال وتارة باستعمال الضغط والتشديد وطورا بالوعد والوعيد الى أن أتاح لهم القدر المقدور ظهور فتنة صاحب المهدوية ثم اشتداد الثورة العربية فأصبحت حكومة البلاد وهي أشغل من ذات التحمين فمضوا حينئذ الى اظهار ما تكنه الصدور وسبوا غردون هذا الى الخرطوم على ما وصفنا وهم يقدرون له السلامة في الحل والترحال ويرجون على يديه بلوغ سلطتهم غاية الآمال * ولاجل أن لا يفوت القارئ معرفة بعض الشئ من ضروب هذه السياسة الحازمة نذكر في فصل آت شأ مما جرى من أقيال هؤلاء القوم في السودان على عهد الخديوى اسمعيل والله سبحانه من وراء كل عمل

فصل

(فيما كان من دوائر جبال سياسة الانجليز على عهد الخديوى اسمعيل)

لما فتح محمد على باشا السودان ودوخ مدنها وبلدانها شرقا وغربا وملأها بعسكره وجنوده جنوبا وأنشأ عاصمتها الجديدة التي هي مدينة الخرطوم وقد كانت قاعدتها يومئذ مدينة واد مدني الواقعة على شاطئ النيل الازرق جعل يولى عليها الولاية والممال بعد ولاية الدفتردار العامة فكان جلهم على ما قاله بعض الكتاب من يحسنون التدبير عارفين بمحاجات

البلاد بعيدين عن الجور والاعتساف فلما مات محمد علي باشا وجاءت أولاده من بعده كان أكثر أعمالهم أفرارا كثيरी الجور والظلم مبالين الى أخذ ما بأيدي الناس مع غلظة وتجبر وكان آخر من تولاها على عهد محمد سعيد باشا سنة أربع وسبعين ومائتين وألف هجرية حسين سلامه بيك

قال صاحب كتاب السودان كان نعم الرجل عادلا شفوفا على الرعية وكان يسمى يومئذ مدير عموم قبلى وبحرى السودان وبقي الرجل وبقيت الولاية بهذا الاسم حتى تولى الملك الخديوى اسمعيل بفعل تبدل ويغير في الولاة وليس بينهم من تحمد أيامه أو تشكر أحلامه الى أن تولاها جعفر باشا المعروف بالصغير فكان رجلا عادلا شفوفا بارا بالرعية عارفا بحاجة البلاد وأهلها فأقام ما شاء الخديوى ثم عزل وخلفه عدة من الولاة على التعاقب فكان آخرهم قبل غردون الانجليز اسمعيل أيوب باشا وفي أيامه بلغت سلطة الخديوى في تلك الانحاء أوجها وامت كلمته أرجاء السودان شرقا وغربا وجنوبا اذ تابعت غزوات عسكره وأوغلت في أقاصى البلاد طلبا للزيد من الفتح فكان أصحاب سياسة الانجليز وأقطاب القوم منهم ينظرون الى فعالة بعين السخط ويحسبون لها حسابا كبيرا وجعلوا يعملون على ما تقتضيه مصلحتهم ويتدبرون لمستقبل الايام فأرسلوا الكشاف والرواد من طريق الزنجبار ورأس الرجاء بعضهم في زى المبشرين بالنصرانية وبعضهم باسم علماء الآثار وأصحاب علم طبقات الارض فلم يتم لهم ما أرادوا فعمدوا الى الحيلة والتدبير وجاءوا الخديوى اسمعيل من أقرب المسالك وأحبها اليه فزينوا له المزيد من فتح تلك الاصقاع واستكشاف مجاهل خط الاستواء وما في جوف أرضه من معادن الذهب والفضة والحديد والفحم وما زالوا به حتى ظفروا منه ببغيتهم وساعدتهم على ذلك ما كان فيه يومئذ من التورط في الدين لأصحاب الاموال من الانجليز والفرنسيين ثم انهم سيروا اليه رجلا من أقبالهم العارفين بمناحى سياستهم ومراعى غايتهم اسمه السير صمويل بيكر فتلقيه الخديوى على الرحب والسعة فأقام بالقاهرة أياما وكان قد أتى معه من ديار الانجليز بشئ من الهدايا والتحف برسم زعماء قبائل السودان ومشايخ أهلها وأدلاء دروبها ومسالكها وهى أصناف من الخرز والجلود المصبوغة والفراء والقبعات الجمر والأساور والاقراط والخواتم والقلائد من الصفر والاحذية وشقق الكنان والخناجر والسكاكين والشئ الكثير من الألعاب الاطفال كالاكر والمزامير والصفافير والعصى والسيماط فاستحب كل ذلك وبارح القاهرة على بحل ومبارح سائرا حتى تغلغل في جوف السودان وأوغل في مجاهل خط الاستواء فبحث ونقب ورواد الطرق واستكشف المسالك واستمال بعض زعماء القوم وعرف الشئ الكثير من طبائعهم وعاداتهم وما يميلون اليه وما ينفرون منه قيل وعاهد بعضهم على الولاء والاخلاص للسلطنة الانجليزية وعاهدتهم على ما لم تصل اليها معرفته وبعد أن لبث بتلك الاصقاع ماشاء هو أو ماشاء صاحب سياسة الانجليز قفل راجعا الى قومه بسلام فلم تكن الا فترة بعد ذلك

حتى أخذ قنصل جنرال الانجليز بالقاهرة يصبح الخديوى وبمسيه في طلب معاهدة دولة الانجليز على منع الاتجار في الرقيق وقطع شأفة النخاسة من أرجاء السودان المصرى فكان الخديوى يماطل ويحاول والفنصل لا ينفك عن الطلب ولا ينتهى له عزم دون نوال هذا الأرب حتى فاز وغلب وتم التعاقد على شروط أقل ما فيها من الحيف أن صار لامراء سفن الحرب الانجليزية تمام السيطرة على سائر السفن والشوانى الحاملة للراية المصرية بالبحر الاحمر وحق التفتيش عليها وضبط ما يوجد بها من الاماء والعبيد وتحريرهم ومصادرة كل ما كان بها من مال ومتاع ومعاقبة أصحابها بالعقوبات الشديدة * فلما شاع خبر هذه المعاهدة أخذت أصحاب صحف الاخبار الانجليزية نشوة الفرح فتهللوا وأيقنوا بالفوز والغلبة ونحن المصريين لاهون عما سيكون من وراء ذلك في مستقبل الايام * ثم رسم الخديوى الى عماله بالسودان أن يعملوا بنصوص تلك المعاهدة وأن لا يخالفوا شياً من أحكامها فصدعوا بالامر وذاع خبرها في البلاد شرقا وغربا وجنوبا فلم تكن الا أيام حتى ظهرت على وجوه السود علامات الوحشة والانقباض وبدأت اشارات الخروج أو كادت ووقفوا في وجه أصحاب الجباية الذين عم شرهم يومئذ وثقل نيرهم على الاهلين لان القوم رأوا أن منع المتاجرة في الرقيق مصيبة كبرى لان هذا الاتجار معين ثروة كبيرة لهم فضلا عن أن أهل السودان لم يتعودوا خدمة الارض بأيديهم ولا خدمة ماشيتهم بل ان نساءهم فلما يؤدين شياً من الخدمات البيئية وكل اعتمادهم في زرع الارض وتربية الماشية والخدمة البيئية انما هو على أولئك الاماء والعبيد

ولما تم للانجليز ما أرادوا من أمر تلك المعاهدة أو عزوا الى فصلهم يومئذ أن كلم الخديوى في ارسال رجل منهم الى مجاهل خط الاستواء مرة ثانية ليحيى ما اندرس من معالم المدنية التي كان وضع أساسها في تلك الانحاء السير صمويل بيكر ولكي يقطع شأفة الاتجار بالعبيد ويستد المسالك على القوافل التي تقوم بالنخاسة ففعل الفنصل وأكثر من ملازمة باب الخديوى اسمعيل والخديوى لا يجهل ما وراء ذلك فكان يطاول ويعنى الفنصل بالمواعيد والفنصل لا ينكف عن الطلب حتى أدعن الخديوى فأتوا له برجل من كبار عسكريهم اسمه الكولونيل غردون « وهو غردون هذا الذي نحن بصدد الكلام عليه » فرسم له الخديوى بالولاية على سواحل البحر الاحمر التي هي شرقي السودان المصرى فتولاها حينئذ وكان له لم يطب له المقام هناك أو كأن لم يحسن في عيني زعيم السياسة الانجليزية أن يرى سلطة صاحبهم وتعاليمه لا تتجاوز شرقي السودان فوردت حينئذ كتبه على الخديوى بطلب تولية غردون الولاية العامة على خط الاستواء وما يليه * وكانت الديون الى هذا الحين قد أثقلت = اهل الخرينة وأحلتها فأصبحت وهي بين أيدي أصحاب الديون من جماعة الانجليز والفرنسيس كالريشة في مهب الرياح فيمكن الخديوى ببذل في مرضاة أصحاب سياسة الدولتين كل مرتخص وغال عساهم يدفعون عنه بعض ما يعايبه من جور الدائنين فلم يربدا

يومئذ من اجابة طلب صاحب سياسة الانجليز ورسم الى غردون بالولاية على خط الاستواء في آخريات سنة تسعين ومائتين وألف هجرية أى سنة أربع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية فسار غردون الى الخرطوم على الطائر الميمون فتلقيه اسمعيل أيوب باشا والى السودان يومئذ وبالغ في اكرامه وأطلق المدافع اجلالا لقدمه وأنزله على الرحب والسعة بالقصر المعروف بقصر راسخ بيك فلبث به أياما ثم سار بمن أخذه من العساكر والجنود الى فشوده ومنها الى منزلة سبت التي هي أول بلاد خط الاستواء شمالا فأمر ببناء القلاع والحصون فيها وحفر خندقا عظيما وجعلها مقرا لحكومته الجديدة ثم رحل عنها بعد أيام الى جبل الرجاف وكندكور التي كانت مقرا لاستاذة السير صمويل بيكر من قبله وما زال ينتقل من مكان الى مكان ويأخذ العهود على من يلتقي بهم من زعماء القبائل والمشايخ ويقيم الولاية والحكام من صغار ضباط الجند ومن كانوا في خدمة صمويل بيكر حتى قامت في وجهه قبائل العبيد وقاتلت عسكره قتالا عنيفا وما رالت تقاتلهم حتى هزمتهم العساكر شر هزيمة وأخضعتهم بغير عهد ولا ذمة وظل غردون يحجوب البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى نزل على بلاد الملك أمبته صاحب بلاد مرولى فعمد الى ضم بلاده الواسعة الى فتوحاته وهم بذلك ثم علم بأن الرجل يدين بدين النصرانية وقد اعتنقها على يدى المبشرين الانجليز الذين قدموا عليه من ناحية الزنجبار فانكف عن غزو بلاده وجعل مرولى خاتمة فتوحاته

(مطلب)

انحدار غردون بعد ذلك الى القاهرة

فلما كانت سنة أربع وتسعين ومائتين وألف هجرية انحدار غردون الى القاهرة وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما ثم رح القاهرة الى ديار الانجليز فلم يستقر به المقام حتى شاع الخبر وسطرته صحف الانجليز بتوليته الولاية العامة على جميع السودان المصرى شرقا وغربا وجنوبا قيل فاندش الخديوى ورجال دولته لانهم لم يكونوا يعرفون عن ذلك شيئا البتة ولم تقض الا أيام حتى عاد غردون الى القاهرة فى هيبة وجلالة ودخل على الخديوى فسلمه الخديوى فرمان لولاية بيده مكرها فسار غردون الى الخرطوم ودخلها فى ضجة عظيمة فدقت لمقدمه البشائر وطير الخبر بولايته الى الآفاق بجاء مشايخ وزعماء القبائل نفع عليهم الخلع من الأكسية والفرجيات من الجوخ الاجر وشقق الحرير وبالغ فى اكرامهم وفرق بعض التحف والهدايا على جماعة العلماء والوجهاء والاعيان وبعض أصحاب الوظائف فانطلقت ألسنتهم يومئذ بالدعاء له اذ كانوا لم يروا شيئا من ذلك البتة على يد أحد من كبار الولاية قبل جعفر باشا الصغير * وكانت ولاية غردون على سائر السودان المصرى ولاية عامة فأطلق الخديوى يده وصرفه فى سائر الامور ❶ قال بعض الكتاب وهي محنة أخرى قد نزلت على هامة البلاد من سماء عاصمة الانجليز وفتنة كبرى لا يعلم بعاقبتها الا الحكيم العزيز فان غردون ما لبث أن ربيع فى دست الولاية حتى وردت الكتب منه تباعا على الخديوى فلم يكن الا شهر أو بعض الشهر حتى جاءه أمر الخديوى بضم سائر بلاد خط الاستواء الى ولايته فرتب لها الحكام وعين جباة الاموال وسلم مقاليد المهمات الى جماعة

من الانجليز والالمان والاميركان والitalيان ونفر من أهل البلاد كادريس بن أبترو وغيره ممن كانوا سيارة يتجرون في الاماء والعبيد والريش وسن القيل وأطلق لهم الكلمة حتى تصرفوا في سائر الأمور فعملوا لغير ما تقتضيه مصلحة البلاد وبالعوا في منع الاتجار بالرقيق وصادروا التجار في أموالهم وأرزاقهم وضيقوا عليهم سبل الاتجار وقفلوا في وجههم أبواب الكسب * واستكتب غردون يومئذ رجلا اسمه التهاى بك وجعله كاتم أسرارهم فتمكن التهاى هذا من قلب غردون وأخذ بجمع لبه فكان لا يأتى أمرا الا بإشارته ولا يعمل عملا الا برأيه قال صاحب كتاب السودان وكان ذلك الرجل من شر الرجال وأخبثهم نية وأفسدهم طوية فسلك بغردون مسلكا نفر منه القلوب وحرأ في صدور أهل البلاد كامن الحقد عليه وكان تشديد الحكام لا سيما من الانجليز والitalيان في منع الاتجار بالرقيق وتحرير كل من علموا بوجودهم عند ساداتهم من أهم الأسباب التي دفعت بأهل السودان الى شق عصا الطاعة كما سيأتى بيان ذلك في محله * اذ كان الناس هناك يحسبون أن تحرير مواليتهم وخروجهم من حوزتهم على يد أولئك الاجانب اضطهاد ديني من النصرانية للإسلام وكان شيوخهم وعلمائهم يؤيدون لهم ذلك بالدلة المقبولة والشواهد المعقولة حتى أصبحت عندهم حقيقة لاشك فيها فكانوا يخفون ما بقلوبهم من نار التأم والحقد على عمال الحكومة ويرقبون كل سانحة حتى ظهر محمد أحمد مدعى المهديوية وأيقظ الفتنة الراقدة فهبوا جميعا لنصرته ولما على الفور دعوته وبايعوه على الطاعة والجهاد ضد أولئك القوم الكافرين فلما انتشرت دعوته أو كادت عاشره حتى الذين كانوا ينكرونها عليه وقالوا عاهدناك سواء صدقت في دعوائك أو كذبت ما بقيت على عدا هذه الدولة الجائرة ومحاربتها * وقد بقي هذا السر مكتوما والدعاة يجوبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى قامت الفتنة بين الحبشة ومصر على يد غردون بأسباب تحديد الخوم بين المملكتين وكان غردون هو البادئ بعاداة النجاشي والاستخفاف بشأنه استغضبا له وتكبيرا للفتنة فلم يطق الخديوى اسمعيل الصبر يومئذ على ذلك خوفا من استفحال الخطب واضطرار نار الفتنة بين البلدين لاسيما وقد كانت دولتا الانجليز والفرنسيس في ذلك الحين تشدان عليه التمسك بسبب كثرة الديون وتضييقان عليه الخناق بالبحث والتنقيب في موارد ومصارف البلاد وتشيران من طرف خفي الى أن خلعه من مسنده هو من الهنات الهيئات * وكان قد آنس من غردون أيضا الميل الى الاستبداد بأمر السودان فاستقدمه على عجل فدخل غردون القاهرة في آخريات سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية مستقيلا من منصبه فأقاله الخديوى ورسم الى محمد رؤوف باشا بالولاية بدله فسار رؤوف باشا الى الخرطوم فلم يصلها الا ودعوة المهدي قد استفحل شأنها اذ كان قد بايعه أهل الحلوين والخلق العظيم من القبائل الضاربة حول جزيرة آبا وبينهم قبيلتنا دقيم وكنانه المعروفتان باسم البقارة لكثرة ماشيتهم والقوم من أهل القوة والبأس والصبر في الحروب وعاهده كذلك عظيم من السود من ذوى الوظائف الديوانية على موافاته

بالآخبار والتف حوله زعماء الثلاثة آلاف من العربان كل هذا ورجال الحكومة لاهون
 عنه أوهم مغضون لا يريدون كشف أسرارهم ولا ذكراً شئ من أمرهم حتى وردت الرسائل
 ترى على رؤوف باشا من بعض أعداء المهدي يعيرون فيها الحكومة على ذلك الأعضاء
 ويلومونها على تركها الرجل يعمل على إيقاد نار الفتنة وشق عصا الطاعة حتى ظهرت كلمته
 كل هذا الظهور فأرسل رؤوف باشا الكتب بذلك إلى مدير فشيده وهو يومئذ الطبيب بيك
 ورسم له بالقبض على ذلك الخارجى فصعد بالامر وسار إلى آبا في نفر من الجنود وكبس
 الخارجى في مقره وأمسكه حياً وزجه في السجن أياماً ۞ قال صاحب كتاب السودان حتى
 جاء بعض أتباعه ومريديه ورشوا الطبيب فأطلق لهم سراحه واستقدم الواشين وهددهم
 وتوعدهم أن هم عادوا إلى الشكوى ثم أنه فضل راجعاً إلى فشيده * أما الخارجى فإنه
 ما أفلت من السجن حتى زاد غروره وكبرت فحته فأرسل الكتب إلى سائر من عاهدتهم يقول
 في مطلعها بعد البسملة والحمد لله أنه قد جاءني النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة ومعه
 الخلفاء الراشدون والاقطاب والخضر عليه السلام وأمسك بيدي صلى الله عليه وسلم وأجلسني
 على كرسيه وقال لي أنت المهدي المنتظر من شك في مهدويتك فقد كفر وإن الترتك كفر
 وهم أشد الناس كفراً لأنهم ساعون في إطفاء نور الله وبأي الله إلا أن يتم نوره ولو كره
 الكافرون وأخبرني صلى الله عليه وسلم بأن النصر سيبرين يدي أربعين ميلاً وأنه صلى الله
 عليه وسلم يحضر بذاته الكريمة أمام جيشي ومعه الخلفاء الراشدون وأن الله تعالى أبدى
 بالاولياء والشهداء والصالحين من عهد آدم عليه السلام إلى زماننا هذا وأن مؤمنى الجن
 يجاهدون معي ولا يهزم لي جيش وأن الله ناصرى ومؤيدى على كل من حاربني من الثقليين
 وأن أصحابي كأصحابه صلى الله عليه وسلم وعامتهم أكبر مقاماً في دار الخلد من الشيخ
 عبد القادر الحلى ۞ قال صاحب كتاب السودان وهو شيخه الذى نهاه عن الخروج في هذه
 البدعة ثم طرده - قال وأرسل نسخاً عديدة من هذا المنشور إلى أناس في الخرطوم منهم
 الشيخ الأمين الضرب رئيس العلماء بالسودان وهذا أطلع عليه رؤوف باشا فرسم الباشا إلى
 أبى السعود بيك العقاد أحد معاونيه بالسفر وأحبه بجماعة من الدنقليين المقيمين بالخرطوم
 وأنفذهم رسلاً إليه يعنى إلى الخارجى يدعوهم إلى الطاعة ويخبرونه عاقبة الفتنة ويبلغونه
 أمر الوالى بدعوته إلى الحضور لديه فذهبوا على الباشرة الفاشر ولما وصلوا إلى جزيرة آبا
 قابلهم كل من فيها بالتكبير على الكفار وكان الخارجى يتعبد في سرداب في الأرض فامتنع
 عن مقابلتهم أولاً ثم أذن لهم بالدخول فدخلوا عليه وسيوف أصحابه مسلولة على رأسه
 فسألوه عن دعواه فأجابهم بمعنى ما في منشوره فقال له أبو السعود بيك إن الوالى يدعو
 إلى الحضور لديه فقال لا أذهب فقال يا سيدي أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر
 منكم فقبض المهدي على سيف كان على نغذه الأيسر وكسر عن أنيابه وقال أنا ولي الأمر
 الآن على سائر الانس والجان فاستأذن الرسل بالانصراف فأذن لهم وهم الناس بالانصراف

بهم لولا أنه شدد عليهم في الكف عنهم وقفوا راجعين الى الخرطوم
وعلم اللاتفون حول الخارجى من المريدن والاروايش بخبر رسل الوالى وما جرى لهم
نفاذوا شر العاقبة وأيقنوا أن الحرب قائمة لاحالة وأن لا قبل لدعى المهدوية على الوقوف
في وجه العسكر المصرى فتفرقوا عنه وتركوه مع نفر من أقاربه وخواص مريديه من الدناقلة
وهؤلاء أيضا كانوا يتوقعون القتال في كل يوم * ووصل رسل الوالى الى الخرطوم وأخبروا بما
جرى لهم فسير الوالى طائفة من العسكر ومعهم مدفع لقتال ذلك الخارجى ومن معه والاتبان
به حيا نفرجوا في أخريات رمضان من سنة سبع وتسعين ومائتين وألف قاصدين جزيرة آبا
فوصلوها قبيل الغروب وكان الوقت صيفا والامطار نهطل غزيرة والأحوال غلا الطرقات فلم
يتم نزولهم من السفن التى كانت تحملهم حتى اختلف الضابطان اللذان كانا يتوردان هذه
الرحلة على من منهما يتولى الرئاسة واشتد بينهما الخلاف حتى باتوا جميعا في مكانهم تلك الليلة
بعد أن وضعوا أجالهم والتموا حولها فعلم الخارجى بخبرهم وبث حولهم العيون وهم نيام
لا يشعرون وما زال يراقبهم بمن معه من المقاتلة حتى ما بعد نصف الليل فانقض عليهم حينئذ
وأعمل فيهم السيف فلم يفلت منهم الا بضع نفر منهم أبو السعود بيك وغنم الخارجى جميع
متاعهم وكراعهم وسائر ما كان معهم وعاد أبو السعود وأخبر بما جرى فم حينئذ الخوف
وذاع خبر هزيمة العسكر في أكثر البلاد السودانية فجعل التجار من الاجانب والاهلين
يرحلون من المدن والغرى ويأتون الى الخرطوم وأسيوط والقاهرة وغيرها وارتبك رؤوف
باشا وتخير في أمره وكأنما كان يعتقد سرا بصحة مهدوية ذلك الخارجى فلم يأت شيئا من
الحزم أو حسن التدبير سوى أنه أرسل طائفة أخرى من الجند لحصار جزيرة آبا وأرسل الى
مدير كردفان في طلب النجدة العاجلة وكان المهدي لما ظفر بالعساكر المصرية في تلك
الواقعة حسب ما وراء ذلك فجمع اليه أصحابه وقال لهم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يأمرني أن نعمل العج « قال صاحب كتاب السودان هو نوع يشبه الفلين لطفته وطفوه
فوق الماء » مراكب لتعبر بها النيل الى الجانب الغربى وان الله تعالى سيأخذ على ناصية
الترك الكفار فلا يقدر على ابطال الاذى اليها حتى يبلغ مأمننا من الجانب الغربى ومن
هناك نتوجه الى دار هجرتنا بجبال ماسه وقدير وهى دار هجرة الانبياء كلهم الانبياء محمد
صلى الله عليه وسلم ففرح أصحابه بذلك وعملوا شيئا كثيرا من تلك المراكب وعبروا النيل
فلم بأذن رؤوف باشا لقائد العسكر الذين كانوا يحاصرون الجزيرة بتدمير تلك المراكب وكأنما
كان يعمل في ذلك الحين بمشورة ججز باشا الالماني وكيل الولاية وهو تلميذ غردون في سياسة
السودان وغرس نعمته فما استقر الخارجى بالجانب الغربى حتى جاءته رجالة دقيم وكنانة
والتفوا حوله وبايعوه على السمع والطاعة والجهاد في سبيل الله ثم قدموا له الاقوات ﷺ قال
صاحب كتاب السودان وكانت البيعة هكذا بايعنا الله ورسوله وبايعناك على طاعة الله وأن
لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى بهتاننا نفترقه ولا نعصيك في أمر معروف ونهين عن منكر بايعناك

على زهد الدنيا وتركها وان لانفر من الجهاد رغبة فيما عند الله اه
 وكان الذين يابيعوه في ذلك اليوم زهاء عشرة آلاف مقاتل مدججين بالرماح والسيوف
 الهندية وبينهم جماعة من الفرسان ثم ساروا معه الى جبال ماسه وقدير فعارضهم قبائل
 النوبة الساكنة هناك وقتلوههم اياما كانت الحرب فيها سجالا ثم حلت الهزيمة بأهل الجبال
 فأذعنوا وأطاعوا فتركهم ومربجبال تقلى فلم يتمكن من اخضاع أهلها لانهم أصحاب بأس
 وقوة في الحروب وشاع الخبر بما جرى حتى بلغ كردفان فقويت عقيدة أهلها في مهدويته
 وتآقت نفوسهم الى نصرته وتحققوا خلاصهم على يده من ذل الولاة والحكام فهرعوا الى قدير
 ليابيعوه ﴿ قال صاحب كتاب السودان وفد عليه زعيم قبيلة الحوازمة الذين هم البقارة
 وزعيم قبيلة القدييات وكل منهما في مائتي فارس من أشجع فرسان قومهم وأصبرهم على
 القتال فأحسن لقاءهم فبابيعوه على السمع والطاعة * قيل وقال له زعيم قبيلة الحوازمة
 أبايعك على المهدوية وان لم تكن مهديا أبايعك على قتال الحكومة وخلع طاعتها فتقوت
 بهؤلاء القوم عزيمة الخارجى وأنصاره ووقعت مهابته في قلوب أهل الجبال المجاورة فكان
 اذا تحرك جماعة منهم الى قتاله نزل عليهم وهزمهم شر هزيمة * وفي هذه الاثناء كان قد
 خلع السلطان الخديوى اسمعيل من مسند الخديوية وتولاها ولده محمد توفيق باشا وكان ما
 كان من ظهور الثورة العرابية وعجز الحكومة يومئذ عن قطع شأفة الفتنة المهدوية فلما
 كانت سنة تسع وتسعين ومائتين وألف هجرية جاء الامر الى رؤوف باشا بالتخلى عن الولاية
 فاعتزلها وسلم مقاليدها الى جبار باشا وكيلها وسافر من فوره الى القاهرة يريد لقاء عبد القادر
 باشا الذى تولى الولاية العامة بدله فجعل جبار يتصرف فى الامور كما يشاء وأرسل يوسف
 باشا حسن الشلابى فى جيش ضخم لقتال المهدي فظفر به المهدي وقتل بعساكره فتكا
 ذريعا وأخذ جميع ما كان معهم من متاع وسلاح ودواب للعمل فعظمت بذلك قوة الخارجى
 واشتدت ظهور أصحابه وكثرت لمومه وعمت بيعته سائر الاصقاع السودانية أو كادت فتآقت
 نفسه الى التشبه بالخلفاء الراشدين وترتيب أصحابه وأنصاره على طريقة المجاهدين فى أيام
 عمر بن الخطاب ﴿ قال صاحب كتاب السودان وكان الذين يعتمد عليهم فى سائر أموره
 خمسة أولهم الخليفة عبد الله التعايشى فعقد له لواء أسود على جميع المقاتلين معه من
 قبائل السودان الغربى ولقبه بخليفة الصديق والثانى الخليفة على بن محمد حلوه وعقد له
 لواء أخضر على المقاتلين من القبائل التى تسكن ضفتى النيل الابيض والجبال الواقعة حول
 جبل قدير ولقبه الخليفة الفاروق والثالث ابن عمه الخليفة محمد شريف بن حامد وجعله
 مقدما على سائر من معه من أهالى الخرطوم وبربر ودنقله وسنار ولقبه بخليفة الكرار
 وجعل الزعامة العامة لآخيه محمد عبدالله ولقبه بأمر الجيوش المهدوية وولى رجلا اسمه
 أحمد بن سليمان من قبيلة المحس أمانة بيت المال فكان أحد هذا من أقرب المقربين
 اليه وأصدقهم فى طاعته وأحفظهم لسره وأطلعهم على سائر عوراته - قال وهؤلاء هم

الخمسة الذين كانوا موضع ثقته اه ٥ وما ذاع خبر انتصار أصحاب الخارجي على جيش الحكومة بين أهل البلاد حتى خرج على عمال الحكومة وأصحاب الجباية كل من في قلبه مرض وكالوا لهم بالكييل الوافي وزحف رجل اسمه عامر بن المكاشفي في لموم كثيرة على سنار فقاتل من بها وفجها عنوة وأخفش في القتل والنهب وسبي النساء والذراى وجاء الخبر الى جمل فقام من الخرطوم في نفر من العسكر يريد اللحاق بابن المكاشفي واجلاءه عن سنار فسمع الصائح في طريقه بخروج آخر اسمه الشريف أحمد طه ووقوفه في لموم كثيرة بين الخرطوم وسنار فترص بن معه وأرسل اليه بدعوه الى الطاعة فلم يذعن بل قتل الرسول فسير اليه جماعة من العسكر فقاتلوه وهزموه شرهزيمة وتبعوه حتى قتلوه ثم انقلب بجمل بن معه من العساكر الى سنار فأنقذها وشتت شمل من كان حولها من لموم المكاشفي وكان ابن المكاشفي قد مات قبل وصول جمل بجراح أصابته عند دخوله سنار

(مطلب)

وصول عبد القادر
باشا الى الخرطوم

وبينما كان أهل الخرطوم في خوف ما عليه من مزيد وهم يتوقعون قتل العدو بهم في كل لحظة من الزمان نخلو البلد من المراطين وانتشار أهل الفساد وقطاع الطرق حوله وعدم وجود من يحسن التدبير عند ميسر الحاجة اذ جاءهم عبد القادر باشا في نفر من الخدم والاتباع والكتاب فلم يستقر به المقام حتى طاف البلد وعلم ما يحتاج اليه من أسباب الدفاع فرتب العسس للحراسة في الليل وجمع من العبيد عسكرا لحراسة النهار والدفاع عند الحاجة وحصن البلد تحصينا منيعا وخندق عليه وأوقف الحرس على الابراج فذهب الخوف من قلوب الناس وانتشر الامن حول البلد وخاف أهل الشقاوة وانكمشوا ثم أرسل في طلب المراطين عند حدود بلاد الحبشة بخاؤا فعهد اليهم بحراسة بعض المواقع والابواب * وكان اذ ذاك قد التهب جوف السودان المصري جميعه بنار الفتنة وعمت دعوة المهدي سائر تلك الاطراف وخرج من كان باقيا على الطاعة وكترت المذابح في كل صوب وحذب ٥ قال صاحب كتاب السودان فكان لا شئ أيسر من أن يهب كل من في قلبه مرض الى الخروج وشق عصا الطاعة فتلطف حوله اللوم من أهل حلقته على أسرع ما يكون بسيوفهم ورماحهم ومؤتتهم طلبا للجهاد وغزو الكفار فيسير بهم حينئذ الى الخارجي في جبل قدير فيوليه الخلافة ويأخذ عليه العهد بما شاء ثم يرجع بن معه ويقفون في طريق الجنود ويقاؤونهم أو يطاردونهم أو يهاجون مراكرهم مستفتين مستبسلين والدعاة يجوبون البلاد شرقا وغربا وشمالا وجنوبا يدعون القبائل الى طاعة الخارجي حتى لم تبقى قبيلة الا استجدوا بها ولا بيت الا طرقتوا بابها * وجاء الخبر سرا الى عبد القادر باشا بعزم الخارجي على ترك جبل قدير والزحف على الابيض لبقائها على ولاء الحكومة الخديوية ووجود المراطين من العسكر المصري بها ٥ قال صاحب كتاب السودان وكان زحف المهدي الى الابيض بدعوة من تجار كردفان والحاح منهم فجعل عبد القادر باشا يتأهب للقاءه بالابيض وينظم التجهيزات ويعد المعدات على قلة من عسكره وكان يخشى أن المهدي

إذا انحدر إلى كردفان سيردعانه حول الخرطوم فيحرضون الناس على الخروج وشق عصا الطاعة فيشتغل بن معه من الجند بارجاعهم ويتعذر عليه حينئذ ارسال الجندة إلى كردفان فتتمكن لموم المهدي من الفتك بن فيها من الحامية - قال - وقد صدق ظنه فإنه ما انحدر المهدي من قدير حتى قامت الفتنة حول الخرطوم واشتبك عبد القادر باشا معهم في القتال واشتد عليهم واشتدوا عليه فلم يكن ليخضعهم حتى تم للمهدي الاستيلاء على الأبيض وتخريب ما فيها من آثار المدنية والعمران * ثم جعل عبد القادر باشا ينتقل من بلد إلى آخر وبلغ في قتال انصار الخارجى ويصاليهم نارا حامية ويجتد في تمزيق جوعهم حتى تمكنت مهايته من قلوبهم مع ما كانت عليه جنوده من شطف العيش وعرى الاجساد اذ كانوا يستترون بالجلود ويقتاتون بلحوم الماشية التي كانوا يغمونها من العدو ويعملون أحذيتهم من جلودها مع خلو أيديهم من الدرهم والدينار لعدم صرف مرتباتهم وتأخير جبايهم الشهور الكثيرة وكان عبد القادر باشا لا ينفك عن استعطاف رجال الدولة بعصر عليهم يرثون لحالهم ويطلقون لهم شياً من رواتبهم * فبيئتهم على هذه الحال اذ جاء الخبر من ديوان الخديوى بأن قد قامت إلى الخرطوم حملة عظيمة من الجنود المصرية بقيادة رجل من الانجليز اسمه هيكس وانها على قدم السرعة وستدرك الخرطوم في القريب العاجل * فلما ذاع هذا الخبر اندهش الناس أى اندهاش اذ مع ما هو معلوم من أن الفريقين المتحاربين كليهما من المسلمين فان الفتنة كانت معتبرة دينية والحرب بينهما جهادا فكيف اذا علم أصحاب الثورة أن قواد الجيش المحارب لهم هم من الانجليز وكيف يكون تأجج نار الفتنة واشتداد أوارها وفوز دعاة المهديوية متى تحقق للخارجى وأصحابه ذلك * أما هيكس هذا فهو رجل من مقدمى عسكر الانجليز أو فده زعيم سياستهم إلى أرض مصر لهذه الغاية فلم يلق عصا ترحاله حتى طلب السير بارنج إلى الخديوى ارساله على رأس ذلك الجيش إلى السودان لاختضاع أهله والقبض على مدعى المهديوية فأكبر الخديوى الامر وأعظمه وكلم الوزير محمد شريف باشا في ذلك فامتنع الوزير وقال لا سبيل اليه والفتنة دينية والرأى عيسى أن نمد عبد القادر باشا بالمدد الكافى ونطلق له عنان التصرف والا اختلط الخابل بالنابل وتعذر اطفاء نار هذه الفتنة فراجعته السير بارنج ووردت الكتب من صاحب سياسة الانجليز بالتعجيل وخروج العسكر والوزير يحاول ويطاول * وكان اسمعيل أيوب باشا الذى تولى السودان على عهد الخديوى اسمعيل يشغل أحد المناصب الوزارية مع الوزير محمد شريف باشا وكان يكره ظهور كلمة عبد القادر باشا وعمل إلى خذلانه وحرمانه من نفع الفوز على الخارجى وشرف الظفر بقطع دابر الفتنة فزين إلى السير بارنج طلب استرجاع عبد القادر باشا وارسال هيكس بدله قيل وما زال هو والسير بارنج يعملان يدا واحدة وبقلب واحد حتى تم اخراج الجيش على رغم أنف كل مكابر وكان مؤلفا ممن كانوا في الجيش المصرى على عهد الثورة العرابية فسار بهم هيكس وقد أعطاه الخديوى رتبة

(مطلب)
قيام حملة هيكس
إلى الخرطوم

الباشوية فوصل بالجيش الى الخرطوم ومعه الشئ الكثير من الاسلحة والمدافع ودواب
الجل والذخيرة وكان الى يوم وصوله قد تم تحصين سنار ورحل عنها العدو وزالت القلاقل من
الجزيرة وحصر عبد القادر باشا دعوة الخارجى في اقليم كردفان فزال الخوف عن الخرطوم
أيضا بتقدم جيش هيكس أو كاد ٥ قال صاحب كتاب السودان ٥ وكان عبد القادر باشا
قبل قدوم جيش هيكس يبنى لو أن الحكومة عده بشئ من المال والرجال فيتيسر له اذ ذاك
وضع حامية تقاوم دعاة المهدي في الجزيرة وحول الخرطوم ثم يتقدم هو نحو كردفان من
طريقها الشمالى الذى يكثر فيه الماء لامن طريقها الجنوبى الذى لاماء فيه ولا رواء تاركا
في كل مرحلة يقطعها حامية تحفظ له خط الرجعة ثم يؤلف ممن بقى قوة للهجوم فيهجم بها
على العدو فينزق شماله ويقضى عليه القضاء الأخير ولكن قد جاء هيكس وقضى الامر اه
وقد اشتد العجب بالناس أيضا من قدوم كبير من كبار ~~عسكر~~ الانجليز اسمه الكولونيل
استيورت الى بربر ومعه كتاب من الديوان الخديوى الى سائر العمال يأمرهم فيه بأن يطلعوا
استيورت هذا على سائر دفاتر وأوراق الحكومة وأن يصدعوا بأمره في كل ما يطلبه وكان
مع استيورت هذا رجل آخر اسمه داليه ايطالى الجنس ممن كانوا في خدمة السودان على
عهد الخديوى اسمعيل فسار استيورت من بربر الى الخرطوم والتقى بعبد القادر باشا ولبث بها
أياما لا يعلم أحد من عمله شيئا ثم غادر الخرطوم الى سنار فالفصارف فكسله فصوص فصر
فاختلف الناس في داعى حضوره فمن قائل انه جاسوس جاء ليتحقق من أمر طموح عبد
القادر باشا الى الاستقلال بملك السودان كما أشاع يومئذ المرجفون وهم على ماذهب اليه
بعضهم اسمعيل أيوب باشا وأشباعه أو على مذهب غيرهم هم صاحب السياسة الانجليزية
ورجال حزبه ومن قائل بل حضر ليمهد العقبات أمام جيش هيكس ومن قائل غير ذلك
وعلى كل حال فلم تكن الا أيام بعد عودة استيورت الى القاهرة حتى جاء الامر من الديوان
الخديوى الى عبد القادر باشا بالتخلي عن الولاية والعودة الى مصر فتخلى عنها في الحال وجعل
يتأهب للرحيل وبينما هو على هذا اذ جاء علاء الدين باشا واليا بدله فانحدر عبد القادر باشا
من الخرطوم يريد القاهرة وجعل علاء الدين يتصرف في الأمور وعلم الخارجى بخبر جيش
هيكس فاهتم له كثيرا ٥ قال صاحب كتاب السودان وظهرت على وجوه أصحابه علامات
الخوف فتطير الخارجى من ذلك وكتب يحض الناس على الغزو والجهاد في أعداء الله ورسوله
ثم نادى في عسكره بالخروج الى ظاهر البلد وظلوا على هذه الحال زهاء ستة شهور فلما كان
شهر ذى الحجة من السنة أى سنة ثلثمائة وألف خرج جيش هيكس من أم درمان برا
وبحرا حتى بلغ الدويم وتربص حتى تكاملت رجاله ومعداته وجاء الصالح الى الخارجى بمسير
الجيش فأرسل في الحال رجلا من مقدمى عسكره وآخرين ممن لاذوا به من عسكر
الحكومة ومعهم أربعون ألفا من الجعليلين والناقلة ورسم اليهم بأن ينزلوا جميعا بمكان
يعرف بالبساطة على مقربة من أم درمان - قال - وقال لهم اذا سارت جملة هيكس من

أم درمان فسيروا خلفها على بركة الله واجعلوا بينكم وبين مؤخرها رمية قوس * وخرج علاء الدين باشا ليسير مع الجيش ومعه بعض الخدم والحشم والاتباع ودليلان من قبيلة الجمع قدما الى الخرطوم بإيعاز من مدعي المهدوية ليسيرا بالجيش من أوعر الطرق وأقلها ماء ورواء وكان هذا الجيش كما وصف صاحب كتاب السودان مؤلفا من ستة عشر ألف مقاتل من العساكر النظامية وألف من الفرسان لابسى الدروع والخوذ وألف من الجنود السود وكثير من الفرسان الترك الغير المنظمين وكان عدد دواب الحمل فيه زهاء الثلاثين ألف رجل ماعدا البغال ومع الجيش الشيء الكثير من الاسلحة والمدافع والمكاحل من الطراز الجديد والمؤن والذخيرة وسار هذا الجيش النخم من الدويم الى شاة ثم منها الى عقبة وما كاد يفارق النيل حتى جعل العدو يقلقه بالجلبة والصياح فاضطر أن يسير على شكل مربع يحيط بدواب الحمل وكان لا يقدر على المبيت الا في داخل زريبة من الشوك فكان كل من ابتعد من العسكر عن الزريبة في طلب الحشائش لعلف الدواب وقع في أيدي العدو فتعذر الحصول على العلف ومات أكثر الدواب جوعا ولحق بالعسكر مالا مزيد عليه من التعب من قلة النوم لان العدو كان لا يتركهم ينامون من كثرة صياحه وجلبته في كل ليلة مما يضطرهم الى التأهب والاحتياط والوقوف على قدم الاستعداد والسهر حتى مطلع الفجر

وبينما كانت الجنود على هذه الحال من التعب وتهديد العدو لهم في الليل والنهار بغير حرب ولا نزال كان الخلاف قائما ما بين علاء الدين باشا وهيكل على أي منهما تكون له الرئاسة اذ كان كل منهما يزعم أنه مقدم هذا الجيش وصاحب الكلمة بين افراده * حدثني صاحب لي قال حدثني رجل ممن وقع في يد العدو بعد هلاك جيش هيكل قال كانت فعلا هيكل هذا تدل على جهله بأحوال البلاد وعادات السود وكان كثير التقلب قريب الغضب وكان علاء الدين فخورا مختالا فكان اذا أبدى رأيا في أمر خالفه هيكل وعابه واذا أشار هيكل بشئ مانعه علاء الدين وخطأه ورماه بالجهل فظهر عندئذ من جماعة الضباط وطوائف العسكر الاستخفاف بالاثنتين فنبذوا طاعتها وقد أضناهم العطش وأنهم كهم التعب وتفشت بينهم الامراض العفنة وكثر الموات في دوابهم لقلة العلف والماء وما زالوا والعدو محقق بهم من كل صوب يسرون وهم على هذه الحال حتى نزلوا على غدير يقال له غدير شيكان مملوء بماء الامطار فأقاموا عليه أياما قلائل حتى استنزفوا ماءه وسبقهم الخارجي بجيوشه الى غدير كثير الماء ونزل حوله لينعهم من الوصول اليه فلم يتمكنوا من اللحاق به ولم يقدر على مناجزة العدو لضعفهم وخور قواهم وأقاموا حول غدير شيكان حتى أكلوا طينته وأحواله من شدة النظا وتمرد الجند على كبارهم وهموا بقتلهم مرارا * فلما كان يوم الاثنين رابع المحرم افتتح سنة احدى وثلاثمائة وألف قاموا على ما هم عليه من الجهد والضعف يريدون الابيض لخلوها من رجال الخارجي والتماسا للماء فيها * قال صاحب كتاب السودان وكانت جواسيس المهدي قد أبلغته ما هم عليه من حالة الضعف والنظا وأنهم قد أصبحوا جثا

(مطلب)
الخلاف بين علاء
الدين باشا وهيكل
باشا

لاحراق بها فتادى في أصحابه بالخروج عليهم فأطبقتوا عليهم من كل جانب وأعملوا فيهم
السيف فلم يقدروا على الدفاع ولم يسمع لهم صوت مدفع ولا بارودة حتى أفتتهم سيوف
العدو ولم يبق منهم الا بضعة عشرات ممن اختفى بين الأشلاء وأمر الخارجى أتباعه فجعلوا
يحرقون جثث القتلى من أعدائهم معللين ذلك بأنهم كفار وقتلوا علاء الدين وهيكس شر
قتلة * قلت هذه رواية * وفي أخرى أنه لما خرج الجيش من أم درمان على ماتقدم ذكره
سار الدليلان أمامه في طريق كثير الغابات شديد المراكب والعقبات قليل الماء والرواء
والعدو من خلفه وعن يمينه وعن شماله يثب على مربع العسكر كل حين وهم يجتدون
المسير رجاء أن يدركوا الماء ويرووا بعض ما بهم من الظما فلم يمكنهم العدو من ذلك وقد قل
علف دوابهم فكثرت فيها الموات وضعفت عن حمل أثقالهم وجر مدافعهم ثم تفشت في
العسكر الامراض العفنة وأنشب فيهم الموت أطافره ولما كان كلهم أو جلهم من الذين
كانوا في مظاهرات الثورة العرابية وكان كبارهم ممن حكم عليهم بالتجريد من الرتب وألقاب
الشرف وكان انتظامهم في هذا الجيش انما هو بايعاز من صاحب السياسة الانجليزية
ولنكد حفظهم كان ما كان من سوء تدبير الجيش وتغريب الدليلين بعلاء الدين وهيكس أيقنوا
جميعا بأنهم انما هم مسوقون الى الموت لا محالة فانقضوا وعصوا كبارهم وأكثروا من سبهم
وتعنيفهم وضربهم قيل وهموا بقتلهم مرارا وما زالوا على هذه الحال من الظما والتعب
والعدو من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم وهم لا يقدررون على دفعه حتى
نزلوا على غدير شيمان فشربوا ما فيه وأكلوا من طينه وأوحاله وعيون العدو ترمقهم حتى
أيقنوا أنه لم يبق في أحد منهم شئ من القوة يدفع بها قاتله فانقضوا عليهم وهم كالاموات
وأعملوا فيهم السيف حتى لم يبق منهم الا نفر قليل ممن اختبأ بين جثث الاموات وقتلوا
هيكس وعلاء الدين وجعوا السلاح والمتاع والمدافع وما بقي من دواب الخيل وقفلا راجعين
الى الابيض فرسم الخارجى بتقسيم الاسلاب والغنائم على المجاهدين والانصار والخلفاء *
وجاء الخبر الى القاهرة بما أصاب جيش هيكس فكان لذلك رنة حزن وأسف شديدين وكثر
البكاء والعيول في بيوت الضباط وكبار الجند وجلس الناس للغزاء أياما وظن أهل الخرطوم
أن الخديوى لا يلبث أن يعيد عبد القادر باشا في عسكر جرار لاخذ بالثار وشاع بينهم أيضا
خبر عزم زعيم سياسة الانجليز على ارسال غردون قائدا على ذلك العسكر فجعلوا يعجون
ويبتهلون الى الله بتحقيق هذا الخبر واختلط الحال على الخديوى ورجال دولته فجعلوا ينقضون
اليوم ما أبرموه أمس ويتخبطون في العمل كن فقد الرشد ووزير السياسة الانجليزية يضرب
على أيديهم ولا يمكنهم من أخذ أو رد فكافوا اذا قاموا أقعدهم واذا قعدوا أقامهم واذا
قالوا عاب عليهم قولهم واذا عملوا رماهم بالعسف حتى جاءهم مرسومه بالتعجيل في اخلاء
الدويم وفشوده والكوه والجللاء عنها وتركها الى الخارجى والاتيان بحاميتهما الى الخرطوم
فصدعوا بالامر فلم يتم الجللاء عن هذه البلاد حتى جاءهم الامر أيضا بالجللاء سائر المصريين

عن الخرطوم واعادتهم الى مصر على نفقة الخزينة فصدعوا كذلك بالامر صاغرين وأخذ
الناس في الجلاء الى بربر وأحصوا النازحين يومئذ فكانوا زهاء مائتي ألف ونجسين ألفا
وشاع خبر ذلك في البلاد شرقا وغربا فأجمع الناس من ذلك اليوم على طاعة الخارجى
والاسراع الى متابعتة فكانوا يجتمعون فى القرى والبلدان ويضربون الطبول ويخلعون
أثوابهم ويلبسون المرقعات التى هى شعار المهدوية ويوفدون الوفود الى حيث الخارجى
ليبايعوه ويأخذوا عليه العهد فتم الى هذا الحين سقوط هيبة الحكومة المصرية وزوال
سلطانها وذهاب نفوذها وصار حكام البلاد ينهبون عما لديهم من الاموال الى مقر الخارجى
ترلفا وتقربا منه فكان بينهم بالامانى الكثيرة وكان ممن سلم وترلف وبالع فى ذلك جدا
سلاطين باشا ومن كان معه من كبار العساكر وأسلم يومئذ ونطق بالشهادتين على يد الخارجى
ولازم باب الخليفة التعايشي رحمه الله قال صاحب كتاب السودان أما مقدمو العسكر فقد فعل
بهم المهدى من القساوة والتعذيب والضرب بالسياط ما تقشعر لسماعه الابدان

وصل

(فى ظهور الفتن بالسودان الشرقى)

قد كانت الفتنة الى هذا الحين فى السودان الشرقى نائمة ولم يحرك أحد من القبائل لها
ساكنا وكان بقرية الدامر على ساحل النيل شيخ من أرباب الطرق اسمه الطاهر المجذوب
وكان محبوبا موقرا معظما عند أهل السودان الشرقى مسموع الكلمة عند الولاة والحكام
وافر الهيبة معززا فأرسل اليه مدعى المهدوية يدعوه الى لقائه ويشرح له كيفية مهدويته
ويسأله الانضمام الى خلفائه هو ومن معه من المريدين ومشايخ الطرق ويستحثه على
الخروج على عمال الحكومة وأجازه بمبايعة الناس وخاطبه بألقاب الامارة على السودان
الشرقى جميعه فبعث اليه الطاهر بجماعة من مريديه يتقدمهم رجل اسمه عثمان دقنه بن
أبى بكر دقنه وهو من التجار الكبار كانت له أملاك واسعة بسواكن وسواها فذهبت أمواله
وبيعت أملاكه لاسباب سياسية لا محل لسردها هنا وكان عثمان دقنه هذا يحمل كتابا من
الشيخ الطاهر الى الخارجى يقول فيه ان عثمان هذا من خيرة مريديه ومن أصدق أتباعه
وانه من أولى العزم والحزم وانه أجدر بامارة شرق السودان منه يعنى من الشيخ الطاهر
وان الشيخ لا يأنف من أن يكون تابعا لافضل مريديه وانه سيكون هو مستشاره ومدير
أموره والناصح لسائر أتباعه بالقيام بنصرته وموازنته وأنه لم يكن من مانع من قبول منصب
الامارة لنفسه سوى الشيخوخة والعجز عن الحركة التى يستلزمها هذا المنصب الخطير فلما
وفد عثمان دقنه على الخارجى أكرم الخارجى وفادته وبالع فى الاحتفاء به وسأله عن
الحال فى شرق السودان قيل فهوون عليه وقال ياسيدى الناس طرا طائعون لك واهبون

أرواحهم في سبيل مرضاتك ومرضاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم جميعا على أهبة الغزو والجهاد في الكفار قال ثم ماذا قال وأستاذي يقول ان الدولة قد عزمت على قهرك بارسال جيش جرار الى بربر عن طريق سواكن وهو يشير عليك بارجاعي للوقوف مع المجاهدين في طريق ذلك الجيش وسد جميع المنافذ عليه حتى تتمكن من فتح الخرطوم قال الراوى ففرح الخارجى بمقالة عثمان دقنه وسرحه الى سواكن وكتب له كتابا الى سائر القبائل الضاربة هناك يستصرخهم ويستفرضهم الى نصرته ونجدته وانه قد أمر عليهم عثمان دقنه فيجب عليهم طاعته والعمل بمشورته فلم يصل عثمان الى بربر حتى علم رجال الحكومة بخبره وما جرى له مع الخارجى فأرسلوا خلفه من يقبض عليه فلم يفلحوا ووصل الى سواكن آمنًا مطمئنًا واجتمع بالشـيخ الطاهر وسـله كتب المهدي فجمع الشـيخ سائر مريديه وأبناء طريقته ومن التف حولهم وقام في وسطهم ومد يده الى عثمان دقنه وبايعه بالامارة فبايعه الناس كافة وترامت أخباره الى مصوع وكسله فدخلت جميع القبائل في طاعته فجاء الامر الى محافظ سواكن بالقبض عليه وهو يومئذ في سنكات فسير اليه توفيق بك مأمور طوكر في سبتين من الجند للقبض عليه ولم يكن محافظ سواكن يعلم من أمر جوعه ومن التف حوله من القبائل شيئاً فلما صار توفيق بك ومن معه على مقربة من سنكات خرجت عليه لموم عثمان دقنه فقاتلهم وأصلاهم نارا حامية وتحصن داخل زريبة من الشوك وخندق وعمل متراسا عظيما وصار يدافع من ورائه ويصلى عدوه بناره

وجاء الخبر الى القاهرة بظهور الفتنة أيضا في شرقي السودان وخروج جميع قبائله عن طاعة الحكومة فبعد أخذ ورد طويلى مع السير بارنج جاء الخبر من صاحب السياسة الانجليزية بارسال جيش لاستخلاص طوكر وسنكات من أيدي أصحاب الفتنة فاهتم لذلك الخديوى وجماعة الوزراء وجيشوا زهاء خمسة آلاف مقاتل ممن بقى من العسكر المصرى بعد حملة هيكس وبالغوا في الاكثار من معداتهم وآلات حربهم وعقدوا لواء هذا الجيش الى محمود طاهر باشا أحد مقدمى العسكر على عهد الخديوى اسمعيل فصار بجيشه هذا يريد طوكر فعلم بخبرهم عثمان دقنه وتأهب للقائهم في عدة كثيرة من المقاتلة وكان بهم في منتصف الطريق بين طوكر والترنكات فينبأهم سائرون خرج عليهم الكين من كل صوب وحذب وداهمهم على غرة فأوقع بهم وحرق شملهم فلم ينبج غير مقدمهم محمود باشا ونفر قليل وغنم دقنه سائر ما كان معهم وعاد الغازون الى سواكن فتبعهم العدو اليها وأحرق بها وجعل يهددها وجاء الخبر الى القاهرة بما حل بجيش محمود باشا فأكبر الخديوى الأمر وأعظمه جدا وكبر قلقه أيضا على الخرطوم لترادف الاخبار يومئذ بما هي عليه من الشدة والضيق واقترب دعاة الخارجى من أبواب البلد وكثر تردد السير بارنج على مقر الخديوى تارة وعلى ديوان الوزير نوبار باشا أخرى ثم لم تكن الا أيام حتى شاع الخبر بعزم الحكومة على ارسال جيش آخر معقود لوائه لكبير من كبار عسكر الانجليز اسمه بيكر باشا فتطير الناس من ذلك وأيقنوا

(مطلب)

ارسال جيش
لاستخلاص سنكات
وطوكر

عجز الدولة وعدم قدرتها على ارجاع الامور في شرقي السودان أيضا الى ما كانت عليه وكانها
أراد صاحب سياسة الانجليز بارسال هذا الجيش استبقاء سواحل البحر الاحمر في قبضة
الحكومة المصرية الى حين حتى يتمكن هو من بسط سلطانه عليها وادخالها ضمن ممتلكات
مملكتهم فخرج بيكر باشا في أربعة آلاف مقاتل فلما بلغ سواكن أرسل يستميل بعض زعماء
القبائل وبالع في استرضائهم والتودد اليهم وأقام على هذه الحال أياما فلم يفلح فعمد الى تخاربة
القبائل الضاربة بجهات مصوع لعله يجد بينهم من يشد بهم أزره في فتح الطريق الى كسله
ثم الى الخرطوم فلم يفلح أيضا وقد علم أن الطريق ما بين مصوع وكسله كلها ادغال وغابات
كثيرة المراكب والهلكات وأن الطريق الى الخرطوم أصعب من أن ترام فأخذ يتأهب للمسير
الى طوكر لانقاذها ثم لانقاذ سنكات فلما كان شهر ربيع الثاني من السنة أى سنة احدى
وثلاثمائة وألف خرج بعسكره من سواكن الى ترنكات وسلك ذات الطريق التي سار فيها
محمود باشا بجيشه فلم تكن الا مرحلة أو بعض مرحلة حتى انقض عليهم عثمان دقنه بجياله
ورجله فاقتتل عندئذ نظام العسكر وفشلوا أى فشل وركن من في الساقه الى الفرار
وألقوا ما بأيديهم من السلاح فأخذ العدو فيهم قتلا وضربا حتى أفنى منهم زهاء الثلاثة
آلاف وفر بيكر باشا ومن بقي الى ترنكات وغنم عثمان دقنه سائر ما كان معهم من سلاح
ومتاع ودواب وكانت واقعة من شر الوقائع وجاء الخبر بما جرى الى القاهرة فكثير صياح
وعويل نساء الضباط في بيوتهم وجلسوا للعزاء وكثر اللغط بأن هلاك هذا الخلق الكثير من
العسكر والضباط انما كان بايعاز من الخديوى وجماعة الانجليز لغاية في النفس واشتد القلق
بالناس جميعا حيث أعقب هذه الواقعة سقوط سنكات أيضا وقتل من كان بها من العسكر
مع توفيق بيك ذلك البطل المغوار مذبحا

وقد كانت عمت الفتنة سائر أطراف السودان وتفشت أيضا فيما حول الخرطوم من
القصرى والبلدان فأصبحت الخرطوم وهى مطمح نظر الخارجى يريد الانقضاض عليها بجياله
ورجله ليقبض على ناصيتها حتى اذا ما علم ذلك في شرقي السودان وغربيه وشماله وجنوبه
دانت له البقية الباقية من زعماء بعض القبائل المواليين للحكومة فيخلوله الجؤ حينئذ
وكانت عيونه تنقل له أخبار ما كانت عليه البلد من الشدة والضيق وما وصلت اليه الدولة
من العجز ووهن العزيمة وزوال الهيبة فيزداد تحمسا وغرورا ويكثر من البعوث والدعاة
ويرسل الكتب مشحونة بما حدث به الخضر والياس أو ما بشره به صاحب الشريعة الاسلامية
وما أعده الله له ولاصحابه من الاسرة والكراسى في جنات النعيم وغير ذلك من الخرف
والهرف والبهتان على الله وعلى أنبيائه ورسله حتى افتن الناس طرا واتسع الخرق وتعدر
الخلاص وقد زاد الامر خبالا والطين بله بما ورد على الخديوى من صاحب السياسة
الانجليزية من وجوب نزل جميع السودان والتخلي عنه بما فيه من مال ومتاع وكراع الى
الخارجى والاسراع باجلاء من به من أصحاب الوظائف ومن بقي من العسكر ومن يريد

الجلاء من الاهلين أيضا فكان ما كان مما مر بك بيانه في محله من تنحي الوزير محمد شريف باشا عن منصب الرئاسة وتولية الوزير نوبار باشا بدله وما وقع من اشتداد زعيم السياسة الانجليزية على الخديوى والوزير نوبار باشا وترادف طلبانه وتباين بعضهما لبعض حتى تولى غردون الولاية العامة على السودان ونال السلطة المطلقة عليه شرقا وغربا وذهب الى الخرطوم على ما وصفنا وكان من أمره وما وقع بعيد ذلك ما سيتلى عليك في باب ان شاء الله تعالى

وصل

(في هزيمة أخرى وكسرة كبرى)

لم يكن غردون ليتوقع الفشل الى هذا الحد بعد أن اعترف للخارجى بالملك والسلطنة على غربي السودان وبعد أن خطب في الناس بما خطب من ترك البقايا من الاموال ومنع الجباية ثلاث سنوات واطلاق حرية التجارة في الرقيق وغير ذلك من عبارات المجاملة والتلطف ولكن خائسه الاقدار وسقط في يده واختلط عليه الحال وفسد التدبير وقلت منه الحيلة وضاق عليه الفضاء بما رجب لاسيما وقد جاءت الانباء في هذا الحين بفشل جيش جراهام وموت أكثر رجاله وقد كان يعتقد أن خلاصه وخلاص من معه مرهون على فوز هذا الجيش ونجاح غزونه * وتحرير الخبر أنه لما علم صاحب سياسة الانجليز بفشل جيش بيكر باشا ووقوع معظم رجاله في قبضة عثمان دقنه على ما تقدم بيانه كبرت عليه هذه الخيبة وقد كان يرى أن فتح الطريق ما بين سواكن وبربر أمر لا بد منه لفائدة سلطنتهم في مستقبل الايام فعمد الى ارسال جيش ثالث من رجالهم وصفوة أبطالهم ليتم له ما يريد من فتح ذلك الطريق فجاء جراهام هذا على رأس ذلك الجيش الى سواكن في العشرة الاخيرة من ربيع الثاني من السنة أى سنة احدى وثلاثمائة وألف ومعهم الشيء الكثير من آلات الحرب ومعدات القتال وانجروا من سواكن الى ترنكات وساروا معه بيكر باشا مقدم الجيش الذي أفناه عثمان دقنه قاصدين الالتقاء بدقنه وقد علم دقنه بوصولهم فتحصن في التيب وخندق عليها وأحاط الخندق ببعض المتاريس ووضع عليها المدافع التي غنمها من محمود باشا طاهر وبيكر باشا وتأهب للدفاع فلما صار جيش جراهام على مقربة من التيب وشاهد جراهام ما هو عليه موقع العدو من المنعة والحصانة نادى في عسكره بالزحف والهجوم فلم يفعلوا وجبنوا ثم ولوا الادبار فلحقهم قبايل العدو وتساقطت عليهم تساقط المطر وفتكت فيهم فتكا ذريعا جدا فما زال يـم جراهام حتى لم شعبهم وأعاد صفوفهم وسار يـم ثانية حتى صار على مقربة من متاريس العدو ثم جعلوا يطلقون مدافعهم ويرسلون قنابلهم على المتاريس والعدو يشتد عليهم في الرمي ويصلهم نارا حامية حتى انكشف نظام أحد جوانب الجيش وفعلت فيه

قنابل العدو فهم جراهام بتغيير شكل صفوفه ليدراً عنهم تلك النيران الا كلة فأحس بذلك
 عثمان دقنه فلم يكن بأسرع من أن هجم بقومه عليهم من كل صوب وأعمل فيهم السيف
 وبقي الحال هكذا بضع ساعات من النهار ثم انفصل الفريقان فكانت القتلى من الجانبين
 لا تعد وتقهقر عثمان دقنه الى طوكر لعل جراهام يتبعه فيقع في محالب العطب فأدرله
 جراهام الحيلة ولم يغرب بعسكره * فلما تحقق غردون ما أصاب جيش جراهام كاد ينوب
 حزنا وأيقن أن الحيلة ضائعة وأن القضاء واقع لا محالة فرسم الى كبار عسكره بترميم
 الحصون وتحصين القلاع وشاع خبر ذلك وملا الاسماع فاعتزل أصحاب الوظائف الديوانية
 من المصريين ووظائفهم ونزلوا مع الكثير من التجار يريدون القاهرة فرارا من البلاء المنتظر
 وورد على غردون جواب الخارجى هادما لصروح أمانيه مفعما بالوم والتقريع وقارص
 القول ورد هدية غردون التي كان أهداها اليه على ما تقدم لك بيانه ومعها مرفعة من
 مرقعات الدراويش * قال صاحب كتاب السودان وأرسل يقول له ان أحسنت في دنياك
 وآخرتك فحبل بترك الكفر واعتنق الاسلام ديننا والبس هذه المرفعة التي هي لباس الزاهدين
 في الدنيا الراغبين في الآخرة ولا تكن سببا في اراقة الدماء واعمل كما عمل غيرك من الولاة
 والحكام فغضب غردون غضبا ماعليه من مزيد وكبر عليه أمر ذلك جدا * وكان الناس
 الى ذلك اليوم لا يعرفون حقيقة بعثة غردون ويجهلون نوايا دولة الانجليز في شأن السودان
 المصرى ولا يدرون ما اذا كان الحديدى مطلق اليد في التصرف في بلاد هي ينبوع حياة
 مملكته وأم نيلها العظيم أو أنها خرجت من قبضته بحكم لا راد له ولا ممانع فيه فدلهم
 يومئذ تخطيط غردون وخطه وعدم حضور عسكر من الانجليز كما كانوا يتوهمون على أن
 صاحب سياسة الانجليز لم يبعث غردون الا ليعمل على ترك السودان للخارجى حينما حتى
 اذا تم لهم ما يريدون من التحفز للوثبة انقضوا على ذلك الخارجى بخيلهم ورجلهم وانتزعوها
 منه أو من خليفته من بعده وضموها الى أملاكهم في هذه القارة السوداء وأخضعوا بها
 جسم سلطنتهم الواسعة وهي غاية في أنفسهم طالما تمنوها حتى مهد لهم رجالهم الاسباب
 وفتحوا لهم بحسن كياستهم مغلق تلك الابواب بأن أوقدوا نار الثورة العرابية في جوف
 القطر المصرى ونفخوا في ضرام نار الفتنة المهدوية في جوف السودان وأدبوا لهم في
 القريب العاجل من الايام ما لم تكن لئناله سلطنتهم في البعيد من السنين والاعوام
 وكثرت كتب محمد بن البصير داعية الخارجى في أرباض الخرطوم الى غردون مفعمة
 بالاسباب واللعن والخط من قدره وتهديده بالويل والثبور وعظائم الامور ان لم يعجل بالتسليم
 بغير ذمة ولا عهد وظل الحال على ذلك أياما كاد يهلك فيها غردون كذا * قال صاحب
 كتاب السودان فاجتاز غردون النيل الازرق الى قصر راسخ بيك وأرسل احدى عشرة
 رسالة برقية الى السير بارنج بمصر يخبره بما وصلت اليه حالته ويقول ان العدو على وشك
 الزحف للاحاطة بالبلد وان اسلاك البرق انقطعت قبل أن يتمكن من مخبرته ثانية وأرسل

كذلك الى الخديوى والوزير توبار باشا فأجابه السير بارنج بما معناه - انى لم أفهم ما تضمنته رسائلك الاحدى عشرة فأعلمنى بقصدك بعد التفكير الطويل - على أن كل ما فى تلك الرسائل كان يتضمن استنهاضهم الى ارسال النجدة وحفظ الاتصال ما بين دنقله وبربر - قال - ولعل السير بارنج كان يقصد بقوله لم أفهم ما معناه - ياغردون انك لا تجهل أن مقاصد حكومة جلاله الملكة غير الذى أنت تطلبه فلذا لم أفهم منك هذه الطلبات حيث انك لا تجهل انها لا تتحول عما عقدت النية على تنفيذه - قال - وفى تلغراف غردون أن الاسلاك البرقية على وشك الانقطاع وأنه من المتعذر بعد هذه الفرصة وصول أخباره الى القاهرة فكانت اشارة السير بارنج بمخبرته بعد التفكير أمرا فى غاية الصراحة بعدم لزوم المخاطبة حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا اه ٥ قلت وهذه كانت صفوة الغرض من الممانعة فى نجدة عبد القادر باشا عند ما كان يقاتل الخارجى واتهامه بشق عصا طاعة الخديوى والاستقلال بحكم السودان ثم استقدمه على غرة بعد أن كاد يقضى على الفتنة فيما وراء الدارفور وعاد بعيد ذلك غردون الى استعطاف السير بارنج اذ كتب اليه يقول ليس فى الامكان إجلاء أصحاب الوظائف من المصريين عن معهم من العيال الا أن تفتحوا الى الطريق التى قلت لكم عنها فرد عليه ردا كله مما حكة وفيه شئ من الامانى وفى كل عبارة يحضه على التروى وطول التأمل أى كأنه يقول ما بالك لا تفقه ما أسره اليك صاحب سياستنا ومالك تطلب المدد ونحن على غير ذلك من العهد معك * حدثنى صاحب لى خير قال كانت فعال السير بارنج فى هذه الظروف الخرجة تقضى بالعجب العجيب فانه بينما كان يعنى غردون بالمدد ويعده بقرب وصول النجدة اليه كانت رسائله ترسل تباعا الى عاصمة الانجليز بأن فتح الطريق بين سواكن وبربر بطائفة من فرسانهم كطلب غردون ضرب من الحماقة كما أن اوسال جماعة من عسكرهم الى اسوان ووادى حلفا لتأمين السبل وتسهيل الجلاء عن الخرطوم كما يشير غردون لامعنى له البتة ولا هو من حسن السياسة فى شئ فكانت كل هذه الاحاجى والمعميات قاضية على حياة غردون وحياة الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والاطفال فى الخرطوم وأرباضها ولا ذنب لهم غير الارتكان على عزيمة الحكومة المصرية وحسن ظنهم بأصحاب الحل والعقد بها فتأمل

ورأى غردون كثرة مناوشة العدو للجند والعسكر المرابطين بالخرطوم وتحقيق من دخول سائر سكان الضواحي فى طاعة الخارجى وخروج جميع السود من سكان البلد الى معسكر ابن البصير داعية الخارجى والانضمام اليه فأكبر الامر جدا وكان العدو قد جعل مركز حركته فى الحلقايا على قيد بعض فراسخ من الخرطوم وقد تحصن بها فأمر غردون بخروج طائفة من العسكر لطرد العدو من حلقايا واجلائه عن الضواحي المتاخة ٥ قال صاحب كتاب السودان خرج من الجند لذلك يعنى لطرد العدو ثلاثة آلاف من الباشيزوق وألفان من المنظمين وعقد لواء هذا الجيش الى السعيد حسين الجميعاتى وحسن ابراهيم الشلالى

ابن عم يوسف باشا الشلالى وكلاهما من جماعة النخاسين - قال - والسعيد حسين هذا من أسافل القوم وزعانف الجياعات وقد كان غردون عند وصوله الى الخرطوم قد ولاه الامارة على جماعة الباشيوزق وأعطاه رتبة الباشوية كما أعلى مقام غيره من زعانف السود وزعر النخاسين رجاء استمالة القلوب اليه والعمل على مرضاته فسارت الجنود الى حلقايا فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى فشلوا وولوا الادبار فركب العدو أقفيتهم وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم أو كاد وقد غرر بهم السعيد حسين وحسن ابراهيم الشلالى * فلما دخل من بقى المدينة حزن غردون حزنا شديدا قيل وبكى بكاء مرا وأمر في الحال بمقاضاة السعيد حسين فكان ذلك وحكم عليه بالقتل فلم يكذب بخبره من محبسه حتى هجم عليه جماعة من العسكر وقتلوه بطعن الحراب ووخز السنك وقيل بالمعاول * وخرج محمد الخير الفقيه المدرس وهو ممن كانت تجلبهم الحكومة وتعطيهم المرتبات والجماكي في كل شهر وانضم الى أصحاب الخارجى وقد كان جاءه كتاب من الخارجى يقول له فيه إما أن تنضم الينا أو تنضم الى عدونا والله يحكم بيننا * ووفد محمد الخير على الخارجى بالابيض فأكرم الخارجى وفادته وولاه الامارة على بربر ودنقله ورسم له بالجهاد والغزو فقدم الى بربر مثقلا بالهدايا التي أهداه اياها الخارجى فلما صار على مقربة منها أرسل الكتب يدعو الناس اليه في المنة فانسلوا اليه فدعاهم الى بيعة الخارجى فرأى منهم تباطؤا فوقف بينهم وقال يا قوم أشهد الله وملائكته أن صاحبنا هو المهدي المنتظر فاذا لم يكن المهدي نخذوا بلحيتى هذه بين يدي الله عز وجل وقولوا هذا أضلنا سواء السبيل ﴿ قال الراوى فصدقه الناس وبايعوه على طاعة المهدي وقتال الدولة والغزو في الكفار فسار بهم لقتال المرابطين في شندى وكان بها جماعة من الباشيوزق زهاء الثلاثمائة فعلوا بعزمه وهموا بالخروج من معانقهم والاتحاق بمن هم في بربر فلم يمكنهم محمد الخير من ذلك وكبسهم بخيله ورجله وأعمل فيهم السيف حتى أفناهم جميعا وغنم ما في البلد من مال ومتاع ومنع أصحابه من سبي الذراري ونساء المصريين كما كان الخارجى يفعل وقال حرام أن يمسس بسوء ثم سار بلومه يريد قتال من في بربر من المرابطين فحاصرها أياما ثم فتحها عنوة وأعمل فين بها السيف وغنم سائر ما فيها وكان مما غنمه شئ من متاع غردون كان قد ورد اليه من القاهرة وطير الخبر عما جرى الى الخارجى ففرح بهم هذا الفتح فرحا عظيما وأرسل الى محمد الخير يقول عجل بفتح دنقله واقطع الطريق على من يقدم عليك من مصر وجاءت الاخبار الى غردون بسقوط المنة وبربر فأيقن أن كل سعى في الخلاص باطل لاسيما وقد جاءه الخبر بعيد ذلك بأيام بقيام الخارجى من الابيض الى الرهد في لمومه الكثيرة وأن أبا قرجة وابن البصير على عزم الزحف على الخرطوم وفتحها

فلما خلت العشرة الاولى من رجب سنة احدى وثلاثمائة وألف سار أبو قرجة في لموم كثيرة حتى نزل على قرية الجريف القريبة من الخرطوم فباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد دقت

طبولهم ودنوا من حصون الخرطوم وجعلوا يرسلون الرمي عليها بالقنابل واشتدوا في ذلك
 شدة بالغة فلم تجاوبهم الحصون فما زالوا يقتربون منها حتى صاروا على أدنى من رمية قوس
 وكانت عساكر الحصون قد ألغمت الأرض بالبارود والمقذوفات النارية فلما توسط أصحاب أبي
 قرجة مكان الألغام أوقد العسكر فيها النار فالتهمت وتفرقت وفتكت بالعدو فتكا تشيب
 من هولته النواصي وتغطت الأرض بالاشلاء والمشامش فكان المنظر مريعا مزججا وعاد أبو
 قرجة بمن بقي معه إلى الجريف ✽ قال صاحب كتاب السودان وكثرت يومئذ الأحزاب
 حول الخرطوم وتوارد الدعاة على أرباضها فرأى غردون أن يدفعهم عنها ويناشوهم القتال
 كل قليل حتى لا يتكامل عددهم وعددهم ويستفحل أمرهم فرسم إلى محمد علي بيك أحد
 كبار الجنود بالخروج لقتالهم فخرج في عدة من الباشيوزق والعساكر المنظمة مع بعض
 المدافع وسفن النقل وسار إلى الجريف وقاتل من بها فظفر بهم ومزق شملهم وملك حصونهم
 ومتاريسهم وقتل منهم خلقا كثيرا وغنم ما في معسكرهم من المؤن والذخائر واحتل معسكره
 شيئا كثيرا من الاقوات ثم سار إلى الحلفايا فأصلى من كان بها نارا حامية وكانوا بجاعة من
 الدعاة وزعماء القبائل فخرجوا على وجوههم هائمين وقتل كثير من رجالهم وهدمت
 عساكره حلفايا ودكتها دكا وحلوا أخشاب دورها إلى الخرطوم وجاء الخبر بما جرى إلى
 مدعي المهدي فارتعج وخرن خزا ما عليه من مزيد وأرسل رساله تستصرخ القبائل
 وتستغفرهم ✽ ثم إن محمد علي بيك سار إلى أبي حراز فخرج أهلها على وجوههم فأباحها للعسكر
 ثم سار إلى العلفون على النيل الأزرق وكان بها الفارزون من نيران عساكره وقد أمروا
 عليهم شيخا اسمه مضوى فلما أحس الشيخ بمجيء محمد علي بيك استصرخ القبائل المجاورة
 ومن لم يخرج إلى ذلك الحين من أهل الجبال فالتف حوله زهاء عشرة آلاف فقاتلوا عسكر
 محمد علي بيك قتالا عنيفا فاشتد عليهم محمد علي بعسكره حتى هزمهم شر هزيمة وفر من
 بقي إلى الجبال وفر مضوى في مائتين من الفرسان ولحق بأمر ضبان وهنالك جمع من تفرق
 من أصحابه وأبى ينتظر ما سيكون ولما تم إلى محمد علي بيك النصر وفاز بالغلبة والظفر أرسل
 جواسيسه إلى أم ضبان ليأتوه بخبر من بها من العدو فقاتلوا أياما ثم عادوا يقولون إنه ليس
 في البلد من القوم إلا العدد القليل مع شيخ اسمه العبيد وإن التعب قد أضناهم وكاد
 يقعدهم عن الحركة ✽ وكان الجواسيس قد التقوا بالشيخ العبيد فاستمالهم بالرشا والبراطيل
 حتى مالوا إليه فأسر إليهم أن يخذعوا محمد علي بيك ليجذبوه بعساكره إلى الأحراش والغابات
 كي يتمكن هو ومن معه من البطش بهم فلما أعلموا محمد علي بيك بخبر قلة العدو وما هو
 عليه من الجهد زحف بعسكره ومتطوعته وكان قد لحق به كثير من المتطوعة من أهل
 الخرطوم طمعا في إحراز الغنائم من الاقوات لانهم كانوا في حاجة إليها فلم يبلغوا منتصف
 الطريق حتى خرج عليهم كينان من وسط الغابات أحدهما من خلفهم والثاني من أمامهم
 وداهماهم على غرة ففسلوا وتمزق عقد نظامهم وأثنى فيهم العدو فقتل محمد علي بيك وسائر

من معه من مقسدى العسكر ولم ينج الا بضع عشرات عادت بهم السفن الى الخرطوم وما
انتشر نعي القتلى حتى ضجت البلد بالعويل والبكاء من كل صوب ودرب وخن غردون حزنا
عظيما وكاد يستسلم للقضاء المحتم وقد جاءته أخبار جواسيسه بزحف الخارجى على الخرطوم
فنظر فلم ير أمامه بابا يلج في طلب النجدة الا استعطاف السير بارنج بعصر لعله يفرج
كربته بنفر من العساكر الانجليزية سوى ارسال الكولونيل استيورت الذى كان في ركابه
من الخرطوم الى دنقله ومنها الى القاهرة مزودا بالرسائل والكتب بطلب النجدة فانحدر
استيورت هذا من الخرطوم على احدى البواخر فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة
احدى وثلاثمائة وألف وتبعه باخرتان تحملان بعض المقاتلة وانحدر معهم كذلك نفر من
المهاجرين يريدون اللحاق بدنقله فينبأهم في طريقهم خرج عليهم العدو وجعل يطلق عليهم
بنادقه وهم يجتدون المسير حتى وصلوا بربر فرجعت باخرتا الحرس عن فيها من المقاتلة
وانطلقت سفن المهاجرين تمخر في النيل وخلفها باخرة استيورت تشق عباب الامواج والعدو
من ورائها وعلى يمينها وعلى شمالها يطلق عليها نيران البنادق الى أن قطعت الشلال الاول
واستيورت بحث ربانها على الاسراع في المسير أكثر فأكثر حتى ارتطمت بصخر عظيم ولم
تكن الا لحظة حتى دخلها الماء وملاً جوفها فانزعج استيورت ولم يوفق لتسكد طالعه الا الى
القاء المدفع الذى كان معه وسائر الذخيرة في الماء وأنزل متاعه في زورق وساربه مع من كان
معه من الخدم والاتباع الى جزيرة في وسط النيل ونزل بها فأشار عليه بعض من كان معه
أن يسير بالزورق الى حدود دنقله ثم يرسل من يحمل الخدم والاتباع فامتنع من ذلك ولم
يقبل لتفاذ القدر المقدور وبينما هم في تردد وحيرة اذ أقبل عليهم جماعة من أهل السلامة
ونادوا بأنهم في طاعة الحكومة وأنهم على عهد الخديوى فأرسلوا لنا بنفر منكم لتسلكم معهم
فصدق استيورت كلامهم وأرسل اليهم جماعة من الأتباع وملاحى البارجة فعبروا النيل
والتقوا بأولئك القوم وسألوهم عما اذا كانوا باقين على الطاعة فأقسموا أنهم على ذلك فعاد رسل
استيورت وأخبروه بالخبر وبأنوا ليلتهم تلك بالجزيرة فلما أصبحوا جاء اثنان من القوم يقولان
لاستيورت ان شيخ القرية قد عاد من غيبته وعلم بما أصاب باخرتكم فجهز لكم ما يلزم
من دواب الحمل وهى في انتظاركم بالجانب الشرقى من النيل فان شئتم فاعبروا وامشطوها
وسيروا على بركة الله - قال ففرح استيورت بذلك وعبر مع من كانوا معه وهم زهاء خمسة
وأربعين ونقلوا متاعهم فلم يجدوا غير سبع من النوق ضئيلة فقالوا لهم ان الفرق آتية
الساعة فلبثوا في انتظارها حتى قارب الزوال وبينما هم كذلك اذ جاء رجل من أهل القرية
يقول لاستيورت ان الشيخ أعد لكم طعاما فهياكلوا واشربوا هنأ مريثا فقام استيورت من
ساعته ولبس ملابسه كأنه ذاهب الى وليمة أحد الاصدقاء ولم يأخذ لنفسه شيئا من الحبيطة
أو الخذر وسار معه قونصلا النمسا والفرنسيس اللذان نزلا معه من الخرطوم وترجمانه
فلاقاهم أهل القرية بالترحاب وبشوا في وجوههم وأدخلوهم في مكان فسيح كان فيه

نجسوا رجلا في زى السيارة فرحبوا بهم وهنؤهم بالسلامة ثم انصرفوا عنهم لحظة لطيفة وعادوا فانقضوا على استيورت والقونصلين وأغمدوا في رقابهم السيوف وذهب جماعة من القرية الى شاطئ النيل وأعملوا السيف فبين كانوا هناك حتى أفنؤهم جميعا وأخذوا كل ما كان معهم من متاع وأوراق وكتب غردون التي كان استيورت يحملها وأرسلوا بجميع ذلك الى الخارجى - قال ففرح الخارجى بها فرحا عظيما وأمر فدقوا البشار وطير الخبر بذلك الى غردون وعرض له بذكر ما في كتبه التي كان استيورت يحملها ودعاه الى الطاعة والدخول في عداد الدراويش فخرن غردون حزنا شديدا وأيقن أنه لم يبق في طاقته دفع هذا المقدور وتحقق الناس طرا أن الخرطوم ساقطة لا محالة وأن جميع من بها هالك ولا شك وقد كانوا أحصوا من بها من المصريين فقط فكانوا مائتى ألف فلا حول ولا قوة الا بالله

(ملطب)
اشتداد الحال
على بربر ومن بها

والى هذا الحين كانت قد اشتدت الحال على بربر وضافت ذرعا بأمرها ووصل اليها دعاة الخارجى وضيّقوا عليها المسالك وأمسكوا عليها الاطراف فجعل من بها من المرابطين وأهل البلد يصيحون المدد وكتبهم تأتى الى مقر الخديوى وديوان الوزير نوبار باشا وقد أرسلوا يوما عريضة على لسان البرق تشتمل على عبارات تؤلم القواد وتفقت الاكباد فما جاء فيها قولهم هل من العدل أن نترك فريسة للعصاة ضحية سوء سياستكم يا أصحاب الامر أين العاطفة الانسانية والشهامة والحجة أين منا جرائم لوندرة وجعياتها المزرية بالاسترقاق ما بالها أغفلتنا وقد باعنا رجالها للهلاك بفساد سياستهم وها نحن نحسد الارقاء فانهم آمنون على حياتهم ونحن لا نأمن على الحياة والعرض والمال فأين الدولة البريطانية العظمى التي وعدت وصرحت برغبتها في انقاذنا وانتشالتا ألم بنا ما بالها لا تتقدم الى وفاء الوعد والقيام بالواجب قبل انقضاء الاجل وهل تمد يد المعونة بعد أن نذوق حقتنا فتقينا من القبور أو كيف وما القصد والداعي الى تقاعدها وتهاملها بل ما كان الموجب لاسترجاعها عساكرها بعد حلولها في سواكن واعلان عزمها على كشف الضيق الحائق بنا أما نحن فلا نستمد الفرج من انجلترا وحدها بل نلتس اسعافنا بالقوة من أية دولة كانت فان القصد الوحيد انقاذنا من الموت الزؤام وحفظ أعراضنا وأموالنا فالمدد المدد يا أولياء الامر المدد اه * فصاح حينئذ لصيحتهم هذه أصحاب صحف الاخبار المحلية وجعلوا يقرعون الهيئة الحاكمة ويخطون عليها باللائمة وهى لاتقدر على نجدة أهل بربر ولا على مكاملة صاحب سياسة الانجليز في ذلك بعد الذى تحقق لها من اشتداده في طلب اخلاء السودان جميعه من المصريين ومن معهم مهما بلغت الضحايا وعظمت الرزايا * وأخذت الخديوى آخذة من الغم بجمع اليه سائر الوزراء وبينهم الوزير محمد شريف باشا ومصطفى رياض باشا وخيرى باشا وعمر لطفى باشا وثابت باشا ومحمد سلطان باشا وتناجوا فيما عليه أهل بربر فبعد أخذ ورد ظهر عجزهم عن نجدة القوم وأن الجلاء عن بربر خير من البقاء فاشتدت جلبتهم وطال بينهم الجدل فأخذت أحدهم عند ذلك « ولعله الوزير محمد شريف باشا »

هزة الغضب فقال ما بالكُم تقولون غير ما تفعلون وتطلبون ما أنتم عن ادراكه عاجزون وكأنكم تجهلون أو تجهلون أنكم أمسيتم كالريشة أمام مهب الريح ازاء وزير السياسة الانجليزية لا تملكون من أنفسكم ولا من أموالكم وعمالكم شيئاً منذ احتلت جنودهم البلاد وهاكم كتب صاحبهم ناطقة بذلك ومشيئة الى ما هنالك فعلام هذا الاجتماع والام نتغافل ونتعاضى عن الحقائق ﴿ قال الراوى ﴾ وبينما هم على هذه الحال اذ جاءهم الخبر بأن داعية الخارجى فى أرباض بربر أرسل كتابا الى حسين باشا خليفة مدير بربر يدعوه الى التسليم هو ومن معه من المرابطين وأهل البلد فامتنع فنادى داعية الخارجى عند ذلك فى عسكره وجوعه بالتأهب لحصار البلد ومنع الوارد عنها حتى يسلم من فيها أو يموتوا جوعاً فأكبر الوزراء الامر جدا وأرسلوا فى الحال الى صاحب السياسة الانجليزية يسألونه عما يفعلونه فجاءهم الجواب بأن لانجدة الا بعد أربعة أشهر يعنى ابان الشتاء فانفض مجلسهم يومئذ على ذلك * وكتب الوزير نوبار باشا الى حسين باشا خليفة يقول ان قدرت على الدفع فادفع عن نفسك والا فاتحدر عن معك والسلام فلم تكن الا أيام قلائل حتى شاع الخبر بقيام سائر القبائل المتأخرة لبربر الى نجدة أصحاب الخارجى على قتال من فى البلد وانضمام بعض المرابطين اليهم أيضاً وكان من وراء ذلك ما سبتلى عليك فى محله والامر لله من قبل ومن بعد

وصل

(فى سقوط أم درمان والخرطوم وما جرى بعد ذلك)

لما وردت أخبار النصر على الخارجى تباعاً من كل صوب وحذب تقوّت عزيمته واشتد ظهره فرسم الى عبد الرحمن ولد التجوى صاحب الراية البيضاء الذى سبق الكلام عليه بالزحف على الخرطوم ومعه ستون راية يتبع كل راية زهاء ألف مقاتل خاضعين الى أمير وهذا الأمير خاضع الى ولد التجوى وانضم الى جيش ولد التجوى أيضاً عبد الله بن النور فى عشرين راية أخرى ومعه بعض المدافع التى غنمها من المصريين ﴿ قال صاحب كتاب السودان ونادى مناديه فى الناس من شاء الغزو والجهاد فى الكفار فليلق على بركة الله بجيش ولد التجوى فخرج الناس أفواجا أفواجا من الاحرار والعبيد فبلغت بهم عدة الجيش زهاء ستين ألفاً وبينهم عشرة آلاف من الجنود السود بالبنادق ونحو عشرة آلاف فارس مدججين بالسلاح فوصل هذا الجيش العرمرم الى بلدة الجريف فى أخريات ذى القعدة من السنة أى سنة احدى وثلاثمائة وألف ونزل بها ولد التجوى أياماً حتى تكامل عسكره فقسمهم الى ثلاثة معسكرات وشاد القلاع وأقام الحصون وحفر الخنادق وأنشأ المتاريس وسلم الى مقدمى العسكر مواضع الدفاع ومفارق الطرق وأرسل الى غردون يدعوه

الى التسليم ويحذره من عاقبة الامتناع - قال - وتراجع أيضا المنهزمون من جماعة أولاد الشيخ العبيد وعسكروا في الخلفايا كما كانوا واحتفروا الخنادق وعملوا المتاريس فكانت مقدوفاتهم تصل الى منزل المدينة بعنى الخرطوم وشوارعها وتلحق الضرر بالسكان وتمت كثيرا منهم في كل يوم ولبت الحال على هذا المنوال الى أوائل المحرم افتتاح سنة اثنتين وثلاثمائة حيث زحف الخارجى في جيش عظيم قيل انه يبلغ زهاء الستمائة ألف مقاتل يريد أم درمان فلما صار على مقربة منها أرسل جواسيسه فدخلوا الخرطوم ولم يشعر بهم أحد وصاروا ينشرون ككتب الخارجى بين الناس وكلها حض وتحريض على شق عصا الطاعة والاجتماع على نصرته وألقوا بشوارع البلد من تلك الكتب شيئا كثيرا * وأقام الخارجى بمكانه حتى تكاملت لمومه فرسم لهم بالهجوم على أم درمان وكان بها جماعة من العساكر المصرية والعساكر السود فهجم القوم عليها في أوائل النصف الثانى من المحرم هجمة قوية فقابلتهم الجنود بنار حامية واشتدت عليهم برى القنابل فترجعوا عنها خاسرين وقد مات منهم خلق كثير فكبر الأمر على الخارجى ونادى في قومه بالقتال ثانية فقاتلوا قتالا شديدا حتى ملكوا من البلد بعض المواقع الامامية ثم حاصروها حصارا شديدا الى آخر ربيع الاول فنفسد ما كان عند الحامية من المؤن ولم يبق عندهم شئ يقاتلونه فسلموا الى صاحب الهدوية بآشارة من غردون فأحسن الخارجى معاملته كبارهم واستخدمهم في مصاف جيوشه

فلما سلت حامية أم درمان وشاع خبر ذلك بين من بالخرطوم من العساكر والاجناد وهنت عزائمهم وظهرت عليهم علامات الخجور وزاد الامر شدة نفاد ما فى المخازن والاشوان من المؤن والغلال وعدم امكان الحصول على شئ منها من الخارج لاختد العدو بطراف الطرق فتغشت المجاعة بأسرع ما يكون واشتد الجوع بالناس فصاروا يقتاتون ورق اللوبيا العفنة كانوا يطبخونها ويلعقونها - قال - وكان قوت الحامية من الصمغ مخلوطا مع جوار النخل وقد شوهد أن الذين يقتاتون هذه الاصناف يصابون بالاسهال وتظهر على وجوههم اعراض تشبه اعراض مرض البرقان ثم تنقص قواهم الجسمية فى مدة ثلاثة أيام وتعقبها اعراض الموت - قال - ومن غرائب ما رأينا فى حصار الخرطوم أن صيادى السمك قبل الحصار كانوا يصطادون فى كل يوم نحو ألف قنطار من الاسماك ولما بدأ الحصار انقطع وجود الاسماك كأنها فرت من فرقة البنادق وهزيم المدافع حتى ان غردون انتهى سمكة يتغذى بها قبل سقوط الخرطوم بأربعة شهور فلم يتيسر الحصول عليها وكما أن الاسماك هجرت شواطئ الخرطوم فان أراضي بساين المدينة التى كانت تقوم بحاجة سكانها من البقول والفاكهة أصبحت فى إبان الحصار وقد تلفت كل مزروعاتها ولم ينبت فيها شئ من البقول وذهبت أشجار الفاكهة وتلاشت محصولاتها - الى أن قال - وكانت أسعار الاقوات فى البلد حتى سقوطها كما يأتى ثلاثون ريالا ثمن الكيلة من الغلة وعشرة ريالان ثمن الاقة

البقسماط ونجسة ريبالات ثمن الاقة من اللحم البقرى وكان بعض السكان يذبحون الحر
الاهلية والحكومة تعاقب من يرتكب ذلك اه * واختل نظام الجند بالخرطوم فتمردوا على
كبارهم وساروا عصابات تعيث في البلد وتسطو على باعة الاقوات وتختطف كل ما هو معرض
للبيع ولحق جماعة كثيرة منهم بالخارجى عند أم درمان هربا من الجوع وكان غردون
مع كل هذه الكروب يظن أن صاحب السياسة الانجليزية ربما يكون غير أو بدل من
أسرار سياسته فيعمد الى ارسال حملة لخلاصه فأعد لاستطلاع طلع هذه الحملة الموهومة تسع
بواخر مدرعة كانت الى ذلك الحين تناوش العدو وتأتى بالمؤن الى الخرطوم من القرى فسير
بهذه البواخر الى المنة وبربر ولكن على غير طائل * وكان يضرع الى الله تعالى أن يقرب
عودتها حاملة أخبار تلك الحملة وظل على هذه الحال أياما ثم يئس وفنط وتولاه الحزن
والاضطراب فكان لا يستقر له قرار لا في الليل ولا في النهار وكان يغدو ويروح بين
الحصون والقللاع يشدد عزائم الجند بلين الكلام ويحضهم على الامانة والاخلاص وكان كلما
رأهم وهم يتألمون من وخز الجوع يذوب حسرة وتوجعا ويقول كيف يهدأ بالى وهما هي
جنودى تقامى ألم الجوع ومز العذاب قيل وكان يقضى اليوم والليلة لا يذوق الا الشئ
اليسير من الطعام وأكل جوار النخل أياما حتى أضناه وكاد يودى بحياته * وكانت كتب
الخارجى ترد عليه كل قليل يدعوه بها الى التسليم وترك العناد ويقول له فى بعضها ان
الانجليز ان قدموا لنجدتك فلا يصلون اليك ولا يكون حظهم الا كحظ يوسف الشلالى
وهيكس * قال صاحب كتاب السودان وكتب المهدي ثلاثة كتب الى غردون

نص الاول منها - بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد
فن العبد المعتصم بمولاه محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا هداه الله الى طريق
النجاه قبل أن يتلانى آمين نعلمك أن جوابك رد المحرر منا وصل الينا وفهمنا مضمونه
وقد عذرناك على عدم إذعانك واجابتك لنا بالطاعة كما طلبنا منك وذلك لانك لم تدر
الحقيقة التى نحن عليها ونحسب مقامنا ودلالتنا على الله وشفقتنا على عموم خلق الله حتى
من هو مثلك ولكن لم يطب قلبنا بصرف النظر عنك ولا زلنا ندارجك عسى الله أن يهديك
الى سواء السبيل فأجب داعى الله واغتنم سلامتك من الشر الوبيل فقد رأيت ما حل
ونزل ولا زلت ترى ولا طاقة لك ولا لأعوانك بحرب جند الله عز وجل وقد ذكرت أن
عبد القادر ولد أم مريوم حبيبك وتقبل قوله ونصيحته وتطلب ارساله لك فعلا م ذا هل
أنت منيب الى الله وقصدك التسليم لنا على يد المذكور أم أنت على تصميمك على اعراضك
ومعاداتك لربك فأفدنا على هذا لنعلم طلبك له على أى الوجهين ونرسله لك ان رأينا فى
ذلك صلاحا للدين وأقول لك ان عزة الاسلام خير لك وأبقى لنوام احترامك فى الدارين
فتحل بها ان عقلت والسلام

قال - والكتاب الثانى بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة

على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن العبد المفتقر الى الله المعتمد به محمد المهدي ابن عبد الله الى غردون باشا أسلم تسلم يؤتلك الله أجرك مرتين فان أعرضت كان عليك لعنك ولعنت من معك فقد أتى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجردة الآتية لو كان معي أمامها ستة أنفار تموت أو نجسة تموت أو واحد يموت أو وحدي كذلك ولو كانت مثل ورق الشجر ونبت الوعر وموج البحر وقد أتاني خبرها تموت أيسر من موت جردة ولد الشلالى وهيكس وسأملك المديريات الغربية كلها والبحر الابيض وكذلك موعود بجميع البلاد فالامر لله وما دام أن الله القادر أيدى بالكرامات والنصر فلا يضرنى انكار منكر وانما يضر نفسه فقط والامر الذى وعدت به من رسول الله صلى الله عليه وسلم جار على أن الجردة التى تعتمدونها مالها وجه يوصلها لكم لسد الانصار الطرق فان أسلمت وسلمت فقد عفونا عنك وأكرمناك وسامحناك فيما جرى منك وان آيت فلا قدرة لك على نقض ما أراه الله وسترى والسلام اه * تحشية - وان طلبت زيادة بعد وصول جوابي هذا فتخبرك المرأة الواصلة اليك وان رأيت التمكن واليقين ان أردت التسليم أكثر من هذا الجواب فسنرسل لك عبد القادر ولد أم مريوم لزيادة الطمأنينة فى الامان ولا مانع وبذا لزمت التحشية اه بنصه

قال - والكتاب الثالث بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن العبد الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا وقاه الله كل شر لاشئ فان أراد الله سعادتك وقبلت نصحتنا ودخلت فى أماننا وضمننا فهو المطلوب وان أردت أن تجتمع على الانجليز الذين أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فنوصلك اليهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت وقد أخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بهلاكهم فالى متى تكذبنا وقد رأيت ما رأيت يخيه الله ولذلك أحببت لك أن لا تهلك مع الهالكين لانا قد سمعنا مرارا أن فيك الخير ولكن قد كاتبناك للهداية والسعادة فما أجبنا بكلام يؤدى الى خيرك كما نسمعه من الواردين والمترددين والآن ما أيسنا من خيرك وسعادتك ولما سمعنا من الفضل فيك سنكتب لك آية واحدة من كتاب الله عسى أن تيسر هدايتك بها اذ جعلنا الله باب الرحمة والدلالة الى الله ولذلك طالما كاتبناك لترجع الى وطنك وتحوز فضيلتك الكبرى ولا تيأس من الفضل الكبير أقول لك قال الله تعالى - ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيمًا والسلام * وقد قلت فى جوابك الذى أرسلته اليانا ان الانجليز يريدون أن يفسدوا وحده منا بعشرين ألف جنيه ونحن نعلم أن الناس البطالين يقولون كلاما كثيرا ليس فينا وذلك ليصدوا من أراد الله شقاوته ولا يعلم نفيه الا من اجتمع بنا وأنت ان قبلت نصحتنا فيها ونعمت والا فان أردت أن تجتمع بالانجليز فبدون نجسة فضة نرسلك اليهم والسلام اه بنصه

قلت وقد عثرت على صورة كتاب آخر من ذلك الخارجى الى غردون يقول فيه
بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد مع التسليم
وبعد فن العبد الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى عزيز بريطانيا والهندوية
غردون باشا قد وصلنا جوابك وفهمنا ما فيه والحال أنك تزعم ارادة اصلاح حال المسلمين
وفتح الطريق لزيارة قبر النبي عليه الصلاة والسلام واتصل المودة فيما بيننا وبينكم واطلاق
المسيحيين من النصارى والمسلمانيين وأن تجعلنا ساطنا على كردفان فأقول والامر لله انى
قد دعوت العباد الى صلاحهم وما يقربهم الى ربهم وأن يفرغوا من الدنيا الفانية الى
دار البقاء ويعملوا ما يصلحهم في آخرتهم وقد كتبت الى حكمدار الخرطوم وأنا بأب
بدعوته الى الحق وبأن مهديونى من الله ورسوله ولست فى ذلك بتحميل ولا مرید ملكا
ولا جاها ولا مالا وانما أنا عبد أحب المسكنة والمساكين وأكره الفخر وعز السلاطين
ونبؤهم عن الحق المبين لما جبلوا عليه من حب الحياة والمال والبنين وهذا هو الذى
صدهم عن صلاحهم وأخذ نصيبهم من ربهم فأخذوا الفانى وتركوا الباقي واشغلوا
بما لا يكون من الفانيات ولم يسمعوا قول الله ولا رسوله ولم يذكرُوا خبر أهل القرون الذين
لم يغن عنهم ذلك شيئا وتندموا على قدر الذى تمتعوا به فأيدنى الله تعالى بالمهدوية الكبرى
لدلائهم الى الله تعالى ولتذكروا العز الفانى والنعيم الفانى الى العز لدايم والنعيم الأبدى
فى دار النعيم المقيم ولأعرفهم غرور من يريد العاجلة ويظن أنه ساع فى رضا الله ويكون له
نصيب فى الآخرة وقد قال المسيح عليه السلام يامعشر الخواريين ابنوا على موج البحر
لكم دارا واياكم والدنيا فلا تتخذوها قرارا « قلت ان المسيح لم يقل شيئا ولا شبه شئ من
هذا الكلام فى انجيله البتة » - قال المدعى - فن ظن أنه يخوض البحر من غير بلل
فهو مقهور وكذلك من ظن أنه يجمع الدنيا ويريد عزها وجاهها ويكون له فى الآخرة شأن
فأنب الى الله الباقي واخضع لجلاله واطلب عز الآخرة ولا تظن أن هذه الدنيا دار بقاء
حتى تسعى لملكها وعزها وكيف من يكون على خلاف طريقة النبي صلى الله عليه وسلم
من يرغب زيادة الكلاب كما ورد فان الدنيا جيفة وطلابها كلاب ولم يرغبها فن عبد غير
الله نسي الله وأعرض عن كلامه وطلب متاع الحياة الفانية فان كنت شقيقا على المسلمين
فالأولى أن تشفق على نفسك وتخلصها من سخط خالقها وتقوّمها على اتباع دين الحق باتباع
سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى أحيا ما اندرس من ملل الانبياء عليهم
السلام الذين لو حضروا لما سلكوا غير ملته وكلهم يتمنون أن يكونوا من أمته ومن
حضر بعثته وما بعد لا يقبل منه دين غير سكتة فظهر نفسك أولا بالدخول فى ملته ثم
اشفق على أمته بسلول سنته فعند هذا فأنت الشقيق ومن غير هذا فما لك من المحقين
رفيق كيف وقد قال الله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم
أولياء بعض ومن يتولهم منكم فانه منهم ان الله لا يهدي القوم الظالمين - الى أن قال

انما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فان حزب الله هم الغالبون وانما امتثلنا امر الله فما نتخذ وليا الا الله ورسوله والمؤمنين وعلى ذلك قد وعدنا الله بالغلبة كما سمعته من قول الله هذا وما دام أن الله يقول هم الغالبون فلا غلبة لغيرهم فان رجعت عما أنت عليه من ملة غير الاسلام وأثبت الى الله ورسوله واخترت الآخرة نتخذك وليا وتكون من اخواننا وتكون المودة المطلوبة عند الله ورسوله وتكون ممن امتثل امر الله فاستحق الوعد والبشارة بعد هذه الآية في قوله تعالى ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم الآية فبعد هذا تظل المودة بيننا وتكون ممن عمل بالقرآن والتوراة والانجيل وتكون قد اتبعت باتباع نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عيسى وجميع الرسل والنبيين وحزب الخير الابدى * وحيث علمت من كلام الله أن حزب الله والذين وليهم الله ورسوله والذين آمنوا هم الغالبون فاعلم أن حزب الله واصل اليك مزيل لك عما شاركت به خالك فادعيت ملك عباده وأرضه مع أن الارض لله يورثها عباده الصالحين وان المسلمين والمسيحيين الذين دعوت باطلاقهم اليك فأنا أريد لهم الصلاح والنفع عند الله وفي دار الابد كما أريده لك ولكافة عباد الله خلا من جنتهم الى محنتهم فان الله قد أيدنى رحمة لعباده ولأنقذهم من الهلاك الذين هم واقعون فيه لولا رحمة الله بظهورى فيهم واعلم أنى المهدي المنتظر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا حاجة لى بالسلطة ولا بملك كردفان ولا غيرها ولا رغبة لى فى مال الدنيا وزخرفها وانما أنا عبد الله دال الى الله والى ما عنده فمن كان سعيدا أجابنى وتبعنى ومن كان شقيا أعرض عن دالتي فأزاله الله عن موضعه وأذله وعذابه عند الله الى الابد وقد أيدنى الله تعالى بالانبياء والمرسلين والملائكة المقربين وجميع الاولياء والصالحين لأحياء دينه وقد بشرنى النبي صلى الله عليه وسلم بأن جميع من يلقانى بعداوة يخذله الله ويهزمه ولو كان الثقلين الانس والجن فلا تغتر فتهاك كما هلك اخوانك فافهم وسلم تسلم

وأما الهدية التى أرسلتها لنا فعلى حسب نية الخير جزاء الله الخير وهذا الى الصواب واعلم أنه كما كتبنا أنا لا نرغب فى متاع الحياة الدنيا وزينتها وانما هى قصد المترفين الذين لم يكن لهم عند الله نصيب فهذا هى مرسله اليك مع ما نرغبه من الملبس لنفسنا ولأصحابنا الذين يريدون الآخرة ويرغبون فيما عند الله من الخير الباقي الأبدى ليستحقوا بذلك نعيم الابد وملك الدوام كما درج على ذلك الانبياء والمرسلون وجميع السعداء من عباد الله الصالحين وتعلم ذلك أنت حقيقة من سيرة عيسى عليه السلام وحواريه وقد قال كتبت لكم الدنيا فلا تغشوها بعدى « قلت والمسيح لم يقل هذه الترهات أيضا ولا جاءت فى انجيله » - قال - فتعلم بذلك أن من خالفه من الاحبار والرهبان وجميع من يدعى اتباعه ليسوا محقين وانما غرتهم الحياة الفانية والامتنعة الآيلة الى أن تكون جيفة وعذرة ثم عدما

محضا فتكون حسرة ورزا عند فراقها وما فوتته من اكتساب خيرات الدوام ثم إن مثل هديتك عندنا كثير ولكن أعرضنا عنه طلبا لما عند الله وأقول لك في ذلك كما قال سليمان عليه السلام لبلقيس وقومها أتمدون بجمال فما آتاني الله خيرا مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون واعلم أنك إذا أتيتنا مسلما نؤنسك ونريك من النور ما يطمئن به قلبك ويزول به طمعلك في الدنيا وما فيها ثم بعد ذلك ان رأينا فيك خيرا وصلاحا للمسلمين ولينالك كما فعلنا ذلك بمحمد خالد المشهور بزل مديرا دارا سابقا فانه لما آتانا ورأى الحق وفرح بلاقائنا وندم على ما فات مما ضيعه من عمره في الفاني واطمأن قلبه بالايان واختار الآخرة ووثق بالله وليناه على دارفور وقد كتب لنا قبل ذلك عبد القادر سلاطين « يريد سلاطين باشا » بالتسليم فأكرمناه والى الآن نريد كمال تربيته وهو الآن في خير كثير وكذلك السيد جمعه الذي كان مديرا لفاشر والآن أرسلنا الى محمد خالد المذكور يأتي به اليانا لكمال التربية والارشاد وبلغنا حسن اسلام الدمري سجاوده وصدق اتباعه لنا وانابته للآخرة وكذلك جميع أمراء النقط بدارفور قد أدعناوا لله كباقي سلاطين دارفور وسلوا جميعا أمرهم اليانا في حب الله ورسوله فحسن تسليمهم واتباعهم لنا وكذلك الملك آدم ملك جبال تقلى الآن أتى مهاجرا لما رأى الحق وحسن اتباعه وصدقه وقد أكرمناه وهو الآن معنا بخير كثير وهلم جرا فكل سعيد لا بد أن يتصل بنا من جميع أقطار الارض ومن أي لا بد أن يخذله الله ويعذبه في الآخرة كما أشار الى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم مرارا وليكن معلوما عندك يا حضرة الباشا أن جميع الذين قتلوا على يدي قد أنذرتهم أولا انذارا بليغا وها هو واصل اليك انذار ولد الشلالى بعد مخاطبته لى وانذار هيكس بأجوبة عديدة وجواب مخصوص له ولأ كابر جيشه وقد أرسلنا الى باشة الابيض بجواب فقتل رسلنا وبعد أن وقع في يدنا أكرمناه وأعطيناه جبة جميلة ليتدرج الى الصديق مع الله ولا زلنا نكرمه ونعظمه ليقتندي بنا ويصدق مع الله فيكون من الاصحاب الذين هم كالنفس فلم يصدق ولا زال يقع فيما يهلكه ونحن نصفع عنه حتى أخذته منيته فات ومع ذلك لاجل مبايعته لى ومجالسته معي أياما قد آتانا خبر بعد موته أنه عفى عنه في الآخرة فصار من السعداء والعبد اذا كان يسعد في الآخرة فهو المقصود ولا خير في الدنيا ولا في نعيمها بل انما متاعها يكثر الحسرة والحبس فقط يوم القيامة وينتفى بالعباد سعادتهم في آخرتهم الابدية وازالة الهلاك عنهم من الله ولذلك لا طغت جميع الاكابر من الدولة والحكام فما عملنا معهم الا الخير والاكرام فن صدق منهم معنا فهم الآن في خير كثير وازدياد شرف والسلام - وبعد هذا البيان فان اهتديت وسلت لى واتبعته حزت شرف الدنيا والآخرة وفزت بأجره وأجر جميع من اتبعك والا هلكت فكان عليك إثمك وأنام جميع من اتبعوك وان كان لك حسن نور في العقل تعلم أنى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تهمني فيما أسوق به الى الله

والدار الآخرة ولم تسمع على قول الظلمة الحساد الذين يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم - ويأبى الله إلا أن يتم نوره - وقد قال صلى الله عليه وسلم من شئ في نصرة المهدي فليقرأ قوله تعالى هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون وقوله كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ولزيادة الشفقة عليكم لزمتم التحشية بهذا والهادى هو الله وكثرة البيان لانهدى هداانا الله والعباد الى الصواب آمين اه بنصه

فيل وكتب المدعى على الظرف الذى أرسل فيه هذه الرسالة ما نصه سأنتك بحق الله ونبيه عيسى عليه السلام أن تقف على أجوبتنا هذه بالحرف الواحد وقد أبلغنى محمد سعيد المسلمانى الذى يسمى جرجو اسلامبولى أن رجلا يسمى السيد افندى نعيم الاجرجى له معرفة بلغتكم وبالخط العربى وما دام انه يعرف الخطين واللغتين نرغب منكم الوقوف على ما فى هذا الظرف بجميعه حرفا حرفا على يد المذكور أو من هو مثله والسلام

وأرسل الى غردون بعد هذه الرسالة خطابا يذكر له فيه بيان الهدية التى أرسلها اليه فى مقابلة الهدية التى كان غردون أرسلها عنده مقدمه الى الخرطوم ونص هذا الخطاب بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله المولى الكريم والصلاة على سيدنا محمد وآله مع التسليم وبعد فن عبد ربه الفقير الى الله محمد المهدي بن عبد الله الى غردون باشا باطلاعك على ما تدون بالجواب اليك تعلم باطنه وبه كسوة الزهاد أهل السعادة الكبرى الذين لا يبالون بما فات من المشتبهات طلبا لعل الدرجات وهى جبة ورداء ومراويل وعمامة وطافية وخزام وسجدة فان أنبت الى الله وطلبت ما عنده لا يصعب عليك أن تلبس ذلك وتتوجه لدايم حفظك وهما هو الرسول الذى أتانا منك واصل اليك مع رسل من عندنا كما طلبت والسلام اه وعندى أن هذا الجواب يجب أن يكون أول كتب المدعى الى غردون ومع ما فيه من سماجة الاسلوب وركاكة التركيب فاني أستبعد أن يكون من انشائه اذا جزمنا بأن الخطاب الثالث الذى هو أحد الخطابات التى نقلناها عن صاحب كتاب السودان هو من انشائه وعلى كل حال فانها كلها تدل على مبلغ اعتقاد الرجل فى دينه وبقينه الثابت بأنه هو المهدي المنتظر بلا جدال

وجعل غردون منذ اشتداد العدو على حصون البلد ومعاقبتها يدبر واسطة لخلاص قناصل الدول الذين كانوا معه فى الخرطوم فلم يقبلوا وقالوا لا بل نبقى حتى تصل الجنود الانجليزية فأجابهم غردون الى ذلك وقد كانت الاخبار جاءتهم بأن صاحب السياسة الانجليزية أرسل لخلاص غردون ومن معه حملة كبيرة بعد أخذ ورد لا محل لا يرادها هنا وان تلك الحملة بلغت النيل عند المته فقاتلها انصار الخارجى قتالا عنيفا فقهرتهم وغلبتهم ووردت الاخبار كذلك الى الخارجى بما وقع لاصحابه فاضطرب وجع اليه خواصه وأهل شوره وكلهم فيما هم فيه فاختلقوا قتهم من أشار عليه بالزحف فى جيوشه وأنصاره والوقوف فى طريق الانجليز وقتالهم حتى ينجز لهم الله النصر ومنهم من أشار بترك حصار

الخرطوم والجلاء عنها والرجوع الى كردفان والتحصن فيها ومنهم من أشار بغير ذلك
 قال الراوى ثم سكتوا لحظة فالتفت الخارجى الى أبى قرجة أحد الامراء وعبد القادر
 على ابن عم الخارجى وقال وأنتما ماذا تقولان فقال أبو قرجة ان الفرنجة لا يقصدون
 الا الخرطوم فاذا بلغها مائة منهم تعذر وقوعها في قبضتنا فالرأى عندى أن نقاتل من بها
 ونلج في قتالها حتى نفتحها فاذا وصل خبر سقوطها اليهم ارتبكوا وتولاهم اليأس فنكز
 عليهم ونقاتلهم حتى نقهروهم وقال عبد القادر مقالة أبى قرجة أيضا فظهرت عند ذلك
 على وجه الخارجى علامات الفرح وقال هذا هو الرأى الصواب فنعمل به ان شاء الله تعالى
 وقد كان الخارجى الى هذا الحين يظن أن المؤن عند حامية الخرطوم كافية وأن أهل البلد
 في أمان من الجوع كما كان يكتب اليه غردون كل قليل من الايام فكان لذلك يخشى
 الزحف على البلد وفتحها عنوة وكان يحسب لذلك حسابا كبيرا فلما قال أبو قرجة وعبد
 القادر مقالتهما هذه اشتدت عزيمته وزال خوفه وعقد النية على مهاجمة البلد وفتحها
 وكان من عساكر الباشيوزق سنجقان قد مالا الى دعوة الدعاة وكانهما استوثقا لانفسهما
 منهم **ق** قال صاحب كتاب السودان نفرجا في احدى الليالى من البلد سرا ولحقا
 بالمهدى فأكرم مشواهما وقربهما منه وسألهما عما فيها من المؤن والعسكر فأعلماه بكل
 شئ وكشفا له عن عورات البلد وهونا عليه فتحها ودلاه على مكان في طرف الخندق من
 ناحية النيل الابيض قد انحسر عنه الماء فلذلك يسهل الولوج منه الى البلد ففرح
 المهدى بذلك فرحا لا يوصف فلما كان صبح الاحد ثامن ربيع الثانى من السنة أى سنة
 اثنتين وثلاثمائة وألف خرج المدعى من كهفه وعلى رأسه مقطف من الخوص مملوء رملا
 وسار ف تبعه الناس حتى جاء الى شاطئ النيل فأحاط به الناس احاطة السوار بالمعصم فوقف
 صامتا لا يتكلم والناس كأن على رؤسهم الطير ثم صاح الله أكبر على الخرطوم وأخذ
 حفنة من الرمل بيده ورمها في اليم فصاح الناس جميعا الله أكبر على الخرطوم وما زال
 يصيح هكذا ويلقى بالرمل في اليم والناس يصيحون بعده بمثل مقالته حتى فرغ ما في
 المقطف فالتفت الى من هم حوله وقال يا قوم ان النبى صلى الله عليه وسلم قال لى يا محمد
 اهجم على البلد في هذه الليلة فتسقط في يدك لائحة قال ذلك وعبر النيل الى الجانب
 الشرقى يريد معسكر ولد النجوى وبعد صلاة العصر ركب بجلا فاحتشد الناس حوله فأثنى
 على ولد النجوى وقال له ان النبى صلى الله عليه وسلم بشره بالاستيلاء على الخرطوم في هذه
 الليلة وأمره أن يقسم مقاتلته الى ثلاث فرق كقلب وجناحين ويكون هو في القلب
 ومعه الفرسان ويكون الحاج محمد أبو قرجة قائد المينة ومعه جملة البنادق ومحمد نوبارى
 شيخ قبيلة بنى جراد احدى بطون قبيلة الكبيش قائد الميسرة ومعه العرب والبقارة
 أصحاب الحراب والسيوف وأن يكون هجوم القلب على نقطة الوسط من الخندق عند
 البرج المعروف باسم باب المسلمية - قال وهى مقر فرج باشا الزينى قومندان الحامية

ويكون هجوم المدينة على الخندق مما يلي النيل الأزرق لجهة برى ويكون هجوم الميسرة على الخندق مما يلي النيل الأبيض عند المكان الذى انحسر عنه الماء وتراكت عليه الاحوال وصار فى الامكان الوصول منه الى المدينة وقدم المهدي عمر ابراهيم وهو أحد الصنّيقين اللذين دلا على عورات البلد الى محمد نوبارى قائد الميسرة بصفة دليل يرشده الى ذلك المكان « يعنى المكان الذى انحسر عنه الماء » ودفع اليه شخصا آخر اسمه بدوى الدنقلاوى وكان كيالا فى الشون بصفة دليل ثان وأصدر المهدي الى محمد النور أمرا قال فيه ما يأتى - لدى دخولك المدينة يجب أن تقصد سراى غردون على الغور وتبلغه تحيتي ثم تحافظ على حياته ولا تترك أحدا يتعدى عليه حتى توصله الى سالما بغير أن يصيبه مكروه وخطب على الجميع قائلا لا يتعرض منكم أحد الى حياة غردون بسوء لاني أريد أن أفدى به أحد عرابي باشا ثم خطب فيهم يحضهم على الجهاد ويدكرهم بنعيم الآخرة وقال لهم في ختام خطبته احلوا الحشائش لالقائها فى الخندق حيث تحتازون عليها وقفل راجعا الى أم درمان ومعه عبد الله التعايشي وترك الخليفين محمد شريف خليفة الكرار والخليفة على بن حلو خليفة الفاروق واجتاز النهر آيبا الى أم درمان اه

وكثر عبور المقاتلة من أم درمان الى الخرطوم وجعل مقدم العساكر المهدية يطلق مدافعه من أم درمان على الخرطوم تباعا من عصر الاحد ثامن ربيع الثانى الى ظهر الاثنين تاسع الشهر المذكور وكان يوم الاحد يوما لا شمس له قد حجبتها الغيوم المتلبدة والضباب المتكاثف وكان البرد قارصا وعلم غردون بحركة العدو واحتشاده فصعد الى سطح داره ومعه قناصل الدول وجعل ينظر بالنظارات الى كثرة العدو وعجوره النيل فانزعج وتحقق أن العدو على أهبة الزحف على البلد فى تلك الليلة فأمرع الى الحصون والمعقل وجعل يستنضهم الجند ويحثهم على الصبر فى الدفاع فكافوا فى شغل عن كلامه بما هم فيه من الجهد والتعب وما أصابهم من الضر فعاد الى مقره قبل والدمع ملء عينيه فقابلته قناصل الدول فقال لهم لا قدرة للجنود على دفع العدو وقد دبرت لكم أمر النجاة فلم تقبلوا فلا ذنب لى ولا جناح على ولا بد للعدو من ولوج البلد فى هذه الليلة ثم صاخبهم جميعا قائلا انى أبرأ الى الله والعالم أجمع من تبعة كل داهية تلم بكم فقالوا نحن نشهد بما تقول فصاخبهم ثانية وكانت مناوشات العدو فى ازدياد من ناحية الخندق ومن جهة أم درمان وشاع الخبر فى نحو الساعة العاشرة ليلا أن العدو على عزم الهجوم على البلد فوقع الهرج فى الناس وعلت الضوضاء فلم تكن الا ساعة حتى دخل العدو بخيله ورجله وساروا نحو مقر غردون وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم ۞ قال صاحب كتاب السودان وكان القائد فرج باشا واقفا وقت زحف العدو عند باب المسلية فلما أحس بدخول الميسرة الى الخندق مما يلي البحر الأبيض أمر بفتح باب المسلية حيث فر منه بعد أن تنكر بلباس جندي ومعه القائم مقام سرور بهجت ولما دخل محمد نوبارى المدينة قصد بكل مقاتلته

سراى غردون - قال - وكانوا زهاء مائة ألف مقاتل فأطل غردون من النافذة ونظر اليهم ثم قال لحراسه لا تبدوا معارضة لأى أحد يريد الوصول الى وياكم أن تبدوا أقل دفاع - قال - ولبس كسوة التشريفة الصغرى التى هى ملابسه اليومية على الدوام وتقلد سيفه ولبس طربوشا ووضع عليه رداء حريبا «كوفية» وربطه بعقال كزى الاعراب فدخل عليه محمد نوبارى وجاعة من مقاتلته فوجدوه جالسا على كرسيه ممسكا بيده منديلا أبيض فابتدره أحد الدراويش وقال له أين أموالك يا غردون يا كافر قال فتبسم غردون ضاحكا وقال له أين محمد أحمد يقصد المهدي فابتدره الرجل بطعنة فى صدره خر منها صريعا على الارض يتخبط فى دمه ولكنه لم يفقد حواسه من هذه الضربة - قال - ونقل لى أحد الحاضرين أنه سمع واحدا من الدراويش صاح بالذى طعن غردون وقال له لا تقتله بل أبقيه كأمر المهدي فأجابه القائد محمد نوبارى بقوله ان الخليفة التعايشي أمر بقتله وكان صوته خافتا حين نطق بهذه العبارة قال ثم سجدوا غردون من رجليه ولم يكن قد فقد الحواس ولا قوة النطق حتى قيل أنه كان يتبسم وهو مسحوب على وجهه ثم أنزلوه الى حوش السراى وهناك قطعوا رأسه وأرسلوها الى الخليفة محمد الشريف الذى كان وقتئذ فى جامع الخرطوم فاتسب محمد بن عبد الكريم من أقارب المهدي فركب البخرة اسمعيلية وأوصل رأس غردون الى المهدي الذى أنكر قتله وصاح قائلا لما ذا قتلتموه ألم أنهيكم عن قتله فقال له التعايشي ان قتله خير من استحيائه فبدت من المهدي علامات الغضب وأسرع بالقيام ودخل الى منزله ونصبت رأس غردون على خشبة طولها متران وأخذ الصبيان والنساء يرجونها بالحجارة ويهينونها بالبصق حتى تهشمت قطعاً صغيرة اه ووردت الاخبار تنفا الى القاهرة بسقوط الخرطوم فى قبضة الخارجى واستسلام من بها من المرابطين وموت غردون ومن كان معه من قناصل الدول فكان الناس يتحدثون فى هذا الامر همسا ولا يصرحون به عسى أن يكون من سقط الروايات أو من تضليل الرواة وكانت الحملة التى سيرها الانجليز لاستخلاص غردون معقودا لوائها الى الجنرال ولسلى صاحب موقعة التل الكبير أو هو فاتح مصر على المشهور وقد سارت مدججة بالسلاح مثقلة بالشئ الكثير من الكراع والمدافع الحديثة الطرز والمؤن والخيول ودواب الحمل وكثير من سفن النقل فجعلت مركز حركتها مدينة أسوان وجعل الجنرال ولسلى يترفع بالجنود الى أرض السود يريد اللحاق بالخرطوم قبل أن يتمكن الخارجى من فتحها وقيل بل كان فى تردد وحيرة وكتب صاحب سياستهم تأتبه تباعا تارة بالاقدام وأخرى بالاجسام والخبرون يأتونه من الانباء بأشكال متضاربة حتى وقع فى القنوط واليأس أو كاد وكثر نوارد كتب الخديوى على ولسلى أيضا فى طلب معرفة بعض الشئ من أخبار الخرطوم وما حل بها فلم ينل مأربا واختلط الحال كذلك على قناصل الدول وكثر تساؤلهم وتردادهم على ديوان الوزير نوبار باشا يسألون عما حل بقومهم النازلين بأرض السود فلم يعرفوا من خبرهم شأ سوى الشائع بين

الناس * وجاءت الاخبار في هذا الحين أيضا بوصول طائفة من العساكر الإيطالية في عدة
وذخيرة عظيمة الى فرضة مصوع وأنهم قد احتلوا بعض المواقع في ضواحي البلد وهم على
عزم الزحف الى بربر للالتقاء بجيوش الجنرال ولسلي وانقاذ غردون ومن بالخرطوم فكان
الناس بين مصدق ومكذب اذ البلد تابعة لمصر وكان الخديوي ورجاله لا يعلمون من أمر
هذه العساكر وزولها على مصوع شيئا الا بقدر ما تعلمه العامة وأصحاب صحف الاخبار
أو كانوا يعلمون بحقيقة خبرها ولكنهم كانوا يتجاهلون كيلا يوقفوا الفتنة الراقدة وكان مقدم
سياسة الانجليز لما عول على ارسال جيش ولسلي الى الخرطوم عن طريق اسوان استمال
السنمور كرسبي وزير ايطاليا يومئذ الى أن يمد جيش ولسلي بعدد من العساكر الإيطالية
يسيرون الى فرضة مصوع ومنها الى بربر فيلتقون بالجيش ويتضافرون جميعا على غزو
ما فتحه الخارجى من البلاد وجماعة الايطاليين في مقابلة ذلك فرضة مصوع وما والاها من
بلاد الصومال وما جزاء الاحسان الا الاحسان ففرح كرسبي بذلك وأرسل أولئك العسكر
على السفن والشواني الكبار فأزولهم في بعض المواقع القريبة من مصوع وضربوا خيامهم
ولبثوا ينتظرون الاخبار عن جيش ولسلي وهم على أهبة الزحف على بربر وجعل كبارهم
يتقربون في تلك الايام من مشايخ القبائل الضاربة في تلك الاطراف ويتزلفون اليهم
بالهدايا والتحف فالتف حولهم بعض أولئك القوم وكشفوا لهم عن عورات الصوماليين
وهوّنوا عليهم غزوهم والغلبة عليهم وادخل بلادهم في طاعة سلطنتهم قيل فعاقدهم
وعاهدوهم على ذلك وكتبوا السر الى حين حتى كان من أمرهم وما وقع لهم ما سبتلى عليك
في محله ان شاء الله تعالى

وسار جيش ولسلي والاخبار عن الخرطوم ومن فيها تأتية مبتورة مقتضبة لا تشفى
عليها ولا تروى غليلا وعميون الخارجى من أمامهم ومن خلفهم وعن يمينهم وعن شمالهم
تنقل أخبارهم وهم لا يشعرون وكان أصحاب صحف الاخبار الانجليزية ينظنون الى هذا الحين
ان غردون حي يرزق وبعضهم يقول انه يقاتل دعاة الخارجى على بربر فاذا تقدم جيش
ولسلي الى ما وراء دنقله تمكن غردون من مبارحة الخرطوم والاتيان الى دنقله بطريق بربر
دون ان يلقي معارضة من أصحاب الفتنة اذ هم يخلدون الى السكينة بمجرد نزول جيش
ولسلي على دنقله وكان غيرهم يقول غير ذلك والعلم بمقتل غردون عندهم غير مقطوع به
وكان الخديوي قد رسم الى سائر المديرين والمشايخ والاعيان في جميع البلاد السودانية
بأن يكونوا عون الجيش وفي طاعة الجنرال ولسلي وشدد عليهم في ذلك تشديدا كأنهم باقون
على طاعة وولاء حكومته والامر يومئذ على غير ذلك وكثر توارد سفن النقل للجيش على
أشكال مختلفة يديرها جماعة من رجال البحر من أهل كندا وتقاطر مرور الشواني الكبار
صعدا وهبوطا الى اسوان وكبرت الحركة وعمرت اسوان بالبيوت والاشوان والخوانيت
لارباب التجارة والصناعة وأصحاب الوظائف ومقدمي العسكر وغيرهم وقدم بعض السعاة في

هذا الحين يكتب من غردون كان قد أرسلها قبل سقوط الخرطوم وكلها استجارية واستغاثة وإعلان بأن لموم الخارجى أصبحت أدنى من رمية قوس من الخرطوم ثم يقول في بعضها انى لأرى الخلاص الا اذا جاءنا عسكر من العساكر السلطانية العثمانية والا فالبلد ساقط لا محالة ويقول أيضا انه اذا جاءه الزبير باشا في نفر من أصحابه كانت النجاة على يده أيضا وكأنه كان يخشى اشتداد الفتنة بوصول جيش ولسلى أو كأنه قد أشفق على قومه من الوقوع في مخالب ذلك العدو الاسود وشاع خبر تلك الكتب بين الناس وتحدثوا بها كثيرا وكلهم يجمع على سقوط الخرطوم وموت غردون وتعذر بلوغ جيش ولسلى الخرطوم في الاجل المضروب لسرعة هبوط النيل وانحسار الماء وارتكاز أكثر شوانى النقل في معبر الشلالات حتى تعذر المسير فيها * ووصل ولسلى مع أركان حربه الى دنقله فلاقاه مديرها وأجله اجلا لا عظيما فألبسه ولسلى نيشانا انجليزيا وأراه مرسوم الخديوى الى سائر المديرين وأهل البلاد بمعاونة الجيش والطاعة الى مقدمه بجمع المدير الى ديوانه سائر المأمورين والجند والاعيان والتجار وتلا عليهم المرسوم وهو

من خديوى مصر وجميع ملحقاتها - الى حضرات المديرين والعلماء والقضاة والتجار ومشايخ القبائل وسائر أهالى السودان رعاياه اليكم سلامنا الخصوصى وبعد فان الجنرال ولسلى ذاهب الى السودان بوظيفة قائد عام للجيش الانجليزية بمقتضى مأمورية خصوصية ذات أهمية سامية وقد صدرت له من لدنا ولدن الحكومة البريطانية التعليمات اللازمة لاجل قضاء الغرض المطلوب على أحسن حال ولذا فانا نوصيكم جميعا بأن تكونوا خاضعين له مطيعين لاوامره مجيبين لمطالبه كي تفوزوا برضانا ويتمكن من اتمام المأمورية المنوطة به بأقل ما تقتضى من الزمن والسلام عليكم أجمعين اه * قال الراوى فعند سماعهم هذا المكتوب سكتوا ولم يعجبهم ما فيه * ورسم ولسلى بجعل دنقله مركز حركة الحملة ونقطة مخازن المؤن والكرام وجعل بلدة لدية أول النقط الاستحكامية ورتب جماعة من المرابطين فى مرمى لحفظ المواصلات وقرر القاعدة بينه وبين أركان حربه على أنهم يسرون بعد ذلك قاصدين بربر فاذا تمكنوا من فتحها زحفوا الى شندى فاذا قابلهم المهدي بأصحابه جعلوا تلك النقطة حدا فاصلا والا زحفوا الى الخرطوم وأنقذوها واشتدت الحركة لذلك فى دنقله وكثر توارد العسكر وانتشرت خيامهم حول البلد فلم تكن الا أيام حتى تفشت بينهم الامراض المعدية والحيات الخبيثة والجدرى فعظم قلق الجنرال ولسلى وضاعت تخميناته هباء منثورا * قال صاحب جريدة الغاريت الانجليزية يا لله ان المصاعب الحائلة دون تقدم جيش الجنرال ولسلى الى السودان ظهرت أكثر جسدا مما خننها ولسلى وقد تعود المرء أنه اذا صحته له نبوة مرة حاول التكهّن أخرى ولكن لعمرى ما كل مرة تسلم الجرة ولا كل مرة يصح التكهّن فقد قال هذا المقدم الكبير قبل مبارحة الآل والوطن ان جيشه يجمع فى دنقله سابع عشر شهر نوفمبر وأنه سيجلس مع غردون على خوان الطعام خامس عشر

ديسمبر من السنة فيها قد مضى الاجل الاول ولم يجتمع من عساكره في دنقلة الا العدد القليل فاذا كانت نيته أن لا يتقدم الى عظمور أبي جد قبل احتشاد جميع عساكره في دنقلة فعسير عليه اذا المسير قبل أخريات يناير افتتاح سنة خمس وتسعين وثمانمائة وألف أما اذا بلغت به الجسارة مبلغها ونهض الى الخروج مع فرقة الهجاة المسلحة على خطر معاناة الفشل فيتعذر عليه التقدم قبل منتصف شهر يناير المذكور - قال فقل لي بحقل اذا أين هذا التاريخ وتاريخ وصوله الى الخرطوم من الاجل الذي ضربه ليا كل فيه مع غردون على خوان واحد ان في ذلك العجب العجيب اه * وشاع الخبر يومئذ بأن ولسلي سير رسله الى الخارجى في طلب تقرير قاعدة الصلح والكف عن القتال فلم يفلحوا فاستنجد الناس من ذلك خرج موقف جيوشه وتحققوا خبر تفشى الامراض الخبيثة فيهم وإشفاق ولسلي عليهم وقد جاءت كتبه الى القاهرة بتعجيل ارسال المؤن والادواء والأكسية وسائر احتياجات العسكر فجهلوا بارسالها في الليل والنهار وظهرت الحركة تحت قلعة الجبل وفي بولاق التكرور وبالغوا في التعجيل بتسيير قطورات السكة الحديد تباعا حتى كان بعيد ذلك ما سيتلى عليكم في محله

وصل

(في حركة بمداخري)

بينما كانت الخطوط في حركة واضطراب دائمين بسبب الفتنة المهدوية وتباين الاخبار عن هم في الخرطوم من الجند والعسكر والاهل والمال والولد ظهرت حركة أخرى اذ جاء الخبر من زعيم سياسة الانجليز بمقدم عظيم من عظمائهم الى القاهرة اسمه اللورد نور ثيرون ومأموريته هي أن يفحص فيما عليه البلاد من خير أو شر وما تحتاجه دواوين الحكومة من القلب والابدال كان الذي أتاه دوفرين رسولهم من قبل لم يكن شياً مذكورا فلم تكن الا أيام حتى وفد الرجل ونزل ضيفا على السير بارنج ثم جعل يجتمع برجال الدولة وأصحاب الحل والعقد وأرباب المناصب العالية فيحادثهم في أمر المكوس والضرائب وأمن البلاد ونظام عمل وعمال الدواوين وغير ذلك ثم سار عن القاهرة فطاف الاقليمين القبلي والبحري واجتمع بكثير من أعيان البلاد ومشايخها وكلهم في الامر كذلك ثم قفل راجعا الى القاهرة وكان قبل مبارحته عاصمة الانجليز قد أرسل الى الهند في طلب قاض من قضاتها وأصحاب الشورى فيها فجاء الى القاهرة رجل طويل القامة أسمر اللون طويل اللحية أسودها تظهر على وجهه علامات السذاجة اسمه سميع الله خان ومعه صبي في الرابعة عشرة من العمر قالوا والرجل صديقي اللورد نور ثيرون جاء به ليطلع على قانون البلاد المعمول به في محاكمها الجديدة ويعمل فكره في تنقيحه وفي التوفيق بين الشريعة المدنية والشريعة

الحنيفية وتوحيد المحاكم المصرية وتشريع شئ جديد يناسب روح العصر فأدهش الناس حضوره اذ البلاد بلاد علم وعلماء الشرع فيها ليسوا بقليلين فلبث سميع الله هذا بالقاهرة أياما زار فيها سائر دواوين الحكومة ورجال الدولة وقاضى القضاة بمصر وأرباب المحاكم الاهلية فلم يظهر للناس من أمره شئ وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فجاءنا الامر من الوزير نوبار باشا بلقاء الرجل فلاقيناه على الرحب والسعة وجلس يتكلم بالعربية مع غاية البطء والتكلف وعلامات الاعجاب والخيلاء بادية على وجهه فقال - أنتم تنظرون المقدمات يريد هل أنتم تنظرون في قضايا الاحوال الشخصية وكان يتكلم وهو يقلب صفحات نسخة من القانون الاهلى فقلت ان للمقدمات التى يعنىها الاستاذ محاكم أخرى وقضاة آخرون فقال وكنم من المقدمات عندكم اليوم * فقلت لا شئ منها عندنا وكما قلت لك هى من خصائص المحاكم الشرعية فسكت لحظة ثم قال * أنتمكم تحكمون بشريعة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم * فقلت قد شغلنا عن الحكم بها شاغل من هذا الذى بيدك وأشرت الى نسخة القانون فدمدم بالهنسية وقال أنتمكم تجلسون وين فأخذت بيده وأريته قاعة الجلسة وسائر غرف المحكمة فكان ينظر اليها وهو باهت جامد ثم رحل عنا الى القاهرة قيل واجتمع بشيخ الازهر وبعض كبار العلماء وحدثهم فى شئ من شريعة بلاده وما هو عليه القضاء فى مدن وقرى الهند الانجليزية قالوا وبالغ كثيرا فى مدح الامة الانجليزية وفى رجال دولتها ثم رحل عن القاهرة الى عاصمة الانجليز وغاب عنا كما غابت عن الناس نتائج مأموريته * وكان قد حضر قبل سميع الله هذا آخر من الانجليز اسمه كليفور دليود وهذا قد كانت مهمته تغيير نظامات الحكومة واستبدال عاداتها المعمول بها من القدم بأخرى تناسب روح العصر الجديد وتنطبق على المألوف من عادات البلاد والشريعة الانجليزية وتنفيذ ما أسسه اللورد دوفرين من اللوائح وقننه من القوانين فكان الرجل من شر الرجال متسرعا مخاطرا نفورا محتالا مستخفا بعظام الامور صلفا عنيدا مكابرا فعات وعبت وجعل يغير من شرائع البلاد ويقلب من عاداتها ويسن البدع ويبدع السنن السيئة ويكتب مشايخ البلاد والقرى ويزين لهم الخروج عن حدودهم التى ألفوها وينظر الى سائر المأمورين وأصحاب الوظائف العالية بعين السخط والقلى ويمد يده الى كل عمل ويقع على المديرين والمأمورين باللائمة والتقريع لأقل سبب واتخذ له مقرا بديوان الداخلية وصار يسمى نفسه فى كل يوم باسم جديد فتارة يقول مأمور الاصلاح وأخرى يقول مستشار الاصلاح وآونة مدير النظام وأخرى منشئ التحسينات المستحدثة وغير ذلك من الاسماء والعنوانات المتشابهة وهو كالهر الذى عثر عليه الاعرابى وقد سماه له الناس بأسماء كثيرة فأكبر ثمنه فلما وجدته على غير ذلك ضرب به الارض وقال لا بارك الله فيك ما أكثر أسماءك وأقل ثمنك * وظل كليفور دليود هذا على ما وصفنا من التخرش بسائر أمور الحكومة مع بسط يده على كل شئ حتى ضج الناس وبعجوا وصاح المأمورون والحكام صيحة

الفجر والمثل وقد أعيا الوزير نوبار باشا أمره وعجز عن رده وإيقافه عند حده فأرسل كتبه الى زعيم السياسة الانجليزية يشكون من فعال الرجل ويحذرون أصحاب الحل والعقد في دار السلطنة الانجليزية من شر العقوبة ويلقى كل تبعة على الرجل بخفاء الامر بجلعه فانخلع وسار الى بلاده متكررا وقد ترك من آثاره ابطال سائر دواوين أصحاب الشحنة وتقليل اختصاصات بعض الدواوين الاخرى وتقليل سلطة أعضاء مجلس شورى البلاد وعدم تقييد الهيئة الحاكمة بأرائهم والاستغناء عن العدد العديد من أصحاب الوظائف وقفل أبواب الرزق في وجوه المرتقة من أبناء البلاد

وقدم الى القاهرة في هذه الفترة شارب سايد عامل الانجليز على شرق السودان وسواحل البحر الاحمر يسأل الوزير نوبار باشا والسير بارنج استبقاء شرق السودان وعدم تركه لأصحاب الثورة - قال - حتى يتمكن جيش الجنرال ولسلى من الغلبة على أصحاب المهدي واستخلاص الخرطوم ومن فيها وكان قد جاءه الامر بالتخلي عن بعضها لدعاة المهدي وبعضها الى نجاشي الحبشة بما فيها من متاع وكراع فلم يردا من الشخصوس الى مصر ومكالمه الوزير في ذلك اشفاقا فعقد الوزير مجلسه في دار السير بارنج وحضره عبد القادر باشا ومصطفى فهمى باشا والجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية بديار مصر والمستشار المالي وشارب سايد وتكلموا في الامر طويلا وحرروا بما وقع عليه الاتفاق محضرا وأرسلوه الى دار السلطنة الانجليزية وانقض مجلسهم يومئذ على ذلك وأرسل الوزير في ذلك اليوم أيضا الى الجنرال ولسلى قائد الحملة يسأله عما يكون قد أخبره به جواسيسه من أبناء الخرطوم ومن فيها فلم يحصل الا على بعض كليمات كلها أحاجي ومهميات لا تشفى غليلا على حين أن الاخبار مترادفة على بعض ذوى المقامات بالقاهرة ومصر بوقوع النفور والوحشة بين الجنرال ولسلى ومدير دنقلة واعراض ولسلى عن المدير اعراضا تاما - قالوا - وذلك لامتناع المدير من المسير عن عنده من العساكر في طليعة الحملة الى بربر وتكلم أصحاب صحف الاخبار بعزم ولسلى على تحويل سير الحملة من طريق النيل الى سواكن وكادت تحقق الاشاعة بعبور بعض سفن النقل والشواني الكبار ترعة السويس الى سواكن وثبت الخبر القائل بأن دعاة المهدي ومن التف حولهم قد تحصنوا بعبور بربر وإن طلائعهم نازلة في جهات مروى أو ما يتقدمها وأنه لما علم ولسلى بذلك أخذ الحيلة ورسم بعدم تجاوز عسكره الدبة قربصوا بها وهم على قدم الالهبة والاستعداد لصد العدو عنهم وأرسل كئشتر بعض الجواسيس من الدبة الى الخرطوم عساهم يأتون ببعض النشء من أنبائها فلم يتمكنوا من ذلك وجاء الامر الى شارب سايد عامل شرق السودان بالشخصوس الى سواكن واجلاء الحامية الباقية هناك وترك البلاد كافة لمن يطلبها من الحبشان وأصحاب عثمان دفنه فسار على عجل وانقطعت أخباره أياما ليست قليلة

وتوالت الطلبات على الخزينة وكثرت النفقة فتعذر على أصحاب الحل والعقد رتق هذا

(مطلب)

وتوالت الطلبات
على الخزينة لكثرة
النفقة

الفتق فعمدوا الى ايقاف دفع أقساط استهلاك ديون الخزينة في آجالها فأوقفوها فقام عند ذلك أصحاب صحف الاخبار الأجنبية وقعدوا لاسمها منهم أصحاب صحف الفرنسيين والألمان وصاحوا يا لثارات أصحاب الديون وكان الوزير نوبار باشا يتنى لو انه يتمكن من اظهار عجز الخزينة وعدم قدرتها على القيام بنفقة ربا ديونها لعل الدول تساعد على تخفيضها رجة بالبلاد وأهلها فقام يومئذ أعضاء صندوق الدين في وجهه ومانعوا في ذلك بإيعاز من دولي الألمان والفرنسيين وأقاموا الحجة ضد ناظر الخزينة ومديرى الاقاليم المرهونة ايراداتها لوفاء الديون ثم رفعوا دعوة بذلك أمام المحاكم المختلطة فلم يسع الوزير يومئذ الا العدول عما كان يقصده ورسم بدفع الاقساط في آجالها فسكنت الخواطر واطمأنت القلوب وعاد الناس الى حديث السودان وجيش ولسلى ولم يلتفتوا الى ما أصبحت فيه البلاد من الضنك والمحن المتتابة بسبب المصاريف الفادحة المترتبة على تلك الفتنة * وبينما هم على هذه الحال اذ جاء الخبر من ولسلى وهو يومئذ في بلدة القرطى بأن مقدمة جيوشه السائرة في طريق الصحراء التقت بطلائع الدراويش في نقطة فيها آبار تبعد عن المئمة زهاء خمسة عشر ميلا قال - فاقتتل الفريقان قتالا عنيفا واختلطامعا فكان القتال شديدا والطعن مميتا وظلوا على هذه الحال من الضرب والنزال بضع ساعات حتى انهزم الدراويش ومات منهم خلق كثير وكذلك من الانجليز وجرح كثير من العساكر ومقدمو العساكر وتشتت شمل من بقى من الدراويش وجعل الانجليز بعد هذه الموقعة الشيعاء يتقدمون نحو المئمة ثم جاء الخبر مفصلا فدل على أنه بينما كانت مقدمة جيش ولسلى تتقدم نحو آبار أبي كلبة القريبة من المئمة راجعة من آبار غدقول تريد اللحاق بالمئمة تقدمت طليعة من الفرسان لتستكشف موقع العدو فرأت العدو في عدد وعدد عظيمين عند آبار أبي كلبة ففقلت راجعة على الاعقاب وأخبرت بما كان فلم تتمكن العساكر من مناوشة العدو لدخول الليل ولبأوا وهم على قدم الدفاع وبينهم وبين العدو ثلاثة أميال أو نحوها وقد اقتلعوا ما وجدوه في مواقعهم من الاشجار والاحجار وأنشؤا زريبة وضعوا فيها المؤن وآلات الحرب وشيدوا أمامها حصنا ليحتموا فيه وكان في أعلى جبل هناك نفر من العدو يرصدون مسير الحملة وحركاتها فأحسوا بقدم العسكر فأخبروا رفاقهم فجعلوا حينئذ يطلقون على العساكر نيرانهم واستمروا على ذلك طول ليلتهم تلك فأطلق عليهم كذلك جناح الحملة الايمن ثلاثة مدافع وأصبحوا وقد نادى مقدم العسكر بالزحف فتقدموا نحو العدو وناوشوه القتال فلم يتحرك ولا بادروا بالهجوم على الانجليز كما كان يؤمل فأنهزم فتقدمت العساكر نحو العدو على شكل مربع قوى الاضلاع فتحرك العدو عند ذلك وجعل يرقب مؤلفة المربع ثم اختفى معظمه عن الابصار وقد تركوا راياتهم مركوزة في الحملة التي كانوا نازلين بها وهى خدعة قد احتالوا بها ليستقدموا الانجليز في بعض العقبات كي ينقضوا عليهم ويظفروا بهم ولقد كان كذلك فان الانجليز انخدعوا وتقدموا فلم تكن الا لحظة حتى عادت طلائع العدو وأخذوا يقذفون

على مقدمة مربيح الانجليز نيرانهم الحامية ويرسلونها عليهم لإرسالاً فقتلهم الانجليز بأشد منها وظلوا على هذه الحال ساعة لم يشعر الانجليز بعدها الا وقد هجم العدو على مؤخرتهم هجمة عنيفة وخرق صفوفهم فالنجم الفريقان ووقع الضرب والطعان وتراسلت على السود النيران قيل فانقهروا وولوا الادبار وقد انصبغ أديم تلك البيداء بالدماء واكتسى بجثث القتلى والاشلاء من الفريقين وسار الانجليز بعد إصلاح حالهم ودفن جثث أبطالهم يريدون آبار أبي كلبة فيبلغوها قبيل الغروب فاستقوا منها وقد كادوا يهلكون من الظما وسقوا خيلهم ودواب جملهم وضربوا هناك بعض المضارب لراحة الجرحى منهم وأقاموا حولهم رباطا وساروا يريدون المثة . وكان المهدي قد علم بأن الانجليز انما هم قاصدون المثة ليقبوا فيها الحصون والمعقل التي يتعذر على أصحابه أن يوقعوا بها فسير جماعة من المقاتلة ورسم لهم بالوقوف في طريق الانجليز ومناوشتهم القتال كي لا يتمكنوا من بلوغ المثة وقد أحس مقدم الانجليز يومئذ من كثرة انتشار المهديين في تلك الانحاء ووقوفهم في طريقه في كل صوب وحذب أن شئ من ساقطة في يدهم لا محالة وعلم أن المهدي نازل على أم درمان وان الحصن القريب من مدينة الخرطوم أصبح في قبضته فرأى أن المخاطرة بجنوده والتقدم بهم الى المثة ضرب من الهوس والجنون فأرسل الى الجنرال ولسلي في طلب النجدة واستحثه قبل أن يتمكن العدو من لم شعثه وارجاع الكرة على العساكر مع ما هم عليه من الضعف والتعب . وجاءت كتب المهدي كذلك الى سائر العربان ومشايخهم الضاربين في البيداء يحظر عليهم معاونة الانجليز أو أن يبيعوا لهم شياً من المؤن أو العلف لدوابهم أو أن يدلوههم على الطرق وتوعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور ان هم فعلوا شياً من ذلك فمزح العربان في الحال من تلك الاطراف وابتعدوا عن الطرق من لم يكن محارباً ووردت الاخبار بجميع ذلك الى جماعة الانجليز بالقاهرة فاشتد قلقهم وكثرت كهانة أصحاب صحفهم ونقله أخبارهم وجاءت كتب الخديوي الى الجنرال ولسلي بالاستعلام عن حالة جيش الكولونيل استيورت الذي سار الى المثة بعد تلك الواقعة الشعواء فأجابه ولسلي بما لا يشفي الغليل ولم يذكر شيئاً عن استيورت وجنوده فقال الناس قد هلك استيورت وجنوده وهو قول يكاد يكون له من الصحة نصيب لان بين آبار أبي كلبة والمثة مسيرة أربع ساعات للجدد المسافرين وثمان ساعات للبطيء المثقل فان لم يكن قد وصل بجيشه المثة ثاني يوم الواقعة فيكون قد قضى عليهم جميعاً كما قضى على جيش هيكس الا أن يكون قد أدركهم الله برجة منه . ثم تحقق الخبر بأنه بعد أن جرى ما جرى أقام الجيش على آبار أبي كلبة رباطاً قويا وسار يريد المثة فوصلوا الى آبار شبكات فلم يدركوها حتى تبينوا أن في المثة قوة كبيرة من أصحاب المهدي فعزل استيورت بالجيش عن الطريق واتخذ الجهة اليمنى طريقاً له فيمناهم يسرون مجدين اذ بدا للانظار تجمع لموم كثيرة من أصحاب المهدي على قيد غلوة من النيل لحط الجيش الرحال وأخذ الرجال في إقامة زريبة يجتمعون فيها ثم

يتأهبون للقتال فلم يكن بأسرع من أن أطلق عليهم العدو نارا حامية وأرسل الرمي واشتد في ذلك شدة بالغة فقتلت نيرانه جماعة كثيرة من الانجليز وجرحت قائدهم الكولونيل استيمورت جراحا بليغة فاستلم قيادة الجيش آخر اسمه الجنرال ولسن فأودع الجرحى والمؤن وآلات الحرب في الزريبة وسار بن بقي من الجيش يجتاز تلالا من الرمال على شاطئ النيل كان المقاتلون من أصحاب المهدي متترسين خلفها ومعهم طائفة كبيرة من الفرسان قترجع المهديون حينئذ وتبعهم ولسن بجندوه * فلما كان ثلثي يوم علم ولسن بأن البلد حصينة منيعة لا ترام وأن بها زهاء الالفين من الحامية بينهم ألف من العساكر المنظمة يرأسهم الامير نور أنقره وعندهم ثلاثة مدافع وكثير من المؤن والذخيرة فباتوا ليلتهم تلك وأصبحوا وقد جاءهم الفرج حيث رأوا أربع سفن حربية من سفن غردون وعليها بعض المقاتلة مقبلة ففرحوا بمقدمها فرحا لا يوصف فلما دنت من الشاطئ نزل منها خشم الموس باشا ومن معه من العساكر وانضموا الى جيش ولسن ولبثوا يومهم في تأهب واستعداد وأصبحوا وقد سير ولسن ثلاثا من تلك السفن لاستكشاف ما في شندى فعادوا وأخبروا بأن حامية البلد قليلة وليس عندها من الاسلحة وآلات الحرب سوى مدفع واحد فعدل ولسن عن مقاتلتهم وأنزل جماعة من عسكره بثلاث سفن من تلك السفن وترفع بهم يريد اللحاق بالخرطوم وترك بقية عسكره في كابوت بعد أن حصن البلد تحصينا منيعا حتى صارت لا ترام وجاء الخبر بذلك الى القاهرة ففرح به جماعة الانجليز فرحا عظيما وقالوا ها قد أصبح الجيش الانجليزي على أبواب الخرطوم وعدا غردون في مأمن من ذلك العدو فلم يبق على أولئك الابطال البواسل الا اقتسام الاسلاب والغنائم وبسط السلطة الانجليزية على تلك القارة السوداء من أقصاها الى أقصاها * كل هذا والعارفون بحقيقة ما أصاب غردون يسخرون ويقولون سبحان من يحيي العظام وهي رميم

وجعل جيش ولسن يخرب القرى المجاورة لكابوت ويدكها دكا حتى لم يبق بها حجرا على حجر وقد تركها أهلها ونزحوا الى الجبال مستصرخين الاهالي للاخذ بالشار * وكان الى هذا الحين لم يعلم ماذا جرى على جيش آرل الذي سيره ولسن عن طريق أبي جد نخاف أصحاب الحل والعقد من الانجليز الذين بالقاهرة أن يكون قد لحق به العطب فاستصرخوا نقلة أخبارهم بخفاء الخبر بوصولهم الى برقي الواقعة شمال أبي جد وأنه لم يلق في طريقه الا سرازم قليلة من أصحاب المهدي فبدد شملهم وأوقع بهم ولكنه عجز عن أخذ بربر ولن يتأتى له أخذها الا اذا ساعده جيش ولسن الضارب عند المنة وهذا عسير عليه الانضمام الى جيش آرل الا اذا تم له فتح المنة وشندى وتبديد شمل من بهما من المقاتلة وترفع ولسن بسفنه ومع الجنرال شارلس الذي كان ربان السفينة الحربية ألكسندرا يوم ضرب حصون الاسكندرية وآخر اسمه الكولونيل ورتلي ونجمة من ضباط العسكر ومائة من عساكر البحر فلما صارت سفنه على مقربة من حصون أم درمان لم تشعر الا وقد علتها

نيران مدافع العدو من كل صوب وتراسلت عليها القنابل من طوابي الخرطوم وطوابي معسكر المهدي واشتدوا عليها جميعا بالرعي فتأمل آرل ومن معه حينئذ فرأوا أن الخرطوم جميعها قد تهدمت وأن منازل الحكومة قد تلاشت فلم يبق منها حجر على حجر فأسرعوا متحدرين بالسفن فلم يتمكنوا من ذلك وقد أصابت قنابل العدو اثنتين من السفن فأغرقتهما بما كان فيهما ونجبا ولسن ومن معه وطلعوا الى احدى الجزر الواقعة أمام البلد وتمكنت السفينة الثالثة وكان عليها الكولونيل ورتلى من النجاة فالتحدرت مسرعة الى حيث مقدمة الجيش وأخبر ورتلى بما جرى فطيروا الخبر بذلك الى ولسلي مقدم الجيوش فأخذ في الحال يخبر صاحب سياستهم على لسان البرق من دنقله الى لندن عاصمة السلطنة الانجليزية مباشرة واختلط على ولسلي يومئذ الحال وفسدت تدابيرہ وانعكست آماله وقام أصحاب صحف أخبارهم وقعدوا وعلت ضوضاؤهم واشتدت جلبتهم وكلهم مجمعون على فساد رأى زعيم سياستهم وسوء تدبيره في ارسال جيش ولسلي وجعلوا يتكهنون بما أصاب غردون وما حل بالضعفاء من أهل البلد من النساء والاولاد حتى قال بعضهم ان حامية الخرطوم كانت صادقة في الخدمة أمينة اذ كان غردون يقول لهم كل قليل من الايام انه انما قدم اليهم من قبل الخديوى وأمير المؤمنين السلطان عبد الحميد فكانت واثقة من صدق الرواية دائبة على الطاعة وحسن الولاء فلما رأت رأى العين قدوم العساكر الانجليزية بأكسيتهم الحمراء وقبعاتهم المحذبة والمقعرة كذبت الرواية ومالت عن غردون وأبغضته ففتحت للعدو أبواب البلد فوجلها وأعمل فمين بها السيف ولربما أصاب غردون ما أصاب آحاد الناس ﴿ ٥٣ ﴾ قلت وحدثني في هذا الحين رجل ممن فرّ ناجيا من الخرطوم قال كانت جميع القبائل الضاربة حول الخرطوم الى ما قبل سقوط البلد مخلصه في طاعة الحكومة الخديوية غير هيابة للخارجي ولا مصدقة لدعواه ولا هي حاسبة له حسابا حتى تبدلت أحوال غردون واختلط عليه التدبير وساعت أعماله حيث أمر بتخريب المقام الخوجلى الواقع على قيد غلوة من الخرطوم وبقتل خدام المقام وخليفته فنفرت عند ذلك جميع تلك القبائل أى نفور وأخذوا من ذلك اليوم يضيقون على البلد ويمنعون عنها الوارد من المأكول حتى اشتد الجوع بمن فيها من الجند والناس فأكلوا الصمغ والجوار أياها حتى سقطت البلد وقتل غردون نجبا ومثلوا بجثته تمثيلا شنيعا اهـ وأرسل ولسلي سفينة لتأتى بالجناز والسن ومن معه ممن تركوا بالجزيرة بعد غرق السفينتين كما تقدم الكلام فأتوا بهم بعد العناية الشديد وقد عثروا في طريقهم بخمسة رجال من القارين من البلد فأتوا بهم الى ولسلي فأخبروه بمقتل غردون وما جرى عليه وكيف مثل العدو برأسه تمثيلا شنيعا في أم درمان وأكدوا ذلك بالأدلة والأيمان الغلاظ فطير ولسلي الخبر بذلك الى صاحب سياستهم قبل فاختلط عليه الحال واختلف مع أصحاب الحل والعقد فيما يفعلونه وفي الذى يشيرون على ولسلي بعمله وقام بينهم الخطباء والقوالون ينادون يا لثارات غردون ولبت ولسلي ينتظر الجواب وقد كان الى ذلك اليوم

يظن أن قبيلة الشايقية مازالت باقية على الولاء والاخلاص للحكومة الخديوية فلما جاء الخبر بسقوط الخرطوم آنس من هذه القبيلة الخروج ومشايعة المهدي أيضا ومظاهرتة على الانجليز فرسم الى سائر العساكر بالتحفظ وملازمة المعامل والمنايس حتى يأتيه المدد ولكن العربان لم تركهم بل هاجوهم عند آبار غدقول وأرسلوا عليهم الرمي بالبنايق أياما فلم ير وسلمى بدا من استمالتهم فسير اليهم رسلا يقولون ان الانجليز انما هم آتون من قبل ملكتهم لبث السلام في ربوعهم وانه خير لهم أن يخلدوا الى السكينة والطاعة فيكونون في مأمن على أرواحهم وأموالهم وعيالهم وهو يكفل لهم جميعا القيام بسائر ما وعدهم به غردون وظل على هذه الحال أياما والاختبار ترد الى القاهرة أشكالا وألوانا حتى شاع في خلالها أن قد وقع الاتفاق بين زعيم السياسة الانجليزية وزعيم السياسة الايطالية على حضور جماعة من العساكر الايطالية النازلين عند مصوع وما والاها ليجلوا محل العساكر الانجليزية بالقاهرة فيرحل حينئذ من القاهرة من الانجليز الى السودان لنجدة اخوانهم وتأكدت الاشاعة أوكدت بظهور الحركة بين قلعة الجبل ومنازل الجند بقصر النيل والعباسية وتسابقهم في جر المدافع وازال الأثقال والاحمال وآلات الحرب من مخازن قلعة الجبل وذهب طائفة من العسكر الى مدينة السويس بخيلهم ومدافعهم ونزلهم بخيامهم في ظاهر البلد أياما

وزاد الامر تخوفا وخبالا تحركت نجاشي الحبشة وتأهب عسكره لتذمره من فعال الانجليز وخرقهم للعهد الذي عاهدوه عليه من ترك ميناء مصوع وبوغس حرة له ومفتاحا لاملاكه لا يحتلها أحد غير عساكره ورجال دولته فانه لما علم بتوارد العساكر الايطالية ونزولها حول مصوع أكبر الامر وأعظمه وراسل المهدي ومناه بالمساعدة على قتال الانجليز وأرسل كذلك الى عثمان دقنه واستغرضه الى قتال الايطاليين وجاءت صحف أخبار الانجليز وهي ملأى بالخض على ارسال المدد الى سواكن والا اختلط على من بها الحال وتعذر الخلاص وكانت عيون عثمان دقنه وأرصاده على أشد ما يكون من اليقظة والانتباه فلما شاع خبر قدوم المدد من الانجليز الى سواكن أخبروا به عثمان دقنه فزحف عثمان بمن معه من المقاتلة وخيم في طمانيب فانضم اليه أ كثر القبائل الضاربة في شرق السودان وشايعة أهالي الكبيج وغيرها واجتمعت لديه قوة عظيمة مدججة بالسلاح وكلهم متحفزون للوثبة على القادمين من البر والبحر * وكانت الى هذا الحين ما برحت جملة آدل السائرة عن طريق أبي جند على قدم المسير والعدو يتخطف ساقها ويحول على عينها ويسارها وهي تدافع بالامر الخفيف فلما صارت في منتصف الطريق بين مروى وأبي جند بان العدو أمامها في عدد كثير ثم اختفى نخاف آدل شر العاقبة وأرسل طليعة للكاشفة فعاتت الطليعة وأخبرت بما رأت فتحرز آدل وجع جنوده وسار بهم حتى صار على مقربة من مواقع الثائرين وأحاط بهم من كل جانب فهبوا من مرباطهم كالاسود الضواري واشتبك القتال بين الفريقين

(مطلب)
تحركت نجاشي
الحبشة للحرب

فأظهر أصحاب المهدي بسالة واقداما غريبين واشتدوا في الطعن والضرب شدة بالغة وأبلوا بلاء حسنا وما زالوا حتى انكشف القتل عن قتل الجنرال آرل وأربعة من مقدمي العساكر الكبار ورفع العدو الى التلال الواقعة على شواطئ النيل وكان الذين يدبرون أصحاب المهدي في هذه الموقعة ثلاثة أمراء وهم موسى ولد أبي حجل وعلى ولد حسين وحامد ولد علي وقد ماتوا جميعا في ساحة الحرب وكان المقاتلون معهم نفرا من المناصر ونفرا من الرباطاب وجماعة من دراويش بربر ثم جعل من بقي من جيش آرل بعد لم شعثه يتابع السير الى أبي حمد وهم على أشد ما يكون من الجهد والاعياء وقد تولى قيادتهم الجنرال براكنبوري بعد مقتل آرل

(مطلب)

ارسل الامير
حسن الى السودان
باسم مندوب فوق
العادة

وبينما هم على هذه الحال اذ وردت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالملكة مع الأمير حسن أخى الخديوي في ذهابه الى السودان من قبل السلطنة الانجليزية باسم مندوب مدني فوق العادة بدلا من غردون الذي تحقق لهم خبر مقتله فصعد السير بارنج بالامر وكلم الامير في ذلك فأجابه الى ما طلب وقال لي شروط أشرطتها فقال السير بارنج وما هي - قال أن ترسل معي الحكومة الخديوية خمسة آلاف مقاتل من الباشيوزق وأن تكون لي الولاية العامة على السودان شرقا وجنوبا فأولى من أشياء من الحكام والمأمورين وأن يعطى لي التصرف المطلق في سائر الامور ولا يكون معي قط أحد من الانجليز - فلم تعجب صاحب سياسة الانجليزية هذه الاشتراطات وأرسل يقول اذا قبل الامير الذهاب بلا شرط ولا قيد نال رضا حكومة جلالة الملكة فأدعن الأمير وأطاع ولم يبد بعد ذلك معارضة ففرح الناس وقالوا ان أول الغيث قطر ثم ينهمل وبارح الامير القاهرة في نفر من الكلاب والجاوشية على الباخرة زينة البحرين الى اسوان ومنها الى قرطى مركز مقدمة جيش الجنرال ولسلي فلم تكن الا أيام من وصوله حتى ظهرت الحركة في قرطى واللبة وغدقول ودنقله وفي سوا كن وشرق السودان وبان عزم الانجليز على الجلاء عن تلك الاطراف أو كاد ووردت كتب صاحب السياسة الانجليزية بذلك الى الوزير نوبار باشا ثم لم تمض الا أيام على ذلك حتى أرسل الى الوزير يقول أن اتركوا السودان الى صاحب المهديوية واجعلوا وادى حلفا حدا بينها وبين مصر وعجلوا في ذلك * فاخملط حينئذ على الوزير الحال ونولاه الاستغراب فجعل يكثر من التردد بين مقر الخديوي ودار الوزير محمد شريف باشا وهم يتشكمون في الامر وقد استعصى على الناس ادراك مغزى هذه السياسة اذ كيف يرسلون بالامس الامير حسن مندوبا بدلا من غردون ليحافظ على ما بقي من البلاد في طاعة الحكومة وبسترجع ما يقدر على استرجاعه مما خرج منها واليوم يطلبون تخلي الحكومة عن سائر البلاد السودانية الى صاحب المهديوية بغير شرط ولا عهد واجلاء من بها من العساكر * واختلف الناس في أسباب ذلك الجلاء العاجل ففهم من قال انه مترتب على عجز جيش ولسلي عن مقاومة العدو وتقضى الامراض الخبيثة بين افراده وسوء الحال الذي بات

فيه كبار العسكر فضلا عن تعذر النجدة عند الاقتضاء قالوا فادا ظلوا مرابطين في مواقعهم التي هم فيها الآن أفنتهم الامراض العفنة والحيات الخبيثة ولولم يقاتلهم العدو فلذلك قد عجّلوا بالجلاء لفرصة في مستقبل الايام ومنهم من قال بل كان هذا الجلاء قسرا فانه لما تحقق قيصر الروس من اشتباك الانجليز مع أصحاب المهدي وأنهم سيتغلغلون في جوف تلك القارة السوداء ولا بد لهم من النجدة تلو النجدة والاشتغال بهذه الحرب الكئود وكانت مسألة تحديد التخوم بين أملاك السلطنة الروسية والديار الهندية لم تكن لتتم على ما يشاء الروس أمر القيصر بحشد الجيوش على تلك الحدود وسير المراكب والاثقال من المدافع والمكاحل والمؤن والذخيرة وبالغ في الحركة فصاح عند ذلك والى الهند طالبا المدد وهب أصحاب صحف أخبارهم يستصرخون الجيوش ومقدمي الجيوش وينادون يا قوم عصفور في اليد خير من ألف على شجرة فأشار عند ذلك زعيم سياستهم بالجلاء العاجل عن السودان واشتجاع عسكره على مقربة من ذلك العدو الكبير والذب المنظر ولولا ذلك لكان من العسير على الانجليز الجلاء في هذا الحين - فأنحدر ولسلى من دنقله الى القاهرة واجتمع بالسير بارنج والوزير نوبار باشا والخديوى فوقع بينهم من حديث الجلاء عن السودان ما لم يصل أحد الى معرفته وتحقق الناس جميعا أن ترك السودان الى صاحب المهديوية أصبح أمرا مقضيا وتأكد الخبر بأنحذار الامير حسن ومن معه من الخدم والاتباع وانزوائه في بيته وامتناعه من مقابلة أحد من الناس * ثم لم تكن الا أيام بعد مقدم الجنرال ولسلى حتى قبض نفر من عساكر الانجليز على الزبير باشا رحلت أحد عظماء السودان ونزيل مصر على عهد الخديوى اسمعيل وأرسلوه على ظهر إحدى سفن حربهم الى جبل طارق مبعدا عن الاهل والبلد بغير قضاء ولا حكم فاندش الناس وأخذتهم الطيرة وصاح أصحاب صحف الاخبار المحلية ووقعوا باللائمة على الخديوى والوزير نوبار باشا وقالوا كيف يصح للسير بارنج فعل ما لا يحل فعله في بلاد قائمة بحكم نفسها بمقتضى قوانينها وشرائعها والرجل مسلم لاسلطة للانجليز عليه فكانت صيحتهم كصرخة في واد أو نفخة في رماد وأقام الرجل مبعدا عاما أو بعض عام قيل حتى استكتبوه ما شاؤا ثم أرجعوه فلم يعرف أحد منه ما جرى له في منفاه

وجاء الخبر في هذا الحين بجلاء من في بلاد شرق السودان من العساكر المصرية فاستولى نجاشي الحبشة على بعضها واحتل جماعة الايطاليين البعض الآخر وبقيت سواكن تتجاذب بقاءها الظنون فيوما يقولون انه ستحتلها عساكر السلطان ويوما عساكر هندية انجليزية ويوما ايطالية والهيئة الحاكمة بمصر لا تبدى في ذلك نقضا ولا ابراما ثم سار الجنرال ولسلى الى سواكن فلبث بها أياما قلائل ثم عاد ومعه بعض كبار العسكر وكأنته قد ذهب لاجلاء من بها من الجند فلم يصل الى مدينة السويس حتى أخذ المرابطون بسواكن في الجلاء عنها فلم يبق بها سوى نفر من الانجليز والهنود وجماعة من المهندسين

وأركان الحرب رباطا وانحدر كذلك من كان في مروي من العسكريين الانجليزى والمصرى وانكف المأمورون عن شراء الجمال والخيول والبغال التى كانوا يشترونها من كل صوب لخدمة الحملة فكبر الخوف بأهل دنقله والباقيين على ولاء الحكومة مما سيجى بهم من ذلك العدو الكنود بعد جلاء العساكر عنهم فنزحوا أفواجا أفواجا وانحدروا الى اسوان وأسيوط والقاهرة ونزل العدد العديد منهم بالوكائل والدور المتخربة في ضواحي القاهرة ومصر القديمة وطاف بعضهم في الازقة والشارع يتكفون ويطلبون صدقة أهل البر والاحسان فكانت حالهم مما يرق لها الجلود فضلا عن العدو الكنود وقد أحصوهم يومئذ فكانوا زهاء خمسة عشر ألفا عدا الصغار منهم وقد لقوا مر العذاب عند جلائهم لانهم تركوا متاعهم وكل شئ لهم لتعذر النقل وامتناع أصحاب الحل من معاونتهم على الجلاء وقد بلغ ثمن الحمل خمسين جنينها وأكثر هذا اذا وجد ولم يتم جلاء الانجليز عن قرطى حتى احتلها أصحاب المهدي وأقاموا فيها المعازل والحصون واتخذوها مركزا لحركتهم الى دنقله عند جلاء العساكر الانجليزية والمصرية عنها * ومن عجيب الاتفاق أنهم ما احتلوا قرطى وبقيّة المواقع التى كان بها الانجليز والمصريون حتى أصابهم الجدرى والاسهال والحيات الخبيثة وعمل فيهم الموات عمله وقد كان الانجليز يقدسون هذه الامراض من قبلهم ومع ذلك فان أصحاب المهدي لم يبارحوا تلك المواقع ولم يثنوا عنان العزم عن انجاز كل ما رسم لهم به المهدي * وبينما كانت الجيوش تنحدر من أعالي انيل الى وادى حلفا واسوان وقد بلغ القاهرة جماعة من كبار العساكر اذ شاع الخبر وتناقله الناس بأن زعيم السيسة الانجليزية على عزم ارجاعهم جميعا الى مواقف القتال حتى يفتحوا ما تركوه من البلاد ويسترجعوا ما فاتهم منها - قالوا وذلك لانه جاءه الخبر اليقين بموت مدعى المهدي بالجدري في خامس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثمائة وألف ثم لم تكن الا أيام حتى وردت الكتب من مصوع وسواكن ودنقله وعن السعاة والجواسيس الذين أرسلهم الجنرال جرانفل باشا بصحة الخبر وبأن الذى تولى الخلافة بعده عبد الله التعايشى والتعايشى هذا كان رفيقا للمهدي منذ ظهوره أى من اليوم الذى كان أصحاب المهدي لا يتجاوزون الستة وقد لازمه ملازمة الظل للشبح فكان مدبر أموره وبيت سره ولكنه دونه في الذكاء وبعد النظر والدهاء

(مطلب)
عبث اللصوص
في شرق البلاد
وغربها

وكأن اللصوص وأشقياء الناس قد تحققوا من ضعف الحكومة في هذه الايام وعجزها عن الحركة والذب فكثروا في البلاد وانتشروا في الاقليم فافسدوا وأضرروا بالحرث والنسل وانبثوا عصابات في كل صوب وحذب فكانوا ينزلون على البلاد والقرى ليلا كأنهم المغازون الفاتحون فيقتلون وينهبون ويقضون ليلهم في التطواف على البيوت بين ضرب وطعن غير هيابين ولا وجلين وكانوا اذا دخلوا بيتا أوقدوا ما معهم من الشموع وأيقظوا صاحب البيت أو صاحبه وأجلسوها وسألوها عما عندها من مال أو متاع فاذا أجابتهم

بالحسنى ودلتهم على المكان أخذوا ما وجدوه وأكلوا وشربوا مما يعثرون عليه من طعام
 وشراب وخرجوا آمنين مطمئنين لا خوف عليهم وإذا رأوا من أصحاب الدار دفعا كانت
 الداهية الدهياء على البلد وجيع من فيه فيتفرون في أزقه ودروبه أو خارجا عنه
 ويصلون أهله نارا حامية ويفحشون في القتل والتخريب وهتك الاعراض وكان الذى
 أكبر فيهم هذه القحة المتناهية ما التقطوه من البنادق والخرطوش مما تركه العساكر
 المصرية إبان الثورة العرابية في ميادين القتال بكفر الدوار والمسخوطة والنل الكبير *
 وقد كنت يومئذ رئيسا للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة الاهلية فرأيت من غرائب أفاعيل
 أولئك الطغاة أمورا لا يكاد العقل يتصورها من ذلك أنهم سطوا ليلة على بلدة العزيزية
 « احدى بلاد الشرقية » وكان منسرحهم زهاء الاربعين لص وهم مسلحون ببنادق رمحجون
 التى التقطوها من ميادين الثورة فلما أحس بهم خفراء البلد قاموا في وجههم وأطلقوا
 عليهم البنادق تباعا فقابلهم اللصوص بالمثل واشتبك القتال بين الفريقين وخرج أهل البلد
 بما عندهم من الاسلحة وقاتلوا اللصوص قتالا عنيفا من بعد العشاء الاخيرة حتى مطلع الفجر
 وبينما النيران تتراسل بين الفريقين كان جماعة من اللصوص ينقبون جدران البيت حتى
 اتصلوا بمكان لرحل اسمه عبد الجليل أغا المورلى فدخلوه وأخذوا جميع ما وجدوه من
 حلى ومتاع وقتلوا صاحب البيت وابنته وخادما اسود وخرجوا بما أخذوه من وسط زحام
 أهل البلد وهم على أشد ما يكون من القحة والجراءة وقد أحصينا ما أطلقوه من الخرطوش
 فى تلك الليلة فكان زهاء السبعمائة خرطوشة واهتم الهيئة الحاكمة بأمر أولئك الاشقياء
 اهتماما عظيما فرتبت لمحاكمتهم محاكم فوق العادة باسم لجان تحقيق الجنايات وخولت لها
 شيا فوق الحقوق القانونية فجعلت من يومها تقبض على كل ذى شبهة وكل شق وتودعه
 الحبس ثم تتحقق من جنائنه وتحكم عليه بالعقوبات الشديدة بين قتل وأشغال شاقة
 ومؤبدة وسجن مؤبد وغير ذلك من صارم العقوبات فامتلات الحبوس بعدد أولئك الاشقياء
 فى الاقاليم البحرية والقبيلية ورسم الخديوى أيضا بجمع ما تركه أصحاب الثورة العرابية
 فى ميادين القتال من البنادق وأدوات الحرب وبكبس دور أهالى كافة القرى والبلاد وإخراج
 ما بها من ذلك ومعاقبة من يوجد عنده شئ منها بأشد العقوبات فأحصينا ما جمعه يومئذ من
 قرى الدقهلية والشرقية وبعض البلدان الاخرى فكان زهاء عشرة آلاف بندقية ومائة ألف
 من الخرطوش فخاف عند ذلك الاشقياء وانكمشوا وبطل سطو العصابات واطمأنت قلوب
 الناس قليلا وأمنت الطرق وبات أصحاب الزرع فى مزارعهم بعد أن كانوا لا يفتقون اليها
 اذا قربت الشمس الى الغروب وسارت تلك اللجان فى عملها سيرا حثيثا فلم تخل من الانتقاد
 والتعيب ولم تنزه أحكامها عن الخطأ بأخذ البرى بذنوب المجرم وظلت على هذه الحال
 عامين وبضعة أشهر حتى أمر الخديوى بعملها فأنحلت وعاد النظر فى الجرائم كلها الى المحاكم
 الاهلية كما كانت عليه من قبل والحكم لله وحده من قبل ومن بعد

وصل

(في آمال وفرض احتمال)

الى هذا الحين كانت قد تبدلت وزارة غلادستون شيخ الاحرار وزعيم السياسة الانجليزية الذي فعل بالسودان ما فعل بوزارة المحافظين القائم على رأسها اللورد سلسبوري وأصبح هذا اللورد زعيم السياسة والقباض على دفة الرئاسة فلما علم المصريون بهذا التغير تزامت ظنونهم الى أبعد المرامي وتعلقت آمالهم بأعصى المواهي وجعلوا يفرضون الاحتمالات ويتساءلون فيما بينهم عما عسى أن يكون من سياسة ذلك الزعيم فلم تكن الا أيام حتى وردت كتبه على قائد جيوشهم بمصر بلزوم التخلي عن سائر بلاد السودان وتركها شرقا وجنوبا الى خليفة الخارجى وغيره ممن يشاء احتلالها وعدم الخروج عما رسم به الوزير غلادستون فلما كان السابع من رمضان من السنة أى سنة ثلاث وثلثمائة وألف هجرية اجتمع الوزير نوبار باشا وسائر الوزراء والمشير مختار باشا مبعوث السلطان والسير ولف مبعوث الانجليز والسير بارنج والجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية بمصر وكبار العساكر المصرية والكولونيل كروف أحد مقدمى العساكر الانجليزية وبعض كبار عسكرهم أيضا فلما انتظم عقد اجتماعهم أبرز الجنرال استيفنسون ورقة وقرأ ما فيها علنا واذا هي مرسوم زعيم سياستهم الذى كانت ترجى رجته بأهل السودان يقول فيه - ان حكومة جلالة ملكة الانجليز تطلب من أصحاب الحل بديار مصر - أولا اخلاء وادى حلها التى تبقى مستقرا لطائفة من العساكر المصرية فقط رباطا - ثانيا استرجاع سائر الجيوش الانجليزية من اسوان وتحديد مواضع استقرارهم فى مدينتى أسيوط والقاهرة - ثالثا امداد القبائل المصافية بما يحتاجونه من المال والذخيرة ليتيسر لهم مقاومة العدو فى وادى حلها اه فا أتم الجنرال قراءة ذلك حتى أخذ العجب من جماعة المصريين مأخذه وعزتهم الدهشة وسكتوا لحظة ثم جعلوا يناقشون جماعة الانجليز ويراجعونهم فى الامر فاشتد الاخذ والرد بين الفريقين واختلفوا وذهب كل الى مذهب فقام حينئذ الوزير نوبار باشا وقرأ على سمعهم نبأ ورد اليه من يوسف شهدى باشا الذى كانوا بعثوا به الى وادى حلها بعد رجوع الامير حسن ليسهل الجلاء على النازحين من تلك الاطراف ويكلم دعاة المهدي فى أمر الصلح والتعاهد معهم على الهدو والسكون يقول فيه - انه قد وصل الى وادى حلها خلق كثير من الموظفين المصريين القدماء فى الخرطوم وأخبروا بأن القوضى ضاربة فى تلك البلاد بين الاهالى والامراء والرؤساء وأن الشقاق مستحكم بين عبد الله التعايشى خليفة المهدي وأبى الخير أمير بربر وأن القبائل تتأهب للقتال وأن لاصحة لحسب تحفز العصاة للوثوب على التخوم فا أتم الوزير مقالته حتى وقع الهرج بينهم وعلمت الضوضاء وكبرت حجة

المصريين واشتد ظهر الوزير بهم فتكلم في الامر طويلا ولكنه رأى من جماعة الانجليز غلظة في الرد وجفاء في القول واشتد السير ولف في الكلام مع المشير مختار باشا ثم انفض اجتماعهم على غير طائل وهم الكولونيل كروف بالرحيل لتبليغ خبر ما جرى الى صاحب سياستهم وأعقب ذلك ورود الخبر من يوسف شهدي باشا بعجزه عن العمل وبعدم امكان استتباب الأمن على التخوم الا اذا استرجعت دنقله وأخذت من دعاة المهدي وقد هون على أولى الامر بلوغ الغاية بنفر من العساكر المصرية وبشيء قليل من النفقة فلم يقو المشير مختار باشا على اقناع السير ولف بذلك ولم يتمكن الوزير نوبار من استمالة السير بارنج الى رأيه ورحل السير بارنج عن مصر الى دار السلطنة الانجليزية فخلق به الوزير ولم يلقيا عصا الترحال حتى جاء الخبر بنجاح الوزير في استرجاع الصلات التجارية بين مصر والسودان والتصریح للقوافل بالخروج الى الدروب ففرح الناس بذلك فرحا عظيما وتأهب أصحاب التجارة لذلك وبعثوا البعث الى أسسيوط وحلفا واسوان ليمهدوا لهم الطرق ويتفقوا مع المكارية وأصحاب الابل وراجت أصناف التجارة السودانية أو كادت رغما عن الاخبار المتواترة بوقوف الدراويش والدعاة في جميع الدروب والمسالك وشبه الغارة على الحدود * وكان الناس يقولون كما أقول ان إعادة هذه الصلات ينجم عنها فائدتين عظيمتين أولاهما تداني الخواطر في السودان من جانب الصلح والسلام والثانية نهوض التجارة من حضيض الكساد الى أوج الرواج * وكان المشير مختار باشا مندوب الباب العالي يذهب أيضا الى هذا المذهب ويكثر من ارسال الكتب الى الباب العالي والمباين الهمايوني في ذلك ويقول انها مفتاح مغالق السلام والطمأنينة وخلود العدا الى السكينة وظل الحال هكذا أياما حتى جاء الخبر ثانية بعدم نجاح الوزير في رسالته وامتناع زعيم السياسة الانجليزية من استرجاع دنقله ومن إعادة الصلات التجارية بين مصر والسودان فعاد الوزير وعاد كذلك السير بارنج وكتب يوسف باشا شهدي متتابعة الى الخديوي والوزير نوبار باشا بالحض على فتح دنقله وانتهاز هذه الفرصة التي أنشبت فيها الجوع أطافره بأصحاب الفتنة من أدنى السودان الى أقصاه وكبار عسكر الانجليز بأسوان يشكون من فعل الامراض الخبيثة بعساكرهم وامتلأ بيوت المرضى منهم ففرغ الجنرال استيفنسون قائد الجيوش الانجليزية الى وادي حلفا وأقام بها رباطا من الانجليز والمصريين ورتب العيون والجواسيس من الجند تخلصا من تغرير الجواسيس من أهل البلد وأقام كذلك بأسوان رباطا ورسم بتبعيد الروم بائعي الخمر والمسكرات فأقصوهم الى اسوان رجعة بالعساكر الانجليزية الذين ضاقت بهم بيوت المرضى بسبب ادمانهم على السكر وأراقوا خمرهم في النيل وفي الطرقات فضجوا وعجوا وانحدروا الى القاهرة صفر اليمين وجعلوا يرجفون ويشيعون الاخبار المقلقة عن الجنود الانجليزية والناس لا ينكرون عليهم شيئا مما يقولون لما تولد في صدورهم من البغض لسائر المحتلين على اختلاف طبقاتهم

(مطلب)
والى هذا الحين لم
تقف رعى المخبرات
مع الباب العالى

والى هذا الحين لم تكن لتقف رعى المخبرات بين الباب العالى وصاحب سياسة الانجليز ولم تنكشف الرسل عن التردد بين الفريقين وهم بين أخذ وردّ وكتب الغازى مختار باشا تترادف على المايين الهمايونى وكلها ملأى بأوجه الاصلاح وأسباب الخير للبلاد فكان صاحب السياسة الانجليزية يطاول فى ذلك ويحاول وفى كلامه شئ من الجفاء والغلظة وكان اذا جاءت جواسيس الحدود يخبر تجول نفر من السود عند التخوم فى طلب الماء أو الكلا لماشيتهم طير الانجليز الخبر الى الآفاق بأن قد قامت الحرب واتسع ميدان القتال بين دعاة المهدي والجند المرابطين هناك فيصبح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وأخبارهم المدد وإذا تخاصم هناك اثنان من سائقي الابل على ركوة من الماء أو شئ من التمر قالوا هما من أمراء الدراويش وقد أتيا يسترقان السمع ويستكشفان مرابط الجند فيصبح حينئذ أصحاب صحف أخبارهم وأخبارهم كرباه النجدة النجدة فإذا أغضى الباب العالى وخفض المايين الجناح أو أظهر شياً من المجاملة انكفوا وقالوا ان الحدود آمنة مطمئنة لا خوف عليها من زعانف السود فكانت الدول كافة تنظر مع الباب العالى الى هذه المغامر نظرة الحائر فلاهم يحسرون على نبذها وايقاف ترهاتها عند حد ولاهم قادرون على اكراه هذا الاسد الرابض على الجلاء عن البلاد وتركها لأهلها وغاية ما فعله كل من زعيم السياسة الروسية وزعيم سياسة الفرنسيين أنهما كتبا الى زعيم سياسة الانجليز يقولان انهما لا يعترفان بصحة أى اتفاق يحصل رأساً بين الباب العالى ودولة الانجليز فكان من وراء ذلك أن وقفت رعى المخبرات بين الباب العالى وسفير الانجليز بدار السلطنة العثمانية وبارح السير ولف رسولهم القاهرة وانكشف شئ مما خفى من تلك المخبرات وهو اعتراف السلطنة الانجليزية بسيادة السلطان عبد الحميد خان على ديار مصر وتكفل جماعة الانجليز بتأييد الراحة والطمأنينة فى داخلية البلاد ودفع كل عدو خارجي بحيث ان خزينة البلاد هى التى تقوم بالنفقة على ذلك فى كل عام ثم جلاء الجيوش الانجليزية عند ما يصح الجلاء بامتناع الاسباب الحائلة دونه فإذا تم الجلاء لزم زيادة عدد العساكر المصرية ووجبت زيادة القواد بينهم من الانجليز ويصح أن يستخدم معهم نفر من الضباط العثمانيين فإذا مضت ثلاثة شهور ولم تقم حرب على التخوم لزم جلاء العساكر الانجليزية عنها الى اسوان ووادى حلفا وحلت محلهم العساكر المصرية ورحلت حامية القاهرة الانجليزية الى مدينة الاسكندرية بحيث يبقى لجماعة الانجليز أرجحية الرأى والادارة فى سائر المسائل المتعلقة بالخزينة والاشغال العمومية قالوا أما وزارة الداخلية ووزارة الحفانية فتبقيان مصريتين مطلقاً مع الاعتراف بسيادة السلطنة الانجليزية الادبية على مصر اعترافاً لا يقبل اللبس والابهام فلما شاع خبر ذلك قام له أصحاب الصحف المحلية وقعدوا واستصرخوا رجال المايين الهمايونى وقالوا عليكم بالتأنى فى تدبير حل هذا المشكل وإياكم والعجلة فان الخطب جلل وخذوا برأى صاحبي سياسة الروس والفرنسيين حتى لا يكون فى عملكم ما يوجب الندم أو يدفع الى زلة القدم

(مطلب)

العزم على انقاذ
أمين باشا من خط
الاستواء

قالوا وأتم يا أهل البلاد « ينادون المصريين » عليكم بملازمة الهدوء والسكينة وخفض جناح الطاعة لأولى الأمر عسى أن تعترف بجماعة الانجليز بذلك ولا تشكره فينجلون عن البلاد أو يعينون ساعة الجلاء فلم تكن الا أيام بعيد هذه الصيحة حتى أتت كتب زعيم السياسة الانجليزية الى الوزير بعزمه على ارسال حملة خصوصية الى خط الاستواء بقيادة الرحالة استانلي لانقاذ أمين باشا مدير خط الاستواء على عهد غردون وانقاذ من معه من العساكر والمرابطين في تلك الاطراف فلم يحبب الوزير هذا الخبر وأكبره لما فيه من المغامر والمقاصد الخفية  قلت وأمين باشا هذا رجل ألماني الاصل كان طبيبا مع غردون على عهد الخديوي اسمعيل فولاه غردون يومئذ الوظائف العالية حينئذ ثم استعمله على عمالة خط الاستواء فبدل اسمه من الالمانية الى العربية وديانته من النصرانية الى الاسلامية وسار في تلك الارحاء سيرة الملوك والسلطين وتقرب من مشايخ وزعماء القبائل وتمكن من المنصب أى تمكن فلما قامت الفتنة المهدوية وخرجت سائر الاصقاع السودانية من قبضة الحكومة المصرية بقى أمين باشا هذا متربعا في دست منصبه لا يزاحه فزاحم ولا يحاربه متاخم فتاقت نفسه حينئذ الى الاستقلال بمثل تلك الاطراف واستمال اليه زعماءها وتجب اعظمائها وادخر المؤن وأعد المعدات ليوم الكريهة - وعلم أصحاب الشركة الافريقية الانجليزية بخبر ما عنده من العاج وريش النعام وتحقق أهل الحل والعقد في السلطنة الانجليزية مما هو عليه من عزة السلطان ونفوذ الكلمة وأيقنوا أنه سيكون عقبة كئودا في طريق ملك مملكتهم الجديدة التي ينوون بسط يدهم عليها حتى يدخل في حوزتهم السودان من أدناه الى أقصاه وتتبع ذلك الاقطار المصرية الى الاسكندرية فأوعزوا هم وأصحاب تلك الشركة الى صحف أخبارهم فأقاموا حينئذ صيحة الاسف وضجوا ضجيج التوجع على مصاب أمين باشا وجعلوا ينادون واغوثاه أغيثوا يا أهل المروعة سجين خط الاستواء ارجوا يا أهل الرحمة والحنان من معه من الرجال والاطفال والنساء وأمين باشا في إبان هذه الضجة قرر العين جندل بما أتاحت له الايام من السكينة والاطمئنان وكان في حوزته تسعة مواقع حصينة قائمة على شاطئ النيل ومعه من الجنود نيف وألفا مقاتل مدججين بالسلاح وعشرة من المصريين بوظيفة مقدمي العساكر وخمسة عشر من السود ومعه عشرون من الاقباط أصحاب الوظائف الديوانية وكثير من النساء والاطفال والخدم والاتباع وكلهم في صحة وعافية وظل أصحاب تلك الصحف على هذه الحال من النداء والاستغاثة أياما حتى صدق الناس أو كادوا يصدقون أن خلاص أمين باشا والاتبان به من تلك المجهل البعيدة عمل من أجل الاعمال المشكورة التي تفردت بها أمة الانجليز ولم تمض بعيد ذلك الا أيام حتى جاء الطلب من صاحب سياستهم الى الوزير بتقدير النفقة لارسال حملة لانقاذ أمين باشا هذا ومن معه والاتبان بهم الى القاهرة فراجع الوزير السير بارنج في ذلك فلم يفعل واشتد السير بارنج في الطلب فتقرر على الخزينة القيام بنفقة الحملة وقدرها

اثنا عشر ألفا ذهبوا وسار استانبلى رسولهم لانقاذ أمين باشا بحملته عن طريق الزنجبار فلقى في طريقه بعض المقاومة من جماعات السود مما عاقه عن السير أياما وما زال حتى بلغ خط الاستواء والتقى بأمين باشا ولبشا يتجادلان أياما اذ لم يكن أمين باشا ليرضى بترك مقره ولا التسليم في سلطانه فجعل استانبلى يهدده نارة وعينه بالاماني الكثيرة أخرى حتى تمكن من احضاره مع بعض نسائه وأولاده ونفر من المصريين الى الزنجبار فلقبه قنصل الالمان وتحدثا فيما هم فيه هناك * فحبب اليه الرجوع الى مقره والعمل تحت ظل الراية الالمانية وعدم الالتفات الى شئ مما يقوله استانبلى قيل ففرح أمين بذلك وتفقوت عزيمته وامتنع من الرحيل عن الزنجبار وصمم على الرجوع الى واد لاي ووافق على ذلك نفر من جاء معه من المهاجرين ووردت الاخبار بذلك الى القاهرة وتحدث الناس بها كثيرا وكبرت الوحشة بين أمين واستانبلى قيل وتلا كما ثم تماسكا بالاطواق وانحدر استانبلى الى السويس يريد القاهرة على غير طائل فوصلها فأولم له الخديوى وهنأه رجال الدولة بسلامة العودة فلم تكن الا أيام حتى برح الخفاء وظهر للعالمين ماخفي من سر بعثة استانبلى وداعى انقاذ أمين باشا اذ قام أصحاب صحف الالمان يرمون استانبلى بالخدعة والمكر ويسمون السلطنة الانجليزية بالخيانة والغدر ويقولون انها أخلاط من أصحاب المتاجر في ريش النعام وسن الفيل ومزيج من المرايين والسوقة ثم جعلوا يهددون بالحرب والقتال في تلك القارة السوداء ان لم تقلع عن عدائها لدولة الالمان ومعاكستها في مستعمرتها الافريقية أو ان هى عملت عملا يكون من ورائه الاضرار بأمين باشا فردت على ذلك أصحاب صحف الانجليز ردًا جافيا واستطالوا على دولة الالمان بهذر الكلام وهددوا أمين باشا بالخيانة وسوء المصير ان هو عاد الى واد لاي ليؤيد فيها السلطنة الالمانية وقالوا سوف يرى « يعنون أمين باشا » من الشدائد ما ليس له في حسابان بحيث لا يستغرب عجزه عن الوصول الى بحيرة نيانزه أو أعانده فان وصل فلا بد أن يرى عند وصوله اليها العلم الانجليزى خافقا عليها لان الشركة التى قد سيرت استانبلى لخلاصه ستسبقه اليها لتمد فيها النفوذ البريطانى وتمنع يد الالمان من التطاول اليها مهما كلفها ذلك من النفس والنفس * وكان استانبلى قد أوجعه طعن أصحاب صحف الالمان ووخزهم لقواده الداعى بعد خيسته في استرجاع أمين باشا فالتقى يوما بأحد مراسلى صحف الانجليز الكبرى فقال له وهو يتنفس الصعداء قل لى بحقل ما الذى دفع بأصحابنا الالمان الى كل هذه المهارة والهراء ولقد كان من واقع أمرى أننى خيرت أمين باشا بين خصال ثلاث ليختار احداها إما البقاء في واد لاي تابعا للسلطنة الانجليزية براتب سنوى قدره ألف وخمسمائة جنيه مع مساعدة مالية قدرها اثنا عشر ألفا وإما أن يرحل الى جهة أخرى من تلك القارة ليستقل بحكمها واما أن ينحدر معى الى القاهرة فهذا كل ما حصل مما لا يستلزم كل هذه الجلبة والتطاول على غير مسوغ فبلغهم عنى ما سمعت منى والله يحكم بيننا * فلما بلغت أمين باشا مقالة استانبلى هذه وأن استانبلى يتهمة أيضا

بأنه لم يذعن الى مبارحة واد لاي الا بعد أن فرض له جعلاً على ذلك قدره اثنا عشر ألفاً ذهباً أكبر الامر وأعظمه وكتب الى صديق له من أصحاب الحل والعقد في السلطنة الألمانية يقول لم يبق في وسعي وأيم الله مراعاة السكوت والكتمان في حق من لم يكتم السر ولم يراع حقوق الذمة فلقد عرض على استانلى رسول تلك الشركة الطامعة قبول خصلة من خصلتين إما أن أترك منصبى في خدمة الحكومة المصرية وأدخل في خدمة ملك البلجيك بمستعمرة الكونغو برتبة قائد مع بسط سلطى على واد لاي وأن أطلب لنفسى ما أريده من الراتب السنوى خلاف مبلغ الاثنى عشر ألف جنيه الذى سيتقرر كنفقة للإدارة واما أن أجمع له جنداً من السود ليكون هو قائدهم من جانب تلك الشركة الانجليزية لا يقل عددهم عن أربعة آلاف ليسيروا معه « يعنى مع استانلى » الى الجنوب الغربى من بحيرة فيكتوريا نيانزا ويحتلوا كالخبروندو ثم يؤسسوا فيها مركزاً اذا وجدوها موافقة ويذهب استانلى في أثناء ذلك الى مومباسيا ليأتينى بسفينتين نقالتين لنقل مع طائفة من جيشى لبعثة فى نواحى أوغاندا وأونبورو حتى اذا تم لنا فتح ذلك الصعيد كانت مركزنا لنا نزحف منه رويدا رويدا الى واد لاي مقرر حكومتى القديمة ثم أجمع بين البلدين وأتولى الحكم فيها باسم الشركة الافريقية الانجليزية لاسم الحكومة المصرية - قال - وقد ألع على ذلك الانجليزى « يعنى استانلى » بوجوب الدخول فى خدمة تلك الشركة وتفضيلها على الحكومة المصرية وكان عافاه الله يخاف كثيراً من أنى أفضل البقاء فى مقر سلطانى على الرحيل معه لعله أنى بانفصالى عن خدمة الحكومة المصرية لا يمنعنى شئ من الرجوع الى خدمة دولتى اذا دعيت اليها ولذلك قد عقد نيته وعزم عزمًا ثابتاً على أنه إما أن يكرهنى على قبول خصلة من الاثنتين وإما أن أرضخ لامره وأبارح على الفور القارة الافريقية والا سلبنى جميع ما عندى من ذخرة ومؤنة وآلات حرب وركنى وشأنى لا زاد ولا سلاح فاضطرت الى مرافقته كارها خزيناً فظن أنه قد نال منى أربه وفاز بمغنه وساعدته القدرة على تقليم أطافر ذلك الأسد ولكن قد خابت آماله وفسدت احلامه وها أنا اليوم خادم للرأية الألمانية فى تلك الارزاء والله من وراء ما يعملون قلت وشاع عند وصول استانلى الى القاهرة أنه أشار على الخديوى والوزير أن يرسلوا الى سلطان الزنجبار فى طلب أمين باشا وانه اذا حضره عاقه ومنعه من الرجوع الى واد لاي فلم يفلحوا جميعاً فى ذلك لما ناله أمين باشا من المسكنة وعزة الجانب بين الالمان وتحقق الناس حينئذ أن تلك الصيحة التى بلغت عنان السماء من جانب جماعة الانجليز لاستنهاض أهل النخوة وأصحاب المروعة الى فلك أسر أمين باشا وانقاذ من معه ليست من الخنان فى شئ ولا هى لوجه الله تعالى ﷻ وظهر اهتمام دولة الالمان بتلك الارزاء وبحملة أمين باشا فبالغت فى تشجيعها وأكثر لها من المعدات وآلات الحرب وأوعزت الى أمين باشا بأن يبسط يده على بحيرات نيانزا وما والاها مع واد لاي وان لا يبقى ولا يذر سيرت اليه جماعة

من مقدمى العسكر وعظما من قومها اسمه الماحور ويسمى قد ولته الولاية العامة على ما كان وسيكون لها من المرافق والاملاك هناك ثم صاحت على جماعة الانجليز بلسان أصحاب صحفها الكبرى أن ارجعوا عن طمعكم وخففوا من جشعكم فى القارة السوداء واعلموا أن يومكم ليس كما مسكم فلا ارجعوا سلطنتكم القديم ينفع ولا ازادها اليوم يدفع واقصروا أيديكم من التناول الذى هو دأبكم فعيوننا وأرصادنا ترمقكم من كل صوب وحذب وعسكرنا يحول دون بلوغ سلطنتكم كل أرب لا سيما وان كلمتها هناك فائمة على الابهام والتغريز وسلطانها أفرغ من كنز الفقير فلا عسكر لها هناك ولا كراع ولا حصون ولا قلاع فان أحسنت العمل فلنفسها وان أساءت فعلها والسلام * فقام لذلك جماعة الانجليز وهموا بعمل شئ يرجون من ورائه كشف هذه الغمة فلم ينالوا مأربا واهتمت دولة الالمان من هذا الحين بتوسيع نطاق استعمارها فى قارة افريقية بعد أن كانت تبتعد عن ذلك وتحسبه ضربا من الطمع وعمدت الى المزيد من الفتح - حصل هذا كله ورجال مصر لاهون بما عندهم من المشاغل معرضون عن الاهتمام بشئ مما وراء الحدود التى رسمها لهم صاحب السياسة الانجليزية والناس فى دهشة مما يرون ويسمعون - وقد تفرق بعض من حضر من المهاجرين مع أمين باشا فى أرقه وحارات مصر والقاهرة يستعطون أهل البر والاحسان ويحدثون الناس بما كانوا فيه وقد طرقت أبواب الحكومة فى طلب ما تأخر من جبايهم وما يستحقون من المعاش حتى وقفوا فى طريق الوزير فاهتم بأمرهم وكشف عن بعض غتهم وصرفوا لهم ثلث ما تأخر لهم وطالب كذلك أمين باشا الخزينة بماله من المتأخر مدة السبع سنوات التى لبثها فى أواسط افريقيا فاجابته الى طلبه صاغرة وأعطته ما يستحق كارهة وربت له معاشا شهريا يتقاضاه من الخزينة * وأشاع جماعة الانجليز عن أمين باشا بعيد ذلك الاشاعات المختلفة والاقوال المقلقة عند قومه فيوما يقولون انه مريض ويوما يقولون انه فقد السمع والبصر ويوما انه جن وآخر انه سقط من شرفة مكانه فندق عنقه ومات وغير ذلك من الاشاعات المتباينة حتى قدم الماحور ويسمى من الزنجبار الى القاهرة ومعه بعض الخدم من السود والاتباع فاحتفل بمقدمه جماعة الالمان وبالغوا فى اكرامه وأدبوا له المآدب الفاخرة فوقف مرة خطيبا فى إحدى تلك المآدب وقال أشكركم على المقابلة التى قتم بها نحوى كلما أسعدنى الدهر بالمرور فى هذه العاصمة الزاهرة ثم انى أخبركم بأننى قد فت بالمأمورية التى عهدتها الى امبراطور المانيا وأؤكد لكم بأن السلام الذى عمت به بعض النافرين قد استتب فى جميع سواحل افريقيا الشرقية والفضل فى ذلك للعساكر والمدافع التى استخدمتها لاختضاعهم ولكننى مع ذلك أقول انه يتهدد مصالح المانيا فى أملاكها الآن مصاعب سياسية ولذلك فقد دعاى عظمة الامبراطور « يعنى امبراطور المانيا » لآبين له نتيجة بعثتى وأعين الرسوم الجديدة لأملاكنا فى افريقيا حسبا للنزاع الذى ربما ينشأ عن هذه المصاعب السياسية ثم انى أوصل أن أعرض على

دار ندوتنا حالة دولتنا في أملاكها في افريقيا وأسأل النفقة اللازمة لاقامة مملكة
استعمارية المانية ثابتة في تلك البلاد وأؤكد لكم أنه رغمنا عن المساعي التي يبذلها البعض
لمنع النفوذ الألماني في افريقيا فان المانيا لا تتأخر البتة رغم أنوف الذين يحاولون دون أعمالها
المدنية

هذا واني أنقل لكم سلام أمين باشا الذي لا يزال يذكر اصدقاءه في مصر وأبشركم بأنه
على غاية الصحة والعافية خلافا لما تقوله الجرائد عنه من أنه مريض كفيف البصر معتوه
العقل بل هو لا يزال كما عرفناه من عشرين سنوات بدليل أنه بدلا من أن يعود الى بلاده
للمعالجة قد أحب أن يعاود سفره الى أواسط افريقيا رئيسا لرحلة عظيمة ولقد أخذه العجب من
الذين كانوا يدعونه بالشهير « يعني الانجليز » أيام كان في خدمتهم ثم أصبحوا الآن يدعونه
بالكفيف العاجز المعتوه بعد أن فارقهم وعاد الى خدمة دولتنا فسبحان مغير الاحوال اه
وعاد استأنلى الى عاصمة الانجليز فأجزلت له سلطنتها العطاء ولقبته بأكثر الانقلاب عندها
وأسندت اليه مسندا عاليا وهو اليوم في مصاف أهل الرأي وأصحاب الشورى فنشط الى
استنهاض أصحاب الحل والعقد الى الوقوف في وجه الدولة الألمانية ومنعها من التغلغل في
جوف القارة الافريقية ووقوفها سدا قويا في طريق الانجليز هناك وجعل يخطب في الناس
ويملأ صحف أخبارهم بعبارات الحض والاستنهاض والأئين والشكوى من تقاعد رجال
السلطنة الانجليزية عن تدارك الخطب قبل استفحاله لاسيما وقد تمكنت دولة الالمان من
قلب القارة الافريقية أو كادت فتحركت حينئذ خواطر القوم وهم صاحب سياستهم بارسال
عظيم منهم الى عاصمة الالمان يرجو امبراطورها الوقوف عند حد ومنع ذلك الخصام والدد
قلب الرجل هناك أياما حتى رسم الامبراطور لرجل من قومه اسمه الدكتور كرانل بأن
يتناقش رسول الانجليز فيما جاء فيه فأقاما على هذه الحال أياما طال فيها الاخذ والرد بين
صحف الفريقين وكثرت بينهم المهارة والقول الهراء على ما تقدم بيانه فجعلت حينئذ أصحاب
صحف الفرنسيين تسخر بهم وتهزأ بفعالهم * فما قالته احدى تلك الصحف الفرنسية عبارة
لا بأس بايرادها هنا فانها تشخص لقارئها واقعة الحال بأجلى مظاهر التعبير وتدل على نوايا
السلطنة الانجليزية في تلك القارة من أقصاها الى أقصاها - قالت لعمري ان من تأمل
مساحة تلك القارة الواسعة على صفحات الخريطة تبين له من أول نظرة أنها كافية لاستعمار
سائر الدول حتى دولة البرتغال ولكن متى تذكر ما اتصفت به الدولة الانجليزية من الطمع
والانانية واستعمار الدولة الألمانية واندفاعها فيه عاد به الامر الى عكس ما توهم من كفايتها
حتى لنسأل عن الدولتين بعد اذا حرمتهما منها دولة البرتغال حتى لا ينتهى بهما الحال الى
الخصام عليها وقد رأينا أن نمثل للقارئ دورا لطيفا بين هذين الرسولين نعني بهما رسول دولة
الانجليز ورسول الالمان بكلام نسطره لهما مما يوافق الحال وان لم نبلغ فيه الى ما دار بينهما
من الجدل بحرفه ولكنه يبين للقارئ بأجلى بيان نوايا الدولتين في تلك القارة السوداء

فنعول ليمثل القارئ النبیه رسول الانجلیز منکبا علی خريطة افریقیا وفي یدہ قلم یخط به خطا من الدرجه الخمسین طولا علی طول طریق یؤدی الی أواسط افریقیا من بوغاز السویس ثم التفت الی صاحبه الالمانی وقال ألیست هذه أرضا انجلیزیه فأنحنی له الالمانی وتبسم فأردف الانجلیزى عبارته هذه وأتبعها بقوله اننا اذا اتبعنا الدرجه الخمسین طولا نجد أنها تقطع النيل فی موضعین أو ثلاثة مازة به فیکون نهرا انجلیزیا ان شاء الله تعالی - فقاطعه الالمانی بقوله نعطیکم ایها ان شاء الله - فقال الانجلیزى وبذلك نصل الی الخرطوم ولاننکر علیکم أن غردون قد مات ولكن لابد من الاخذ بشاره لان استانلی عند ما عاد الینا فی هذه المره جعل یقول ان ترک السودان یعد جریمه لنا لا تغفر وان أخذها من الهنات الهینات اذ لا یلزم لافتحاها سوى مد خط حدیدی بین البحر الاحمر والنیل كما بین سواکن وبربر مثلاً وهو خط لا یکون طوله أكثر من ثلثمائة کیلومتر وذلك لیس بالنیل العسیر ثم عند من بربر مقتفین الدرجه الخمسین طولا فنأخذ العبید وسنار ثم نصعد فی النیل الذی هو ملکنا کما لا یخفک حتی نبلغ کوندو کورو وبذلك نضمن لتجارنا سلامة النهر بطوله علی مسافه ألف وخمسمائة کیلومتر تبتدی من بربر ومن ثم نتصل الی البحیرات العظمی بلا مشقة ولا عناء - فقاطعه الالمانی علی رسلک یاصاح لقد وصل الدکتور بترس عالمنا الشہیر الی تلك البحیرات العظمیة ایضا وکنا نطنسه میتا قد دفن فاذا بنا نجدہ حیا یرزق وفي وعائه الثمن الکثیر من المعاهدات والاتفاقیات الی عقدہا مع ملوک وزعماء تلك الاصقاع بعد المخاطرة فی قطع جبلی کینا وکلیمنجارو اللذین قد أصبحا جبلین تابعین لدولتنا بعد الآن ولم یقتصر علی ذلك بل دار حول بحیره نیانزه فیکتوریا حتی صار الآن فی أواسط أو غائده حیث یتبعه آمین باشا عما قلیل ویلاقیهما الماجور ویسمن قادما من الزنجبار فاذا الدرجه الخمسون الی قد اتخذعوها لأنفسکم ملکا حلالا لیست لکم فانها تمر فی درجه نفودنا ولا یصح قط التسلیم لکم فیها - فقال الانجلیزى اذا أنتم تريدون أن تنازعونا فی البحیرات العظمی الی هی خزانات النيل ومنبع حیاته کانکم تجهلون أنها انجلیزیه وأن مکتشفها من الانجلیز فان کنتم تجهلون ذلك أو تتجاهلونه فانظروا الی اسمها تجدوه فیکتوریا وکنی بهذا الاسم دلیلا علی أنها انجلیزیه فضلا عن أن سکان تلك الجهات لا یعرفون من الامم الاخری سوانا وفوق ذلك فان الرحالة استانلی لم یسمح للزعیم سیاستنا بأن یتخلی عنها وهذا الزعیم لم یسمح لی بأن ألتخلی لکم عن قید شبر قط بل ولا عن محط اصبع من تلك الارض ثم أنتم تعلمون أن آمین باشا کان حاکم السودان وقد بسط یدہ علیها باسم الحکومة المصریه أی باسم السلاطنه الانجلیزیه کما أنکم لاتنکرون أن تلك الدرجه الخمسین انما هی طریقنا الی تانغانیکا أفتریدون أن نتخلی عنها ونترکها لکم - فأجابہ الالمانی ما هذا یاصاح ان تانغانیکا هذه اتی تقول عنها انما هی قلب النفوذ الالمانی وفلذہ کبدہ وأنت هذالك الله لا تجهل اننا عزمنا علی أن نمد مستعمراتنا من الزنجبار الی

الكونغو وتانفانيكا كما هو واضح ومعلوم واقعة في طريقنا فهي اذا لنا ولا كلام - فبرز
الانجليزى رأسه وقال هيهات ذلك فقد أخذناها وقد عقد لنا استائلى المعاهدات القوية مع
زعما القبائل الضاربة في شمالها وستخذها شركتنا الانجليزية الافريقية قاعدة لنفسها سيما
وان استائلى رجلنا عافاه الله لا يدع صاحب سياستنا يتخلى عنها قط - فقال الالماني وصاحب
سياستكم أظنه لا يدعك أنت أيضا تتخلى لنا عن شئ منها - فقال أجل وكيف أتخلى عن
شئ من ذلك فقطعون طريقنا بين البحيرات وتانفانيكا من جهة وبين أملاكنا في نياسا
من جهة - فصاح الالماني رويدك رويدك ما ذا وكيف تقول ألا تدرى اننا ملكنا نصف
نياسا وأنها احدى طرقنا المطروقة الى الكونغو وغيرها حتى ان البرتغاليين قد تركوها لنا
اننى أراكم متسرعاً متعدياً على حدود نفوذنا وهذا لا يمكن أن يكون وفيها قطرة من الدم -
فقال الانجليزى كيف تزعمون امتلاك بحيرة نياسا ونحن الذين جئنا منازل المرسلين
الايكوسيين حوالها بل من الذى مد الطريق بين تانفانيكا وبينها ومهده غير جماعة المرسلين
الانجليز أما ما تدعيه دولة البرتغال من الحقوق فانكم معشر الالمان تعرفون اننا نجعلها
ولا نعتز بشئ منها ولذلك فانها لم تقدر أن تتنازل لكم عن أراض ليست لها في الحقيقة
وفضلاً عن ذلك فكيف تقدر أن تقطعوا علينا الطريق الوحيدة التى توصلنا من
أملاكنا الواقعة في خط الاستواء الى أملاكنا الشمالية الى بورنتال مائة في دالاكوا التى
ان لم نبسط يدنا عليها اليوم ففي غد وغد لنا طره قريب - فقال الالماني يا لله ولما ذا اذا
لا تقول ان الدرجة الخمسين هى كلها لكم لالسواكم - فأجابه الانجليزى ولكن هذا هو
الحاصل واذا أنصفتم وعدلتم لم يسعكم الا جعل الحق في جانبنا وان تلك الدرجة هى
طريقنا من مصر أرض الفراعنة الى رأس الرجاء الصالح ثم أنتم اذا تبصرتم في الامر
رأيتم اننا لانطالب الا طريقاً بين مستعمرتين انجليزيتين فأين يكون الشطط أو الاجحاف في
ذلك ونحن لانطلب الا الوصول الى اخواننا في طرفى القارة وذلك ويعلم الله أقل ما يكون
فعند ذلك تمطى الالماني وقال فماذا نصنع اذا وماذا يصنع البرتغاليون والايطاليون -
فأجابه على الفور ماننا والبرتغاليين الآن أما جماعة الايطاليين فقد طاب لهم المقام بمصوع
فاذا أرادوا الحبشة أيضاً فليأخذوها وان كنا قد دخلناها بجنودنا فيما مضى وصار لنا فيها
بعض الحق ولكننا نتركها لهم هبة كريم مسامح - فقال الالماني ونحن - فأجابه أما أنتم
فقد أعطيناكم الزنجبار بين جزيرتها وشاطئها وذلك فوق الكفاية بل قد تكون أخطأنا في
ذلك لانه سيأتى يوم نحتاج فيه لنقل محمولات خط الاستواء الى البحر من غير بد فاذا ظل
أصحاب المهدي آخذين علينا طريق النبل لم يكن لنا بدحة عن ايرادها من البحيرة الى البحر
ولا سبيل لنا غير الزنجبار ولذلك كانت هذه الجهة أولى بنا من سواها لاننا اذا أطعنا الرحالة
استائلى - فعند ذلك قاطعه الالماني واحتد والتفت اليه محملاً وقال انى لأرى فائدة من
هذا الجدل وانه خير أن نرفع الامر الى امبراطورنا لاني على ما أرى عسير على أن أسألك

شياً بشأن تحديد النفوذ بيننا فقام الانجليزى وانصرف مقطب الوجه وهو يقول أجل ومن قال دائرة النفوذ الانجليزى فكأنما يقول دائر الكرة الارضية بتمامها اهـ

وجاءت في هذه الايام أيضا كتب صاحب السياسة الايطالية الى ديوان الخديوى والوزير نوبار باشا بطلب فتح باب المحاربة بينهم بشأن السودان وتوسيع دائرة النفوذ الايطالى فيه من حد سواحل البحر الاحمر يعنى من فرضة مصوع وما والاها الى ضفة النيل الازرق فأكبر الخديوى هذا الطلب وأعظمه وكلم قنصل ايطاليا في ذلك فلم تكن الا أيام حتى وردت كتب صاحب السياسة المذكور بأنه انما يريد اطلاق الحرية له في احتلال كسله والاعتراف بسيادة الايطاليان على البقعة المأهولة بقبيلة بنى عامر والممتدة الى ناحية بركة التى قبل أهلها حماية دولة ايطاليا لهم - قال فان لم تتفق معنا الحكومة المصرية على ما فيه المصلحة كلنا في ذلك زعيم سياسة الانجليز فان لم يوافقنا هو أيضا تصرفنا فى الامر بحسب ما تقتضيه مصلحتنا وبسطنا سلطاننا على كل قسم من القارة الافريقية يدخل ضمن دائرة نفوذنا * وجعلوا من هذا الحين يحاولون مباغته القبائل الصومالية المصافية للحكومة فكانوا اذا آنسوا منهم اخلادا الى السكنى ورأوا من نجاشى الحبشة تغاضيا أو من الرأس أولوا مقدم جيوش الحبشان تقاعدا عن الحركة تقدموا بعسكرهم ببطء ومدوا يدهم الى بعض البقاع باطف وسابروا أهل القرى وكبار القوم فيها وأجزلوا لهم العطاء وأنحفوهم بالتحف والهدايا وخابروا صاحب سياسة الانجليز فيما هم فيه وعلقوا أملهم بالمحال فان أحسوا من مقدم عسكر الحبشان بالحركة وزحف الجنود ورأوا الكئاب تتلو الكئاب انكمشوا وعاودوا صاحب سياسة الانجليز فى الكلام فيمنهم ويهون عليهم ويشير بالتأنى وترك العجلة فلما طال على نجاشى الحبشة الحال ورأى أنه لا هو دافع شر الايطاليان عن تلك البلاد التى يعتبرها جزءا من سلطنته بحكم الاتفاق الموقع عليه مع رسول الانجليز « وقد مر بيانه » ولا هو تاركها للايطاليان يضمنونها الى مستعمرتهم الجديدة رسم الى مقدم جيوشه بالحركة وعدم الوقوف عند حد فسار مقدم الجيوش الى التاكا وضرب القبائل النازلين حولها ونهب أموالهم وماشيتهم وأخس في قتلهم ثم قفل راجعا الى عدوه مقرر كرسى النجاشى ولبث بها أياما ثم سار الى جندع الواقعة بين عائله وأسمره على مرحلة من مصوع وعسكر بها بجيوشه وجعلها مقره ومركز حركته وأخذ يتأهب لقتال الايطاليان وشاع الخبر بذلك فخاف الناس كثيرا وأخذوا يلجئون بعيالهم ومنازلهم الى الجزيرة وتتابع خروجهم من البلد حتى لم يجد الرأى فى طرقها سوى النوق المحملة بالاناث والمتاع ففارق عند ذلك جماعة الايطاليان واشتدوا فى عمل الحصون والمتاريس وأكثروا من وضع المدافع والمكاحل على الابراج وسيروا الى كشنر باشا عامل الخديوى على سواكن فى طلب المدد فأرسل اليهم سفينتين حربييتين من سفن الحرب الانجليزية وجاءهم كذلك بعض السفن الايطالية وكبر خوف المراتبين من العساكر الايطالية من اهتمام الحبشان باقامة الحصون والمتاريس

بعسكرهم فانشؤا هم كذلك قلعة حصينة على رأس الناحية المعروفة بحرقيقو وسموها طابية
وعا ووضعو عليها كثيرا من المدافع الكبار وبث الحبشان عيونهم وأرصادهم حول البلد
فانقطع عنها الوارد من الماء كمول والمشروب ورحل من كان نازلا حولها من العربان والمرزقة
فطير الجنرال، جنبيه قائد العساكر الايطالية الخبر بما جرى الى زعيم سياستهم
ثم كتب يقول له قد استحسنت النفرة بيننا وبين الرأس أولا قائد الجيوش الحبشية فالمدد
المدد فلما أبطأ المدد لم يرتدأ من تسليح الموالين من أهالي حرقيقو بالبنادق وأعطاهم شيأ
كثيرا من الذخيرة والمؤن واستخلفهم على أن يكونوا عوناً لهم على الحبشان وتصاريق الزمان
فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر الى مقدم العساكر الايطالية بحاجة المراتبين منهم في
موكوللو الى المؤنة والذخيرة فأزعجه هذا الخبر لحراجة الموقف وبقطة العدو فجعل يراقب
الفرص حتى آنس من الحبشان بعض الخلود الى السكون فسير قافلة صغيرة بما تيسر لديه
من المؤن والذخيرة الى موكوللو وأتبعها بطائفة من المقاتلين فلم يتم خروجهم من البلد حتى
داهمهم العدو بخيله ورجله وأعمل فيهم القتل بجحد السيف حتى لم يبق منهم أحد وخرج
من كانوا في موكوللو من المراتبين على وجوههم الى مصووع لعدم قدرتهم على البقاء وتركوا
رباطهم بما فيه من متاع وكراع فلم يتعرض لهم جماعة الحبشان بسوء واحتلوا مكانهم
وغنموا ما فيه غنية باردة فأكبر قائد العساكر الايطالية هذا الامر وأعظمه جدا ولكنه
لم يجسر على الخروج بعسكره من البلد وسير الكتب تباعا الى صاحب سياستهم في طلب
المدد ولكن يا لله ما ذا ينفع هذا كله وأرض السود هوة عميقة تبتلع الشئ الكثير من
الاموال والاحمال والاثقال والعدد العديد من الرجال وتزهق دون اخضاع جبارتها أرواح
الابطال واقد طالما أنفق فيها الدم والمال من الممالك القديمة كما يدل على ذلك تاريخها
ورأينا رأى العين ما أصاب الانجليز والمصريين من نار هذه الارض الغبراء حتى جاءت
اليوم نوبة الايطاليان الذين غر صاحبهم الطمع فأوقع قومهم في هذه المهلكة فلما اتصل
خبر هزيمتهم هذه بزعيم سياستهم أبلغه الى دار ندوتهم فعلم به السواد الاعظم من عامتهم وأهل
الدعارة منهم فاجتمعوا حول دار الندوة ألوفا وارتفعت أصواتهم وعلت ضوضاؤهم ونادوا
بالويل والثبور على زعيم سياستهم واشتد بهم اللجاج والهياج فجاءت طائفة من عسكرهم
وفترقت جمعهم ومزقت بضرب العصي شملهم بعد لكم وضرب وجاء كتاب نجائى الحبشة
الى جنبيه قائد عسكرهم بالجلاء العاجل عن مصووع وما جاورها حقنا للدماء والا فالسيف
والنار ولا هذا العار قيل فلم يرتد عليه وقيل بل رد بأحسن ما يكون من عبارات التلطف
والتودد

وقد هيج ظفر الحبشان بجماعة الايطاليان ساكنا من أصحاب المهدوية النازلين حول
سواكن فهبوا الى الحركة وجعلوا يتخطفون الناس والماشية من حول البلد ويمنعون عنها
الوارد من الماء كمول والمشروب فاهتم كئشسر باشا بالامر وأكثر من تطواف العساكر حول

البلد في الليل والنهار وتقدمت بعض سفن الحرب الانجليزية نحو البلد تأهباً للدفاع عند الحاجة وأخذ كتشنر يستميل مشايخ القبائل الذين كانوا يكرهون الانضواء الى عثمان دقنه والطاعة الى دعاة المهدي وخليفته قال اليه بعضهم فأمدتهم بالاسلحة والذخيرة ودفعهم الى قتال العدو فقاتلوه وأبلوا في قتاله فترفع العدو الى الجبال وانجلى عن ضواحي البلد ثم انجدر اليها بعد أيام وهكذا كانت فعاله كل قليل من الايام * وورد على كتشنر باشا يومئذ كتاب التعايشي خليفة المهدي مفعماً بالتهديد والوعيد ان لم يخفض كتشنر جناح الطاعة ويترك العناد وقد ذكر له شيئاً كثيراً من مناقب المهدي وصحة مهدويته ثم دعا كتشنر الى ترك النصرانية واعتناق المهدوية فانها اصح المذاهب وأقربها الى الله تعالى فان لم يأت طائعا مخلصا في العقيدة سير اليه جيشا عظيما فيستولى على سواكن وما والاها وي طرح حاميتها في اليم حيث يكونون طعاما لاسماكهم وشاع خبر هذا الكتاب بين أهل البلد فخافوا خوفا عظيما وصاروا يتوقعون وصول جيش التعايشي كل قليل من الايام وقد زادهم خوفا ما شاع في ذلك الحين أيضا من تواطئ الرأس أولا مقدم الجيوش الحبشية مع كبار المهديين على قتال الاجانب الطامعين في بلادهم وقطع شأفتهم وان النجاشي يوحنا ميال الى ذلك وكاد يتحقق الخبر بخروج مشايخ الحباب والساكرية والهدندوى والشيخ أمين فقيرى شيخ قبيلة الارقويت الذين استمالهم كتشنر الى طاعة الحكومة وموالاتها وامتناعهم عن مناهضة العدو رغما عما بذله لهم كتشنر من الاسلحة والاموال الطائلة والهدايا الكثيرة وكان كتشنر قد أرسل الى السير بارنج في طلب الشيخ الميرغني شيخ سحادة الطريقة الميرغنية التي يتبعها أهل السودان شرقا وجنوبا لجعل العصاة على الرجوع الى طاعة الحكومة فبعث الشيخ الى سواكن وجعل يبعث البعث ويرسل الدعاة ويحض القوم على ترك الحرب والكف عن القتال فلم يفلح وقد رموه بالمرقوق عن الدين القويم واتهموه بالنصرانية وبيع الاجلة بالعاجلة فلاهم لذلك يعرفونه ولا هم يعتقدون مشيخته فكبر الأمر على الشيخ وسار الى بلد احيج وأقام بها أياما لعله ينال من القوم مأربا فلم ينل ولم تجسر بعوثه ودعائه على لقاء أحد من كبار المهديين فكانت أخبار تلك الاطراف كل يوم في شأن ان سرت يوما أحرزت أياما

وعاد الوزير نوبار باشا الى الرأي القائل بأن إعادة العلاقات التجارية مع السودان لا بد أن يكون من ورائها تفرق العصاة في البلاد طلبا للرزق وعدم اجتماعهم في صعيد واحد للتألب على قتال الحكومة فكتب ثانية الى زعيم سياسة الانجليز في ذلك ولبث ينظر الجواب أياما حتى جاءه بالقبول ففرح الناس بذلك فرحا عظيما واستبشروا بحسن المآب وقالوا أول الغيث قطر ثم ينهمل وقد كانوا لا يتوقعون بلوغ هذه الامنية بعيد امتناع زعيم السياسة الانجليزية من المسكاملة مع الوزير نوبار باشا في شأنها جينا على ما تقدم بيانه فاهتم الوزير لذلك اهتماما عظيما ورسم بعمل دستور يكون قاعدة لاعادة تلك العلاقات فاجتمع

الوزراء كافة في مجلسهم وقرروا سبعة أمور * حاصل ما فيها منع الاتجار في الاسلحة وسائر أنواع الآلات والادوات الحربية وضبط ما يوجد منها ومعاينة المتجرين فيها وجعل حلفا وكروسكو وأسوان ودراو المراكز التي تخرج وتدخل البضائع منها وأخذ العهود على مشايخ العباددة والكبابيش وغيرهم من قبائل العربان بذلك وبطاعتهم لتفتيش سائر البضائع التي ترد من السودان أو التي ترسل اليه أولا في حلفا ثم في كروسكو وفي أسوان وفي دراو ثم يعطى لأصحابها تسريح * فجعل التجار من ذلك الحين ينأهبون للعمل وسار جماعة منهم الى حلفا واسوان ونزلوا بهما فعمرت اسوان وكثرت فيها الحوانيت والمخازن والأشوان للبضائع وأصناف المتاجر وراجت التجارة في القاهرة بعض الرواج وشاع خبر انحدار بعض القوافل من دنقله بالصمغ والريش وسن الفيل وأشياء أخر من محاصيل أرض السود وشوهد كذلك عبر لاهل كردفان بأصناف المتاجر وجاءت الاخبار بخلود العربان والدراو يش المرابطين على الحدود الى السكينة عند ما وصلت اليهم الاخبار بعود العلائق التجارية بين مصر والسودان

ولم تكن أيام بعد ذلك حتى تقدم الجنرال جرانفل باشا سردار العساكر المصرية الى الخديوى في طلب تخفيض عدد العساكر المصرية وحل بعض أوليتها لعدم الحاجة اليها يومئذ وأن الجيوش الانجليزية تحل محلها في سائر مضاربها وكان زعيم السياسة الانجليزية قد رأى في إعادة العلائق التجارية مع السودان وفي بقاء العساكر المصرية على قدم الاستعداد في عددها وعددها شيئا يخافه في مستقبل الايام فأوعز الى السردار أن اطلب تخفيض عددهم فوافق الخديوى على ذلك وكلم الوزير نوبار باشا في الامر فاهتم له الوزير وجع اليه سائر الوزراء وعقد مجلسهم وجلس الخديوى بينهم فقال السردار مقالته وبالع في الطلب فرد عليه عبد القادر باشا وهو يومئذ المتولى نظارة الداخلية وأخذ يشرح الاسباب الداعية الى بقاء الجيوش المصرية على ما هي عليه من العدد والعدد وما تحتاجه البلاد في هذه الظروف من حفظ كرامتها في أعين الاعداء وإعظام قوتها الدفاعية رهبة لهم فعارضه في ذلك السردار وبالع في الممانعة وكان الخديوى لا يشاء أن يبرم أمرا على غير الذى يرى اليه زعيم السياسة الانجليزية تسكيننا للخواطير وتطمينا للقلوب * قيل فعرض السردار في رأيه وعاب على عبد القادر باشا قوله وسفهه فامتعض عبد القادر باشا وبالع في التعبير وسفه رأى السردار ورفع صوته بحضرة الخديوى فقاطع عليه الوزير نوبار باشا وقال له أنت بحضرة مولائى فاخفض من صوتك * قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكان الخديوى يعرف من الشوائب والتهمة الموسوم بها عبد القادر باشا شيئا كثيرا وكان الى ذلك الحين يغض الطرف عنها منعنا للقلق وتحاشيا من سوء العاقبة وكان جماعة الانجليز يودون لو أن الخديوى يأذن بتحقيق تلك التهمة وقد جمعوا من الدلائل على صحتها وعلى سوء تصرف عبد القادر باشا مع بعض أصحاب الاطيان بحوش عيسى والنوبارية بمديرية البحيرة واستعماله

(مطلب)
طلب الانجليز
تخفيض عدد
العساكر المصرية

لسلطة وظيفته وتطاول يده الى أموال الناس شيئا كثيرا فلما رأى منه هذه الجرأة والمكابرة ومعاندة السياسة الانجليزية في مجلسه كبر عليه الامر وأعظمه لاسيما وقد رأى من جماعة الانجليز في ذلك اليوم تحفزا للوثبة وكشف مأخفي من عورات الهيئة الحاكمة فرسم حينئذ بتحقيق كل ما هو مسند فعله الى عبد القادر باشا وقيد بذلك جماعة من كبار الموظفين فأصبح عبد القادر باشا وهو يتوقع العزل في كل لحظة من الزمان وعلم خصومه بالخبر فوردت شكاياتهم تترى على ديوان الخديوى وتم لصاحب السياسة الانجليزية ما أراد من تخفيض عدد العساكر المصرية في أيام قلائل ۞ حدثني صاحب لى قال كان مما أوجب بغض جماعة الانجليز لعبد القادر باشا وأكبر سعيهم وراء خلعه من منصبه أنهم رأوا أنه فضلا عن استعماله لسلطة وظيفته في أخذ حقوق بعض الناس وتطاول يده الى أملاكهم على غير مسوغ شرعى وتطلعه الى ما في أيدي الغير فقد كان يكيد للانجليز كيذا عظيما ويدس لهم الدسائس في السر والجهر واتفق أن خلت قلعة الوجه الواقعة على التخوم بين الاراضى المصرية والاقطار الجزائرية من المرابطين وباتت خاوية على عروشها منذ انحلال الجيوش المصرية بعد الثورة العربية فهم مقدم الجيوش الانجليزية بإرسال نفر من عسكره لاحتلوها ويرفعوا الراية الانجليزية على ما يجاورها من البقاع فأحس الباب العالى بذلك فسير في الحال جماعة من كبار العسكر الشاهاني وطائفة من الجند الى تلك القلعة فاحتلوها وبسطوا يدهم على ما يجاورها من السهول والبقاع وجاء الخبر بذلك الى عبد القادر باشا بصفته ناظرا للداخلية فاهتم له كثيرا واستحسنه وبالع في استحسنه واجتمع بالمشير مختار باشا مندوب الباب العالى بمصر وتناجيا في ذلك طويلا فلما علم زعيم السياسة الانجليزية بما جرى وتحقق أن لا قبل له على اخراج العساكر السلطانية من تلك القلعة الا اذا دفع برجال الحل والعقد في الحكومة المصرية الى معمعان المقارعة مع الباب العالى أوعز الى السير بارفنج بأن يكلم الوزير نوبار باشا في ذلك ففعل وأكثر من الاجتماع بالوزراء فكان يرى من عبد القادر باشا جفاء وغلظة في القول فشكاه الى الخديوى وكان الخديوى يكره فعال عبد القادر باشا وينقم عليه كثيرا فرسم بتشكيل هيئة من بعض كبار موظفي الحكومة لتتفرق فيما هو مسند اليه من سلب أموال بعض الناس والاستطالة على حقوق الضعفاء من الرعية فسارت تلك الهيئة في عملها سيرا حينئذ وحقت من تلك الشوائب شيئا فلم تكن الا أيام حتى ظهر خبر تنزيل عبد القادر باشا من منصبه وعلم الناس بنجر مبارحته القاهرة على عجل فتصفقوا أنه مكره لا بطل فولى الخديوى مكانه مصطفى فهمى باشا وولى محمد زكى باشا مكان مصطفى باشا نظارة الخريفة اه

(مطلب)

وكاد السلطان ينجح
في استمالة الروس
والفرنسيين الى
معاونته

وكاد السلطان في هذه الفترة ينجح في استمالة كبار سياسة الروس والفرنسيين الى معاونته على طلب تخفيض عدد العساكر الانجليزية المحتلة لمصر وهموا جميعا بطلب ذلك فلما أحس زعيم السياسة الانجليزية بما هم عليه أوعز في الحال الى قائد جيوشهم بمصر بأن

أظهر الأبهة والاستعداد لجلاء بعض الكائنات فجعل يظهر الحركة بين الجنود وأخذت
كنايتهم تغدو وتروح بين الاسكندرية والقاهرة وتحت قلعة الجبل وبولاق التكرور بأثقالهم
وأجالهم وآلات حربهم ودوابهم وانجلى من كان منهم بقشلاق الحرس الخديوى برجة
عابدين فاحتله نفر من العساكر المصرية ولم تكن الا أيام حتى كثر الارجاف بأن جماعة
من الدراويش انحدروا الى حلفا بخيلهم يريدون الزحف على اسوان فبالقاهرة وأن الفتنة
ظهرت بين أهالى ذلك الصعيد وأن قد جاء الصائح بطلب المدد العاجل فأسرعوا فى ارسال
طائفة كبيرة منهم الى الحدود قالوا لمنع العدو وأنزلوهم بالمواقع والمعاقل التى قد كانوا أخلوها
وطيروا الخبر بذلك الى الآفاق فسكت حينئذ أصحاب المايين وانكشف السلطان عن
استنهاض الدول ولبث كعادته يراقب الفرص فعلم الناس أنها خدعة وحيلة وظن السواد
الاعظم بالوزير نوبار باشا سوء ورموه بالخيانة وعاد أصحاب الصحف المحاذية الى صيحتهم الاولى
وهى طلب تنزيل الوزير نوبار باشا من منصبه وارجاع الوزير محمد شريف باشا الى منصة
الرئاسة وبدأت تظهر طلائع التحزب بين الناس وشوهد بعض الاوراق التحريضية ملصقة
على جدران بعض محال الحكومة فتناقل خبرها مراسلو الصحف الاجنبية وأكبروها جدا
فلم تكن الا أيام بعيد ذلك حتى مرض الوزير محمد شريف باشا واشتدت علته فجمعوا له
الاطباء فأشاروا بسرعة مغادرته للقاهرة والترفع فى النبل الى الصعيد الأعلى فاندعش الناس
من هذا الحادث الغريب وترامت نظنونهم الى المرحى البعيد فمن قائل انه مريض بذات
الجنب ومن قائل انه مريض بأفة فى الكبد ومن قائل قد سم فى التبغ بيد أجنبية
ومن قائل غير ذلك وسار الوزير على ظهر باخرة من الركائب الخديوية الى الصعيد الاعلى
فلبث أياما ثم انحدروا به على غير جدوى اذ اشتدت علته وكبر سقمه فأشار الاطباء بقيامه
الى الديار الاروپاوية فسار فى نفر من الاتباع الى تريستا وأقام بها والناس كافة يسألون
الله له السلامة والعودة الى منصب الرئاسة فلم تكن الا أيام حتى جاء الخبر بموته فحزن
الناس جميعا وبكوه ورسم الخديوى الى الوزير نوبار باشا بتعطيل سائر دواوين الحكومة حدادا
عليه والى كبير التشریفات الخديوية بالشخص الى تريستا على باخرة مخصوصة ليأتى بالجثة
الى مصر التى كان يحبها وكانت تحبه وتحن اليه وجلسوا فى داره للعزاء أياما حتى وصلت
جثته على ظهر سفينة قد استأجرها ولده قبل أن تصل اليه سفينة مصر فما ألقت السفينة
مرساها حتى هرع الناس من كل رتبة ودرجة الى المسير أمام نعشه فسار أولا بجمهور
المشايع والعلماء ثم صفوف جند البر والبحر ورجال الحرس الخديوى تتقدمهم موسيقى باخرة
المحروسة ثم وجهاء البلد وأعيانها على اختلاف أجناسهم ثم تلامذة المدارس وما زالوا سائرين
بالنعش والناس على جانبي الطريق يبكونه حتى وصلوا به الى محطة الباب الحديد فأنزلوه فى
قطار مخصوص وسار القطار الى القاهرة فلما وصلها حمل النعش جماعة من العساكر
المصرية وساروا بالجنائزة على شكل مهيب وترتيب عجيب أسكب عبرات الناس وأبكاهم

حتى واروه التراب * وكان شريف باشا رحمه الله معروفا بالاخلاص والترفع عن الدنيا مشهورا بالحزم والحكمة والدراية وسعة الباع في المعارف السياسية والعلاقات الدولية وغير ذلك من علوم العصر - تلقى علومه في مدارس الفرنسيس العليا وقضى في خدمة البلاد وأهلها زمنا غير قليل في الجندية على عهد الحاج محمد علي باشا الكبير ثم على عهد ابراهيم باشا وعباس باشا الاول وسعيد باشا ثم في ولاية اسمعيل باشا وتقلد في كل هذه الازمنة وظائف خطيرة أدار مهامها بالحزم والجد والغيرة مات وله من العمر ثمان وستون سنة وقيل سبعون وهو القائل ان تركنا السودان فلا تركنا فذهب مثلا عند المصريين رحمه الله برحمته الواسعة

وكان مما زاد الناس كرها للهيئة الحاكمة توالى الحوادث وظهور الكوارث واشتداد الانجليز على أهل البلد واذلالهم لاقبل سبب وأصغر حادث فقد وقع في هذه الايام أن اثنين من كبار عسكر الانجليز خرجا يوما للصيد في أرباض أهرام الجيزة فاتفق أن أحدهما أطلق بارودته يريد صيدا فأصابت نارها وجه صبي ل أحد الفلاحين كان يرعى جاموسه فاندعر الصبي وذهب مولولا مستصرخا أباه فلحق به الضارب وأخذ يلاطفه ويخفف عنه وأعطاه شيا من الدراهم ولم ينصرف عنه حتى جاء أبوه وقبض على الانجليزى وأوسع سببا ولكما فصاح الانجليزى على رفيقه فأتاه مسرعا وصوب بارودته نحو الرجل فاستصرخ الرجل أهل قريته وأكثر من النداء عليهم فأطلق أحد الانجليزين بارودته على الرجل فسقط ميتا وجاء أهل القرية مسرعين وقبضوا على الانجليزين وأخذوا ما كان معهما من سلاح وذخيرة وساقوهما الى القرية وزجوهما في دار هناك وجلوا القتل الى القرية بين الصياح والجلبة وعويل النساء ثم ساروا بالانجليزين الى ديوان مديرية الجيزة وسلموهما الى ولاة الامر فلما اتصل خبر ماجرى بقنصل جنرال الانجليز وقائد جيوشهم قاما وقعدا واشتد القنصل على الوزير نوبار باشا في طلب معاقبة أهل تلك القرية جميعا لقبضهم على القاتل والجراح من الانجليز ولم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى سار الى تلك القرية طائفة من فرسان الانجليز وأحاطوا بها من كل صوب ودرب وأخرجوا جميع من بها من الرجال وساقوهم كالانعام الى خيمة قد ضربوها على مقربة من الاهرام وبها جماعة من الانجليز فأخذوا يستنطقونهم ويسألونهم ثم عاقوهم أياما ثم حكموا عليهم جميعا بالجلد بالسياط فضربوهم ضربا مبرحا وسجنوا بعضهم وقد جعوا ما في القرية من سلاح وهرأوى وانصرفوا وقد راح دم ذلك المقتول هدرا ثم هذا كله والهيئة الحاكمة لا تبدى حراكا ولا تظهر عراكا سوى أنها وافقت على زج أهل تلك القرية في الحبوس حتى تحكم عليهم المحاكم بالعقوبات التي يقتضيها القانون فكان من وراء ذلك أن ظهرت عصابة من شبان أهل القاهرة ومصر لا بدعة المتخرجين من بعض المدارس وسموا أنفسهم باسم « الوطنيين الاحرار » فالتف إليهم جماعة من المحازين لمصطفى رياض باشا وجعلوا يجتمعون في بيت أحدهم في السر

والعلن ويتكلمون فيما وصلت اليه الحكومة من الضعف وزوال الهيبة وفي استسلام
الوزير نوبار باشا وجماعة الوزراء الى السير بارنج وشهدت بعض الاوراق المفعمة بالتقرير
والتنديد على جماعة الوزراء ملقاة في بعض دور الحكومة ودواوينها وجاء مصطفى رياض
باشا من مزرعته في طود البحيرة وأقام بالقاهرة فتزاحم على يابه أهل الدعارة والمملقون ومن
في قلبه مرض وتحققوا أن الوزير نوبار باشا معزول لا محالة وظهرت يومئذ الحركة في ديوان
الخدوي وترددت رسله على بيت مصطفى رياض باشا لغير سبب ظاهر سوى الارجاف بعزم
الوزير نوبار باشا على التخلي عن منصب الرياسة وما هو شائع بين الناس من أن كبار الانجليز
أرسلوا الى الاقاليم القبلية نفرا من اليونان والمالطيين جواسيس يسعون في استطلاع أفكار
أهل البلاد بشأن احتلال الانجليز لمصر وغير ذلك من الترهات التي ما أنزل الله بها من
سلطان * وكان من دهاء السير بارنج وقوة شكيمته أنه كلما آنس من أولئك الزعانف خلودا
الى الحركة أو سمع لهم صوتا في مجتمعاتهم أو رأى لهم مقالا في احدى الصحف المحاذية عمد
الى المساهلة مع الوزير نوبار باشا وخفف من طلباته وهون عليه كل صعب من الامور كأن
يقول خففوا عنكم فوالله ما استعملنا صاحبكم « يعنى مصطفى رياض باشا » الا بعد
أن نكون قد دبرنا له المكاييد والاحن وقلبنا لكم ظهر المحن ونلنا على يديه ما لا تستطيعون
عليه صبرا * حدثني صاحب لي قال كان بعض هؤلاء الصبية يرسلون بعض مديري
الاقاليم وأصحاب بعض الوظائف الديوانية بكتب الاستمالة والانعطاف الى مصطفى رياض باشا
وهو لا يأنف من ذلك ولا يراه معيبا بل كان اذا زاره أحد من أعيان البلاد أو مديري
الجهات زلني أن واشتكي وعاب على الهيئة الخاكمة ضعفها وتأفف مما وقعت فيه البلاد من
الدمار وكان كثير الوقعة برجال القضاء يقول انهم أحداث أغرار لا خبرة لهم بالامور ولا
نربة حتى خيل للناس يومئذ أنه ان عا الى منصة الرئاسة أراح جميع الخلق وسلك في سائر
أموره مسالك الحق - قال - وأخذت الحجة من أولئك الصبية مأخذها فنجحت سعابتهم
وتخرجت صدور الناس من الوزير نوبار باشا أو كادت فتجرد حينئذ السير بارنج الى النهج
في مناج جديد والقبض على زمام سائر الامور بيد من حديد - قال - وكأنه كان على
اتفاق مع الوزير نوبار باشا بأنه اذا شاء انفاذ أمر من الامور التي تقتضيها سيطرة الاحتلال
الانجليزي وحفظ هيئته في أعين أهل البلاد من مثل احداث الاحداث المخالفة لعاداتهم
أو ابداع البدع الداعية الى سقوط نفوذ الحكام المصريين أو ترتيب النظمات الجديدة الحاملة
على اقصاء أصحاب الوظائف من أبناء البلاد عن أبواب الارتزاق جعل انفاذ ذلك كله على
يدى من كان معتمد أولئك القوم عليه وأرغمه على العمل به - قال - فقد مضى على
رئاسة الوزير نوبار باشا في هذه المرة حين وكلمة السير بارنج معه في شؤون البلاد لم تتجاوز
حد النصيحة والارشاد ولم تعد عبارات التشجيع والاستنهاض ماعدا ما يتعلق منها بالسودان
شرقا وجنوبا وكان الوزير اذا رأى منه يوما اكراها على عمل شيء أراد صرفه عنه بالتي

هي أحسن واستماله الى الثاني وترك المجلة فينتهي عنه راضيا ولذلك قد تأخر ابرام الشيء الكثير من مقاصد زعيم سياسة الانجليز في الأمور الداخلية وظلت كلمة المديرين والمحافظين وأصحاب الوظائف الاخرى مسموعة وأيديهم مطلقة وسلطتهم مرعية وكان الذين تولوا الوظائف العالية من جماعة الانجليز الى هذا الحين يعدون على الاصابع وقد تمكن الوزير نوبار باشا بحزمه وقوة شكيمته من فك قيود الحكومة من العقود التي كانت مرتبطة بها مع الاجانب التزلاء الذين في خدمتها ونادى على رؤس الاشهاد بالكف عنها وعدم العود اليها فهيج هذا العمل أصحاب بعض الصحف الاجنبية فقاموا يستصرخون قناصلهم وظهر التحزب والتألب بين أصحاب الوظائف من كل جنس وطبقة ولبث الحال على ذلك أياما كثر فيها أنصار مصطفى رياض باشا وتقوّت عزيمتهم بما كانوا يسمعون من ضوضاء أصحاب الصحف الاجنبية وتكلمهم بقرب سقوط الوزير نوبار باشا من أعلى منصة الرئاسة * وكان مصطفى رياض باشا قد استبشر بما سيكون من وراء هذه الحركة فجعل يكثر من التردد على مقر الخديوى ويظهر التودد والعطف الى رجال ديوانه الخاص ويوالي المآدب الى كباره ويذني من مجلسه أصحاب صحف الاخبار ويوحى اليهم بالذي يعمل اذا أفضت اليه الرئاسة

وأشاع المرجفون في هذا الحين أن الوزير نوبار باشا أكره الشيخ المهدي شيخ الجامع الازهر ومفتي الحنفية وجماعة من كبار العلماء وأصحاب المقامات العالية على عمل محضر يطلبون فيه ضم مصر وسائر ملحقاتها الى أملاك السلطنة الانجليزية واستخلاصها من سيطرة الدولة العثمانية التي أنقلتها كل هذه السنين والاعوام وتكلم في ذلك أصحاب صحف الاخبار على اختلافها فصدق ذلك السواد الاعظم من الناس وأرجفوا ارجافا عظيما والامر على غير ما كانوا يسمعون وذلك أن الشيخ المهدي مالت نفسه في ذلك الحين الى الاستبداد بتقليد وظائف القضاء الشرعي الى صنائعه والاغرار الملتفين حول ولده الشيخ عبد الخالق وقد كان اعطاء هذه الوظائف لذويها من أهل العلم والفضل موكولا الى لجنة يرأسها بطرس باشا غالى وكيل الحفانية يومئذ والشيخ عضو من أعضائها فإناعه بطرس باشا في ذلك واشتد في ممانعته بحكم اللوائح المعمول بها عندهم فامتنع الشيخ وأخذته هزة الاحزاب فاستمال الى رأيه جماعة من العلماء وأعضاء شورى البلاد فكان لاحديث لهم في سمرهم الاخبار وقوف بطرس باشا في وجه الشيخ والحيلولة بينه وبين هواه واتفق أن رجلا من أهل الجزائر التابعين لدولة الرئيس امتلك دارا بأحد شوارع القاهرة وأخرى تلك دارا أمام دار ذلك الجزائري قد نداعت الى السقوط فأخذ صاحبها في لم شعثها وترميم ما تهدم من جدرانها وتنسيق شبايكها على الطراز الجديد فقام عليه ذلك الجزائري ومنعه من العمل وقال له ان منافذ دارك تكشف عورات داري فعارضه صاحب الدار المتداعية وقال ان بين الدارين طريقا ولا سبيل قط الى المعارضة وطال بين الاثنين الخصام أياما لم ينكف فيها صاحب الدار عن العمل فشكاه الجزائري الى قاضي قضاة مصر فحكم له القاضي بسد منافذ دار خصمه فهال صاحبها

حكم القاضي وأزعجه أيّ ازعاج فرفع ظلامته الى المحكمة المختلطة لتابعية خصمه لدولة
الفرنسيين فأنصفته وحكمت ببقاء منافذ داره كما هي وحكمت على خصمه بشئ من المال
تعويضاً عما لحق صاحب الدار من الخسارة بسبب الحكم الشرعي فلما شاع خبر ذلك بين
الاحزاب هاجوا وماجوا وأكبر الشيخ المهدي الامر وأعظمه جدا وقال انما هو عمل من
أعمال بطرس باشا غالي التي يقصد بها الصاق الخزي بأصحاب الشريعة الخفيفة ونصرة
أصحاب شريعة الفرنجة وسعى الشيخ مع جماعة من أعضاء مجلس شوري البلاد والاعيان عند
الخدوي ووشوا في حق الباشا وما زالوا بالخدوي حتى كادوا يستهونونه ويغترون به فعلم
بطرس باشا بما فعله القوم فدخل على الخديوي وأعلمه بحكاية الجزائري وما جرى لصاحب
الدار المتداعية وما حكم به قاضي قضاة مصر وحكم المحكمة المختلطة فكبرت عليه فعال الشيخ
المهدي وأعظم مقارعة المحاربين له من الاعيان وشوري البلاد وأرسل في طلب الشيخ وكله
في ذلك طويلا ورسم الى بطرس باشا بعمل ما فيه المصلحة تسكيناً لتلك القلاقل فأشار على
الشيخ بتكذيب كل قال وقيل في هذا الصدد فلم ير مناصاً من الازعان وتب من يومه الى
الجريدة الرسمية وتحف الاخبار المحلية يعلمهم بأنه لم يحصل شئ مما ذاع خبره البتة وأن
جماعة العلماء براء من كل تهمة أو فرية يفتريها عليهم المفترون وأن لا أصل لما أرجف به
المرجفون العاملون على ايقاظ الفتنة فاختلف الناس يومئذ حتى كادوا يفتنون وداخل
الخدوي ما داخله من بغض الشيخ المهدي حتى رسم بخلعه من منصب الافتاء ومشيخة
الجامع الازهر فخلع وولى مكانه في مشيخة الجامع شمس الدين اشـيخ محمد الانبـابي وفي
منصب الافتاء الشيخ محمد البناء الاسكندري واتفق في هذه الاثناء أن مرض الوزير نوبار
باشا واحتجب عن الناس أياماً فعاد الارجاف بخلعه وتنزيله عن منصب الرئاسة

(مطلب)

وقوع القتال
بسواكن مع عثمان
دقنه

وبينما كانت الاحزاب في قيل وقيل وأمانى وآمال اذ وردت الاخبار من سواكن
بوقوع القتال بين أصحاب عثمان دقنه والقبائل المصافية للحكومة والمرابطين من العسكر
المصري وبأن العدو أبلى في قتال المرابطين بلاء حسناً * وتحرر الخبر أنه لما كثرت
مناوشات العدو للقبائل المصافية وكثر تعديهم على ضواحي البلد رسم كتشنر باشا العامل
يومئذ على سواكن الى نفر من الجنـد والمولدين المرتقة والى أولئك المصافين بقتال العدو
واجلائه عن ضواحي البلد فخرجت طائفة من قبيلة الرمادر وجماعة من الباشيبوزق
والمرتقة مع طائفة أخرى من السود الذين نجوا من حامية كسله وغيرها في منتصف الليل
يتقدمهم كتشنر وبعض كبار العسكر من الانجليز وبعض الفرسان والهجانة المصريين
وساروا بجوار الخط الموصل الى هندوب وما زالوا في طريقهم حتى اذا كان ما بعد زوال
اليوم الثاني وصاروا على مقربة من هندوب بانـت لهم طلائع العدو فهجم عليهم
جماعة الباشيبوزق والعبيد وهزموهم أو كادوا فلم تكن الا لحظة حتى أحـدق العدو بكتشنر
وجنوده من كل صوب ودرب فثبتت الجنود في مواقعها واشتدت في رمي القنابل ورصاص

البنادق على العدو وأصلته نارا حامية فقابلهم العدو بالمثل وهجمت طائفة من فرسانه على مينة الجنود هجمة شديدة كادوا يسحقون فيها المينة سحقا وأصاب كثر من رصاصة في فكه الايمن وأصابته كذلك جراحة عظيمة فنفرت عساكره شذر مذر وتعذر جمعهم للقتال أو الدفاع وكثرت القتلى والجرحى واقتفى العدو أثر من بقي من العساكر يصلهم نارا حامية حتى دخلوا البلد وهم في أسوأ حال واشتدت علة كثر وعظمت جراحته فالتحدر من سواكن الى السويس وجاء القاهرة فاهتم السير بارنج لحضوره وزاره الكبراء والعظماء وجعل أصحاب صحف الاخبار ينقلون للناس أخبار صحته وما يطرأ عليه في كل ساعة من ليله ونهاره كعظماء الملوكة أو أقبال القوم اذا مسهم مرض وما زالوا حتى برأ وعوفي وزال عنه البأس

وكما كانت أحوال سواكن الى هذا الحين في قلق واضطراب بسبب هجمات العدو المتتابعة فقد كانت أحوال مصوع أكثر قلقا وأكبر اضطرابا لتفشي الامراض الخبيثة بين الجنود الايطالية وفعلها فيهم وفي خيلهم ودواب حملهم ووقوف الحبشان لهم بالمرصاد وتخطفهم كل من بعد ولو قليلا عن البلد حتى شمت نفوس العساكر وخارت عزائمهم من السهر ليلا على حراسة البلد والطواف حولها نهارا دفعا لذلك العدو الرابض كالاسد وكان قائد الجنود الايطالية يتقرب زلفى من القاضي ابراهيم شيخ قبيلة الاسورتين ويستقبله بالرشا والبراطيل الى معاونة الايطاليان وحماية أجنحة الجيش بنفر من قومه فكان هذا الشيخ كثير التقلب اذا قرب يوما ابتعد أياما واذا أظهر الرضا والحركة يوما فبالشئ الكثير من المال حتى أعيت الخيلة زعيم السياسة الايطالية وهم باجلاء العساكر عن مواقعهم والتخلي عما بأيديهم الى ذلك العدو الذي أشبعهم ضربا وطعنا قد طأطأت لشدتهم الرأس وكان قائد الجيوش الحبشية يرسل في كل قليل رسلة الى الحباشيين يستحثهم على البيقطة وعدم ترك السلاح ويستنهضهم الى إجلاء العدو عن أرضهم فكان دعاته يجوبون البلاد شرقا وغربا وأهل البلاد في حركة متتابعة ونهضة عظيمة وقد زاد الحال شدة على الجنود الايطالية اشتداد القيظ وكثرة الموات من تفشي الحيات الخبيثة بينهم

❦ والى هذا الحين كان قد تم الاتفاق بين صاحب سياسة الانجليز والدول الكبرى على عزلة بوغاز السويس وجواز سير سائر السفن فيه وكيفية الحكم في الخلاف الذي يقع بين الدول في ذلك وفي حق سيادة الباب العالي وملكيته لسائر الاراضي التي يشقها الخليج من أدناها الى أقصاها فلما اشتدت الامراض بالعساكر الايطالية المرابطين بمصوع وفكت بهم ذلك الفتك الشديد كالم زعيم سياستهم وزير السياسة الانجليزية في أن يأذن لهم بالنزول في قطعة أرض بمدينة السويس وجعلها مصيفا لهم إبان القيظ فرارا من هذا العدو الذي قد ضم عداؤه الى عدااء الحبشان فكادوا لا يبقون على أحد منهم فأجابه وزير سياسة الانجليز الى ما طلب فهب حينئذ أصحاب صحف الفرنسيين من رقادهم وتبعهم أصحاب

الصحف المحلية واستصرخوا الدول كافة وحذروهم سوء عاقبة هذا الامر واكثروا من الجلبة والضوضاء ولم يشغلهم عن هذه الصيحة الا ورود الخبر بهجوم عثمان دقنه ولومه على حصون سواكن مرة ثانية فانه لما تم له الظفر بالقبائل المصافية للحكومة وقهرهم طمع في مقاتلة المصريين فكان لا ينكف عن شن الغارة على ضواحي البلد ولا يقف عند حد من تخطف القادمين اليها او الخارجين منها ورمى حصونها بالقنابل رميا متتابعاً ليل نهار حتى فرغ صبر المراتبين وأعياءهم الدفاع من خلف الاسوار فتقدمت عند ذلك سفينتان من سفن الحرب الانكليزية وجعلت ترمي قنابل مدافعها على العدو كلما اقترب من البلد وظلت على هذه الحال أياماً فلما كان بعض الايام رأى الكولونيل تاب مقدم العساكر المصرية أن العدو قد احتل عند مطلع الفجر مرتفعات القلعة المسماة بقلعة هديسون وهي لا تبعد عن سور البلد الا بقدر فرسخ وأن قد جاءه المدد من المشاة والركبان من هندوب نخاف تاب العاقبة ونادى في العسكر بالخروج من وراء الحصون فخرجوا جميعاً بمدافعهم وآلات حربهم وخرج كذلك طائفة من الجنود الانكليزية ومعهم بعض مدافع السفن وساروا جميعاً لاجلاء العدو عن تلك القلعة فاشتبك القتال بين الفريقين وحى الوطيس والتقت السنابل بالسنابل فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى تفهقرت العساكر ورجعوا الى الوراء على أعقابهم فتبعهم العدو وأصلاهم بناره ثم انقض عليهم من كل صوب فقتل الكولونيل تاب وقتل وجرح كثير من معه وما زالت نيران العدو تتساقط تتساقط المطر حتى غابت شمس ذلك اليوم وتمكن من بقي من العساكر من دخول البلد فرجع أصحاب دقنه بما ظفروا به من الغنائم والاسلاب وشاع الخبر بما جرى ووردت تفاصيل الواقعة الى الخديوي والوزير نوبار باشا فانزعجا وكان كئس نوبار باشا قد عوفي ففكر راجعاً الى سواكن قبل وأوصاه الخديوي بعدم خروج العساكر من وراء الحصون كي لا يحركوا ساكناً من العدو وجاءت كتب زعيم سياسة الانجليز بالتخلي عن سواكن أيضاً وتركها الى العدو فكبر أمر ذلك على الخديوي وأطلقه جداً ووردت أيضاً كتب كئس نوبار باشا الى الوزير نوبار باشا بأن جماعة من المهاجرين الذين قدموا الى سواكن أخبروا بأن عثمان دقنه أرسل الى الخليفة عبد الله التعايشي في طلب النجدة على قتال المراتبين في سواكن فاذا جاءت النجدة هاجم البلد بخيله ورجاله ولم يتخل عنها حتى يفتحها عنوة ويقتل جميع من بها بحد السيف وكبر خوف كئس نوبار باشا واهتم كثيراً باستطلاع أخبار العدو ومراقبة حركاته ورسم الى جميع العساكر بملازمة الحصون والسمير على حراستها وأرسل دعائه الى مشايخ قبيلة الرمادري يستفرضهم الى الوقوف في طريق عثمان دقنه ومنعه من التقدم الى البلد قيل فأجابوه الى ذلك وسيروا رسلهم الى دقنه يقولون له لاتبارح هندوب والا قاتلناك أشد القتال ومزقنا جوعاً فلم يلتفت دقنه الى قولهم ولم يهمه أمرهم وقال للرسل السيف يحكم بيننا فأرحلوا عنا فعادوا كما ذهبوا * واتفق أن جماعة من عساكر السفن الانكليزية الراسية أمام البلد نزلوا الى البر لحاجة وابتعدوا عن البلد

قليلا فخرج عليهم نفر من أصحاب دقنه وأعملوا فيهم الطعن بالحرب والضرب بالسيف
فرأى المرابطون بالقلعة ماحل بالانجليز فأطلقوا على العدو مدافعهم فلم تكن الا ساعة
أو بعض ساعة حتى اجتمع العصاة واحتشدوا ألوفاً وهاجوا القلعة هجوماً الاسود الضواري
حتى كادوا يأخذونها عنوة لولا اشتداد نيرانها عليهم وتراسل قنابل مدافعها ولم يرجعوا عنها
الا بعد قتال عنيف للغاية * وخاف من في البلد فكادوا يتركونها وينزلون الى السفن ولم
تطمئن قلوبهم الا بعد رجوع العدو عن القلعة وكف المرابطين عن اطلاق المدافع وأصبحوا
وقد رأى كثيرون أنه لا يمكن الذب عن البلد ورد العدو عنها الا اذا أنشؤا قلعة أخرى
فأنشؤوها وأعوها على أحسن ما يكون وسلموها بالمدافع الكبيرة وعيها بالأسلحة والآلات
الحرب والمؤن الكثيرة وأقام بها المرابطون فكانوا يدفعون العدو عن البلد كل قليل من
الايام وهو لا ينكشف عنهم فلما أعياه الحال وعجز عن مناجرة من في هذه القلعة عاد على
أعقابهم الى هندوب فكبر أمر رجوعهم على عثمان دقنه وأعظمه وأرسل الكتب الى
الخليفة عبد الله التتعايشي في طلب المدد ويشره بقرب الفتح والخليفة بعينه ويرد عليه الرد
الجميل ولم يمهله بشئ

وصل

(في ارياب وانقلاب)

قد كانت الرئاسة على طول أيامها لم تصف الى الوزير نوبار باشا من أكدار الوشاية
وأوضار السعاية اذ كان له مع الخديوى من أمرها في كل يوم شأن ومع السير بارنج في كل
لحظة أخذ ورد بشأن أعمال بعض المأمورين وأصحاب الوظائف وفي نظام بعض الدواوين
وفي غير ذلك مما يتعلق بشؤون البلاد الداخلية وقد كبرت في هذه الايام شدته وعظم الحاجة
في طلب تنفيذ الكثير من الاحداثات المخالفة للألوف عند أهل البلاد وابداع البدع التي
لا يقوى الوزير على عملها خوفاً من صيحة الاحزاب وتألمهم عليه فكان اذا دافعه وحاجه
وكادت حخته تغلب حخته تأفف وقلب للوزير ظهر المجن حتى يكاد يخلط عليه الحال ويفسد
عليه كل عمل وتبدير واذا سايره وعمل بعض الذى يريده كارها قامت صيحة الاحزاب وأخذت
الوزير من كل جانب واشتدت جلبة أعدائه وأكثروا من الاجتماع تارة في بيت مصطفى
رياض باشا وأخرى في مقر الغازي مختار باشا فاذا علت أصواتهم وسمع الناس صيحاتهم
ورأوا كثرة اجتماعهم أقبل السير بارنج على الخديوى وتبرأ من تبعه كل عمل وشجعه على
الاخذ بأطراف الحزامة وحجب اليه الاستبداد بشؤون مملكته فداخل الخديوى من هذا
الحين ما داخله وصار لا يأذن بانعقاد مجلس الوزراء الا تحت رئاسته ولا يبرم في شؤون البلاد
أمر الا برأيه ولا يعمل عمل الا بمشورته حتى كاد يستبد بالامر ولا ينزل لاحد من رجال

دولته عملا وتعذر على الوزير حينئذ أن يوقى الرئاسة حقها أو أن يأتي عملا الا ويكون من ورائه اللدد والكد فكثير توجهه وعظمت شكواه الى بعض قناصل الدول وضعفت عزيمته عن العمل وضاعت تدابيرها فخاب منه الرجاء والامل وظهرت علامات الوحشة بينه وبين الخديوى وكادت تستفحل فأرسل الوزير تكران باشا وكيل نظارة الخارجية يومئذ الى زعيم سياسة الانجليز يشكو اليه علة الوزير وما يلاقه من أفاعيل السير بارنج وما نجم عن ذلك من الاضطرابات الداخلية التي لا بد وأن تودى بنظام الحكومة وترجع بالاحوال الى أسوأ مما كانت عليه ولبث تكران باشا في عاصمة الانجليز أياما ثم قفل راجعا الى القاهرة وشاع الخبر بعد رجوعه بوصول كتب صاحب السياسة الانجليزية الى السير بارنج بالاقلاع عن كل عداء وعدم مساس كرامة الوزير بشئ ولا مراجعته في شئ من أعمال منصبه فلم يكن هذا الخبر ليرضى الاحزاب ولا ليقف الارجاف عند حد بل زاد النفور وربك الامور ومال بالخديوى الى التفرد بالعمل والبحث في الصغيرة والكبيرة من أمور الحكومة وقد أحس مصطفى رياض باشا بما وراء ذلك فعاد يومئذ الى عمل المآدب للكبراء والامراء وأصحاب الوظائف وبالغ في التودد الى الناس والاقلاع عن التجب فكثر تردد المديرين وأعيان البلاد على بيته ترلفا فلما كان شهر رمضان من السنة أى سنة خمس وثلاثمائة وألف هجرية جاء من مزرعته بمجلة روح الى القاهرة وأكثر من عمل تلك المآدب فقويت حينئذ ظهور المحازبين له وظهرت جلبتهم وكثرت اجتماعاتهم وفي تاسع عشر الشهر أرسل الخديوى الى الوزير نوبار باشا قائلا يقول فيه

انه بناء على ما وقع في جلسة المجلس بالامس وما هو الا تكرار ما حدث أكثر من مرة من التباين في الآراء مما رأيت معه استحالة بقائك في منصبك فلهذا قد أقلتك منه وعهدت رئاسته وتشكيل هيئة جديدة الى صاحب الدولة رياض باشا اه

ثم أرسل الى مصطفى رياض باشا يستقدمه الى الاسكندرية وقد كان الخديوى يومئذ هناك فجاءها في ظهر الثلاثين من رمضان واجتمع بالخديوى ولبث بحضوره ساعة ثم نزل وطاف بزور بيوت الكبراء والامراء وقناصل الدول وغيرهم من الاجانب أصحاب الحشيات فزاره الجهم الفقير منهم وازدحم على بابه الشعراء والمهنون وأصبحوا وقد خرج الناس من الامراء والكبراء وأصحاب الوظائف لتأدية واجبات التهنئة بالعيد وصعدوا الى مقر الخديوى برأس التين فهنؤه ﷺ وسمعت بعضهم يقول للخديوى ونحن بقاعة التشریف ساعة التبريد عيد مزدوج يا أفندينا يريد بذلك عيد الفطر وعيد خلع الوزير نوبار باشا وكان ممن سمع معي هذا القول جماعة ممن لا يفضلون فريقا على الآخر فنصر الى أحدهم بعد أن خرجنا من حضرة الامير وقال أو تظن أن الخديوى أقال الوزير نوبار باشا للاسباب التي تضمنها مرسومه قلت لأظن غير ذلك - فقال اعلم أنه لما كبرت الوحشة بين الوزير نوبار باشا والسير بارنج وعظم الخلاف وضاعت تدابير السير بارنج أدراج الرياح فلم يزل من الوزير مأربا عمدا الى

المواربة فكان اذا اجتمع بالخديوى ورأى منه انقباضا خفف عنه وقال يا مولاي ان البلاد اسلامية وقد بلغت فيها المعارف الحديثة مبلغها فليس من حسن السياسة أن يكون وزيرها نصرانيا ولا من الحزامة أن تترك البلاد هدفا لغايات الاحزاب الذين قد ظهر صوتهم وارتفع نداؤهم * وكان اذا طرأ شئ من الخلاف بين الخديوى والوزير على أمر من الامور دخل على الخديوى وأظهر التأفف وبالع في الاشفاق - كل ذلك ليتيكن من خلع الوزير من منصب الرئاسة لكرامة الوزير عند صاحب سياسة الانجليز وتقديره له بحق قدره - قال - وما زال بالخديوى وهو يهتفون عليه خلع الوزير حتى ظن الخديوى أن السلامة فيما يشربه السير بارنج وأن الخلاص هين وميسور فلما آنس منه ذلك أشار عليه بتولية الرئاسة للوزير مصطفى رياض باشا وهو يرمى بذلك الى غايتين أولاهما التنكين بالوزير نوبار باشا وثانيتهما بلوغ ما يتمناه لدولته من المآرب على يد مصطفى رياض باشا لشهرته بالوطنية وحب السواد الاعظم بكاسته وحسن تسييره حتى اذا ارتفعت أصوات الاحزاب يومئذ وعلت ضوضاء أصحاب صحف الاخبار وقالوا فعل الانجليز بالبلاد كذا وتركوا كذا وكذا أجابهم السير بارنج خففوا عنكم فهاهى الالفعال زعيمكم ومقدام وطنكم فلا لوم على الانجليز ولا تريب فتأمل - فقلت يا هداك الله هذه ظنون وأوهام والله وحده علم ما فى مستقبل الايام فقال نعم ولكن الامر ظاهر للعيان والنتيجة لا يختلف قط فيها اثنان واعلم أن الخديوى ما برح ذا كرا للوزير نوبار باشا حسن طاعته وولاءه لذاته وعرشه وهو يعلم أنه أسلم الوزراء نية وأنقاهم طوية وأحب الناس الى البيت العلوى وأحفظهم لنعمته ولكن وقع القضاء فلا خلاص ولا مناص ولا حول ولا قوة الا بالله

ثم تم تشكيل هيئة الوزراء فكان الوزير مصطفى رياض باشا للرئاسة ولنظارى الداخلية والمالية ومصطفى فهمى باشا للحربية والبحرية ووزو الفقار باشا للخارجية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية وحسين فخري باشا للحقانية وعلى مبارك باشا للمعارف العمومية * وجعل الوزير مصطفى رياض باش يغدو ويروح على مقر الخديوى الى يوم الثلاثاء ثم عاد مع الوزراء الى القاهرة وطير الخبر بتوليته الى الآفاق وكتب الى سائر المديرين والمحافظين بالقيام بواجب وظائفهم وحذرهم من عاقبة التراخي والاهمال ثم لم تمض الا أيام حتى استقدمهم الى القاهرة وأشبعهم تأنيبا وتفر بعا ثم حضا على الاستقامة والاخذ بأطراف الحزامة والسهر على راحة العباد وتأمين الطرق والمسالك فى انحاء البلاد وقد شاع يومئذ أنه على عزم خلع سائر وكلاء النظارات كنظارة الخارجية ونظارة الحقانية ونظارة المعارف فقام لذلك بعض أصحاب الصحف الاجنبية والصحف المحلية وقعدوا وأخذوا يرمون بعض أولئك الوكلاء بشئ من التهم ويوجهون الى بعضهم اللائمة فكان ممن أكثر الكلام فى ذلك صاحب جريدة الغازيت الانجليزية وهى لسان حال الانجليز بمصر فانه شط فى المقال وأغلظ

فى التعبير وكان اذا أمسك عن الكلام يوما أتمته كتب الخصوم فى ذلك ترى فيرجع الى المهارة وهذر القول حتى ظن الناس أن مناصب القوم باتت على شفا جرف الزوال وأن قول صاحب الغازيت فى ذلك موحى به اليه من المراكز العالية ولكنه لم يرض على هذه الجلبة الا أيام حتى نهض أصحاب صحف الانجليز الكبرى يعيرون على صاحب سياستهم ما وقع من خلع الوزير نوبار باشا ويظهرون الميل والعطف اليه والى مبادئه وأماله الشريفة ثم جعلوا يعرضون بدسائس الغازى أحمد مختار باشا مبعوث الباب العالى ويقولون انه هو علة هذا الانقلاب وداعية ذلك المصاب بايقاظه الفتنة الرائدة وتشجيعه السير بارنج على ما زين للخديوى عمله وأخذوا من هذا الحين يقبلون للغازى مختار باشا ظهر الجبن ويتوعدون الرئيس مصطفى رياض باشا وأصحاب شوره بسوء العقبي والمصير ان لم يقلعوا عن هذا المنهاج المعيب ويعتدلوا فى سببرهم وتطرق بعضهم الى القول بأن الرئيس انما يريد من هذه الضوضاء تولية ولده منصب وكالة الحفانية وزج سائر ذوى قرباه فى مصاف أصحاب الوظائف العالية وقال بعضهم غير ذلك . وأخذ الرئيس يتصرف فى الامور فذ يده الى أعمال سائر الدواوين وبسط عليها نفوذه فتعذر على كبارها توفية وظائفهم حقها واستعصى عليهم رده عن هواه أو مخالفة كلفه فاختلف يومئذ الحابل بالنابل وفشلوا أى فشل وهو لا ينكف عن ترديد نداء الوعد والوعيد الى المديرين والمحافظين وسائر أرباب الوظائف بالالتفات الى تأمين الطرق وقطع شأفة اللصوصية وأصحاب السطوات اذ كثر عبثهم فى هذه الايام واشتدوا على القرى والبلاد بين قتل ونهب وافساد فكان كلما اشتد الرئيس على أصحاب الوظائف بسبب ذلك ازداد اللصوص قفحة وجراًة على الافساد واراقة الدماء وفتكوا بالناس فتكا ذريعاً فى مشرق البلاد ومغربها حتى فى القاهرة ومصر القديمة اذ سطوا على بيت حسين فخرى باشا ناظر الحفانية وأخذوا منه شياً من الحلى والاعلاق النفيسة وكذلك فعلوا بيت نوبار باشا بعد رحيله الى الديار الاوروباية وبيت الطيب جرانت بك الانجليزى وأزججوا أهل القاهرة ومصر وبلغ خوف الناس منهم معظمه فكان اذا خرج الرجل من بيته لحاجة وكل جاره بحراسة بيته حتى يعود والرئيس مع هذا كله كان يقول - عسير على أن أرى فى أيام رئاستى غير ما هو صائر من تأمين الناس على أرواحهم وأموالهم وعبالهم وقطع شأفة أصحاب الشقاوة

واجتمع به يوما مكاتب جريدة الستاندرد الانجليزية فحادثه فى أحوال البلاد وما عليه أهلها من القلق والخوف المتزايد بسبب عيث اللصوص فى مشرق البلاد ومغربها وفى التهم الفاضحة الموجهة الى أصحاب بعض الوظائف الديوانية وأشار على الرئيس بتشكيل لجنة شبيهة باللجان التى يتولاها مجلس الاشغال العمومية فى عاصمة الانجليز وأن تكون أعمال هذه اللجنة علنية لا تخفى على أحد من الناس فقال له الرئيس ان مثل هذه اللجان فى بلادكم لاتتناول الا أبناء جنسكم فقط على حين أنها اذا أنشئت هنا حال دون بلوغها الغاية

موانع شديدة اذ تقوم الاحزاب ويندفع كل منهم على الآخر ويرى غيره بالثمن والوشاية وهناك تكون الطامة الكبرى - الى أن قال وحقيقة الامر أن الاحوال في السنوات الست الماضية « يعنى بها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا » قد بلغت حدا من الخلل والارتباك لم أكن إخالها تبلغ اليه عند ما استلمت زمام الرئاسة في هذه المرة والذي أراه أنه ليس في الامكان الآن لخص جميع الاعمال المخلة التي عملها بعض موظفي الحكومة لا سيما وانهم فيما يظهر قد أقدموا عليها مدفوعين ممن كانت واجباتهم تقضى عليهم بمعاقبتهم - قال وأؤكد لك أنه لا يكاد يمضي يوم حتى يظهر فيه مظهر جديد مشوه بالعيوب والخلل مما كان يدفع بي أحيانا الى القنوط اذ أجسد نفسى تجاه أمور ثقيلة تقضى علىّ بالعناء الكثير والذي يدهشني ويوجب مزيد استغرابي هو عدم تداخل الدولة الانجليزية في ذلك الامر وانماضها الطرف عن الاعمال السابقة « يعنى أعمال الوزير نوبار باشا » - قال واني لا أقصد محو المغايرات القديمة والاعضاء عنها ولكني سأجهد النفس في نسيان الماضي لا سيما وأن المستقبل معقودة نواصيه بنزاهة الاعمال الحاضرة اه ٥ قلت ومحصل بعض هذه التهم التي أشار اليها ذلك المكاتب الانجليزي أنه لما سقطت الخرطوم وانحدرت الجيوش الانجليزية وتحقق الناس خروج الاقطار السودانية من قبضة الخديوية المصرية تقدم الى ديوان الخزينة جماعة من اليونان والروم الذين كانوا يتجرون في السودان يطالبون بحالهم في ذمة غردون أيام الحصار ودفعوا الى الخزينة صكوكا موقعا عليها بخاتم غردون تثبت أن في ذمته لاصحابها مالا اقترضه للنفقة أيام الحصار وتراجت أقدام هؤلاء القوم على أبواب الخزينة وهم في كل يوم يلحون في طاب مالههم فاهتمت الخزينة يومئذ بالامر وأكبره رجالها وشكلوا لفحص تلك الصكوك هبة من أشار بهم جماعة الانجليز فتقرب اصحابها حينئذ من بلوم باشا وكيل الخزينة وأورنشتاين كاتب سر المستشار المالي قيل ومنوهما ووعدهما بالعود الكثيرة ففصلا في الامر وقاسا وألبسا كلا من اصحاب تلك الصكوك ما لاق فهتمت الخزينة بالوفاء وهي في إجمال وعسر فلم تتمكن فانبت اصحاب الجباية يومئذ يجوبون البلاد شرقا وغربا ويجمعون الاموال والضرائب مع العنف والشدة وطلب اصحاب تلك الصكوك مترادف حتى برح الخفاء وبان فساد تلك الصكوك وتحققوا أن خاتم غردون مزور فامتنعت الخزينة من القيام بتعهداتها ونجابت بهيعة كل من كان في قلبه مرض بعد قيل وقال ضربنا عنهما صفحا فلما ذاع كلام الرئيس مصطفى رياض باشا مع ذلك المكاتب على ما تقدم وتنقله الناس أخذت الرئيس ألسنة الاحزاب وعابوا عليه خيلاءه وتفاخره وقالوا عسير عليه أن يدرا عن نفسه وصمة هذا الترف وعار التقرب من الانجليز وهو رجل الوطن ووحيدته وتطيروا من ذلك وحسبوا للمستقبل أيام رئاسته في هذه المرة حسابا كبيرا

وكان قد حدث على عهد الوزير نوبار باشا حادث في الفيوم - وذلك أن أحد اصحاب

الحيثيات بها واسمه مصطفى بيك واصف قتل في احدى ليالى شهر رمضان في بيت وجيه من البلد اسمه خليل الدهشان فاهتمت الحكومة يومئذ بالامر ورسم الوزير نوبار باشا الى جماعة من المأمورين بتحقيق هذا الحادث واطهار الجاني فلم يفعلوا واختلط عليهم الحال أياما فلما تولى الرئيس مصطفى رياض باشا الرئاسة وآنس من الناس قلعا واضطرابا لفقدان الآمن وعثت المصوص في سائر البلاد عمد الى اظهار شئ من الشدة في تحقيق مقتل مصطفى بيك هذا ورسم به الى جماعة اصطفاهم وهم حشمت بيك رئيس محكمة المنصورة وأحمد خيرى بيك قاضى تحقيق جنايات محكمة مصر ومحمد صبرى بيك أحد ضباط قسم الضبط فساروا جميعا الى مدينة الفيوم وقبضوا على خليل الدهشان صاحب البيت الذى قتل فيه مصطفى بيك وعلى جماعة آخرين ممن حصروا الشبهة فيهم وزجروهم فى الحبوس وضيقوا عليهم وشددوا فلم يصلوا الا الى معرفة أن الرجل أصيب بطلق نارى وهو يلعب الترد مع خليل الدهشان ثم شاع الخبر بعيد ذلك أن خليلاً وأخاه خير الله هما القاتلان - قالوا وتحرير الخبر أن مصطفى بيك هذا جاء فى احدى ليالى شهر رمضان من مزرعته الى بيت الدهشان ليزوره لمودة وصحبة بينهما فبعد الافطار وأداء صلاة التراويح جلس مصطفى بيك مع الدهشان على مسطبة فى صحن الدار يتحادثان لحظة لطيفة ثم طلب مصطفى بيك من الدهشان أن يلاعبه الترد « الطاولة » فأجابه الى ذلك ونادى على أحد أتباعه أن هات لنا الطاولة فأتى بها الخادم فينما كان خليل يرتب أحجارها نظر مصطفى بيك مسدسا بجانب خليل فقال ما هذا قال هو مسدس من الطراز الجديد قال أرنى اياه ومد يده وأخذه فقلبه وأعجب به كثيرا ثم ناوله الى الدهشان فجعل الدهشان يقلبه أيضا ويطرى على صانعه فلم يشعر مصطفى بيك الا وقد خرجت منه رصاصة أصابت كتفه فانزعج وصاح فى وجه الدهشان وقال « أهى خونة يا كلاب فلا كنتم ولا كانت صحتكم » فجاء فى الحال خير الله أخو خليل وصاح على أخيه بما هذا وما الذى تنتظره بعد الذى جرى عجل بازهاق روحه - قال وأخذ هو المسدس وأطلقه على مصطفى بيك ثانية فأماته - قالوا وقد شهد شهود الحال بهذا المقال فأتى جماعة المحققين عملهم وانحدر حشمت بيك الى القاهرة وأخبر الرئيس بما جرى - قيل فأعجب الرئيس فطنته وذكاؤه واهتم بالامر ورسم الى حسين فخري باشا ناظر الحقانبة بتشكيل محكمة مخصوصة للحكم فى مقتل مصطفى بيك فرفعوا بذلك طلبا الى الخديوى فأجابهم اليه وتشكلت تلك المحكمة من خمسة قضاة وهم عبد الحميد باشا وأحمد بليغ بيك وابراهيم نجيب بيك ومحمد كمال بيك صهر الرئيس مصطفى رياض باشا وسليمان رؤف بيك وأحمد حشمت بيك لاداء وظيفة المدعى العمومى وتقرر بأن تتبع هذه المحكمة فى أحكامها نصوص القانون الجديد المعمول به فى المحاكم الاهلية بالأقاليم البحرية لانه الى ذلك اليوم لم تكن تأسست المحاكم بالأقاليم القبلية وبأن يكون حكمها فى ذلك نهائيا لا يقبل الطعن على أى وجه كان فلما كان صباح الاثنين خامس عشرى المحرم افتتح

سنة ست وثلاثمائة وألف هجرية انعقدت هيئة تلك المحكمة وأوقفوا أمامها خليلًا وأخاه خير الله ووقف معهما أحمد أفندي الحسيني و خليل أفندي إبراهيم المحاميان عنهما وبعد دفاع يومين كاملين حكمت المحكمة بإعدام خليل وأخيه شينقا وصادق قاضي قضاة مصر والخديوي على ذلك وأعطى للحكوم عليهما مهلة ثمانية أيام من يوم صدور الحكم لكي يدبرا أمر عيالهما وعلاقاتهما ثم نفذ الحكم على خليل بمدينة الفيوم وعلى خير الله أخيه بَاهَرِيَّت إحدى قرى الفيوم فلما وضعوا جبل المشنقة في عنق خليل وأزاحوا الكرسي الذي كان تحت أقدامه انقطع الجبل وسقط خليل مغشى عليه فأجلسوه على كرسي وذهب الجلاد يشتري جبلا آخر من سوق البلد ففتح خليل عينيه وقال اثتوني بقليل من الماء فأتوه بركوة فشرب قليلا والتفت الى الجمع وقال أشهدكم بأني مظلوم مظلوم ويعلم الله - القصاص قريب - ثم أغمض عينيه وسكت فضج الناس وتوجعوا وظهرت حر كمهم وعاد الجلاد بالحبيل ووضعوه في عنق خليل وشده فبقى معلقا وفاضت روحه في الحال وشاع خبر هذا الحادث فانقبضت صدور الناس لسماعه وعاب كثير من القضاة على تلك المحكمة حكمها ورموا بعض رجالها بالمروق عن جادة الحق وكثر تحدث الناس في ذلك ولا سيما بعد أن خلع الرئيس بعض أصحاب الوظائف العالية وما كم البعض الآخر من كان لهم يد في التحقيق الأول ﴿ حدثني وجيهه من وجهاء الفيوم قال أظن الناس أن خليل الدهشان وأخاه خير الله هما قاتلا مصطفى بيك واصف - قلت لم يبق على ما أظن من ريب عند أحد في ذلك بعد أن حكمت به تلك المحكمة العليا فأطرق ثم رفع رأسه وقال عرفت مصطفى بيك منذ حين وأعرف ولدى الدهشان من قبل فأحدهما وهو خليل صعب المراس قوى الشكيمة جبار عنيد ولكنه جواد كريم حسن المعشر بعيد عن الجور وكان بينه وبين مصطفى بيك محبة ومودة عظيمة لا لغرض سوى محض الاخلاص وكان أعرابي اسمه منصور مستأجرا لشيء من أطيان خليل الدهشان بأحدى قرى الفيوم وله زوجة جميلة قد علق خليل بحبها وعلقت هي كذلك به فكان خليل يزورها في خدرها كل قليل من الايام وتزوره في بيته بالبلد وكانت مع شدة مراقبة حليلها وغيرته لا تخشاه ولا تنكف عن الاتيان الى خليل وشاع خبر ذلك بين الناس وعرفه كبار البلاد وصغارها حتى ندد بعضهم يوما بزواج المرأة وناداه بعضهم بفحش القول فصمم الرجل على الانتقام من خليل وجعل يراقب الفرص و خليل يعلم ويحذر ويدفع بالرجل الى المهالك رجاء الخلاص منه واتفق أن حضر مصطفى بيك في احدى ليالى شهر رمضان لزيارة خليل في داره بَاهَرِيَّت والافطار عنده في تلك الليلة ففرح خليل بحضوره وبعد الافطار جلسا على مسطبة بصحن الدار يتحدثان ساعة ثم قال مصطفى بيك لخليل أوليس عندك طاولة للعب فقال عندي قال هاتما لنلعب معا قتلا للوقت فنادى خليل على أحد أتباعه أن اثنا بالطاولة من بيت النساء فدخل الخادم وأبطأ كثيرا فقال مصطفى بيك أين الطاولة

يا قوم ما هذا الإبطاء فاجل خليل من إبطاء الخادم وأسرع الى بيت النساء فلاقاه الخادم عند الباب وقال له سيدي فلان « يريد به ابن أخي خليل المتوفى » منعني من أخذ الطاولة ويقول ان أخته ماتت منذ خمسة أيام فكيف ياتي لعب الطاولة وقد لطمني على وجهي فلما سمع خليل ما قاله الخادم غضب وأسرع بالدخول وكان ابن أخيه قد رآه على هذه الحال فأسرع الى الطاولة وأخذ حجرا من أحجارها لينزع من الاستفادة منها فقال عليه خليل وأشبعه ضربا ولكم وأخذ الطاولة وخرج مسرعا وجعل يعتذر الى مصطفى بيك ومصطفى بيك يفتح مجلس خليل وفتح الطاولة يريد رص أحجارها فوجد حجرا فاقتدا فنادى على الخادم أن أحضر لنا قرشا نحاسا نضعه بدل الضائع من الحجارة فذهب الخادم - وعلم منصور العربي في تلك الساعة بخبر جلوس خليل وضيغه في صحن الدار فأتى مسرعا يتأبط بارودته ووقف خلف سور صحن الدار والسور لا يتجاوز ثلاثة أذرع ارتفاعا وصوب بارودته نحو رأس خليل وكان في هاته اللحظة قد رجع الخادم وناول سيده القرش فأخذه وانحنى قليلا وجعل يرص الحجارة ثم رفع رأسه قليلا ثم طاطأها فأطلق الاعرابي بارودته فخرجت رصاصتها عند انحناء خليل واحتكت برأسه من خلف الى الامام وأصابته كتف مصطفى بيك ثم استقرت بقلبه ففاضت روحه لساعته واختفى الاعرابي فلم يعلم به أحد فقامت ضجة في بيت خليل وامتلأ صحن الدار بالعدد العديد من أهل البلد وطبخوا الخبر عما حصل الى المدير والى أهل الفقيه فوردت يومئذ كتب الوزير نوبار باشا مشددة بالقبض على القاتل وجاء بعض مأموري الحكومة لتحقيق الحادث وبنوا العيون فدلّت التحقيقات على أن الطلق الناري كان على بعد بضعة أمتار وأن مقدوف البارودة شظية من الرصاص لا رصاصة من رصاص المسدسات واستخرج تلك الشظية جماعة من الاطباء فلم يبق موضع للريب عند أحد في أن القاتل هو غير الدهشان - قال - ولكن أين هو القاتل يا ترى لم يحصل العثور عليه الى ذلك الحين * واتفق أن عزل الوزير نوبار باشا من منصبه فتولى الرئاسة مصطفى رياض باشا فاهتم بهذا الحادث اهتماما عظيما لعاية بعض الخصوم وتقرب أصهار مصطفى بيك من مجلس الرئيس فوردت كتبه على مدير الفيوم بالتشديد في طلب القاتل والتحذير من عاقبة التواني ثم لم تكن الا أيام حتى أرسل أحمد حشمت بيك أحد رؤساء المحاكم الاهلية ومعه جماعة من المأمورين فمالبثوا أن قبضوا على خليل وأخيه خير الله وزجوهما في الحبس مع نفر من أهل البلد وعملوا ما لا خير فيه اذ نبشوا جثة المقتول وأخرجوها من قبرها وكبسوا بعض الدور وفتشوها ونقلوا شيئا مما وجدوه بها ومنعوا المسجونين من الراحة في الليل والنهار واشتدوا عليهم في الاخذ والرد شدة بالغة وقالوا ان الجراحة التي شوهت في رأس خليل ليست الا كيا بمسار محي في النار يراد به درء فعل القتل عنه - قال - وقد كان السواد الاعظم من أهل الفيوم يعلم بأن الحقيقة غابت عن أولئك المأمورين أوهم أخفوها لغرض في النفس فأخذتهم الطيرة وكانوا اذا تكلم

بعضهم مع بعض في شئ من ذلك تكلموا همسا خوفا من العيون وكثر غدق ورواح حشمت بيك الى القاهرة فكان كلما ذهب وعاد قلب الاعمال بطننا الى ظهر وبالغ في الحيلة والتشديد على المسجونين ثم جاء جماعة من القضاة للحكم على خليل وأخيه في محكمة مخصوصة أو هي محكمة عليا كما سموها وجلسوا لذلك يوما وبعض يوم قام فيهما حشمت بيك مدعيا فبالغ في القول وشط في الطلب وعاب على بعض مأموري التحقيق عملهم وارتاب في ذمهم ولم يترك جراحة الا وطعن بها جسم خليل وأخيه خير الله ثم أخذ بعد كلام طويل ينادي القصاص القصاص احكموا انا بتعليق هذين السفاكين على خشبة احكموا احكموا على قاتلي ذلك البريء احكموا فكان السامعون يدمدمون فيما بينهم ثم قام المدافعون عن خليل وأخيه وتكلموا واحتجوا بأقوى الحجج وبرهنوا بأعظم ما يكون من البراهين على براءة خليل وأخيه واستلفقوا أصحاب الحكم الى صوت الحق الصارخ أمامهم حتى بكى بعض الحاضرين وبعد أخذ ورد تقدم خليل وكانوا قد فكوا قيوده وأغلاله وقال بصوت استلفت اليه الانتظار يا سادتي قد اتهمني وأخى خير الله حضرة هذا المدعي الذي لم يراع الذمة ولم ينصر الحق واشتد على وعلى أخى شدة الله يحكم فيها بعذله وزعم أن الجراحة التي أصابت رأسي من الطلق الناري الذي أصاب قلب فقيدنا مصطفى بيك إنما هي جراحة أحدثها لي أحد الحلاقين اخفاء لحقيقة جريعتي وقد سمعتم من دفاع المدافعين عني ما أسأل الله أن يوفقكم به الى الصواب فلم يبق الا أن أسألكم أمرا هو - ان وفقتم الى الحكم على وعلى أخى بالقتل ولا أنظنكم الا فاعلين فاستخلفكم عن ترجون منه الرحمة من هول هذا الموقف الرهيب أن تسدوا بي وتسبقوا أخى خير الله أياما حتى تفحص الاطباء جراحتي بعد الموت فان كانت اصابة حقيقة وليست جراحة من يد حلاق كما يزعم مدعيكم فأطلقوا سبيل أخى ليعول صيتي وأهلي ويكون قد خفف الله عنكم وزرا من وزرين وكفاكم عقابا من عقابين وان كانت جراحتي كما يقول صاحبكم فأنتم في حل من دمي ودم أخى والله على ما أقول شهيد ثم ذرفت عيناها الدمع فانتخب وبكى الناس لبكائه وكادوا يضحون ويرفعون أصواتهم ﴿ قال الراوى فعند ذلك قام القضاة واختلوا برهة ثم خرجوا وجلسوا على كراسيهم ونطق الرئيس بالحكم على خليل وأخيه بالأعدام شنقا فاندعر الناس وخرجوا وكان على رؤسهم الطير - قال - واتفق أن عاد السير بارنچ فنصل جنرال الانجليز الى القاهرة بعد غياب وشاع خبر حضوره فعملت به عجوز هي أم خليل وخير الله فقامت لساعتها ومعها صبي لخليل لم يناهز الخامسة وانحدرت الى القاهرة واتصلت بباب السير بارنچ واستجارت فأدخلها اليه وسألها عن سبب حضورها فقصت عليه الخبر وقالت جئتك ياسيدي لا لتخلص ولدي من الموت بل لبيدوا بقتل خليل وخلص جراحته فان كانت كما يقول فأبقوا لي خير الله يعولني ويعول صبيته وصبية أخيه وان كانت كما يزعم مصطفى رياض باشا وأصحاب شوراء فهم في حل مما يفعلون - قال

وبكت العجوز بكاء مرا وتراعى الصبي على أقدام السير بارنج فطيب السير خاطرهما ووعدهما خيرا - قال - وكان السير بارنج أرسل الى الرئيس مصطفى رياض باشا يستعلم عن هذا الحادث فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء أحمد حشمت بيك الى الفيوم يحمل الامر بتنفيذ الحكم على خليل وأخيه ولم يكن قد مضى الاجل المضروب لذلك قانونا فأنفذوه على ما اشتهر خبره يومئذ وبلغ السبع الطباق اه ٥ قلت وكان الرئيس كان يظن أن في قتل ولدى الدهشان عبرة وارهبا لاهل الشقاوة وأصحاب اللصوصية الذين ملؤا البلاد شرقا وغربا يهبون ويقتلون ويقطعون الطرق فلم يصب ظنه المرحى فانه ما انتشر خبر هذا الحادث حتى كبرت قهقهتهم وعظمت جرأتهم وانبثوا في سائر أنحاء الاقليم فكانت الاخبار تأتي الى الرئيس تباعا بوقوع النهب والقتل واتلاف المزارع وتسميم الماشية حتى ضج الناس وذهب منهم الصبر وتولاهم القنوط واليأس وقد زادهم قلقا واضطرابا ورود الخبر بظهور الوباء في مكة واشتداد الموات بين الحجاج شدة بالغة فاهتمت رجال الحكومة لذلك اهتماما كبيرا ورسم الخديوى بناء على ماقرره مجلس الكورنتينات بإرسال قوة كبيرة من العساكر والاجناد الى مدينة السويس لتقوم بعمل طوق صحى ما بينها وبين طور سيناء وعيون موسى وتشديد مراقبة الحجر على الحجاج في الطور عند قيامهم من جده وغيرها وبالغت الخزينة في بذل النفقة اللازمة لذلك وتحوطت الدول الاجنبية كافة فضربت الحجر على سائر ما يرد الى موانئها من الموانئ المصرية وسواحل البحر الاحمر وأرسل بعضهم الى السويس رسلا ليراقبوا مرور الحجاج بالترعة الملحقة عند عودتهم الى أوطانهم وخاف الناس من تناقض الاخبار وورودها مقتضبة مبتورة عن ظهور هذا الداء أيضا في راوندوز من بلاد الموصل وفي جزيرة ابن عمر وغيرها من البلاد العربية وهوأت اليها من الهند الانجليزية وكثر اجتماع الرئيس مصطفى رياض باشا بكبار موظفى ديوان الصحة ليرأى رأيهم فيما يجب عليهم عمله لقاء هذا العدو الفتاك وطاف أطباء أقسام مصر والقاهرة فى الأزقة والخارات ومعهم أصحاب الشرطة ومشايخ الحواري يستحثون العامة الى نظافة بيوتهم والعناية بتطهيرها وصارت الاخبار تأتي فى كل يوم من مكة والمدينة بعدد الوفيات فكان مبلغها فى اليوم نيفا وألفا فاشتد الخوف بالناس وكبرت حيلة رجال الحكومة ورسم الخديوى بمنع عمل الموالد ومنع الناس من الاحتشاد فيها وأرسلوا بعض سفن الحرب لحراسة السواحل من السويس الى دبه ومنها الى الزعفرانة وأقاموا أربطة من الجنود على هذه السواحل لمنع الغارتين من الحجر والاخبار ترد فى كل يوم بأشدهد الوباء فى مكة وفى المدينة ودخوله الى جدة وفتكه بالحجاج فتكا ذريعا ثم كثرت وارد الحجاج على ظهور السفن الى الطور وعيون موسى فأزولهم هنالك محجورا عليهم وبقي الحال هكذا أياما وجاء الخبر يوما الى محافظ السويس بفرار أربعة من الطوق الصحى ودخولهم المدينة ثم فرارهم منها ليلا الى القاهرة واختفائهم فى بولاق مصر فطير الخبر بذلك الى محافظ مصر فاهتم له المحافظ وبث جماعة من أصحاب الشرطة

في طلب الفارين فعاتوا في بولاق مصر ولبسوا على كثير من الدور والوكائل على غير طائل
وانفق أن مرض رجل من سكان بولاق مرضا عاديا سبقه بعض القيء والذرب فأخبر شيخ
حارته طبيب القسم بخبره فسار الطبيب الى منزل المريض ليبحث عن علته وسبب مرضه
فوجد أن الرجل قد مات وأن أهله يستعدون لتشييع جنازته فمنعهم من ذلك وأرسل
في طلب عربة الموتى من مركز صاحب الشرطة ببولاق وطير الخبر الى محافظ البلد بأن
الرجل مات بالهَيْضَة الوَبائية ثم منع الناس من الاقتراب من الجثة وبالع في ذلك فقام عليه
حينئذ أهل الميت وأشبعوه ضربا ولكم ووخزا وأخرجوه خارج الدار وقفلوا دونه الباب فلم
تكن اللحظة حتى أتى رجال الشرطة ونفر من رجال الصحة ومعهم عربات نقل الموتى
وتطهير متاع المصابين بالامراض المعدية وشئ من العقاقير ومواد التجخير ودقوا باب بيت
الميت فلم يفتحوا لهم فظلوا على هذه الحال ساعة اجتمع فيها العامة وزعر بولاق بعضهم
وهراويلهم واشتدت جلبتهم وصياحهم في وجه أصحاب الشرطة ورجال الصحة وعلا عويل
النساء وصراخهن من شبابيك الدور ورموا رجال الصحة بالحجارة من أسطح البيوت وكثر
الهرج والمرج فأتى محافظ المدينة في نفر من الجنود والاتباع وما زال بأهل الميت حتى
فتحوا الباب فدخل أصحاب الشرطة ورجال الصحة وحلوا الجثة عنوة ووضعوها في عربة
الموتى فسارت بها على عجل الى مستشفى القصر العيني والناس محتشدون حولها وهم في ضجة
وصياح فكان المشهد مرعبا وخاف الناس خوفا عظيما وظن بعضهم أن قد أنشب الوباء
أطفاره في جوف بولاق القاهرة بدخول الفارين من الجرح الصبي اليها واستصرخت أصحاب
الصحة على اختلافها رجال الصحة واستنهضت أصحاب الشرطة الى الاخذ بأطراف الحزم
والثبات وسألت أصحاب الحل والعقد أن لا يخلوا ولا يقتروا في النفقة حتى يدفع الله عن
البلد شر هذا العدو القاهر وأكثر الاطباء من نشر الارشادات الطبية والنصائح الصحية
لعل الناس يعولون عليها ويعملون بها * فلما كان اليوم الرابع من ظهور هذا الحادث
ظهر الخبر وتحقق أن ذلك الميت لم يمت بالهَيْضَة الوَبائية وأن مرضه انما هو من الامراض
العادية التي تحصل عادة في فصل الصيف من كل سنة وأن الرجال الفارين من مجر الطور
ليسوا من الحجاج وانما هم ممن ذهب مع ركب الحج يوم خروج الحمل من القاهرة ثم تخلفوا
بالسويس اضيق ذات ايدي ولبثوا بالبلد ينتظرون رجوع الحجاج فينزلون معهم الى القاهرة
كأنهم حجوا وطافوا وعموا المناسك كلها زورا وبهتانا وتكلمت في ذلك الجريدة الرسمية
وأقامت عليه الدليل فاطمأن الناس وزال عنهم الخوف وكبرت عناية أصحاب الحل والعقد
بمراقبة السواحل والتشديد في النطاق الصحي بمجبرى عيون موسى وطور سينا

وبينما كان دعاة الصحة يطوفون المدن والبلدان شرقا وغربا وشمالا وجنوبا
يحضون الناس على تنظيف دورهم واصلاح حالة طعامهم والعناية بماء شربهم والامتناع
عن كل ما من شأنه تسرب ذلك الداء الفتاك الى البلاد وفتكه فيهم وفيمن يحبون

كان جبابة الخراج يطوفون كذلك البلاد زمرا يجبون الاموال في غير آجالها ويشددون على الناس في ذلك تشديدا بالغا وكان بعض المديرين يبذلون من الهمة في ذلك والعناية به ما أعجب الرئيس مصطفى رياض باشا وأرضاه اذ كان يخشى عاقبة امحال الخزينة وفراغها من الدرهم والدينار وعجزه عن القيام بالنفقة المطلوبة - قيل وهو في كل يوم يقول لجماعة الانجليز ان أيام رئاستي خير ورخاء على البلاد وأهلها فرسم للمديرين كافة يومئذ بخروج الجبابة والتشديد عليهم في جمع الاموال وعدم الوقوف في التحصيل عند حد فطافوا وعانوا واشتدوا على الناس فضج الناس وعجوا الى الله تعالى وأرسلوا الشكاوى تترى الى ديوان الرئيس بطلب المهلة وكف أيدي الجبابة الى حين فلم يلتفت الرئيس الى ذلك بل رسم أيضا بتحصيل سائر المتأخرات على اختلافها وعدم التجاوز عن شئ منها وسير بعض المأمورين وأصحاب الوظائف الى الاقاليم يستحثون الجبابة على التجهيل وعدم الابطاء فضاق خناق الناس وتولاهم القنوط واحذر منهم جماعة كثيرة الى القاهرة ووقفوا على أبواب الداخلية والمالية يرجون لقاء الرئيس أو لقاء صهره محمود باشا دبوس أوغلي فلم تمكنهم الجباب من ذلك أياما

واتفق في هذه الاثناء أن تولى وكالة الخزينة المستر منلر أحد كبار الانجليز « وقد كان مديرا لحسابات الخزينة » بدلا من بلوم باشا الذي تولاهما في عهد الخديوى اسمعيل وبقي شاغلا لها حتى أقصاه الانجليز عنها في هذه الايام صاعرا لاسباب لا محل ليرادها هتا قتراحم القوم على باب منلر وصاحوا واستغاثوا ووردت على ديوانه كذلك صكوك الظلامات من كل فج عميق فأكبر منلر الامر واهتم له اهتماما عظيما لانه أعلم الانجليز بحالة البلاد وأهلها وما هم فيه من شظف العيش وخلو ذات اليد وأعلمهم كذلك بقدر اهتمام الرئيس بحماية الاموال وميله الى فهر الناس على دفعها صاغرين فسار من فوره الى الاقليمين القبلي والبحري وطاف كثيرا من المدن والبلدان وخبر من أحوال أهلها ما زاده شفقة وعاد الى القاهرة فسير الى المديرين والمأمورين في منع الجبابة الا في آجالها المقررة وكف الجبابة عن المطالبة بالبقايا والمتأخرات الى ميسرة وشدد عليهم في ذلك تشديدا فلم يعجب الرئيس فعمال منلر وعابها وحسبها تعديا وافتياتا على منصبه وهم برز كل شئ الى ما كان عليه وأرسل في طلب سائر المديرين وكلاء المديريات فحضروا فخسلا بهم في ديوانه يوما أو بعض يوم ثم أرجعهم الى مراكرهم فلم تكن الا أيام حتى ظهر لمنلر وجماعة الانجليز أن بعض المديرين يكرهون مشايخ البلاد على تقديم عرائض يسألون بها دفع جميع الخراج معجلا عن السنة الجارية أى سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية وأن قد ورد على ديوان الخزينة شئ من تلك العرائض فاهتم منلر بالامر كثيرا وطال الاخذ والرد بينه وبين الرئيس أياما ثم أرسل منلر كتبه الى المديرين ثانية بالكف عن الجبابة والاقلاع عن كل إكراه والاساءات العاقبة وعظم الحساب وبدأت من هذا الحين دلائل الوحشة بين منلر والرئيس ونفر كل من رفيقه

واهتم منلر بايقاف الرئيس عند حله وبالف في السعي وراء ذلك وعلم الناس بما جرى ففرحوا ووجدوا منلر وشكروه فتكلم في ذلك بعض أصحاب صحف الاخبار وعابوا على الرئيس فعالة وقالوا ما ضره لو أطلع عن هواه وقلل من حديثه ولم يمكن منلر من الغلبة عليه وتغير قلوب الناس منه وهو رجل الوطن وكاشف غمته ومفرج كربته فرد عليهم بعض أصحاب الصحف المحاربة للرئيس ردا كاله مما حكة ومهارة ووقعوا على المستر منلر باللائمة وأشبعوه تأنيبا وتقريرا ۞ وتلاقيت يوما مع أحد المقرين من مجلس الرئيس فقلت قد ذهبت أنتاب صاحبكم في التجميل بجباية الخراج قبل أوانه وفي تحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة هدرًا وقد كان عهدنا به أن لا يصرف وجه أصحاب الظلامات عنه ولا أن يمكن أحدا من طرق باب غير بابه فان ذلك كما تعلم أدعى الى الصغار وأدنى الى مهواة البوار وكلنا يعلم ما لصهر الرئيس من الحيلة والقدرة على تلافي مثل هذه الغلظة المزرية المعيبة خصوصا في هذه الايام التي قويت فيها شوكة الاجنبي واتسعت سلطته فسبحان الله - فنبسم الرجل عند ذلك وقال - وأي حيلة تنفع أو قدرة تدفع والرئيس قد خص ذاته بقضاء أشغال الخزينة وبلجنتها ومجلس الوزراء وجلساته وأشغال الداخلية وفروعها واهتم بعرفة أسرار وعورات كل فرد من أفراد مستخدمى كل ديوان وادارة من الصغير الى الكبير فضلا عن عنايته الكبرى بنشر المنشورات والاكثر منها وقلب المنظمات وغير ذلك من دوام التفكير في أحسن التدابير مما لا يقدر عليه أحد غيره - قلت انى لا أراك مصيبا في ذلك لان ما لا يقدر على عمله بنفسه وقله وهو على كرسى ادارة الخزينة مثلا يقوم بعمله صهره محمود باشا وهو في مسند وكالة الداخلية - قال وهل لصهره من الوقت ما يكفيه لقضاء مثل هذه الاعمال الخطيرة كلها وقد هجر منزله في بولاق مصر ولازم دار الرئيس بالخلية نهارا وليلا وهو لا يجد مع ذلك ساعة يقضيها في حوائج نفسه لانه يأتى نظارة الداخلية في صباح كل يوم فيجد على مكتبته الشئ الكثير من الرسائل الرسمية والكتب الخصوصية فيفرض ختامها ويقرأها جميعها ويحفظ الخصوصى منها ثم يرد الباقي الى أصحاب الوظائف الديوانية كل هذا وهو يقابل الكآب والحجاب وأصحاب الحاجات الخصوصية وأرباب الوظائف العالية وأصحاب الحاجة من مشايخ البلاد حتى الساعة الاولى بعد الظهر فيذهب الى دار الرئيس ويجلس معه على مائدة طعام الظهر ويقص عليه حوادث الصباح وما فيها وقصص أفراد السهارة في الليل وحاجات أصحاب الحاجات منهم ثم يذهب فيستريح قليلا ويقوم بعد ذلك الى حيث يستقبل الوافدين فيرد عليه رواة الحوادث والاخبار اليومية والجواسيس الخصوصية ثم المسترزة وطالبو الخدمات ووظائف مشيخة البلاد وأرباب الصحف وأصحاب الوساطة فيقضى بقية يومه في سماع ظلاماتهم وربما حتى لشكوى بعضهم وتوجع لبلواهم حتى الغروب فيأخذ في قراءة الصحف بتأمل وامعان فيذم الذامة منها ويضرب بها عرض الحائط ويقبل على المادحة ثم يقوم الى تناول الطعام مع الرئيس فيقص عليه

ما اتصل به من أخبار نقلة الاخبار والجواسيس ثم ما قرأه في الصحف من مدح وقبح ثم يشير على الرئيس بأن يأمر باقصاء زيد عن خدمة الحكومة وبإدخال عمرو فيها وبرد بكر الى مشيخة بلده كما كان وغير ذلك من المقاصد والآراء الى أن ينتهي من الطعام فيرجع الى حيث يستقبل الناس فيدخل عليه حينئذ المدلسون والمملقون والمداهنون والواشون والآكرون للحوم اخوانهم والزوار فمن كان من هؤلاء مقبولا في مجلس الرئيس استأذن له وأدخله والا أخذ يسمع له شكواه ويتأوه لبلواه حتى منتصف الليل فيتركه وينهب الى غرفة نومه أو يشعر الرجل بثقل وطأته فيرحل من ساعته وهو بعض اصبع الندم على ما أضاعه من الوقت فقل لي بعيشك أين الساعة التي يتمكن فيها من نظر تلك الظلمات وهذه الحال حاله بين ليلة ونهاره فقلت ان الله في خلقه شونا

ولم تكد تطمئن القلوب بزوال الوباء وعودة الحاج الى أوطانهم وسلامة البلاد كافة من تسرب الداء اليها حتى ظهر انخفاض فيضان النيل عن معتاده في كل عام وعدم بلوغه حده المألوف الذي ترتاح اليه الخواطر فكان قلق أهل الاقليم القبلي والخوف الشرقي عظيما اذ ارتفعت عندهم أسعار الغلال من القمح والفلول والشعير والعدس والحبسة وقل علف دوابهم فانحدروا بها الى الاقاليم الوسطى والاقليم البحري طلبا للكلأ والعلف فاهتمت الحكومة لذلك وظهر اهتمام جماعة الانجليز بالامر تقريبا من أهل البلاد وزلفى وسار محمد زكى باشا ناظر الاشغال الى الاقليم القبلي لينظر في تدارك الخطر قبل استفعاله وسار معه الماجور روس مديرى الاقليم القبلي وهو من كبار مهندسى الانجليز رجل كبير الدراية واسع الخبرة على الفكر مهندس حاسب مقدم لم يضارعه أحد ممن تولى عمل الرى قبله وقل أن يضارعه أحد من بعد فاهتم الماجور روس بالامر وعمل من خوارق الاعمال الهندسية ما أزال الخوف وأمن الناس فعاد من نزع منهم الى بلده وجاء زمن الرى فلم يتعذر سوى رى الجزر المرتفعة والخوف الشرقي وقليل من الاحواض العالية ببلاد اسنا وقنا وجرجا فأصاب أهلها الضر ولا سيما أهل الخوف الشرقي منهم فأت بعضهم وأنشبت الامراض الخبيثة أنفجارها فبين بقى منهم وكبرت عناية الماجور روس بأمر رى ذلك الصعيد واهتم بتنسيق جسوره وتنظيم أحواضه على أحسن ما يكون من الاشكال الهندسية وعمل من خوارق الاعمال شيئا كثيرا ولم تجل الخزينه بالمال وأكثرت من بذل النفقة حتى جاءت أعماله آية من الآيات الهندسية وهي باقية الى ما شاء الله تشهد للرجل بالفضل وطول الباع

وجاء الخبر في هذه الايام الى ديوان الخديوى بقيام الامير دى غال ولى عهد السلطنة الانجليزية على ظهر احدى سفنهم الحربية يريد ديار مصر والمسكت فيها أياما معدودة فرسم الخديوى الى الرئيس مصطفى رياض باشا بالتأهب للقاء هذا الضيف العظيم فقام رجال الدولة حينئذ من مصريين وانجليز لذلك وقعدوا وبالعوا في الاستعداد فلما كان يوم الاربعاء

(مطلب)
عدم بلوغ النيل
حده المألوف من
الزيادة

(مطلب)
مجيء ولى عهد
السلطنة الانجليزية
الى مصر

سابع ربيع الاول من السنة أى سنة سبع وثلاثمائة وألف هجرية سير الخديوى أخاه
الامير حسن وذو الفقار باشا ناظر الخارجية وعبد الرحمن رشدى باشا كبير التشريفات
ومحمد زكى بيك التشريفات الى الاسكندرية على قطاره الخاص لينوبوا عنه فى استقبال
الامير فساروا الى سراى رأس التين وباتوا ليلتهم وأصبحوا وقد جاءهم الخبر من بور سعيد
بقرب وصول الامير اليها وأنه قد رجع عن عزمه على القدوم الى الثغر الاسكندري وأنه أراد
الذهاب الى القاهرة عن طريق الاسماعيلية فقاموا من ساعتهم الى الاسماعيلية على القطار
الخديوى ومنها الى بور سعيد ولبثوا يومهم ذلك حتى وصل الامير فى نفر من الحاشية والاتباع
فقاموا فى ركابه الى القاهرة وكانت قد توجهت ساعة الظهيرة كوكبة من العساكر المصرية
وأخرى من العساكر الانجليزية الى محطة السكة الحديد للقاء الامير وكذلك وفد اليها الوجهاء
ومقدمو العسكر ورؤساء النظارات ثم تبعهم الخديوى بلباس الزينة والتشريف ومعه جماعة
الوزراء وكبار الدولة بزيئهم ووقفوا جميعا على أكمل هيئة ونظام حتى أقبل القطار الذى
يقملى الامير وأولاده ورجال حاشيته فأطلقت عند ذلك مدافع التعظيم واستقبله الخديوى
بالجولة والتكريم وأركبه على عيئنه فى عربة تجرها أربعة من جياد الخيل يتقدمها طائفة
من الفرسان المصريين والانجليز وخلفها عربة أولاد الامير ومعهم الامير حسين أخو
الخديوى ثم عربات الوزراء وكبار الدولة وما زالوا سائرين حتى وصلوا الى دارقنصلاتو
الانجليز فنزل بها الامير وحاشيته وذهب الخديوى الى مقره بعابدين وأقام الامير فى تلك الدار
لحظة تناول فيها طعامه ثم سار فى موكبه الى سراى الجيزة وقد كانت أعدت لزيورته فزاره
الخديوى فرد له الزيارة على الاثر ولما كان فى مساء ذلك اليوم أقبل الامير الى سراى عابدين
بموكب حافل لمأدبة أدبها له الخديوى وفيها ثمانون مدعوا فلبث الى ما قبل نصف الليل بقليل
ثم عاد الى مقره بالجيزة وفى اليوم الثالث خرج الى شوارع المدينة وجعل يتجول فيها وفى
ركابه السير بارنچ وشاع الخبر فى ذلك اليوم بأنه سيستعرض الجيوش الانجليزية والمصرية معا
بميدان العباسية عند الجبل الاحمر فهرع الناس الى ذلك المكان أفواجا وانتشر أصحاب
الشحنة على طول الطريق ذات اليمين وذات الشمال ثم أقبل الخديوى فى موكبه فلم تكن
الاساعة حتى برز كل من الامير والخديوى الى الميدان فى ملابس زينة وتشريفه ممتطين
جوادين ووقفا وحولهما كبار الجند ومقدمو العسكرين وخلفهما حاملو العلمين فهتف لهم
الجند بأصوات التهليل وصدحت الموسيقى بألحان السلام ومرت من أمامهما العساكر
والاجناد مشاة وركبانا وكذلك أصحاب المدافع وما يتبعهم فكان المنظر مهيبا والناس فى
دهشة وسكون كأن على رؤوسهم الطير اشفاقا مما عساه أن يكون من وراء حجب ذلك
الامير الى هذه الديار * واتفق أنه فى مساء ذلك اليوم كانت الليلة الكبرى لمولد صاحب
الشريعة المحمدية المعتاد عمله فى كل عام فبعد أن تناول الامير العشاء مع الخديوى ركب
عن عيئنه فى موكب حافل مشى فيه الوزراء وكبار العسكر وساروا الى ساحة المولد وزلوا

بفسطاط شيخ مشايخ الطرق لحظة لطيفة ثم انتقلوا الى فسطاط الخديوى وجلسوا به ساعة
كثيرة فيها لفظ العامة وتساؤلهم وترامت ظنونهم الى أسمع المرامي ثم انصرفوا جميعا وباتوا
وأصبحوا وقد ركب الخديوى في موكبه وسار الى محطة السكة الحديد وخلفه سائر الوزراء
والامراء وكبار العسكريين يريدون وداع الامير حتى اذا كانت الساعة التاسعة صباحا أقبل
الامير وولده يحف بهما موكب حافل من الفرسان وطائفة من الحرس الخديوى فاستقبله
الخديوى وبالغ في وداعه فركب الامير مع حاشيته القطار الى الاسكندرية فلما وصلها نزل
في سفينته فأقلعت به الى بعض الثغور الإيطالية

وما تحركت سفينته حتى تحركت معها أقلام أصحاب الصحف العربية المحاذية للسياسة
الانجليزية بمصر فجعلوا يتكهنون وينبئون بمستقبل الايام ويقولون قد قضى الامر ونفذ
القضاء وأذن الله بضم الديار المصرية من أقصاها الى أقصاها الى ملحقات السلطنة الانجليزية
فلا دافع ولا راد لقضاء الله ولا مجير لاهل البلاد سوى الاستسلام وخفض جناح الطاعة
لأولى الامر من الانجليز وأن تفلح الاحزاب عن تلك الضوضاء وتنكف عن استصراخ الدول
لتخلصهم من سيطرة الانجليز فقام حينئذ في وجههم أصحاب الصحف الاخرى وكذبوهم فيما
يقولون ورموهم بالخيانة وبيع الذم وقالوا لهم انما أنتم في اضرار نار هذه الفتنة تريدون
السوء للبلاد وأهلها وكثر اللغط في ذلك كثيرا حتى أرجف بعض أصحاب تلك الصحف بأن
الخديوى قد استسلم وأطاع وعقد النية على تسليم البلاد بشروط وقع الاتفاق عليها بينه وبين
الامير دى غال وعندى أنها قرية ما أنزل الله بها من سلطان

واشتدت عزيمه السير بارنيج بمقدم الامير دى غال وأظهر ما كان يخفيه من الشدة
والجبروت وكان الرئيس قد تمكن من بسط يده على سائر الدواوين والادارات وقلب
بعضها بطنا الى ظهره ومسح نظام بعضها واشتد على قضاة المحاكم الاهلية فخلع بعضهم
لتغير علة ولا سبب ظاهر وهدد بعضهم بشئ من قارص الكلام فاختلط الحال على من بقى
منهم وأصبحوا وهم في ريب من استقلالهم وسلامة مراكرهم وبات حسين فخري باشا ناظر
ديوانهم مغلوبا على أمره ليس له من حق النظر سوى الاسم والامر للرئيس مصطفى رياض
باشا وحده فكان اذا أخذت حسين باشا يوما عزة النفس وهم يعمل يرضى الله والناس قام
في وجهه محمود باشا صهر الرئيس فينكف وفي النفس ما فيها وظل الحال على هذا المنوال
حينا حتى تحركت من جراء ذلك خواطر جماعة الانجليز القابضين على زمام بعض المصالح
الدوائية وأكبروا عمل الرئيس وأعظموه وعابوا عليه عسفه وخيلاءه وشكوه الى السير بارنيج
فعمد السير بارنيج حينئذ الى إيقاف كل عند حده قيل وقد زاده اهتماما بهذا الامر ما عرفة من
دقائق حادث مقتل خليل الدهشان وأخيه خير الله وما تحققة من أسباب التعجيل في تنفيذ
الحكم باعدامهما قبل الاجل المفروض وجعل من هذا الحين يكيد للرئيس كيذا فكان
اذا هم الرئيس بأمر من الامور وقف في وجهه ورده عنه ومنعه من هواه فتركه أياما

ثم يرجع اليه فيرده وهكذا حتى اشتد الجفاء وكبرت الوحشة بين الاثنين وظهر للعيان بغض بعضهما لبعض فتحقق الناس من خذلان الرئيس وقالوا بأنه معزول لا محالة وأن رئاسته باتت على شفا جرف الزوال ومال الخديوي أيضا عن مسيرته وعاب عليه الشيء الكثير من أعماله وأنكرها فظهرت عند ذلك جلبة الأحزاب وترددت رسل الرئيس على دار السير بارنج يسترضونه ويستميلونه وهو يكيد له كيذا ويعمل على تسليم زمام الوظائف العالية الى جماعة الانجليز ويطلق لهم الكلمة فيما هم قابضون عليه منها ويفسخ لهم نطاق سلطتهم بلا حد ولا تقييد وظل الحال على ذلك حتى بات أصحاب الوظائف من الاهلين وهم لا يملكون من أمرهم في مناصبهم شيئا سوى جماكيتهم وما يتبعها من الالقاب والنعوت وذاع الخبر بأن السير بارنج سيتقدم الى الخديوي في طلب اقامة مستشارين من كبار الانجليز في كل وزارة من وزارات الحكومة ليحولوا بين هوى الرئيس وحقوق المأمورين وأصحاب الوظائف الذين أثقلهم نير الرئيس وعسفه فقام عند ذلك أصحاب الصحف المحازبة يقرعون السير بارنج ويرمونه بالجور فرد عليهم أصحاب بعض الصحف الكبرى الانجليزية كصاحب التيمس وصاحب الدالي نيوز وصاحب مجلة القرن التاسع عشر ردا كله ابعاد ووعيد وارهاب وتهديد ثم نادوا صاحب سياستهم أن اضرب على يد أولئك الاغرار الذين زينت لهم أنفسهم الامارة اذهب ما صنعته أيديك من الاصلاح في أرض الفراغنة أدراج الرياح ولا تكن ضعيفا مستضعفا فيشمت بك الشامتون ويستخف بك المستخفون فلم تمض على هذه الفجة الا أيام حتى تقدم السير بارنج الى الخديوي في طلب اقامة رجل من الانجليز مستشارا قضائيا يكون مقره بديوان الحقاينة ويختص بالاشراف على سائر أعمال المحاكم الاهلية والشرعية على السواء فلا يبرم أمر الا بإشارته ولا يتم عمل الا برأيه - قال - كي لا يبقى للرئيس مصطفى رياضر باشا دخل في شيء من هذه الشؤون كي لا تزول بهجة ذلك النظام الذي أحدثته يد السلطة الانجليزية بعد ذلك العناء الكبير قيل قال الخديوي الى مقالة السير بارنج ووقعت عنده موقعا مقبولا لانه كان يكره من الرئيس استبداده بسائر الأمور وضغطه على صغار وكبار المأمورين وأصحاب الوظائف وكان ينهأ عن ذلك ويتألم من اندفاعه وراء صغار الأمور وايغار الصدور على غير مسوغ فكتب صاحب جريدة الاهرام لمحة في هذا المعنى بعنوان «صهوات المناصب لفوارس التجارب» وهي من حسن السبك وخالص النصح بمكان عظيم قال فيها

سأل أحدهم حكيمًا من أجلّ الرجال فقال من قام بأجل الأعمال قال من هو وما هي قال من قاد أبدان الناس بقلوبها وقلوبها بخواطرها وخواطرها بأسبابها قال اذا تعنى رب المنصب ومنصبه أجاب أنت قلت والى هذا المعنى أشار ارسطو الفيلسوف على الاسكندر حيث قال املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها واعلم انك انما تملك الابدان فاجع لها القلوب لان الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل فاجتهد أن لا تقول

تسلم من أن تفعل - نرجع مما ذكر أن سياسة المنصب من أجل الاعمال وأن القائم بمواجهتها له امتياز الفضل بين الرجال ولا غرو فإن المرء ليتولاه الشعور بالفخر وتتلقاه نوافل الثناء وهو لم يحسن القيام إلا بسياسة وسياسة خاصته فكيف به وقد أضاف إلى ذلك احسانه سياسة العامة * ولما كان مقدار فضل المرء على سواء موقوفاً على مقدار نفعه سواء كما جاء في الحديث الشريف « ان خير الناس من نفع الناس » كان لرب المنصب ما ليس لغيره من الذرائع التي تعد له سعة المجال في سبيل نفع الناس وليس بجحى على البصير أن المرء يطالب بقدر مكنه ووسائله إذ لا جود إلا من وراء موجود فإذا أمسك موسراً ليم لوم من بسط معسراً وإذا نشرت له الايام بساط العمل فطواه اما بذراع أدمائها سهم الخمول والكسل أو بيد أشلها الغرض والحق قضى عليه العدل بعقاب من عاكس احكام الوضع والطبع وخالف قانون العرف والشرع وهل تفتش الايام بساط العمل لرجل أولى من رجل المنصب فهو ولا مرء شريك الطبيعة في المحافظة على قوانينها والاحتفاظ على نواحيها بل هو آلتها المنفذة لاحكامها والقائمة بحركة دقائقها فإذا لم تكن صالحة حالت دون الحركة فنشأ الضرر وقد قيل اذا زل العالم زل برزله العالم ومثل ذلك زلة من يتولى مصلحة العباد ويقوم بسياساتهم فهو قد عهد اليه أهم أعمال الانسان فكان مر كبه خشنا وموقفه هائلا وحسبه من صعوبة المراسم جمعه من الاضداد ما قاله عمر رضى الله عنه وهو لين لا يتولاه ضعف وقوة لا يمازجها عنف أو ما قاله آخر تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وانصاف عن قوة

وإذا سبينا غور الحقائق بامعان الفكرة وانعام النظرة وأنسنا إلى صحة المبادئ التي شرحنا متونها وقفنا أمام المنصب وقد حفرت بنان الحق على قوائم كرسية الاربع أربع كلمات وهي وطنية حكمة همة مسئولية فوجدنا الموقف هائلا لان من ورائه التقاضى إلى محكمة مهيسة عادلة قانونها الذمة وقاضيا الضمير ومنفذ احكامها الشرف فن العجب اذا أن تسند المناصب إلى من لا تهصر أعطاف الوطنية في مقامه ولا يجنى ضرب الحكمة من ضروب بنائه ونفثات أقلامه ولا يسيل سيف الهمة من أجفان نشاطه وأنعماد إقدامه ولا تشام بارقة شعور في أفق ضميره من سحب نقضه وإبرامه إلى أن قال أما الوطنية فهي المحور الذي تدور عليه كرة الخواطر أو النقطة التي ترسم منها دائرة الشعور والعواطف يولدها الطبع وتنميتها التربية ويكفلها الشرف وتعززها الأريحية ولها على المرء من الحرمة ما لوالديه عليه لانها تقوم بكفايتهمما ليقوما بكفايته ولم تعمر البلدان إلا بمحبة الاوطان ولذلك قالوا ان حب الاوطان من الايمان فعلى صاحب المنصب أن يتصف قبل كل صفة بالوطنية الصادقة ويأنس إلى وفاء حقوقها العامة قبل النظر في وفاء حقوقه الخاصة لاشتمال الاولى على الكل والثانية على الجزء والجزء داخل في الكل وان له من احتضان الطير لعشيه مهمازا لشاكلة تنبيهه

وأما الحكمة فهي الدعامة الثانية المتممة للوطنية لان مجرد ارادة الميل الى العمل لا يغني ما لم يشفع بقوة فاعلة مدركة تستبين أوجه العمل والذرائع التي تنطبق على ذلك الميل وتجابوب على تلك الرغائب الصادقة والاضاع الميل القويم باستكانة عن نجول أو نزق عن جهل فأني الضرر من حيث يرحى النفع ووقع الخطأ من حيث يرام الصواب ومن هذا القبيل قولهم عدو عاقل خير من صديق جاهل

وأما الهمة فن متمات الحكمة لانها القوة المنفذة لها والكافلة لاغتنام نتائجها بل هي التي تمتطي الليل والنهار في مجاهل العمل انفاذا لما تشعر به الوطنية ويقضي بإحبابه الحكمة فن ثبطت همته عن السعي الى الامام نقلته الى الوراء أدوار الايام

وأما المسؤولية فما هي الا خلاصة القوى الثلاث ومن خصائصها التنبيه والتحذير وصون رب المنصب من الخطل في لقول والزلل في العمل صونا ناشئا عن رعاية لحرمتها وادراك لاهميتها فن لا يسئل عما يعمل يأخذه دافع من اثنين إما قعود بما رجه كسل واما غرور يخالطه طيش وفي الاول سقوط ونجول يفضيان الى الاضاعة والضعفة وفي الثاني استبداد وظلم يؤديان الى النفرة والضعيفة وبثست نتيجة المقدمتين

ولكن بأي شئ تقوم الوطنية يا ترى أبالدعوى بها قولاً والأغماض عنها عملاً أم بمجرد الانتماء النسبي دون القيام بمواجهه أم بالتحامل على قريب لم يسيئ أم بكسر الأبواب الموصدة دون تداخل الغريب أم بنسيان الواجبات التي تستلزمها الوطنية على مبدأ الدين والشرف - كلا ليس ما ذكرناه من الوطنية في شئ فالقول لا يصدق حتى يشهد به العمل ولو أنك لم تقل ولم تفعل خير من أن تقول ولا تفعل وأفضل منه فعل لا يسبقه قول وما ألفت ما قاله صفي الدين الحلي في مثل ذلك اذ ضمن في شعره مثل البلبل والصقر فقال البلبل مخاطباً الصقر

وقال أراك جليس الملوئ ومن فوق أيديهم مو تحمل
وأنت كما علموا أخرس وعن بعض ما قلته تنكل
وأحبس مع أنني نا طسق وقدرى عندهم مهممل
فقال صدقت ولكنهم بذلك دروا أنني الافضل
لاني فعلت وما قلت قط وأنت تقول ولا تفعل

وأما مجرد الانتماء دون القيام باللوازم فكالصفر عن يسار العدد لا قيمة له أو كواو عمرو تكتب ولا تقرأ بل هو عيب لا يستر وذنوب لا يغفر ومثله ايقاع الأذية بمن لم يسيئ تشفيا وانتقاما على جهل بدعوى ان ذلك ليس منا مع أن السياسة تقضي بأن تعتبر من ليس عليك في مصاف من هو معك ويعاكس ذلك تمهيدك لمن هو عليك السبيل الذي تمهده لمن هو معك وهذا من قبيل وضع الشئ في غير موضعه ومثل ذلك اغضاؤك أو صمك الأذنين دون استماع صوت الدين والشرف اللذين يقضيان عليك بأن تفدي وطنيتك بما

عز وهان وتحتقر في جنب صونها كل مصلحة خاصة وان عظمت وتحترم كل مصلحة عامة وان حقرت تلك هي الوطنية الحقبة الصادقة التي يجب أن يتحلى بها كل ذي منصب ورياسة

ثم بما ذا تقوم الحكمة الوطنية يا ترى أبالاستبداد في الرأي والعمل أم باتخاذ المنصب ذريعة للاضرار بالناس اجابة لداعى الانتقام أو اصاخة لاشارة أم بتفريق كلمة أبناء الوطن واجهاد الشقاق بينهم ودفع الواحد منهم للايقاع بالآخر أم بانفاذ الغرض الخاص وتحميل المؤتمرين بالامر ما ليسوا مكلفين باحتماله أم بأسر الارادة في شؤون الادارة واطاعة كل اشارة أم بتفضيل حلاوة المنصب مجردة على مرارته مر كبة وقد نتجت المضرة من بينها وحكم العقل والعيان بها وأبى الطبع الشريف قبولها فكل ذلك بينه وبين الحكمة بون شاسع وبعد تحقيق - فأما الاستبداد فضرب من ضروب الجماقة وقالت الحكماء الرجال ثلاثة رجل ونصف رجل ولا رجل فالاول من له رأى ومشورة والثانى من له رأى ولا مشورة له والثالث من لا رأى له ولا مشورة فالمستبد لا بد من أن يكون ثانى الثلاثة أو ثالثهم ولا يعزب عنا قوله وشاورهم في الامر والمشورة من الروح القدس قال الشاعر

اقرن برأيك رأى غيرك واستشر فالامر لا يخفى على الاثنين
للمرء مرآة تزيه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

وقال آخر

شاور سواك اذا نابتل نائبه يوما ولو كنت من أهل المشورات
فالعين تنظر منها مادنا ونأى ولا ترى نفسها الا بمرآة
وقيل لرجل من عبس ما أكثر صوابكم فقال نحن ألف رجل وفينا حازم واحد فنحن
نشاوره فكأننا ألف حازم - وأما اتخاذ المنصب ذريعة للمضرة فن أكبر المعايير وأخس
الافعال فعلى رب المنصب أن ينسى صفته الخاصة وهو في منصبه ولا ينظر الا في صفته
العامة التي تحظر عليه الانتقام إما لغاية داخلية أو لاشارة خارجية فان ذلك من الدنايا التي
يرفع المنصب عن النزوع اليها ومن سوء الطبع اندفاع القوى الى الاضرار بالضعيف وان لم
يحل دون ذلك حائل فكيف به وقد قام حاجز حصين هو منصة المنصب تحمل دعائمها نجاد
حسام العدل والحق ولذلك امتاز كبار الرجال بتسكهم عن هذه الخلة وشرفوا مناصبهم
برعاية ما ظهر لهم صوابه ولو بدا من عدو ألد فضلا عن صديق أود ثم الاغضاء عما لم يأت
على مرادهم أو لم يلائم سياستهم * بل ما هي الحكمة الوطنية من وراء نثر النظم وتشتيت
الجميع اذا كان رب المنصب يشير نائرة الحق من هذا على ذاك ويفرق كلمة الرعية المؤتمرة
بأمره ويولد الضغائن والاحقاد في القلوب بانشاء الاحزاب المتباينة وتعصيد البعض للتغلب
على الآخر اما لانتقام خاص عن كره لذلك واما لغاية أخرى مثل أن يتوهم أنه بتفريق
كلماتهم تسود كلمته فيأمن في سره وينال مرامه ويجاوب جشع طمعه بينا تقضى الحكمة

بجمع الشئيت ونظم النثر وازالة الاحقاد وتأليف القلوب ونبذ التنافر ومثل ذلك يقال في تحميلهم مالم يسوا مكلفين باحتماله بأن يكرههم وهو غير مصيب أو مسوق اليه بموجب قانون على قبول ما يكرهون وهم مصيبون وغير مكلفين به بقانون ولله در من قال من تداخل فيما لا يعنيه سمع ما لا يرضيه وأن ليس في القانون محابة وجوه ومراعاة خاطر على حد قول الشاعر

ولم أنس المليحة حين راحت الى قاضي المحبة تشتكي
فقلت لها ارحمي ضعفي فقالت وهل في العشق يا أمي ارجيني

وكيف يليق به وهو يرى نفسه أهلا لمنصبه أو أسمى منه أن يكلف من يأتمر بأمره اما عن رجاء أو عن تهديد يتحمل ما يكره وهو غير مكلف به وهل ذلك من قبيل الحكمة الوطنية والطبع الشريف والمنزع السامي ومن هذا القبيل أيضا عدم استقلال الارادة في شؤون الادارة وهكذا - الى أن قال - وليس من الحكمة أيضا رفض رب المنصب كل ما يطلب اليه ثم قبوله لكل ما رفض لان الرفض اما أن يكون عن أنفة واستكبار اجابة لخلق غريزي يرتاح الى مجرد النهي والامر دون النظر في صوابية المطلوب واما عن اقتناع مسبق بترؤ وامعان بأن المطلوب لا يناسب فاذا كان الاول ولا مناص من القبول فالاولى عدم الرفض لان مرارة العود الى القبول تربو على حلالة الاستبداد بالرفض واذا كان الثاني فالثبات على الرفض أولى ولا عبرة للمصانعة اذا كان هناك سبيل للتخلص منها والتوصل من تبعثها ويقاس على ذلك تفضيل الحلالة المجردة على المركبة التي كدرتها المرارة فان في منابذتها حلالة لا تعقبها مرارة وهي وسيلة للتجرد عن مضرة تكتنفها معرة ثم بما ذا تقوم مهمة الحكمة الوطنية أبالنزوع الى انفاذ العمل دون رعاية الظروف أم بالضغط الشديد المتولد عنه ضغط متسلسل - ليست هذه المهمة تقوم بمثل ذلك لان الاسراع في انفاذ العمل دون رعاية الظروف يدعو في كثير من الاحايين الى تجاوز الحقيقة والتخطي الى الاعتساف فكل مقام مقال والاشياء مرهونة بأوقاتها وكثيرا ما أفسد العمل التسرع في انفاذه ولذلك قالوا في المجلة الندامة وفي التأني السلامة وأما الضغط المنوّ عنه فأقل ما فيه أن يدفع العمال بالتسلسل الى الاخلال بالقانون والعبث بأحكامه وما أحسن ما جاء عن معاوية في هذا الشأن حيث قال اني لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ولا أضع سوطي حيث يكفيني لسانى ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت فقييل له وكيف ذلك قال كنت اذا مدوها أرختها واذا أرخوها مددتها - ثم بما ذا تقوم المسؤولية وراء ذلك أبالاسراع في العمل حسنا أو قبيحا أم بمجرد نيته دون انفاذه أم برفعها عن كاهله والقائها على كاهل غيره - كلا لا تقوم المسؤولية بشئ من ذلك ولكنها تقوم بأن يعلم رب المنصب أنه مسؤول أمام منصبه أولا من ربه وثانيا من ضميره وثالثا من شرفه ورابعا من أميره وخامسا من وطنه وسادسا من خاصته وبأن يعلم عظم

هذه المسؤولية وأهميتها وما يترتب عليها له ولوطنه من مضرة ونفع وخير وشر - وان عليه تلقاء ذلك موجب ذات شأن تقضى عليه بمغادرة الوسن وملازمة السهر ومزاولة العمل ومراقبة الحوادث وانتهاز الفرص ومنازمة الاغراض والترفع عن الدنيا والتجملد على مضض الشغل واحتمال أثقاله بالصبر والتؤدة والرفق بمن يأترون بأمره وزرع بذور الاتحاد والالفة والمحبة بينهم واستئصال جرائم الشقاق والخلاف والضغائن والاحقاد بحيث يكون لهم بمثابة أب وأخ وابن فيبرأه ويحفظ أخاه ويرحم ابنه تلك هي مسؤولية المنصب بل تلك هي بعض الواجب التي عليه ولا سبيل لتصله من تبعها اذا لم يقم بها فاذا قرن استقلال ارادته بحسن ادارته أتاحت له الايام ادراك غايته ونيل بغيته فلزم الوظيفة يشرفها وتشرفه واستمال اليه قلوب من سلم زمام أمرهم فأخلصوا له في السر والنجوى وثقوا منه بعدم تغييره في سلوكه لو ثقفهم بأن نفسه أسمى من منصبه على نحو ما قاله أرسطو وقد سئل عما دفع زيدا الى التغيير بعد الولاية فقال من ولي منصبا وكانت نفسه أكبر منه لم يتغيره ولكن اذا كانت نفسه أصغر منه تغيره - فالمنصب اذا مقام خطير مخوف بالمصاعب فمن الخطأ أن تراه العامة بالنظر المجرد فتحكم بأن صاحبه أمر مطاع لا يهيمه الا اصدار الامر ونيل الراتب بل يجب أن لا يفوتهم العلم بحقائقه من أن صاحبه أليف الارق حليف الفكر رفيق الهموم حديد اللحاظ شديد التأثير مديد التصور هدف لسهام الالوم عرضة لملاحظات العموم مسؤل عن كل ما يفعل عدو لنصف من يرعاهم ولو عدل بعيد السخط قريب الرضا ومن كانت هذه مواجبه وكلها مرارة فهل يحلوه ذكر المنصب فهو على حد المثل القائل « درهم من غسل على قنطار من خل » وحسبه هما اضطراره الى الاحتفاظ على الاحكام السياسية ليتذرع بها الى نيل غاية صعبة المال ألا وهي استمائه بهيئة الخاصة مع صدق مودته وانقياد قلوب العامة بالانصاف اليها وقد قل بل ندر من حنكته تجربته ومكنته حكمته من الوصول الى هذا المطلب ولذلك قلنا ان صهوات المناصب لفوارس التجارب اه

فكان كل ما في هذه المقالة من المغامر الظاهرة والمطاعن الخفية قليلا من كثير مما بدا من الرئيس مصطفى رياض باشا لدى توليه المنصب في هذه المرة وتناقل الناس مقالة صاحب الاهرام هذه في الاندية والمجتمعات فكانت سمريلهم وحديث نهارهم حتى ظن بعضهم أنه موعز اليه بها من ديوان الخديوي الخاص ارهابا للرئيس وتحذيرا والامر على غير ما يظنون فانه لما اختلط على الرئيس الحال وفسد التدبير وساء المال ونال السير بارنج من دواوين الحكومة كل منال اجتمعت كلمة أصحاب صحف الاخبار المحلية على نشر هذه الشواثن على رؤس الملا والتعرض بها كل قليل من الايام عسى أن يقطع الرئيس عن هواه ولا يعطى نفسه مشتتها فتراجع عن بغضه القلوب وتنكشف عن تقريره الألسنة وتقف مطامع جماعة الانجليز عند حد ولذلك لم يهتأ أحد من المحازين للرئيس الى الرد

على مقالة صاحب الاهرام وأقوال غيره ممن حذا حذوه بل أقبلوا على قولهم وأنزلوه من
سمعهم وقلوبهم وامتدحوه قالوا فقد بلغت الروح الحلقوم والسكين العظم
وكانت أخبار التخوم الى هذا اليوم لم تخل من المغامر الدالة على عدم خلود العدو الى
السكينة ووقوفه على قدم الكثر والفر ولا سيما عثمان دقنه ومن معه من عصاة شرقي
السودان فقد عظم شرهم وكبر أمرهم وكثر هجومهم على القلاع والحصون تارة ورميها
بالقنابل أخرى حتى ضاق خناق المرابطين وأعيتهم الحيل وأرسل مقدمهم يطلب المدد فجاءه
سردار الجيوش المصرية ومعه جماعة من مقدمي عسكر الانجليز وأقاموا بسواكن أياما
يتروون في أمر الخلاص من شر ذلك العدو وعلم دقنه بمقدم السردار فزاد في الكثر والفر
عن معه من أولئك الابالسة السود واشتد في رمي القنابل على الحصون والتاريس في
الليل والنهار ففعلت مقتوفاته بالمرابطين فعلا رديئا جدا واتصلت بسفن الحرب الانجليزية
الراسية أمام البلد فخاف السردار العاقبة وقد آنس من المرابطين مللا ونفورا اذ أعياهم
القيام على قدم الدفاع ليلا ونهارا فأرسل الى صاحب السياسة الانجليزية يخبره بواقعة
الحال ويسأله سرعة ارسال المدد على كل حال فكان يطاول ويحاول ويرسل كتبه الى الباب
العالى بأن تحتل طائفة من العساكر الشاهانية سواكن وتتولى أمر الدفاع عنها - قيل
وكانت تلك الكتب على ما فيها من التطويل معقدة مفعمة بالالغاز والمعميات ليتعذر على
السلطان ورجال دولته البت بارسال عساكره الى سواكن ولبت الحال على ذلك أياما فلما
آنس من السلطان ميلا وعزما على ارسال حملة من عساكره الى سواكن بعد ذلك التردد
والاجحام خاف العاقبة ورسم على الفور الى قائد عسكرهم بمصر بارسال النجدة العاجلة من
عسكرهم الى سواكن فصعد بالامر وحملت ذلك العسكر سفنهم وشوانهم وأنزلتهم في سواكن
ففرح المرابطون بمقدمهم وأخذوا من يومهم في ترميم الحصون والتاريس وضاعفوا القلاع
ورتبوا مدافعها وأصلحوا الخنادق وجعلوا يتأهبون لقتال العدو فلما شاع خبر وصول هذه
النجدة وتناقله أصحاب صحف أخبار الانجليزية قامت الاحزاب في عاصمتهم واشتد حزب الاحرار
منهم على زعيم سياستهم وعلت ضوضاؤهم في دار ندوتهم وظهرت جلبتهم في سائر محافلهم
ونادوا وا ويلاه مالكم تعرضون بأرواح رجالنا وتبددون أموالنا لمصلحة غيرنا وظل حالهم
على ذلك أياما حتى كاد المطلاع على صحف أخبارهم لا يشك في أن الرجل على شفا جرف
السقوط من منصة الزعامة وأن أصحابه مخذولون وما ذلك الا ضرب من التغيرير كأن يقولوا
اذا قامت الدول في وجه صاحبهم ومانعت في حلول عسكرهم سواكن لانا ما احتلناها
بعسكرنا وسفن حربنا الا مكرهين وهذا الباب العالى قد استصرخنا رجاله وسألناهم نجدة
المرابطين فلم يجدهم ولا أعاروا نداءنا المتتابع سمعا فلا لوم علينا بعد هذا كله ولا تنريب
ولا نحن مؤخذون بما فعلنا

وعلم عثمان دقنه بمقدم العساكر الانجليزية مددا للمرابطين بحصون سواكن وما هم

(مطلب)
وقوف عثمان دقنه
بسواكن على قدم
الكر والفر

عليه من الحركة فجذ حينئذ في قتالهم وألح وتابع الرمي بالفتابل على القلاع والحصون أياماً فهاجوه فلم ينالوا منه مأرباً فألحوا في قتاله بين ~~سكر~~ وفتر أياماً أيضاً ثم عادوا الى الحصون وجعلوا يدافعون من وراء المتاريس أياماً أخرى ووردت الاخبار الى ديوان الخديوى بما هم عليه من التعب المتواصل بسبب مناوشة العدو لهم في الليل والنهار وبجزهم عن كفه عن تخطف كل من بعد عن البلد ولو قليلاً وكبر على السلطان ورجال دولته خبر وصول المقاتلين من الانجليز الى سواكن فعادوا الى مخبرة صاحب السياسة الانجليزية في تقرير القاعدة التي على مقتضاها يرسل الباب العالي الى سواكن طائفة من العساكر الشاهانية لتبقى مع المرابطين وأكثروا من الاخذ والرد في ذلك أياماً فلم يقلحوا ولم يساعدهم أحد من رجال سياسة الدول الكبرى على نوال هذا الارب فتكلم حينئذ أصحاب صحف دار السلطنة بكلام في معنى سيادة السلطان على تلك السواحل وفي معنى كين السلطنة العثمانية وفي شيء من ماهية الخلافة الاسلامية وفيما يعنورها من الضعف اذا زالت هيبتها وتقلص ظل نفوذها من سواحل البحر الاحمر وأطالوا في ذلك القول وبالغوا في التوجع حتى كتب أحدهم صورة المعاهدة الدولية التي كان تم التوقيع عليها من كبار سياسة الدول صاحبات الشأن في حياض بونغاز السويس شاهداً على ما للسلطان من المقام الراجح بينهم ولم يكن أحد يعلم بها الى يومنا هذا وهي

أولاً - يبقى بونغاز السويس حراً مطلقاً في زمن الحرب والسلم لجميع السفن الحربية بغير تمييز بينها وعليه فالدول العظمى الموقعة على هذا الوفاق قد وافقت على أن لا يعشن بحرية هذه الترة سواء في زمن الحرب أو السلم وعلى أن لا تحاصر شطوطها على الاطلاق

ثانياً - ان الدول الموقعة باعترافهن بأنه لا يمكن أن تكون الترة الحولة منفصلة عن الترة الملحقة قد أخذن على أنفسهن القيام بالمعاهدات المبرمة بين خديوى مصر وشركة بونغاز السويس العمومية فيما يتعلق بالترة الحولة كما هو مذكور في الوفاق المبرم في ثامن عشر مارت سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية الذي يشتمل على مقدمة وأربعة بنود ثم تعهدن بأن يحسن حالة هذه الترة وما يتبعها ولا يقمن فيها ما يمنع حريتها

ثالثاً - قد تعهدت الدول باحترام المواد والابنية والاعمال الموجودة في الترتين المذكورتين وعدم مسها بشيء ما

رابعاً - تبقى الترة الملحقة مفتوحة في زمن الحرب بحيث يمر فيها المدرعات الحربية بدون ممانع كما جاء في الوجه الاول من هذا الوفاق - وبناء على ذلك قد اتفقت الدول الموقعة على أن لا يباح عمل عدائي يكون من شأنه منع حرية الملاحة في الترة والموانئ الموصلة اليها أو على بعد ثلاثة أميال بحرية من تلك الموانئ ومن جملة هذه الموقوفات الدولة العثمانية ولو كانت من المحاربات ثم ان المدرعات الحربية لا يجوز لها أن تأخذ الا ما يكون

ضروريا لها من المؤن والذخيرة في الترعة والموانى الموصلة اليها وأن يكون مسيرها منها في أقرب ما يمكن من الزمن على حسب الشروط النافذة ولا تقف الا عند ما تقضى الضرورة بذلك وفي هذه الظروف أيضا تكون مجبورة على السفر بأسرع ما يمكن ويجب أن يكون الوقت بين خروج سفينة وخروج أخرى من سفن دولة معادية لها من احدى الموانى الموصلة للترعة أربعاً وعشرين ساعة على الأقل

خامسا - ان الدول المتحاربات لا يمكنهن في زمن الحرب أن ينزلن في البوغاز والموانى الموصلة اليه جنودا أو ذخائر أو مواد حربية ولا أن يأخذنها منها ولكن اذا حدث بها مانع في الترعة كان لها عند ذلك أن تنزل الى تلك الموانى أو تأخذ منها فرقا من الجنود لا تبلغ الواحدة منها ألف رجل بما يلزم من المؤن

سادسا - ان ما اشترط على المدرعات في مسيرها يشترط في مناوشاتها اذا حصلت في الترعة

سابعا - لا يجوز لاية دولة أن تبقى لنفسها في مياه الترعة أو في بحيرة التماسح والبحيرات المرة مدرعة حربية على أنه يجوز لها أن تقيم في الموانى الموصلة الى مدينة بور سعيد والسويس مدرعات لا يتجاوز عددها اثنتين لكل دولة الا أن هذا الشرط لا يباح للدول المتحاربات

ثامنا - ان وكلاء الدول القائمين في مصر من قبل الدول الموقعة على هذا الوفاق منوط بهم مراقبة تنفيذهم بحيث انهم عند ما يحدث ما يهدد سلام الترعة وحرية الملاحة فيها يجتمعون بناء على طلب ثلاثة منهم برئاسة أقدمهم في الوكالة للبحث فيما يجب اجراؤه ثم يجنبون الحكومة الخديوية بما يكونون قد علموه من المحاضر لتأخذ الوسائط الفعالة لضمانة ووقاية الترعة وحرية المرور فيها وعلى كل حال فانهم يجتمعون مرة في كل سنة ليروا ما اذا كانت المعاهدة معمولاً بشروطها أولا وهذه الاجتماعات يصح أن تكون برئاسة مرخص مخصوص تعيينه الدولة العثمانية الشاهانية ويصح أن ينوب عن هذا المندوب آخر من رجال الحكومة المصرية عند غيابه وبصح له أن يحضر الجلسات اذا كان حاضرا ويكون لهؤلاء الوكلاء الحق في أن يطلبوا على الخصوص منع كل اجتماع على أى مكان من شطوط الترعة يكون من ورائه مس حرية المرور بالترعة

تاسعا - تتخذ الحكومة المصرية بما لها من السلطة الممنوحة لها بالفرمانات السلطانية وبموجب الشروط المذكورة في هذه المعاهدة كل ما يلزم من الوسائل توصلا الى انفاذ المعاهدة واحترامها ولكن اذا لم تكن هذه الوسائط كافية لذلك فعليها أن تطلب من الباب العالي الشاهاني القيام بتلك الوسائط من عنده واعلانها الى الدول الموقعة على التصريح الذى أبرم في لندن في سابع عشر مارث سنة خمس وثمانين وثمانمائة وألف ميلادية

والاشتراك معهن عند الحاجة في المحذورات الواضحة في المواد أربعة وخمسة وسبعة وثمانية فلا تكون عائقا في تنفيذ الوسائل اللازمة بمقتضى هذا الوجه

عاشرا - وأيضا فإن المحذورات الواردة في المواد المذكورة لا تحول دون الوسائل التي تضطر الحضرة السلطانية الشاهانية أو الخديوى بالنيابة عنها بموجب الفرمانات الممنوحة له الى اتخاذها لكي يكفلا بقوتهم الخاصة حماية مصر وتأيد النظام العام فيها ولكن اذا اضطرت الحضرة السلطانية أو الخديوى أن يستزيدا الاستثنائات الواردة في هذا الوجه كان على حكومة السلطان أن تعلن الدول الموقعات على تصريح لوندرة بذلك ثم ان ما ورد بالاوجهه الاربعه السابقة بشأن هذه الاستثنائات لا يمنع الوسائل التي ترى حكومة جلالة السلطان ضرورة اتخاذها بواسطة قواتها الخاصة ضمانه لحفظ سائر أملاكها على الساحل الشرقى من البحر الاحمر

حادى عشر - ان الوسائل التي تؤخذ مراعاة للاحوال الواردة في الوجهين التاسع والعاشر من هذا الاتفاق لا يجب أن تكون عثرة في سبيل استعمال التركة وحريتها وفي هذه الاحوال يكون من الممنوع اقامة حصون مستمرة تخالف منطق الوجه الثانى

ثانى عشر - تتعهد الدول الموقعات على هذه المعاهدة بناء على مبدأ المساواة فيما يتعلق بحرية استعمال التركة وهو المبدأ الاساسى لهذه المعاهدة أن لايسعين بالتوسع في الارض والتجارة بالنسبة للتركة ولا بالحصول على امتيازات دولية تتعلق بهذا الشأن أيضا ما عدا الدولة العثمانية لما لها من الحق في ذلك لكونها صاحبة البلاد

ثالث عشر - عدا الموائيق الواردة بايضاح في بنود هذا الاتفاق فإنه لا يجوز مس حقوق الخديوى الممنوحة له بالفرمانات ولا التعرض الى ما أغفل منه من الواجبات

رابع عشر - اتفقت الدول الموقعات على هذا على أن الموائيق الناشئة عن هذه المعاهدة لا تنتهى بانتهاء مدة الامتياز الممنوح لشركة بونغاز السويس

خامس عشر - لا تحول شروط هذا الاتفاق دون التحولات الصحية المتخذة في الديار المصرية

سادس عشر - تتعهد الدول المتعاقبات بأنهن يبلغن هذا الوفاق الى الدول التي لم توقع عليه ويطلبن منها التسليم به وهذه المعاهدة يصدق عليها ويتبادل التصديق بشأنها في الاستانة في مدة شهر أو أقل ان أمكن

وبناء على ذلك فالمرخصون قد وقعوا على هذه المعاهدة ووقعوا أختام وظائفهم عليها انتهى بنصه

ونقل أصحاب صحف الاخبار العربية نص هذه المعاهدة وقالوا اذا كانت كل هذه الحقوق للسلطان وليس لدولة من سائر الدول أن تنازعه فيها فليس اذا من النصفة في شيء أن تستضعف الانجليز جسم السلطنة العثمانية الى هذا الحد قتلها حقها وتبخسها أشياءها ولا من الكياسة في شيء أن تطيل يدها الى هذا الحد من التناول على غير مسوغ فرد عليهم أصحاب صحف الانجليز وأغلظوا في الرد وبالعنف في التهديد وعادوا الى استنهاض همم صاحب سياستهم وحضه على ترك المجاملة والاخذ بأطراف الحرامة والضرب على يد كل مكابر حتى يرجع صاغرا

(مطلب)

موت رجل من
الهنود واحرق
جثته

واتفق أن مات في هذه الايام رجل من الهنود التابعين للسلطنة الانجليزية وهو من كبار تجارهم بمصر فعزم قومه على احراق جثته حسب عاداتهم الدينية فطلبوا من قنصلهم التسميح بذلك فسمح لهم وأعلم صاحب الشرطة بخبرهم فاحتل القوم جثة فقيدهم الى قضاء العباسية عند سفح الجبل الاحمر وطرحوها على الارض ودهنوها بالزبد ثم لفوها بلفائف من نسيج الكتان ووضعوا قطعة من الخشب فوق الرأس وأخرى فوق القدمين وأحاطوا بالجثة حطبا مرسوما بعضه فوق بعض وأضرموا فيه النار الى ان احترقت وصارت رمادا فراحهم وهم على هذه الحال نفر من أصحاب مقالع الحجر بالجبل الاحمر وسمعوا دمدمتهم بشئ من الادعية الدينية فهلعت قلوبهم من شدة الخوف وصاحوا وولوا مسرعين الى البلد يستفزون أصحاب الشرطة ويستصرخون العامة من سكان الحسينية والمذبح وعلت أصواتهم بيا لطيف نصر الله دين الاسلام أهلك الله دين الكفار فتبعتهم النساء والاولاد وهم في صياح وجلبة ولحقهم أصحاب الشرطة ففرقوا جمعهم وأقاموا جماعة منهم يحرسون القوم حتى جمعوا رماد جثة فقيدهم في ركوة وساروا بها على غير الطريق السلطاني خوفا من بطش العامة وزعر الحسينية بهم وانتشر في تلك الليلة خبر هذا الحادث في سائر أطراف القاهرة ومصر القديمة وتحدث العامة به فقال ضعفاء العقول منهم ان هذا الحادث فطرة من بحر مما سيجل بالمسلمين بعد أن جاء ولي عهد السلطنة الانجليزية وانهم سيرون يوما قبور آبائهم منبوشة وعظامهم محترقة بزيت البترول وجثث موتاهم تلقى على قمم الجبال وغير ذلك من الارجاف حتى كادوا يفتنون

(مطلب)

ما ترتب على كثرة
الصوص من
الحاح السيربارنج
بتعيين مستشار
لنظارة الحفانية

وكرث في هذه الايام اللصوصية وعم فساد أهل الشقاوة وكبر عبثهم في القرى والبلاد وعظمت قحتهم فكانوا يتخطفون في الليل والنهار ويكبسون الدور بلا حياء ولا خوف فجد أصحاب الشرطة في طلبهم واهتم الرئيس لذلك جدا تحاشيا من ضوضاء جماعة الانجليز وأصحاب صحف أخبارهم فلم يتمكن من ارجاع الامور الى مجراها وبقي الحال على ذلك أياما كثر فيها تردد السيربارنج على ديوان الخديوى تارة وديوان الرئيس أخرى يشكو مما هو صائر من الخلل وعدم الامن على الارواح والاموال بسبب فساد رأى المديرين والمحافظين وعجزهم عن ارجاع الامن الى البلاد ثم أشار على الخديوى بطلب تسليم وكالات المديرين والمحافظات

الى جماعة من الانجليز وهو يقول لا خلاص للبلاد من هذه الفوضى المستحكمة الان بتسليم زمام سائر ادارة الحكومة الى جماعة الانجليز - قيل فتأفف الخديوى من ذلك وكلم الرئيس فيما هو صائر وأغلظ عليه في القول وألقى عليه تبعة ذلك كله فتشكى الرئيس من أعمال المكلفين بضبط الجنايات من رجال النيابة ورماهم بالجهل وقال انهم أغرار غير أكفاء لمهمة ضبط الوقائع وتحقيق الجرائم ووسم قضاة المحاكم بوهن العزيمة والخلط بين الدين والشدة وطلب جعل النيابة تابعة لبطانة الداخلية وتحت سلطة رجال الادارة فلما شاع هذا الكلام نقله أصحاب صحف الاخبار الانجليزية وجعلوا يقرعون الرئيس ويرمون به بالحجر وعدم القدرة على تدبير الامور في هذه الايام وأكثروا من عبارات الهزء والسخرية - قالوا وقد آن الوقت الذى يجب فيه على صاحب سياستهم أن يسلم زمام الدواوين الكبرى الى من يحسن تدبيرها من الانجليز لكي يحولوا دون كل مطمع وهوى وما كادت تهدأ ضوضاؤهم هذه حتى تقدم السير بارنج الى الخديوى فى التمجيل باعطاء منصب استشارة الحقانية والاشراف على سائر النيابة والمحاكم الاهلية والشرعية الى رجل من الانجليز قد اصطفوه لذلك اسمه أسكوت - وجعل يغدو ويروح على مقر الخديوى أياما حتى رسم الخديوى الى الرئيس بالعمل قيل فامتنع لما فى ذلك من الحيف والصغار لا سيما وانها كمسيرة من الكبار التى لم يكن ليقوى السير بارنج على اتيانها أيام رئاسة الوزير نوبار باشا فجعل يطاول ويحاول والخديوى فى قلق من تردد السير بارنج على ديوانه فلما آنس الرئيس من الخديوى ميلا الى طلب السير بارنج زين كما قيل يومئذ الى حسين فخرى باشا ناظر الحقانية الوقوف فى وجه السير بارنج والعمل على ايقافه عند حده فقام حسين فخرى باشا قومة الحازم غير هياب ولا وجل ورفع الى الخديوى صحيفة كلها تنفيذ لمراعى السير بارنج وتحذير من سوء عاقبة هذا الامر ﴿ حدثني صاحب لى من المقربين من مجلس الرئيس قال كان الرئيس اذا رأى فى هذه الايام من حسين فخرى باشا مللا أو اغفالا لمقاومة مطالب السير بارنج حرضه وشجعه وأكبر قدره أو أنبهه وقرعه وصغر نفسه وأخرج صدره فهب الى المشاغبة ويتجرد الى الدفاع ويملا فضاء ديوانه بكلمات الوعيد وعبارات التهديد على أننا نعلم والناس كلهم يعلمون أن صبحته هذه انما هى كصرخة فى واد أو نفخة فى رماد وأن لا راد للسير عن هواه ولا دافع لقدر الله وقضاه وكانت كتب زعيم سياسة الانجليز مترادفة على ديوان الخديوى بالتمجيل وترك الإبطاء والخديوى فى أخذ ورد مع الرئيس والرئيس يفسح لحسين فخرى باشا الامل ويشجعه على الاخذ بأطراف العمل لعله ينال من ذلك الداهية مأربا فقال الناس يومئذ ان أحد الرجلين مخلوع لا محالة وان فوز زعيم سياسة الانجليز فى هذه المرة سيكون مفتاحا لمغالق ما استعصى على جماعة الانجليز ولوجه من دواوين الحكومة الى الآن فلما كان خامس عشرى فبراير من السنة أى سنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية وسادس رجب الفرد سنة ثمان وثلثمائة وألف هجرية رسم الخديوى

بتولية أسكوت هذا منصب الاستشارة القضائية والاشراف على سائر المحاكم فتولاها وكان من أمره بعد ذلك ما هو مشهور ومعروف اهـ

وحدثني أيضا من لا أشك في صدق حديثه قال قد كان من دهاء صاحب سياسة الانجليز في أمر تسليم زمام الاستشارة القضائية الى أحد رجال الانجليز أنه كان يرسل الى الخديوى الرسائل تلو الرسائل وكلها تتضمن الشكوى والاشفاق مما هو حاصل من ذهاب الامن من البلاد وكثرة اللصوصية ويستميله الى تخصيص الاسباب الناجم عنها هذه الفوضى المستحكمة حلقاتها ويشير بمنع تطاول يد الرئيس مصطفى رياض باشا الى العبت بوظائف رؤساء النيابة وأمورى تحقيق الجنايات وما زال بالخديوى حتى هان عليه تولية أسكوت المنصب حولا فان أقلم وتم لاهل البلاد على يديه في ذلك الحول ما يرجونه من تأمين الطرق واستتباب الراحة فالى ما شاء الله أوالى أن تصير المحاكم في غنى عنه والا عادت الامور الى ما كانت عليه ثم تعين أسكوت فلم تمض عليه أيام حتى طاف سائر المحاكم بالاقليم البحرى وسبر غور ما فيها وجعل يحج ويثب ما يشاء من مواد القانون المدنية والجنائية ويعذل في نظام وهيئة القضاء والقضاة ورؤساء أقلام النيابة ويدون ككل ما يعن له من أوجه الاصلاح ووسائل الفلاح ثم سار الى الاقليم القبلى وسار معه حسين فخري باشا فكان اذا نزل في بلد استدعى اليه عمدتها ومشايخها وحادثهم فيما عليه المحاكم بالاقليم البحرى وبشرهم بقرب انقراج الازمة وزوال تلك الشدة ومناهم بمستقبل كاه خير والطمئنان ثم عاد الى القاهرة وشاع الخبر بأنه على عزم أن يرفع الى الخديوى والرئيس تقريراً بما رآه من أوجه الاصلاح فتحدث الناس في ذلك وفيما عساه أن يكون من الرئيس اذا أخرج السير بارتجاف موقفه وأكرهه على قبول مطالب أسكوت وأحس الرئيس بوشك وقوعه في هذا الشرك فعمد الى الخلاص منه وأوعز الى حسين نخري باشا بأن يستعد لتقديم تقرير الى الخديوى بما يراه في مطالب أسكوت وفيما يلائم وما لا يلائم منها مصلحة البلاد فلم تكن الا أيام حتى رفع أسكوت تقريره وفعل كذلك حسين نخري باشا وكل يدعى لنفسه العصمة والبعاد عن الخطل - ورأى الرئيس أن لا يجز لأسكوت غرضاً ولا أن ينيله مأرباً فرسم بتشكيل لجنة من المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقاينة وابراهيم فؤاد بيك وكيل محكمة الاستئناف الاهلية وابراهيم نجيب بيك رئيس المحكمة الابتدائية والمسيو لوجريل النائب العموى واثنين من مستشارى الاستئناف الاجانب لينظروا فيما يشير به أسكوت من أوجه الاصلاح وفيما يعارضه به نخري باشا فوافق على ذلك مجلس النظار وقرر العمل به - وسافر الخديوى الى الاقليم القبلى في قلة من الخدم والحشم والاتباع ترويحاً للنفس أو كما شاع فراراً من عناء الاخذ والرد في هذا الحادث الذى كثرت أذنبه واشتبك بعضها ببعض وأحس أسكوت بالذى ترى اليه أغراض الرئيس فلم يرض عن تشكيل تلك اللجنة وعذ تشكيّلها ميلا عن الجادة وضرراً بالاصلاح وقال لا يصح تشكيّلها على هذه الصورة قبل أن يصادق مجلس

النظار على المبدل الذي قد بنى عليه تقريره ولا سيما تصديقه على وجود المراقبة والتفتيش على سائر المحاكم وجعل سلطة التفتيش بيد جماعة من الانجليز أو من المصريين ان وجد بينهم من يصلح لذلك واشتد الاخذ والرد بين الرئيس والسير بارنج شدة بالغة كان من ورائها استبدال المسيو بيترى مستشار قضايا نظارة الحقانية بالمسيو مور بوندو مستشار قضايا الداخلية وجعل رئاسة اللجنة حسين فخري باشا فكبرت عند ذلك حجة أسكوت وأنكر على اللجنة فعلها وقال ان حكمها في ذلك سيكون من قبيل حكم المرء لنفسه وامتنع المستر بوندو الانجليزى أحد الاثنين المستشارين المعينين بعضوية اللجنة من الحضور في جلستها وقال لا تصح رئاسة حسين فخري لها وهو خصم أسكوت المعارض له في مبدئه وكذلك لا تصح عضوية بعض الاعضاء لانهم أصغر درجة من صاحبي الخصومة فلم يلتفت أعضاء اللجنة الى شئ من ذلك واجتمعوا بغير حضور بوندو وبحثوا في قولي الخصمين أيا ما ثم اتفقت كلمتهم على رفض سائر مطالب أسكوت الا ما كان منها مختصا بتعيين مستشارين من الاجانب بمهمة الاستئناف العليا بشرط أن يكونوا من القضاة الاجانب الشاغلين الآن لوظائف القضاء بالمحاكم الابتدائية لا أن يكونوا من جماعة الانجليز كما أشار أسكوت ولما علم السير بارنج بما قرره اللجنة أكبر الامر وأعظمه ورأى أن فوز الرئيس مصطفى رياض باشا في هذه الطفرة يكون هادما لاماني صاحب سياسة الانجليز وقاضيا على عظمة الاحتلال فرفع في الحال الى الرئيس مذكرة يطلب فيها البت قبل كل شئ بتثبيت أسكوت في منصب الاستشارة وعزل حسين فخري باشا من مسند نظارة الحقانية وعدم المعارضة في ذلك ويقول ان هذه المذكرة واردة اليه على جناح البرق من صاحب سياستهم وهو يلقي تبعة كل ابطاء في تنفيذها على عاتق الرئيس * وكان التعجيل بتثبيت أسكوت تعجيل أيضا بقبول سائر مطالبه على علاقتها لانه اذا تمت له ولاية المنصب أمنت مطالبه جميعها من العبث وحققت على الرئيس طاعته - فلما وقف الرئيس على ما في تلك المذكرة عقد في الحال جلسة مجلس النظار فلم يحضرها معه سوى على باشا مبارك وقيل حسين فخري باشا أيضا وقرر عدم جواز تثبيت أسكوت في المنصب ورفض عزل حسين فخري باشا وكتب مذكرة بالتركية ورفعها مع قرار المجلس الى الخديوى بالصعيد الاعلى ولبث الفريقان ينتظران الجواب وهما على أحر من نار الجمر

فلما كان تاسع عشر جمادى الثانية من السنة أى سنة ثمان وثلاثمائة وألف هجرية وتاسع فبراير سنة احدى وتسعين وثلاثمائة وألف ميلادية عاد الخديوى من رحلته فبالغ أهل القاهرة ومصر في عمل الزينة لمقدمه ثلاث ليال وأولم الرئيس مصطفى رياض باشا وليمة عظيمة لسائر الامراء من البيت العلوى وكبار الحكومة وأصحاب الوظائف ولم تنقض ليالى الزينة حتى اجتمع النظار لدى الخديوى بسرأى عابدين صبيحة الجمعة رابع رجب الفرد وثالث عشر فبراير وجعلوا يتباحثون فيما جاء في مذكرة السير بارنج حتى الساعة الحادية

عشرة فظهر الخبر وتحقق بأنه قرّر رأيهم أولا على ابقاء أسكوت في المنصب مع قبول جميع الشروط المترتبة على الولاية وجميع فروعها وأذئابها بغير معارضة وثانيا رفض عزل حسين فخري باشا من منصبه بما أنه قد تقررت ولاية أسكوت فلم يوافق السير بارنج على ذلك وقال لا بد من عزل حسين فخري باشا لاستحالة حصول الوثام بينه وبين أسكوت وترددت الرسل بين الحديوي والسير بارنج بقية يوم الجمعة الى ظهر السبت والناس في تساؤل عما عساه أن يكون من الرئيس بعد ذلك التشديد وتلك الحدة وهل هو باق على عزمه من اعتزال الرئاسة بعد أن وكلت الاستشارة الى أسكوت وأصاب سهم السير بارنج من جسم الحكومة في هذه المرة أيضا مقتلا وبعد أن باتت نظارة الاشغال بيد منكر يف والحريية بيد الجنرال جرنفيل والخزينة بيد مندر و بالمر والداخلية بيد فذك والمعارف بيد صنائع السير بارنج فيها وقد ختم أيضا على قلب الوظائف الصغرى بخاتم لا يقدر على فضه الا الجبار العظيم فلم يبق الا أن يقضى على البقية الباقية بأيدي أبناء البلاد الضعفاء من أوجه الارتزاق فيموتون جوعا ونحيا جماعة الانجليز - أو ثناء عنه عزة المنصب وأبهته الظاهرة فلم يكن الا القليل حتى برح الخفاء وظهر للعيان أنه قد غير من عزمه وفضل البقاء في منصبه فقالوا لعل في ذلك حكمة

واشتد أصحاب صحف الانجليز على الرئيس وبعض النظار بقارص الكلام ورموهم بالعسف وحب الذات وقالوا انهم جميعا زعماء الحزب الذي عاش أعواما تحت راية الاستبداد القديم فلا يليق بعظمة السلطنة الانجليزية أن تقسم لهم في الأجل ولا أن تتركهم يتضافرون على مثل هذا العمل فاما عيشة راضية وإما ضربة قاضية وإلا ساءت الحال واتسع المجال واستعصى على سلطنة البحار بلوغ الآمال وهب صاحب سياسة الفرنسيين من النجول وأرسل الى قنصلهم بمصر أن يحتج على تولية أسكوت منصب الاستشارة ويمنع في تعيين لجنة المراقبة وأن يعلن أصحاب الحل والعقد بمصر أن دولة الفرنسيين لا تنسأهل في شئ من ذلك البتة فصعد القنصل بالامر واجتمع بالرئيس مصطفى رياض باشا وتكران باشا وأدى الرسالة حقها قيل ففرح الرئيس بذلك وأبلغ الخبر الى السير بارنج وهذا رفعه الى صاحب سياستهم ولبثوا ينتظرون الجواب وانقطع الرئيس في داره يوما وبعض يوم ثم سافر الى مزارعه بطود البحيرة وأقام بها أياما كثر فيها لغط أصحاب صحف الاخبار المحلية بشئ من مطاعن أصحاب الصحف الانجليزية ثم جاء الخبر الى ديوان الحديوي بنزع صاحبي سياسة الانجليز والفرنسيين الى المناقشة فيما أفضى الى تولية أسكوت منصب الاستشارة وأن المناقشة في اشتداد وقد دخلت في غمارها أيضا دولة الالمان والباب العالي

وانفق أن مات في رابع عشر رجب قاضي قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن نافذ نفلا بموته منصب القضاء الشرعي فتساءل الناس عن خلفه وعما اذا كان ذلك الخلف يأتي من دار السلطنة بفرمان من الباب العالي على ما جرت به العادة من قبل أو أن الحكومة

المصرية تولى من تشاء من قضاتها وظنوا أن وقوع هذا الحادث في هذا الحين قد يمكن
السلطان من التوسع في الكلام مع الدول عن حالة القضاء بديار مصر وفي تطاول يد
الاحتلال الانجليزي الى العتب به وفي تولية أسكوت منصب الاستشارة على غير مستوع
فيتضافروا جميعا على ما فيه المصلحة وقد وقع ما كانوا يظنون فانه ما بلغ الباب العالي خبر
موت الشيخ القاضي حتى وردت كتبه على ديوان الخديوى والغازى مختار باشا بعزم السلطان
على الغاء ما جاء بفرمانه الشاهانى المؤرخ سنة احدى وتسعين ومائتين وألف هجرية من
بقاء الشيخ عبد الرحمن في منصب القضاء بمصر وعدم استبداله كالعادة المتبعة بالباب العالي في
كل سنة اذ بموت الشيخ عاد الى الباب العالي حقه في تولية القضاء كل عام لمن هم مترشحون
لذلك من مشايخ الوقت في دار السلطنة - فاهتم الخديوى بالامر وكلم الغازى مختار باشا
في بقاء حق انتخاب القاضى الجديد للخديوية المصرية فأرسل الغازى الى الباب العالي في ذلك
بجاء الجواب قائلا انه قد جرت العادة من قديم أن للباب العالي وحده حق تعيين قاضى
قضاة مصر من أصحاب الدراية والاهلية بالترتيب لكل قاض منهم سنة واحدة فاذا انقضت
السنة يرسل الباب العالي صاحب الدور وهكذا * فلما كانت سنة احدى وتسعين ومائتين
وألف هجرية التمس الخديوى اسمعيل من لدن الذات الشاهانية بقاء الشيخ عبد الرحمن نافذ
في منصب القضاء بشرط أن تدفع خديوية مصر ثلاثة آلاف جنيهه في كل سنة لصاحب
الدور من مشايخ الوقت في دار السلطنة بدون أن يشغل الوظيفة فأجاز الباب العالي للشيخ
عبد الرحمن البقاء في مصر من سنة اثنتين وتسعين بمرتبة قدره ألف وخمسمائة جنيهه
يتقاضاه من خزينه الخديوية المصرية في كل سنة الى أن يتوفاه الله ولما كان هذا
الامتياز لم يختص به الا الشيخ عبد الرحمن وحده فقد زال بموته وعاد الى الباب العالي حقه
في ارسال صاحب الدور من علماء دار السلطنة الى هذا المنصب * قال الرئيس مصطفى رياض
باشا الى مقالة الباب العالي وأحلها محلها ولم يجنسه حقه وكأنته كان ينبغي لو أن السلطان
ينال من هذه الفرصة مأربا فيوقف مطالب صاحب سياسة الانجليز عند حد ويعمل على
ارجاع الامور الى ما كانت عليه ولم يكن هل يطلب أثرا بعد عين وقد جاء في المثل
« الصيف ضيعت اللبن » وقيل ان من التوفى ترك الافراط في التوفى لان من حنكته
التجارب قادهامة الحوادث بذوائبها فدانت له وربجل الانام من قدر على الاستيثار من
موادعة الايام

فلما كان ثالث عشرى رجب جاء الخبر من دار السلطنة العثمانية بأن قد صدر فرمان
السلطانى بتولية الشيخ عبد الله جمال الدين قضاء مصر وقد كان على قضاء الروملى ثم أعقب
هذا الخبر ورود كتاب من الصدر الاعظم الى الديوان الخديوى يقول فيه - ان جلالة
مولانا المتبوع الاعظم أمير المؤمنين قد ساءت تولية أسكوت الانجليزى منصب الاستشارة
القضائية بالخديوية المصرية في حين أن القضاء بديار مصر قد بلغ أقصى درجات الكمال

وشاع الخبر بذلك فأرسل الخديوى الى الباب العالى على جناح البرق رسالة يقول فيها بعد الاستعطاف والتلطف - انه باجازه تولية أسكوت هذا المنصب لم يأت أمرا جديدا في ديار مصر بل هو فعل مثل ما فعله خلفاؤه من تولية بعض الاجانب فى المصالح والدواوين المهمة للاستفادة من نشاطهم وعلمهم وأنه لا شئ بيد أسكوت من القوة الاجرائية ولا هو مطلق الكلمة فى شئ وأن مشروعاته لا يعمل بها الا بعد تمحيصها والتصديق عليها من مجلس النظار وصدر الامر بتنفيذها - فلم يعجب الاحزاب هذا القول وظنوه خدعة وحيلة وقالوا ان الباب العالى سيطاول فى ارسال القاضى الجديد حتى يتم لصاحب سياسة الفرنسيين الاتفاق مع زعيم السياسة الانجليزية على ارجاع الامور الى ما كانت عليه فلم يصب ظنهم المرمى ووصل القاضى الى الاسكندرية فى صبح الاثنين الحادى والعشرين من شعبان من السنة مع عائلته وبعض الخدم وبات ليلته تلك فى بيت مفتى الثغر فزاره العلماء والوجهاء وأصبح فركب قطار السكة الحديد الى القاهرة فاستقبله فى محطتها جماعة العلماء والغازى مختار باشا وبعض رجال الغازى وفخرى باشا ناظر الحفانية وشيخ الجامع الازهر ومفتى مصر والتشريفاتى الخديوى وبعد تبادل التحية ركب القاضى فى مركبة من المركبات الخديوية يحف بها كوكبة من الفرسان وعلى يساره حسين نخرى باشا ويزل ضيفا بمنزل سعادته وفى ثانى يوم ركب فى عربة من عربات الخديوى وعلى يساره الشيخ الرافعى رئيس المجلس العلى وحضر الى سراى عابدين فاستقبله عبد الرحمن رشدى باشا رئيس التشريفات وأدخله على الخديوى فقباله بالترحيب وبعد أن تناول القهوة ألبسه الخديوى خلعة ثمينة من فرو السهور فنزل بها الى المحكمة واحتفل به قضاء مجلسها وهنؤه وبعد برهة لطيفة سار الى المشهد الحسينى فزاره وركب من هناك الى منزل مضيفه وبعد أيام قلائل أولم له الخديوى وليمة شائقة حضرها الغازى مختار باشا وبعض الامراء من البيت العلوى وبعض الوزراء وكبار الديوان الخديوى والعلماء * واتفق أن ابتاعت حكومة الانجليز من الحكومة الخديوية قطعة أرض من فضاء قصر الدوباره على ساحل النيل الشرقى لبنائها دارا لفصلاتو الانجليز بشن وقع الاتفاق عليه وكان المشتري لها السير بارنج باسم ملكة الانجليز وامبراطورة الهند فبعد أن تم الاتفاق على البيع والشراء وقبض الثمن أرسل ناظر المالية الى قاضى القضاة جمال الدين يطلب توقيع الصيغة الشرعية وتسجيل البيع بالطريق الشرعى واستخراج الحجة بذلك فأعاد القاضى السؤال عما اذا كان تحديد الارض يشمل شيئا من ساحل البحر فاذا كان كذلك فلا يصح لأنه طريق مطروق لا يصح تملكه للغير فقال السير بارنج ان البيع يشمل الساحل وأنه قد اشترى الارض الى مجرى الحوت فامتنع القاضى عند ذلك من عمل المسوغ الشرعى وقال لا يجوز تملك الطريق السلطانى للغير فشدد السير بارنج فى الطلب وقال لا بد من استخراج الحجة بما تم بيعه فسأل حسين نخرى باشا مفتى مصر رأيه فى ذلك فأفتى بعدم جواز البيع وبعدم تملك الطريق السلطانى للغير وعدم جواز جعل الحد الغربى

لذلك الارض مجرى النيل * وأكثر السير باربع من الغدو والرواح الى مقر الخديوى تارة وديوان الرئيس مصطفى رياض باشا أخرى وشاع خبر ذلك ففرح به العامة وضعاف العقول وعدوه فوزا للقاضى جمال الدين ونصرا للسلطان على صاحب سياسة الانجليز وتكلم فى ذلك أيضا أصحاب صحف الاخبار المحلية على اختلافها وهم بين مخطئ للقاضى ومصوب وظل الحال على ذلك أياما حتى أشار بعض أصحاب الكلمة المسموعة بترك القاضى جمال الدين يفعل ما يشاء مما قضاء الشرع ثم باجتماع مجلس النظار واصدار قرار يجعل الحد الغربى لتلك الارض مجرى الحوت ففعلوا وكتب القاضى الحجة كما شاء وانفجرت الازمة وقد كان يود أصحاب العقول الضعيفة ومن فى قلبه مرض أنها لا تنفجر

ولم تقف مطالب صاحب سياسة الانجليز بعد هذا كله عند حد فانه بعد أن نال مثاله من تولية أسكوت منصب الاستشارة القضائية وقضى بولايتيه على تداخل الرئيس مصطفى رياض باشا فى أعمال المحاكم وأقلام النيابة وضرب بينها وبين هواه فيها سياجا من حديد جاءت كتبه الى الديوان الخديوى بطلب تسليم زمام ادارة البوليس جميعها الى كتشرباشا مقدم الجند المرابطين بسواكن وسلخها من نظارة الداخلية أى من سيطرة الرئيس وجعلها مستقلة مسؤلة عن الأمن فى سائر انحاء البلاد - قال والحكمة فى ذلك أنه إذا جعلت ادارة البوليس فى يد كتشرباشا واتحدت القوة القضائية بالبوليس الذى هو القوة المنفذة وقامت بمواجهتهما القانونية كما يجب انقطع دابر اللصوصية وانكمش أهل الشقاوة والفساد واستتب الأمن بين البلاد واطمأنت القلوب الواجفة فلا يبقى بعد ذلك من شك ولا بال - وإذا دام الحال على ما هو عليه فلا قضاء ينفع ولا جند يدفع - فكلهم الخديوى الرئيس مصطفى رياض باشا فى ذلك فأجفل وتولاه اليأس وطال الاخذ والرد بينهما أياما كان من ورائها أن رسم الخديوى بولاية كتشرباشا الرئاسة على جند البوليس ومنحه حق النظر فيما تستلزمه حالة الحفظ فى البلاد كافة من اقامة المرابطين من الجند والخبراء وتحديد وظائف مشايخ البلاد ومشايخ الخفر والتوفيق بين القوة القضائية والقوة التنفيذية فقام كتشرباشا من يومه بتقنين القوانين وانشاء اللوائح وأكثر من الاجتماع بأسكوت كل قليل من الايام حتى تم الاتفاق بينهما على ما شأ الاتفاق عليه وقررا فيما بينهما اختصاص كل من القوتين فلم يبق للرئيس فى ادارة البوليس بعد ذلك كلمة ولا رأى وقد كان يظن استحالة الوفاق بين كتشرباشا وأسكوت وان يتنازعا فى السلطة ويميل كل منهما الى الاستبداد بالأمر وأن ذلك سيكون باعثا على اخفاق سعيهما وتفرق كاتمهما فترجع الامور بعد ذلك الى ما كانت عليه من قبل ولكن لم يصب ظنه المرمى اذ اتحدت كاتمهما واعتصما بعروة وثقى لا انفصام لها وأصبعا فى منصبهما كأنهما رأسان فى قلنسوة واحدة. وبات الرئيس ولا عمل له بل ولا كلمة مسموعة ولا اشارة مطاعة فكبر همه وعظم حزنه وغمه وتأمل حوله فرأى أن عيون الانجليز قد أخذته من كل صوب وألسنة القوالين قد تناولته من حيث يدرى ولا يدرى وعابوا عليه استسلامه وضعفه بخار

(مطلب)

تعيين كتشرباشا
مديرا لجند
البوليس

في أمره واختلط عليه الحال وتولاه القلق وعراه الريب في صدق ولاء المقربين من مجلسه فففر من بعضهم وانكف عن الجلوس في مجلس ليله على عادته وتجنب أياما ثم تمارض وأظهر للناس عجزه عن القيام بهام المنصب فكان اذا ذهب يوما الى ديوانه جلس على كرسيه واجامشت الفكر كثير الهموم وقد ذهبت عنه تلك الهيبة وضعفت منه تلك العزيمة وظل على هذه الحال حتى جاءت أيام عيد الفطر فجعل يفكر في ترك المنصب والتخلي عنه * فلما كان يوم الثلاثاء رابع شوال من السنة وثاني عشر ماو دخل على الخديوي بمقره وشكا اليه عجزه عن القيام بهام المنصب وما يلاقه من اغضاء الخديوي وعنت السير بارنج ثم رفع الى الخديوي عريضة يقول فيها - مولاي ان اعتلال صحتي قد أوصلني الى درجة لا أستطيع معها القيام بهام المأمورية التي أنا مكلف بها من قبل ذاتكم الفخيمة ولهذا الداعي أتقدم لاعتابكم السنية ملتصا مع الاسف من تعطفاتكم الجليلة آفاتي وأنا على كل حال خادمكم المخلص اه - ففي الحال قبل منه الخديوي ذلك وأقاله * وما شاع خبر ذلك حتى تناوله الناس وجعلوا يتحدثون به واختلفوا في الاسباب فقال فريق انه لم يترك المنصب الا مكرها لان كتنشر رسم الى سائر رؤساء أقلام نظارة الداخلية بأن ترفع اليه سائر الاوراق الديوانية وهو يأذنهم بما يلزم ولا يلزم اطلاع الرئيس عليه كما يفعل منار بتظارة المالية - وقال فريق آخر بل انه لم يرق لديه اتفاق كتنشر وأسكوت على ربط قوتي القضاء والتنفيذ ببعضهما ورفعهما تقريرا بذلك للخديوي فصدق عليه ولا علم للرئيس به فلم يربدا من ترك المنصب والتخلي عنه - وقال فريق آخر بل ان بغض جماعة الانجليز ونفورهم منه منذ حادثة تولية أسكوت منصب الاستشارة وضربهم على يده كل قليل من الايام مال به الى التججيل بترك المنصب - وقال آخر انه رأى من نفسه اعتزاله للمنصب بعد الذي حاق به من جراء تولية أسكوت وكتنشر وأخبر صاحبه البارون مالورقي مدير قلم المطبوعات أثناء شهر رمضان بعزمه على التخلي عن المنصب في رابع أيام العيد - وقال فريق غير ذلك وعلى كل حال فقد تم لجامعة الانجليز ما كانوا يطلبونه وبعث السير بارنج بخبر ماجرى الى صاحب سياستهم وكذلك فعل سائر قناصل الدول الكبرى

وفي عصر ذلك اليوم أرسل الخديوي الى عبد الرحمن رشدي باشا رئيس التشريعات بأن يقوم بتشكيل الوزارة تحت رئاسته فامتنع واعتذر بأنه شيخ فان لا قدرة له على تحمل مشاق ان رئاسة وتنوعت الاشاعات في تلك الليلة فيمن يتولاها فن قائل انه نفري باشا ومن قائل ان مصطفى فهمي باشا هو الذي سيتولى ومن قائل سيعود اليها الوزير نوبار باشا وتباينت الآراء وانقضى الليل ولم يتم شئ وأصبحوا وقد ذهب الخديوي يتنزه في ضواحي الجزيرة ورجع عند الساعة التاسعة صباحا فدخل عليه السير بارنج وأبلغه خبر ما ورد اليه من صاحب سياستهم وكلمه طويلا فيما هم بصدده ثم دخل أيضا الغازي مختار باشا مندوب الباب العالي ثم قنصل جنرال الروس ولم يخرج السير بارنج من حضرة الخديوي حتى شاع الخبر بولاية

مصطفى فهمى باشا الرئاسة * فلما كان عصر ذلك اليوم حضر مصطفى فهمى باشا الى مقر الخديوى بعابدين ولبت بحضرته برهة ثم خرج فأرسل اليه الخديوى فى سادس شوال مرسوما يقول فيه - انه بناء على ما رأيناه فى عطوفتكم من الدراية والاهلية ووثوقنا بكم قد أحلنا على عهدتكم رئاسة مجلس نظار حكومتنا وعلى هذا نطلب منكم القيام بتأليف هيئة نظارة جديدة وليكن فى علمكم أننا نعضدكم ونساعدكم على الاعمال المهمة التى دعوناكم لأدائها وبما أن المنهج الذى سلكناه منذ توليتنا لحسن سير أعمال حكومتنا وسرنا على مقتضاه للآن هو ما جاء فى أمرنا الصادر بتاريخ حادى عشر سبتمبر سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية ولا حاجة لتذكيركم بما تضمنه من المواد الاساسية وهى ان حكمنا واجراءه يكون مع مجلس نظارنا وبواسطته مع بقاء الحق لنا فى الرئاسة على جلساته بذاتنا كلما رأينا لزوما لذلك كما أن جل قصودنا وغاية مرغوبنا هو العدل والاستقامة والاصلاح وحسن الترتيب فى جميع ادارات القطر والسعى فى ازدياد الرفاهية والتقدم فى جميع انحاء البلاد حسا ومعنى فليكن ذلك دائما مطمح انظاركم حتى يتسنى لنا باذن الله الحصول على ما ذكر ونسأله تعالى أن يوفقنا جميعا لما فيه الخير للبلاد ورفاهية العباد اه فلما وصل الى مصطفى فهمى باشا مرسوم الخديوى اجتمع بالسير بارفج برهة طويلة واجتمع كذلك بالمستشار المالى وعند الساعة الثامنة من ذلك اليوم تمثل بين يدى الخديوى بمقره ورفع اليه عريضة تتضمن أسماء من ستألف منهم هيئة الوزارة الجديدة فكان فيها أن عبد الرحمن رشدى باشا للمالية ومحمد زكى باشا للاشغال العمومية والمعارف وحسين نقرى باشا للحقانية ويوسف شهدي باشا للخرربة والبحرية وتيكران باشا للخارجية فوافق الخديوى على اسناد هذه المناصب اليهم ورسم بذلك فساروا جميعا الى مقره بعابدين فهنأهم فقبلوا يده وانصرفوا وسافر مصطفى رياض باشا الى مزرعته بطود البحيرة واحتجب عن الناس كافة وعفت أخباره وشاع الخبر بعزم أولى الامر على خلع محمود باشا دبوس اوغلى صهره من وكالة الداخلية فاستحسن الناس ذلك وأحلوه من الصواب محله

(مطلب)

ظهور الجراد
بالاقليمين القبلى
والبحرى

ووردت الاخبار من بعض مديرى الاقليمين القبلى والبحرى على ديوان الخديوى وديوان الداخلية بظهور الجراد فى جهات الصالحية والزتكولون وتل حوين من بلاد الشرقية وأهوه وباروط وآها من بلاد مديرية بنى سويف وكثير من بلاد مديرية جرجا وأسيوط وبلاد مركزى النجيلة والدلتجات واليهودية وقبور الامراء بالبحيرة وطود وداماريس والبرجين والاحصاص وغيرها مديرية المنيا وأكثر بلاد القلوبية والمنوفية وكسا أراضى الجزيرة بالبر الغربى من القاهرة وكان ظهوره فى آخريات رمضان نخاف الناس شره واهتمت الحكومة بأمره اهتماما عظيما وأرسلت الى سائر المديرين والمحافظين بالتشديد على قطع شأفته فجدوا فى تأثره وكانت الاخبار ترد تباعا بتكاثره وانتشاره شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وفتكه بكل ذى خضرة من النبات والشجر والخييل وظل الحال على ذلك أياما والناس فى دهشة وحيرة

حتى أذن الله سبحانه بأن هبت في أخريات شوال من السنة رياح مختلفة بعضها من الشرق وبعضها من الغرب ولبثت على اشتدادها أياما فاكسحته وجلت بعضه الى الخوف الشرقي وبعضه الى الجبل الغربي ولم تترك منه الا القليل في البلاد والقرى التي نزل عليها فأبادها أهلها بضرب العصي وسعف النخل وجدوا في جمع بيضه وفرضت الحكومة قرشين لمن يأتي بأقعة من بيضه فتسابق الناس الى البحث عن مواطنه واخراجه منها فكان أكثره في مركز النجيلة بالبحيرة وفي الجبل الغربي وسواحل البحر وفي الفشن بمديرية المنيا ومن غريب ما نقل عنه أن سحابة منه نزلت على مزرعة فطن بإحدى بلاد المنوفية فأكلتها وما أتت على آخرها حتى ماتت جميعها فجاءت أخرى الى مزرعة في جوار المزرعة الاولى فلما رأت ما أصاب الاولى نفرت من النزول على شجر القطن وعافته وفرت فلم ير بعد هذه الحادثة جراد يأكل شجر القطن وتحول ضرره الى الاشجار والنباتات الاخرى وأخبر جماعة من تجار المنوفية مديرها وحلفوا له الايمان المغلظة بأنهم شاهدوا في بلاد مركز أشمون جريس طيرا كثيرا جدا أقرب شبيها بأبي قردان ولكنه أطول منقارا قد نزل من الجبل الغربي أسرابا أسرابا وأخذ يتبع الجراد أينما وجدته ويكبس عليه وينزرد منه المئين والالف ثم يتقيؤه ميتا وهكذا فلا يرحل عن البلد أو المزرعة الا وقد أفتى ما فيها من الجراد وأباده - وان بعض الجهلة من الفلاحين كانوا يخافون من ذلك الطير فيرجونه بالاجار وهو لا يلتفت الى ذلك ولم يش له عزما ۞ قلت وقد شاهدت شيئا كثيرا من ذلك الطير نازلا على طول الطريق من نفيسة الى السويس وهو على هيئة صفوف الجند بعضها خلف بعض ساكن القلب لا يرنجه مزعج ولا يحركه محرك وقد أخبرني بعض أهالي نفيسة بأنه قد نزل عليهم منذ أيام وهو يترصد الجراد الزاحف من بلاد الشرقية الى الخوف الشرقي حتى اذا مر به قام من فوره وسد عليه الطريق وجعل يضربه بأجنحته ومنقاره ويتلع منه الالف فلا تستقر في جوفه لحظة حتى يتقايأها فاذا أفلت منه شيء تعقبه وقتله ثم يعود الى مكانه متربضا قيل وبقي على هذه الحال أياما حتى قامت تلك الرياح واكسحت ما بقي من الجراد فسبحان مدبر الاكوان ومسلط الابدان على الابدان انه خلاق عظيم سبحانه جل شأنه

(مطلب)
موافقة عيد الاضحى
لعيد بلوغ ولي العهد
سن الرشد

وبالغ الخديوي هذا العام في اظهار أبهة عيد الاضحى لموافقة أيامه لأيام عيد بلوغ الامير عباس ولي العهد سن الرشد وكان الخديوي باسكندرية على عادته في ابان الصيف فطير الخبر بعمل تشريف العيد الى الآفاق فهرع الامراء من البيت العلوي والكبراء والعلماء والمشايع وأرباب الوظائف على اختلاف مراتبهم الى الاسكندرية استعدادا لحضور يوم التبريك بالعيدين عيد الاضحى وعيد بلوغ الامير سن الرشد وكثر توارد رسائل التهاني على ديوان الخديوي من كل صوب ۞ فلما كان صبح الخميس عاشر ذي الحجة ركب الخديوي عربة التشريف وعلى يساره الامير عباس وأمامه الامير محمد علي ولده الثاني وأمام العربة

كوكبة من الفرسان وخلفه كذلك وسار الى مسجد أبي العباس ف صلى صلاة العيد ثم عاد الى مقره برأس التين فدخل عليه الأمراء من البيت العلوي فهنؤه بالعيد وبلوغ ولي العهد سن الرشد وهنؤوا كذلك الأمير ثم دخل الوزراء والكبراء والعلماء والوجهاء والرؤساء وأدوا فروض التهاني وخرجوا من عنده الى سراى الحرم وكانت رحبة السراى مزودة بصفوف الجند والمواكب والمدافع تطلق من طوابى وأبراج البلد ومن سفن البحر على اختلاف أجناسها والموسيقى تصدح في كل ناحية من ساحة السراى وكانت والدته ولي العهد قد أولت ثلاثة أيام قبل يوم العيد وأطعمت ونصفت على الفقراء وأصحاب البيوتات وفرت بعض التحف والهدايا النفيسة وكذلك فعل الخديوى وجاء الى ولي العهد نيشان الافتخار من امبراطور النمسا والمجر فسلمه اياه القنصل في حفلة من الأمراء والوزراء والكبراء وألبسه الخديوى كذلك بيده في حفلة أخرى النيشان العثماني الأول فوقف على باب الأمير يومئذ الشعراء والقوالون وتسابق المهنئون من كل صوب فما قاله أحدهم في الأمير

نبه يراعك من وصف وتشبيب وخذ بنظم التهاني كل أسلوب
ان الهناء اذا طابت موارده أغناك عن غزل في الشعر مطلوب
واليوم جلت تهانينا فكان لها صدر المقام كعنوان المكاتب
قد بلغ الله مصرا ما به وعدت ونعمة الله وعد غير مكذوب

الى أن قال

والبدر في أصله ثم تحجبه أيامه ثم يبدو غير محبوب
يابالغ الرشد في ترتيب مدته وأنت بالغه من قبل ترتيب
ونائل الادب الوضاح من خلق من قبل تأديب أستاذ وتهذيب
ليس الحداثة من حلم بمناعة قد يوجد الحلم في الشبان والشيب
وليس رشد الفتى في سنه أبدا بل في فؤاد وأخلاق وتدريب
كذلك قد خلق الله الأمير لنا والمجد في النفس طبع غير مكسب
فقال من بعد تغريب معارفه ولم ينل فضله من بعد تغريب
فضل توارثه عن خير محتده والفرع من أصله في الحسن والطيب
جاري أباه فكاد البحران معا لولا مهابة اجلال وتأديب
وأصبحت مصر في آمالها ولها قلب المحب أناه وعد محبوب
حتى ترى منه غشا في شمائله والغيث في وشد سكب مثل مسكوب
لقد دعوه بعباس ليوم ونى لكنه في الندى من غير تقطيب
فأبصروا منه بحرا في مكارمه تخلو عذوبته من كل تعذيب
وشاهدوا منه عقل الشيخ في حكم برأس أمر داجي الشعر غريب
ومن يكن نجل توفيق البلاد فلا بدع اذا كان مجموع الاعاجيب

حاولت وصف الهنافية فأزججني كأنه شقة في عين متعوب
فلم أنل وصفه الا على بعد ولم أنل مدحه الا بتقريب
وركب ولي العهد في ذلك اليوم في عربة فاخرة وخلفه نفر من الجند فطاف على بيوت
الامراء من البيت العلوي وزار بعض قناصل الدول فكان يوما مشهودا

(مطلب)
ظهور الوباء بمكة
ومصوع

وما تمت أيام العيد وما تبعها من أيام التزاور حتى ورد الخبر من مكة بظهور الوباء
الاصفر بها ودخوله اليها مع الجحاج الهنود فقام رجال الحكومة لذلك وقعدوا وأرسل
الخديوي كتبه الى نصحي باشا أمير ركب الحج المصري بخفاء الرد يقول ان الوباء على أشد
ما يكون بمكة وأنه قد مات به ثلاثة من الجنود المصرية وأحمد أفندي عمر طيب الركب
المصري ثم جاء الخبر أيضا بدخول ذلك الوباء الى مصوع وفتكه بمن فيها فتكا ذريعا فرسم
الخديوي من قوره بعمل الاحتياطات الصحية وسيروا في يوم الاربعاء سادس عشر ذي الحجة
بجاعة من الاطباء والصيدلية وخدام المرضى الى محجر الطور على ظهر الباخرة عائدة
ومعهم الادوية والخيام والملابس لفقراء الجحاج وأرسل ديوان الصحة الى سائر عماله بالتأهب
والاستعداد ليوم الطلب ومنعت نظارة الداخلية من إقامة سائر الموالد في انحاء البلاد
فخاف الناس وجعلوا يبالغون في الحيطه والتوقي من شر ذلك العدو القتال وطاف مشايخ
الحارات ينادون على العامة بتنظيف دورهم والعناية بما كلهم ومشرهم وملبسهم فضلا
عن نظافة أجسامهم فوقع هذا النداء من قلوبهم موقعا رهيبا وكثر بينهم الهرج والمرج
على عاداتهم عند ظهور خبر هذا الحادث وطاف كذلك أصحاب الشرطة وأطباء الاقسام
يفتشون الدور والوكائل ويلزمون أصحابها بتنظيفها والعناية بها وظل الحال على ذلك حتى
وصل الجحاج الى محجر الطور وليثوابه أيام الحجر فكان الموات بينهم قليلا ثم انقطع
ولم يبق عليهم من خوف بخاؤا الى السويس ودخلوا القاهرة معافين فزال عن الناس الخوف
واطمأنت قلوبهم وانكف أصحاب الشرطة وأعوان الصحة عن التطواف كما كانوا يفعلون
في كل يوم

(مطلب)
حريق سراي
عابدين

وفي فجر يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة سمع دوى شديد وصوت كأشد ما يكون
من قصف الرعد وانتشردخان كثيف ملاء جو القاهرة فهب الناس من نومهم مذعورين
وخرجوا يريدون مكان ذلك الصوت قطهر لهم لهب النار يرتفع من سراي الخديوي بعابدين
الى عنان السماء وشاهدوا طوائف الجند من المصريين والانجليز يتسابقون الى رجة
السراي ومعهم أصحاب المطافئ وبجاعة ينفخون في البوق نداء لمن تخلف منهم وكانت
النار قد ظهرت أولا من غرفة في الجهة الشرقية المجاورة لاحد مطابخ الدائرة الخاصة
واشتد لهيبها ثم اتصلت الى غرفة أخرى فأصابت أنابيب الغاز فتفرقت الأنابيب فاشتد
سعر النار وامتد لسانها وكبر خطرهما وكثر نداء البوق فهرع الجند من كل صوب وناحية
وجاءت خيل الجمل وعربات المياه وعربات الرش والطلبات والقفلة ثم حضر الوزراء ووكلاء

النظارات ورؤساء المصالح وكثير من الباشوات المتقاعدين وجعل كل منهم يقول بأنه في كيفية اطفاء تلك النيران الآكلة فاختلقت الآراء واشتد الالهب وعلا علوا كبيرا وقد غاب عنهم جميعا اجراء الهدم للفصل بين الاماكن التي أخذت النار تكل فيها وبين الاماكن التي لم تكن قد وصلتها النار واشتد الخوف على ما في السراى من الامتعة الفاخرة والفروشات الثمينة والثريات والمقاعد والاسرة والتحف التي لا تكاد تدخل تحت الحصر فأشار بعضهم بنقلها كلها الى فسحة السراى الخارجية فنقل الجند بعضها فتكسر بعضها وتعطل البعض الآخر وكافوا يلقون بالشيء الكثير منها من النوافذ والشبابيك فيتحطم وهكذا ولم ينتبه أحدهم الى الهدم والحيولة بين الناريين ما بقى من البناء أو تنبه بعضهم ولم يجد سمعا حتى آتت النار على جميع ما في الجهة الشرقية الى قرب باب المعية من الجهة الامامية والى قريب سراى الحرم من الجهة الخلفية فتنهبوا حينئذ للهدم فهدموا غرفتين كبيرتين بين ديوان المعية وبين سراى الحرم بالقاء الديناميت وكذلك هدموا سائر محلات الكتبة فانفصلت النار عن غرف المعية وانحصرت في الجهة الشرقية وكان فعل الديناميت عند القائه على ذلك البناء غريبا مهولا جدا مادته له الارض وأظلم به وجه السماء وكاد الناس يخرون على وجوههم لشدة ما أصابهم ثم جعلوا يلقون الماء على النار من المطافئ كالسيل وما زالوا على ذلك حتى تمكنوا من انجادها وسلمت الجهة البحرية من السراى وكان ما كان من أمر المفروشات والنقائس والتحف أما الاواني الذهبية والفضية والخزائن والسجلات والاوراق المهمة فقد نجت كلها من النار فحفظوها في مكان وأقاموا الحراس من الجند حول السراى وما تهم منها في الليل والنهار وطبخوا الخبز بما جرى الى الخديوى فجاء ولى العهد والدته الى القاهرة على قطار مخصوص وذهبا من فورهما الى بناء السراى ولبثا هناك الى قريب الغروب ثم عادا الى الاسكندرية ومعهما من حضر من الخدم والاتباع * واختلف الناس في أسباب الحريق وكثرت الظنون وترامت الى أسبج المراهى فرسم الخديوى بتحقيق الاسباب قيل وبلغه ما يقوله الناس فشدد على النائب العموى في ذلك - واتفق أن وجد جماعة العسس في فجر الخميس ثانى عشرى ذى الحجة كبسا ملقى في الطريق ما بين ترعة الاسماعيليه وكنيسة الافرنج فيها ففتحوه فوجدوا فيه جثة رجل من العامة مقطوع الرأس مجهول الاسم والبلد فحملوا الجثة ودفنوها وأبقوا الرأس على رصيف الطريق وحولها جماعة من العسكر تحفروها فلما طلع النهار وشاع خبر ذلك تسارع الناس على اختلاف طبقاتهم الى ذلك المكان ليروا الرأس واشتد الزحام حتى استدت منافذ الطرق وثلث ضوضاء العامة وقالوا ان صاحب هذا الرأس هو الذى أحرق سراى عابدين وانه قد حكم بقطع رأسه وتشهيرها وكثر اللغط بذلك وانتشر في القاهرة ومصر القديعة فخاف أصحاب الشرطة العاقبة وحملوا الرأس فدفنوها وقد كانوا يريدون من عرضها على الناس معرفة صاحبها فلم يتمكنوا من ذلك وجد أصحاب الشرطة

في البحث عن القتال وتعقبه أينما سار وحيثما صار فعلوا أن القتالين للرجل جماعة دعاهم الى فعل القتل الطمع فيما معه من المال * وتحرير الخبر أن القتل رجل من المزارعين من أهالي سميوط وله عادة أن يأتي الى القاهرة في مثل هذه الايام من كل سنة ليدفع أجرة أرض استأجرها من أحد أعيان القاهرة فجاء في ذلك اليوم على سابق عاداته في إحدى المراكب ومعه شيء من القمح والبقول لبيعه ويدفع إيجار الأرض من ثمنه وبات ليلته تلك عند صاحب له من خفراء بيوت خطبة الاسمعية فظن الخفير أن ضيفه يحمل معه إيجار الأرض لصاحبها على عادته في كل عام فلما نام الرجل آمنًا مطمئنًا في حى مضيفه انسل الخفير وعاد ومعه رجلان على شاكلته فأنكبوا على الرجل وهو في نومه وذبحوه ذبح الشاة وقتلوه فلم يجدوا معه شيئاً لأنه لم يكن الى تلك الليلة قد باع غلته فوضعوا جثته في كيس وألقوها في الطريق فقبض أصحاب الشرطة عليهم جميعاً وألقوهم في الحبس لينالوا جزاءهم

(مطلب)
جبر البحر

ورسم الخديوي بأن يكون جبر الخليج أى جريان الماء في خليج الخليفة المار بوسط القاهرة في يوم الخميس ثالث عشر الشهر أى شهر المحرم من السنة وان ينوب عنه في حضور المهرجان ولي عهده الامير عباس فقام الامير من الاسكندرية في يوم الاربعاء على قطار خاص فكان كما وقف القطار في محطة أطلقت له المدافع اجلالاً وتعظيماً حتى وصل القاهرة وقد كانت محطتها مزدانة بالرياحين والازهار وغاصصة بجماهير الامراء والوزراء والعلماء والموظفين والوجهاء وقضاة المحاكم الاهلية وأعضاء مجلس شورى البلاد وقد اصطفت الجنود ما بين مشاة وركبان في ساحة المحطة مع بعض العساكر الانجليزية فلما نزل الامير من القطار أطلقت المدافع وصدحت الموسيقى العسكرية فسار بين هذا الجمع حتى ركب العربة والى يساره شقيقه الامير محمد على وركب أمامهما شوقي باشا ناظر الخاصة ودومرتينو باشا أحد رجال المعية وسارت بهم المركبة وخلفها الجنود حتى اليخت الخديوي بالترسانة ببولاق مصر فأطلقت لمقدمهم المدافع من كل صوب فباتوا ليلتهم باليخت فلما كان مساء اليوم الثاني في نحو العشاء الاولى ركب الامير وشقيقه الى مصطبة فم الخليج وقد أعدوا لهما بصدر المصطبة سرادقا من الديباج فرش بالطنافس وأنير بالثريات وصفت فيه الكراسي الملبسة بالحرير فجلس الامير واجتمع الناس في تلك الساحة وفي الساعة التاسعة أحرقت الحراقات وأطلقت الاسهم النارية وجعل كبار القوم يدخلون على الامير ويهنئونه الى نحو نصف الليل ثم ركب مع شقيقه وحاشيته الى قصر الجزيرة فباتوا وفي الصباح عاد الى المصطبة وكان قد اجتمع هناك الوزراء وموظفو الحكومة بملابس الزينة والتشريف وبعد برهة لطيفة أمر الامير بقطع السد فجري الماء بالخليج ونثرت على السد الدنانير فصاح الناس بأصوات الفرح ثم ركب في قلة من الخدم والحشم الى مدينة حلوان ففضى فيها بقية يومه وعاد فبات ليلته في اليخت الخديوي وأصبح يوم الجمعة فزار في

مسائه المشهد الزينبي والمسجد الجامع والمسجد الحسيني ومن هناك عاد الى اليخت وفي يوم السبت قضى هو وشقيقه نهارهما بين المطرية والقبة والاهرام ومتحف الجيزة وسافرا في صبح الاحد عائدين الى الاسكندرية ووقف الشعراء على باب الأمير وامتدحوه بالابيات الايات فمن قال في ذلك محمود أفندي حسنى المعاون بمحاظطة مصر قصيدة طويلة قال في مطلعها

وفي النيل بالأنجال يمنا لدا العام ولاحت شمس البشر للخاص والعام

وقال في المديح

صفات صفت من معدن المجد والتقى صفات أمير القطر والسودد الناصي

وقال في الختام

جبرتم قلوب العالمين تكمرا بتشريف جبر النيل في خير أيام

وقال في التاريخ

بذا لسعود القطر قلت مؤرخا وفي النيل بالانجال يمنا لدا العام

وعادوا فاشتغل أصحاب الحل والعقد بعد خلع مصطفى رياض باشا من منصب الرئاسة بتحقيق ديون غردون لأصحاب الاموال بالسودان أيام حصار الخرطوم والنظر في شكاوى النازحين من الاقطار السودانية من الجند وأصحاب الوظائف والاهلين فقد كان قناصل الدول في سعي متواصل مع رجال الدولة في ذلك فرسم الخديوى في سابع عشرى المحرم وأول سبتمبر بتشكيل لجنة من البارون رشتوفن والكونت زالوسكى والمسيو لوشوفاليه والمسترموفى والمسيو ريوميدس والمسيو مورانا والبرنس موروزى وكلهم أعضاء صندوق الدين والمسيو روكاسيره مستشار قضايا الخزينة وأجاز لهم النظر في تلك الطلبات والحكم فيها نهائيا مع اعتبار صحة سائر الديون التى حكم بها قضائيا بأحكام صارت في قوة التنفيذ وكذلك الديون المعترف بها من الخزينة أنها صحيحة وأن ترد للخزينة جميع الاموال التى قامت بدفعها قبل تشكيل هذه الهيئة فاحصوا تلك الديون والطلبات فبلغت تسعمائة ألف وستة وتسعين ألفا وستين جنبا مصر يا منها ستمائة ألف وسبعة وخمسون ألفا ومائتان وثمانية وخمسون للأجانب على اختلاف أجناسهم وثلثمائة ألف وثمانية وثلاثون ألفا وثمانمائة واثنان للأهالى على تباين مذاهبهم فعدلوا فيها ماشاؤا وحكموا بما شاؤا واستدانت الخزينة لوفاء هذه الديون والمطالب قدرا من المال كبيرا فكان نصيب الاهلين وأصحاب الوظائف الديوانية من ذلك نصيب الثعلب من صيده مع الاسد وراحت أموالهم وأرزاقهم هباء كما راح دم غردون بين أصحاب المهدي هذرا

وشاع خبر عزم الخديوى على الحضور الى القاهرة من مصيفه بالاسكندرية وان بعض العيون أبلغت ديوانه الخاص بأن في بلد الجيزة التابعة لمديرية الغربية رجلين غريبين يقيمان بها منذ أمد بعيد وربما كان أحدهم عبد الله نديم صاحب الطائف وخطيب

(مطلب)

تحقيق ديون
غردون باشا

(مطلب)

العشور على عبد الله
نديم بعد هروبه

عصاة الثورة العربية وصاحب تلك الاحوال والاهوال المشهورة فاهتم الخديوى بالامر وسير الى مدير الغربية مرسوما بتحقيق الخبر ومعرفة ذينك الغربيين فصدع المدير بالامر وسير جماعة من أصحاب الشرطة وبعض رجال العسس الى ذلك البلد فلم تكن الا أيام حتى عادوا في ثمانى ربيع الاول ومعهم عبد الله نديم بعينه ومينه وخادم له اسمه صالح أحمد وكان عبد الله فى زى الدراويش المولوية وعلى رأسه عمامة خضراء مكورة وقد أطلق لحيته فجعلته أقرب شبا بعرب العبادرة فكتم المدير عن الناس خبر ظهوره خوف الفتنة وطير الخبر بذلك الى ديوان الخديوى ونظارة الداخلية فاجتمع فى نظارة الداخلية عبد الرحمن رشدى باشا وزكى باشا وكشنر باشا وتيكران باشا وأحمد شكرى باشا وتناجوا طويلا فى ظهور عبد الله نديم بعد اختفائه كل هذه المدة الطويلة وفى الخطة الواجب اتخاذها فى تحقيق أمر هربه واختفائه ومكثه كل هذا الزمان بالجيزة فلما كان عاشر الشهر قرر مجلس النظارة انفاذ الأمر الخديوى الصادر بنفى عبد الله نديم الى الشام واطلاق سبيل من ضبط معه وجاء الأمر بذلك الى مدير الغربية وبأن يرسل عبد الله الى الاسكندرية ليسيروا منها الى الشام فأنزلوه فى قطار السكة الحديد تحرسه جماعة من الجند ومعافى المديرية ومنعوا الناس من رؤيته وقد كانوا قبضوا أيضا على جماعة من أهل الجيزة ممن آوى اليهم عبد الله ومن كان يعرفه فعفا الخديوى عنهم وأطلقوا سراحهم ووصل عبد الله الى الاسكندرية فأنزلوه فى سجن الترسانة ليلته تلك ثم أصبحوا فنقلوه الى إحدى بواخر الشركة الخديوية انذهبه الى الشام وقد رسم الخديوى الى ربانها بأن لا يضيق على عبد الله ولا يشوش عليه وأن ينزله بأى بلد شاءها هو من بلاد الشام وأن يعطى له بعد نزوله شئ من المال للنفقة وتيسير المعيشة وأجاز الى عبد الله أن يشتغل بأى حرفة شاءها فأعجب الناس صنع الخديوى وتحدثوا به كثيرا وقد كان بعضهم يظن أن عقاب عبد الله نديم بعد العثور عليه لا يكون الا الصلب أو قطع يديه أو النقي من أرض الشرق بأجمعه فوقع غير ما كانوا يظنون واختار عبد الله أن ينزله بيافا فأنزلوه بها قيل ففتح مكتبا لتعليم الصبيان وأظهر الزهد والورع ما استطاع ورضى بالكفاف فعرفه بعض الناس وقربوه منهم فحسن حاله

(مطلب)
فتح جسر قشيشة
المستجدة فى حفلة
حافلة

وجاء الخبر الى الديوان الخديوى فى الاسكندرية بما بذله عمال الرى من جماعة الانجليز من العناية بضبط رى سائر حيضان مديريات الاقليم القبلى فى هذا العام وعدم تخلف شئ من الشراقي الا التزر القليل من أطيان الحوف الشرقى رغما عن عدم بلوغ النيل حده المعتاد فى الزيادة وهم يطلبون الاذن بفتح قناطر قشيشة المستجدة فى حفلة حافلة فرسم الخديوى بذلك فلما كان رابع عشر ربيع الاول من السنة وسابع عشر أكتوبر زين رجال الرى القنطرة بطولها والطريق الموصلة اليها بالاعلام والرايات ووضعوا رسم الخديوى فى مدخل القناطر من جهة ورسم ناظر الاشغال العمومية والكولونيل منكرىف والنابعة الكولونيل روس مفتش الرى وجماعة المهندسين الذين باثروا عمل هذا البناء من الجهة الثانية

وقد اجتمع سائر الوزراء والكبراء وأرباب الوظائف وبار المزارعين وطوائف المهندسين من
أجانب ووطنيين وكثير من كتاب صحف الاخبار فلما أتت الساعة الحادية عشرة صباحا
فتحوا نجسا من عيون تلك القنطرة فالتحدر الماء انحدارا عجيبا ثم جلسوا على مائدة
الطعام الذى أعده لهم الميسوزور ومقاول بناء القناطر فأكلوا جميعا وشربوا وعادوا
الى القاهرة فى القطار الخصوصى الذى حضروا به ^١ وقد كان بناء هذه القناطر بإشارة
من الماجورروس فانه لما رأى الخطر المحدق بجسر سكة حديد الاقليم القبلى بسبب
المياه التى تتسلط عليه أو ان انحدار مياه الخيضان القبلية الى حوض قشيشة وعدم تيسر
ضبط صرف مياه هذا الحوض ومياه سائر الخيضان التى تنصرف اليه وضرورة وجود
الموازنة فى مياه الصرف حرصا على فائدة حيضان الاقليم الجرى وانتفاعه منها أشار بعمل
تلك القنطرة فاتفقوا مع أحد المهندسين الاجانب واسمه الميسوزور وشريكه الميسوبوتا
فى آخريات جمادى الثانية سنة سبع وثلاثمائة وألف هجرية وأوائل شهر فبراير سنة تسعين
وثلاثمائة وألف ميلادية على عمل البناء بمقتضى تخطيط وتقدير هندسى فأتوا ببناءها وهى
تتضمن على ستين عينا مزدوجة سعة الواحدة منها ثلاثة أمتار وتحتوى على صفى عقود أحدهما
فوق الآخر وللصف الاعلى منها أبواب أفقية من الحديد المنين وللصف الاسفل أبواب من
حديد أيضا مركبة فى دروندات سطحية ترفع بواسطة مرفعتين متحركتين على خط حديدى
مستوى الدورند من الامام ووزن الباب الواحد من الابواب العليا نحو سبعة وأربعين
قنطارا مصريا ومن الابواب السفلى نحو ثلاثة وعشرين قنطارا وكيفية استعمال هذه
الابواب هى أنه قبل أن يأخذ النيل فى الزيادة ترفع سائر الابواب العليا وتجعل أفقية
فتسد الفتحات العليا من القنطرة ثم ترفع البوابات السفلى فتدخل من العيون السفلى
مياه النيل الى الحوض ومتى صارت مياه الحوض معادلة لمنسوب مياه النيل أقفلوا تلك
البوابات لكي تعلو مياه الحوض مما يرد عليه من مياه المنى ومياه البحر اليوسفى فاذا
زادت المياه بالحوض عن منسوب تمام الرى المعتدل فتحوا العيون السفلى مرة ثانية
للتخفيف كلما دعت الحالة لذلك حتى يجيء وقت الصرف العموى فيفتحون الابواب العليا
كلها حتى اذا ما هبط منسوب الحوض هبوطا كافيا فتحوا العيون السفلى لمهولة صرف
ما يكون قد بقى فى الحوض من المياه - وبصرف مياه قشيشة ابان الصرف يرتفع النيل
عند القاهرة وتظهر فيه الزيادة ولكنها تختلف بحسب مناسيب مياه الحوض والبحر فى
ابان الصرف ويبلغ عمق المياه المحصورة فى الخيضان الكائنة بين أسبوط وقشيشة ما بين
عشرين وأربعين سنتى متر - وقد بلغ ما أنفق على هذه القناطر العظيمة زهاء اثنين
وستين ألفا وستمائة وعشرين جنيها مصريا فجاءت من أجل الاعمال الهندسية وأكبرها
فائدة اذ هى تصرف فى النيل مياه سلسلة الخيضان الكائنة بين أسبوط وقشيشة على مسافة
مائة وسبعة وسبعين ميلا تجمع نحو مائة ألف وخمسة وخمسين ألف فدان وستمائة واثنين

ونحسين فداننا وأخبرني جماعة من المهندسين بأن هذه القنطرة تصرف في كل عشرين يوما ألفي مليون متر مكعب في السنين التي يكون نيلها عاليا وألغا وخمسمائة مليون في السنين التي يكون نيلها منخفضا فيكون صرفها في كل يوم مائة مليون متر مكعب في الحالة الأولى ومائة وخمسين في الحالة الثانية ﴿﴾ قلت وكانوا قبل انشاء هذه القنطرة يردمون شاطئ النيل موضع القنطرة الآن ربما محسبا ويعطون سطحه بالأحجار الضخمة أيام الشتاء وينفقون على ذلك الكثير من المال فضلا عن تسخير العدد العديد من أهالي مديرية الجزيرة وأهالي مديرية بني سويف وبعض أهالي مديرية الفيوم فإذا جاء الصيف وبدأ النيل في الارتفاع أعادوا ردم ما يكون قد تشعث منه وبالغوا في حراسته وأكثروا من التطواف عليه في الليل والنهار وهكذا حتى تتم زيادة النيل وتمتلئ الخيضان القبلية فإذا جاء أوان صرفها إلى قشيشة قام بحراسة ذلك السيد مدير بني سويف ومدير الجزيرة وجماعة المهندسين والمأمورين والعدد العديد من أهالي البلاد القريبة والعمد والمشايع فيضربون خيامهم على طول الشاطئ ويقضون ليلهم ونهارهم متأهبين لكل طارئ حتى يأتي الأمر بكسر السد فيكسروه مع التحفظ والالتفات فتصرف منه مياه الخيضان كافة إلى النيل وهكذا في كل عام يصرفون على هذا السد الشيء الكثير من المال ثم هم يكسرونه ويلقون به في اليم حتى انشأوا تلك القنطرة فخلصوا من جميع تلك المخاوف * ولم يعص على ذلك أيام حتى شاع الخبر بعزم الكولونيل منكريف وكسل نظارة الاشغال والمأجور روس صاحب الايدي البيضاء في أعمال رى الاقليم القبلي على ترك منصبيهما والعودة إلى عاصمة الانجليز فأجمع الناس يومئذ على أن ذلك مترتب على ما هو واقع بينهما وبين السير بارنيج من البغض والشحناء قالوا لان الرجلين من أقيال القوم وأصحاب البيوتات العالية والمعارف السامية فلم يخفنا جناح الطاعة العمياء إلى ذلك الداهية ولم يطبقا الصبر على ذل النفس وكرهاها على ما لا ترضاه فبادرا إلى اعتزال المنصب وترك السير بارنيج وشأنه في هذه الارض أرض العجائب يولى فيها المناصب العالية والوظائف السامية لمن يشاء من صنائعه والمثقفين حوله من شبان الانجليز الاغرار حتى اذا قال لاحدهم قم قام أو افعل فعل بغير أخذ ولا رد * فلما كان أول ربيع الثاني من السنة وثالث نوفمبر اجتمع مجلس النظار بغير حضور الخديوى وقرر قبول استعفاء الرجلين وتعيين المستر جارستن لوكالة نظارة الاشغال والمستر فوستر لتفتيش رى الاقليم البحري والمستر براون لتفتيش رى الاقليم القبلي والمستر ويلكوكس لتفتيش الخزانات المزمع انشاؤها بأسوان عند قصر أنس الوجود والمستر الن يوسف لرى القسم الثالث واسماعيل بيك سرى لرى القسم الرابع - وأن يؤتى باثنين من الانجليز المقيمين بالهند ليتولى أحدهما رى القسم الأول وثنائهما رى القسم الثاني فتطير الناس من ذلك وقال جماعة منهم هي حلقة من سلسلة كثيرة الحلقات سيطوقون بها أعناق أهل البلاد ما دامت مصر مغنما والانجليز سداتها وقال آخرون ربما كان في تخلف

الخديوى عن الحضور بجلسة ذلك اليوم حكمة لا تلبث أن تظهر للعالمين يوم يعود الخديوى من مصيفه بالاسكندرية * فلما كان خامس الشهر أى شهر ربيع الثانى قام الخديوى من الاسكندرية على قطاره الخاص ومعه جماعة الوزراء ورجال ديوانه يريد القاهرة فكان لوداعه احتفال عظيم وكان فى انتظاره بمحطة القاهرة كافة الامراء من البيت العلوى والكبراء والعظماء والعلماء وأصحاب الوظائف العالية فلما وصل القطار أطلقت المدافع من قلعة الجبل وصدحت الموسيقى وهتف الجنود هتاف الترحيب فركب عربته وعلى يساره الرئيس مصطفى فهمى باشا وخلفه طائفة الحراس وجماعة الفرسان وسار الى مقره بسراى عابدين وكان قد تم بناء ما تهدم منها وكل زخرفها على أحسن ما يكون وفرشت بأحسن المفروش وأنفقوا على ذلك شياً كثيراً جداً وكان يعمل فيها من الصنائع والبنائين وأصحاب الصنائع الاخرى فى كل يوم ألفان وثمانمائة عامل مدة أربعة أشهر كاملة - وبالغ أهل القاهرة ومصر القديمة فى عمل الزينات والالعب النارية اجلالاً لمقدمه وغصت الشوارع كافة بالمتفرجين مشاة وركبانا وانتشر أصحاب الشرطة فى كل صوب ودرب فأقبل الخديوى عند الساعة الثامنة مساء فى عربته يطوف فى تلك الشوارع ويحيى الناس فانطلقت ألسنة العامة بالدعاء له وألسنة النساء منهم بالزغاريت وطافت كذلك خلفه والدة ولى العهد فى عربة وحولها جماعة الخصيان وأمامها طائفة من الفرسان ثم عادوا جميعاً الى سراى القبة وأصبحوا وقد وقف على بابہ الشعراء والقوالون وأنت الى ديوانه قصائد التهاني والمدح من كل صوب ومنها قصيدة طويلة لحسن بك حسنى الطويرانى يرحب فيها بالخديوى قال فى مطلعها

توسمت بدر الفوز من مطلع اليسر فنشرت آمالى بطالعة البشر

وفى مخلصها

ولولا الهوى لم أشك من غربة النوى ولولا سنا توفيق ما عدت للشعر
له موكبا بأس ولين كلاهما أقام المنى والأمن فى البر والبحر
أنام الورى فى أمنه وهو ساهر وآتعب منه النفس فى راحة القطر

وفى ختامها

وأرخ بافراح القدوم زها الهنا وقل عاد توفيق المليك الى مصر

وقال فى ذلك أيضاً محمود افندى حسنى أحد معاونى محافظة مصر

بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا وكوكب البشر فى أفق الهنا صعدا

وقال فى الختام وهو بيت التاريخ الهجرى

لسان اسعادها نادى يؤرخها بحسن عود الخديوى أنس مصر بدا

ثم شفّعها بتاريخ هجرى آخر قال فيه

بالصفوحاد الخديوى والانس بالبشر عرّف

ياقظر فاهنا وأرخ باليمن توفيق شرف

ومضت أيام الافراح والزينات والناس متشوقون الى معرفة ما سيفعله الخديوى بعد تسليم زمام الري الى جماعة الانجليز واطلاق أيديهم في شؤونه فلم تكن الا أيام قلائل حتى قرر مجلس الوزراء مراتب أولئك القوم فكانت ألفا وخمسمائة جنيه لكل منهم يتقاضاها من الخزينة في كل سنة وستمائة فقط الى اسمعيل سرى بيك فصادق الخديوى على ذلك ورسم به فاختلط حينئذ الحال على الناس وقالوا حكمة الله سبحانه في ذلك فوق كل حكمة * فلم يكن الا يوم أو بعض يوم حتى جاء الخبر من مدير البحيرة بأن قد حدث قطع عظيم بساحل رعة المحمودية عند جسر حجر النوتية وان الماء قد انحبس عن الاسكندرية وانها على ملاححة مريوط وأن سبب ذلك اهمال أصحاب الري ردم الجسور وتقوية منافذ الماء وجاء الخبر كذلك من محافظ الاسكندرية بانحسار الماء عن الآلات الرافعة لسقاية البلد وان الاهالى في قلق واضطراب لاسيما الاجانب منهم وقد تراجت العامة على صهاريج أصحاب البيوت القديمة بالبلد ليستقوا منها فاهتم أصحاب الحل والعقد لذلك اهتماما كبيرا وقام مدير البحيرة ومحافظ الاسكندرية وسعد الدين باشا رئيس مفتشى الداخلية والمستر فوستر أحد أولئك الانجليز الى مكان القطع وحشدوا الانفار وجعوا بعض الصناع واشتدوا في العمل وأكثروا من المعدات وظلوا على هذه الحال أياما وانحدر الماء من القطع على أشده حتى تمكنوا بعد العناية الكبير من سده ورجعت المياه الى مجاريها ولم يمض على هذا الحادث الا بضعة أيام حتى جاء الخبر من مدير أسيوط بأن قد جرت المياه الى حوض الزنار وغمرتها ثانية بعد انقضاء أوان صرف ذلك الحوض فأغرقت مزروعاته وأماتها جميعها وان قد قامت ضجة أصحاب تلك المزروعات ورفعوا الدعاوى أمام جهات الاختصاص على أصحاب الري ووردت شكاوى القوم على ديوان الخديوى تباعا وكلها مفعمة بقارص الكلام ومر الملام والتألم من فعال أصحاب الري الذين تسلموا زمامه في هذه الايام فأكبر الخديوى الامر وكلم الرئيس مصطفى باشا فهمى في ذلك فأوعز الرئيس الى مدير أسيوط بملاطفة أصحاب تلك المزارع وأن يخفف عنهم ما استطاع حتى يترقى في الامر * ثم كلم أصحاب الري في شكوى أهالى حوض الزنار وتوجع من فعال المكلفين بصرف مياه الاحواض فقام على الفور المساجور براون مفتش رى الاقليم القبلى الى أسيوط وغاب أياما ثم عاد ورفع الى نظارة الاشغال تقريراً قال فيه - ان الضرر الذى أصاب المزروعات بذلك الحوض ليس بالامر العظيم لان المزروعات تتراوح ما بين مائتين الى ثلثمائة فدان وان أصحاب الري لم يخطئوا في عملهم عند فتح الحيطان للصرف وان الاهالى كسروا سدا لم يشر أصحاب الري قط بكسره فكان فعلهم سببا لرجوع المياه الى الحوض يعنى حوض

الزناز وغرق تلك المزروعات * وعلم مدير أسيوط بما قاله المساجور براون فأنكر عليه مقالته وأثبت أن الضرر ألم بمزروعات زهاء ثلاثة آلاف فدان وقال ان الاهلى لم يكسروا شياً من السدود وان الخطأ كل الخطأ فيما فعله أصحاب الري * وعلت ضوضاء أصحاب حوض الزناز وأندر بعضهم نظارة الاشغال بطلب التعويض على يدى المحاكم المختلطة وقام أصحاب صحف الاخبار يقرعون جماعة الانجليز ويرجعون على أصحاب الري منهم باللائمة ويقولون انهم أغرار يجهلون طرق الري المصرى ولا يعرفون شيئاً من وسائل الحيلولة بين النافع منها والضرار وان اعطاءهم تلك الجماكى الفادحة ضرب من الجور ومحنة كبرى لا دواء لها وصاح لصيحتهم هذه أيضاً بعض أصحاب صحف الفرنسيين فأكبر الرئيس مصطفى فهمى باشا أمر ذلك وعقد جلسة مجلس النظار وتناجوا طويلاً وبعد أخذ ورد قرروا تشكيل لجنة من محمد سعد الدين باشا وعامر عبد البريك واسماعيل بيك لتحقيق تلك الشكاوى وتقدير ما أصاب أصحابها من الخسائر واقامة الدليل على ما اذا كان الخطأ الناجم عنه تلك الخسائر واقعا بفعل أصحاب الري أو الاهالى أو غيرهم فساروا الى أسيوط وقد أحس السير بارنج بما وراء ذلك فعمل على استرضاء الكولونيل مونكرىف والمساجور روس واستبقائهما فى منصبهما حولاً آخر وسعى فى ذلك ما استطاع حتى قبلا البقاء عاماً أو بعض عام فغيروا حينئذ من ذلك النظام وقللوا من أهمية وظائف جارستن وبراون وفوستر وغيرهم الى حين ثم خففوا من مطالب أصحاب حوض الزناز واسترضوهم بشئ من المال فسكتوا وانقطعت ضوضاؤهم فبات هذا الحادث بعيد ذلك فى خبر كان

(مطلب)
ما أبطل من المغارم
والمكوس

ورأى مندر وكيل المالية عند عمل ميزانية الخزينة لسنة احدى وتسعين وثمانمائة وألف ميلادية أن فى مجموع موارد ايراد الخزينة شيئاً كثيراً من المغارم والمكوس التى ما أنزل الله بها من سلطان وهى غل فى أعناق الفقراء من أهل البلاد فأخذ منذ ولايته يدبر الامر على ابطالها ويعمل على تغيير نظام بعض تلك الموارد وما زال دائماً على ذلك وبعض كبار الانجليز يمانعونه حتى تمكن فى أخريات ربيع الثانى من السنة وأخريات ستمبر من اعفاء بيوت القاهرة ومصر القديمة التى لا يتجاوز ايجارها فى السنة خمسمائة قرش من الاتاوة السنوية ومن ابطال رسوم القيدية على رخص تعاطى صناعة الطب والولادة والجراحة الصغرى ومهنة القوابل والمحلات لمعدة لبيع العقاقير والمواد الاقربادينية والجواهر السامة ورخص الصنائع وأنقصوا ثمن الملح كى لا يتعذر على الفقراء وأهل القرى استعماله بدلا من الملح البرانى الذى هو الملح الجبلى وأبطلوا دائرتى بلدية مصر والاسكندرية وخصصوا دخل دخولية الاسكندرية لمجلس بلديتها وأبطلوا كذلك السخرة والعونة وما يتبعها من البذل النقدي وتكفلت الخزينة بالنفقة على خفارة الجسور والاعمال المستعجلة التى تلزم عند حصول خطر من فيضان النيل ففرح الناس بذلك واستبشروا بانفراج الازمة بعد أن استحكمت حلقاتها

(مطلب)
ما وقع من التبديل
في قضاة المحاكم
الشرعية

والى هذا الحين أى الى شهر ربيع الثانى من السنة كان المستشار القضاى قد كاد
ينجز ما أراد من القلب والابدال فى هيئة القضاء والقضاة بالمحاكم الاهلية وأعضاء ورؤساء
النيابات كما تقدم القول فلما كانت أخريات الشهر عمد الى التغيير والتبديل فى قضاة المحاكم
الشرعية أيضا فمد يده الى محاكم الجيرة واسيوط وبني سويف والغربية والشرقية وسموه
وسواكن وتناول كذلك بعض وظائف الاقتضاء بالمديريات ثم انقلب على محكمة الاستئناف
الاهلية فتخلى عبد الحميد صادق باشا عن مركز رئاستها فتولاها ابراهيم فؤاد بيك رئيس محكمة
مصر الابتدائية واشتد المستشار فى عمله وأكبر فى القلوب هيئته وتمكن من منصبه أى تمكن
واستبد بالامر حتى بلغ الغيظ من حسين نقرى باشا معظمه واتفق أن أحسن الخديوى
على ابراهيم فؤاد بيك برتبة الباشوية عقب توليته رئاسة محكمة الاستئناف فقال الناس
انه سيخلف حسين نقرى باشا فى منصبه وشاع الخبر بذلك وأصبح عند نقلة الاخبار فى حكم
الشئ المقرر لان السواد الاعظم كان يتوقع ذلك من يوم دخول حسين نقرى باشا فى عداد
وزارة مصطفى فهمى باشا لبعض جماعة الانجليز له وكرههم لبقائه فى مسند الوزارة وسعيهم
وراء خذلانه * فلما كان صبح الثانى عشر من جمادى الاولى من السنة أى رابع عشر
ديسمبر ذهب السير بارنج الى مقر الخديوى بعابدين ولبث بحضرته ساعة ثم انصرف ثم عاد
ولبث برهة أخرى ثم انصرف فاستدعى الخديوى فى الحال جماعة النظار وعقد مجلسهم فتداولوا
معه فى كيفية افتتاح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد حسب العادة فى كل سنة ثم انفض
مجلسهم وذهب كل منهم الى ديوانه ولم يؤذن الظهر حتى جاء الطلب من الديوان الخديوى
الى حسين نقرى باشا فقام من فوره وتغل بين يدي الخديوى فقال له الخديوى ان الرئيس
مصطفى فهمى باشا قد شكك الى منذ أيام مما هو بينكما من الخلاف والتباين فى الرأى
ويقول انه يستحيل اتفاهه معك وقد آتاني اليوم وعرض على خصلة من ثنتين اما أن يخلع
نفسه ويترك منصب الرئاسة واما أن تخلع أنت من مسند الحقاينة فقال يا مولاي انى
لا أريد أن أكون حجر عثرة فى سبيل أعمال حكومة سيدى وها أنا قد خلعت نفسي وترك
منصبى فليقبل سيدى منى ذلك فقال الخديوى قد قبلته فانصرف حسين نقرى باشا من
حضرته الخديوى وأرسل فى طلب ماله فى الديوان من الاوراق الخصوصية فأتوه بها -
حدثني أحد المقربين من باب الخديوى قال - خرج حسين نقرى باشا فى ذلك اليوم
من حضرة الخديوى وهو يجز أذيال الغيظ وبعض اصبع الندم وكلنا يعلم أن ما بدا من
الرئيس مصطفى فهمى باشا من الشكوى وما قاله من استحالة الاتفاق مع نقرى باشا انما
هو مكروه عليه من أسكوت ومدفوع اليه من السير بارنج وأن خلع نقرى باشا وتخصيته عن
منصبه أمر متفق عليه من قبل وقد ضربوا له أجلا هو تغيب أسكوت بالاجازة فلما غاب
أسكوت وحان الاجل المضروب استقدمه الخديوى وقال له تلك المقالة التى لم تخف مغامرها
على أحد من العالمين - قال ولقد كان الاجدر بحسين نقرى باشا أن لا يبقى فى هذا المنصب

المخفوف بصوف المكاره الى أن يكرهوه على التخلي عنه فان ذلك يحط من الكرامة وتآباه الشهامة - قال - وبعد فقل لي بمحقق من ذا الذي يرجو السلامة لجماعة النظار من مثل هاته الضربة اذا لم ترض جماعة الانجليز طاعتهم أولم تعجبهم شمائلهم * ان الناس طرا يعلمون أن سياسة القوم في هذه الايام هي تزريق شمل أصحاب الوظائف من أهل البلاد كل ممزق حتى يتم لصاحبهم ما طفق ينادى به على رؤس الملا من أنه لا رجال في مصر يحسنون التصرف في مناصب البلاد اه

واتفق أن أحد بليغ بيك وكيل رئاسة محكمة الاستئناف العليا أدب في ليلة اليوم الثاني نخلع حسين فخري باشا مآدبة لابراهيم فؤاد باشا بمناسبة ارتقائه مسند الرئاسة للاستئناف ودعا في تلك الليلة جماعة القضاة وبعض رؤساء النيابة فأكلوا وشربوا وبينما هم حاصلون على أكل ما يكون من أسباب الأتس والصفاء اذ دخل عليهم كحيل باشا باشكاتب مجلس النظار وأبلغ ابراهيم فؤاد باشا خبر ما رسم به الخديوى من توليته مسند نظارة الحقانية بدلا من فخري باشا فشكر وانطلق لسانه بالدعاء فهنأه الحاضرون وأصبح فسار الى مقر الخديوى بعابدين فهنأه الخديوى بالمنصب فقبل يده وكان ذلك اليوم وهو خامس عشر جمادى الاولى وسابع عشر ديسمبر من السنة موعداً لفتح الجمعية العمومية لمجلس شورى البلاد فرسم الخديوى الى ابراهيم باشا بالذهاب الى قاعة الشورى مع جماعة الوزراء فقبل يده وانصرف * وركب الخديوى كذلك عربة التشریف وعلى يساره ثابت باشا كاتب الديوان الخديوى وأمامه وخلفه جماعة الحرس وطوائف الجند وسار الى قاعة الشورى فلقى فيه النظار وجماعة أعضاء شورى البلاد فدخل وجلس في إحدى غرف المكان فقدموا اليه عمد البلاد المنتدبين لعضوية الجمعية العمومية فخلعوا بين يديه بين الامانة اذ كانت هذه أول مرة لانعقاد الجمعية العمومية بعد الانتخابات الاخيرة ثم دخل الخديوى القاعة الكبرى وخلفه النظار فخطب على الاعضاء الخطبة المعتادة ثم قال ان العرض من اجتماعكم في هذه المرة هو النظر في مشروع تقليل فيات ضرائب الاطيان ولا يخفاكم أن هذا المشروع انما هو مقدمة لتخفيف الضرائب كافة وأملى أنكم تنظرون فيه بما يكون صالحا للبلاد وأهلها وأسأل الله أن يوفق الجميع الى ما فيه السداد والخير فعند ذلك صاح جماعة الاعضاء بالدعاء له فخرج ولبث أصحاب الشورى مع جماعة النظار يتكلمون فيما هم بصددده وفي ثاني يوم سادس عشر جمادى الاولى رسم الخديوى بتولية بليغ بيك رئاسة محكمة الاستئناف بدلا من ابراهيم فؤاد باشا وأحسن عليه برتبة الباشوية وعاد أسكوت من غيبته فرحا جذا لا بما ناله من الظفر والغلبة على حسين فخري باشا وقد خلا له الجو فجعل يصفر وينقر ما شاء أن ينقر ولم تكن الا أيام قلائل من عودته حتى رسم الخديوى أيضا بتولية اسمعيل صبرى بيك رئيس محكمة الاسكندرية وكالة محكمة الاستئناف العليا فلم يبق في نفس أسكوت بعد ذلك حاجة الا قضاها فأقصى عن سائر المحاكم صنائع مصطفى

رياض باشا وصهره محمود باشا وخلع من وظائفها جماعة من أهل الدعارة والنفاق وألبس
القضاة والنواب وأعضاء النيابة شارات مخصوصة عند جلوسهم للحكم بين المتقاضين وهي
زنا من الحرير في عرض قبضة اليد يجمع بين اللونين الأحمر والأخضر اللذين هما لونا
الراية المصرية العثمانية فكانوا إذا جلسوا في كراسي القضاء تقلدوها على صدورهم وألبس
كذلك جماعة المحامين كساء من الجوخ الأسود على شكل الفروجيات أو أقبعة العلماء
وأصحاب حلقات التدريس بالجامع الأزهر يلبسونها عند الوقوف في موقف المحاماة وقد
كانت هذه الشارات والاكسية من مبتكرات شفيق بيك منصور على عهد ولايته وكالة
النيابة العامة ولكنه رجه الله لم يقدر على اخراجها الى عالم الظهور لما نعت مصطفى رياض
باشا في ذلك أيام رئاسته فأهملت حتى جاء أسكوت فجعلها ركنا من أركان نظامه الجديد
في محاكم البلاد * وكلما بسط أسكوت يده على سائر المحاكم فغير وبدل وأدنى من قضاتها من
شاء وأقصى منهم من شاء وسن لهم السنن وقرن القوانين فعل كذلك كتشنر باشا في نظام
الشحنة ومن فيها من الجند ومقدمي الجند وقد بالغ في الخيطة وإحكام التدبير لعله يتمكن
من قطع دابر اللصوصية وارهاب أهل الشقاوة وتأمين السبل لابنائها فكان له في كل يوم
منذ تولاه شأن جديد وعزم لا يفله الحديد وكان لا ينكف عن التجوال بين الأقاليم
القبلية والبحرية ليتحقق من كفاءة خفر البلاد وعسائها وسير مشايخ القرى وعمدها وما
يحتاجه الأمن فيها من الوسائل والأسباب وقد غير وبدل كثيرا من ضباط الجند وسن لهم
السنن وقرن القوانين الصارمة وسن كذلك قانونا للعطلة من أهل البلاد والأجانب سكان
المدن والمشردين من الفئتين لا يقدر على العمل به إلا الجبار العنيد فلما أخذ أصحابه
في تنفيذه والعمل به استعصى عليهم الحال وأشكل المآل وخشن قناصل الدول للرئيس
مصطفى فهمي باشا بسببه المقال وطلوا على ذلك أياما حتى أوعز الرئيس بعد أخذ ورد
مع أعضاء شورى البلاد بأهماله والكف عن مشاغبه الناس الى حين * وذلك فعل المستر
منلر وكيل نظارة المالية فإنه لما ساء مافعله مصطفى رياض باشا أيام رئاسته من التشديد
على مأموري الحكومة بجمع الخراج في غير آجاله وبشه أصحاب الجباية في شرق البلاد
وغربها لتحصيل البقايا القديمة والمتأخرات العاطلة وكان ما كان بينه وبين مصطفى رياض
باشا من الوحشة والجفاء واستفحال العداء الى الحد الذي بيناه في محله عمد من ذلك الحين
الى البحث والتنقيب عن حالة موارد الخزينة وما وصلت اليه حالة أهل البلاد مع المرابين
وتجسار الارياق من جماعة الروم وغيرهم وفي أسباب استمدانهم وما عليهم من الديون
المتراكمة بعضها فوق بعض وفي كيفية حبس أرزاقهم وزروعاتهم وعقارهم تحت أيدي
أولئك القوم رهنا على تلك الديون كل ذلك ليبرهن الى صاحب سياستهم على أن فلاحى
البلاد في أشد ما يكون من حالات العسر والافلاس وعلى أن البلاد في أخرج المواقف
وأدناها من مهواة الدمار وعلى أن فعال رياض باشا يومئذ كانت ضربا من العسف بأهل

(مطلب)
ما فعله كتشنر باشا
من النظام

(مطلب)
ما فعله المستر منلر
وكيل المالية

البلاد وتغريرا بأصحاب الوظائف الديوانية من جماعة الانجليز فرفع الى صاحب سياستهم صحيفة مطولة في معنى ما ذكر وتناقل ما فيها أصحاب صحف أخبارهم الكبرى كالتميس والدالينيوز وغيرهما وتعقبوا عليها بشئ من قارص الكلام وقد أحصى مندر في صحيفته تلك حياه الله ما على أهل البلاد على اختلاف درجاتهم من الديون المسجلة بسجلات المحاكم المختلطة وحدها لاولئك القوم الى أخريات سنة تسعين وثمانمائة وألف ميلادية فبلغ عشرين ألف ألف وستا وثمانين ألفا ومائة واثنين وثمانين جنيتها مصريا وان ما حبس لوفائها من الاطيان بلغ ألف ألف وثلاثمائة ألف وأربعمائة فدان ومن العقار تسعة آلاف وخمسة وتسعين عقارا هذا عدا ما استدأوه في سنة احدى وتسعين الحالية وعدا ما هو مسجل بالمحاكم الشرعية وفضلا عن المبالغ المتعامل بها بين الاهالي والأفراد الأخر من الاجانب ونزلاء البلاد مما لا ينقص عن الخمسة آلاف ألف وخمسمائة ألف جنية وأطنب مندر في المقال وأكثر من البرهان على وجوب تعديل الخراج والتجديل بالتخفيف عن أهالي مديرتي الحدود واسوان وشاع خبر ذلك بين الناس ففرحوا ومدحوا مندر وقالوا « اذا تراحت الخيل فن سعد الركاب » وجعل مندر من هذا الحين يكثر التردد ما بين مجلس النظر ومجلس شورى البلاد حتى تم له ما أراد من التخفيف عن تينك المديرتين وتقررت قاعدة ذلك بينهم

(مطلب)

مرض الخديوى
توفيق باشا ووفاته

واتفق أن ذهب السير بارنج في سابع عشرى جمادى الاولى من السنة أى تاسع عشر ديسمبر الى سراى عابدين ليكلم الخديوى فيما وقع الاتفاق عليه مع مندر فعلم من رئيس التشريعات أن الخديوى بعد أن كان على عزم الانحذار من قصره يحلون الى عابدين على عادته في كل يوم وقد أخذ رجال ديوانه الالهبة لذلك جاءهم الخبر بعدم قدرته على الحضور وأنه يشكو منذ صباح اليوم ذات الصدر فعاد السير بارنج الى مقره ولبث يومه ينتظر الخبر فاذا بهم أرسلوا يقولون انه قد شعر في ذلك اليوم بقشعريرة آتعبته ولكن الاعراض ليست شديدة وليس فيها ما يدعو قط الى القلق * فلما كان اليوم الثانى أى ثامن عشرى جمادى الأولى سر السير بارنج وجماعة الوزراء وبعض الكبراء الى حلوان للسؤال عن صحته فعلموا في طريقهم بأنه انحدر من حلوان الى القاهرة فعادوا ودخلوا عليه بمقره بعابدين فشكا اليهم ما يلاقيه من أعراض النزلة وبات ليلته تلك بسرارى القبة ثم عاد في ناني يوم الى حلوان فلم بصاها حتى اشتدت به الاعراض فلزم مخدعه ولم يخرج منه واستدعى طبيبيه الخصوصيين وهما سالم باشا سالم وعيسى باشا جدى فأثبتا أنه مصاب بالنزلة الصدرية في درجتها البسيطة وبقي على هذه الحال الى صباح خامس جمادى الآخرة وكان ديوانه قد أعلن عزم الخديوى على أن يأدب في هذا اليوم أى خامس جمادى الآخرة مأدبة يحضرها ثلاثون مدعوا من الأمراء والعظماء ومقدمي العسكريين المصري والانجليزى وقد كانوا أخذوا الالهبة والاستعداد لذلك فلما اشتدت به

علته شاع الخبر بأن قد أبطلت تلك المأدبة وتأجلت الى يوم الثلاثاء حادى عشر جمادى الآخرة ثم جاء الخبر الى القاهرة بتقديمه الى العاقبة وزوال البأس عنه وتكلمت صحف الاخبار فى ذلك وهناك بعضهم بشئ من ملج القول فلما كانت عشية ذلك اليوم أحس الخديوى بألم شديد فى الصدر فاستدعى طبيبه عيسى باشا وشكا اليه ألمه فجلس الطبيب نبضه فاذا به على أشد ما يكون من السرعة وكذلك الحرارة على أشد ما يكون فسر عليه ليلته تلك وبعد نصف الليل بقليل ظهرت عليه اعراض أخرى خطيرة فاستدعوا الطبيب سالم باشا فحضر فى نحو الساعة الثالثة بعد نصف الليل فرأى أن الحالة قد بلغت أشدها وأن الخديوى على شفا جرف الموت فطيروا الخبر الى صاحب شركة سكة حديد حلوان باعداد قطار خاص يستحضر بعض الاطباء من القاهرة فلم تكن الا ساعة أو بعض ساعة حتى حضر الطبيب كائوس والطبيب هيس فلما عاينا حالة الخديوى قالوا انه فى النفس الأخير وأن لامفر من القدر المحتوم وكان الى هذه الساعة قد اشتدت به علة ذات الرئة فامتنعت بذلك كل وسيلة ولم يبق لهم قط حيلة

إن الطبيب له فى الداء مخبرة مادام فى أجل الانسان تأخير

أما العليل فان حانت منيته تاه الطبيب وخائته العقاقير

وقضى الاطباء الليل كله فلم تنجح لهم طريقة وبقي الحال هكذا الى الساعة الثالثة من مساء الخميس سابع الشهر فكبر الخطر وشاع الخبر وطلب الاطباء جماعة آخرين ليشاوروهم فى الامر حضر الطبيب أمبرون والطبيب بنيت والطبيب ويلد فلما شاهدوا الحالة قالوا لم يبق أمل فى النجاة فقد استعصى الداء ولا ينفع الدواء وكان لما وصل الخبر الى القاهرة بطلب هؤلاء الاطباء تسارع كبار قناصل الدول والامراء من البيت العلوى والكبراء وعظماء القوم الى حلوان * ومنذ الساعة السادسة غاب العليل عن الصواب ولم يعد يعي وسأله الطبيب كائوس عما يؤله فلم يجبه بشئ سوى هذه الكلمات « هاتوا لنا الضوء » فتحقق جماعة الاطباء أنه قد دخل فى غمرات النزاع الأخير واستمر النزاع الى الساعة السابعة وفيها أسلم الروح فقام الصباح من كل صوب وعلت أصوات الجوارى والخدم والحشم والأتباع بالصياح والعيول فهب الناس من نومهم وتسارعوا الى رحبة القصر وكلهم بالمنتخب ووصل الخبر الى القاهرة اذ طاف جماعة الخدم والخصيان على بيوت الامراء يخبرونهم بالحادث وانتشر نعيه وشاع فى كل صوب ودرب فهرع الناس على اختلاف طبقاتهم الى حلوان وعقد النظار جلسة مجلسهم فى صباح الجمعة بحلوان فجلس بينهم السير بارفنج قنصل جنرال الانجليز وتناجوا فى ذلك طويلا وقد شاع أنهم لم يقرروا على تبليغ الخبر من طريقه الرسمى الى دار السلطنة العثمانية ولكن الخبر وصل الى المايين والباب العالى من مصادر أخرى كثيرة ثم انعقد المجلس مرة ثانية بسرأى عابدين فجلس معهم غرانفل باشا سردار الجيش المصرى وكنتشر باشا صاحب الشرطة فقرروا فيما بينهم كيفية سير الجنازة

والايمان بجثة الفقيد من حلوان ثم قرروا أيضا تبليغ الخبر الى الباب العالي قيل وقد كان تأخرهم عن ذلك مترتبا على انتظار مجيء الأذن من صاحب السياسة الانجليزية ونشروا في ضخوة اليوم بالجريدة الرسمية النشرة الآتية * الجناب الخديوى محمد توفيق باشا توفى الى رحمة الله تعالى في ليلة الجمعة ثامن يناير سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وألف في الساعة السابعة وسبع عشرة دقيقة افرنكي ليلا بسرارى حلوان * وقد أعلن بذلك سمو البرنس عباس باشا حلى تلغرافيا (بويانا) وينتظر قدومه لمصر بواور مخصوص وسيدبر أعمال الحكومة الى حين حضور سموه مجلس النظر تحت رئاسة سعادة مصطفى فهمى باشا الاحتفال بجنازة جثمان الخديوى سيكون في الساعة الثانية على الحساب الافرنكي بعد الظهر من هذا اليوم يعنى الجمعة ثامن شهر يناير والجنازة ستشيع من سرارى عابدين وايدانا بالحزن ستقفل كافة دواوين الحكومة والمصالح العمومية بوى السبت والأحد تسعة وعشرة يناير

وانتشر الخبر وذاع ونقله البرق الى الاسكندرية وسائر المدن والبلدان في داخلية القطر ودار السلطنة العثمانية والممالك الاورباوية في تلك الليلة فأصبحوا يوم الجمعة وقد رفعت الاعلام مجللة بالسواد وألبسوا مصابيح الغاز بالشوارع لفائف سوداء وأثاروها في النهار وأقفلت سائر دواوين الحكومة والبنوك والمخازن والدكاكين والمدارس والمسكاتب ورفع قناصل الدول اعلامهم منكسة وجاء الى القاهرة كثير من وجهاء البلاد والعمد والاعيان وفي الساعة الاولى من بعد ظهر اليوم حملوا نعش الفقيد من قصر حلوان في قطار مخصوص فسار به الى القاهرة وكان قد ركب في القطار الأمير حسين أخو الخديوى ورجال الديوان الخاص وكثير من كبار الاهلين والاجانب ممن جاؤا حلوان فلما وصل القطار الى محطة باب اللوق استقبل النعش الغازى مختار باشا مندوب دار السلطنة « وقد كان مقما في بلدة مغاغة في الاقاليم الوسطى تبديلا للهواء فوصله الخبر ليلا فأنحدر الى القاهرة مسرعا » واستقبل النعش مع الغازى مختار باشا جماعة الوزراء ورجال الديوان الخاص والعدد العديد من الوجهاء والعظماء وأجلة القوم فحمل النعش جنود الحرس وسار المشهد الى سرارى عابدين بين الزحام وولولة النساء من الشبايك وأسطةح الدور فلما وصلوا الى السراى قابلهم العلماء والرؤساء الروحانيون وقناصل الدول وأعضاء صندوق الدين ورؤساء المصالح الأميرية وكبار الجند وأصحاب البنوك والتجار وأرباب الاشارات وأصحاب الطرق وعدد لا يحصى ولا يحصر من الاهالى والقادمين من الاقاليم القبلية والبحرية ثم ساروا بالمشهد فشت أمامه جمال الكفارة ثم طائفة من الجند الهجانة ثم جماعة من الفوارس المصرية وأمامهم رجال الموسيقى ساكتة زرق الملابس والجند منكسو السلاح ثم جماعة من أصحاب المدافع ومعهم بعض المدافع الكبار ثم مقدمو العساكر المصرية مشاة وركبانا ثم جملة المصاحف والذاكرون ثم مشايخ الطرق والسجاجيد وأرباب الاشارات وبأيديهم البيارق

ثم تلاة البردة ودلائل الخيرات ثم تلاة الاحزاب والاوراد ثم نقباء الاشراف والاشراف ثم مشايخ التكايا ودراويشهم ثم طوائف طلبة العلم بالجامع الازهر ثم تلامذة المكاتب الاهلية والمدارس الأميرية وطلبة مدرسة دار العلوم والمدارس العالية الخصوصية ثم تلامذة المدارس التجهيزية والابتدائية ثم التجار والامراء والكبراء من الاهلين والاجانب ثم موظفو النظارات والمصالح في العاصمة وغيرها من مدن القطر ثم رجال المحاكم المختلطة والاهلية والافوكاتية والمحامون ومديرو صندوق الدين والسكان الحديدية والدائرة اسنية والدومين ثم الرؤساء الروحيون وخدمة الدين ثم كبار قناصل الدول ثم النظار ثم الامراء من البيت العلوي والغازي مختار باشا ورجاله ثم العلماء ثم حملة القماقم والمباخر ثم أولاد الكتائب يحملون المصاحف ثم النعش وحوله جماعة من العسكر وطائفة من أصحاب الشرطة وخلفه جماعة أخرى من الجند المصري ثم فريق من فرسان الشرطة وعلى النعش سيف الفقيد وبعض ما عنده من النياشين

ونخرج المشهد من سراي عابدين الى شارع عبيد العزيز الى العتبة الخضراء الى الموسيقى الى السكة الجديدة ومنها الى المشهد الحسيني فوضعوا هناك النعش وصلوا عليه ثم جلوه الى القرافة فوصلوها قبيل الغروب فدفنوه وفرقوا ساعة دفنه الصدقات وعاد الجمع الى رحبة عابدين حيث نصبت السراقات وأوقدت المصابيح فجلسوا للعرزاء كما جلسوا للعرزاء أيضا بسراي القبة وقصر حلوان فلم تكن الا ساعة بعد جلوسهم حتى ورد الخبر من الأمير عباس الى الرئيس مصطفى فهمي باشا يقول - ان خبر وفاة سيدى ووالدى قد أدهشنى وهذا مصاب عظيم ليس بالنسبة لعائلى وحدها بل بالنسبة لجميع القطر المصري أيضا ففى وصلتى منكم الاخبار الاكيدة عن الوبور الذى سيصير تحضره فى تريبته أسافر بلا تأخير وأخبركم بالتغراف عن ساعة السفر وانى على يقين من أن الاعمال ستستمر سائرة الى حين وصولى على أحسن محور بهمة عطوفتكم ورفقائكم اه

وجلسوا للعرزاء ثلاث ليال متواليات ثم جعلوا يجلسون فى مساء كل يوم نجيس الى تمام أربعين يوما - وفى ضحوة تاسع جمادى الآخرة ورد على السير بارنج اشارة من ملكة الانجليز وامبراطورة الهند بطلب موافقتها بتفصيل مرض الخديوى توفيق باشا وأسباب الوفاة قبل فارسى السير بارنج خبرا مفصلا للحادث وجاءت بعد ظهر اليوم الى الغازى مختار باشا والرئيس مصطفى فهمي باشا ارادة سلطانية مؤداها - انه لما وصل الخبر بوفاة المغفور له محمد توفيق باشا اجتمع الوكلاء فى الحال وقرروا أن يسند مسند الخديوية المصرية الى الأمير عباس ووكالة أشغال الحكومة الى الرئيس مصطفى فهمي باشا وبقيّة النظار الى حين حضور الخديوى عباس وانه برفع هذا القرار الى أعتاب المتبوع الاعظم صدرت الارادة الشاهانية بالموافقة عليه - ففعلوا فى الحال مجلس النظار وقرروا تبليغ هذه الارادة السلطانية الى سائر قناصل الدول وان يوالوا الاجتماع فى كل يوم صباحا حتى يصل الخديوى الجديد

واختلفت الأقوال في مرض الفقيد وفي كيفية العلاج وأسباب الوفاة وما فعله الطبيب عيسى باشا وقد أجمع جماعة الأطباء الذين شاهدوا الفقيد قبل موته بقليل أن عدم العناية بالعلاج وإهمال مراقبة سير المرض كانا سببا في تسمم دم المريض واختلاط علته الأصلية التي هي النزلة الصدرية بعزل أخرى أودت بحياته رحمه الله فطلب بعض الأمراء من البيت العلوي وقيل السير بارش تحقيق أسباب الوفاة ومقاضاة الطبيب فسأل الرئيس مصطفى فهمي باشا الطبيب هيس والطبيب كمنوس أن يبديا رأيهما في ذلك وكلم والده ولي العهد في هذا الأمر فلم توافق على مقاضاة الطبيب ورفع الطبيب هيس والطبيب كمنوس تقريرا قالاه - في الساعة الرابعة الا فرنجية من صباح الخميس سابع يناير الجاري دعينا للتوجه الى حلوان على قطار مخصوص لاجل عيادة الجناب العالي فوصلناها منتصف الساعة السادسة الا فرنجية من الصباح واستقبلنا هناك سالم باشا الطبيب الخصوصي بالحضرة الخديوية فأعلمنا بالاجاز أن الجناب العالي أصيب منذ ثمانية أيام بالنزلة الوافدة وكان سير المرض الى البارحة عاديا وان الحى لم تشتد وطأتها الا في الليلة الماضية وأن الجناب العالي كان يعاني الارق وضيقا في التنفس وبعض الالم في الجانب الايسر وأنه لاجل تخفيف الالم أعطيت له حقنة من المورفين ولما دخلنا بعد هذا التعريف الى غرفة المريض اندهلنا اذ رأيناه في حالة موجبة للقلق الشديد وكان منظره على العموم متغيرا ولونه أصفر وبصره شاحسا وكان متكئا على أذرعة جاريتين وظاهرا عليه شدة ضيق التنفس ولم يكن يميز من حوله وكان يشكو على الخصوص عدم ابصاره للضياء وبالفحص وجدنا أن الحى بلغت درجة أربعين وان ضربات النبض سريعة وضعيفة جدا ويمكن ايقافها بسهولة ثم فحصنا الجسد فوجدنا ارتشاحا شعبيا رئويا زائدا في الرئة اليسرى ونزلة شعبية عامة في الرئة اليمنى ومع كون حالة الرئتين هي بهذه الشدة فانها ليست كافية لاحداث الاعراض الخفية التي كانت ظاهرة ولذلك وجهنا نظرنا الى فحص الوظائف الاخرى وخصوصا الكليتين وباستيضاحنا من اطباء المعالجين عن حالة البول كان الجواب أن لا شئ فيه خارجا عن الحالة المعتادة وعند ما أتممنا الفحص أمرنا بعلاج موافق لما ظهر لنا من التشخيص وشددنا في التنبيه على اتباعه ثم رجعنا الى مصر لاختذ الاحتياطات اللازمة لمرضاة والعودة الى جنابه العالي فلما رجعنا الى حلوان في الساعة الواحدة الا فرنجية بعد الظهر حصل لنا مزيد الكدر لما رأينا حالته قد أخذت في الخطر الشديد بكيفية ظاهرة وان الاعراض التي في جهة الصدر قد اشتدت وفوق ذلك ان الاعراض الخفية قد وصلت الى درجة ينقطع معها الامل ودلنا ذلك دلالة واضحة على تسمم ادم بالبول فألحنا في طلب البول فعلمنا حينئذ ان جنابه الفخيم لم يبسل منذ الليلة الماضية فأدخلنا المحس وتحصلنا بواسطة القسطرة على كمية صغيرة من بول أسود قائم فحللناه تحليلا كيمياويا اتضح منه وجود كمية عظيمة من الزلال في البول فقادنا ذلك الى أن نعرف بلا ريب طبيعة الداء وهو ان الجناب العالي بعد اصابته بالنزلة

الوافدة أصيب بالتهاب رئوى عفن معكوب بالتهاب ويريدى عفن أيضا وأنه في هذه الحالة لم يبق لنا أمل ولكن لم ينعنا ذلك من اتخاذ كافة التدابير والوسائط الفعالة حسب ما يقتضيه فن الطب وان لم تجدد نفعنا وعز يد الاسف علما انه لا بد من الوفاة التي حصلت في الساعة السابعة وربع مساء اه فتحقق الناس طرا أن الوفاة كانت بسبب اهمال الطبيبين وخصوصا الخطأ كل الخطا بالطبيب عيسى باشا لاختفائه خبر احتباس البول عن الطبيب سالم باشا بسبب مرض المشاة المزمن وتحدثوا في ذلك كثيرا فكان سمرليلهم وحديث نهارهم وأرجف بعضهم بأن سيقبض على الطبيب عيسى ويودع في ظلمات الحبوس حتى تتم مقاضاته ثم شاع بعد أيام ان والدته ولى العهد لم تسمع بذلك وأنها اشارت على الرئيس مصطفى فهمي باشا بالكف عن متابعة هذا الحادث فانكشف اذ لم يبق الا التفويض لله الواحد القهار الذى لا يزول ولا يحول وهو وارث الارض ومن عليها واليه المآب

قلت * وهو محمد بن اسمعيل بن ابراهيم بن محمد على باشا الكبير ولد في يوم الخميس عاشر رجب سنة تسع وستين ومائتين وألف هجرية ولما شب أدخل مدرسة المنيل فتعلم فيها العلوم الاولى ثم انتقل الى التجهيزية فتلقي بها علومها واللغات العربية والافرنسية والانجليزية والتركية والفارسية ولما بلغ التاسعة عشرة تولى رئاسة جلسات المجلس المخصوص في سنة ثمان وثمانين ثم تولى نظارتي الداخلية والاشغال العمومية ثم قلد رئاسة مجلس النظار قبل توليته الخديوية بقليل وفي سنة تسعين ومائتين تزوج بابنة الأمير الهامى بن عباس باشا الاول والى مصر وفي سنة احدى وتسعين ولد له بكره الاول الأمير عباس وفي سنة ثلاث وتسعين ولد له ابنه الثانى الأمير محمد على وفي سنة أربع وتسعين ولدت له الأميرة خديجة هانم وفي سنة ثمان وتسعين ولدت شقيقتها الأميرة نعمت هانم وتولى الخديوية المصرية في يوم الخميس سابع رجب الفرد سنة ست وتسعين ومائتين وألف هجرية أى سابع عشرى يونيه سنة تسع وسبعين وثمانمائة وألف ميلادية وكان عمره يومئذ سبعا وعشرين سنة هجرية الا ثلاثة أيام وأقام في هذا المنصب ثلاث عشرة سنة الا شهرا ومات في ليلة الجمعة لسبع مضين من جمادى الثانية سنة تسع وثلثمائة وألف فكانت حياته كلها أربعين سنة هجرية الا ثلاثة وثلاثين يوما - وكان رحمه الله شفوفا على رعيته يوالىهم في شوائبهم ويعفو عنهم كثير التسال عن حالهم وما هم عليه في إبان الشدة والرخاء وكان بارا بذوى قرابته مع رافة وحنان وشفقة وعطف وأمانة ومروعة وعدل واستقامة وحلم وتواضع وخشية وتقوى وجلال وانفاق في الخير وتصديق في السر والعلن ولكنه قليل الحظ غير موفق الطالع فكانت ولايته كلها مشاكسة ومعاكسة ومحاسدة ومنافسة ان سرت يوما أخزنت أياما وان صفت عاما كدرت أعواما وهو مع ذلك طويل الروح كثير الجلد والصبر شديد التوكل حسن الاعتقاد في وحدانية الله تعالى وقدرته فلم يكن يظهر ملالا ولا خجرا ولا قنوطا بل كان دائما هادئ القلب ساكن القلب حتى وافاه القدر المقدر وقد رثاه الشعراء وأبناه

الفصحاء وبكاه أصحاب الصحف على اختلاف مذاهبهم فمن قال في ذلك صاحب المؤيد
 هي الدار ما الآمال الالفجائع عليها وما الالذات الالمصائب
 فكم سخنت بالأمس عين قريرة وقرت عيون دمعها الآن ساكب
 يا لله أى خطب نزل وأى مصاب حل وأى صاعقة صعقت القلوب وأى حادثة
 شقت لها الجيوب بل ما شأننا وقارعة الخطوب قد اندكت لها جوانب الجنان وفاجعة
 القلوب قد تولت على خاطر كل انسان وخارت القوى وحارت النهى ووهى العزم وخان الجلد
 فانا لله وانا اليه راجعون نعم آمنا بقول القائل

ألا كل شئ ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وأى نعيم بعد نزول هذا الخطب المدلهم الذى قضى على كل جراحة بالشكل فلا عجب
 ان ناحت الثاكلات وأودحت الى المحاجر كيف تجود بالعبوات فانا لله وانا اليه راجعون
 يا لله بما ذا نسمى الداهية الدهيئة والمصيبة العظمى التى فاجأتنا بها حواث الايام
 فقضت بالبأس على الأنام وعلى العبرات بالانسكاب وعلى المهج بالأتين وعلى الأحداق
 بالرين كما قيل فى المثل استراحة المنكوب ولكن أين الاستراحة وقد اغتالتها أيدي الحادثات
 فلتذرف الماء فى بلاء راحة ذائب الجوائح

فلقد أنى لك أن تودع خلة رثت وكان حبالها أرماما

كذلك تكون فى آمالك يا طالب الراحة فى هذه الحياة الدنيا وموضوع سعادتها قد تولى
 وهل تستطيع الناديات الى العلا تقول يغدى الملك بعد الذى حلا
 وفى نعيمها نعى الملول بأسرهم ودون الذى تنعيه كم حادث جلا
 فيامصيبة الملك والدين والدنيا بعد أن قضى توفيق أمير البلاد المحبوب نجبه وعاجلته
 المنون فانا لله وانا اليه راجعون
 وقال صاحب الاهرام

كذا فليجل الخطب وليغدح الامر فليس لعين لم يفض مأوها عذر

طلع على مصر صباح اليوم بما أظلم ضحاها وود الناس معه لو طال ليلها وامتد دحاها
 ينعى الى رجالها خطب فقيد تقومت لمنعاه الاضالع وفقد عظيم ارتجت لوقعه القلوب
 واستكتت لمنعاه لمسامع فقامت تندب بفقد اميرها الكريم على توفيقها المحبوب وتبكي
 على عزيزها العظيم بما استنزف شؤون المدامع واستدرج حبات القلوب وكيف لا يبكي
 الوطن على من كان له أبا شفوفا بل كيف لا تسفح عين العدالة والمكارم على من كان لها
 خدنا ورفيقا بل كيف لا يندب وطن ساوى بعدله بين جميع سكانه حتى ذهب كرميا مندوبا
 ينشده الحال بلسانه

فكنت لنا شيمهم أبا ولكهلمهم أبا ولذى التقويس والكبرة ابنما
 فلتبك عليك البلاد يا توفيقها عدد انعامك وعدلك وتنتحب عليك قلوب أبنائها بمقدار

ما خزنتم فيها من حبك وفضلك فانها لو بكتك بما لك في نفوسها من الفضل والمكارم
اذن ما رأينا مقلة الا وهى دامة ولا مدمعا الا وهو ساجم فعليك راحة ربك من ذاهب
ذهبت الا كباد على آثاره وفقيد فقصدنا الصبر من بعده فخل محله شديد تذكاره وكرم
تولت المكرمات لما مات وواعظ مرشد هدى الناس في الحياة حتى هدهم في الممات
فأى آثار فضلك لا يندبون بعدك وأنت لم يطلبوا منك محمدا وعدلا الا وجدوهما عندك
بل أى فضائلك ينساها الناس وقد كنت لهم أبا رجيا كما أنت أبو العباس أحسن فضلك
أم ما ترعدك أم فيض مراحلك أم غزارة مكارمك أم حسن أخلاقك أم كرم اعراقك
أى الفضائل منك نذب فقدها يا ابن المكارم يا أبا العباس
فلقد حوت من المحاسن مثل ما جمعت جميع الناس لفظه ناس

فقل لمصر الآن أن ترثيك بعد مدائحها ولشعرائها أن تجود في تأبينك ان كنت
أبقيت لغير الحزن مجالا في قرائحها وللأقلام أن تبكيك بدمع محاربا وللكتاب أن تنفج
عليك بما يسود وجوه دقاتها فلقد طالما بيضتها بمحاسن أعمالك ومعاليك فصار يحق لها
أن تلبس أثواب الحداد من خط مرثيتك فانك الراحل الذى لم يجعل مطايا غير القلوب
والمودع الذى لم يترك للناس زادا غير أكباد ملتهبة ودمع مصبوب فنحن نودعك بما أبقي
فقدك في نفوسنا ان كان فيها بقية ولا نزال نذكر رزيتنا فيك مع أمثالها ان كان يوجد
مثلها رزية رجل الله راحة واسعة عداد حسناتك وأجل أجرك وأجر البلاد فيك بعدد
مبراتك وخيراتك فأنت الكريم فى حالى فقدك ووجودك ويومى حياتك ومماتك

ثم نتقدم بعدك بالعزاء الى صاحبة الطهر والعفاف والخلين الكريمين اللذين يعز علينا
أن نعزيهما بك بعد أن كنا نهنتك بيديهما الكاملين ولكن مثل بيتك الكريم من
حمل المصائب ومثل آلك المصون من عودته على التقاء الخطوب واستقبال النوائب فانا
عهدنا الصبر على قدر قلب التاكل كما عهدنا الاجر فيه على قدر الفقيد الراحل فأيهما
اعتبرنا فهم أصحاب الصبر الكريم والى أيهما ذهبنا فأنت الفقيد الراحل العظيم نسأل الله
أن يعوضهم وايانا جميل الصبر وأن يكتب لك بما تقدم من عدلك مزيد الاجر فانك لم تحل
قلبا من المسرة فى حياتك ولم تحزن نفسا قط الا فى مماتك

ومن يحزن الناس فقدانه يسر ملائكة دار النعيم

هذا ما سمعت به بادرة الحزن وأجازه على القلم وقع المصاب وهول الفجاءة ووسعه مقام
الجريدة وضيق الوقت والصدر منهما أضيق والقلب أصغر وأخرج ولا حول ولا قوة الا
بالله العلى العظيم

يادهر بيع رتب المعالي بعده بيع السماح ربحته أم لم ترح
قدم وأحر من نساء فاته مات الذى قد كنت منه تستحي

وقال صاحب النيل

قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير انك على كل شيء قدير

سمو ولي نعمتنا البر الرحيم بنا المشفق علينا خديونا المعظم بالامس محمد توفيق الاول وهو اليوم الخديوى المرحوم هو اليوم الفقيد العزيز هو اليوم ساكن الجنان في جوار رضوان عليه الرحمة والرضوان ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

قد مات توفيقنا واندأتم الله فلهرق الدمع ولتستبجع الآم

مات الخديوى الرحيم البر فطرته قديسة ملكيات سبحانه

قضى فياحسرة الملك العظيم له ومات فلتندب العلياء عليه

فارت بطلعته الاخرى وبأسفا أضحت تعزى به من بعد دنياه

إي وربك ان خديونا العزيز أمير مصر المحبوب توفيق الاول قد فارق الدنيا مأسوفا عليه بقلوب الامة مبكى الشمايل بدموع الوطن انتقل الى جوار مولاه طيب ثراه وأكرم في الفردوس مثواه فترك القلوب تسامى الجيوب في الانشقاق وودع العيون المندفقة تجارى المهج المحترقة فالتقى النهران دم براق ودمع مهراق وحق لهول هذا اليوم وناهيك به يوم الفراق

بكينا خديونا العزيز وانما بكى كل مصرى أميراً ووالدا

ولو أن في الاقدار ما يبلغ المنى تمنى بنوها أن يكونوا له الغدا

يعز على الاقلام التي كانت تسند الخير من آثار حكمته أن تبلى بصب دموع المداد يوم رحلته رحيل مدهش وسفر بعيد وأوب غير منتظر الى يوم موعود رسم وداع لكن الى الابد موكب حافل لكنه مأتم سيار وحزن قهار وقلوب في نار وعقول في انهار ودهشة محرقة وموقف عظيم « الوداع الوداع » أيها المولى المنعم البر بالامة الرحيم بالمة المشفق بالكل الذي لا نشكومنه الا يوم هذا الفراق الأليم فالوداع الوداع يا من سهر ليليه لتنام الرعية في مهد أمانه وأجهد أيامه ليرغد عيش الامة تحت ظلال فضله واحسانه لقد قضيت عمرك العزيز وحياتك الشريفة وأوقاتك الناضرة وشبيبته الوضاء في توخي الصوالح الوطنية والمصالح الجدية والمنافع العمومية لم تلهك الدنيا بزهرتها ولم تلفتك جلالة الملك عن التماس رضا الخالق بالاحسان الى الخلائق فلم يسؤهم منك الا خزنهم عليك وبعذك عنهم وهم في حاجة اليك « الوداع الوداع » يا من لم نرم من حكمه غير الحكمة ولا من سيرته غير الرحمة فكنت القريب من الضعيف الرفيق بالبائس العاني عن المسىء المتفضل على المحسن المعزز لأبناء الوطن المحب لخير البلاد المعين على السراء والضراء فلنعم سيرتك الجميلة وسريرتك الطاهرة وأخلاقك الكريمة ونفسك الراضية ووجهتك المرضية

شيم ينقضى الزمان وتبقى وتناء تبلى الليالى ويتلى

ومحاسن كلما ذكرناها بكينها وفواضل كلما تأثرناها تأثرنا بها فطيك الرحمة والرضوان
وغاية الحديث فى عالم الامم كان وسجان من يبق وكل شئ فان نودعك يا خديونيا
العزير بقلوب واجفة وعيون واكفسة وأفكار مضطربة مضطربة وأذهان مستوحشة
مندهشة ونسأل الله العظيم أن يجعل لك الفردوس مقرا والنعيم المقيم مقاما والرضا
الالهى قرينا انه هو الرؤوف الرحيم الى آخر ما قال

وقال صاحب الفلاح

انا لله وانا اليه راجعون من مصاب ألم وخطب أعم داهمنا مساء هذا اليوم والجريدة
تحت الطبع فقصف منا الضلوع وأهوى منا الدموع وأجد الدم فى العروق وابتلانا
بالصدوع وأجج فينا نار حزن لا يطفئها ماء جفن ماطر وأنزل فى صدر كل سامع رزا للقلوب
فاطر لا ينشرح معه خاطر وذلك بينما كانت الآمال مستبشرة بزوال ما مازج ولى النعم
من الاعتلال والاخبار تغد اليها مبشرة بتقدم صحة سموه فى خطة الاعتدال الى الكمال
اذ فجعتنا أخبار عصر هذا اليوم بأن صحة سموه عن الاعتدال تحولت واضطربت وتغيرت
فاستدعى كبار الأطباء للاسراع الى حلوان ليتبصروا فى هذا الشأن فذاذع هذا الخبر
وكلح البصر انتشر إلا وكنت ترى القلوب راجفة والخواطر واجفة والكل فى اندهاش
وتلهف الى أخبار ردد الى الارواح الانتعاش - الى أن قال ولكن أبى الدهر الخؤون الا أن
ينفذ مطالب المنون ويحرق القلوب ويدهى العيون فانه لم تأت الساعة السابعة وسبع عشرة
دقيقة مساء الخميس إلا ونعب غراب الكهرباء بنعاه فكان أشأم على النفوس من البسوس
اذ نعى من قضى وهو حى بذكره ومضى وأثره مخلد فى قطره ولى نعمتنا « محمد توفيق »
الأول خديوى مصر الذى لم يماتله مماثل فى هذا العصر فياله من خبر تهون دونه
الخطوب فانه قمت الاكباد وأذاب القلوب - الى أن قال ونعق يوم التلغرافات الى كل
الجهات للقيام بمراسيم التعزية والتأسف ولسان الحال يقول هذا المقال

أصوت صاعقة أم نفخة الصور فالارض قد ملئت من نقر ناقور
أصاب منها الورى دهاء داهية وذاق منها البرايا صعقة الطور
نصدعت قلل الاطواد وارتعدت كأنها قلب مرعوب ومذعور
أبى بوجهه نهار لاضياء له كأنه غارة شفت بديجور
أم ذاك نعى لتوفيق الزمان قضا وأمره فى كل مأثور
معلى معالم دين الله مظهرها فى العالمين بسعى منه مشكور
وحسن رأى الى الخيرات منصرف وصدق عزم على اللطاف مقصور
بأية العدل والاحسان ممثلا بغاية القسط والانصاف موفور

مجاهد في سبيل الله مجتهد مؤيد من جناب الله منصور
 راية رفعت للجند خافضة تجري على علم بالنصر منشور
 يا نفس مالك في الدنيا مخلقة من بعد رحلته عن هذه الدور
 وكيف تمسين فوق الأرض غافلة أليس جثمانه فيها بمقبور
 حق على كل نفس أن تموت أسي لكن ذلك أمر غير مقدور
 يا نفس فاثمدى لا تهلكي أسفا فأنت منظومة في سلك معذور
 أذ لست مأمورة بالمستحيل ولا بما سوى بذل مجهود وميسور
 سبحان من ملك جلت مفاخره عن اليسان بمنظوم ومنثور
 لا زال أحكامه بالعدل جارية بين البرية حتى نفخة الصور

فيالها من ليلة لبلاء قضنها مصر بين التلهف والتحسر والبكاء
 ما تشاء عن حلوان التي جللها الحزن والهوان مع وفرة الناس للقيام بمراسم احترام ساكن
 الجنان فأعظم به من مؤلم مالم وخطب عظيم مدلهم شقت له الجيوب بل تمزقت له القلوب
 قد محاسن الصبر من الصدر وظهر به ما في اللوح مكتوب واقشعر له الوجود اذ قيل
 مات توفيق مصر والجود

فانفض يديك من الدنيا وساكنها فالارض قد أفقرت والناس قد ماتوا
 فأكرم به ميتا كثر احسانه وقد أعناق الجود امتنانه الخ

وأرسل تيكران باشا متولى نظارة الخارجية في ثامن جمادى الآخرة وتاسع يناير الى
 جميع قناصل الدول يقول - انه ليحزني أن أنبشكم بوفاة مولاي الفخيم الجناب الخديوي
 محمد توفيق باشا توفي الى رجة الله في مساء اليوم السابع من هذا الشهر يعنى شهر يناير
 بقصره الخلواني اثر مرض لم يمهله سوى بضعة أيام واني بعواصلتكم بهذا المصاب الذي حل
 بالبلاد أتشرف بإبلاغ جنابكم أن الجناب الخديوي المعظم عباس حلى باشا قد تبوأ
 الأريكة الخديوية خلفا لساكن الجنان والده الفخيم طبقا للفرمانات الشاهانية العلية اه

وقد رثاه رجه الله وهنأ ولده العباس بالولاية العلامة الفهامة
 اسمعيل صبرى باشا وكيل نظارة المحقانية حالا فقال

نحن لله ما لحي بقاء وقصارى سوى الاله فناء
 نحن لله راجعون فمن ما ت ومن عاش ألف عام سواء
 يفرح المرء في الصباح وما يع لم ما ذا يكنه الامساء
 ومتاع الدنيا قليل وما يدا هو به المرء من حطام هباء
 زهد الناس في الحياة مالم روعتنا بهوله الانباء

قصر حلوان كنت أنضر قصر
 كنت ذا هيبة يحاذرها الدهر
 كيف أصبحت مستضاماً وللخط
 ما كذا عهدنا بعزلك ترمي
 كان بالامس في ذراك أبو العبد
 فطوت برده الخطوب وكانت
 ويح من شيعوه قد أودعوا القبر
 وارتضوا بالبكاء وما الحزن الا
 عاش فينا عذب البشاشة والاخذ
 وتولى وفي الصدور من الوجع
 عطلت مصر من سناء كما قد
 كل خطب في جنب خطبك يامص
 ما يقول الراثون في فقد توفى
 والرزايا في بعضها يطلق القو
 ان مولدك كان أحسن من تز
 كان للتاج فوق مفارقة ضو
 كان يجلودجى الكوارث ان حا
 كان أدري الملا بكسب ثناء
 آل توفيقى الكرام البسوا الصب
 أنتم الراسخون في علم ما كا
 أين قوم شادوا البلاد وسادو
 ملكوا الارض حقبة ثم أمسوا
 سنة الله في البرية لم يس
 لا أعزىكمو وأنى لقولى
 اجدوا الله في العنية والام
 ان يكن من سمائك خربدر
 فلقد أشرقت لآخر أنوا
 قد أرانا العباس بعد أبيه
 فاجتليناه طود مجد وسورا
 حبذا منه همة تترك الصع
 وثبات في طيه وثبات

فيه يحلو ويسقط الهواء
 ر وتكبو أمامها البأساء
 نب الى ركنك المنيع ارتقاء
 ه الليالى أو يعتريه انقضاء
 ساس تحيا يبشره الاحياء
 قبل تشقى ببعده وتساء
 ر كريما يبكى عليه العلاء
 أن تسميل القلوب والاحياء
 لاق تروى به النفوس الظماء
 د عليه ما ليس برويه ماء
 عطلت من حلها الحسناء
 ر يرجى للناس فيه عزاء
 ق وما ذا تحاول الشعراء
 ل وتعبا في بعضها البلغاء
 هى بأنوار وجهه البطحاء
 ع لديه تحقير الاضواء
 ت برأى تغضو له الآراء
 آه لو خلد النفوس ثناء
 ر رداء فالصبر نعم الرداء
 ن فقولوا من ذا عداة الفتاء
 ها وكانت تهواهم العلياء
 وهمو في بطونهم نزلأ
 تشن منها الملول والانباء
 أن تعزى بمثل الحكماء
 باح فالبسوس قد تلاء هناء
 ما حوت شبهه بدورا سماء
 ر بها يصعد الدجى وضياء
 كيف يلقى العظامم العظاماء
 دار منه حول البلاد بناء
 ب ذلولا وعزرة قعاء
 للمعالي وحكمة وإباء

وصفات عن كتبها يعجز الوصف وفيها يستغرق الاحصاء
دام يكسو الزمان حسنا ويسدى أنعماء لا يشوبهن انتهاء

ورثاه العلامة البحر الفهامة حفي بك ناصف القاضي بالمحاكم الاهلية حالا فقال

شقوا القلوب وغادروا الأوطا
ودعوا النفوس تصبها أجفانكم
ذوبوا من الاخران لا تبقوا على
قد فارق الدنيا العزيز محمد
خطب دوت في الخافقين رعوده
غشى الأنام ولم يكن متوقع
وأصمت الاسماع رنة وقعته
ودجا الزمان فكل نور حلقة
ناشدتكم يوم ارتحال محمد
هل تعلمون معمرا أو ناشئا
هل تعلمون معمرا أو ناشئا
أى امرئ لم يسفه يوم النوى
لا كان يوم سار فيه نعاته
هى ساعة راش القضاء سهامه
أودى فأى فريضة لم ترتعد
بدر عراه وهو فى استقباله
جلته أعناق الرجال وطالما
تركوه عمدا فى الظلام ولم يكن
سكن القبور وكم قصور شادها
ان فاق فى المجد الملول فانه
خلق كما سرت الشمال ورقة
وبديهة تقف الروية دونها
وعبارة تشفى الغليل ومنطق
وتسأول ينذر المعامى واضحا
خفق السماح عليه حتى انه
وذروا الدموع تفرح الأماقا
دمعا وتسكبها دما مهراقا
أكبادكم واستنفدوا الأرماقا
يا لهف نفسى من يطيق فراقا
فرزا وطبق نعيه الأفاقا
كالسحب صيفا أرسلت ابراقا
والحزن أولى الألسن استغلاقا
ونبا المكان فكل رحب ضاقا
من فى الرعية لم يود لحاقا
لم يوله نبأ الردى تصعاقا
لم يوسع الصبر الجميل طلاقا
كأسا من الروح المرير دهاقا
يلقون فى مهج الورى احراقا
فيها وحل بنا البلاء وحاقا
أم أى قلب لم يكن خفاقا
خسف وصادف فى الكال محاقا
بنواله قد طوق الاعناقا
يرضى الشموع لبيته إشراقا
وأوى الى غرف وحل طباقا
أربى عليهم فى العلى انفاقا
تحكى الشمول لطافة ومذاقا
والسمع يلقى عندها الأرواقا
بجماع المعنى يحيط نطاقا
وطلاقة تولى النهى الطلاقا
لم يخش طالب جوده اخفاقا

لا يهرب الاقلال بعد لقائه عاف ولا يتهيب الاملاقا
ان قيل عفو فهو بحر زاهر لا يعرف الجاني له أعماقا
طبع سجاياه عليه أما ترى في كل بادرة له مصداقا
أوقيل دين فهو حافظ عهده كم شد منه عرى ومد رباقا
أو قيل اصلاح فذلك صنعه في مصر أعتق أهلها اعتاقا
لدغت أفاعي الحاديات بينها دهرها فكان لسمها ترابا
رأب الصدوع بحكمة منه وقد ملئت طباق بلاد مصر شقا
وأقر فيها العدل بعد تززع والحق أولى أمره احقا
ونفى الضلال فما تصدى باطلا الا وأزهد روحه ازهاقا
أولى المعارف في البلاد عوارفا والعلم بعد ذوله ابرا
مهد الطريق لمن تقلد بعده وهدى السراة وفتح الانغلا
فسروا بنبراس الذكاء ليغضوا ممن تطلع نحوها أحدا
ما وفق الله امرأ في أمة الا وكان لنفعها منسا
ترت بين الدهر غيب في الثرى هذى الخصال وتلكم الأخلاقا
سبق الكرام الى النعيم وعهدنا فيه لكل عظمة سببا
وسرى الى الرب الرحيم ملاقيا بين الملائكة الكرام رفا
عن فضله حدث فطيب حديثه يشفى الحب ويطرب المشاقا
ياراحلا عنا تركت نفوسنا تشكو الهمى وتساور الاشواقا
لم يبق منا الحزن الا مهجة حرى والا مدمعا دفا
خطفتك خاطفة المنية فجأة منا وغادرت الجسم رقا
لم تنتثر شهب السماء ولم يطل مرض ولم يبد الغراب نعا
ويد الردى سرقك ليلا لتيهم حنوا بقطع يديهم السراقا
بحمالك حراس وحولك عسكر وصنوف أبهة فكيف أطا
إنا على الود الذى مكنته منا وعنه لا نحول فواقا
لا كان من ينسى الولاء لسيد يوما وينقض بعده المشاقا

وقال العلامة وهبى بيك ناظر المدارس القبطية على منوال العزاء والهناء

مهادل في حسن العزاء مهمل
وبدر علاك اليوم أسفروضه
وعادت بك العليا الى مصر راقيا
ودانت لك الاقدار حتى كأنها
وجدل ملحوظ به الكل يشهد
فأودى به ليل الأسى يتبدد
على الطائر الميمون والعود أجد
بأمره تشق من نشاء وتسعد

فوال بني الآمال واصدع بما تشا
وفوض الى الله الامور فانه
ومن عجب أن الحوادث جمعة
أساءت الى المعروف فبنا صروفها
وقد كان توفيق البلاد مملكا
تحلى به جيد الفضائل ناشئا
وساس شؤون الملك خير سياسة
فلا غرو أن ساء الأنام فراقه
ولما رقت شوقا الى الله روحه
تلافيت أمر القطر خوف تلافه
وجاءك مرسوم الخليفة مؤذنا
وآلت الى عليك في العز دولة
وها أنا أهديك الثناء مرجا
وأنشد يا مولاي فيه مؤزعا

سنة ١٣٠٩

رعاء إله العرش جسل ثناؤه
ولا زلت مشكور العناية دائما
وألهمك الصبر الذي ليس ينفد
وذكرك في تاريخ مصر مخلد

وقال أحد الأدباء ولم نقف على معرفة اسمه

من عادة الدهر بعد الحزن ايناس
يوماء يوم به اللهم قد مزجت
فاضرب عن الحزن صفحا واخسيرة
واستقبل الامر بالتعزير من ملك
وكن على الله فيما شئت معتمدا
بالجدة والجدة نلت الامر ذا شرف
وفي الوراثة معني عز مدركه
لله من خلف في القطر عن سلف
وأجمعوا الامر في تدبير ملكهم
هذا وعذراء فكري لا اخال معي
ولا لسان به أطرى ولا قلم

وما على الدهر في أفعاله باس
كأس ويوم هنا تصفوه به كأس
فهكذا الدهر ناس بعدهم ناس
في قطر مصر قأنت الروح والراس
تطب لعليالك بالتأيسد أنفاس
لا غرو ان أثمرت بالعز أغراس
وما به بعد هذا اليوم إلياس
سادوا الوري وعلى هام السها داسوا
وللرعية بالانصاف ككم ساسوا
بل مامعي لاشتداد الخطب احساس
يجري والضيق ذرعا ضاق قرطاس

وفضل والدك المرحوم لست له أنسى ولو ضمني بالموت أرماس
لازال في كرم الرحمن مسكنه جنات عدن بها الريحان والآس
ولا تزال لهذا القطر معتصما وأعين الله مهما كنت حراس
وهذه حكمة المولى مؤرخة توفيق مات وولى اليوم عباس
سنة ١٣٠٩

قلت ومن غريب الاتفاق أنه رحمه الله ولد في يوم نجس وتولى الخديوية المصرية
في يوم نجس ودخل القاهرة في موكبه بعد الفتنة العرابية في يوم نجس وتوفي الى
رحمة الله تعالى في يوم نجس فسبحان الله الأزلى الذى لا يموت سبحان مالك الملك
والمالكوت منه المبتدا واليه المنتهى وهو رب الآخرة والأولى وله ما سلب وما أعطى
وما أخذ وما أبقي ولا شك أنا جميعا في هذا السبيل نسعى وان الى ربك الرجعى

اللهم كما حدثك في المبدأ أحمدك في الختام وأشكرك على مر الأيام اللهم كما وفقني
للحق فأرض عني الخلق ووفقهم الى معذرتي والتجاوز عن عثرتي فاني أشفق أن
يكون عملي هذا عملا حابطا أو شغلا ساقطا اللهم انى معترف بأني لست من أهل ذلك
الشان ولا من خيل هذا الرهان ولكنى قد توكلت عليك سيدى فأعنتنى ولم
تكلفنى الى نفسى فلم أضل وأريتنى الغنى غيا فاجتنبته وأريتنى الهدى هدى فاتبعته
والوقت غير مساعد والمانع غير مباعد والفراغ متعسر وجمع الخاطر غير متيسر
لا سيما وقد أصبت في خلال العمل بما غلب على التجلد والصبر وقت في العضد والصدر
من فقد شقيق لى كان مرجعى في كل أمورى اليه ومعتمدى في سائر أعمالى وآمالى عليه
وحيدى الذى أورتنى فقدته جزعا وهلعا وسقما ووجعا وغما وهما وخزا لم تزل فى أحشائى
ناره وفي صدرى أواره فعندك اللهم أحسبه وأستمنحك أحسن الصبر فلك سيدى
الامر اللهم أنت تعلم أن بغية مرادى وغاية مرادى تعميم النفع بقدر اجتهادى فان
كنت قد أجرت اليراعة في هذه الغاية الى متهاها وبلغت النفس من هذه الأمانة مشتهاها
فذلك لى أجمع بين قديم الأيام وجديدها وأكفى المطلع مؤنة الرجوع الى قريب
الاخبار وبعيدها ليتم النفع بما ألفتها منها وصنفته بعد اعمال الفكرة واجهاد الفطرة
اللهم أنت تعلم أنى فعلت ما فعلت تقربا الى أبناء وطنى بخير ما لدى بعد معاناة الأحوال
في طوال الأحوال وما بي لطراء نفسى ولا تركية عملى فاني أكره المباهاة فوفقهم مولاي
الى أن يتقبلوه بالقبول والاقبال وهم فى كمال الأحوال كى أنال من عملى ما أتمناه وأفوز
من أملى فى وجهك سيدى بأسنه ولا حول ولا قوة الا بك فأنت حسبي وكفى

ديبت للجد والساعون قد بلغوا جهد النفوس وألقوا دونه الأزرا
لا تحسب المجد نرا أنت آكاه لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

الى هنا تم الجزء الرابع من الكافي وبه ختام الكتاب فاذا فصح الله لي في الأجل
ووفقتي الى شئ من العمل وأعانني على بلوغ الأمانى عنيت بجمع أخبار أيام صاحب
الولاية الحسنية والأريكة الحسنيوية (عباس باشا حلمى الثانى) ورتبت كما تستحق من
التسبيق والترتيب فانها جمعت أموراً عجيبه وحوادث غريبة وشؤوناً تستوقف الطرف
وتستدعى الاسهاب فى الوصف وكلها تشهد بأن الأمير « حرسه الله » وأبناؤه ما يتمناه
لم يقل قبل أن يعلم ولم يجب قبل أن يفهم ولم يعزم قبل أن يفكر ولم يقطع قبل
أن يقدر وهو مع ذلك بين عاملين شديدين وفريقين متقاربين متباعدين فكيف به اذا
قضى الله تعالى بنفاذ ما أراد وانقضت سحبه تلك المحن عن سماء هذه البلاد فزاده
الله نبلا وعزما وفضلا وحزما ووقاه من شرها حتى يطويها على غيرها
وما أحسن ما قيل

لأستسهلن الصعب أو أدرك المني فما انتقادت الآمال إلا لصابر

وقول آخر

فاصطبر وانتظر بلوغ الامانى فالرزايا اذا توالى تولى
واذا أوهنت قوائى وجلت كشفت عنك بجملة وتجت

اللهم هب لي مغفرة من لدنك وارحمي يا أرحم الراحمين

(تم)



﴿ يقول طه بن محمود قطريه رئيس التصحيح بالمطبعة الكبرى الاميريه ﴾

ان أحسن الحديث في القديم والحديث بعد التبين باسم الله تعالى حمد الله جل ثناؤه على نعم تنهل على عباده وتتوالى فالحمد لله القديم وجوده العام للخاص والعام كرمه وجوده الأول قبل كل شيء بلا بدايه الاخر بعد كل شيء بغير نهايه المنزه عن أن يؤرخ بزمان أو يسئل عنه أين كان ومتى كان كيف وهو الذي خلق الزمان والمكان نحمده أن جعلنا خلفا للأولين وقص لنا عنهم أحسن القصص في كتابه المبين وحدثنا عن ماضي بما فيه من دجر من الانبياء فكان لنا قدوة حسنة فبين أحسن منهم وعبرة بينة عن أساء ونصلي ونسلم على نبي الرحمة وهادي الامه أول الانبياء موجودا وآخرهم مولودا وعلى سائر النبيين والمرسلين ومن اقتفى أثرهم وسلك سبيل المهتدين

أما بعد فان من حسن البحث وصفاء الوقت للمصريين عامة وطلاب التاريخ خاصة طبع هذا الكتاب الجليل الذي لم تسمح الأيام له في بابيه بمثل المسمى بالكافي في تاريخ مصر القديم والحديث تأليف حضرة الفاضل السرى الوجيه الكامل صاحب العزة « ميخائيل بك شارو بيم » مدير الأملاك الميرية بنظارة المالية حالا بلغه الله آماله وأكثر في فضلاء المصريين أمثاله شمر حفظه الله عن ساعد الجسد والاهتمام وقام بتأليف هذا التاريخ أحسن قيام جاء كتابا بأحوال مصر وما جرياتها حافلا وبشرح حال ملوكها وأمرائها وعادات أهلها وما كانوا عليه محيطا كافلا وبسط الكلام على سياسة ملوكها في كل زمان من عهد القدماء ثم من بعدهم دولة بعد دولة الى الآن أغنى سنة ١٣٠٩ هجرية التي انتقل فيها الى الدار الباقية المرحوم محمد توفيق باشا خديو مصر السابق عليه الرحمة والرضوان فله در هذا المؤلف من همام خدم الوطن بهذا العمل الجليل والصنيع الحسن الذي قلده به الاعناق أعظم المنن فلا غرو ان افتخرت به مصر على سائر الامصار وكانت به القاهرة قاهرة لغيرها من الديار فلقد شيد لها حفظه الله ذكرا وشرح لأبنائها صدرا ورفع لهم قدرا فما من المصريين أحد إلا وهو في حاجة الى تحصيله واضطرار الى الوقوف على اجماله وتفصيله ليعرف نعمة الله عليه في هذا القطر السعيد المغمور بهذا النهر الذي يغار منه البحر الطويل المديد هذا القطر الذي كم شدت اليه الرجال وتناولت اليه أعناق الرجال وخيضت فيه لجج المعاطب والأهوال وأجاد في وصفه من قال

ان مصرا لأطيب الارض عندي ليس في حسنها البديع التباس
واذا قسمتها بأرض سواها كان بيني وبينك المقياس

ومن قال

ما مصر إلا منزل مستحسن فاستوطنوه مشرقا أو مغربا
هذا وان كنتم على سفر به فقيموا منه صعيدا طيبا

وبالجملة فهو تاريخ وحيد وعقد في فن التاريخ فريد جاء كلمه كافيا وللداء العضال شافيا وكان لنا دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على فضل هذا العلم المعلوم وعظيم شأنه بين العلوم كما اتفقت عليه الكلمة وأصبح من القضايا المسلمة

ليس بانسان ولا عالم من لم يع التاريخ في صدره
ومن درى أحوال من قد مضى أضاف أعمارا الى عمره

قد سلك المؤلف حفظه الله في كتابه سبيل الاحتياط والتحرى التام نجاء بالأحوال والماجريات والمقاصد السياسية فضلا عن الاخبار من مصادر الصدق الموثوق بها وهذه هي الطريق القويم التي أفلح من تمسك من المؤرخين بسبيلها وتأدب بأدبها

الصدق أوفى خليل إن ظفرت به يغنيك عن جمع اخوان وأحلاف
ومن أراد بأنباء الذين مضوا علما وصدق حديث يكفه الكافي

هذا وقد ضاعف المؤلف حفظه الله احسانه فقام بطبعه على نفقته
وباشر تصحيحه واتقانه بطبعة بولاق الأميرية في عهد الدولة
الفخيمة الخديوية العباسية أطال الله أمدها وأسبغ
نلالها وألهم العدل والاصلاح رجالها وتم طبعه

المنير في أوائل رجب سنة ١٣٣٣

من هجرة البشير النذير عليه

الصلاة والسلام وعلى آله

الكرام وأصحابه

بدور التمام

(ولما آذن طبعه بالتمام قرطه حضرات الادباء الفضلاء أرباب الاقلام)

كتب في ذلك العلامة البحر الفهامة صاحب السعادة
اسماعيل صبرى باشا وكيل نظارة المحقانية الجميلة حالا
يخاطب حضرة المؤلف فقال

قرأت كتاب الكافي ووقفت من تحريك الوقائع المدونة فيه وابرزك اياها لمحج التاريخ
على مبلغ الاتعاب التي تجتهد في تأليفه بخفاء وله نصيب من اسمه كافيا وافيا بخبر عن
أحوال القرون الماضية بأفصح عبارة فأثنت على واضعه مع المشين وأعجبت به مع
المعجبين كيف لا وقد اشتمل على فوائد كل الناس في الانتفاع منها سواء وان اختلفت
منهم المشارب والاهواء يقرأ فيه الامراء كيف تحاظ الممالك ويسلك أقوم المسالك وتجد
فيه قادة الملل كيف تعلو الدولات وتصح السياسات ويتعلم منه من دونهم كيف تتضافر
الأمم وتتعاقد الهمم للوصول الى السعادة ضالة كل مجتمع انساني إن الشاعر اذا أجاد
في شعره قيل له أجدت والنائر اذا أحسن في نثره قيل له أحسنت والحكيم بصيب
كبد الحقيقة يهنا بأصبت والمؤرخ يتحرى الصدق في تحرير وقائع التاريخ يقال له صدقت
أما أنا وقد اطلعت على كافيك وعرفت ما تحمله من العناء في جمعه وتنسيقه وترصيفه فاني
أهنيك بقولي لك أجدت وأحسنت وأصبت وصدق

وقرطه العلامة المفضل صاحب العزّة وهبي بك
ناظر المدارس القبطيّة قال

بسم الله الرحمن الرحيم

ما صدحت جمائم البيان للدلالة عما في الجنان بأوجب من حمد الله القديم ولا ترنحت
عذبات البيان بأطرب من صلاة الملك المنان على كل رسول كريم فالحمد لله أجرى أعنة
الأقدار بما تتضائل عنه أفكار الحكماء ولم يعزب عن علمه وهو الفاعل المختار مثقال
ذرة في الأرض ولا في السماء

﴿أما بعد﴾ فان التاريخ على ما بين دفتيه من خصائص حسان ألحق أدناها بأقصاها لم يغادر
من شؤون بني الانسان صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وحسبنا شاهداً على ذلك ما أودعه
تاريخ مصر من آثار مملوك وخلفاء سالت بأعناق مطيها أباطح الكلام وكادت تتقلب بها رياح
العفاء في غصون الجاهلية والاسلام فلا غرو إن جاس خلال ديارها فريق من العلماء علقوا
بأذيال التنقيب عن آثار القدماء فدقوا في وصفها كما فعل عبد اللطيف البغدادي العالم
الطيب من الحوادث والأخبار ماحقه أن يتخذه اللبيب كتاب إفادة واعتبار وإن للأفرنج
في تجميع تاريخها القديم استقراء لا يتأتى لكل محسان ولا يقدره كل من أقلته الغبراء وأطلته
الخضراء من أبناء هذا اللسان فأحربنا أن نطاول كل ذى استئثار بجزايا هذا البلد
الأمين وما شاده فيه السلف الصالح من الآثار الباقية في العالمين ولقد ألمّ العالم الفاضل
صاحب العزّة ميخائيل بك شاروبيم في مؤلفه هذا كل الامام بما رق وراق وتناولته يد المريد
على طرف النمام من ثمرات الاوراق فهو عقد فريد اندجت فيه الحوادث كأنها اللؤلؤ
والمرجان أوجنة كثيرة الاغاريد بها من كل فاكهة زوجان فلو أنه تداولته الايدي في
العهد الذي غبر عهد ابن خلدون لقوم ما أورده في ديوان المبتدا والخبر بالدون أو مثله العيان
لا بن خلكان لألحق وفيات الاعيان بنخبر كان فله دتر مؤلفه أتحف ذوى الألباب بما تأخذ
بجماع الافئدة حلاه واستخلص في تاريخ مصر القشر من اللباب ومصر كناية الله في أرض
الله فيما أبها الأريب الذي أصاب مرعى السداد وأماط اللثام عن كل غريب من ما أثر
الآباء والأجداد لقد سحرتنا بآياتك بعد أن ألقينا عصا لاذعان والتسليم ومحوت سياآت
الزمان بحسناتك وفوق كل ذى علم عليم لا زلت تستدرج في أى غرض تتوخاه ما بهراً
بقلائد العقيان على لبات الغواني ونصيب مؤلفك في الاستغنى عما سواه نصيب الاعاني
لابي الفرج الاصهاني ان الله على ما يشاء قدير وباجابة هذا الدعاء جدير

وقرظه أيضا الكاتب الفاضل والتحرير الكامل صاحب
العزة جرجس بك حنين أحد مديري الاموال المقررة بنظارة
المالية حالا مخاطبا محضرة المؤلف فقال

لقد طالعت يا أبا الفضل تأليفك «الكافي» في التاريخ وأمعنت النظر فيما احتواه
وجئت بهذا لأؤذي لجنابك واجب التهئة على ما توفقت اليه من أحاسن التأليف
والتصنيف التي بها أكسبت علم التاريخ مجدا وفخرا وخلدت لاسمك السعيد على مر الدهور
كرامة وذكرا ۞ نعم تحق التهانى فكذلك باناصر الأدب له قيمة عظيمة ومنزلة رفيعة بين
المؤلفات العربية اذ ليس هو مجرد أقاصيص وأخبار أو مجموع روايات وأسماء بل هو
ميدان تمتلئ فيه مشاهد العالم بأدق مظاهرها يرى الناظر فيه مشهد نشأة الخلق وأدوار
تكوينه يرى أيضا دولابا عظيما جدا تديره يد العناية الالهية على سلاسل نظامية
طبيعية ينشأ من احتكاكها تولد الحوادث العمرانية والتقلبات المدهشة العصرية من قيام
الممالك والأمم والشعوب ونهوضها وارتقائها بعد الانحطاط أو ذبولها بعد الایناع وانحلالها
بعد الارتباط وغير ذلك من مجتمعات الأضداد التي بها تمثل حقائق أحوال الأمم وبلدانهم
ورسومهم وعاداتهم وأخلاقهم وتربيتهم وعلومهم وآدابهم ولغاتهم وصنائعهم وأنسابهم
وأفرادهم ومن قام منهم من الأنبياء والأولياء والملوك والقواد والعلماء والحكماء والكتاب
والخطباء والشعراء وغيرهم من أبطال العصور

التاريخ الصادق هو أعدل شاهد على درجات العصور في الحضارة والمدنية بل هو حياة
الذكرى بل هو رسول القدم لمن يشاء الاقتداء بفضائل السلف من أمور الدين والدنيا
وكيف لا يكون كتابك أيها السيد من أصدق التواريخ وقد عرف القاصي والداني عن
شمائلك من شهامة في الأخلاق وطيب في الأعراق وفلم سيال ولسان قوال وربحان في
البرهان واقتدار في البيان وسلامة في الذوق ودقة نظر في الترتيب وجميل وضع في
الأساليب وحسن اختيار في الألفاظ الرقيقة ولطف صنع للعاني الرشيق وغير ذلك من
الخصائص الغراء والشميم الشماء التي أكسبت الكتاب طلاوة فوق طلاوته وجذبت
النفوس لتلاوته والاعتماد على صحة روايته ۞ وكيف لا يتخذ كتابك حجة يرجع اليه
ويعول عليه وقد توفرت فيه ثمرات الاعتماد الخمس وهي

(أولاً) اعتبار الينابيع المستمد مواده منها (ثانياً) صفاؤه من شبه الغرض وابتعاده
 عن هوى التعصب في المدح أو الهجاء (ثالثاً) جلاء عباراته ودقتها وخلوها من التطويل
 الممل (رابعاً) تجرده عن الخرافات والترهات التي لا يحتملها العقل ولا يقبلها الذوق السليم
 (خامساً) تجرده من التمويه والتلبيس والمصانعة التي يراد بها التزلف لأصحاب المراتب السامية
 ولا يقف بي القلم عند هذا الحد في وصف هذا الكتاب الجليل الشأن لأنك قد زدته بهجة
 وغلاء بما أوردته فيه من تقرير الحوادث التي عاصرتها بنفسك والمعلومات الواسعة التي
 لجنابك في الوقائع السياسية أثناء الثلث الأخير من القرن التاسع عشر واعتمادك فيما عدا
 ذلك على أقوال صفوة المؤرخين والكتاب - وأخيراً فاني أكرر لك التهنية وأرجو الله أن
 ينفع البلاد بعلمك وقلمك وأن يوفقك لكل خير

(فهرست الجزء الرابع من الكافي)

صفحة	
٢	وصل في ترجمة محمد علي باشا
٥	» فيما وقع في أيامه من الحوادث والأنباء الى ولاية ولده الأمير ابراهيم
٢٢	الفصل العشرون في سلطنة السلطان مصطفى الرابع ابن السلطان عبد المجيد
٢٣	الفصل الحادى والعشرون في سلطنة السلطان محمود الثانى ابن السلطان عبد المجيد
٤٢	وصية بطرس الأكبر قيصر الروس
٨٠	الفصل الثانى والعشرون في سلطنة السلطان عبد المجيد خان ابن السلطان محمود خان
٩٥	مطلب ولاية الأمير ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا
٩٩	» ولاية الأمير عباس باشا الأول ابن الأمير طوسن باشا
١١٠	» ولاية محمد سعيد باشا ابن ساكن الجنان الحاج محمد علي باشا الكبير
١٣٥	الفصل الثالث والعشرون في خلافة السلطان عبد العزيز بن السلطان محمود خان
١٣٧	مطلب ولاية اسمعيل باشا ابن ابراهيم باشا ابن محمد علي باشا
١٧٧	الفصل الرابع والعشرون في سلطنة السلطان مراد ابن السلطان عبد المجيد خان
١٧٩	الفصل الخامس والعشرون في سلطنة السلطان عبد المجيد بن السلطان عبد المجيد
٢١٥	مطلب ولاية الخديوى محمد توفيق باشا
٣٦٠	وصل فيما كان من وراء احتلال الجيوش الانجليزية لأرض الكنانة
٣٧٥	» فيما كان من دهاء رجال سياسة الانجليز على عهد الخديوى اسمعيل
٣٨٨	» في ظهور الفتنة بالسودان الشرقى
٣٩١	» في هزيمة أخرى وكسرة كبرى
٣٩٨	» في سقوط أمدرمان والخرطوم وما جرى بعده ذلك

صفحة

٤١١ وصل في حركته بعد أخرى

» ٤٢٣ في امال وفرض احتمال

» ٤٤٥ في ارباب وانقلاب

(تمت)

(تصويب ما في هذا الجزء من الخطا)

صواب	خطأ	سطر	صحيفه
هذه	هذا	٧	٢
هذه	هذا	٣	٣
الى الباب	اليه	٢٢	٤
النقيب	انقيب	٢٣	٥
منهم	منه	٢٧	٥
هذه	هذا	٠٨	٧
الحوف	الحرف	١٢	٧
واستوثق	واستوق	٠٧	١٢
والاختيارية	والاختباريه	٩	١٢
وخطفوا	وخطعوا	٠٢	١٩
غير ذلك	وغير ذلك	٣	١٩
هذه	هذا	٢٨	٢٧
وعقد لابنه الامير طوسن لواء	وعقد لابنه لواء الامير طوسن	١٣	٣٠
ساف	سيف	٣٠	٤٠
خليفة رسول رب العالمين	خليفة رب العالمين	١٠	٥٧
فأنت	فأنت	١٥	٥٨
المواربة	من المواربه	٣١	٦٢
النار	الار	٠٢	٦٧
من	في	٠٥	٧١
فتكون	تكون	١٢	٨٠
سفيرا	سفير	١٦	٨٠
نايير	محمد علي باشا	٢٣	٨٦
تخول	يخول	٠٣	٨٨
كتابة	كاية	٢٣	٩٠
خدمة	وخدمة	٠٩	٩٣
معاودته	معاودته	٠٦	٩٤
ساف	سيف	٢٤	٩٦

صواب	خطأ	سطر	صحيفه
ساق	سيف	٢٧	٩٦
ساق	سيف	٠٤	٩٧
ساق	سيف	١٤	٩٧
قد جعلت	بجعلت	٠٥	١٠٠
مما	ما	٠٧	١٠٠
الانكليز	الانكليزية	١٢	١٠٣
رحي	رحي	٢٦	١٠٤
الذهب	بالذهب	١٢	١١٠
الاحداثات	الاحداثات	١٥	١١١
ينثن	ينثن	٣٠	١١٣
أنبياء	أبناء	١٨	١٢٠
بخالوها	بخالوها	٢٨	١٢٠
فلما	ولما	٠٣	١٢٤
رسامة	اقامة	٠٥	١٢٩
هذه	هذا	١٦	١٣٢
في ذلك اليوم	في ذلك	١٨	١٣٦
فيها	بها	٤٠	١٣٦
تركوها	وتركوها	٠١	١٣٧
دير فيو	دير فورا	١٠	١٣٨
والمقربين	والمقربين	١١	١٤٤
هذه	هذا	٢٥	١٤٤
وهؤلاء النواب	ونواب الامة	٠٨	١٤٥
النواب	لنواب الامة	١١	١٤٥
واهداهم	وأهدى لهم	١٦	١٤٥
وانشأ كذلك معامل	ومعامل	٠١	١٤٦
على	في	٠٧	١٥٠
هذه	هذا	٠٩	١٥٠
يجفل به	يهتم له	٢٢	١٦١
ملائمة	ملائمة	١٧	١٦٢

صواب	خطأ	سطر	صحيفه
هو	وهو	٢٦	١٦٣
ومن	من	٢٦	١٦٣
وتضبت	وتضب	١٨	١٦٤
فطلب	فطالب	٢٤	١٦٤
ديونهم	بديونهم	٢٤	١٦٤
فأمرأ	وأمرأ	٠٧	١٦٧
فاركبوه	وركب	٢٣	١٦٩
أرادا	أراد	٠٧	١٧٣
رومانيا	دونيا	٣١	١٩٥
ثم	فقد	١٣	١٩٦
الكثير	لكثير	٣١	١٩٦
فتحركت	فتحرك	٢٤	٢٠٥
تفنيذ تلك الاحكام	تفنيذ الاحكام	٢٥	٢٠٥
ولا	على	٢٣	٢٠٦
لا سبيل الى الاصلاح الابتصفيه	لا سبيل الا الى التصفيه	٢٧	٢٠٧
واختصوا	وخصتهم	١٥	٢٠٨
ولم تقف الدولتان عند	ولم تقفا عند	١٦	٢٠٨
سفيرا	سفرا	١٧	٢١١
بظهر	يظهر	٢٠	٢١١
الشهامة	الحية	٠٢	٢١٢
وطيروا	وطير	٠٧	٢١٣
يعتقد	يعتبر	٠٦	٢٢١
ان	ان	٠٦	٢٢١
فعال	مقال	٠٧	٢٢٣
يعفوله	يعفر	٠٤	٢٢٤
هيئة الوزراء	هيئة مجلس الوزراء	٠٣	٢٣٠
في الامر فطال	في الامر طويلا	٠٤	٢٣٠
لترتب	من ترتيب	٢٠	٢٣٠
العفو والسماح	والعفو السماح	٠٥	٢٣٣

صواب	خطأ	سطر	صفحة
على التوقيع	للتوقيع	١٨	٢٣٤
فاجتمعوا	واجتمعوا	٣٠	٢٣٤
ذو	ذو	٠٩	٢٣٧
أحدهم	أحد	٠٣	٢٣٨
فكانوا إذا مروا	فاذا مروا	١٨	٢٣٨
لم يتيسر	ثم تيسر	١٢	٢٦٥
الى	على	٢٨	٢٦٨
يساره أيضا ويتلطف	يتساره ويتلطف	١٦	٢٧٣
المرأة	الحرمة	٣٠	٢٨٩
سار الى السودان	سير به	٢٠	٢٩٩
فكانوا	فكان	٠٩	٢٩٢
عشرى	عشرون	١٥	٢٩٧
على	الى	٢٥	٢٩٩
مشامهم	مشانهم	١٤	٣٠٤
وباتوا	وبالوا	٢١	٣١٦
ذلك	هذا	٠٩	٣٣١
من	عن	١٠	٣٣٨
قونصل جنرالهم الذى تولى بدلا من مالت	قد فعل جنرالهم	١٨	٣٧٢
الذى خلعه بعد أن مهد لهم سبل الاحتلال			
يعانيه	يعانيه	٣١	٣٧٧
كانت	قد كانت	١٨	٤١٢
لقومه	عند قومه	٢٠	٤٢٩
لمستقبل	للمستقبل	٢٩	٤٤٩
وكبسوا	ولبسوا	٠١	٤٥٥
حسين	حسن	٠٢	٤٥٩
للسير بارنج	للسير	٢٤	٤٧٢

(تمت)

مركز الوثائق والبحوث



30018000012293

المكتبة

